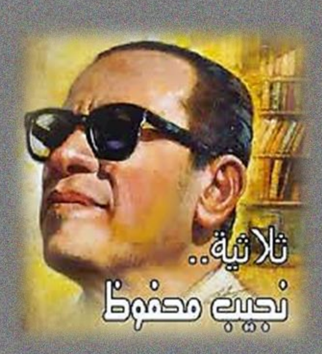
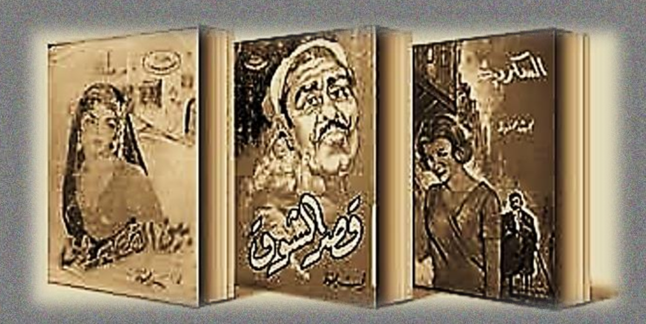




اعداد : علي مولا

a




بين القصرين

١

عنـد منتصف الليل استيقـظت، كما اعتـادت أن تستيقظ في هٰذا الوقت من كلّ ليلة بلا استعـانة من منبّه أو غيره ولٰكن بإيحاء من الرغبة التي تبيت عليها فتواظب على إيقاظها في دقّة وأمانـة. وظلّت لحظات على شكٍّ من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الإحساس، حتّى بادرها القلق الذي يلمّ بها قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها فهزّت رأسها هـزّة خفيفة فتحت عينيهـا على ظـلام الحجرة الدامس. لم يكن ثَمّة علامة تستدلّ بها على الوقت، فالـطريق تحت حجرتهـا لا ينام حتّى مـطلع الفجـر، والأصوات المتقـطّعة التي تـترامى إليها أوّل الليل من سُمّار المقاهي وأصحاب الحوانيت هي التي تترامى عند منتصفه وإلى ما قبيل الفجر، فـلا دليل تطمئنّ إليه إلّا إحساسها الباطن ـ كأنّه عقرب ساعة واعٍ ـ وما يشمل البيت من صمت ينمّ عن أنّ بعلها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلّمه.

هي العادة التي توقظها في هٰذه الساعة، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولا تزال تستأثر بكهولتها، تلقّنتهـا فيـما تلقّنت من آداب الحيـاة الـزوجيّـة، أن تستيقظ في منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهـرته فتقـوم على خـدمتـه حتّى ينام. وجلست في الفـراش بلا تـردّد لتتغلّب على إغـراء النوم الـدافئ وبَسْملَت ثمّ انـزلقت من تحت الـغـطاء إلى أرض الحجـرة، ومضت تتلمّس الطريق عـلى هدي عمـود السريـر وضلفة الشبّـاك حتّى بلغت الباب ففتحتـه، فانساب إلى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح قائم على الكونصول في الصالة، فدلفت منه وحملتـه وعادت به إلى الحجرة وهو يعكس عـلى السقف من فوّهة زجاجته دائرة مهتزّة من الضوء الشاحب تحفّ به حاشية من الظلال، ثمّ وضعته على خوان قائم بإزاء الكنبة. وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتها المربّعة الـواسعة وجـدرانها العاليـة وسقفهـا بعُمُـده الأفقيّـة المتـوازية، إلّا أنّها لاحت كـريمـة الأثـاث ببسـاطهـا الشيرازيّ وفراشها الكبير ذي العُمُد النحاسيّة الأربعة والصوان الضخم والكنبة الطويلة المغطّاة بسجّاد صغير المقـطع مختلف النقوش والألـوان. واتّجهت المرأة إلى المرآة وألقت على صورتها نظرة فرأت منـديل رأسهـا البنّيّ منكمشًـا متراجعًا وقـد تشعّثت خصـلات من شعرها الكستنائيّ فوق الجبين، فمدّت أصـابعها إلى عقدته فحلّتها وسوّته على شعرها وعقدت طرفيـه في أناة وعناية، ومسحت براحتيها على صفحتي وجههـا كأنّما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم. كانت في الأربعين متوسّطة القامة، تبدو كالنحيفة ولٰكنّ جسمها بضّ ممتلئ في حدوده الضيّقة لطيف التنسيق والتبويب. أمّـا وجهها فـمائـل إلى الـطول مـرتفـع الجبـين دقيق القسمات، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسليّـة حالمـة، وأنف صغير دقيق يتّسـع قليلًا عنـد فتحتيه، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبّب، وبشرة قمحيّة صافية تلوح عند موضع الـوجنة منهـا شـامة سـوادها عميق نقيّ. وقـد بدت وهي تتلفّـع بخـمارها كـالمتعجّلة. واتّجهت صوب بـاب المشربيّـة ففتحتـه ودخلت، ثمّ وقفت في قفصهـا المغلق تـردّد وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التي تملأ أضلافها المغلقة إلى الطريق.

كـانت المشربيّة تقـع أمام سبيـل بـين القصرين، ويلتقي تحتها شارع النحّاسين الذي ينحدر إلى الجنوب

وبين القصرين الذي يصعد إلى الشمال، فبدا الطريق إلى يسارها ضيّقًا ملتويًا متلفّعًا بظلمة تكثّف في أعاليه حيث تطلّ نوافذ البيوت النائمة، وتخفّ في أسافله ممّا يُلقى إليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبّات المقاهي وبعض الحوانيت التي تواصل السهر حتّى مطلع الفجر، وإلى يمينها التفّ الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهي، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التي تغلق أبوابها مبكّرًا، فلا يلفت النظر به إلّا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المَرَدَة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة. منظر ألِفتْه منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنّها لم تسأمه، ولعلّها لم تدرِ ما السأم طوال حياتها على رتابتها، وعلى العكس وجدت فيه أنيسًا لوحشتها وأليفًا لوحدتها عهدًا طويلًا عاشته وكأنّه لا أنيس ولا أليف لها.

كان ذٰلك قبل أن يأتي الأبناء إلى هٰذا الوجود، فلم يكن يحوي هٰذا البيت الكبير ـ بفنائه التُرِب وبئره العميقة وطابقيه وحجراته الواسعة العالية الأسقُف ـ سواها، أكثر النهار والليل. وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها، فسرعان ما وجدت نفسها، عقب وفاة حماتها وسيّدها الكبير ربّة للبيت الكبير، تعاونها على أمره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام في حجرة الفرن بالفناء تاركة إيّاها وحيدة في دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتّى يعود الزوج العتيد من سهرة طويلة.

ولكي يطمئنّ قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مادّة يدها بالمصباح أمامها فتلقي في أركانها نظرات متفحّصة خائفة ثمّ تغلقها بإحكام، واحدة بعد أخرى، مبتدئة بالطابق الأوّل مُثنّية بالطابق الأعلى، وهي تتلو ما تحفظ من سوَر القرآن دفعًا للشياطين، ثمّ تنتهي إلى حجرتها فتغلق بابها وتندسّ في الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتّى يغلبها النوم، ولَشدّ ما كانت تخاف الليل في عهدها الأوّل بهٰذا البيت، فلم يغب عنها ـ هي التي عرفت عن عالم الجنّ أضعاف ما تعرفه عن عالم الإنس ـ أنّها لا تعيش وحدها في البيت الكبير، وأنّ الشياطين لا يمكن أنْ تضلّ طويلًا عن هٰذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية، ولعلّها أوت إليها قبل أنْ تُحمل هي إلى البيت، بل قبل أن ترى نور الدنيا، فكم دبَّ إلى أذنيها همساتهم! وكم استيقظت على لفحات من أنفاسهم، وما من مغيث إلّا أنْ تتلو الفاتحة والصمديّة أو أنْ تهرع إلى المشربيّة فتمدّ بصرها الزائغ من ثقوبها إلى أنوار العربات والمقاهي وترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تستردّ بها أنفاسها.

ثمّ جاء الأبناء تباعًا ولٰكنّهم كانوا أوّل عهدهم بالدنيا لحمًا طريًّا لا يبدّد خوفًا ولا يطمئن جانبًا، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار في نفسها المتهافتة من إشفاق عليهم وجزع أنْ يمسّهم سوء، فكانت تحويهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في اليقظة والمنام بدرع من السور والأحجبة والرقا والتعاويذ، أمّا الطمأنينة الحقّة فلم تكن لتذوقها حتّى يعود الغائب من سهرته. ولم يكن غريبًا وهي منفردة بطفلها تنوّمه وتلاطفه، أنْ تضمّه إلى صدرها فجأة ثمّ تتنصّت في وجل وانزعاج ثمّ يعلو صوتها هاتفة وكأنّها تخاطب شخصًا حاضرًا: «أبعد عنّا، ليس هٰذا مقامك، نحن قوم مسلمون موحّدون» ثمّ تتلو الصمديّة في عجلة ولهوجة. وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدّم الزمن تخفّفت من مخاوفها كثيرًا واطمأنّت لدرجةٍ إلى دعاباتهم التي لم تجرّ عليها سوءًا قطّ فكانت إذا ترامى إليها حسّ طائف منهم قالت في نبرات لا تخلو من دالّة: «ألا تحترم عباد الرحمٰن! . الله بيننا وبينك فاذهب عنّا مكرّمًا». ولٰكنّها لم تكن تعرف الطمأنينة الحقّة حتّى يعود الغائب، أجل كان مجرّد وجوده بالبيت ـ صاحيًا أو نائمًا ـ كفيلًا ببثّ السلام في نفسها، فتحت الأبواب أم أغلقت، اشتعل المصباح أم خمد. وقد خطر لها مرّة، في العام الأوّل من معاشرته، أنْ تعلن نوعًا من الاعتراض المؤدّب على سهره المتواصل فما كان منه إلّا أنْ أمسك بأذنيها وقال لها بصوته الجهوريّ في لهجة حازمة: «أنا رجل، الآمر الناهي، لا أقبل على سلوكي أيّة ملاحظة، وما عليك

إلّا الطاعة، فحاذري أنْ تدفعيني إلى تأديبك»، فتعلّمت من هٰذا الدرس وغيره ممّا لحق به أنّها تطيق كلّ شيء ـ حتّى معاشرة العفاريت ـ إلّا أن يحمّر لها عين الغضب، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط، وقد أطاعت، وتفانت في الطاعة حتّى كرهت أن تلومه على سهره ولو في سرّها، ووقر في نفسها أنّ الرجولة الحقّة والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد، ثمّ انقلبت مع الأيّام تباهي بما يصدر عنه سواء ما يسرّها أو يحزنها، وظلّت على جميع الأحوال الزوجة المحبّة المطيعة المستسلمة، ولم تأسف يومًا على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم، وإنّها لتستعيد ذكريات حياتها في أيّ وقت تشاء فلا يطالعها إلّا الخير والغبطة، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تستحقّ إلّا ابتسامة رثاء. ألَمْ تعاشر هٰذا الزوج بعلّاته ربع قرن من الزمان فجنت من معاشرته أبناء هم قرّة عينيها وبيتًا مترعًا بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة.. بلى، أمّا مخالطة العفاريت فقد مرّت كما تمرّ كلّ ليلة بسلام وما امتدّت يد احدهم إليها أو إلى أحد من أبنائها بسوء اللّهمّ إلّا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه، فلا وجه للشكوى، ولٰكن الحمد كلّ الحمد لله الذي بكلامه اطمأنّ قلبها وبرحمته استقامت حياتها.

حتّى ساعة الانتظار هٰذه، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهي بزوال النهار، أحبّتها من أعماق قلبها، فضلًا عن أنّها استحالت جزءًا لا يتجزّأ من حياتها، ومازجت الكثير من ذكرياتها، فإنّها كانت ولم تزل الرمز الحيّ لحدبها على بعلها وتفانيها في إسعاده، وإشعاره ليلة بعد أخرى بهٰذا التفاني وذاك الحدب. لهٰذا امتلأت ارتياحًا وهي واقفة في المشربيّة، وراحت تنقّل بصرها خلال ثقوبها مرّة إلى سبيل بين القصرين ومرّة إلى منعطف الخرنفش وأخرى إلى بوّابة حمّام السلطان ورابعة إلى المآذن، أو تسرّحه بين البيوت المتكاكئة على جانبي الطريق في غير تناسق كأنّها طابور من الجند في وقفة راحة تخفّف فيها من قسوة النظام. وابتسمت للمنظر الذي تحبّه. هٰذا الطريق الذي تنام الطرق والحواري والأزقّة ويبقى ساهرًا حتّى مطلع الفجر، فكم سلّى أرقها وآنس وحشتها وبدّد مخاوفها لا يغيّر الليل منه إلّا أنْ يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيّئ لأصواته جوًّا تعلو فيه وتوضح كأنّه الظلال التي تملأ أركان اللوحة فتضفي على الصورة عمقًا وجلاء، لهٰذا ترنّ الضحكة فيه فكأنّها تنطلق في حجرتها، ويسمع الكلام العاديّ فتميّزه كلمة كلمة، ويمتدّ السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتّى خاتمته التي تشبه الأنين، ويرتفع صوت النادل وهو ينادي: «تعميرة نادية» كهتاف المؤذّن فتقول لنفسها في سرور: «لله هٰؤلاء الناس.. حتّى هٰذه الساعة يطلبون مزيدًا من التعميرة»، ثمّ تذكر بهمّ زوجها الغائب فتقول: «تُرى أين يكون سيّدي الآن؟... وماذا يفعل؟... فلتصحبْه السلامة في الحِلّ والترحال». أجل قيل لها مرّة إنّ رجلًا كالسيّد أحمد عبد الجواد في يساره وقوّته وجماله ـ مع سهره المتواصل ـ لا يمكن أنْ تخلو حياته من نساء. يومها تسمّمت بالغيرة وركبها حزن شديد، ولـمّا لم تواتها شجاعتها على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها إلى أمّها، فجعلت الأمّ تسكّن من خاطرها بما وسعها من حلو الكلام، ثمّ قالت لها: «لقد تزوّجك بعد أن طلّق زوجته الأولى، وكان بوسعه أن يستردّها لو شاء، أو أنْ يتزوّج ثانية وثالثة ورابعة، وقد كان أبوه مزواجًا، فاحمدي ربّنا على أنّه أبقاك زوجة وحيدة». ولو أنّ حديث أمّها لم يُجْدِ مع حزنها وقت اشتداده إلّا أنّها مع الأيّام سلّمت بما فيه من حقّ ووجاهة، فليكن ما قيل لها حقًّا فلعلّه من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد، وشرّ على أيّ حال خير من شرور كثيرة، وليس من الهيّن أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيّبة المليئة بالهناء والرغد، ثمّ لعلّ ما قيل بعد هٰذا كلّه أن يكون وهمًا أو كذبًا. ووجدت أنّ موقفها من الغيرة، شأنها حيال المتاعب التي تعترض سبيل حياتها، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئًا، فلم تهْتدِ إلى وسيلة في مقاومتها إلّا أن تنادي الصبر وتستعدي مناعتها

الشخصيّة، ملاذها الأوحد في مغالبة ما تكره، فانقلبت الغيرة وأسبابها، كطباع زوجها الأخرى وكمعاشرة العفاريت، ممّا تحتمل.

جعلت تنظر إلى الطريق وتنصت إلى السمّار حتّى ترامى إليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحّاسين فرأت (حنطورًا) يقترب وئيدًا ومصباحاه يسطعان في الظلام، فتنهّدت في ارتياح وغمغمت «أخيرًا...». ها هو «حنطور» أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة إلى باب البيت الكبير ثمّ يمضي كالعادة إلى الخرنفش حاملًا صاحبه ونفرًا من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحيّ، ووقف «الحنطور» أمام البيت، وارتفع صوت زوجها وهو يقول في نبرات ضاحكة:

ـ أستودعكم الله...

وكانت تنصت إلى صوت زوجها وهو يودّع أصحابه بشغف ودهشة، ولولا أنّها تسمعه كلّ ليلة في مثل هذه الساعة لأنكرته، فما عهدت منه ـ هي وأبناؤها ـ إلّا الحزم والوقار والتزمّت، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحوكة التي تسيل بشاشة ورقّة؟! وكأنّ صاحب «الحنطور» أراد أن يمازحه فقال له:

ـ أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة؟ قال إنّه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كلّ ليلة إلى بيته وهو لا يستحقّ أن يركب إلّا حمارًا...

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيّد حتّى عادوا إلى السكون ثمّ قال يجيبه:

ـ أما سمعت بماذا أجابته نفسه؟ قالت إذا لم توصله أنت فسيركب البك صاحبنا...

وضجّ الرجال ضاحكين مرّة أخرى. ثمّ قال صاحب العربة:

ـ فلنؤجّل الباقي إلى سهرة الغد...

وتحرّكت العربة إلى شارع بين القصرين واتّجه السيّد نحو الباب فغادرت المرأة المشربيّة إلى الحجرة، وتناولت المصباح ومضت إلى الصالة، ومنها إلى الدهليز الخارجيّ حتّى وقفت في رأس السلّم، وترامت إليها صفقة الباب الخارجيّ وهو يغلق، وانزلاق المزلاج، وتخيّلته وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردًّا هيبته ووقاره، خالعًا مزاحه الذي لولا استراق السمع لظنّته من مستحيل المستحيلات، ثمّ سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلّم فمدّت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله.

٢

وانتهى الرجل إلى موقفها فراحت تتقدّمه رافعة المصباح، فتبعها وهو يتمتم:

ـ مساء الخير يا أمينة.

فقالت بصوت خفيض ينمّ عن الأدب والخضوع:

ـ مساء الخير يا سيّدي.

وفي ثوانٍ احتوتهما الحجرة، فاتّجهت أمينة إلى الخوان لتضع المصباح عليه، في حين علّق السيّد عصاه بحافة شبّاك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التي تتوسّط الكنبة، ثمّ اقتربت المرأة منه لتنزع عنه ملابسه، وبدا في وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعًا جبّة وقفطان في أناقة وبحبحة دلّتا على رفاهية ذوق وسخاء، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتي رأسه في عناية بالغة، وخاتمه ذو الفصّ الماسيّ الكبير، وساعته الذهبيّة، إلّا لتؤكّد رفاهة ذوقه وسخاءه. أمّا وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قويّ التعبير واضح الملامح، يدلّ في جملته على بروز الشخصيّة والجمال بعينيه الزرقاوين الواسعتين، وأنفه الكبير الأشمّ المتناسق على كبره مع بسطة الوجه، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقّة لا مزيد عليها. ولـمّا تدانت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبّة عنه وأطبقتها بعناية ثمّ وضعتها على الكنبة، وعادت إليه ففكّت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرّجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبّة، على حين تناول السيّد جلبابه فارتداه ثمّ طاقيّته البيضاء فلبسها، وتمطّى وهو يتثاءب وجلس على الكنبة ومدّ ساقيه مسندًا قذاله إلى الحائط. وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه

الممدودتين وراحت تخلع حذاءه وجوربيه، ولـمّا كشف قدمه اليمنى بـدا أوّل عيب في هٰذا الجسم الهـائـل الجميل في خنصره الـذي تـآكـل من تـوالي الكشط بالموسى في موضع كاللوّ مزمن. وغادرت أمينة الحجرة فغـابت دقائق ثمّ عـادت بطست وإبـريق، فوضعت الطست عند قدمي الرجل ووقفت والإبريق في يدها على أهبة الاستعداد، فاستوى السيّد في جلسته ومدّ لها يديه، فصبّت له الماء فغسل وجهه ومسح على رأسه وتمضمض طويلًا، ثمّ تناول المنشفة من فـوق مسند الكنبة ومضى يجفّف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وذهبت به إلى الحمّـام. كانت هٰـذه الخدمة آخر ما تؤدّي من خدمات في البيت الكبير، وقد واظبت عليها ربع قرن من الزمان بهمّة لا يعتريها الكلال، بل في سرور وانشراح، وبنفس الحماس الذي يستفزّها إلى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتّى مغيبها، فاستحقّت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم «النحلة» لـدأبها ونشـاطها المتواصلين.

وعـادت إلى الحجرة فـأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلتة فوضعتها أمام الكنبة وتربّعت عليها إذ لم تكن ترى لنفسها الحقّ في أن تجلس إلى جانبه تـأدّبًا. ومضى الـوقت وهي مـلازمـة الصمت حتّى يدعوها إلى الكلام فتتكلّم، وتراخى ظهر السيّد إلى مسند الكنبة، وبدا عقب سهرته الطويلة متعبًا فثقل جفناه اللذان جرى في أطرافهما احمرار طارئ من أثر الشرب، وجعل يزفر أنفاسًا ثقيلة مخمورة. ومـع أنّه كان يعاقر الخمر كلّ ليلة، إلى إفراط في الشرب حتّى السكر، إلّا أنّه لم يكن ليقرّر العودة إلى بيته حتّى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصًا منه على وقاره والمظهر الذي يحبّ أن يبدو به في بيته. وكانت زوجه الشخص الوحيـد من آل بيته الـذي يلقاه في أعقاب سهرته، ولكنّها لم تلمس من آثار الشرب إلّا رائحته، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذًا مريبًا، إلّا ما كان يبدو منه أوّل عهده بزواجها وقد تناسته، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتهـا له في هٰـذه الساعة إقبالًا منه في الحديث وتبسّطًا في فنونه قلّ أن نظفر بمثله في أوقات إفاقته الكاملة. وإنّها لتذكر كم ارتعبت يـوم أدركت أنّـه يعـود من سهـرتـه ثمـلًا، واستدعت الخمر إلى ذهنها ما يقترن بها من وحشيّة وجنون ومخالفة الدين وهي الأفظع، فتقزّزت نفسهـا وركبها الذعر وعانت لدى عودته كلّما عاد آلامًا لا قِبَل لها بها. وبمضيّ الأيّام والليالي ثبت لها أنّه حين عودته من سهرته يكون ألطف منه في جميع الأوقات، فيخفّف من صرامته، وترقّ ملاحظته، ويسترسل في الحديث، فاستأنست إليه واطمأنّت وإن لم تنسَ أن تضرع إلى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه. ولكم تمنّت لو يتـطبّع بنفس اللين النسبيّ وهـو صاحٍ منتبـه، وكم عجبت لهٰـذه المعصية التي تـرقّق حواشيـه، وتحيّرت طويلًا بين ما تجد نحوها من كراهية دينيّة موروثة وبين ما تجني منها من راحة وسلام، ولٰكنّها دفنت أفكارها في أعماق نفسها، ودارتها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيما بينه وبين نفسه. أمّا السيّد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزمه، وما يصـدر عنه من لـطف فخلسـة يصدر، وربّمـا جرت عـلى شفتيـه ابتسـامـة عـريضة ـ في جلستـه هٰذه ـ لـذكرى طـافت بـه من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه إلى نفسه، ويـطبق شفتيه، ويسـترق إلى زوجه نـظرة فيجـدهـا كعادتها بين يديه خافضة العينين، فيطمئنّ ويعود إلى ذكرياته. والحقّ أنّ سهرته لم تكن تنتهي بعودتـه إلى بيته، ولٰكنّها تواصل حياتها في ذكرياته، وفي قلبه الذي يجذبها إليه بقوّة نهم إلى مسرّات الحياة لا يروى، وكأنّه لا يزال يرى مجلس الأنس تزيّنه النخبـة المختارة من أصدقائه وأصفيائـه، ويتوسّـطه بدر من البـدور التي تطلع في سماء حياته حينًا من بعد حين، وما برحت تطنّ في أذنيه الدعابات واللطائف والنكات التي تجود قريحته بدورها إذا هزّه السكر والـطرب، وهٰذه المُلح خاصّة يراجعها في عنـاية واهتـمام ينضحان بالعجب والزهو، ويتذكّر أثرها في النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الأوّل لكلّ نفس، ولا عجب فإنّه كثيرًا ما يشعر بأنّ الدور الذي يلعبه في سهرته من

الخطورة كأنّه أمل الحياة المنشودة، وكأنّ حياته العمليّة بجملتها ضرورة يؤدّيها في سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخُلصائه، وبين هٰذا وذاك تسجع في باطنه أنغام حلوة لطيفة ممّا تردّد في المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه: «آه... الله أكبر»، هٰذا الغناء الذي يحبّه ما يحبّ الشراب والضحك والصحاب والبدور، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه، ولا يأبه للشقّة البعيدة يقطعها إلى أطراف القاهرة ليسمع الحامولي أو عثمان أو المنيلاوي حيثما تكون مغانيهم، حتّى آوت أنغامهم إلى نفسه السخيّة ما تأوي البلابل إلى شجرة مورقة، فاكتسب دراية بالنغم والمذاهب وتوّج حجّة في السمع والطرب، وكان يحبّ الغناء بروحه وجسمه، أمّا روحه فتطرب وتغمرها الأريحيّة، وأمّا جسمه فتهتاج حواسّه وترقص أطرافه خاصّة الرأس واليدان، ولهٰذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائيّة بذكريات روحيّة وجسديّة لا تُنسى، مثل: «ولِيه بقى تلاويعك وهجرك» أو «يا ما بكره نعرف.. وبعده نشوف» أو «اسمع بقى وتعالى لمّا أقول لك» وكان حسْبه أن تهفو إليه نغمة من هٰذه النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كي تهيج موطن السكر من نفسه فيهزّ رأسه طربًا وترفّ على شفتيه ابتسامة أشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنّمًا إذا كان إلى نفسه خاليًا، ومع هٰذا فلم يكن الغناء هوًى منفردًا يجذبه لذاته فحسب، ولٰكنّه كان زهرة في طاقة يحلو بها وتحلو به ومرحبًا بين الصديق الصافي والحبيب الوفيّ والشراب المعتّق والملحة العذبة، أمّا أن يصفو له وحده - كما يتلقّى في البيوت عن الفونوغراف - فهو جميل حبيب بلا شكّ، ولٰكنّه غاب عن جوّه وبيئته وملابساته، وهيهات أن يقنع به القلب، إنّه يتوق إلى أن يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتزّ لها النفوس، وأن يسابق الترديد بالنّهل من كأس مترعة، ويرى أثر التطريب في وجه الصديق وعين الحبيب، ثمّ يتعاونون جميعًا على التهليل والتكبير. بَيْدَ أنّ السهرة لم يقتصر أثرها على بعث الذكريات، فمن مزاياها أيضًا أنّها تهيّئه في أعقابها لأسلوب طيّب من الحياة هو الذي تتلهّف عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدي رجل حلو المعشر يتبسّط معها في الحديث ويفضي إليها بما في طويّته على نحو يشعرها ولو إلى حين بأنّها ليست جارية فحسب ولٰكنّها شريكة حياته أيضًا. وهٰكذا راح يحدّثها عن شئون البيت فأنبأها بأنّه أوصى بعض التجّار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجبن، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء الموادّ الضروريّة بسبب هٰذه الحرب التي تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام، وكعادته كلّما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليّين الذين ينتشرون في المدينة كالجراد ويعيثون في الأرض الفساد. والحقّ أنّه كان يحنق على الأستراليّين لسبب خاصّ به وهو أنّهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالي اللهو والطرب في الأزبكيّة فارتدّ عنها مغلوبًا عل أمره - إلّا في القليل النادر من مختلس الفرص - لأنّه لم يكن يسعه أن يعرّض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس متاعهم جهارًا ويتسلّوْن بصبّ ألوان الاعتداء والإهانة عليهم بغير رادع. ثمّ مضى يسأل عن حال «الأولاد» كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحّاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل آغا ثمّ تساءل بلهجة ذات معنى:

- وكمال؟! إيّاك وأن تتستّري على شيطنته!

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذي تتستّر عليه حقًّا فيما لا خطر له من اللعب البريء، وإن كان السيّد لا يعترف ببراءة أيّ لون من ألوان اللعب واللهو، وقالت بصوتها الخاشع:

- إنّه يلتزم أوامر أبيه.

وصمت السيّد قليلًا فبدا كالشارد، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السعيدة، ثمّ تراجع مؤشّر ذاكرته إلى ما سبق سهرته من أحداث يومه فذكر فجأة أنّه كان يومًا حافلًا، ولمّا كان في حال لا يستحبّ معها كتمان شيء ممّا يطفو على سطح الوعي فقد قال وكأنّه يخاطب نفسه:

- يا له من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين!

أما علمت بما فعل؟ . . أبى أن يعتلي عرش أبيه المتوفّى في ظلّ الإنجليز.

ومع أنّ المرأة علمت بوفاة السلطان حسين كامل أمس إلّا أنّها كانت تسمع اسم ابنه لأوّل مرّة، ولم تجد ما تقول ولٰكنّها ـ مدفوعة بعواطف الإجلال للمتكلّم ـ كانت تخاف ألّا تعلّق على كلّ كلمة يقولها بما يرضيه فقالت:

ـ رحم الله السلطان وأكرم ابنه.

فاستطرد السيّد قائلًا:

ـ وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان أحمد فؤاد كما سيدعى من الآن فصاعدًا، وقد تمّ الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل في موكبه من قصر البستان إلى سراي عابدين. . وسبحان من له الدوام.

وأصغت أمينة إليه باهتمام وسرور، اهتمام يستثيره في نفسها أيّ نبأ يجيء من العالم الخارجيّ الذي تكاد لا تعرف عنه شيئًا، وسرور يبعثه ما تجد في حديث بعلها معها عن هٰذه الشئون الخطيرة من لفتة عطف تزدهيها، إلى ما في الحدث نفسه من ثقافة يلذّ لها أن تعيدها على مسمع من أبنائها وخاصّة فتاتيها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجيّ جهلًا تامًّا، ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرًا من أن تردّد على مسمعيه دعاء تعلم مقدّمًا بمقدار ارتياحه إليه كما ترتاح إليه هي من أعماقها فقالت:

ـ ربّنا قادر على أن يعيد إلينا أفندينا عبّاس.

فهزّ الرجل رأسه وتمتم قائلًا:

ـ متى؟ . . متى؟ . . علم هٰذا عند ربّي. . ما نقرأ في الجرائد إلّا عن انتصارات الإنجليز، فهل ينتصرون حقًّا أو ينتصر الألمان والترك في النهاية؟ اللّٰهمّ استجب. .

وأغمض الرجل عينيه إعياء، وتثاءب، ثمّ تمطّى وهو يقول:

ـ أخرجي المصباح إلى الصالة.

ونهضت المرأة قائمة وذهبت إلى الخوان فتناولت المصباح ومضت إلى الباب، وقبل أن تجوز العتبة سمعت السيّد وهو يتجشّأ فتمتمت:

ـ صحّة وعافية. . .

٣

وفي هدوء الصباح الباكر، وذيول الفجر لا تزال ناشبة في أسهم الضياء، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء في ضربات متتابعة كدويّ الطبل، وكانت أمينة قد غادرت الفراش قبل هٰذا بنحو نصف ساعة. فتوضّأت وصلّت ثمّ نزلت إلى حجرة الفرن فأيقظت أمّ حنفي ـ امرأة في الأربعين خدمت وهي صبيّة بالبيت وفارقته للزواج ثمّ عادت إليه بعد طلاق ـ وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت أمينة على إعداد الفطور. وكان للبيت فناء متّسع، في أقصاه إلى اليمين بئر سدّت فوّهتها بعارض خشبيّ مذ دبّت أقدام الصغار على الأرض وما تبع هٰذا من إدخال مواسير المياه، وفي أقصى اليسار على كثب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان أقيمت الفرن في إحداهما واستعملت بالتالي مطبخًا، وأعدّت الأخرى مخزنًا. وكان لحجرة الفرن على عزلتها علاقة بقلبها لا تهن، فلو حُسب الزمن الذي قضته بين جدرانها لكان عمرًا، إلى ما تتزيّن به الحجرة من مباهج المواسم عند حلولها حين تتطلّع إليها القلوب الهاشّة لأفراح الحياة، وتتحلّب الأفواه لألوان الطعام الشهيّة التي تقدّمها موسمًا موسمًا بعد موسم كخشاف رمضان وقطائفه، وكعك عيد الفطر وفطائره، وخروف عيد الأضحى الذي يسمّن ويدلّل ثمّ يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمعة رثاء وسط بهجة شاملة، هنالك تبدو عين الفرن المقوّسة يلوح في أعماقها وهج النار كجذوة السرور المشتعلة في السرائر وكأنّها زينة العيد وبشائره. وإذا كانت أمينة تشعر بأنّها في أعلى البيت سيّدة بالنيابة وممثّلة لسلطان لا تملك منه شيئًا، فهي في هٰذا المكان ملكة لا شريك لها في ملكها. فهٰذه الفرن تموت وتحيا بأمرها، وهٰذا الوقود من فحم وحطب في الركن الأيمن يتوقّف مصيره على كلمة منها، والكانون الذي يحتلّ الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينيّة النحاسيّة ينام أو

يزغرد بألسنة اللهب بإشارة منها. وهي هنا الأمّ والزوجة والأستاذة والفنّانة التي يترقّب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدّم يداها، وآية ذٰلك أنّها لا تفوز بإطراء سيّدها إذا تفضّل بإطرائها إلّا عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطهيه، وأمّ حنفي كانت اليد اليمنى في هٰذه المملكة الصغيرة، سواء تصدّت للإدارة والعمل أم تخلّت عن مكانها لإحدى فتاتيها لتتمرّس بفنّها تحت إشرافها، وهي امرأة بدينة في غير تنسيق ولا تفصيل، نما لحمها نموًّا سخيًّا فراعى في نموّه السمنة فحسب وأهمل اعتبارات الجمال، بيْد أنّها رضيت عنه كلّ الرضا لأنّها كانت تعدّ السمنة في ذاتها الجمال كلّ الجمال، ولا عجب فقد كان كلّ عمل لها في البيت يكاد يعدّ ثانويًّا بالقياس إلى واجبها الأوّل وهو تسمين الأسرة - أو بالأحرى إناثها - بما تُعدّ لهنّ من «بلابيع» سحريّة هي رُقْيَة الجمال وسرّه المكنون، ومع أنّ أثر البلابيع لم يكن ناجعًا دائمًا إلّا أنّه برهن على جدارته في أكثر من مرّة فاستحقّ ما يناط به من آمال وأحلام. فليس عجيبًا بعد هٰذا أن تسمن أمّ حنفي، على أنّ سمنتها لم تقلّل من نشاطها، فما إن أيقظتها سيّدتها حتّى نهضت بنفس متفتّحة للعمل، وخفّت إلى «ماجور» العجين. وتعالى صوت العجين الذي يؤدّي وظيفة جرس المنبّه في هٰذا البيت، فترامى إلى الأبناء في الدور الأوّل، ثمّ تصاعد إلى الأب في الدور الأعلى، منذرًا الجميع بأنّ وقت الاستيقاظ قد أزف. وتقلّب السيّد أحمد عبد الجواد على جنبيه ثمّ فتح عينيه، وسرعان ما قطّب حانقًا على الصوت الذي أزعج منامه، ولٰكنّه كظم حنقه لأنّه كان يعلم أنّه يجب أن يستيقظ، وتلقّى أول إحساس يتلقّاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوّة إرادته وجلس في فراشه وإن كانت تغلبه الرغبة في معاودة النوم. ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسيه واجب النهار. فهو يستيقظ في هٰذه الساعة الباكرة مهما تأخّر به وقت النوم حتّى يتسنّى له الذهاب إلى متجره قبيل الثامنة، ثمّ له في القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عمّا فاته من نوم، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة. لهٰذا كان وقت استيقاظه أسوأ أوقات يومه جميعًا، يغادر الفراش مترنّحًا من الإعياء والدوار، ويستقبل حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنّها تستحيل دقًّا في الدماغ والجفون.

وتوالت دقّات العجين على رءوس النائمين بالدور الأوّل فاستيقظ فهمي، وكان استيقاظه يسيرًا على رغم سهره عاكفًا على كتب القانون، فإذا استيقظ فأوّل إحساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسّط صفحته العاجيّة عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلًا: «مريم»، ولو أذعن لسلطان الإغراء للبث تحت الغطاء طويلًا، خاليًا إلى الخيال الزائر الذي جاء يصحبه بالطف الهوى، فيرنو إليه ما دعاه الشوق ويبادله الحديث ويبوح له بأسرار وأسرار، ويتدانى إليه بجسارة لا تتأتّى في غير هٰذا الرقاد الدافئ في مطلع الصباح، ولٰكنّه كعادته أجّل نجواه إلى صباح الجمعة وجلس في فراشه، ثمّ مدّ بصره إلى أخيه النائم في الفراش الذي يليه وهتف:

- ياسين... ياسين... أصْحُ.

انقطع شخير الشابّ، ونفخ فيما يشبه الضيق وتمتم من أنفه:

- صاحٍ... استيقظت قبلك.

فانتظر فهمي مبتسمًا حتّى عاود الآخر شخيره فصاح به:

- أصْحُ...

فتقلّب ياسين في فراشه متذمّرًا فانحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذي يضاهي جسم والده ضخامة وبدانة، ثمّ فتح عينين محمرّتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقها تقطيبة تنطق بالتذمّر: «أفّ... كيف طلع الصباح بهٰذه السرعة!... لماذا لا ننام حتّى نشبع... النظام... دائمًا النظام... كأنّنا عساكر»، ونهض معتمدًا على يديه وركبتيه وهو يحرّك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحت منه التفاتة إلى الفراش الثالث حيث يغطّ كمال في نومه الذي لن ينتزعه منه أحد قبل نصف ساعة فغبطه عليه «يا له من غلام سعيد!». ولمّا أفاق قليلًا تربّع على الفراش وأسند

رأسه إلى يديه، ورغب في معابثة الخواطر اللذيذة التي تحلو بها أحلام اليقظة ولٰكنّه كان يستيقظ ـ كأبيه ـ على حال من ثقل الرأس تتعطّل معها الأحلام، ولاحت لمخيّلته زنّوبة العوّادة فلم تترك في حساسيّته أثرًا ممّا تترك في صحوه وإن افترّت شفتاه عن ابتسامة.

وفي الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة إلى منبّه العجين. كانت أشبه الأسرة بأمّها في نشاطها ويقظتها، أمّا عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التي كانت تنبعث في السرير من نهوض شقيقتها وانزلاقها إلى أرض الحجرة في عنف متعمّد يجرّ وراءه جدلًا وملاحاة انقلبا مع التكرار نوعًا من الدعابة الفظّة، فإذا استيقظت وفزعت من النقار لم تنهض، ولٰكنّها تستسلم لحلم طويل من أحلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها.

ثمّ دبّت الحياة فشملت الدور الأوّل كلّه، فُتحت النوافذ وتدفّق النور إلى الداخل وعلى أثره هفا الهواء حاملًا صلصلة عجلات سوارس وأصوات العمّال ونداء بائع البليلة، وتواصلت الحركة ما بين غرفتي النوم والحمّام وبدا ياسين في جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتّل، وفهمي بطوله الفارع وقدّه النحيف وكان ـ فيما عدا نحافته ـ صورة من أبيه. وهبطت الفتاتان إلى الفناء لتلحقا بأمّهما في حجرة الفرن، وكان في صورتيهما اختلاف قلّ أن يوجد مثله في الأسرة الواحدة، خديجة سمراء وفي قسمات وجهها تنافر ملحوظ، وعائشة شقراء تشعّ هالة من حسن ورواء.

مع أنّ السيّد أحمد كان في الدور الأعلى بمفرده إلّا أنّ أمينة لم تدعه في حاجة إلى إنسان. وجد على الخوان طبق فنجان مملوءًا حلبة ليغيّر ريقه عليها، وذهب إلى الحمّام فتطاير إلى أنفه عرف البخور الطيّب، وألفى على الكرسيّ ثيابًا نظيفة مرتّبة في عناية، فاستحمّ بالماء البارد كعادته كلّ صباح ـ عادة لا ينقطع عنها صيفًا أو شتاء ـ ثمّ عاد إلى حجرته مستجدًا حيويّة ونشاطًا، ثمّ جاء بسجّادة الصلاة ـ وكانت مطويّة على مسند الكنبة ـ فبسطها وأدّى فريضة الصبح، صلّى بوجه خاشع، وهو غير الوجه البسّام المشرق الذي يلقى به أصحابه، وغير الوجه الحازم الصارم الذي يواجه به آل بيته، هٰذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحبّ والرجاء من قسماته المتراخية التي ألانها التزلّف والتودّد والاستغفار. لم يكن يصلّي صلاة آليّة قوامها التلاوة والقيام والسجود، ولٰكن صلاة عاطفة وشعور وإحساس يؤدّيها بنفس الحماس الذي ينفضه على ألوان الحياة التي يتقلّب فيها جميعًا، كما يعمل فيتفانى في عمله، ويصادق فيفرط في مودّته، ويعشق فيذوب في عشقه، ويسكر فيغرق في سكره، مخلصًا صادقًا في كلّ حال. هٰكذا كانت الفريضة حجّة روحيّة يطوف فيها برحاب المولى، حتّى إذا انفتل من صلاته تربّع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكلأه برعايته ويغفر له ويبارك في ذرّيّته وتجارته.

وفرغت الأمّ من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين إعداد الصينيّة وطلعت إلى حجرة الإخوة حيث وجدت كمالًا ما زال يغطّ في نومه، فأقبلت عليه باسمة وحطّت راحتها على جبينه وتلت الفاتحة، وجعلت تناديه وتهزّه برفق حتّى فتح عينيه، ولم تدعه حتّى فارق الفراش. ودخل فهمي الحجرة فلمّا رآها ابتسم إليها وحيّاها تحيّة الصباح فردّت عليه قائلة ونظرة الحبّ تترقرق في عينيها:

ـ صباح النور يا نور العين.

وبنفس الرقّة صبّحت على ياسين «ابن» زوجها فردّ عليها بمودّة خليقة بالمرأة التي تنزل من نفسه منزلة الأمّ الجديرة بهٰذا الاسم. ولـمّا عادت خديجة من حجرة الفرن تلقّاها فهمي وياسين ـ وياسين خاصّة ـ بما يغمرانها به عادة من دعابة. وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحادّ رغم ما لها من نفوذ على الأخوين بما تتعهّد من شؤونهما بمهارة فائقة يندر أن تجود بمثلها عائشة التي تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبيّة وعدم فائدة. وبادرها ياسين قائلًا:

ـ كنّا نتحدّث عنك يا خديجة، وكنّا نقول إنّه لو كان النساء جميعًا على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب.

فقالت على البداهة:

ـ ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعًا من متاعب الرءوس. . .

عند ذلك هتفت الأمّ قائلة:

ـ أعدّ الفطور يا سادة.

٤

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس وأربع خالية إلّا من بعض أدوات اللعب التي يلهو بها كمال في أوقات فراغه. وكان السماط قد أعدّ وصُفّت حوله الشلت، ثمّ جاء السيّد فتصدّره متربّعًا، ودخل الإخوة الثلاثة تباعًا فجلس ياسين إلى يمين أبيه، وفهمي إلى يساره، وكمال قبالته. جلس الإخوة في أدب وخشوع، خافضي الرءوس كأنّهم في صلاة جامعة، يستوي في هٰذا كاتب مدرسة النحّاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل آغا. فلم يكن أحد منهم ليجترئ على التحديق في وجه أبيه. وأكثر من هٰذا كانوا يتجنّبون في عضره تبادل النظر أن يغلب أحدهم الابتسام لسبب أو لآخر فيعرّض نفسه لزجرة مخيفة لا قِبَل له بها. ولم يكن يجمعهم بأبيهم إلّا مجلس الفطور لأنّهم يعودون إلى البيت عصرًا بعد أن يكون السيّد قد غادره إلى دكّانه عقب تناول الغداء والقيلولة، ثمّ لا يعود إليه إلّا بعد منتصف الليل، وكانت الجلسة على قصر مدّتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكريّ إلى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيّتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم في تحاميها، فضلًا عن أنّ الفطور نفسه يتمّ في جوّ يفسد عليهم تذوّقه واستلذاذه، ولم يكن غريبًا أن يقطع السيّد الفترة القصيرة التي تسبق مجيء الأمّ بصينيّة الطعام في تفحّص أبنائه بعين ناقدة حتّى إذا عثر على خلل ولو تافه في هيئة أحدهم أو بقعة في ثوبه انهال عليه نهرًا وتأنيبًا، وربّما سأل كمال بغلظة: «غسلت يديك؟» فإذا أجابه بالإيجاب قال له آمرًا: «أرنيهما» فيبسط الغلام كفّيه وهو يزدرد ريقه فرَقًا، وبدلًا من أن يشجّعه على نظافته يقول له مهدّدًا: «إذا نسيت مرّة أن تغسلهما قبل الأكل قطعتهما وأرحتك منهما». أو يسأل فهمي قائلًا: «أيذاكر ابن الكلب دروسه أم لا؟» ويعرف فهمي بالبداهة من يعني لأنّ «ابن الكلب» عند السيّد كناية عن كمال فيجيب بأنّه يحفظ دروسه جيّدًا. والحقّ أنّ شطارة الغلام ـ التي استوجب عليها حنق أبيه ـ لم تقعد به عند الجدّ والاجتهاد كما يدلّ عليهما نجاحه وتفوّقه، ولكنّ السيّد كان يطالب أبناءه بالطاعة العمياء الأمر الذي لا يطيقه غلام اللعب أحبّ إليه من الطعام، ولهٰذا يعلّق على إجابة فهمي قائلًا بامتعاض: «الأدب مفضّل على العلم»، ثمّ يلتفت إلى كمال ويستطرد بحدّة: «سامع يا بن الكلب!».

وجاءت الأمّ حاملة صينيّة الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السماط وتقهقرت إلى جدار الحجرة على كثب من خوان وضعت عليه «قلّة»، ووقفت متأهّبة لتلبية أيّة إشارة. وكان يتوسّط الصينيّة النحاسيّة اللامعة طبق كبير بيضاويّ امتلأ بالمدمّس المقليّ بالسمن والبيض، وفي أحد طرفيها تراكمت الأرغفة الساخنة، وفي الطرف الآخر صفّت أطباق صغيرة بالجبن، والليمون والفلفل المخلّلين، والشطّة والملح والفلفل الأسود، فهاجت بطون الإخوة بشهوة الطعام، ولكنّهم حافظوا على جمودهم متجاهلين المنظر البهيج الذي أنزل عليهم كأنّه لم يحرّك فيهم ساكنًا، حتّى مدّ السيّد يده إلى رغيف فتناوله ثمّ شطره وهو يتمتم: «كلوا»، فامتدّت الأيدي إلى الأرغفة في ترتيب يتبع السنّ، ياسين ففهمي ثمّ كمال وأقبلوا على الطعام ملتزمين أدبهم وحياءهم. ومع أنّ السيّد كان يلتهم طعامه في وفرة وعجلة وكأنّ فكّيه شطرا آلة قاطعة تعمل في سرعة وبلا توقّف، ومع أنّه كان يجمع في لقمة كبيرة واحدة من شتّى الألوان المقدّمة ـ الفول والبيض والجبن والفلفل والليمون المخلّلين ـ ثمّ يأخذ في طحنها بقوّة وسرعة وأصابعه تُعدّ اللقمة التالية، إلّا أنّهم كانوا يأكلون متمهّلين في أناة بالرغم ممّا يحمّلهم تمهّلهم من صبر لا يتّفق وطبيعتهم الحامية، فلم يكن ليغيب عن

أحدهم ما قد يتعرّض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية إذا تهاون أو ضعف فنسي نفسه وغفل بالتالي عمّا يأخذها به من التأنّي والأدب. وكان كمال أشدّهم تبرّمًا لأنّه كان أعظمهم تخوّفًا من أبيه، وإذا كان أكثر ما يتعرّض له أحد أخويه نهرة أو زجرة فأقلّ ما يتعرّض له هو ركلة أو لكمة، فلذلك كان يتناول طعامه في حذر وضيق، مسترقًا النظر بين آونة وأخرى إلى المتبقّي من الطعام الذي يتناقص سريعًا، وكلّما تناقص اشتدّ قلقه، وانتظر في جزع أن يصدر عن أبيه ما يدلّ على فراغه من طعامه فيخلو له الجوّ ليملأ بطنه. وعلى رغم سرعة أبيه في الالتهام وضخامة لقمته وتشبّعها بشتّى الأصناف كان يعلم بالتجربة أنّ ما يتهدّد الطعام ـ وما يتهدّده هو بالتالي ـ من ناحية أخويه أشدّ وأنكى، لأنّ السيّد كان سريع الأكل سريع الشبع، أمّا أخواه فكانا يبدءان المعركة حقًّا عقب جلاء السيّد عن السفرة، ثمّ لا يتخلّيان عنها حتّى تخلو الأطباق من كلّ شيء يؤكل، ولهٰذا فما كاد السيّد ينهض قائمًا ويفارق الحجرة حتّى شمّر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلًّا يديه الاثنتين، يدًا للطبق الكبير، ويدًا للأطباق الصغيرة، بيْد أنّ اجتهاده بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الأخوين فلجأ إلى الحيلة التي يستغيث بها كلّما هدّد سلامته مهدّد في مثل هٰذه الحال، وهي أن يعطس في الطبق عامدًا متعمّدًا، وعطس، فتراجع الأخوان، ونظرا إليه حانقين، ثمّ غادرا المائدة وهما غارقين في الضحك، فتحقّق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيدًا في الميدان.

وعاد السيّد إلى حجرته بعد أن غسل يديه فلحقت به أمينة وبيدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيئات بقليل من اللبن وقدّمته له فتجرّعه ثمّ جلس ليحسو قهوة الصبح، وهٰذا القدح الدسم خاتمة فطوره، وهو «وصفة» من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيما بينها ـ كزيت السمك، والجوز واللوز والبندق المسكّرة ـ رعاية لصحّة بدنه الضخم، وتعويضًا له عمّا تستهلكه منه الأهواء، إلى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتّى ليعدّ الأكلة الخفيفة بل والعاديّة «لعبًا» و«تضييع وقت» لا يجملان بمثله. وقد وُصف له الحشيش كفاتح للشهيّة ـ إلى فوائده الأخرى ـ فجرّبه ولٰكنّه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنّه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء ميّال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الأصدقاء، فنفر من أعراضه تلك التي تتجافى مع سجيّته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذّات الاندماج في النفوس ووثبات المزاح والقهقهة، ولكيلا يفقد مزاياه الضروريّة لفحول العشّاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزول اشتهر به محمّد العجمي بائع الكسكسي عند مطلع الصالحيّة بالصاغة، وكان يعدّه خاصّة لصفوة زبائنه من التجّار والأعيان، ولم يكن السيّد من مدمني المنزول ولٰكنّه كان يلمّ به بين حين وآخر كلّما استقبل هوًى جديدًا خاصّة إذا كانت المعشوقة امرأة خبيرة بالرجال وأحوالهم. فرغ السيّد من حسو قهوته ثمّ نهض إلى المرآة وراح يرتدي ملابسه التي قدّمتها إليه أمينة قطعة قطعة، وألقى على صورة هندامه نظرة متفحّصة، ومشّط شعره الأسود المرسل على صفحتي رأسه، ثمّ سوّى شاربه وفتله، وتفرّس في هيئة وجهه ثمّ عطفه رويدًا إلى اليمين ليرى جانبه الأيسر، ثمّ إلى اليسار ليرى جانبه الأيمن، حتّى إذا ارتاح إلى منظره مدّ يده إلى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التي عبّأها له عمّ حسنين الحلّاق فغسل يديه ووجهه ونضح صدر قفطانه ومنديله، ثمّ وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرًا بين يديه ومن خلفه عَرفًا طيّبًا. ذٰلك العَرف المقطّر من شتّى الأزهار يعرفه أهل البيت جميعًا، وإذا تنشّقه أحدهم تمثّل لعينيه السيّد بوجهه الوقور الحازم، فينبعث في قلبه ـ مع الحبّ ـ الإجلال والخوف. إلّا أنّ انتشاره في هٰذه الساعة من الصباح كان إيذانًا بذهاب السيّد، فالنفوس تتلقّاه بارتياح غير منكور على براءته، كارتياح الأسير إلى صليل السلاسل وهي تنفكّ عن يديه وقدميه، ويعلم كلّ بأنّه سيستردّ حرّيّته عمّا قليل في الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمّة خطر. كان ياسين وفهمي قد فرغا من ارتداء ملابسهما، أمّا

كمال فقد هرع إلى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته في محاكاة حركاته التي يختلس النظر إليها من زيق الباب الموارب، فوقف أمام المرآة ينظر إلى صورته بإمعان وارتياح ثمّ قال مخاطبًا أمّه بلهجة آمرة وهو يُغلظ نبرات صوته «زجاجة الكولونيا يا أمينة»، وكان يعلم أنّها لا تلبّي هٰذا النداء ولٰكنّه جعل يمسح على وجهه وجاكيتته وبنطلونه القصير بيديه كأنّه يبلّها بالكولونيا، ومع أنّ أمّه كانت تغالب الضحك إلّا أنّه ثابر على التظاهر بالجدّ والصرامة، وراح يستعرض وجهه في المرآة من جانبه الأيمن إلى الأيسر، ثمّ مضى يسوّي شاربه الوهميّ ويفتل طرفيه، ثمّ تحوّل عن المرآة وتجشّأ، ونظر صوب أمّه، ولـمّا لم يجد منها إلّا الضحك قال لها محتجًّا: «لماذا لا تقولين لي صحّة وعافية؟» فغمغمت المرأة ضاحكة: «صحّة وعافية يا سيدي»، هنالك غادر الحجرة مقلّدًا مشية أبيه محرّكًا يمناه كأنّه يتوكّأ على عصاه..

وبادرت الأمّ والفتاتان إلى المشربيّة ووقفن وراء شبّاكها المطلّ على النحّاسين ليَرَيْن من ثقوبه رجال الأسرة في الطريق، وبدا السيّد وهو يسير في تؤدة ووقار يحفّ به الجلال والجمال رافعًا يديه بالتحيّة بين حين وآخر وقد وقف له عمّ حسنين الحلّاق والحاجّ درويش بائع الفول والفولي اللبّان وبيّومي الشربتلي، فأتبعنه أعينًا مترعة بالحبّ والزهو، وتلاه فهمي في مشيته المتعجّلة، ثمّ ياسين في جسم الثور وأناقة الطاووس، وأخيرًا ظهر كمال فلم يكد يخطو خطوتين حتّى استدار ورفع بصره إلى الشبّاك الذي يعلم أنّ أمّه وشقيقتيه مستخفيات وراءه، وابتسم، ثمّ واصل سيره متأبّطًا حقيبة كتبه منقّبًا في الأرض عن زلطة يركلها.

كانت هٰذه الساعة من أسعد أوقات الأمّ، بَيْد أنّ إشفاقها من شرّ الأعين على رجالها لم يقف عند حدّ، فلم تكن تمسك عن تلاوة: «ومن شرّ حاسد إذا حسد» حتّى يغيبوا عن عينيها...

٥

وغادرت الأمّ المشربيّة، وتبعتها خديجة، على حين تلكّأت عائشة حتّى خلا لها الجوّ فانتقلت إلى جانب المشربيّة المطلّ على بين القصرين ومدّت بصرها من ثقوب الشبّاك في اهتمام ولهفة. بدا من لمعة عينيها وعضّها على شفتيها أنّها تنتظر. ولم يطُل بها الانتظار فقد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شابّ ومضى مقبلًا متمهّلًا في طريقه إلى قسم الجماليّة، عند ذٰلك غادرت الفتاة المشربيّة في عجلة إلى حجرة الاستقبال، واتّجهت إلى نافذتها الجانبيّة وأدارت أكرتها ففرجت مصراعيها عن زيق ووقفت وراءه وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معًا، ولـمّا اقترب الضابط من البيت رفع عينيه في حذر دون أن يرفع رأسه ـ فلم يكن أحد يرفع رأسه في مصر وقتذاك ـ فأضاءت أساريره بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتاة إشراقة موردّة بالحياء فتنهّدت... ثمّ أغلقت النافذة وهي تشدّ عليها بعصبيّة ـ كأنّها تخفي آثار جريمة دامية ـ وتراجعت عنها مغمضة العينين من شدّة الانفعال، فأسلمت نفسها إلى مقعد وأسندت رأسها إلى يدها وساحت في جوّ مشاعرها اللانهائيّ. لم تكن سعادة خالصة، ولم يكن خوفًا خالصًا، كان قلبها موزّعًا بين هٰذا وتلك فهما يتجاذبانه بلا رحمة، إذا استنامت إلى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة الخوف محذّرة متوعّدة فلا تدري أيجمُل بها أن تُقلع عن مغامرتها أم تتمادى في مطاوعة قلبها. كِلا الحبّ والخوف شديد، ولبثت في تهويمها كثيرًا أو قليلًا، فاستكنت هواتف الخوف والتأنيب، ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظلّ سلام، وذكرت ـ كما يلذّ لها أن تذكر دائمًا ـ كيف كانت تنفض الستارة المسدلة على النافذة يومًا فلاحت منها نظرة إلى الطريق من النافذة التي فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلّع إلى وجهها في دهشة مقرونة بالإعجاب، فتراجعت فيما يشبه الذعر، ولٰكنّه لم يذهب قبل أن يترك في مخيّلتها أثرًا باقيًا من منظر نجمته الذهبيّة وشرطه الأحمر، منظر يخلب اللبّ ويسرق الخيال، فظلّ يتخايل لعينيها طويلًا، وفي نفس الساعة من اليوم التالي ـ والأيّام التالية ـ راحت تقف

وراء الخصاص دون أن يراها، ولمست في فرحة ظافرة كيف يتطلّع بعينيه إلى النافذة المغلقة باهتمام وتشوّق، ثمّ كيف أخذ يستبين شبحها وراء الخصاص فتشعّ أساريره ضياء البهجة، وقلبها المشبوب ـ الذي يتمطّى مستيقظًا لأوّل مرّة ـ ينتظر هٰذه اللحظة في لهفة ويذوقها في سعادة ويودّعها فيما يشبه الحلم، حتّى دار الشهر دورته وعاد يوم التنفيض مرّة أخرى فانبرت إلى الستارة تنفضها وراء النافذة الموارِبة متعمّدة ـ هٰذه المرّة ـ أن تُرى، وهٰكذا يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، حتّى غلب التعطّش للمزيد من الحبّ الخوف الجاثم فخطت خطوة ـ جنونيّة ـ وفرجت مصراعي النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معًا، كأنّها تعلن حبّها له، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علوّ ساحق ليتّقي نارًا مستعرة تحيط به.

* * *

استكنت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظلّ سلام، ثمّ أفاقت من حلمها، وصمّمت على أن تتحامى الخوف الذي ينغّص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها استدرارًا للطمأنينة: «لم تُزلزَل الأرض ومرّ كلّ شيء بسلام، لم يرني أحد ولن يراني أحد، ثمّ إنّي لم أقترف إثمًا!» ونهضت قائمة، ولكي توهم نفسها بخلوّ البال ترنّمت ـ وهي تغادر الحجرة ـ بصوت عذب: «يا أبو الشريط الأحمر يا للي أسرتني ارحم ذلّي»، وردّدتها مرّة ومرّة حتّى جاءها صوت أختها خديجة من حجرة الطعام وهي تزعق في تهكّم:

ـ يا ستّ منيرة يا مهديّة، تفضّلي، أعدّت لك خادمتك السفرة.

وأثابها صوت أختها إلى نفسها تمامًا فيما يشبه الرجّة فهوت من عالم المثال إلى عالم الواقع مرتعبة بعض الشيء لسبب غير ظاهر ـ ما دام كلّ شيء قد مرّ بسلام كما قالت لنفسها ـ ولٰكنّ اعتراض صوت أختها ـ بالذات ـ لغنائها وخواطرها أرعبها، ربّما لأنّ خديجة كانت تقف منها موقف المنتقد، بَيْد أنّها طاردت هٰذا القلق الطارئ وأجابتها بضحكة مقتضبة، ثمّ جرت إلى حجرة الطعام فوجدت السماط معدًّا حقًّا وأمّها مقبلة بالصينيّة، وقالت لها خديجة بحدّة حال دخولها:

ـ تتلكّئين بعيدًا حتّى أُعدّ كلّ شيء وحدي... كفاية لنا الغناء...

ومع أنّها كانت تتلطّف معها في الحديث تفاديًا من حدّة لسانها إلّا أنّ إصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلّما سنحت فرصة جعلها تتعلّق أحيانًا بإغاظتها فقالت مصطنعة الجدّ:

ـ ألم نتّفق على تقسيم العمل بيننا في البيت؟ فعليك هٰذا الواجب وعليّ الغناء...

فنظرت خديجة إلى أمّها وقالت متهكّمة وهي تعني الأخرى:

ـ يمكن ناوية تكون عالمة!

ولم تغضب عائشة، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضًا:

ـ وماله!... أنا صوتي كالكروان.

ومع أنّ قولها السابق لم يستثر غيظها لأنّه كان بَيِّن الدعابة إلّا أنّ كلامها الأخير استثاره لأنّه كان واضح الحقّ، ولأنّها تَنْفِس عليها جمال صوتها فيما تنفس عليها من مزايا فقالت في تهجّم:

ـ اسمعي يا ستّ هانم... هٰذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته أن تكون أصواتهنّ كصوت الحمير ولٰكن يعيبهنّ أن يكنّ كالصورة لا فائدة منهنّ ولا نفع.

ـ لو كان صوتك جميلًا كصوتي ما قلت هٰذا!

ـ طبعًا!... كنت تغنّين وأردّ عليك، تقولين يا بو الشريط الأحمر يا للي... فأقول لك أسرتني ارحم ذلّي، ونترك للستّ «مشيرة إلى أمّها» الكنس والمسح والطبخ.

وكانت الأمّ ـ التي أَلِفَت هٰذا النقار ـ قد اتّخذت مجلسها فقالت برجاء:

ـ أمسكا بالله واجلسا لنأكل فطورنا بسلام.

وأقبَلَتا على السماط وجلستا وخديجة تقول:

ـ أنت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد...

فتمتمت الأمّ في هدوء:

ـ سامحك الله، سأترك لك أمر التربية على ألّا تنسي نفسك.. «ثمّ مدّت يدها إلى الطبق».. بسم الله الرحمٰن الرحيم...

كانت خديجة في العشرين من عمرها، فهي كبرى إخوتها فيما عدا ياسين ـ أخاها من الأب ـ الذي ناهز عامه الواحد والعشرين، وكانت قويّة ممتلئة ـ والفضل لأمّ حنفي ـ مع ميل إلى القصر، أمّا وجهها فقد قبس من قسمات الوالدين على نهج لم يُراعَ فيه الانسجام، ورثت عن أمّها عينيها الصغيرتين الجميلتين، وعن أبيها أنفه العظيم، أو صورة مصغّرة منه ولكن ليس إلى القدر الذي يغتفر له، ومهما يكن من شأن هٰذا الأنف في وجه الأب الذي يناسبه ويكسبه جلالًا ملحوظًا فقد لعب في وجه الفتاة دورًا مختلفًا.

أمّا عائشة فكانت في السادسة عشرة من ربيعها، صورة من بديع الحسن، رشيقة القدّ والقوام ـ وإن عدّ هٰذا في محيط أسرتها من العيوب المتروك علاجها لأمّ حنفي ـ ووجه بدريّ تزيّنه بشرة بيضاء مشربة بحمرة، وعينان زرقاوان أحسنت اختيارهما من الأب مع أنف الأمّ الصغير، إلى شعر ذهبيّ دلّلها به قانون الوراثة فخصّها به وحدها من ميراث جدّتها لأبيها. وطبيعيّ أن تدرك خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق، ولم تكن براعتها الفائقة في التدبير المنزليّ والتطريز ولا نشاطها الدائب الذي لا يكلّ ولا يملّ بمُغنيين عنها شيئًا، فوجدت على الغالب نحوها غيرة لم تراعِ إخفاءها ممّا حمل الفتاة الحسناء على البرّم بها في كثير من الأحايين. ولكن من سوء الحظّ أنّ هٰذه الغيرة الطبيعيّة لم تترك رواسب سوداء في النفس، وكفاها أن تروّح عن حدّتها بسخرية اللسان وسلاطته، وأكثر من هٰذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعيّة أمًّا بالفطرة عامرة القلب بالحنوّ نحو الأسرة التي لا تعفي أفرادها من مرارة تهكّمها، فلم تكن غيرتها إلّا نوبات تطول أو تقصر ولكنّها لم تنحرف بسجيّتها إلى الحقد أو البغضاء، بيْد أنّ دأبها على السخرية ـ الذي اقتصر في الأسرة على الدعابة ـ خلق منها فيما وراء ذٰلك من الجيران والمعارف عيّابة من الدرجة الأولى، لا تقع عيناها من الناس إلّا على مناقصهم كعقرب البوصلة المنجذب إلى القطب أبدًا، وإذا توارت المناقص تمحّلت في الكشف عنها وتكبيرها، ثمّ راحت تطلق على ضحاياها أوصافًا تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم في محيط أسرتها، فهٰذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها «المدفع الرشّاش» لتناثر ريقها أثناء الحديث، وهٰذه الستّ أمّ مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسمّيها «الله يا أسيادي» لاستعارتها بعض الأدوات المنزليّة من بيتهم بين حين وآخر، كما تدعو شيخ كتّاب بين القصرين «شرّ ما خلق» لترديده هٰذه الآية ضمن سورتها كثيرًا بحكم وظيفته مع قبح وجهه، وبائع الفول «الأقرع» لصلعه، واللبّان «الأعور» لضعف بصره، إلى تسميات مخفّفة بعض الشيء خصّت بها أسرتها، فأمّها «المؤذّن» لتبكيرها في الاستيقاظ، وفهمي «عمود السرير» لنحافته، وعائشة «البوصة» للسبب نفسه، وياسين «بمبة كشّر» لسمنته وأناقته. ولم تكن سلاطة لسانها من وحي السخرية فحسب، فالحقّ أنّها لم تخْلُ من قسوة على من عدا أهلها من الخلق وهٰكذا اتّسم نقدها للناس بالعنف، وتجافى عن التسامح والعفو، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التي تلمّ بالناس يومًا بعد يوم، وتبدّت هٰذه الغلظة في البيت في معاملة أمّ حنفي معاملة لا تلقاها من أحد سواها، بل في معاملة الحيوان الأليف كالقطط التي تحظى من عائشة بإعزاز يفوق الوصف. وكانت معاملتها لأمّ حنفي مثار خلاف بينها وبين أمّها، فالأمّ تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء، وكان ظنّها بالناس أنّهم ملائكة فلم تدرِ كيف تسيء الظنّ بأحد، على حين دأبت خديجة على سوء الظنّ بالمرأة تمشّيًا مع طبيعتها التي تسيء الظنّ بالناس جميعًا، ولم تخْفِ تخوّفها من بيّاتها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها: «من أين تجيئها هٰذه السمنة المفرطة؟!... من الوصفات التي تصنعها؟! كلّنا نتعاطى وصفاتها فلا نسمن سمنتها، ولٰكنّه السمن والعسل اللذان تطفح منها بغير حساب ونحن نيام».

لٰكنّ الأمّ دافعت عن أمّ حنفي ما وسعها الدفاع، ولـمّا ضاقت بإلحاح ابنتها قالت: «فلتأكل ما تشاء، الخير كثير، وبطنها له حدّ لا يتعدّاه فلن نجوع على أيّ حال». ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وبلاليص العسل كلّ صباح وأمّ حنفي ترى هٰذا باسمة لأنّها كانت تحبّ الأسرة كلّها إكرامًا لستّها الطيّبة. وعلى النقيض من هٰذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعًا فلم يكن يهدأ لها بال إذا أصابت أحدهم وعكة، ولـمّا مرض كمال بالحصبة أبت إلّا أن تشاركه فراشه، حتّى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلمّ بها أهون سوء، فلم يكن مثل قلبها لا في بروده ولا في رحمته.

وباتّخاذها مجلسها من السماط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على الفول والبيض بشهيّة كانت مضرب الأمثال في الأسرة. وكان للطعام بينهنّ ـ إلى فائدته الغذائيّة ـ غاية جماليّة عليا بصفته الدعامة الطبيعيّة للسمنة، فكنّ يتناولنه في تؤدة واهتمام، ويبالغن في سحقه وطحنه، فإذا شبعن لم يمسكن ولٰكن يستزدن منه حتّى يمتلئن، على تفاوت لطاقاتهنّ، فكانت الأمّ أسرعهنّ إلى الانتهاء، تليها عائشة، ثمّ تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلّى عنها إلّا وهي أطباق مغسولة. ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها في الأكل فضلًا عن عصيانها لسحر البلابيع، ممّا دعا خديجة للسخرية منها والقول بأنّ المكر السيّئ هو الذي يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيّبة التي تلقى فيها، كما كان يطيب لها أن تعلّل نحافتها بضعف دينها فتقول لها: «كلّنا نصوم رمضان إلّا أنت، تتظاهرين بالصوم، وتندسّين في حجرة الخزين كالفأرة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق، ثمّ تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولٰكنّ الله لا يبارك لك». وكانت ساعة الفطور من الأوقات النادرة التي يختلين فيها إلى أنفسهنّ، فكانت أخلق الأوقات بالمكاشفة ونفض السرائر خاصّة في الأمور التي يدعو إلى كتمانها عادة الحياء البالغ الذي تتّسم به مجالس الأسرة الحاوية للجنسين، وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهماكها في الأكل فقالت بصوت هادئ يختلف كلّ الاختلاف عن الصوت الذي كانت تزعق به منذ حين قصير:

ـ نينة... حلمت حلمًا غريبًا...

فقالت الأمّ قبل أن تزدرد لقمتها مبالغةً في إكرام ابنتها المخيفة:

ـ خير يا بنتي إن شاء الله.

فقالت خديجة باهتمام مضاعف:

ـ رأيت كأنّي أمشي على سور سطح، ربّما كان سطح بيتنا أو غيره، وإذ بشخص مجهول يدفعني فأهوي صارخة.

وأمسكت أمينة عن تناول طعامها في اهتمام جدّيّ فلازمت الفتاة الصمت قليلًا لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتّى تمتمت الأمّ:

ـ اللّٰهمّ اجعله خيرًا.

وقالت عائشة وهي تغالب ابتسامة:

ـ لم أكن أنا الشخص المجهول الذي دفعك... أليس كذٰلك؟

وخافت خديجة أن يفسد الجوّ بالمزاح فصاحت بها:

ـ إنّه حلم وليس لعبًا فكفّي عن هذرك «ثمّ مخاطبة أمّها»... هويت صارخة ولٰكنّي لم أرتطم بالأرض كما توقّعت بل وقعت على جواد، حملني وطار.

وتنهّدت أمينة في ارتياح كأنّما أدركت ما وراء الحلم واطمأنّت إليه، وعادت إلى طعامها مبتسمة، ثم قالت:

ـ من يدري يا خديجة؟... لعلّه العريس!...

لم يكن يباح الكلام عن «العريس» إلّا في هٰذه الجلسة، وفي إيجاز بالإشارة أشبه، ووجب قلب الفتاة الذي لم يكربه شيء كما أكربه أمر الزواج، وكانت على إيمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمّها سرورًا عميقًا، بيْد أنّها أرادت أن تداري حياءها بالسخرية كعادتها ـ ولو من نفسها ـ فقالت:

ـ أتظنّين الجواد عريسًا؟.. لن يكون عريسي إلّا حمارًا.

فضحكت عائشة حتّى تطاير نثار الطعام من فيها، ثمّ خافت أن تسيء خديجة فهم ضحكتها فقالت:

ـ لَشَدَّ ما تظلمين نفسك يا خديجة! . . ما فيك من شيء يعاب.

فحدجتها خديجة بنظرة تنمّ عن الحذر والشكّ على حين راحت الأمّ تقول:

ـ أنت فتاة نادرة المثال، من يضارعك في مهارتك أو نشاطك؟ . . . وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف؟ ماذا تريدين أكثر من هٰذا؟

فمسّت الفتاة بسبّابتها أرنبة أنفها وتساءلت ضاحكة:

ـ ألا يسدّ هٰذا طريق الأزواج؟!

فقالت الأمّ مبتسمة:

ـ كلام فارغ . . . ما زلت صغيرة يا بنيّة.

وتضايقت لذكر الصغر لأنّها لم تكن تعدّ نفسها صغيرة بالقياس إلى سنّ الزواج، وخاطبت أمّها قائلة:

ـ لقد تزوّجت يا نينة وأنت دون الرابعة عشرة.

فقالت الأمّ التي لم تكن في الحقّ دون ابنتها قلقًا:

ـ لا يتقدّم أمر أو يتأخّر إلّا بإذن الله . .

وقالت عائشة في صدق:

ـ ربّنا يفرّحنا بك قريبًا يا خديجة.

فلحظتها خديجة بريبة وذكرت كيف طلبت إحدى جاراتهم يدها لابنها فرفض الأب أن تزوّج الصغرى قبل الكبرى، وتساءلت:

ـ أتودّين حقًّا أن أتزوّج أم تتمنّين أن يخلو لك السبيل فتتزوّجي؟!.

فقالت عائشة ضاحكة:

ـ الاثنين معًا . .

٦

ولـمّا فرغن من الفطور قالت الأمّ:

ـ عليك يا عائشة الغسيل اليوم، وعلى خديجة تنظيف البيت، ثمّ تلحقان بي في حجرة الفرن.

كانت أمينة توزّع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة، ومع أنّهما ترضيان بحكمها، وترضى به عائشة بلا مناقشة، إلّا أنّ خديجة تكلّف بتوجيه الملاحظات على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة، فلهٰذا قالت:

ـ أنزل لك عن التنظيف إذا كنت تستثقلين الغسيل، أمّا التمحّك بالغسيل للبقاء في الحمّام حتّى ينتهي العمل في المطبخ فعذر مرفوض مقدّمًا.

وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت إلى الحمّام وهي تدندن فقالت خديجة متهكّمة:

ـ يا بختك بالحمّام يرنّ فيه الصوت كما يرنّ في نفير الفونوغراف فغنّي وسمّعي الجيران.

وغادرت الأمّ الحجرة إلى الدهليز ثمّ إلى السلّم ورقّته إلى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحيّة قبل أن تنزل إلى حجرة الفرن. لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيّام عادة مألوفة في غير الأوقات التي يوجد فيها الأب في البيت، أو التي يطيب فيها السمر بين أفراد الأسرة، وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرقّة البالغة، وهي السياسة الوحيدة التي تنتهجها إزاء أبنائها لأنّها صادرة عن طبع لا يطيق سواها، أمّا ما تقتضيه التربية أحيانًا من الحزم فشيء لم تعرفه، ربّما تمنّته دون أن تقدر عليه. وربّما حاولت تجربته فغلبها التأثّر والضعف، وكأنّها لا تحتمل أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب المودّة والحبّ، تاركة للأب ـ أو لشخصيّته التي تسيطر من بعيد ـ تقويم المعوجّ وإلزام كلّ حدوده. لهٰذا لم يضعف النقار السخيف من إعجابها بفتاتيها ورضائها عنهما، حتّى عائشة المولعة حدّ الهوس بالغناء والوقوف أمام المرآة، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرًا بالرغم من تكاسلها. وكان هٰذا حريًّا بأن يمدّ لها في أوقات الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه، فهي تأبى إلّا أن تشرف على كلّ صغيرة وكبيرة بالبيت، وإذا فرغت الفتاتان من عملهما نشطت هي بالمكنسة في يد والمنفضة في يد وراحت تتفقّد الحجرات والصالات والدهاليز، متفحّصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسيّة، واجدة لذّة وارتياحًا كأنّما تزيل قذًى من عينيها، ومن وسوستها تلك أنّها كانت تفحص الثياب المعدّة للغسيل قبل

غسلها، فإذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوف لم تترك صاحبها دون أن تتلطّف في تنبيهه إلى واجبه، من كمال الذي يناهز العاشرة إلى ياسين الذي كان ذا ذوقين متناقضين في العناية بنفسه يتجلّيان في تأنّقه المفرط في مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء، وإهماله المعيب لثيابه الداخليّة. ومن الطبيعيّ ألّا تغفل هٰذه العناية الشاملة السطح وسكّانه من الحمام والدجاج، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحبّ والسرور، فيها من أغراض العمل ما فيها، إلى ما تجده من فرحة اللهو والمرح. ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التي لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل انضمامها إليه، خلقته بروحها خلقًا جديدًا على حين ظلّ البيت محافظًا على الهيئة التي شيّد عليها منذ عهد سحيق. هٰذه الأقفاص المثبتة في بعض جدرانه العالية يهدل عليها الحمام من وضعها، وهٰذه الأكواخ الخشبيّة يقوقئ الدجاج في مسارحها من تركيبها، وكم يملكها الفرح وهي ترمي الحبّ أو تضع على الأرض آنية السقيا فيستبق إليها الدجاج وراء ديكها، وتنهال مناقيرها على الحبّ في سرعة وانتظام كإبر آلة الخياطة، مخلّفة في الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ. وكم ينشرح صدرها إذ تنظر فتراها رانية إليها بأعين دقيقة صافية، مستطلعة متسائلة، ناقّة مقوقئة، في مودّة متبادلة ينزّ لها قلبها الحنون. أحبّت الدجاج والحمام كما تحبّ مخلوقات الله جميعًا، فهي تناغيها مناغاة رقيقة تحسب أنّها تفهمها وتتأثّر لها، ذٰلك أنّ خيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان، وأحيانًا الجماد نفسه. وعندها بمنزلة اليقين أنّ هٰذه الكائنات تسبّح بحمد ربّها وتتّصل بعالم الروح بأسباب، فعالمها بأرضه وسمائه، حيوانه ونباته، عالم حيّ عاقل. ثمّ لا تقتصر مزاياه على نغمة الحياة فيكمّلها بالعبادة. لم يكن غريبًا بعد هٰذا أن تكثر معاتبها من الديوك والدجاج معتلّة بسبب أو بآخر، هٰذا لأنّها معمّرة وتلك لأنّها بيّاضة وهٰذا لأنّها تستيقظ على صياحه، ولعلّها لو تركت وشأنها ما ارتضت أن تُعمل سكّينها في رقابها، وإذا دعتها الظروف إلى الذبح تخيّرت الدجاج أو الحمام فيما يشبه الضيق، ثمّ تسقيها وتترحّم عليها وتبسمل وتستغفر، وتذبحها وعزاؤها أنّها تستمتع بحقّ منحه الله المنّان وأوسع به على عباده. أمّا أعجب ما في السطح فكان نصفه الجنوبيّ المشرف على النحّاسين حيث غرست يداها في الأعوام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها في أسطح الحيّ كلّه التي تغطّى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن. بدأت أوّل ما بدأت بعدد قليل من أُصُص القرنفل والورد، وراحت تستكثر منها عامًا بعد عام حتّى نضّدت صفوفًا بحذاء أجنحة السور ونمت نموًّا بهيجًا، وخطر لخيالها أن تقيم فوق حديقتها سقيفة، فاستدعت نجّارًا فأقامها، ثمّ غرست شجرتي ياسمين ولبلاب ثمّ أنشبت سيقانها في السقيفة وحول قوائمها، فاستطالت وانتشرت حتّى استحال المكان بستانًا معروشًا ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوّع في أرجائها عَرف طيّب ساحر. هٰذا السطح بسكّانه من الدجاج والحمام، وبستانه المعروش، هو دنياها الجميلة المحبوبة، وملهاها الأثير في هٰذا العالم الكبير الذي لا تعرف عنه شيئًا، وكشأنها في مثل هٰذه الساعة مضت تتعهّده برعايتها فكنسته، وسقت زرعه، وأطعمت الدجاج والحمام، ثمّ تملّت طويلًا المنظر المحيط بها بثغر باسم وعينين حالمتين، ثمّ ذهبت إلى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفّة المتشابكة تمدّ بصرها من ثغراتها إلى ما يليها من فضاء لا تحدّه حدود.

كم تروعها المآذن التي تنطلق انطلاقًا ذا إيحاء عميق، تارة عن قرب حتّى لترى مصابيحها وهلالها في وضوح كمآذن قلاوون وبرقوق، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل كمآذن الحسين والغوري والأزهر، وثالثة من أفق سحيق فتتراءى أطيافًا كمآذن القلعة والرفاعي، وتقلّب وجهها فيها بولاء وافتتان، وحبّ وإيمان، وشكر ورجاء، وتحلّق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون إلى السماء، ثمّ تستقرّ منها العينان على مئذنة الحسين، أحبّها ـ لحبّ صاحبها ـ إلى نفسها، فتنفض نظرتها حنانًا وأشواقًا، مشوبة بحزن يطوف بها كلّما ذكرت حرمانها من زيارة

ابن بنت رسول الله وهي على مسير دقائق من مثواه. وتنهّدت نهدة مسموعة، استردّتها من استغراقها فثابت إلى نفسها وراحت تتسلّى بالنظر إلى الأسطح والطرقات فلم تزايلها الأشواق، ثمّ استدبرت السور وقد فاض بها التطلّع إلى المجهول، المجهول بالنسبة إلى الناس جميعًا وهو عالم الغيب، والمجهول بالقياس إليها وحدها وهو القاهرة. بل الأحياء المتاخمة التي تترامى إليها أصواتها. ترى ما هٰذه الدنيا التي لم ترَ منها إلّا المآذن والأسطح القريبة؟! ربع قرن من الزمان خلا وهي حبيسة هٰذا البيت لا تفارقه إلّا مرّات متباعدة لزيارة أمّها بالخرنفش. وعند كلّ زيارة يصطحبها السيّد في حنطور لأنّه لا يحتمل أن تقع عين على حرمه سواء وحدها أو بصحبته، لم تكن ساخطة ولا متذمّرة، إنّها أبعد ما تكون عن هٰذا. بيْد أنّها ما تكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب إلى الفضاء والمآذن والأسطح حتّى تعلو شفتيها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام. تُرى أين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمي في هٰذه اللحظة؟ وأين مدرسة خليل آغا التي يؤكّد كمال أنّها على مسير دقيقة من الحسين؟... وقبل أن تغادر السطح بسطت كفّيها ودعت ربّها قائلة: «اللّهمّ أسألك الرعاية لسيّدي وأبنائي، وأمّي ويس، والناس جميعًا مسلمين ونصارى، حتّى الإنجليز يا ربّي وأن تخرجهم من ديارنا إكرامًا لفهمي الذي لا يحبّهم».

٧

عندما بلغ السيّد أحمد عبد الجواد دكّانه الذي يقع أمام جامع برقوق بالنحّاسين كان جميل الحمزاوي وكيله قد فتحه وهيّأه للعمل، فحيّاه السيّد تحيّة رقيقة وهو يبتسم ابتسامة وضيئة واتّجه إلى مكتبه. وكان الحمزاوي في الخمسين من عمره، أنفق منها ثلاثين عامًا في هٰذا الدكّان، وكيلًا لمنشئه الحاج عبد الجواد ثمّ وكيلًا للسيّد بعد وفاة أبيه، وظلّ على الوفاء للسيّد بداعٍ من العمل والحبّ معًا، فهو يجلّه ويحبّه كما يجلّه ويحبّه جميع من يتّصل به بسبب من أسباب العمل أو الصداقة. والحقّ لم يكن السيّد مرهوبًا مخوفًا إلّا بين أهله، أمّا بين سائر الناس من أصدقاء ومعارف وعملاء فهو شخص آخر، له حظّه الموفور من المهابة والاحترام، ولٰكنّه شخصيّة محبوبة قبل كلّ شيء، ومحبوبة لظرفها قبل أيّ من سجاياها الحميدة الكثيرة، فلا الناس يعرفون السيّد الذي يقيم في بيته، ولا أهل البيت يعرفون السيّد الذي يعيش بين الناس. وكان دكّانه متوسّط الحجم، مكدّسة رفوفه وجنباته بجوالات البنّ والأرزّ والنُّقل والصابون، وعند ركنه الأيسر في قبالة المدخل يقوم مكتب السيّد بدفاتره وأوراقه وتليفونه، وإلى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحي منظرها بالصلابة ويذكّر لونها بالأوراق الماليّة. وفي منتصف الجدار فوق المكتب على إطار من الأبنوس نقشت بداخله البسملة مموّهة بالذهب. ولم تكن عجلة الدكّان تدور قبل الضحى. فجعل السيّد يراجع حسابات اليوم السابق بمثابرة ورثها عن أبيه وحافظ عليها بحيويّته الموفورة، على حين وقف الحمزاوي عند المدخل شابكًا ذراعيه على صدره مواصلًا تلاوة ما تيسّر من الآيات في صوت باطنيّ غير مسموع دلّت عليه حركة شفتيه المستمرّة، ووسوسة خافتة تندّ من آن لآن عن أحرف السين والصاد، ولم يتوقّف عن تلاوته حتّى جاء شيخ ضرير رتّبه السيّد كلّ صباح. وكان السيّد يرفع رأسه من الدفتر في فترات متباعدة فيستمع إلى التلاوة أو يمدّ بصره إلى الطريق حيث لا ينقطع تيّار المارّة وعربات اليد والكارو، وسوارس التي تكاد تترنّح من كبرها وثقلها، والباعة المغنّون وهم يترنّمون بطقاطيق الطماطم والملوخيّة والبامية كلٌّ على مذهبه، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعدما اعتادها وألفها أكثر من ثلاثين عامًا فاستنام إليها حتّى ليزعجه سكوتها. ثمّ جاء زبون فشغل الحمزاوي به، وأقبل نفر من أصحاب السيّد وجيرانه من التجّار ممّن يحبّون أن يقضوا معه وقتًا طيّبًا ولو لزمن وجيز يتبادلون فيه التحيّة ويغيّرون ريقهم ـ على حدّ تعبيرهم ـ على دعابة من دعاباته أو نكتة من نكته، الأمر الذي جعله يفاخر

بنفسه كمحدّث فائق البراعة، لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامّة التي اكتسبها، لا من التعليم حيث توقّف فيه دون الابتدائيّة، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والموظّفين والمحامين الذين أهّله لمخالطتهم ـ مخالطة الندّ للندّ ـ حضور بديهته ولطفه وظرفه ومنزلته كتاجر موفور الرزق، فاستجدّ لنفسه عقليّة غير العقليّة التجاريّة المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك المتمازون من حبّ واحترام وتكريم، ولـمّا قال له أحدهم مرّة في صدق وإخلاص: «لو أتيح لك يا سيّد أحمد أن تدرس القانون لكنت محاميًا مفوّهًا نادر المثال» نفخ قوله في خيلائه الذي يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته. ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباعًا، وتزايدت حركة العمل بالدكّان، ثمّ فجأة دخل رجل مهرولًا كأنّـما دفعته يد قويّة، ووقف في منتصف الدكّان وهو يضيّق عينيه الضيّقتين ليحدّ بصره، وسدّدهما صوب مكتب السيّد، ومع أنّه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة أمتار إلّا أنّه أجهده في معاينته بلا طائل ثمّ هتف متسائلًا:

ـ السيّد أحمد عبد الجواد موجود؟

فقال السيّد باسمًا:

ـ أهلًا وسهلًا بالشيخ متولّي عبد الصمد، تفضّل، حلّت البركة...

وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوي منه ليسلّم عليه ولكنّه لم ينتبه ليده الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوي وهو يخرج منديله وقد التقت في صفحة وجهه ابتسامة وتقطيبة، واندفع الشيخ إلى المكتب وهو يتمتم «الحمد لله ربّ العالمين»، ثمّ رفع طرف عباءته ومسح به على وجهه، وجلس على الكرسيّ الذي قدّمه السيّد له، وبدا الشيخ في صحّة يحسد عليها على سنّه التي جاوزت الخامسة والسبعين، ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الأشفار، وفوه المندثر، ما وجد ما يشكوه، وكان يتلفّع بعباءة بالية ناصلة وإن أمكنه أن يستبدل بها خيرًا منها بما يجود به المحسنون، ولكنّه استمسك بها لأنّه ـ فيما يقول ـ رأى الحسين في منامه وهو يباركه فبثّ فيها خيرًا لا يبلى، وكان إلى كراماته في قراءة الغيب والدعوات الشافية وعمل الأحْجبة معروفًا بالصراحة والظرف، وبه متّسع للدعابة والمزاح ممّا زاد من قدره عند السيّد خاصّة، ومع أنّه كان من سكّان الحيّ إلّا أنّه لم يثقل على أحد من مريديه بالزيارات، وربّما توالت الأشهر وهو غائب لا يُعلم له مكان، فإذا ألمّ بزيارة بعد انقطاع لاقى ترحابًا وأشواقًا وهدايا. وقد أشار السيّد إلى وكيله ليعدّ للشيخ الهديّة المعتادة من الأرزّ والبنّ والصابون، ثمّ قال للشيخ مرحّبًا:

ـ أوحشتنا يا شيخ متولّي... منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك.

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة:

ـ أغيب كما يحلو لي، وأحضر كما يحلو لي، ولا أسأل عن السبب...

فابتسم السيّد الذي ألف أسلوبه وتمتم قائلًا:

ـ إذا غبت أنت فإنّ بركتك لا تغيب...

فلم يَبْدُ على الشيخ أنّه تأثّر لإطرائه، وعلى العكس حرّك رأسه حركة تدلّ على نفاد الصبر وقال بخشونة:

ـ ألم أنبّه عليك أكثر من مرّة بألّا تفاتحني بالحديث، وأن تلزم الصمت حتّى أتكلّم أنا؟!

فقال السيّد وبه رغبة في التحكّك به:

ـ معذرة يا شيخ عبد الصمد، لئن كنت نسيت تنبيهك فعذري أنّي أنسيته لطول غيابك.

فضرب الشيخ كفًّا بكفّ وهتف:

ـ عذر أقبح من ذنب... (ثمّ منذرًا بسبّابته) إذا تماديت في مخالفتي امتنعت عن قبول هديّتك!

فأطبق السيّد شفتيه باسطًا راحتيه استسلامًا حاملًا نفسه على الصمت هذه المرّة، فتريّث الشيخ متولّي ليتأكّد من دخوله طاعته، وتنحنح ثمّ قال:

ـ ابدأ بالصلاة على سيّد الخلق الحبيب.

فقال السيّد من الأعماق:

ـ عليه الصلاة والسلام.

ـ وأثني على أبيك بما هو أهله، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنّاته، كأنّي به متّخذًا مجلسك

هٰذا، لا فارق بين الأب وابنه إلّا أنّ الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها هٰذا الطربوش. . .

فتمتم السيّد مبتسمًا:

ـ فليغفر الله لنا. . .

فتثاءب الشيخ حتّى دمعت عيناه ثمّ استطرد قائلًا:

ـ وأدعو الله أن يمنّ على أبنائك بالفلاح والتقوى، ياسين وخديجة وفهمي وعائشة وكمال وأمّهم آمين. . .

ووقع نطق الشيخ باسمي خديجة وعائشة من أذني السيّد موقعًا غريبًا على الرغم من كونه هو الذي أفضى إليه باسميهما منذ عهد طويل ليكتب لهما حجابين، وليست أوّل مرّة ينطق الشيخ باسميهما، ولا آخر مرّة، ولٰكن لم يكن يتردّد اسم واحدة من حريمه بعيدًا عن الحجرات ـ ولو على لسان الشيخ متولّي ـ حتّى يقع من نفسه موقعًا غريبًا ينكره ولو إلى حين. بَيْد أنّه غمغم قائلًا:

ـ آمين يا ربّ العالمين. . .

فتنهّد الشيخ قائلًا:

ـ ثمّ أسأل الله المنّان أن يعيد إلينا أفندينا عبّاس مؤيّدًا بجيش من جيوش الخليفة لا يُعرف له أوّل من آخر. . .

ـ نسأله وليس شيء عليه بكثير. . .

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضبًا:

ـ وأن يُمنى الإنجليز وأعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة.

ـ ربّنا يأخذهم جميعًا. . .

فحرّك الشيخ رأسه في أسًى وقال بحسرة:

ـ كنت بالأمس سائرًا في الموسكي فاعترض سبيلي جنديّان أستراليّان وطالباني بما معي فما كان منّي إلّا أن نفضت لهما جيوبي وأخرجت الشيء الوحيد الذي كان معي وهو كوز ذرة فتناوله أحدهما وركله كالكرة وخطف الآخر عمامتي وحلّ الشال ومزّقه ورمى به في وجهي.

وتابعه السيّد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن داراها بالمبالغة في إظهار استيائه صائحًا في استنكار:

ـ قاتلهم الله وأهلكهم. . .

فاتمّ الرجل حديثه قائلًا:

ـ رفعت يدي إلى السماء وصحت: يا جبّار مزّق أمّتهم كما مزّقوا شال عمامتي. .

ـ دعوة مستجابة بإذن الله. .

ومال الشيخ إلى الوراء وأغمض عينيه ليستريح قليلًا، ولبث على حاله والسيّد يتفرّس في وجهه مبتسمًا، ثمّ فتح عينيه وخاطب السيّد بصوت هادئ ونبرات تنذر بموضوع جديد، قائلًا:

ـ يا لك من رجل شهم جميل المروءة يا أحمد يا بن عبد الجواد! . . .

فابتسم السيّد في رضى وقال بصوت خفيض:

ـ أستغفر الله يا شيخ عبد الصمد. . .

فبادره الشيخ قائلًا:

ـ لا تتعجّل، إنّ مثلي لا يُلقي الثناء إلّا تمهيدًا لقول الحقّ، على سبيل التشجيع يا بن عبد الجواد. . .

فلاح الاهتمام والحذر في عيني السيّد وتمتم قائلًا:

ـ ربّنا يلطف بنا. . .

فأشار إليه بسبّابته العجراء وتساءل فيما يشبه الوعيد:

ـ ماذا تقول، وأنت المؤمن الورع، في وَلَعك بالنساء؟

كان السيّد معتادًا لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه، وضحك ضحكة مقتضبة ثمّ قال:

ـ ما عليّ من ذاك، ألا يحدّث رسول الله ﷺ عن حبّه للطيب والنساء؟

فقطّب الشيخ ومطّ بوزه محتجًّا على منطق السيّد الذي لم يعجبه وقال:

ـ الحلال غير الحرام يا بن عبد الجواد، والزواج غير الجري وراء الفاجرات. . .

فمدّ السيّد بصره للاشيء وقال بلهجة جدّيّة:

ـ ما ارتضت نفسي يومًا أن تعتدي على عرض أو كرامة قطّ، والحمد لله على ذٰلك. .

فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة واستنكار:

ـ عذر ضعيف لا ينتحله إلّا ضعيف، والفسق لعنة ولو يكن بفاجرة، كان أبوك رحمه الله مولعًا بالنساء

فتزوّج عشرين مرّة فلماذا لا تنتهج سبيله وتتنكّب طريق المعاصي؟!

فضحك السيّد ضحكة عالية وقال:

ـ أأنت وليّ من أولياء الله أم مأذون شرعيّ؟! كان أبي شبه عقيم فأكثر من التزوّج، وبالرغم من أنّه لم ينجب سواي إلّا أنّ عقاره تبدّد بيني وبين زوجات أربع مات عنهنّ، إلى ما ضاع على النفقات الشرعيّة في حياته، أمّا أنا فأب لثلاثة ذكور وأنثيين، وما يجوز لي أن أنزلق إلى الإكثار من الزوجات فأبدّد ما يسّر الله علينا من رزق، ولا تنسَ يا شيخ متولّي أنّ غواني اليوم هنّ جواري الأمس واللاتي أحلّهنّ الله بالبيع والشراء، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم...

فتأوّه الشيخ وقال وهو يهزّ نصفه الأعلى يمنة ويسرة:

ـ ما أبرعكم يا بني آدم في تحسين الشرّ، والله يا بن عبد الجواد لولا حبّي لك ما باليت أن تحدّثني وأنت قاعد على فاجرة...

فبسط السيّد راحتيه وقال باسمًا:

ـ اللّٰهمّ استجب...

فنفخ الشيخ متبرّمًا وهتف قائلًا:

ـ لولا مزاحك لكنت أكمل الناس...

ـ الكمال لله وحده...

فالتفت إليه وهو يشير بيده كأنّه يقول «فلْندَعْ هٰذا جانبًا» ثمّ سأله بلهجة المحقّق الذي ضيّق عليه الخناق:

ـ والخمر؟... ماذا تقول فيها؟!

وسرعان ما فترت روح السيّد ولاح في عينيه الضيق ولزم الصمت مليًّا، وآنس الشيخ من صمته تسليمًا فصاح بظفر:

ـ أليست حرامًا لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبّته؟

فبادره السيّد قائلًا في حماس من يدفع بلاء محقّقًا:

ـ لشدّ ما أحرص على طاعة الله ومحبّته!

ـ باللّسان أم بالعمل؟

ومع أنّ الجواب كان حاضرًا إلّا أنّه تمهّل متفكّرًا قبل أن ينطق به. لم يكن من عادته أن يشغل نفسه بالتفكير الذاتيّ أو التأمّل الباطنيّ. شأنه في ذٰلك شأن الذين لا يكادون يخلون إلى أنفسهم، ففكره لا يعمل حتّى يبعثه إلى العمل شيء خارجيّ، رجل أو امرأة أو سبب من أسباب حياته العمليّة، وقد استسلم لتيّار حياته الزاخر مستغرقًا فيه بكلّيّته، فلم يرَ من نفسه إلّا صورتها المنعكسة على سطح التيّار ثمّ لم يتراخَ توثّبه للحياة مع تقدّم العمر لأنّه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتّع بحيويّة فيّاضة مشبوبة لا يتأثّر بها إلّا الشابّ اليافع، لذٰلك جمعت حياته شتّى المتناقضات التي تراوح بين العبادة والفساد، وحازت جميعًا رضاه على تناقضها دون أن يدعم هٰذا التناقض بسند من فلسفة ذاتيّة أو تدبير ممّا يصطنع الناس من ألوان الرياء، ولٰكنّه كان يصدر في سلوكه عن طبيعته الخاصّة بقلب طيّب وسريرة نقيّة وإخلاص في كلّ ما يفعل، فلم تعصف بصدره عواصف الحيرة، وبات قرير العين. وكان إيمانه عميقًا. أجل كان إيمانًا موروثًا لا دخل للاجتهاد فيه، بَيْد أنّ رقّة مشاعره ولطافة وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساسًا رهيفًا ساميًا نأى به عن أن يكون تقليدًا أعمى، أو طقوسًا مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب، وبالجملة كان أبرز ما يتميّز به إيمانه بالحبّ الخصب النقيّ. بهٰذا الإيمان الخصب النقيّ أقبل يؤدّي فرائض الله جميعًا، من صلاة وصيام وزكاة في حبّ ويسر وسرور، إلى سريرة صافية وقلب عامر بحبّ الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقًا عزيزًا يستبق القوم إلى الريّ من منهله العذب، وبتلك الحيويّة الفيّاضة المشبوبة فتح صدره لمسرّات الحياة ولذائذها، يهشّ للمأكل الفاخر، ويطرب للشراب المعتّق، ويهيم بالوجه القسيم، فينهل منها جميعًا في فرح وبهجة وولع، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق، فهو يمارس حقًّا منحته إيّاه الحياة، وكأنّما لا تعارض بين حقّ الحياة على قلبه وحقّ الله على ضميره، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنّه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته، وآخاه في السلام. أكان شخصين منفصلين في شخصيّة واحدة؟!... أم كان في اعتقاده في السماحة الإلٰهيّة

بحيث لا يصدّق أنّها تحرّم هاتيك المسرّات حقًّا، وحتّى في حال تحريمها فهي حَرِيّة بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا أحدًا؟! الأرجح أنّه كان يتلقّى الحياة بقلبه وإحساسه دون ثمّة تفكير أو تأمّل، وجد بنفسه غرائز قويّة، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة، ويتحفّز بعضها الآخر لِلّذّات فأرواها باللهو، وخلطها بنفسه جميعًا آمنًا مطمئنًّا دون أن يشقّ على نفسه بالتوفيق بينها. لم يكن يضطرّ إلى تبريرها بفكره إلّا تحت ضغط انتقاد كالذي جابهه الشيخ متولّي عبد الصمد، وفي هٰذه الحال يجد نفسه أضيق بالتفكير منه بالتهمة نفسها، لا لأنّه يهون عليه أن يكون متّهمًا أمام الله، ولكن لأنّه لا يصدّق أبدًا أنّه متّهم، أو أنّ الله يغضبه حقًّا أن يلهو لهوًا لا يصيب أحدًا بأذًى، أمّا التفكير فكان يتعبه من ناحية ويكشف عن تفاهة علمه بدينه من ناحية أخرى، لذٰلك تجهّم للسؤال الذي ألقاه الرجل عليه متحدّيًا وهو «باللسان أم بالعمل» وأجابه بلهجة لا يخفى فيها الضيق:

ـ باللسان والعمل معًا، بالصلاة والصيام والزكاة، بذكر الله قائمًا وقاعدًا، وما عليّ بعد ذٰلك إذا روّحت عن نفسي بشيء من اللهو الذي لا يؤذي أحدًا أو يغفل فريضة، وهل حرّم محرّم إلّا هٰذا أو ذاك؟

فرفع الشيخ حاجبيه وأغمض عينيه معلنًا عن عدم اقتناعه ثمّ تمتم:

ـ يا له من دفاع في سبيل الباطل!

وتحوّل السيّد فجأة من الضيق إلى المرح كعادته فقال بأريحيّة:

ـ الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد، إنّي لا أتصوّره عزّ وجلّ غاضبًا أو متجهّمًا أبدًا، حتّى انتقامه رحمة خافية، وإنّي أقدّم بين يديه الحبّ والطاعة والبرّ، والحسنة بعشر أمثالها...

ـ أمّا في حساب الحسنات فأنت رابح..

فأشار السيّد إلى جميل الحمزاوي ليأتي بهديّة الشيخ وهو يقول مسرورًا:

ـ حسْبُنا الله ونِعْم الوكيل.

وجاءه الوكيل باللفّة فأخذها السيّد وقدّمها إلى الشيخ وهو يقول ضاحكًا:

ـ في صحّتك...

فتناولها الشيخ وهو يقول:

ـ رزقك الله رزقًا واسعًا وغفر لك...

فغمغم السيّد «آمين» ثمّ سأله باسمًا:

ـ ألم تكن يومًا من أهل ذٰلك يا سيّدنا الشيخ؟!

فضحك الشيخ قائلًا:

ـ سامحك الله، أنت رجل كريم طيّب القلب، وبهٰذه المناسبة أحذّركم من التمادي في الكرم فإنّه لا يتّفق وما يطالب به التاجر من القصد...

فتساءل السيّد دهشًا:

ـ أتغريني باسترداد الهديّة؟

فنهض الرجل وهو يقول:

ـ هديّتي لا تجاوز القصد فابدأ بغيرها يا بن عبد الجواد والسلام عليكم ورحمة الله...

وغادر الشيخ الدكّان مهرولًا وغاب عن الأنظار. ولبث السيّد مفكّرًا، ومضى يدير في نفسه ما ثار من جدل بينه وبين الشيخ ثمّ بسط راحتيه في ضراعة وتمتم «اللّٰهمّ اغفر لي ما تقدّم وما تأخّر من ذنب، اللّٰهمّ إنّك أنت الغفور الرحيم».

٨

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل آغا يضطرب في تيّار زاخر من التلاميذ الذين يسدّون الطريق بزحمتهم ثمّ يأخذون في التفرّق، بعضهم إلى الدراسة، وبعضهم إلى السكّة الجديدة، وآخرون إلى طريق الحسين، على حين تتحلّق جماعات منهم حَوْلَ الباعة المتجوّلين الذين يعترضون تيّاراتهم عند رءوس الطرقات المتفرّقة عن المدرسة بما تحمل سلالهم من اللبّ والفول السودانيّ والدوم والحلوى، وإلى هٰذا فلا يخلو الطريق في هٰذه الساعة من معارك تنشب هنا وهناك بين تلاميذ اضطرّوا إلى كتمان خلافاتهم في أثناء النهار تفاديًا من العقوبات المدرسيّة. وكانت المرّات التي سيق فيها إلى الاشتباك في معركة نادرة جدًّا، ولعلّها لم تَعْدُ المرّتين طوال العامين اللذين قضاهما في

المدرسة، لا لندرة خلافاته التي لم تكن نادرة في الواقع، ولا لكراهية للعراك فقد أورثه اضطراره إلى تجنّبه أسفًا عميقًا، ولكن لتقدّم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه في السنّ ممّا جعله هو وقلّة من أترابه غرباء في المدرسة يتعثّرون في بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيها بعد الخامسة عشرة وكثير منهم ناهزوا العشرين، فشقّوا طريقهم في صلف وكبرياء وقد طرّت شواربهم. من هؤلاء من كان يتعرّض له في فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيدًا كالكرة، أو من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسّها في فمه بغير استئذان مواصلًا ما كان فيه من حديث، فلم تكن الرغبة في العراك لتنقصه ولكنّه كظمها تقديرًا للعواقب، وما لبّاها حتّى دعاه إليها أحد أقرانه الصغار، فوجد الهجوم عليه متنفّسًا لعواطفه الثائرة المكبوتة واسترداده لثقته بقوّته ونفسه. وليس العراك، أو العجز عنه، بأسوأ ما لاقى من وقاحة المعتدين، فإلى هذا ما كان يترامى إلى أذنيه، سواء كان المقصود به أم غيره، من الشتائم والسباب، منه ما فطن لمعناه فحذره، ومنه ما جهله فردّده في البيت بحسن نيّة فأثار به عاصفة من الثورة والفزع اتصلت أنباؤها في صورة شكوى لضابط المدرسة الذي كان صديقًا لأبيه، ولكنّ سوء الحظ وحده هو الذي قضى بأن يكون أحد غريميه في المعركتين الوحيدتين اللتين خاضهما من أسرة فتوّات معروفة بالدراسة، فلمّا كان عصر اليوم التالي للمعركة وجد الغلام في انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبّان مدجّجين بالعصيّ في هالة من شرّ مستطير، ولـمّا أشار إليه غريمه ليدلّ عليه تنبّه لحركته وأدرك ما يتربّص به من خطر فتراجع هاربًا إلى المدرسة وهو يستغيث بالضابط، وعبثًا حاول الرجل أن يصرف العصابة عن مقصدها، وأغلظوا له القول حتّى اضطرّ إلى استدعاء شرطيّ ليوصل الغلام إلى داره، وزار الضابط السيّد في دكّانه وأنبأه بما يتهدّد ابنه من شرّ ناصحًا إيّاه بمعالجة الأمر بالحلم والكياسة، ولجأ السيّد إلى بعض معارفه من تجّار الدراسة فمضوا إلى بيت الفتوّات مستشفعين له، وهنالك استعان السيّد بما عرف عنه من سماحة نفس ورقّة شمائل حتّى ألان عريكتهم فأصدروا عن الغلام عفوهم بل وتعهّدوا بحمايته كأحد أبنائهم، ولم ينتهِ اليوم حتّى بعث السيّد بمن يحمل إليهم نفحة من هداياه، ونجا كمال من عصيّ الفتوّات ولكنّه كان كالمستجير من الرمضاء بالنّار، لأنّ عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصيّ.

غادر الغلام المدرسة، ومع أنّه كان لرنين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدراسيّ فرحة في نفسه لا تعادلها فرحة في تلك الأيّام إلّا أنّ نسائم الحرّيّة التي نشقها خارج بوّابة المدرسة بصدر رحب لم تَمْحُ أصداء الدرس الأخير الحبيب ـ درس الديانة ـ من قلبه. وقد قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة «قل أُوحي إليّ أنّه استمع نفر من الجنّ» وشرحها لهم، فتركّز فيه بوعيه، ورفع أصبعه أكثر من مرّة سائلًا عمّا أغلق عليه، ولـمّا كان الأستاذ يعطف عليه لإقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز، إلى حفظه للسور حفظًا جيّدًا، فقد أوسع صدره لأسئلته بحال يندر أن يحظى بها أحد التلاميذ، وراح الشيخ يحدّثه عن الجنّ وطوائفهم، وعن المسلمين منهم خاصّة الذين سيظفرون بالجنّة في النهاية أسوة بإخوانهم من البشر، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كلّ كلمة نطق بها، ولم يزل يديرها في نفسه حتّى هذه اللحظة التي يعبر فيها الطريق قاصدًا دكّان البسبوسة على الجانب الآخر، فإلى شغفه بالديانة كان يعلم أنّه لا يتلقّاها لنفسه فحسب، وأنّ عليه أن يعيد ما وعى منها في البيت على أمّه ـ كما اعتاد أن يفعل مذ كان في الكتّاب ـ فيلقي إليها بمعلوماته وتستعيد هي على ضوئها ما عندها من معلومات عرفتها عن أبيها الذي كان شيخًا أزهريًّا، ويتذاكران معارفهما طويلًا ثمّ يُحفظها الجديد من السور التي لم يسبق لها حفظها. وانتهى إلى دكّان البسبوسة فمدّ يده الصغيرة بالملاليم التي احتفظ بها منذ الصباح، ثمّ تناول القطعة في ارتياح شامل لا يشعر به إلّا في مثل هذا الموقف اللذيذ، ممّا جعله يحلم كثيرًا بأن يكون يومًا صاحب دكّان حلوى ليأكلها لا ليبيعها، ثمّ واصل سيره في

شارع الحسين وهو يقضم منها مسرورًا مترنّمًا. نسي وقتذاك أنّه كان سجينًا النهار كلّه، وأنّه كان محرومًا من الحركة فضلًا عن اللّعب والمرح، وأنّه كان عرضة في أيّة لحظة لعصا المدرّس المسلّطة على الرءوس، بَيْد أنّه رغم هٰذا كلّه لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنّه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع ـ بسبب تفوّقه الذي يرجع كثير من الفضل فيه إلى شقيقه فهمي ـ لا يحظى بعشر معشارها عند أبيه. ومرّ في طريقه بدكّان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كلّ يوم في مثل هٰذه الساعة تحت لافتتها يصعّد عينيه الصغيرتين إلى الإعلان الملوّن الذي يصوّر امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفتيها القرمزيّتين سيجارة يتطاير منها دخان متعرّج، معتمدة بساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارتها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجرًى من مجريات النيل، وكان يدعوها فيما بينه وبين نفسه «أبلة عائشة» لما بين الاثنتين من شبه يتمثّل في الشعر الذهبيّ والعينين الزرقاوين، ومع أنّه كان يناهز العاشرة إلّا أنّ إعجابه بصاحبة الصورة فاق كلّ تقدير، فكم تخيّلها متمتّعة بالحياة في أبهج مناظرها، وكم تخيّل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجرة ناعمة، ومنظر ريفيّ متاح لها ـ لهما ـ أرضه ونخيله وماؤه وسماؤه، يسبح في الوادي الأخضر أو يعبر النهر في قارب بدا في نهاية الصورة كالطيف، أو يهزّ النخيل فيساقط عليه الرطب، أو يجلس بين يدي الحسناء طامح الطرف إلى عينيها الحالمتين. على أنّه لم يكن جميلًا كأخويه، ولعلّه كان أشبه الأسرة بأخته خديجة، فمثلها قد جمع في وجهه بين عيني أمّه الصغيرتين وأنف أبيه الضخم ولٰكن بكامل هيئته لا مهذّبًا ببعض التهذيب كما ورثته خديجة، إلى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروزًا واضحًا جعل عينيه تبدوان غائرتين أكثر ممّا هما في الواقع، وكان من سوء الحظّ أن نبّه إلى غرابة صورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بأبي «رأسين» فأهاج غضبه وأورطه في إحدى المعركتين اللتين خاضهما، ولم يسكّن خاطره الانتقام فشكا في البيت حزنه إلى أمّه التي تكدّرت لكدره وراحت تعزّيه مؤكّدة له أنّ كبر الرأس من كبر العقل، وأنّ النبيّ عليه السلام كان كبير الرأس، وأنّه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطمع لطامع. ولـمّا انتزع نفسه من صورة المدخّنة واصل سيره رانيًا هٰذه المرّة إلى جامع الحسين الذي قضت نشأته بأن يكون لقلبه مثار أخيلة وعواطف لا تنضب. ومع أنّ المكانة التي نزلها الحسين من نفسه ـ تبعًا لمنزلته من نفس أمّه خاصّة والأسرة عامّة كانت وليدة قرابته من النبيّ إلّا أنّ معرفته للنبيّ وسيرته لم تكن شفيعًا إلى معرفته بالحسين وسيرته، وما تهفو نفسه دائمًا إليه من استعادة هٰذه السيرة والتزوّد منها بأنبل القصص وأعمق الإيمان. حتّى لقد وجدت منه على مرّ القرون مستمعًا مشغوفًا ومحبًّا مؤمنًا وأسيفًا بكّاء، فلم يهوّن من بلواه إلّا ما قيل من أنّ رأس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الأرض مسكنًا إلّا في مصر فجاء طاهرًا مسبّحًا ثمّ ثوى حيث يقوم ضريحه. وكم وقف حيال الضريح حالـمًا مفكّرًا، يودّ لو ينفذ ببصره إلى الأعماق ليطّلع على الوجه الجميل الذي أكّدت له أمّه أنّه قاوم غِيَر الدهر بسرّه الإلٰهيّ فاحتفظ بنضارته ورونقه حيث يضيء ظلمة المثوى بنور غرّته، ولـمّا لم يجد إلى تحقيق أمنيته سبيلًا قنع بمناجاته في وقفات طويلة، مفصحًا عن حبّه، شاكيًا إليه متاعبه الناشئة من تصوّراته عن العفاريت وخوفه من تهديد أبيه مستنجدًا به على الامتحانات التي تلاحقه كلّ ثلاثة أشهر، ثمّ خاتمًا مناجاته عادة بالتوسّل إليه أن يكرمه بالزيارة في منامه. ومع أنّ عادة مروره بالجامع صباحًا ومساءً خفّفت بعض الشيء من شدّة تأثّره به إلّا أنّه لم تكن تقع عليه عيناه حتّى يقرأ له الفاتحة ولو تكرّر ذٰلك منه مرّات في اليوم الواحد، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع من صدره بهجة الأحلام، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها مع قلبه، ولم يزل لمئذنته العالية نداء ما أسرع أن تلبّيه نفسه. قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثمّ انعطف إلى خان جعفر، ومنها اتّجه إلى بيت القاضي، ولٰكنّه بدلًا من أن يمضي إلى البيت مخترقًا النحّاسين عبّر الميدان إلى درب قرمز على وحشته

وإثارته لمخاوفه ليتفادى من المرور بدكّان أبيه. كان يرتعد فَرَقًا من أبيه ولا يتصوّر أنّه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه إذا زعق به غاضبًا، وضاعف من كربه أنّه لم يقتنع يومًا بالأوامر الصارمة التي يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تصبو إليه نفسه من اللعب والمرح، فلو أنّه أذعن لمشيئته مخلصًا لقضى وقت فراغه كلّه متربّعًا مكتوف اليدين لذلك لم يسعه أن يطيع تلك المشيئة الجبّارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلّما حلا له، في البيت أو في الطريق، وظلّ الرجل على جهل بأمره إلّا أن يبلغه شيء بوشاية من أهل البيت إذا ضاقوا بغلوّه وإفراطه، من ذٰلك أنّه جاء يومًا بسلّم وارتقاه إلى عرش اللبلاب والياسمين فوق السطوح، ورأته أمّه وهو على تلك الحال بين السماء والأرض فصرخت فزعة حتّى أجبرته على النزول، ثمّ غلب إشفاقها من مغبّة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من شدّة أبيه فصرّحت للسيّد بما كان منه، وسرعان ما دعا به وأمره أن يمدّ قدميه وانهال عليهما بعصاه غير مبالٍ بصراخه الذي ملأ البيت، وغادر الغلام الحجرة وهو يظلع ليجد إخوته في الصالة وهم يغالبون ضحككهم إلّا خديجة التي حملته بين يديها هامسة في أذنه «تستاهل... كيف تعلو اللبلاب وتناطح السماء! أحسبت نفسك زبلن؟!!» على أنّه فيما عدا الألعاب الخطرة كانت أمّه تتستّر عليه وتبيح له ما يشاء من اللعب البريء. ولشدّ ما يعجب كلّما ذكر كيف كان هٰذا الأب نفسه ظريفًا لطيفًا معه على عهد طفولته القريبة، وكيف كان يتسلّى بمداعبته وكيف كان ينفحه من آن لآخر بألوان شتّى من الحلوى، وكيف هوّن عليه يوم الختان ـ على فظاعته ـ فملأ حجره بالشيكولاتة والملبّس وشمله بعطفه ورعايته، ثمّ ما أسرع أن تغيّر كلّ شيء فتبدّل عطفه صرامة، ومناغاته زعقًا، ومداعباته ضربًا، حتّى الختان نفسه اتّخذه أداة لإرهابه حتّى اختلط عليه الأمر ردحًا من الزمن فظنّ أنّه من الممكن حقًّا أن يلحقوا ما تبقّى له بما ذهب! وليس الخوف وحده الذي شعر به نحو أبيه فإجلاله له لم يكن دون خوفه منه، كان يعجب بمظهره العظيم القويّ، ومهابته التي تعنو لها الهام، وأناقة ملبسه، وما يعتقده فيه من قدرة على كلّ شيء، ولعلّ حديث الأمّ عن سيّدها هو الذي هوّله عنده فلم يتصوّر أنّه يوجد في الدنيا رجل يضارعه في قوّته أو إجلاله أو ثروته. أمّا عن الحبّ فقد كان كلّ من في البيت يحبّ الرجل لحدّ العبادة فانسرب حبّه إلى قلبه الصغير بإيحاء البيئة، بَيْدَ أنّه ظلّ جوهرة مكنونة في حُقٍّ مغلق من الخوف والرعب. مضى يقترب من قبو درب قرمز المظلم الذي تتّخذه العفاريت مسرحًا لألعابها الليليّة، والذي آثره لنفسه طريقًا عن المرور بدكّان أبيه، وعندما دخل في جوفه راح يقرأ «قل هو الله أحد» بصوت مرتفع رنّ في الظلمة تحت السقف المنحني، وسبقته عيناه إلى فوّهة القبو البعيدة حيث يشعّ نور الطريق، ثمّ حثّ خطاه وهو يردّد السورة لطرد من تحدّثه نفسه بالظهور من العفاريت، فالعفاريت لا سبيل لها على من يدّرع بآيات الله، أمّا أبوه فلن يدرأ غضبه عنه إذا ثار أن يتلو كتاب الله كلّه. وخرج من القبو إلى الشطر الآخر من الدرب، وعند نهايته طالعه سبيل بين القصرين ومدخل حمّام السلطان، ثمّ لاحت لعينيه مشربيّات بيته بلونها الأخضر القاتم، والباب الكبير بمطرقته البرنزيّة فافترّ ثغره عن ابتسامة فرح لما يدّخره له هٰذا المكان من أفانين المرح، فعمّا قليل يهرع الغلمان إليه من جميع البيوت المجاورة إلى فنائه الواسع الذي يحوي عدّة حجرات تتوسّطها الفرن فيكون لعب ولهو وبطاطة. وفي تلك اللحظة رأى سوارس وهي تقطع الطريق على مهل متّجهة إلى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور ماكر، وما لبس أن دسّ حقيبة كتبه تحت إبطه الأيسر وجرى وراءها حتّى أدركها ثمّ وثب إلى سلّمها الخلفيّ، ولٰكنّ الكمساري لم يتركه في سروره طويلًا فجاءه يطالبه بثمن التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنمّ عن ريبة وتحدّ فقال له متودّدًا إنّه سيغادرها حالما تقف لأنّه لا يسعه النزول وهي سائرة، فتحوّل الرجل عنه إلى السائق وهتف به أن يوقف العربة وهو يزمجر غاضبًا فانتهز الغلام فرصة تحوّله عنه وشبّ على أمشاط قدميه وصفعه ثمّ وثب إلى الأرض وانطلق

هاربًا وشتائم الكمساري تلاحقه أشدّ من الأحجار المطيّنة!... لم تكن خطّة مدبّرة، ولا هي من مختار شطارته، ولكنّه رأى غلامًا يفعلها في الصباح فراقت له، ثمّ وجدها سانحة لإعادتها بنفسه ففعل.

٩

واجتمعت الأسرة ـ ما عدا الأب ـ قبيل المغيب فيما يعرف بينها بمجلس القهوة. وكانت الصالة بالدور الأوّل مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الإخوة والاستقبال ورابعة صغيرة أعدّت للدرس وقد فُرشت الصالة بالحُصُر الملوّنة وقامت في أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد. وتدلّى من سقفها فانوس كبير يشعله مصباح غازيّ في مثل حجمه. وكانت الأمّ تجلس على كنبة وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتّى النصف في جمرتها التي يعلوها الرماد، وإلى يمينها خوان وضعت عليه صينيّة صفراء صفّت عليها الفناجين، يجلس الأبناء حيالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمي ومن لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقنع بالسمر كالشقيقتين وكمال. تلك ساعة محبّبة إلى النفوس يستأنسون فيها إلى رابطتهم العائليّة، وينعمون بلذّة السمر، وينضوون جميعًا تحت جناح الأمومة في حبّ صافٍ ومودّة شاملة. وبدت في جلساتهم راحة الفراغ وتحرّره فكانوا بين متربّع ومضطجع، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحثّان الشاربين على الفراغ من شربهم لتقرآ لهم الطالع في فناجينهم راح ياسين يتحدّث حينًا ويقرأ في قصّة اليتيمتين من مجموعة مسامرات الشعب حينًا آخر. كان من عادة الشابّ أن يهب بعض فراغه لمطالعة القصص والأشعار لا لإحساسه بنقص تعليمه ـ فالابتدائيّة وقتذاك لم تكن مطلبًا صغيرًا ـ ولكن غرامًا بالتسلية وولعًا بالشعر والأساليب الجزلة. وقد بدا بجسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض كقربة هائلة إلّا أنّ مظهره لم يتعارض ـ بحكم الزمن ـ مع قسامة في وجهه الأسمر الممتلئ بعينيه السوداوين الجذّابتين وحاجبيه المقرونين وشفتيه

الشهوانيّتين، ونمّ بجملته ـ رغم حداثة سنّه الذي لا يجاوز الواحدة والعشرين ـ على رجولة مفعمة بالفحولة. ولبد كمال لصقه ليلتقط ما يرمي إليه بين آونة وأخرى من نوادر القصص وهو لا يكفّ عن الاستزادة منها غير مكترث لما يحدثه إلحاحه على أخيه من الضيق كي يشبع أشواقًا تشتعل بخياله في مثل هٰذه الساعة من كلّ يوم، ولٰكن ما أسرع أن يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق في المطالعة متفضّلًا عليه بين حين وآخر ـ كلّما اشتدّ إلحاحه بكلمات مقتضبة إن وجد بها الجواب على بعض أسئلته فما أحرى أن تستثير أسئلة جديدة لا جواب لها عنده، ثمّ لا يفتأ يرمق أخاه وهو آخذ في المطالعة التي تبيح له مفتاح العالم السحريّ بعين الحسد والحزن، فكم حزّ في نفسه عجزه عن قراءة القصّة بنفسه، وكم أحزنه أن يجدها بين يديه بحيث يقلّبها كيف شاء دون أن يسعه حلّ رموزها فالولوج منها إلى دنيا الرؤى والأحلام، فقد وجد في هٰذا الجانب من ياسين مثارًا لخياله هيّأ له من ألوان المسرّة ما هيّأ، وهيّج من أسباب الظمأ وعذابه ما هيّج، وكثيرًا ما كان يرفع عينيه إلى أخيه ويسأله في لهفة: «وماذا حدث بعد ذٰلك؟» فينفخ الشابّ قائلًا: «لا تضيّق عليّ بأسئلتك ولا تتعجّل حظّك فإن لم أقصّ عليك اليوم فغدًا»، ولم يكن يحزنه شيء كاستنظاره للغد حتّى اقترنت لفظة الغد في ذهنه بالحسرة، ولم يكن نادرًا أن يتحوّل إلى أمّه بعد تفرّق المجلس وبه أمل أن تقصّ عليه ما «حدث بعد ذٰلك» ولكنّ المرأة كانت تجهل قصة اليتيمتين وغيرها ممّا يقرأ ياسين إلّا أنّها يعزّ عليها أن تردّه خائبًا فتروي له ما تحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيروغ خياله إليها رويدًا ظافرًا بزاد من العزاء. في مجلس القهوة ذاك لم يكن عجيبًا أن يشعر بأنّه ضائع مهمَل بين أهله، لا يكاد يلتفت إليه أحد، وأنّهم مشغولون عنه بأحاديثهم التي لا تنتهي. فلم يتورّع عن الاختلاق في سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو إلى حين، ولذٰلك رمى بنفسه في مجرى الحديث معترضًا تيّاره بجرأة وقال بلهجة حادّة فجائيّة كانطلاق القذيفة كأنّما تذكّر أمرًا

خطيرًا بغتة:

ـ يا له من منظر لا ينسى الذي رأيته اليوم وأنا عائد!... رأيت غلامًا يثب إلى سلّم سوارس ثمّ صفع الكمساري وركض بأكبر سرعة فيا كان من الرجل إلّا أن عدا وراءه حتّى أدركه ثمّ ركله في بطنه بكلّ قوّته...

وقلّب عينيه في الوجوه ليرى أثر حديثه فلم يجد ثمّة اهتمام ولمس إعراضًا عن خبره المثير وتصميمًا على مواصلة الحديث، بل رأى يد عائشة تمتدّ إلى ذقن أمّه وتحوّلها عنه بعد أن همّت بالإصغاء إليه، ولمح إلى هٰذا ابتسامة هازئة ترتسم على شفتي ياسين الذي لم يرفع رأسه عن الكتاب، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع:

ـ وسقط الغلام يتلوّى وازدحم حوله الناس فإذا به قد فارق الحياة...

وأبعدت الأمّ الفنجان عن فمها وهتفت:

ـ يا ولداه!... أتقول إنّه مات؟!

وسرّ باهتمامها وركّز قوّته فيها كما يركّز المهاجم اليائس قوّته في نقطة ضعيفة من سور منيع فقال:

ـ أجل مات، ورأيت بعينيّ دمه وهو يسيل بغزارة...

وحدجه فهمي بنظرة ساخرة كأنّها تقول له «إنّي أذكر لك أكثر من قصّة من هٰذا النوع» وقال متسائلًا في تهكّم:

ـ قلت إنّ الكمساري ركله في بطنه؟... فمن أين سال الدم؟!

وانطفأت شعلة الظفر التي تلألأت في عينيه منذ جذب أمّه إليه، وحلّ محلّها سهوم الارتباك والحنق، ولكن أسعفه الخيال فاستردّت نظرة عينيه حيويّتها وقال:

ـ لـمّا ركله في بطنه سقط على وجهه فشجّ رأسه!

وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمتين:

ـ أو أنّ الدم سال من فيه، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة إلى جرح ظاهريّ، هنالك أكثر من تفسير لخبرك المكذوب ـ كالعادة ـ فلا تخف...

واحتجّ كمال على تكذيب أخيه وراح يحلف بأغلظ الأيمان على صدقه ولكنّ احتجاجه ضاع في ضجّة من الضحك جمعت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء في هارموني واحدة، وتحرّكت طبيعة خديجة الساخرة فقالت:

ـ ما أكثر ضحاياك، لو صدقت فيما تروي من أخبار لما أبقيت على أحد من أهل النحّاسين حيًّا... ماذا تقول لربّنا لو حاسبك على أخبارك هٰذه؟!

ووجد في خديجة مهاجمًا يقدر عليه، وكعادته كلّما ارتطم بسخريتها راح يعرّض بأنفها قائلًا:

ـ أقول له إنّ الحقّ على منخور أختي...!

فقالت الفتاة وهي تضحك:

ـ من بعض ما عندكم. ألسنا في البلوى سواء!

وهنا قال ياسين مرّة أخرى:

ـ صدقت يا أختاه.

وتحوّلت إليه متحفّزة للانقضاض فبادرها قائلًا:

ـ هل أغضبتك!... لماذا!... ليس إلّا أنّني جاهرت بالموافقة على رأيك...

فقالت له حانقة:

ـ اذكر عيوبك قبل أن تعرّض بعيوب الناس...

فرفع عينيه متظاهرًا بالحيرة ثمّ تمتم:

ـ والله إنّ أكبر عيب ليهون إلى جانب هٰذا الأنف...

وتظاهر فهمي بالاستنكار ثمّ تساءل في نبرات وشت بانضمامه إلى المهاجمين:

ـ ماذا قلت يا أخي، أهو أنف أم جريمة؟

ولـمّا كان فهمي لا يشترك في مثل هٰذا النضال إلّا نادرًا فقد رحّب ياسين بقوله في حماس وقال:

ـ هي الاثنان معًا، فكّر في المسئوليّة الجنائيّة التي سيتحمّلها من يقدّم هٰذه العروس إلى عريسها المنكود.

وقهقه كمال ضاحكًا بصوت كالصفير المتقطّع ولم ترتح الأمّ إلى وقوع ابنتها بين كثرة من المهاجمين فأرادت أن ترجع الحديث إلى أصله وقالت بهدوء:

ـ خرج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث، كان حديثًا عن السيّد كمال أصدَق في أخباره أم لم يصدق، ولكن أظنّ أنّه لا داعي إلى الشكّ في صدقه

بعد أن حلف... أجل كمال لا يحلف كذبًا أبدًا...

وباخ سرور الغلام الانتقاميّ لتوّه، ومع أنّ إخوته واصلوا المزاح حينًا آخر إلّا أنّه انقطع عنهم بروحه، متبادلًا مع أمّه نظرات ذات معنى، ثمّ خاليًا بنفسه متفكّرًا في قلق وكدر. كان يدرك خطورة الحلف الكاذب فيما يثير من سخط الله وأوليائه، ويعزّ عليه جدًّا أن يحلف كذبًا بالحسين خاصّة لولعه به، ولٰكنّه كثيرًا ما وجد نفسه في مأزق حرج ـ كما وجد اليوم ـ لا مخرج منه في نظره إلّا بالحلف الكاذب، فينساق وهو لا يدري إلى التورّط فيه. بَيْد أنّه لم يكن ينجو، خاصّة إذا ذُكّر بجريرته، من الهمّ والقلق، ويودّ لو يقتلع الماضي السيّئ من جذوره، وأن يبدأ صفحة جديدة نظيفة، وذكر الحسين، وموقفه عند أصل مئذنته حيث تتراءى وكأنّ هامتها تتّصل بالسماء، وسأله في ضراعة أن يعفو عن زلّته وهو يشعر بغضاضة من اجترأ على حبيب بإساءة لا تغتفر. وغرق في توسّلاته مليًّا ثمّ أخذ يفيق إلى ما حوله ويفتح أذنيه إلى ما يدور من حديث فيه المُعاد وفيه الجديد، وقليل منه ما يسترعي انتباهه، ولٰكنّه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات منتزعة من ماضي الأسرة البعيد أو القريب، وأنباء ممّا يجري عن مسرّات الجيران وأحزانهم، ومواقف حرجة للأخوين أمام أبيهما الجبّار، تنبري خديجة إلى استعادة وصفها وتحليلها على سبيل الفكاهة أو الشماتة، ومن هٰذه وتلك نمت للغلام معرفة تبلورت في مخيّلته على صورة غريبة تأثّر تكوينها غاية التأثّر بما تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجّميّة وروح أمّه السمحة العفوة. وانتبه أخيرًا إلى فهمي وهو يقول مخاطبًا ياسين:

ـ إنّ هجوم هندنبرج الأخير شديد الخطورة ولا يبعد أن يكون الهجوم الفاصل في هٰذه الحرب.

وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولٰكن في هدوء متّسم بقلّة الاكتراث، تمنّى مثله أن ينتصر الألمان وبالتالي الترك وأن تستردّ الخلافة سابق عزّتها، وأن يعود عبّاس ومحمّد فريد إلى الوطن ولٰكنّ أمنية من هٰذه الأماني لم تكن لتشغل قلبه في غير أوقات الحديث عنها، وقد قال وهو يهزّ رأسه:

ـ مضى أربع سنوات ونحن نردّد هٰذا الكلام...

فقال فهمي برجاء وإشفاق:

ـ لكلّ حرب نهاية، ولا بدّ أن تنتهي هٰذه الحرب، ولا أظنّ الألمان ينهزمون!...

ـ هٰذا ما ندعو الله أن يتحقّق، ولٰكن ماذا يكون رأيك لو وجدنا الألمان كما يصفهم الإنجليز؟!

ولـمّا كانت المعارضة تشعل حدّته فقد علا صوته وهو يقول:

ـ المهمّ أن نتخلّص من كابوس الإنجليز، وأن تعود الخلافة إلى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهّدًا...

وتدخّلت خديجة في الحديث متسائلة:

ـ ولماذا تحبّون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقي قنابله علينا؟!

وراح فهمي يؤكّد ـ كعادته ـ أنّ الألمان قصدوا الإنجليز بقنابلهم لا المصريّين، فانتقل الحديث إلى مناطيد زبلن وما يقال عن ضخامتها وسرعتها وخطورتها، حتّى استوى ياسين في جلسته ونهض إلى حجرته ليرتدي ملابسه تمهيدًا لمغادرة البيت إلى سهرته المعتادة، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تهيّأ وأخذ زينته، فتراءى أنيق الملبس، جميل المظهر، وبدا بجسمه الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النابت أكبر من سنّه كثيرًا، ثمّ حيّاهم وانصرف وشيّعه كمال بنظرة تنمّ عمّا يغبطه عليه من التمتّع بحرّيّته في انطلاق ساحر، فلم يغب عنه أنّ أخاه لم يعد يُحاسَب ـ منذ تعيينه كاتبًا بمدرسة النحّاسين ـ على ذهابه وإيابه، وأنّه يسهر كما يشاء ويعود حين يشاء، ما أجمل هٰذا وأسعده، وكم يكون إنسانًا سعيدًا لو ذهب وجاء كما يحبّ، ومدّ سهرته إلى حيث يشاء، وقصر القراءة ـ حين تتمّ له أداتها ـ على الروايات والأشعار، ثمّ سأل أمّه فجأة:

ـ أيمكنني إذا وظّفت أن أسهر في الخارج كياسين؟

وابتسمت الأمّ قائلة:

ـ ليس السهر في الخارج بالغاية التي يصحّ أن تحلم بها من الآن!

فصاح محتجًّا:

ـ ولٰكن أبي يسهر، وياسين يسهر كذٰلك.

فرفعت الأمّ حاجبيها ارتباكًا وتمتمت:

ـ شدّ حيلك أوّلًا حتّى تصير رجلًا ثمّ موظّفًا، ووقتها يفرجها ربّنا!

ولٰكن كمال بدا متعجّلًا فتساءل:

ـ ولماذا لا أتوظّف بالابتدائيّة بعد ثلاثة أعوام؟

وصاحت خديجة في سخرية:

ـ تتوظّف دون الرابعة عشرة!... وماذا تصنع إذا بلت على نفسك في الوظيفة؟!

وقبل أن يعلن ثورته على أخته قال له فهمي بازدراء:

ـ يا لك من حمار... لماذا لا تفكّر في دخول الحقوق مثلي؟... إنّ ظروف ياسين القاهرة هي التي جعلته يأخذ الابتدائيّة في العشرين من عمره، ولولاها لأتمّ تعليمه... ألا تدري كيف تتمنّى يا كسول!

١٠

عندما صعد فهمي وكمال إلى سطح البيت كانت الشمس على وشك الاختفاء، فلاحت قرصًا أبيض مسالمًا تولّت عنه حيويّته وبردت حرارته وانطفأ توهّجه، وقد بدا بستان السطح المسقوف باللبلاب والياسمين في ظلمة وانية، ولٰكنّ الشابّ والغلام مضيا إلى شطر السطح الآخر حيث لا يحجب فلول النور حجاب، ثمّ مالا إلى السور الملاصق لسور السطح المجاور، سطح الجيران. وكان فهمي يرقى بكمال إلى هٰذا الوضع كلّ مغيب بحجّة مراجعة دروسه في الهواء الطلق على الرغم من أنّ جوّ نوڤمبر أخذ يميل إلى البرودة في هٰذه الساعة من اليوم، وأوقف الغلام بحيث جعل ظهره إلى السور، ووقف هو لقاءه بحيث أمكنه أن يمدّ بصره إلى سطح الجيران الملاصق دون تلفّت كلّما بدا له. وهناك بين حبال الغسيل لاحت فتاة ـ شابّة في العشرين أو نحو ذٰلك ـ وقد انهمكت في جمع قطع الثياب الجافّة وتكديسها في سلّة كبيرة. ومع أنّ كمال راح يتكلّم بصوت مرتفع كعادته إلّا أنّها واصلت عملها وكأنّها لم تنتبه إلى مجيء الطارئين. أمل كان مجيء به دوامًا في مثل هٰذه الساعة لعلّه يفوز منها بنظرة إذا اتّفق ودعاها إلى السطح بعض شأنها، ولم يكن تحقيقه يسيرًا كما دلّ تورّد وجهه الناطق بفرط سروره، وخفقان قلبه المتتابع ببهجة مفاجئة، فجعل ينصت إلى أخيه الصغير بعقل تائه وعينين أقلقهما استراق النظر، وهي تتراءى تارة وتحتجب أخرى، أو يبدو بعضها ويغيب بعضها، كيفما اتّفق موقفها من الثياب والملاءات المنشورة... كانت فتاة متوسّطة القامة صافية البشرة مع ميل إلى البياض، سوداء العينين، تنطق مقلتاها بنظرة تفيض حياة وخفّة وحرارة، إلّا أنّ جمالها وعاطفته المتوثّبة وإحساسه بالظّفر لرؤيتها لم تستطع أن تمحو القلق الذي يدبّ وراء قلبه ـ وانيًا حين حضورها ثمّ قويًّا إذا خلا إلى نفسه ـ لجرأتها على التعرّض لعينيه كأنّه ليس بالرجل الذي ينبغي أن تتوارى فتاة مثلها عن عينيه، أو كأنّها فتاة لا تبالي التعرّض للرجال، وطالما ساءل نفسه ما بالها لا تفزع مولّية كخديجة أو عائشة لو وجدت إحداهما نفسها في مثل موقفها! أيّ روح عجيب يشذّ بها عن التقاليد المرعيّة والآداب المقدّسة!، وألّا يكون أهدأ جانبًا لو بدا منها ذاك الاحتشام المفتقد ولو على حساب سروره الذي يفوق الوصف برؤيتها؟!... بَيْد أنّه دأب على انتحال الأعذار لها من قِدَم الجوار ووحدة النشأة، وربّما الوداد أيضًا. ثمّ لا يفتأ وراء نفسه يحاورها ويجادلها حتّى تشجع وترضى. ولـمّا لم يكن جريئًا كجرأتها فقد جعل يختلس من الأسطح المجاورة النظر ليطمئنّ إلى خلوّها من الرقيب لأنّه لم يكن ممّا يُغضّ الطرف عنه أن يجرح شابّ في الثامنة عشرة حرمة الجيران، وخاصّة من كان منهم في طيبة جارهم السيّد محمّد رضوان ولهٰذا أقلقه دائمًا شعوره بخطورة فعلته، وخوفه من أن يترامى نبؤها إلى أبيه فتكون الطامة. ولٰكنّ استهانة الحبّ بالمخاوف عجب قديم فلم يقدر شيء منها على إفساد نشوته أو انتزاعه من حلم ساعته، فمضى يراقبها وهي تبدو أو تختفي حتّى خلا ما بينه وبينها وباتت تواجهه ويداها الصغيرتان ترتفعان وتنخفضان وأصابعها تنقبض وتنبسط على مهل وتؤدة كأنّها تتعمّد إطالة عملها.

وحدس قلبه ذاك التعمّد وهو بين الشكّ والتمنّي ولٰكنّه لم يقتصد في الانطلاق مع فرحته إلى أبعد الآفاق حتّى استحال باطنه رقصًا وأنغامًا، ومع أنّها لم ترفع عينيها إليه قطّ إلّا أنّ هيئتها وتورّد وجنتيها وتحاميها النظر إليه نمّت جميعًا عن شدّة إحساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على إحساسها. وبدت في هدوئها وصمتها موفورة الرزانة كأنّها ليست هي هي التي تشيع الفرحة والبهجة في بيته إذا زارت شقيقتيه، أو ليست هي هي التي يعلو صوتها في جنبات الدار وترنّ ضحكاتها، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه في يده استعدادًا للتظاهر بالاستذكار إذا طرقه طارق، ويروح يستقبل بوعيه المركّز أنغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من أصوات الآخرين الملابسة لها التي لا يكاد يشعر بها كأنّما وعيه مغناطيس يجذب إليه الصلب وحده من بين أخلاط شتّى، وربّما لحظ بعضًا منها وهو يعبر الصالة، وربّما التقت عيناهما في لمحة خاطفة ولٰكنّها كافية لإسكاره وإذهاله كأنّه تلقّى بها رسالة خطيرة دار رأسه بخطورتها، وملأ بنظراته المسترقة من وجهها عينيه وروحه، على الرغم من أنّها كانت مسترقة خاطفة إلّا أنّها مستأثرة بروحه وإحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوّة التي تأتي النظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسبر العميق، كأنّها انبثاق البرق الذي يتوهّج لحظة قصيرة فتضيء شرارته الرحاب وتخطف الأبصار، وثمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولٰكنّه لم يَخْلُ ـ كحالة أبدًا ـ من ظلّ أسى يتبعه كما تتبع رياح الخمسين مشرق الربيع، لأنّه لم يكن يكفّ عن التفكير في الأربعة الأعوام التي يتمّ تعليمه فيها، والتي لا يدري كم من يد قد تمتدّ في أثنائها إلى الثمرة الناضجة لتقطفها. ولو كان جوّ البيت غير هٰذا الجوّ الخانق الذي تشدّ على عنقه قبضة أبيه الحديديّة لأمكنه أن يلتمس إلى سلام قلبه أقصر السبل، ولٰكنّه خاف دائمًا أن ينفّس عن آماله فيعرّضها لزجرة من أبيه قاسية تطيّرها وتبدّدها. وتساءل وهو يمدّ بصره فوق رأس أخيه تُرى أيّ أفكار تدور برأسها؟ ألا يشغله حقًّا إلّا ما تجمع من قطع الملابس؟... ألم تشعر بعد بما يجذبه إلى موقفه هٰذا مساء بعد مساء؟... وكيف يلقى قلبها هٰذه الخطى الجريئة من ناحيته؟... وتخيّل نفسه متخطّيًا سور السطوح إلى مكانها في الظلام، وتخيّلها على أطوار شتّى تارة تنتظره على ميعاد، وتارة تباغت بمقدمه حتّى تهمّ بالفرار، ثمّ تصوّر ما يكون بعد ذٰلك وما يندّ عنه من بوح وشكوى وعتاب، ثمّ ما قد يستتبعه هٰذا أو ذاك من عناق وقُبَل، بيد أنّها كانت محض تخيّلات وأوهام، وكان أدرى الناس ـ بما جبل عليه من دين وآداب ـ ببطلانها ومحالها. وبدا الموقف صامتًا إلّا أنّه كان صمتًا مكهربًا يكاد ينطق بغير لسان، وحتّى كمال لاحت في عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنّه يسائل نفسه عن معنى هٰذا الجدّ الغريب الذي يثير استطلاعه على غير جدوى، ثمّ نفد صبره فرفع صوته قائلًا:

ـ لقد حفظت الكلمات، ألا تسمّعها لي؟

وأفاق فهمي على صوته فتناول الكرّاسة منه ومضى يسأله عن معاني الكلمات والآخر يجيب حتّى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سببًا وأيّ سبب فرفع صوته عمدًا وهو يسأله عن معناها قائلًا:

ـ قلب...؟

وأجاب الغلام وتهجّى الآخر يتلمّس أثر موقع الكلمة من وجهها، ثمّ رفع صوته مرّة أخرى متسائلًا:

ـ حبّ...؟

وارتبك كمال قليلًا ثمّ قال بصوت يدلّ على الاعتراض:

ـ ليست هٰذه الكلمة في الكرّاسة...

قال فهمي باسمًا:

ـ ولٰكنّي ذكرتها لك مرارًا، وكان يجب أن تحفظها...!

وقطّب الغلام كأنّه يشدّ قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولٰكنّ أخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلًا:

ـ زواج...

وخيّل إليه عند ذاك أنّه لمح على شفتيها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه في سرعة وحرارة، وملأه شعور بالظفر لأنّه أمكنه أخيرًا أن ينقل إليها شحنة من الكهرباء التي تستعر في صدره، بَيْد أنّه تساءل لماذا يا ترى لم تفصح عن تأثّرها إلّا عند هٰذه الكلمة، ألأنّها استنكرت سابقتها أم أنّ الأخيرة كان أوّل ما وعت أذناها؟!... وما يدري إلّا وكمال يقول محتجًّا بعد أن أعياه التذكّر:

ـ هٰذه الكلمات صعبة جدًّا...

وآمن قلبه بقولة أخيه البريئة، وذكر على ضوئها حاله ففترت فورة سروره أو كادت. وهمّ بالكلام ولٰكنّه رآها انحنت على السلّة ثمّ حملتها واتّجهت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغط الغسيل براحتيها، قريبة من موقعه لا يفصلها عنه إلّا ذراعان، ولو شاءت لاختارت موضعًا آخر من السور ولٰكن كأنّها تعمّدت أن تتصدّى له وجهًا لوجه، فبدت في هجومها جريئة لحدّ أخافه وأربكه، وإن عاود قلبه الخفقان السريع الحارّ حتّى شعر بأنّ الحياة تبيح له من كنوزها لونًا جديدًا لم يَدْرِه، لطيفًا بهيجًا مفعمًا حيويّة وأفراحًا. ولٰكنّ وقفتها القريبة لم تطُلْ فما لبثت أن رَفعت السلّة بين يديها واستدارت مولّية صوب باب السطح حتّى مرقت منه وغابت عن ناظريه. وجعل ينظر إلى الباب مليًّا دون مبالاة بأخيه الذي عاود التشكّي من صعوبة الكلمة ثمّ شعر برغبة في الانفراد لتملّي ما استجدّ من تجارب الهوى فقلّب عينيه في الفضاء في تظاهر بالدهشة كأنّما يتنبّه إلى الظلمة الزاحفة في الأفق لأوّل مرّة، وتمتم قائلًا:

ـ آن لنا أن نعود...

١١

وكان كمال يستذكر دروسه في الصالة، تاركًا حجرة الاستذكار لفهمي وحده، ليكون غير بعيد عن مجلس أمّه وأختيه: وكان ذٰلك المجلس امتدادًا لمجلس القهوة إلّا أنّه يقتصر على النسوة وحديثهنّ الخاصّ الذي يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة، وقد جلسن كعادتهنّ متلاصقات كأنّهنّ جسم واحد ذو رءوس ثلاثة في حين تربّع كمال على كنبة أخرى قبالتهنّ فاتحًا كتابه في حجره يقرأ فيه حينًا، ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حينًا آخر، ويتسلّى بين هٰذا وذاك بالنظر إليهنّ والإصغاء لحديثهنّ، ولم يكن فهمي يوافق على استذكاره لدروسه بعيدًا عن مراقبته إلّا على كره ولٰكنّ تفوّق الغلام في المدرسة شفع له في اختيار المكان الذي يحبّ أن يستذكر فيه. والحقّ كان اجتهاده فضيلته الوحيدة التي تحمد له، ولولا شقاوته لاستحقّ عليها تشجيع أبيه نفسه، ولٰكنّه على اجتهاده وتفوّقه كانت تلمّ به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتّى ليغبط أمّه وأختيه على خلوّ بالهنّ وما يحظين به من راحة وسلام، وربّما تمنّى فيما بينه وبين نفسه لو كان حظّ الذكور في هٰذه الدنيا كحظّ النساء. إلّا أنّها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تنسيه ما يتمتّع به من مزايا دعته في أحايين كثيرة إلى التطاول عليهنّ بالفخر والمباهاة لداعٍ ولغير ما داعٍ فلم يكن من النادر أن يسألهنّ وفي صوته رنّة من التحدّي «من منكنّ تعرف عاصمة الكاب؟» أو «ما معنى شابّ بالإنجليزيّة؟» فيجد من عائشة صمتًا لطيفًا على حين تقرّ له خديجة بجهلها ثمّ تعرّض به قائلة: «ليس لهٰذه الطلاسم إلّا من كان له رأس كرأسك!» أمّا أمّه فتقول له في إيمان ساذج: «لو علّمتني هٰذه الأشياء كما تعلّمني الديانة لما قصّرت فيها دونك». ذٰلك أنّ أمّه ـ على استكانتها ورقّتها ـ كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبيّة المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم، ولم تكن تظنّ أنّها بحاجة إلى مزيد من العلم أو أنّه استجدّ من العلم ما يستحقّ أن يضاف إلى ما لديها من معارف دينيّة وتاريخيّة وطبّيّة، وضاعف من إيمانها بها أنّها تلقّته عن أبيها أو في بيته الذي نشأت فيه، وكان الأب شيخًا من العلماء الذين فضّلهم الله ـ لحفظهم القرآن ـ على العالمين. فلم يكن معقولًا أن تعدل بعلمه علمًا ولو لم تجهر برأيها إيثارًا للسلامة، ولهٰذا كثيرًا ما أساءت الظنّ ببعض ما يقال للأبناء في المدارس ووجدت ثمّة حيرة شديدة سواء في تفسيره أو في السماح بتلقينه للناشئين،

بيْد أنّها لم تعثر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام في المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها، ولـمّا كان الدرس المدرسيّ لا يكاد يتّسع إلّا لقراءة السور وتفسيرها وتبيّن المبادئ الدينيّة الأوّليّة فقد وجدت متّسعًا لقصّ ما عندها من أساطير لا تنفصل في اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلّها رأت فيها دائمًا حقيقة الدين وجوهره، وجلّها معجزات وكرامات عن النبيّ والصحابة والأولياء، وتعاويذ شتّى للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض فصدّقها الغلام وآمن بها، لأنّها صادرة عن أمّه من ناحية، ولأنّها جديدة في موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينيّة المدرسيّة من ناحية أخرى، وفضلًا عن هٰذا وذاك فلم تكن عقليّة مدرّس الديانة كما تتكشّف في تبسّطه في الحديث أحيانًا ـ لتختلف عن عقليّة أمّه كثيرًا أو قليلًا، ثمّ إنّه شُغف بالأساطير شغفًا لم يظفر بمثله في الدروس الجافّة فكان درس أمّه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها بالمتعة والخيال. أمّا فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرًا إذا تهيّأت أسبابه، من ذٰلك أنّهما اختلفا مرّة عن الأرض وهل هي تدور حول نفسها في الفضاء أو تنهض على رأس ثور، ولـمّا وجدت من الغلام إصرارًا تراجعت متظاهرة بالتسليم، ولٰكنّها تسلّلت إلى حجرة فهمي وسألته عن حقيقة الثور الذي يحمل الأرض وهل ما زال على عهده يحملها. ورأى الشابّ أن يترفّق بها ويجيبها باللغة التي تحبّها فقال لها إنّ الأرض مرفوعة بقدرة الله وحكمته. وعادت المرأة قانعة بهٰذا الجواب الذي سرّها وإن لم يَمْحُ من مخيّلتها ذاك الثور الكبير. على أنّ كمال لم يؤثر هٰذا المجلس لاستذكاره رغبة منه في الفخر بعلمه أو حبًّا في النزاع الفكريّ، كان في الحقّ يحبّ بكلّ قلبه ألّا يفارقهنّ ولو في وقت عمله، وكان يجد لمرآهنّ سرورًا لا يعادله سرور، فهٰذه الأمّ يحبّها أكثر من أيّ شيء في الدنيا ولا يحتمل تصوّر الوجود بدونها لحظة واحدة، وهٰذه خديجة وهي تلعب في حياته دور أمّ أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها، وهٰذه عائشة التي وإن لم تتحمّس يومًا لخدمة إنسان إلّا أنّها أحبّته حبًّا عظيمًا فبادلها حبًّا بحبّ حتّى كان لا يشرب جرعة الماء من القُلّة إلّا إذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها المبتلّ بريقها. ومضت الجلسة كما تمضي كلّ ليلة حتّى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودّعتا أمّهما وذهبتا إلى حجرة نومهما، وعند ذٰلك عجّل الغلام بقراءة درسه حتّى فرغ منه ثمّ تناول كتاب الديانة وانتقل إلى جانب أمّه على الكنبة المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينمّ عن الإغراء:

ـ استمعنا اليوم إلى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدًّا.

فاستوت المرأة في جلستها وهي تقول باحترام وإجلال:

ـ كلام ربّنا عظيم كلّه. . .

وسرّه اهتمامها وهزّه شعور بالغبطة والعزّة لا يجده إلّا حين هٰذا الدرس الأخير من اليوم. أجل كان يجد في هٰذا الدرس الدينيّ أكثر من سبب للسعادة، فإنّه يقوم في أثناء نصفه على الأقلّ بدور المدرّس، ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرّسه وحركاته وما يتمثّله فيه من إحساس بالاستعلاء والقوّة، وإنّه يستمتع في نصفه الآخر بما تلقيه عليه أمّه من ذكريات وأساطير، وإنّه يستأثر وحده في شطريه بأمّه دون شريك. ونظر كمال في الكتاب فيما يشبه الإدلال ثمّ قرأ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. قل أُوحي إليّ أنّه استمع نفَر من الجنّ فقالوا إنّا سمعنا قرآنًا عجبًا، يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربّنا أحدًا. . .» حتّى أتمّ السورة ولاح في عيني الأمّ التردّد والحيرة، إذ كانت تحذّره من التفوّه باسمي العفريت والجنّ درءًا لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض إشفاقًا ومبالغة في الحيطة، فلم تَدْرِ كيف تتصرّف وهو يتلو أحد الاسمين الخطيرين في سورة شريفة، بل لم تَدْرِ كيف تحول بينه وبين حفظها أو ماذا تفعل لو دعاها كالمعتاد إلى حفظها معه. وقرأ الغلام في وجهها هٰذه الحيرة فداخله سرور ماكر، وجعل يبدأ ويعيد ضاغطًا على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقّعًا أن تفصح أخيرًا عن إشفاقها

في لون من ألوان الاعتذار، ولٰكنّها على شديد حيرتها لاذت بالصمت فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتّى قال:

ـ ها أنت ترين أنّ من الجنّ من استمع إلى القرآن وآمن به، فلعلّ سكّان بيتنا من هٰؤلاء الجنّ المسلمين وإلّا ما أبقوا علينا طوال هٰذا العمر.

فقالت المرأة في شيء من الضيق:

ـ لعلّهم... ولٰكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم، فيحسن بنا ألّا نردّد أسماءهم!

ـ لا خوف من ترديد الاسم... هٰكذا قال مدرّسنا.

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت:

ـ المدرّس لا يعرف كلّ شيء!..

ـ وإن كان الاسم ضمن آية شريفة؟

وشعرت بجيال تساؤله بقهر ولٰكنّها لم تجد بدًّا من أن تقول:

ـ كلام ربّنا بركة كلّه.

واقتنع كمال بهٰذا القدر ثمّ واصل حديثه عن التفسير قائلًا:

ـ ويقول شيخنا أيضًا إنّ أجسامهم من نار!

وبلغ بها القلق غايته فاستعاذت بالله وبسملت عدّة مرّات، أمّا كمال فاستطرد قائلًا:

ـ وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنّة فقال نعم فسألته مرّة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار، فأجابني بحدّة قائلًا إنّ الله قادر على كلّ شيء.

فرنا إليها باهتمام ثمّ تساءل:

ـ وإذا التقينا بهم في الجنّة ألا تحرقنا نارهم؟!

فابتسمت المرأة وقالت في ثقة وإيمان:

ـ ليس فيها أذًى أو خوف.

وسرح الغلام بعينيه حالمًا وإذا به يسأل مغيّرًا مجرى الحديث فجأة:

ـ أنرى الله في الآخرة بأعيننا؟

قالت المرأة بنفس الثقة والإيمان:

ـ هٰذا حقّ لا ريب فيه.

فلاحت في نظرته الحالمة أشواق كما تلوح في الغلس بتأثير الضياء، وساءل نفسه متى يرى الله، وفي أيّ صورة يتبدّى، وإذا به يسأل أمّه مغيّرًا مجرى الحديث فجأة مرّة أخرى:

ـ أيخاف أبي الله؟!

فتولّتها الدهشة وقالت في إنكار:

ـ يا له من سؤال غريب!... أبوك رجل مؤمن يا بنيّ، والمؤمن يخاف ربّه.

فهزّ رأسه في حيرة وقال بصوت خفيض:

ـ لا أتصوّر أنّ أبي يخاف شيئًا.

فهتفت المرأة في عتاب:

ـ سامحك الله... سامحك الله...

واعتذر عن قوله بابتسامة رقيقة، ثمّ دعاها إلى حفظ السورة الجديدة، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان. ولـمّا استفرغا جهدهما نهض الغلام ليذهب إلى حجرة النوم فتبعته حتّى اندسّ في فراشه الصغير، ثمّ وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسيّ، وانحنت فوقه وطبعت قبلة على خدّه فأحاط عنقها بذراعيه وردّ بقبلة طويلة صادرة من أعماق قلبه الصغير. وكانت تلقى دائمًا صعوبة في التخلّص منه عند توديعه مساء لأنّه كان يبذل كلّ حيلته ليستبقيها إلى جانبه أطول مدّة ممكنة إن لم يفز باستبقائها حتّى يغيب في نومه وهو بين ذراعيها، ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرًا من أن يطلب إليها أن تتلو على رأسه ـ إذا ختمت آية الكرسيّ ـ سورة ثانية ثمّ ثالثة، حتّى إذا آنس منها ابتسامة اعتذار توسّل إليها معتلًّا بخوفه من وحدته في الحجرة أو بما يتراءى له به من أحلام مزعجة لا تدفعها إلّا تلاوة طويلة للسور الشريفة، وربّما تمادى في تشبّثه بها إلى حدّ تصنّع المرض، غير واجد في تحايله هٰذا جورًا، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحقّ من حقوقه المقدّسة التي هضمت أفظع هضم يوم فُصل عن أمّه ظلمًا وعدوانًا وجيء به إلى هٰذا الفراش المفرد بحجرة أخويه. كم يذكر مع الحسرة عهدًا غير بعيد من ماضيه حين مضجعهما كان واحدًا، وحين ينام متوسّدًا ذراعها وهي تسكب في أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء، وحين النوم يغشاه قبل رجوع

أبيه من سهرته، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل إلى الحمّام، فلم يكن يرى مع أمّه ثالثًا، وكانت الدنيا له بلا شريك. ثمّ بقضاء أعمى لم يَدْرِ له حكمة فرّقوا بينهما، وتطلّع إليها ليرى أثر نفيه في نفسها فما عجب إلّا بتشجيعها الموحي بموافقتها وتهنئتها له قائلة: «الآن صرت رجلًا فمن حقّك أن يفرد لك فراش خاصّ»، من قال إنّه يسرّه أن يكون رجلًا أو أنّه يطمح إلى أن يفرد له فراش خاصّ!؟ ومع أنّه بلّل أوّل وسادة خاصّة له بدمعه، ومع أنّه أنذر أمّه بأنّه لن يعفو عنها مدى الحياة، إلّا أنّه لم يجرؤ على التسلّل إلى مضجعه القديم لأنّه كان يعلم أنّ وراء تلك الحركة الجائرة الغادرة تجثم إرادة أبيه التي لا تردّ، ولَشدّ ما حزن حتّى رسبت عكارة الحزن في أحلامه، ولَشدّ ما حنق على أمّه - لا لأنّه لم يسعه أن يحنق على أبيه فحسب - ولٰكن لأنّها كانت آخر من يتصوّر أن يخيب عنده الأمل، بَيْد أنّها عرفت كيف تسترضيه وتردّه إلى الصفاء رويدًا ودأبت على ألّا تفارقه بادئ الأمر حتّى يوافيه النوم، وجعلت تقول له: «لم نفترق كما تزعم، ألست ترانا معًا؟ وسنبقى دائمًا معًا، لن يفرّق بيننا إلّا النوم الذي كان يفرّق بيننا ونحن في فراش واحد». والآن لم تعد تطفو على شعوره حسرة ممّا تخلّف عن تلك الذكرى، واستنام إلى حياته الجديدة، بَيْد أنّه لم يكن يدعها تذهب حتّى يستنفد الحيل لاستبقائها إلى جانبه أطول مدّة ممكنة، وقد قبض على راحتها في حرص شديد كما يقبض الطفل على لعبته بين أطفال يتخاطفونها. وراحت هي تتلو الآيات على رأسه حتّى غافله الكرى، فودّعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة واتّجهت إلى الحجرة التالية ففتحت بابها في خفّة ونظرت صوب فراش لاح شبحه في جانبها الأيمن وتساءلت في رقّة: «نمتما؟» فجاءها صوت خديجة وهي تقول:

- كيف يتأتّى لي النوم وشخير ستّ عائشة يملأ عليّ الحجرة؟!

ثمّ سُمع صوت عائشة وهي تقول في نبرات ناعسة:

- ما سمع أحد لي شخيرًا قطّ، ولٰكنّها لا تدعني أنام بثرثرتها المتواصلة.

فقالت الأمّ في عتاب:

- أين وصيّتي لكما بأن تكفّا عن هذركما وقت النوم؟

وردّت الباب وسارت إلى حجرة الاستذكار فطرقت بابها بخفّة ثمّ فتحته وأدخلت رأسها وهي تقول باسمة:

- أفي حاجة إلى خدمة يا سيّدي الصغير؟

فرفع فهمي رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق الوجه بابتسامة لطيفة، فردّت الباب وابتعدت عنه وهي تدعو لفتاها بالفلاح وطول العمر، ثمّ عبرت الصالة إلى الدهليز الخارجيّ وارتقت السلّم إلى الدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيّد وصوتها يسبقها تاليًا الآيات.

١٢

لـمّا غادر ياسين البيت كان يدري بطبيعة الحال وجهته التي يقصد مساء بعد مساء ولٰكنّه بدا - كعادته دائمًا إذا مشى في الطريق - وكأنّه لا وجهة له. كان شأنه إذا سار أن يسير متمهّلًا في هوادة ورفق، مختالًا في عجب وزهو، كأنّه لا يغفل لحظة واحدة عن أنّه صاحب هٰذا الجسم العظيم وهٰذا الوجه الفائض حيويّة وفحولة، وهٰذه الملابس الأنيقة الآخذة حظّها - وأكثر - من العناية، إلى منشّة عاجيّة لا تفارق يده صيفًا أو شتاء، وطربوش طويل مائل يمنة حتّى يكاد يمسّ حاجبه، ومن عادته أيضًا إذا سار أنّه كان يرفع عينيه - دون رأسه - مستطلعًا ما وراء النوافذ لعلّ وعسى، فلم يكن يقطع طريقًا حتّى يشعر في نهايته بما يشبه الدوار من كثرة تحريك عينيه، إذ كان ولعه بالتهام النسوة اللاتي يصادفنه داء لا شفاء منه، فهو يتفحّصهنّ مقبلات ويتبع عينيه أردافهنّ مدبرات، ويظلّ في قلقه كثور هائج حتّى ينسى نفسه فلا يعود يتدبّر مداراة مقاصده، الأمر الذي تنبّه له مع الزمن عمّ حسنين الحلّاق والحاجّ درويش بائع الفول والفوليّ اللبّان وبيّومي الشربتلي وأبو سريع صاحب المقلى

وغيرهم فمنهم من حمله محمل الدعابة ومنهم من أخذه مأخذ الانتقاد لولا أنّ الجيرة ومنزلة السيّد أحمد عبد الجواد شفعتا له بالإغفاء والتسامح. كانت حيويّته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كلّه، فلم تدع له وقتًا يستريح فيه من استفزازها، وشعر دائمًا بألسنتها تلهب حواسّه ووجدانه، وكأنّها عفريت يركبه ويوجّهه حيث يشاء، بَيْد أنّه عفريت لم يخفه أو يضيق به، ولم يودّ الخلاص منه، بل لعلّه رام منه المزيد. ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكًا لطيفًا حين اقترب الشابّ من دكّان أبيه، هناك أغضى طرفه واستقامت مشيته، وتحلّى بأدب وحياء، وحثّ خطاه لا يلوي على شيء، ولمّا مرّ بباب الدكّان التفت إلى داخله فرأى خلقًا كثيرين ولكنّه التقى بعيني أبيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى في إجلال رافعًا يده إلى رأسه في أدب، فردّ الرجل تحيّته مبتسمًا، ثمّ استأنف مسيره مسرورًا بهذه الابتسامة كأنّما حظي بنعمة نادرة المثال. والحقّ أنّ عنف أبيه المعهود، ولو أنّه اعتوره تغيّر ملموس منذ أن انخرط الفتى في سلك موظّفي الدولة إلّا أنّه لم يزل في نظره نوعًا من العنف الملطّف بالكياسة، فلم يزايل الموظّف خوفه القديم الذي ملأ قلبه وهو تلميذ، ولم يفارقه شعوره بأنّه ابن وأنّ الآخر الأب، وما فتئ يتضاءل بمحضره على ضخامته كأنّما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصاة، وما إن ابتعد عن دكّان أبيه وصار بمنجًى من عينيه حتّى استردّ خيلاءه وعادت عيناه إلى الذبذبة غير مفرّقة بين الهوانم وبائعات الدوم أو البرتقال، إذ كان العفريت الذي يركبه مولعًا بالنساء كافّة، متواضعًا يستوي عنده الرفيع والوضيع منهنّ، فبائعات الدوم والبرتقال ـ على سبيل المثال ـ وإن شابَهْنَ الأرض التي يقتعدنها لونًا وقذارة لا يخلين أحيانًا من ميزة حُسن، كثديين ناهدين أو عينين مكحولتين. وماذا يروم غير هذا؟!... ثمّ اتّجه صوب الصاغة ومنها إلى الغوريّة، ومال إلى قهوة سي علي على ناصية الصنادقيّة، وكانت شبه دكّان متوسّطة الحجم يفتح بابها على الصنادقيّة وتطلّ بكوّة ذات قضبان على الغوريّة وقد اصطفّ بأركانها الأرائك. واتّخذ مجلسه على أريكة تحت الكوّة ـ مجلسه المختار منذ أسابيع ـ وطلب الشاي. جلس بحيث يوجّه بصره في يسر ودون إثارة ظنّ إلى الكوّة، ومنها يصعّده كلّما يشاء إلى نافذة صغيرة في بيت على الجانب الآخر للطريق، لعلّها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التي لم يعن بإحكام إغلاق خصاصها، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة «العالمة» ولم تكن «العالمة» مطمحه فدون هذا مراحل من المجون عليه أن يجتازها في صبر وأناة، ولكنّه راح يرصد ظهور زنّوبة العوّادة ربيبة «العالمة» ونجمة تختها اللامعة. وكانت فترة توظّفه بالحكومة عهدًا حافلًا بالذكريات جاءه بعد طول تقشّف إجباريّ عاناه محاذرًا في ظلّ أبيه الرهيب، فانطلق من ثمّة كالشلّال ينحدر في مهاوي الأزبكيّة على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قذفتهم عجلة الحرب إلى القاهرة، ثمّ ظهر في الميدان الاستراليّون فاضطرّ إلى التخلّي عن مغاني العبث فرارًا من وحشيّتهم وضاقت به السبل فمضى يتقلّب في أزقّة حيّه كالمجنون وأقصى ما يطمع فيه من لذّة بائعة برتقال أو غجريّة ممّن يقرأن الطالع، حتّى رأى يومًا زنّوبة فتبعها مذهولًا إلى موطنها، ثمّ تعرّض لها مرّة بعد مرّة ولا يكاد يظفر منها بما يبلّ صدره. كانت امرأة وكلّ امرأة عنده رغيبة، بَيْد أنّها كانت إلى هذا ذات حسن فهوسته، وليس الحبّ لديه إلّا تلك الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهي أسمى ما عرف من ألوانه، وجعل يمدّ بصره خلال القضبان إلى النافذة الخالية في جزع وقلق أنسياه نفسه فحسا الشاي دون أن ينتبه إلى سخونته إلّا وهو يزدرده وراح ينفخ متألّمًا، ثمّ أعاد القدح إلى الصينيّة الصفراء مسترقًا النظر إلى السمّار الذين أزعجته أصواتهم المرتفعة كأنّما هي المسئولة عن لسعته أو أنّها السبب في عدم ظهور زنّوبة بالنافذة...

«تُرى أين الملعونة؟... أتتعمّد الاختفاء!... من المحقّق أنّها تعلم بوجودي هنا... ولعلّها رأتني قادمًا... فإذا اصطنعت التدلّل إلى النهاية ألحقت هذا اليوم بأيّامي المحرقة». وعاود استراق النظر إلى الجلوس ليرى هل يلاحظ أحد منهم ولكنّه وجدهم

جميعًا منهمكين في أحاديثهم التي لا تنتهي، فداخله ارتياح وأرجع بصره إلى الهدف المرموق، بَيْدَ أنّه اعترضت تيّار أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التي صادفته في المدرسة إذ شكّ الناظر في أمانة متعهّد اللحوم فقام بتحقيق اشترك هو فيه بوصفه كاتب المدرسة، ثمّ بدا منه شيء من التراخي في عمله حمل الناظر على نهره ممّا نغّص عليه صفوه بقيّة اليوم وجعله يفكّر في أن يشكو الناظر إلى أبيه ـ وهما صديقان قديمان ـ لولا خوفه أن يجد أباه أشدّ عليه من الناظر... «اطرح عنك هٰذه الأفكار السخيفة.. انتهينا من المدرسة والناظر عليهما اللعنة... حسبي الآن ما ألاقي من القارحة بنت القارحة التي تبخل علينا بنظرة» وإذا بأحلام عارية تنثال على خياله، أحلام كثيرًا ما تمثّل على مسرح أوهامه وهو يرنو إلى امرأة أو يستعيد ذكراها، تخلقها عاطفة هوجاء تنزع عن الأجساد أغطيتها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستثنية جسده هو، ثمّ تمضي في فنون من العبث لا عاصم لها، ولٰكنّه ما كاد يستنيم إلى هٰذه الأحلام حتّى انتبه على صوت حوذيّ وهو يصيح على حماره «يس» فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربة كارو تقف أمام بيت العالمة. وتساءل ترى أجاءت العربة لتحمل أفراد التخت إلى فرح من الأفراح؟... ونادى صبيّ القهوة ودفع إليه الحساب متأهّبًا لمغادرة المكان في أيّة لحظة إذا دعا داعٍ. ومضت فترة انتظار وترقّب ثمّ فتح باب البيت وبرزت امرأة من نسوة التخت وهي تجرّ رجلًا أعمى مرتديًا جلبابًا ومعطفًا وعوينات سوداء ومتأبّطًا القانون، وصعدت المرأة إلى العربة وتناولت القانون ثمّ أخذت بيد الأعمى، وأعانه الحوذيّ من ناحية أخرى حتّى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين في مقدّمة العربة، وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفًّا، ثمّ ثالثة متأبّطة صرّة، وقد تبدّين في ملاءاتهنّ اللفّ سافرات، كاسيات ـ بدلًا من البراقع ـ بأقنعة من زواق فاقع الألوان جعلهنّ بعرائس المولد أشبه. ثمّ ما هٰذا؟... رأى ببصر شيّق وقلب خافق العود وهو يبرز من الباب في جرابه الأحمر... وأخيرًا بدت زنّوبة وقد انحسر طرف ملاءتها عند أعلى الرأس عن منديل قرمزيّ ذي أهداب منمنمة، لمعت تحته عينان سوداوان ضاحكتان تنفث نظرتها لعبًا وشيطنة. واقتربت من العربة ومدّت يدها بالعود فتناولته امرأة، ثمّ رفعت قدمًا إلى أعلى العجلة فاشرأبّ ياسين بعنقه وهو يزدرد ريقه فلمح ثنيّة الجورب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان برتقاليّ... «آه لو تغوص بي الأريكة في الأرض مترًا... ربّاه... إنّ وجهها أسمر ولٰكنّ لحمها المكنون أبيض... أو شديد الميل للبياض... فكيف يكون الورك!... وكيف يكون البطن!... البطن يا هوه...» وثبّتت زنّوبة راحتيها على سطح العربة وتحاملت عليهما حتّى حطّت ركبتيها على حافّة العربة ثمّ مضت تتحرّك رويدًا على أربع... «يا لطيف... آه لو كنت على باب البيت... أو حتّى في دكّان محمّد الطرابيشي... انظر إلى ابن الكلب كيف يحملق في الطابيّة بعينيه... ما أجدر أن يسمّي نفسه منذ اليوم محمّد الفاتح... يا لطيف... يا منقذ...» وأخذ ظهرها يستقيم حتّى نهضت واقفة على سطح العربة، وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزّها بيديها هزّات متتابعات كأنّها طائر يخفق بجناحيه، ثمّ لفّتها حول جسمها لفّة محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفاصيله وأبرزت ـ خاصّة ـ عجيزة مُدَمْلجة رقراقة، ثمّ جلست عند مؤخّرة العربة فتكوّر ردفها تحت الضغط متبلورًا ذات اليمين وذات اليسار فنِعْم الوسادة... ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربة قد تحرّكت فتبعها متمهّلًا وهو يلهث ويصرّ على أسنانه من شدّة الانفعال. وراحت العربة تسير سيرتها المتمهّلة المتمايلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها يمنة ويسرة فركّز الشابّ عينيه في وسادة العوّادة، يذهب معها ويجيء حتّى خالها بعد حين ترقص. وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيّق وأخذت كثرة من الدكاكين تغلق أبوابها، إلى أنّ غالبيّة المارّة كانت من جمهور العاملين العائدين إلى بيوتهم منهوكي القوى فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المتعب

متّسعًا لإنعام النظر والأحلام في أمن ودعة... «اللّهمّ لا تجعل لهٰذا الطريق من نهاية، ولا لهٰذه الحركة الراقصة من ختام... يا لها من عجيزة سلطانيّة جمعت بين العجرفة واللطف يكاد البائس مثلي يحسّ بطراوتها وشدّتها معًا بالنظر المجرّد... وهٰذا المفرق العجيب الذي يشطرها تكاد تنطق الملاءة عنده... وما خفي كان أعظم.. إنّي أدرك الآن لماذا يصلّي بعض الناس ركعتين قبل أن يبني بعروسه... أليست هٰذه قبّة؟... بلى وتحت القبّة شيخ... وإنّي لمجذوب من مجاذيب هٰذا الشيخ... يا هوه... يا عدوى...» وتنحنح والعربة تقترب من بوّابة المتولّي فالتفتت زنّوبة وراءها ورأته. ثمّ خيّل إليه، وهي تعيد رأسها، أنّه لمح على شفتيها بشير ابتسامة فدقّ قلبه في عنف وسرت في وجدانه سكرة سرور ملتهب، ومرقت العربة من بوّابة المتولّي ثمّ مالت إلى اليسار، وهناك اضطرّ الشابّ إلى التوقّف عن متابعتها لأنّه رأى عن كثب معالم زينات وأنوار وجمهورًا مهلّلًا فتراجع قليلًا وبصره لا يفارق العوّادة، وجعل يراقبها بنهم وهي تنزل على الأرض، وهي ترمي ناحيته بنظرة عابثة، ثمّ وهي تتّجه إلى بيت العروس حتّى واراها الباب في ضجّة من الزغاريد. وتنهّد تنهّدة حامية، ولفّته حيرة حانقة فبدا قلقًا كأنّه لا يدري أيّ وجهة يقصد .. «لعنة الله على الاستراليّين!... أين أنت يا أزبكيّة لأبثّك همّي وأشجاني وأتزوّد منك بشيء من الصبر».. ثمّ دار على عقبيه وهو يتمتم «إلى العزاء الباقي.. إلى كُستاكي»، وما كاد ينطق باسم البدّال اليونانيّ حتّى تندّى رأسه حنينًا إلى حميّا الشراب.. كانت المرأة والخمر في حياته متلازمتين متكاملتين، ففي مجلس المرأة عاقر الخمر لأوّل مرّة، ثمّ صارت بحكم العادة من مقوّمات لذّته وبواعثها، بَيْد أنّه لم يُتَحْ لهما ـ المرأة والخمر ـ أن يتلازما دائمًا، وخلت ليالٍ كثيرات من النساء، فلم يجد بدًّا من أن يخفّف لوعته بالشراب، ولكرور الأيّام واستحكام العادة بات وكأنّه المولع بالخمر لذاتها. وعاد من نفس الطريق الذي جاء منه، وقصد بدّالة كستاكي عند رأس السكّة الجديدة ـ حانوت كبير ظاهره بدّالة وباطنه حانة يفصل بينهما باب صغير ـ ووقف عند مدخلها مختلطًا بالزبائن ريثما يتفحّص الطريق أن يكون أباه هنا أو هناك، ثمّ اتّجه صوب الباب الصغير الداخليّ ولكن ما كاد يتقدّم خطوة حتّى لمح في طريقه رجلًا واقفًا أمام الميزان والخواجة كستاكي نفسه يزن له لفّة كبيرة، فانجذب رأسه إليه بلا إرادة، وسرعان ما اكفهرّ وجهه وسرت في بدنه رجفة قاسية تقبّض لها قلبه خوفًا واشمئزازًا. لم يكن في مظهر الرجل ما يسبغ هٰذه العواطف العدائيّة. كان في الحلقة السادسة، مرتديًا جلبابًا فضفاضًا وعمامة، وقد ابيضّ شاربه وعلاه الكبر والوداعة، إلّا أنّ ياسين واصل سيره مضطربًا كأنّما يفرّ قبل أن تطلع عليه عينا الرجل، ودفع باب الحانة بشيء من القوّة ثمّ دخل تكاد تميد به الأرض...

١٣

ارتمى على أوّل مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساهمًا، ثمّ دعا النادل وطلب دَوْرق كونياك بنبرات نمّت على نفاد صبره. وكانت الحانة بالحجرة أشبه، تدلّى من سقفها فانوس كبير، وصُفّت بجنباتها موائد خشبيّة وكراسيّ خيزران جلس إليها نفر من أهل البلد والعمّال والأفنديّة، وتوسّط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أُصُص القرنفل. من عجيب أنّه لم يَنْسَ الرجل، وأنّه عرفه من النظرة الأولى، متى رآه آخر مرّة؟... لا يستطيع أن يجزم، ولٰكن من المحقّق أنّه لم تقع عليه عيناه في مدى اثنتي عشرة سنة إلّا مرّتين إحداهما التي زلزلته الآن. وقد تغيّر الرجل ما في ذٰلك من شكّ فغدا شيخًا هادئًا وقورًا!... ألا سحق الله المصادفة العمياء التي ألقت به في سبيله. والْتَوَتْ شفتاه تقزّزًا وامتعاضًا وشعر بمرارة الهوان تجري في ريقه. يا له من هوان مذلّ ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعناد كالتي تردّه إليه ذكرى من الذكريات المعتمة أو مصادفة لعينة كالتي حدثت اليوم فينقلب ذليلًا منكسرًا... ضائعًا. وعلى رغمه حملقت عيناه في الماضي البغيض،

بقوّة الهياج المثار في رأسه وقلبه، فانشقّ الظلام عن أشباح شائهة طالما ناوشته كرموز للعذاب والكراهية، فميّز من بينها دكّان فاكهة يقوم على رأس عطفة قصر الشوق، وطالعته صورة غامضة المعالم، هي صورته وهو صبيّ، فرآه وهو يحثّ خطواته المتقاربة إلى ذٰلك الدكّان حيث استقبله ذٰلك الرجل ثمّ حمّله قرطاسًا مليئًا بالبرتقال والتفّاح فتناوله مسرورًا وعاد به إلى المرأة التي بعثته وانتظرت، إلى أمّه دون غيرها واأسفاه! وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حنق وضيق، ثمّ استعادت مخيّلته صورة الرجل فتساءل جزعًا أكان يعرفه لو وقعت عليه عيناه؟... أكان يذكر فيه الصبيّ الصغير الذي عرفه قديمًا ابنًا لتلك المرأة؟... وقرصته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه البادن الفارع وتضاءل في حسّه حتّى استحال لا شيء. وجيء عند ذاك بالدَّورق والقدح فصبّ ونهل في نهم وعصبيّة متعجّلًا حظّ الشاربين من الانتعاش والنسيان. ولكن فجأة تراءى له من أعماق الماضي وجه أمّه فلم يتمالك من أن يبصق. أيّها يلعن: الحظّ الذي جعلها أمّه أم جمالها الذي شغف كثيرين حبًّا وأحاطه بالكوارث؟!... والحقّ أنّه لم يكن بوسعه أن يغيّر أمرًا ممّا قدّر عليه، ولم يكن بوسعه إلّا أن يذعن للقضاء الذي هرس عزّة نفسه، أفليس من الظلم أن يكفّر بعد ذٰلك عن حكم القضاء كأنّه هو الجاني الأثيم؟!.. ولم يَدْرِ لِمَ استحقّ اللعنة، فالأطفال الذين استقبلوا الدنيا في حضانة أمّهات مطلّقات مثله غير قليلين، وعلى خلاف أكثرهم وجد من أمّه حنانًا غير مشوب وحبًّا لا يعرف الحدود وتدليلًا سابغًا لا تشكمه رقابة أب فتمتّع بطفولة سعيدة قوامها الحبّ واللين والدماثة. ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق، كسطحه الذي يشرف على أسطح لا عداد لها ويرى مآذن وقبابًا من نواحيه الأربع، ومشربيّته التي تطلّ على الجماليّة حيث تمرّ ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوّات فينجلي أكثرها عن معارك تشتجر فيها النبابيت وتسيل الدماء. في ذاك البيت أحبّ أمّه حبًّا لا مزيد عليه وفيه شاعت في قلبه الريبة الغامضة، وفيه رمى إلى صدره بالبذور الأولى لنفور غريب ـ نفور ابن من أمّه ـ التي قدّر لها أن تنمو وتستفحل حتّى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال، وكثيرًا ما قال لنفسه إنّه ربّما كان في وسع الإرادة القويّة أن تتيح لنا أكثر من مستقبل واحد ولٰكنّنا لن يكون لنا ـ مهما أوتينا من إرادة ـ إلّا ماضٍ واحد لا مفرّ منه ولا مهرب. والآن يتساءل ـ كما تساءل من قبل كثيرًا ـ متى فطن إلى أنّ أمّه لم تكن الشخص الوحيد في حياته؟!... بعيد جدًّا أن يعرف هٰذا على وجه اليقين، وما يذكر إلّا أنّه في فترة ما من طفولته وعت حواسّه شخصًا جديدًا كان يطرأ على البيت من حين لآخر، ولعلّه ـ ياسين ـ كان يتطلّع إليه بغرابة وشيء من الخوف، ولعلّ الآخر بذل ما في وسعه لإيناسه وإرضائه، إنّه يحملق في الماضي على استكراه ونفور شديدين، ولٰكنّه وجد المقاومة لا تجدي، كأنّما ذاك الماضي دُمّل يودّ لو يتجاهله على حين لا تمسك يده عن جسّه من آنٍ لآخر. ثمّ إنّ هناك أمورًا لا يمكن أن تنسى... ففي مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعلى نافذة أو باب مطعّم بمثلّثات من الزجاج الأزرق والأحمر... في ذاك المكان كان يذكر أنّه اطّلع فجأة ـ في ظروف فرضها النسيان ـ على ذٰلك الشخص الطارئ وهو كأنّه يفترس أمّه، فما تمالك أن صرخ من أعماق قلبه وولول باكيًا حتّى أقبلت المرأة عليه في اضطراب بادٍ وراحت تطيّب خاطره وتسكّن ثائره. وانقطعت من شدّة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقلّب عينيه فيما حوله واجمًا، ثمّ صبّ من الدَّورق في القدح وشرب، وقد لمح وهو يعيد القدح إلى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكتته فظنّها خمرًا وأخرج منديله وأنشأ يدلكها، ثمّ خطر له خاطر فتفحّص ظاهر القدم فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنده أنّ ما سقط على سترته ماء لا خمر واستردّ طمأنينته... ولٰكن أيّ طمأنينة خادعة! لقد رجعت عيناه إلى مرآة الماضي البغيض. لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة، ولا كم كان عمره حين وقوعها، ولٰكنّه يذكر بلا ريب أنّ الشخص المفترس لم

ينقطع عن البيت القديم، وأنّه كثيرًا ما تودّد إليه بما لذّ وطاب من ألوان الفاكهة، ثمّ كان يراه بعد ذٰلك في دكّان الفاكهة عند رأس العطفة إذا استصحبته أمّه معها في مشوار، وبسذاجة الأطفال كان يلفت نظرها إليه فكانت تجذبه في عنف بعيدًا عنه وتمنعه من الإيماء إليه حتّى تعلّم أن يتجاهله وهو في صحبتها بالطريق، وازداد الشخص في نظره إبهامًا وغموضًا، ثمّ حذّرته من أن يعود إلى ذكره أمام خالٍ عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتّبع تحذيرها وما يزداد إلّا حيرة. ولم يقنع الحظّ منه بذاك القدر فكانت أمّه - إذا غاب الرجل عن البيت أيّامًا - يكون مبعوثًا إليه ليدعوه إلى أن يحضر «الليلة»! وكان الرجل يستقبله بلطف ويملأ قرطاسًا من التفّاح والموز، ويحمّله موافقته أو اعتذاره كيفما اتّفق، ثمّ بلغ به الحال أنّه إذا اشتاق إلى لذيذ الفاكهة استأذن أمّه في أن يذهب إلى الرجل ليدعوه «الليلة»، ذكر هٰذا وجبينه يندى خزيًا ثمّ نفخ في قهر، ثمّ صبّ وجرع، ورويدًا انبعثت الحميّا في دمه، وبدأت تلعب دورها الساحر في معاونته على حمل متاعبه... «قلت ألف مرّة إنّه يجب أن أدع الماضي مدفونًا في قبره... لا فائدة... لا أمّ لي وحسبي امرأة أبي الرقيقة الطيّبة... كلّ شيء طيّب ما عدا ذكرى قديمة بيدي أن أميتها... ترى لِمَ أجاري إلحافها عليّ فأبعثها من قبرها حينًا بعد حين!... لِمَ؟!... سوء الطالع وحده الذي رمى بالرجل في طريقي اليوم ولٰكنّ مصيره أن يموت يومًا... أودّ أن يموت كثيرون... لم يكن الرجل الوحيد...» بيْد أنّ خياله الثائر واصل إسراءه في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظريّة ولٰكن على حال أخفّ توتّرًا، أجل لم يعد في تلك القصّة باللذات من بقيّة طويلة، ولعلّها - هٰذه البقيّة - تمتاز بما يضيئها من نور نسبيّ بعد عبور طور الطفولة المعتم. كان هٰذا في السنوات القلائل التي سبقت انتقاله إلى حضانة أبيه، وقد وجدت أمّه الشجاعة لتصارحه بأنّ ذاك «الفكهاني» يتردّد عليها طلبًا ليدها، وأنّها متردّدة في قبوله، وأنّها غالبًا سترفض إكرامًا له! ترى أصدّق ما قيل له؟... هيهات أن يستوثق من تفاصيل ذكرياته، ولٰكنّه كان بلا ريب يشرئبّ للإدراك والفهم، ويعاني نوعًا من الريبة الغامضة التي تتكشّف للقلب دون العقل، ويكابد ألوانًا من القلق أطار عن هامته حمامة السلام، فتهيّأت في نفسه تربة لتلقي بذرة النفور التي صارت مع الأيّام إلى ما صارت إليه. ثمّ انتقل في التاسعة من عمره إلى حضانة أبيه الذي لم يكن رآه إلّا مرّات معدودة تحاميًا للاحتكاك بأمّه. انتقل إليه غلامًا على الفطرة لم يتلقّن من مبادئ العلم كلمة واحدة، ومضى يكفّر عن سيّئات التدليل الذي غلّته به أمّه فتلقّى العلم بنفس كارهة وإرادة خائرة، ولولا شدّة السيّد وطيبة جوّ البيت الجديد ما دُفع إلى النجاح في الابتدائيّة بعد أن نيّف على التاسعة عشرة من عمره. وبنموّ عمره وإدراكه حقائق الأشياء، استعرض حياته الماضية في بيت أمّه وقلبها على وجوهها، ملقيًا عليها من خبرته الجديدة أنوارًا فاضحة فتكشّفت له الحقائق ببشاعتها ومرارتها، وكلّما تقدّم في الحياة خطوة بدا له الماضي سلاحًا مسمومًا منغرسًا في صميم نفسه وكرامته، وقد دأب أبوه بادئ الأمر على أن يسأله عن حياته في بيت أمّه ولٰكنّه على حداثة سنّه، تحاشى نبش الذكريات المحزنة وغلّب كبرياءه الجريح على الرغبة في استثارة اهتمام أبيه وحبّ الثرثرة الذي يستهوي أمثاله من الغلمان، ولزم الصمت حتّى ترامى إليه نبأ غريب عن زواج أمّه من تاجر فحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلًا، واشتدّ ضغط السخط على صدره حتّى فضفض فانطلق يحدّث أباه عن «الفكهاني» الذي زعمت يومًا أنّها رفضت الزواج منه إكرامًا له!... وانقطعت صلته بها من ذاك العهد - منذ إحدى عشرة سنة - فلم يعد يدري عنها شيئًا إلّا ما ينقله إليه أبوه من حين لآخر كطلاقها من الفحّام بعد انقضاء عامين على زواجها منه، ثمّ زواجها من باشجويش في العام التالي لطلاقها، ثمّ طلاقها مرّة أخرى بعد حوالي عامين إلخ... إلخ... وفي فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرًا إلى رؤيته، فكانت ترسل إلى أبيه من يستأذنه في السماح له بالذهاب إليها، ولٰكن ياسين صدّ

عن دعوتها بإباء ونفور شديدين رغم نصح أبيه له بالتسامح والعفو. والحقّ أنّه وجد عليها موجدة حامية نابعة من صميم قلب جريح، فأغلق دونها باب العفو والغفران وأقام وراءه متاريس حنق وكراهية مؤمنًا إلى هٰذا بأنّه لم يظلمها ولٰكن أنزلها بحيث أنزلتها فِعالها. . «امرأة. أجل ما هي إلّا امرأة. . . وكلّ امرأة لعنة قذرة. . . لا تدري امرأة ما العفّة إلّا حين تنتفي أسباب الزنا. . . حتّى امرأة أبي الطيّبة، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن تكون لولا أبي!» وقطع عليه أفكاره صوت رجل علا قائلًا: «الخمر كلّها فوائد، ومن يقل غير هٰذا أقطع رأسه. . . الحشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر. . . أمّا الخمر فكلّها فوائد. . .» فتساءل صاحبه: «وما فوائدها؟» فقال الرجل مستنكرًا: «وما فوائدها! ما أعجب سؤالك!. . . كلّها فوائد كما قلت. . . وأنت تعلم هٰذا وتؤمن به. . .» فقال صاحبه: «ولٰكن الحشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذٰلك فيجب أن تعلم هٰذا وتؤمن به. . . الناس جميعًا يقولون هٰذا فهل تخالف الإجماع؟!» وتريّث الرجل قليلًا ثمّ قال: «كلّها مفيدة إذن، الكلّ، الخمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجدّ!» فعاد صاحبه يقول بلهجة تنمّ عن ظفر: «ولٰكن الخمر حرام!» فقال الرجل محتدًّا: «وهل ضاقت السبل!، زَكٌّ. . . حُجٌّ. . . اطعم المساكين. . . أبواب التكفير واسعة والحسنة بعَشْر أمثالها. . .».

وابتسم ياسين في شيء من الارتياح، أجل أمكنه أخيرًا أن يبتسم في شيء من الارتياح: «لتذهب إلى الجحيم، ولتأخذ الماضي معها. . . لست عن شيء مسئولًا. . . كلّ إنسان ملوّث في هٰذه الحياة ومن يَزِح الستارَ عجبًا. . . شيء واحد يهمّني جدًّا هو عقارها. دكّان الحمزاوي وربع الغوريّة والبيت القديم بقصر الشوق. . . وإنّي أعِدُ أمام الله إذا ورثته كاملًا يومًا أن أترحّم عليها بلا أسف. . . آه. . . زنّوبة. . . كدت أنساك وما أنسانيك إلّا الشيطان. امرأة عذّبتني وامرأة آنس عندها العزاء. . . آه يا زنّوبة ما علمت قبل اليوم أنّ باطنك بهٰذا اللون الرائق. . . أف ينبغي أن أمحو الفكر من رأسي. . . الحقّ أنّ أمّي كالضرس الثائر، لا يسكن حتّى ينخلع. . .».

١٤

جلس السيّد أحمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكّان تعبث أنامل يسراه بشاربه الأنيق كشأنه كلّما جرفه تيّار خواطره، ويرنو إلى لا شيء بوجه تنمّ معالمه عن ارتياح ورضًى. إنّه يرضيه بلا ريب أن يشعر بما يكنّه له الناس من حبّ ومودّة، ولو عرض له من حبّهم دليل كلّ يوم لأوجد له كلّ يوم سرورًا مشرقًا لا يبليه التكرار، وقد أتاه اليوم دليل جديد بسبب اضطراره إلى التخلّف ليلة الأمس عن شهود حفلة أنس دعاه إليها أحد الأصدقاء، فما استقرّ به مجلسه بالدكّان هٰذا الصباح حتّى وافاه الداعي وبعض الإخوان من المدعوّين وأوسعوه عتابًا لتخلّفه وحمّلوه تبعة ما ضاع عليهم من بهجة وطرب، ثمّ قالوا - فيما قالوا - إنّهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعوّدوا أن يضحكوا معه، ولم يجدوا للشراب لذّته التي يجدون في منادمته، وأنّ مجلسهم خلا - على حدّ تعبيرهم - من روحه. وها هو يستعيد أقوالهم في سرور وزهو لطّفا كثيرًا ممّا لاقى من حدّة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته، بيْد أنّه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه على إرضاء الخلّان، بدّار إلى النهل من موارد الصداقة والمودّة في إخلاص وإيثار، فكاد يكدّر صفوه لولا ما أشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبّهم في نفسه من أريحيّة الرضا والعجب، أجل طالما كان الحبّ الذي يجذبه إلى الناس ويجذبهم إليه معينًا لقلبه يغدق عليه ما يشاء من فرح بهيج وزهو بريء وكأنّه خلق للصداقة قبل كلّ شيء. وثمّة آية أخرى على هٰذا الحبّ - والأصدق أن يقال إنه حبّ من نوع آخر - تجلّت له ضحى اليوم حين ألمّت به أمّ علي الخاطبة وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران: «ألا تعلم أنّ ستّ نفّوسة أرملة الحاجّ علي الدسوقي تملك سبعة دكاكين في المغربلين؟» وابتسم

السيّد، وفطن بالغريزة إلى ما تومئ إليه المرأة وحدّثه قلبه بأنّها ليست خاطبة فحسب هٰذه المرّة ولٰكنّها رسول موصًى بالكتمان، ألم يخيّل إليه في أكثر من مناسبة أنّ الستّ نفّوسة تكاد تعلن عن ودّها أثناء تردّدهـا على دكّانه لابتياع حوائجها؟. . بيْد أنّه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكّه فقال باهتمام ظاهـريّ: «عليك باختيار زوج صالح لها، فما أعزّ المطلوب!»، وظنّت أمّ علي أنّها بلغت الغاية فقالت: «قد اخترتك من دون الرجال. فما قولك؟»، وضحك السيّد ضحكة مجلجلة وشت بسروره وثقته بنفسه ولٰكنّه قال بلهجة قاطعة: «لقد تزوّجت مرّتين، أخفقت في الأولى ووفّقني الله في الأخرى، ولن أبطر بنعمة الله». والحقّ أنّه طالما تغلّب على مغريات الزواج على كثرة مـا تهيّأ لـه من فرص مواتية، بقوّة إرادة لا تنثني، وكأنّه لم ينس مثل أبيـه الذي انزلق إلى زيجـات متلاحقـة بلا وعي، بـدّدت ثروته وجرّت عليه المتـاعب، ولم تُبْقِ له هـو ـ عقبه الوحيد ـ إلّا على شيء من المال لا يغني، ثمّ إنّه من ربحه ودَخْله في بَسطة من العيش هيّأت لأسرته هناء ورغدًا وأتاحت له ما يشاء للإنفاق في مسرّاته وملاهيه فكيف يقدم على ما يخلّ بهٰذا الوضع البديع المتناسق الذي يكفل له الكرامة والحرّيّة؟! أجل لم يجمع السيّد ثروة، لا لقصور في وسائلها عن تجميعها ولٰكن لما طبع عليه من جود جعل إنفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الـوحيد لهـا الذي يؤمن بـه، إلى إيمـان عميق بـالله وفضائله ملأ نفسه طمأنينة وثقة وآمنه من الخوف الذي يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم. على أنّ صدّه عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلّما رامته فرصة طيّبة، وبالتالي لم يستطع أن يتناسى أنّ سيّدة جميلة كالستّ نفّوسة تودّه بعلًا لها. وغلبت هٰذه الذكرى عـلى خواطـره فراح يـراقب وكيله والزبـائن بعينين غائبتين وأسارير حالمـة باسمـة، وذكر ـ بـاسمًا أيضًا ـ ما قال له صاحب من صحبه صباح اليوم وهو يعابثه معرّضًا بأناقته وتعطّره: «حسْبُـك. حسبك يـا عجوز!. . .» عجوز؟!. . . إنّه في الخامسة والأربعين حقًّـا، ولٰكن ما قـول العاذل في هٰـذه القوّة العـارمة والصحّة الدافقة والشعر السبط اللامع السواد! لم يهن إحساسه بالشباب ولا تراخى، وكأنّ فتوّته ما تزداد مع الأيّام إلّا قوّة، إلى أنّ مزاياه لم تكن لتغيب عنه، بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديـد الشعور بهـا، منطويًا في أعماقه على زهو وعجب. يحبّ الثنـاء حبًّا جمًّا، وكأنّه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحثّ الرفاق بمكر حسن عليه، ولٰكن مع أنّ ثقته بنفسه بلغت حدّ الاعتقاد بأنّه خير الرجال قوّة وبهاء وظرفًا وكياسة إلّا أنّه لم يثقل أبدًا على أحد من الناس، لأنّ تواضعه كان طبعًا وسجيّة كذٰلك، ولأنّه نبع من فطرة تسيل بشاشة وإخلاصًا وحبًّا. والحقّ أنّه كان ينزع بفطرته إلى أن يحبّ كـما يحبّ، ولا يمسك عن نشـدان المزيـد من الحبّ، فـاتّجهت طبيعته بـوحي من غريـزته الـظامئة للحبّ إلى الإخلاص والوفاء والصفاء والتواضع، تلك السجايا التي تجذب الحبّ والرضا كما تجذب الزهورُ الفَراشَ، ومن هنا استوى أن يقال إنّ تواضعه كياسة أو طبيعة والأصحّ أن يقال إنّه طبيعة تستمدّ كياستها من وحي الغريزة لا تدبير الإرادة فتجلّت طبعًا بسيطًا لا تكلّف فيه ولا تعمّل، ولذٰلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزاياه بل والتندّر بعيوبه وهناته التماسًا للعـطف والحبّ أحبّ إليه من نشرهـا والمباهـاة بهـا اللذين يجرّان عادة إلى الاستفزاز والحسد، وهي كياسة سديدة دفعت المحبّين إلى التنويه بما يغضي عنه حكمة وحياء، وأذاعت سجاياه على نحو لم يكن ليقدر عليه بنفسه دون التضحية بأجمل جـوانب شخصيّته، وبمـا يحـظى من جاذبيّـة وحبّ لا تشوبهما شائبـة. وبهٰـذا الوحي الغريزيّ نفسه استهدى حتّى في جانب حياته الماجن، في مجالس أنسه وطربه، فلم يتخلّ فيها ـ مهما لعب الشراب برأسه ـ عن لباقته وكياسته، ولو شاء بما أوتي من خفّة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدّة السخرية، لاكتسح السمّار بلا عناء، ولٰكنّه كان يدير مجلس الأنس بمهارة وأريحيّة تفسح المجال لكـلّ سامر، ويشجّع أهل الـدعابـة وإن خالفهم التـوفيق بضحكاته المجلجلة، إلى حرصه الشديد على ألّا يخلّف مزاحه في نفس جرحًا، فإن اضطرّه الموقف إلى الحملة

على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودّد إليه ولو بالسخرية من نفسه. فلا ينفضّ المجلس إلّا وقد حظي كلّ سامر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأثر الفؤاد. على أنّ كياسته الفطريّة أو فطرته الكيّسة، لم تقتصر آثارها الطيّبة على حياته الضاحكة فحسب، ولكنّها امتدّت إلى جوانب هامّة من حياته الاجتماعيّة، فأعلنت عن نفسها أروع إعلان في كرمه المأثور ـ سواء ما يتجلّى منه في الولائم التي يدعو إليها من حين لآخر في البيت الكبير أو في الهبات التي ينفح بها المحتاجين ممّن يتّصلون بعمله أو بشخصه ـ وفي شهامته ومروءته ونجدته التي فرضت له على أصدقائه ومعارفه نوعًا من الوصاية المشربة بالحبّ والوفاء يفيئون إليها إذا دعت الضرورة إلى المشورة أو الشفاعة أو الخدمة فيما يعرض لهم من هموم العمل والمال أو شئون المسائل الشخصيّة والعائليّة كالخطبة والزواج والطلاق، أجل ارتضى لنفسه وظائف يؤدّيها بلا أجر ـ غير الحبّ ـ فكان سمسارًا ومأذونًا ومحكّمًا، ثمّ وجد دائمًا في أدائها ـ على مشقّته ـ حياة مليئة بالبهجة والغبطة. مثل هٰذا الرجل الذي تجود نفسه بفضائل اجتماعيّة كثيرة ثمّ يطويها كأنّ في نشرها أذى وأيّ أذى، مثل هٰذا الرجل يكون خليقًا ـ إذا خلا إلى خواطره وانقشع عنه الحياء الذي يتولّاه حيال الناس ـ بأن يتملّى مزاياه طويلًا ويستسلم لزهوه وعجبه. لذلك راح يستعيد عتاب أصدقائه المحبّين ودعوة أمّ علي الخاطبة بلذّة وسرور وانشراح تعانقت في قلبه عن نشوة خالصة حتّى تطفّلت على خلوته لذعة أسف فمضى يحدّث نفسه...

«نفّوسة هانم سيّدة ذات مزايا لا يستهان بها... يتمنّاها كثيرون ولكنّها رغبت فيّ أنا... بيْد أنّني لن أتزوّج، هٰذا أمر مفروغ منه، وليست هي بالمرأة التي تقبل أن تعاشر رجلًا بغير زواج... هٰذا أنا وهٰذه هي فكيف يمكن أن نلتقي!... ولو صادفتني في غير هٰذه الأيّام التي سدّ فيها الاستراليّون علينا المنافذ لهان الأمر ولكنّها تصدّت لنا ونحن في حاجة إليها فواأسفاه».

وقطع عليه أفكاره وقوف حنطور أمام مدخل الدكّان فمدّ بصره مستطلعًا فرأى العربة وهي تميل ناحية الدكّان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها في بطء شديد على قدر ما تسمح به طيّات لحمها وشحمها وقد سبقتها إلى الأرض جارية سوداء فمدّت لها يدها لتعتمد عليها في أثناء نزولها. وكالمحمَل وقفت مليًّا وهي تتنهّد كأنّها تستجمّ من عناء النزول، وكالمحمَل راحت تتمايل وتخطر إلى ناحية الدكّان بينما علا صوت الجارية في لهجة شبه خطابيّة لتعلن عن مولاتها:

ـ وسّع يا جدع أنت وهو للستّ زبيدة ملكة العوالم.

وندّت عن الستّ زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب الجارية بلهجة تنمّ عن زجر كاذب:

ـ الله يسامحك يا جلجل... ملكة العوالم مرّة واحدة!... هلّا عرفت فضيلة التواضع!

وهرع إليها جميل الحمزاوي مفترّ الثغر عن ابتسامة عريضة وهو يقول:

ـ أهلًا وسهلًا، كان حقًّا علينا أن نفرش الأرض بالرمل.

ونهض السيّد وهو يتفحّصها بنظرة تنمّ عن دهشة وتفكير ثمّ قال متمّمًا تحيّة وكيله:

ـ بل بالحنّاء والورد ولٰكن ما حيلتنا والحظّ يقبل إذا أقبل غير مسبوق ببشير؟...

ورأى السيّد وكيله وهو يتّجه إلى كرسيّ ليأتي به فسبقه إليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحّى الرجل جانبًا وهو يداري ابتسامة، وقدّم السيّد لها الكرسيّ بنفسه وهو يومئ براحته مرحّبًا كأنّه يقول لها «تفضّلي» بيْد أنّ راحته انبسطت ـ ربّما بلا شعور منه ـ لآخر طاقته وانفرج ما بين أصابعه حتّى صارت يده كالمروحة، ولعلّه تأثّر في بسطها بما تركه في خياله منظر العجيزة الهائلة التي ستملأ مقعد الكرسيّ وتفيض على جوانبه حتمًا. وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذي أسفر حسنه بغير حجاب، وجلست وهي تشعّ بزواقها وحَلْيها نورًا، ثمّ التفتت إلى جاريتها وخاطبتها قائلة وهي تعني بالخطاب غيرها:

ـ ألم أقل لك يا جلجل أنّه ليس ثمّة ما يدعونا

للتخبّط هنا وهناك لابتياع حوائجنا وعندنا هٰذا الدكّان الفاخر؟

فأمّنت الجارية على قول سيّدتها قائلة:

ـ صدقت كعادتك يا سلطانة، لماذا نذهب بعيدًا وعندنا السيّد الكريم أحمد عبد الجواد!

فتراجع رأس الستّ كأنّما هالها ما صرّحت به جلجل وألقت عليها نظرة استنكار ثمّ ردّدت عينيها بين السيّد والجارية لتشهده على استنكارها وقالت وهي تداري ابتسامة:

ـ واخجلتاه!... حدّثتك عن الدكّان يا جلجل لا عن السيّد أحمد!...

وشعر فؤاد السيّد الذكيّ بالجوّ الوديّ الذي ينفثه حديث المرأة فاندمج فيه بغريزته المتوثّبة وتمتم باسمًا:

ـ الدكّان والسيّد أحمد شيء واحد يا سلطانة.

فرفعت حاجبيها في دلال وقالت بعناد لطيف:

ـ ولٰكنّنا نريد الدكّان لا السيّد أحمد.

وبدا أنّ السيّد أحمد لم يكن الشخص الوحيد الذي شعر بالجوّ الطيّب الذي خلقته السلطانة، فهٰذا جميل الحمزاوي يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر إلى ما تيسّر من جسم العالمة، وهؤلاء الزبائن جعلوا يُجيلون أبصارهم بين البضائع لتمرّ في الذهاب والإياب بالستّ، بل بدا أنّ الزيارة المباركة قد لفتت بعض الأنظار في الطريق فرأى السيّد أن يقترب من السلطانة وأن يولي الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفّل المتطفّلين، بيد أنّ هٰذا لم يُنْسِه ما كان فيه من أسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع:

ـ قضى الله جلّت حكمته أن يكون الجماد أحيانًا أسعد من الإنسان.

فقالت بلهجة ذات معنًى:

ـ أراك تغالي. لن يكون الجماد أسعد حظًّا من الإنسان، ولٰكنّه كثيرًا ما يكون أجلّ فائدة.

فثقبها السيّد بعينيه الزرقاوين متظاهرًا بالدهشة:

ـ أجلّ فائدة!.. (ثمّ مشيرًا إلى الأرض)... هٰذا الدكّان!.

فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولٰكنّها قالت بلهجة لا تخلو من خشونة مدبّرة:

ـ أريد سكّرًا وبنًّا وأرزًّا فهل يغني الإنسان فيها عن الدكّان شيئًا!... (وبنبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال)... ثمّ إنّ الرجال أكثر من الهمّ على القلب.

وكان السيّد قد تفتّحت له من الطمع أبواب، وشعر بأنّه مقبل على شيء أجلّ خطرًا من البيع والشراء، فقال محتجًّا:

ـ ليست كلّ الرجال سواء يا سلطانة، فمن قال لك إنّ الإنسان لا يغني عن الأرزّ والسكّر والبنّ شيئًا؟! الإنسان حقًّا مَن تجدين فيه الغذاء والحلاوة والكيف!

فساءلته ضاحكة:

ـ إنسان أم مطبخ هٰذا؟

فقال السيّد بلهجة تدلّ على الظفر:

ـ لو نظرت من قريب لوجدت تشابهًا عجيبًا بين الرجل والمطبخ... كلاهما حياة للبطون!...

وغضّت المرأة بصرها مليًّا، وانتظر السيّد أن ترفعه إليه موسومًا بابتسامتها المشرقة، ولٰكنّها واجهته بنظرة رزينة فأحسّ لتوّه أنّها غيّرت «السياسة» أو لعلّها لم ترتح كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثمّ سمعها تقول في هدوء:

ـ أفادك الله!... ولٰكن حسبنا اليوم الأرزّ والبنّ والسكّر.

وتحوّل السيّد عنها متظاهرًا بالجدّ ودعا إليه وكيله ثمّ وصّاه بصوت مرتفع بطلبات الستّ فأوحى مظهره بأنّه قرّر أيضًا العدول عن «التودّد» والعودة إلى «العمل»، ولٰكنّها لم تكن إلّا مناورة استعاد على أثرها ابتسامته الهجوميّة وتمتم مخاطبًا السلطانة:

ـ الدكّان وصاحبه تحت أمرك!

وكان للمناورة أثرها فقالت المرأة في دعابة:

ـ أريد الدكّان وتأبى إلّا أن تجود بنفسك!

ـ نفسي بلا ريب خير من دكّاني، أو خير ما في دكّاني.

فأشرق وجهها بابتسامة ماكرة وهي تقول:

ـ هٰذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك!

فقهقه السيّد قائلًا:

ـ ما حاجتك إلى السكّر وفي لسانك هٰذه الحلاوة كلّها؟!

وأعقب هٰذه المعركة الكلاميّة فترة سكون بدا فيها كلاهما راضيًا عن نفسه، ثمّ فتحت العالمة حقيبتها وأخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضّيّ وراحت تنظر في صورتها فمضى السيّد إلى مكتبه ووقف مستندًا إلى حافّته وهو يتفرّس في وجهها باهتمام. والحقّ لقد حدّثه قلبه حين وقعت عليها عيناه بأنّها جادت بالزيارة لأمور غير الشراء والبيع، ثمّ جاء حديثها باستجاباته الحارّة مؤكّدًا لظنّه، فلم يعد أمامه إلّا أن يقرّر من الآن هل يوصلها بتاريخه أو يودّعها الوداع الأخير. ولم يكن رآها لأوّل مرّة، فقد رآها مرّات في أفراح بعض الأصدقاء، وعرف عن الرواة أنّ السيّد خليل البنّان اتّخذها خليلة دهرًا حتّى انفصلا منذ عهد غير بعيد، ولعلّ هٰذا ما جعلها تستبضع من دكّان جديد!... وهي موفورة الحسن وإن لم تَعْدُ منزلتها كعالمة المرتبة الثانية بين العوالم، بَيْد أنّ المرأة تهمّه أكثر من العالمة، وإنّها لشهيّة لطيفة وبها من طيّات اللحم والدهن ما يدفئ المقرور في زمهرير الشتاء الذي غدا على الأبواب، واعترض أفكاره مجيء الحمزاوي حاملًا ثلاث لفّات، فتناولتها الجارية، ودسّت الستّ يدها في الحقيبة لتخرج النقود فيما بدا، ولٰكنّ السيّد أشار إليها محذّرًا وهو يقول:

ـ يا له من عيب!

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت:

ـ أيّ عيب يا سي السيّد!... ليس في الحقّ عيب.

ـ هٰذه زيارة ميمونة يحقّ علينا أن نحيّيها بما هي أهله من الإكرام، وهيهات أن نوفّيها حقّها.

وكانت قد نهضت وهو يتكلّم فلم تُبْدِ مقاومة جدّيّة لكرمه ولٰكنّها قالت:

ـ ولٰكنّ كرمك هٰذا سيجعلني أتردّد مرّة ومرّتين قبل أن أقصدك مرّة أخرى.

فقهقه السيّد قائلًا:

ـ لا تخافي، إني أكرم الزبون في المرّة الأولى ثمّ أعوّض خسارتي في المرّات اللاحقة ولو بالسرقة! هٰذا شعارنا نحن التجّار!

فابتسمت الستّ، ومدّت له يدها قائلة:

ـ الكريم مثلك يُسرق ولا يَسرق... أشكرك يا سيّد أحمد.

فقال من كلّ قلبه:

ـ العفو يا سلطانة.

ووقف ينظر إليها وهي تتبختر صوب الباب حتّى صعدت إلى العربة واتّخذت مجلسها، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها، وتحرّكت العربة بحملها النفيس، ثمّ غابت عن ناظريه، هنالك قال الحمزاوي وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب:

ـ كيف يمكن أن يسدّد هٰذا الحساب؟!

فألقى السيّد على وكيله نظرة باسمة وقال:

ـ اكتب مكان الأرقام «بضائع أتلفها الهوى».

ثمّ غمغم وهو يمضي إلى مكتبه «الله جميل يحبّ الجمال».

١٥

وحين المساء أغلق السيّد الدكّان وغادره تحفّ به المهابة ويتضوّع منه عَرف طيّب ثمّ مضى صوب الصاغة، ومنها إلى الغوريّة حتّى قهوة سي علي فلحظ في مروره بها بيت العالمة وما يكتنفه فرأى الدكاكين التي تمتدّ على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيّار السابلة في تدفّقه، فواصل السير إلى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثمّ استأذن عائدًا إلى الغوريّة وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالمقفرة، وجعل يقترب من البيت آمنًا مطمئنًّا، ثمّ طرق الباب وانتظر وهو يدقّق النظر فيما حوله ولم يكن ثمّة نور إلّا ما تَرامى من كوّة قهوة سي علي، ومصباح غازيّ على عربة يد عند منعطف السكّة الجديدة. وفتح الباب وبدا شبح خادم صغيرة فبادرها متسائلًا بصوت قويّ غير متردّد ليوحي بما يودّ من الصدق والثقة:

ـ الستّ زبيدة موجودة؟

فرفعت إليه الخادم رأسها وسألته بدورها في تحفّظ

أملته عليها ظروف وظيفتها:

ـ من أنت يا سيّدي؟

فقال بصوته القويّ:

ـ شخص يروم الاتّفاق معها على إحياء ليلة.

وغابت الخادم دقائق ثمّ عادت وهي تقول: «تفضّل»، وأوسعت له فدخل ورقي وراءها في سلّم متقارب الدرجات انتهى به إلى دهليز ثمّ فتحت له بابًا في مواجهته انتقل منه إلى حجرة مظلمة فظلّ واقفًا على كثب من المدخل وهو ينصت إلى أقدام الخادم وهي تجري، ثمّ وهي تعود حاملة مصباحًا، وتتبّعها بعينيه وهي تضعه على خوان وتجيء بكرسيّ إلى وسط الحجرة وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير المدلّى من السقف ثمّ تعيد الكرسيّ إلى موضعه وتحمل المصباح الصغير وتغادر الحجرة قائلة في أدب: «تفضّل بالجلوس يا سيّدي»، واتّجه السيّد إلى كنبة في صدر الحجرة وجلس في ثقة وهدوء دلّا على اعتياد هٰذا الموقف وأمثاله، وطمأنينة إلى الخروج منه بما يرضي ويطيب، ثمّ خلع الطربوش وحطّه على نُمرقة تتوسّط الكنبة ومدّ ساقيه في ارتياح. رأى حجرة متوسّطة الحجم نضّدت بجنباتها الكنبات والمقاعد وفرشت أرضها بسجّادة فارسيّة وقام حيال كلّ كنبة من كنباتها الثلاث الكبرى خوان مطعّم بالصدف، وقد أسدلت الستائر على نافذتيها وبابها فحبست في جوّها شذا بخور سرّ به متسلّيًا بالنظر إلى فراشة راحت ترفّ على المصباح في نشاط عصبيّ، وانتظر بعض وقت جاءت في أثنائه الخادم بالقهوة، حتّى ترامى إلى أذنيه وقع شبشب منغوم ذي دقّات مدغدغة فتنبّهت أعصابه وحدّق إلى الباب الذي سرعان ما امتلأ فراغه بالجسم المفصّل الهائل وقد لفّ لفّة شهوانيّة في فستان أزرق، وما كادت عينا المرأة تقعان عليه حتّى توقّفت دهشة وهتفت:

ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم... أنت...!

فجرى بصره على جسمها في عجلة ونهم كما يجري الفأر على جوال أرزّ ليجد لنفسه منفذًا، وقال بإعجاب:

ـ باسم الله ما شاء الله...!

فواصلت تقدّمها بعد التوقّف وهي تقول في خوف مصطنع:

ـ عينك!... أعوذ بالله...!

فنهض السيّد مستقبلًا يدها الممدودة بترحاب وتشمّم شذا البخور بأنفه العظيم وقال:

ـ أتخافين الحسد وعندك هٰذا البخور؟!

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت إلى كنبة جانبيّة وجلست وهي تقول:

ـ بخوري خير وبركة، إنّه أخلاط من أنواع شتّى بعضها عربيّ وبعضها هنديّ أؤلّف بينها بنفسي، فهو جدير بأن يخلّص الجسد من ألف عفريت وعفريت...

فعاود السيّد الجلوس قائلًا وهو يلوّح بيديه في يأس:

ـ إلّا جسدي!... بجسدي عفاريت من نوع آخر لا يجدي معها البخور، الأمر أجلّ وأخطر...

فضربت المرأة صدرًا ناهضًا كالقربة وهتفت:

ـ ولٰكنّي أحيي حفلات أفراح لا حفلات زار!

فقال السيّد برجاء:

ـ سنرى إن كان لدائي عندكم شفاء!

وساد الصمت قليلًا فجعلت السلطانة تنظر إليه فيما يشبه التفكير وكأنّما تستخبره عن سرّ حضوره وهل جاء حقًّا للاتّفاق على إحياء ليلة كما قال للخادم؟... وغلبتها الرغبة في الاستطلاع فسألته:

ـ فرح أم ختان؟

فقال السيّد باسمًا:

ـ لك ما تشائين!

ـ عندك مختون أم عروس؟

ـ عندي كلّ شيء..

فأنذرته بنظرة كأنّما تقول له «كم أنت متعب!» ثمّ تمتمت في تهكّم:

ـ نحن في خدمتك على أيّ حال...

فرفع السيّد يديه إلى قمّة رأسه في هيئة تنمّ عن الشكر وقال بوقار يناقض نواياه:

ـ عظّم الله قدرك... بَيْد أنّي ما زلت مصرًّا على

أن أترك لك الاختيار!
فتنهّدت بغيظ بالدعابة أشبه وقالت:
- إنّي أفضّل أفراح العرايس بطبيعة الحال!
- ولٰكنّي رجل متزوّج ولا حاجة بي إلى زفّة من جديد... !
فصاحت به:
- يا لك من رجل مهذار... إذن ليكن ختانًا...
- ليكن...
وتساءلت وهي تحاذر:
- ولبدك؟
فقال ببساطة وهو يفتل شاربه:
- أنا!...
فأطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقرّرت العدول عن التفكير في مسألة إحياء الليلة التي خمّنت خبيئتها وهتفت به:
- يا لك من رجل قارح، لو طالتك يدي لقصمت ظهرك...
فنهض السيّد وأقبل عليها قائلًا:
- لا أحرمتك رغبة قطّ..
وجلس جانبها فهمّت بضربه ولكنّها تردّدت ثمّ أمسكت، فسألها بقلق:
- لماذا لم تتكرّمي بضربي؟
فهزّت رأسها وقالت ساخرة:
- أخاف أن أنقض وضوئي...
فتساءل في لهفة:
- أألطمع في أن نصلّي معًا؟!
واستغفر الله في سرّه عقب النطق بدعابته مباشرة لأنّ هذره وإن كان لا يقف به في سكرة المجون عند حدّ إلّا أنّ قلبه لم يكن ليطمئنّ ويواصل ابتهاجه حتّى يستغفر في باطنه صادقًا ممّا يعبث به لسانه مازحًا. أمّا المرأة فتساءلت في دلال ساخر.
- أتعني، يا صاحب الفضيلة، الصلاة التي هي خير من النوم؟
- بل الصلاة التي هي والنوم سواء...
ولم تتمالك إلّا أن تقول ضاحكة:
- يا لك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنه الخلاعة والفجور، الآن صدّقت حقًّا ما قيل لي عنك...
واستوى السيّد في جلسته في اهتمام وتساءل:
- وماذا قيل؟!.. اللّٰهمّ اكفنا شرّ القيل والقال...
- قالوا لي إنّك زير نساء وعبد شراب...
فتنهّد بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال:
- حسبته ذمًّا والعياذ بالله...
- ألم أقل لك إنّك رجل قارح فاجر؟!
- هي الشهادة لي بأنّي حزت القبول إن شاء الله...
فرفعت المرأة رأسها في غطرسة وقالت:
- بُعْدك!... لست كمن عرفت من النساء... إنّ زبيدة معروفة ولا فخر بعزّة النفس ودقّة الاختيار...
فبسط السيّد راحتيه على صدره ونظر إليها في تحدٍّ مُشرَب باللطف وقال بطمأنينة:
- عند الامتحان يُكرَم المرء أو يهان...
- من أين لك بهٰذه الثقة وأنت لم تختن بعد بشهادتك؟
فقهقه السيّد طويلًا حتّى قال:
- لا تصدّقي يا ختّونة... وإن كنت في شكّ...
ولكمته في منكبه قبل أن يتمّ جملته فامسك ثمّ أغرقا في الضحك معًا، وسرّ بمشاركتها إيّاه في ضحكه، وحدس وراء ذاك - بعد ما جرى بينهما من تلميح وتصريح - لونًا من الجهر بالرضا ثبّتته في وعيه بسمة دلال سالت بطرفها المكحول، وراح يفكّر في أن يحيّي هٰذا الدلال بتحيّة تليق به لولا أن قالت له محذّرة:
- لا تحملني على مضاعفة سوء الظنّ بك...
فأعاده قولها إلى تذكّر ما ردّدته عن القيل والقال، وسألها باهتمام:
- من الذي حدّثك عنّي؟
فقالت باقتضاب وهي تلحظه بنظرة اتّهام:
- جليلة... !
وفجاه الاسم كأنّه عاذل يطرق مجلسها فابتسم

ابتسامة دلّت على حرجه. جليلة، تلك العالمة المشهورة التي عشقها دهرًا حتّى فصل بينهما الشبع ثمّ عاشا وما زالا على مودّة متبادلة على البعد، بيْد أنّه كخبير بالنساء لم يَرَ بدًّا من أن يقول في لهجة صادقة:

ـ لعنة الله على وجهها وصوتها معًا!... (ثمّ متهرّبًا)... دعينا من هٰذا كلّه ولنتكلّم في الجدّ...

فتساءلت متهكّمة:

ـ ألا تستحقّ جليلة كلمة أرقّ وألطف؟... أم هٰذا شأنك عند ذكر من قطعتهنّ من النساء؟!

وداخل السيّد شيء من الحرج إلّا أنّه ذاب في موجة الزهو الجنسيّ التي أثارها في نفسه حديث عشيقة جديدة عن عشيقة ولّت، وأخذ مليًّا بنشوة ظفر حلوة ثمّ قال بلباقة معهودة:

ـ لا يسعني وأنا بمحضر من هٰذا البهاء أن أغادره إلى ذكريات طويت ونسيت...

وبالرغم من أنّ السلطانة حافظت على نظرتها التهكّميّة إلّا أنّها استجابت للثناء كما بدا في رفع حاجبيها ومداراتها لابتسامة خفيفة اندسّت إلى شفتيها، ولٰكنّها خاطبته بازدراء قائلة:

ـ لسان تاجر يسخو بالحلاوة حتّى ينال غرضه...

ـ لنا الجنّة نحن التجّار بما يظلمنا الناس...

وهزّت كتفيها استهانة ثمّ سألت في اهتمام غير خافٍ:

ـ متى رافقتها؟

فلوّح السيّد بذراعه كأنّه يقول «ما أبعده من زمن!» ثمّ تمتم:

ـ منذ أزمان وأزمان...!

فضحكت في تهكّم وقالت بنبرات تنمّ عن التشفّي:

ـ في أيّام الشباب الذي مضى...!

فرنا السيّد إليها معاتبًا ثمّ قال:

ـ بودّي أن أمصّ من لسانك الأذى.

ولٰكنّها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة:

ـ أخذتك لحمًا وتركتك عظامًا...

فأومأ إليها محذّرًا وقال:

ـ إنّي من صلب رجال يتزوّجون في الستّين...

ـ بدافع العشق أم بدافع الخرف؟!

فقهقه السيّد قائلًا:

ـ يا وليّة اتّقي الله ودعينا نتكلّم في الجدّ...

ـ الجدّ؟!... أتعني إحياء الليلة التي جئت تتّفق عليها؟

ـ أعني إحياء العمر كلّه...

ـ كلّه أم نصفه؟!

ـ ربّنا يقدّرنا على ما فيه الخير...

ـ ربّنا يقدّرنا على الطيّب...

واستغفر الله في سرّه مقدّمًا ثمّ تساءل:

ـ نقرأ الفاتحة؟

ولٰكنّها نهضت بغتة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع:

ـ ربّاه... سرقني الوقت ولديّ الليلة عمل هامّ...

ونهض السيّد بدوره، ومدّ يده فتناول يدها ثمّ بسط راحتها المخضّبة بالحنّاء، ورنا إليها بشوق وافتنان، وأصرّ على احتفاظه بها رغم جذبها إيّاها مرّة ومرّتين، حتّى قرصته في أصبعه ورفعت يده إلى شاربه مهدّدة:

ـ دعني أو تخرج من بيتي بفردة شارب واحدة...

ورأى ساعدها قريبًا من فيه فزهد في النقاش وقرّب منه شفتيه رويدًا حتّى غاصتا في لحمه الطريّ فتطاير منه إلى أنفه رائحة قرنفليّة ذات طعم حلو، ثمّ تنهّد مغمغمًا:

ـ إلى الغد؟!

فتخلّصت من يده مقاومة من ناحيته هٰذه المرّة، وحدّقت إليه طويلًا ثمّ ابتسمت وتمتمت:

عصفوري يا امّه عصفوري
لاالعب وأورّي لُهْ أموري

وجعلت تردّد «عصفوري يا امّه» مرّات وهي تودّعه، وغادر السيّد الحجرة وهو يردّد مطلع الأغنية بصوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنّما يستخبر الألفاظ عمّا وراءها من معانٍ...

١٦

كان ما يُطلق عليه بهو الحفلات ببيت العالمة زبيدة يتوسّط الدار كالصالة، أو كأنّ الصالة بالفعل استجدّت لها أغراض أخرى. ولعلّ أهمّ أغراضه أنّها كانت تقوم فيه - هي وجوقتها - بالتجارب الغنائيّة وحفظ الأغاني الجديدة، وقد اختارته لبعده عن الطريق العامّ بما يفصل بينها من حجرات النوم والاستقبال. وجعله اتّساعه - إلى هذا - صالحًا لإحياء الحفلات الخاصّة التي تتراوح عادة بين الزار والغناء، والتي تدعو إليها الخاصّة من أصدقائها ومعارفهم المقرّبين. ولم يكن الباعث على هذه الحفلات أريحيّة كرم فحسب - إن كان ثمّة كرم على الإطلاق فإنّه غالبًا ما ينهض بأعبائها الأصدقاء أنفسهم - ولكنّها رمت من ورائها إلى الإكثار من الأصدقاء المتازين الخليقين بأن يدعوها لإحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعاية النافعة في الأوساط التي يتقلّبون فيها، ومن بينهم - إلى هذا كلّه - تنتقي الخليل بعد الخليل. وجاء دور السيّد أحمد عبد الجواد ليشرّف البهو السعيد محاطًا بالخاصّة من معارفه. والحقّ أنّه تبدّى على نشاط جمّ عقب المقابلة الجريئة التي تمّت بينه وبين زبيدة في بيتها فسرعان ما حمّل رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا... إلى مدفأة أوصى على صنعها ونقشها وطليها بالفضّة لتكون - جميعًا - عربونًا للمودّة المقبلة. ففي لقائه هذا دعته السلطانة، تاركة له الخيار في دعوة من يشاء من أصدقائه، إلى حفلة تعارف تكريمًا للحبّ الجديد - ولشدّ ما كان البهو موسومًا بطابع بلديّ جذّاب بكنباته المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة، الممتدّة على الجانبين حتّى الصدر حيث يقوم ديوان الستّ تكتنفه الشلت والوسائد المعدّة للجوقة، أمّا أرضه المستطيلة فمفروشة بسجّاد متعدّد الألوان والشكول، وعلى كونصول يتوسّط الجناح الأيمن - كالشامة رواء وصفاء - أوقدت الشموع منغرسة في الفنايير، غير مصباح ضخم يتدلّى من قمّة مُنَوّر يتوسّط سقف الحجرة ذي منافذ على سطح الدار تفتح في الليالي الدافئة وتغلق بأصلاف زجاجيّة في ليالي البرد.

جلست زبيدة متربّعة على الديوان وإلى يمينها زنّوبة العوّادة ربيبتها، وإلى يسارها عبده عازف القانون الضرير، واستوت النسوة جلوسًا عن يمين وشمال ما بين ممسكة بالدفّ أو ماسحة على الدربكّة أو عابثة بالصنج. وآثرت السلطانة السيّد أحمد بأوّل مجلس في الجناح الأيمن، واتّخذ الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنّهم أصحاب الدار، ولا عجب فلم يكن الجوّ بالجديد عليهم، ولا السلطانة بالتي يرونها لأوّل مرّة، وقدّم السيّد أحمد أصحابه إلى العالمة مبتدئًا بالسيّد علي بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة:

- ليس السيّد علي بالغريب فقد أحييت فرح كريمته في العام الماضي...

ثمّ ثنّى بالسيّد الفار تاجر النحاس، ولمّا رماه أحدهم بأنّه من روّاد بمبة كشّر بادر الرجل قائلًا:

- وجئت تائبًا يا ستّ.

وتتابع التعارف حتّى تمّ، ثمّ جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعوّين، ومضت النفوس تستشعر حيويّة مشبعة بالأريحيّة والمرح، وبدا السيّد عريس الحفلة بلا منازع، بهذا دعاه الأصدقاء، وبهذا شعر في أعماقه، وقد وجد لذلك بادئ الأمر لونًا من الارتباك قلّ أن يلمّ به، فداراه بالإسراف في الضحك والمرح، حتّى إذا أخذ في الشراب زايله بلا عناء، فاستعاد طمأنينته واندمج في الطرب بكلّ قلبه. وجعل كلّما لجّ به الشوق - والأشواق في مغاني الطرب تثار - يمدّ بصره إلى سلطانة المجلس بنهم فيتلكّأ ناظره عند طيّات جسمها المكتنز، فطاب قلبًا بما أفاء عليه الحظّ من نعمة، وهنّأ نفسه على ما يترقّبها من لذيذ المسرّات، هذه الليلة والليالي الأخريات: «عند الامتحان يكرم المرء أو يهان»، هذا التصريح الذي تحدّيتها به، يجب أن أكون عند كلمتي، أيّة امرأة هي يا ترى، وأيّ مدى مداها، سأعرف الحقيقة في الساعة المناسبة ثمّ ألبس لكلّ حال لبوسها، لكي تضمن الانتصار على غريم ينبغي أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس. لن أحيد عن شعاري القديم وهو أن أجعل من لذّتي أنا مطلبًا ثانويًا ومن لذّتها هي الهدف

والنهاية، وبذلك تتحقّق لذّتي على أكمل وجه». ومع أنّ السيّد لم يخبر من ألوان الحبّ ـ على وفرة مغامراته ـ إلّا الحبّ العضويّ وحُبّ اللحم والدم، إلّا أنّه تدرّج في اعتناقه إلى أرقّ صورة وأنقاها، فلم يكن حيوانًا بحتًا ولٰكنّه إلى حيوانيّته وهب لطافة إحساس ورهافة شعور وولع مغلغل بالغناء والطرب، فسما بالشهوة إلى أسمى ما يمكن أن تسمو إليه في مجالها العضويّ. بهٰذه البواعث العضويّة وحدها تزوّج أوّل مرّة ثمّ ثاني مرّة، أجل أثْرَتْ عاطفته الزوجيّة ـ بكرور الأيّام ـ بعناصر جديدة هادئة من المودّة والألفة ولٰكنّها ظلّت في جوهرها جسديّة شهوانيّة، ولـمّا كانت عاطفة من هٰذا النوع ـ خاصّة إذا أوتيت قوّة متجدّدة وحيويّة دافقة ـ لا يمكن أن تستنيم إلى لون واحد فقد انطلق في مذاهب العشق والهوى كالثور الهائج، كلّما دعته صبوة استجاب لها في نشوة وحماس. لم يَرَ في أيّة امرأة إلّا جسدًا، ولٰكنّه لم يكن يحني هامته لهٰذا الجسد حتّى يجده خليقًا حقًّا بأن يرى ويلمس ويشمّ ويذاق ويسمع، شهوة نعم ولٰكنّها ليست وحشيّة ولا عمياء، بل هذّبتها صنعة، ووجّهها فنّ فاتّخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جوًّا وإطارًا. فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه، فهو مثلها في الضخامة والقوّة اللتين توحيان بالقسوة والوحشيّة ولٰكنّه ـ مثلها أيضًا ـ فيما ينطوي عليه في أعماقه من لطف ورقّة ومودّة على ما يتسربل به أحيانًا ـ متعمّدًا من الصرامة والشدّة. ولذٰلك فلم يتركّز خياله النشيط ـ وهو يلتهم السلطانة بنظراته ـ في المضاجعة ونحوها ولٰكنّه تاه ـ إلى هٰذا ـ في أفانين من أحلام اللهو واللعب والغناء والسمر. وأحسّت زبيدة بحرارة عينيه فقالت تخاطبه وهي تقلّب عينيها في وجوه المدعوّين بعجب ودلال:

ـ حسبك يا عريس، هلّا استحييت حيال رفاقك!

فقال السيّد متعجّبًا:

ـ وما انتفاعي بالحياء حيال قنطار من اللحم والدهن!

فأطلقت العالمة ضحكة رنّانة وتساءلت في غاية من الانبساط:

ـ كيف ترون صاحبكم؟

فقالوا في نفس واحد:

ـ معذور!!

وهنا حرّك عازف القانون الضرير رأسه يمنة ويسرة وقد تدلّت شفته السفلى وتمتم:

ـ قد أعذر من أنذر.

ومع أنّ حكمته لاقت ترحيبًا إلّا أنّ الستّ التفتت نحوه كالغاضبة ولكزته في صدره هاتفة:

ـ اسكت أنت وسدّ فاك الذي يبلع المحيط...

وتلقّى الضرير الضربة ضاحكًا ثمّ فتح فاه كأنّما ليتكلّم ولٰكنّه أغلقه مرّة أخرى مؤثرًا السلامة فوجّهت المرأة رأسها صوب السيّد وقالت بلهجة تنمّ عن الوعيد:

ـ هٰذا جزاء من يجاوز حدّه.

فقال السيّد متظاهرًا بالانزعاج:

ـ ولٰكنّني جئت لأتعلّم قلّة الأدب.

فدقّت المرأة صدرها بيدها وصاحت:

ـ يا خبر!... أسمعتم قوله؟!...

فقال أكثر من واحد منهم في وقت واحد:

ـ إنّه خير ما سمعنا حتّى الآن.

وأضاف إلى هٰذا أحد الرفقاء قائلًا:

ـ بل عليك بضربه إذا جاوز حدود قلّة الأدب.

وقال آخر مؤمّنًا على قوله:

ـ الزمي طاعته ما قلّ أدبه.

فتساءلت المرأة وهي ترفع حاجبيها لتعلن عن دهشة لا أثر لها في نفسها:

ـ لحدّ هٰذا تحبّون قلّة الأدب!

فتنهّد السيّد قائلًا:

ـ ربّنا يديمها علينا.

فما كان من العالمة إلّا أن تناولت الدفّ وهي تقول:

ـ سأسمعكم شيئًا أفضل.

ونقرت عليه فيما يشبه العبث، ولٰكن علا النقر في حومة اللغو كالنذير حتّى أسكته، وداعب الآذان متودّدًا فبدّل القوم حالًا بعد حال، تحفّز أفراد الجوقة للعمل، وفرّغ السادة الكئوس ثمّ مدّوا رءوسهم نحو السلطانة

وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدّة التهيّؤ للطرب. وأومأت العالمة إلى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف عثمان بك، وراحت الرءوس تذهب مع الأنغام وتجيء، وسلّم السيّد نفسه لرنين القانون الذي جعل يلذع قلبه فيشعل فيه أصداء الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بليالي الطرب كأنّها ذرّات نفط تساقط على جمر مكنون، أجل كان القانون أحبّ آلات الطرب إلى نفسه ـ لا لمهارة العقّاد وحدها ـ ولكن لسرّ مستلهم من طبيعة أوتاره، ومع أنّه كان يعلم أنّه يستمع إلى العقّاد أو سي عبده إلّا أنّ قلبه العاشق دارى بعشقه ما قصّر دونه الفنّ. وما إن فرغت الجوقة من عزف البَشْرف حتّى انطلقت العالمة تنشد «والذي أسكر من عذب اللما» فلحقت بها الجوقة في حماس، وكان أجمل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان، أحدهما غليظ عريض للعازف الضرير والآخر رقيق يندى بالطفولة لزنّوبة العوّادة، فجاش صدر السيّد بالانفعال فابتدر الكأس الذي بين يديه فأفرغه في جوفه واندفع يشارك في إنشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته ـ عند مطلع الغناء ـ بشَرَق في حلقه لاندفاعه إلى الإنشاد قبل أن يتمّ بلع ريقه، وما لبث أن تشجّع بقيّة الرفاق فحذوا حذوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد. ولـمّا ختم التوشيح تهيّأت روح السيّد ـ بحكم العادة ـ لاستماع التقاسيم والليالي ولكنّ العالمة ذيّلت الختام بضحكة من ضحكاتها الرنّانة معلنة عن سرورها وعجبها، ومضت تهنّئ أفراد الجوقة المستجدّين مداعبة وتسألهم عن الدور الذي يودّون سماعه، وانزعج السيّد في باطنه ومرّت به لحظة كدر امتحن فيها ولعه بالغناء امتحانًا قاسيًا لم يفطن إليه كثيرون ممّن حوله، ولٰكنّه أدرك في اللحظة التالية أنّ زبيدة ليست كفئًا لتقاسيم الليالي شأن جميع العوالم بما فيهنّ «بمبة كشّر» نفسها، فتمنّى لو تختار المرأة طقطوقة خفيفة ممّا تغنّي للسيّدات في الأفراح، مفضّلًا هٰذا عن محاولة غناء دور من أدوار الفحول ستعجز حتمًا عن إجادة ترجيعه، وصمّم على أن يتفادى من المتاعب التي تخافها أذنه بأن يقترح أغنية خفيفة تناسب حنجرة الستّ فقال:

ـ ما رأيكم في عصفوري يا امّه؟

وحدجها بنظرة ذات معنى كأنّما ليثير في نفسها إيحاء هٰذه الطقطوقة التي توّجت بها حوار تعارفهما في حجرة الاستقبال منذ أيّام قلائل، ولٰكن جاء صوت من أقصى البهو يصيح ساخرًا:

ـ الأَوْلى أن تطلبها من أمّك!...

وسرعان ما ضاع الاقتراح فيما تفجّر من قهقهات أفسدت على السيّد خطّته، وقبل أن يكرّر المحاولة طلب نفر «يا مسلمين يا أهل الله» وطلب آخرون «سلامتك يا قلبي» ولٰكنّ زبيدة التي تحاشت أن ترضي فئة على حساب أخرى أعلنت أنّها ستغنّيهم «على روحي أنا الجاني» فاستقبلت بترحاب حارّ. ولم يجد السيّد بدًّا من توطين النفس على الانبساط مستعينًا بالشراب، وبأحلام ليلته الواعدة، فتألّق ثغره بابتسامة وضيئة أدرك بها ركب النشاوى بلا كدر، بل وجد عطفًا على رغبة المرأة في محاكاة الفحول إرضاء لمستمعيها الراسخين في السماع وإن لم يَخْلُ حالها من غرور تألفه الغواني. وفيما تتهيّأ الجوقة للغناء نهض أحد الرفاق وهتف بحماس:

ـ دعوا الدفّ للسيّد أحمد فهو به خبير!

فهزّت زبيدة رأسها عجبًا وتساءلت:

ـ حقًّا؟!

فحرّك السيّد أصابعه في سرعة ورشاقة كأنّما يعرض عليها مثالًا من صنعته فقالت زبيدة باسمة:

ـ فيمَ العجب وأنت تلميذ جليلة!

وضحك السادة في غير ما تحفّظ، وتواصل الضحك حتّى علا صوت السيّد الفار وهو يسأل السلطانة قائلًا:

ـ وماذا تنوين أن تعلّميه أنت؟

فقالت بلهجة ذات معنًى:

ـ سأعلّمه القانون... ألا يروقك هٰذا؟

فقال السيّد باستعطاف:

ـ علّميني الهنك إن شئت.

وحثّ كثيرون السيّد على الانضمام إلى التخت وأخذ الدفّ فما كان منه إلّا أن نهض وخلع الجبّة فبدا بطوله وعرضه في القفطان الكمّوني كجواد يقف

مستوفزًا على رجليه الخلفيّتين، ثمّ شمّر عن ساعديه ومضى إلى الديوان ليتّخذ مجلسه إلى جانب الستّ، ولكي تفسح له قامت نصف قومة متزحزحة إلى اليسار فانحسر الفستان الأحمر عن ساق لحيمة مرتوية بيضاء مشربة بلون ورديّ من أثر الحفّ والنتف محلًّى أسفلها بخلخال ذهبيّ أعيا ضمّها ذراعيه، ورأى بعضهم ذاك المنظر فصاح بصوت كالرعد:

- تحيا الخلافة!

وكان السيّد يغمز ثديي المرأة بعينيه فهتف وراءه:

- قُل يحيا الصدر الأعظم.

فصاحت العالمة محذّرة:

- خفّضوا أصواتكم أو يبيّتنا الإنجليز في السجن.

فهتف السيّد الذي لعبت الخمر برأسه:

- أذهب معك مؤبّدًا مع الشغل.

وعلا أكثر من صوت يقول:

- لا عاش من يترككما تذهبان وحدكما.

وأرادت المرأة أن تحسم النزاع الذي أثاره منظر ساقها فمدّت يدها بالدفّ إلى السيّد وهي تقول:

- أرني شطارتك.

وتناول السيّد الدفّ، ومسح عليه براحته مبتسمًا، وبدأت أصابعه تنقر عليه في مهارة على حين انطلقت آلات الطرب عازفة، ثمّ غنّت زبيدة وهي ترنو إلى الأعين المحدّقة إليها:

على روحي أنا الجاني

وخِلّي في الهوى رماني

ووجد السيّد نفسه في موقف عجيب، تهفو إليه أنفاس السلطانة بين اللفتة واللفتة فتلتقي بإشعاعات الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة، فما أسرع أن غابت عن وعيه أصداء الحامولي وعثمان والمنيلاوي، وعاش في لحظته الراهنة قانعًا سعيدًا، ثمّ سرى إليه من نبرات صوتها ما حرّك أوتار قلبه فاستعر نشاطه ولعب بالدفّ لعبًا لا يدانيه المحترفون، وما بلغت المرأة في الغناء قولها «أمانة يا رايح يمّه تبوس لي الحلو من فمّه» حتّى كان من النشوة في سكرة عاتية ملهمة مدغدغة محرقة، ولحق به الرفاق أو سبقوه إذ بلغت الخمر بالضرب نهايته ونثرت الشهوات نثرًا فتركتهم كأدواح راقصة في حومة عاصفة هوجاء.

ورويدًا رويدًا شارف الدور الختام وراحت زبيدة تختمه مردّدة نفس المطلع الذي افتتحت به وهو «على روحي أنا الجاني» ولكن بروح يوحي بالدعة والتذكير والوداع والنهاية، وغابت الأنغام كما تغيب طيّارة بحبيب وراء الأفق. ومع أنّ الختام قوبل بعاصفة من التهليل والتصفيق إلّا أنّه سرعان ما ساد القاعة صمت دلّ على همود أنفس أعياها الجهد والانفعال، ومضت فترة لم يسمع فيها إلّا سعلة أو نحنحة أو حكّة عود ثقاب أو كلمة لا تستحقّ المراجعة، وقال لسان الحال للمدعوّين «تفضّلوا بسلام» فلاحت من بعضهم نظرات إلى قطع الثياب التي تخفّفوا منها في فورة الطرب فوضعوها وراءهم على مساند، ولكنّ البعض الآخر ممّن تعلّقت نفوسهم بحلاوة السهرة أبوا أن يغادروها حتّى يرشفوا آخر قطرة متاحة من الرحيق، فصاح أحدهم:

- لا نبرح حتّى نزفّ السلطانة إلى السيّد أحمد.

وقوبل الاقتراح بترحاب وتأييد، على حين أغرق السيّد والعالمة في الضحك غير مصدّقين، وما يدريان إلّا ونفر من الصحاب يحيطون بهما وينهضونهما ثمّ يشيرون إلى الجوقة لتشرع في النشيد السعيد.

وقفا جنبًا لجنب، هي كالمَحْمِل وهو كالجمل، عملاقين ملطّفين بالحسن، ثمّ تأبّطت في دلال ذراعه وأشارت إلى المحدقين بهما ليفسحوا الطريق. ونقرت الدفّافة على الدفّ فانطلقت الجوقة وكثرة من المدعوّين يردّدون نشيد الزفّة «انظر بعينك يا جميل» ومضى العروسان في خطو وئيد يتبختران طربًا وسكرًا فلم تتمالك زنّوبة مع هذا المنظر إلّا أن تمسك عن اللعب بأوتار العود ريثما تطلق زغرودة مجلجلة طويلة النفس لو تجسّدت لبدت لسانًا متعرّجًا من لهب يشقّ الفضاء كالشهاب. وتسابق الأصدقاء يزجون التهاني تباعًا:

- بالرفاء والبنين.

- ذرّيّة صالحة من الراقصات والمغنّيات.

وصاح به أحدهم محذّرًا:

ـ لا تؤجّل عمل اليوم إلى غد.

ولم تزل الجوقة تواصل الإنشاد، والأصدقاء يلوّحون بأيديهم مودّعين، حتّى توارى السيّد والمرأة وراء الباب المفضي إلى داخل الدار.

١٧

كان السيّد أحمد جالسًا إلى مكتبه بالدكّان حين دخل ياسين على غير انتظار، ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب، ولكنّها كانت قبل كلّ شيء غير مألوفة، إذ لم يكن من الطبيعيّ أن يزور الفتى أباه في دكّانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته في بيته، وإلى هٰذا بدا شارد اللبّ ساهم النظرة... وأقبل على أبيه مكتفيًا برفع يده إلى رأسه بطريقة آليّة دون أن يلتزم ما يلتزم عادة بمحضره من أدب بالغ وخضوع كأنّما نسي نفسه، ثمّ قال بلهجة نمّت عن شديد تأثّره:

ـ السلام عليكم يا أبي، جئت لأحدّثك في أمر هامّ...

ورفع السيّد إليه عينيه متسائلًا وقد ساوره قلق استعان على إخفائه بقوّة إرادته ثمّ قال بهدوء:

ـ خير إن شاء الله...!

وجاء جميل الحمزاوي بكرسيّ وهو يرحّب بمَقْدمه فأمره والده بالجلوس فقرّب الشابّ الكرسيّ من مكان أبيه وجلس، وبدا لحظات كالمتردّد، ثمّ زفر ثائرًا بتردّده وقال بنبرات متهدّجة وفي اقتضاب مؤثّر:

ـ المسألة أنّ أمّي شارعة في الزواج...!

ومع أنّ السيّد توقّع خبرًا سيّئًا إلّا أنّ خياله لم يجنح في جولته التشاؤميّة إلى تلك الناحية التي أودعها ركنًا مهجورًا من ماضيه، لذٰلك لقيت منه المفاجأة صيدًا غافلًا، وسرعان ما قطّب كما يقطّب كلّما عرض له عارض من ذكريات زوجه الأولى، وتولّاه لذٰلك ضيق، ثمّ انزعاج لِما يمسّ ابنه مباشرة في صميم كرامته، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديدًا ولكن ليلتمسوا منفذًا للنجاة من الواقع وهم يائسون، أو ليهيّئوا لأنفسهم مهلة للتروّي وتمالك الأعصاب، وسأله:

ـ ومن أدراك بهٰذا؟

ـ قريبها الشيخ حمدي، زارني اليوم بمدرسة النحّاسين وألقى عليّ الخبر مؤكّدًا بأنّه سيتمّ في ظرف شهر...

الخبر حقّ لا ريب فيه، وما هو بالأوّل من نوعه في حياتها، ولن يكون الأخير إذا اتّخذ الماضي مقياسًا للمستقبل، ولٰكن أيّ ذنب جناه هٰذا الشابّ ليلقى هٰذا الجزاء الصارم المتجدّد الأذى؟! ووجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفًا، وعزّ عليه أن يقف من آلامه موقف العجز وهو الذي يقصده الناس في الملمّات، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ماذا تكون حاله لو كان هو المبتلى بهٰذه الأمّ!... فانقبض صدره وتضاعف رثاؤه وعطفه نحو ابنه، ثمّ شعر برغبة تدفعه إلى السؤال عن ذٰلك الزوج المنتظر، ولٰكنّه لم يستسلم لها، إمّا لأنّه أشفق من أن تزيد جرح ابنه عمقًا واتّساعًا وإمّا لأنّه أنكرها على نفسه لِما آنس بها من حبّ استطلاع، لا يليق بالمأساة الراهنة، موجّه إلى المرأة التي كانت زوجًا له، بيْد أنّ ياسين قال منفعلًا من تلقاء نفسه وكأنّه يجيب خاطرته:

ـ وممّن تتزوّج!... من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز في الدراسة... في الثلاثين من عمره!

واشتدّ انفعاله وتهدّج صوته وهو ينطق العبارة الأخيرة كأنّما يلفظ شظيّة، فانتقل إحساسه إلى أبيه تقزّزًا واشمئزازًا، وجعل يردّد في سرّه: في الثلاثين من عمره... يا له من عمل فاضح... إنّه فسق في ثياب زواج... غضب الرجل لغضب ابنه، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد أن يغضب كلّما ترامى إليه نبأ من مباذلها كأنّما يتجدّد شعوره بتبعته في اعتبارها يومًا زوجة له، أو كأنّما يعزّ عليه ـ ولو بعد كرور ذاك الزمن الطويل ـ أنّها أفلتت من تأديبه والإذعان لسنّته! وإنّه ليذكر أيّام معاشرته لها ـ على قصرها ـ كما يذكر الإنسان حمّى هاضته، وربّما كان مغاليًا في تصوّره، ولٰكنّ رجلًا في مثل اعتداده بنفسه جدير بأن يرى في مجرّد الرغبة عن الإذعان لمشيئته جريمة لا تغتفر وهزيمة

قتّالة. ثمّ إنّها كانت ـ ولعلّها لا تزال ـ جميلة مترعة أنوثة وجاذبيّة فنَعِم بمعاشرتها أشهرًا حتّى بدا منها شيء من المقاومة لإرادته التي نزع إلى فرضها على المتّصلين به من آله، ولم ترَ بأسًا في الاستمتاع بالحرّيّة ولو بالقدر الذي يتيح لها زيارة أبيها من آنٍ لآنٍ، فغضب السيّد وحاول منعها بالزجر أوّلًا ثمّ بالضرب المبرّح أخيرًا، فما كان من المرأة المدلّلة إلّا أن فرّت إلى والديها! وأعمى الغضب الرجل المتعجرف فظنّ أنّ خير سبيل إلى تأديبها وإرجاع عقلها إلى رأسها هو أن يطلّقها إلى حين ـ إلى حين طبعًا لأنّه شديد التعلّق بها ـ فطلّقها، وتظاهر بإهمالها أيّامًا وأسابيع وهو ينتظر آملًا أن يجيئه وسيط خير من آلها، فلمّا لم يطرق بابه أحد داس كبرياءه وبعث هو بمن يجسّ النبض تمهيدًا للصلح فعاد الرسول يقول إنّهم يرحّبون به على شرط ألّا يسجنها أو يضربها!... ولكنّه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا شرط فثار غضبه ثورة عاتية وأقسم فيما بينه وبين نفسه ألّا يضمّهما رباط إلى الأبد. هٰكذا ذهب كلاهما إلى حال سبيله، وهٰكذا قضي على ياسين أن يولد بعيدًا عن أبيه وأن يلقى من حياته في بيت أمّه ما لقي من ضروب المذلّة والألم...

ومع أنّ المرأة تزوّجت أكثر من مرّة، ومع أنّ الزواج كان ـ في نظر ابنها ـ أشرف سقطاتها، إلّا أنّ هٰذا الزواج الجديد المتوقّع بدا أفظع من سوابقه وأمعن في الإيلام، لأنّ المرأة استوت على الأربعين من ناحية، ولأنّ ياسين اكتمل شابًّا مدركًا بوسعه إذا شاء أن يدفع عن كرامته الإساءة والهوان من ناحية أخرى، فقد جاوز إذن موقفه القديم الذي ألزمه إيّاه حداثة سنّه حين كان يتلقّى الأنباء المثيرة عن أمّه بالدهش والانزعاج والبكاء إلى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه رجلًا مسئولًا، لا يصحّ له أن يلقى الإساءة مكتوف اليدين. دارت هٰذه الخواطر بذهن السيّد، وقدّر خطورتها بقلق، ولكنّه صمّم على التهوين من شأنها ما وسعته الحيلة ابتعادًا بابنه الأكبر عن المتاعب، فهزّ كتفيه العريضين متظاهرًا بالاستهانة وقال:

ـ ألم نتعاهد على اعتبارها كشيء لم يكن...؟!

فقال ياسين في حزن وقنوط:

ـ ولٰكنّها شيء كائن يا أبي!... ومهما يكن من أمر تعاهدنا فلن تزال أمّي إلى ما شاء الله، سواء في نظري أم في نظر الناس جميعًا... لا مفرّ ولا خلاص...

ونفخ الشابّ من الأعماق، ورنا إلى أبيه بعينيه السوداوين الجميلتين ـ اللتين ورثهما عنها ـ في استغاثة صارخة وكأنّه يقول له: «إنّك أبي الجبّار القادر فمدّ لي يدك»، فبلغ التأثّر بالسيّد غايته ولٰكنّه واصل تظاهره بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلًا:

ـ لا أنكر عليك تألّمك ولٰكنّي أنكر عليك أن تغالي فيه، كذٰلك يطيب لي أن أعذرك على غضبك ولٰكنّ قليلًا من العقل حريّ بأن يردّك بلا عناء، سائل نفسك في هدوء ماذا عليك من زواجها؟... امرأة تتزوّج، كما تتزوّج النساء كلّ يوم وكلّ ساعة، وليست هي بالتي تحاسَب على مثل هٰذا الزواج لما سلف من سلوكها، بل لعلّها خليقة بأن تشكر عليه، وكما قلت لك مرارًا لن يرتاح لك بال حتّى تسقطها من حسابك كأنّها لم تكن، فافعل بالله وأرِحْ نفسك، وتعزَّ ـ مهما يكن من أمر القيل والقال ـ بأنّ الزواج علاقة مشروعة... شريفة...

قال السيّد هٰذا بلسانه فحسب ـ إذ كان يناقض كل المناقضة ما طبع عليه من غيرة متطرّفة فيما يتّصل بالآداب المطلقة للأسرة ـ ولٰكنّه قال بحرارة كالصدق، منشؤها ما مارسه من لباقة أهّلته لأن يكون الحكم الحكيم ووسيط الخير الذي لا يعجزه فضّ نزاع بين الناس، ومع أنّ كلامه لم يضع هباء ـ حيث إنّه من المستحيل أن يضيع كلام للسيّد هباء حيال أحد من أبنائه ـ إلّا أنّ غضب الفتى كان أعمق من أن يتبخّر بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من إبريق بالماء المغليّ، وما لبث أن خاطب أباه قائلًا:

ـ هو علاقة مشروعة حقًّا يا أبي ولٰكنّها تبدو أحيانًا أبعد ما تكون عن الشرع، إنّي أسائل نفسي عمّا يدفع هٰذا الرجل إلى الزواج منها؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيّد لنفسه في شيء من السخرية «أَوْلى بك أن تسأل عمّا يدفعها

هي!»، وقبل أن يحاور ابنه واصل ياسين حديثه قائلًا:

ـ إنّه الطمع... ولا شيء غيره!

ـ أو لعلّها رغبة صادقة في الزواج منها...

ولٰكنّ الشابّ هاج ثائره وهتف في حنق وألم معًا:

ـ بل الطمع وحده...

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخْفَ على السيّد حدّة اللهجة التي خاطبه بها ابنه، بل لم يَخْلُ الرجل من ضيق إلى تقديره لحاله وحزنه أن يعود إلى توكيد قوله السابق، فلمّا لم يفعل استطرد قائلًا في هدوء نسبيّ:

ـ إنّ ما يدفعه إلى الزواج من امرأة تكبره بعشرة أعوام هو الطمع في مالها وعقارها...

وجد السيّد في تحوّل النقاش إلى هٰذه النقطة فائدة لم تغب عن ألمعيّته، فهو ينزع الفتى من تركيز تفكيره في أمور أشدّ حساسيّة وأبعث للألم ويحسبه أن يصرفه عن النظر فيما يدفع أمّه إلى الزواج إلى ما يدفع الرجل، وإلى هٰذا كلّه لم يَخْفَ عليه ما في رأي ابنه من وجاهة فيما يتعلّق بالزواج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه فيه. أجل إنّ هنيّة ـ أمّ ياسين ـ غنيّة لدرجة لا بأس بها، وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت من تجارب الزواج والهوى، بيْد أنّها كانت فيما مضى شابّة حسناء ذات سحر وسلطان، يُخاف منها ولا يُخاف عليها، أمّا الآن فبعيد عن الاحتمال أن تملك نفسها ـ فضلًا عن أنفس الآخرين ـ ما ملكت، وإذن فثروتها خليقة بأن تتبدّد في معركة الغرام التي لم تعد من زُماتها، وإنّه لَحرام وأيّ حرام أن يخرج ياسين من جحيم هٰذه المأساة جريح الكرامة وصفر اليدين، وقال السيّد يخاطب ابنه وكأنّه يحاور نفسه ويستلهمها الرأي:

ـ أراك على حقّ يا بنيّ فيما تقول، إنّ امرأة في سنّها صيد يسير خليق بأن يغري الطّامعين من البشر، فما عسى أن نفعل؟ أنتلمّس سبيلًا إلى ذاك الرجل لنحمله على العدول عن مغامراته؟!... إنّ الحملة عليه بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به بين الناس، كذٰلك التوسّل إليه بالرجاء والاقتناع مهانة لا تهضمها كرامتنا... فلم يبق أمامنا إلّا المرأة نفسها!... ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من قطيعة كانت بها ـ ولا تزال ـ خليقة، بل الحقّ أنّي لا أرتاح إلى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما استجدّ من أعذار قهريّة، فللضرورة أحكام، ومهما يشقّ عليك الرجوع فهو رجوع إلى أمّك، ومن يدري فلعلّ ظهورك المفاجئ في أفقها يردّها إلى شيء من الصواب...

وبدا ياسين أمام أبيه، كالوسيط أمام المنوّم المغناطيسيّ في اللحظات التي تسبق ما يوحي به إليه، ذاهلًا صامتًا، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل إلى نفسه، أو لعلّه دلّ على أنّه لم يفاجأ بهٰذا الاقتراح، وأنّه يحتمل أن يكون ممّا دار بنفسه قبل مجيئه، بيد أنّه تمتم قائلًا:

ـ أليس ثمّة حلّ أوفق...؟

فقال السيّد بقوّة ووضوح:

ـ أراه أوفق الحلول...

فقال ياسين وكأنّه يحادث نفسه:

ـ كيف أرجع إليها؟!... كيف أزجّ بنفسي في ماضٍ فررت منه وليس أحبّ إليّ من أن يُبتر من حياتي بترًا!... لا أمّ لي... لا أمّ لي...

ولٰكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيّد بأنّه وُفّق إلى جذبه إلى رأيه فقال بلباقة:

ـ هٰذا حقّ، ولٰكن لا أظنّ أنّ ظهورك أمامها فجأة بعد ذاك الغياب الطويل يمضي بلا أثر، لعلّها إذا رأتك بين يديها شابًّا ناضجًا ان تتحرّك أمومتها فتجفل ممّا عساه يسيء إلى كرامتك وتعدل عن سيرتها... من يدري؟!

فطامن ياسين رأسه غارقًا في أفكاره، غير مبالٍ بما دلّ عليه من ضيق ويأس، كان يرتعد خوفًا من وقوع الفضيحة، ولعلّ هٰذا كان أفظع ما يكرّبه ولٰكنّ خوفه على ضياع الثروة التي ينتظر أن يرثها يومًا لم يكن دون ذٰلك، وما عسى أن يفعل؟!... مهما يقلّب أوجه الرأي فلن يجد حلًّا أوفق ممّا ارتأى أبوه، بل إنّ صدور الرأي عن أبيه ألبسه في نظره ـ على تقلقل حاله ـ وجاهة وأعفاه هو من هموم كثيرة. ليكن... هٰكذا قال في نفسه، ثمّ قال مخاطبًا أباه:

ـ كما ترى يا أبي...

١٨

لـمّا بلغت به قدماه طريق الجماليّة انقبض صـدره حتّى شعر بأنّه يختنق. لقد غاب عنه أحد عشر عامًا. أحد عشر عامًا تصرّمت فلم ينازعه القلب إليه مـرّة واحدة، أو ترفّ عليه ذكرى من ذكرياته إلّا في هالة قاتمة مقبّضة نسج وشيها من مادّة الكابوس، والحقّ أنّه لم يكن غادره ولٰكن واتته فرصة ففرّ منه فرارًا، ثمّ ولّاه ظهره غاضبًا يائسًا، ثمّ تجنّبه بكلّ قوّة فلم يعرفه بعد ذٰلك كغاية في نفسه أو معبرًا إلى سواه من الأحياء بيد أنّه هو الحيّ كما عهده في طفولته وصباه، ولم يتغيّر منه شيء، ما زال ضيّقًا تكاد تسدّه عربة يد إذا اعترضت سبيله، وها هي بيوته تكاد تتماسّ مشربيّاتها، ودكاكينه الصغيرة في تلاصقهـا وزحمتها والـطنين الصـادر عنها كخلايا النحل، وأرضه التربة بفجواتها المفعمة وحلًا، وغلمانه الذين يغشون جوانبه ويطبعون على أديمه آثار أقدامهم الحافية، وسابلته الذين لا ينقطع لهم تيّار، ومقلى عمّ حسن ومطعم عمّ سليمان، كلّ أولٰئك باقٍ كما عهده فتكاد ترفّ على شفتيه ابتسامة حنان يريد ثغر طفـولتـه أن يفـترّ عنهـا لـولا مـرارة المـاضي وسقم الحاضر...

وتراءت لعينيه عطفة قصر الشوق فخفق قلبه بقوّة حتّى كاد يصمّ أذنيه، ثمّ لاحت على رأس منعطفهـا الأيمن سلال البرتقال والتفّاح منضّدة على الطوار أمام دكّان الفاكهة فعضّ شفتيه وغضّ طـرفه في خـزي. الماضي ملطّخ بالعـار، مدفـون الرأس في الـطين من الخجل، دائم الجأر بالشكوى من الخزي والألم، ولٰكنّه كلّه في كفّة وهٰذا الدكّان في كفّة وحده، بل إنّه يرجح به، إذ أنّه رمزه الحيّ الباقي عـلى الزمن. جمعت في صـاحبه وسـلاله وفـاكهته ومـوقعه وذكـرياتـه الخزي متبجّحًا، والألم ناطقًا بالهزيمة مولولة. وإذا كان الماضي أحداثًا وذكـريات هي بـطبعها عـرضة للتخلخـل أو النسيان فهٰذا الدكّان يقوم شاهدًا مجسّمًا يكشف مخلخله ويفضح منسيّه. وكان كلّما تقدّم من المنعـطف خطوة تقهقر عن الحاضر خـطوات طاويًـا الزمن عـلى رغم إرادته وكأنّه يرى في الدكّان «غلامًا» يرفع رأسـه إلى صاحبها ويقول «نينة تطلب منك أن تحضر الليلة»، أو كـأنّه يـراه وهو عـائد بقـرطاس الفـاكهـة ضـاحـك الأسارير، أو وهو يلفت نظر أمّه في الطريق إلى الرجل فتجذبه من ذراعه بعيدًا أن يلفت إليهما الأنظار، أو وهو ينشج باكيًا أمام منظر الافتراس الوحشيّ الـذي يخلقه خلقًا جديدًا ـ كلّما ورد على ذهنه ـ عـلى ضوء تجاربه الراهنة فينقلب البشاعة نفسها، طفقت الصور الملتهبة تطارده وهو يجدّ في الفرار منها، ولٰكنّه ما إن يتملّص من قبضة إحداها حتّى يقع في قبضة الأخرى، مطاردة عنيفة وحشيّة أثارت في أعـماقه بـركان الحنق والحقد فواصل السير إلى غايته وهـو على أسـوأ حال «كيف أمرق إلى العطفة وعلى رأسها هٰذا الدكّان... وهٰذا الرجل. أتراه بموقفه القديم منه؟... لن ألتفت نحوه، أيّ قوّة ماكرة تغريني بالنظر، أيعرفني إذا التقت عينانا؟!... إذا بدا منه أنّه عرفني قتلته. ولٰكن كيف له أن يعرفني؟... لا هو ولا أحد من الحيّ، أحد عشر عامًا، تركته غلامًا وأعود إليه ثورًا ذا قـرنين! ثمّ لا تواتينا القوّة على إبادة الحشرات السامّة التي لا تنفكّ تلدغنا...»؟

ومـال إلى العطفـة مسرعًـا بعض الشيء، متخيّلًا القوم وهـم يستطلعونه بأنظارهم متسائلين «أين ومتى رأينا هٰذا الوجه؟»، ورقي في الطريق المتصاعد في غير استواء، جامعًـا عزمـه على نفض الغبـار الخانق عن وجهه ورأسه ولو إلى حين، وتشجيعًا لعزمه فرّ بنفسه بعيدًا وراح يتأمّل ما حوله ويحدّث نفسه قـائلًا: «لا تضِق بالطريق المتعب فكم كنت تفرح به صغيرًا وأنت تتزحلق على منحدره فوق لوح من الخشب!» بيْد أنّه عـاد يقول حـين تراءى لـه جـدار البيت: «إلى أين أسير؟!... إلى أمّي!... يا لَلعجَب. لا أصدّق، كيف ألقاها وكيف تلقاني!... وددت لو...» ومال يمينًا إلى عطفة مـسدودة ثمّ اتّجه إلى أوّل باب في جانبها الأيسـر. هو البيت القديم بلا أدنى شكّ، قطع الطريق إليه كما كان يقطعه وهو صغير، بلا تـردّد أو تساؤل وكأنّه ما تركه إلّا أمس القريب، ولٰكنّـه اقتحم بابـه هٰذه المرّة بـاضطراب غـير معهود، ورقي في الـدرج

بخطوات ثقيلة بطيئة. وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتفحّصه باهتمام مطابقًا بينه وبين صورته المحفوظة في خياله فألفاه أضيق قليلًا ممّا في ذاكرته وقد تآكلت بعض جوانبه وتهدّمت أجزاء صغيرة من أطراف درجاته المطلّة على بئر السلّم، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كلّه. ومرّ وهو على تلك الحال بالدورين المأجورين حتّى انتهى إلى الدور الأخير، ووقف لحظات يتنصّت وصدره يعلو وينخفض، ثمّ هزّ منكبيه كالمستهين ونقر على الباب، وبعد دقيقة أو نحوها فُتح الباب عن وجه خادم متوسّطة العمر ما إن تبيّنت فيه رجلًا غريبًا حتّى توارت وراء الباب وهي تسأله في أدب عمّا يريد. وثارت أعصابه فجأة وبلا داعٍ معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة واتّجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة آمرة:

ـ قولي لستّك ياسين هنا...

«ترى ماذا تظنّ الخادم بي؟»... والتفت وراءها فوجدها مسرعة إلى الداخل، إمّا لأنّ لهجته الآمرة غلبتها على أمرها، وإمّا... وعضّ على شفتيه وهو يمرق إلى داخل الحجرة. إنّها حجرة الضيوف كما قدّر بلا وعي في هوجته وحدّته ولكنّ ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل، ولو وجد في ظرف غير الظرف لطاف مسترجعًا ذكرياته من الحمّام الذي كان يُحمل إليه وهو يبكي إلى المشربيّة التي كان ينظر من وراء ثقوبها إلى موكب الزفّة مساء وراء مساء. تُرى أثاث الحجرة الراهن هو أثاث الماضي البعيد؟

إنّه لا يذكر من الأثاث القديم إلّا مرآة طويلة ثُبّتت في حوض مذهّب تنبثق من ثغرات في سطحه ورود صناعيّة مختلفة الألوان، وتركّز في زاويتيه المتباعدتين فنانير تتدلّى من أعناقها أهلّة بلّوريّة طالما ولع بالعبث بها والنظر خلالها إلى المكان فيلوح في حلل غريبة يذكر إغراءها وإن غاب عنه منظرها، ولكن لا داعي للتساؤل، فأثاث اليوم غير أثاث الأمس، لا لجدّته فحسب، ولكن لأنّ حجرة امرأة مزواج خليقة بأن تتغيّر أو تتجدّد، كما تغيّر أبوه، وتاجر الفحم، والباشجويش. وركبه توتّر وضيق فأدرك أنّه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنّه نكأ جرحًا متورّمًا وغاص في قيحه. ولم يطل انتظاره، ولعلّه جاء أقصر ممّا يتصوّر، إذ ابتدر أذنيه وقع أقدام متتابعة متدافعة، وصوت يتردّد محاورًا نفسه بكلام علا جرسه ولم يستبن ألفاظه، ثمّ أحسّ بها ـ وهو لم يزل موليَ الباب ظهره ـ وضلفة الباب المغلقة تطقطق تحت صدمة منكبها، ثم جاءه هتافها وهي تقول بأنفاس مبهورة:

ـ ياسين!... ابني!... كيف أصدّق عينيّ؟!... ربّي... صار رجلًا!...

وتدافع الدم إلى وجهه المكتنز، واستدار نحوها في ارتباك وهو لا يدري كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء، ولكنّ المرأة أعفته من تدبير أمره فهرعت إليه واحتوته بذراعيها وضمّته إليها بشدّة عصبيّة وراحت تقبّل صدره ـ وهو غاية ما وسع شفتاها أن تبلغاه من جسمه المنتصب ـ ثمّ اختنقت نبراتها واغرورقت عيناها فدفنت وجهها في صدره مستسلمة مليًّا ريثما تستردّ أنفاسها. لم يكن حتّى تلك اللحظة قد أتى حركة أو نطق بكلمة، ومع أنّه شعر شعورًا عميقًا أليمًا بأنّ جموده أشدّ من أن يحتمل إلّا أنّه لم يبدر منه ما ينمّ عن حياة: أيّ حياة، فلازم جموده وخرسه، بيد أنّه كان متأثّرًا غاية التأثّر وإن لم يتّضح له نوع التأثّر بادئ الأمر بحال يطمئنّ إليها، ولكنّه، على حرارة استقبالها، لم يجد رغبة للارتماء في حضنها أو تقبيلها، لعلّه لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الناشبة في نفسه كمرض مزمن رافقه منذ الصبا، ومع أنّه وجّه إرادته بعزم وتصميم إلى إخلاء المسرح من الماضي في اللحظة الراهنة ليملك فكره وحكمته، إلّا أنّ الماضي المطرود انعكس على صفحة قلبه ظلالًا قاتمة كذبابة نشّت عن الفم بعد أن خلّفت وراءها جرثومة تسري، فأدرك في ذاك الموقف الرهيب أكثر ممّا أدرك في ماضيه كلّه الحقيقة المحزنة التي طالما أدمت فؤاده وهي أنّ أمّه قد اقتلعت من صدره. ورفعت المرأة رأسها إليه وهي تدعوه إلى تقريب وجهه فلم يستطع الإباء وأدنى وجهه منها فقبّلته في خدّيه وجبينه، التقت أثناء العناق عيناهما

فلثم جبينها تأثرًا بارتباكه وحيائه لا لعاطفة أخرى، ثمّ سمعها تغمغم:

ـ قالت لي ياسين هنا، قلت ياسين! من يكون هٰذا؟! ولٰكن من يكون غيره؟ ليس لي إلّا ياسين واحد، ذاك الذي حرّم بيتي على نفسه وحرّم نفسه عليّ، فماذا حدث؟ وكيف استُجيب الدعاء آخر الدهر؟! وجئت عدوًا كالمجنونة لا أصدّق أذني، وها أنت، أنت دون غيرك والحمد لله، تركتني غلامًا وعدت إليّ رجلًا، كم قتلني الشوق إليك وأنت لا تحسّ لي وجودًا...

وأخذته من ذراعه إلى الكنبة فمضى معها وهو يسائل نفسه متى تنحسر هٰذه الموجة الطاغية من الاستقبال الحارّ حتّى يتبيّن الطريق إلى هدفه، وجعل يسترق إليها النظر في استطلاع مقرون بالدهشة والقلق؟... كأنّها لم تتغيّر إلّا أن يكون جسمها قد زاد امتلاء ولٰكنّه لا يزال محافظًا على حسن تقطيعه، أمّا الوجه القمحيّ المستدير والعينان السوداوان المكحولتان فعلى سابق عهدهما تقريبًا من القسامة البارعة. ولم يرتح إلى ما رآه على صفحة الوجه والعنق من زواق كأنّه كان ينتظر أن تغيّر أعوام القطيعة من دأبها القديم على العناية بنفسها وولعها بالتبرّج لداعٍ ولغير ما داعٍ أي حتّى في تلك الأوقات التي تخلو فيها إلى نفسها. وجلسا جنبًا إلى جنب وهي تحدّق إلى وجهه بحنان تارة وتقيس طوله وعرضه بعينين معجبتين تارة أخرى ثمّ تمتمت بصوت متهدّج:

ـ آه يا ربّي لا أكاد أصدّق عينيّ، أنا في حلم، هٰذا ياسين! أيّ عمر ذهب هباء، كم دعوتك ورجوتك، وبعثت إليك الرسول تلو الرسول، ماذا أقول؟... دعني أسألك كيف قسا قلبك عليّ لهٰذا الحدّ؟... كيف أعرضت عن دعواتي الحارّة؟ كيف تصاممت عن نداء قلبي المكروب؟... كيف... كيف؟... كيف نسيت أنّ لك أمًّا منزوية هنا؟

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدها غريبة تدعو إلى السخرية والرثاء معًا، وكأنّها أفلتت منها في ذهول الانفعال، أجل يوجد شيء وأشياء، تذكّره صباح مساء بأنّ له أمًّا، ولٰكن أيّ شيء وأيّ أشياء؟!

ورفع إليها عينيه في حيرة دون أن ينبس فالتقت عيناهما لحظة، وابتدرته المرأة قائلة:

ـ لماذا لا تتكلّم؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهّدة مسموعة ثمّ قال وكأنّه لم يجد بدًّا ممّا قال:

ـ ذكرتك كثيرًا، ولٰكن آلامي كانت أفظع من أن تطاق.

وقبل أن يتمّ كلامه كان النور الذي ينبعث من نظرتها قد خمد، واحتلّت الحدقتين غمامة خيبة وفتور ساقتها رياح تهبّ من جوف الماضي الأسيف، فلم تعد تطيق التحديق في عينيه وخفضت جفنيها وهي تقول بلهجة حزينة:

ـ ظننتك برئت من أحزان الماضي، وإنّها عَلِم الله لا تستحقّ بعض ما أوليتها من غضب حملك على هجري أحد عشر عامًا.

وعجب لعتابها عجبًا أحنقه، واستنكره استنكارًا ذرّ على غضبه المكتوم فلفلًا فانفعل انفعالًا لولا القصد الذي جاء من أجله لثار بركانه، أتعني المرأة حقًّا ما تقول؟ أهان عليها ما فعلت لهٰذا الحدّ؟ أم تظنّ به الجهل بما كان؟! بيْد أنّه ضبط أعصابه بقوّة إرادته التي لم تغفل عن هدفها وقال:

ـ تقولين إنّها لا تستحقّ غضبي؟... أراها تستحقّ الغضب كلّ الغضب وأكثر.

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبة كشيء تهدّم، ورمته بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة:

ـ ما وجه العيب في أن تتزوّج امرأة بعد طلاقها؟

فشعر بنيران الغضب تتأجّج في عروقه وإن لم تَبْدُ منها آثار إلّا في انطباق شفتيه ثمّ التصاقهما، لا زالت تتكلّم ببساطة كأنّها مقتنعة على يقين ببراءتها!... وتتساءل عن وجه العيب في أن تتزوّج «امرأة» بعد طلاقها، حسن، لا عيب في أن تتزوّج «امرأة» بعد طلاقها، أمّا أن تكون المرأة أمّه فهٰذا شيء آخر، شيء آخر جدًّا، وأيّ زواج الذي تعنيه؟!... إنّه زواج وطلاق ثمّ زواج وطلاق ثمّ زواج وطلاق؟... هناك

ما هو أدهى وأمرّ، ذلك «الفكهاني»!... أيذكّرها به؟... أيصفعها بما في نفسه من مرّ ذكرياته؟ أيصارحها بأنّه لم يعد جاهلًا كما تظنّ؟ وأرغمته حدّة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرّة فقال بامتعاض شديد:

ـ زواج وطلاق، زواج وطلاق، هذه أمور شائنة لم تكن لتليق بك، ولشدّ ما مزّقت نياط قلبي بلا رحمة...

فشبكت ذراعيها على صدرها في استسلام اليائس وقالت بإشفاق حزين:

ـ إنّه سوء الحظّ ولا شيء غيره، إنّي سيّئة الحظّ، هذا كلّ ما هنالك.

فبادرها قائلًا، وقد تقلّصت أساريره وانتفخ لغده فلفظ الكلمات كأنّما يلفظ مستخبثًا تعافه النفس:

ـ لا تحاولي أن تبرّئي ساحتك فما يزيدني هذا إلّا ألمًا على ألم، من الخير أن نسدل على آلامنا ستارًا يخفيها ما دمنا لا نستطيع أن نمحوها من الوجود محوًا.

ولاذت بالصمت على كره والقلب يشفق إشفاقًا شديدًا من هائج الذكريات على طيب اللقاء وما بعثه في نفسها من آمال، وجعلت تلحظه بقلق كأنّما تستخبره عمّا يطوي عليه صدره، فلمّا ثقل عليها صمته قالت متشكّية:

ـ لا تلجّ في تعذيبي وأنت وحيدي.

ووقع الكلام من نفسه موقعًا غريبًا كأنّما يُكشف له لأوّل مرّة، بيد أنّه وجد فيه باعثًا جديدًا للهياج والتوتّر، إنّه ابنها حقًّا، إنّها أمّه الوحيدة كذلك، ولكن كم رجلًا... وأشاح عنها بوجهه ليخفي ما ارتسم على صفحته من آي التقزّز والغضب ثمّ أغمض عينيه فرارًا من ذكريات مناظر بشعة، عند ذاك سمعها تقول برقّة وتوسّل:

ـ دعني أعتقد بأنّ سعادتي الراهنة حقيقة لا وهم، أجل حقيقة لا وهم، وبأنّك جئتني منفّضًا عن قلبك أحزان الماضي كلّه إلى الأبد...

فنظر إليها نظرة طويلة مركّزة وشت بخطورة أفكاره إلى حين، ولم يكن شيء في تلك اللحظة يستطيع أن يعدل به عن النفاذ إلى غرضه ولو بتأجيله، فقال بصوت يدلّ على أنّ ألفاظه التي يتفوّه بها أقلّ بكثير من المعاني التي يوحي بها:

ـ هذا يتوقّف عليك أنت، فإن شئت كان لك ما تحبّين...

فتجلّت في عيني المرأة نظرة قلق نمّت عمّا تعاني من إيحاء الخوف وقالت:

ـ إنّي أرغب في مودّتك من أعماق قلبي، وطالما تمنّيتها، وكم سعيت إليها فرَدَدْتني بلا رحمة.

ولكنّه كان مشغولًا عن كلامها الحارّ بما يضطرب في ذهنه فقال:

ـ بيدك ما تتمنّين، بيدك أنت وحدك، إذا جعلت من الحكمة رائدك.

فتساءلت المرأة في انزعاج:

ـ ماذا تعني؟

فأحنقه تجاهلها وقال بتذمّر:

ـ مضمون كلامي واضح، هو أن تعدلي عمّا لو صحّ ما بلغني عنه لكان فيه الضربة القاضية عليّ!

فاتّسعت عيناها وتجهّم وجهها في يأس غير خافٍ، وتمتمت وهي لا تدري:

ـ ماذا تعني؟

بَيْد أنّه ظنّ أنّها تصرّ على التجاهل فقال بغيظ:

ـ أعني أن تلغي مشروع الزواج الجديد، وألّا تسمحي لنفسك بمعاودة التفكير في شيء من هذا القبيل، لم أعد طفلًا، وليس بصبري متّسع لطعنة جديدة.

أطرقت في حزن بالغ، ولازمت الإطراق كأنّما أخذتها سِنَة من النوم، ثمّ رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في وجهها أعمق ممّا قدّر، ثمّ قالت بصوت ضعيف وكأنّها تخاطب نفسها:

ـ إذن جئت من أجل هذا؟!

ودون تفكير فيما يقول قال:

ـ نعم!

فوقع جوابه كطلقة ناريّة فإذا بكلّ شيء حوله يتغيّر ويتبدّل سريعًا، ويكفهرّ الجوّ. وقد استرجع فيما بعد ـ

وهو خالٍ إلى نفسه ـ ما دار من حديث بينه وبين أمّه في هٰذه المقابلة فأقرّ أقواله جميعًا حتّى بلغ هٰذا الجواب الأخير فتردّد حياله لا يدري أأخطأ أم أصاب، وظلّ على تردّده طويلًا. أمّا المرأة فقد غمغمت وهي تنظر فيما أمامها:

ـ لشدّ ما أتمنّى أن أكذّب أذني.

وأدرك أنّه تعجّل بعد فوات الفرصة، وسخط على نفسه حانقًا، ثمّ صبّ سخطه على ما حوله. فاندفع قائلًا بلا وعي مداريًا خطأه بما هو أمعن في الخطأ:

ـ إنّك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب، وكنت أنا دائمًا الضحيّة التي تتلقّى الإساءة بلا ذنب جنته، وقد ظننت العمر رادّك إلى شيء من العقل فما أعجب إلّا لقائل يقول إنّك شارعة في الزواج من جديد!... يا لها من فضيحة تتجدّد كلّ بضعة أعوام كأن لا نهاية لها...

من شدّة اليأس راحت تصغي إليه فيما يشبه اللامبالاة، ثمّ قالت بأسًى:

ـ أنت ضحيّة، وأنا ضحيّة، كلانا ضحيّة لما يوسوس به إليك أبوك وتلك المرأة التي تعيش في كنفها!

وعجب لهٰذا الانحراف في مجرى الحديث الذي بدا له مضحكًا، بَيْد أنّه لم يضحك، ولعلّه ازداد غضبًا وهو يقول:

ـ ما دخل أبي وزوجه في هٰذا الشأن!... لا تتملّصي من فِعالك بإلقاء التهم في وجوه الأبرياء.

فهتفت بصوت يشبه الرنين:

ـ ما رأيت ابنًا أقسى منك!... أهٰذا خطابك لي بعد فراق أحد عشر عامًا!

فلوّح بيده في احتجاج غاضب وقال بحدّة وسخط:

ـ الأمّ الخاطئة خليقة بأن تلد ابنًا قاسيًا.

ـ لست خاطئة... لست خاطئة... ولكنّك قاسٍ غليظ القلب كأبيك.

فنفخ في ملل وصاح بها:

ـ رجعنا إلى أبي!... حسْبنا ما نحن فيه... اتّقي الله وتراجعي عن الفضيحة الجديدة... أريد أن أمنع هٰذه الفضيحة بأيّ ثمن.

ومن شدّة اليأس والحزن خرج صوتها متلفّعًا بالبرودة وهي تقول:

ـ وماذا يهمّك منها؟

فصاح في دهش:

ـ كيف لا تهمّني فضيحة أمّي؟!

فقالت في حزن مشوب بما تيسّر من التهكّم:

ـ أنت في الحقّ لا تعدّني أمًّا لك.

ـ ماذا تعنين؟

فغمغمت في يأس متجاهلة تساؤله:

ـ ما دمت قد خلعتني من نفسك فيجدر بك أن تدعني وشأني.

فهتف غاضبًا:

ـ حسْبي ما كان، لن أسمح لك بتلويث سمعتي من جديد.

فقالت وهي تزدرد ريقها:

ـ لا شيء هنالك ممّا يلوّث السمعة، والله شهيد.

فسألها مستنكرًا:

ـ أتصرّين على هٰذا الزواج؟!

فصمتت مليًّا، مطرقة محزونة غارقة في اليأس، ثمّ ندّت عنها تنهّدة عميقة، ثمّ قالت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ قضي الأمر، وكتب العقد، ولم يعد بوسعي منعه!

فانتفض ياسين قائمًا وقد تصلّب جسمه البدين وعلت وجهه صفرة وركّز بصره في رأسها المطرق وهو يغلي غضبًا، ثمّ صاح بها بصوت كالزئير:

ـ يا لكِ من امرأة... مجرمة!...

فغمغمت بصوت مغموس يدلّ على الاستسلام المطلق:

ـ سامحك الله.

عند ذاك خطر له أن يلطمها بما يعرف ـ ممّا تظنّ أنّه يجهله ـ من ماضي سيرتها، بحديث «الفكهاني» الأسود، قذيفة يصبّها على رأسها بغتة فتنثره إربًا ويثأر بها أفظع الثأر، وتوهّج في عينيه بريق مخيف تطاير من تحت جبهة عابسة مكفهرّة تجمّعت في أخاديدها نُذُر

الشرّ والوعيد، وفغر فاه ليطلق قذيفته، ولٰكنّ لسانه لم يتحرّك، التصق بسقف حلقه كأنّما جذبه إليه مخّه الذي لم يُعْمِه العناء عن البلاء، ومرّت اللحظة الرهيبة في سرعة الزلزال الخاطف الذي يشعر فيه الإنسان بأنفاس الموت تتردّد على وجهه لحظات ثمّ يعود كلّ شيء إلى مستقرّه، وزفر وهو كظيم، وتراجع غير آسف وجبينه يسحّ عرقًا باردًا. وقد ذكر موقفه هٰذا ـ فيما بعد ـ فيما ذكر من مواقف هٰذه المقابلة الغريبة فارتاح لتراجعه كلّ الارتياح وإن عجب له أشدّ العجب، وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنّه إنّما تراجع رحمة بنفسه لا رحمة بها وكأنّه تستّر على كرامته لا على كرامتها وإن لم يكن ثمّة ما يجهله من الأمر!

وأفرغ غضبه في كفّيه فجعل يضرب واحدة على الأخرى ويقول:

ـ مجرمة!... فضيحة مجسّمة!... كم ساضحك من غبائي كلّما أذكر أنّني أملت خيرًا من هٰذه الزيارة!... (ثمّ بلهجة تهكّميّة)... إنّي أعجب كيف طمعت بعد هٰذا في مودّتي؟!

فجاءه صوتها وهو يقول في انكسار وحسرة:

ـ منّتني نفسي أن نعيش على مودّة رغم كلّ شيء!.. وبعثت زيارتك المفاجئة في قلبي آمالًا حارّة خيّل إليّ معها أنّي أستطيع أن أهبك أسمى ما في قلبي من حبّ... بلا كدر.

وابتعد عنها متقهقرًا كأنّما يفرّ من لين كلامها الذي لم يعد شيء يورّث غضبه مثلما يؤرّثه. وشعر حانقًا يائسًا بأنّه لم تعد ثمّة فائدة من بقائه في هٰذا الجوّ الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ سَمْته إلى الخارج:

ـ وددت لو أستطيع قتلك...

فغضّت بصرها وقالت في حزن بالغ:

ـ لو فعلت لأرحتني من حياتي...

وبلغ به الضيق النهاية فألقى عليها نظرة أخيرة مظلمة بالمقت ثمّ غادر المكان وأرض الحجرة ترتجّ تحت وقع قدميه. وعندما انتهى إلى الطريق، وأخذ يثوب إلى نفسه، ذكر لأوّل مرّة أنّه نسي حديث العقار والمال فلم يطرقه بكلمة واحدة، أنسيه كأنّما لم يكن هو الباعث الأوّل لهٰذه الزيارة!...

١٩

فتحت الستّ أمينة الباب وأدخلت رأسها وهي تقول برقّتها المعهودة:

ـ أفي حاجة إلى خدمة يا سيّدي الصغير؟

فجاءها صوت فهمي قائلًا:

ـ تعالي يا نينة، خمس دقائق فقط...

فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرأته واقفًا أمام مكتبه يلوح في وجهه الجدّ والاهتمام فأخذها من يدها إلى كنبة غير بعيدة من الباب وأجلسها ثمّ جلس إلى جانبها وهو يتساءل:

ـ ناموا جميعًا؟

وأدركت المرأة أنّها لم تُدعَ لتقديم خدمة عابرة وإلّا ما كان هٰذا الاهتمام وهٰذه الخلوة فانتقل الاهتمام بسرعة إلى نفسها المطواعة للإيحاء وقالت تجيبه:

ـ ذهبت خديجة وعائشة إلى حجرتها في ميعاد كلّ ليلة، أمّا كمال فقد تركته الآن في فراشه.

كان فهمي يترقّب هٰذه اللحظة منذ آوى إلى حجرة المذاكرة عند أوّل المساء فلم يستطع كعادته تركيز انتباهه في الكتاب الذي بين يديه، وجعل يتابع، بين آونة وأخرى، أحاديث أمّه وشقيقتيه في جزع لا يدري متى ينتهين، ثمّ إلى أمّه وكمال وهما يحفظان معًا جملة من سورة عم. حتّى ساد الصمت ثمّ جاءت أمّه لتحيّيه تحيّة المساء فدعاها إليه وقد تناهى به توتّر الانتظار. ومع أنّ أمّه بدت كالحمامة الوديعة، ومع أنّه لم يشعر حيالها قطّ بتحفّظ أو خوف، إلّا أنّه وجد عسرًا في التعبير عمّا يريد الإفصاح عنه، فعلاه ارتباك الحياء، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن يقول مختلج الجفنين:

ـ دعوتك يا نينة في أمر يهمّني جدًّا.

واشتدّ الاهتمام بالمرأة حتّى تمثّله قلبها الرقيق خوفًا أو شبيهًا بالخوف وقالت:

ـ إنّي مصغية إليك يا بنيّ...

فتنفّس تنفّسًا عميقًا ليخفّف عن أعصابه وقال:

ـ ما رأيك فيها لو... أعني أليس من الممكن أن...

وتوقّف متردّدًا، ثمّ غيّر لهجته قائلًا برقّة وتردّد وارتباك:

ـ ليس لي مَن أفضي إليه بدخيلة نفسي إلّا أنت...

ـ طبعًا طبعًا يا بنيّ.

فقال متشجّعًا عمّا قبل:

ـ ما رأيك إذا اقترحت عليك أن تخطبي لي مريم بنت جارنا السيّد محمّد رضوان...؟

وتلقّت أمينة كلماته بدهشة أوّلًا، فأجابته أوّل ما أجابت بابتسامة تدلّ على الحيرة أكثر من الفرح ثمّ انقشع الخوف الذي قبض صدرها حينًا وهي تترقّب إفصاحه عمّا يريد، ثمّ اتّسعت ابتسامتها وأشرقت معلنة عن سرور صافٍ، وتردّدت لحظات لا تدري ماذا تقول، ثمّ اندفعت قائلة:

ـ أهٰذه رغبتك حقًّا؟... سأقول لك رأيي صراحة... إنّ يومًا أمضي فيه لأخطب لك بنت الحلال لَهو أسعد أيّام حياتي...

فتورّد وجه الشابّ وقال بامتنان:

ـ شكرًا لك يا أمّاه...

ورنت إليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء:

ـ يا له من يوم سعيد، لقد تعبت كثيرًا وصبرت كثيرًا، وليس بالكثير على الله أن يجزيني على تعبي وصبري بمثل هٰذا اليوم المرجّى، بل بأيّام مثله كثيرة ليُقرّ عيني بك، وبأختيك خديجة وعائشة...

وغابت عيناها في رؤى الأحلام السعيدة التي بدا لها ما أيقظها فجأة فتراجع رأسها في قلق كقطّة أقبل نحوها كلب، وتمتمت في إشفاق:

ـ ولٰكن... أبوك؟!

وابتسم فهمي ممتعضًا وقال:

ـ من أجل هٰذا دعوتك للمشاورة..

ففكّرت المرأة قليلًا ثمّ قالت وكأنّها تخاطب نفسها:

ـ لا أدري ماذا يكون موقفه من هٰذا الرجاء؟ أبوك شخص غريب، غير الناس جميعًا، وقد يرى جريمة فيما يراه الغير شيئًا عاديًّا...

فقطّب فهمي قائلًا:

ـ ليس في الأمر ما يدعو إلى الغضب أو الاعتراض.

ـ هٰذا رأيي...!

ـ وغنيّ عن البيان أنّ الزواج سيؤجّل حتّى أتمّ دراستي وأجد لنفسي عملًا...

ـ طبعًا... طبعًا...

ـ فيم يكون الاعتراض إذن؟!

فنظرت إليه نظرة كأنّما تقول له: «ومن ذا يحاسب أباك إذا أراد أن ينبذ المنطق جانبًا؟» هي التي لم تعرف حياله إلّا الطاعة العمياء أصاب أم أخطأ، عدل أم ظلم، بَيْد أنّها قالت:

ـ أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول...

فقال الشابّ بحماس:

ـ لقد تزوّج أبي وهو في سنّي هٰذه. ولست أقصد شيئًا من هٰذا، ولٰكنّي سأنتظر حتّى يكون الزواج طبيعيًّا لا اعتراض عليه من أيّ ناحية...

ـ ربّنا يحقّق رجاءنا...

وسكنا إلى الصمت مليًّا وهما يتبادلان النظرات، مجتمعين في فكرة واحدة وهما عن بداهة يدريان إذ كان كلاهما يفهم صاحبه خير فهم، ويقرأ ما يدور بخاطره في غير ما عسر. ثمّ قال فهمي مفصحًا عمّا يشغلهما معًا:

ـ بقي أن نفكّر فيمن يفاتحه بالموضوع...!

وابتسمت المرأة ابتسامة أفقدها التفكير والقلق روحها، وأدركت أنّ ابنها الأريب يذكّرها بالواجب الذي لا يستطيع أن يؤدّيه أحد سواها بالأسرة، ولم تعترض على هٰذا لأنّه لا سبيل غيره، إلّا أنّها قبلته على كره كما تقبل أمورًا كثيرة وهي تسأل الله حسن العاقبة، وقالت برقّة وعطف:

ـ ومن غيري يفاتحه؟... ربّنا معنا...

ـ إنّي آسف... لو كان بوسعي أن أفاتحه لفعلت.

ـ سأحدّثه، وسيوافق بإذن الله. مريم فتاة جميلة، مؤدّبة، من أسرة كريمة...

وسكتت لحظة ثمّ استدركت متسائلة كأنّما خطر لها

الخاطر لأوّل مرّة:

ـ ولكن أليست هي في مثل سنّك أو تزيد؟!

فقال الفتى جزعًا:

ـ لا يهمّني هٰذا بتاتًا!

فقالت مبتسمة:

ـ على بركة الله، ربّنا معنا... «ثمّ وهي تنهض» أدعك الآن لعناية المولى، وإلى الغد...

ومالت نحوه وقبّلته ثمّ غادرت الحجرة وأغلقت الباب وراءها. لٰكن كم أدهشها أن ترى كمال جالسًا على الكنبة مكبًّا على كرّاسة بين يديه فهتفت به:

ـ ما الذي عاد بك إلى هنا؟

فنهض الغلام مبتسمًا في ارتباك وقال:

ـ تذكّرت أنّي نسيت كرّاسة الإنجليزي فعدت لآخذها ثمّ بدا لي أن أستعيد الكلمات مرّة أخيرة.

وذهبت معه مرّة أخرى إلى حجرة النوم ولم تتركه حتّى تمدّد تحت الغطاء، ولٰكنّه لم ينم. وكان النوم أعجز من أن يغلب اليقظة الماكرة التي تنبعث في شعوره، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى إلى سمعه وقع أقدام أمّه وهي ترقى السلّم إلى الدور الأعلى، ثمّ فتح الباب وجرى إلى حجرة شقيقتيه ودفع بابها ودخل دون أن يغلقه ليوسع للمصباح المعلّق بالصالة منفذًا يضيء منه جانبًا من الظلمة الغاشية في الداخل، وهرع إلى الفراش وهو يهمس «أبلة خديجة!» فجلست الفتاة في الفراش دهشة فوثب إلى جانبها وهو يلهث من الانفعال، وكأنّه لم يقنع بمستمعة واحدة ليستودعها السرّ الذي أطار النوم من عينيه فمدّ يده إلى جسم عائشة وهزّه، ولٰكنّ الفتاة كانت قد تنبّهت إلى القادم وأزاحت عنها الغطاء ثمّ رفعت رأسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة:

ـ ماذا جاء بك الآن؟

لم يأبه للهجة الاحتجاج لأنّه كان على يقين من أنّ كلمة واحدة يشير بها إلى سرّه خليقة بأن تقلبها رأسًا على عقب، وقفز لهٰذا قلبه بهجة وسرورًا، ثمّ قال هامسًا كأنّه يحاذر أن يسمعه رابع:

ـ عندي سرّ غريب...

فسألته خديجة:

ـ أيّ سرّ هٰذا؟!... هات ما عندك وأرنا شطارتك...

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال:

ـ أخي فهمي يريد أن يخطب مريم...

عند ذاك جلست عائشة في الفراش بدورها في حركة آليّة سريعة كأنّما التصريح رشّة ماء بارد ألقيت في وجه وسنان، وتقاربت الأشباح الثلاثة في شكل هرميّ كما بدا على الضوء الخافت النافذ إلى الحجرة والمنعكس على أرضها فيما يلي الباب المفتوح على هيئة متوازي الأضلاع مذبذب الأطراف تبعًا لذبذبة ذبالة المصباح الذي تعرّض ـ بترك الباب مفتوحًا ـ إلى تيّار وإن نسم من خصاص النافذة إلى الصالة في لطف همسات تذيع سرًّا، ثمّ تساءلت خديجة في اهتمام:

ـ كيف عرفت هٰذا؟

ـ تركت فراشي لأحضر كرّاسة الإنجليزي، وعند باب أخي جاءني صوته وهو يتكلّم فلبدت في الكنبة...

ثمّ أعاد على مسمعيهما ما تسرّب إليه من وراء الباب الموارب وهما تنصتان إليه في اهتمام مَلك عليهما الأنفاس حتّى فرغ من حديثه، وهنا تساءلت عائشة كأنّ بها حاجة إلى المزيد من الاقتناع:

ـ أتصدّقين هٰذا؟

فقالت خديجة بصوت كأنّه ينبعث من تليفون بمدينة بعيدة:

ـ أتتصوّرين أن يخترع هٰذا «مشيرة إلى كمال» حكاية طويلة عريضة كهٰذه؟

ـ لك حقّ «ثمّ ضاحكة لتخفّف من حدّة اهتمامها» اختلاق موت غلام في الطريق شيء، أمّا هٰذه الحكاية فشيء آخر.

فتساءلت خديجة دون أن تلقي بالًا إلى احتجاج كمال الذي اعترض على التعريض به:

ـ كيف وقع هٰذا يا ترى؟!

فضحكت عائشة قائلة:

ـ ألم أقل لك مرّة إنّي أشكّ في أنّ اللبلاب هو الذي

يدعو فهمي إلى السطح كلّ يوم؟!

ـ إنّه اللبلاب الأخر الذي التفّ حول ساقه هو.

فترنّمت عائشة بصوت خفيض:

ـ لا ملام عليك يا عيوني في حبّه.

فنهرتها خديجة قائلة:

ـ هس... ليس هٰذا وقت الغناء... مريم في العشرين وفهمي في الثامنة عشرة... كيف توافق نينة على هٰذا؟!

ـ نينة؟!... نينة حمامة وديعة لا تدري كيف تقول لا، ولٰكن صبرًا، أليس من الحقّ أن أقول إنّ مريم جميلة وطيّبة؟!... ثمّ إنّ بيتنا هو البيت الوحيد في الحيّ الذي لم يعرف الأفراح بعد...

كانت خديجة ـ كعائشة ـ تحبّ مريم، ولٰكنّ الحبّ لم يستطع أبدًا أن يخفي عن عينيها مواضع الانتقاد في المحبوب أيًّا كان شأنه، فلم يكن يعجزها ـ عند الضرورة ـ الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب، ولمّا كانت سيرة الزواج تثير مخاوفها الكامنة، وغيرتها، فقد انقلبت على صديقتها دون مشقّة، وأبى قلبها أن يقبلها زوجة لأخيها، ومضت تقول:

ـ مجنونة أنت؟!... مريم جميلة ولٰكنّها دون فهمي بمراحل بعيدة... فهمي يا حمارة طالب بالعالي، وسيكون قاضيًا يومًا ما، فهل تتصوّرين مريم زوجًا لقاضٍ كبير المقام؟!... إنّها مثلنا على أكثر تقدير، بل هي دوننا في أكثر من ناحية ولن تتزوّج إحدانا بقاضٍ...!

وتساءلت عائشة في نفسها: «من قال القاضي أحسن من الضابط!!» ثمّ سألتها محتجّة:

ـ لم لا؟!

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعتراضها:

ـ يستطيع فهمي أن يتزوّج بفتاة أجمل من مريم مائة مرّة، وفي نفس الوقت تكون متعلّمة وغنيّة وبنت بك أو حتّى بنت باشا، فلماذا يتسرّع بخطبة مريم؟!... ما هي إلّا أمّيّة طويلة اللسان، أنت لا تعرفينها كما أعرفها...

وأدركت عائشة أنّ مريم انقلبت في نظر خديجة إلى جملة من العيوب والنقائص، بَيْد أنّها لم تتمالك نفسها ـ حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التي لخديجة منها أكبر نصيب ـ من أن تبتسم مستترة بالظلمة، وتحاشت إثارتها فقالت بتسليم:

ـ لندع الأمر لله...

فقالت خديجة بثقة وإيمان:

ـ الأمر لله في السماء ولأبي في الأرض وسوف نرى ماذا يكون رأيه غدًا... «ثمّ موجّهة الخطاب إلى كمال»... آن لك أن تعود إلى سريرك بسلام.

عاد كمال إلى حجرته وهو يقول لنفسه «لم يَبْقَ إلّا ياسين، وسأخبره غدًا»...

٢٠

جلست خديجة وعائشة القرفصاء متواجهتين لصق الضلفة المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى وهما تكتمان أنفاسهما في حذر وتمدّان آذانهما إلى الداخل في اهتمام وتلقّف. كان الوقت قبيل العصر بقليل، وكان السيّد قد نهض من قيلولته فتوضّأ وجلس كعادته يحتسي القهوة منتظرًا الأذان ليصلّي قبل عودته إلى الدكّان، فتوقّعت الأختان أن تفاتح الأمّ أباهما في الأمر الذي أنبأهما عنه كمال، إذ لم يكن أنسب لذلك الغرض من هٰذا الوقت. وتناهى إليهما من الداخل صوت أبيهما الجهوريّ وهو يتحدّث عن أمور البيت العاديّة فأنصتتا في جزع وترقّب وهما تتبادلان النظر متسائلتين حتّى سمعتا أخيرًا الأمّ وهي تقول في أدب بالغ ولهجة خاشعة:

ـ سيّدي، إذا أذنت لي حدّثتك عن شأن رجاني فهمي أن أبلغك إيّاه.

عند ذاك أومأت عائشة بذقنها إلى الداخل كأنّها تقول «هٰذا هو الحديث» على حين راحت خديجة تتخيّل حال أمّها وهي تتهيّأ للكلام الخطير فرقّ قلبها لها وعضّت على شفتها في إشفاق شديد، ثمّ جاءهما صوت السيّد وهو يتساءل:

ـ ماذا يريد؟

وساد الصمت قليلًا، أو طويلًا بالقياس إلى اللتين

تسترقان السمع، ثمّ قالت المرأة برقّة:

- فهمي يا سيّدي شابّ طيّب، حاز رضاك بجدّه وتفوّقه وأدبه، حماه الله من شرّ الأعين، ولعلّه بلّغني رجاءه إدلالًا بمنزلته عند والده...

فقال الأب بلهجة تخيّلتاه معها راضيًا:

- ماذا يريد؟... تكلّمي.

ومال رأساهما نحو الباب وكلّ منهما تحملق في الأخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهافت وهو يقول:

- سيّدي يعرف جارنا الطيّب السيّد محمّد رضوان...؟

- طبعًا...

- رجل فاضل مثل سيّدي وأسرة كريمة وجيران ولا كلّ الجيران..

- نعم..

واستطردت بعد تردّد:

- فهمي يسأل يا سيّدي هل يجيز له والده أن... يخطب مريم كريمة جارنا الطيّب لتبقى على ذمّته حتّى يصير أهلًا للزواج؟

وهنا علا صوت السيّد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار:

- يخطب؟!... ماذا تقولين يا وليّة؟... هٰذا الغلام!... ما شاء الله... أعيدي على سمعي ما قلت...

فقالت الأمّ بصوت متهدّج وقد تخيّلتها خديجة وهي تنكمش في ذعر:

- ليس إلّا أنّه يتساءل، مجرّد تساؤل يا سيّدي والأمر لك...

فقال الصوت المتفجّر بالغضب:

- لا عهد لي ولا له بهٰذا التدلّل المائع، ولا أدري ما الذي أتلف تلميذًا حتّى يتمادى في مطالبه إلى هٰذا الحدّ؟... ولكنّ أمًّا مثلك خليقة بأن تفسد أبناءها، فلو كنت أمًّا كما ينبغي لما جسر على مفاتحتك بمثل هٰذا الهذر الوقح...

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما في قلب خديجة ارتياح، ثمّ سمعا صوت الأمّ المستخذي وهي تقول:

- لا تجشّم نفسك مشقّة الغضب يا سيّدي، كلّ شيء يهون إلّا غضبك، ما قصدت من ناحيتي إساءة قطّ، ولا تخيّلها ابني وهو يحمّلني رغبته ببراءة، ولٰكنّه رجاني بحسن نيّة فرأيت أن أعرض الأمر عليك، وما دام هٰذا هو رأيك فسأبلغه إيّاه، وسيذعن له بكلّ خضوع كما يذعن لأمرك دائمًا...

- سيذعن أراد أم لم يرد، ولٰكنّي أريد أن أقول لك إنّك أمّ ضعيفة لا يرجى منها خير..

- إني أتعهّدهم بما توصي به...

- خبّريني عمّا دعاه إلى التفكير في هٰذا الرجاء؟

وأرهفت الفتاتان السمع في اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هٰذا السؤال الذي لم تتوقّعاه، ولٰكنّهما لم تسمعا لأمّهما جوابًا وتصوّرتاها وهي ترمش في ارتباك وخوف فعطف قلباهما في إشفاق شديد:

- ماذا أخرسك؟... خبّريني هل رآها؟

- كلّا يا سيّدي، إنّ ابني لا يرفع عينيه إلى جارة ولا إلى غيرها...

- كيف رغب في خطبتها دون أن يراها؟... ما كنت أحسب أنّ لي أبناء يسترقون النظر إلى حرمات الجيران!

- معاذ الله يا سيّدي معاذ الله... إنّ ابني إذا سار في الطريق لا يلتفت يمنة ولا يسرة، وهو في البيت لا يكاد يغادر حجرته إلّا لضرورة...

- ما الذي دعاه إلى طِلابها إذن؟

- لعلّه يا سيّدي سمع شقيقتيه وهما تتحدّثان عنها...

وسرت في بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما في فزع وهما تنصتان...

- ومتى كانت شقيقتاه خاطبتين!... يا سبحان الله أينبغي أن أهجر دكّاني وعملي وأقبع في البيت لأضبطه وأدفع عنه الفساد!

فهتفت الأمّ في نبرات باكية:

- بيتك أشرف البيوت، بالله يا سيّدي إلّا ما هوّنت

عليك الغضب، انتهى الأمر وكأنّ ما كان لم يكن. . .

فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد:

ـ قولي له أن يتأدّب ويستحي ويلزم حدوده، وأنّ من الخير أن يتفرّغ لدروسه. . .

وسمعت الفتاتان حركة في الداخل فقامتا في حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما. . .

رأت الستّ أمينة أن تغادر الحجرة كشأنها إذا ندّ عنها عفوًا ما يثير غضبه فلا تعود إليها بعد ذٰلك إلّا إذا دعاها، إذ علّمتها التجربة أنّ مكثها بين يديه حال الغضب ثمّ سعيها إلى تسكينه برقيق الكلام لا يزيد النار إلّا استعارًا. ووجد السيّد نفسه وحيدًا فزايلته آثار الغضب المحسوسة التي تثور عادة في عينيه وبشرة وجهه وحركات يديه وكلامه، ولٰكن بقي الغضب في أعماق صدره كالعكارة في قعر القدر.

من المحقّق أنّه كان يغضب في البيت لأتفه الأسباب لا اتّباعًا لخطّته الموضوعة في سياسة بيته فحسب، ولٰكن مدفوعًا كذٰلك بحدّة طبعه التي لا تشكمها بين آله فرملة الكياسة التي يتقن استعمالها خارج البيت، وربّما ترويحًا عمّا يعاني بين الناس كثيرًا من ضبط النفس والتسامح واللطف ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأيّ ثمن، وليس بالنادر أن يتّضح له أنّه استسلم للغضب في غير موجب ولٰكنّه حتّى في تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأنّ غضبته للتّافه من الأمر عسيّة بأن تمنع وقوع الخطير منه ممّا يستحقّ الغضب عن جدارة، بَيْد أنّه لم يعدّ ما بلغه عن فهمي ذٰلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز أن تعتلج في نفس تلميذ من آل بيته، وما كان يتصوّر أن تتسرّب «العواطف» إلى بنيان البيت الذي يحرص على أن يشبّ في جوّ من النقاء الصارم والطهارة المنقشعة، ثمّ جاءت صلاة العصر فرصة طيّبة لرياضة النفس خرج منها أهدأ قلبًا وأروح بالًا، فوسعه أن يتربّع على سجّادة الصلاة ويبسط راحتيه ويسأل الله أن يبارك له في ذرّيّته وماله، وأن يدعو خاصّة لفخر أبنائه بالهدى والرشاد والتوفيق. فلمّا أن غادر البيت كان تجهّمه مظاهرة يراد بها التخويف لا أكثر. وفي الدكّان التقى ببعض الأصدقاء فقصّ عليهم «نادرة اليوم» لا كفاجعة لأنّه يكره أن يلقى أحدًا بالفاجعات، ولٰكن كدعابة سخيفة، فعلّقوا عليها بما حلا لهم من المزاح، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم، فغادروه وهو يقهقه في غير تحفّظ. . . بدت له «النادرة» في الدكّان على غير ما بدت في حجرته بالبيت. وأمكنه أن يضحك منها، بل وأن يعطف عليها، حتّى قال لنفسه أخيرًا باسمًا راضيًا «من شَابَهَ أباه فما ظَلَم». . .

٢١

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف في خطوات حاسمة غاشيًا الطرقات والأزقّة والمآذن والقباب، ولعلّه لم يعدل بسروره بهٰذه الخرجة المفاجئة التي قلّ أن تُتاح له في مثل ذاك الوقت المتأخّر إلّا زهوه بالرسالة الشفويّة التي حمّله إيّاها فهمي، فلم يغب عنه أنّه عهد بها إليه وحده دون غيره، في جوّ من السرّيّة والتكتّم الأمر الذي أضفى عليها ـ وعليه بالتالي ـ أهمّيّة خاصّة أحسّها قلبه الصغير ورقص لها طربًا وفخارًا. وتساءل في عجب عمّا زلزل فهمي حتّى ركبته حال من القلق والحزن بدا في لباسها القاتم شخصًا غريبًا لم يره ولم يسمعه من قبل، هو مثال وحده، إنّ أباه يثور كالبركان لأتفه الأسباب، وإنّ ياسين على حلاوة حديثه قابل للالتهاب، حتّى خديجة وعائشة لا تخلوان من نوبات عفرتة، هو مثال وحده، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب، وهدوءه عميق على صدق عواطفه وأصالة حماسه، فلم يذكر أنّه رآه على الحال التي رآه عليها اليوم. لن ينسى كيف خلا إليه في حجرة المذاكرة، بصر زائغ وصوت متهدّج، ولا كيف خاطبه لأوّل مرّة في حياته بلهجة توسّل حارّة عجب لها أشدّ العجب حتّى استوجب حفظ الرسالة التي حملها أن تكرّر عليه مرّات ومرّات. وقد أدرك من فحوى الرسالة نفسها أنّ للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذي استرق السمع إليه من وراء الباب، والذي نقله إلى شقيقتيه فأثار بينهما جدلًا ونزاعًا، وبالجملة أنّه يتعلّق بمريم، تلك الفتاة التي كثيرًا ما تعابثه ويعابثها، ويأنس إليها

حينًا ويضجر منها حينًا آخر، دون أن يعرف لها هٰذه الخطورة التي أحاطت بهدوء أخيه وسلامته، مريم؟!... لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هٰذا كلّه بأخيه العزيز الرائع!! ووجد في الجوّ غموضًا، كذاك الغموض الذي يكتنف حياة الأرواح والأشباح، والذي طالما استثار حبّ استطلاعه وخوفه، فتوثّب قلبه للنفاذ إلى مكنون سرّه في تطلّع وحيرة، ولٰكنّ حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتّى يضمن ألّا يضيع منه حرف واحد من مضمونها، فمرّ تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها، ثمّ مال إلى أوّل عطفة تليه حيث يوجد باب البيت. لم يكن البيت بالغريب عنه، فطالما تسلّل إلى فنائه الصغير حيث تنزوي في ركن منه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبها مستعينًا بخياله على إصلاح عجلاتها وتحريكها حيث شاء، وطالما تردّد بين حجراته بغير استئذان فقوبل بالترحيب والمداعبة من ربّة البيت وابنتها اللتين يعدّهما «على حداثة سنّه» صديقتين قديمتين، فكان يألف البيت بحجراته الثلاث التي تتوسّطها صالة صغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافذة التي تطلّ على حمّام السلطان مباشرة كما يألف بيته بحجراته الواسعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء. وإلى هٰذا خلّفت بعض متعلّقات البيت أثرًا في نفسه استجابت له عهدًا طويلًا من صباه، كعشّ يمامة في أعلى المشربيّة المتّصلة بحجرة مريم الذي تبدو حافّته فوق ركن المشربيّة الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القشّ والريش ويلوح منه أحيانًا ذيل اليمامة الأمّ أو منقارها كيفما اتّفق وضعها فيتطلّع إليه تتنازعه رغبتان، إحداهما ـ وهي المنبعثة من نفسه ـ تدعوه إلى العبث به واختطاف الصغار والأخرى ـ وهي المكتسبة عن أمّه ـ توقّفه عند حدّ التطلّع والعطف والمشاركة الخياليّة في حياة اليمامة وأسرتها، وكصورة للسفيرة عزيزة معلّقة بحجرة مريم أيضًا زاهية الألوان رقراقة البشرة وسيمة القسمات فاقت بجمالها الحسناء التي تطالعه صورتها عصر كلّ يوم بدكّان ماتوسيان فكان يديم النظر إليها متسائلًا عن «حكايتها» فتقصّ عليه مريم من أنبائها ما تعلم وما لا تعلم بزلاقة لسان تستهويه وتستأثره. لم يكن البيت بالغريب عليه إذن، فشقّ سبيله إلى الصالة دون أن يشعر به أحد، وألقى على أولى الحجرات نظرة عابرة فلمح السيّد محمّد رضوان راقدًا في فراشه كما اعتاد أن يراه منذ سنوات. كان يعلم أنّ الشيخ مريض، وقد سمع عنه كثيرًا أنّه مشلول، حتّى سأل أمّه مرّة عن معنى الشلل... فجزعت وراحت تستعيذ بالله من شرّ الاسم الذي نطق به فانكمش متراجعًا، ومنذ ذاك اليوم والسيّد يستثير رثاءه واستطلاعه المقرون بالخوف. ثمّ مرّ بالحجرة التالية فرأى أمّ مريم واقفة أمام المرآة وبيدها ما يشبه العجين تمطّه فوق خدّها وعنقها وتجذبه جذبات سريعة متتابعة ثمّ تتحسّس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسّه وتطمئنّ إلى نعومته. ومع أنّها كانت فوق الأربعين إلّا أنّها كانت بارعة الحسن كابنتها، شغوفة بالضحك والدعابة، فما تلقاه حتّى تقبل عليه في مرح فتقبّله ثمّ تسأله فيما يشبه نفاد الصبر «متى تبلغ رشدك لأتزوّجك؟» فيعلوه الحياء والارتباك وإن استلذّ مداعباتها وودّ الإكثار منها. وكم أثارت فضوله هٰذه العمليّة التي تعكف عليها من حين لآخر أمام المرآة، وقد سأل أمّه عنها مرّة فنهرته ـ والنهر أقصى ما تمارس من ضروب التأديب ـ مؤنّبة إيّاه على سؤاله عمّا لا يعنيه، بيد أنّ أمّ مريم أكبر سماحة ورقّة فلمّا لحظته مرّة يرمقها بدهشة أوقفته على مقعد أمامها ولزقت بأنامله ما حسبه أوّل الأمر عجينة وبسطت له صفحة وجهها وقالت ضاحكة «اشتغل وأرني شطارتك» فمضى يقلّد حركاتها حتّى أثبت لها شطارته بخفّة غبّطته عليها، ولٰكنّه لم يقنع بلذّة التجربة فسألها «لماذا تفعلين هٰذا؟» فقهقهت «هلّا انتظرت عشرة أعوام أخرى حتّى تعرف بنفسك؟! ولٰكن لا داعي للانتظار أليست البشرة الناعمة أحسن من الخشنة؟... هٰذه هي؟...» وقد مرّ ببابها بخفّة حتّى لا يشعرها بنفسه لأنّ رسالته كانت أخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد إلّا مريم وحدها التي وجدها في الحجرة الأخيرة متربّعة على فراشها تقزقز لبًّا وبين يديها

طبق فنجان قد امتلأ بالقشر فلمّا رأته قالت بدهشة:
ـ كمال!... «كادت تسأله عمّا جاء به في هٰذه الساعة ولٰكنّها عدلت عمّا همّت به أن تخيفه أو تخجله»... شرّفت البيت... تعال اجلس إلى جانبي...

فمدّ لها يده بالسلام. ثمّ فكّ أزرار حذائه ذي الرقبة الطويلة وخلعه، ووثب إلى الفراش في جلباب مقلّم وطاقيّة زرقاء منمنمة بخطوط حمراء. وضحكت مريم ضحكاتها الرقيقة ودسّت في يده شويّة لبّ وهي تقول:

ـ قزقز يا عصفور وحرّك أسنانك اللؤلؤيّة... أتذكر يوم عضضت معصمي وأنا أدغدغك... هٰكذا...

ومدّت يدها صوب إبطه ولٰكنّه ـ بحركة عكسيّة ـ شبك ذراعيه على صدره ليحمي إبطيه، وندّت عنه ضحكة عصبيّة كما لو كانت أناملها دغدغته بالفعل، ثمّ هتف بها:

ـ في عرضك يا أبلة مريم...

فأمسكت عنه وهي تتعجّب من خوفه قائلة:

ـ لماذا يقشعرّ بدنك من الدغدغة؟! انظر كيف لا أبالي بها.

وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهي ترميه بنظرة ازدراء فلم يملك أن قال لها متحدّيًا:

ـ دعيني أدغدغك أنا وسنرى!

فما كان منها إلّا أن رفعت ذراعيها فوق رأسها فغرس أصابعه تحت إبطيها وراح يدغدغها بما وسعه من خفّة وسرعة، مثبتًا عينيه في عينيها السوداوين الجميلتين ليتلقّف أوّل بادرة تضعضع عنها، حتّى اضطرّ أن يستردّ يديه متنهّدًا في يأس وخجل فشيّعته بضحكة رقيقة ساخرة وقالت:

ـ أرأيت أيّها الرجل الصغير العاجز!... لا تزعم أنّك رجل بعد اليوم «ثمّ بلهجة من تذكّر أمرًا هامًّا بغتة»... يا داهيتي!... نسيت أن تقبّلني!... ألم أنبّه عليك مرارًا بأن تكون تحيّة لقائنا قبلة؟!

وأدنت وجهها منه فمدّ شفتيه ولثم خدّها، ثمّ رأى فُتاتًا من اللبّ المتسرّب من زاوية فيه قد التصق بخدّها فأزاله بأنامله في حياء، أمّا مريم فتناولت ذقنه بأنامل يمناها وقبّلت شفتيه مرّة ومرّة، ثمّ سألته فيما يشبه الإعجاب:

ـ كيف استطعت أن تفلت من بين أيديهم في هٰذه الساعة؟!... لعلّ تيزة تبحث عنك الآن في كلّ حجرات البيت.

آه لقد استنام إلى الحديث واللعب حتّى أوشك أن ينسى الرسالة التي جاء من أجلها، ولٰكنّ تساؤلها ذكّره بمهمّته فرنا إليها بعين أخرى، العين التي تودّ أن تنقّب في ذاتها عن السرّ الذي زلزل أخاه الرزين الطيّب. إلّا أنّ تشوّفه تهافت حيال شعوره بأنّه يحمل أنباء غير سارّة، فقال بوجوم:

ـ فهمي الذي أرسلني.

ارتسمت في عينيها نظرة جديدة تفيض جِدًّا، وتفرّست في وجهه باهتمام لترى ما وراءه فشعر بأنّ الجوّ قد تغيّر كأنّما انتقل من فصل إلى فصل، ثمّ سمعها تسأل بصوت خافت:

ـ لِيه؟!

فقال لها بصراحة دلّت على أنّه لم يقدّر خطورة الأنباء التي يحملها رغم شعوره الفطريّ بخطورتها:

ـ قال لي بلّغها تحيّاتي وقل لها إنّه استأذن والده في خطبتها ولٰكنّه لم يوافق على أن يعلن خطبته وهو تلميذ، وطلب إليه أن ينتظر حتّى يتمّ دراسته.

كانت تحدّق إلى وجهه باهتمام شديد فلمّا بلغ السكوت خفضت عينيها دون أن تنبس بكلمة، فغشيت الجلسة صمتة واجمة ضاق بها قلبه الصغير، وتلهّف على كشفها مهما كلّفه الأمر فقال:

ـ إنّه يؤكّد لك أنّ الرفض جاء على رغمه وأنّه يتعجّل السنين حتّى يحقّق ما يتمنّى.

ولـمّا لم يجد لكلامه أثرًا في إخراجها من غشاوة الصمت ازداد تلهّفه على إعادتها إلى ما كانت عليه من بهجة ومرح فقال بإغراء:

ـ هل أحدّثك عمّا دار بين فهمي وبين نينة من حديث عنك؟

فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه:

ـ ماذا قال وماذا قالت؟

فانشرح صدره بهٰذا النجاح الجزئيّ وقصّ عليها ما ترامى إليه من حديث من وراء الباب حتّى أتى عليه، فخيّل إليه أنّها تتنهّد، ثمّ قالت بتبرّم:

ـ إنّ والدك رجل شديد مخيف، الكلّ يعرفه هٰكذا.

فقال وهو لا يدري:

ـ نعم... أبي كذٰلك.

ورفع رأسه إليها في خوف وحذر ولٰكنّه وجدها كالغائبة، فسألها متذكّرًا ما وصّاه به أخوه:

ـ ماذا أقول له؟

فضحكت من أنفها وهي تهزّ كتفيها، وهمّت بالكلام، ولٰكنّها أمسكت متفكّرة مليًّا، ثمّ قالت وقد التمعت في عينيها نظرة ماكرة:

ـ قل له إنّها لا تدري ماذا تفعل لو تقدّم لها خاطب في أثناء هٰذه المدّة الطويلة من الانتظار!

وعُني كمال بحفظ الرسالة الجديدة أكثر ممّا عني بفهمها، وسرعان ما شعر بأنّ مهمّته قد انتهت فأودع بقيّة اللبّ جيب جلبابه، ومدّ لها يده بالسلام، ثمّ انزلق إلى أرض الحجرة خارجًا.

٢٢

بدت عائشة وهي تنظر في المرآة شديدة الإعجاب بنفسها، دون الأسرة اللامعة، بل أيّ فتاة في الحيّ كلّه تتحلّى بمثل هٰذه الخصلات الذهبيّة وهاتين العينين الزرقاوين؟! إنّ ياسين يتغزّل بها جهارًا، وفهمي لا يخلو إذا تحدّث إليها لأمر أو لآخر من نظرات تنمّ عن الإعجاب، حتّى كمال الصغير لا يحلو له الشراب من قلّة إلّا من الموضع المبتلّ بريقها، وهٰذه أمّها تدلّلها فتدعوها «قمر» وإن لم تُخْفِ قلقها نحو نحافتها ورقّتها الأمر الذي جعلها تحثّ أمّ حنفي على تركيب وصفة لتسمينها. أمّا عائشة فلعلّها كانت أعرف الجميع بحسنها البارع كما تدلّ عليه عنايتها الشديدة به واستئناسها إليه، على أنّ هٰذه العناية المفرطة لم تمرّ بخديجة دون تعليق، بل مؤاخذة وتقريع، لا لأنّها تستنيم إلى الإهمال فالحقّ أنّ خديجة هي الوريثة الأولى لأمّها في الواقع بالنظافة والأناقة، ولٰكن لأنّها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بتمشيط شعرها وإصلاح هندامها حتّى قبل القيام بواجبات المنزل كأنّها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية، ولٰكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هي الباعث على هٰذا التجمّل الباكر، فعند ذهاب الرجال كلّ إلى عمله ـ تأوي إلى حجرة الاستقبال وتفرّج بين ضلفتي الشبّاك المطلّ على بين القصرين زيقًا رقيقًا فتقف وراءه مادّة بصرها إلى الطريق يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف. هٰكذا وقفت ذاك الصباح فظلّ طرفها حائرًا ما بين حمّام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتيّ يواصل خفقاته حتّى تراءى عن بُعد «المُنتظر» وهو ينعطف قادمًا من الخرنفش خاطرًا في بذلته العسكريّة والنجمتان تلمعان على كتفه، وجعل كلّما اقترب من البيت يرفع في حذر عينيه دون رأسه، حتّى تدانى من البيت فهفت في أساريره ابتسامة خفيفة آية في الخفّة ـ تُدرَك بالقلب أكثر ممّا تدرك بالحواسّ ـ كأنّها الهلال في ليلته الأولى، ثمّ اختفى تحت المشربيّة فاستدارت في عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلّة على النحّاسين فما راعها إلّا أن ترى خديجة منتصبة على الكنبة بين النافذتين ملقية بنظرها على الطريق من فوق رأسها!...

فرّت منها آهة، واتّسعت عيناها في رعب فاضح، فتسمّرت في موقفها... متى وكيف جاءت! كيف علت الكنبة دون أن تشعر بها؟!... وماذا رأت؟!... متى وكيف وماذا؟ أمّا خديجة فقد ثبّتت بصرها وهي تضيّق عينيها رويدًا صامتة، مطيلة الصمت كأنّما لتطيل تعذيبها، ثمّ تمالكت عائشة بعض نفسها فخفضت عينيها في جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة ـ عبثًا ـ بضبط الأعصاب وهي تغمغم:

ـ أرعبتني يا شيخة!

لم تُبدِ خديجة اكتراثًا، ظلّت بموقفها على الكنبة

وعيناها إلى الطريق خَلَل الزيق... ثمّ تمتمت ساخرة:

ـ أرعبتك؟... اسم الله عليك!... أصْلي بعبع!...

وعضّت عائشة على نواجذها في غيظ وحنق ويأس بعد أن تراجعت قليلًا إلى مأمن من عينيها، إلّا أنّها قالت بصوت هادئ:

ـ رأيتك فجأة فوق رأسي دون أن أشعر بدخولك، لماذا تسترقين الخطو؟

فوثبت خديجة إلى الأرض، ثمّ جلست على الكنبة في استرخاء ساخر وهي تقول:

ـ آسفة يا أختي، في المرّة القادمة سأعلّق جرسًا في عنقي مثل عربة المطافئ لتنتبهي إلى حضوري فلا ترتعبي.

فقالت عائشة في ضيق والرعب لم يفارقها:

ـ لا لزوم لتعليق الجرس، حسْبُك أن تسيري كالناس الذين خلقهم ربّنا...

فقالت الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهي ترميها بنظرة ذات معنًى:

ـ ربّنا يعلم أنّي أسير كالناس الذين خلقهم، ولٰكن الظاهر أنّك إذا وقفت وراء النافذة ـ أقصد وراء هٰذا الزيق ـ استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدين الوعي بما حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربّنا.

فنفخت عائشة مغمغمة:

ـ هٰكذا أنت دائمًا.

وعادت خديجة إلى الصمت قليلًا، ثمّ حوّلت عينيها عن فريستها، ورفعت حاجبيها كأنّما تفكّر في مشكل عسير، ثمّ تظاهرت بالسرور كأنّما اهتدت للحلّ الموفّق، وقالت مخاطبة نفسها هٰذه المرّة دون أن تنظر إلى الأخرى:

ـ إذن لهٰذا فهي تغنّي كثيرًا «يا بو الشريط الأحمر يا لي أسرتني ترحم ذلّي!».. وكم حسبته بسلامة نيّتي غناء بريئًا لمجرّد التسلية!

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية، وقع المحذور ولم يعد ينفع التعلّق بأوهام الأمانيّ الكاذبة، وركبها اضطراب زلزل أركان نفسها فكادت تَشْرَق بالبكاء، إلّا أنّ اليأس نفسه دفعها إلى الاستماتة في الذود عن نفسها فهتفت بصوت طمس اضطرابُ نبراته معانِيَه:

ـ ما هٰذا الكلام غير المفهوم؟!

ولٰكن لم يَبْدُ على خديجة أنّها سمعت كلامها فواصلت مخاطبة نفسها قائلة:

ـ ولهٰذا أيضًا تتزيّن في الصباح الباكر! طالما ساءلت نفسي أيعقل أن تتبرّج بنت قبل الكنس والمسح والتنفيض؟! ولٰكن أيّ كنس وأيّ تنفيض يا خديجة يا مسكينة، يا من ستعيشين بلهاء، وتموتين بلهاء، اكنسي أنت ونفّضي أنت، ولا تتزيّني لا قبل العمل ولا حتّى بعده، ولماذا تتزيّنين يا تعيسة؟! انظري من زيق الشبّاك من اليوم إلى الغد فإن اعتنى بك عسكري دوريّة أقطع ذراعي!

فهتفت عائشة في اضطراب وعصبيّة:

ـ حرام عليك... حرام.

ـ لها حقّ يا خديجة، هٰذه فنون لا تستطيعين فهمها بعقلك المظلم، عيون زرق، وشعر من سبائك الذهب، شريط أحمر ونجمة لامعة، شيء مفهوم، شيء مفهوم ومعقول.

ـ خديجة، أنت مخطئة، كنت أنظر إلى الطريق فحسب، لا لأرى أحدًا ولا ليراني أحد.

فالتفتت خديجة إليها كأنّما تنتبه إلى اعتراضها لأوّل مرّة وتساءلت كالمعتذرة:

ـ هل تخاطبينني يا شوشو؟! لا مؤاخذة إنّي أفكّر في بعض الأمور الهامّة فأجّلي حديثك إلى حين...

وعادت تهزّ رأسها في تفكير وتخاطب نفسها قائلة:

ـ شيء مفهوم ومعقول، ولٰكن ما ذنبك أنت يا سيّد احمد عبد الجواد؟ أسفي عليك يا سيّد يا شريف يا كريم، تعال شوف حريمك يا سيدي وتاج راسي!

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم أبيها، فدار رأسها، ورد على ذهنها قول السيّد لأمّها وهو يحمل على رغبة فهمي في خطبة مريم: «أخبريني هل رآها؟»... «ما كنت أحسب أنّ لي أبناء يسترقون النظر إلى حرمات الجيران»، هٰذا رأيه في الابن فكيف

يكون في البنت! وهتفت بصوت مخنوق النبرات:

ـ خديجة... لا يليق هٰذا... أنت مخطئة... أنت مخطئة...

ولٰكنّ خديجة تابعت حديثها دون التفات إليها:

ـ تُرى أهٰذا هو الحبّ؟! يمكن! ألم يقولوا عنه: «الحبّ كبش في قلبي... قرّبت أروح منه طوكر».

تُرى أين طوكر هٰذه؟! لعَلّها في النحّاسين، بل لعلّها في بيت السيّد أحمد عبد الجواد.

ـ لم أعد أحتمل كلامك، ارحميني من لسانك، ربّاه... لماذا لا تصدّقينني؟!

ـ تدبّري أمرك يا خديجة ليس ما نحن فيه لعبًا، وأنت الأخت الكبرى، والواجب هو الواجب مهما بدا مرًّا، يجب أن يعلم أولو الشأن، هل تفضين بالسرّ إلى والدك؟! الحقّ أنّي لا أدري كيف أخاطبه في مثل هٰذا السرّ الخطير، ياسين؟! ولٰكنّه كعدمه وغاية ما يرجى منه أن يترنّم بكلام غير مفهوم، فهمي؟ ولٰكنّه يعطف بدوره على الشعر الذهبيّ أصل البلوى كلّها، أظنّ من الأفضل أن أخبر نينة، وأترك لها التصرّف بما ترى.

وندّت عنها حركة كأنّها تهمّ بالقيام فهرعت عائشة إليها كدجاجة مذبوحة وأمسكت بكتفيها صائحة بصدر يعلو وينخفض:

ـ ماذا تريدين؟

فتساءلت خديجة:

ـ أتهدّدينني؟!

همّت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهينمت بكلام مزّقه البكاء شرّ ممزّق، وجعلت خديجة تحدّق إليها صامتة متفكّرة، ثمّ زايل أساريرها عبث السخرية حتّى تجهّم وجهها وهي تصغي في غير ارتياح إلى نشيج الفتاة، ثمّ قالت بلهجة جدّيّة لأوّل مرّة:

ـ لقد أخطأت يا عائشة.

وأمسكت ووجهها يشتدّ تجهّمه، وكأنّ أنفها ازداد بروزًا، وبدا عليها التأثّر واضحًا فاستطردت قائلة:

ـ يجب أن تقرّي بخطئك، خبّريني كيف سوّلت لك نفسك هٰذا العبث يا مجنونة؟

فغمغمت عائشة وهي تجفّف عينيها:

ـ أنت تسيئين الظنّ بي.

فنفخت خديجة مقطّبة كأنّما ضاقت بهٰذه المكابرة الضائعة، بيد أنّها عدلت نهائيًّا عن نيّة الاعتداء أو حتّى المعابثة، إنّها تعرف دائمًا أين ومتى تقف فلا تجاوز الحدّ، وقد أشبعت السخرية ميولها العدوانيّة القاسية فقنعت بها كما تقنع بها عادة، ولٰكن بقيت لديها ميول من نوع آخر ـ أبعد ما تكون عن العدوان والقسوة ـ لم تشبع بعد، ميول تنبعث من عاطفة الأخت الكبرى، بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة مهما اشتدّت حملتها عليه، وتحت تأثير الرغبة في إشباع هٰذه الميول الودّيّة قالت:

ـ لا تكابري، لقد رأيت كلّ شيء بعيني، لست الآن أهزل ولٰكنّي أريد أن أصارحك بأنّك أخطأت خطأ كبيرًا، هٰذا عبث لم يعرفه هٰذا البيت في الماضي ولا يودّ أن يعرفه في حاضره أو مستقبله، إنّه الطيش وحده هو الذي أوقعك فيه، أصغي إليّ واعقلي نصيحتي، لا تعودي إلى هٰذا أبدًا، لا يخفى شيء وإن طال كتمانه، فتصوّري ماذا يكون أمرنا جميعًا لو لمحك أحد من الجيران، وأنت أدرى بألسنة الناس، تصوّري ماذا يكون لو نمى الخبر إلى أبي والعياذ بالله!

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبّر عن اعترافها، وقد تضرّج وجهها بحمرة الخجل، ذٰلك الدم الذي ينزفه الضمير في الداخل إذا جرحته خطيئة، وعند ذاك تنهّدت خديجة قائلة:

ـ حذار، حذار، فاهمة؟... «ثمّ نسمت عليها نسمة سخرية فغيّرت لهجتها شيئًا ما»، ألم يَرَكِ؟ فماذا يقعده عن أن يتقدّم لك مثل الرجال الشرفاء؟ وقتها نقول لك مع ألف سلامة، بل في ستّين داهية يا ستّي...

استردّت عائشة أنفاسها، فافترّ ثغرها عن ابتسامة لاحت كلمعة اليقظة الأولى في العين عقب غيبوبة طويلة، وكأنّ خديجة عزّ عليها ـ برؤية هٰذه الابتسامة ـ أن تفلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكها فترة طويلة فصاحت بها:

ـ لا تظنّي أنّك بلغت برّ الأمان، إنّ لساني لا

يسكت إذا لم تحسني مشاغلته...

فتساءلت الأخرى في ارتياح:

ـ ماذا تعنين؟

ـ لا تتركيه وحده حتّى لا تعاوده نزعة الشرّ، ألهيه بشيء من الحلوى ليشغل بها عنك، علبة ملبّس مثلًا من شنجرلي...

ـ لك ما تشتهين وأكثر.

وساد الصمت فشغلت كلتاهما بأفكارها. على أنّ قلب خديجة كان ـ كما كان من بادئ الأمر ـ مرتعًا لضروب من المشاعر متباينة... غيرة وحنق وإشفاق وحنان...

٢٣

كانت ستّ أمينة مشغولة بإعداد أدوات القهوة استعدادًا لجلسة العصر التقليديّة فجاءتها أمّ حنفي مهرولة، يبشّر لمعان عينيها بأنباء سارّة، ثمّ قالت بلهجة موحية:

ـ ستّي ثلاث سيّدات غريبات يرغبن في زيارتك...

أخلت الأمّ يديها من كلّ شيء، وانتصبت قامتها في عجلة دلّت على تأثير الخبر في نفسها، وحدجت الخادم بنظرة اهتمام شديدة كأنّه من المحتمل أن تكون الزائرات من البيت المالك أو من السماء نفسها، ثمّ تمتمت استزادة من التوكيد:

ـ غريبات؟!

فقالت أمّ حنفي بلهجة تنمّ عن فرحة الظفر:

ـ نعم يا ستّي، طرقن الباب ففتحت لهنّ فقلن لي «أليس هٰذا بيت السيّد أحمد عبد الجواد؟» فقلت لهنّ «بلى» فقلن «الهوانم فوق؟» فقلت «نعم» فقلن «نريد أن نتشرّف بالزيارة» فسألتهنّ «أقول مَن الزائرات؟» فقالت لي إحداهنّ ضاحكة «دعي هٰذا لنا، وما على الرسول إلّا البلاغ» فجئتك يا ستّي طائرة وأنا أقول لنفسي «يا ربّ حقّق لنا الأحلام»...

فقالت الأمّ بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها:

ـ ادعيهنّ إلى حجرة الاستقبال... أسرعي...

ولبثت دون حراك ثواني، مستغرقة في خواطرها الجديدة، في الحلم السعيد الذي تفتّحت لها دنياه الغنّاء فجأة وإن بدا شغلها الشاغل طول الأعوام الأخيرة، ثمّ أفاقت إلى نفسها فنادت خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتاة على الأثر، وما إن التقت عيناهما حتّى غلبها الابتسام وقالت وهي لا تملك نفسها من الفرح:

ـ ثلاث سيّدات غريبات في حجرة الاستقبال... ارتدي خير ملابسك... واستعدّي...

ولـمّا تورّد وجه خديجة تورّد وجهها أيضًا كأنّما انتقلت إليه عدوى الحياء، ثمّ غادرت الصالة إلى حجرتها في الدور الأعلى لتستعدّ بدورها لاستقبال الزائرات، وجعلت خديجة تنظر إلى الباب حيث اختفت أمّها، غائبة الطرف، وقلبها يخفق لحدّ الألم متسائلة «ما وراء هٰذه الزيارة؟» ثمّ نزعت نفسها من موقفها، وسرعان ما استردّ عقلها نشاطه الفائق فنادت كمال الذي جاءها من حجرة فهمي فبادرته قائلة:

ـ اذهب إلى أبلة مريم وقل لها إنّ خديجة تقرئك السلام وترجوك أن ترسلي لها معي علبة البودرة والكحل والأحمر...

وتلقّف الغلام الأمر وهو يعدو إلى الخارج، أمّا خديجة فأسرعت إلى حجرتها ومضت تخلع جلبابها وهي تقول لعائشة التي لحظتها بعين متسائلة.

ـ اختاري لي أحسن فستان... أحسن فستان بلا استثناء...

فتساءلت عائشة:

ـ ما الداعي إلى هٰذا الاهتمام؟... زائرة؟! من؟!

فقالت خديجة بصوت خافت:

ـ ثلاث سيّدات... «ثمّ وهي تضغط على مخارج اللفظ»... غريبات...

فتراجع رأس عائشة في دهش، ثمّ اتّسعت عيناها الجميلتان سرورًا، وهتفت:

ـ آه... هل يُفهم من هٰذا أنّ... يا له من خبر!

ـ لا تتسرّعي في الحكم.. فمن يدري عمّا هناك..

فاتّجهت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقي الفستان

المناسب وهي تقول ضاحكة:

ـ في الجوّ شيء.. إنّ الفرح يُشمّ كالروائح الزكيّة...

فضحكت خديجة لتخفي اضطرابها، واقتربت من المرآة ونظرت إلى صورتها بإمعان، ثمّ أخفت أنفها براحتها وقالت بتهكّم:

ـ لا بأس بوجهي الآن، وجه مقبول، «ثمّ رافعة راحتها»... أمّا على هٰذه الحال فربّنا وحده المنجّي!

فقالت عائشة ضاحكة وهي تساعدها في نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موشّى بأزهار بنفسجيّة:

ـ لا تغمطي نفسك... ألا يسلم شيء من لسانك!... ليست العروس أنفًا فحسب، هناك العينان والشعر الطويل، والدم الخفيف!

فلوت خديجة بوزها قائلة:

ـ الناس لا ترى إلّا العيوب...

ـ هٰذا صحيح بالقياس إلى من على شاكلتك من الناس، ولٰكن ليس كلّ الناس على شاكلتك والحمد لله...

ـ سوف أجيبك حين أفرغ لك...!

فربّتت الأخرى على خاصرتها وهي تسوّي الفستان قائلة:

ـ ولا تنسي هٰذا الجسم البضّ الممتلئ... يا له من جسم!.

فضحكت خديجة في سرور وقالت:

ـ لو كان العريس أعمى ما عملت حسابًا لشيء... وإنّي أرضى به في تلك الحال ولو كان شيخًا من شيوخ الأزهر...

ـ وماذا يعيب شيوخ الأزهر!... أليس منهم مَن خيراته كالبحر؟!

ولـمّا فرغتا من الفستان ندّت عن عائشة نغمة تأفّف فسألتها خديجة:

ـ ماذا بك؟

فقالت بتذمّر:

ـ ليس في بيتنا كلّه نقطة بودرة أو كحل أو أحمر كأن ليس به نساء...؟!

ـ من الأفضل أن تبلّغي هٰذا الاحتجاج لوالدنا...

ـ أليست نينة سيّدة ومن حقّها أن تتزيّن؟

ـ إنّها جميلة هٰكذا بلا زينة!

ـ وحضرتك؟ هل تلقين الزائرات هٰكذا؟!

فقالت خديجة ضاحكة:

ـ أرسلت كمال إلى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحمر، وهل وجهي وجه أقابل به الخاطبات عاطلًا؟!

ولـمّا كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعت خديجة منديل رأسها وأخذت تحلّ ضفيرتيها الغليظتين الطويلتين، على حين جاءت عائشة بالمشط وراحت تمشط شعرها المسترسل وهي تقول:

ـ يا له من شعر سبط طويل... ما رأيك؟ سأجدله في ضفيرة واحدة، ألا يكون ذٰلك أروع؟

ـ بل ضفيرتين... ولٰكن خبّريني هل أبقي الجراب في قدميّ أو أدخل عليهنّ عارية الساقين؟

ـ إنّ الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولكنّي أخشى إذا أبقيته أن يحسبنّ بساقك عيبًا تتعمّدين إخفاءه...!

ـ صدقت، إنّ المحكمة أرحم من الحجرة التي تنتظرني الآن...

ـ قوّي قلبك، ربّنا يوعدنا...

وهنا دخل الحجرة كمال مسرعًا وهو يلهث فقدّم إلى أخته أدوات الزينة وهو يقول:

ـ قطعت السلّم والطريق جريًا...

فقالت له خديجة باسمة:

ـ عفارم، عفارم... ماذا قالت لك مريم؟

ـ سألتني هل عندنا ضيوف... ومَن هنّ، فأجبتها بأنّي لا أدري...

فتجلّت في عيني خديجة نظرة اهتمام وهي تسأله:

ـ وهل قنعت بهٰذه الإجابة؟

ـ حلّفتني بالحسين أن أصرّح لها بما عندي فحلفت لها بأنّه ليس عندي غير ما قلت...

فضحكت عائشة قائلة ويداها لا تكفّان عن العمل:

ـ ستخمّن ما هنالك...

فقالت خديجة وهي تذرّ البودرة على وجهها:

ـ إنّها بنت هرمة، وهيهات أن يفوتها شيء، وأراهنك على أنّها سوف تزورنا غدًا على الأكثر لإجراء تحقيق شامل...

ولم يشأ كمال أن يغادر الحجرة كما كان المنتظر، أو لعلّه لم يستطع مغادرتها تحت إغراء المشهد الذي يمثّل أمام عينيه، والذي يراه لأوّل مرّة في حياته فلم يسبق له أن رأى وجه أخته وهو يلقى هذا التغيّر الذي استحال معه وجهًا جديدًا، البشرة تبيضّ والوجنتان تتورّدان والعينان تصطبغ أشفارهما بسواد لطيف يرسم لهما حدودًا جذّابة ويضفي على حدقتيهما صفاء بهيجًا، وجه جديد هشّ له قلبه فطرب هاتفًا:

ـ أنت يا أبلة الآن كالعروس التي يشتريها بابا في مولد النبيّ...

فضحكت الفتاتان، وسألته خديجة:

ـ هل أعجبك الآن؟

فاقترب منها مسرعًا ومدّ يده صوب أرنبة أنفها وهو يقول:

ـ لو تزول هذه!

فتفادت من يده، ثمّ قالت لأختها:

ـ أخرجي هذا النمّام.

فقبضت عائشة على يده وجذبته إلى الخارج رغم مقاومته حتّى أخرجته وأغلقت الباب، ثمّ عادت إلى استئناف عملها الجميل، فواصلتا نشاطهما في صمت وجدّ. ومع أنّه كان من المتّفق عليه في الأسرة أن تقتصر مقابلة الخاطبات على خديجة وحدها إلّا أنّ الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر:

ـ ينبغي أن تتأهّبي أنت أيضًا لاستقبال الزائرات.

فقالت عائشة بمثل مكر أختها:

ـ لن يكون هذا قبل أن تزفّي إلى عريسك!

ثمّ استدركت قائلة قبل أن تتكلّم خديجة:

ـ أمّا الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر؟!

فرمتها أختها بنظرة مستريبة وتساءلت:

ـ من يكون القمر؟

فقالت عائشة ضاحكة:

ـ طبعًا أنا...!

فلكزتها بكوعها، ثمّ تنهّدت قائلة:

ـ لو تعيرينني أنفك كما أعارتني مريم علبة بودرتها!

ـ تناسي أنفك ولو الليلة على الأقلّ، إنّ الأنف ـ كالدمّل ـ يضخم بالدأب على التفكير فيه!...

أوشكتا عند ذاك على الفراغ من عمليّة التجميل، فتراخى انتباه خديجة عن التركيز في مظهرها واتّجه في رهبة إلى موقف الامتحان الذي ينتظرها فشعرت بخوف لم تشعر بمثله من قبل، لا بالقياس إلى جدّته فحسب ولكن ـ قبل كلّ شيء ـ بالقياس إلى خطورة عواقبه، وما لبثت أن قالت متشكّية:

ـ أيّة جلسة هذه التي قُضي عليّ بها!... تصوّري نفسك في مكاني، بين نسوة غريبات لا تدرين أيّ خُلُق خُلُقهنّ ولا أيّ أصل أصلهنّ، وهل جئن بنيّة صادقة أو لمجرّد الفرجة والتسلية، وماذا يكون من أمري لو كنّ عيّابات شتّامات (ثمّ ضاحكة ضحكة مقتضبة) مثلي مثلًا... هه؟ وماذا بوسعي إلّا أن أجلس بينهنّ في أدب واستسلام أتلقّى نظراتهنّ من اليمين والشمال، ومن الأمام والخلف، وأصدع بأمرهنّ بلا أدنى تردّد، إذا طلبن قيامًا قمت، أو مشيًا مشيت أو كلامًا تكلّمت حتّى لا يفوتهنّ شيء من جلوسي وقيامي وصمتي وكلامي وأعضائي وقسماتي، وعلينا بعد هذه «البهدلة» كلّها أن نتودّد إليهنّ ونُطري لطفهنّ، وكرمهنّ، ثمّ لا ندري بعد ذلك أنفوز بالرضى أو نفوز بالغضب، أف... أف... ملعون الذي أرسلهنّ!

فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنًى:

ـ بعُد الشرّ عنه!

فقالت خديجة ضاحكة أيضًا:

ـ لا تدعي له حتّى نتأكّد أنّه من نصيبنا... آه يا ربّي كم أنّ قلبي يدقّ!...

فتراجعت عائشة خطوة خطوة عن مرمى كوعها وقالت:

ـ صبرك... ستجدين في المستقبل فرصًا كثيرة للانتقام من مجلس اليوم الرهيب، فكم سيُصلين من

نار لسانك وأنت ستّ البيت... ولعلّهنّ يذكرن امتحان اليوم وهنّ يقلن لأنفسهنّ يا ليت الذي جرى ما كان!...

وقنعت خديجة بالابتسام. لم يكن في الوقت متّسع لردّ الهجوم، ولم تجد في الهجوم ـ الذي تجد فيه عادة سرورًا شافيًا ـ لذّة على الإطلاق لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء، ولـمّا فرغتا من مهمّتهما وقفت تلقي على صورتها نظرة شاملة، وعائشة ـ إلى الوراء خطوتين ـ تردّد نظرها بعناية بين الصورة والأصل، وجعلت خديجة تتمتم:

ـ أحسنت يداك، منظر حسن أليس كذٰلك؟... هٰذه خديجة حقًّا... لا بأس بأنفي الآن... جلّت حكمتك يا ربّ، بقليل من الجهد صار كلّ شيء مقبولًا فلماذا (ثمّ مستدركة) أستغفر الله العظيم، لك في كلّ شيء حكمة...

وتراجعت خطوات وهي تفحص صورتها بعناية ثمّ قرأت الفاتحة في سرّها، والتفتت نحو عائشة قائلة:

ـ ادعي لي يا بنت...

وغادرت الحجرة...

٢٤

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة تمثّلت في المدفأة الكبيرة التي توسّطت الصالة فتكأكأت حولها الأسرة، الذكور في معاطفهم والنساء ملتفّات بخماراتهنّ، فهيّأ لهم المجلس إلى لذّة الشراب وحلو السمر متعة الدفء. وقد بدا فهمي ـ على حزنه الصامت الطويل في الأيّام الأخيرة ـ كمن يتحفّز لمواجهة أهله بخبر هامّ، ولم يكن تردّده وطول تفكيره إلّا دليلًا على خطورة الخبر وأهمّيته، بَيْد أنّه انتهى من تفكيره وتردّده إلى التصميم على إبلاغه ملقيًا عبئه بعد ذٰلك على والديه والأقدار، فلذٰلك قال:

ـ عندي خبر هامّ لكم فاسمعوا...

فتطلّعت إليه الأعين باهتمام لن يشذّ عنه أحد، لأنّ ما عُرف به الشابّ من اتّزان جعل الجميع ينتظرون خبرًا هامًّا حقًّا كما قال، أمّا فهمي فاستطرد قائلًا:

ـ الخبر هو أنّ حسن أفندي إبراهيم ضابط قسم الجمالية ـ وهو من معارفي كما تعلمون ـ قابلني ورجاني أن أبلغ والدي رغبته في خطبة عائشة..!

وأحدث الخبر ـ كما قدّر فهمي من قبل ما دعاه إلى التردّد وطول التفكير ـ آثارًا جدّ متباينة، فتطلّعت الأمّ إليه باهتمام شديد، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويهزّ رأسه، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياء ولتخفي وجهها من الأعين أن تفضحها أساريرها فتعلن للناظرين ما يضطرب في قلبها الخافق، أمّا خديجة فقد تلقّت الخبر بدهشة بادئ الأمر لم تلبث أن انقلبت خوفًا وتشاؤمًا لم تَدْرِ لهما سببًا واضحًا ولٰكنّها كانت كتلميذ يتوقّع بين آونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان ـ إذا تناهى إليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصدر خاصّ، وتساءلت الأمّ في ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة:

ـ أهٰذا كلّ ما قال؟

فقال فهمي وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة:

ـ بدأني بقوله إنّه يودّ أن يتشرّف بطلب يد شقيقتي الصغرى.

ـ وماذا قلت له؟

ـ شكرت له حسن ظنّه بطبيعة الحال...

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال في رغبة استطلاع شيء تودّ معرفته، ولٰكن لتداري ارتباكها وتنتزع من المفاجأة مهلة للتروّي. ثمّ راحت تتساءل ترى هل لهٰذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتي جئنها منذ أيّام؟! وذكرت عند ذاك كيف قالت إحداهنّ ـ قبل ظهور خديجة ـ وهي بمعرض الحديث عن أسرة السيّد أحمد إنّهنّ سمعن أنّ للسيّد كريمتين فأدركت وقتها أنّهنّ جئن لرؤية الفتاتين ولٰكنّها تصامّت عن الإشارة، وقد انتسبت الزائرات إلى أسرة تاجر بالدرب الأحمر ـ غير والد الضابط الذي قال فهمي عنه مرّة إنّه موظّف بوزارة الأشغال ـ ولٰكن هٰذا لا ينفي نفيًا قاطعًا العلاقة بين الأسرتين لأنّه المألوف أن تبعث الأسر بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص، وكم ودّت أن تسأل فهمي عن هٰذه النقطة بالذات

وكأنّها أشفقت من أن يجيء الجواب مصداقًا لمخاوفها فيقضي على آمال ابنتها الكبرى ويُسيمها خيبة جديدة، بَيْد أنّ خديجة نابت عن أمّها ـ اتّفاقًا ـ بطرح ما يعتلج في صدرها خارجًا حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة:

ـ لعلّه هو الذي بعث بالزائرات اللاتي زرننا منذ أيّام.

ولٰكنّ فهمي بادر قائلًا:

ـ كلّا، فقد قال لي إنّه سيرسل أمّه إلينا في حالة الموافقة على طلبه...

ولٰكنّه بخلاف لهجته الموحية بالصدق، لم يكن صادقًا فيما قال، فقد فهم من حديث الضابط أنّ السيّدات اللاتي زرن والدته قريباته، بَيْد أنّه أشفق من إيلام شقيقته الكبرى التي كان ـ على حبّه عائشة واقتناعه بجدارة صديقه الضابط ـ يعطف عليها عطفًا أخويًا، ويألم أشدّ الألم لسوء حظّها، ولعلّه كان لِما مُني به من خيبة أثر قويّ في البلوغ بهٰذا العطف ذروته. وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صبيانيّ:

ـ يبدو أنّنا سنجمع قريبًا بين فرحين...

فهتفت الأمّ في فرح صادق:

ـ ربّنا يسمع منك...

ـ هل تخاطبين أبي نيابة عنّي؟...

ندّ عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عمّا عداها، ولٰكنّه ـ عقب النطق به ـ وقع من أذنيه موقعًا غريبًا، فكأنّه ألقي عليه من حافظة ذكرياته لا من طرف لسانه، أو كأنّه حين ألقي على سمعه لم يقف عند أذنيه ولٰكنّه غاص إلى أعماقه ثمّ طفا عالقًا به ما علق به من ذكرياته، وللحال ذكر سؤالًا مماثلًا لهٰذا السؤال توجّه به إلى أمّه في ظروف مشابهة فانقبض قلبه، وهاجت آلامه، وعاوده إحساسه بالظلم الذي وأد أمله، وجعل يقول لنفسه كما قال لها مرارًا في الأيّام الأخيرة، كم كان يكون سعيدًا بيومه مستبشرًا بغده راضيًا عن الحياة كلّها لولا إرادة أبيه القاسية، وانتزعته الذكرى من الاهتمام بشئون غيره، فاستسلم للحزن الذي يقرض شغاف قلبه، أمّا الأمّ ففكّرت مليًّا ثمّ تساءلت:

ـ ألا يحسن بنا أن نفكّر فيما عسى أن أجيب أباك إذا سألني عمّا دعا الضابط إلى طلب عائشة بالذات، ولماذا لم يطلب يد خديجة، ما دام لم يَرَ هٰذه ولا تلك؟...

وانتبهت الفتاتان إلى ملاحظة أمّهما معًا، ولعلّهما ذكرتا موقفهما وراء النافذة في وقت واحد، بَيْد أنّ خديجة تلقّت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن، واحتجّ قلبها على الحظّ الأعمى الذي يأبى إلّا أن يجزي النزق والاستهتار بالإحسان، أمّا عائشة فقد اعترضت تيّار سرورها ملاحظة أمّها كما تعترض الحلق ـ وهو نشوان بازدراد أكلة لذيذة شهيّة ـ شوكة حادّة مدسوسة في الطعام، وسرعان ما امتصّ الخوف حرارة الفرح التي كان ينتفض بها روحها. فهمي وحده الذي ثار على قول أمّه، لا دفاعًا كما بدا عن عائشة ـ فإنّه ما كان يجيز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة في هٰذه النقطة الحسّاسة بالذات ـ ولٰكن غضبًا لحزنه الكظيم الذي لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه، فقال محتدًّا يخاطب أباه في شخص أمّه، وهو لا يدري:

ـ هٰذا تعسّف ظالم لا مبرّر له، من عقل أو حكمة ألّا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نساء مخدّرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتي لا يقصدن بحديثهنّ إلّا الجمع بين رجل وامرأة في الحلال.

ولٰكنّ الأمّ لم تقصد باعتراضها إلّا تواريًا وراء أبيه حتّى تجد مخرجًا من المأزق الذي وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة. فلمّا صارحها فهمي باحتجاجه لم تجد بدًّا من مصارحته بما يدور:

ـ ألا ترى أنّه من الأفضل أن ننتظر حتّى يأتينا نبأ الزائرات؟!

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها التي أبت عليها إلّا أن تعلن عدم المبالاة بالأمر كلّه بالرغم ممّا يصطرع داخلها من القلق والتشاؤم. فقالت:

ـ هٰذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمّة داعٍ لتأجيل

هٰذا من أجل ذاك...

فقالت الأمّ بهدوء مؤثّر:

ـ كلّنا متّفقون على تأجيل زواج عائشة حتّى تتزوّج خديجة.

ولم يسع عائشة إلّا أن تقول برقّة وتسليم:

ـ هٰذا أمر مفروغ منه...

امتلأ صدر خديجة حنقًا لدى سماع النبرات الرقيقة التي تتكلّم، ولعلّ رقّتها نفسها كانت أشدّ ما أحنقها، ربّما لأنّها أوحت بعطف أبّته كلّ الإباء، أو لأنّها ودّت لـو تعلن الفتاة معـارضتها صريحة لتتيح لهـا فرصـة لمهاجمتها بما يشفي حنقها على حين قـام ذاك العطف الكاذب البغيض درعًا يدفع عنها الأذى ويضاعف من حنق المتربّص المتحفّز، وأخيرًا لم يسعها إلّا أن تقول بلهجة لم تَخْلُ من حدّة:

ـ لا أوافق على أنّ هٰذا أمر مفروغ منه، فليس من العـدل أن يحمـلكم حظ عـاثـر عـلى كسر حظّ سعيد!...

وتنبّه فهمي إلى ما ينطوي عليه كلام خديجـة من حزن غاضب بالرغم من ظاهره الموحي بالإيثار فانتزع نفسه من قبضة أحزانه الشخصيّة نادمًا على ما صدر منه من قول في غضبته ممّا قد تحسبه خديجة ميلًا صريحًا منه إلى قضيّة أختها فقال موجّهًا خطابه إليها:

ـ إنّ مفاتحة بابا عن رغبـة حسن أفندي لا تعني التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك، وما علينا من بأس إذا نلنا موافقته على الخطبة، أن نؤجّل إعلانها لوقت مناسب!...

ولم يكن ياسين مقتنعًا بوجاهة الـرأي الذي يحتّم تقديم زواج على زواج، ولٰكنّه لم يجد الشجاعة الكافية للإفصاح عن رأيه إلّا أنّه روّح عنه بكلام يفهم منه مَن يشاء ما يشاء فقال:

ـ الـزواج مصير كـلّ حيّ، ومن لم تتزوّج اليـوم فستتزوّج غدًا.

وهنا انطلق صوت كمال الرفيع الـذي كان يتـابع الحديث باهتمام متسائلًا على غير انتظار:

ـ نينة... لماذا كان الزواج مصير كلّ حيّ؟

ولٰكنّها لم تُعْنَ بالالتفات إليه، فلم يحدث تساؤله من أثر إلّا عند ياسين الذي قعقع بضحكة غليظة دون أن ينبس بكلمة، على حين قالت الأمّ:

ـ اعلم أنّ كلّ فتاة ستتزوّج اليوم أو غدًا، ولٰكن هناك اعتبارات لا ينبغي إغفالها...

وعاد كمال يسألها:

ـ وهل ستتزوّجين أنت أيضًا يا نينة؟

وضجّ الجميع ضحكًا فخفّف هٰذا من حدّة التوتّر، وانتهز ياسين هٰذه الفرصة السانحة فتشجّع قائلًا:

ـ اعرضي الأمر على أبي، فالكلمة كلمته على أيّ حال...

وقالت خديجة بإصرار غريب:

ـ لا بدّ من هٰذا... لا بدّ من هٰذا...

كانت تعني ما تقول: لأنّها من ناحية تعلم باستحالة إخفاء مثل هٰذا الأمر عن أبيها، ولأنّها من ناحية أخرى تعتقد بأنّ والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة عليهـا، ولأنّها ـ إلى هٰذا وذاك ـ مـا زالت تصرّ على التظاهر بـاللامبـالاة، ومع أنّها لم تكن تعلم بمـا بين الضـابط والـزائـرات من سبب... إلّا أنّ القلق والتشاؤم اللذين شعرت بهما من بادئ الأمر لم يتخلّيا عنها لحظة واحدة...

٢٥

مع أنّ السيّدة أمينة جرّبت في حياتها أكثر من سبب من الأسباب التي تكدّر الصفو إلّا أنّها لم تكن قديمة عهـد بنوع طـارئ من هٰذه الأسبـاب، امتاز بـطابع خاصّ به، إذ بدا في ذاته ـ على خلاف سوابقه ـ ممّا يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة الجوهريّة في الدنيا، ومـع هٰذا انقلب في بيتهـا، بل في قلبهـا خاصّة، باعثًا هامًّا من بـواعث القلق والكدر، وكم كانت صادقة وهي تسائل نفسها: من كـان يظنّ أنّ مَقـدَم عـريس، الأمـر الـذي تتلهّف النفـوس عـلى استقباله، يجرّ علينا هٰذا التعب كلّه!... ولٰكن هٰكذا جـرى الحال، فتنـازع قلبهـا أكـثر من رأي دون أن تطمئنّ إلى واحد منها، رأت حينًا أنّ الموافقة على زواج

عائشة قبل خديجة كفيلة أن تقضي على مستقبل ابنتها الكبرى، ورأت حينًا آخر أنّ الإلحاح في معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتاتين بأوخم العواقب، وإلى هٰذا وذاك ـ شقّ عليها أكثر أن توصد الباب في وجه عريس رائع كالضابط الشابّ ليس من اليسير أن يجود الحظّ بمثله مرّة أخرى. ولٰكن ما عسى أن يكون موقف خديجة إذا تمّت الموافقة وما عسى أن يكون حظّها ومستقبلها؟!... لم تدْرِ لنفسها مستقرًا، خاصّة وأنّ ما طبعت عليه من سلبيّة شاملة جعلها أعجز من أن تجد حلًا موفّقًا لمشكل من المشاكل، ولهٰذا وجدت راحة وهي تتحفّز لإلقاء العبء كلّه على عاتق السيّد، بل وجدت هٰذه الراحة بالرغم ممّا يخامرها من خوف كلّما أقدمت على مفاتحته بأمر ترتاب في حسن تقبّله له، وقد انتظرت حتّى فرغ من احتساء قهوته ثمّ قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخضوع:

ـ سيّدي... حدّثني فهمي قال إنّ صديقًا له رجاه أن يعرض عليك رغبته في خطبة عائشة...

سدّدت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنبة إلى حيث تجلس المرأة على شلتة غير بعيدة من قدميه، كأنّما يقول لها: «كيف تحدّثينني عن عائشة وأنا في انتظار أخبار عن خديجة بعد ما كان من نبأ الزائرات الثلاث»... ثمّ تساءل ليستوثق ممّا سمع:

ـ عائشة؟...

ـ نعم يا سيّدي...

ونظر السيّد أمامه في ضيق، ثمّ قال وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ قرّرت من زمن بعيد أنّ هٰذا سابق لأوانه...

فقالت المرأة في عجلة أن يظنّ بها معارضة لرأيه:

ـ إنّي أعلم رأيك يا سيّدي، ولٰكن يجب أن أطلعك على كلّ شيء يدور بيننا...

تفحّصها الرجل ببصر حادّ كأنّه يسبر ما في قولها من صدق وإخلاص ولٰكن لمعت عيناه بخاطر طارئ حال بينه وبين تفحّصها، فتساءل في اهتمام وقلق:

ـ تُرى ألهٰذا علاقة بالسيّدات اللاتي زرنك؟

أجل، علمت بهٰذه العلاقة، وهي منفردة بفهمي، وقد اقترح عليها الشابّ أن تخفي أمرها عن والده عند مفاتحته بالخبر فوعدته بالتفكير في المسألة طويلًا، وتردّدت بين قبولها ورفضها، ثمّ مالت أخيرًا إلى كتمانها كما اقترح فهمي، ولٰكنّها حين جوبهت بسؤال السيّد وهي تشعر بنظرة عينيه كضوء الشمس الوهّاج تشتّتت عزيمتها وتبدّد رأيها فقالت بلا تردّد:

ـ نعم يا سيّدي، علم فهمي أنّهن قريبات صديقه...

فعبس السيّد غاضبًا وكعهده إذا غضب امتلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشرر من عينيه. مَن يستهن بخديجة فكأنّما استهان بشخصه، ومن يمسّ كرامتها فكأنّما طعنه في صميم كرامته، ولٰكنّه لم يدرِ كيف يعلن غضبه إلّا عن طريق صوته الذي علا وغلظ وهو يتساءل بحنق وازدراء:

ـ من هو هٰذا الصديق؟

فقالت وهي تجد للنطق بالاسم قلقًا لا تدري له من سبب:

ـ حسن إبراهيم ضابط قسم الجماليّة.

فقال السيّد متسائلًا في انفعال:

ـ قلت إنّك أدخلت خديجة وحدها على السيّدات؟!...

ـ نعم يا سيّدي..

ـ هل زرنك مرّة أخرى؟

ـ كلّا يا سيّدي وإلّا كنت أخبرتك.

فسألها متبرمًا كأنّما هي المسئولة عن هٰذه الغرابة:

ـ أرسل قريباته فرأين خديجة، وإذا به يطلب عائشة!... ما معنى هٰذا؟!...

فازدردت الأمّ ريقها الذي جفّ بين الأخذ والردّ وتمتمت:

ـ في مثل هٰذا الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود إلّا بعد أن يزرن كثيرًا من بيوت الجيران متحرّيات عمّا يهمّهنّ، وبالفعل قد أشرن في حديثهنّ معي إلى أنّهنّ سمعن بأنّ للسيّد كريمتين، ولعلّ تقديم واحدة دون الأخرى...

أرادت أن تقول «لعلّ تقديم واحدة دون الأخرى وكّد لديهنّ ما سمعن عن جمال الصغرى» ولكنّها أمسكت خوفًا من مضاعفة غضبه من ناحية، وإشفاقًا من الجهر بهٰذه الحقيقة التي ترتبط في ذهنها بألوان قاتمة من القلق والأسى من ناحية أخرى، فأمسكت مكتفية بإتمام الحديث بإشارة من يدها كأنّما تقول «الخ الخ»

وحدج السيّد إليها بنظر حادّ حتّى غضّت الطرف استخذاء، وانقلب إلى حال من الامتعاض والحزن كثّفت الغضب في صدره فمضى يقرع أضلعه يروم متنفّسًا أو ينشد صحبة، ثمّ صاح بصوت عاصف:

- عرفنا كلّ شيء، ها هو ذا عريس يتقدّم طالبًا يد ابنتك فاسمعيني رأيك؟...

شعرت بسؤاله يستدرجها إلى حفرة لا قرار لها فقالت بلا تردّد وهي تبسط راحتيها في تسليم:

- رأيي رأيك يا سيّدي ولا رأي لي غيره...

فصاح في زجرة:

- لو كان الأمر كما تقولين ما فاتحتني في الأمر.

فقالت في لهجة ملهوجة وإشفاق:

- ما حدّثتك يا سيّدي إلّا لأخبرك عمّا جدّ في الأمر، لأنّ واجبي يقضي عليّ بأن أطلعك على كلّ ما يتّصل ببيتك من قريب أو بعيد...

فهزّ رأسه في حنق قائلًا:

- من يدري. إي والله من يدري... ما أنت إلّا امرأة، وكلّ امرأة ناقصة عقل، والزواج خاصّة يفتنكنّ عن الرشاد، فلعلّك...

فقاطعته بصوت متهدّج:

- سيّدي أعوذ بالله ممّا تظنّ بي، إنّ خديجة ابنتي ومن لحمي ودمي كما هي ابنتك... وإنّ حظّها ليفتّت كبدي، أمّا عائشة فما تزال في أوّل ربيعها ولن يضيرها أن تنتظر حتّى يأخذ الله بيد شقيقتها.

فراح يمسح براحته على شاربه الغليظ بحركة عصبيّة حتّى توقّف فجأة، كأنّما تذكّر أمرًا وتساءل:

- هل علمت خديجة؟

- نعم يا سيّدي.

فلوّح بيده غاضبًا وهو يصيح:

- كيف يطلب هٰذا الضابط يد عائشة بالرغم من أنّ أحدًا لم يرها؟!

فقالت بحرارة وقلبها يرتجف:

- قلت يا سيّدي لعلّهنّ سمعن عنها.

- ولكنّه يعمل في قسم الجماليّة أي في حيّنا، وكأنّه من أهله.

فقالت الأمّ في تأثّر شديد:

- إنّ عين رجل لم تقع على إحدى ابنتيّ منذ انقطاعهما عن المدرسة في سنّ الطفولة.

فضرب كفًّا بكفّ وصاح بها:

- مهلًا... مهلًا... هل حسبتني أشكّ في هٰذا يا وليّة؟! لو شككت فيه ما أشبعني القتل!...

إنّما أتحدّث عمّا يجري في عقول بعض الناس ممّن لا يعرفوننا، «إنّ عين رجل لم تقع على إحدى ابنتيّ»... ما شاء الله، وهل كنت تريدين أن تقع عين رجل عليهما؟!... يا لك من مجنونة مهذارة، إنّي أردّد ما قد تشيع به ألسنة السفهاء من الناس، أجل... إنّه ضابط الحيّ، يسير في شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظنّ احتمال رؤيته لإحدى الفتاتين إذا علموا بزواجه منها... لا أحبّ، لا أريد أن أعطي ابنتي لأحد ليثير الشبهات حول سمعتي، بل لن تنتقل ابنتي إلى بيت رجل إلّا إذا ثبت لديّ أنّ دافعه الأوّل إلى الزواج منها هو رغبته الخاصّة في مصاهرتي أنا... أنا... أنا... «لم تقع عين رجل على إحدى ابنتيّ»... مبارك... مبارك يا ستّ أمينة.

وأصغت الأمّ دون أن تنبس بكلمة فساد الصمت الحجرة، ثمّ نهض الرجل فآذنها نهوضه بأنّه سيشرع في ارتداء ملابسه استعدادًا للعودة إلى الدكّان فبادرت بالقيام، ونزع السيّد ذراعيه من الجلباب ورفعه ليخلعه، ولكنّه توقّف قبل أن تجاوز طاقة الجلباب ذقنه، وقال والجلباب مكوّم فوق منكبه كلبدة الأسد:

- ألم يقدّر سي فهمي خطورة الطلب الذي تقدّم به صديقه؟...

(ثمّ محرّكًا رأسه في أسف)... يحسدني الناس على

إنجاب ثلاثة ذكور، والحقّ أنّي لم أنجب إلّا إناثًا... خمس إناث...

٢٦

على أثر مغادرة السيّد للبيت ذاع رأيه في خطبة عائشة، ومع أنّه قوبل بتسليم عامّ ـ تسليم من لا حيلة لهم سوى التسليم ـ إلّا أنّه كان متباين الصدى في النفوس، أسف فهمي للخبر، وساءه أن تفقد عائشة زوجًا صالحًا مثل صديقه حسن إبراهيم، أجل كان قبل أن يبتّ أبوه في الأمر متردّدًا بين التحمّس للعريس المتقدّم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق، فلمّا أن قضي الأمر واستراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الآخر الراغب في سعادة عائشة وأمكنه أن يجهر برأيه فقال:

ـ لا شكّ أنّ مستقبل خديجة يهمّنا جميعًا ولكنّني لا أوافق على الإصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التي تتاح لها، الحظّ غيب لا يعلمه إلّا الله، ولعلّ الله يدّخر للمتأخّر حظًّا أوفر من المتقدّم.

ولعلّ خديجة كانت أشدّ الجميع شعورًا بالحرج لوقوفها للمرّة الثانية عثرة في سبيل أختها، لم تكن تفكّر في الحرج وهي تحت المطرقة، ولكن حين نما إليها رأي أبيها الحاسم، وتقهقر الخطر الذي يتهدّدها، زايلها الحنق والألم وحلّ محلّهما شعور أليم بالخجل والحرج، ومع أنّ حديث فهمي لم يترك في نفسها أثرًا حسنًا لأنّها طمعت في أعماقها أن تجد من الجميع حماسًا لرأي أبيها وأن تبقى هي الوحيدة المعارضة له، إلّا أنّها قالت معلّقة عليه:

ـ صدق فهمي فيما قال، وكان هٰذا رأيي دائمًا...

فعاد ياسين يؤكّد رأيه السابق قائلًا:

ـ الزواج مصير كلّ حيّ... لا تخافوا... ولا تجزعوا...

قنع هٰذه المرّة بالكلام على ولعه بعائشة وشدّة استيائه لما حاق بها من ظلم، ولكنّه خاف أن يعلن رأيه صراحة أن تسيء خديجة فهمه أو تظنّ أنّ ثمّة علاقة بين هٰذا الرأي وبين ما ينشب بينهما كثيرًا من نقار بريء، وإلى هٰذا وذاك كان إحساسه الباطنيّ بأنّه نصف أخ فقط يقعده عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحسّاسة عن إبداء الرأي الخليق بجرح أحد من أفرادها... ولم تكن عائشة قد نبست بكلمة فقسرت نفسها على الكلام قسرًا أن يشي صمتها بآلامها التي صمّمت على إخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها مهما سامها ذٰلك من عذاب وتوتّر، بل أجمعت على إعلان الارتياح مجاراة لجوّ البيت الذي لا يعترف للعواطف بحقّ من حقوقها... والذي تُدارى فيه أهواء القلوب بأقنعة الزهد والرياء، فقالت:

ـ لا يصحّ أن أتزوّج قبل خديجة، والخير كلّ الخير فيما يرى أبي (ثمّ مبتسمة)... لماذا تتعجّلون الزواج؟... ومن أدراكم بأنّنا سنحظى في بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتي نحظى بها في بيت أبينا؟!

ولـمّا تواصل الحديث كشأنه كلّ مساء حول المدفأة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتّت نفسها، وكم في الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة التي تندفع مبسوطة الجناحين ـ كأنّما تنتفض حيويّة ونشاطًا ـ على حين يتدفّق الدم من عنقها مستصفيًا آخر قطرات الحياة.

على أنّها توقّعت هٰذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها، أن لا ثمّة غامض داعب أحلامها كما يداعبنا الأمل في كسب النمرة الأولى في اليانصيب الكبير... وقد تطوّعت أوّل الأمر للمعارضة في زواجها مدفوعة بأريحيّة الظفر والسعادة، وبالعطف على شقيقتها السيّئة الحظّ، الآن خمدت الأريحيّة ونضب العطف، فلم يبق إلّا الامتعاض والسخط واليأس. ليس لها من الأمر شيء. هٰذه إرادة الأب ولا معقّب لها، وما عليها إلّا الإذعان والاستسلام، بل عليها أكثر من هٰذا الرضى والارتياح، لأنّ محض الوجوم ذنب لا يغتفر، أمّا الاحتجاج فإثم لا يطيقه أدبها وحياؤها. أفاقت من سكرة السعادة الغامرة التي انتشت بها يومًا وليلة على يأس مظلم، ما أكثف الظلمة تجيء عقب النور الباهر، في تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة، ولكنّه يضاعف مرّات ومرّات بالحسرة على

النور الذاهب وتساءل نفسها إذا كان ثمّة نور أمكن أن يضيء مليًّا فلماذا لم يواصل الضياء، لماذا يخبو، لماذا خبا، فتكون حسرة جديدة تنضمّ إلى بقيّة الحسرات التي ينسجها الحزن حول قلبها منتزعًا إيّاها من ذكريات الماضي وواقع الحال وأحلام المستقبل، وعلى إغراقها في التفكير في هٰذا كلّه وحضوره ـ تبعًا لذٰلك ـ في شعورها فإنّها تعود تتساءل وكأنّها تتساءل لأوّل مرّة، وكأنّ الحقيقة المُرّة ترتطم بشعورها للمرّة الأولى: هل حقًّا خبا النور؟!

هل تمزّقت الأسباب بينها وبين الشابّ الذي ملأ قلبها وخيالها؟!

سؤال جديد رغم تكراره، وصدمة جديدة رغم نفاذها إلى العظام، ذٰلك أنّ الحسرة الكاوية لا تنفكّ يتنازعها اليأس المستقرّ في الأعماق والآمال المتطايرة في الهواء كلّما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير، ثمّ تعود فتستقرّ في الأعماق، ثمّ تطفو مرّة أخرى، وثالثة، حتّى تأوي إلى مستقرّها ـ وقد ودّعت النفس آخر آمالها ـ فلا تغادره إلى الأبد، انتهى كأن لم يكن، لا سبيل إليه أبدًا، ما أهون الأمر عليهم، عالجوه كما يعالجون أمور يومهم العاديّة مثل ماذا نأكل غدًا، أو حلمت ليلة أمس حلمًا غريبًا، أو رائحة الياسمين تملأ جوّ السطح، كلمة من هنا... كلمة من هناك... واقتراح يعلن ورأي يبسط، في هدوء وحلم غريبين، ثمّ تعزية باسمة، وتشجيع كأنّه الدعابة. ثمّ تغيّر الحديث وتشعّب، انتهى كلّ شيء، وأدرج في التاريخ الذي تنزل عليه الأسرة النسيان. أين قلبها من هٰذا كلّه؟!... لا قلب لها، لا يتصوّر وجوده أحد، لا وجود له في الواقع، ما أشدّ غربتها، ضائعة مفقودة، ليسوا منها وليست منهم، وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات، ولٰكن كيف تنسى أنّ كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها، كانت تكفي لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقًا جديدًا؟!... كلمة واحدة لا أكثر، لا تزيد عن لفظة «نعم» ثمّ تحدث المعجزة، لم تكن لتكلّفه إلّا عُشر ما تكلّف من جهد في المناقشة الطويلة التي انتهت إلى الرفض. ولٰكن لم تجْرِ بذاك مشيئته، وارتضى لها هٰذا العذاب كلّه، ومع أنّها كانت متألّمة حانقة ساخطة إلّا أنّ ألمها وحنقها وسخطها وقفت عند شخص أبيها وارتدّت عنه خائبة ارتداد الوحش الهائج إذا اعترضه مروّضه الذي يحبّه ويخافه، لم يسعها أن تحمل عليه، ولو في أعماق سريرتها، وظلّ قلبها على ولائه وحبّه فلم تضمر له إلّا الإخلاص والوفاء كأنّه إلٰه لا يجوز أن تقابل قضاءه إلّا بالتسليم والحبّ والوفاء.

شدّت الصغيرة ذاك المساء حبل اليأس حول عنقها الرقيق فآمن قلبها المتفتّح بأنّه نضب وأجدب إلى الأبد، وضاعف من توتّر أعصابها الدور الذي صمّمت على أن تمثّله بينهم، دور البِشْر واللامبالاة وما سامته نفسها من المشاركة في سمرهم حتّى ناءت هامتها الذهبيّة بحمله، وانقلبت الأصوات في أذنيها وقرًا، فما جاء وقت الانسحاب إلى حجرة النوم حتّى مضت في إعياء كالمرضى، وهناك في أمن من ظلمة الحجرة تجهّم وجهها لأوّل مرّة وعكس صورة صادقة من قلبها.

بَيْد أنّه لحق بها رقيب ـ خديجة ـ أيقنت من بادئ الأمر أنّ تصنّعها لن يجدي معها شيئًا وقد تحامت في المجلس نظراتها أمّا الآن ـ إذ جلست إليها ـ فلا مهرب منها ولا مفرّ. وتوقّعت أن تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف، وانتظرت تسلّل صوتها إلى أذنيها بين لحظة وأخرى، ورحّب قلبها بالحديث، لا لأنّه سيبعث رجاء جديدًا، ولٰكن لأنّها أملت وراء الاعتذار والحرج اللذين ستعلنهما الفتاة صادقة حتمًا شيئًا من العزاء. ولم يطل الانتظار فما لبث أن جاءها الصوت يشقّ الظلمة قائلًا:

ـ عائشة، إنّي حزينة آسفة، ولٰكن علم الله لا حيلة لي، وكم وددت لو تواتيني الشجاعة فأرجو أبي أن يعدل عن رأيه.

وتساءلت عمّا وراء هٰذا الكلام من صدق أو رياء منفعلة بثورة حنق ثارت بها لدى سماع النبرات الأسيفة مباشرة، ولٰكنّها اضطرّت إلى العودة إلى استعادة النبرات التي ظلّت تتحدّث بها في مجلس أمّها فقالت:

ـ فيمَ الحزن والأسف، ما أخطأ أبي وما ظلم ولا

داعي للعجلة!

ـ هٰذه ثاني مرّة يؤجّل زواجك بسببي!

ـ لست آسفة مطلقًا.

فقالت خديجة بلهجة ذات مغزًى:

ـ ولٰكن هٰذه المرّة غير المرّة الأولى.

أدركت الفتاة ما وراء هٰذه الكلمات بسرعة البرق، فخفق قلبها خفقان اللوعة والحسرة، وبكى ودًّا وحبًّا، ذٰلك الحبّ الكامن يثار بالإشارة تجيئه من الخارج عفوًا أو قصدًا كما يثار الجرح أو الدمّل باللمس والشكّ، وهمّت بالكلام ولٰكنّها أمسكت مضطرّة لأنّ أنفاسها لم تسعفها فخافت أن تفضحها نبراتها، وعند ذاك تنهّدت خديجة قائلة:

ـ لهٰذا تجدينني في غاية الحزن والأسف، ولٰكن ربّنا كريم، وما شدّة إلّا وبعدها الفرج، فعسى أن ينتظر ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم ممّا بدا.

وهتفت جوارحها: «يا ليت». أمّا لسانها فقال:

ـ سيّان عندي، الأمر أبسط ممّا تظنّين.

ـ أرجو أن يكون كذٰلك... إنّي جدّ حزينة وآسفة يا عائشة.

وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال في الشعاع الخافت الذي تسلّل من فرجة الباب فصاحت به خديجة في ضيق:

ـ لماذا جئت؟ وماذا تريد؟

فقال الغلام بصوت يشي باحتجاجه على سوء مقابلتها له:

ـ لا تنهريني... وأفسحي لي...

ووثب إلى الفراش وركع بينهما، ثمّ دسّ يدًا إلى واحدة ويدًا إلى الأخرى، وراح يدغدغهما ليهيّئ لحديثه جوًّا طيّبًا غير الجوّ الذي أنذرت به نهرة خديجة، ولٰكنّهما نترتا يديه، وقالتا بصوتين متتابعين:

ـ آن لك أن تنام، فاذهب ونم.

ولٰكنّه هتف في غيظ:

ـ لن أذهب حتّى أعرف ما جئت أسأل عنه!

ـ عمّ تسأل في هٰذه الساعة من الليل؟

فقال مغيّرًا لهجته حتّى تستجيبا له:

ـ أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا إذا تزوّجتما؟

فصاحت به خديجة:

ـ انتظر حتّى يجيء الزواج!

فتساءل في عناد:

ـ ولٰكن ما هو الزواج؟

ـ كيف أجيبك وأنا لم أتزوّج... اذهب ونَمْ الله لا يسيئك...

ـ لن أذهب حتّى أعرف.

ـ يا حبيبي توكّل على الله وفارقنا.

قال بصوت حزين:

ـ أريد أن أعرف هل تغادران البيت إذا تزوّجتما؟

فقالت في ضجر:

ـ نعم يا سيدي... ماذا تريد أيضًا؟

فقال في جزع:

ـ إذن لا تتزوّجا... هٰذا ما أريد...

ـ سمعًا وطاعة...

فعاد يقول في احتجاج ثائر:

ـ أنا لا أطيق أن تذهبا بعيدًا عنّا وسادعو الله ألّا يزوّجكما...

فهتفت:

ـ من فمك لباب السما... عال... عال... ربّنا يكرمك. تفضّل فارقنا مع السلامة...

٢٧

سرى في البيت شعور بأنّه يستقبل من حياته المرهقة بالتزمّت يوم راحة يستطيع ـ إذا شاء ـ أن يستروح فيها نسمة من الحرّيّة البريئة في أمن من الرقيب. فظنّ كمال أنّه غدا في حلّ من أن يقطع اليوم كلّه في اللعب داخل البيت أو خارجه، وتساءلت خديجة وعائشة ألا يمكن أن تنسلّا مساء إلى بيت مريم لقضاء ساعة في لهو ومرح؟ لم تجيء هٰذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء الكالح وحلول بشائر الربيع ملوّحة بالدفء والبشاشة، إذ ليس من شأن الربيع أن يهب هٰذه الأسرة حرّيّة يحرمها إيّاها الشتاء، ولٰكنّها جاءت نتيجة طبيعيّة لسفر السيّد أحمد إلى بور سعيد في مهمّة تجاريّة تدعوه كلّ

عدّة أعوام إلى السفر يومًا أو بعض يوم، واتّفق أن سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطلة الرسميّة بين أفراد الأسرة... وتجاوبت رغباتهم الظمأى إلى الحرّيّة في الجوّ الطليق الآمن الذي خلقه على غير انتظار رحيل الأب عن القاهرة كلّها، بيْد أنّ الأمّ وقفت من رغبة الفتاتين وجماح الغلام وقفة المتردّد، لأنّها كانت تحرص على أن تواظب الأسرة على سيرتها المألوفة، وأن تلتزم ـ في غياب الأب ـ الحدود التي تلتزمها في حضوره خوفًا من مخالفته أكثر منها اقتناعًا بوجاهة شدّته وصرامته، ولٰكنّها ما تدري إلّا وياسين يقول لها:

ـ لا تعارضي بالله... إنّنا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس، بل أريد أن أقول شيئًا جديدًا... لماذا لا تروّحين عن نفسك أنت؟!... ما رأيكم في هٰذا الاقتراح؟!

وتطلّعت إليه الأعين في دهشة ولٰكنّ أحدًا لم ينبس بكلمة، ولعلّهم ـ كأمّهم التي رمته بنظرة تأنيب ـ لم يحملوا قوله محمل الجدّ، إلّا أنّه استطرد قائلًا:

ـ لماذا تنظرين إليّ هٰكذا؟!... لم أخطئ في البخاري، وليس ثمّة جريمة والحمد لله، ما هو إلّا مشوار قصير ترجعين منه وقد ألقيت نظرة على جزء صغير من الحيّ الذي عشت فيه أربعين عامًا دون أن ترى منه شيئًا...

فتنهّدت المرأة متمتمة:

ـ سامحك الله...

فقهقه الشابّ قائلًا:

ـ عَلامَ يسامحني؟... هل اقترفت ذنبًا لا يُغتفر؟ والله لو كنت مكانك لمضيت من توّي إلى سيّدنا الحسين ألا تسمعين؟... حبيبك الذي تهيمين به على البعد وهو قريب، قومي إنّه يدعوك إليه...

وخفق قلبها خفقانًا لاحت آثاره في احمرار وجهها فخفضت رأسها لتخفي تأثّرها الشديد، انجذب قلبها إلى الدعاء بقوّة تفجّرت في نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من أحد ممّن حولها حتّى ياسين نفسه، كأنّما زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل، فلم تدرِ كيف استجاب قلبها للنداء، ولا كيف تطلّع بصرها إلى ما وراء الحدود المحرّمة، ولا كيف تراءت المغامرة ممكنة بل مغرية بل طاغية، أجل بدت زيارة الحسين عذرًا قويًّا ـ له صفة القداسة ـ للطفرة اليساريّة التي نزعت إليها إرادتها، ولٰكنّها لم تكن وحدها التي تمخّضت عنها نفسها إذ لبّت دعاءها في الأعماق تيّارات حبيسة متلهّفة على الانطلاق كما تلبّي الغرائز المتعطّشة للقتال نداء الدعاء إلى الحرب بحجّة الدفاع عن الحرّيّة والسلام. ولم تَدْرِ كيف تعلن عن استسلامها الخطير، ولٰكنّها نظرت إلى ياسين وسألته بصوت متهدّج:

ـ زيارة الحسين منية قلبي وحياتي... ولٰكن... أبوك؟

فضحك ياسين قائلًا:

ـ أبي في طريقه إلى بور سعيد ولن يعود قبل ضحى الغد، وبوسعك ـ زيادة في الحيطة ـ أن تستعيري ملاءة أمّ حنفي اللفّ حتّى إذا اتّفق أن رآك أحد وأنت تغادرين البيت أو وأنت تعودين إليه ظنّك زائرة...

وردّدت عينيها بين الأبناء في خجل وتهيّب كأنّها تنشد المزيد من التشجيع، فتحمّست خديجة وعائشة للاقتراح، وكأنّهما تعبّران بحماسهما عن رغبتهما الحبيسة في الانطلاق، وفرحتهما بزيارة مريم التي باتت ـ بعد هٰذا الانقلاب ـ في حكم المقرّر، وهتف كمال من أعماق قلبه:

ـ سأذهب معك يا نينة لأدلّك على الطريق...

وحدجها فهمي بنظرة عطف أثاره في نفسه ما طالعه في وجهها البريء من سرور حائر كسرور الطفل إذا مُنّي بلعبة جديدة فقال لها في تشجيع واستهانة:

ـ ألقي نظرة على الدنيا، لا عليك من هٰذا فإنّي أخاف أن تنسي المشي من طول لزومك للبيت! ..

وفي فورة الحماس جرت خديجة إلى أمّ حنفي ثمّ عادت بملاءتها، وتزاحمت الأصوات بالضحك والتعليق، فغدا اليوم عيدًا سعيدًا لا عهد لأحد به، واشترك الجميع ـ وهم لا يدرون ـ في الثورة على إرادة الأب الغائب. والتفّت الستّ أمينة في الملاءة وأسدلت البرقع الأسود على وجهها، ثمّ نظرت في المرآة فلم

تتمالك من أن تضحك طويلًا حتّى اهتزّ جذعها، وارتدى كمال بذلته وطربوشه وسبقها إلى فناء البيت، ولٰكنّها لم تتبعه، ركبها شعور الرهبة الذي يلازم المواقف الفاصلة، فرفعت عينيها إلى فهمي وتساءلت:

ـ ما رأيكم. هل أذهب حقًّا؟

فصاح بها ياسين:

ـ توكّلي على الله. . .

وتقدّمت منها خديجة ووضعت يدها على منكبيها ودفعتها برفق وهي تقول:

ـ الفاتحة أمانة. . .

ولم تزل تدفعها حتّى أوصلتها إلى السلّم، ثمّ رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع في أعقابها. . . ووجدت أمّ حنفي في انتظارها، فألقت الخادم على سيّدتها ـ أو بالأحرى على الملاءة الملتفّة بها ـ نظرة فاحصة، ثمّ هزّت رأسها هزّة انتقاديّة، وتقدّمت منها وأعادت لفّ الملاءة حول جسمها وعلّمتها كيف تمسك بطرفها في الوضع المناسب، فانقادت لها سيّدتها التي كانت ترتدي الملاءة اللفّ لأوّل مرّة، وعند ذاك ارتسمت ملامح قامتها وقدّها في تفصيل وسيم، تخفيه عادة جلابيبها الفضفاضة، فألقت خديجة عليها نظرة إعجاب باسمة وغمزت بعينها لعائشة وأغرقتا في الضحك. . .

ولاقت وهي تعبر عتبة الباب الخارجيّ إلى الطريق لحظة دقيقة جفّ لها ريقها فضاع السرور في نوبة القلق ووطأة الإحساس بالذنب، وتحرّكت في بطء وهي قابضة على يد كمال بحال عصبيّة، وبدت مشيتها مضطربة مخلخلة كأنّها عاجزة عن مبادئ المشي الأوّليّة، إلى ما اعتراها من حياء شديد، وهي تتعرّض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصاص المشربيّة ـ عمّ حسنين الحلّاق ودرويش بائع الفول والفولي اللبّان وبيّومي الشربتلي وأبو سريع صاحب المقلى ـ حتّى توهّمت أنّهم سيعرفونها كما تعرفهم ـ أو لأنّها تعرفهم ـ ووجدت مشقّة في تثبيت حقيقة بديهيّة في رأسها وهي أنّ عينًا منهم لم تقع عليها مدى الحياة، وعلى تلك الحال عبرا الطريق إلى درب قرمز لأنّه وإن يكن أقصر الطرق إلى جامع الحسين إلّا أنّه كان لا يمرّ ـ كطريق النحّاسين ـ بدكّان السيّد فضلًا عن خلوّه من الدكاكين وانقطاع المارّة عنه إلّا فيما ندر، وتوقّفت لحظة قبل أن توغل فيه، والتفتت صوب المشربيّة فرأت شبحي ابنتيها وراء ضلفة منها بينما رفعت ضلفة أخرى عن وجهي ياسين وفهمي الباسمين، فاستمدّت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها، ثمّ جدّت في السير ـ هي وغلامها ـ يقطعان الدرب المقفر في شيء من الطمأنينة، لم يغب عنها القلق ولا الإحساس بالذنب ولٰكنّهما تراجعا إلى حاشية الشعور الذي احتلّت مركزه عاطفة استطلاع حماسيّة نحو الدنيا التي يتراءى لها درب من دروبها وميدان من ميادينها وغرائب من مبانيها وعديد من أناسها، ووجدت سرورًا ساذجًا لمشاركة الأحياء في الحركة والانطلاق، سرور من قضت ربع قرن سجينة الجدران ما عدا زيارات معدودات لأمّها في الخرنفش ـ بضع مرّات في العام ـ تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيّد فلا تسعفها الشجاعة حتّى لاستراق النظر إلى الطريق. . . وجعلت تسأل كمال عمّا يصادفهما في طريقهما من مشاهد وأبنية وأماكن، والغلام يحدّثها في إسهاب مزهوًّا بدور المرشد الذي يقوم به، فهٰذا هو قبو قرمز المشهور الذي يجب ـ قبل الدخول فيه ـ تلاوة الفاتحة، وقاية من العفاريت التي تسكنه، وهٰذا ميدان بيت القاضي بأشجاره الباسقة وكان يسمّيه ميدان «ذقن الباشا» مطلقًا عليه اسم الزهر الذي يعلو أشجاره، أو يسمّيه أحيانًا أخرى «ميدان شنجرلي» ساحبًا عليه اسم بائع الشيكولاتة التركيّ، أمّا هٰذا البناء الكبير فهو قسم الجماليّة، ومع أنّ الغلام لم يجد به ما يستحقّ اهتمامه سوى السيف المدلّى من وسط الديدبان إلّا أنّ الأمّ ألقت عليه نظرة مليئة بحبّ الاستطلاع الخليق بمكان يقيم به الرجل الذي سعى إلى طلب يد عائشة، حتّى بلغا مدرسة خان جعفر الأوّليّة، التي قضى بها عامًا قبل التحاقه بمدرسة خليل آغا الابتدائيّة، فأشار إلى شرفتها الأثريّة وهو يقول «في هٰذه الشرفة كان الشيخ مهدي يلصق وجوهنا بالجدار

لأقلّ هفوة، ويركلنا بحذائه خمسًا أو ستًّا أو عشرًا كما يحلو له» ثمّ أومأ إلى دكّان يقع تحت الشرفة مباشرة وقال بلهجة لم يغب عنها مغزاها وهو يتوقّف عن السير «وهٰذا عمّ صادق بائع الحلوى»، ثمّ لم يقبل التزحزح عن موضعه حتّى أخذ قرشًا وابتاع به ملبنًا أحمر، انعطفا بعد ذٰلك إلى طريق خان جعفر فلاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجيّ لجامع الحسين، يتوسّطه شبّاك عظيم الرقعة محلًّى بالزخارف العربيّة، وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصّة كأسنّة الرماح فتساءلت والبِشْر يسجع في صدرها «سيّدنا الحسين؟» ولـمّا أجابها بالإيجاب مضت تقارن بين المنظر الذي تقترب منه ـ وقد حثّت خطاها لأوّل مرّة منذ غادرت البيت ـ وبين الصورة التي خلقها خيالها له مستعينًا في خلقه بنماذج من الجوامع التي في متناول بصرها كجامع قلاوون فوجدت الحقيقة دون الخيال لأنّها كانت تنفخ في الصورة طولًا وعرضًا على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها بَيْد أنّ هٰذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثّر شيئًا في فرحة اللقاء التي ثملت بها جوانحها. ودارا حول الجامع حتّى الباب الأخضر ودخلا في زحمة الداخلات. ولـمّا وطئت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأنّ بدنها يذوب رقّة وعطفًا وحنانًا، وأنّها تستحيل روحًا طائرًا يرفرف بجناحيه في سماء يسطع بجنباتها عَرف النبوّة والوحي فاغرورقت عيناها بالدمع الذي أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة حبّها وإيمانها وأريحيّة امتنانها وفرحها، وراحت تلتهم بأعين شيّقة مستطلعة، جدرانه وسقفه وعُمُده وأبسطته ونجفه ومنبره ومحاريبه، وإلى جانبها كان كمال ينظر إلى هٰذه الأشياء من ناحية أخرى خاصّة به ترى أنّ الجامع يكون مزارًا للناس في النهار والهزيع الأوّل من الليل، وبيتًا من بعد ذٰلك لصاحبه الشهيد يذهب فيه ويجيء مستعملًا ما فيه من أثاث على نحو ما يستعمل المالك ملكه، فيطوف بأرجائه ويصلّي في المحراب ويرتقي المنبر ويعلو النوافذ ليشرف على حيّه المحيط، وكم تمنّى حالـمًا لو ينسونه في الجامع بعد أن يغلق أبوابه فيمكنه أن يلقى الحسين وجهًا لوجه وأن يمضي في حضرته ليلة كاملة حتّى الصباح، وتخيّل ما يخلق به أن يقدّمه له عند اللقاء من آي الحبّ والخضوع وما يجدر به أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه بعد ذٰلك عنده من العطف والبركة، تخيّل نفسه وهو يقترب منه خافض الرأس فيسأله الشهيد برقّة «من أنت؟» فيجيبه وهو يقبّل يده «كمال أحمد عبد الجواد» ويسأله عن عمله فيقول له «تلميذ ـ ولن ينسى التنويه بتفوّقه ـ بمدرسة خليل آغا» ويسأله عمّا جاء به في هٰذه الساعة من الليل، فيجيبه بأنّه حبّ آل البيت عامّة والحسين خاصّة، فيبسم إليه عطفًا، ويدعوه إلى مرافقته في تجواله الليليّ، وعند ذاك يبوح له بأمانيه جملة قائلًا: «اضمن لي أن ألعب كما أشاء داخل البيت وخارجه، وأن تبقى عائشة وخديجة في بيتنا إلى الأبد، وأن تغيّر طبع أبي، وأن تمدّ في عمر أمّي إلى ما لا نهاية، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتي، وأن ندخل الجنّة جميعًا بغير حساب». . . هٰذا وتيّار الزائرات الزاحف في بطء يدفعهما رويدًا حتّى وجدا نفسيهما في مثوى الضريح، طالما تلهّفت أشواقها على زيارة هٰذا المثوى كما تتلهّف على حلم يستحيل تحقيقه في هٰذه الدنيا، ها هي تقف بين أركانه، بل ها هي لصق جدران الضريح نفسه، تشرف نفسها عليه خلال الدموع، وتودّ لو تتريّث لتتملّى مذاق السعادة لولا شدّة ضغط الزحام، ومدّت يدها إلى الجدران الخشبيّة، واقتدى كمال بها، ثمّ قرأ الفاتحة، ومسحت بالجدران وقبّلتها ولسانها لا يني عن الدعاء والتوسّل، ودّت لو تقف طويلًا أو تجلس في ركن من الأركان لتعيد النظر والتأمّل ثمّ لتعيد الطواف، ولٰكن خادم المسجد وقف للجميع بالمرصاد، لا يسمح لواحدة بالتلكّؤ ويحثّ المتباطئات، ويلوّح منذرًا بعصاه الطويلة، وهو يدعو الجميع إلى إتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة، ارتوت من المنهل العذب ولٰكنّها لم تطفئ ظمأها، وهيهات أن يَرْوى لها ظمأ، لقد أهاج الطواف حنينها فتفجّرت عيونه وسال وزخر ولن يزال يَنْشُد المزيد من القرب والابتهاج، ولـمّا وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه

انتزاعًا، وأودعته قلبها وهي توليه ظهرها، ثمّ مضت حسرى يعذّبها شعورها بأنّها تودّعه الوداع الأخير، بَيْد أنّ ما طبعت عليه من قناعة واستسلام آخذها على ما استسلمت له من الحزن فردُّها إلى تملّي ما ظفرت به من سعادة طارت بها هواجس الفراق، ودعاها كمال إلى مشاهدة مدرسته فمضيا إليها في نهاية شارع الحسين. ووقفا عندها مليًّا. ولـمّا أرادت الرجوع من حيث أتت أنذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع أمّه التي لم يحلم بمثلها من قبل فأبى التفريط فيها واستمات في الدفاع عنها فاقترح عليها أن يسيرا في السكّة الجديدة حتّى الغوريّة، ولكي يقضي على المقاومة التي بدت في صورة تقطيبة باسمة من وراء البرقع حلّفها بالحسين فتنهّدت. واستسلمت ليده الصغيرة، ومضيا يشقّان طريقهما في زحمة شديدة وبين تيّارات متلاطمة من السائرين في جميع الجهات ممّا لم تجد عُشر معشاره في الطريق الهادئ الذي جاءت منه فعلاها الارتباك، وأخذت تفقد نفسها في اضطراب شامل، ولم تلبث أن شكت إليه ما تلقى من عناء وإعياء، ولكنّ تهالكه على إتمام الرحلة السعيدة جعله يصمّ أذنيه عن شكاتها ويشجّعها على مواصلة السير ويلهيها عن متاعبها بلفت نظرها إلى الدكاكين والعربات والمارّة، وهما يقتربان في بطء شديد صوب منعطف الغوريّة، وعند ذاك المنعطف لاح لناظريه دكّان فطائر فسال لعابه وثبتت عيناه عليها لا تتحوّلان وراح يفكّر في وسيلة لإقناع أمّه بالدخول إلى الدكّان وابتياع فطيرة، وبلغا الدكّان وهو لا يزال يفكّر، ولكنّه ما يدري إلّا وأمّه تفلت من يده فالتفت نحوها في ذهول ورعب دون أن يبدي حراكًا ولكنّه على ذهوله ورعبه رأى بجانب عينه ـ في نفس الوقت تقريبًا ـ سيّارة تفرمل محدثة صوتًا عنيفًا ومرسلة وراءها ذيلًا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا أن انحرفت عنها مقدار شبر، وتعالى صياح وحدثت ضجّة وهرع الناس إلى المكان من جميع نواحي الطريق كما تهرع الصبيّة إلى صفّارة الحاوي فضربوا حولها حلقة غليظة بدت أعينًا مستطلعة ورءوسًا مشرئبّة وألسنة تهتف بكلام اختلطت أسئلته بأجوبته، وأفاق كمال من الصدمة بعض الشيء فراح يردّد عينيه بين أمّه الملقاة عند قدميه وبين الناس في حال ناطقة بالخوف والاستغاثة ثمّ ارتمى على ركبتيه إلى جانبها ووضع كفّه على منكبها وناداها بصوت تفتّتت نبراته بحرارة الرّجاء ولكنّها لم تستجب له فرفع رأسه مقلّبًا عينيه في وجوه الناس، ثمّ صرخ باكيًا في نحيب حارّ علا على الضجّة التي تكتنفه حتّى كاد يسكتها وتطوّع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها، وانحنى آخرون فوق أمّه مستطلعين بنظرات كمنت وراءها رغبتان: تنشد إحداهما السلامة للضحيّة، وتنزع الأخرى ـ في حال اليأس من السلامة ـ إلى أن ترى الموت ـ ذلك الحتم المؤجّل ـ وهو يطرق بابًا غير بابهم، وينتزع روحًا غير روحهم كأنّهم يودّون أن يقوموا بشبه بروفا آمنة لأخطر دور قضي عليهم جميعًا أن يختموا الحياة بلعبة، وصاح أحدهم قائلًا «صدمها باب السيّارة الأيسر في ظهرها»، وقال السائق الذي غادر السيّارة ووقف مختنقًا بجوّ الاتّهام الذي يطبق عليه «لقد انحرفت عن الطوار بغتة فلم أستطع أن أتفادى من صدمها، ولكنّي فرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة، ولولا رعاية الله لدستها»... وجاء صوت من المحدّقين إليها قائلًا «ما زالت تتنفّس... أغمي عليها فقط»، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطيّ قادمًا يترنّح سيفه بجنبه الأيسر «إنّها صدمة خفيفة... لم تتمكّن منها أبدًا. إنّها بخير... بخير يا جماعة والله...» ثمّ انتصبت قامة أوّل رجل تقدّم لفحصها وقال كأنّما يلقي خطبة «ابتعدوا ولا تمنعوا الهواء... فتحت عينيها... بخير... بخير والحمد لله!...» كان يتكلّم بابتهاج لا يخلو من زهو كأنّه هو الذي ردّ إليها الحياة، ثمّ تحوّل إلى كمال الذي غلبه بكاء عصبيّ فاسترسل فيه في انفعال لم تجد معه مواساة المواسين، تحوّل إليه وربّت على خدّه بحنان وقال له «حسبك يا بنيّ... أمّك بخير... انتظر... هلمّ ساعدني على إقامتها»... ولكنّ كمال لم يمسك عن البكاء حتّى رأى أمّه تتحرّك فمال نحوها ووضع يسراها على كتفه، وعاون الرجل

على إقامتها حتّى أمكن بجهد شديد أن تقف بينهما في إعياء وخَوَر وقد سقطت عنها الملاءة التي امتدّت بعض الأيدي لتعيدها إلى موضعها ـ بقدر الإمكان ـ حول كتفيها، ثم قدّم لها الفطاطريّ الذي وقعت الحادثة أمام دكّانه مقعدًا فأقعدوها عليه وجاءها بقدح من الماء فتجرّعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسيّة وهي تزفر زفرة عميقة. وجعلت تردّد أنفاسًا مضطربة بصعوبة وتنظر في وجوه المحدقين بها في ذهول وهي تتساءل «ماذا جرى؟... ماذا جرى؟... ربّاه لماذا تبكي يا كمال؟!» وعند ذاك اقترب الشرطيّ منها وسألها «هل بك سوء يا سيّدتي؟ وهل تستطيعين السير إلى القسم؟» فصدم اسم «القسم» عقلها فرجّها من الأعماق وهتفت بفزع «لماذا أذهب إلى القسم؟... لا أذهب إلى القسم أبدًا» فقال لها الشرطيّ «لقد صدمتك السيّارة فأوقعتك، فإذا كان بك سوء وجب أن تذهبي أنت وهٰذا السائق إلى القسم لتحرير المحضر» ولكنّها قالت وهي تلهث «كلّا... كلّا... لن أذهب... أنا بخير» فقال لها الشرطيّ «توكّدي ممّا تقولين، انهضي وامشي لنرى إن كان أصابك سوء»، ولم تتردّد عن النهوض ـ مدفوعة بالفزع الذي أثاره ذكر القسم ـ فنهضت وأصلحت ملاءتها ثمّ سارت تحت الأعين المستطلعة وكمال إلى جانبها ينفض عن الملاءة ما علق بها من تراب، ثمّ قالت للشرطيّ وهي ترجو أن تنتهي هٰذه الحال المؤلمة بأيّ ثمن «إنّي بخير... (ثمّ مشيرة إلى السائق)... دعوه... لا شيء بي» لم تعد تشعر بخوَر فيما ركبها من خوف، هالها منظر الناس المحدّقين بها، خاصّة الشرطيّ الذي يتقدّمهم، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوّبة نحوها من كلّ مكان متحدّية باستهانة بالغة تاريخًا طويلًا من التستّر والتخفّي فتخايلت لعينيها فوق هٰذا الجمع صورة السيّد وكأنّها تتفرّس في وجهها بعينين باردتين متحجّرتين منذرتين بما لا تطيق تصوّره من الشرّ، فلم تألُ أن قبضت على يد الغلام واتّجهت به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها أحد وما غيّبها منعطف الطريق حتّى شهقت من الأعماق وخاطبت كمال وكأنّما تخاطب نفسها «يا ربّي ماذا حدث؟ ماذا رأيت يا كمال؟ كأنّه حلم مفزع، خيّل إليّ أنّي أهوي من علٍ إلى هاوية مظلمة، وأنّ الأرض تدور تحت قدميّ، ثمّ غبت عن كلّ شيء حتّى فتحت عينيّ على ذٰلك المنظر المخيف، ربّاه... هل أراد حقًّا أن يذهب بي إلى القسم؟! يا لطيف يا ربّ... يا منجّي يا ربّ، متى نبلغ بيتنا؟! بكيت كثيرًا يا كمال لا دمعت عينيك أبدًا... جفّف عينيك بهٰذا المنديل حتّى تغسل وجهك في البيت... آه».

وتوقّفت عن السير بعد أن أوشكا أن يطويا طريق الصاغة، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلّص وجهها، فرفع كمال وجهه إليها منزعجًا وسألها:

ـ ماذا بك؟!

فأغمضت عينيها وهي تقول بصوت ضعيف:

ـ إنّي تعبة، تعبة جدًّا، لا تكاد تحملني قدماي، ادعُ أوّل عربة تصادفك يا كمال.

ونظر كمال فيما حوله فلم يرَ إلّا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذيّ الذي بادر إلى سوق العربة حتّى وقف بها أمامها واقتربت الأمّ منها متّكئة على كتف كمال ثمّ صعدت إلى سطحها بمعونته واعتمادًا على منكب الحوذيّ الذي وطّأه لها حتّى تربّعت وهي تتنهّد في إعياء شديد، وجلس كمال إلى جانبها ثمّ وثب الحوذيّ إلى المقدّمة ونخس الحمار بقبضة سوطه فمشى مشيته الوئيدة والعربة تترنّح وراءه مطقطقة... وتأوّهت المرأة متمتمة «ما أشدّ ألمي، عظام كتفي تتفكّك» هٰذا وكمال يرمقها في جزع وقلق... ومرّت العربة في طريقها بدكّان السيّد دون أن يعيراها التفاتًا، ومضى كمال يتطلّع إلى الأمام حتّى لاحت لعينيه مشربيّات البيت... لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة إلّا نهايتها المحزنة...

٢٨

فتحت أمّ حنفي الباب فأذهلها أن ترى سيّدتها متربّعة على عربة كارو، وقد ظنّت لأوّل وهلة أنّه رُبّما

يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة في العربة على سبيل اللهو فلاحت على وجهها ابتسامة ولٰكن إلى لحظة قصيرة إذ ما لبثت أن رأت عيني كمال المحمرّتين من البكاء فارتدّت عيناها إلى سيّدتها في انزعاج واستطاعت هٰذه المرّة أن تلمس ما تعاني من إعياء فندّت عنها آهة وهرعت إلى العربة هاتفة «ستّي، مالك، بُعْد الشرّ عنك» فقال الحوذيّ «تعب بسيط إن شاء الله، عاونيني على إنزالها» وتلقّتها المرأة بين ذراعيها، وسارت بها إلى الداخل وتبعهما كمال واجمًا محزونًا، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا في الفناء وكلتاهما تفكّر في دعابة تلقى بها القادمين فما راعهما إلّا أن تطلع عليهما أمّ حنفي من الدهليز الخارجيّ وهي تكاد تحمل الأمّ حملًا فندّت عنهما صرخة، وهرعتا إليها فزعتين وهما تهتفان:

ـ نينة... نينة... مالك!

وتعاونوا جميعًا على حملها، ولم تكفّ خديجة في أثناء ذٰلك عن أن تسأل كمال عمّا حدث حتّى اضطرّ الغلام إلى أن يغمغم في خوف بالغ:

ـ سيّارة!

ـ سيّارة!...

هٰكذا هتفت الفتاتان معًا مردّدتين الاسم الذي وقع من نفسيهما موقعًا مفزعًا فاق الاحتمال. فولولت خديجة هاتفة «يا خبر أسود... بُعْد الشرّ عنك يا نينة» أمّا عائشة فانعقد لسانها وأفحمت في البكاء، ولم تكن الأمّ غائبة عن الوجود وإن كانت من الإعياء في نهاية فهمست على إعيائها رغبة في تسكين اضطرابهما:

ـ إنّي بخير، لم يحدث سوء، ما بي إلّا تعب.

وتناهت الضجّة إلى ياسين وفهمي فخرجا إلى رأس السلّم، وأطلّا من فوق الدرابزين وما لبثا أن نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان عمّا حدث، ولم تملك خديجة إلّا أن تشير إلى كمال ليجيب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فاتّجه الشابّان إلى الغلام الذي عاد يغمغم بحزن وارتباك:

ـ سيّارة!

ثمّ انتحب باكيًا، وتحوّل الشابّان عنه مؤجّلين ما يلحّ عليهما من أسئلة إلى حين، وحملا الأمّ إلى حجرة الفتاتين وأجلساها على الكنبة، ثمّ سألها فهمي قلقًا معذّبًا:

ـ خبّريني عمّا بك يا نينة، أريد أن أعرف كلّ شيء.

ولٰكنّها مالت برأسها إلى الوراء ولم تنبس بكلمة ريثما تستردّ أنفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وأمّ حنفي وكمال حتّى فقد فهمي أعصابه فثار بهنّ ونهرهنّ حتّى أمسكن، ثمّ جذب كمال إليه ليستجوبه عمّا يريد، كيف وقع الحادث، وماذا فعل الناس بالسائق، وهل أخذوكما إلى القسم، وكيف كان حال الأمّ في أثناء ذٰلك كلّه، هٰذا وكمال يجيبه على أسئلته بلا تردّد وفي إسهاب، وعن أكثر التفاصيل، وكانت الأمّ تتابع الحديث بالرغم من وهنها فلمّا سكت الغلام استجمعت قواها وقالت:

ـ إنّي بخير يا فهمي، لا تزعج نفسك، كانوا يريدون أن أذهب إلى القسم فرفضت، ثمّ واصلت السير حتّى نهاية الصاغة وهناك خارت قواي فجأة، لا تنزعج، سأستردّ قواي بعد راحة قصيرة.

إلّا أنّ ياسين عانى ـ إلى انزعاجه للحادث ـ حرجًا شديدًا لأنّه كان المسئول الأوّل عن الرحلة المشئومة ـ بهٰذا وصفت بعد الحادث ـ فاقترح عليهم أن يستدعوا طبيبًا، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة رأي الآخرين، وارتعدت الأمّ لذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل لذكر القسم فرجَت فهمي أن يلحق بأخيه وأن يثنيه عن عزمه مؤكّدة له بأنّها ستبرأ دون حاجة إلى طبيب ولٰكنّ الشابّ رفض الإذعان لرجائها مبيّنًا لها أوجه الفائدة المنوطة بمجيئه، وفي أثناء ذٰلك تعاونت الفتاتان على نزع الملاءة عنها، وجاءتها أمّ حنفي بقدح ماء ثمّ أحاطوا بها جميعًا وهم يتفحّصون بقلق وجهها الذي علاه الشحوب ويسألونها مرارًا وتكرارًا عمّا تجد، وهي تحاول ما استطاعت أن تتظاهر بالهدوء أو أن تقنع بأن تقول إذا ألحّ عليها الألم «ثمّة ألم خفيف في كتفي اليمنى» ثمّ تستدرك قائلة «ولٰكن لم يكن من داعٍ لاستدعاء طبيب»، والحقّ أنّها لم ترتح

لاستدعائه أبدًا، لأنّها من ناحية لم تلقَ طبيبًا قطّ ـ لا لحصانة صحّتها فحسب ـ ولكن لأنّها نجحت دائمًا في مداواة ما يلمّ بها من توعّك أو انحراف بطبّها الخاصّ فلم تؤمن بالطبّ الرسميّ، إلى أنّه اقترن في ذهنها بالحوادث الخطيرة والخطوب الفادحة، ومن ناحية أخرى فقد شعرت بأنّ استدعاء الطبيب من شأنه أن يهوّل الأمر الذي تودّ له الستر والطيّ قبل عودة السيّد... ولم تألُ أن أفصحت لأبنائها من مخاوفها، ولكنّهم لم يهتمّوا في تلك اللحظة الدقيقة إلّا بشيء واحد، هو سلامتها.

ولم يغب ياسين أكثر من ربع ساعة لأنّ عيادة الطبيب كانت في ميدان بيت القاضي، ثمّ عاد يتقدّم الرجل الذي أدخل على الأمّ حال حضوره، وأخليت الغرفة فلم يبق بها معه إلّا ياسين وفهمي، وسأل الطبيب الأمّ عمّا تشكو فأشارت إلى كتفها اليمنى وقالت وهي تزدرد ريقها الذي جفّ من الخوف:

ـ أشعر هنا بألم.

وعلى هَدْي إشارتها، إلى ما حدّثه به ياسين في الطريق عن الحادث جملة، تقدّم لفحصها، وطال وقت الفحص في شعور الشابّين المنتظرين في الداخل، وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات القلب، وتحوّل الطبيب عن المصابة إلى ياسين قائلًا:

ـ كسر في الترقوة اليمنى، هٰذا كلّ ما هنالك.

وأحدثت «لفظة» الكسر ارتياعًا في الداخل والخارج، وعجب الجميع لقوله «هٰذا كلّ ما هنالك» كأنّ وراء الكسر شيئًا يتّسع له احتمالهم، على أنّهم وجدوا في ذات التعبير، واللهجة التي ألقى بها ما يغري بالطمأنينة فتساءل فهمي وهو بين الخوف والأمل:

ـ وهل هو شيء خطير؟

ـ كلّا ألبتّة، سأعيد العظم إلى سابق موضعه وأشدّه ولكن عليها أن تنام بضع ليالٍ وهي قاعدة مسندة الظهر إلى وسادة لأنّه سيتعذّر عليها أن تنام على الظهر أو الجنبين، وسوف يجبر الكسر وتعود إلى ما كانت عليه في ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر، لا داعي للخوف مطلقًا... والآن دعوني أعمل...

ومهما يكن من أمر فقد استروحوا نسمة سلام بعد أن جفّت منهم الحناجر، وبدا هٰذا الأثر واضحًا بين الجماعة خارج الحجرة فتمتمت خديجة:

ـ فلتحلّ بها بركة سيّدنا الحسين الذي ما خرجت إلّا لزيارته.

وكأنّما تذكّر كمال بقولها أمرًا هامًّا أُنسيه طويلًا فقال بدهشة:

ـ كيف أمكن أن يقع لها هٰذا الحادث بعد تبرّكها بزيارة سيّدنا الحسين؟

ولٰكنّ أمّ حنفي قالت ببساطة:

ـ ومن أدرانا بما كان يحدث لها ـ والعياذ بالله ـ لو لم تتبرّك بزيارة سيّدها وسيّدنا؟

ولم تكن عائشة قد أفاقت من أثر الصدمة فضاق صدرها بالحديث وهتفت برجاء حارّ:

ـ آه يا ربّي متى ينتهي كلّ شيء كأنّه لم يكن!

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة:

ـ ما الذي ذهب بها إلى الغوريّة؟! لو رجعت بعد الزيارة إلى البيت مباشرة لما حدث لها الذي حدث!

فدقّ قلب كمال خوفًا وانزعاجًا وتجسّم ذنبه لعينيه جريمة نكراء ولٰكنّه حاول التملّص من الشبهات فقال بلهجة تنمّ عن لوم:

ـ أرادت أن تتمشّى في الطريق وعبثًا حاولت أن أثنيها عن إرادتها.

فحدجته خديجة بنظرة اتّهام وهمّت بالردّ عليه ولٰكنّها أمسكت إشفاقًا وعطفًا على وجهه الذي علاه الاصفرار، ثمّ قالت لنفسها «حسبنا ما نحن فيه الآن».

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول للشابّين اللذين تبعاه:

ـ ينبغي أن أعودها يومًا بعد يوم حتّى يجبر الكسر، وكما قلت لكما لا داعي للخوف مطلقًا.

واقتحم الجميع الحجرة فرأوا أمّهم قاعدة في الفراش، مسندة الظهر إلى وسادة مكسورة وراءها ولم يكن ثمّة تغيير إلّا ارتفاع في كتف الفستان فوق منكبها

الأيمن وشي بالرباط الذي تحته، فهرعوا إليها وهتفوا:

ـ الحمد لله.

وكم اشتدّ بها الألم والطبيب يعالج الكسر فأنّت أنينًا متواصلًا، ولولا ما طبعت عليه من حياء لصرخت عاليًا، ولٰكن زايلها الآن الألم، أو هٰكذا بدا، وشعرت براحة نسبيّة وسكينة، بيد أنّ زوال حدّة الألم مكّنت لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت أن تفكّر في الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبها الخوف فقالت متسائلة وهي تردّد بينهم بصرًا زائغًا:

ـ ما عسى أن أقول لأبيكم إذا رجع؟

اعترض هٰذا السؤال ـ ساخرًا متحدّيًا ـ نسمات الطمأنينة التي سكنوا إليها كما تعترض الصخور الناتئة سبيل سفينة آمنة، على أنّه لم يجئ مفاجئة لوعيهم، بل لعلّه اندسّ في زحمة المشاعر الأليمة التي ورت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالخبر ولٰكنّه ضاع في زحمتها فتأجّل حسابه إلى حين، الآن قد عاد ليحتلّ الصدارة من نفوسهم، فلم يجدوا مهربًا من مواجهته، ورأوا بحقّ أنّه أشدّ عليهم وعلى أمّهم من الإصابة التي خرجت منها وشيكة الشفاء. وشعرت الأمّ ـ للصمت الذي قوبل به سؤالها ـ بعزلة المذنب إذا تخلّى عنه رفاقه حين انكشاف تهمته فتمتمت بنبرات شاكية:

ـ سيعلم حتمًا بالحادث، وسيعلم أكثر من هٰذا بخروجي الذي أدّى إليه.

ومع أنّ أمّ حنفي لم تكن دون أفراد الأسرة قلقًا ولا أقلّ إدراكًا لخطورة الموقف إلّا أنّها أرادت أن تقول كلمة طيّبة، تلطيفًا للجوّ من ناحية، ولأنّها كانت تشعر من ناحية أخرى بأنّ الواجب يقضي عليها ـ كخادم الأسرة القديمة الأمينة ـ بألّا تلوذ عند الشدائد بالصمت أن يظنّ بها عدم اكتراث، فقالت وهي أدرى ببعد قولها عن الواقع:

ـ إذا علم سيّدي بما وقع لك فلن يسعه إلّا أن يتناسى هفوتك حامدًا الله على نجاتك.

وقوبل قولها بالإهمال الذي يستحقّه عند قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية، إلّا أنّ كمال آمن به، وقال متحمّسًا وكأنّه يتمّ كلام أمّ حنفي:

ـ خصوصًا إذا قلنا له إنّ خروجنا كان لزيارة سيّدنا الحسين.

وردّدت المرأة عينيها الخابيتين بين ياسين وفهمي وتساءلت:

ـ ما عسى أن أقول له؟

فقال ياسين الذي هاضته شدّة مسئوليّته:

ـ أيّ شيطان أضلّني حين نصحت لك بالخروج، كلمة جرت على لساني وليّتها ما جرت، ولٰكن هٰكذا شاءت الأقدار لترمي بنا في هٰذا المأزق الأليم، على أنّني أقول لك بأنّنا سنجد ما نقوله، وأيًّا كان الأمر فلا ينبغي أن تشغلي فكرك بما سيكون. دعي الأمر لله، وحسْبك ما قاسيت في يومك من آلام ومخاوف.

تكلّم ياسين بحماس وعطف معًا، فصبّ سخطه على نفسه، وعطف على الأمّ عطف المتألّم لحالها، ومع أنّ كلامه لم يقدّم ولم يؤخّر إلّا أنّه روّح عن شعوره الضيق بالحرج، وأفصح به في نفس الوقت عمّا عساه يدور في عقول بعض ـ أو كلّ ـ من يقفون إلى جانبه فأغناهم عن الإفصاح عنه بأنفسهم إذ أنّ التجربة علّمته بأنّه أحيانًا ما يكون السبيل خير السبيل للدفاع عن النفس هو الهجوم عليها وأنّ الاعتراف بالذنب يغري بالصفح بقدر ما يغري الدفاع عنه بالغضب، وكان أخوف ما يخاف أن تنتهز خديجة الفرصة السانحة لتحمّله جهارًا مسئوليّة ما أدّت إليه مشورته وتتّخذها سبيلًا إلى مهاجمته فسبقها إلى غرضها قاطعًا عليها الطريق، ولم يكذب ظنّه فالحقّ أنّ خديجة كانت على وشك أن تطالبه ـ بصفته المسئول الأوّل عمّا وقع ـ بأن يجد لها مخرجًا، فلمّا ألقى خطابه استحيت من مهاجمته خاصّة وأنّها لا تهاجمه عادة إلّا على سبيل النقار لا الكراهة، بذٰلك تحسّن موقفه بعض الشيء ولٰكنّ الموقف العامّ بقي على سوئه، وظلّ كذٰلك حتّى خرجت خديجة من صمتها قائلة:

ـ لماذا لا ندّعي أنّها سقطت من السلّم؟

فتطلّعت إليها أمّها بوجه يتلهّف على النجاة من أيّ سبيل، وقلّبته بين فهمي وياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل، بيد أنّ فهمي تساءل في حيرة:

ـ والطبيب؟... سيعودها يومًا بعد يوم وسيقابل أبي بالضرورة.

ولكنّ ياسين أبى أن يغلق الباب الذي تسلّلت منه نسمة أمل حريّة بأن تستنقذه من آلامه ومخاوفه فقال:

ـ نتّفق مع الطبيب على ما ينبغي أن يقال لأبي؟

وتبودلت النظرات بين التصديق والتكذيب، ثمّ شاع في الوجوه البِشْر للإحساس المشترك بالنجاة وتغيّر الجوّ القاتم إلى جوّ بهيج كما تبدو وسط السحاب المكفهرّ فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتّى تشمل القبّة السماويّة في دقائق معدودات ثمّ تضيء الشمس، قال ياسين وهو يتنهّد:

ـ نجونا والحمد لله.

فقالت خديجة بعد أن استعادت في الجوّ الجديد نشاطها المألوف:

ـ بل نجوت أنت يا صاحب المشورة...

فقهقه ياسين حتّى اهتزّ جسمه الضخم وقال:

ـ أجل نجوت من عقرب لسانك، طالما توقّعت أن تمتدّ إليّ بين حين وآخر لتلسعني...

ـ ولكنّها هي التي أنقذتك، ومن أجل الورد يسقى العلّيق...

كادوا ينسون من فرحة النجاة أنّ أمّهم طريحة الفراش مكسورة الترقوة، ولكنّها هي نفسها كادت أن تنسى...

٢٩

فتحت عينيها فوقع بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفراش عند قدميها رانيتين إليها بعينين يتنازعهما الخوف والرجاء، فتنهّدت ثمّ التفتت صوب النافذة فرأت خصاصها ينضح بضوء الضحى فتمتمت كالمستغربة:

ـ نمت طويلًا...

فقالت عائشة:

ـ ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض لك جفن... يا لها من ليلة لن أنساها مهما امتدّ بي العمر...

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والألم فنطقت عيناها بالرثاء ـ لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا إلى جانبها طول الليل يبادلانها الألم والأرق ـ وتحرّكت شفتاها وهي تستعيذ بالله بصوت غير مسموع ثمّ همست قائلة فيما يشبه الحياء:

ـ شدّ ما أتعبتكما!...

فقالت خديجة بلهجة توحي بالدعابة:

ـ تعبك راحة، ولكن إيّاك وأن تعودي إلى إرعابنا... (ثمّ بنبرات غلبها التأثّر)... كيف هاجمك ذاك الألم المخيف؟!... لقد حسبتك استغرقت في النوم وأنت على أحسن حال، واستلقيت لأنام بدوري، وإذا بي أستيقظ على أنينك، ثمّ لم تمسكي عن آه... آه حتّى مطلع الفجر...

وتهلّل وجه عائشة بالتفاؤل وهي تقول:

ـ على أيّ حال أبشري، لقد أخبرت فهمي عن حالك حين سألني عن صحّتك في الصباح فقال لي إنّ الألم الذي انتابك دليل على أنّ العظم المكسور كان آخذًا في الالتئام...

وجذبها اسم فهمي من لجّة أفكارها فتساءلت:

ـ ذهبوا بسلامة الله؟

فقالت خديجة:

ـ طبعًا، كانوا يودّون محادثتك ليطمئنّوا عليك بأنفسهم ولكنّي لم أسمح لأحد بان يوقظك من النوم الذي لم تذخليه حتّى شيّبتنا...

فتنهّدت الأمّ في استسلام:

ـ الحمد لله على كلّ حال، ربّنا يجعل العواقب سليمة... في أيّ وقت نحن الآن؟...

فقالت خديجة:

ـ كلّها ساعة ويؤذن الظهر...

ودعاها تأخّر الوقت إلى أن تخفض عينيها متفكّرة ثمّ رفعتهما فإذا بهما تعكسان نظرة قلق، وتمتمت:

ـ لعلّه الآن في الطريق إلى البيت...

وأدركتا مَن تعني، ومع أنّهما شعرتا بدبيب الخوف في قلبيهما إلّا أنّ عائشة قالت بثقة:

ـ أهلًا به وسهلًا، لا داعي للقلق، اتّفقنا على ما

ينبغي أن يقال وانتهى الأمر...

ولكنّ اقتراب عودته أشاع في نفسها المهزولة القلق فتساءلت:

ـ تُرى هل يمكن التستّر على ما وقع؟

فقالت خديجة بصوت ارتفعت حدّته بنسبة قلقها المتزايد:

ـ ولِمَ لا؟... سنخبره بما تمّ الاتّفاق عليه فيمرّ الأمر بسلام...

تمنّت في تلك الساعة لو بقي ياسين وفهمي إلى جانبها ليشجّعاها، تقول خديجة سنخبره بما تمّ الاتّفاق عليه فيمرّ الأمر بسلام، ولكن هل يظلّ ما وقع سرًّا مغلقًا إلى الأبد... ألا تجد الحقيقة فرجة تنفذ منها إلى الرجل؟... كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة، ولا تدري أيّ مصير يتربّص بها... وردّدت عينيها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاها لتتكلّم حين دخلت أمّ حنفي مهرولة وهي تقول بصوت مهموس كأنّها تخاف أن يسمع خارج الحجرة:

ـ سيّدي جاء يا ستّي...

وخفقت قلوبهنّ في اضطراب. وجلت الفتاتان عن الفراش في وثبة واحدة ثمّ وقفتا حيال أمّهما يتبادلن جميعًا النظر صامتات حتّى غمغمت الأمّ:

ـ لا تتكلّما أنتما فإنّي أخاف عليكما مغبّة مخادعته، اتركا لي القول والله المُستعان...

وساد صمت مشحون بالتوتّر كالصمت الذي يركب أطفالًا في الظلام إذا قرع آذانهم وقع أقدام من يظنّونهم عفاريت يجوسون في الخارج، حتّى ترامى إليهنّ وقع أقدام السيّد على السلّم وهي تقترب فأزاحت الأمّ كابوس الصمت بمشقّة وغمغمت...

ـ إذا تركناه صعد إلى حجرته لم يجد أحدًا؟!...

ثمّ التفتت صوب أمّ حنفي قائلة:

ـ أخبريه بأنّني هنا، مريضة، ولا تزيدي...

وازدردت ريقها الجافّ، أمّا الفتاتان فمرقتا من الحجرة مستبقتين وغادرتاها وحيدة، ووجدت نفسها وكأنّها في عزلة عن العالم كلّه فاستسلمت للمقادير، وكثيرًا ما يبدو هٰذا الاستسلام في سلوكها ـ الأعزل من كلّ سلاح ـ كأسلوب من أساليب الشجاعة السلبيّة، واستجمعت فكرها لتتذكّر ما يجب قوله بيّد أنّ الشكّ في سلامة تدبيرها لم يزايلها قطّ وكَمَنَ في أعماق شعورها معلنًا عن ذاته بحال من القلق والتوتّر وتبدّد الثقة وجاءها وقع طرف عصاه على أرض الصالة فغمغمت «رحمتك يا ربّ وعونك» ثمّ تطلّع بصرها إلى الباب حتّى اعترضه جسمه الطويل العريض، ورأته وهو يدخل مقتربًا ملقيًا عليها نظرة متفحّصة من عينيه الواسعتين حتّى وقف في منتصف الحجرة وهو يتساءل بصوت خالتّه رقيقًا على غير عادته:

ـ مالك؟...

فقالت وهي تغضّ بصرها:

ـ حمدًا لله على سلامتك يا سيّدي، بخير ما دمت بخير...

ـ لكنّ أمّ حنفي قالت لي إنّك مريضة...

فأشارت بيسراها إلى كتفها وقالت:

ـ أصيب كتفي يا سيّدي لا أراك الله سوءًا...

فتساءل الرجل وهو يتفرّس في كتفها باهتمام وقلق:

ـ ماذا أصابه؟

حمّ الأمر، وجاءت الدقيقة الفاصلة، ما عليها إلّا أن تتكلّم، أن تنطق بكذبة النجاة، فتمرّ الأزمة بسلام وتستزيد من العطف المتاح، ورفعت عينيها وهي تتوثّب، فالتقت عيناها بعينيه، أو بالأحرى عيناها في عينيه، فاشتدّ وجيب قلبها، وتتابع بلا رحمة، هناك تبخّر ما جمعته في رأسها من رأي، وانتثر ما كتّلته في إرادتها من عزم، ورمشت عيناها في اضطراب وذهول، ثمّ رنت إليه بطرف حائر دون أن تنبس بكلمة، وعجب السيّد لاضطرابها فتعجّلها متسائلًا:

ـ ماذا حدث يا أمينة؟!

لا تدري ماذا تقول، كأنّه ليس لديها ما تقوله ولٰكن بات في حكم اليقين أنّه لم يعد بوسعها أن تكذب، أفلتت الفرصة دون أن تدري كيف، ولو أنّها أعادت المحاولة لخرجت من صدرها مبتورة مكشوفة، كانت كمن يسير وهو منوّم تنويمًا مغناطيسيًّا على حَبل إذا دُعي إلى إعادة مخاطرته وهو صاحٍ، وكلّما مرّت الثواني

غــاصت في الارتبـاك والهــزيمـة حتّى أشفَقت عــلى اليأس. . .

ـ لماذا لا تتكلّمين؟. . .

ها هي لهجته بدأت تنمّ عن نفاد صبر ولا يبعد أن تقعقع قريبًا بالغضب، ربّاه لشدّ ما هي في حاجة إلى العون، أيّ شيطان أغواها بتلك الخرجة المشئومة. . .

ـ عجبًا ألا تريدين أن تتكلّمي؟!. . .

وبـات السكوت فـوق طـاقتهـا فتمتمت بصـوت متهدّج مدفوعة باليأس والقهر:

ـ أخـطأت خطأً كبـيرًا يـا سيّـدي. . . صـدمتني سيّارة. . .

واتّسعت عينـا السيّد دهشـة ولاح فيهما انـزعـاج مقرون بالإنكار. . . وكأنّه بات يشكّ في صحّة قواها العقليّة، ولم تعد المرأة تحتمل التردّد وصمّمت على أن تبوح باعترافها كاملًا مهما تكن العواقب، كمن يقدم ـ مغامرًا بحياته ـ على إجراء عمليّـة جراحيّـة خطيرة ليتخلّص من آلام داء لا قِبَل له به، وتضاعف عند ذاك شعـورها بفـداحـة الـذنب وخـطورة الاعـتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تُغْنِ بإخفـاء نبراتـه الباكية إمّا لأنّه غلبها على صوتها أو لأنّها أرادت أن تبذل محاولة يائسة لاستدرار العطف. . .

ـ ظننت أن سيّـدنا الحسـين يدعـوني إلى زيـارتـه فلبّيت. . . ذهبت للزيـارة. . . وفي طـريق العــودة صــدمتني سيّارة. . . قضـاء الله يا سيّـدي. . . ولقد نهضـت من سقطتي دون معاونـة أحد (قـالـت العبارة الأخيرة بوضوح) ولم أشعر بادئ الأمر بأيّ ألم فحسبتني بخـير وواصلت السير حتّى عـدت إلى البيت، وهنـا تحرّك الألم فأحضروا لي الطبيب ففحص كتفي وقرّر أنّ به كسـرًا ووعد بأن يعودني يـومًا بعـد يوم حتّى يجبر الكسر، لقد أخطأت خطأً كبيرًا يا سيّدي وجـوزيت عليه بما أستحقّ. . . والله غفور رحيم. . .

أنصت السيّد إليها صامتًا جامدًا، لم تتحوّل عنها عيناه، ولم يَبْدُ في وجهه أثر ممّا يعتلج في صدره على حـين نكست هي رأسها في تخشّـع بحال من ينتـظر النطق بالحكم، وطال الصمت، واشتدّ، وشاعت في جوّه المنقبض نُذُر الخوف والوعيد، وتحيّرت من أمره لا تدري عن أيّ قضاء يتمخّض ولا إلى أيّ مصير يقذف بها، حتّى جاءها صوته وهو يقول في هدوء غريب:

ـ ومـاذا قال الـطبيب؟. . . هل ثمّـة خطر عـلى الكسر؟!

فالتفت رأسها صوبه بذهول. . . أجل توقّعت كلّ شيء إلّا أن يجود بهذا القـول اللطيـف، ولولا رهبـة الموقف لاستعادته لتتوكّد من صحّة ما سمعت، وغلبها التأثّر فطفرت من عينيها دمعتان غزيرتان فشدّت على شفتيهـا أن تفحم في البكـاء، ثمّ غمغمت في ذلّـة وانكسـار:

ـ قال الطبيب إنّه لا داعي للخوف مطلقًا، نجّاك الله من كلّ سوء يا سيّدي. . .

ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه إلى المزيد من السؤال حتّى تغلّب عليهـا فتحوّل عن موقفه ليغادر الحجرة وهو يقول:

ـ الزمي فراشك حتّى يأخذ الله بيدك. . .

٣٠

هـرعت خديجـة وعائشـة إلى الحجرة بعـد ذهاب الـدهما، ووقفتـا حيال أمّهـا تنـظران إليهـا بعينـين مستطلعتين تنطق نظراتها بالاهتمام والقلق، ثمّ لاحظتا احمرار عينيها من أثر البكاء، فوجمتا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم:

ـ خير إن شاء الله؟. . .

فلم تعـدُ الأمّ أن قالت بـاقتضـاب وهي تـرمش بعينيها ارتباكًا:

ـ اعترفت له بالحقيقة. . .

ـ الحقيقة!. . .

فقالت باستسلام:

ـ لم يسعني إلّا الاعتراف، فما كان من الممكن أن يخفى الأمر عليه إلى الأبد، وحسنًا فعلت. . .

فدقّت خديجة صدرها بيدها وهتفت:

ـ يا نهارنا الأسود. . .

على حين بهتت عائشة فحملقت في وجه أمّها دون

أن تنبس بكلمة، ولكنّ الأمّ ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء، وتورّد وجهها الشاحب وهي تستعيد ذكرى العطف الذي شملها به حين لم تكن تتوقّع منه إلّا غضبًا كاسحًا يعصف بها وبمستقبلها... أجل شعرت بزهو وحياء وهي تتهيّأ للحديث عن عطف السيّد عليها في محنتها وكيف نسي غضبه فيما اعتراه من تأثّر وإشفاق، ثمّ غمغمت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ كان بي رحيمًا أطال الله عمره، أنصت إلى قصّتي صامتًا، ثمّ سألني عن رأي الطبيب في خطورة الكسر وغادرني وهو يشير عليّ أن ألزم الفراش حتّى يأخذ الله بيدي.

وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق ولكن زايلهما الخوف سريعًا فتنهّدتا في ارتياح عميق وأضاء وجهاهما بالبشر، وهتفت خديجة:

ـ أرأيت بركة الحسين؟

وقالت عائشة بخيلاء:

ـ لكلّ شيء حدود حتّى غضب بابا، ما كان يسعه أن يغضب وهو يراها على هٰذه الحال، الآن عرفنا قيمتها عنده... (ثمّ مخاطبة أمّها في دعابة)... يا لك من أمّ محظوظة، هنيئًا لك التكريم والعطف!

فعاود وجه الأمّ التورّد وقالت بتلعثم وحياء:

ـ أطال الله عمره... (ثمّ متنهّدة) والحمد لله على النجاة!

وتذكّرت أمرًا فالتفتت إلى خديجة وقالت باهتمام:

ـ يجب أن تلحقي به لأنّه سيحتاج إلى خدمتك حتمًا...

وشعرت الفتاة ـ لما يركبها في محضر أبيها من الارتباك والاضطراب ـ كأنّها وقعت في شرك، فقالت محتدّة:

ـ ولماذا لا تذهب عائشة؟!

ولكنّ الأمّ قالت في عتاب:

ـ أنت أقدر على خدمته، لا تتلكّئي يا شابّة إذ ربّما يكون في حاجة إليك الآن...

وكانت تعلم أنّ احتجاجها لن يغني عنها شيئًا كما لا يغني عنها عادة كلّما دعيت إلى أداء واجب ترى الأمّ أنّها أقدر عليه من أختها، ولكنّها أصرّت على إعلانه كما تصرّ عادة على إعلانه في أمثاله من المواقف، مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب، وجريًا مع نزعتها العدوانيّة التي تجد من لسانها أطوع أداة وأحدّها، ثمّ لتحمل أمّها على إعادة القول بأنّها «أقدر على كيت وكيت من عائشة» كإقرار من أمّها وإنذار لشقيقتها وعزاء لها هي نفسها، والحقّ أنّه لو حدث أن عهدت بواجب من هٰذه الواجبات «الخطيرة» لعائشة دونها لثارت ثورة أشدّ ولحالت بينها وبينه، ما دامت تجد ـ في أعماق قلبها ـ أنّ القيام بهٰذه الواجبات حقّ من حقوقها وامتياز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لأمّها في البيت، ولكنّها أبت في الوقت نفسه أن تعترف جهارًا بأنّها تمارس ـ بالقيام بها ـ حقًّا من حقوقها ولكنّ واجبًا ثقيلًا تقبله مضطرّة، حتّى تُدعى إليه ـ إذا دُعيت ـ في حرج من الداعي، ولتحتجّ عليه ـ إذا احتجّت ـ في غضب يروّح عن نفسها، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذي تودّ، ثمّ ليحسب لها بعد ذٰلك كلّه جميلًا تستحقّ من أجله الشكر!... ولذٰلك غادرت الحجرة وهي تقول:

ـ في كلّ مأزق تنادين خديجة، كأنّه لا يوجد أمامك غير خديجة، ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة!

ولكنّ خيلاءها تخلّى عنها بمجرّد مغادرتها للحجرة وحلّت محلّه رهبة واضطراب فعجبت كيف يتأتّى لها أن تمثل بين يدي الرجل، وكيف تقوم على خدمته، وماذا تلقى منه إذا تلجلجت أو أخطأت! على أنّ السيّد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه، ولمّا وقفت بالباب تسأله عمّا هو في حاجة إليه أمرها بأن تصنع له فنجان قهوة، فبادرت تُعدّها ثمّ قدّمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء... ورجعت إلى الصالة فمكثت بها لتكون رهن إشارته إذا دعاها فلم يفارقها إحساس الرهبة حتّى تساءلت كيف يا ترى يمكنها أن تواصل خدمته طوال الساعات التي يقضيها في البيت يومًا بعد يوم حتّى تنقضي الأسابيع الثلاثة؟!... وبدا لها الأمر شاقًّا حقًّا وأدركت لأوّل مرّة خطورة الفراغ الذي تسدّه أمّها في البيت فدعت لها بالشفاء، حبًّا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من

ناحية أخرى...

ومن سوء حظّها أنّ السيّد شعر برغبة في الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب إلى الدكّان كما كانت تأمل، واضطرّت تبعًا لذلك أن تبقى في الصالة كالسجينة، وفي أثناء ذلك صعدت عائشة إلى الدور الأعلى وتسلّلت إلى الصالة حيث تجلس أختها، دون أن تحدث صوتًا لتريها نفسها وتغمز لها بعينيها على سبيل التنديد بحالها ثمّ تعود إلى أمّها تاركة إيّاها وهي تغلي من الغيظ إذ كان ممّا يحنقها أشدّ الحنق أن يعابثها أحد بالمزاح وإن لذّ لها هي أن تعابث الجميع، ولم تستردّ حرّيّتها ـ إلى حين طبعًا ـ إلّا عندما أسلم السيّد جنبه للنوم فطارت إلى أمّها وأنشأت تحدّثها عمّا قدّمت لأبيها من خدمات حقيقيّة ووهميّة وتصف لها ما قرأت في عينيه من آي العطف والتقدير لخدماتها!... ولم تنس أن تعرّج على عائشة فتنهال عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرّف صبيانيّ، ثمّ عادت إلى الأب بعد استيقاظه فقدّمت له الغداء، ولمّا فرغ الرجل من غدائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتًا غير قصير ثمّ دعاها إليه وطلب إليها أن تبعث له ياسين وفهمي بمجرّد رجوعهما إلى البيت...

وقلقت الأمّ للطلب وخافت أن يكون قد حزّ في نفس الرجل غضب مكظوم وأنّه يروم الآن ـ في الشابّين ـ متنفّسًا عن غضبه، ولمّا جاء ياسين وفهمي وعلما بما كان، ثمّ بُلّغا أمر أبيهما بمقابلته، دار بخاطرهما ما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا إلى حجرته وهما يتوجّسان خيفة، ولكنّ الرجل خيّب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألهما عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب. فحدّثاه طويلًا بما يعلمان وهو يصغي إليهما باهتمام، وفي النهاية سألهما:

ـ أكنتما في البيت حين خروجها؟

ومع أنّ هذا السؤال كان متوقّعًا من بادئ الأمر إلّا أنّه وقع من نفسيهما ـ بعد الهدوء العجيب غير المنتظر ـ موقع الانزعاج فخافا أن يكون مقدّمة لتغيير طبقة النغمة التي ارتاحا إليها ارتياح النجاة، ولم يسعهما الكلام فلاذا بالصمت... بيد أنّ السيّد لم يلحف في السؤال وكأنّه لم يعبأ بسماع الجواب الذي استنتجه مقدّمًا، أو لعلّه أراد أن يسجّل عليهما الخطأ بلا اكتراث بإقرارهما به... ولم يزد بعد ذٰلك على أن يشير إلى باب الحجرة آذنًا لهما بالانصراف، وعندما مضيا إلى الخارج سمعاه يقول مخاطبًا نفسه:

ـ ما دام الله لم يرزقني رجالًا فليهبني الصبر.

ومع أنّ الظواهر دلّت على أنّ الحادث قد هزّ نفس السيّد حتّى غيَّر المألوف من سلوكه تغيّرًا دهش له الجميع إلّا أنّه لم يستطع أن يثني إرادته عن قضاء سهرته الليليّة التقليديّة!... فما جاء المساء حتّى ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشرًا بين يديه شذًا طيّبًا، إلّا أنّه مرّ في طريقه إلى الخارج بحجرة الأمّ وسأل عنها فدعت له طويلًا ممتنّة شاكرة... لم ترَ في ذهابه إلى سهرته ـ وهي طريحة الفراش ـ تجافيًا للعطف، ولعلّها وجدت في مروره بها وسؤاله عنها تكريمًا فاق ما كانت تنتظر، بل أليس مجرّد امتناعه عن صبّ غضبه عليها منّة لم تكن تحلم بها؟... وكان الإخوة ـ قبل مبارحته حجرته ـ قد تساءلوا «تُرى هل يعدل الليلة عن سهرته؟» ولكنّ الأمّ أجابت قائلة «ولماذا يبقى بعد أن علم أنّ الحال مطمئنة؟!» ولعلّها تمنّت فيما بينها وبين نفسها لو يتمّ نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزوج أصيبت زوجه بما أصيبت هي به، ولكنّها كانت أدرى بطبعه فسبقته بانتحال العذر له حتّى إذا انطلق إلى سهرته كما تتوقّع أمكنها ـ مداراة لموقفها ـ أن تسوّغ انطلاقه بالعذر الذي انتحلت لا بقلّة الاكتراث. ولكنّ خديجة قالت «كيف يطيق السهر وهو يراك على هٰذه الحال؟» فأجابها ياسين «لا عليه إذا فعل ما دام قد اطمأنّ عليها، حزن الرجال غير حزن النساء، وذهاب الرجل إلى سهرته لا يتنافى مع حزنه، بل لعلّ التفريج عن نفسه واجب عليه ليتسنّى له مواصلة حياته الشاقّة». ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته في الانطلاق التي بدأت تتحرّك في أعماقه، إلّا أنّ مكره لم يَجُزْ على خديجة فسألته: «هل تطيق أنت مثلًا أن تسهر في قهوتك الليلة؟» فبادرها قائلًا وهو يلعنها في سرّه:

«طبعًا لا، ولٰكن أنا شيء وبابا شيء آخر!».

ولـمّا فارق السيّد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذي يعقب النجاة من خطر محقّق فتألّق محيّاها بابتسامة وقالت:

ـ لعلّه رأى أنّ جزائي كفاف ذنبي فعفا عنّي، عفا الله عنه وعنّا جميعًا...

فضرب ياسين كفًّا بكفّ وهو يقول محتجًّا:

ـ إنّ رجالًا غيورين مثله، منهم أصدقاء له، لا يرون بأسًا في السماح لنسائهم بالخروج كلّما دعت ضرورة أو مجاملة، فما باله يقيم لكُنَّ من البيت سجنًا مؤبّدًا؟!

فلحظته خديجة بهزء وسألته:

ـ لِمَ لَمْ تُلْقِ بدفاعك هٰذا وأنت بين يديه؟!

فانقلب الشابّ مقهقهًا حتّى ارتجّت كرشه ثمّ أجابها قائلًا:

ـ يلزمني مثل أنفك أوّلًا كي أدافع به عن نفسي عند الضرورة...

وتتابعت أيّام الرقاد، فلم يعاودها الألم الذي هصرها أوّل ليلة وإن تهدّد جذعها وكتفها الوجع لأقلّ حركة تأتيها، ثمّ تقدّمت نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القويّة وحيويّتها الدافقة التي تكره بطبعها السكون والقعود ممّا جعل الإذعان لأوامر الطبيب مهمّة شاقّة غطّى عذابها على آلام الكسر إبّان احتدامها، ولعلّها لولا تشدّد الأبناء في مراقبتها لخرقت وصايا الطبيب ونهضت عجلى لأمورها... على أنّ رقادها لم يمنعها من نشر الرقابة على شئون البيت من فراشها، ومراجعة الفتاتين بدقّة متعبة فيما يعهد إليهما به... خاصّة عن دقائق الواجبات التي تخاف عليها الإهمال أو النسيان، فتسأل وتلحّ في السؤال «هل نفضت أعلى الستائر؟... وخصاص الشبابيك؟... هل بخّرت الحمّام لأبيك؟.. هل سقيت اللبلاب والياسمين؟» الأمر الذي أحنق خديجة مرّة فقالت لها «اعلمي أنّك إذا كنت تعنين بالبيت قيراطًا فإنّي أعنى به أربعة وعشرين»... وإلى هٰذا كلّه أورثها تخلّيها الإجباريّ عن مركزها المرموق شعورًا معقّدًا عانت منه كثيرًا، فربّما تساءلت تُرى ألم يفقد البيت ـ أو أحد من أهله ـ بتخلّيها عنه شيئًا من نظامه أو راحته؟! وأيّهما يا تُرى أحبّ إليها، أن يبقى كلّ شيء كما كان بفضل فتاتيها ـ غرس يديها ـ أم أن يختلّ شيء من توازنه يكون خليقًا أن يذكّر الجميع بالفراغ الذي خلّفته وراءها؟! وهب السيّد بالذات استشعر هٰذا الفراغ فهل يكون ذاك مدعاة لتقديره لأهمّيّتها أو لسخطه على ذنبها الذي جرّ هٰذا كلّه؟! تحيّرت المرأة طويلًا بين عاطفتها المستحيية نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتيها، ولٰكنّ المحقّق أنّه لو اختلّ شيء من النظام لأحدث لها كربًا شديدًا، كما أنّه لو حافظ على كماله كأن لم يطرأ نقص لما خلت من ضيق...

أمّا الواقع فهو أنّ فراغها لم يسدّه أحد، وأثبت البيت أنّه أكبر من الفتاتين على نشاطهما وإخلاصهما... ولم تسرّ الأمّ لهٰذا لا في الظاهر ولا في الباطن، توارى شعورها نحو ذاتها، ودافعت عن خديجة وعائشة دفاعًا حارًّا صادقًا، ثمّ ركبها الجزع والألم فلم تعد تطيق صبرًا على انزوائها...

٣١

وفي فجر اليوم الموعود الذي انتظرته طويلًا هبّت من الفراش في خفّة صبيانيّة من الفرح كأنّها ملك يعود إلى عرشه بعد نفي... ونزلت إلى حجرة الفرن متداركة عادتها التي انقطعت عنها ثلاثة أسابيع فنادت أمّ حنفي، واستيقظت المرأة وهي لا تصدّق أذنيها، ثمّ نهضت إلى سيّدتها فعانقتها ودعت لها، ثمّ باشرتا عمل الصباح في سرور لا يوصف، وعند شروق أوّل شعاع للشمس صعدت إلى الدور الأوّل فتلقّاها الأبناء بالتهاني والقُبل، ثمّ مضت إلى حيث ينام كمال فأيقظته، وما فتح الغلام عينيه حتّى بهت دهشة وفرحًا، ثمّ تعلّق بعنقها ولٰكنّها بادرت إلى التخلّص من ذراعيه برقّة وهي تقول:

ـ ألا تخاف أن تردّ كتفي إلى ما كانت عليه؟...

فامطرها قبلًا ثمّ ضحك متسائلًا في خبث:

ـ متى يا عزيزتي نخرج معًا مرّة أخرى؟!

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم:

ـ عندما يهديك الله فلا تسوقني رغم إرادتي إلى الطريق الذي كدت أهلك فيه...!

وأدرك أنّها تشير إلى عناده الذي كان السبب المباشر فيما وقع لها فضحك ملء فيه ضحك مذنب واتته النجاة بعد أن ظلّ ذنبه معلّقًا فوق رأسه ثلاثة أسابيع، أجل لشدّ ما خاف أن يجرّ التحقيق الذي باشره إخوته إلى معرفة الجاني المستتر، وقد أوشكت الريبة التي سلّطتها عليه خديجة حينًا وياسين حينًا آخر تكشفه في الركن المنزوي فيه لولا صمود أمّه في الدفاع عنه وتصدّيها لتحمّل مسئوليّة الحادث وحدها، فلمّا انتقل التحقيق إلى يدي والده تناهى به الخوف وتوقّع بين لحظة وأخرى أن يدعى إلى مقابلته، هذا إلى عذابه ـ طوال الأسابيع الثلاثة ـ وهو يرى أمّه المحبوبة طريحة الفراش، شديدة العناء، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معًا... الآن مضى الحادث، ومضت في أثره عقابيله، وانتهى التحقيق، وعادت أمّه توقظه في الصباح، وسوف تنيمه في المساء، رجع كلّ شيء إلى أصله، ونشر الأمان ألويته، فحقّ له أن يضحك ملء فيه وأن يهنئ ضميره على الراحة المتاحة...

وغادرت الأمّ الحجرة فصعدت إلى الدور الأعلى، ولـمّا تدانت من باب حجرة السيّد ترامى إليها صوته وهو يردّد في صلاته «سبحان ربّي العظيم» فخفق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالمتردّدة، ثمّ وجدت نفسها تتساءل «أتدخل لتصبّح أو الأجدر أن تعدّ مائدة الفطور أوّلًا؟» لا على سبيل التساؤل حقًّا ولكن فرارًا ممّا شاع في نفسها من الخوف والخجل، أو كليهما معًا، كما يقع للإنسان أحيانًا أن يخلق مشكلة وهميّة يلوذ بها من مشكلة راهنة يشقّ عليه فضّها... ومضت إلى حجرة المائدة فأقبلت على العمل بعناية مضاعفة، إلّا أنّ قلقها تزايد، فلم تنتفع بمهلة التفكير التي اقتنصتها، ولم تجدها راحة كما أمّلت ولكن محنة انتظار أشدّ عناء من الموقف الذي نكصت عن مواجهته... وعجبت كيف جفلت من دخول «حجرتها» كأنّها كانت تهمّ بدخولها لأوّل مرّة، خاصّة وأنّ السيّد لم ينقطع عن زيارتها يومًا بعد يوم في أثناء رقادها، ولكن الحقّ أنّ برءها رفع عنها الحماية التي ضربها حولها المرض فشعرت بأنّها ستلقاه بمفردها لأوّل مرّة مذ كشفت خطيئتها... ولـمّا جاء الأبناء تباعًا خفّت وحشتها قليلًا، وما لبث أن دخل السيّد الحجرة في جلبابه الفضفاض ولكن لم يبْد في وجهه أثر لدى رؤيتها، وقال بهدوء وهو يتّجه إلى مكانه في المائدة:

ـ جئت؟ (ثمّ مخاطبًا الأبناء وهو يتّخذ مجلسه)... اجلسوا...

وأخذوا في تناول فطورهم على حين وقفت هي بمكانها المعتاد، ومع أنّ الخوف تناهى بها حال دخوله إلّا أنّها مضت تستردّ أنفاسها بعد ذلك، أي بعد أن تمّ أوّل لقاء بعد الشفاء ومرّ بسلام، وشعرت عند ذاك بأنّها لن تجد مشقّة في الانفراد به في حجرته عمّا قليل... وانقضت المائدة فعاد السيّد إلى حجرته، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينيّة القهوة التي وضعتها على الخوان وتنحّت جانبًا في انتظار فراغه من احتسائها لتساعده على ارتداء ملابسه. وحسا السيّد قهوته في صمت عميق، لا ذاك الصمت الذي يقع عفوًا أو كالراحة عقب التعب أو كغطاء لصدر فارغ من شئون الحديث، ولكنّه صمت صامت مسربل بالتعمّد، ولم تكن تعدم أملًا ـ ولو ضعيفًا ـ في أن يتعطّف عليها بكلمة رقيقة، أو في الأقلّ أن يلمّ بشأن من شئون حديثه المعتاد في مثل هذه الساعة من الصباح، فحيّرها صمته المتعمّد وعادت تسائل نفسها تُرى ألا يزال بنفسه شيء، وأخذ القلق ينشب إبره في قلبها مرّة أخرى، على أنّ الصمت الغليظ لم يمتدّ طويلًا... كان الرجل يفكّر في سرعة وتركيز لم يذق معهما طعمًا، لا ذاك التفكير الذي ينبعث من وحي الساعة، ولكن آخر عنيدًا قديمًا لم يزايل نفسه طوال الأيّام المنقضية... وأخيرًا تساءل دون أن يرفع رأسه عن فنجال القهوة الفارغ:

ـ استرددت صحّتك؟

فقالت أمينة بصوت خفيض:

ـ الحمد لله يا سيّدي.

فاستطرد الرجل قائلاً بمرارة:

ـ إنّي أعجب ـ وهيهات أن ينتهي لي عجب ـ كيف أقدمت على فعلتك!

فدقّ قلبها بعنف وأطرقت في وجوم. . . لم تكن تطيق غضبه وهي تدافع عن خطإ ارتكبه غيرها فكيف بها الآن وهي المذنبة!. . . وعقل الخوف لسانها ولكنّه بانتظار الجواب واصل حديثه متسائلاً في استنكار:

ـ أكنت مخدوعًا بك طوال هٰذه السنين وأنا لا أدري؟!

عند ذاك بسطت راحتيها في جزع وألم وهمست بأنفاس مضطربة:

ـ أعوذ بالله يا سيّدي، إنّ خطئي كبير حقًّا ولكنّي لا أستحقّ هٰذا القول.

ولكنّ الرجل واصل حديثه بهدوئه الرهيب الذي يهون إلى جانبه الزعيق قائلاً:

ـ كيف اقترفت هٰذا الخطأ الكبير! . . ألأنّي ابتعدت عن البلد يومًا واحدًا؟!

فقالت بصوت متهدّج وشت نبراته بالرجفة التي ملكت جسمها:

ـ أخطأت يا سيّدي، وعندك العفو، كانت نفسي تتوق إلى زيارة سيّدنا الحسين، وحسبت أنّ زيارته المباركة تشفع لي في الخروج ولو مرّة واحدة.

فهزّ رأسه في شيء من الحدّة كأنّما يقول «لا فائدة تُرجى من الجدال» ثمّ رفع إليها عينيه متجهّمًا ساخطًا وقال بلهجة لا تقبل المراجعة:

ـ ليس عندي إلّا كلمة واحدة! غادري بيتي بلا توانٍ.

هوى أمره على رأسها كالضربة القاضية فبهتت لا تنبس بكلمة ولا تستطيع حراكًا، طالما توقّعت في أشدّ أوقات محنتها ـ وهي تنتظر عودته من رحلة بور سعيد ـ ألوانًا من المخاوف، كأن يصبّ عليها غضبه أو يصمّها بزعيقه وسبابه، حتّى الضرب لم تستبعده، أمّا الطرد من البيت فلم يزعج لها خاطرًا، لا لشيء إلّا أنّها سكنت إلى معاشرته خمسًا وعشرين عامًا فلم تتصوّر أنّ ثمّة سببًا يمكن أن يفرّق بينها أو ينتزعها من البيت الذي صارت جزءًا منه لا يتجزّأ. . . أمّا السيّد فقد تخلّص ـ بكلمته الأخيرة ـ من عبء فكر دوّخ دماغه طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية. . وقد بدأ الصراع في اللحظة التي اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهي طريحة الفراش، لم يصدّق أذنيه لأوّل وهلة، ثمّ أخذ يفيق إلى نفسه وإلى الحقيقة البغيضة التي تطالعه متحدّية كبرياءه وصلفه، بيد أنّه أجّل حنقه ريثما يرى ما أصابها، أو أنّه ـ وهو الأصدق ـ لم يسعه أن يفكّر فيما تحدّى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حدّ الخوف والجزع على المرأة التي يألفها ويعجب بمزاياها فعطف عليها عطفًا أنساه خطأها وسأل الله لها السلامة، انكمش جبروته حيال الخطر المحدق بها واستيقظ ما تنطوي عليه نفسه من حنان موفور فعاد ـ يومذاك ـ إلى حجرته محزونًا مكتئبًا وإن لم يفصح وجهه. . إلّا أنّه مضى يستعيد طمأنينته وهو يراها تتماثل للشفاء بخطًى سريعة ثابتة، ومضى بالتالي يعيد النظر إلى الحادث كلّه ـ أسبابه ونتائجه ـ بعين جديدة أو بالأحرى بالعين القديمة التي اعتاد أن ينظر بها في بيته، فكان من سوء حظّ ـ حظّ الأمّ طبعًا ـ أن يعيد النظر في هدوء وهو خالٍ إلى نفسه، وأن يقتنع بأنّه إذا غلّب العفو ولبّى نداء العطف ـ وهو ما نزعت إليه نفسه ـ فقد أضاع هيبته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعًا وأفلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة التي يأبى إلّا أن يسوسها بالحزم والصرامة، وبالجملة لن يكون في تلك الحال أحمد عبد الجواد ولٰكن شخصًا آخر لن يرتضي أن يكونه أبدًا. . . أجل كان من سوء الحظّ أن يعيد النظر في هدوء وهو خالٍ إلى نفسه، إذ لو أتيح له أن ينفّس عن غضبه حين اعترافها لانفثأ حنقه ومرّ الحادث دون أن يسحب وراءه عواقب خطيرة، ولكنّه لم يسعه الغضب في وقته كما لم يكن ممّا يرضي كبرياءه أن يعلن غضبه عقب شفائها ـ بعد هدوء دام ثلاثة أسابيع ـ إذ أنّ هٰذا الغضب يكون أقرب إلى الزجر المتعمّد منه إلى الغضب الحقيقيّ، ولـمّا كانت حساسيّته الغضبيّة تستعر عادة من طبع وتعمّد معًا، ولـمّا كان الجانب الطبيعيّ منها لم يجد متنفّسًا في حينه

فقد وجب على الجانب المتعمّد ـ وقد أتيحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير ـ أن يجد وسيلة فعّالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب، وهٰكذا انقلب الخطر الذي تهدّد حياتها حينًا والذي أمّنها من غضبه بما أثار من عطفه أداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبير والتفكير. . . ونهض مقطّبًا فولّاها ظهره مستقبلًا ملابسه على الكنبة ثمّ قال بجفاء:

ـ سأرتدي ملابسي بنفسي.

كانت لم تزل متسمّرة في مكانها ذاهلة عمّا حولها فأفاقت على صوته، وسرعان ما أدركت من قوله ووقفته أنّه يأمرها بالانصراف فاتّجهت نحو الباب في خطًى لا وقع لها، وقبل أن تجاوزه أدركها صوته وهو يقول:

ـ لا أحبّ أن أجدك هنا إذا عدت ظهرًا.

٣٢

خارت قواها في الصالة فارتمت على طرف كنبة وكلماته القاسية الحاسمة تتردّد في باطنها، ليس الرجل هازلًا، ومتى كان هازلًا؟! ولم تستطع مبارحة مكانها ـ على رغبتها في الفرار ـ أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ريبة الأبناء الذين لا تحبّ لهم أن يستقبلوا يومهم أو يذهبوا إلى أعمالهم متجرّعين خبر طردها، وثمّة إحساس آخر ـ لعلّه الحياء ـ أقعدها عن أن تلقاهم في ذلّ المطرود وقرّرت أن تبقى حيث هي حتّى يغادر البيت، أو أن تأوي إلى حجرة المائدة وهو الأفضل حتّى لا تقع عليها عيناه إذا مضى إلى الخارج فتسلّلت إلى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلتة ساهمة واجمة. تُرى ماذا يعني؟ أيطردها إلى حين أم إلى الأبد؟ إنّها لا تصدّق أنّه ينوي تطليقها، هو أكرم من هٰذا وأنبل، أجل إنّه غضوب جبّار ولٰكن من الإسراف في التشاؤم أن تغيب عنها آي شهامته ومروءته ورحمته. وهل تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد؟ . . . وكيف عادها يومًا بعد يوم مستفسرًا عن صحّتها؟ . . . مثل هٰذا الرجل لا يهون عليه أن يخرّب بيتًا أو يكسر قلبًا أو ينزع أمًّا من بين أبنائها. وجعلت تدير هٰذه الأفكار في رأسها كأنّما لتدخل بها بعض الطمأنينة إلى نفسها المزعزعة، وألحّت في هٰذا إلحاحًا إن دلّ على شيء فعلى أنّ الطمأنينة لا تريد أن تستقرّ بنفسها كبعض المرضى الذين يزيدون تغنّيًا بقوّتهم كلّما ازدادوا إحساسًا بضعفهم إذ كانت لا تدري ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تغني الحياة لها لو خاب الرجاء ووقع المحذور. وترامى إلى أذنيها وقع عصاه على أرض الصالة وهو يمضي خارجًا فأطار أفكارها وأنصتت باهتمام تتابعه حتّى غاب وشعرت عند ذاك بألم جارح لحالها وسخطها على الإرادة المتحجّرة التي لم ترْعَ لضعفها حقًّا، ثمّ نهضت فيما يشبه الإعياء وغادرت الحجرة لتنزل إلى الدور الأوّل فجاءتها عند رأس السلّم أصوات الأبناء وهم ينزلون تباعًا فمدّت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت فهمي وكمال وهما يتابعان ياسين إلى الباب المفضي إلى الفناء، هناك غمزت خطرة من الحنان قلبها فأذهلته، وعجبت لنفسها كيف تركتهما يذهبان دون أن تودّعهما، أليست قد تحرّم عليها رؤيتهما. . . أيّامًا أو أسابيع؟ وربّما لا تراهما مدى العمر إلّا لمامًا كالغرباء؟ . . . وعاودها غمز الحنان متتابعًا وهي بموقفها من السلّم لا تريم، بيد أنّ قلبها ـ على امتلائه ـ كبر عليه أن يصدّق أن يكون هٰذا المصير الأسود نصيبها المقدور، لإيمانها اللانهائيّ بالله الذي حفظها في وحدتها الغابرة من العفاريت نفسها، ولثقتها برجلها التي تأبى أن تنهار، ولأنّها لم يصبها في حياتها الماضية شرّ خطير خليق بأن يسلبها الطمأنينة إلى الحياة الوادعة فمالت نفسها إلى اعتبار محنتها تجربة قاسية ستمرّ بها دون أن تنشب فيها، ووجدت خديجة وعائشة مشتبكتين في جدال كعادتهما ولٰكنّهما نزعتا عمّا كانتا فيه حين رأتا وجومها ونظرة عينيها الخابية، ولعلّهما خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تستردّ كامل صحّتها فسألتها خديجة في قلق:

ـ ماذا بك يا نينة؟

ـ لا أدري والله ماذا أقول. . . إنّي ذاهبة. . .

ومع أنّ العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محدودة

الهدف إلّا أنّها اكتسبت من نظرتها اليائسة ونبراتها الشاكية معنًى حالكًا ريعتا له فهتفتا معًا:

ـ إلى أين؟!

فقالت بانكسار وهي تشفق سلفًا من وقع كلامها من أذنيها بل ومن أذنيها هي نفسها:

ـ إلى أمّي.

فهرعتا إليها مذعورتين وهما تقولان:

ـ ماذا تقولين؟... لا تعيدي هٰذا القول... ماذا جرى؟!

وجدت في فزع فتاتيها عزاء ولٰكنّه كشأنه في مثل هٰذا الموقف فجّر أشجانها فقالت بصوت متهدّج وهي تمانع دموعها:

ـ لم يَنْسَ شيئًا ولم يَعْفُ (ردّدت هٰذا بأسًى دلّ على عمق حزنها)... كان يضمر لي الغضب ويؤجّله ريثما أبرأ، ثمّ قال لي غادري بيتي بلا توانٍ... وقال لي أيضًا لا أحبّ أن أجدك هنا إذا عدت ظهرًا (ثمّ بلهجة تنمّ عن عتاب أسيف وخيبة أمل) سمعًا وطاعة... سمعًا وطاعة...

فصاحت خديجة بحال عصبيّة:

ـ لا أصدّق. لا أصدّق، قولي قولًا آخر... ماذا جرى للدنيا؟!

وصاحت عائشة بصوت متهدّج:

ـ لن يكون هٰذا أبدًا، أهانت عليه سعادتنا جميعًا لهٰذا الحدّ؟!

وعادت خديجة تتساءل في حدّة وحنق:

ـ ماذا يقصد... ماذا يقصد يا نينة؟

ـ لا أدري، هٰذا قوله بلا زيادة ولا نقصان.

اكتفت أوّل وهلة بهٰذا القول، ولعلّها رغبت بالاقتصار عليه أن تستزيد من عطفهما وتتعزّى بجزعهما، ولٰكن غلبها الإشفاق من ناحية والرغبة في طمأنة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة:

ـ لا أظنّه يقصد أكثر من إبعادي عنكم أيّامًا عقابًا لي على ما فرط منّي.

فتساءلت عائشة محتجّة:

ـ أما كفاه ما وقع لك؟!

فتنهّدت الأمّ محزونة وغمغمت قائلة:

ـ الأمر لله... يجب الآن أن أذهب.

ولٰكن خديجة اعترضت سبيلها وهي تقول بصوت مختنق بالبكاء:

ـ لن ندعك تذهبين، لا تتركي بيتك، فلا أظنّه يصرّ على غضبه إذا عاد ووجدك بيننا.

وقالت عائشة برجاء:

ـ انتظري حتّى يعود فهمي وياسين، ولن يرضى أبي أن ينتزعك من بيننا جميعًا.

ولٰكنّها قالت فيما يشبه التحذير:

ـ ليس من الحكمة في شيء أن نتحدّى غضبه، فمثله من يلين بالطاعة ويشتدّ بالعصيان.

وهمّتا بالاعتراض مرّة أخرى ولٰكنّها أسكتتهما بإشارة من يدها واستطردت قائلة:

ـ لا جدوى من الكلام، لا بدّ من الذهاب، سأجمع ثيابي وأرحل، لا تجزعا، لن يطول افتراقنا، وسنجتمع مرّة أخرى إن شاء الله.

وانتقلت المرأة إلى حجرتها بالدور الثاني والفتاتان في أعقابها وهما تبكيان كالأطفال، وأخذت تخرج ملابسها من الصوان حتّى أمسكت خديجة بيدها وسألتها بانفعال:

ـ ماذا تفعلين؟

وشعرت الأمّ بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام أن تفضحها نبراتها، أن تستسلم للبكاء الذي صمّمت على مقاومته ما دامت بمرأى من ابنتيها، فأشارت بيدها كأنّها تقول «الحال يوجب أن أجمع ملابسي».

ولٰكنّ خديجة قالت بحدّة:

ـ لن تأخذي معك إلّا تغييرة واحدة... واحدة فقط.

فندّت عنها تنهّدة. ودّت تلك اللحظة لو يكون الأمر كلّه حلمًا مزعجًا، ثمّ قالت:

ـ أخاف أن تثور ثائرته إذا رأى ملابسي بمكانها!

ـ سنحفظها عندنا.

وجمعت عائشة الثياب إلّا تغييرة واحدة كما اقترحت أختها فأذعنت الأمّ لهما في ارتياح عميق كأنّ بقاء

ملابسها في البيت ممّا يثبت لها حقًّا في العودة إليه، ثمّ جاءت ببقجة وصرّت فيها الملابس التي سمح لها بها، وجلست على الكنبة لتلبس جوربها وحذاءها والفتاتان حيالها تنظران في حزن ذاهل حتّى رقّ قلبها لهما فقالت متكلّفة الهدوء:

ـ سيعود كلّ شيء إلى أصله، تشجّعا حتّى لا تستفزّا غضبه، إنّي أعهد إليكما بالبيت وآله ولي كلّ الثقة في كفاءتكما، ولا شكّ عندي في أنّك ستجدين من عائشة كلّ معاونة، قوما بما كنّا نقوم به معًا كما لو كنت معكما، كلتاكما شابّة خليقة بأن تفتح بيتًا وتعمّره.

ونهضت إلى ملاءتها فارتدتها وأسدلت على وجهها البرقع الأبيض في تمهّل متعمّد لتؤجّل ما استطاعت اللحظة الأخيرة المعذّبة المحيّرة ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية. لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع، ولم تُواتِ إحداهما الشجاعة على الارتماء في حضنها كما تودّ ومرّت الثواني محمّلة بالعذاب والقلق بيد أنّ المرأة المتجلّدة خافت أن يخونها تجلّدها فخطت خطوة نحوهما ومالت إليهما فقبّلتهما بالتتابع وهي تهمس:

ـ تشجّعا، ربّنا معنا جميعًا.

هنالك تعلّقتا بها وأفحمتا في البكاء.

وقد غادرت الأمّ البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعها وهو يتميّع...

٣٣

طرقت باب البيت القديم وهي تفكّر ـ بألم وحياء معًا ـ فيما سيحدثه مجيئها مغضوبًا عليها من الانزعاج والكدر، وكان الباب يفتح على عطفة مسدودة متفرّعة من شارع الخرنفش تنتهي بزاوية أقيمت بها الصلاة عهدًا طويلًا ثمّ هجرت من أعوام لقدمها ولكن بقيت آثارها المتهدّمة لتذكّرها ـ كلّما زارت أمّها ـ بطفولتها حين كانت تنتظر ببابها أباها حتّى يفرغ من صلاته ويعود إليها، وحين تمدّ رأسها داخلها في أوقات الصلاة لتلهو بمنظر الركّع السجود، أو حين تتفرّج على بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيما يليها من العطفة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار. ولمّا فتح الباب أطلّ منه رأس جارية سوداء في العقد الخامس، ما إن رأت القادمة حتّى تهلّل وجهها وهتفت مرحّبة بها، ثمّ تنحّت جانبًا لتوسع لها فدخلت أمينة، ولبثت الخادم بموقفها كأنّها تنتظر دخول قادم آخر فأدركت أمينة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض:

ـ أغلقي الباب يا صديقة...

فتساءلت الجارية بدهشة:

ـ ألم يأتِ السيّد معك؟

فهزّت رأسها بالنفي متجاهلة دهشتها ومضت ـ عابرة فناء البيت الذي تتصدّره حجرة الفرن وتقع البئر في ركنه الأيسر ـ إلى سلّم ضيّق فرقيته إلى الدور الأوّل والأخير. ثمّ اجتازت دهليزًا إلى حجرة أمّها ودخلت، رأت أمّها متربّعة على كنبة في صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلّية في حجرها، متّجهة العينين صوب الباب في تطلّع أثاره بلا ريب طرق الباب ثمّ وقع القدمين المقتربتين، ولمّا تدانت أمينة منها تساءلت:

ـ من...؟

وافترّ ثغرها وهي تتساءل عن ابتسامة خفيفة تنمّ عن البِشْر والترحاب، كأنّما حدست هويّة القادم، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن:

ـ أنا أمينة يا أمّي...

فألقت العجوز بساقيها إلى الأرض وتحسّست بقدميها موضع الشِبْشِب حتّى عثرت عليه فدسّتهما فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة في شوق فرمت أمينة بالبقجة إلى طرف الكنبة وانطوت بين ذراعي أمّها وهي تقبّل جبينها وخدّيها والأخرى تلثم ما يتّفق وقوع شفتيها عليه من الرأس والخدّ والعنق، ولمّا انتهى العناق ربّتت العجوز على ظهرها بحنان ثمّ لبثت بموقفها متطلّعة صوب الباب وعلى شفتيها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديد، كما فعلت صديقة من قبل

فأدركت أمينة للمرّة الثانية ما تعنيه هٰذه الوقفة وقالت باستعاض واستسلام:

ـ جئت وحدي يا أمّي...

فتحوّل الرأس إليها كالمتسائل، وتمتمت المرأة:

ـ وحدك؟!... (ثمّ مبتسمة ابتسامة متكلّفة لتطرد ما انتابها من قلق) سبحان الذي لا يتغيّر!

وتراجعت إلى الكنبة فجلست وهي تتساءل بلهجة أفصحت هٰذه المرّة عن قلقها:

ـ كيف الحال؟... لماذا لم يحضر معك كعادته؟

فجلست أمينة إلى جانبها وهي تقول بلهجة التلميذ الذي يعترف برداءة إجاباته في الامتحان:

ـ إنّه غاضب عليّ يا أمّي...

ورمشت الأمّ واجمة ثمّ تمتمت بنبرات حزينة:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قلبي لا يكذّبني أبدًا، وقد انقبض وأنت تقولين لي «جئت وحدي يا أمّي» ترى ماذا هيّج غضبه على ملاك كريم مثلك لم يَحْظَ رجل به قبله؟!... خبّريني يا بنتي...

فقالت أمينة متنهّدة:

ـ زرت سيّدنا الحسين في أثناء سفره إلى بور سعيد...

فتفكّرت الأمّ في حزن وكآبة ثمّ تساءلت:

ـ وكيف علم بأمر الزيارة؟

حرصت أمينة من بادئ الأمر على ألّا تشير إلى حادث السيّارة رحمة بالعجوز من ناحية وتحفّظًا من المسئوليّة من ناحية أخرى، ولهٰذا أجابتها بما أعدّته سلفًا لهٰذا السؤال قائلة:

ـ لعلّ أحدًا رآني فوشى بي عنده...

فقالت العجوز بحدّة:

ـ لا يعرفك أحد من البشر إلّا من اختلط بك داخل بيتك، ألم تشكّي في أحد؟... هٰذه المرأة أمّ حنفي؟! أو ابنه من المرأة الأخرى؟

فبادرتها أمينة قائلة بثقة ويقين:

ـ لعلّ جارة رأتني فأخبرت زوجها بحسن نيّة فأعاد الرجل الخبر على مسمع السيّد غير مقدّر لخطورة عواقبه، ظنّي ما تشائين إلّا الشكّ في أحد من أهل بيتي...

فهزّت العجوز رأسها في حيرة وشكّ وأنشأت تقول:

ـ طول عمرك سليمة الطويّة، الله وحده هو المطّلع وهو الكفيل بردّ كيد الكائد، ولٰكن زوجك؟... الرجل العاقل... الداخل على الخمسين... ألم يجد وسيلة لإعلان غضبه إلّا طرد عشيرة العمر من بين أولاده؟!... سبحانك يا ربّ... الناس تكبر تعقل ونحن نكبر نتهوّر، هل من الكفر أن تزور امرأة فاضلة سيّدنا الحسين! ألا يسمح أصدقاؤه، وهم لا يقلّون عنه غيرة ورجولة، لزوجاتهم بالخروج لمختلف الأغراض؟!... أبوك نفسه الذي كان شيخًا من حملة كتاب الله كان يأذن لي في الذهاب إلى بيوت الجيران للتفرّج على المحمل.

وغلب الصمت والكآبة مليًّا حتّى التفتت العجوز ناحية ابنتها وعلى شفتيها ابتسامة عتاب حائرة ثمّ تساءلت:

ـ أيّ شيء أغراك بعصيانه بعد ذاك العمر الطويل من الطاعة العمياء؟!... لشدّ ما يحيّرني هٰذا... إذ مهما يكن من حميّة طبعه فهو زوجك ومن السلامة الحرص على طاعته من أجل راحتك وسعادة الأولاد، أليس كذٰلك يا ابنتي؟... أعجب شيء أنّني لم أجدك يومًا في حاجة إلى نصح ناصح...!!

فندّت عن أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء، وغمغمت:

ـ تحكّم الشيطان!

ـ عليه لعنة الله، أيزلّ اللعين قدميك بعد خمسة وعشرين عامًا من الوئام والسلام!... ولٰكنّه هو الذي أخرج أبانا آدم وأمّنا حوّاء من الجنّة!.. لشدّ ما يحزنني يا ابنتي، ولٰكنّها سحابة صيف ثمّ تنقشع ويعود كلّ شيء إلى أصله... (ثمّ وهي كأنّها تحادث نفسها) ماذا كان عليه لو استوصى بالحلم؟!... ولٰكنّه رجل، ولن يخلو رجل من عيوب تخفي عين الشمس... (ثمّ بلهجة ترحيب وسرور متكلّفة) اخلعي ملابسك

إلى اختيار أمر من اثنين: فإمّا أن تسمح للغرباء بأن يسكنوه وهو أعزّ شيء لديها بعد ابنتها وأحفادها، وإمّا أن تتركه مهجورًا فتتّخذه العفاريت ملعبًا بعد أن ظلّ طوال عمره مقامًا لشيخ من حملة كتب الله هو زوجها، إلّا أنّ انتقالها إلى بيت السيّد كان خليقًا بأن يخلق لها مشاكل معقّدة لا تفضّ في نظرها بميسور الحلول لأنّها ما انفكّت تُسائل نفسها وقتذاك أتقبل ضيافته بدون مقابل وهو ما لا ترتاح إليه بحال، أم تنزل له عن معاشها لقاء إقامتها في بيته وهو ما يقلق غريزتها في الامتلاك التي أضحت ـ مع الكبر ـ عنصرًا جوهريًّا من عناصر «وسوستها» العامّة؟!

بل قد توهّمت أحيانًا عند إلحاحه عليها في الانتقال إلى بيته أنّه يضمر نيّة استغلاليّة نحو معاشها وبيتها الذي سيخلو بعد انتقالها ففزعت إلى الرفض لحدّ العناد الأعمى ولـمّا نزل السيّد عند إرادتها قالت له بارتياح «لا تؤاخذني بإصراري يا ابني، ربّنا يكرمك بما أوليتني من عطف، ألا ترى أنّه لا يسعني أن أهجر بيتي؟... وما أجدرك أن تجاري عجوزًا مثلي على علّاتها بَيْد أنّي أستحلفك بالله إلّا ما سمحت لأمينة والأولاد بزيارتي الحين بعد الحين بعد أن أمسى خروجي من البيت متعذّرًا» وهٰكذا بقيت في بيتها كما أرادت متمتّعة بسيادتها وحرّيّتها وكثير من عادات الماضي العزيز. وإذا كان بعض هٰذه العادات، كالمغالاة الشاذّة في الاهتمام بشئون البيت والمال، ممّا يتنافى مع هدوء الشيخوخة الحكيمة وتسامحها، وبالتالي ممّا يبدو كعارض من أعراض الهرم الانتكاسيّة، فثمّة عادة أخرى ممّا حافظت عليه جديرة بأن تزيّن الشباب، وبأن تضفي على الشيخوخة جلالًا، تلك هي العبادة. كانت ولم تزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها، رضعتها صغيرة في كنف أب شيخ من شيوخ الدين، وتغلغلت في أعماقها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعًا وتقوى. وظلّت تمارس بحبّ وإخلاص غير مفرّقة في إخلاصها بين ما هو دين حقًّا وما هو خرافة خالصة حتّى عرفت بين جاراتها بالشيخة المباركة. صديقة الجارية وحدها هي التي عرفتها بخيرها وشرّها، فربّما قالت لها على أثر مشادّة ممّا ينشب بينهما «يا ستّي أليست العبادة أولى بوقتك من الشجار والنقار على التافة من الأمور!؟» فتجيبها محتدّة «يا لئيمة إنّك لا توصيني بالعبادة حبًّا فيها ولٰكن كي يخلو لك مجال العبث والإهمال والقذارة والسلب والنهب، إنّ الله يأمر بالنظافة والأمانة فمراقبتك ومحاسبتك عبادة وثواب!» ولأنّ الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما أبوها ومن بعده زوجها إلى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله في صدريهما، ولعلّها ذكرت هٰذا حين خاطبت أمينة مواسية ومشجّعة فقالت:

ـ ما أراد السيّد بإخراجك من بيتك إلّا إعلان غضبه على مخالفتك لأمره ولكنّه لن يجاوز حدود التأديب، أجل لن يحيق سوء بمن كان لها أب كأبيك أو جدّ كجدّك...

وابتلّ صدر أمينة بذكر أبيها وجدّها كما يبتلّ صدر المنقطع به الطريق في الظلمات إذا ترامى إليه صوت الغفير وهو يهتف «هوه» فأمن قلبها بقول أمّها لا لتلهّفها على الطمأنينة فحسب، ولٰكن لإيمانها قبل كلّ شيء ببركة الشيخين الراحلين، فلم تكن إلّا صورة من أمّها في حسّها وإيمانها وجلّ طباعها. وانثالت على وجدانها في تلك اللحظة ذكريات أبيها الذي أفعم قلبها وليدة بالحبّ والإيمان-فدعت الله أن ينتشلها من ورطتها إكرامًا لبركته. وعادت العجوز إلى مواساتها فقالت وعلى شفتيها الجافّتين ابتسامة رقيقة:

ـ إن الله يرعاك دائمًا برحمته، اذكري عهد الوباء لا أرجعه الله وكيف نجّاك الله من شرّه فقضى أخواتك ولم يمسّك سوء!

غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت، وتفرّست في غبش من الماضي كاد يمحوه النسيان فوضحت ـ بعض الوضوح ـ من خليط الذكريات صورة أحيت في نفسها أصداء من عهد الرعب، وهي صبيّة تحجل خارج أبواب غلقت على أخوات مستلقيات على أسرّة المرض والموت، وهي وراء النافذة تنظر إلى سيل من النعوش

واستريحي، لا تجزعي، ماذا يضيرك من قضاء عطلة قصيرة مع أمّك في الحجرة التي ولدت فيها؟!

فجرى بصرها في غير اكتراث على الفراش القديم الذي حال لون عمده، والسجّادة البالية التي انجرد وبرها ونسلت أطرافها وإن بقيت رسوم ورودها حافظة لحمرتها وخضرتها، ولكنّ صدرها ـ لما ران عليه من فرقة الأحباب ـ لم يكن مهيّئًا لتلقّي موجات الذكريات، فلم تُهج دعوة أمّها في قلبها الحنان الذي تهيجه عادة ذكريات متباعدة لهذه الحجرة وهي قريرة العين، ولم يسعها إلّا أن تتنهّد قائلة:

ـ ما بي إلّا قلق على الأولاد يا أمّي...

ـ إنّهم في رعاية الله، ولن يطول بُعدك عنهم بإذن الرحمٰن الرحيم...

قامت أمينة لتخلع ملاءتها على حين انسحبت صديقة ـ حزينة أسيفة لما سمعت ـ من موقفها عند مدخل الحجرة الذي لزمته أثناء الحديث، ثمّ عادت المرأة إلى مجلسها جنب أمّها وما لبثتا أن قلبتا الحديث ظهرًا لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكأنّ في تقابلهما جنبًا لجنب ما يدعو إلى تأمّل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم، كأنّهما شخص واحد وصورته المنعكسة في مرآة المستقبل أو نفس الشخص وصورته المنعكسة في مرآة الماضي وبين الأصل والصورة على الحالين ما يشير إلى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التي تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذي يدفع إلى التغيّر والنهاية من ناحية أخرى، ذٰلك الصراع الذي ينجلي عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباعًا بقوانين الوراثة حتّى يغدو قصاراها أن تؤدّي وظيفة متواضعة في نطاق قانون الزمن الصارم. في نطاق ذٰلك القانون استحالت الأمّ العجوز جسمًا نحيلًا ووجهًا ذابلًا وعينين لا تبصران إلى تطوّرات باطنيّة لا تنالها الحواسّ، حتّى لم يَبْقَ لها من بهجة الحياة إلّا ما يدعونه بجمال الشيخوخة أي السمت الهادئ والوقار المكتسب الحزين والرأس المرصّع بالبياض. بَيْد أنّها كانت تنحدر من جيل معمّر عرف بصلابة المقاومة فلم يكن طعنها فيها بعد الخامسة والسبعين بمقعدها عن أن تنهض في الصباح كعادتها منذ نصف قرن فتتحسّس سبيلها ـ بدون إرشاد الجارية ـ إلى الحمّام فتتوضّأ ثمّ تعود إلى حجرتها فتصلّي، أمّا بقيّة النهار فتقطعها في التسبيح والتأمّل الصامت الذي لا يدري به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت، أو مستأنسة إلى حديث المرأة إذا فرغت لمجالستها، حتّى الصفات التي تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدّة الحماس للحياة لم تزايلها بحال، مثال هٰذا شدّة محاسبتها للجارية على كلّ صغيرة وكبيرة فيما يتعلّق بالمصروفات، وتنظيف البيت وترتيبه وتلكّؤها إذا تلكّأت في مهمّة، وتأخّرها إذا تأخّرت في مشوار، ولم يكن بالنادر أن تحلّفها على المصحف لتطمئنّ إلى صحّة تقاريرها على غسل الحمّام والأواني وتنفيض النوافذ، دقّة بالوسوسة أشبه، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمرارًا لعادة تأصّلت في صدر الشباب، كما أنّه من الجائز أن تكون تكملة ممّا يعتري الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرّفة استمساكها بالبقاء في بيتها في شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلها، ثمّ إصرارها على البقاء فيه حتّى بعد فقدانها لبصرها، متصامتة عن دعوات السيّد المتكرّرة لها بالانتقال إلى بيته لتعيش في رعاية ابنتها وأحفادها، ممّا عرّضها لتهمة الخرف وجعل السيّد يعرض عن دعوتها نهائيًا، ولٰكنّ الحقّ أنّها كرهت هجر بيتها لتعلّقها الشديد به، ولتحاميها ما عسى أن تلقى في البيت الجديد من إهمال غير مقصود أو ما يستوجبه وجودها من إلقاء أعباء جديدة على عاتق ابنتها المثقل بالواجبات، ولنفورها من الزجّ بنفسها في بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب أن تنزلق وهي لا تدري إلى ملاحظاته الأمر الذي تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها، وأخيرًا لما تنطوي عليه في قرارة نفسها من حياء وكبرياء حبّبا إليها الحياة في البيت الذي تملك معتمدة ـ بعد الله ـ على المعاش الذي تركه لها زوجها الراحل، على أنّ ثمّة أسبابًا أخرى لإصرارها على البقاء في بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسيّة أو سداد البصيرة، كخوفها ـ إذا أخلت البيت ـ من أن تجد نفسها مضطرّة

لا ينقطع والناس تفرّ من طريقها، أو وهي تسمع إلى جماهير من الشعب التقت في ذعرها ويأسها برجل من رجال الدين ـ كما كان يتّفق لأبيها ـ وراحت تجأر بالشكوى وترسل الدعوات إلى ربّ السماء، وعلى رغم استفحال الشرّ وهلاك أخواتها جميعًا فقد أفلتت من براثن الوباء سالمة آمنة لم يكدّر صفوها إلّا عصير الليمون والبصل الذي كانت تجبر على تجرّعه مرّة أو مرّتين في اليوم. واستطردت الأمّ بصوت نمّت رقّته وحنانه على الاسترسال في الأحلام كأنّما قد ردّها التذكّر إلى العهد الخالي فاستعادت حياته وذكرياته ـ العزيزة الغالية لاقترانها بالشباب ـ خالصة من شوائب الألم المنسيّ، فقالت:

ـ ولم يقنع حظّك السعيد بإنقاذك من الوباء لكنّه أبقاك وحيدة الأسرة وكلّ ما لها في الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرعت في صميم قلوبنا.

لم تعد أمينة ترى الحجرة ـ بعد هذا الخطاب ـ كما كانت تراها قبله، بعثت جدّة الشباب في كلّ شيء، في الجدران والسجّادة والسرير، في أمّها وفيها هي نفسها، وردّ أبوها إلى الحياة واتّخذ مجلسه المعهود، وعادت تصغي إلى مناغاة الحبّ والتدليل وتحلم بقصص الأنبياء والمعجزات، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفّار إلى عرابي باشا والإنجليز، بعثت الحياة الماضية بأحلامها السحريّة وآمالها الواعدة وسعادتها المرجوّة ثمّ قالت العجوز بلهجة من يقرّر النتيجة النهائيّة لما مهّد به من مقدّمات منطقيّة:

ـ أليس الله حافظك وراعيك؟!...

بيْد أنّ القول نفسه تضمّن عزاء موحيًا ذكّرها بحالها الراهنة فاستيقظت من حلم الماضي السعيد عائدة إلى كآبتها كما يعود السالي إلى اجترار أحزانه بكلمة مواساة تُلقى إليه بحسن نيّة، ولبثت إلى جانب أمّها في حال من الفراغ الصارم لم تعهدها إلّا حين مرضها فأنكرتها وضاقت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع أمّها إلّا نصف انتباهها على حين بقي النصف الآخر مرعًى للضيق والقلق، ولـمّا جاءت صديقة ظهرًا بصينيّة الغداء قالت لها العجوز بقصد تسلية ابنتها أوّلًا «جاءك رقيب ليكشف عن سرقاتك؟» ولكن أمينة لم يكن يهمّها وقتذاك أن تسرق المرأة أو تلتزم الأمانة، ولم تردّ الجارية على سيّدتها إكرامًا للضيفة من ناحية ولأنّها من ناحية أخرى أَلِفت مرارة سيّدتها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الاثنتين. وباستدارة النهار اشتدّ تعلّق فكرها ببيتها وتهالك عليه لأنّه في ذلك الوقت يعود السيّد إلى البيت للغداء والقيلولة، ثمّ يرجع الأبناء تباعًا عقب خروج الرجل إلى الدكّان، فرأت بخيالها الذي استمدّ من الألم والحنين قوّة خارقة، البيت وآله كأنّهم شهود. رأت السيّد وهو يخلع جبّته وقفطانه دون مساعدتها التي تخاف أن يكون قد أَلِف الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل. وحاولت أن تقرأ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا، هل يستشعر الفراغ الذي خلّفته وراءها، وكيف كان إحساسه حين لم يجد لها من أثر في البيت، ألم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر؟... وها هم الأبناء عائدون، وها هم يهرعون إلى الصالة بعد طول اشتياق إلى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغرًا، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أختيهم المتجهّمة الدامعة، ترى كيف يتلقّى فهمي الخبر، وهل يدرك كمال ـ وهنا خفق قلبها خفقة جارحة ـ معنى غيابها؟ أيتشاورون طويلًا؟... ماذا ينتظرون؟... لعلّهم في الطريق يستبقون إليها... يجب أن يكونوا في الطريق، أم يكون قد أصدر أمرًا بعدم زيارتها؟ يجب أن يكونوا في الخرنفش... سترى عمّا قليل...

ـ أتحدّثينني يا أمينة؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز خيالها فانتبهت إليها في دهشة ممزوجة بالحياء، إذ فطنت إلى أنّ كلمات ـ من حديثها الباطن مع نفسها ـ قد تسلّلت في غفلة منها إلى طرف لسانها محدثة الحسّ الذي التقطته أذن أمّها المرهفة فلم ترَ بدًّا من أن تجيبها قائلة:

ـ إنّي أتساءل يا أمّي ألا يجيء الأولاد لزيارتي؟

ـ أظنّهم جاءوا...!

قالت العجوز وهي ترهف السمع مادّة رأسها إلى الأمام فانصتت أمينة صامتة فترامى إليها صوت مطرقة

الباب وهي ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنّها صوت يبعث في لهفة بصرخات استغاثة حارّة فعرفت وراء هٰذه الضربات العصبيّة قبضة كمال الصغيرة كما كانت تعرفها وهي تدقّ عليها باب حجرة الفرن، وسرعان ما هرعت إلى رأس السلّم وهي تنادي صديقة لتفتح الباب، ثمّ أطلّت من فوق الدرابزين فرأت الغلام وهو يثب فوق درجات السلّم وفي أثره فهمي وياسين وتعلّق كمال بعنقها فعاقها قليلًا عن عناق الآخرين، ثمّ دخلوا الحجرة وهم، من جيَشان النفس وتبلبل الخاطر، يتكلّمون في وقت واحد لا يبالي أحدهم ما يقول الآخرون، ولـمّا رأوا الجدّة واقفة مبسوطة الذراعين مشرقة الوجه بابتسامة ترحاب مفعمة بالحبّ أمسكوا عن الكلام إلى حين وأقبلوا عليها تباعًا فساد صمت نسبيّ تخلّلته همسات القُبَل المتبادلة وأخيرًا هتف ياسين بصوت ينمّ عن الاحتجاج والحزن:

ـ نحن الآن لا بيت لنا، ولن يكون لنا بيت حتّى تعودي إليه.

وآوى كمال إلى حجرها كالهارب وهو يقول مفصحًا لأوّل مرّة عن نيّته التي طوى صدره عليها في البيت وفي الطريق:

ـ سأبقى هنا مع نينة... ولن أعود معكما...

أمّا فهمي فقد رنا إليها طويلًا صامتًا، كشأنه إذا أراد أن يحدّثها بالنظر، فوجدت في نظراته الصامتة خير معبّر عمّا يعتلج في صدريهما معًا. هٰذا الحبيب الذي لا يفوق حبّه لها إلّا حبّها له، والذي يندر أن يشير في أحاديثه معها إلى عواطفه ولٰكن تشي به خطرات نفسه وكلماته وفعاله، وقد قرأ الفتى في عينيها نظرة تدلّ على الألم والخجل فاشتدّ تأثّره وقال بحزن وتألّم:

ـ نحن الذين اقترحنا عليك الخروج، وشجّعناك عليه، ولٰكن ها أنت وحدك تتلقّين العقاب...

فابتسمت الأمّ في ارتباك وقالت:

ـ لست طفلة يا فهمي، وما كان ينبغي لي أن أفعل...

فتأثّر ياسين لهٰذا الحوار المتبادل، واشتدّ كربه لفرط إحساسه بالحرج بصفته صاحب الاقتراح المشئوم، وتردّد طويلًا بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه، على مسمع من الجدّة أن تعاتبه أو تضمر له حنقًا، وبين السكوت على ما به من رغبة في التنفيس عن تحرّجه، ثمّ خرج من تردّده بأن ترجم كلام فهمي إلى لغة أخرى قائلًا:

ـ أجل نحن المذنبون وأنت المتّهمة، (ثمّ ضاغطًا على مخارج الكلمات كأنّما يضغط على عناد أبيه وصلابته) ولٰكنّك ستعودين، وسوف تنقشع السحابة التي تظلّلنا جميعًا.

ولفت كمال وجهها إليه من ذقنها، وانهال عليها بسيل من الأسئلة، عن معنى مغادرتها البيت، وكم تطول إقامتها في بيت جدّته، وعمّا يحدث لو عادت معهم، وغير ذٰلك من الأسئلة التي لم يسمع عنها جوابًا واحدًا حقيقًا بأن يسكن خاطره الذي لم ينفع في تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمّه حيث هي، ذٰلك العزم الذي كان أوّل من يرتاب في قدرته على تحقيقه، وتغيّرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كلّ منهم من التعبير عن عواطفه، فأخذوا يعالجون الموقف معالجة جدّيّة لأنّه ـ كما قال فهمي ـ «لا يجدي التكلّم فيما كان ولٰكن ينبغي أن نتساءل عمّا سيكون» وقد أجابه ياسين على تساؤله قائلًا «إنّ رجلًا كأبينا لا يرضى بأن يمرّ بحادث كخروج أمّنا مرًّا كريمًا، فلم يكن بدّ من أن يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها، ولٰكنّه لن يجاوز حدود ما فعل» بدا هٰذا الرأي مقنعًا لما صادف من ارتياح النفوس إليه فقال فهمي مفصحًا عن اقتناعه ومرجوّه معًا «والدليل على صحّة رأيك أنّه لم يقدم على فعل شيء آخر، ومثله لا يؤجّل عزمه لو صحّت نيّته عليه». وتكلّموا كثيرًا عن «قلب» أبيهم فاتّفقت كلمتهم على أنّه قلب خيّر رغم ثورته وحدّته وأنّ أبعد شيء عن تصوّرهم هو أن يقدم على عمل من شأنه أن يسيء إلى السمعة أو يؤذي أحدًا وعند ذاك قالت الجدّة على سبيل الدعابة وهي تعلم باستحالة ما تدعو إليه:

ـ لو كنتم رجالًا حقًّا لالتمستم الوسيلة إلى قلب أبيكم ليتحوّل عن عناده...

فتبادل ياسين وفهمي نظرات ساخرة من هٰذه

«الرجولة» المزعومة التي تذوب لدى ذكر أبيهم، وخافت الأمّ من ناحيتها أن يتطوّر الحديث بين الشابّين والجدّة إلى ذكر حادث السيّارة فأفهمتهما بالإشارة ـ وهي تردّد يدها بين كتفها وأمّها ـ أنّها أخفت عنها الأمر، ثمّ قالت تخاطب أمّها وكأنّها تنبري للدفاع عن رجولة الشابّين:

ـ لا أحبّ أن يتعرّض أحدهما لغضبه فلنتركه لنفسه حتّى يعفو. . .

وهنا تساءل كمال:

ـ ومتى يعفو؟

فأشارت الأمّ بسبّابتها إلى فوق وهي تغمغم «ربّنا عنده العفو». وكالمألوف في مثل هٰذه الحال دار الحديث حول نفسه فأعاد كلّ ما سبق له قوله بنفس الألفاظ أو بألفاظ جديدة من إيثار متواصل للظنون الورديّة فطال الحديث دون أن يستجدّ به جديد، حتّى خيّم الظلام ووجب الرحيل. وحين وجب الرحيل وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن الكلام فساد سكون كالسكون الذي يسبق العاصفة، اللّٰهمّ إلّا كلمات لا يراد بها إلّا التخفيف من وطأة الصمت أو التهرّب من الاعتراف بجثوم الوداع وكأنّ كلًّا منهم يلقي تبعة إعلانه على عاتق غيره رحمة بالجانب الآخر، هنالك حدس قلب العجوز ما تضطرم به النفوس حولها فرمشت عيناها المظلمتان ولعبت أصابعها بحبّات السبحة في عجلة ولهوجة، ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للأنفاس كاللحظات التي يترقّب فيها الحالم في كابوس سقطة من علوّ شاهق، حتّى جاءها صوت ياسين وهو يقول «أظنّ آن لنا أن نذهب، وسنعود لنأخذك معنا قريبًا إن شاء الله» وتسمّعت العجوز لترى كيف تتهدّج نبرات ابنتها عند الكلام، ولٰكنّها لم تسمع كلامًا بل سمعت حركة دالّة على نهوض الجلوس، وأصوات قُبَل وهمهمة توديع، واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوّة فبكاءه، ثمّ جاء دورها في التسليم في جوّ مشبع بالحزن والفتور، وأخيرًا أخذت الأقدام تبتعد تاركة إيّاها في حدّة وشجن.

وعادت قدما أمينة الخفيفتان فمضت العجوز تتنصّت في قلق حتّى هتفت بها:

ـ أتبكين؟! يا لك من عبيطة! كأنّك لا تطيقين أن تبيتي ليلتين في حضن أمّك!

٣٤

بدت خديجة وعائشة أضيق الجميع بغياب الأمّ، فإلى حزنهما الذي يشاركهما فيه الإخوة تحمّلتا وحدهما أعباء البيت وخدمة الأب بيْد أنّ أعباء البيت لم تكن لتنوء بهما، أمّا خدمة الأب فهي التي عملتا لها ألف حساب ونزعت عائشة إلى الهرب من منطقة أبيها معتلّة بأنّ خديجة سبق لها أن تدرّبت على خدمته في أثناء رقاد الأمّ فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة إلى تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التي تكابدها وهي على كثب من السيّد أو وهي تقضي له حاجة من حاجاته. ومنذ الساعة الأولى لذهاب الأمّ قالت خديجة «ينبغي ألّا تطول هٰذه الحال، إنّ الحياة بدونها في هٰذا البيت عناء لا يطاق» فأمّنت عائشة على قولها ولٰكنّها لم تجد من حيلة في وسعها غير الدموع فذرفتها، وانتظرت عودة إخوتها من بيت الجدّة حتّى جاءوا وقبل أن تلفظ كلمة ممّا يدور في نفسها راحوا يحدّثون عن حال أمّهم في «منفاها» فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة والاستنكار لأنّها كانت تسمع عن قوم غرباء لا يتاح لها لقاؤهم فغلبها الانفعال وقالت بحدّة:

ـ إذا قنع كلّ منّا بالسكوت والانتظار فربّما تلاحقت الأيّام والأسابيع وهي مبتعدة عن بيتها حتّى يضنيها الحزن، أجل إنّ مخاطبة بابا في هٰذا الشأن مهمّة شاقّة ولٰكنّها ليست أشقّ من السكوت الذي لا يليق بنا، ينبغي أن نجد طريقة. . . ينبغي أن نتكلّم. . .

ومع أنّ صيغة «نتكلّم» التي ختمت بها جملتها جاءت شاملة لجميع الحاضرين إلّا أنّه قصد بها ـ كما فهم بالبداهة ـ شخص أو شخصان شعر كلاهما لدى سماعها بارتباك لم تخْفَ بواعثه على أحد، بيْد أنّ خديجة واصلت حديثها قائلة:

ـ لم تكن مهمّة مخاطبته فيما يعرض من أمور بأيسر

على نينة ممّا هي علينا ومع ذٰلك لم تكن تتردّد عن مخاطبته إكرامًا لأيّ واحد منّا، فمن الإنصاف أن نتحمّل نفس التضحية من أجل خاطرها.

تبادل ياسين وفهمي نظرة فضحت إحساسهما بالخناق الذي أخذ يضيق حولهما سريعًا ولٰكنّ واحدًا منهما لم يجرؤ على فتح فيه أن ينتهي به الكلام إلى أن يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلما لانتظار ما يجيء به النقاش كما يستسلم الفأر للهرّة، وتركت خديجة التعميم إلى التخصيص فالتفتت إلى ياسين قائلة:

- أنت أخونا الأكبر وإلى هٰذا فأنت موظّف، أي رجل كامل. فأنت أجدرنا بهٰذا الواجب.

ملأ ياسين صدره بالهواء ثمّ نفخ وهو يعبث بأنامله في ارتباك ظاهر وتمتم قائلًا:

- والدنا رجل ناريّ الغضب لا يقبل مراجعة لرأيه، وأنا من ناحيتي لم أعد غلامًا بل صرت رجلًا وموظّفًا كما تقولين، وأخوَف ما أخاف أن ينفجر فيّ غاضبًا فيفلت منّي زمام نفسي ويثور غضبي بدوره!

وغلبهم الابتسام على أعصابهم المتوتّرة المحزونة فابتسموا، وأوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجهها في كفّيها، ولعلّ حالهم المتوتّرة نفسها ممّا هيّأهم لقبول الابتسام كمسكّن وقتيّ للتوتّر والألم كما يحدث للنفوس أحيانًا عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لأتفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال بأضدادها، ذٰلك أنّهم عدّوا قوله نوعًا من الدعابة الجديرة بالضحك والسخرية، وكان هو أوّل من يعلم بعجزه التامّ عن مجرّد التفكير في الغضب أو المقاومة حيال والده وأوّل من يعلم أنّه قال ما قال فرارًا من مواجهة أبيه واتّقاء لسخطه، فلمّا رأى هزءهم لم يسعه إلّا أن يبتسم بدوره وهو يهزّ منكبيه كأنّما يقول لهم «دعوني وشأني». فهمي وحده بدا متحفّظًا في ابتسامه لشعوره أنّ القرعة ستصيبه قبل أن تغيب ابتسامته، وصدق شعوره إذ أعرضت خديجة عن ياسين في ازدراء ويأس وخاطبته قائلة برجاء وإشفاق:

- فهمي... أنت رجلنا!...

فرفع حاجبيه في ارتباك متطلّعًا إليها بنظرة كأنّما يقول لها «أنت أدرى بالعواقب!» حقًّا كان يتمتّع بمزايا لا يتمتّع ببعضها أحد في الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق، وهو أكبرهم عقلًا وأنفذهم رأيًا، وله من ضبط النفس في المواقف الحرجة ما يدلّ على الشجاعة والرجولة ولٰكنّه سرعان ما يفقد جملة مزاياه إذا مثل بين يدي أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء. وبدا وكأنّه لا يدري ماذا يقول فحثّته على الكلام بإيماءة من رأسها فقال متحيّرًا:

- هل ترينه يقبل رجائي؟... كلّا... ولٰكنّه سينهرني قائلًا: «لا تتدخّل فيما لا يعنيك». هٰذا إذا لم يثر غضبه فيوجّه إليّ كلامًا أشدّ وأقسى!

وارتاح ياسين إلى هٰذا الكلام «الحكيم» الذي وجد فيه دفاعًا عن موقفه أيضًا فقال وكأنّه يكمل رأي أخيه:

- وربّما جرّ تدخّلنا إلى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنفتح على أنفسنا فتحة لا ندري كيف نسدّها!

فالتفتت الفتاة نحوه مغيظة محنقة وقالت بمرارة وسخرية:

- لا منك ولا كفاية شرّك!

فقال فهمي الذي استمدّ من غريزة «حبّ البقاء» قوّة جديدة للدفاع عن نفسه:

- فلنفكّر في الأمر بعناية شاملة... لا أظنّه يقبل لي أو لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين في الخطأ، وعليه فالقضيّة خاسرة إذا تقدّم أحدنا للدفاع عنها، أمّا إذا حدّثته واحدة منكما فلعلّها تنجح في استعطافه أو لعلّها تجد - على أسوأ الظنون - إعراضًا هادئًا لا يبلغ حدّ العنف، فلماذا لا تحدّثه إحداكما؟... أنت مثلًا يا خديجة!؟

فانقبض قلب الفتاة التي وقعت في الشرك وحدجت ياسين وفهمي بنظرة غيظ وهي تقول:

- ظننت هٰذه المهمّة أخلق بالرجال!

فقال فهمي مواصلًا هجومه السلميّ:

- العكس هو الصحيح ما دمنا نتوخّى نجاح

المسعى، ولا تنسي أنكما لم تتعرّضا لغضبه طول حياتكما إلّا في النادر الذي لا يقاس عليه، فهو يألف الرفق بكما كما يألف البطش بنا!

فأطرقت خديجة متفكّرة في قلق غير خافٍ، وكأنّها خافت إن طال صمتها أن تشتدّ عليها الحملة فتستقرّ المهمّة الخطيرة في قرعتها فرفعت رأسها قائلة:

ـ إذا كان الأمر كما تقول فعائشة أخلق منّي بالكلام!

ـ أنا!... لِمَ؟!

نطقت بها عائشة في فزع مَن وجد نفسه في مرمى الخطر بعد أن اطمأنّ طويلًا إلى موقف المتفرّج الذي ليس له من الأمر شيء خاصّة وإنّها ـ لحداثة سنّها وغلبة إحساس الطفولة المدلّلة عليها ـ لم تكن تندب لشيء هامّ فضلًا عن أخطر مهمّة يمكن أن تعرض لأحد منهم، إلّا أنّ خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بَيْد أنّها أصرّت عليه في عناد مشبع بالمرارة والتهكّم فقالت تجيب شقيقتها:

ـ لأنّه ينبغي الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك في إنجاح مسعانا!

ـ وما دخْل شعري وعينيّ في مواجهة أبي؟!

لم تكن خديجة تهتمّ في تلك اللحظة بالإقناع بقدر ما تهالكت على إيجاد مخرج لها ولو بتحويل الأذهان إلى أمور هي بالمعابثة أشبه تمهيدًا للتقهقر، فالفرار من أسلم السبل الممكنة كمن يقع في مأزق حرج وتعوزه الحجّة في الدفاع عنه فيلجأ إلى المزاح ليمهّد لنفسه مفرًّا في ضجّة من السرور بدلًا من الشماتة والازدراء لذلك قالت:

ـ أعرف لهما تأثيرًا ساحرًا في كلّ من يتّصل بك، ياسين... فهمي... حتّى كمال، فلماذا لا يكون لهما نفس التأثير عند أبي؟

فتورّد وجه عائشة وقالت بانزعاج:

ـ كيف أخاطبه في هٰذا الشأن وأنا لا تقع عليّ عيناه حتّى يطير ما في رأسي؟!

عند ذاك ـ وبعد أن تهرّبوا تباعًا من المهمّة الخطيرة ـ لم يعد يشعر أحد منهم بتهديد مباشر ولٰكن النجاة لم تعفهم من إحساس بالذنب، بل لعلّها كانت أوّل دافع إليه، حيث أنّ الإنسان ركّز تفكيره في النجاة عند الخطر حتّى إذا ظفر بالنجاة عاد ضميره يناوشه، كالجسم الذي يستنفد حيويّته كلّها في العضو المريض حتّى إذا ما استردّ صحّته توزّعت حيويّته بالتساوي على الأعضاء التي أهملت إلى حين، وكأنّ خديجة أرادت أن تتخفّف من هٰذا الإحساس فقالت:

ـ ما دمنا نعجز جميعًا عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا الستّ أمّ مريم.

وما إن نطقت باسم «مريم» حتّى لحظت فهمي بحركة عكسيّة فالتقت عيناهما لحظة قصيرة في نظرة لم يرتح لها الشابّ لإيحائها فأشاح عنها بوجهه متظاهرًا بعدم الاكتراث، ذٰلك أنّ اسم مريم لم يَجْرِ على لسان أمام فهمي منذ نبذت فكرة خطبتها، إمّا مراعاة لعواطفه، وإمّا لأنّ مريم اكتسبت معنًى جديدًا بعد اعترافه بحبّها سلكها في زمرة المحرّمات التي لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن، وبالرغم من أنّ مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة بجهل ما دار بشأنها وراء الأبواب... ولم تَفُتْ ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمي وخديجة فأراد أن يغطّي على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه إلى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكّم والتحريض:

ـ هٰذا رجلنا الحقّ، هو وحده الذي يستطيع أن يرجو والده ليعيد إليه أمّه!

لم يحمل كلامه محمل الجدّ أحد، وأوّلهم كمال نفسه، بيد أنّ قول ياسين وثب إلى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان بيت القاضي عائدًا من المدرسة، بعد نهار مضى أكثره في التفكير في أمّه المنفيّة، فتوقّف عن السير صوب درب قرمز، والتفت إلى طريق النحّاسين متردّدًا وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كآبة وتألّم، ثمّ غيّر طريقه متّجهًا نحو النحّاسين في خطوات متباطئة دون أن يجمع عزمه على رأي، يسوقه العذاب الذي يعاني لفقد أمّه، ويرجعه الخوف الذي يركبه لمجرّد ذكر أبيه، فضلًا عن مخاطبته أو التوسّل

إليه، لم يكن يتصوّر أنّه يستطيع أن يقف بين يديه محدّثًا في هٰذا الأمر، ولم تغب عن شعوره المخاوف العسيّة بأن تحيق به لو فعل، ولم يصمّم على شيء إلّا أنّه رغم كلّ هٰذا واصل السير البطيء حتّى لاح لعينيه باب الدكّان كأنّما ينزع إلى إرضاء قلبه المعذّب ولو إرضاء عميقًا ـ كالحدأة التي تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجد الشجاعة على مهاجمته ـ وتدانى من الباب حتّى وقف على بُعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدّم ولا يتأخّر، ولا يستقرّ على رأي، وفجأة خرج من الدكّان رجل وهو يقهقه عاليًا وإذا بأبيه يتبعه حتّى عتبة الباب مودّعًا وهو يغرق في الضحك كذٰلك، فأذهلته المفاجأة، فتسمّر في مكانه مستشرفًا وجه أبيه الضاحك الطليق في إنكار ودهشة لا توصفان، لم يصدّق عينيه وخيّل إليه أنّ شخصيّة جديدة قد حلّت في جسم أبيه، أو أنّ هٰذا الرجل الضاحك ـ على ما به من شبه بأبيه ـ شخص آخر يراه لأوّل مرّة، شخص يضحك، ويغرق في الضحك، وينطلق البِشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس، واستدار السيّد ليدخل فوقع بصره على الغلام المتطلّع إليه بذهول فأخذته الدهشة لموقفه وهيئته على حين استردّت أساريره بسرعة مظهر الجدّ والرزانة، ثمّ سأله وهو يتفرّس في وجهه:

ـ ماذا جاء بك؟!

وللحال دبّت في أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس ـ رغم ذهوله ـ فتقدّم من أبيه ومدّ يده الصغيرة إلى يده وتطامن عليها حتّى لثمها في أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة. فسأله السيّد مرّة أخرى:

ـ أتريد شيئًا؟!

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفّظ به إلّا أن يقول مؤثرًا السلامة «إنّه لا يريد شيئًا وأنّه كان في طريقه إلى البيت» ولٰكنّ السيّد استبطأه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة:

ـ لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد...

ونفذت خشونة الصوت إلى قلبه فارتعد، وانعقد لسانه فكأنّ الكلام قد التزق بسقف حلقه، فازداد الأب ضيقًا وهتف بحدّة:

ـ تكلّم... هل فقدت النطق؟!

وتجمّعت قوّته كلّها في إرادة واحدة وهي أن يخرج من صمته بأيّ ثمن اتّقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلًا كيفما اتّفق له:

ـ كنت عائدًا من المدرسة إلى البيت...

ـ وماذا أوقفك هنا كالمعتوه؟!

ـ رأيت.. رأيت حضرتك فأردت أن أقبّل يدك...!

فتجلّت في عيني السيّد نظرة استرابة، وقال بجفاء وتهكّم:

ـ أهٰذا كلّ ما هنالك!... أوحَشتُك لهٰذا الحدّ؟! ألم تستطع أن تنتظر إلى الصباح لتقبّل يدي إذا أردت؟!... اسمع... إيّاك وأن تكون قد عملت عملة في المدرسة... سأعرف كلّ شيء...

فقال كمال بسرعة واضطراب:

ـ لم أعمل شيئًا وحياة ربّنا...

فقال الرجل بنفاد صبر:

ـ إذن تفضّل... ضيّعت وقتي بلا مناسبة... غُرْ من وجهي...

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب، وتحرّك السيّد عن مكانه ليدخل ولٰكن عاودت الغلام الحياة بمجرّد تحوّل عيني أبيه عن عينيه، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة:

ـ رجّع نينة الله يخلّيك...

وأطلق ساقيه للريح...

٣٥

كان السيّد يحتسي قهوة العصر في حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشّع ألّا يسمع:

ـ جارتنا ستّ أمّ مريم تريد مقابلة حضرتك...

فتساءل السيّد متعجّبًا:

ـ حرم السيّد محمّد رضوان؟ ماذا تريد؟

فقالت خديجة:

ـ لا أعرف يا بابا. . .

فأمرها بإدخالها وهو يمسك عن التعجّب. ومع أنّ مجيء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته ـ لشأن يتعلّق بتجارته أو لصلح يسعى به بينهنّ وبين أزواجهنّ من أصدقائه لم يكن مع ندرته بالجديد عليه إلّا أنّه استبعد أن يكون ما دعا هٰذه السيّدة إلى مقابلته واحد من هٰذه الأسباب. وخطرت على ذهنه، وهو يتساءل، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجه، ولٰكن أيّ علاقة ثمّة بين هٰذا السرّ الذي لا يمكن أن يتعدّى دائرة أسرته وبين هٰذه الزيارة!؟ ثمّ ذكر السيّد محمّد رضوان لاحتمال أن تكون الزيارة لسبب يمتّ إليه بيّد أنّه كان ولم يزل مجرّد جار، لا تربطه به إلّا صلة الجيرة التي لم ترتفع يومًا لمرتبة الصداقة، فاقتصر تزاورهما قديمًا على المناسبات الضروريّة حتّى شلّ الرجل فعاده مرّات، ثمّ لم يعد يطرق بابه إلّا في الأعياد. على أنّ ستّ أمّ مريم ليست بالغريبة عليه، فإنّه ليذكر أنّها قصدت دكّانه مرّة لابتياع بعض الحوائج وهناك عرّفته بنفسها استرعاء لاهتمامه فبذل لها من كرمه ما رآه جديرًا بحسن الجوار، ومرّة أخرى التقى بها عند باب بيته إذ صادف خروجه قدومها للزيارة مصطحبة كريمتها وعند ذاك أدهشته بجسارتها حين حيّته قائلة «مساء الخير يا سي السيّد»، أجل علّمه اختلاطه بالأصدقاء أنّ بينهم من يتسامح فيما يتشدّد فيه متطرّفًا من التزام الآداب المتوارثة للأسرة، فلا يرون بأسًا من أن تخرج نساؤهم للزيارة أو للاستبضاع، ولا يجدون حرجًا في توجيه تحيّة بريئة كالتي وجّهتها أمّ مريم إليه، ولم يكن ـ رغم حنبليّته ـ بالذي يطعن فيما يرتضون لأنفسهم ولنسائهم، بل لم يكن يسيء الظنّ حتّى ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم في العربات للتنزّه في الخلوات أو لغشيان الملاهي البريئة مكتفيًا في مثل هٰذه الحال بترديد قوله «لكم دينكم ولي دين»، أي أنّه لا ينزع إلى تطبيق آرائه على الناس تطبيقًا أعمى، إلى أنّه يحسن التمييز حقًّا بين ما هو خير وما هو شرّ، إلّا أنّه لا يفتح صدره لكلّ «ما هو خير» ضالعًا في ذٰلك مع طبيعته التقليديّة الصارمة حتّى أنّه عدّ زيارة زوجه للحسين جريمة قضى فيها بأقصى عقوبة أصدرها في حياته الزوجيّة الثانية، ولهٰذا كلّه لاقت تحيّة أمّ مريم له من نفسه دهشة مقرونة بما يشبه الانزعاج دون أن يسيء بأخلاقها الظنّ. وسمع خارج باب الحجرة نحنحة فأدرك أنّ القادمة تنذره بالدخول، ثمّ دخلت ملتفّة في ملاءتها، مستورة الوجه ببرقع أسود تتوسّط عروسه الذهبيّة عينين مكحولتين دعجاوين وتدانت منه بجسم جسيم لحيم مترنّح الأرداف، فنهض السيّد لاستقبالها وهو يمدّ يده قائلًا:

ـ أهلًا وسهلًا، شرّفت البيت وأهله.

فمدّت له يدها بعد أن لفّتها في طرف الملاءة أن تنقض وضوءه وقالت:

ـ ربّنا يشرّف قدرك يا سي السيّد. . .

ودعاها للجلوس فجلست، ثمّ جلس وهو يسألها مجاملة:

ـ كيف حال السيّد محمّد؟. . .

فقالت متنهّدة بصوت مسموع كأنّ السؤال حرّك أشجانها:

ـ الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ربّنا يلطف بنا جميعًا. . .

فهزّ السيّد رأسه كالآسف وتمتم:

ـ ربّنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية. . .

وأعقب حديث المجاملات صمت قصير فأخذت السيّدة تتهيّأ للحديث الجدّيّ الذي جاءت من أجله كما يتهيّأ المطرب للغناء بعد الفراغ من عزف المقدّمة الموسيقيّة على حين غضّ السيّد بصره تحشّمًا تاركًا على شفتيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر:

ـ يا سيّد أحمد، أنت في المروءة مثل يضرب في الحيّ كلّه، فلن يخيب رجاء لمن يقصدك مستشفعًا مروءتك.

فتمتم السيّد بصوت حييّ وهو يتساءل في نفسه «ترى ما وراء هٰذا كلّه؟!». . .

ـ أستغفر الله. . .

ـ المسألة أنّي جئت الساعة لأزور أختي ستّ أمّ فهمي فما هالني إلّا أن أعلم بأنّها ليست في البيت وأنّك غاضب عليها! . . .

وامسكت المرأة لتسبر أثر كلامها ولتسمع رأي السيّد فيه، ولكنّه لاذ بالصمت كأنّه لا يجد ما يقوله ومع أنّه شعر بعدم ارتياح إلى فتح هٰذا الموضوع إلّا أنّ ابتسامة الترحيب ظلّت معلّقة بشفتيه. . .

ـ هل توجد ستّ أكمل من ستّ أمّ فهمي؟! ستّ العقل والحياء، جارة عشرين عامًا وأكثر، لم نسمع خلالها منها إلّا ما يسرّ الخاطر، فما عسى يمكن أن تجني ممّا تستحقّ عليه غضب رجل عادل مثلك؟!

فثابر السيّد على صمته متجاهلًا تساؤلها، ثمّ دارت برأسه خواطر زادت من عدم ارتياحه. . . تُرى أجاءت زيارة المرأة للبيت اتّفاقًا أم أنّها استدعيت بتدبير مدبّر؟! خديجة؟ عائشة؟ أمينة نفسها؟ إنّهم لا يملّون الدفاع عن أمّهم، هل ينسى كيف تجرّأ كمال على الصراخ في وجهه مطالبًا بعودة أمّه، الأمر الذي عرّضه فيما بعد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من يافوخه؟!

ـ يا لها من سيّدة طيّبة لا تستأهل عقابًا. . . ويا لك من سيّد كريم لا يليق به العنف، ولكنّه الشيطان اللعين أخزاه الله وما أجدر نبلك بإفساد كيده. . .

وشعر عند ذاك بأنّ الصمت غدا أثقل من أن يحتمل مجاملة للزائرة فتمتم قائلًا باقتضاب متعمّد:

ـ ربّما يصلح الحال. . .

فقالت أمّ مريم بحماس متشجّعة بما أصابت من نجاح في استدراجه إلى الكلام:

ـ لشدّ ما يعزّ عليّ أن تترك جارتنا الطيّبة بيتها بعد ذاك العمر الطويل من الستر والكرامة. . .

ـ ستعود المياه إلى مجاريها، ولكن لكلّ شيء ميعاد. .

ـ أنت أخي، بل أعزّ من الأخ، ولن أزيد على هٰذا كلمة واحدة. . . !

جدّ جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجّله كما يسجّل المرصد الزلزال البعيد مهما تدقّ حركته. خيّل إليه وهي تقول «أنت اخي» أنّ صوتها رقّ وعذب، فلمّا قالت «بل أعزّ من الأخ» جهر الصوت بحنان دافئ نشر في الجوّ المحتشم نفحة طيّبة، فتعجّب وتساءل، ولم يعد يطيق غضّ بصره على الشكّ فرفعه مستأنيًا. . واسترق إلى وجهها النظر ـ فوجدها ـ على غير ما توقّع ـ تتطلّع إليه بعينيها الدعجاوين، فجاش صدره وخفض بصره مستعجلًا بين الدهشة والحرج ثمّ قال مواصلًا الحديث كي يغطّي على تأثيره:

ـ أشكرك على ما أوليتني من أخوّة. . .

وعاد يتساءل تُرى أكانت تتطلّع هٰكذا طوال الحديث أم صادف رفع بصره إليها تطلّعها إليه؟ وما القول في أنّها لم تغضّ بصرها عند التقاء العينين؟ ولكنّه سرعان ما هزأ بأفكاره قائلًا لنفسه إنّ ولعه بالنساء وخبرته بمعاشرتهنّ أرهفا حاسّة سوء الظنّ عنده، وأنّ الحقيقة بلا ريب أبعد ما تكون عن تصوّره، أو لعلّ المرأة من النساء اللاتي يفضن الحنان طبعًا وسجيّة فيظنّه من لا يعرفهنّ غزلًا وما هو بالغزل، ولكي يتحقّق من صدق رأيه ـ لأنّه لم تزل ثمّة حاجة إلى التحقيق ـ رفع بصره مرّة أخرى فما هاله إلّا أن يراها رانية إليه، فتشجّع هٰذه المرّة وثبّت عليها عينيه قليلًا فلم تزل ترنو إليه باستسلام جسور حتّى غضّ بصره في حيرة شاملة، وعند ذاك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول:

ـ سأرى بعد هٰذا الرجاء إذا كنت حقًّا أثيرة عندك. . .

أثيرة؟! لو قيلت هٰذه الكلمة في غير هٰذا الجوّ المشبع بالحساسيّة المكهرب بالشكّ والحيرة، لمرّت دون أن تترك أثرًا، أمّا الآن؟! وعاود النظر في غير قليل من الحرج فقرأ في عينيها بعض المعاني التي عابثت ظنونه، هل يصدق إحساسه؟ وهل يمكن هٰذا حال استشفاعها لزوجه؟ ولٰكن كيف يعجب من كان في مثل خبرته بالنساء؟ سيّدة لعوب ذات بعل مشلول. وسرت في وجدانه وثبات بهيجة ملأته حرارة وزهوًا، ولٰكن متى نشأت هٰذه العاطفة؟ أهي قديمة وكانت تتحيّن الفرص؟ ألم تزر دكّانه مرّة فلم يندّ عنها ما يريب. . . ولٰكن الدكّان ليس بالمكان الذي تطمئنّ إليه مثلها في

بثّ هوى مكتّم غير مسبوق بتمهيد كما فعلت زبيدة العالمة، أم هي عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة السانحة في الغرفة الخالية؟ لو صحّ هٰذا فهي «زبيدة» أخرى في لباس سيّدة مصونة، وليس غريبًا أن يجهل أمرها ـ وهو العليم ببنات الهوى ـ ما دام يحرص الحرص كلّه على احترام الجيران احترامًا مثاليًا، وأيًّا كان الأمر فكيف يجيبها؟ «أنت آثر عندي ممّا تظنّين؟» قول جميل ولكنّها حريّة بأن ترى فيه تحيّة استجابة لدعائها، كلّا إنّه لا يريد هٰذا، إنّه يأباه كلّ الإباء، لا لأنّه لم يشبع بعد من زبيدة، ولكن لأنّه لا يقبل أن يحيد عن مبادئه في تقديس الأعراض عامّة، وما يمسّ الأصدقاء والجيران منهم خاصّة. لهٰذا لم تسوّد صفحته نقطة واحدة يمكن أن يخزى بها أمام صديق أو جار أو أحد من الأطهار على إفراطه في العشق والصبوات، ولم يزل دأبه أن يخاف الله في لهوه كما يخافه في جدّه فلا يبيح لنفسه إلّا ما يراه مباحًا أو في حدود الهفوات. لا يعني هٰذا أنّه أوتي إرادة خارقة تعصمه من الأهواء، ولكنّه لهج بالهوى المبذول، وصان طرفه عن الحرمات حتّى أنّه لم يتعمّد النظر إلى وجه امرأة من حيّه طوال عمره، على أنّه ممّا يذكر له أنّه صدّ مرّة عن هوًى متاح رحمة بأحد معارفه، إذ جاءه يومًا رسول يدعوه إلى لقاء أخت ذٰلك الرجل ـ أرملة نَصَف ـ في ليلة سمّاها فتلقّى السيّد الدعوة صامتًا وصرف الرسول متلطّفًا كعادته ثمّ قاطع الطريق الذي يوجد به البيت أعوامًا متواصلة. ولعلّ أمّ مريم كانت أوّل تجربة ـ عرضت لمبادئه ـ يكابدها بعينيه، ومع انّها أعجبته إلّا أنّه لم يستجب لنوازع الهوى، وغلّب صوت الحكمة والوقار، صائنًا سمعته التي يتحدّث بها الناس عن موطن المؤاخذة، كأنّ هٰذه السمعة الطيّبة آثر عنده من اقتناص لذّة مواتية، متعزّيًا في نفس الوقت بما يتاح له من حين لآخر من غراميّات مأمونة العواقب، وهٰذه الروح الراعية للعهد المخلصة للإخوان لا تزايله حتّى في مغاني اللهو والشهوة، فلم يؤخذ عليه أبدًا أنّه سطا على محظيّة صاحب أو طمح بطرْف إلى خليلة صديق، مؤثرًا الصداقة على الأهواء، لأنّه كما اعتاد أن يقول «الصديق ودّ دائم والعشيقة هوًى عابر»، ولهٰذا قنع بانتقاء خليلاته ممّن يجدهنّ بلا خليل، أو ينتظر حتّى تنقطع علاقة فينهض لانتهاز فرصته، وأحيانًا يستأذن الخليل القديم قبل أن يتودّد إلى من كانت خليلته، مواصلًا العشق في سرور لا يشوبه الندم ولا تكدّر صفوه إحن النفوس. بمعنًى آخر أنّه نجح في التوفيق بين «الحيوان» المتهالك على اللذّات وبين «الإنسان» المتطلّع إلى المبادئ العالية توفيقًا ائتلافيًا يجمعهما في وحدة منسجمة لا يطغى أحد طرفيها على الآخر ويستقلّ كلّ منهما بحياته الخاصّة في يسر وارتياح، كما وفّق من قبل في الجمع بين التديّن والغواية في وحدة خالية من الإحساس بالذنب والكبت معًا، غير أنّه لم يكن يصدر في وفائه عن إخلاص مجرّد للأخلاق ولكن ـ إلى هٰذا أو قبل هٰذا ـ عن رغبته التليدة في أن يظلّ حائزًا للحبّ متمتّعًا بالسمعة العطرة، إلى أنّ غزواته المظفّرة في العشق هوّنت عليه الإعراض عن الحبّ الموسوم بالخيانة أو النذالة، وفضلًا عن هٰذا وذاك فإنّه لم يعرف الحبّ الحقيقيّ الذي كان خليقًا بأن يدفعه إلى إحدى اثنتين: فإمّا الإذعان للعاطفة القويّة دون مبالاة بالمبادئ، وإمّا الوقوع في أزمة عاطفيّة خلقيّة حادّة لم يقدّر عليه الاكتواء بنارها. فلم يكن في أمّ مريم إلّا صنف لذيذ من الطعام لن يضيره ـ إذ هدّده تناوله بسوء الهضم ـ أن يعدل عنه إلى غيره من الأصناف المأمونة الشهيّة التي تحفل بها المائدة، لذٰلك أجابها برقّة قائلًا:

ـ شفاعتك مقبولة إن شاء الله وستسمعين ما يسرّك عمّا قريب. . .

فقامت المرأة وهي تقول:

ـ ربّنا يكرمك يا سي السيّد. . .

ومدّت له يدًا بضّة فمدّ لها يده وهو يغضّ بصره فخيّل إليه ـ وهي تسلّم ـ أنّها ضغطت قليلًا على يده، وجعل يتساءل أهٰذه طريقتها في التسليم أم أنّها تعمّدت الضغط على يده، وحاول أن يتذكّر كيفيّة تسليمها عند استقبالها ولٰكن الذاكرة لم تسعفه، وقضى

أكثر الوقت الذي سبق عودته إلى الدكّان وهو يفكّر في المرأة، حديثها، ولينها، وتسليمها. . .

٣٦

ـ تيزة حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك.

رمى السيّد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها:

ـ لماذا؟

ولكن أعلنت نبراته الغاضبة ونظراته الثائرة على أنّه لم يقصد الوقوف عند مدلول «لماذا» وكأنّه أراد أن يقول لها «لم أكد أفرغ من وسيط الأمس حتّى جئتني بوسيط جديد اليوم، من قال لك إنّ هٰذه الحيل تجوز عليّ؟. . . كيف تجسرين أنت وإخوتك على المكر بي؟».

واصفرّ وجه خديجة وهي تقول بصوت متهدّج:

ـ لا أدري والله. . .

فحرّك رأسه حركة كأنّها تقول لها «بل تدرين وأدري أنا أيضًا ولن يحرّك مكرك إلّا إلى أوخم العواقب» ثمّ قال ساخطًا:

ـ خلّيها تتفضّل، لن أشرب قهوتي براحة بال بعد الآن، أصل حجرتي محكمة وقضاة وشهود، وهٰذه هي الراحة التي أجدها في بيتي، لعنة الله عليكم أجمعين!. . .

اختفت خديجة قبل أن يتمّ كلامه كما يختفي الفأر إذا قرعت سمعه قرقعة، وظلّ السيّد لحظات متجهّمًا حانقًا، حتّى خطرت على ذهنه خديجة وهي تنسحب خائفة فعثرت قدمها بقبقابه وكاد رأسها يصطدم بالباب، فارتسمت على شفتيه ابتسامة إشفاق مسحت غضبته المتعسّفة وقطرت على صدره عطفًا، يا لهم من أطفال يأبون أن ينسوا أمّهم ولو دقيقة واحدة، واتّجه بصره إلى الباب وهو يتهيّأ لاستقبال الزائرة بوجه انبسطت أساريره كأنّه لم يصبّ غضبه منذ ثوان على فكرة زيارتها، ولكن لم يجد له حيلة فيما يركبه من غضب ـ وهو في بيته ـ لأتفه الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق، وفضلًا عن هٰذا كلّه كان للقادمة منزلة خاصّة لا يرتقي إليها أحد من النساء اللاتي يتردّدن على البيت من حين لآخر، حرم المرحوم شوكت، والمرحوم شوكت من قبل، أسرة ارتبطت مع أسرته بآصرة الودّ الخالص من عهد الجدود، كان للراحل منزلة الأب من نفسه، ولم تزل أرملته عنده ـ وعند أسرته بالتبعيّة ـ بمنزلة الأمّ، هي التي خطبت له أمينة بنفسها، وتلقّت أبناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا، وإلى هٰذا كلّه فآل شوكت أناس صداقتهم شرف، لا لأصلهم التركيّ فحسب، ولٰكن لمرتبتهم الاجتماعيّة وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوي وبين الصورين، وإذا كان السيّد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمّة فيها بلا جدال، ولعلّ الأمومة التي تشعر بها المرأة له ويشعر بها لها هي التي جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيّب والحرج، فليست هي بالتي تلتزم الاحترام في مخاطبته، ولا بالتي تتعب في استعطافه، فضلًا عمّا عرفت به من صراحة جارحة لها مبرّراتها من شيخوختها ومكانتها معًا، أجل ليست هي. . .

وأمسك عن أفكاره لدى سماعه وقع خطواتها، ثمّ نهض وهو يقول بترحيب:

ـ أهلًا وسهلًا، زارنا النبيّ. . .

اقتربت منه سيّدة طاعنة في السنّ، تدبّ على مظلّة وهي ترفع إليه وجهًا ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكد يحجب منه شيئًا برقعها الأبيض الشفّاف، وتلقّت تحيّته بابتسامة جلت عن أسنانها الذهبيّة، وسلّمت، ثمّ اتّخذت مجلسها إلى جانبه بلا كلفة وهي تقول:

ـ من يَعِشْ يَرَ، حتّى أنت يا زين الرجال!. . . وحتّى هٰذا البيت تحدث فيه هٰذه الأمور التي لا يطيب التحدّث عنها!. . . شِخْت وربّ الحسين وبادرك الخرف. . .

واسترسلت في الكلام مطلقة العنان للسانها يقول ويعيد غير تاركة للسيّد من فرصة لمقاطعتها أو التعقيب عليها، حدّثته كيف جاءت للزيارة، وكيف اكتشفت غياب زوجه «ظننت بادئ الأمر أنّها خرجت في زيارة فدققت صدري بيدي دهشة وقلت ماذا حدث للدنيا؟!. . . وكيف سمح لها السيّد بالخروج مستهينًا

بالشرائع الإلْهيّة والقوانين البشريّة والفرمانات العثمانيّة!...» بيد أنّها سرعان ما عرفت الحقيقة كلّها «فثبت إلى رشدي وقلت الحمد لله الدنيا بخير، هٰذا حقًّا هو السيّد، وهٰذا أقلّ ما ينتظر منه» ثمّ غيّرت لهجتها الساخرة وراحت تؤنّبه على قسوته، ولم تقتصد في الرثاء لزوجه التي تعدّها آخر امرأة تستحقّ عقابًا، وجعلت كلّما همّ بمقاطعتها تصيح به «هس، ولا كلمة... دع حديثك الحلو الذي تحسن تنميقه فلن أخدع به، إنّي أريد عملًا صالحًا لا مزوّقًا» وصارحته بأنّه يغالي في المحافظة على أسرته مغالاة خرقت المألوف، وأنّه يجمل به أن يأخذ نفسه بشيء من الهوادة والرفق، استمع السيّد إليها طويلًا، ولـمّا سمحت له بالكلام ـ بعد أن أعياها الكلام، شرح لها وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحارّ، ولا مكانتها عنده من أن يؤكّد لها بأنّ سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحوّل عنها وإن وعدها في النهاية ـ كما وعد أمّ مريم من قبل ـ خيرًا، وظنّ أن آن للجلسة أن تنفضّ ولٰكنّه ما يدري إلّا وهي تقول:

ـ غياب أمينة هانم مفاجأة غير سارّة لي لأنّي كنت أريدها لأمر هامّ جدًّا، ولأنّ الخروج لم يعد بالمهمّة اليسيرة على صحّتي، ولا أدري الآن إن كان يحسن بي أن أتكلّم فيما أردت الكلام فيه أم أنتظر عودتها؟!

فقال السيّد مبتسمًا:

ـ كلّنا تحت أمرك...

ـ وددت لو كانت هي أوّل من يسمعني وإن كنت لم تترك لها من الأمر شيئًا، ولٰكن لئن فاتني هٰذا فعزائي لها فرصة سعيدة للعودة...

فاحتار السيّد في فهم حديثها وحدج إليها متسائلًا:

ـ ما وراء هٰذا؟

فقالت وهي تنكث السجّادة بسنّ مظلّتها:

ـ لا أطيل عليك، لقد وقع اختياري على عائشة لتكون زوجًا لخليل ابني...

ودهش السيّد دهش من أخذ على غرّة من حيث لم يتوقّع فركبه الارتباك، بل الانزعاج، لبواعث غير خافية، أدرك من أوّل وهلة أنّ تصميمه القديم على ألّا يزوّج الصغرى حتّى تتزوّج الكبرى سيرتطم هٰذه المرّة برغبة عزيزة لا يسعه إهمالها... رغبة عالنته بها من لا تجهل تصميمه ذاك ممّا دلّ على أنّها ترفضه سلفًا وتأبى أن تنزل عند حكمه...

ـ ما لك صامتًا كأنّك لم تسمعني؟!

وابتسم السيّد ارتباكًا وحياء، ثمّ قال على سبيل الملاحظة والمجاملة ريثما يقلّب الأمر على وجوهه:

ـ هٰذا شرف عظيم لنا...

فرمته السيّدة بنظرة كأنّما تقول له «ابحث لك عن طريقة أخرى غير معسول الكلام» وقالت بلهجة هجوميّة:

ـ لا حاجة بي إلى الضحك عليّ بأجوف الكلام، لن أرضى بغير الموافقة التامّة، لقد ندبني خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندي عروس هي خير ما يمكن أن تظفر به فسرّ لاختياري ولم يعدل بمصاهرتك شيئًا... فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هٰذه الرغبة، منّي أنا، بالصمت والتهرّب؟! الله... الله...

إلامَ يقع في هٰذه المشكلة المعقّدة التي لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب إحدى ابنتيه بصدمة قاسية؟!... ونظر إليها كما يستجدي عطفها على موقفه، وغمغم:

ـ ليس الأمر كما تتصوّرين، رغبتك فوق العين والرأس، ولٰكن...

ـ آه من لٰكن!... لا تقل إنّك قرّرت ألّا تزوّج الصغرى حتّى تتزوّج الكبرى، مَن أنت حتّى تقرّر هٰذا أو ذاك؟... دع ما لله لله وهو أرحم الراحمين. إن شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن أخوات صغار تزوّجن قبل الكبار فلم يَحُلْ زواجهنّ دون زواج أخواتهنّ بأحسن الأزواج، وخديجة شابّة ممتازة ولن تعدم زوجًا صالحًا عندما يشاء الله... إلامَ تقف حائلًا بين عائشة وبين حظّها؟... أليست هي الأخرى جديرة بعطفك ورحمتك؟!

قال لنفسه: إذا كانت خديجة شابّة ممتازة فلماذا لا تختارينها؟!... وهمّ بإحراجها كما أحرجته ولٰكنّه خاف أن ترميه بإجابة تتضمّن إساءة ـ ولو بحسن نيّة ـ

لخديجة وبالتالي له هو، وقال بصوت ملؤه الجدّ والاهتمام:

ـ ليس إلّا أنّني أشفق على خديجة.

فقالت بحدّة كأنّما هي المطالبة لا هو:

ـ كلّ يوم تقع أمور كهٰذه دون أن تربك أحدًا، إنّ الله يكره من عبده العناد والمكابرة، اقبل رجائي وتوكّل على الله، لا ترفض يدي فإنّي ما مددتها إلى أحد قبلك. . .

فدارى السيّد انفعاله بابتسامة وقال:

ـ هٰذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة. . . فقط أمهليني قليلًا ريثما أراجع نفسي وأرتّب أموري، وستجدين رأيي عند حسن ظنّك إن شاء الله. . .

فقالت بلهجة من يجهز على الحديث:

ـ لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر ممّا أخذت، ثمّ إنّه كلّما طال الأخذ والردّ خيّل إليّ أنّك لا تتقبّل رغبتي بقبول حسن، ومثلي من تطمع إذا قالت لك أريد أن تبادرها بنعم دون لتّ وعجن، فلن أزيد عمّا قلت إلّا كلمة واحدة: خليل ابني وابنك وعائشة بنتك وبنتي. . .

وقامت فقام السيّد ليودّعها، لم يكن يتوقّع إلّا كلمة توديع وتحيّة، ولكنّها أبت إلّا أن تذكّره بوصاياها جملة. كأنّما خافت أن يفوته شيء منها فأعادتها تفصيلًا، وما يدري ـ أو تدري ـ إلّا وهي ترجع لتأييد بعض آرائها وتوكيد البعض الآخر، ثمّ غلبها تداعي الأفكار فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتّى أعادت على مسمعه جلّ ما قالت عن الخطبة، وإلى هٰذا كلّه لم تشأ أن تنهي ذاك الحديث دون أن تودّع حديث الأمّ المبعدة بكلمة أو كلمتين أو ثلاث وإذا بتداعي الأفكار يغلبها مرّة أخرى فتسترسل فيه حتّى كاد الرجل يفقد أعصابه، ثمّ أوشك أن يضحك في النهاية وهي تقول له: «لا يجوز أن آخذ منك أكثر ممّا أخذت» وأوصلها إلى الباب مشفقًا في كلّ خطوة من أن تتوقّف عن المسير وتشتبك في الكلام كرّة أخرى، ثمّ عاد أخيرًا إلى مجلسه وهو يتنفّس من الأعماق. عاد مغتمًّا مكتئبًا، قلب رقيق، أرقّ ممّا يظنّ الكثيرون، بل أرقّ ممّا ينبغي، فكيف يصدّق هٰذا من لا يرونه إلّا مكشّرًا أو صاخبًا أو ضاحكًا ساخرًا!. . . إنّ مسّة حزن تلذع فلذة من كبده خليقة بأن تنغّص العيش كلّه وتطيّن وجه الحياة في عينيه، ولكم يسعده أن يجود بكلّ غالٍ في سبيل إسعاد فتاتيه سواء هٰذه التي يرى في وجهها الجميل وجه أمّه أو تلك التي لم تُصِب من الحسن إلّا لونًا شاحبًا، كلتاهما من نبض قلبه وعصارة روحه، بيْد أنّ الزوْج الذي تقدّمه حرم المرحوم شوكت لقيّة بكلّ ما في هٰذه الكلمة من معنًى، فتًى في الخامسة والعشرين، ذو دخل شهريّ لا يقلّ عن الثلاثين جنيهًا، حقًّا إنّه ككثير من الأعيان لا عمل له، وحقًّا إنّ حظّه من التعليم ضئيل لا يتعدّى معرفة القراءة والكتابة، ولٰكنّه يتّصف بجملة من خلال أبيه الطيّبة وكرم الأخلاق، ما عسى أن يفعل؟. . . يجب أن يحسم أمره لأنّه لم يألف التردّد ولا الشورى ولا يقبل أن يبدو أمام أهله ـ ولو لحظة قصيرة ـ كمن لا رأي قاطعًا له، ألا يشاور خاصّته المقرّبين؟ إنّه لا يرى غضاضة في مشاورتهم كلّما جدّ أمر، والواقع أنّ سمرهم يبدأ عادة بمناقشة الهموم والمشاكل قبل أن تطير بهم الخمر إلى الدنيا التي لا تعترف بالهموم والمشاكل، ولٰكنّه قدر ما يستبدّ في باطنه برأيه فلا يحيد عنه، فهو من الذين يلتمسون في الشورى ما يؤيّد رأيهم لا ما يعدل بهم عنه، ولكنّها حتّى في هٰذه الحال عزاء ومتنفّس، ولـمّا ضاق الرجل بأفكاره هتف قائلًا:

ـ من يصدّق أنّ ما بي من همّ لا يحتمل ما هو إلّا نتيجة لخير أكرمني به الله؟!. . .

٣٧

لم يكن لأمينة من عمل في أيّام منفاها إلّا الجلوس إلى جانب أمّها والاسترسال في الحديث، في كلّ ما يخطر على البال من أحاديث تجاذبها الماضي البعيد والماضي القريب والحاضر، ما بين الذكريات العزيزة والمأساة الراهنة ولولا عذاب الفراق وشبح الطلاق لاطمأنّت إلى حياتها الجديدة كعطلة للاستجمام من عناء الواجبات أو كرحلة خياليّة في عالم الذكريات.

بَيْد أنّ مرور الأيّام دون وقوع الشيء الذي تخاف وما بلغها من شفاعة أمّ مريم وحرم المرحوم شوكت لدى السيّد، كلّ أولئك ثبّت قلبها وروّح عن نفسها، إلّا أنّ زيارات الأبناء المسائيّة التي لم تنقطع يومًا واحدًا طلّت جوى صدرها بنفحات أمل متجدّدة. ومع أنّ الزمن الذي يتغيّبونه عنها في البيت الجديد لم يزد كثيرًا عن نظيره في البيت القديم ـ في كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم إلّا حين فراغهم في جلسة المساء ـ إلّا أنّها باتت تشتاق إليهم اشتياق المغترب في بلد بعيد إلى أحباب فرّق الدهر بينه وبينهم، اشتياق من حرّم عليه تنفّس جوّهم والعيش بين ذكرياتهم، والإشراف على مواطن جدّهم ولهوهم، كأنّ الجسم كلّما قطع في طريق الفراق قيراطًا كابده القلب أميالًا، ودأبت العجوز على أن تقول لها كلّما وجدت منها صمتًا أو آنست في حديثها الشرود:

ـ الصبر يا أمينة، إنّي أرثي لحالك، الأمّ غريبة ما ابتعدت عن أبنائها، غريبة ولو حلّت في البيت الذي ولدت فيه.

أجل إنّها غريبة، كأنّه ليس البيت الذي لم تعرف حياتها الأولى سواه موطنًا، وكأنّها ليست الأمّ التي لم تكن تطيق البعد عنها لحظة واحدة، لم يعد «بيتها» ما هو إلّا منفًى تنتظر بين جدرانه على لهف العفو من السماء. وجاء العفو بعد طول انتظار، حمله الأبناء ذات مساء، دخلوا عليها وفي أعينهم لمعة كسنا البرق خفق لها فؤادها خفقة اهتزّ لها الصدر كلّه حتّى أشفقت من أن تكون ذهبت في تأويلها إلى أبعد ممّا تحتمل، ولكنّ كمال جرى نحوها وتعلّق بعنقها ثمّ هتف بها وهو لا يتمالك نفسه من الفرح:

ـ البسي ملاءتك وهيّا بنا...

وقهقه ياسين قائلًا:

ـ جاء الفرج (ثمّ هو وفهمي معًا) دعانا أبي وقال لنا اذهبا فعودا بأمّكما...

وغضّت بصرها لتداري فرحتها الغامرة. ما أعجزها عن كتمان ما يضطرب في نفسها من شتّى العواطف، كأنّ وجهها مرآة شديدة الحساسيّة لا تترك كبيرة ولا صغيرة ممّا في أعماقها إلّا سجّلته، لَشدّ ما ودّت أن تتلقّى النبأ السعيد بهدوء خليق بأمومتها، ولكنّ الفرح استخفّها فضحكت أساريرها ونطقت بابتهاج صبيانيّ، وفي نفس الوقت تولّاها حياء لم تَدْرِ له سببًا، وطال جمودها في مكانها فنفد صبر كمال فشدّها من يدها راميًا بثقله إلى الوراء حتّى طاوعته ناهضة، ووقفت قليلًا في ارتباك غريب وما تدري إلّا وهي تلتفت إلى أمّها متسائلة:

ـ أذهب يا أمّي؟

بدا السؤال الذي ندّ عنها ـ في نغمة الارتباك والحياء ـ غريبًا، فابتسم فهمي وياسين، ودهش كمال وحده فيما يشبه الانزعاج وراح يؤكّد لها نبأ العفو الذي جاءوا به، أمّا الجدّة فقد شعرت بشعورها كلّه وحدست باطنها فرقّ قلبها وتحاشت أن تظهر الإنكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة، وقالت بلهجة جدّيّة:

ـ إلى بيتك مصحوبة بسلامة الله...

فذهبت أمينة لترتدي ملاءتها وتصرّ ثيابها وكمال في أعقابها، وهنا خاطبت الجدّة الشابّين متسائلة بلهجة خفّفتها بابتسامة رقيقة:

ـ أما كان الأخلق بأبيكما أن يأتي بنفسه...؟!

فأجابها فهمي كالمعتذر قائلًا:

ـ أنت أدرى يا جدّتي بطبع أبينا...

على حين قال ياسين ضاحكًا:

ـ فلنحمد الله على ما كان...!

فهمهمت الجدّة بأصوات غير مفهومة ثمّ تنهّدت قائلة كأنّما تردّ على همهمتها:

ـ على أيّ حال السيّد أحمد رجل ولا كلّ الرجال.

وغادروا البيت ودعاء الجدّة لهم بالبركة يتردّد في آذانهم، وقطعوا الطريق لأوّل مرّة في حياتهم حتّى بدا المنظر في أعينهم بالغًا في غرابته فتبادل فهمي وياسين نظرات باسمة. وتذكّر كمال يوم سار ـ كما يسير الآن ـ ممسكًا بيد أمّه يقودها من عطفة إلى عطفة، ثمّ ما تلا ذلك من آلام ومخاوف لا يحيط بها الكابوس نفسه فتعجّب طويلًا، بَيْد أنّه تناسى سريعًا أحزان الماضي في فرحة الساعة، ووجد من نفسه ميلًا للدعابة فقال لأمّه

ضاحكًا:

ـ تعالي نخطف أرجلنا إلى سيّدنا الحسين. . .!

فضحك ياسين بلهجة ذات معنًى:

ـ رضي الله عنه، إنّه شهيد يحبّ الشهداء. . .

ولاحت لهم المشربيّة وشبحان يتحرّكان وراء خصاصها فهفا قلب الأمّ إليهما في حنوّ واشتياق، ثمّ وجدت وراء الباب أمّ حنفي في استقبالها فغمرت يدي سيّدتها بالقُبَل، والتقت في فناء الدار بخديجة وعائشة اللتين تعلّقتا بها كالأطفال، ورقوا السلّم في مظاهرة صاخبة، ونشوة من الفرح مطربة حتّى استقرّوا جميعًا في حجرتها فتبادروا إلى نزع ملابسها ـ رمز الفراق البغيض ـ وهم يضجّون بالضحك، فلمّا جلست بينهم كانت تلهث من الانفعال والتأثّر. وأراد كمال أن يعبّر عن فرحه بها فلم يجد خيرًا من أن يقول لها:

ـ هٰذا اليوم أعزّ عندي من المحمل نفسه!

واجتمع شمل الأسرة لأوّل مرّة منذ زمن غير يسير في مجلس القهوة، فعادوا إلى السمر في جوّ من المسرّة ضاعف من بهجته ما سبقه من أيّام فراق وكآبة تزداد لذّة اليوم الدفيء يجيء في أعقاب أسبوع من الزمهرير، ولم تَنْسَ الأمّ ـ التي استيقظت غرائزها رغم فرحة اللقيا ـ أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متدرّجة من حجرة الفرن حتّى اللبلاب والياسمين، كما سألت كثيرًا عن الأب، وكم سرّها أن تعلم أنّه لم يسمح لأحد بمعاونته عند خلع ملابسه أو عند ارتدائها، فمهما يكن من أمر الراحة التي تهيّأت له في غيابها فثمّة تغيير قد طرأ على نظام حياته حمّله بلا ريب عناء سيزول بعودتها، عودتها التي تكفل له ـ وحدها ـ الحياة التي يألفها ويرتاح إليها. . .! الشيء الوحيد الذي لم يخطر لأمينة على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت في هٰذه العودة بالذات مبرّرًا لاجترار الحزن والأسى! ولٰكن هٰكذا كان، فهٰذه القلوب التي شغلت بحزن الأمّ عن أحزانها عادت إلى التفكير في أشجانها بعد أن اطمأنّت على سلامة الأمّ، كالمغص الشديد الطارئ ننسى به رمدًا مزمنًا حتّى إذا ذهب عادتنا آلام الجفون، عاد فهمي يقول لنفسه «لكلّ حزن ـ فيما يبدو ـ نهاية، هٰذه أمّي قد رفع عنها الهمّ، ولٰكن حزني يبدو كأن لا نهاية له»، ورجعت عائشة إلى أفكارها التي لا يطّلع على سرّها أحد، تتراءى لها الأحلام وتلمّ بها الذكريات وإن عدّت بالقياس إلى أخيها أهدأ حالًا وأسرع إلى النسيان خطوة، ولٰكنّ أمينة لم تكن تقرأ الأفكار فلم ينغّص عليها صفوها منغّص، ولمّا آوت إلى حجرتها ليلًا تبيّن لها أنّ النوم لا يجد متّسعًا في نفسها التي أفعمها الفرح فلم تذقه إلّا لمامًا حتّى انتصف الليل فغادرت الفراش إلى المشربيّة تنتظر كعهدها مسرّحة البصر من خصاص النوافذ إلى الطريق الساهر حتّى جاءت العربة تتهادى حاملة بعلها إلى بيته، خفق قلبها بشدّة، وتورّد وجهها حياء وارتباكًا، كأنّها ستلقاه لأوّل مرّة، وكأنّها لم تفكّر طويلًا في هٰذه اللحظة. . . لحظة اللقاء المنتظر، كيف تقابله؟ كيف يعاملها بعد هٰذه الغيبة الطويلة؟. . . ما عسى أن تقول له أو يقول لها؟ لو يسعها أن تتصنّع النوم! ولٰكنّها لا تجيد التمثيل قطّ ولا تطيق أن يدخل عليها وهي مستلقية، بل لا يسعها أن تهمل واجب الخروج إلى السلّم بالمصباح لتضيء له، وأكثر من هٰذا كلّه أنّها بعد ظَفَرها بالعودة وزوال السخط عنها ـ شاعت أريحيّة الرضا في قلبها فعفت عمّا سلف بل وحمّلت نفسها الذنب كلّه حتّى رأت بعلها ـ بالرغم من أنّه لم يُعْنَ بالذهاب إلى بيت أمّها لمصالحتها ـ حقيقًا بالاسترضاء، فتناولت المصباح ومضت إلى السلّم ومدّت ذراعها من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين بفؤاد خافق حتّى صعد إليها، لقيته برأس مطأطأ فلم ترَ وجهه عند اللقاء، ولم تدرِ أيّ تغيّر طرأ عليه حين مرآها، حتّى سمعته يقول بلهجة طبيعيّة لا أثر فيها من الماضي القريب الأسيف:

ـ مساء الخير.

فغمغمت:

ـ مساء الخير يا سيّدي. . .

وذهب إلى الحجرة وهي في أثره رافعة يدها بالمصباح، وبدأ يخلع ملابسه صامتًا فتقدّمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردّد أنفاس الراحة.

ومع أنّها ذكرت صباح القطيعة المشئوم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها بجفاء «سأرتدي ملابسي بنفسي» إلّا أنّ ذكراه خطرت عارية عن أحاسيس الألم واليأس التي غشيتها وقتذاك، وشعرت وهي تتعهّده بهٰذه الخدمة التي لم يسمح بها لسواها بأنّها تستردّ أعزّ ما تملك في الوجود. واتّخذ مجلسه على الكنبة فتربّعت على الشلتة عند قدميه دون أن ينبس أحدهما بكلمة، وكانت تتوقّع أن يشيّع «الماضي الأسيف»، بكلمة، نصيحة أو تحذير أو ما شابه ذٰلك، وعملت لذٰلك ألف حساب ولٰكنّه سألها ببساطة:

ـ كيف حال أمّك؟

فأجابته وهي تتنهّد بارتياح:

ـ بخير يا سيّدي وتهديك التحيّة والدعاء.

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيما يشبه عدم الاكتراث:

ـ حرم المرحوم شوكت فاتحتني برغبتها في اختيار عائشة زوجًا لخليل.

فرفعت إليه أمينة عينيها في دهشة ناطقة بأثر المفاجأة، ولٰكنّه هزّ كتفيه استهانة، وكأنّما خاف أن تدلي برأي يتّفق أن يكون موافقًا لقراره الذي لم يعلم به أحد فتقوم عندها شبهة ظنّ بأنّه أخذ برأيها فسبق قائلًا:

ـ فكّرت في الأمر طويلًا فانتهى بي التفكير إلى الموافقة، لا أريد أن أعترض حظّ البنت أكثر ممّا فعلت، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

٣٨

تلقّت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل، وكادت لا تصدّق أذنيها حين زفّ إليها الخبر، هل حقًّا وافق أبوها؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلمًا ذا دعابات قاسية؟... لم يكن قد فات على الخيبة التي منيت بها إلّا قرابة أشهر ثلاثة، ومع أنّ وقعها في نفسها كان شديدًا قاسيًا إلّا أنّه مضى يخفّ ويهون حتّى أمسى ذكرى شاحبة تستثير ـ إذا استثيرت ـ حزنًا رقيقًا غير ذي خطورة، كلّ شيء في هٰذا البيت يخضع خضوعًا أعمى لإرادة عليا ذات سيطرة لا حدّ لها هي بالسيطرة الدينيّة أشبه، حتّى الحبّ نفسه ـ بين جدرانه ـ يسترق خطاه إلى القلوب في حياء وتردّد وعدم ثقة بالنفس، فلا يتمتّع بما يتمتّع به عادة من سطوة واستبداد، إذ لا استبداد هنا إلّا لتلك الإرادة العليا، ولذٰلك فعندما قال الأب «لا» استقرّ قوله في أعماق نفسها وآمنت الفتاة إيمانًا راسخًا أنّ كلّ شيء قد انتهى حقًّا، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع، كأنّ «لا» هٰذه حركة كونيّة كاختلاف الليل والنهار، غير مجدٍ أيّ اعتراض عليها، ولا محيد عن اتّخاذ موقف موافق لها، وعمل هٰذا الإيمان من ناحيته ـ بشعور وبغير شعور منها ـ على إنهاء كلّ شيء فانتهى، على أنّها تساءلت فيما بينها وبين نفسها: إذا كانت الموافقة على زواجها قد تمّت ولـمّا ينقض على الرفض السابق ثلاثة أشهر فلم تكن من نصيب الشابّ الذي هفا فؤادها إليه؟... ألا ينطوي حظّها السعيد نفسه ـ تبعًا لذٰلك ـ على معاكسة غير مفهومة؟ بيد أنّه تساؤل ظلّ في طيّ الكتمان، لم يطّلع عليه أحد ولا أمّها نفسها، لأنّ إعلان الفرح بالعريس ـ كشخصيّة معنويّة فحسب ـ عدّ استهتارًا يجافي الحياء، فما بالك بإظهار الرغبة في رجل بالذات! ولٰكن بالرغم من هٰذا كلّه، وبالرغم من أنّ العريس الجديد كان مجهولًا لديها إلّا فيما حدّثت عنه أمّه في جملة حديثها عن أسرتها فقد سعدت بالبشرى أيّما سعادة، ووجدت عواطفها الظامئة قطبًا تنجذب إليه في هيامها، كأنّ حبّها نوع من «القابليّة» أكثر منه تعلّقًا برجل بالذات، فإذا استبعد رجل وحلّ محلّه آخر ظفرت قابليّتها بما يشبعها، ومضى كلّ شيء في سبيله، وقد يكون رجل آثر عندها من آخر ولٰكن ليس إلى الحدّ الذي يفسد معه طعم الحياة أو يدفع إلى التمرّد والعصيان، ولـمّا طابت نفسًا ورفّ قلبها رفيف الغبطة انبعث منها نحو أختها ـ كشأنها في مثل هٰذه الحال ـ عطف ورحمة غير مشوبين، فودّت لو أنّها سبقتها إلى الزواج، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع:

ـ وددت لو تقدّمتني إلى بيت الزوجيّة!... ولٰكنّها القسمة والنصيب، وكلّ آتٍ قريب.

ولٰكنّ خديجة ـ التي تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف ـ تلقّت قولها بامتعاض شديد لم يَخْفَ عليها. وقبل ذٰلك اعتذرت لها أمّها قائلة برقّتها وحيائها المعهودين:

ـ تمنّينا جميعًا أن يكون دورك السابق ـ وعملنا على هٰذا أكثر من مرّة، ولٰكن لعلّ عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذي عاق حظّك إلى اليوم، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله، وكلّ تأخيرة فيها خيرة.

ووجدت من ياسين وفهمي نفس العطف يبديانه تارة بالكلام المباشر، ويصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من مجاملة حلّت ـ ولو إلى حين ـ محلّ المزاح القارص الذي كان مألوفًا بينها وبينهما أو بينها وبين ياسين خاصّة، الحقّ أنّه لم يعدل حزنها على سوء حظّها إلّا نرفزتها من العطف الشائع في جوّها لا لنفور من العطف مركّب في طبعها، ولٰكن لأنّ مثلها مثل المصاب بالأنفلونزا يضار بالتعرّض للهواء الطلق الذي ينعشه عادة وهو صحيح، فما كانت تأبه لعطف تعلم أنّه بديل غير مُجْدٍ لأمل ضائع، ولعلّها ارتابت ـ إلى هٰذا كلّه ـ في البواعث التي تدفعهم إلى إغداق العطف عليها، ألم تكن أمّها الواسطة دائمًا بين الخاطبات وبين أبيها؟ فمن يدريها أنّها كانت تقوم بالوساطة أداء لواجب ربّة البيت لا سعيًا وراء رغبة خفيّة في تزويج عائشة؟! أوَليس فهمي هو الذي حمل رسالة ضابط قسم الجماليّة؟... ألم يكن بوسعه أن يعدل به عن رأيه من وراء وراء؟!

أوَليس ياسين... ولٰكن بأيّ وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو أقرب منه إليها؟... فأيّ عطف هٰذا؟! بل أيّ رياء وأيّ كذب! لذٰلك برمت بالعطف، وذكرت به الإساءة لا الإحسان، فامتلأت حنقًا وامتعاضًا ولٰكنّها طوتهما في الأعماق أن تظهر بمظهر الكاره لسعادة أختها أو تعرّض نفسها ـ هٰكذا صوّر لها سوء ظنّها ـ لشماتة الشامتين، على أنّه لم يكن لها محيد عن كتمان عواطفها لأنّ الكتمان في هٰذه الأسرة ـ خاصّة فيما يتعلّق بالعواطف ـ عادة متأصّلة وضرورة أخلاقيّة طبعت عليه في ظلّ الإرهاب الأبويّ، وبين الحنق والامتعاض من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذابًا متّصلًا وجهدًا مطّردًا. وأبوها؟! ماذا عدل به عن رأيه القديم؟! أهانت عليه بعد إعزاز؟! هل نفد صبره في انتظار زواجها فقرّر التضحية بها وتركها للأقدار؟! لشدّ ما تعجب لتخلّيهم عنها كأنّها شيء لا يكون، نسيت في ثورتها مواقفهم السابقة في الدفاع عنها فلم تذكر إلّا «خيانتهم» الأخيرة، على أنّ غضبتها العامّة هٰذه لم تكن شيئًا بالقياس إلى ما تجمّع في صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحنق! كرهت سعادتها، وكرهت أكثر مداراتها لهٰذه السعادة، وكرهت جمالها الذي بدا في عينيها أداة تنكيل وتعذيب كما يبدو البدر الساطع في عين المطارد، ثمّ كرهت الحياة التي لم تعد تدّخر لها إلّا اليأس، وتتابعت الأيّام لتزيدها حزنًا على حزن بما حملت إلى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت في الجوّ كلّه من بواعث الغبطة والفرح فوجدت نفسها في غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات في البركة الآسنة، ثمّ شرع السيّد في تجهيز العروس فاستأثر حديث الجهاز بجلسات الأسرة المسائيّة، تعرض عليها أنواع من الأثاث والثياب فتطري شيئًا وتعرض عن شيء، توازن بين لون ولون، في اهتمام نسوا فيه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة، وحتّى هي نفسها اضطرّت ـ مجاراة لما تتظاهر به من رضًى ـ إلى المشاركة في نشاطهم وحماسهم ومناقشاتهم التي لا تنتهي. بيد أنّ هٰذا الموقف العاطفيّ المعقّد، الذي يبدو لعين الغريب عن الأسرة كنذير شرّ لا تحمد عواقبه، تغيّر فجأة حين اتّجه التفكير إلى تفصيل ثياب العروس وبالتّالي حين تعلّقت الأبصار بخديجة وتركّز فيها الاهتمام كلّه والأمل كلّه. وقد توقّعت هٰذا الواجب كأمر لا مفرّ منه، يحنقها قبوله أشدّ الحنق ولا يسعها رفضه وإلّا فضحت خبيئتها، ولٰكنّها حين تطلّعت إليها الأبصار فأوصتها أمّها بأختها خيرًا ورنت إليها شقيقتها بعين ملؤها الحياء والرجاء

وقال فهمي لعائشة على مسمع منها: «لن تكوني عروسًا حقًّا حتّى تحيك لك خديجة ثياب العرس»، وقال ياسين معلّقًا على قوله: «صدقت. . . هٰذه الحقيقة فوق الجدل»، حين حدث هٰذا كلّه فتر حنقها وعَقَل ثورتها الحياء فطفت عواطفها الطيّبة المطمورة، كما يستخرج الماء العذب الأخضر من البذور الكامنة تحت الطين، ولم تَرْتَبْ في بواعث هٰذا الاهتمام كما ارتابت من قبل في بواعث العطف «الزائف» لشعورها بصدقه من ناحية ولأنّه اتّجه إلى براعتها التي لا شكّ فيها من ناحية أخرى. فكأنّه اعتراف جامع بأهمّيّتها وخطورة شأنها، وبأنّ هٰذه السعادة - التي أبت أن تكون من نصيبها - لن تستكمل عناصرها حتّى تسهم هي فيها، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تخفّفت إلى أقصى حدّ ممكن من انفعالاتها السوداء، إنّ الانفعالات السوداء تلمّ بهٰذه الأسرة كما تلمّ بغالبيّة البشر ولٰكنّها لا تظفر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستقرّ. منهم مَن قابليّته للغضب كقابليّة الكحول للاشتعال، ولٰكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأيّام من شتاء مصر يطلخمّ سحابها حتّى تمطر رذاذًا؛ وما هي إلّا ساعة أو بعض ساعة حتّى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة. لا يعني هٰذا أنّ خديجة نسيت أحزانها ولٰكنّ السماحة صفّتها من الضغينة والحقد، ويومًا فيومًا لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من أهلها بقدر ما عتبت على بختها حتّى نصبته في النهاية هدفًا لامتعاضها وتذمّرها، ذٰلك البخت الذي قتّر عليها في الحسن وأجّل زواجها حتّى جاوزت العشرين وكدّر غدها بالقلق والمخاوف، واستسلمت أخيرًا - كأمّها - للمقادير. عجز جانبها الحامي الموروث عن أبيها، كما عجز جانبها المعقّد المكتسب من موقفها حيال بيئتها، عن معالجة حظّها العاثر، فوجدت السلامة في أن تلوذ بالجانب السلميّ الموروث عن أمّها فاستسلمت للمقادير؛ كالقائد الذي تعييه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقعًا ذا حصانة طبيعيّة ليثبت فيه فلوله، أو يدعو إلى الصلح والسلام. وراحت تشكو بثّها في الصلاة ومناجاة الرحمٰن. والحقّ أنّها كانت - منذ صباها - تجاري أمّها في تديّنها ومحافظتها على الفرائض بمثابرة دلّت على يقظة عاطفتها الدينيّة، لا كعائشة التي تلمّ بالعبادة في نوبات حماسيّة متباعدة ولا تطيق المداومة عليها، وطالما تعجّبت خديجة - وهي بمعرض المقارنة بين حظّها وبين حظّ أختها - من سوء الجزاء الذي تثاب على إخلاصها، وحسن الجزاء الذي تثاب به الأخرى على تهاونها. . . «إنّي أحافظ على الصلاة أمّا هي فلم تطق المحافظة عليها يومين متتاليين، وإنّي أصوم رمضان كلّه وأمّا هي فتصوم يومًا أو يومين ثمّ تتظاهر بالصوم على حين تنسلّ خفية إلى المخزن فتملأ بطنها بالنُّقل حتّى إذا أطلق مدفع الإفطار هرعت إلى المائدة قبل الصائمين!». . . وحتّى من ناحية الجمال لم تسلّم لعائشة بدون قيد ولا شرط، نعم إنّها لم تجهر برأيها لأحد، بل لعلّها تؤثر كثيرًا أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحفّزين ولٰكنّها كانت تطيل النظر إلى وجهها في المرآة وتناجي نفسها قائلة: «عائشة جميلة بلا شكّ ولٰكنّها نحيلة، السمنة نصف الجمال، أنا سمينة، واكتناز وجهي يكاد يغطّي على كبر أنفي، لم يبق إلّا أن يشدّ بختي حيله». على أنّها فقدت ثقتها بنفسها في الأزمة الأخيرة، ومع أنّها عاودت كثيرًا تلك المناجاة عن الجمال والسمنة والبخت إلّا أنّها عاودتها هٰذه المرّة لتذري - أمام نفسها - إحساسها المقلق بعدم الثقة كما نلجأ أحيانًا إلى المنطق لنستمدّ منه الطمأنينة على أمور - كالصحّة والمرض والسعادة والشقاء والحبّ والكراهية - لا تمتّ إلى المنطق بسبب. . .

ولم تنس أمينة - رغم كثرة مشاغلها كأمّ العروس - خديجة، أو أنّ فرحها للعروس كان يذكّرها بحزنها على أختها كما تذكّرنا الراحة التي نحظى بها بفعل مخدّر بالألم الذي سيعاودنا بعد حين، وكان زواج عائشة قد أثار مخاوفها القديمة عن خديجة فأرسلت - التماسًا للطمأنينة من أيّ سبيل - أمّ حنفي إلى الشيخ رعوف بالباب الأخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها. وعادت المرأة بنوع من البشرى فقالت لسيّدتها إنّ الشيخ قال لها «ستحملين إليّ رطلين من السكّر عمّا

قريب، ومع أنّها لم تكن أوّل بشرى من هٰذا النوع تزفّ إليها عن خديجة إلّا أنّها أمّلتها خيرًا ورحّبت بها كمسكّن للقلق الذي لا يزايلها...

٣٩

«ألم يئن الأوان يا بنت المركوب؟! ذُبْتُ يا مسلمين، ذبت كالصابونة ولم يبق منها إلّا رغوة، هي تعلم بهٰذا ولا تريد أن تفتح النافذة، تدلّلي... تدلّلي يا بنت المركوب، ألم نتّفق على هٰذا الميعاد؟ ولٰكن لك حقّ... فردة ثدي من صدرك تكفي لخراب مالطة... وفردة تالية تطيّر مخّ هندنبرج، عندك كنز، ربّنا يلطف بي، ربّنا يلطف بي وبكلّ مسكين مثلي يؤرّقه الثدي الناهد والعجيزة المدملجة والعين المكحولة، العين المكحولة في الآخر، إذ رُبَّ ضريرة ريّا الروادف كاعب الثديين خير ألف مرّة من عجفاء مسحاء مكحولة العينين، يا بنت العالمة وجارة التربيعة... تلك لقّنتك أصول الدلال وهٰذه تمدُّك بأسرار الجمال، لهٰذا ينهد ثدياكِ من كثرة مَن عبث بهما من العشّاق، اتّفقنا على الميعاد لست أحلم، افتحي النافذة، افتحي يا بنت المركوب، افتحي يا أجمل من اقشعرّت له سرّتي، ومصّ الشفة ورضع الحلمة لأنتظرنّ حتّى مطلع الفجر، ستجدينني طوع بنانك، إن أردت أن أكون مؤخّر عربة الكارو التي تتأرجحين عليه أكُنْهُ، إن أردت أن أكون الحمار الذي يجرّ العربة أكنه، يا وقعتك يا ياسين، يا خراب بيتك يا بن عبد الجواد، يا شماتة الأستراليّين فيك... يا أنا يا طريد الأزبكيّة وحبيس الجماليّة، الحرب يا هوه، شنّها غليوم في أوربّا ورحت ضحيّتها أنا في النحّاسين، افتحي النافذة يا روح أمّك، افتحي يا روحي أنا...». هٰكذا جعل ياسين يحادث نفسه وهو جالس على الأريكة بقهوة سي عليّ، وعيناه تتطلّعان إلى بيت زبيدة العالمة خلل الكوّة المطلّة على الغوريّة، كلّما شكّه الجزع غرق في أحلامه وخواطره فترفّه جزعه وتهيّج أشواقه معًا، كبعض المنوّمات الطبّيّة التي تعالج الأرق وتتعب القلب، كان قد تقدّم خطوة في مغازلة زنّوبة العوّادة مغازلة خرج بها من دور التحضير- ملازمة قهوة سي عليّ مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو والابتسام وفتل الشارب وتلعيب الحاجب- إلى دور المفاوضة والتأهّب للعمل. حدث ذٰلك في عطفة التربيعة الطويلة الضيّقة المسقوفة بالخيش الملتوية ذات الدكاكين الصغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا النحل. ولم تكن التربيعة بالجديدة عليه، كيف وهي سوق النسوان من جميع الطبقات يتقاطرن عليها لابتياع ما خفّ حمله وجلّت فوائده من مختلف صنوف العطارة ذوات البهجة والجمال والنفع، فهي هدفه كلّما خلا طريقه من هدف يجذبه إليه، وهي مراحه صباح الجمعة يقطعها متمهّلًا- بحكم الزحمة والرغبة معًا- من طرف إلى طرف كأنّما يستعرض الدكاكين لانتقاء حاجة وهو في الحقيقة يتفحّص الوجوه والأجسام وما تنحسر عنه البراقع وما تضيق به الملاءات، ما يرى جملة وما يرى تفصيلًا، ما يسطع هنا وهناك من روائح زكيّة، ما يندّ من حين لآخر من أصوات أو بوسوس من ضحكات، ملتزمًا عادة حدود الأدب لغلبة العناصر الطيّبة على الزائرات، قانعًا بالمشاهدة والموازنة والنقد، لاقطًا من المرئيّات صورًا ممتازة يزين بها متحف ذاكرته، لا يفوق سعادته إذا ظفر بلون بشرة صافٍ لم يره من قبل، أو بلحظ عين لم يتعرّض لمثله، أو لثدي عجيب في نهوده، أو لعجيزة خرقت المألوف في ضخامتها أو حسن تكوينها فيرجع مرّة وهو يقول «فاز بالسبق اليوم نهد الستّ التي كانت واقفة أمام الدكّان الفلاني» أو «هٰذا يوم الكَفَل الرابي رقم ٥» أو «يا لها من حقيبة ويا لها من حقيبة... هٰذا يوم الحقائب المشرقة» إذ تأدّى به مزاجه إلى التهالك على جسم المرأة متجاهلًا شخصيّتها ثمّ إلى تركيز العناية في أجزاء من الجسم متجاهلًا جملته، وكأنّه في هٰذا كلّه ينعش آماله ويجدّدها أبدًا كرجل لا يقدّم على النسوان غاية في دنياه- عند الفرص المحتملة المدّخرة ليوم أو لغد، إلى ما يسنح له في هٰذه الجولات الجنسيّة من صيد طيّب في أحوال نادرة، ففي ذات أصيل- وهو بمجلسه تحت الكوّة بقهوة سي عليّ- رأى العوّادة تغادر

البيت بمفردها فنهض من توّه وتبعها، ومالت إلى عطفة التربيعة فمال وراءها، ثمّ وقفت أمام دكّان فوقف إلى جانبها، وانتظرت حتّى يفرغ العطّار من بعض الزبائن فانتظر ولم تلتفت ناحيته فاستدلّ بذاك «التجاهل» على أنّها فطنت لوجوده ـ كما لا بدّ أن تكون حدست متابعته لها من بادئ الأمر ـ فهمس قريبًا من أذنها «مساء الخير» فواصلت النظر إلى الأمام إلّا أنّه لمح بجانب فيها انحراف ابتسامة ردًّا لتحيّته، أو مكافأة له على طول متابعته لها مساء بعد مساء، فتنهّد تنهّد الراحة والظفر مطمئنًّا إلى جني ثمرة صبره فسال لعاب شهوته كما يتحلّب ريق الجائع النهم إذا تطايرت إلى أنفه رائحة الشواء الذي يهيّأ له ورأى عن حكمة أن يتظاهر بأنّهما جاءا معًا فأدّى ثمن مشترياتها من الحنّاء والمغات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأنّه ـ بأداء هذا الواجب اللذيذ ـ يكتسب حقًّا ألذّ وأمتع، غير مكترث لما بدا منها من الميل إلى الإكثار من المشتريات حين اطمأنّت إلى أنّه سيدفع الثمن. وفي طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق «يا ستّ الحسن والجمال قضيت العمر كما تشهدين وراءك، وجزاء المحبّ اللقاء فقط؟» فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة في تهكّم «اللقاء فقط؟» فكاد يضحك بروحه وجسمه كحاله إذا أخذته نشوة فرح ولكنّه بادر إلى إحكام إغلاق فيه أن يحدث ضجّة تلفت الأنظار وأجابها هامسًا «اللقاء ولوازمه!» فقالت بلهجة انتقاديّة «الواحد منكم يطلب بكلّ بساطة (اللقاء)... كلمة صغيرة... ولكنّه يعني بها عملًا ضخمًا لا ينال عند بعض الناس إلّا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز والمأذون، أليس كذلك يا حضرة الأفندي الذي يضاهي الجمل طولًا وعرضًا؟!» فتورّد وجهه فيما يشبه الارتباك وقال «يا له من تأديب مهما يكن من قسوته فإنّه من شفتيك كالشهد، أليس هكذا العشق يا ستّ الحسن منذ خلق الله الأرض ومن عليها؟» فقالت وهي ترفع حاجبيها حتّى حاذيا طرف عروس البرقع فبدت كيعسوب باسط جناحيه «ومن أدراني بالعشق يا جملي؟... لست إلّا عوّادة، ترى هل للعشق لوازم أيضًا؟» فقال وهو يغالب الضحك «هي ولوازم اللقاء شيء واحد» «بلا زيادة ولا نقصان؟» «بلا زيادة ولا نقصان» «ولا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة؟!...» «لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة» «لعلّها التي يسمّونها الزنا؟!» «بلحمه وعظمه!» فندّت عنها ضحكة، قالت «اتّفقنا...» انتظر حيث تنتظر كلّ مساء بقهوة سي عليّ وعندما أفتح النافذة قم إلى البيت». انتظر مساء ومساء ومساء، مساء خرجت مع الجوقة على الكارو، ومساء ذهبت مع العالمة في حنطور، ومساء لم يَبْدُ على البيت أثر للحياة، وها هو ينتظر وقد أعيا أعصاب رأسه طول النظر إلى الشبّاك. ومرّ مَوْهِن من الليل فأغلقت الدكاكين وأقفر الطريق وشمل الغوريّة ظلام، ووجد ـ كما يقع له كثيرًا في إقفار الطريق وإظلامه مثارًا غريبًا لمكمن الشهوة في جسده فازداد جزعًا على جزع، بَيْد أنّه لكلّ شيء نهاية حتّى الانتظار الذي يبدو وكأن لا نهاية له فترامى إليه من ناحية الشبّاك الغارق في الظلمة طقطقة نفخت في حواسّه روح أمل جديد كما تنبعث روح الأمل في نفس التائه في القطب إذا ترامى إلى سمعه أزيز الطيّارة التي يحدس أنّها جاءت للبحث عنه بين الثلوج، ولاحت فرجة يشعّ منها ضوء، ثمّ تنوّر شبح العوّادة وسط الفرجة فقام من فوره وغادر القهوة عابرًا الطريق إلى بيت العالمة ودفع الباب دون أن يطرقه فانفتح كأنّ يدًا رفعت مزلاجه فمرق إلى الداخل ليجد نفسه في ظلمة دامسة لم يَهْتَدِ معها إلى موقع السلّم فلزم موقفه ليأمن الاصطدام أو العثار ووثب إلى رأسه سؤال لا يخلو من قلق: ترى أدعته زنّوبة على غير علم من العالمة؟ وهل تبيح لها العالمة الاجتماع بعشّاقها في بيتها؟ ولكنّه أبرز لسانه استهانة لأنّ رادعًا لم يكن ليثنيه عن مغامرة، ولأنّ ضبط عاشق في بيت تقوم جدرانه على مهج العاشقين ليس ممّا تحاذر عواقبه وانقطع عن التفكير حين لاح لعينيه ضوء شاحب يهبط من أعلى، ثمّ لمحه يترنّح على الجدران التي وضحت رويدًا فتبيّن موقفه على بعد ذراع من أولى درجات السلّم عن يمينه، وما عتّم أن رأى زنّوبة قادمة وبيدها مصباح فمضى نحوها

في سكرة من الشوق وضغط في حنان على ساعدها امتنانًا ورغبة حتّى ضحكت ضحكة رقيقة أوحت على رقّتها بأنّها لا تحاذر، وتساءلت بمكر:

ـ طال انتظارك؟

فمسّ سوالفه بأنامله وهو يقول بصوت شاكٍ:

ـ شاب شعري الله يسامحك (ثمّ بصوت خافت) الستّ هنا؟

فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت:

ـ نعم... في خلوة مع رفيق قدّ الدنيا...

ـ ألا تغضب إذا علمت بحضوري في هٰذه الساعة؟

فاستدارت وهي تهزّ منكبيها استهانة ورقيت الدرج وهي تقول:

ـ وهل أنسب من هٰذه الساعة لحضور عاشق مثلك؟

ـ إذًا لا ترى بأسًا في اجتماعنا ببيتها؟

فحرّكت رأسها حركة راقصة وقالت:

ـ لعلّها ترى كلّ البأس في عدم اجتماعنا!...

ـ عاشت... عاشت...

فاستطردت في لهجة تنمّ عن الفخار قائلة:

ـ لست عوّادة فحسْب، أنا بنت أختها، وهي لا تضنّ عليَّ بغالٍ... تقدّم بسلام...

ولـمّا بلغ الدهليز جاءهما من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه عود ودفّ فأنصت ياسين قليلًا ثمّ تساءل:

ـ خلوة أم حفلة؟

فهمست في أذنه:

ـ خلوة وحفلة معًا، عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج، لا يطيق أن يخلو مجلسه ساعة من العود والدفّ والكأس والضحك... عقبى لك...

ومالت إلى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها، ووضعت المصباح على كونصول ثمّ وقفت أمام المرآة لتلقي نظرة فاحصة على صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وسدّد عينيه المنهومتين إلى الجسم المشتهى الذي بدا لناظريه متجرّدًا عن الملاءة لأوّل مرّة سدّدهما بقوّة وتركيز وحرّكهما في أناة وتلذّذ من فوق لتحت ومن تحت لفوق، ولٰكنّه قبل أن ينفّذ نيّة من عشرات النوايا التي اعتلجت في صدره قالت زنّوبة كأنّما تصل ما انقطع من حديثها:

ـ رجل لا نظير له في لطفه وطربه، أمّا كرمه فحدّث عنه من اليوم إلى الغد... هٰكذا يكون العشق وإلّا فلا...

لم يغب عنه ما في إشارتها إلى «كرم» عشيق العالمة من معانٍ، ومع أنّه سلّم من بادئ الأمر بأنّ غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة إلّا أنّ تلميحها ـ الذي بدا له مبتذلًا ـ ضايقه، فلم يسعه إلّا أن يقول مدفوعًا بغريزة الدفاع عن النفس:

ـ لعلّه رجل واسع الثراء!

فقالت وكأنّها تجيبه على مناورته:

ـ الثراء شيء والكرم شيء آخر... رُبَّ ثريّ بخيل...

فتساءل لا عن رغبة في المعرفة ولٰكن تفاديًا من الصمت الذي خاف أن يفضح استياءه:

ـ تُرى من يكون هٰذا الرجل الكريم؟

فقالت وهي تدير عجلة المصباح لترفع فتيلته:

ـ إنّه من حيّنا ولا بدّ أنّك تسمع عنه... السيّد أحمد عبد الجواد...

ـ من...!

فالتفتت نحوه دهشة لترى ما أفزعه فألفته متصلّب القامة جاحظ العينين فسألته مستنكرة:

ـ ما لك؟

كان تلقّي الاسم الذي نطقت به كأنّه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فندّ عنه التساؤل في نبرات صارخة من الفزع وهو لا يدري، وغاب عمّا حوله لحظات مليئة بالذهول، ثمّ تراءى له وجه زنّوبة في حالة من الدهشة والإنكار فخاف افتضاح أمره وركّز إرادته كلّها في الدفاع عن موقفه فعمد إلى التمثيل يداري به فزعه فضرب كفًّا بكفّ كأنّما لا يصدّق ما قيل عن الرجل لظنّه الوقار به وتمتم مستغربًا:

ـ السيّد أحمد عبد الجواد!... صاحب دكّان النحّاسين؟

فحدجته بنظرة انتقاد مرّ لإزعاجها بلا سبب وسألته مستهزئة:

ـ نعم هو... فلماذا استصرخك كأنّك عذراء تُفضّ بكارتها؟

فضحك ضحكة آليّة وقال كالداهش وهو يحمد الله في سرّه على أنّه لم يذكر لها اسمه كاملًا يوم التعارف:

ـ من يصدّق عن هٰذا الرجل الوقور الورع؟!

فرمته بنظرة ارتياب وقالت ساخرة:

ـ أهٰـذا ما أفـزعك حقًّـا؟... ولا شيء غيره؟! أظننته من المعصومين؟... وماذا عليه من هٰذا؟... هل يكمل الرجل إلّا بالعشق؟!...

وقال بلهجة المعتذر:

ـ صـدقت... لا شيء يستحقّ الدهش في هٰـذه الدنيا (ثمّ ضاحكًا في عصبيّة) تصوّري هٰذا الرجـل الوقور وهـو يطارح السلطانـة الغرام ويشرب الخمـر ويطرب للغناء...!

فقالت وكأنّها تكمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة:

ـ ويلعب بالدفّ بيد ولا يد عيّوشة الدفّافة وينثر النكات كالدرر فيقتل من حوله ضحكًا، وليس عجبًا ـ بعـد هٰـذا كلّه ـ أن يـرى في دكّـانــه مثـالًا للجـدّ والوقار... فالجدّ جدّ واللهو لهـو، وساعـة لربّـك، وساعة لقلبك...

يلعب بالدفّ بيد ولا يد عيّوشة الدفّافة!... ينثر النكات فيقتل من حوله ضحكًـا!... من عسى أن يكون هٰذا الرجل؟!

أبـوه السيّد أحمـد عبد الجـواد؟! الصـارم الجبّـار الرهيب التقيّ الورع؟! الذي يقتل من حوله رعبًا؟!

كـيف يـصـدّق مـا سمعت أذنـاه؟! كـيـف، كيف؟!... ألا يكـون ثمّة تشـابـه في الأسـماء وألّا علاقة بين أبيه وبين هٰذا العـاشق الدفّـاف؟! ولٰكنّ زنّوبة وافقت على أنّه صاحب دكّان «النحّاسين» وليس في النحّاسين من دكّـان تحمل هٰـذا الاسم إلّا دكّان أبيه!... ربّاه هل ما سمعه حقيقة أو أنّـه يهذي؟! لشدّ ما يودّ أن يطّلع عـلى الحقيقة بنفسـه، أن يرى بعينيه دون وسيط، رغبة تملّكته لحظتئذٍ فبدا تحقيقها كأخطر شيء في الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم إلى الفتاة وهو يهزّ رأسه هزّة حكيم كأنّما يقول «يا لها من أيّام كلّها عجائب!» ثمّ سألها بلهجة من يدفعه حبّ الاستطلاع وحده:

ـ ألا أستطيع أن أراه من حيث لا يراني؟

فقالت معترضة:

ـ أمرك عجيب، وما الداعي إلى هٰذا التجسّس؟!

فقال برجاء:

ـ منظر يستحقّ المشاهدة فلا حرمتني منه!...

فضحكت باستهانة وقالت:

ـ عقـل طفل في جسم جمـل، أليس كـذٰلـك يـا جملي؟... ولٰكن لا عاش من يخيّب لـك رجاء... انْزَوِ في الدهليز وسأدخـل عليهما بـطبق من الفاكهـة تاركة الباب مفتوحًا حتّى أرجع...

وغـادرت الحجرة فتبعهـا عـلى الأثـر بفؤاد خـافق وانزوى في ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت العوّادة سيرها إلى المطبخ، وبعد قليل عادت حـاملة طبقًا من العنب فاتّجهت إلى الباب الذي ينبعث منه الغناء فنقرت عليه، وانتظرت دقيقة ثمّ دفعته ودخلت دون أن تغلقه وراءها، هناك بدا مجلس الـطرب في صدر الحجرة تتوسّطه زبيدة محتضنة العود وهي تلعب بالأوتار بأناملها وهي تغنّي «يا مسلمين يا أهـل الله» وعلى كثب منها جلس «أبوه» دون غيره ـ وقـد اشتدّ خفقان قلبه لدى رؤيته ـ متجرّدًا من جبّته مشمّرًا عن ساعديه راعشًا الدفّ بين يديه متطلّعًا إلى العالمة بوجه يقطر بشاشة وبِشْرًا. لم يلبث الباب مفتوحًا إذ ريثما رجعت زنّوبة، دقيقـة أو دقيقتين، ولٰكنّـه رأى فيهما منظرًا عجبًا، حياة غامضـة، قصّة طـويلة عريضـة، استيقظ في أعقابها كالذي يستيقظ من نوم طويل عميق على قلقلة زلزال عنيف، رأى في دقيقتين عمرًا كاملًا ملخّصًا في صورة كمن يـرى في حلم هنيهة صـورة جامعة لأحداث شيء يستغرق وقوعها في عالم الحقيقة أعـوامًا طـويلة، رأى أباه حقًّـا، أباه دون غـيره من البشر، ولٰكن لا كما تعوّد أن يراه، فلم يسبق له أن رآه متجـرّدًا من جبّته في جلسـة مريحـة منـاسبـة مـع

سجيّتها، ولا رأى شعره الفاحم ثائر الأطراف كأنّما جاء يعدو حاسر الرأس، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحسر، ولا رأى ـ إي والله ـ الدفّ بين يديه يرعش باعثًا شخشخته الراقصة المتقطّع بالنقر الرشيق، ولا رأى ـ ولعلّه أعجب ما رأى ـ هٰذا الوجه الضاحك المتألّق الريّان بالودّ والصفاء الذي أذهله كما ذهل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام الدكّان يوم قصده مدفوعًا برغبته في الإفراج عن أمّه، رأى هٰذا كلّه في دقيقتين، ولـمّا أغلقت زنّوبة الباب وعادت إلى حجرتها لَبِثَ بموقعه يستمع إلى الغناء وخشخشة الدفّ برأس دائر، نفس الصوت الذي استمع إليه حال دخوله البيت، ولٰكن أيّ تغيّر اعتور الأثر الذي ينطبع منه على نفسه، أيّ معانٍ وصوَر جديدة ينقلها الآن إلى وجدانه كرنين جرس المدرسة يهشّ له الطفل إذا سمعه وهو غريب عنها وينقلب في أذنيه نذيرًا لمتاعب جمّة إذا سمعه وهو ضمن تلاميذها. ونقرت زنّوبة على الحجرة كأنّما تدعوه ليلحق بها فأفاق من غيبوبته ومضى إليها وهو يحاول أن يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطربًا أو ذاهلًا فدخل وعلى شفتيه ابتسامة عريضة:

ـ هل أنساك نفسك ما رأيت؟!

فقال بلهجة تشي بالرضا والارتياح:

ـ منظر نادر، وغناء بديع...

ـ أتحبّ أن نفعل مثلهما؟

ـ في ليلتنا الأولى؟!... كلّا... لا أحبّ أن أخلط بك شيئًا آخر ولو كان الغناء نفسه!...

ولئن تكلّف بادئ الأمر الحديث ليبدو أمامها ـ وأمام نفسه على السواء ـ هادئًا طبيعيًّا فقد انتهى إلى الانهماك فيه بلا تكلّف ثمّ إلى استرداد حاله الطبيعيّة بأسرع ممّا قدّر، كالذي يتصنّع هيئة الباكي في مأتم فينخرط في البكاء. على أنّه ربّما عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه «أعْجِب بها من حال لم تخطر لي على بال من قبل، أنا هنا مع زنّوبة وأبي في الحجرة القريبة مع زبيدة، كلانا في بيت واحد!» ولٰكنّه سرعان ما يهزّ كتفيه ويستطرد في حديثه مع نفسه «كيف أحمّل نفسي مشقّة العجب لوقوع شيء باعتباره بعيدًا عن التصديق ما دمت ألمسه واقعًا! إنّه هناك فمن السخف أن أتساءل ذاهلًا هل يمكن تصديق هٰذا. فلأصدّق ولأتعجّب... وماذا عليه من هٰذا!» ولم يشعر إلى تفكيره بارتياح فحسب ولٰكنّه فرح فرحة فاقت كلّ تقدير، لا لأنّه كان بحاجة إلى مشجّع ليواصل حياته الشهويّة، ولٰكن لأنّه ـ كأكثريّة الغارقين في الشهوات المحرّمة ـ يستأنس إلى الشبيه، فكيف إن وجد في شخص أبيه ـ القدوة التقليديّة ـ الذي طالما أزعجه، بشعور وبلا شعور منه، أن يجد نفسه وإيّاه على طرفي نقيض، تناسى كلّ شيء إلّا فرحته، كأنّها أعزّ ما ظفر به في حياته، وشعر نحو أبيه بحبّ وإعجاب جديدين ـ غير الحبّ والإعجاب اللذين اكتسبهما قديمًا تحت ستار كثيف من الإجلال والخوف. حبّ وإعجاب ينبعان من أعماق النفس ويختلطان بجذورها الأولى، بل كأنّهما وحبّ الذات والإعجاب بها شيء واحد، لم يعد الرجل بعيدًا عزيز المنال مغلق الأبواب ولٰكن دانيًا قريبًا، قطعة من نفسه وقلبه، أبًا وابنًا، روحًا واحدًا، ليس الرجل الذي يرعش الدفّ في الداخل السيّد أحمد عبد الجواد ولٰكنّه ياسين نفسه، كما يكون وكما يجب أن يكون، وكما ينبغي أن يكون، لا يفرّق بينهما إلّا اعتبارات ثانويّة من العمر والتجربة «هنيئًا لك يا والدي، اليوم اكتشفتك، اليوم عيد ميلادك في نفسي، يا له من يوم ويا لك من أب، لم أكن قبل الليلة إلّا يتيمًا، أشرب والعب بالدفّ لعبًا، ولا يد عيّوشة الدفّافة، إنّي فخور بك، هل تغنّي أيضًا يا تُرى؟...».

ـ ألا يغنّي السيّد أحمد عبد الجواد أحيانًا...؟

ـ ألا زال فكرك مشغولًا به؟! يا ويل الناس من الناس!... بل يغنّي أحيانًا يا جملي... يشترك في الهنك إذا سكر...

ـ وكيف صوته؟...

ـ غليظ جميل كعنقه...

«إلى هٰذا الأصل ترجع الأصوات التي تغنّي في بيتنا، الجميع يغنّون، أسرة عريقة في الطرب، ليتني أسمعك ولو مرّة، لا أحفظ لك في ذاكرتي إلّا الزعق

والنهر، غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا «يا ولد ـ يا ثور ـ يا بن الكلب» أريد أن أسمع منك «الوداد في الملاح صُدَف» أو «حبّيت يا جميل» كيف تسكر يا أبي؟ كيف تعربد؟ ينبغي أن أعرف لأحتذي مثالك وأحيي تقاليدك، كيف تعشق؟ كيف تعانق؟...

وانتبه إلى زنّوبة فرآها أمام المرآة وهي تسوّي أهداب شعرها بأناملها وقد لاح إبطها من فرجة الفستان أملس ناصعًا يتّصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين فسرت في بدنه سَكْرة الهياج وانقضّ عليها كأنّه فيل ينقضّ على غزال...

٤٠

وقفت ثلاث سيّارات تطوّع بتقديمها بعض الأصدقاء أمام بيت السيّد أحمد في انتظار العروس وحاشيتها لحملهنّ إلى بيت آل شوكت بالسكّريّة، كان الوقت أصيلًا وقد انحسرت أشعّة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرّت على البيوت المواجهة لبيت العروس. ولم تكن ثمّة مظاهر تدلّ على عرس، اللّهمّ إلّا الورود التي ازّيّنت بها أولى السيّارات الثلاث فلفتت أنظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارّة، ومن قبل ذٰلك اليوم تمّت الخطبة ووردت الهدايا ونُقل الجهاز وعُقد القران فلم تنطلق من البيت زغرودة أو تعلّق ببابه زينة أو تشي بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المألوفة التي تفاخر الأسر بإعلانها في أمثال هٰذه المناسبات، وتتعلّل بسوانحها لتفصح عن مكنون حنينها للمسرّة بالغناء والرقص والزغاريد، تمّ كلّ شيء في صمت وهدوء فلم يدرِ به إلّا الأقارب والأصدقاء وخاصّة الجيران، وأبى السيّد أن يتزحزح عن تزمّته أو أن يسمح لأحد من آل بيته بأن يتزحزح عنه ولو ساعة واحدة، وفي ظلّ هٰذا الجوّ الصامت غادرت العروس والمدعوّات البيت رغم احتجاج أمّ حنفي على الخرجة الصامتة، فمرقت عائشة إلى السيّارة في سرعة خاطفة كأنّما تخاف أن يشتعل فستان العرس أو قناعه الحرير الأبيض الموشّى بالفلّ والياسمين تحت نظرات المتطلّعين، وتبعتها خديجة ومريم وبعض الفتيات، واستقلّت الأمّ وبعض النسوة من الأهل والجارات السيّارتين الأخريين، على حين اتّخذ كمال مجلسه إلى جانب سائق سيّارة العروس، ورغبت الأمّ في أن يمضي الركب إلى السكّريّة عن طريق الحسين لتلقي نظرة جديدة على مقامه الذي كلّفها الشوق إليه قبل ذٰلك غاليًا ولتستوهب صاحب المقام البركة لعروسها الحسناء، فاخترقت السيّارات الطرق التي قطعتها هي ذٰلك اليوم مع كمال، ثمّ مالت إلى الغوريّة عند المنعطف الذي كادت تلقى فيه حتفها حتّى وقفت بهنّ عند بوّابة المتولّي أمام مدخل السكّريّة الذي يضيق عن دخول السيّارات، وترجّلن جميعًا ودخلن العطفة فطالعتهنّ معالم الزينات وهرع إليهنّ غلمان الحارة هاتفين وتعالت الزغاريد من بين آل شوكت، أوّل بيت إلى يمين الداخل ـ حيث ازدحمت نوافذه برءوس المطلّات المزغردات، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه إبراهيم شوكت وياسين وفهمي، وتقدّم خليل مبتسمًا من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تُبْدِ حراكًا حتّى بادرت مريم إلى يدها فشبكتها بساعده، ثمّ سار بها إلى الداخل مارًّا بحذاء الفناء المزدحم والورد والملبّس ينهال على أقدامها وعلى أقدام من تبعنها من حاشية العروس حتّى واراهنّ باب الحريم، ومع أنّ قران عائشة بخليل تمّ قبل ذٰلك اليوم بشهر أو أكثر إلّا أنّ منظر اشتباكهما وسيرهما معًا لاقى من ياسين وفهمي ـ والأخير خاصّة ـ دهشة مقرونة بالحياء وشعورًا بالإنكار أشبه كأنّ جوّ أسرتها لا يهضم حتّى طقوس حفلات الزفاف المشروعة، وبدا هٰذا الأثر بصورة أوضح عند كمال الذي جعل يجذب أمّه من يدها في انزعاج وهو يشير إلى العروسين اللذين يتقدّمان الجميع على السلّم كأنّه يستعديها على دفع شرّ فظيع، وخطر للشابّين أن يسرقا النظر إلى وجه أبيهما ليريا أيّ أثر تركه ذاك المنظر الفريد، فشملا المكان بنظرة سريعة ولٰكنّهما لم يقفا له على أثر، لم يوجد عند المدخل، ولا فيما يلي هٰذا من فناء البيت الذي اصطفّت به الأرائك والمقاعد وأقيمت في صدره منصّة

الغناء. والواقع أنّ السيّد خلا إلى نفر من خاصّة أصدقائه بمنظرة الفناء فلم يفارقها مذ حلّ بالبيت مصمّمًا على ألّا يفارقها حتّى ختام الليلة مبتعدًا بنفسه عن «الجمهور» الصاخب خارجها، لم يكن أشدّ إحراجًا لنفسه من الظهور بين آله في ليلة زفاف، إذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابته في يوم خالص السرور، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كثب انطلاقهم مع دواعي الفرح، وفضلًا عن هٰذا وذاك لم يكن أكره لديه من أن يُرى ـ بينهم ـ على غير ما عهدوا من وقار صارم، ولو كان الأمر بيده لتمّ الزفاف في صمت شامل ولٰكنّ حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحه في هٰذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته، وأبت إلّا أن تحييها ليلة حافلة فاتّفقت على إحيائها مع العالمة جليلة والمغنّي صابر، وبدا كمال لفرط ابتهاجه بما أتيح له من حرّيّة وسرور كأنّه عريس الليلة، وكان أحد أفراد قلائل أبيح لهم التنقّل كيفما شاءوا بين الحريم في الداخل وبين مجلس الطرب في فناء الدار، لبث طويلًا مع أمّه بين النساء منقّلًا طرْفه بين زينتهنّ وحليهنّ مصغيًا إلى دعاباتهنّ وأحاديثهنّ التي يستأثر الزواج بخلاصتها، أو منصتًا معهنّ إلى العالمة جليلة التي تصدّرت البهو كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشد الطقاطيق وتعاقر الشراب جهارًا، فاستأنس إلى الجوّ الضاحك لغرابته وجاذبيّته ـ والأهمّ من هٰذا كلّه ـ لوجود عائشة على حال من التبرّج لم يحلم بها من قبل، وشجّعته أمّه على البقاء ليظلّ تحت رعايتها، بيْد أنّها عدلت عن موقفها بعد حين واضطرّت إلى أن تحثّه همسًا على الانتقال إلى مجلس أخويه لأمور لم تتوقّع حدوثها، من ذٰلك ما بدا من اهتمامه بعائشة، بفستانها حينًا وبزواقها حينًا آخر، فخيف منه على هندامها، أو ما بدر منه من ملاحظات صبيانيّة صريحة نحو بعض السيّدات كما هتف بأمّه مرّة وهو يشير إلى امرأة من آل العريس قائلًا: «انظري يا نينة إلى أنف هٰذه الستّ. . . أليس أكبر من أنف أبلة خديجة» أو ما فاجأ به الجميع وجليلة تغنّي من الاشتراك مع التخت في ترديد «يمامة حلوة. . . ومنين أجيبها» حتّى دعته العالمة إلى الجلوس بين أفراد تختها، وبهٰذا وغيره جذب الأنظار إليه فأخذت المدعوّات في مداعبته، ولٰكن أمّه لم ترتح إلى الضجّة التي أثارها، وآثرت على كره منها ـ إشفاقًا على البعض من عبثه وإشفاقًا عليه من أعين المعجبات ـ أن تحمله على مغادرة المكان، انضمّ إلى مجلس الرجال، وتردّد بين الصفوف، ثمّ وقف بين فهمي وياسين حتّى ختم صابر دور «بس ليه تعشق يا جميل» واستأنف تجواله حتّى مرّ بالمنظرة فأغراه حبّ الاستطلاع بالنظر إلى داخلها فمدّ رأسه وما يدري إلّا وعيناه تلتقيان بعيني والده فتسمّر في مكانه وعجز عن استردادهما، ورآه أحد أصدقاء أبيه ـ السيّد محمّد عفّت ـ فناداه فلم يجد بدًّا من تلبية النداء ليتفادى من إغضاب أبيه فتدانى من الرجل على كره وخوف حتّى وقف أمامه منتصب القامة مضموم الذراعين إلى جانبيه كأنّه عسكريّ في طابور، وصافحه الرجل قائلًا:

ـ ما شاء الله. . . في أيّ سنة يا عمّ؟

ـ سنة ثالثة رابع. . .

ـ عال. . . عال. . . سمعت صابر؟

ومع أنّه كان يجيب على أسئلة محمّد عفّت إلّا أنّه راعى من بادئ الأمر أن تكون إجاباته بحيث ترضي أباه. . . فلم يَدْرِ كيف يجيب على السؤال الأخير أو أنّه تردّد قبل أن يعدّ الإجابة ولٰكنّ الرجل بادره متلطّفًا:

ـ ألا تحبّ الغناء؟

فقال الغلام بتوكيد:

ـ كلّا. . .

وبدا من بعض الحاضرين ما يدلّ على أنّهم سيعلّقون على هٰذه الإجابة ـ آخر ما ينتظر من شخص ينتمي إلى عبد الجواد ـ مازحين، ولٰكنّ السيّد حذّرهم بعينيه فامسكوا، أمّا السيّد محمّد عفّت فعاد يسأله:

ـ ألا تحبّ أن تسمع شيئًا؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه:

ـ القرآن الشريف.

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتأتّ له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيّد الفار قائلًا:

ـ إن صحّ هٰذا فالغلام ابن زنا!

فضحك السيّد أحمد عبد الجواد وقال وهو يشير إلى حيث كان يقف كمال:

ـ هل رأيتم أمكر من ابن الكلب يدّعي التقوى أمامي! . . . رجعت مرّة إلى البيت فترامى صوته وهو يغنّي «يا طير يا لّلي على الشجر».

فقال السيّد عليّ:

ـ آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه إلى صابر وشفتاه تتحرّكان مع الغناء في انسجام تامّ ولا انسجام أحمد عبد الجواد نفسه.

على حين خاطب محمّد عفّت السيّد أحمد متسائلًا:

ـ المهمّ أن تخبرنا هل أعجبك صوته في دور «يا طير يا لّلي على الشجر»؟

فضحك السيّد قائلًا وهو يشير إلى نفسه:

ـ ذاك الشبل من هٰذا الأسد.

فهتف الفار قائلًا:

ـ الله يرحم اللبؤة الكبيرة التي أنجبتكم.

غادر كمال المنظرة إلى الحارة وكأنّه يفيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق، وما لبث أن استعاد ارتياحه فتمشّى مزهوًّا بملابسه الجديدة، مغتبطًا بحرّيّته التي جعلت من المكان كلّه ـ فيما عدا المنظرة المخيفة ـ مجالًا مباحًا لقدميه دون معترض أو رقيب، فأيّ ليلة هٰذه في الزمان! شيء واحد جعل ينغّص عليه صفوه كلّما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة إلى هٰذا البيت الذي باتوا يدعونه «بيتها» هٰذا الانتقال الذي نفّذ على رغمه دون أن يستطيع أحد إقناعه بوجاهته أو فائدته، تساءل طويلًا كيف سمح أبوه به وهو الذي لا يسمح لظلّ امرأة من آله بأن يلوح وراء خصاص النافذة فتلقّى الجواب ضحكًا عاليًا، وساءل أمّه في عتاب، كيف تفرّط في عائشة لحدّ النزول عنها للغير فأجابته بأنّه سيكبر يومًا ويأخذ مثلها من بيت أبيها فتشيّع إليه بالزغاريد، وسأل عائشة هل يسرُّها حقًّا أن تهجرهم فأجابت أن لا، ولٰكن الجهاز حمل إلى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التي لا يطيب له الرّيّ إلّا من موقع شفتيها، حقًّا أنّ الفرح الراهن ينسي أشياء ما كان يتصوّر أن ينساها لحظة ولٰكن خاطرة الأسى تغشى فؤاده الجذل كما تغشى السحابة الصغيرة وجه القمر في ليلة صافية السماء، ومن عجب أنّ سروره بالغناء في تلك الليلة فاق أيّ سرور عداه، كاللعب مع الغلمان أو مشاهدة النساء والرجال في مرحهم المطلق أو حتّى عيش السراي والأملظيّة على مائدة العشاء، ولئن أدهش اهتمامه الجدّيّ بسماع جليلة وصابر ـ الذي لا يتّفق مع سنّه ـ كلّ من لاحظه من النساء والرجال، فلم يدهش أحدًا من أسرته التي تعرف سوابقه في الغناء مع معلّمته عائشة كما تعرف حُسن صوته الذي تعدّه أحسن أصواتها بعد عائشة وإن كان صوت الأب ـ الذي لا يسمعونه إلّا مزمجرًا ـ أحسنها جميعًا، وقد استمع كمال طويلًا إلى جليلة وصابر ولٰكنّه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزف تخته أحبّ إلى قلبه وآخذ لنفسه، فرسخت منه في ذاكرته جمل غنائيّة مثل «تعشق ليه. . . علشان كده» جُمل يردّدها بعد ليلة الزفاف طويلًا في سقيفة اللبلاب والياسمين فوق سطح بيتهم، وشاركت أمينة وخديجة كمال في بعض ما أتيح له من أسباب السرور والحرّيّة، فلم يسبق لهما ـ مثله ـ أن شهدتا ليلة كتلك الليلة بما حفلت من أنس وطرب ومرح، وأبهج أمينة خاصّة ما لاقت من الرعاية والمجاملة بصفتها أمّ العروس، هي التي لم تنعم في حياتها برعاية أو مجاملة، حتّى خديجة اختفى همّها في أنوار الفرح كما تختفي الظلمة عند إشراق الصباح، نسيت أحزانها بين الضحكات الناعمة والأنغام العذبة والأحاديث الطليّة، وازدادت لها نسيانًا بفضل حزن جديد خالص الطويّة منشؤه شعورها بفراق عائشة الوشيك، شعور أثمر حبًّا وعطفًا خالصين فتوارت الأحزان القديمة أمام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد أمام الأريحيّة، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحبّ منه جانبًا ويكره جانبًا أن تتوارى ـ ساعة الفراق مثلًا ـ الكراهية لجانب أمام الحزن على الجانب الآخر، هٰذا إلى ما شاع في نفسها من ثقة حين تبدّت في زينة أضفت على جسمها ووجهها سواء لفت إليها أنظار

بعض النساء فلهجن بالثناء عليها ثناء ملأها أملًا وأحلامًا عاشت بها زمنًا رغدًا.

وجلس ياسين وفهمي جنبًا لجنب ـ يراوحان بين السمر والسماع، وجلس خليل شوكت ـ العريس ـ ينضمّ إليهما بين ساعة وأخرى وكلّما وجد فرجة بين أشغال ليلته الشاقّة الممتعة، وبالرغم من الجوّ المشبع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت في عينيه نظرة شرود مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر تُرى هل يتاح له أن يروي ظمأه ولو بكاس أو بكاسين؟ لذلك مال مرّة على أذن خليل شوكت ـ وكان صديقًا للأخوين وهمس قائلًا:

ـ أدركني قبل أن تضيع الليلة.

فقال له الشابّ وهو يغمز بعينه مطمئنًا:

ـ أفردت مائدة في حجرة خاصّة لأمثالك من الأصدقاء.

عند ذاك اطمأنّ باله وعاودته حيويّته للسمر والدعابة والسماع، لم يكن في نيّته أن يسكر، ففي مثل هٰذا المكان الحافل بالأهل والمعارف يعدّ القليل من الخمر فوزًا كبيرًا، خاصّة وأنّ والده وإن انزوى في المنظرة ـ غير بعيد ـ فلم يكن وقوفه على أسرار حياته يزحزحه عن مكانته التقليديّة من نفسه، لم يزل قائمًا بحصنه الحصين من المهابة والإجلال، ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبوديّة، حتّى السرّ الذي اطّلع عليه خفية لم يفكّر في البوح به لإنسان ولا لفهمي نفسه أقرب المقرّبين إليه، لهٰذا كلّه قنع من بادئ الأمر بكاس أو بكاسين يتملّق بهما رغبته الجامحة، ويتهيّأ بهما لتذوّق المرح والسمر والطرب وغيرها من المسرّات التي لم يعد لها عنده طعم بغير شراب. فهمي ـ بخلاف ياسين ـ لم يجد، أو لم يطمئنّ إلى أنه سيجد ريًّا لظمئه، ثار شجنه من حيث لا ينتظر عند مجيء العروس، ذهب مع العريس وياسين لاستقبالها بقلب خليّ فوقع بصره على مريم وهي تسير وراء العروس مباشرة ومتألّقة الثغر بابتسامة تحيّة للمكان كلّه، لاهية بالزغاريد والورود عنه، وقد شفّ قناعها الحريريّ عن ديباجة وجهها الصافي، فتبعها نظره بقلب خافق حتّى واراها باب الحريم، ثمّ عاد إلى مجلسه مزلزل النفس كأنّه قارب تعرّض بغتة لإعصار، بَيْد أنّه كان قبل رؤيتها هادئ النفس لاهيًا بشجون السمر شأن السالي الناسي، والحقّ تمرّ به أوقات فيجد نفسه على هٰذه الحال من السلو والنسيان كأنّ قلبه يستجمّ من العناء، ولٰكن ما إن تخطر خطرة أو تهفو ذكرى، أو يجري اسمها على لسان، أو. . . أو، حتّى يخفق فؤاده ألـمًا، ويفرز الحسرة تلو الحسرة كالضرس المسوّس الملتهب تجيء عليه فترة فيسكن ألمه حتّى إذا هرس لقمة أو مسّ جسمًا صلبًا انفجر به الألم، وهناك يقرع الحبّ أضلعه من الداخل كأنّما يروم متنفّسًا، صائحًا بأعلى صوته أنّه لا زال حبيسًا لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان. طالما تمنّى لو يعمى عنها الراغبون حتّى يستوي على قدميه رجلًا حرّ التصرّف في تقرير مصيره، وقرّب أمنيته كرّ الأيّام والأسابيع والأشهر دون أن يتقدّم لها خاطب، ولٰكنّه لم ينعم بالطمأنينة الحقّة، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتناوبانه الحين بعد الحين ينغّصان صفوه ويكدّران أحلامه ويخلقان له ضروبًا من الألم والغيرة إن تكن وهميّة فليست دون الواقع ـ فيما لو تحقّقت ـ ضراوة وقساوة، حتّى بات التمنّي نفسه وتأخّر وقوع البلاء من بواعث تجدّد القلق والخوف وبالتالي الألم والغيرة فودّ كلّما اشتدّ به العذاب أن يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعلّه بعد ذٰلك يبلغ باليأس ما لم يبلغ بالأماني العابثة من الراحة والسلام، ولٰكنّه لم يستسلم للشجن في مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء، إلّا أنّه كان تلقّى من منظر مريم وهي تسير وراء أخته «أثرًا» لا يمكن أن يمضي بلا ردّ فعل محسوس، ولـمّا لم يسعه أن يجترّ به أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه ـ بطريقة عكسيّة ـ بالإغراق في الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة والسعادة، على أنّه كلّما خلا إلى نفسه ولو لحظات شعر في أعماقه بعزلة قلبيّة عمّا حوله، وأدرك مع مرور الوقت أنّ رؤيته مريم وهي تخطر في معيّة العروس قد هيّجت حبّه كما تهيّج ضوضاء مفاجئة مهمومًا ذا قابليّة للأرق، وأنّه لم ينعم على الأقلّ هٰذه

الليلة ـ بصدر مستقرّ، وأنّ شيئًا ممّا يدور حوله لن يستطيع أن ينتزع من مخيّلته صورتها أو الابتسامة التي حيّت بها جوّ الاستقبال الحارّ المشبع بالزغاريد والورود، ابتسامة عذبة صافية وشت بقلب خليّ متشوّق للهدوء والسرور، ابتسامة لا يوحي رواؤها بأنّه يمكن أن ترتسم على موضعها من الشفتين تقلّصات الألم، فهزّ منظرها قلبه وكاشفه بأنّه يكابد الألم منفردًا ويحمل متاعبه وحده، ولكن ألا يقهقه هو الآن عاليًا، يحرّك رأسه مع الأنغام كالمنبسط الطروب؟... ألا يجوز أن يخدع الناظر بحاله ويظنّ به ما ظنّ هو بها؟... وجد في تفكيره شيئًا من العزاء ولكن ليس أوكد من عزاء المصاب بالتيفود حين يسائل نفسه «ألا يحتمل أن أشفى كما يشفى فلان الذي أصيب به قبلي»، وما لبث أن ذكر رسالتها التي عاد بها كمال إليه منذ أشهر وهي: قل له إنّها لا تدري ماذا تفعل لو تقدّم لها خاطب أثناء هذه المدّة الطويلة من الانتظار... وتساءل كما تساءل عشرات المرّات من قبل هل ثمّة عاطفة وراء هذه الكلمات؟... أجل لا يستطيع إنسان مهما بلغ به التعنّت أن يؤاخذها على كلمة منها، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تضمّنته من عقل وحكمة ولكنّ هذا نفسه ما أشعره بالعجز حيالها وما أحنقه بالتالي عليها، إذ يندر أن يرضي العقل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف بطبعها الحدود، وعاد إلى الحاضر، إلى مجلس الطرب، إلى الحبّ الهائج. ليست رؤيته لها وحدها التي رجّته هذه الرجّة العنيفة، فلعلّ ذلك لأنّه رآها لأوّل مرّة، في مكان جديد ـ فناء بيت آل شوكت ـ بعيدًا عن داره التي لم يرها خارج نطاقها من قبل، كان وجودها الدائم في المقام القديم قد سلكها في آليّة العادة اليوميّة على حين بعث ظهورها المفاجئ في المكان الجديد ـ ذاك الظهور الذي خلقها في عينيه خلقًا جديدًا ـ حياة جديدة في وجدانه، أيقظت الحياة الأصليّة الكامنة، ثمّ تعاونتا معًا على إحداث هذه الرجّة العنيفة، ولعلّ ذلك أيضًا لأنّ وجودها بعيدًا عن بيته وما يقترن به من تقاليد صارمة أقامت بينه وبينها سدًّا من اليأس، وجودها في جوّ من الحرّيّة والانطلاق، وعلى حال لم يعهدها من التبرّج والحركة، وجودها في بيئة الزفاف وما توحي من خواطر الحبّ والوصال، كلّ أولئك أطلقها من قمقمها إلى حيث يراها القلب أملًا غير عسير، وكأنّما تقول له «انظر أين تراني الآن، ما هي إلّا خطوة أخرى فتجدني بين ذراعيك» ولكن ما لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهمًا في إحداث الرجّة العنيفة، ولعلّ ذلك أيضًا لأنّ رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخًا في نفسه وتغلغلًا في حياته ـ ونشوبها في ذكرياته، فإنّ الصور تتعمّق في أنفسنا باندماجها في مختلف الأماكن التي تمتدّ إليها تجاربنا، وكما اقترنت مريم قديمًا بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين وكمال وتسميع الكلمات الإنجليزيّة ومجلس القهوة وحديثه مع أمّه في حجرة المذاكرة والرسالة التي عاد بها كمال فستقترن منذ الليلة بالسكّريّة وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك ممّا ينثال على سمعه وبصره وكافّة حواسّه، ومثل هذه العمليّة... لا يمكن أن تتمّ دون أن تشارك في إحداث الرجّة العنيفة التي دوّخته... وحدث في فترة الاستراحة أن ترامى صوت العالمة إلى مجلس الرجال من النوافذ المطلّة على الفناء وهي تغنّي «حبيبي غاب» فنشط إلى السماع باهتمام شديد وجمع حواسّه كلّها في النغمات، لا لأنّ صوت جليلة أعجبه ولكن لظنّه أنّ مريم تنصت إليها في تلك اللحظة، لأنّ الجملة الغنائيّة تخاطب أذنيهما في وقت واحد معًا، لأنّها ألّفت بينهما على حال واحدة من الإنصات وربّما من الإحساس، لأنّها خلقت لهما موعدًا يلتقيان فيه بروحيهما، وحمله هذا كلّه على احترام الصوت وحبّ النغمات كي يجتمع بها في إحساس واحد. وحاول طويلًا أن ينفذ إلى نفسها بالرجوع إلى نفسه، أن يتلمّس ذبذبات تأثّرها بمتابعة ذبذبات تأثّره، ليعيش في ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران، وحاول إلى هذا أن يستخبر الجمل الغنائيّة على آثارها في النفس المحبوبة، ماذا تركت في قلبها جملة «حبيبي غاب» أو «بقى له زمان ما بعتش جواب»، ترى هل غابت في لجج

الـذكـريـات؟. . . أو لم تنحسر مـوجـة منـه عن وجهه؟. . . ألم ينقبض قلبها لشكّة ألم أو لحزّة حسرة؟ أم لها سادرًا طوال الوقت لا يجد في النغمة إلّا فرحة الـطرب؟. . . وتصوّرهـا وهي تهب انتبـاههـا للنغم سافرة متبرّجة الحيويّة أو وثغرها يفترّ عن ابتسامة كتلك التي لمحها على شفتيها عند مجيئها فآلمته لأنّه توسّم فيها رمز السلوّ والنسيان، أو وهي تحادث إحدى أختيه كما يحلو لها كثيرًا وهو ما يحسدهما عليه على حين لا تجدان فيه الأمر الذي يدهشه لحدّ الانزعاج إلّا حديثًا عاديًّا كسائر الأحـاديث التي تشتبكان فيهـا مع غـيرها من فتيات الجيران، أجل طالما عجب لموقف أختيه منها، لا لأنّها لا تكترثان لها فالحقّ أنّها تحبّـانها، ولٰكن لأنّهما تحبّانها كما تحبّان غيرها من فتيات الجيران كأنّها مجرّد «فتـاة» من فتيات الجـيران، وكيف تلقيانها بـترحيب عاديّ دون أن يضطرب لهما نَفَس كما يلقى هـو فتاة عابرة أو أيًّا من أقرانه طلبة مدرسة الحقـوق، وكيف تتحدّثان عنها فتقولان «مريم قالت أو مـريم فعلت» وتنطقان بالاسم كما تنطقان بأيّ اسم. . . أمّ حنفي مثلًا كأنّه ليس الاسم الذي لم ينطق به على مسمع من غيره إلّا مرّة أو مرّتين وهو يعجب لموقعه من أذنه أو كأنّه ليس الاسم الذي لا ينطق به في وحدته إلّا كما ينـطق بالأسـماء المبجّلة المنقوشة في خيالـه بتهـاويـل الأحلام التي لا ينطق بأحدها حتّى يردف «رضي الله عنه» أو «عليه السلام». . . وكيف إذن عطّل الاسم ـ بل الشخص نفسه ـ عندهما من سحـره وقدسيّتـه؟! وعنـدمـا انتهت جليلة من الأغنيـة تعـالى الهتـاف والتصفيق فركّز فيه انتباهه باهتمام لم تحظَ الأغنية نفسها بمثله لأنّ حنجرة مريم ويديها اشتركت فيه، وتمنّى لو كان بوسعه أن يميّز صوتها من تلك الأصوات وأن يفرز تصفيقها من ذٰلك التصفيق ولٰكن لم يكن ذٰلك بأسهل من تمييز صوت مـوجة بـالذات من هـدير الأمـواج المتلاطمة على الشاطئ، على أنّه وهب حبّـه للهتاف كلّه وللتصفيق كلّه بـلا تمييز كـالأمّ التي يـترامى إلى سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التي يتبعها ابنها فتدعو لهم جميعًا بالبركة والسلامة.

لم يكن أشبـه بفهمي في عـزلتـه البـاطنيّـة ـ وإن اختلفت الأسباب ـ من أبيه الذي لزم المنظرة بين نفر من خاصّة خلّانه، حتّى الأصـدقاء الـذين لم يطيقـوا التوقّر، والغناء يجلجل في الخارج، انفضّوا من حوله وتفرّقوا بين المستمعين يطربون ويلهون، فلم يَبْقَ معه إلّا النفر الذين مجلسـه أحبّ إليهم من اللهو نفسـه فلبثوا جميعًا في رزانة غير معهودة كأنّما يؤدّون واجبًا أو يشهدون مأتمًا، هٰذا ما قدّروه من قبل، حين دعاهم السيّد إلى ليلة الزفاف، لما خبروه من طبيعته المزدوجة التي عرف بجانب منها بين أصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته، ولم يفتهم وجه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هٰذا الذي يحتفلون فيه «بليلة زفاف» وبين مجالسهم المسائيّة المعربدة التي لا يحتفلون فيهـا بشيء! ومـا عتّموا أن جعلوا من تـوقّرهـم مـوضوعًـا للمزاح الخفيف الهادئ فما إن علا صوت السيّد عفّت مرّة وهو يضحك حتّى بادره السيّد الفار واضعًا سبّابته على شفتيه كأنّما يأمره بخفض صوته وهمس في أذنـه محذّرًا زاجرًا: نحن في فرح يا رجل!. . . ومرّة أخرى وكان الصمت قد غلبهم مليًّا فإذا بالسيّد عليّ يقلّب عينيـه في وجـوههم ثمّ يقـول رافعًـا يـده إلى رأسـه كالشاكر: «شكر الله سعيكم» وعند ذاك دعاهم السيّد إلى اللحاق بصحبه في الخارج ومشاركتهم لهوهم ولٰكنّ السيّد عفّت خاطبـه بلهجة تنمّ عن شـديد العتـاب قـائلًا: نـتركك في مثـل هٰذه الليلة؟! وهـل يعـرف الصديق إلّا عند الضيق؟! فما تمالك السيّد أن ضحك قائلًا: ما هي إلّا عدّة ليالي زفاف أخرى حتّى يتوب الله علينا جميعًا. . . على أنّ ليلة الزفاف تضمّنت في نظر السيّد أحمد معاني أخرى غير التوقّر الإجباريّ في مجلس أنس وطـرب، معاني تخصّـه وحده كـأب ذي طبيعة خرقت المألوف من الطبائع، فلم يزل يجد لفكرة زواج كريمته إحساسًا غريبًا لا يرتاح إليه وإن لم يقرّه عقله أو دينه. لا يعني هٰذا أنّه ودّ ألّا تتزوّج كريمتاه، فالحقّ أنّه كسائر الآباء جميعًا رجا الستر لفتاتيه، ولٰكن لعلّه تمنّى كثيرًا لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهٰذا «الستر» ولعلّه تمنّى لو كان الله قد خلق البنـات على

طبيعة لا تحتّم الزواج. أو لعلّه تمنّى في الأقلّ لو لم يكن أنجب إناثًا قطّ، أمّا وتلك أمانٍ لم تتحقّق ولا سبيل إلى تحقيقها فلم يكن بدّ من أن يرجو الزواج لفتاتيه ولو كما يرجو الإنسان أحيانًا ـ ليأسه من دوام العمرـ ميتة شريفة أو ميتة مريحة! طالما أفصح عن نفوره هٰذا بسبل متباينة سواء عن شعور أو لا شعور، فربّما حدَّث بعض خلصائه قائلًا: «تسألني عن إنجاب الإناث؟ إنّه شرّ لا حيلة لنا فيه ولٰكن الشكر إلى الله واجب على أيّ حال. لا يعني هٰذا أنّي لا أحبّ ابنتيّ فالحقّ أنّي أحبّهما كما أحبّ ياسين وفهمي وكمال سواء بسواء ولٰكن كيف يطمئنّ خاطري وأنا أعلم بأنّي سأحملهما يومًا إلى رجل غريب مهما يبدو لي من مظاهر فالله وحده المطّلع على باطنه؟... ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهي بعيدة عن رعاية أبيها؟... وكيف يكون مصيرها لو طلّقها يومًا وقد مات أبوها فلجأت إلى بيت أخيها لتعيش عيشة المنبوذين؟! لست أخاف على أحد من أبنائي لأنّه مهما يحدث لأيّهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة، أمّا البنت... اللّٰهمّ احفظنا!» أو يقول فيما يشبه الصراحة: «البنت مشكلة حقًّا... ألا ترى أنّا لا نألوا أن نؤدّبها ونهذّبها ونحفظها ونصونها؟... ولٰكن ألا ترى أنّا بعد هٰذا كلّه نحملها بأنفسنا إلى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء... الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه...» وتجسّم هٰذا الإحساس القلق الغريب في النظرة الانتقاديّة التي والى بها خليل شوكت «العريس» نظرة متعسّفة عيّابة أبت أن ترجع قبل أن تظفر بعيب يرضي تعنّتها، كأنّه ليس من آل شوكت الذين أُلّفت بينه وبينهم أسباب المودّة والولاء من قديم الزمان، أو كأنّه ليس الشابّ الذي شهد له كلّ من رآه بالرجولة والجمال والوجاهة، لم يسعه أن ينكر مزيّة من مزاياه، ولٰكنّه وقف طويلًا عند وجهه الريّان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطاب له أن يستدلّ بهما على ما تركه الفراغ في حياته من حيوانيّة قائلًا لنفسه «ما هو إلّا ثور يعيش ليأكل وينام!» لم يكن اعترافه بمزاياه أوّلًا ثمّ فحصه عن أيّ عيب ليلصقه به أخيرًا إلّا منطقًا عاطفيًّا يعكس ما يكمن في نفسه من رغبة في تزويج الفتاة ونفوره من فكرة الزواج، فالاعتراف مهّد إلى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفّس عن العاطفة العدائيّة، كمدمن الأفيون الذي تستذلّه لذّته وترعبه خطورته فينشده بكلّ سبيل وهو يلعنه، بيد أنّه تناسى مشاعره الغريبة وهو بين أصدقائه الحميمين يتسلّى بالحديث حينًا وبالسماع حينًا آخر، ففتح صدره للرضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنّة، حتّى نظرته الانتقاديّة لخليل شوكت استحالت إحساسًا ساخرًا غير مشوب بالحنق.

وعندما دعي المدعوّون إلى الموائد افترق فهمي وياسن لأوّل مرّة فقاد خليل شوكت الأخير إلى المائدة الخاصّة حيث بذل الشراب بغير حساب ولٰكنّ ياسين بدا حذرًا مقدّرًا للعواقب فأعلن قناعته بكأسين وقاوم بشجاعة ـ أو بجبن ـ تيّار الشراب المتدفّق حتّى إذا ما لسعته النشوة فهيّجت ذكرياته عن لذّة النشوات ووهنت إرادته فرغب في الاستزادة من النشوة إلى القدر الذي لا يخرجه عن حدود الأمان فتناول كأسًا ثالثة ثمّ فرّ بنفسه عن المائدة إلّا أنّه ـ على سبيل الاحتياط أو لأنّه لم يزل عينًا في الجنّة وعينًا في النار ـ أخفى زجاجة مملوءة حتّى النصف في مكان خفيّ للرجوع إليها عند الضرورة القصوى، وعادوا إلى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها إلى الجوّ المحيط سرور محرّر من القيود...

وفي الحريم كان السكر قد بلغ بالعالمة جليلة حدّ السلطنة، وإذا بها تقلّب عينيها في وجوه المدعوّات وتتساءل:

ـ من منكنّ حرم السيّد أحمد عبد الجواد؟

فجذب تساؤلها الأنظار وأثار اهتمامًا شاملًا حتّى غلب الحياء أمينة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحملق في وجه العالمة بحيرة وإنكار، ولـمّا أعادت العالمة السؤال تطوّعت حرم المرحوم شوكت بالإشارة إلى أمينة وهي تقول:

ـ ها هي حرم السيّد أحمد ففيمَ يا تُرى التساؤل؟

فتفحّصتها العالمة بعينين ثاقبتين ثمّ أطلقت ضحكة

رنّانة وقالت بلهجة تنمّ عن الرضي:

ـ حسنـــاء وحقّ بيـت الله، إنّ ذوق السيّـــد لا يُجارى...

وبدت أمينة كالعذراء في حيائها، بيد أنّ الحياء لم يكن كلّ ما تعانيه، ساءلت نفسها في حيرة وانزعاج عمّا يعنيه حديث العالمة عن حرم «السيّـد أحمد عبـد الجواد» وعن إطرائها ذوق السيّد بلهجـة لا يدّعيهـا لنفسه إلّا الخبير به، وشاركتها شعورها عائشة وخديجة التي ردّدت عينيها بين العالمة وبين بعض الفتيات من صـديقـاتها كـأنّمـا تسـائلهنّ رأيهنّ في «هـــذه المـرأة السكّيرة»، ولٰكنّ جليلة لم تأبه لما أثـاره كلامهـا من انزعاج فحـوّلت عينيها إلى العـروس وتفحّصتها كـما تفحّصت أمّها من قبل ثمّ أرعشت حاجبيها وهي تقول بإعجاب:

ـ قمر ورسول الله، أنت بنت أبيك حقًّا، ومن يَرَ هـــاتين العينـــين يـذكـــر من تـوِّه عينيـــه... (ثمّ مقهقهة)... أراكنّ تتساءلن من أين لهٰذه المرأة معرفة السيّد أحمد؟!... إنّي أعرفه من قبل أن تعرفه زوجه نفسها، إنّه ربيب حيّنا وقرين صباي، وكان والـدانا صديقين، أم تحسبين العالمة لا أب لها؟... كان أبي شيخ كتّاب من أهـل البَرَكـة... ما رأيك يا زينـة الستّات؟!...

وجّهت السؤال الأخير إلى أمينة فدفعها الخوف وما طبعت عليه من لين وتودّد إلى أن تجيبها ـ وهي تقاوم ما ركبها من ارتباك ـ قائلة:

ـ رحمه الله، كلّنا أبناء حوّاء وآدم.

فجعلت جليلة تحرّك رأسها يمنة ويسرة وهي تضيّق عينيها كأنّما بلغ تأثّرها بالذكرى وموعظتها نهايته، أو لعلّ رأسها السكران وجد في هٰذه الحركة رياضة التذّ بها، ثمّ استطردت قائلة:

ـ وكان رجلًا غيورًا، ولٰكنّي نشأت بفطرتي لعوبًا لا أبـالي كأنّمـا رضعت الغنج في المهـد، كنت أضحك الضحكة في الدور الأعلى فتضطرب لها جوانح الرجال في الشارع، فما يبلغـه صوتي حتّى ينهـال عليّ ضـربًا ويرميني بشرّ الصفات، ولٰكن ما حيلة التأديب فيمن قدّرت عليها فنـون العشق والطرب والـدلال؟!...

ضاع التأديب هباء، ومضى الرجل إلى الجنّة ونعيمها، وقُضي عليّ بأن أتّخـذ ممّا رمـاني به من شرّ الصفـات شعارًا لي في الحياة... هي الدنيا... ربّنا يطعمكنّ خيرها ويكفيكنّ شرّها... ولا حرمنـا الله جميعًا من الرجال سواء في الحلال أو في الحرام...

وعزف الضحك في جنبات الحجرة حتّى غطّى على تـأوّهات الـدهش التي ندّت هنـا وهناك، ولعـلّ ما استثاره قبل أيّ شيء آخر هو وجه التناقض بين الدعاء الإباحيّ الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحي ـ في ظاهرها على الأقلّ ـ بالجدّ والتأسّي، أو بين ما تقنّعت به المرأة من ستار الجدّ والرزانة وما جهرت به أخيرًا من مـزاح مكشوف، حتّى أمينـة نفسها ـ وعـلى رغم ارتباكها ـ ما تمالكت أن ابتسمت وإن نكّست وجهها لتواري ابتسامتها، على أنّ النسـاء كنّ يستجبن ـ في مثل هٰذا المجلس ـ لدعابات مهرّجات العوالم ويرحّبن بمزاحهنّ وإن خدش الحياء أحيانًا كأنّما ينفّسن به على طـول تزمّتهنّ، وواصلت العـالمة السكـرانة حـديثها قائلة:

ـ وكان جعل الله الجنّة مثواه سليم الطويّة، وآي ذٰلك أنّه جاءني يومًا برجل طيّب مثله وأراد أن يزوّجني منه (وكركرت ضاحكة)... أيّ زواج يا عمر؟! وماذا بقي للزوج بعد ما كان ممّا كان!... وقلت لنفسي انفضحت يا جليلة وواقعتك كحل...

وأمسكت مليًّا لتستزيد من التشويق، أو لتتمتّع أكثر بصمت الانتباه المركّز فيها الذي لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه، ثمّ عادت تقول:

ـ ولٰكنّ الله سلّم فأدركتني النجاة قبـل الفضيحة المتوقّعة بأيّام إذ هربت مع المرحوم حسّونة البغل تاجر المنزول، وكان للمرحوم أخ عـوّاد عند العـالمة نـيـزك فعلّمني العـود، ثمّ طاب لـه صوتي فعلّمني الغنـاء، وأخـذ بيدي حتّى ضمّني إلى تخت نيـزك التي حللت محلّها بعد وفاتها، ومارست الغناء دهرًا عرفت فيه من العشّاق مائة و... (وقطّبت وهي تتذكّر بقيّة العدد ثمّ التفتت إلى الدفّافة وسألتها) وكم يا فينو؟

فبادرتها الدفّافة قائلة:

ـ وخمسة في عين من لم يصلِّ على النبيّ...

وتعالى الضحك مرّة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يسكتن الضاحكات ليصفو الجوّ للعالمة ولكنّها نهضت بغتة واتّجهت نحو باب الحجرة غير ملقية بالًا إلى اللاتي تساءلن عن وجهتها دون أن يحظين بجواب، ولكنّ أحدًا لم يلحّ عليها في السؤال لما اشتهرت به عند الناس من أنّها صاحبة نزوة إذا نادتها لبّت دون مراجعة، وهبطت السلّم إلى باب الحريم ثمّ مرقت منه إلى فناء الدار، ولـمّا جذب ظهورها المفاجئ بعض الأنظار القريبة تلبّثت بمكانها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميع فتستمتع بما يحدثه منظرها فيهم من اهتمام طمعت في أن تتحدّى به صابرًا وهو في ذروة التطريب، وتحقّقت رغبتها إذ سرت عدوى الالتفات نحوها ـ كالتثاؤب ـ من فرد إلى فرد وتردّد اسمها على الألسن، ثمّ شعر صابر نفسه ـ رغم انهماكه في الغناء ـ بالفجوة الفجائيّة التي فصلت بينه وبين جمهوره فمدّ بصره إلى الهدف الذي استشرفته الأعين حتّى استقرّ على العالمة وهي تنظر إليه من بعيد برأس مائل إلى الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطرّ إلى الإمساك عن الغناء وأشار إلى تخته فتوقّف عن العزف، ثمّ رفع يديه إلى رأسه تحيّة لها!... كان صابر خبيرًا بنزوات جليلة ـ وعلى خلاف الكثيرين ـ عالـمًا بطيبة قلبها، ومقدّرًا في الوقت نفسه لخطر معاندتها، فأظهر لها التودّد بلا تحفّظ، ونجحت حيلته فانطلقت أسارير المرأة بالبِشْر وهتفت به «واصل غناءك يا سي صابر فما جئت إلّا لسماعه» فصفّق المدعوّون وعادوا إلى صابر مهلّلين على حين اقترب منها إبراهيم شوكت شقيق العريس الأكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقيّ الذي دعاها إلى المجيء وسألته بدورها بصوت ترامى إلى الكثيرين ومنهم ـ وهو الأهمّ ـ ياسين وفهمي:

ـ ما لي لا أرى السيّد أحمد عبد الجواد؟!... أين يختبئ الرجل؟

فأخذ إبراهيم شوكت بيدها وسار بها إلى المنظرة باسمًا، على حين تبادل فهمي وياسين نظرة ملئت دهشًا واستغرابًا وشيّعاهما بعينين متسائلتين حتّى واراهما الباب، ولم يكن السيّد دون ابنيه دهشًا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تخطر فحدجها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسمة ذات معانٍ، وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة:

ـ مساء الأنس يا رجال...

وركّزت عينيها في السيّد فما تمالكت أن أغربت في الضحك وهي تتساءل ساخرة:

ـ هل أخافك مجيئي يا سيّد أحمد؟!

فأشار السيّد إلى الخارج محذّرًا وهو يقول لها جادًّا:

ـ اعقلي يا جليلة، ماذا حملك على المجيء إلى هنا تحت أنظار الناس جميعًا؟!

فقالت كالمعتذرة وإن لم تزايلها بسمة ساخرة:

ـ عزّ عليّ ألّا أهنّئك على زواج كريمتك!...

فقال السيّد في ضيق:

ـ لك الشكر يا ستّي، ولكن أما فكّرت فيما يثيره مجيئك لدى من يشهده من ظنون؟

فضربت جليلة كفًّا بكفّ وقالت فيما يشبه العتاب:

ـ هذا أحسن ما عندك لي من استقبال!... (ثمّ موجّهة الخطاب إلى صحبه)... أشهدكم يا رجال على الرجل الذي لم يكن يبتلّ صدره حتّى يغرز فردة شاربه في سرّتي، انظروا إليه كيف لا يطيق الآن رؤيتي...

فلوّح السيّد لها بيده كأنّما يقول لها «لا تزيدي الطين بلّة» وقال برجاء:

ـ علم الله ما بي استياء لرؤيتك ولكنّه الحرج كما ترين...

هنا قال السيّد عليّ كأنّما ليذكّرها بما لا ينبغي لها أن تنساه:

ـ لقد عشتما حبيبين وافترقتما صديقين، وليس بينكما ثار، ولكنّ أهله فوق وأبناءه في الخارج...

فقالت متمادية في إغاظة السيّد:

ـ لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وأنت بركة فسّق!

فرماها بنظرة احتجاج قائلًا:

ـ جليلة. . . ! . . . لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ـ جليلة أم زبيدة يا وليّ الله؟!

ـ حسْبي الله ونعم الوكيل..

فأرعشت له حاجبيها كما أرعشتهما لعائشة من قبل ولٰكن على سبيل التهكّم لا الإعجاب هٰذه المرّة وقالت بصوت هادئ جادّ كالقاضي ينطق بالحكم:

ـ سيّان عندي أن تعشق زبيدة أم غيرها من النساء ولٰكن يؤسفني ورأس أمّي أن تتمرّغ في التراب بعد أن غرقت حتّى أذنيك(مشيرة إلى نفسها) في القشدة. . .

عند ذاك نهض السيّد محمّد عفّت ـ وكان من أقرب المقرّبين إليها ـ وقد خاف أن يتمادى بها السكر إلى ما لا تحمد عقباه فتناول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامسًا في أذنها:

ـ حلّفتك بالحسين إلّا ما رجعت إلى مستمعاتك المنتظرات على نار. . .

فطاوعته بعد ممانعة ولٰكنّها التفتت نحو السيّد وهي تبتعد رويدًا وقالت:

ـ لا تنس أن تبلّغ تحيّاتي إلى القارحة، ونصيحتي إليك ـ بحقّ الأخوّة ـ أن تغتسل بعدها بالكحول لأنّ عرقها مصّاص للدماء.

شيّعها السيّد بنظرة ساخطة وهو يلعن الحظّ الذي قضى بأن ينكشف أمام كثيرين خاصّة أهله ـ ممّن عرفوه مثالًا للجدّ والرزانة، أجل لم يزل ثمّة أمل في ألّا يبلغ الحادث أحدًا من آله ولٰكنّه أمل ضعيف، ولم يزل ثمّة رجاء في ألّا يفهموه إذا بلغهم ـ بما طبعوا عليه من براءة ـ على حقيقته ولٰكنّه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب بيد أنّه على أسوأ الفروض لا يحقّ له أن يجزع لأنّ خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية أخرى أثبت من أن يزعزعها مزعزع ولا هٰذه الفضيحة نفسها، وفضلًا عن هٰذا فإنّ احتمال انكشاف أمره لدى أحد من أبنائه أو لديهم جميعًا لم يكن عنده يومًا بالفرض المستحيل، ولٰكنّه لم يقلق لذاك أكثر ممّا ينبغي، لثقته بقوّته، ولأنّه لم يعتمد في تربيتهم على القدوة والإقناع فيخاف انحرافهم عن الجادّة تبعًا لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها، ولأنّه استبعد أن يطّلعوا على شيء من أمره قبل أن يبلغوا أشدّهم أي حين لا يهمّه كثيرًا أن ينكشف لهم سرّه، ولٰكنّ شيئًا من هٰذا لم يستطع أن يلطّف من أسفه على ما وقع. حقًّا لم يَخْلُ من سرور ومن تيه جنسيّ، إذ أنّ مجيء امرأة كجليلة بنفسها إلى مجلسه لتهنّئه أو لتعابثه أو حتّى لتتهكّم بعشقه الجديد «حادث» له مغزاه الهامّ في الأوساط التي تشهد لياليه، وظاهرة لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والأنس شيئًا، ولٰكن كم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيدًا عن هٰذه البيئة العائليّة!

أمّا ياسين وفهمي فلم تتحوّل عيناهما عن باب المنظرة منذ ولجته جليلة حتّى خرجت منه مصحوبة بالسيّد محمّد عفّت. دهش فهمي دهشة بكرًا دار لها رأسه كياسين حين سمع زنّوبة وهي تجيبه قائلة: «إنّه من حيّنا ولا بدّ أنّك تسمع عنه. . . السيّد أحمد عبد الجواد. . .»، على حين ركب ياسين حبّ استطلاع نهم فأدرك ـ في سعادة ـ أيقظت في قلبه نشوة الإعجاب والمشاركة الوجدانيّة التي شعر بها نحو أبيه في حجرة زنّوبة ـ أنّ جليلة مغامرة أخرى في حياة أبيه التي بات يؤمن بأنّها سلسلة ذهبيّة من المغامرات، وأنّ الرجل فاق كلّ ما تصوّره خياله عنه، ولبث فهمي يأمل ويرجو أن يعلم بين حين وآخر بأنّ العالمة إنّما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلّق بدعوتها إلى إحياء فرح عائشة حتّى جاء خليل شوكت وأخبرهما ضاحكًا بأنّ جليلة «تداعب السيّد» وبأنّها «تتودّد إليه تودّد الصديق للصديق» وعند ذاك لم يطق ياسين صبرًا على كتمان ما عنده من سرّ ووثبت نشوة الشراب به إلى الإدلاء بمعلوماته فانتظر حتّى غادر خليل ثمّ مال على أذن أخيه قائلًا وهو يغالب ضحكه «كتمت عنك أشياء تحرّجت من البوح بها في حينها، أمّا وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها» ومضى يقصّ عليه ما سمع وما رأى في بيت زبيدة العالمة، وفهمي يقاطعه من آونة لأخرى قائلًا في ذهول «لا تقل هٰذا. . .» «هل لقدت وعيك»، «كيف تريدني على أن أصدّقك» حتّى أتى الشابّ على قصّته بكلّ تفاصيلها.

لم يكن فهمي، بما نشأ عليه من عقيدة ومثاليّة، على استعداد لفهم ـ بله هضم ـ السيرة الخفيّة التي تنكشف له لأوّل مرّة خاصّة وأنّ والده نفسه كان من أركان عقيدته ودعائم مثاليّته، ولعلّ ثمّة وجهًا من التشابه بين شعوره وهو يعاني هٰذا الكشف لأوّل وهلة وبين شعور الجنين ـ إن صدق الخيال ـ وهو ينتقل من مستقرّ الرحم إلى مضطرب الحياة، ولعلّه لو كان قيل له إنّ جامع قلاوون انعكس وضعه فصارت المئذنة أسفل بنائه والضريح عاليه، أو كان قيل له إنّ محمّد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للإنجليز لما كان هٰذا أو ذاك بأدعى إلى إنكاره وانزعاجه. «أبي يذهب إلى بيت زبيدة ليشرب ويغنّي ويضرب الدفّ!... أبي يذعن لمداعبة جليلة وتودّدها!... أبي يقترف السكر والزنا، كيف اجتمعت الثلاث!... إذن هو غير الأب الذي عرفته في البيت مثالًا للورع والقوّة!... أيّهما الصحيح؟... كأنّي أسمعه الآن وهو يردّد: الله أكبر... الله أكبر، فكيف ترديده للغناء!... حياة تمثيل ورياء! ولٰكنّه صادق، صادق إذا رفع رأسه للدعاء، صادق إذا غضب... أيكون أبي رذيلة أم يكون الفسق فضيلة؟!...

ـ ذهلت؟!... ذهلت أنا أيضًا عندما نطقت زنّوبة باسمه، ولٰكن سرعان ما استخففت نفسي وسألتها ماذا عليه من هٰذا؟!... كفرا هٰكذا الرجال جميعًا أو هٰكذا يجب أن يكونوا...

«هٰذا القول جدير بياسين حقًّا... ياسين شيء وأبي شيء آخر... ياسين!... ما ياسين!؟... ولٰكن كيف يحقّ لي أن أردّد هٰذا الآن وأبي، أبي نفسه، لا يختلف عنه في شيء إن لم يَفُقْه تدهورًا... كلّا ليس تدهورًا... ثمّة أمر أجهله... أبي لا يخطئ... غير قابل للخطإ. فوق الشبهات... وعلى أيّ حال فوق الاحتقار.

ـ ما زلت ذاهلًا؟!

ـ لا أتصوّر شيئًا ممّا قلت!

ـ لماذا؟... اضحك وافهم الدنيا، يغنّي وماذا في الغناء من عيب؟ ويسكر وصدّقني أنّ السكر ألذّ من الأكل، ويعشق والعشق كان ملهاة الخلفاء، اقرأ ديوان الحماسة والأخبار التي بهامشه، ليس على أبينا حرج، اهتف معي لِيَحْيَ السيّد أحمد عبد الجواد، لِيَحْيَ أبونا، سأتركك لحظة ريثما أزور ـ هٰذه المناسبة ـ الزجاجة التي أخفيتها تحت الكرسيّ.

بعودة العالمة إلى التخت شاع في الحريم نبأ مقابلتها للسيّد أحمد عبد الجواد فانتقل من لسان إلى لسان حتّى تناهى إلى الأمّ وخديجة وعائشة ومع أنّهنّ كنّ يسمعن شيئًا كهٰذا لأوّل مرّة إلّا أنّ سيّدات كثيرات ـ ممّن بين بعولهنّ وبين السيّد سبب من أسباب المودّة ـ تلقّين النبأ في غير ما دهش وغمزن بأعينهنّ باسمات شأن الذي يعرف أكثر ممّا يقال، ولٰكن واحدة منهنّ لم تسوّل لها نفسها الخوض في الموضوع إمّا لأنّ الخوض فيه جهارًا أمر لا يجمل بهنّ أمام كريماتهنّ وإمّا لأنّ دواعي المجاملة أملت عليهنّ بأن يمسكن عنه حيال أمينة وكريمتيها، غير أنّ حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداعبة «حذار يا أمينة هانم فالظاهر أنّ عين جليلة زاغت إلى السيّد أحمد!» فابتسمت أمينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضّب وجهها، لأوّل مرّة تلمس دليلًا محسوسًا على ما قام بنفسها قديمًا من شكوك، ومع أنّها ألفت الصبر والتسليم بما قدّر عليها إلّا أنّ ارتطامها بدليل محسوس حزّ في قلبها فأحسّت عذابًا لا عهد لها به وجرحًا داميًا في صميم كبريائها، وأرادت امرأة أن تعلّق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأمّ العروس فقالت «من يكن له وجه كوجه ستّ أمّ فهمي قسامة فلا يحقّ لها أن تخشى زيغان عين زوجها إلى امرأة أخرى!» فاهتزّت جوانحها للثناء وعاودتها ابتسامتها الحييّة ووجدت ـ على أيّ حال ـ بعض العزاء عمّا تعانيه من ألم صامت، إلّا أنّه لـمّا بدأت جليلة أغنية جديدة فملأ صوتها مسمعيها ثار بها غضب مفاجئ وشعرت ثواني بأنّ زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولٰكنّها سرعان ما كظمته بقوّة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قطّ بحقّ الغضب. هٰذا على حين تلقّت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيهما عمّا يعنيه الأمر كلّه، بيد

أنّ دهشتها لم يقترن بانزعاج كما حدث لفهمي ولا بألم كما حدث لأمّهما، ولعلّهما وجدنا في قيام امرأة كجليلة من تختها وتكبّدها مشقّة النزول إلى مجلس أبيهما لتحيّته ومحادثته شيئًا مثيرًا للإعجاب حقًّا، ثمّ شعرت خديجة برغبة غريزيّة في استطلاع وجه أمّها فاسترقت إليها النظر ومع أنّها رأتها تبتسم إلّا أنّها تكابد ألمًا وارتباكًا ينغّصان عليها صفوها وأحسّت بضيق وما لبثت أن حنقت على العالمة وحرم المرحوم شوكت والمجلس كلّه.

ولـمّا أزفت ساعة الزفّة نسي كلّ همّه. أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة في ثوب الزفاف لا تبرح الأذهان.

* * *

بدت الغوريّة متلفّعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العروس عائدة إلى النحّاسين. سار السيّد أحمد في المقدّمة وحده، وتبعه على بعد أمتار فهمي وياسين الذي أفرغ ما في وسعه كيما يتمالك نفسه ويتحكّم في مشيته أن يخونه وعيه الزائغ من فرط الشراب، ثمّ جاءت في المؤخّرة أمينة وخديجة وكمال وأمّ حنفي، انضمّ كمال إلى القافلة على رغمه فلولا الحادي الذي يتقدّمها لوجد سبيلًا إلى عصيان يد والدته وانقلب راجعًا إلى حيث غادروا عائشة، وجعل لهذا يتلفّت بين خطوة وأخرى صوب بوّابة المتولّي ليودّع أسيفًا محزونًا آخر ما لاح من مظاهر الفرح، ذلك المصباح المضيء الذي رقي عامل في سلّم خشبيّ إليه ليقتلعه من مربطه فوق مدخل السكّريّة، لشدّ ما يقطع قلبه أن ينظر إلى أسرته فيجدها قد تخلّت عن أحبّ أفرادها إليه بعد أمّه، ورفع بصره إلى والدته وسألها هامسًا:

ـ متى تعود أبلة عائشة إلينا؟

فأجابته بمثل صوته:

ـ لا تكرّر هذا وادع لها بالسعادة، ستزورنا كثيرًا ونزورها كثيرًا.

فهمس مرّة أخرى محنقًا:

ـ ضحكتم عليّ!

فأشارت بيدها إلى الأمام، في اتّجاه السيّد الذي كادت تبتلعه الظلمة «هس»، ولكنّه كان مشغولًا باستحضار صور ممّا مرّ به في بيت العُرس إلى مخيّلته، رأى أنّها متناهية في غرابتها وفيما بعثه في نفسه من حيرة فجذب يدها إليه ليبتعد بها عن خديجة وأمّ حنفي ثمّ همس متسائلًا وهو يشير إلى الوراء:

ـ أما علمت بما يدور هنالك؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ نظرت من ثقب الباب.

فانقبض قلب الأمّ جزعًا لأنّها حدست أيّ باب يعني ولكنّها سألته مكذّبة نفسها:

ـ أيّ باب؟

ـ باب غرفة العروس!

فقالت المرأة بانزعاج:

ـ يا له من عيب أن ينظر الإنسان من ثقوب الأبواب!

فهمس من فوره:

ـ ما رأيته أعيب!

ـ اخرَسْ...

ـ رأيت أبلة عائشة وسي خليل يجلسان على الشيزلنج... وهو...

فلكزته في كتفه بشدّة حتّى أمسك ثمّ همست في أذنه:

ـ يجب أن تخجل ممّا تقول، لو سمعك أبوك لقتلك.

ولكنّه قال بإصرار وبلهجة من يشعر بأنّه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن أن تتصوّر هي وقوعها:

ـ كان يتناول ذقنها بيده ويقبّلها.

ولكزته مرّة أخرى بقسوة لم يعهدها من قبل فأدرك أنّه أخطأ حقًّا وهو لا يدري وسكت خائفًا، ولكنّه عندما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخّرين عن بقيّة الأسرة ـ وقد تخلّفت عنهما أمّ حنفي لتسكّ الباب وتضبّبه وتترّسه ـ ألحّ عليه ما يكابد من حيرة ورغبة في الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء:

ـ لماذا يقبّلها يا نينة؟!

فقالت له بحزم:

- إذا عدت إلى هٰذا أخبرت والدك!

٤١

آوى ياسين إلى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة، ما كاد يخلو إلى فهمي ويأمن الرقباء - سرعان ما غطّ كمال في نومه عقب وضع رأسه على المخدّة مباشرة - حتّى جمحت به رغبة في العربدة كردّ فعل للجهد العصبيّ الذي بذله طوال السهرة، خاصّة في طريق العودة، كيما يضبط نفسه ويسيطر على سلوكه، ولٰكنّه وجد الحجرة أضيق من أن تتّسع لعربدته فمال إلى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر نحو فهمي وهو ينزع ملابسه وقال ساخرًا:

- قارن بين خيبتنا وبين براعة أبينا!... حقًّا إنّه لرجل...

وعلى رغم ما حرّك هٰذا الكلام من ألم فهمي وحيرته إلّا أنّه قنع بأن يقول وهو يرسم على شفتيه الممتعضتين شبه ابتسامة:

- البركة فيك فأنت نعم الخلف.

- أيحزنك أن يكون والدنا من كبار القنّاصة؟

- وددت لو تمتدّ يد التغيير إلى صورته الماثلة في نفسي.

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه في سرور:

- الصورة الحقيقيّة أبهى وأمتع، أُعْظِم به من أب هو المثل الأعلى، آه لو رأيته وهو قابض على الدفّ والكأس بين يديه تزهر! عفارم... عفارم يا سيّد أحمد!

فتساءل فهمي في حيرة:

- وحزمه وتقواه؟!

فقطّب ياسين ليركّز فكره في المسألة ولٰكنّه وجد نفسه في حال الجمع بين الأضداد أروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعًا بالإعجاب وحده:

- ليس ثمّة مشكلة على الإطلاق، عقلك الرعديد وحده الذي يخلق المشكلة من العدم، أبي حازم ومؤمن ويحبّ النسوان، شيء بسيط واضح ١ + ١ = ٢، ولعلّي أشبه الناس به على وجه التقريب لأنّي مؤمن وأحبّ النسوان وإن قلّ نصيبي من الحزم، أنت نفسك مؤمن وحازم وتحبّ النسوان، ولٰكن بينا تحقّق إيمانك وحزمك إذا بك تنكص عن الثالثة (ثمّ ضاحكًا) والثالثة هي الثابتة!

لعلّه نسي عند آخر كلامه باعث الإعجاب الذي دفعه إلى الاسترسال فيه، فجاء قوله دفاعًا عن أبيه في الظاهر فقط، أمّا في الحقيقة فلم يكن إلّا تعبيرًا عن شعور وهّاج هاج به دمه المخمور، عن نشوة جامحة ركبته عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم، شهوة أثارها خيال مكهرب بالشراب، فرغب جسده في الحبّ رغبة جنونيّة عجزت إرادته عن شكمها أو ملاطفتها، ولٰكن أين يجد مطلبه؟ هل يتّسع له الوقت؟!... زنّوبة؟!... ماذا يحول بينه وبينها؟!... طريق قصير، ضجعة قصيرة، ثمّ يعود فينام نومًا عميقًا هادئًا، هشّ للأخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له يراجعه فاندفع إلى تحقيقها بلا تردّد، وما لبث أن قال لأخيه:

- الجوّ حارّ، سأصعد إلى السطح لأتنسّم هواء الليل الرطيب.

وغادر الحجرة إلى الدهليز الخارجيّ، ومضى يهبط متلمّسًا طريقه في ظلمة غاشية، محاذرًا غاية الحذر أن يندّ عنه صوت. تُرى كيف يستطيع الوصول إلى زنّوبة في هٰذه الساعة من الليل؟ هل يطرق الباب؟ ومن عسى أن يجيء لفتحه؟ وبِمَ يجيبه إذا سأله عن مقصده؟ وإذا لم يستيقظ أحد لفتح الباب؟ أو إذا جاء الخفير ليراقبه بتطفّله المعروف؟ عامت هٰذه الخواطر على سطح مخّه كالفقاقيع ثمّ انداحت غارقة في تيّار الخمر الجارف فلم يتجهّم لها كعوائق ينبغي تقدير عواقبها ولٰكنّه ابتسم لها كدعابات ممّا قد يؤنس وحشة مغامرته، ثمّ جاوزها خياله طائرًا إلى حجرة زنّوبة المطلّة على مفرق الغوريّة والصنادقيّة فتخيّلها في قميص النوم الأبيض الشفّاف الذي يتقوّس مطاوعًا فوق النهدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريّتين فجنّ جنونه وودّ لو يثب فوق

الدرجات لولا الظلمة الغاشية. خرج - بخروجه إلى الفناء - إلى ظلمة أخفّ قليلًا بما نفضته النجوم عليها من أضواء خافتة بَيْد أنّها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السلّم طويلًا نورًا أو كالنور. وعندما خطا خطوتين متّجهًا إلى الباب الخارجيّ في آخر الفناء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضم أمام حجرة الفرن فألقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتّى عثر قريبًا على جسم منطرح على الأرض فتنوّره على ضوء السراج فعرف أمّ حنفي التي بدت وكأنّها استحبّت النوم في الهواء الطلق فرارًا من جوّ حجرة الفرن الخانق. وهمّ بمواصلة السير ولٰكن ثمّة شيء استوقفه فعطف رأسه مرّة أخرى صوب النائمة فأمكنه أن يتبيّنها من موقفه، الذي لم يفصله عنها إلّا بضعة أمتار، بوضوح غير منتظر، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التي رسمت في الهواء بحافّة الجلباب المتصقة بالركبة هرمًا قائمًا وكشفت في نفس الوقت عن فخذها اليسرى التي لاحت عارية فيما يلي الركبة ثمّ غرقت في ظلمة الفرجة التي انحسر عنها الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة مع أنّ إحساسه بضيق الوقت ووجوب البدار إلى غايته لم يَهُنْ إلّا أنّه لم يستردّ بصره عن الجسم الملقى غير بعيد منه، أو لعلّه لم يستطع استرداده وانساق وهو لا يدري إلى تفرّسه بإمعان بدا في يقظة عينيه المحمرّتين وانفراج شفتيه الممتلئتين، فاستحالت يقظة العين - وهي تتفحّص الجسم اللحيم الذي شغل فراغًا كبيرًا كأنّه جاموسة مسمّنة - رغبة مريبة حتّى استقرّ البصر على الفرجة المعتمة ما بين الساق القائمة والساق الممدودة، ثمّ تحوّل التيّار المضطرم في شرايينه من التطلّع صوب باب الخروج إلى حجرة الفرن، وكأنّه يكتشف لأوّل مرّة المرأة التي خالطها أعوامًا طويلة بغير مبالاة. على أنّ أمّ حنفي لم تحظ بسمة واحدة من سمات الحسن، وبدا وجهها أكبر من سنّها الحقيقيّة التي لم تكد تجاوز الأربعين، حتّى اكتنازها باللحم والدهن كان - لتنافره وسوء تنسيقه - بالانتفاخ الغليظ أشبه، ولذٰلك، وربّما أيضًا لطول انزوائها في حجرة الفرن وقديم معاشرته لها التي بدأت مع صباه، لم يلتفت إليها قطّ. بيد أنّه كان وقتذاك على حال من الهيجان فَقَد معها أيّة قدرة على التمييز فأعمته الشهوة، وأيّ شهوة؟ شهوة مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيها ولا لألوانها، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح، والكلّ عندها في «الأزمات» سواء كالكلب يلتهم بلا تردّد ما يصادفه في القُمامة، عند ذاك بدت له مغامرته الأولى - زنّوبة - محفوفة بالمتاعب مجهولة العواقب، ولم يعد «الوصول إليها في هٰذه الساعة من الليل، وطرق الباب، وما يقول لفاتحه، والخفير» دعابات يبسم لها، ولٰكن عوائق يجدر به أن يتفادى منها. تقدّم في خفّة وحذر فاغرًا فاه، ذاهلًا عن كلّ شيء إلّا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذي بدا لعينيه النهمتين وكأنّه أخذ أهبته لاستقباله. حتّى توقّف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة، ثمّ انحنى عليها قليلًا قليلًا بلا وعي تقريبًا، وبإغراء شديد من الداخل والخارج معًا، وما يدري إلّا وهو ينبطح فوقها. لعلّه لم يتعمّد الذهاب إلى هٰذا الحدّ دفعة واحدة، ولعلّه همّ بشيء من التمهيد كان لا ينبغي أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة، ولٰكنّ الجسم الذي انبطح عليه اضطرب اضطرابة فزع شديدة وندّت عنه صرخة مدوّية - سبقت يده التي رامت كتمها - فمزّقت السكون الشامل ولطمت مخّه لطمة قويّة ردّت إليه وعيه فأطبق راحته على فمها وهو يهمس في أذنها بقلق وخوف بالغين:

- أنا ياسين، أنا ياسين يا أمّ حنفي، لا تخافي...

وطفق يكرّر قوله حتّى اطمأنّ إلى وعيها إيّاه فاستردّ راحته، ولٰكنّ المرأة - التي لم تمسك عن المقاومة قطّ - تمكّنت أخيرًا من تنحيته عنها، فاستوت جالسة وهي تلهث من الجهد والانفعال ثمّ سألته بصوت أزعجه أيّما إزعاج:

- ماذا تريد يا سي ياسين؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء:

- لا ترفعي صوتك هٰكذا، قلت لك لا تخافي، ليس ثمّة ما يدعو إلى الخوف بتاتًا...

فعادت تسأله بجفاء وإن خفضت من صوتها قليلًا:

ـ ماذا جاء بك؟

فجعل يربّت على يدها متودّدًا وهو يتنهّد في شبه ارتياح لم يَخْلُ من عصبيّة كأنّما رأى في خفضها لصوتها أمارة مشجّعة وقال لها:

ـ ماذا أغضبك؟ لم أُرِدْ بك سوءًا (مبتسمًا ابتسامة وشت بها نبراته) هلمّي إلى حجرة الفرن. . .

فقالت المرأة بصوت مضطرب ولكنّه ذو دلالة حازمة:

ـ كلّا يا سيّدي، اذهب إلى حجرتك، اذهب، الله يلعن الشيطان. . .

لم تزن أمّ حنفي كلماتها بميزان ولكنّها ندّت عنها كما اقتضى الحال. لعلّها لم تعبّر أصدق التعبير عن رغباتها، ولكنّها عبّرت تمامًا وبغير شعور منها على شدّة المفاجأة، مفاجأة لم تسبق يومًا بتمهيد من أيّ نوع كان، التي انقضّت عليها في نومها كما تنقضّ الحدأة على الفرخ، فصدّت الشابّ وزجرته بلا أدنى تفكير حقيقيّ في الصدّ أو الزجر، بيْد أنّه أساء فهمها فامتلأ حنقًا وثارت برأسه الخواطر. . . «ما العمل مع بنت الكلب هذه! لا يمكن أن أتراجع بعد أن كشفت نفسي وتماديت إلى حدّ الفضيحة، لا بدّ ممّا أريد ولو لجأت إلى القوّة» وفكّر بعجلة في أنجع وسيلة للتغلّب على ما تراءى له من مقاومة ولكنّه ـ قبل أن يتّخذ قرارًا ـ سمع حركة غريبة، لعلّها أقدام، آتية من باب السلّم، فوثب قائمًا وهو من الفزع في نهاية، مزدردًا شهوته كما يزدرد اللصّ فصّ الماس المسروق إذا بوغت في مكمنه، واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فرأى والده وهو يجتاز العتبة مادًّا ذراعه بالمصباح. تسمّر في مكانه مُختطف الدم مستسلمًا ذاهلًا يائسًا. أدرك من توّه أنّ صرخة أمّ حنفي لم تضع هباء، وأنّ النافذة الخلفيّة لحجرة الأب كانت له بالمرصاد، ولكن ما جدوى الإدراك المتأخّر؟. . . لقد وقع في فخّ القضاء والقدر. وجعل السيّد يتفرّس في وجهه بقسوة صامتًا، مطيلًا الصمت، وهو ينتفض غضبًا، ودون أن يحوّل عينيه القاسيتين أشار بيده إلى الباب يأمره بالدخول، ومع أنّ الاختفاء كان أحبّ إليه في تلك اللحظة من الحياة نفسها إلّا أنّه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرّك ساكنًا، فضاق صدر الأب ولاحت في عبوسته بوادر الانفجار ثمّ زجر صائحًا وعيناه ـ اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه ـ ترسلان شررًا. . .

ـ اطلع يا مجرم يا بن الكلب. . .

فما ازداد إلّا استمساكًا بجموده حتّى هجم عليه السيّد فقبض على ذراعه بيمناه وشدّ عليها بغلظة ثمّ جذبه بشدّة نحو الباب فاندفع بقوّة الجذبة الخارقة فكاد يقع على وجهه، وتمالك توازنه وهو يلتفت وراءه فزعًا، وفرّ بنفسه وثبًا وهو لا يبالي ظلمة.

٤٢

علم بفضيحة ياسين شخصان ـ غير أبيه وأمّ حنفي ـ هما ستّ أمينة وفهمي، سمعا صرخة أمّ حنفي، فشاهدا من نافذتيهما ما دار بين الشابّ وبين السيّد، ثمّ حدسا ما هنالك دون حاجة إلى كبير ذكاء، على أنّ السيّد كاشف زوجه بزلّة ابنه وسألها مدقّقًا عمّا تعلم من أخلاق «أمّ حنفي» فدافعت أمينة عن خادمتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذكّرت السيّد بأنّه لولا «صرختها» ما درى أحد بما كان، فقضى الرجل ساعة وهو يسبّ ويلعن، سبّ ياسين، وسبّ نفسه لأنّه «ما كان ينبغي أن ينجب أطفالًا ليكدّروا صفوه بأهوائهم الشرّيرة» واستفاض به الغضب فسبّ البيت وأهله جميعًا!. . . وظلّت أمينة صامتة كما واصلت صمتها فيما بعد كأنّما لم تدرِ شيئًا، كذلك تجاهل فهمي الأمر كلّه، تظاهر بالاستغراق في النوم حين عاد أخوه إلى الحجرة لاهثًا عقب الموقعة الخاسرة، ولم يَبْدُ منه فيما بعد ما ينمّ عن علمه بشيء، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذلّ ومهانة إكرامًا لاحترام يكنّه له بصفته أخاه الأكبر، احترام لم يُذهبه كلّ ما تكشّف له من استهتاره ومجونه أو ما تقدّم هو به عليه من علم وثقافة، أو ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة بإلزام أحد من إخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة، أجل لم يزل

يكنّ له احترامًا لعلّ حرصه على الإبقاء عليه راجع إلى ما يأخذ به نفسه من تأديب وجدّ ورزانة أكسبته مظهرًا أكبر من سنّه، بَيْد أنّ خديجة لم يَفُتْها أن تلاحظ ـ غداة الواقعة ـ أنّ ياسين لم يتناول فطوره على مائدة أبيه فسألته باستغراب عن المانع فأجابها بأنّه لم يهضم عشاء الفرح، وشعرت الفتاة ـ بسوء ظنّها الطبيعيّ المرهف ـ بأنّ ثمّة علّة لتخلّفه غير عسر الهضم فساءلت أمّها ولكنّها لم تجد جوابًا شافيًا، ثمّ رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل أيضًا، لا بدافع من حبّ الاستطلاع أو الأسف، ولكن أملًا أن يجد في الجواب ما يبشّره بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين، وكاد الأمر ينسى لولا أنّ ياسين غادر البيت مساء من غير أن يشترك في مجلس القهوة المعهود، ومع أنّه اعتذر لفهمي والأمّ بارتباطه بميعاد إلّا أنّ خديجة قالت بصراحة «في الأمر شيء، لست عبيطة... أقطع ذراعي إن لم يكن ياسين متغيّرًا». وعند ذاك اضطرّت الأمّ أن تعلن غضب السيّد على ياسين لسبب لم تعلمه... وانقضت ساعة وهم يخمّنون السبب حتّى أمينة وفهمي اشتركا مع الآخرين مداراة للواقع. وظلّ ياسين على تجنّبه لمائدة أبيه حتّى دُعي ذات صباح إلى مقابلته قبل الفطور. لم تفجأه الدعوة، وإن أزعجته رغم ذلك ـ فكم توقّعها يومًا بعد يوم لاستيثاقه من أنّ أباه لا يمكن أن يقنع من زلّته بتلك الجذبة العنيفة التي كادت أن تلقيه على وجهه، وأنّه لا بدّ عائد إليها بطريق أو بآخر ولعلّه توقّع أيضًا معاملة لن تليق بحال بموظّف مثله ممّا حمله حينًا على التفكير في مغادرة البيت إلى حين أو إلى الأبد. أجل لا يجمل بأبيه ـ أبيه كما عرفه في بيت زبيدة خاصّة ـ أن يلقى زلّته بهٰذا العنت كلّه، كما لا يجمل به هو أن يعرّض نفسه لمعاملة لا تليق برجولته فالأكرم له أن يفارقه، ولكن إلى أين؟... ليس إلّا أن يعيش عيشة مستقلّة بمفرده، ولن يعجزه هٰذا، بيد أنّه قلّب الأمر على مختلف وجوهه، قدّر النفقات وتساءل عمّا يبقى له بعدها لملاذّه: لقهوة سي علي وحانة كوستاكي وزنّوبة. هنالك فتر حماسه حتّى انطفأ كما تنطفئ شمعة سراج تعرّضت لهبّة هواء عنيفة، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه «لو طاوعت الشيطان وهجرت البيت لأحدثت تقليدًا خبيثًا لا يليق بأسرتنا، مهما يقل أبي أو يفعل فهو أبي وهيهات أن نضام حيال تأديبه» ثمّ قال بصراحته التي يصطنعها إذا غلبته روح الدعابة «شيئًا من التواضع يا ياسين بك، دعنا من الكرامة وحياة أمّك، أيّها أحبّ إليك كرامة سيادتك أو كونياك كوستاكي وسرّة زنّوبة». هٰكذا عدل عن التفكير في مغادرة البيت ولبث ينتظر الدعوة المتوقّعة حتّى وقعت فجمع نفسه ومضى كارهًا متوجّسًا، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيدًا عن مجلس أبيه من غير أن يجرؤ على التسليم عليه، وانتظر. وألقى السيّد عليه نظرة طويلة ثمّ هزّ رأسه كالمتعجّب وهو يقول:

ـ ما شاء الله!... طول وعرض، شارب وقفا، إذا رآك الرائي في الطريق قال لنفسه بإعجاب نِعم الرجل ونعم الابن، فليت القائل يجيء إلى البيت ليراك على حقيقتك!...

ازداد الشابّ ارتباكًا وحياء ولكنّه لم ينبس بكلمة ومضى السيّد يتفحّصه بسخط ثمّ قال باقتضاب وبلهجة جافّة آمرة:

ـ قرّرتُ أن تتزوّج...!

ودهش ياسين دهشة لم يكد يصدّق معها أذنيه، كان يتوقّع سبًّا ولعنًا فحسب ولٰكن لم يخطر له على بال أنّه سيسمع قرارًا خطيرًا يغيّر مجرى حياته كلّها فما تمالك أن رفع عينيه إلى وجه أبيه حتّى إذا ما التقتا بعينيه الزرقاوين الحادّتين خفضهما متورّد الوجه لائذًا بالصمت، وفطن السيّد إلى أنّ ابنه بوغت بهٰذا القرار «السعيد» بدلًا من المعاملة الفظّة التي كان يتوقّعها فثار حنقه على الظروف التي أملت عليه أن يلقاه بجانب دمث خليق بتكذيب ظنّه بجبروته المعروف فبثّ حنقه في نبرات صوته، وهو يقول عابسًا:

ـ الوقت ضيّق وأريد أن أسمع جوابك...

ما دام الرجل قد قرّر أن يزوّجه فهو يأبى إلّا أن يسمع جوابًا واحدًا، ولا مانع من أن يُسمعه الجواب

الـذي يريـد، لا طاعـة لأمره فحسب، ولكن تلبيـة لرغبته هو أيضًا. أجل ما كان والده يعلنه بقراره حتّى انطلق خياله يصوّر له «عروسًا» حسناء، امرأة تكون ملك يمينه ورهن إشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتّى أوشك أن يفضحه صوته وهو يقول:

ـ الرأي رأيك يا بابا. . .

ـ تريد أن تتزوّج أو لا؟. . . انطق. . .

فقال الشابّ بحـذر من يرغب الـزواج وهو غـير مستعدّ له ماليًا:

ـ ما دامت هٰذه إرادتـك فإنّي مـوافق على العـين والرأس.

فخفّف السيّد من خشونة لهجته وهو يقول:

ـ سأطلب لك كريمة صديقي السيّد محمّـد عفّت تاجر الأقمشـة بالحمـزاوي، لقية ظفـرها بـرقبة ثـور مثلك.

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مداهنًا:

ـ ولكنّي بفضلك أصير كفئًا لها.

فرمقه بنظرة حادّة كأنّما لينفذ بها إلى أعماق مداهنته وقال:

ـ من يسمع كلامك لا يتصوّر فعالك يا منافق. . . اغرب عن وجهي. . .

وهمّ ياسين بالتحرّك ولكنّه أوقفه بإشارة من يده ثمّ تساءل مستدركًا كأنّما عرض التساؤل له اتّفاقًا:

ـ أظنّك حوّشت المهر؟

لم يحر جوابًا وعلاه الارتباك فاغتاظ السيّد وتساءل مستنكرًا:

ـ ولكنّك عشت رغم توظّفك في كفالتي كما كنت تعيش وأنت تلميذ فماذا صنعت بمرتّبك؟

فلم يزد على أن حرّك شفتيه دون أن ينبس فحرّك الأب رأسه ممتعضًا وذكر قوله له منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة تـوظّفه «لـو طالبتـك الآن بأن تتعهّـد بنفقـات نفسك بـوصفك رجـلًا مسئولًا مـا خـرقت المألوف بـين الآباء والأبنـاء ولكنّي لن أطالبـك بمليّم واحد كي أهيّئ لك فرصة لاقتصاد مقدار من المـال تجـده بين يـديك إذا دعت الحـاجة إليـه» ودلّ ذٰلك التصرّف من جانبه على ثقته بابنه، والحقّ أنّه لم يتصوّر أن يجنح أحد من أبنائه ـ بعدما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين ـ إلى هـوًى من الأهواء الجـامحة التي تبـدّد المـال، لم يتصـوّر أن ينقلب ابنـه «الصغـير» سكّـيرًا ماجنًا، فالخمر والنساء التي يراها في حياته هو لونًا من اللهو لا يمسّ رجولة ولا يؤذي إنّما تنقلب إذا «لوّثت» أحدًا من أبنائه جريمة لا تغتفر، ولذٰلك فإنّ زلّة الشابّ التي كشفها في فناء البيت طمأنته بقدر ما أغضبته لأنّ أمّ حنفي في نظره لا يمكن أن تغري شابًا إن لم يكن تحمّل ما فاق طاقته من الاستقامة والعفّة. . . أجل لم يشكّ في براءة ابنه بيْد أنّه ذكر ما لاحظه كثيرًا من ولعـه بالأنـاقة وتخـيّره النفيس من البـدل والقمصـان وأربطة الرقبة وكيف لم يرتح إلى ذٰلك وحذّره الإسراف ولٰكن تحذيرًا هيّنًا، إمّا لأنه لم يرَ في الأناقة جريمة، وإمّا لأنّ تشبّه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكـه ـ الذي لا يرى بأسًا في أن يكرّره أبناؤه ـ حرّكا في صدره العـطف والتسامح، ولٰكن كيف كانت نتيجـة ذٰلك التسامح؟ وهي ما وضح له الآن من تبذيره نقوده في التافه من الكماليّات. ونفخ الرجل مغيظًا محنقًا وقال له محتدًا:

ـ اغرب عن وجهي. . .

غادر ياسين الحجرة مغضوبًا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلّته كما توقّع وهو ذاهب إلى الحجرة، تبذيره الذي لم يكربه من قبل فسلّم إليه نفسه بلا تفكير ولا تدبّر، ينفق ما في جيبه حتّى يفرغ غارقًا في ساعته، متعاميًا عمّا يسمّونه «المستقبل» كأنّه شيء لا وجود له، ومع أنّه غادر الحجرة مرتبكًا وجلًا لنهرة أبيه إلّا أنّه لم يخْلُ من ارتياح عميق إذ أدرك أنّ تلك النهرة لا تعني طرده فحسب ولكن أيضًا أنّ السيّد سيتكفّل بنفقات زواجه، ومضى كالطفل الذي يضيق أبوه بإلحاحه في طلب قرش فينقده إيّـاه ويدفعـه خارجًـا فينسى شدّة الدفعة في فرحة الظفر، ولبث الأب ساخطًا راح يردّد «يا له من حيوان، جسم طويل عريض ولكن بلا مخّ» أغضبه إسرافه كأنّه لم يتّخذ هو من الإسراف شعارًا في الحياة ـ ولكنّه لا يرى بأسًا في إسرافه كسائر أهوائه ـ ما

دام لا يفقره وينسيه واجباته أو يدهور شخصيّته، ولٰكن كيف يضمن أن يصمد أمامه ياسين؟. . . فلم يكن يحرّم عليه ما يحلّ لنفسه من استبداد وأنانيّة فحسب ولٰكن شفقًا عليه وإن دلّ شفقه هٰذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلوان من غرور. وزايله الغضب كعادته، بنفس السرعة التي ركبه بها، فصفت نفسه وانبسطت أساريره وأخذت الأمور تتبدّى له بوجه جديد لطيف مسباح. . . «تريد أن تتشبّه بأبيك يا ثور. . . إذن لا تأخذ جانبًا وتهمل الجوانب الأخرى، كن أحمد عبد الجواد كلّه إن استطعت أو فالزم حدودك، أحسبتني حقًّا سخطت على تبذيرك لأنّي كنت أرجو أن أزوّجك بنقودك؟! خسئت. . . إنّما رجوت أن أجدك مقتصدًا كي أزوّجك بنقودي على وفرة النقود لديك، هٰذا هو الرجاء الذي خيّبت. وهل حسبتني لم أفكّر في اختيار زوجة لك إلّا بعد ضبطك متلبّسًا بالزنا، وأيّ زنًا. . . زنًا حقير كحقارة ذوقك وذوق أمّك؟! كلّا يا بغل إنّي أفكّر في سعادتك منذ توظّفت، كيف لا وأنت أوّل من جعلني أبًا. . . وأنت شريكي في العذاب الذي أصْلتنا إيّاه أمّك اللعينة؟!. . . ثمّ أليس من حقّي أن أفرح بك خصوصًا وأنّه عليّ أن أنتظر طويلًا حتّى أفرح بالثور الآخر أخيك أسير العشق ويا تُرى من يعيش؟!. . .» في اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قصّ على السيّد محمّد عفّت «جريمة» ياسين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التي كادت تلقيه على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمته للشابّ ـ الواقع أنّ الموافقة على ذٰلك تمّت بين الرجلين من قبل مفاتحة ياسين ـ وكيف قال له الرجل «ألا ترى أنّه يجمل بك أن تغيّر من معاملتك لابنك كلّما قارب سنّ الرشد خاصّة إذا توظّف وصار رجلًا مسئولًا؟ (ثمّ ضاحكًا) الظاهر أنّك من الآباء الذين لا يرتدعون حتّى يجهر أبناؤهم بالثورة عليهم». وكيف أجابه بثقة قائلًا: «هيهات أن تتعرّض الرابطة بيني وبين أبنائي لتغيّر الزمن» صدرت عنه الإجابة الأخيرة بمباهاة وثقة لا حدّ لها، على أنّه اعترض له بعد ذٰلك أنّ معاملته تتغيّر في الواقع بتغيّر الأحوال وإن عمل من جانبه على ألّا يفطن أحد إلى نيّة التغيير الباطنة ثمّ قال: «الحقّ أنّي لا أقبل أن أمدّ يدي الآن على ياسين ولا حتّى على فهمي، والحقّ أنّي جذبت ياسين تلك الجذبة تحت تأثير غضب ثائر ومن غير أن أقدّر المدى الذي ذهبت إليه» ثمّ استطرد قائلًا وهو يكرّ إلى فترة من الماضي البعيد «كان أبي رحمة الله عليه يلتزم في تربيتي شدّة تهون إلى جانبها شدّتي مع أبنائي ولٰكنّه سرعان ما غيّر من معاملته لي منذ أن دعاني إلى معاونته في الدكّان، ثمّ استحالت معاملته صداقة أبويّة منذ تزوّجت أمّ ياسين، وقد بلغ بي الاعتزاز بالنفس أن عارضت في زواجه الأخير لكبره من ناحية وحداثة سنّ العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لي «أتعارضني يا ثور. . . وما دخلك في هٰذا الشأن؟ إنّي أقدر منك على إرضاء أيّة امرأة» فما تمالكت أن ضحكت وطيّبت خاطره معتذرًا» ذكر هٰذا كلّه فورد على ذهنه المثل القائل «إذا كبر ابنك آخِه» فشعر ـ ربّما لأوّل مرّة في حياته ـ بتعقّد مهمّة الأبوّة كما لم يشعر بها من قبل. في نفس الأسبوع أذاعت الأمّ خطبة ياسين في مجلس القهوة، كان فهمي قد علم بها عن طريق ياسين نفسه، أمّا خديجة فما تمالكت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب على ياسين ظنًّا منها أنّ الغضب إنّما وقع نتيجة لرغبة ياسين في الزواج قياسًا على ما كان بين الأب وفهمي للسبب نفسه فصرّحت برأيها كالمتسائلة فقال ياسين ضاحكًا وهو يخطف من الأمّ نظرة لا تخلو من حياء وارتباك:

ـ الحقّ أنّ ثمّة علاقة قويّة بين الغضب وبين الخطبة. . .

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح:

ـ بابا معذور في غضبه لأنّ حضرتك لا يمكن أن تشرّفه أمام صديق كبير مثل السيّد محمّد عفّت. . .

فجاراها ياسين في سخريتها قائلًا:

ـ وسوف يزداد موقف أبي حرجًا إذا ما علم السيّد الكبير المذكور أنّ للعريس أختًا مثل حضرتك!

عند ذاك تساءل كمال:

ـ هل سيتركنا ياسين كما تركتنا أبلة عائشة؟

فقالت له أمّه باسمة:

ـ كلّا ولكن ستنضمّ إلى بيتنا أخت جديدة هي العروس...

ارتاح كمال إلى هٰذه الإجابة التي لم يكن يتوقّعها، ارتاح إلى بقاء «روايته» الذي يمتّعه بحكاياته ونوادره ومؤانسته ولٰكنّه عاد يتساءل لماذا لم تبق عائشة أيضًا؟ فأجابته أمّه بأنّ العادة قضت بأنّ العروس تنتقل إلى بيت العريس وليس العكس، لم يَدْرِ من سَنّ هٰذه العادة وكم تمنّى لو كان العكس هو المتّبع ولو يضحّي بياسين ولطائفه. بيْد أنّه لم يستطع أن يجهر برغبته فأفصح عنها بنظرة ناطقة رنا بها إلى أمّه، فهمي وحده الذي أثار الخبر أشجانه لا لأنّه لم يشارك ياسين فرحته ولٰكن لأنّ سيرة الزواج غدا شأنها أن توقظ عاطفته وتستثير حزنه كما تستثير سيرة النصر حزن أمّ فقدت ابنها... في موقعة ظافرة...

٤٣

تحرّك الحنطور مقلًّا الأمّ وخديجة وكمال في طريقه إلى السكّريّة. أيكون زواج عائشة إيذانًا بعهد جديد من الحرّيّة؟ أيقدّر لهم أخيرًا أن يطّلعوا على نور الدنيا من حين لآخر وأن يتنفّسوا هواءها الطليق؟! بيْد أنّ أمينة لم تستسلم للتفاؤل أو تسبق الحوادث، فالذي حرّم عليها زيارة أمّها فيما ندر قادر على أن يحرّم عليها زيارة ابنتها كذٰلك. ولم تنس أنّه مضت أيّام كثيرة على زواج الفتاة زارها خلالها الأب وياسين وفهمي وحتّى أمّ حنفي دون أن يؤذن لها هي بزيارتها أو تواتيها شجاعتها على الاستئذان للزيارة، تحرّزت من تذكيره بأنّ لها ابنة في السكّريّة يجب أن تراها، ولازمت الصمت وإن لم تبرح صورة الصغيرة مخيّلتها، على أنّه لـمّا ضاق صدرها بآلام التصبّر استجمعت إرادتها وسألته:

ـ إن شاء الله يكون سيّدي عازمًا على زيارة عائشة قريبًا لنطمئنّ عليها؟...

فطن السيّد إلى ما وراء السؤال من رغبة خفيّة فحنق عليها، لا لأنّه كان قرّر أن يحول بينها وبين زيارة عائشة، ولٰكن لأنّه ودّ ـ كشأنه في مثل هٰذه الحالة ـ أن يصدر السماح منه منحة غير مسبوقة بطلب أن تقوم بنفسها شبهة بأنّ طلبها ذو أثر في استصدار السماح، فكَرِهَ أن تسعى إلى تذكيره بهٰذا السؤال الماكر، ومن قبل فكّر في الأمر بضيق فأحنقه أن يجده ضرورة لا محيص منها، ولذٰلك هتف بها حانقًا:

ـ عائشة في بيت زوجها ولا حاجة بها إلى أحد منّا، على أنّني زرتها كما زارها أخواها فماذا يقلقك عليها؟!

غاص قلبها في صدرها وجفّ ريقها يأسًا وقهرًا، أمّا السيّد فقد تعمّد أن يلزم الصمت كأنّه انتهى من الأمر كلّه معاقبة لها على ما عدّه مكرًا منها لا يغتفر، ثمّ أهملها طوال الوقت وهو يختلس النظر إلى ما غشي أساريرها من كمد، حتّى حان وقت انصرافه إلى عمله فقال لها بجفاء واقتضاب:

ـ اذهبي غدًا إلى زيارتها...!

تدافع دم الانشراح إلى الوجه الذي لا تخفى بصفحته خافية فبدت في سرور الطفل فما عتّم أن عاوده حنقه فصاح بها:

ـ لن تريها بعد ذٰلك إلّا إذا سمح لها زوجها بزيارتنا...!

فلم تعلّق على قوله بكلمة ولٰكنّها لم تنس عهدًا حملته وهي تشاور خديجة في مفاتحته فقالت بعد تردّد وإشفاق:

ـ هل يسمح سيّدي بأن آخذ معي خديجة؟

فهزّ رأسه كأنّما يقول «ما شاء الله... ما شاء الله...» ثمّ قال لها محتدًّا:

ـ طبعًا... طبعًا!... ما دمت قد قبلت أن أزوّج ابنتي فيجب أن تنضمّ أسرتي إلى أبناء الشوارع!... خذيها، ربّنا يأخذكم جميعًا...

تمّ لها فوق ما تطمع من السرور فلم تُلْقِ بالًا إلى الدعاء الأخير الذي ألفت سماعه... وأكثر ـ في أوقات غضبه أو تظاهره بالغضب على السواء ـ كانت تعلم بأنّه من طرف لسانه وأنّه أبعد ما يكون من قلبه، مثله

كمثل القطّة تبدو، حين تحمل صغارها، وكأنّها تلتهمها. تحقّق الرجاء وانطلقت العربة بهم في طريقها إلى السكّريّة. بدا كمال، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة أمّه وأخته وركوبه الحنطور، أوفر الثلاثة سرورًا، وكأنّه لم يستطع كتمان فرحه أو أنّه رغب في إعلانه على الملأ أو لعلّه أراد لفت الأنظار إلى شخصه وهو يتّخذ مجلسه في الحنطور بين أمّه وأخته فما اقتربت العربة من دكّان عمّ حسنين الحلّاق حتّى وقف بغتة هاتفًا «يا عمّ حسنين... انظرا» فنظر الرجل إليه ولـمّا لم يجده وحده غضّ بصره في عجلة مبتسمًا فذابت الأمّ خجلًا وارتباكًا وجذبته من طرف جاكتته أن يعيد الكرّة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤنّبه على فعلته «الجنونيّة». بدا بيت السكّريّة ـ وليس كذٰلك بدا في حلّة الأنوار ليلة الفرح ـ عتيقًا هرمًا ولٰكن دلّ عتقه نفسه فضلًا عن ضخامة بنيانه ونفاسة أثاثه على السؤدد والجاه، فآل شوكت أسرة «قديمة» وإن لم يبق لهم من عزّة القدم ـ خاصّة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاستكبار على التعليم ـ إلّا الاسم، وقد أقامت العروس بالدور الثاني على حين نزلت حرم المرحوم شوكت ـ ومعها ابنها الأكبر إبراهيم ـ الدور الأوّل لعجزها مع الكبر عن ارتقاء السلّم فبقي دور ثالث شاغرًا لم يسعهم أن يشغلوه وأبوا أن يسكنوه. ولـمّا أدخلوا شقّة عائشة همّ كمال، منطلقًا مع سجيّته كما لو كان في بيته، يجوس خلالها كي يعثر بنفسه على أخته مستمتعًا بلذّة المفاجأة التي تخيّلها وهو يرقى في السلّم ولٰكنّ أمّه لم تدعه يفلت من يدها رغم مقاومته وما يدري إلّا والخادم تقودهم إلى حجرة الاستقبال ثمّ تتركهم وحدهم! شعر بأنّهم يعاملون معاملة «الغرباء» أو «الضيوف» فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردّد في جزع «أين عائشة؟... لماذا تبقى هنا؟» فلا يسمع إلّا كلمة «هس» وتحذيرًا من منعه من الزيارة مرّة أخرى إذا علا صوته!... ولٰكنّه سرعان ما زايله الألم حين جاءت عائشة مهرولة مشرقة الوجه بابتسامة غطّى سناها على أضواء حلّتها الزاهية وزينتها الباهرة فجرى نحوها وتعلّق بعنقها، فتبودل التسليم بينها وبين أمّها وأختها وهو على ذٰلك الوضع!

بدت عائشة سعيدة كلّ السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وبزيارة أهلها، حدّثتهم عن زيارات أبيها وياسين وفهمي، وكيف غلبها الشوق إليهم على خوفها من أبيها فواتتها الجرأة على أن ترجوه بالسماح لهم بزيارتها!... قالت «لا أدري كيف طاوعني لساني حتّى تكلّمت! لعلّ مظهره الجديد الذي لم يتراءَ لي به من قبل هو الذي شجّعني، بدا لطيفًا وديعًا باسمًا، إي والله باسمًا، على أنّني تردّدت رغم ذٰلك طويلًا، خفت أن ينقلب فجأة فينتهرني، ثمّ توكّلت على الله ونطقت!» فسألتها أمّها عن ردّه كيف كان فقالت «قال لي باقتضاب: إن شاء الله، ثمّ استطرد مسرعًا بلهجة جدّيّة تنمّ عن تحذير: ولٰكن لا تظنّي المسألة لعبًا فكلّ شيء بحساب. فخفق قلبي ورحت أدعو له طويلًا تودّدًا واسترضاء!» ثمّ رجعت إلى الوراء قليلًا فوصفت حالها عندما قيل لها «السيّد الكبير في حجرة الاستقبال» قالت «ركضت إلى الحمّام فغسلت وجهي لأزيل كلّ أثر للمساحيق حتّى تساءل سي خليل عمّا يدعو إلى ذٰلك كلّه ولٰكنّي قلت له: أدركني، لا أستطيع أن ألقاه بفستان صيفيّ يكشف عن ذراعيّ! ولم أبرح موضعي حتّى تلفّعت بشال كشميريّ!» ثمّ قالت «ولـمّا علمت نينة... (ضاحكة) أعني نينة الجديدة... لـمّا قصّ عليها سي خليل ما جرى ضحكت وقالت له: إنّي أعرف السيّد أحمد تمام المعرفة... هو هٰذا وأكثر (ثمّ ملتفتة إليّ) ولٰكن اعلمي يا شوشو أنّك لم تعودي من آل عبد الجواد، أنت الآن شوكتيّة فلا تبالي الآخرين...». أصاب منظرها البهيج وحديثها من نفوسهم موضع الحبّ والإعجاب فحملق كمال فيها كما فعل في ليلة الزفاف وتساءل محتجًّا «لماذا لم تكوني تبدين هٰكذا وأنت في بيتنا!؟» فأجابته على الفور ضاحكة «لم أكن وقت ذاك شوكتيّة» حتّى خديجة رمقتها بعين الحبّ. انقطعت بزواج الفتاة دواعي الملاحاة التي كانت تنشب بينها بسبب الاختلاط، ومن ناحية أخرى لم يبقَ من الإحساس بالحنق الذي ركبها عند السماح بزواج الفتاة قبلها إلّا أثر باهت حمّلته «بختها» من دون

الفتاة، فلم يعد ينطوي قلبها إلّا على الحبّ والشوق، لشدّ ما تفتقدها كلّما آنست من نفسها حاجة إلى أنيس تفضي إليه بذات نفسها. ثمّ تحدّثت عائشة عن البيت الجديد، عن المشربيّة التي تطلّ على بوّابة المتولّي، والمآذن التي تنطلق عن قرب، وتيّار السابلة الذي لا ينقطع. كلّ شيء حولها يذكّرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وأبنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء وبعض المعالم الثانويّة «ولكن على فكرة البوّابة العظيمة لا نظير لها عندكم (ثمّ بشيء من الفتور) وإن كان المحمل لا يمرّ تحتها كما أخبرني سي خليل!» وواصلت حديثها «تحت المشربيّة مباشرة مجلس يضمّ ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل: شحّاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل، أولئك جيراني الجُدد، إلّا أنّ ضارب الرمل أسعدهم حظًّا، لا تسألوا عن أفواج النساء والرجال الذين يجلسون القرفصاء أمامه مستخبرين عن طوالعهم، كم وددت لو كانت مشربيّتي أوطأ كيما أسمع ما يقول لهم، وألذّ منظر، منظر سوارس القادمة من الدرب الأحمر إذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من الغوريّة فضاق عنهما مدخل البوّابة وركب كلّ سائق رأسه متحدّيًا الآخر أن يتراجع ليفسح السبيل، يبدأ الكلام ليّنًا بعض اللين فيحتدّ، ثمّ يخشوشن، ثمّ تهدر الحناجر بالسباب والشتائم، وتجيء في أثناء ذلك عربات كارو وعربات يد فيغصّ بها الطريق ولا يدري أحد كيف يعود الحال إلى ما كان عليه، هنالك أقف وراء الخصاص أكاتم الضحك وأتأمّل الوجوه والمناظر» وما أشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم، حجرة الفرن والمخزن وحماتها سيّدة الفناء والجارية سويدان «لا أجد لي عملًا فلا أذكر المطبخ حتّى تحمل إليّ صينيّة الطعام» وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تضحك قائلة «نلت ما طالما تمنّيته!» لم يجد كمال في الحديث شيئًا ذا بال إلّا أنّه أحسّ في نغمته العامّة بما يوحي «باستقرار» المتحدّثة فداخله الانزعاج وسألها:

- ألن تعودي إلينا؟...

فملأ الحجرة صوت يقول:

- لن تعود إليكم يا سي كمال...

وإذا بخليل شوكت يدخل ضاحكًا وهو يرفل بجسمه الربعة في جلباب حرير أبيض. كان ذا وجه بيضاويّ ممتلئ، أبيض البشرة في عينيه جحوظ خفيف وفي شفتيه غلظة، أمّا رأسه الكبير فينتهي بجبين ضيّق يفترق عند قمّته شعر أسود كثيف يشبه في لونه وتسريحته شعر السيّد، تلوح في عينيه نظرة طيّبة وخمول لعلّها أثر للراحة والفراغ والرضى. انحنى على يد الأمّ ليقبّلها فجذبتها بسرعة في خجل وارتباك وهي تتمتم شاكرة ثمّ سلّم على خديجة وكمال وجلس وكأنّه - على حدّ تعبير كمال فيما بعد - واحد منهم. وانتهز الغلام فرصة تشاغل العريس بتحديثهم وتفرّس في وجهه طويلًا، ذاك الوجه الغريب أصلًا الذي برز في محيط حياتهم ليحتلّ مكانًا مرموقًا يؤهّله لأن يكون أقرب الأقرباء أو بالأحرى أن يكون قرينًا لوجه عائشة، كلّما خطر هذا على باله جرّ وراءه ذاك كما يجرّ الأبيض الأسود. تفرّس فيه طويلًا وهو يردّد في نفسه قوله الممتلئ ثقة «لن تعود إليكم يا سي كمال» فوجد نحوه إنكارًا ونفورًا وحقدًا وكادت تتمكّن من قلبه لولا أن قام الرجل فجأة ومضى إلى الخارج ثمّ عاد حاملًا صينيّة فضّيّة ملئت حلوى من مختلف الألوان فقدّم له باسمًا - وإن كشف افترار ثغره عن سِنّتين ركبت إحداهما الأخرى - نخبة من أشهى الأصناف، وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل استدلّوا بمشابهته خليل على أنّه أخوه الأكبر، ثمّ وكّد استدلالهم تقديم الأرملة بقولها «إبراهيم ابني... ألم تعرفوه بعد؟!» وعندما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال التسليم قالت باسمة «نحن كالأسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الآخر الساعة لأوّل مرّة... لا بأس...! فطنت أمينة إلى أنّ المرأة تشجّعها وتهوّن عليها الأمر فابتسمت، ولكن ساورها شيء من القلق وتساءلت: تُرى هل يوافق السيّد على مقابلتها لهذا الرجل - وإن عدّ عضوًا جديدًا في الأسرة كخليل سواء بسواء - بغير نقاب؟... وهل تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها إيثارًا للسلامة؟...

كان إبراهيم وخليل أشبه بالتوأمين لولا فارق

السنّ، على أنّ اختلافهما بدا أقلّ من القليل بالقياس إلى اختلاف عمريهما، والحقّ أنّه لولا قصر شعر إبراهيم، ولولا شاربه المفتول، لما كان ثمّة ما يميّزه عن خليل، كأنّه لم يبلغ الأربعين، أو كأنّ شبابه ومظهره لا يتأثّران بكرور الأعوام، لذلك ذكرت أمينة ما حدّثها به السيّد مرّة عن المرحوم شوكت من أنّه «كان يبدو أقلّ من عمره الحقيقيّ بعشرين عامًا أو يزيد» أو قوله عنه «إنّه رغم طيبته ونبله كان كالحيوان لا يسمح لفكره أبدًا بأن ينغّص عليه صفوه!»، أليس عجيبًا أن يبدو إبراهيم في الثلاثين مع أنّه تزوّج في صدر شبابه وأنجب طفلين ثمّ ماتت زوجه وطفلاه؟! ولٰكنّه مرق من تجربته القاسية سالمًا لم يمسّ، ثمّ عاود الحياة مع أمّه في خمول ودعة وفراغ شأن آل شوكت جميعًا، راق خديجة أن تسترق النظر ـ كلّما أمنت أعين الرقباء إلى الشقيقين، إلى أوجه الشبه العجيبة بينهما، بيضاويّة الوجه وامتلائه، جحوظ العينين الواسعتين، البدانة، الخمول، فحرّك كلّ أولٰئك السخرية الكامنة في نفسها حتّى ضحكت أفكارها ومضت تدّخر في ذاكرتها من الصوّر ما تعود إليه إذا ضمّها مجلس القهوة ومالت جريًا على سنّتها في التهكّم إلى العبث والإضحاك، وإلى هٰذا فكّرت باهتمام في اختيار اسم وصفيّ عيّاب لهما على مثال الأسماء الوصفيّة التي تطلقها على ضحاياها من الناس أو بالأحرى أسوة بأمّهما التي تطلق عليها «المدفع الرشّاش» لتناثر ريقها عند الحديث. واسترقت مرّة نظرة إلى إبراهيم فما راعها إلّا أن تلتقي عيناها بعينيه الواسعتين وهما تتفرّسان في وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين فغضّت بصرها في حياء وارتباك، وتساءلت في خوف المريب عمّا عسى أن يظنّه بنظرتها، ثمّ وجدت نفسها تفكّر بقلق في منظرها وما يمكن أن يتركه في نفسه من أثر. تُرى أيسخر من أنفها كما سخرت من بدانته وخموله؟!... واستغرقها التأمّل والقلق...

سئم كمال الجلسة التي وإن تكن جمعته بعائشة إلّا أنّها جمعته بها على نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تتحقّق ـ عدا ما منحت من حلوى ـ شيئًا من رغابه، فانتقل إلى جوار العروس وأبدى لها إشارة فهمت منها أنّه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده وغادرا الحجرة، ظنّته قانعًا بمجالستها في الصالة ولٰكنّه جذبها من يدها إلى حجرة النوم وردّ الباب وراءهما حتّى أرتج. انطلقت أساريره ولمعت عيناه، وتطلّع إليها طويلًا ثمّ تصفّح الحجرة ركنًا ركنًا وهو يتشمّم رائحة الأثاث الجديد مازجها أريج زكيّ لعلّه بقيّة ممّا انتشر من أيدي المتطيّبين وصدورهم، ثمّ رنا إلى الفراش الوثير، إلى النمرقتين الورديّتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها «ما هما؟» فأجابته «وسادتان صغيرتان» فسألها «أتتوسّدينهما؟» قالت باسمة «كلاهما للزينة فقط» فأشار إلى الفراش متسائلًا «أين تنامين؟» فأجابت باسمة أيضًا «في الداخل» فسألها كأنّه متوكّد من أنّه ينام معها «وسي خليل؟» فأجابت وهي تقرص خدّه برقّة «في الخارج...» عند ذاك التفت صوب «الشيزلنج» بغرابة، وسار إليه وجلس، ودعاها إلى الجلوس جنبه فجلست، وما لبث أن غاب في الذكريات غاضًّا بصره ليخفي نظرة مريبة وضمها بالريبة اشتداد أمّه بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسرّ إليها بما رأى من ثقب الباب، راودته نفسه على أن يبوح لها بسرّه، أن يسألها عنه، تحت ضغط إغراء لا يخلو من قسوة، ولٰكنّ الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقلّه فشكم رغبته على رغمه، ثمّ رفع إليها عينين صافيتين وابتسم إليها، فابتسمت إليه ومالت نحوه فقبّلته، ثمّ نهضت قائلة وملء وجهها ابتسامة حلوة:

ـ لأملأنّ جيوبك بالشيكولاتة...

٤٤

تصايح الغلمان المتجمهرون أمام البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهلّلين، تميّز صوت كمال وهو يهتف «هلّت سيّارة العروس» وردّدها ثلاثًا فخرج ياسين ـ وهو في كامل زينته وأبّهته ـ من بين الجماعة الواقفة عند مدخل الفناء ومضى إلى الطريق فوقف أمام البيت متّجهًا صوب النحّاسين فرأى موكب

العروس وهو يتقدّم على مهل كأنّه يتبختر. في تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة على رغم الأعين المحملقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت، بدا ثابتًا غير هيّاب مفعمًا رجولة وفحولة، لعلّ ممّا أيّده في ثباته إحساسه بأنّه محطّ الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين في حال تخجل منها الرجولة، ولعلّه أيضًا علم بأنّ أباه منكمش في مؤخّرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء - التي تضمّ آل العروسين من الذكور - بحيث لا تمتدّ إليه عيناه، فوسعه أن يتمالك نفسه وهو يرنو إلى السيّارة الموشّاة بالورود التي تحمل إليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر وإن لم تقع عيناه عليها بعد، أو الأمل الذي صاغه بأحلامه الظامئة لسعادة لا تقنع بما دون الدوام. وتوقّفت السيّارة أمام البيت على رأس ذيل طويل من السيّارات فأخذ أهبته للاستقبال السعيد وقد استجدّت عنده الرغبة في أن يستشفّ النقاب الحريريّ ليرى وجه عروسه لأوّل مرّة، ثمّ فتح باب السيّارة وترجّلت جارية سوداء في الأربعين قويّة البنية لمّاعة البشرة نجلاء العينين فاستدلّ بما يلوح على حركاتها من الثقة والإدلال على أنّها الجارية التي تقرّر إلحاقها بخدمة العروس في بيتها الجديد، تنحّت جانبًا ووقفت منتصبة القامة كالديدبان ثمّ خاطبته بصوت كرنين النحاس وهي تبتسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة:

- تفضّل خذ عروسك...

فتقدّم ياسين من باب السيّارة ومال إلى الداخل قليلًا فرأى العروس في حلّتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيّب مفتنة للجوارح فتاه في جوّ الحسن منبهرًا، ومدّ لها ذراعه لا يكاد يرى شيئًا كما يكلّ بصر طالّع نورًا ساطعًا، وعقل الحياء العروس فلم تُبدِ حراكًا فتطوّعت التي إلى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة:

- تشجّعي يا زينب...

دخلا جنبًا لجنب وهي من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقها فقطعا الفناء بين صفّين من المنتظرين يتبعهما المدعوّات من آلها اللواتي تعالت زغاريدهنّ كأنّهنّ لا يبالين السيّد أحمد وقيامه على ذراع منهنّ، هكذا لعلعت الزغاريد في البيت الصامت لأوّل مرّة وعلى مسمع من سيّده الجبّار فلعلّها وقعت من آذان أهله موقع الدهشة، بيْد أنّها دهشة مزجت بالفرح ولم تخلُ من شماتة بريئة مرحة روّحت بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذي قضى بألّا تكون زغاريد ولا غناء ولا لهو، وبأن تمضي ليلة زفاف الابن البكر كما تمضي غيرها من الليالي. وتبادلت أمينة وخديجة وعائشة النظرات متسائلات باسمات وتكأكأن على خصاص نافذة مطلّة على الفناء ليشهدن أثر الزغاريد في نفس السيّد فرأينه يحادث السيّد محمّد عفّت ضاحكًا فتمتمت أمينة قائلة: «لن يسعه الليلة إلّا أن يضحك مهما يبدو ممّا لا يروقه!» وانتهزت أمّ حنفي الفرصة السانحة فاندسّت بين المزغردات كالبرميل وأطلقت زغرودة قويّة مجلجلة غطّت على الزغاريد كلّها وعوّضت بها ما ضيّعت - في ظلّ الإرهاب - من فرص المرح والمسرّة على عهد خطبتي عائشة وياسين، وأقبلت على سيّداتها الثلاث وهي تزغرد حتّى استغرقن في الضحك، ثمّ قالت لهنّ «زغردن ولو مرّة في العمر... إنّه لن يدري الليلة مَن المزغرد!»، رجع ياسين بعد إيصال العروس إلى باب الحريم فالتقى بفهمي الذي لاحت على شفتيه ابتسامة موحية بالحرج والإشفاق لعلّها أثر ممّا خلّفته في نفسه هذه الضجّة البهيجة «المحرّمة»، وكان يخالس أباه النظر ثمّ يردّه إلى وجه أخيه ضاحكًا ضحكة مقتضبة مغضوضة، فما كان من ياسين إلّا أن قال له بلهجة لا تخلو من استياء:

- أيّ استنكار في أن نحيي ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد؟... وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عالمة أو مغنٍّ؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التي لم تجد إلى الإفصاح عنها من سبيل إلّا أن تحرّض ياسين على الاستشفاع بالسيّد محمّد عفّت على أبيه، ولكنّ السيّد اعتذر وأبى إلّا أن تكون ليلة زفاف صامتة وأن تقتصر مسرّاتها على

العشاء الفاخر. وعاد ياسين يقول آسفًا:

ـ لن أجد من تزفّني هٰذه الليلة التي لن تتكرّر أبد الدهر!... سأدخل حجرة العروس غير مشيّع بالأناشيد والدفوف كأنّني راقص يهزّ جذعه دون إيقاع.

ثمّ لاحت في عينيه ابتسامة مرحة ماكرة فقال:

ـ الذي لا شكّ فيه أنّ أبانا لا يطيق «العوالم» إلّا في بيوتهنّ!

مكث كمال في الدور الأعلى الذي أعدّ لجلوس المدعوّات ساعة ثمّ نزل باحثًا عن ياسين في الدور الأوّل الذي هُيّئ لاستقبال المدعوّين ولٰكنّه وجده في فناء البيت يتفقّد المطبخ المتنقّل الذي أقامه الطاهي فأقبل نحوه مسرورًا إدلالًا بأداء المهمّة التي عهد بها إليه وقال له:

ـ فعلت كما أمرتني فتبعت العروس حتّى حجرتها وتفحّصتها بعد أن حسرت النقاب عن وجهها...

فانتحى به جانبًا وهو يسأله باسمًا:

ـ هه؟... كيف عودها؟

ـ في عود أبلة خديجة...

ضاحكًا:

ـ في هٰذه الناحية لا بأس؟... أتعجبك كعائشة؟

ـ كلّا... أبلة عيشة أجمل كثيرًا...!

ـ يخرب بيتك أتريد أن تقول إنّها كخديجة؟

ـ كلّا إنّها أجمل من أبلة خديجة...

ـ كثيرًا؟!

فهزّ رأسه مفكّرًا فسأله الشابّ بلهفة:

ـ حدّثني عمّا أعجبك فيها؟...

ـ أنفها صغير كأنف نينة... وعيناها كعيني نينة أيضًا...

ـ ثمّ؟...

ـ لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة جدًّا...

ـ نحمده... ربّنا يبشّرك بخير...

وخيّل إليه أنّ الغلام يغالب رغبة في معاودة الكلام فسأله في شيء من القلق:

ـ هات ما عندك ولا تخَفْ!

ـ رأيتها تخرج منديلًا ثمّ تتمخّط!

والتوت شفتاه تقزّزًا كأنّما كبر عليه أن تندّ الفعلة عن عروس في زَيّق فتنتها، فما تمالك ياسين أن ضحك قائلًا:

ـ لحدّ هنا عال، ربّنا يجعل العواقب سليمة!

ألقى نظرة كئيبة على الفناء الخالي إلّا من الطاهي وصبيانه، وبعض الأولاد والبنات فتخيّل ما كان ينبغي أن يوجد من معالم الزينة وسرادق الطرق ومجلس المدعوّين، من قضى بهٰذا؟... أبوه!... الرجل الذي يفوح عرقه بالمجون والعربدة والطرب... أعْجِب به من رجل يحلّ لنفسه اللهو الحرام ويحرّم على بيته اللهو الحلال، وراح يتخيّل مجلس السيّد كما رآه في حجرة زبيدة بين الكأس والعود فما يدري إلّا وقد وثبت إلى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على شدّة وضوحها فيما رأى، تلك هي التشابه بين طبيعتي أبيه وأمّه! طبيعة واحدة في شهوانيّتها وجريها وراء اللذّة في استهتار لا يقيم وزنًا للتقاليد، ولعلّ أمّه لو كانت رجلًا لما قصّرت عن أبيه في اللهَج بالشراب والطرب أيضًا! لذلك انقطع ما بينهما ـ أبيه وأمّه ـ سريعًا، فما كان لمثله أن يطيق مثلها وما كان لمثلها أن تطيق مثله، بل ما كانت الحياة الزوجيّة لتستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراهنة! ثمّ ضاحكًا ضحكة لم يتح لها روعه من هٰذه «الفكرة الغريبة» روحًا من السرور «عرفت الآن من أكون، لست إلّا ابن هٰذين الشهوانيّين، وما كان لي أن أكون غير ما كنت!» في اللحظة التالية تساءل تُرى ألم يخطئه الصواب عند إغفال دعوة أمّه إلى زفافه؟! تساءل رغم إصراره على الاعتقاد بأنّه لم يتنكّب عن الصواب، لعلّ أباه رام إراحة ضميره حينما قال له قبل ليلة الزفاف بعدّة ليالٍ «أرى أن تبلّغ أمّك، ولك إن شئت أن تدعوها إلى شهود زفافك» ذاك قوله بلسانه لا بقلبه فيما يعتقد، فما يتصوّر أن يرضى أبوه له بأن يذهب إلى حيث يقيم ذُلك الرجل الحقير الذي اتّخذته أمّه زوجًا لها من بعد أزواج كثيرين، وأن يتودّد إليها على مرأى منه بأن

يدعوها إلى شهود زفافه، لا كان الزفاف، ولا كانت أيّ سعادة في هٰذه الدنيا إن حملته يومًا على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة... تلك الفضيحة... تلك الذكرى المخزية! وما كان منه إلّا أن أجاب أباه وقتذاك قائلًا: «لو كان لي أمّ حقًّا لكانت أوّل من أدعو إلى زفافي!» انتبه فجأة إلى الأولاد والبنات وهم يرنون إليه ويتهامسون فخصّ البنات بنظره وسألهنّ بصوت جهوريّ ضاحك «هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات؟» واتّجه نحو باب الحريم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس «إيّاك وأن تستسلم غدًا للحياء بين المدعوّين وإلّا عرفوا الحقيقة المرّة وهي أنّ أباك الذي زوّجك ونقد مهرك وجملة تكاليف ليلتك، ولٰكن تحرّك بلا توقّف، تنقّل بين حجرات المدعوّين، ضاحِكْ هٰذا وكلّم ذاك، اطلع وانزل، تفقّد المطبخ، اهتف وازعق، لعلّك توهم الناس بأنّك حقًّا رجل الليلة وسيّدها!» فمضى ضاحكًا وفي نيّته أن يمتثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعوّين بجسمه الطويل الجسيم في أناقة بديعة ووسامة جذّابة وشباب ريّق، ذهب وجاء، ونزل وطلع، وإن لم يفعل شيئًا، بيد أنّ الحركة نفضت عن نفسه طوارئ الفكر فصفت نفسه لمفاتن الليلة. ولـمّا خطرت العروس على قلبه سرت في بدنه قشعريرة بهيميّة، ثمّ ذكر آخر ليلة قضاها عند زنّوبة العوّادة من شهر، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو يودّعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ «يا بن الكلب!... كتمت الخبر حتّى نلت وطرك!... (المركب اللي تودّي أحسن من اللي تجيب)... مع ألف شبشب يا بن المركوب»، لم يعد لزنّوبة من أثر في نفسه، ولا لغيرها، أسدل الستار على هٰذا الجانب من حياته إلى الأبد، ربّما عاود الشراب فما يظنّ أن تموت رغبته فيه، أمّا النساء فلم يتصوّر أن تزيغ عيناه إلى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوع بنانه، عروسه لذّة متجدّدة، ريّ للظمإ الوحشيّ الذي طالما قلقل كيانه، ثمّ راح يتمثّل حياته المقبلة، الليلة، والليالي الأتيات، الشهر والعام فالعمر كلّه، ووجهه يسطع ببهجة ناطقة لحظها فهمي بعين مليئة بحبّ الاستطلاع والغبطة الهادئة وغير قليل من الأسى. وجاء كمال الذي كان يتراءى في أيّ مكان فجأة وخاطب ياسين والبِشْر يتألّق في وجهه:

ـ الطاهي قال لي إنّ الحلوى تزيد على حاجة المدعوّين والمدعوّات وإنّه سيتبقّى منها مقدار وفير...

٤٥

زاد مجلس القهوة وجهًا جديدًا بانضمام زينب إليه، وجهًا زكّاه بريق الشباب وفرحة العرس، وفيما عدا هٰذا، وفيما عدا فرش الحُجُرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين في الدور الأعلى بجهاز العروس، فلم يحدث زواج ياسين تغييرًا يذكر في النظام العامّ للبيت سواء من الناحية السياسيّة التي ظلّت خاضعة بكلّ معاني الكلمة لسلطان السيّد وإرادته أو من الناحية الإداريّة الداخليّة التي ظلّت وحدة تابعة لهيمنة الأمّ كما كان الحال قبل الزواج. التغيير الجوهريّ حقًّا كان الذي طرأ على النفوس ودار مع الخواطر فدقّت رؤيته على الحواسّ، إذ لم يكن من اليسير أن تشغل زينب مكانة الزوجة للابن البكر وأن يجمعها وبقيّة أفراد الأسرة بيت واحد دون أن يطرأ على العواطف والمشاعر تطوّر ذو شأن، رمقتها الأمّ بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحذر، هٰذه الفتاة التي قضى عليها بأن تعاشرها دهرًا طويلًا ربّما امتدّ حتّى نهاية العمر، أيّ إنسان تكون؟ ماذا تخبّئ وراء ابتسامتها الرقيقة؟ بالجملة استقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنًا جديدًا فيؤمّله ويحاذره، أمّا خديجة فعلى رغم المجاملات التي تبودلت بينهما جعلت تسدّد نحوها عينين نافذتين مفطورتين على السخرية وسوء الظنّ، منقّبة عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها إلى البيت وفوزها بالزواج من أخيها إلّا ضيقًا خفيًّا، فلمّا اعتكفت الفتاة في حجراتها الأيّام الأولى من الزواج ساءلت خديجة أمّها وهما في حجرة الفرن «تُرى هل حجرة الفرن مكان غير لائق (بها)؟» ومع أنّ الأمّ وجدت في تهجّمها ترويحًا عن حيرة ظنونها إلّا أنّها اتّخذت موقف الدفاع عن الفتاة وأجابتها قائلة: «صبرك، لم تزل عروسًا في بدء

عهدها الجديد!» فتساءلت الأخرى بلهجة تشي بالاستنكار «ومن ذا الذي قضى بأن نكون خدمًا للعرائس؟!» فسألتها أمّها وكأنّما تطرح السؤال على نفسها هي «أتفضّلين أن تستقلّ بمطبخها؟» فهتفت خديجة معترضة «لو كان المال مال أبيها لا مال أبي لجاز هٰذا! ولكنّي أعني أنّها يجب أن تعمل معنا» على أنه لمّا قرّرت زينب، بعد انقضاء أسبوع على الزواج، أن تحمل بعض الأعباء في حجرة الفرن لم يرحّب قلب خديجة بهٰذه الخطوة التعاونيّة ومضت تلاحظ عمل العروس بدقّة انتقاديّة وتقول لأمّها: «لم تجئ لتعاونك ولٰكن لتمارس ما لعلّها تدّعيه لنفسها من حقّ»، أو تقول ساخرة «طالما سمعنا عن آل عفّت أنّهم من الصفوة وأنّهم يأكلون ما لا يأكل الناس... فهل وجدت في طهيها شيئًا عجيبًا لم نسمع به؟!» بيد أنّ زينب اقترحت يومًا أن تصنع «الشركسيّة» باعتبارها الصنف الأثير على مائدة أبيها ـ وهي المرّة الأولى لدخول الشركسيّة في بيت السيّد ـ فحازت لدى تناولها إعجابًا شاملًا بلغ أقصاه عند ياسين حتّى أنّ الأمّ نفسها لم تبرأ من لسعة غيرة، أمّا خديجة فجُنّ جنونها وجعلت تهزأ بالصنف قائلة «قالوا شركسيّة قلنا يعيش المعلّم يتعلّم ولٰكن ماذا رأينا؟ أرزًّا وصلصة في هيئة بوليتيكا، طعمها لا هنا ولا هناك، كالعروس تزفّ إلى عريسها في حلّة خلّابة وحليّ لألاء حتّى إذا نزعت عنها ثياب العرس بدت فتاة عاديّة من نفس الخلطة المعروفة من قبل أي اللحم والعظم والدم!» ثمّ ما كاد يمضي على الزواج أسبوعان حتّى قالت على مسمع من أمّها وكمال إنّ العروس وإن كانت بيضاء البشرة وذات حظّ «معتدل» من الجمال إلّا أنّ دمها ثقيل كالشركسيّة سواء بسواء، قالت هٰذا في نفس الوقت الذي أكبّت فيه على استظهار دقائق صنع الشركسيّة بحذقها المعترَف به! على أنّ ثمّة أحاديث صدرت عن زينب بحسن نيّة ـ في الأقلّ لأنّ وقت سوء النيّة لم يئن بعد ـ فأثارت الخواطر وألقت عليها ظلًّا من الشكّ إذ طاب لها كلّما تهيّأت مناسبة أن تنوّه بأصلها التركيّ وإن التزمت الأدب واللطف كما لذّ لها أن تروي لهم بعض ما شاهدت من رحلات في حنطور والدها وبصحبته إلى الملاهي البريئة والحدائق فوقع الحديث كلّه من نفس الأمّ موقعًا أدهشها إلى حدّ الانزعاج. عجبت لتلك الحياة التي تسمع عنها لأوّل مرّة، وأنكرتها، واستنكرت فيما بينها وبين نفسها هٰذه الحرّيّة الغريبة استنكارًا جاوز كلّ تقدير، إلى أنّ المباهاة بالأصل التركيّ ـ وإن لطّفت بالأدب والبراعة ـ ساءتها كثيرًا لأنّها كانت ـ على تخشّعها وانطوائها ـ شديدة الاعتزاز بأبيها وبعلها فترى أنّها بهما في مكانة لا تدانى، إلّا أنّها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منها إلّا اهتمام الإصغاء وابتسامة المجاملة، ولولا حرص الأمّ الشديد على السلام لانفجرت خديجة حنقًا ولساءت العاقبة، على أنّها نفّست عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شأنها أن تعكّر صفو السلام كتعليقها على أنباء الرحلات مثلًا ـ وهي التي لم يسعها أن تجهر فيها برأيها ـ بالمبالغة في إظهار الدهشة، أو بالهتاف وهي تحملق في وجه محدّثتها «يا خبر!» أو بأن تضرب براحتها على صدرها وهي تقول: «ويراك السابلة وأنت تمشين في الحديقة!»، أو بقولها: «ما كنت أتصوّر إمكان هٰذا يا ربّي!» وغير ذٰلك من العبارات التي وإن لم تفصح ألفاظها عن إساءة إلّا أنّ لهجتها الممطوطة التمثيليّة تضمّنت أكثر من معنًى كلهجة الزجر التي يصطنعها الأب وهو يتلو القرآن إذا ما أنس من ابنه غير البعيد عنه إخلالًا بالنظام أو الأدب وعزّ عليه لزجره صراحة أن يخرج من الصلاة، لذٰلك لم تكن تخلو إلى ياسين حتّى تبادره مروّحة عن غيظها الذي عزّ عليه المتنفّس «يا سلام يا سلام على عروسك النزهيّة». فيقول لها ضاحكًا «هٰذه هي الموضة التركيّة التي تسمو على إدراكك!» فتذكّرها صفة «التركيّة» بالمباهاة الثقيلة على قلبها فتقول «على فكرة، ستّ الدار تباهي كثيرًا بأصلها التركيّ، لماذا؟... لأن جدّ جدّ جدّ جدّ جدّها تركيّ!... حذار يا أخي فإنّ خاتمة التركيّات الجنون» ولٰكنّه يقول لها مجاريًا سخريتها «الجنون أحبّ إليّ من وجه أنفه يجنّن ذا الذوق السليم!» تراءى لأعين المتنبّئين النقار المتوقّع بين

خديجة وزينب في أفق الأسرة فنبّهها فهمي إلى ضبط لسانها أن يبلغ الفتاة شيء من هذرها، وأشار محذّرًا إشارة خفيّة إلى كمال الذي دأب على التنقّل بينهم وبين العروس تنقُّل الفراشة ـ حاملة اللقاح ـ بين الأزهار! ولكن غـاب عنه ـ كما غاب عن الأسرة جميعًـا ـ أنّ القدَر كان يعمل من جانبه على الحيلولة بين الفتاتين، إذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم أحد من قبل بأن تتوّج بالنهاية التي توّجت بها، قالت العجوز تخاطب الأمّ على مسمع من خديجة:

ـ يا أمينة هانم جئتك اليوم خاصّة لأخطب خديجة لابني إبراهيم...

فـرحة بـلا تمهيد وإن طـال انتظارهـا حتّى شقّ، فلذلك سجع صوت المرأة في أذني الأمّ سجعًا جميلًا حتّى إنّها لم تذكر أنّ قولًا ـ قبله ـ بلّ صدرها بنـدى الطمأنينة والسلام كما بلّه فكاد يستخفّها الفرح وهي تقول بصوت متهدّج:

ـ ليس لي في خـديجة أكـثر ممّا لـك، هي ابنتـك ولتجدنّ في جماك أضعـاف ما تجـد في بيت أبيها من السعادة...

استرسل الحـديث السعيد إلّا أنّ خـديجة جعلت تغيب عنه فيما يشبه الذهول، خفضت عينها في حياء وارتباك وقد زايلها روح السخرية التي طالما توهّجت في حدقتها، فشملتها وداعة غير معهودة ثمّ جرت مع تيّار خواطرها، حاء الطلب مفاجـأة، فكما بـدا عسيرًا في غيـابه بـدا غير مصـدّق في حدوثـه حتّى لقد غشيت فرحتها موجة ثقيلة من الذهول... «لأخطب خديجة لابني إبراهيم»... ماذا دهـاه؟... إنّه عـلى خوله الذي أثار هزءها حسن المحيّا وجيه في الرجال، فماذا دهاه؟!

ـ ومن حسن الطالع أن يجمع بين الأختين في بيت واحد.

صوت حرم المرحوم شوكت يؤكّد الحقيقة ويزكّي وجوهها... ليس ثمّة شكّ... إبراهيم مثل خليل مالًا وجاهًا فأيّ حظّ ادّخرته لها الأقدار، لشدّ ما أسفت على أنّ عائشة سبقتها إلى الـزواج إذ لم تكن تدري أنّ زواج عائشة هو الذي قدّر له أن يفتح لها أبواب الحظّ المغلقة.

ـ ما أجمل أن تكـون السلفة هي الشقيقـة فيزول سبب جوهريّ من أسباب وجع الدماغ في الأسر (ثمّ ضاحكة) فلا تبقى إلّا حماتها وأظنّ أمرها هيّنًا!

ـ إن تكن سلفتها هي شقيقتها فحماتها هي أمّها بلا نقصان.

لم تزل الأمّان تتجاملان. لقد أحبّت العجوز وهي تـزفّ إليها البشرى بقـدر ما أبغضتهـا يـوم خـطبت عائشة! يجب أن تعلم مريم بالخبر اليوم، لا تطيق أن تؤجّله إلى الغد، لا تدري ما الدافع إلى هذه الرغبة الملحّة، لعلّه قول مريم لها غداة خطبت عائشة «ماذا كان عليهم لو أنّهم انتظروا حتّى تتمّ خطبتك أنت؟!» فـأغراهـا وقتذاك سوء ظنّها المطبوع بـاتّهام بـراءته الظاهرة. ولـمّا انصرفت أسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرّش والدعابة:

ـ الحقّ أنّي مذ رأيت إبراهيم شوكت قلت لنفسي ما أجدر هذا الرجل الثور الذي لا يبدو أنّه يفـرّق بين الأبيض والأسود أن يقع اختياره يومًا على زوجة مثل خديجة.

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمـة فهتف بدهشة:

ـ هل عرفت الأدب والحياء أخيرًا!

بيد أنّ وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعكّر صفوهم إلّا حين تساءل كمال في قلق:

ـ أتتركنا خديجة أيضًا؟

فقالت الأمّ تعزّيه وتعزّي نفسها:

ـ ليست السكّريّة بعيدة.

على أنّ كمال لم يستطع أن يدلي بما عنده في حرّيّة كاملة إلّا حين انفرد بأمّه ليلًا فتربّع قبالتها على الكنبة وسألها بصوت ينمّ عن الاحتجاج واللوم:

ـ مـاذا جرى لعقلك يـا نينة؟... أتفـرّطـين في خديجة كما فرّطت في عائشة؟

فـأفهمتـه أنّها لم تفـرّط فيهـا ولكنّهـا تـرضى بمـا يسعدهما.

فقال محذّرًا كأنّما ينبّهها إلى شيء فاتها ويوشك أن يفوتها مرّة أخرى:

ـ ستذهب هي الأخرى، ربّما ظننت أنّها ستعود كما ظننت بعائشة، ولكنّها لن تعود، وستزورك إذا زارتك كالضيفة فما إن تشرب القهوة حتّى تقول لك السلام عليكم، إنّي أقولها في صراحة إنّها لن تعود.

ثمّ محذّرًا وواعظًا في آن:

ـ ستجدين نفسك وحدك بلا رفيق، من يعينك على الكنس والتنفيض؟... من يعينك في حجرة الفرن؟ من يجالسنا في جلسة المساء؟... من يضحكنا؟... لن تجدي إلّا أمّ حنفي التي سيخلو لها الميدان لسرقة طعامنا كلّه.

فأفهمته مرّة أخرى أنّ في الزواج سعادة؟!...

ـ أؤكّد لك أنّه لا سعادة مطلقًا في الزواج. كيف يحظى أحد بالسعادة بعيدًا عن نينة؟

ومردفًا بحماس:

ـ ثمّ إنّها لا ترغب في الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من قبل... لقد صارحتني بذلك ذات ليلة في فراشها!

ولكنّها قالت له إنّه لا بدّ للفتاة من أن تتزوّج، فلم يتمالك من أن يقول:

ـ من قال بأنّه لا بدّ للفتاة من أن تذهب إلى بيوت الغرباء!... ثمّ ماذا تفعلين لو أجلسها الآخر على الشيزلنج وتناول ذقنها هي الأخرى و...

عند ذاك زجرته وأمرته بألّا يتكلّم فيما لا يعنيه فضرب كفًّا بكفّ وهو يقول منذرًا:

ـ أنت حرّة... وسترين!

في تلك الليلة لم يغمض لأمينة من يقظة الفرح جفن كأنّها السماء المقمرة لا تغشاها الظلماء، فظلّت مستيقظة حتّى جاء السيّد بعد منتصف الليل، ثمّ زفّت إليه البشرى فتلقّاها بغبطة أطارت عن رأسه الخمار بالرغم ممّا في هذا الرأس من نظريّات غريبة عن زواج البنات، إلّا أنّه تجهّم بغتة متسائلًا:

ـ هل أتيح لإبراهيم أن يراها؟!

ساءلت المرأة نفسها ألا يمكن أن يدوم ابتهاجه ـ ونادرًا ما يعلنه ـ أكثر من نصف دقيقة؟... وتمتمت في قلق:

ـ أمّه...

فقاطعها محتدًّا:

ـ هل أتيح لإبراهيم أن يراها؟!

فقالت وقد ولّى عنها السرور لأوّل مرّة في تلك الليلة:

ـ دخل علينا مرّة في شقّة عائشة باعتباره فردًا من الأسرة فلم أر في ذلك من بأس.

فتساءل مزمجرًا:

ـ ولكنّي لم أعلم بذلك.

كلّ شيء ينذر بالشرّ، ترى هل يهوي على مستقبل الفتاة بضربة قاضية؟... على رغمها اغرورقت عيناها بالدمع وما تدري إلّا وهي تقول مستهينة بغضبته المكفهرّة:

ـ سيّدي، حياة خديجة وديعة بين يديك، هيهات أن يبتسم لها الحظّ مرّتين.

فرماها بنظرة قاسية وراح يهدر مدمدمًا مهينًا مهمهمًا كأنّما ردّه الغضب إلى حالة من حالات التعبير بالأصوات التي مرّ بها أسلافه الأوّلون، ولكنّه لم يزد على ذاك شيئًا، لعلّه أضمر الموافقة من أوّل الأمر ولكنّه أبى أن يسلّم بها قبل أن يسجّل سخطه ـ كالسياسيّ الذي يهاجم خصمه وإن اقتنع بالغاية التي يستهدفها ـ ذودًا عن مبادئه.

٤٦

مضى شهر العسل وياسين متفرّغ بكلّيّته لحياته الزوجيّة الجديدة، لا يصرفه عنها عمل في النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفيّة، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنّه لم يكن يغادره إلّا للضرورة القصوى كابتياع زجاجة كونياك مثلًا، وفيما عدا هذا لم يجد لنفسه عملًا أو معنًى أو صفة خارج نطاق الزوجيّة فاندلق عليها بقوّة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظنّ أنّه ينفّذ الخطوات الأولى في برنامج ضخم من المتعة الجسديّة سيمتدّ يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر وعامًا

بعد عام. ولكنّه أدرك في الثلث الأخير من الشهر أنّ تفاؤله لا بدّ أن يكون مبالغًا فيه على نحـو ما أو أنّ خللًا لا يدري كنهه قد طرأ على حياته. كان يعاني في حيرة بالغة ولأوّل مرّة في حياته ذاك المرض المتوطّن في نفس الإنسان الملل. لم يعرفه من قبل عند زنّوبة ولا حتّى عند بائعة الدوم لأنّه لم يملك هٰذه أو تلك كـما يملك زينب الآن بيمينه ويحوزها تحت سقف بيته، فأيّ فتـور يتبخّر من تلك «الملكيّـة» الآمنة المطمئنّـة. . . الملكيّـة ذات الظاهـر الخلّاب المغـري لدرجـة الموت والباطن الرزين الثقيل لحدّ اللامبالاة أو التقزّز كأنّها الشيكولاتة المزيّفة التي تُهدى في أوّل إبريل بقشرة من الحلو وحشو من الثوم، وأيّ مأساة في أن تندمج نشوة القلب والجسد في آليّة العادة المنظّمة العاقلة البـاردة المتكرّرة القاتلة للشعـور والجدّة كـأنّها رؤية روحـانيّة رفيقة تجسّدت في صلاة لفظيّـة تردّدهـا الذاكـرة بلا وعي!. . . وراح الفتى يتساءل عمّا دهى ثورته، عـمّا هدى شياطينه، عن ذاك الشبع وأين جاء، عن تلك الفتنـة أين ذهبت، أين يـاسـين وأين زينب، أين الأحلام، أهٰذا شأن الزواج أم شأنه هو، وكيف إذا تتابعت الشهور في أعقاب الشهور! ليس أنّه لم يعد له رغبة فيها، ولكنّها لم تعد رغبة الصائم في لذيذ المآكل، هـاله أن يـدركها الهـدوء حيث انتظر لهـا الازدهار، وضاعف من حيرته أنّه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض ردّ الفعل أو بالأحرى أنّها تزيد حيويّة ورغبة فحينها يظنّ أنّ النوم بات واجبًا بعد طول التعب لا يدري إلّا وساقها تطرح على ساقه كأنّما طرحت عفوًا حتّى قال لنفسه «يـا عجبًا. . . أحـلامي عن الزواج تحقّقت عندها هي!» إلى هٰذا كلّه وجد في عنفها نوعًا من الاحتشام وإن طاب له أوّل الأمر أنّه جعله يهيم آخـرًا في وديان الـذكريـات التي ظنّ أنّه ودّعهـا إلى الأبد، طغت على رأسه من الأعماق «زنّوبة» وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشرّ يبيّت فالحقّ أنّه مرق إلى عشّ الزوجيّة عامر القلب بالنيّـة الحسنة، ولكن للموازنـة والمقارنـة والتأمّـل، وليقتنع أخـيرًا أنّ «العروس» ليست المفتـاح السحريّ لـدنيا المرأة، ليس يدري كيف يخلص حقًّا للنوايا الحسنة التي فرش بها طريق الزواج، يبدو جانب ـ على الأقلّ ـ من أحلامه السـاذجة عسـير التحقيق وهو ظنّـه بأنّـه سيستغني بأحضان زوجـه عن العالم الخـارجيّ، وأنّه سيلبد بكنفها العمر كلّه، ذاك حلم من أحلام الشهوة في سذاجتها، وسيجد من الآن فصاعدًا أنّ الانقطاع عن عالمه وعاداته ممّـا يشقّ عليه وليس ثمّـة ضرورة تدعو إليه، وأنّه ينبغي أن يتلمّس وسيلة أو أخرى ـ الوقت بعد الوقت ـ ليحسن الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته، حتّى المغنّي المجيد إذا طال في تقاسيم الليالي انبعث في نفس السامع الشوق إلى الدخول في الدور، ثمّ إنّـه في الانطلاق من محبسـه فـرصـة لـلاختـلاط بالأصحاب المتزوّجين لعلّه يظفر عندهم بأجوبة مسكّنة للأسئلة الحيرى التي تلحّ عليه، ولن يتأتّى له من وراء ذٰلك الدواء الشـافي لكلّ داء. . . وكيف يؤمن بعـد اليوم بوجود دواء شافٍ لكلّ داء؟! يحسن به من الآن ألّا يرسم برامج بعيدة المدى، لا تلبث أن تنهار ساخرة من قـدرته عـلى التخييل. ليقنـع من تنسيق حيـاتـه بالخطوة تلو الخطوة حتّى يرى أين يرسو، وليبدأ بتنفيذ اقتراح اقترحته هي ـ زوجه ـ عليه بأن يخرجا معًا.

ما تدري الأسرة ذات مسـاء إلّا ويـاسـين وزوجه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحدًا على مقصدهما بالرغم من أنّهما قضيا معهم سهرة المساء. بدا الخروج بالنظر إلى وقته المتأخّر من ناحية وإلى وقوعه في بيت السيّد من ناحية أخرى حادثًا غريبًا أثار شتّى الظنون فما عتّمت خديجة أن استدعت نـور جاريـة العروس وسألتها عمّا تعلم عن خروج سيّدتها فأجابت الجارية بصوتها الرنّان في بساطة متناهية:

ـ ذهبا يا ستّي إلى كشكش بك.

فهتفت خديجة وأمّها في نَفَس واحد:

ـ كشكش بك!

ليس الاسم غـريبًـا عليهم، اقتحم ذكـره الـدور وتغنّى بأغانيه كلّ من هبّ ودبّ ولكنّه على ذٰلك يبدو بعيدًا كأبطال الخرافات أو كَزبلن إبليس السماء. أن يذهب ياسين بزوجه إليه أمر مختلف جدًّا ليس دونه أن

يقال ذهبا إلى محكمة الجنايات. ردّدت الأمّ عينيها بين خديجة وفهمي وتساءلت فيا يشبه الخوف:

ـ متى يعودان. . .

فأجابها فهمي وابتسامة لا معنى لها تفغم على شفتيه:

ـ بعد منتصف الليل، وربّما قبيل الفجر.

صرفت الأمّ الجارية وانتظرت حتّى غاب وقع أقدامها ثمّ قالت في لهوجة وانفعال:

ـ ماذا دهى ياسين؟! كان جالسًا بيننا في كامل عقله. . . ألم يعد يعمل حسابًا لأبيه؟

فقالت خديجة في حنق:

ـ ياسين أعقل من أن يدبّر رحلة كهٰذه، ليست قلّة العقل عيبه ولٰكن به خنوع لا يليق بالرجال، أقطع ذراعي إن لم تكن هي حرّضته.

فقال فهمي مدفوعًا برغبة في تلطيف الجوّ المتوتّر وإن نفر بطبعه الموروث من جرأة أخيه:

ـ ياسين ذو ميل قديم إلى الملاهي.

فضاعف دفاعه من حنق خديجة التي اندفعت قائلة:

ـ لسنا بصدد الحديث عن ياسين وميوله، له أن يحبّ الملاهي كما يحلو له، أو أن يواصل السهر في الخارج حتّى مطلع الفجر كلّما شاء، ولٰكنّ اصطحاب زوجه المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلّها جاءته عن إيحاء عجز عن مقاومته خصوصًا وأنّه يبدو مستكينًا بين يديها كالقطّة الأليفة، ثمّ إنّها فيما أرى لا تتورّع عن رغبة كهٰذه. ألم تسمعها وهي تروي قصص الرحلات التي شاهدتها بصحبة والدها؟! لولا إيحاؤها ما أخذها معه إلى كشكش بك ـ يا للفضيحة! ـ في هٰذه الأيّام التي ينجحر فيها الرجال في البيوت كالفيران رعبًا من الأستراليّين.

لم يقف التعليق على الحادث عند حدّ لما أثاره في النفوس ـ سواء المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة ـ من امتعاض، كمال وحده تابع النقاش المحتدم في صمت يقظ من دون أن يفطن إلى السرّ الذي جعل من كشكش بك جريمة نكراء استوجبت ذٰلك النقاش كلّه وذاك الكرب كلّه، أليس كشكش هٰذا صاحب التمثال الصغير الذي يباع في الأسواق بجسم متوثّب في دعابة ووجه ضاحك ذي لحية عريضة وجبّة فضفاضة وعمامة مقلوظة؟ أليس هو من تُنسب إليه الأغاني المرحة التي استظهر بعضًا منها ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوي وكيل أبيه؟ فبأيّ شرّ يتّهمون هٰذه الشخصيّة اللطيفة التي ارتبطت في خياله بالفكاهة والمرح؟. . . لعلّ مصدر هٰذا الكدر إلى اصطحاب ياسين لزوجه لا لكشكش بك نفسه، فإن كان ذٰلك كذٰلك فهو يتّفق معهم في الانزعاج من جرأة ياسين خصوصًا وأنّ زيارة أمّه للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن تبرح مخيّلته، أجل كان الأجدر بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذه «هو» إن كان يريد رفيقًا لا سيّما وأنّه في عطلة الصيف فضلًا عن نجاحه المتفوّق في المدرسة، وما يدري إلّا وهو يقول متأثّرًا بأفكاره:

ـ ألم يكن من الأفضل أن يأخذني أنا. . .؟!

اندسّ تساؤله في الحديث كما تندسّ نغمة غربيّة مقتبسة في لحن شرقيّ صميم، فقالت خديجة:

ـ من الآن فصاعدًا يحقّ علينا أن نعذرك في قلّة عقلك. . . !

فندّت عن فهمي ضحكة قائلًا:

ـ ابن الوزّ عوّام. . .

بيْد أنّ المثل رنّ في أذنيه رنينًا جافيًا وكّد أثره السيّئ تحديق أمّه وأخته خديجة في عينيه باستغراب فانتبه إلى خطئه غير المقصود وتداركه قائلًا وقد دخله امتعاض وخجل:

ـ أخو الوزّ عوّام! . . . هٰذا ما قصدت أقوله. . .

دلّ الحديث في جملته على تحامل خديجة على زينب من ناحية، وخوف الأمّ من العواقب من ناحية أخرى، بيْد أنّ أمينة لم تعلن ما في نفسها كلّه. في تلك الليلة عرفت في نفسها أمورًا لم تكن تعرفها من قبل. أجل كثيرًا ما وجدت نحو زينب إنكارًا وضيقًا ولٰكنّه لم يبلغ أن يكون نفورًا أو كراهية فعزته إلى خيلاء الفتاة بداعٍ وبغير داعٍ، ولٰكن هاهيا اليوم أن تخرق الآداب والتقاليد، وأن تحلّ لنفسها ما لا يحلّ ـ

في نظرها هي ـ إلّا للرجال، عابت هٰذا السلوك بعين امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران، امرأة دفعت صحّتها وسلامتها ثمنًا لزيارة بريئة لزين آل البيت لا لكشكش بك، فمازج انتقادها الصامت شعور طافح بالمرارة والغيظ كأنّ منطقها غدا يردّد فيما بينها وبين نفسها «إمّا أن تنال الأخرى الجزاء أو فلتذهب الحياة هباء». هٰكذا تلوّث بالحنق والموجدة ـ في الشهر الأوّل من معاشرته لامرأة جديدة ـ القلب الطاهر الورع الذي لم يعرف طول حياته المحفوفة بالجدّ والصرامة والتعب إلّا الطاعة والعفو والصفاء. ولـمّا آوت إلى حجرتها لم تدر إن كانت تودّ ـ كما دعت بلسانها أمام أبنائها ـ أن يستر الله على «جناية» ياسين أم أنّها ترجو أن ينال أو بالأحرى أن تنال زوجه جزاءها من الزجر والتأنيب؟ بدت تلك الليلة وكأنّها لا يعنيها من أمر الدنيا جميعًا إلّا أن تُصان تقاليد الأسرة من كلّ عبث وأن يدفع عنها ما يتحرّش بها من عدوان، بدت غيورًا على الآداب إلى حدّ القسوة فطمرت عواطفها الرقيقة المألوفة في الأعماق باسم الإخلاص والفضيلة والدين متعلّلة بها فرارًا من ضميرها المتألّم كالحلم الذي ينفّس عن غرائز مكبوتة باسم الحرّيّة أو غيرها من المبادئ السامية. جاء السيّد وهي على تلك الحال من التصميم إلّا أنّ منظره بثّ الخوف في حناياها فانعقد لسانها، راحت تتابع حديثه وتجيب عن أسئلته بذهن شارد وفؤاد خافق لا تدري كيف تنفّس عمّا احتدم بخاطرها، وكلّما مرّ الوقت واقترب ميعاد النوم ألحّت عليها رغبة عصبيّة في الكلام، كم ودّت لو تتكشّف الحقيقة بنفسها كأن يجيء ياسين وزوجه مثلًا قبل إخلاد أبيه إلى النوم فيتنبّه السيّد بنفسه إلى فعلته النكراء فيجبه العروس الرعناء برأيه في سلوكها بغير تدخّل منها هي ـ الأمّ ـ لا شكّ أنّه يحزنها بقدر ما يريحها... انتظرت طويلًا في لهفة وقلق أن يطرق الباب الكبير، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتّى تثاءب السيّد وقال بصوت متراخ:

ـ أطفئي المصباح ..

حاقت بها الهزيمة فانحلّت عقدة لسانها فقالت بصوت خافت مضطرب كأنّها تناجي نفسها:

ـ تأخّر الوقت ولـمّا يعد ياسين وزوجه!

فحملق السيّد في وجهها وتساءل في عجب:

ـ وزوجه؟... أين ذهبا؟

ازدردت المرأة ريقها وقد ركبها الخوف، من السيّد ومن نفسها معًا، ولٰكن لم تجد بدًّا من أن تقول:

ـ سمعت الجارية تقول إنّهما ذهبا إلى كشكش بك!

ـ كشكش!

عزف الصوت عاليًا في شراسة وتطاير الشرر من العينين اللتين ألهبهما الكحول، وراح يطرح عليها السؤال تلو السؤال مزمجرًا مدمدمًا حتّى طار النوم عن رأسه فأبى أن يزايل مجلسه حتّى يعود «الضالّان» فانتظر وهو يغلي من الحنق، ولـمّا كان غضبه ينعكس على نفسها رعبًا فقد ارتعبت كما لو كانت هي المذنبة، ثمّ غصّت بالندم على ما بدر منها، ندم عاجلها مبادرًا عقب البوح بسرّها مباشرة كأنّها لم تبح إلّا كي تندم، فلم تكن تبخل بغالٍ مهما غلا ساعتئذ لو تستطيع أن تصلح خطأها، وقست على نفسها بلا تحفّظ فاتّهمتها بالوقيعة والشرّ، ألم يكن الأجدر بها أن تتستّر عليهما على أن تنبّههما إلى خطئهما غدًا إن كانت تريد الإصلاح حقًّا لا الانتقام؟.. ولٰكنّها أذعنت لعاطفة شرّيرة، عن عمد وسوء نيّة، فهيّأت للفتى وعروسه نكدًا لم يدُر لهما بخلد وجرّت على نفسها ندمًا بات يحرق نفسها المعذّبة حرقًا بلا رحمة، وراحت تدعو الله ـ خجلى من ذكره ـ أن يلطف بهم جميعًا، مضى الوقت تقرع دقائقه قلبها بالألم حتّى انتبهت على صوت السيّد وهو يقول متهكّمًا بمرارة:

ـ جاء سي كشكش...

فأرهفت السمع وهي تتطلّع بناظريها إلى النافذة المفتوحة المطلّة على الفناء فترامى إليها صرير الباب الكبير وهو يغلق، وقام السيّد وغادر الحجرة فقامت بطريقة آليّة ولٰكنّها تسمّرت في مكانها جبنًا وخزيًا وضربات قلبها تتدافع حتّى سمعت صوته الجهير وهو يخاطب القادمين قائلًا «اتبعاني إلى حجرتي» فتناهى بها الخوف فتسلّلت من الحجرة هاربة... عاد السيّد إلى

مجلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب، فحدج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلًا ياسين ثمّ قال بحزم وإن نقّى نبراته من الغلظة والجفاء:

ـ اصغي إليَّ يا بنيّة جيّدًا، أبوك أخي أو أوثق صلة ومودّة، فأنت ابنتي كخديجة وعائشة على السواء، ما قصدت أبدًا أن أكدّر صفوك ولٰكن ثمّة أمور أعدّ السكوت عنها جريمة لا تغتفر، من ذٰلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتّى هٰذه الساعة من الليل، لا تحسبي أنّ في وجود زوجك معك عذرًا عن هٰذا السلوك الشاذّ فإنّ الزوج الذي يستهين بكرامته على هٰذا النحو غير خليق بأن يقيل من العثرات التي هو للأسف أوّل دافع إليها، ولـمّا كنت على يقين من براءتك أو بالأحرى من أنّه لا ذنب لك إلّا أنّك جاريته على هواه فرجائي إليك أن تعاونيني على إصلاح أمره بألّا تستسلمي إلى غواياته مرّة أخرى. . .

وجمت الفتاة واستحوذ عليها الذهول، وعلى أنّها كانت تحظى في كنف أبيها بقسط من الحرّيّة إلّا أنّها لم تجد في نفسها شجاعة على مناقشة الرجل بله معارضته، كأنّ إقامتها في بيته شهرًا أعدت شخصيّتها بعدوى الخضوع لإرادته التي يفرَق حياها كلّ حيّ في البيت. احتجّ باطنها بأنّ أباها نفسه استساغ أكثر من مرّة أن يصطحبها إلى السينما، وأنّه لا يحقّ له منعها من شيء سمح به زوجها، إلى اقتناعها بأنّها لم تخرق أدبًا أو تهتك حرمة، قال باطنها هٰذا وأكثر بيْد أنّها لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة حيال عينيه الملزمتين بالطاعة والاحترام وأنفه الكبير الذي بدا ـ وهو يرفع رأسه ـ كأنّه مسدَّس مصوّب نحوها، فانكتم حديثها الباطنيّ تحت مظهر من الرضى والأدب كما تنكتم الأمواج الصوتيّة في جهاز الاستقبال بالمذياع بإغلاق مفتاحه، ثمّ ما تدري إلّا وهو يسألها وكأنّه يتمادى في تحدّيه لها:

ـ ألك اعتراض على قولي؟

فهزّت رأسها بالنفي ورسمت شفتاها حرف «لا» دون أن تنطق به فقال لها:

ـ اتّفقنا. تفضّلي إلى حجرتك بسلام. . .

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيّد صوب ياسين الذي أخفى عينيه في الأرض، ثمّ قال وهو يهزّ رأسه في أسف شديد:

ـ الأمر جدّ خطير ولٰكن ما حيلتي؟!. . . لم تعد طفلًا وإلّا كسرت رأسك، ولٰكنّك واأسفاه رجل وموظّف وزوج أيضًا وإن كنت لا تتورّع عن العبث برباط الزوجيّة، فما عسى أن أصنع بك؟ أهٰذه نهاية تربيتي لك؟. . . (ثمّ بصوت أذهب في التأسّف). . . ماذا دهاك؟. . . أين الرجولة؟. . . أين الكرامة؟. . . يعزّ عليَّ والله أن أصدّق ما وقع.

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلّم فظنّ صمته خوفًا وشعورًا بالخطأ ـ إذ لم يتصوّر أن يكون ما به سكر ـ ولٰكنّه لم يجد في ذٰلك عزاء، بدا الخطأ أفظع من أن يترك بلا علاج حاسم، فإذا لم يكن من سبيل إلى العلاج القديم ـ العصا ـ فلا أقلّ من الحزم وإلّا انتثر سلك الأسرة جميعًا، قال:

ـ ألم تعلم بأنّي أحرّم على زوجي الخروج ولو لزيارة الحسين؟ كيف إذن سوّلت لك نفسك أن تأخذ زوجك إلى ملهًى داعر لتسهر فيه إلى ما بعد منتصف الليل؟!. . . يا أحمق أنت تدفع بنفسك وبزوجك إلى الهاوية فأيّ شيطان ركبك؟

وجد ياسين في الصمت آمن ملاذ أن تفضحه نبراته أو أن يسترسل في الحديث بطلاقة مريبة تنمّ في النهاية على سكره، لا سيّما وأنّ خياله أصرّ على التسلّل ـ هازئًا بالموقف الخطير ـ من الحجرة فانطلق إلى آفاق بعيدة بدت لرأسه الثمل راقصة تارة ومترنّحة أخرى، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتعث في نفسه من الرهبة أن يسكت الأنغام التي غنّاها المهرّجون في المسرح فكانت تثب إلى ذهنه ـ على رغمه ـ بين لحظة وأخرى كالأشباح في ليل المرعوب هامسة:

أبيع هدومي عشان بوسة
من خدّك القشدة يا ملبن
يا حلوة زيّ البسبوسة
يا مهلبيّة كمان واحسن

تغيب تحت تأثير الخوف ثمّ تطفر راجعة، ولٰكنّ أباه ضاق بالصمت فصاح به غاضبًا:

ـ انطق حدّثني عن رأيك فإنّي مصمّم على ألّا يمرّ الحادث بسلام!. . .

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهيّبًا مضطربًا ثمّ قال وهو يبذل قصارى جهده ليتمالك نفسه:

ـ كان والدها يعاملها بشيء من التسامح. . . (ثمّ متعجّلًا) ولكنّي أقرّ بأنّي اخطأت. . .

فصاح السيّد مغضبًا ومتجاهلًا الجملة الأخيرة:

ـ لم تعد في بيت أبيها، عليها أن تحترم آداب الأسرة التي صارت عضوًا فيها، أنت زوجها وسيّدها وبيدك وحدك أن تصوّرها في أيّ صورة تشاء، خبّرني عن المسئول عن ذهابها معك أنت أم هي؟

شعر على سكره بالفخّ المنصوب له ولكنّ الخوف دفعه إلى التواري فغمغم:

ـ لـمّا علمت بنيّتي في الخروج توسّلت إليّ أن أصطحبها. . .

فضرب السيّد كفًّا بكفّ وهو يقول:

ـ أيّ رجل في الرجال أنت؟. . . كان الجواب الخليق بها لطمة!. . . إنّه لا يفسد النساء إلّا الرجال وليس كلّ الرجال جديرًا بالقيام على النساء. . . وتذهب بها إلى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا. . .؟

تخايلت لعينيه الصور التي أفسدها تعرُّض أبيه له على رأس السلّم وعادت الأنغام تتجاوب في رأسه «أبيع هدومي. . .» ولكن ما يدري إلّا والرجل يقول له متوعّدًا:

ـ هٰذا البيت قانون أنت تعرفه فوطّن نفسك على احترامه ما رغبت في البقاء فيه. . .

٤٧

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بهمّة لا تجارى ومهارة فائقة كأنّ التزيين خير مهمّة تؤدّيها في الحياة على أكمل الوجوه، فبدت خديجة عروسًا حقًّا تأخذ أهبتها للانتقال إلى بيت العريس وإن ادّعت ـ جريًا على عادتها في التقليل من شأن الخدمات التي يؤدّيها لها الغير ـ أنّ أكبر الفضل في إظهارها بالمظهر اللائق إنّما يعود إلى سماتتها هي قبل كلّ شيء! على أنّ «جمالها» لم يعد مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل اتّفق له أن رآها بعينيه، بيد أنّ جميع مظاهر السعادة التي أحاطت بها لم تستطع أن تمحو من نفسها خفقات الحنين الذي دبّ في أعماقها لوشك البين، حنين خليق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحبّ شيء في الوجود كحبّها لأهلها وبيتها جميعًا من الوالدين المعبودين إلى الدجاج واللبلاب والياسمين، حتّى الزواج نفسه الذي طالما تحرّقت في انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهوّن عليها مرارة الفراق، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاهية عن حبّ البيت وإعزازه، وربّما غلب عليها الضجر في مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لأنّ الحبّ كالصحّة، يهون في الوصال ويعزّ عند الفراق، فلمّا أن اطمأنّت على مستقبلها أبى قلبها أن ينتقل من حياة إلى حياة دون جزع شديد كأنّما يكفّر عن إثم أو يضنّ بغالٍ، تطلّع كمال إليها صامتًا، لم يعد يتساءل هل تعودين، بعد أن عرف أنّ التي تتزوّج لا تعود إلّا أنّه خاطب شقيقتيه مغمغمًا (سوف أزوركما كثيرًا عقب الخروج من المدرسة) فرحّبتا به معًا بيد أنّه لم تعد تغرّر به الآمال الكاذبة، كثيرًا ما زار عائشة فلم يظفر بعائشته القديمة. يجد مكانها أخرى متبرّجة تلقاه بتودّد بالغ يشعره بالغربة ثمّ لا يكاد يخلو إليها حتّى يدركهما زوجها الذي لا يغادر البيت قانعًا من ألوان التسلية بسجائره وغليونه وعود يعبث بأوتاره بين حين وآخر، لن تكون خديجة خيرًا من عائشة، فليس من رفيق في البيت إلّا زينب، وهي لا تتودّد إليه كما يحبّ إلّا بمشهد من أمّه كأنّما تتودّد إليها هي فإذا غابت الأمّ تجاهلته كأنّه لا يكون! ومع أنّ زينب لم تشعر بأنّها ستفقد عزيزًا بذهاب خديجة إلّا أنّها استنكرت الجوّ الرزين الصامت الذي يغشى يوم الزفاف، فتعلّلت بذلك لتفصح عمّا تكنّه لروح السيّد المسيطرة من حنق وغيظ فراحت تقول متهكّمة «ما رأينا بيتًا يحرّم فيه الحلال كبيتكم هٰذا. . . حكم!» غير أنّها لم تشأ أن تودّع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوّهت كثيرًا بمقدرتها، وأنّها «ستّ بيت» خليقة بأن يهنًا عليها

بعلها، فأمّنت عائشة على قولها وأردفت قائلة:

ـ لا عيب فيها إلّا لسانها!... ألم تجرّبيه يا زينب؟

فما تمالكت أن ضحكت قائلة:

ـ لم أجرّبه والحمد لله ولٰكنّي سمعته وغيري يجرِّبه.

وتعالى الضحك، وخديجة أولى الضاحكات، حتّى رأين الأمّ ترهف السمع بغتة هاتفة «هس» فأمسكن مرّة واحدة، فترامى إليهنّ صُوات من الخارج فصاحت خديجة من فورها منزعجة:

ـ مات السيّد رضوان!

كانت مريم وأمّها قد اعتذرتا عن عدم شهود الزفاف لاشتداد المرض على السيّد محمّد رضوان فلم يكن غريبًا أن تستدلّ خديجة بالصوات على موت الرجل، وغادرت الأمّ الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثمّ عادت وهي تقول بأسف شديد:

ـ مات الشيخ محمّد رضوان حقًّا... يا له من موقف حرج!

فقالت زينب:

ـ عذرنا واضح كالشمس، لم يعد في وسعنا تأجيل الزفاف أو منع العريس من الاحتفال بليلته في بيته وهو بحمد الله بعيد، أمّا أنتم فهل تطالبون بأعمق من هٰذا الصمت البليغ؟!

لكنّ خديجة شردت في خواطر أخرى انقبض لها قلبها خوفًا فتطيّرت من النبأ المحزن وغمغمت كأنّها تخاطب نفسها:

ـ يا لطيف يا ربّ...

فقرأت الأمّ أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولٰكنّها أبت أن تستكين لهٰذا الشعور الطارئ أو أنّ ابنتها تستكين له فقالت باستهانة متصنّعة:

ـ لا شأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيده، والتشاؤم من عند الشيطان...

انضمّ ياسين وفهمي إلى المجتمعات بحجرة العروس بعد أن فرغا من ارتداء ملابسهما فأخبرا الأمّ بأنّ السيّد ناب عن الأسرة ـ بالنظر إلى ضيق الوقت ـ في تقديم واجب العزاء إلى آل السيّد رضوان، ثمّ حدج ياسين إلى خديجة وقال ضاحكًا:

ـ أبى السيّد رضوان أن يبقى في الدنيا بعد رحيلك عن جواره...

فردّت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها فمضى يتفحّصها بعناية وهو يهزّ رأسه متظاهرًا بالرضى ثمّ قال متنهّدًا:

ـ صدق من قال «لبّس البوصة تبقى عروسة»...

فقطّبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثمّ نهرته قائلة:

ـ اسكت، إنّي متطيّرة من موت السيّد رضوان في يوم زفافي.

فقال ضاحكًا:

ـ لا أدري أيّكما جنى على صاحبه؟

ثمّ وهو يواصل الضحك:

ـ لا خوف عليك من موت الرجل، لا تشغلي فكرك به، ولٰكنّي أخاف عليك من لسانك فهو الأحقّ بأن تتطيّري منه، ونصيحتي التي لا أملُّ ترديدها أن تنقّيه في شراب مشبع بالسكّر حتّى يحلو ويصلح لمخاطبة العريس...

عند ذٰلك قال فهمي متلطّفًا:

ـ مهما يكن من أمر السيّد رضوان فيوم زفافك لم يخْلُ من بركة طال انتظار الأرض لها: ألم تعلمي أنّ الهدنة قد أعلنت؟

فهتف ياسين:

ـ كدت أنسى هٰذا! ليس زفافك المعجزة الوحيدة في يومنا هٰذا. حصل ما لم يحصل منذ أعوام فانتهت الحرب وسلّم غليوم.

فتساءلت الأمّ:

ـ هل يذهب الغلاء والأستراليّون؟!

فقال ياسين ضاحكًا:

ـ طبعًا... طبعًا... الغلاء والأستراليّون ولسان خديجة هانم.

لاح التفكير في عيني فهمي، ثمّ قال وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ غُلب الألمان!... من كان يتصوّر هٰذا؟!... لا أمل بعد اليوم في أن يعود عبّاس أو محمّد فريد،

كذلك آمال الخلافة قد ضاعت، لا يزال نجم الإنجليز في صعود ونجمنا في أفول فله الأمر. . .

فقال ياسين:

ـ اثنان كسبا الحرب هما الإنجليز والسلطان فؤاد، فلا أولئك كانوا يحلمون بالقضاء على الألمان ولا هٰذا كان يحلم بالعرش. . .

وسكت لحظة ثمّ استطرد ضاحكًا:

ـ وثالث لا يقلّ حظّه عن السابقين هو عروستنا التي ما كانت تحلم بالعريس. .

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت:

ـ تأبى أن أغادر البيت من غير أن ألدغك. . .

فتراجع وهو يقول:

ـ من الخير أن أطلب الهدنة فلست أعظم شأنًا من غليوم أو هندنبرج. . .

ثمّ نظر إلى فهمي الذي لاح في وجهه التفكير بحال لا يتّفق مع المناسبة السعيدة فقال له:

ـ اطرح السياسة وراء ظهرك وتهيّأ للطرب ولذيذ المآكل والمشارب. . .

ومع أنّ خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وخطرت على قلبها أحلام وأحلام إلّا أنّ ذكرى قريبة ـ من ذكريات الصباح فحسب ـ ألحّت عليها من شدّة تأثّرها بها حتّى كادت تحجب غيرها من الشجون، تلك دعوة أبيها لها على انفراد لمناسبة اليوم الذي يعدّ مبدأ حياة جديدة في حياتها، قابلها بلطف ورحمة كانا بلسمًا شافيًا من وعكة الحياء والرهبة التي اعترتها حتّى تعثّرت في مشيتها، ثمّ قال لها برقّة وقعت من نفسها موقعًا غريبًا لا عهد لها به:

ـ ربّنا يسدّد خطاك ويهيّئ لك التوفيق وراحة البال، وما من نصيحة تُسدى إليك خيرًا من أن أقول: اقتدي بأمّك في كلّ كبيرة وصغيرة. . .

وأعطاها يده فقبّلتها ثمّ غادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الانفعال والتأثّر، وجعلت تردّد طول الوقت «كم أنّه لطيف رقيق رحيم!» ثمّ تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله «اقتدي بأمّك في كلّ كبيرة وصغيرة» وتقول لأمّها التي أصغت إليها بوجه متورّد وعينين مرتعشتين «ألا يعني هٰذا أنّه يراك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة؟ (ثمّ ضاحكة) يا لك من امرأة سعيدة الحظّ! ولٰكن من عسى أن يصدّق هٰذا كلّه؟ كأنّي كنت في حلم سعيد! أين كان يدّخر هٰذا العطف الجميل؟!» ثمّ دعت له طويلًا حتّى اغرورقت عيناها بالدموع. . .

وجاءت أمّ حنفي تعلنهم بوصول السيّارات. . .

٤٨

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل، على أنّ خديجة تركت فراغًا لم يسدّ فكأنّها استلّت روحه وسلبته حيويّته وحرمته مزايا لا يستهان بها من الفكاهة والمرح والنقار، أو كما قال ياسين لنفسه «كانت في مجلسنا كالملح في الطعام، ليس الملح في ذاته لذيذًا ولٰكن ما لذّة الطعام من دونه؟» بيْد أنّه لم يجهر برأيه مجاملة لزوجه إذ أنّه لم يزل ـ على خيبة أمله في الزواج التي لم يعد لها من دواء في البيت ـ يشفق من جرح مشاعرها على الأقلّ كيلا تسيء الظنّ بسهره المتواصل ليلة بعد أخرى في «القهوة» كما يزعم لها، ولئن كان مزاحه يفوق جدّه، إن كان ثمّة جدّ، إلّا أنّه فقد النديم الذي طالما طارحه الدعابة وهيّأ له دواعيها فلم يبق له إلّا أن يقنع بالقليل في هٰذه الجلسة التقليديّة، ها هو يتربّع على الكنبة، يحسو القهوة، ويمدّ بصره إلى الكنبة المقابلة له فيرى الأمّ وزوجه وكمال مستغرقين في أحاديث لا طائل تحتها، ولعلّه يتعجّب للمرّة المائة من رزانة زينب المعتمة فيذكر ما رمتها به خديجة من «ثقل الدم» ويسلّم بوجهة نظرها! . . ثمّ يفتح ديوان الحماسة أو غادة كربلاء ويقرأ، أو يقصّ على كمال شيئًا ممّا قرأ، ويلتفت إلى يمينه فيرى فهمي متوثّبًا للحديث، عن أيّ شيء يا ترى، محمّد فريد، مصطفى كامل، . . . لا يدري ولٰكنّه سيتكلّم بلا ريب، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسماء المنذرة بالمطر، هل ينكشه؟ . . . كلّا، لا حاجة به إلى ذٰلك، ها هو يستقبله باهتمام شديد، ويحدجه بنظرة موحية ناطقة ثمّ يسأله:

ـ ألم تبلغك أنباء جديدة. . .؟

يسأله هو عن أنباء جديدة! عندي أنباء لا عدّ لها. . . الزواج أكبر خدعة، الزوجة تنقلب بعد أشهر شربة زيت خروع، لا تحزن على ما فاتك من مريم أيّها السياسيّ الغرّ، أتريد أنباء أخرى؟! لديّ منها الكثير لكنّها على وجه اليقين لا تهمّك ألبتّة، ثمّ إنّ الشجاعة تخونني إذا سوّلت لي نفسي إذاعتها على مسمع من زوجي، وما يدري إلّا وهو يستشهد ـ في سرّه طبعًا ـ بقول الشريف:

عندي رسائل شوق لست أذكرها
لولا «الرقيب» لقد بلّغتها فاك

ثمّ تساءل بدوره:

ـ أيّ أنباء جديدة تعني؟. . .

فقال فهمي باهتمام شديد:

ـ ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كلّه وهو أنّ وفدًا مصريًّا مكوّنًا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمي بك وعليّ شعراوي باشا توجّه أمس إلى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال. . .

ورفع ياسين حاجبيه في اهتمام ولاحت في عينيه نظرة شكّ مقرونة بالدهشة، لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وإن لم يجد وراء الاسم في نفسه شيئًا ذا بال اللّهمّ إلّا ذكريات غامضة اقترنت بحوادث أتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك في قلبه ـ الذي لا يكاد يعبأ بالأمور العامّة ـ أثرًا عاطفيًّا يدلّ عليها ولو من بعيد، إلّا أنّ الاسمين الآخرين كانا يقعان في أذنه لأوّل مرّة، بيْد أنّ غرابة الأسماء ليست شيئًا يذكر إلى جانب الحركة التي قام بها أصحابها إن صحّ ما يقول فهمي، إذ كيف يتصوّر أن يُطالَب الإنجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة باستقلال مصر؟! وسأله:

ـ ماذا تعرف عن هٰؤلاء السادة؟

فقال فهمي بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يودّ لو كان هٰؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنيّ:

ـ سعد زغلول وكيل الجمعيّة التشريعيّة، وعبد العزيز فهمي وعليّ شعراوي عضوان بها، الحقّ أنّي لا أعرف شيئًا عن الأخيرين أمّا سعد فأكاد أكوّن عنه فكرة لا بأس بها ممّا ترامى إليّ عن كثيرين من زملائي الطلبة الوطنيّين الذين يختلفون فيه كثيرًا، منهم من يعدّه ذنبًا من أذناب الإنجليز ولا شيء أكثر من هٰذا ومنهم من يقرّ له بمزايا عظيمة جديرة بأن ترفعه إلى مصافّ رجال الحزب الوطنيّ أنفسهم. ومهما يكن من شأن فالخطوة التي أقدم عليها مع زميليه ـ ويقال إنّه كان الداعي إليها كذٰلك ـ عمل مجيد لعلّه لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفي المبرّزين من الوطنيّين وعلى رأسهم زعيمهم محمّد فريد. . .

بدا ياسين جادًّا أن يظنّ به الآخر استهانة بحماسه وردّد قائلًا وكأنّه يسائل نفسه:

ـ المطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال! . .

ـ وسمعنا أيضًا أنّهم طالبوا بالسفر إلى لندن للسعي إلى الاستقلال، وأنّهم لهٰذا القصد قابلوا السير «ريجنالد ونجت» نائب الملك!. . .

لم يستطع ياسين أن يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأساريره وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء:

ـ الاستقلال!. . . أتعني هٰذا حقًّا؟. . . ماذا تعني؟. . .

فقال فهمي بلهجة عصبيّة:

ـ أعني إخراج الإنجليز من مصر، أو الجلاء كما عبّر عنه مصطفى كامل ودعا إليه. . .

يا له من أمل!. . لم يكن السعي إلى حديث السياسة من طبعه ولٰكنّه يقبل دعوة فهمي كلّما دعا إليه، اتّقاءً لتكديره، وطلبًا لنوع طريف من التسلية، وربّما ثار اهتمامه بين الحين والحين وإن لم يبلغ درجة الحماس، بل ربّما شاركه أمانيه بطريقة سلبيّة هادئة، ولٰكنّه أثبت طوال حياته أنّه قليل الاكتراث بهٰذا الجانب من الحياة العامّة، كأنّه لا غاية له وراء التنعّم بطيّبات الحياة ولذّاتها، لذٰلك لم يجد في نفسه استعدادًا للأخذ بهٰذه الأقوال مأخذ الجدّ وتساءل مرّة أخرى:

ـ هل يقع هٰذا في حدود الإمكان حقًّا؟

فقال فهمي بحماس لا يخلو من لوم:

ـ لا يأس مع الحياة يا أخي!...

فأثارت هٰذه الجملة في نفسه ما تثيره أمثالها من ميل إلى السخرية بَيْد أنّه تساءل متظاهرًا بالجدّ:

ـ وكيف لنا بأن نخرجهم؟

ففكّر فهمي قليلًا ثمّ قال عابسًا:

ـ لهٰذا طلب سعد وزميلاه السفر إلى لندن!

تابعت الأمّ الحديث باهتمام مركّزة فيه وعيها كلّه كي تفهم أقصى ما يسعها فهمه منه كدأبها كلّما ثار حديث في الشئون العامّة البعيدة كلّ البعد عن اللغو المنزليّ، تلك الأمور تشوّقها، وتدّعي القدرة على فهمها، ولا تتردّد إذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما تحدثه آراؤها في أحايين كثيرة من الاستهانة المشربة بالعطف، ولٰكن لم يكن شيء ليحطّم مجاديفها أو يصدّها عن الاهتمام بهٰذه الشئون «الكبيرة» التي يبدو أنّها تتبعها مدفوعة بنفس البواعث التي تدفعها إلى التعلّق بدروس كمال الدينيّة أو مناقشة ما يلقى عليها من معلوماته الجغرافيّة والتاريخيّة على ضوء معارفها الدينيّة أو الأسطوريّة، وقد أكسبها هٰذا الجدّ شيئًا من الإلمام بما يقال عن مصطفى كامل ومحمّد فريد وأفندينا المبعد، أولٰئك الرجال الذين ضاعف من حبّها لهم إخلاصهم للخلافة الأمر الذي قرّبهم في نظرها ـ كشخص يقدّر الرجال بحسب منازلهم الدينيّة ـ من مراتب الأولياء الذين تهيم بهم، ولمّا أن ذكر فهمي أنّ سعدًا وزميليه يطلبان السفر إلى «لندن» خرجت عن صمتها فجأة متسائلة:

ـ أيّ بلاد الله لندن هٰذه؟

فبادرها كمال باللهجة المنغومة التي يسمّع بها التلاميذ دروسهم:

ـ لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا والكاب وعاصمتها الكاب...

ثمّ مال على أذنها هامسًا «لندن بلاد الإنجليز» فتولّت الأمّ الدهشة وقالت مخاطبة فهمي:

ـ يذهبون إلى بلاد الإنجليز ليطالبوهم بأن يخرجوا من مصر؟!... ليس هٰذا من الذوق في شيء... كيف تزورني في بيتي وأنت تضمر طردي من بيتك؟!

أضجرت مقاطعتها الشابّ فنظر إليها باسمًا معاتبًا في آن ولٰكنّها ظنّت أنّها بسبيل إقناعه فأردفت قائلة:

ـ وكيف يطلبون إخراجهم من ديارنا بعد إقامة طالت هٰذا الدهر كلّه؟! لقد ولدنا وولدتم وهم في بلادنا فهل من «الإنسانيّة» أن نتصدّى لهم بعد ذاك العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة ـ وفي بلادهم أيضًا ـ اخرجوا؟!

ابتسم فهمي كاليائس على حين قهقه ياسين، أمّا زينب فقالت جادّة:

ـ كيف تواتيهم الجرأة على أن يقولوا لهم هٰذا في بلادهم!... هب الإنجليز قتلوهم هناك فمن ذا يدري بهم؟... ألم يحظر جنودهم المشي في الشوارع البعيدة من المخاطرات غير المأمونة؟... فكيف بمن تحدّثه نفسه باقتحام ديارهم!؟

ودّ ياسين لو يسترسل مع المرأتين في حديثهما الساذج إرواء لعواطفه الظامئة إلى المزاح ولٰكنّه لمس ضجر فهمي فأشفق من إغضابه، فتحوّل إليه مواصلًا ما انقطع من الحديث وهو يقول:

ـ في كلامهما حقّ لم تحسنا التعبير عنه، خبّرني يا أخي ما عسى أن يصنع سعد حيال دولة تعدّ الآن سيّدة العالم بلا منازع؟

فوافقت الأمّ على قوله بإيماءة من رأسها كأنّ الحديث كان موجّهًا إليها وراحت تقول:

ـ كان عرابي باشا أعظم الرجال وأشجعهم، لا يقاس به سعد ولا غيره، وكان فارسًا وكان مقاتلًا، فماذا لقي من الإنجليز يا ولداه؟ أسروه ثمّ نفوه إلى بلاد وراء الشمس...

فلم يتمالك فهمي من أن يقول لها بلهجة جمعت بين الرجاء والضيق:

ـ نينة!... هلّا تركتنا نتحدّث؟!

فابتسمت فيما يشبه الحياء مشفقة كلّ الإشفاق من إغضابه فغيّرت لهجتها الحماسيّة كأنّما هي بتغيير لهجتها تعلن تغيّر رأيها كلّه ثمّ قالت برقّة واعتذار:

ـ يا سيدي لكلّ مجتهد نصيب، فليذهبوا في رعاية الله، وعسى أن يحظوا بعطف الملكة الكبيرة...

فما يدري الشابّ إلّا وهو يسألها في غرابة:

ـ أيّ ملكة تقصدين؟

ـ الملكة ڤيكتوريا يا بنيّ، أليس هٰذا اسمها؟... طالما سمعت أبي وهو يتحدّث عنها، هي التي أمرت بنفي عرابي ولٰكنّها أعجبت بشجاعته كثيرًا فيما قيل...

فقال ياسين ساخرًا:

ـ إذا كانت قد نفت عرابي الفارس فهي أجدر أن تنفي سعدًا العجوز!...

فقالت الأمّ:

ـ مهما يكن من أمرها فهي لم تزل امرأة يحمل صدرها ولا شكّ قلبًا رقيقًا فإذا أحسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتودّدون إليها جبرت بخاطرهم...

وجد ياسين سرورًا كبيرًا في منطق الأمّ التي جعلت تتحدّث عن الملكة التاريخيّة كما لو كانت تتحدّث عن أمّ مريم أو غيرها من الجارات، ولم يعد يرغب في مجاراة فهمي، فسألها بإغراء:

ـ خبّرينا عمّا يحسن أن يقولوه لها؟

فاعتدلت المرأة في جلستها مسرورة بهٰذا السؤال الذي أقرّ لها بالجدارة «السياسيّة» ومضت تفكّر باهتمام لاح في تقارب حاجبيها في صيغة مناسبة لأوّل «مفاوضة» بيْد أنّ فهمي لم يمهلها حتّى تتمّ تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء:

ـ الملكة ڤيكتوريا ماتت من زمن بعيد، لا تتعبي نفسك بلا طائل!

انتبه ياسين عند ذاك إلى غاشية المساء الزاحفة من خلال خصاص النوافذ فأدرك أنّه آن له أن يودّع المجلس ليمضي إلى سهرته، ولـمّا كان يعلم حقّ العلم بأنّ ظمأ فهمي لم يروَ بعد فقد رغب في أن يقدّم له اعتذاره عن ذهابه في صورة تأييد من نوع ما للنبأ الذي أخذ بلبّه فقال له وهو ينهض:

ـ إنّهم رجال يدركون بلا شكّ خطورة ما أقدموا عليه فعلّهم أعدّوا له الوسيلة الناجحة، فلندْعُ لهم بالتوفيق.

وغادر المجلس وهو يشير إلى زينب لتلحق به فتجهّز له ملابسه، فشيّعه فهمي بنظرة لا تخلو من غضب، غضب من لم يظفر بمشاركة وجدانيّة تتجاوب مع نفسه المتأجّجة، لشدّ ما تثير أحاديث الوطنيّة أكبر الأحلام في نفسه، في دنياها الساحرة تتراءى لعينيه دنيا جديدة، ووطن جديد وبيت جديد، وأهل جدد، ينتفضون جميعًا حيويّة وحماسة ولٰكن ما إن يفيق على هٰذا الجوّ الخانق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتّى تشبّ بين أضلعه نار الحسرة والألم فتروم في قهرها متنفّسًا ـ أيًّا ما كان ـ تنطلق منه إلى السماء، ودّ في تلك اللحظة بكلّ قوّته لو ينطوي الليل في غمضة عين ليجد نفسه مرّة أخرى في مجمع الطلّاب من إخوانه فيروي ظمأه إلى الحماس والحرّيّة ويسمو في وقْدة حماسهم إلى ذٰلك العالم الكبير من الأحلام والمجد، لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعدّ اليوم بحقّ سيّدة العالم، وهو نفسه لا يدري على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد، ولا يدري ماذا يمكن أن يصنع، ولٰكنّه يشعر بكلّ ما في قلبه من قوّة بأنّ ثمّة ما يجب عمله، ربّما لم يجده ماثلًا في عالم الواقع، ولٰكنّه يشعر به كامنًا في قلبه ودمه، فما أجدره أن يبرز إلى ضوء الحياة والواقع أو فلتمض الحياة عبثًا من العبث وباطلًا من الأباطيل...

٤٩

بدا الطريق أمام دكّان السيّد أحمد ـ كعادته ـ مكتظًّا بالسابلة والمركبات وروّاد الدكاكين المتراصّة على الجانبين إلّا أنّ هامته ازدانت بشفافيّة مقطّرة من جوّ نوڤمبر اللطيف الذي حجبت شمسه وراء سحائب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كأنّها بحيرات من نور، لم يكن شيء في السماء ولا في الأرض قد خرق المألوف ممّا اعتاد السيّد أن يراه كلّ يوم، ولٰكنّ نفس الرجل، والأنفس الموصولة بنفسه وربّما أنفس الناس جميعًا تعرّضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها أو كادت حتّى قال السيّد إنّه لم تمرّ به أيّام كهٰذه الأيّام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم بإحساس

واحد. فهمي الذي يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبدأه هو بالحديث، نقل إليه في إسهاب ما اتّصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك، وفي مساء اليوم نفسه، وفي مجلس الطرب، أكّد نفر من الصحاب أنّ الخبر حقيقة لا يرتقي إليها الشكّ، وفي دكّانه حدث أكثر من مرّة أن خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق في حديث المقابلة، بل ما يدري هٰذا الصباح إلّا والشيخ متولّي عبد الصمد يقتحم عليه الدكّان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات وأخذ نصيبه من السكّر والصابون وأبى إلّا أن يعلن نبأ الزيارة بلهجة من يزفّ البشرى لأوّل مرّة ولـمّا سأله السيّد ـ مداعبًا ـ عمّا يظنّ أن تكون نتيجة الزيارة أجاب الشيخ «محال!... محال أن يخرج الإنجليز من مصر، أتحسبهم مجانين كي يجلوا عن البلد بلا قتال!... لا بدّ من قتال، ولا قتال لنا، فلا سبيل إلى إخراجهم، فلعلّ رجالنا يوفّقون ولو إلى إبعاد الأستراليّين حتّى يعود الأمن إلى سابق عهده، والسلام؟» أيّام أنباء ومشاعر فيّاضة صادفت في السيّد رجلًا ذا قابليّة شديدة لعدوى الأشواق الوطنيّة والسياسيّة فبات على حال من الانتظار والتوقّع جعلته يُقبل بانفعال على قراءة الجرائد التي بدت في الأغلب وكأنّها تصدر في بلد غريب لا انفعال فيه ولا توثّب، واستقبال الأصدقاء بنظرة استطلاع تتلهّف عمّا وراءهم من جديد، وعلى تلك الحال استقبل السيّد محمّد عفّت حين دخل الدكّان مهرولًا، لم تكن نظرة القادم الحادّة ولا حركته النشيطة ممّا يوحي بأنّه مجرّد زائر قد عرّج إلى الدكّان لاحتساء قهوة أو رواية ملحة، فوجد السيّد في مظهره ما تجاوب مع نفسه القلقة المشوّقة فبادره قائلًا والآخر يشقّ طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوي على قضاء حوائجهم:

ـ صباحنا نادٍ، ماذا وراءك يا سبع؟

اتّخذ السيّد محمّد عفّت مجلسه لصق المكتب وهو يبتسم ابتسامة وشت بالعجب كأنّ قول السيّد «ماذا وراءك» وهو نفس السؤال الذي يتكرّر كلّما لاقى أحدًا من صحبه ـ إقرار بأهمّيّته في هٰذه الأيّام البالغة في أهمّيّتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيّات المصريّة الهامّة من صلات القربى. كان السيّد عفّت دائمًا همزة الوصل بين جماعته الأصليّة المكوّنة من تجّار وبين من انضمّ إليها بمضيّ الزمن من موظّفين ممتازين ومحامين وإن تفرّد السيّد أحمد بمنزلة الإعزاز بفضل شخصيّته وسجاياه، غير أنّ صلة القربى هٰذه التي لم تفقد شيئًا من خطورتها قطّ لدى أصدقائه التجّار الذين يتطلّعون إلى الموظّفين وذوي الألقاب بنظرة ملؤها الإكبار، صلة القربى هٰذه قد زادت خطورة في هٰذه الأيّام التي بات فيها «الخبر الجديد» أهمّ من الماء والغذاء!... بسط السيّد عفّت صحيفة كانت مطويّة بيمينه ثمّ قال:

ـ خطوة جديدة... لم أعد ناقل أنباء فحسب ولكنّي بتُّ رسولًا أحمل إليك وإلى غيرك من الأكرمين هٰذا التوكيل السعيد...

وأعطاه الصحيفة وهو يغمغم مبتسمًا «اقرأ» فتناولها السيّد وقرأ:

ـ نحن الموقّعين على هٰذا قد أنبنا عنّا حضرات سعد زغلول باشا وعليّ شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمّد عليّ علوبة بك وعبد اللطيف المكبّاتي ومحمّد محمود باشا وأحمد لطفي السيّد بك، ولهم أن يضمّوا إليهم من يختارون، في أن يسعوا بالطرق السلميّة المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلًا في استقلال مصر استقلالًا تامًّا»...

فتهلّل وجه السيّد وهو يتلو أسماء أعضاء الوفد المصريّ الذين سمع بهم فيما سمع من أبناء الحياة الوطنيّة التي تردّدها الألسن، وتساءل:

ـ ماذا تعني هٰذه الورقة؟

فقال الرجل بحماس:

ـ ألا ترى هٰذه الإمضاءات؟... وقّع تحتها بإمضائك وادع جميل الحمزاوي ليوقّع بإمضائه أيضًا. هٰذا توكيل من التوكيلات التي طبعها الوفد ليوقّعها الشعب فيتّخذ بها صفة الوكالة عن الأمّة المصريّة...

أمسك السيّد بالقلم ووقّع بإمضائه في سرور تجلّى في تألّق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة نمّت عن شعوره بالسعادة والخيلاء إذ يوكّل عن نفسه سعدًا وزملاءه، أولٰئك الرجال الذين ملكوا النفوس على

حداثة شهرتهم حيث حرّكوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأوّل مرّة، ودعا الحمزاوي فوقّع بإمضائه كذلك، ثمّ التفت إلى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد:

ـ المسألة جدّ فيما يبدوا...

فضرب الرجل حافّة المكتب بقبضة يده ثمّ قال:

ـ غاية الجدّ، كلّ شيء يسير بقوّة وتصميم، أما علمت بما دعا إلى طبع هٰذه التوكيلات؟ قيل إنّ «الرجل» الإنجليزيّ تساءل عن الصفة التي كلّمه بها سعد وزميلاه في صباح ١٣ نوڤمبر الماضي فما كان من الوفد إلّا أن عمد إلى هٰذه التوكيلات ليثبت أنّه يتكلّم باسم الأمّة...

فقال السيّد بتأثّر:

ـ لو كان محمّد فريد بيننا ما عدا هٰذا.

ـ لقد انضمّ إلى الوفد من رجال الحزب الوطنيّ محمّد عليّ علوبة بك وعبد اللطيف المكبّاتي...

ثمّ هزّ منكبيه لينفض عنهما الماضي كلّه ثمّ قال:

ـ كلّنا نذكر سعدًا بما كان يثير من ضجّة عظيمة على عهد تولّيه لنظارة المعارف ثمّ الحقّانيّة، ما زلت أذكر ترحيب اللواء به منذ ترشيحه للوزارة وإن لم أنسَ حملاته عليه بعد ذٰلك، بل لا أنكر أنّني ملْتُ مع انتقاد المنتقدين له لشدّة تعلّقي بالمغفور له مصطفى كامل، ولٰكنّ سعد أثبت دائمًا أنّه جدير بإعجاب المعجبين، أمّا حركته الأخيرة فهي خليقة بأن تحلّه من القلوب في أعزّ مكان...

ـ صدقت... حركة مباركة، لنَدْعُ الله أن يتولّاها بتوفيقه...

ثمّ باهتمام:

ـ تُرى أيؤذَن لهم في السفر؟... وماذا تُراهم فاعلين إذا سافروا؟...

طوى السيّد محمّد عفّت التوكيل ثمّ نهض وهو يقول:

ـ ما الغد ببعيد...

في طريقهما إلى باب الدكّان غلبت روح الدعابة السيّد فهمس في أذن صاحبه:

ـ كأنّي لشدّة سروري بهٰذا التوكيل الوطنيّ ثَمِل يعلّ الكأس الثامنة بين فخذي زبيدة...!

فحرّك محمّد عفّت رأسه في تأثّر كأنّ الصورة التي جسّمها خياله عند ذكر الكأس وزبيدة قد أسكرته، وغمغم:

ـ يا ما بكره نسمع...

ثمّ غادر الدكّان والسيّد في أعقابه مبتسمًا:

ـ وبعده نشوف...!

ثمّ عاد إلى مكتبه وأثر المزاح منبسط في أساريره وانفعال الحماس في قلبه لا يخمد، شأنه في كلّ ما يعرض له من مهامّ الحياة بعيدًا عن داره، فهو يجدّ الجدّ كلّه كلّما دعا الداعي إلى الجدّ ولٰكنّه لا يتردّد عن تلطيف جوّه بالمزاح والدعابة كلّما لاحت له صادرًا في ذاك عن طبع لا يملك معه حيلة وإن بدا قدرة عجيبة على التوفيق بينهما، فلا جدّه بقاهر مزاحه ولا مزاحه بمفسد جدّه، ولـمّا كانت دعابته ليست ترفًا ممّا يدور على هامش الحياة، ولٰكن ضرورة تتوزّعها كالجدّ سواء بسواء، فلم يسعه يومًا الاقتصار على الجدّ الخالص أو تركيز همّته فيه، وبالتالي قنع دائمًا من «وطنيّته» بالعاطفة والمشاركة الوجدانيّة دون الإقدام على عمل يغيّر وجه الحياة الذي آنس إليه فلا يرضى عنه بديلًا، لذٰلك لم يدر له بخلد أن ينضمّ إلى لجنة من لجان الحزب الوطنيّ على شدّة تعلّقه بمبادئه، ولا حتّى أن يجشّم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته، أليس في ذٰلك إهدار لوقته «الثمين»؟ ليس الوطن في حاجة إليه على حين يتلهّف هو على كلّ دقيقة منه لينفقها في أسرته أو تجارته أو على الخصوص في لهوه بين الأحباب والخلّان؟! ليكن إذن وقته خالصًا لحياته، وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه، بل ماله كلّما تيسّر، إذ لم يكن يضنّ به إذا وجب التبرّع لغرض من الأغراض، وإلى ذٰلك فلم يشعر مطلقًا بأنّه مقصّر في واجبه على نحو ما، وعلى العكس عُرف بين صحبه بالوطنيّة، إمّا لأنّ قلوبهم لم تسْخُ بعواطفها كما سخا قلبه، وإمّا لأنّ

الذين سخت قلوبهم لم يذهبوا إلى حدّ التبرّع بالمال مثله، فتميّز بوطنيّته، وعرف هو ذٰلك فأضافه إلى بقيّة مزاياه التي يباهي بها سرًّا في أعماق قلبه، ولم يتصوّر أنّ الوطنيّة يمكن أن تطالبه بأكثر ممّا يجود به، ذاك القلب المولع بالغرام والطرب والمزاح لم يضِقْ ـ على ازدحامه ـ بالعاطفة القوميّة، وهي وإن قنعت بالقلب مجالاً لحيويّتها إلّا أنّها كانت قويّة عميقة تشغل النفس وتهمّها، لم تجئه عرضًا ولٰكن نشأت مع صباه فيما تلقّته أذناه من أحاديث البطولة التي رواها السلف عن عرابي، ثمّ اتّقدت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه، وكم كان منظرًا فريدًا ـ أهاج التأثّر والضحك معًا ـ يوم رُئِيَ وهو يبكي كالأطفال عند وفاة مصطفى كامل، تأثّر صحبه لأنّ أحدًا منهم لم يسلم من وعكة حزن ثمّ أغرقوا في الضحك في مجلس الطرب الليليّ حين تذكّروا المنظر إذ لم يكن من اليسير أن يُرى «ربّ الضحك» وهو يجهش بالبكاء! اليوم، بعد سني الحرب الخامدة، بعد موت الزعيم الشابّ ونفي خليفته، بعد انقطاع الأمل من عودة أفندينا، بعد هزيمة تركيّا، وانتصار الإنجليز، بعد هٰذا كلّه، أو بالرغم من هٰذا كلّه، تسري أنباء عجيبة حاملة حقائق كالأساطير. . . مواجهة الرجل الإنجليزيّ بمطالب الاستقلال، إمضاء التوكيلات الوطنيّة، التساؤل عن الخطوة التالية، قلوب تنفض عن جوهرها الغبار، أنفس تشرق بالآمال، ماذا وراء هٰذا كلّه؟! . . . إنّ خياله السلميّ الذي ألف الاستكانة يتساءل دون جدوى، وإنّه ليتعجّل الليل ليهرع إلى مجلس الطرب حيث باتت الأحاديث السياسيّة «مزّة» الشراب والطرب فائتلفت مع جملة المغريات التي تجذب حنانه إلى سهرته كزبيدة وحبّ الإخوان والشراب والطرب وإنّه لتبدو في ذٰلك الجوّ الخلّاب عذبة الروح لطيفة التناول تغني القلوب بشتّى عواطف الحماس والحبّ من دون أن تستأديه ما لا طاقة له به! . . . وإنّه ليفكّر في هٰذا كلّه إذ اقترب منه جميل الحمزاوي وهو يقول:

ـ أما سمعت عن الاسم الجديد الذي أطلق على بيت سعد باشا. . .؟ إنّهم يدعونه «بيت الأمّة». . .

ومال الرجل نحوه ليفضي إليه كيف نمى إليه الخبر. . .

٥٠

في نفس الوقت الذي شُغل فيه الوطن بحرّيّته كان ياسين دائبًا بحزم وعزم على الاستئثار بحرّيّته هو كذٰلك، فإنّ انطلاقه إلى سهراته الليليّة ـ بعد امتناع موسوم بالاستقامة فيما أعقب الزواج من أسابيع ـ لم يفز به بلا نضال، ثمّة حقيقة كثيرًا ما ردّدها لنفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد. هي أنّه لم يكن يتصوّر ـ وهو في سكرة حلم الزواج ـ أنّه سيرتدّ إلى حياة التسكّع بين القهوة وحانة كوستاكي، اعتقد مخلصًا أنّه ودّع ذاك إلى الأبد مضمرًا لحياته الزوجيّة أحسن النيّات، حتّى دهمته الخيبة المستعصية في الزواج كلّه فجزعت أعصابه عن تحمّل الملل أو الحياة الفارغة كما دعاها، وفزع بكلّ قوّة نفسه المدلّلة الحسّاسة إلى الترفيه والتسلية والنسيان، إلى القهوة والحانة، لا كحياة لهو عابرة كما ظنّها في الماضي والزواج أمل مدّخر، ولٰكن كحياة هي كلّ ما تبقّى له من متعة بعد أن غدا الزواج خيبة مريرة، كالذي تشرّده الآمال عن وطنه فيردّه الإخفاق إليه تائبًا، بَيْد أنّ زينب التي عهدت عنده التودّد الحارّ والتملّق النهم، بل الإعزاز الذي بلغ به يومًا أن ذهب بها إلى مسرح كشكش بك مستهينًا بالسياج المسلّح من التقاليد الصارمة الذي يضربه أبوه حول الأسرة. . . زينب هٰذه كابدت من انصرافه عنها إلى منتصف الليل ليلة بعد أخرى وعودته ثملًا يترنّح، صدمة عزّ عليها احتمالها فما تمالكت أن كاشفته بأحزانها، وكان يعلم بداهة أنّ طفرة مفاجئة في حياته الزوجيّة لا يمكن أن تمرّ بسلام فتوقّع من بادئ الأمر المعارضة على أيّ لون جاءت، عتابًا أو خصامًا وأعدّ العدّة المناسبة ليحسم موقفه بقول أبيه له ليلة ضبطه راجعًا من كشكش بك «إنّه لا يفسد النساء إلّا الرجال، وليس كلّ الرجال جديرًا بالقيام على النساء» فما تشكّت حتّى قال لها: «لا داعي للحزن يا عزيزة، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال، هٰكذا

الرجال جميعًا، والزوج المخلص يحافظ على أمانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها، ثمّ إنّني أتزوّد من السهرة ترويحًا عن النفس وبهجة يجعلان من حياتنا متعة كاملة» ولـمّا عرَّضت بسكره محتجّة بأنّها «تخاف على صحّته» ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقّة والحزم «كلّ الرجال يسكرون، إنّ صحّتي تتحسّن بالسكر (ثمّ ضاحكًا مرّة أخرى) سلي أبي أو أباك!» إلّا أنّها همّت بالاسترسال في مناقشته جريًا وراء أمل كاذب فشدّ حبل الحزم متشجّعًا بملله الذي هوّن عليه ما لم يكن يهون من إغضابها فراح ينوّه بما للرجال من حقّ مطلق في أن يفعلوا ما يشاءون، وما على النساء من واجب الطاعة والتزام الحدود «انظري إلى امرأة أبي هل رأيتها اعترضت يومًا على تصرّف لأبي؟... على ذلك فهما زوجان سعيدان وأسرة مطمئنّة، ينبغي ألّا نعود إلى هٰذا الموضوع»... لعلّه لو كان تُـرك إلى شعوره وحده ما اصطنع في خطابها ما اصطنع من سياسة فإنّ خيبته في الزواج جعلته يجد نحوها أحيانًا ما يشبه الرغبة في الانتقام، وأحيانًا أخرى نوعًا من الكراهية المتقطّعة وإن لم يكفّ عن الرغبة فيها بين هٰذا وذاك، ولٰكنّه راعى عواطفها إكرامًا ـ أو خوفًا ـ من أبيه الذي علم بعظيم تعلّقه بأبيها السيّد محمّد عفّت. والحقّ لم يكن يكربه شيء كإشفاقه من أن تشكوه إلى أبيها فيشكوه هٰذا بدوره إلى أبيه، حتّى لقد صمّم جادًّا، إذا وقع شيء ممّا يحاذر، أن يستقلّ بمسكن مهما تكن العواقب ولٰكنّ مخاوفه لم تتحقّق، أثبتت الفتاة رغم حزنها أنّها امرأة «عاقلة» كأنّها من طراز امرأة أبيه نفسها، قدّرت موضعها حقّ قدره ونزلت عند حكم الواقع، مطمئنّة ـ لبعلها ـ بما يردّده دائمًا من إخلاصه وبراءة سهراته، قانعة من الألم والحزن ببثّها في دائرة الأسرة الضيّقة ـ مجلس القهوة ـ من دون أن تظفر بتأييد جدّيّ، وكيف لها بذاك في بيئة ترى الخضوع للرجال دينًا وعقيدة، بل لعلّ الستّ أمينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح إليه من استئثار غريب ببعلها، لأنّها لم يكن يسعها أن تتصوّر النساء إلّا على مثالها هي ولا الرجال إلّا على مثال زوجها، فلم تَرَ في استمتاع ياسين بحرّيّته عجبًا ولٰكن شكوى زوجه بدت هي العجب. فهمي وحده قدّر أحزانها فتطوّع لترديدها على مسمع من ياسين ولو أنّه أيقن من بادئ الأمر أنّه يدافع عن قضيّة خاسرة، ولعلّ ما شجّعه على ذاك كان كثرة تلاقيهما في قهوة أحمد عبده بخان الخليلي، تلك القهوة التي تقع تحت سطح الأرض كأنّها كهف منحوت في جوف جبل، مسقوفة بربوع الحيّ العتيق، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيّقة المتقابلة، وباحتها التي تتوسّطها نافورة صامتة، ومصابيحها التي توقد ليل نهار، وجوّها الهادئ الحالم الرطيب. كان ياسين قد مال إلى هٰذه القهوة لدنوّها من حانة كوستاكي من ناحية ولاضطراره إلى هجر قهوة سي عليّ بالغوريّة بعد قطع زنّوبة من ناحية أخرى، ثمّ لـمّا خصّت به القهوة الجديدة من طابع أثريّ صادف هوًى من نفسه الميّالة للشعر، أمّا فهمي فلم يعرف طريق المقاهي لخلل طرأ على سلوكه كطالب مجتهد ولٰكن تلبية لنداء تلك الأيّام الذي دعا الطلبة وغيرهم إلى التجمّع والتشاور، فاختار ونفر من زملائه قهوة أحمد عبده ـ لنفس ميزاتها الأثريّة التي جعلتها بمأمن من العيون ـ للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبّؤ وانتظار الحوادث. كثيرًا ما التقى الأخوان في حجرة من الحجرات الصغيرة ولو لحين قليل أي حتّى يصل زملاء فهمي أو يأزف ميعاد ياسين للانتقال إلى حانة كوستاكي، وفي مرّة من هٰذه المرّات أشار فهمي إلى كدر زينب مُبْدِيًا دهشته لسلوك أخيه الذي لا يتّفق مع حياة زوجيّة ناشئة. ضحك ياسين ضحكة رجل يرى لنفسه الحقّ، كلّ الحقّ، في أن يضحك من سذاجة الآخر الذي ارتضى بأن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهله، بَيْد أنّه لم يشأ أن يبرّر سلوكه مباشرة مؤثرًا أن ينفّس عن صدره بما يعنّ له من قول، فقال مخاطبًا الشابّ:

ـ رغبت يومًا في الزواج من مريم، ولست أشكّ في أنّك حزنت جدّ الحزن لموقف أبيك الذي منع تلك الرغبة من أن تتحقّق... أقول لك، وأنا أدرى بما أقول، إنّك لو علمت وقتذاك بما يخفي الزواج وراء

سطحه لحمدت الله على الفشل...

دهش فهمي لحدّ الانزعاج لأنّه لم يتوقّع أن يباغت في أوّل جملة يخاطب بها بألفاظ تجمع بين «مريم» و«الزواج» و«الرغبة»، أفكار لعبت على مسرح صدره أدوارًا لا تنسى ولا تمحى آثارها، فلعلّه بالغ في إظهار دهشته ليخفي ما أثارت الذكريات في نفسه من الشجن والتأثّر، ولعلّه لذلك لم يستطع أن ينبس بكلمة، فتابع ياسين حديثه وهو يلوّح بيده سأمًا ومللًا قائلًا:

ـ ما كنت أتصوّر أن ينجلي الزواج عن هذا الخواء، إنّه في الحقّ لا يعدو أن يكون حلمًا كاذبًا، وقاسيًا ككلّ شيء خبيث الخداع!

بدا له قوله عسير الهضم مثيرًا للريب كما يخلق بشابّ تتدفّق ينابيع حياته الوجدانيّة نحو هدف واحد لا يتمثّل له إلّا في صورة «زوجة» وتحت مقولة «الزواج» فعزّ عليه أن يتناول أخوه المستهتر مقولته المقدّسة بهذه المرارة الساخرة، وتمتم في دهشة بالغة:

ـ ولكنّ زوجك سيّدة... كاملة!

فهتف ياسين ساخرًا:

ـ سيّدة كاملة! هو ذاك، أليست كريمة رجل فاضل؟... وربيبة أسرة كريمة؟... جميلة... مهذّبة... ولكن لا أدري أيّ شيطان موكل بالحياة الزوجيّة يجعل من جميع المزايا السالفة أعراضًا تافهة لا يُلقى إليها ببال تحت ضغط الملل المُسقِم كأنّها بعض ما تغدق على الفقر من صفات النبل والسعادة كلّما تراءى لنا أن نعزّي فقيرًا عن فقره...

فقال فهمي ببساطة وصدق:

ـ لا أفهم حرفًا ممّا تقول.

ـ انتظر حتّى تعرف بنفسك...

ـ لماذا إذن يصرّ الناس على الزواج منذ بدء الخليقة؟...

ـ لأنّ الزواج ـ كالموت ـ لا ينفع معه التحذير ولا الحذر...

ثمّ مستطردًا وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ لشدّ ما عبث بي الخيال فسما بي إلى عوالم تفوق مباهجها الأحلام، وطالما ساءلت نفسي: هل يجمعني حقًّا بيت واحد بغادة حسناء إلى الأبد؟ يا له من حلم!... ولكنّي أؤكّد بأنّه ليست ثمّة مصيبة أفدح من أن يجمعك بيت واحد بحسناء إلى الأبد...

وغمغم فهمي في حيرة رجل يعزّ عليه ـ فيما يكابد من أشواق الشباب ـ تصوّر الملل:

ـ لعلّه بدت لعينك أشياء وراء الظاهر الذي لا يعاب!

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة:

ـ لا أشكو إلّا الظاهر الذي لا يعاب!... شكواي في الحقّ منصبّة على الجمال نفسه!... هو... هو الذي مللت لحدّ السقم، كاللفظ الجديد يبهرك معناه لأوّل مرّة ثمّ لا تزال تردّده وتستعمله حتّى يستوي عندك وألفاظ مثل «الكلب» و«الدودة» و«الدرس» وسائر الأشياء المبتذلة، يفقد جدّته وحلاوته، وربّما نسيت معناه نفسه فغدا مجرّد لفظ غريب لا معنى له ولا وجه لاستعماله، ولعلّه لو عثر عليه الغير في إنشائك أخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم، ولا تسل عمّا في ملل الجمال من فجيعة، إذ أنّه يبدو مللًا بلا عذر مقبول، وبالتالي قضاء محتومًا... فيتعذّر التفادي من يأس ليس له من قرار. لا تعجب لقولي، إنّي عاذرك لأنّك تنظر من بعيد، والجمال كالسراب لا يُرى إلّا من بعيد...

على مرارة اللهجة شكّ فهمي في حقيقة بواعثها إذ أنّه مال من بادئ الأمر إلى اتّهام أخيه ـ لا الطبيعة البشريّة ـ لما عرفه عنه من انحراف السلوك، ألا يجوز أن تُردّ شكواه في الحقّ إلى ما لهج به من مجون في حياته السابقة على الزواج؟!... أصرّ على هذا الظنّ إصرار رجل يأبى أن يفجع في أعزّ آماله، ولمّا كان ياسين لا يهتمّ بآراء أخيه بقدر ما يهتمّ بالإفصاح عمّا في صدره هو، فقد واصل حديثه وهو يبتسم لأوّل مرّة ابتسامة وضيئة:

ـ أصبحت أدرك موقف أبي حقّ الإدراك!... وأفهم ما جعل منه ذاك الرجل العربيد الراكض وراء العشق أبدًا!... كيف كان يتأتّى له أن يصبر على

طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلني الملل بعد خمسة أشهر؟!

فقال فهمي وقد قلق لإقحام أبيه في الحديث:

ـ حتّى على افتراض أنّ شكواك صادرة عن تعاسة مركّبة في الطبيعة البشريّة، فالحلّ الذي تبشّر به... (همّ بأن يقول: بعيد عن الطبيعة السويّة ثمّ عدل عنه ليكون أكثر منطقيّة فقال)... بعيد عن الدين...

فقال ياسين الذي كان يقنع من الدين دون اكتراث جدّيّ لأوامره ونواهيه:

ـ الدين يؤيّد رأيي، وآي ذلك أنّه سمح بالزواج من أربع غير الجواري اللاتي كانت تكتظّ بهنّ قصور الخلفاء والأغنياء، فقد فطن إذن إلى أنّ الجمال نفسه ـ إذا ابتذلته العادة والألفة ـ ملّ وأسقم وقتل...

فقال فهمي باسمًا:

ـ كان لنا جدّ يمسي مع زوجة ويصبح مع أخرى فلعلّك أن تكون وريثه.. فتمتم ياسين متنهّدًا:

ـ لعلّي..

على أنّ ياسين ـ حتّى ذاك الوقت ـ لم يكن أقدم على تحقيق حلم من أحلامه المتمرّدة، حتّى أنّه رجع إلى القهوة فالحانة ولكنّه تردّد قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة، قبل أن ينزلق إلى زنّوبة أو إلى غيرها، وما الذي جعله يفكّر ويتردّد؟... ربّما لم يَخْلُ من إحساس بالمسئوليّة حيال الحياة الزوجيّة، وربّما لم ينْجُ من تهيّب لرأي الدين في «الزوج الفاسق» الذي توكّد لديه أنّه غير رأيه في «الشابّ الفاسق» وربّما أيضًا أنّ خيبة أقوى أمل تردّد في جوانبه صدّت نفسه عن لذّات الدنيا حتّى يفيق، على أنّ واحدة من أولاء لم تكن لتقيم في سبيله عائقًا جدّيًّا خليقًا بأن يقف مجرى حياته، إلّا أنّه وجد إغراء لا يصمت في سيرة أبيه التي استحوذت عليه، وما بدا من زوجه من «حكمة» قرنتها في ذهنه بامرأة أبيه فينشط خياله إلى رسم تخطيط لحياتها المستقبلة معه على مثال حياة الستّ أمينة مع أبيه، أجل تمنّى كثيرًا لو تطمئنّ زينب إلى الحياة التي تقدر عليها كما تطمئنّ امرأة أبيه إلى حياتها، فيثب هو مثل وثبات أبيه الموفّقة ليعود آخر الليل فيحظى ببيت هادئ وزوجة مستنيمة. بذاك، وبذاك وحده تراءت له الحياة الزوجيّة محتملة، بل أثيرة ذات مزايا تفتقد. «فيم تطمح أيّة امرأة وراء البيت الزوجيّ والارتواء الجنسيّ؟!.. لا شيء!... إنّهنّ حيوانات أليفة كالحيوانات الأليفة ينبغي أن يعاملن، أجل لا يجوز للحيوانات الأليفة أن تتطفّل على حياتنا الخاصّة وإنّما عليها أن تنتظر في البيت حتّى نفرغ لمداعبتها، أن أكون زوجًا خالصًا للحياة الزوجيّة هو الموت، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد لا تزال تتكرّر وتتكرّر... حتّى تنقلب الحركة والجمود سيّين، والصوت والصمت توأمين، كلّا كلّا، ما لهذا تزوّجت... إن قيل إنّها بيضاء، ألست ذا مآرب من السمراء، بل والسوداء... وإن قيل إنّها مدملجة فما عزائي عن النحيلة والجسيمة، أو أنّها مهذّبة سليلة نبل وكرم فهل عطّلت من المزايا ربيبة العربات الكارو؟!... إلى الأمام... إلى الأمام...».

٥١

كان السيّد مكبًّا على دفاتره حين طرقت عتبة الدكّان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غريزيّ، فرأى امرأة تشتمل الملاءة اللفّ منها على جسم لحيم وتنحسر حافّة البرقع الأسود على جبين ناصع وعينين مكحولتين، فابتسمت أساريره في ترحاب طال تشوّقه إليه، وعرف من توّه الستّ أمّ مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيرًا، ولـمّا كان جميل الحمزاوي مشغولًا ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كثب من مكتبه، فأقبلت المرأة تخطر وجلست على المقعد الصغير الذي فاضت عنه أعطافها وهي تلقي إليه بتحيّة الصباح، ومع أنّ التحيّة من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المعهود الذي يتكرّر كلّما جاءته «زبونة» تستحقّ التكريم، فإنّ الجوّ الذي غشى ركن الدكّان من حول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة، لاحت أمارات لها في الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من ناحية، والنظرة المتربّصة فوق سفحي الأنف العظيم من ناحية أخرى، كهرباء خفيّة صامتة إلّا أنّ نورها

الكـامن كـان متحفـزًا في انتـظار لمسـة كي يسـطع ويشعشع ويستعر نارًا. . . كأنّه كان ينتظر هٰذه الزيارة التي انجابت عن آمال مهموسة وأحلام مكبوتة، ولٰكن لأنّ وفاة السيّد محمّد رضوان أثارت منه فكرًا وهيّجت رغبات كما يهيّج انطواء الشتاء شتّى آمال الشباب في الطبيعة والأحياء، زال بموتـه الشجا الـذي اعترض إحساسه بالمروءة فأمكنه أن يذكّر نفسه بأنّ المرحوم لم يكن إلّا جارًا - لا صديقًا - ورحل، كما أمكن شعوره بجمال هٰذه المرأة الذي أعرض عنه قديمًا حفاظًا على كرامته أن يعـبّر عن ذاته ويـطالب بنصيبه من المتعـة والحيـاة، إلّا أنّ عاطفتـه نحو زبيـدة، كـان أدركهـا العطب كالفاكهة في نهاية موسمها، فلاقت المرأة منه - على خلاف الـزيارة السابقة - ذكـرًا متوثّبـا وعاشقًـا متحرّرًا. . . على أنّ خاطرة ثقيلة - أن تكون الزيارة بريئة - مرّت به ولٰكنّه نفاها عن نفسه بقوّة، مستشهدًا بما بدا منهـا في الزيـارة القديمـة من رقيق الإشارات وبديع الريب، مؤكّدًا ظنونه بهٰذه الزيارة نفسها التي ليس ثمّة ما يوجبها إن لم يكن مثل ما يدور بنفسه، ثمّ صمّم أخيرًا على أن يتلمّس سبيله كخبـير قديم. . .

فقال لها برقّة باسمًا:

- خطوة عزيزة!

فقالت في شيء من الارتباك:

- الله يكـرمك، كنت راجعـة إلى البيت فمـررت بالدكّان فتراءى لي أن آخذ لوازم الشهر بنفسي.

فـطن إلى «اعتذارهـا» عن المجيء ولٰكنّـه أبى أن يصدّقه فإن يتراءى لها أن تأخذ لوازم الشهـر بنفسها ليس شيئًا إن لم يكن وراءه دافع، لا سيّما وأنّها تدري بالبداهة والغريزة أنّ مجيئها بعـد «مقدّمـات» الزيـارة القديمة خليق بأن يثير في نفسه الريب، وإن يبدو لعينيه «تمحّكًا» غير خافي الدلالة، فزادته مبادرتها إلى الاعتذار ثقة وقال:

- فرصة طيّبة لأحيّيك ولأكون في خدمتك!

فشكرته في اقتضاب أصغى إليه بنصف انتبـاه إذ شغـل بالتفكـير في الكلمـة التـاليـة، لعلّه كـان من الطبيعيّ أن يعرّج على ذكر الزوج الراحل مترحّمًا ولٰكنّه تحاشى هٰذا الخـاطر أن يفسـد عليـه الجـوّ كلّه، ثمّ تسـاءل: هل يهـاجم أو يمسك حتّى يستـدرجهـا إلى الهجوم؟ لكلّ طريقة لذّاتها. . . بيْـد أنّه لم يشـأ أن ينسى أنّ مجيئها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحقّ حسن الاستقبال من جانبه، فاستطرد قائلًا وكأنّه يتمّم حديثه الأوّل:

- بل فرصة طيّبة كي أراك!

تحرّك الجفنان والحاجبان حركة ربّما دلّت على الحياء أو الارتباك أو كليهما معًا، ولٰكنّها فضحت قبـل كلّ شيء فطنتها إلى مـا وراء مجاملتـه الظاهـرة من معانٍ خفيّة، على أنّـه رأى في حيائهـا استجابـة لشعورهـا البـاطنيّ الذي دفعهـا إلى زيارتـه أكثر منـه استجابـة لقوله، فازداد اطمئنانًا إلى تخمينه الأوّل وراح يؤكّد ما عناه في نغمة رقيقة قائلًا:

- أجل فرصة طيّبة كي أراك.

عند ذاك قالت بلهجة تنمّ عن عتاب حبيس:

- لا أظنّ أنّك تعدّ رؤيتي فرصة طيّبة!

فـوقعت لهجة العتـاب من صدره مـوقـع الـرضى والسرور، لٰكنّه قال كالمحتجّ:

- صدق من قال إنّ بعض الظنّ إثم.

فهزّت رأسها هزّة كمن تقول له «هيهات أن يؤثّر فيّ مثل هٰذا الكلام» وقالت:

- ليس ظنًّا فحسب، إنّي أعني ما أقول، إنّك رجل لا يعوزك الفهم، وأنا كذٰلك وإن تـوهّمت غيره. . . فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه.

ومع أنّ صدور هٰذا الكلام عن امرأة لم يمْضِ على وفاة زوجها شهران أثار في نفسـه شعورًا بـالسخرية والمرارة، فإنّه تطوّع لانتحال الأعذار لها - الأمر الذي لم يكن ليفكّر فيه في ظروف أخرى - قائلًا لنفسه: ما أحرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها، ثمّ تخلّص من شعوره الطارئ بقوّة وقال متصنّعًا الأسى:

- غاضبة عليّ؟! يا له من حظّ سيّئ لا أستحقّه!

فقالت في شيء من الاندفاع ربّما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والردّ:

- قلت لنفسي وأنا في الطريق إليك «ما ينبغي أن

تذهبي». . فلا يحقّ لي الآن أن ألوم إلّا نفسي!

ـ بعض هٰذا الغضب يا ستّ!. . . إنّي أسائل نفسي عمّا جنيت؟!

فتساءلت بلهجة ذات معنى:

ـ ما عسى أن تصنع إذا حيّيت إنسانًا بتحيّة فلم يردّ بمثلها ولا حتّى بأسوأ منها؟!

فأدرك من توّه أنّها تشير إلى ما بدا منها في الزيارة القديمة من تودّد قابله بالصمت، ولٰكنّه تجاهل الإشارة. . . وقال مجاراة لأسلوبها الرمزيّ:

ـ لعلّها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر.

ـ إنّه قويّ السمع والحواسّ جميعًا.

فجرت على فمه ابتسامة عُجْب لم يتمالكها، قال بلهجة المذنب إذا أنشأ يعترف:

ـ لعلّه لم يردّها حياءً أو تقوى.

فقالت بصراحة أعجبته وهزّت فؤاده:

ـ أمّا الحياء فلا حياء له، وأمّا سائر الأعذار فمن أين للقلوب الصادقة أن تباليها؟

فندّت عنه ضحكة ما لبث أن اختزلها وهو يسترق النظر إلى جميل الحمزاوي الذي بدا منهمكًا في العمل بين نفر من الزبائن، ثمّ قال:

ـ لا أحبّ أن أعود إلى الملابسات التي قست عليّ وقتذاك، على أنّه لا يجوز لي أن أيأس ما دام ثمّة ندم وتوبة وعفو!

فتساءلت في إنكار:

ـ من يدرينا بالندم؟

فقال بلهجة حارّة برع في تجويدها عامًا بعد عام:

ـ تجرّعته طويلًا والله شهيد!

ـ والتوبة؟

فقال وهو يتقبها بنظرة متوهّجة:

ـ أن تردّ التحيّة بعشر أمثالها؟!

فتساءلت في دلال:

ـ ومن أدراك بأنّ ثمّة عفوًا؟

فقال بلباقة:

ـ أليس العفو من شيم الكرام؟

ثمّ في نشوة مسكرة:

ـ العفو كثيرًا ما يكون كلمة السرّ لولوج الجنّة.

ثمّ وهو يرنو إلى ابتسامة عذبة لاحت في عينيها:

ـ الجنّة التي أعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين بالنحّاسين، ومن جميل التوفيق أنّ بابها يفتح على عطفة جانبيّة بعيدًا عن أعين الرقباء، وإلّا حارس لها!

وفطن إلى أنّ حارس الجنّة السماويّة سمّي «المرحوم» الذي كان حارسًا للجنّة الأرضيّة التي يتلمّس طريقه إليها، فشاب خاطره ضيق وخاف أن تكون المرأة قد فطنت إلى نفس الحقيقة الساخرة ولٰكنّه وجدها مهومة فيما يشبه الحلم فتنهّد وهو يستغفر الله في سرّه. وكان جميل الحمزاوي قد فرغ من زبائنه، فأقبل على السيّدة ليقضي حوائجها فسنحت للسيّد فرصة للتأمّل، فراح يذكر كيف رغب ابنه فهمي يومًا في خطبة مريم ابنة هٰذه المرأة، ثمّ كيف ألهمه الله الرفض، وقد اعتقد وقتذاك أنّه إنّما ينفّذ مشيئة حرمه فحسب، فلم يدُر له بخلد أنّه جنّب ابنه شرّ مأساة يُنكب بها زوج، وهل يمكن أن تنهج فتاة إلّا على مثال أمّها؟. . . وأيّ أمّ؟. . . امرأة خطيرة!. . . قد تكون جوهرة ثمينة عند أمثاله من الصيّادين، ولٰكنّها في البيوت مأساة دامية، تُرى أيّ طريق سلكت طوال الأعوام التي عاشها زوجها ميّتًا حيًّا؟. . . كلّ القرائن تشير إلى طريق واحد، ولعلّ كثيرين من الجيران يعرفون، بل لعلّه لو كان في بيته من يحسن ملاحظة هٰذه الأمور لما خفي عليه شيء، ولما بقيت زوجه على الولاء لها والإيمان بها حتّى هٰذه الساعة، وعاودته رغبة ـ استحوذت عليه أوّل مرّة عقب الزيارة المريبة القديمة، ولم يجد عندئذ سبيلًا آمنًا إلى تحقيقها دون إثارة الريب ـ وهي أن يحول بين المرأة المستهترة وبين بيته الطاهر، الآن يرى الظرف مهيّئًا ـ لتحقيق رغبته، وذٰلك بأن يوحي لها بقطع أسبابها بزوجه رويدًا رويدًا منتحلًا ما يعنّ له من أعذار حقيقة ببلوغ الهدف دون مساس بكرامتها، هٰذه المرأة التي باتت أقرب ما تكون إلى فؤاده وأبعد ما تكون عن احترامه في لحظة واحدة! ولمّا انتهى الحمزاوي من إعداد حوائجها نهضت مادّة يدها إلى السيّد فسلّم باسمًا وهو يقول بصوت خافت:

ـ إلى اللقاء.

فغمغمت وهي تهمّ بالانصراف:

ـ نحن في الانتظار.

غادرته أوفر سعادة، نشوان بالظفر والعُجب، ولكنّها خلقت له أيضًا همًّا لم يكن، همًّا جديرًا بأن يحتلّ مكانًا بارزًا من مشاغله اليوميّة، سوف يتساءل من الآن فصاعدًا عن آمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذي يتساءل به عمّا فعلت السلطة العسكريّة وعمّا يبيّت الإنجليز وعمّا ينوي سعد، أجل جدّ جديد من السعادة يجرّ وراءه ـ كالعادة ـ ذيلًا من الفكر. لولا حرصه الشديد على حبّ الناس له، ذلك الحبّ الذي يحظى منه بأسعد سعاداته، لهان عليه هجر العالمة بعد أن بلي حبّه وذوت أزاهره وأغرقه الشبع في مستنقع آسن، ولكنّه يشفق دائمًا من أن يترك وراءه قلبًا حانقًا أو نفسًا حاقدة، وكم يودّ كلّما ضيّق الملل أنفاسه لو يبدأه الحبيب بالهجر من ناحيته فيكون مهجورًا بدل أن يكون هاجرًا، وكم يودّ أن تنتهي علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من قبل، بكدر عابر تغسله هدايا الوداع المنتقاة، ثمّ يستحيل إلى صداقة وطيدة، فهل تتقبّل زبيدة ـ التي يظنّ أنّها ليست دونه شبعًا ـ اعتذاره بقبول حسن؟ وهل يطمع في أن تغفر له هداياه ما اعتزم من هجر؟... هل تثبت أنّها امرأة كبيرة القلب سخيّة النفس كزميلتها جليلة مثلًا؟ هٰذا ما ينبغي أن يفكّر فيه طويلًا وأن يهيّئ له أنجع الذرائع. وتنهّد تنهّدة طويلة كأنّما يشكو ما جعل الحبّ فانيًا لا يدوم ليكفي القلب متاعب الأهواء ثمّ شرد به الخيال طاويًا النهار فتراءى له وهو يدبّ في الظلماء متلمّسًا سبيله إلى البيت الموعود، والمرأة تنتظر بيدها سراج.

٥٢

«أعلنت إنجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمّة المصريّة، فهي حماية باطلة لا وجود لها قانونًا بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها...».

كان فهمي يملي الكلمات، كلمة كلمة، في أناة وبصوت واضح النبرات والأمّ وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الإملاء الجديد الذي انكبّ كمال على كتابته، مركّزًا وعيه في ألفاظه من دون أن يفقه معنى كلمة ممّا كتب صوابًا أو خطأ. لم يكن غريبًا أن يلقي فهمي على شقيقه الصغير درسًا في الإملاء أو غيرها في جلسة القهوة، ولكنّ موضوع الإملاء بدا جديدًا حتّى للأمّ وزينب، أمّا ياسين فنظر إلى أخيه مبتسمًا:

ـ أرى هٰذه المعاني قد ملكت عليك نفسك... فلم يفتح الله عليك بإملاء لهٰذا الغلام المسكين إلّا خطبة سياسيّة وطنيّة ينفتح لها المغلق من أبواب السجون.

فبادر فهمي إلى تصحيح رأي أخيه قائلًا:

ـ هي من خطبة سعد أمام سلاطين الاحتلال في جمعيّة الاقتصاد والتشريع.

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة:

ـ وكيف كان ردّهم عليه؟

فقال فهمي بانفعال:

ـ لم يجئ ردّهم بعد، والكلّ يتساءل عنه في حيرة وقلق، إنّها غضبة مزمجرة في وجه أسد لم يؤثر عنه الحلم أو العدل.

ثمّ وهو يتنهّد مغيظًا محنقًا:

ـ كان لا بدّ من غضبة بعد أن مُنع الوفد من السفر، وبعد أن استقال رشدي باشا من الوزارة فخيّب السلطان المأمول بقبول استقالته.

ثمّ مضى إلى حجرته مسرعًا، وعاد وهو يبسط ورقة مطويّة وقدّمها إلى أخيه وهو يقول:

ـ ليست الخطبة كلّ ما عندي، اقرأ هٰذا المنشور الذي يوزّع سرًّا متضمّنًا رسالة الوفد إلى السلطان...

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ:

ـ «يا صاحب العظمة...».

يتشرّف الموقّعون على هٰذا أعضاء الوفد المصريّ أن يرفعوا إلى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمّة ما يلي:

لـمّا اتّفق المحاربون على أن يجعلوا مبادئ الحرّيّة والعدل أساسًا للصلح وأعلنوا أنّ الشعوب التي غيّرت

الحرب مركزها يؤخذ رأيها في حكم نفسها، أخذنا على عاتقنا السعي في استقلال بلادنا والدفاع عن قضيّتها أمام مؤتمر السلام ما دام أنّ الحقّ للأقوى قد زال من ميدان السياسة، وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركيّة حرّة من كلّ حقّ عليها لأنّ الحماية التي أعلنها الإنجليز بلا اتفّاق بينهم وبين الأمّة المصريّة باطلة، ولم تكن في الواقع إلّا ضرورة حربيّة تزول بزوال الحرب، اعتمادًا على هٰذه الظروف وعلى أنّ مصر غرّمت كلّ ما قدرت عليه من المغارم في صفّ القائلين بحقّ حرّيّة الأمم الصغرى، لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحرّيّتنا السياسيّة جريًا على المبادئ التي أسّس عليها.

عرضنا رغبتنا في السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدي باشا، فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقًا منه بأنّنا إنّما نعبّر عن رأي الأمّة كافّة... فلمّا لم يُسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوّة الاستبداد لا بقوّة القانون، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضيّة هٰذه الأمّة الأسيفة، ولمّا لم يستطع دولته أن يحتمل مسئوليّة البقاء في منصبه في حين أنّ الشعب يصادَرُ في مشيئته، استقال هو وزميله صاحب المعالي عدلي يكن باشا استقالة نهائيّة قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيّتهما.

ولقد كان الناس يظنّون أنّه كان لهما في وقفتهما الشريفة دفاعًا عن الحرّيّة عضد قويّ من نفحات عظمتكم، لذٰلك لم يكن ليتوقّع أحد في مصر أن يكون آخر حلّ لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين، لأنّ في ذٰلك متابعة للطامعين في إذلالنا وتمكينًا للعقبة التي ألقيت في سبيل الإدلاء بحجّة الأمّة إلى المؤتمر، وإيذانًا بالرضى بحكم الأجنبيّ علينا إلى الأبد.

قد نعلم أنّ عظمتكم ربّما كنتم مضطرّين لاعتبارات عائليّة أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذي خلا بانتقال أخيكم المغفور له السلطان حسين، ولٰكنّ الأمّة من جهة أخرى كانت تعتقد أنّ قبولكم هٰذا العرش في زمن الحماية الوقتيّة الباطلة رعاية لتلك الظروف العائليّة ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم، غير أنّ حلّ المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرا احترامهما لإرادة الأمّة لا يمكن أن يتّفق مع ما جُبلتم عليه من حبّ الخير لبلادكم، والاعتداد بمشيئة شعبكم، لذٰلك عجب الناس من مستشاريكم كيف أنّهم لم يلتفتوا إلى الأمّة في هٰذا الظرف العصيب وهي إنّما تطلب منكم - يا أرشد أبناء محرّرها الكبير محمّد عليّ - أن تكونوا لها العون الأوّل على نيل استقلالها، مهما كلّفكم ذٰلك، فإنّ همّتكم أرفع من أن تحدّدها الظروف. كيف فات مستشاريكم أنّ عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصريّ ذي كرامة وطنيّة أن يخلفه في مركزه؟!... كيف فاتهم أنّ وزارة تؤلّف على برنامج مضادّ لمشيئة الشعب مقضيّ عليها بالفشل؟!

عفوًا مولانا قد تكون مداخلتنا في هٰذا الأمر وفي غير هٰذا الظرف غير لائقة... ولٰكنّ الأمر قد جلّ الآن عن أن يُراعى فيه أيّ اعتبار غير منفعة الوطن الذي أنت خادمه الأمين. إنّ لمولانا أكبر مقام في البلاد فعليه أكبر مسئوليّة عنها، وفي أكبر رجاء لها، وإنّنا لا نكذِبه النصيحة إذا تضرّعنا إليه أن يتعرّف رأي أمّته قبل أن يتّخذ قرارًا نهائيًا في أمر الأزمة الحاليّة، فإنّنا نؤكّد لسدّته العليّة أنّه لم يَبْقَ أحد في رعاياه من أقصى البلاد إلى أقصاها إلّا وهو يطلب الاستقلال، فالحيلولة بين الأمّة وبين طلبتها مسئوليّة لم يتحرّ مستشارو مولانا أمرها بالدقّة الواجبة، لذٰلك دفعنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدّته شعور أمّته التي هي الآن أشدّ ما تكون رجاء في استقلالها وأخوَف ما تكون من أن تلعب به أيدي حزب الاستعمار، والتي تطلب إليه بحقّها عليه أن يغضب لغضبها ويقف في صفّها فتنال بذٰلك غرضها... وأنّه على ذٰلك قدير...».

رفع ياسين رأسه عن المنشور وفي عينيه ذهول وفي قلبه نبض جديد من التأثير، بيْد أنّه هزّ رأسه قائلًا:

- يا له من خطاب!... لا أحسبني أستطيع أن أوجّه مثله إلى ناظر مدرستي دون أن ينالني العقاب الرادع...!

فرفع فهمي منكبيه استهانة وقال:

ـ الأمر قد جلّ الآن عن أن يراعى فيه أيّ اعتبار غير منفعة الوطن...!

ردّد العبارة عن ظهر قلب كما وردت في المنشور، فلم يتمالك ياسين أن يقول ضاحكًا:

ـ احفظت المنشور!... ولٰكنّي لا أعجب لهٰذا، كأنّك كنت تترصّد طول حياتك لمثل هٰذه الحركة كي تلقي إليها بكلّ قلبك، ولعلّي لا أخلو من مثل شعورك وآمالك، ولٰكنّي لا أقرّك على الاحتفاظ بهٰذا المنشور... خصوصًا بعد استقالة الوزارة وتحرّش الأحكام العرفيّة...!

فقال فهمي في فخار:

ـ إنّي لا أحتفظ بها فحسب، ولٰكنّي أقوم بتوزيعها ما سمح الجهد...!

فاتّسعت عينا ياسين في قلق وهمّ بالكلام... ولٰكنّ الأمّ كانت أسبق إليه منه فقالت بانزعاج:

ـ لا أكاد أصدّق أذنيّ، كيف تعرّض نفسك للشرّ وأنت سيّد العقلاء؟!

لم يدْرِ فهمي كيف يجيبها، ولٰكنّه شعر بما جرّه عليه تهوّره من حرج، لم يكن أشفق عليه من محادثتها في هٰذا الأمر، كانت السماء أقرب إليه من إقناعها بأنّ تعريض نفسه للخطر في سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كلّه لا يساوي في نظرها قُلامة ظفر، بل قد بدا له أنّ إخراج الإنجليز من مصر أيسر من حملها على الاقتناع بوجوب إخراجهم أو إغرائها ببغضهم، فما إن يدور الحديث حول ذٰلك حتّى تقول ببساطة «لماذا تكرههم يا بنيّ!... أليسوا أناسًا مثلنا لهم أبناء وأمّهات؟!» فيقول لها بحدّة: «ولٰكنّهم يحتلّون بلادنا!»... وتحسّ بحدّة الغضب في نبراته فتلوذ بالصمت وهي تداري نظرة إشفاق لو نطقت لقالت له «لا عليك من هٰذا»... ومرّة قال لها وقد ضاق بمنطقها: «لا حياة لقوم إذا حكمهم أجنبيّ» فقالت له في استغراب «ولٰكنّا لا نزال أحياء رغم أنّهم يحكموننا من زمن بعيد، وقد أنجبتكم جميعًا في ظلّ حكمهم!... إنّهم يا بنيّ لا يقتلون ولا يتعرّضون للمساجد ولا تزال أمّة محمّد بخير!» فقال الشابّ يائسًا: «لو كان سيّدنا محمّد حيًّا ما رضي أن يحكمه الإنجليز» فقالت بلهجة الحكيم: «هٰذا حقّ، ولٰكن أين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام؟... كان الله يعينه بملائكته...» فهتف بها حانقًا: «سيعمل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله» ولٰكنّها هتفت وهي ترفع ذراعيها كأنّما تدفع بلاء لا دافع له: «لا تقل هٰذا يا بنيّ، استغفر ربّك، اللّٰهمّ رحمتك وغفرانك!»... هٰذه هي، فكيف يجيبها الآن وقد استشعرت في توزيع المنشور خطرًا يتهدّده؟... لم يسعه إلّا أن يركن إلى الكذب فقال متصنّعًا الاستهانة:

ـ ما أردت إلّا المزاح فلا تنزعجي للاشيء...

فعادت المرأة تقول بنبرات تنمّ عن ضراعة:

ـ هٰذا ما أومن به يا بنيّ، هيهات أن يخيب ظنّي في أرشد الراشدين، ما لنا نحن وهٰذه الأمور! إذا رأى باشواتنا أن يخرج الإنجليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم.

بدا كمال طوال الحديث وكأنّه يحاول أن يتذكّر أمرًا ذا بال، فما بلغ الحديث تلك النقطة حتّى صاح:

ـ مدرّس العربي قال لنا بالأمس إنّ الأمم تستقلّ بعزائم أبنائها!...

فهتفت الأمّ ساخطة:

ـ لعلّه قصد بخطابه كبار التلاميذ، ألم تحدّثني يومًا بأنّ عندكم تلاميذ قد ظهرت شواربهم؟

فتساءل كمال بسذاجة:

ـ وأخي فهمي أليس تلميذًا كبيرًا؟

فقالت الأمّ بحدّة على غير مألوفها:

ـ كلّا ليس أخوك كبيرًا، إنّي أعجب لذٰلك المدرّس كيف سوّلت له نفسه أن يتحدّث إليكم في غير الدرس!... إذا شاء أن يكون وطنيًّا فليوجّه هٰذا الكلام إلى أبنائه في البيت لا إلى أبناء الناس!...

كاد الحديث يحمّس ويستمرّ لولا أن سنحت كلمة عابرة فغيّرت مجراه، أرادت زينب أن تتودّد إلى الأمّ بتأييدها في دفاعها فحملت على مدرّس العربي ونعتته بأنّه «مجاور حقير عملت الحكومة منه رجلًا ذا شأن في

غفلة من الزمان». . . ولٰكن ما إن سمعت الأمّ هٰذه الإهانة توجّه إلى «المجاور» حتّى أفاقت من انفعالها وأبت أن تسكت عنها رغم أنّها قبلت تأييدًا لها، مدفوعة بكلّ ما تنطوي عليه نفسها من إجلال لذكرى أبيها فتحوّلت إلى زينب وقالت بهدوء:

ـ أنت يا ابنتي تحقّرين أشرف ما فيه، الشيوخ خلفاء الرسل، إنّما يلام الرجل على خروجه عن حدود وظيفته الشريفة، ألا ليته قنع بأن يكون مجاورًا وشيخًا! . . .

ولم يفت ياسين سرّ تحوّل الأمّ المفاجئ، فبادر بالتدخّل ليمحو الأثر الذي تركه دفاع زوجته البريء. . .

٥٣

ـ انظر إلى الطريق، انظر إلى الناس، من يقول بعد هٰذا إنّ الكارثة لم تقع؟!

ولٰكنّ السيّد أحمد لم يكن في حاجة إلى مزيد من النظر، الناس يتساءلون، ويرجفون، وأصحابه يخوضون في الحديث خوضًا حارًّا تجاوبت فيه الحسرة مع الحزن مع الغضب، إلى أنّ الخبر قد تردّد على ألسنة كافّة من مرَّ به من الأصدقاء والزبائن، أجمع الكلّ على أنّ سعد زغلول وصفوة أصحابه قد اعتُقلوا وسيقوا إلى مكان مجهول في القاهرة أو خارجها، قال السيّد عفّت وهو محتقن الوجه بدم الحنق:

ـ لا تشكُّوا في صحّة الخبر فإنّ لأخبار السوء رائحة تزكم الأنوف. . . ألم يكن هٰذا متوقّعًا بعد خطاب الوفد للسلطان؟ . . . أو بعد ردّه على الإنذار البريطانيّ بذٰلك الخطاب الجبّار إلى الوزارة الإنجليزيّة؟! . . .

فقال السيّد بوجوم شديد:

ـ يعتقلون الباشوات الكبار! . . . يا له من حدث مخيف، تُرى ما عسى أن يصنعوا بهم؟

ـ الله وحده يعلم، البلد يختنق في ظلّ الحكم العرفيّ. . .

ودخل عليهم السيّد إبراهيم الفار تاجر النحاس مهرولًا وهو يهتف لاهثًا:

ـ أما سمعتم بآخر الأنباء؟! . . . مالطة!

وضرب يدًا بيد وراح يقول:

ـ النفي إلى مالطة، لم يعد أحد منهم بيننا، نفوا سعدًا وأصحابه إلى جزيرة مالطة. . .

وهتف الجميع في نَفَس واحد:

ـ نفوهم! . . .

أثار «النفي» في نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة أسيفة عن عرابي باشا ونهايته، فتساءلوا وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع: أيجري نفس المصير على سعد زغلول وصحبه؟ . . . أينقطع حقًّا ما بينهم وبين الوطن إلى الأبد؟ . . . أتموت هٰذه الآمال الكبار وهي لا تزال في مهد الإزهار؟ . . . وشعر السيّد بحزن لم يشعر بمثله من قبل، حزن ثقيل غليظ شاع في صدره كما يشيع الغثيان، عانى تحت وطأته خمودًا وهمودًا واختناقًا وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة، ناطقة بغير لسان، صارخة بلا صوت، ثائرة بلا صخب، وفي الريق مرارة واحدة، ثمّ جاء في أثر الفار صاحب وثانٍ وثالث مردّدين نفس النبأ، آملين في أن يجدوا عند الآخرين مسكّنًا لما يستعر في نفوسهم، فلا يظفرون إلّا بالحزن الصامت والوجوم الكئيب والثوّران الكظيم.

ـ هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس؟

فلم يُجِزْ أحد جوابًا، ولبث المتسائل يقلّب عينيه في الوجوه دون جدوى، لا جواب تأوي إليه النفس من مضطرَبها وإن أبت أن تسلّم جهارًا بما يميتها خوفًا، نفي سعد. . . هٰذا حقّ، ولٰكن هل يعود سعد ولو بعد حين؟ . . . وكيف يعود سعد؟ . . . أيّة قوّة تعيده؟ لن يعود سعد، فأين تذهب هٰذه الآمال العراض؟. لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة حارّة عميقة يأبى استحواذُها عليهم أن يسلّمهم لليأس ولٰكنّهم لا يدرون كيف يعلّلون النفس ببعثها من جديد.

ـ ولٰكن أليس ثمّة أمل في أن يكون الخبر شائعة كاذبة؟

لم يُعِرْ أحد القائل التفاتًا في حين لم يحفل هو بهٰذا التجاهل لأنّه لم يقصد بقوله في الحقّ إلّا تلمّس

مهرب ـ ولو وهميّ ـ من اليأس الخانق.

ـ أسرَه الإنجليز... ومن ذا يغالب الإنجليز!

ـ رجل ولا كلّ الرجال، بعث لحظة من الحياة باهرة، ومضى.

ـ كالحلم... وسوف يُنسى فلا يبقى منه إلّا ما يبقى من حلم عند الضحى...

وهتف هاتف بصوت أبحّه الألم:

ـ الله موجود...

فهتفوا بصوت واحد:

ـ نعم... وهو أرحم الراحمين...

ذكر اسم الله فكان كالقطب الممغنط، جذب إليه شواردهم وجمع أفكارهم التي شتّتها اليأس. وفي مساء ذٰلك اليوم ـ ولأوّل مرّة منذ ربع قرن أو يزيد ـ بدا مجلس الإخوان مجافيًا للّهو والطرب يغشاه الوجوم، وتتّجه أحاديثه جميعًا إلى الزعيم المنفيّ. قهرهم الحزن، وإن يكن وُجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة في الشراب مثلًا، فقد غلّب الأولى على الثانية احترامًا للشعور العامّ ومجاراة للموقف، بيْد أنّه لـمّا طال بهم مطال الحديث حتّى استنفدوا أغراضه لاذوا بما يشبه الصمت، وما لبث أن ركبَهم قلق خفيّ وشى بحكّة الإدمان التي تئنّ في أعماقهم فبدوا وكأنّهم ينتظرون إشارة الجسور الذي يتقدّم الصفوف، ولٰكنّ السيّد محمّد عفّت قال فجأة:

ـ آن لنا أن نعود إلى بيوتنا...

لم يكن يعني ما يقول، ولٰكن كأنّما أراد أن ينذرهم بأنّهم إذا تركوا الوقت يمضي كما مضى فلن يبقى أمامهم إلّا أن يعودوا إلى بيوتهم، وكانت المعاشرة الطويلة لقّنتهم دقيق التفاهم بالإشارة فتشجّع عليّ عبد الرحيم بائع الدقيق بهٰذا الإنذار الخفيّ وقال:

ـ أنعود إلى البيت دون كأس تخفّف من بلوى هٰذا اليوم!

فأحدث قوله في النفوس ما يحدثه الجرّاح في أهل المريض إذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول «الحمد لله... نجحت العمليّة»، إلّا أنّ الذي تنازعه الحزن والرغبة في الشراب قال فيما يشبه الاحتجاج متستّرًا على ما أثلج صدره من ارتياح:

ـ نشرب في مثل هٰذا اليوم؟!

فحدجه السيّد أحمد بنظرة ذات معنًى، ثمّ قال متهكّمًا:

ـ دعهم يشربوا وحدهم وهلمّ بنا إلى الخارج يا بن... الكلب.

ندّت عنهم ضحكات لأوّل مرّة ثمّ جاءوا بالقوارير وكأنّما أراد السيّد أن يعتذر عن السلوك فقال:

ـ إنّ اللهو لا يغيّر ما بقلوب الرجال!

فأمّنوا على قوله، كانت أوّل ليلة يتردّدون طويلًا قبل الاستجابة إلى نداء الصبَوات، وما لبث السيّد أن قال متأثّرًا بمنظر القوارير:

ـ إنّما ثار سعد لإسعاد المصريّين لا لتعذيبهم فلا تخجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب.

لم يكن الحزن يمنعه من المزاح، بيْد أنّ الليلة لم تهنأ بصفاء خالٍ من الكدر، حتّى وصفها السيّد فيما بعد بأنّها «ليلة مريضة تداووا فيها بجرعات من الخمر!»

* * *

استقبلت الأسرة مجلسها التقليديّ في جوّ من الوجوم لم تعهده من قبل، انطلق فهمي في حديث ثوريّ والدموع في عينيه، واستمع ياسين آسفًا حزينًا، وودّت الأمّ أن تبدّد الكآبة أو تخفّف البلوى ولٰكنّها أشفقت من انقلاب غرضها عليها، ثمّ ما لبثت عدوى الحزن أن انتقلت إليها فرقّ قلبها للشيخ العجوز الذي انتزعوه من بيته وزوجته إلى منفًى بعيد، قال ياسين:

ـ أمر محزن، رجالنا جميعًا، عبّاس ومحمّد فريد وسعد زغلول... مشرّدون بعيدًا عن الوطن...

فقال فهمي بانفعال شديد:

ـ يا لهم من أوغاد هٰؤلاء الإنجليز!... نخاطبهم باللغة التي كانوا يستعطفون بها الناس في محنتهم فيجيبون بالإنذارات العسكريّة والنفي والتشريد...

لم تُطِق الأمّ أن ترى ابنها منفعلًا على تلك الحال فنسيت مأساة الزعيم وقالت برقّة واستعطاف:

ـ ارحم نفسك يا بنيّ، ربّنا يلطف بنا...!

ولٰكن هٰذه اللهجة الرقيقة زادته هياجًا فصاح دون

أن يلتفت إليها:

ـ إذا لم نقابل الإرهاب بالغضب الذي يستحقّه فلا عاش الوطن بعد اليوم، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذي قدّم نفسه فدية لها يعاني عذاب الأسر. . . !

فقال ياسين متفكّرًا:

ـ من حسن الحظّ أنّ الباسل باشا بين المنفيّين، إنّه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا أظنّ رجاله يسكتون على نفيه. . .

فقال فهمي بحدّة:

ـ والآخرون؟ أليس وراءهم رجال أيضًا؟. . . إنّها ليست قضيّة قبيلة ولكنّها قضيّة الأمّة كلّها. . .

جرى الحديث بلا توقّف وما يزداد إلّا حدّة وعنفًا ولكنّ المرأتين لاذتا بالصمت إشفاقًا ورعبًا، لم تستطع زينب أن تدرك بواعث هٰذه الثورة العاطفيّة فلم تفهم لها معنًى، نفي سعد ورجاله معه، ومن المؤكّد أنّهم لو عاشوا كما يعيش «عباد الله» ما فكّر أحد في نفيهم، ولكنّهم لم يريدوا ذٰلك، أرادوا أمورًا خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمّة ضرورة تدعو إليها، ومهما يكن من أمرهم فماذا يبعث فهمي على هٰذا الغضب الجنونيّ كأنّ سعدًا أبوه أو أخوه؟! بل ماذا بعث ياسين ـ وهو الرجل الذي لا يأوي إلى فراشه إلّا مترنّحًا من السكر ـ على هٰذا الأسف؟! أيحزن حقًّا من كان مثله على نفي سعد أو غيره من الناس؟! كأنّ حياتها في حاجة إلى مزيد من التنغيص حتّى يعكّر فهمي عليها صفو الجلسة القصيرة بهٰذه الثورة التي لا معنى لها. جعلت تفكّر في هٰذا كلّه وهي تلحظ زوجها من آنٍ لآخر متعجّبة ساخطة ولسان حالها يقول له: «إن كنت صادقًا حقًّا في حزنك فلا تذهب هٰذا المساء ـ هٰذا المساء فقط إلى الحانة؟» ولكنّها لم تنبس بكلمة، كانت أحكم من أن تلقي بأفكارها الباردة في هٰذا التيّار الناريّ. في هٰذه الناحية الأخيرة شابهتها الأمّ التي سريعًا ما تفقد شجاعتها حيال الغضب وإن هان، لذٰلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهي تتابع مشفقة الحديث الثائر الهائج، ولكنّها كانت أعظم من زوج ياسين إدراكًا لبواعث هٰذه العواصف فإنّ رأسها لم يَخْلُ من ذكرى عرابي كما أنّ قلبها لم يَخْلُ من أسف على أفندينا، أجل لم تكن كلمة «النفي» عاطلة من المعاني في نفسها، بل لعلّها خلت من الأمل الجدير بأن يداعب شخصًا كفهمي فقد اقترنت في ذهنها ـ كما اقترنت في ذهن زوجها وأصحابه ـ باليأس من العودة، وإلّا فأين أفندينا؟. . . ومَن أجدر منه بالعودة إلى وطنه؟. . . ولٰكن أيظلّ فهمي على حزنه ما امتدّ النفي بسعد. تُرى أيّ نحس في هٰذه الأيّام يأبى إلّا أن يبيّتهم بنبأ ويصبّحهم بنبأ حتّى زلزل أمنهم وكدّر صفوهم؟! كم تتمنّى أن يعود السلام إلى ربوعه، وأن تطيب هٰذه الجلسة كما طابت العمر كلّه، وأن تنبسط أسارير فهمي ويلذّ الحديث، كم تتمنّى. . .

ـ مالطة. . . ! هٰذه هي مالطة!

هٰكذا صاح كمال فجأة وهو يرفع رأسه عن خريطة البحر الأبيض وقد ثبّت أصبعه على رسم الجزيرة ونظر إلى أخيه بظفر وسرور كأنّما عثر على سعد زغلول نفسه، ولٰكنّه وجد منه وجهًا متجهّمًا كالحًا، لا استجاب إلى ندائه ولا أعاره أدنى اهتمام فباخ الغلام وأعاد بصره إلى رسم الجزيرة في ارتباك وحياء، ومضى يتأمّله طويلًا وهو يقيس ببصره المسافة بينه وبين الإسكندريّة وبينه وبين القاهرة ويتخيّل صورة مالطة الحقيقيّة ما شاء له الخيال، ومنظر أولٰئك الرجال الذين يتحدّثون عنهم وهُمْ مسوقون إليها. ولـمّا كان قد سمع فهمي وهو يقول عن سعد إنّ الإنجليز قد انتزعوه على أسنّة الرماح فإنّه لم يسعه أن يتصوّره إلّا محمولًا على أسنّة الرماح، لا متألّـمًا أو صارخًا كما يتوقّع في مثل تلك الحال ولٰكن «ثابتًا كالطَّوْد» كما وصفه أخوه أيضًا في مرحلة أخرى من الحديث، وكم ودّ لو يستطيع أن يسائل أخاه عن كُنْه ذٰلك الرجل الساحر العجيب الذي يثبت على أسنّة الرماح كالطَّود، ولٰكنّه حيال ثورة الغضب التي التهمت سلام المجلس كلّه أجّل تحقيق رغبته إلى فرصة أنسب، وأخيرًا ضاق فهمي بمجلسه بعد أن أيقن أنّ ما بصدره من عاطفة أكبر من أن تروّح عنها محادثة أخيه في هٰذا المكان الذي يقف من

شعوره موقف المتفرّج إن لم يكن موقف الإنكار، نازعته نفسه إلى الاجتماع بإخوانه في قهوة أحمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه إلى الإعراب عمّا يضطرم في قرارتها من الإحساس والرأي، هناك يسمع أصداء الغضب المتّقد في قلبه ويستأنس بإيحاءاته الجسورة الملتهبة في جوّ باهر من التعطّش إلى الحرّيّة الكاملة، مال إلى أذن ياسين وهمس:

- إلى قهوة أحمد عبده...

فتنفّس ياسين من الأعماق لأنّه كان بدأ يتساءل وهو من الحرَج في غايته - عن وسيلة لَبِقَة ينسحب بها من المجلس، ليمضي إلى سهرته، دون أن يزيد من غضب فهمي اشتعالًا، لم يكن ما به من أسف تصنّعًا، أو لم يكن تصنّعًا كلّه، هزّ النبأ الخطير قلبه، ولكنّه لو تُرك إلى نفسه لتناساه بغير جهد كبير، ولمّا فرض على أعصابه ما فرض من تكلّف مجاراة لفهمي ومجاملة له واحترامًا لغضبه الذي لم يسبق له أن رآه على مثله من قَبْل، غادر الحجرة وهو يقول لنفسه: «حسبي اليوم ما بذلت من جهد في سبيل الحركة الوطنيّة فإنّ لبدني عليّ حقًّا».

٥٤

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتح فهمي عينيه، كانت الحجرة مغلقة النوافذ، في شبه ظلام إلّا ما لاح من نور باهت وراء خصاص النوافذ، ترامى إلى أذنيه همس أنفاس كمال المتردّدة فعطف رأسه إلى فراشه القريب، ثمّ انثالت عليه ذكريات الحياة، هٰذا صباح جديد، إنّه يستيقظ من نوم عميق سلّمه إلى تعب شمل النفس والجسم، وإنّه لا يدري إن كان يستيقظ صباح الغد بهٰذا الفراش أم لا يستيقظ أبدًا، لا يدري ولا أحد يدري، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولًا وعرضًا ويرقص في أركانها، يا للعجب، ها هي أمّه تعجن كعهدها منذ قديم، وها هو كمال يغطّ في نومه ويتقلّب في أحلامه، وذاك ياسين يدلّ وقع قدميه فوق سقف الحجرة على أنّه انتزع نفسه من الفراش، أمّا أبوه فلعلّه الآن منتصب القامة تحت ماء الدشّ البارد، وها هو نور الصباح ذو البهاء والحياء تستأذن طلائعه في رقّة بالغة، كلّ شيء يواصل حياته المعهودة كأنّ شيئًا لم يحدث، كأنّ مصر لم تنقلب رأسًا على عقب، كأنّ الرصاص لا يعزف باحثًا عن الصدور والرءوس... كأنّ الدم الزكيّ لا يخضّب الأرض والجدران. وأغمض الشابّ عينيه وهو يتنهّد مبتسمًا إلى تيّار مشاعره الزاخر بما يحمل في موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وإيمان. حقًّا لقد حيي في الأيّام الأربعة المنطوية حياة عريضة لم يكن له بها عهد من قبل، أو أنّه لم يعرفها إلّا أطيافًا في أحلام اليقظة، حياة طاهرة رفيعة، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر في سبيل شيء باهر أثمن منها وأجلّ، تتعرّض للموت بلا مبالاة، وتستقبله بعناد، وتهجم عليه باستهانة، وإذا أفلتت مخالبه مرّة عادت إليه كرّة أخرى متنكّبة عن ذكر العواقب جانبًا، شاخصة طوال الوقت إلى نور رائع عنه لا تحيد، مدفوعة بقوّة لا قِبَل لها بها، مسلّمة مصيرها لله وهي تشعر به محيطًا بها كالهواء يغمرها من كلّ جانب. هانت الحياة كوسيلة حتّى لم تعد تزن ذرّة، وجلّت كغاية حتّى وسعت السماوات والأرض، تآخى الموت والحياة فكانا يدًا واحدة في خدمة أمل واحد، هٰذه تؤيّده بالجهاد وذاك يؤيّده بالفداء، لو أنّ الانفجار الرهيب لم يقع لمات غمًّا وكمدًا، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهادئ الوئيد على أطلال الرجال والآمال، كان لا بدّ من انفجار ينفّس عن صدر الوطن وصدره كالزلزال الذي ينفّس عن أبخرة باطن الأرض المتجمّعة، فلمّا وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فألقى بنفسه في خِضَمّها... متى حدث هٰذا؟... وكيف حدث؟... كان راكبًا ترام الجيزة في طريقه إلى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلّاب يتناقشون ملوّحين بقبضاتهم: نفي سعد وهو يعبّر عن قلوبنا فإمّا أن يعود سعد ليواصل جهاده وإمّا أن ننفى معه، وانضمّ الراكبون من الأهالي إليهم في الحديث والوعيد حتّى الكمساري أهمل عمله ووقف ينصت ويتكلّم، يا لها من

ساعة!... فيها أشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من الحزن واليأس قاتمة، فأيقن أنّ هٰذه النار المتّقدة لن تبرد، ولـمّا أقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظًّا صاخبًا مرعدًا فسبقتهم قلوبهم إليه، ثمّ هرعوا إلى زملائهم تحدّثهم نفوسهم بحدث وشيك، وما لبث أن انبرى أحدهم مناديًا بالإضراب!... شيء جديد لم يسمع من قبل، بيد أنّهم هتفوا بالإضراب وهم يتأبّطون كتب القانون، وجاءهم ناظرهم المستر والتون في لطف غير معهود ونصحهم بالدخول إلى الفصول فكان الجواب أن صعد شابّ منهم إلى أعلى السلّم المفضي إلى حجرة السكرتير وراح يخطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر إلّا الانسحاب. وأنصت إلى الخطيب بمجامع روحه وعيناه شاخصتان إلى عينيه، وقلبه يتابع دقّاته في سرعة ونشاط، ثمّ ودّ لو يصعد إلى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر، ولٰكنّه لم يكن ذا استعداد قويّ للخطابة فقنع بأن يردّد غيره هواتف نفسه، وتابع الخطيب بانتباه حماسيّ حتّى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعًا في نفس واحد «يحيا الاستقلال» ثمّ تابع الإنصات باهتمام بثّ الهتاف فيه حيويّة جديدة حتّى انتهى الخطيب إلى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين «لتسقط الحماية» ووالى الإصغاء بجسم متصلّب من الانفعال وهو يعضّ على أسنانه ليحبس الدمع الذي زفره جيّشان نفسه حتّى إذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين «يحيا سعد»، هتاف جديد، وكلّ شيء جديدًا بدا ذٰلك اليوم، بيْد أنّه هتاف مطرب رجّعه قلبه من الأعماق وظلّ يردّده مع دقّاته المتتابعة، كأنّه صدًى للسانه، بل هتاف لسانه كان صدًى لقلبه، فإنّه ليذكر كيف ردّد قلبه هٰذا الهتاف في صمت مكظوم طوال الليلة السابقة للانفجار التي باتها مغمومًا محسورًا، كانت عواطفه المكبوتة، حبّه وحماسه وطموحه وتطلّعه إلى المثل الأعلى وأحلامه تائهة مبعثرة حتّى انطلق صوت سعد مدوّيًا فانجذبت طائرة إليه كما ينجذب الحمام السابح في الفضاء إلى صفير صاحبه، ثمّ لا يدرون إلّا والمستر إيموس نائب المستشار القضائيّ البريطانيّ لوزارة الحقّانيّة يشقّ طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد «لتسقط الحماية... لتسقط الحماية» فتلقّاهم الرجل ببرود لم يخرق به حدّ اللطف ونصحهم بالعودة إلى دروسهم داعيًا إيّاهم إلى ترك السياسة إلى آبائهم، هناك تصدّى له أحدهم قائلًا:

ـ إنّ آباءنا قد سُجنوا، ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون.

وتعالى الهتاف من أعماق القلوب كهزيم الرعد فانسحب الرجل. ودّ الشابّ مرّة ثانية لو كان هو القائل، لشدّ ما تنثال المعاني على روحه ولٰكن يسبقه السابقون إلى إعلانها فيشتدّ حماسة ويتعزّى بأنّ فيما ينتظره عوضًا عمّا يفوته، وجرت الأمور سراعًا، دعا الداعي إلى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجّهوا إلى مدرسة المهندسخانة فسرعان ما انضمّت إليهم ثمّ إلى الزراعة فهرع طلبتها إليهم هاتفين كأنّهم على ميعاد، ثمّ إلى الطبّ فالتجارة وما بلغوا ميدان السيّدة زينب حتّى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمّت إليها جموع الأهالي وتعالى الهتاف لمصر والاستقلال وسعد، وكلّما تقدّموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة وإيمانًا بما يلقون في كلّ مكان من مشاركة تلقائيّة واستجابة بديهيّة، وما يصادفون من نفوس متحفّزة تصدّعت بالغضب حتّى وجدت في مظاهرتهم المُتنفَّس. تساءل ـ ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه ـ «كيف حدث هٰذا كلّه!؟». لم تكن مضت إلّا بضع ساعات على الصباح الذي شهد قنوطه وانهزامه، ها هو الآن، قبيل الظهر، يشترك في مظاهرة ثائرة يكاشفه فيها كلّ قلب بأنّه صدًى لقلبه، ويردّد هتافه، ويناشده بإيمان لا يتزعزع أن يسير إلى النهاية، فأيّ سرور سروره، وأيّ حماس حماسه!... لقد انطلقت روحه في سماء من الأمل لا تحدّها الآفاق، نادمة على ما اعتورها من قنوط، خجلة بما رمت به الأبريله من ظنون، وفي ميدان السيّدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب. رأى مع الرائين جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتّش إنجليزيّ تتقدّم ساحبة وراءها ذيولًا من الغبار، والأرض تضطرب

تحت وقع السنابك، إنّه ليذكر كيف مدّ بصره نحوهم في ذهول مَنْ لم يسبق له أن وجد نفسه عرضة لمثل ذٰلك الخطر الداهم، وتلفّت فيما حوله فرأى وجوهًا يلمع في محاجرها الحماس والغضب فتنهّد في عصبيّة ولوّح بيده هاتفًا، أحاط الفرسان بجموعهم ولم يعد يرى من الخضمّ الهائل الذي يضطرب فيه إلّا رقعة محدودة يغرق في رءوسها المشرئبّة، ثمّ ترامى إليهم أنّ البوليس اعتقل طلّابًا كثيرين ممّن تصدّوا لمخالفته أو كانوا على رأس المظاهرة فللمرّة الثالثة ذٰلك اليوم تمنّى، وكان تمنّيه أن يكون بين المعتقلين ولٰكن من دون أن يخرج من الدائرة التي يتحرّك فيها بجهد جهيد.

على أنّ ذاك اليوم كان يوم سلام بالقياس إلى اليوم الذي تلاه، بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم إضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامها وحشود من الأهالي لا يحيط بها الحصر، بُعثت مصر بلدًا جديدًا يبكّر إلى الاحتشاد في الميادين للحرب بغضب طال كتمانه، وألقى هو بنفسه بين الجموع في نشوة فرح وحماس كأنّه تائه ضالّ عثر على أهله بعد فراق طويل، وسارت المظاهرة مسيرًا مشهودًا مارّة بدور المعتمَدين السياسيّين معلنة احتجاجها بمختلف اللّغات، حتّى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم: «الإنجليز!» وما لبث أن فرقع الرصاص مغطّيًا على أصوات الهاتفين فسقط أوّل القتلى، وواصل قوم تقدّمهم في حماس جنونيّ، وتسمّر آخرون، وتفرّق كثيرون يلُوذون بالبيوت والمقاهي، وكان هو ضمن الآخِرين، اندسّ وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعة متناسيًا كلّ شيء إلّا حياته، ولبث على ذٰلك زمنًا لا يدريه حتّى شمل السكون الدنيا جميعها فمدّ رأسه، ثمّ قدّمه، ومضى إلى حال سبيله غير مصدّق بالنجاة وعاد إلى بيته فيما يشبه الذهول، وفي وحدته الحزينة تمنّى لو كان من الذاهبين أو في الأقلّ من الثابتين، وفي وقدة الحساب العسير وعد ضميره الفظّ بالتكفير، ومن حسن الحظّ أن بدا ميدان التكفير متّسعًا وقريبًا.

وجاء الثلاثاء والأربعاء فكانا كالأحد والاثنين، أيّام متشابهات في أفراحها وأحزانها، مظاهرات فهتاف فرصاص فضحايا، ألقى بنفسه في خضمّها جميعًا يندفع بحماس، ويسمو إلى آفاق بعيدة من الإحساس النبيل، ويضطرب بالحياة ويعضّه ندم على النجاة! ثمّ ضاعف من حماسه وأمله انتشار روح الغضب والثورة فما لبث أن أضرب عمّال الترام وسائقو السيّارات والكنّاسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة. وترامت الأخبار حاملة البشرى بقرب إضراب المحامين والموظّفين. إنّ قلب البلاد يخفق حيًّا ثائرًا ولن تذهب الدماء هدرًا ولن يُنسى المنفيّون في منفاهم، لقد زلزلت اليقظة الواعية أرض وادي النيل.

تقلّب الفتى في فراشه فاستردّ وعيه من لجّة الذكريات وجعل يتابع دقّات العجن مرّة أخرى مقلّبًا ناظريه في أركان الحجرة التي أخذت تستبين على النور المشرق رويدًا وراء النوافذ المغلقة. أمّه تعجن! ولن تزال تعجن صباحًا بعد صباح، هيهات أن يشغلها حدث عن التفكير في إعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الأثاث، إنّ كبار الحادثات لا يعطّل صغار الأعمال، وسيتّسع صدر المجتمع دائمًا للجليل والتافه من الأمور فيرحّب بها جنبًا إلى جنب، ولٰكن مهلًا، ليست الأمّ على هامش الحياة هي التي أنجبته والأبناء وقود الثورة، وهي التي تغذّيه والغذاء وقود الأبناء، الحقّ أن ليس ثمّة شيء تافه في الحياة... ولٰكن ألا يجيء يوم يهزّ فيه الحادث الكبير المصريّين جميعًا فلا تتفرّق عنده القلوب كما تفرّقت في مجلس القهوة منذ خمسة أيّام؟ ألا ما أبعد هٰذا اليوم! ثمّ جرت على شفتيه ابتسامة إذ وثب إلى ذهنه هٰذا السؤال: «ما عسى أن يصنع والده إذا علم «بجهاده» المتواصل يومًا بعد يوم؟ ماذا يصنع أبوه الجبّار المستبدّ وماذا تصنع أمّه الرقيقة الحنون؟» ابتسم في حيرة وهو يعلم أنّ المتاعب التي قد تعترضه في تلك الحال ليست دون المتاعب التي قد تعترضه إذا نمى سرّه إلى السلطة العسكريّة نفسها، ثمّ أزاح الغطاء عن صدره وجلس في الفراش وهو يغمغم: «سيّان أن أحيا أو أن أموت، الإيمان أقوى من الموت، والموت أشرف من الذلّ، فهنيئًا لنا الأمل

الذي هانت إلى جانبه الحياة، أهلًا بصباح جديد من الحرّيّة، وليَقْضِ الله بما هو قاضٍ».

٥٥

لم يعد أحد يستطيع الادّعاء بأنّ الثورة لم تغيّر ولو وجهًا من وجوه حياته، حتّى كمال نفسه عرض لحرّيّته التي تمتّع بها طويلًا في ذهابه إلى المدرسة وإيابه منها طارئ ثقيل ضاق به كلّ الضيق وإن لم يستطع له دفعًا، ذلك أنّ الأمّ أمرت أمّ حنفي بأن تتبعه في ذهابه إلى المدرسة وعند إيابه منها، وألّا تتخلّى عنه بحال كي تعود به إلى البيت إذا صادفتها مظاهرة دون أن تدع له فرصة للتلكّؤ، أو مطاوعة نزوات الطيش، دار رأس الأمّ بأنباء المظاهرات والاضطرابات وارتجّ قلبها لحوادث الاعتداء الوحشيّ على الطلبة فعانت من ذاك الزمن أيّامًا كالحات ملأتها هلعًا وجزعًا فودّت لو تستبقي ابنيها إلى جانبها حتّى تثوب الأمور إلى مستقرّها، ولكنّها لم تجد إلى تحقيق مرادها من سبيل خصوصًا بعد أن وعد فهمي ـ وهو مَن ثقتها في «عقله» لا تتزعزع ـ أنّه لا يشترك في الإضراب بتاتًا، وبعد أن رفض الأب فكرة استبقاء كمال في البيت لعلمه بأنّ المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك في الإضراب. سلّمت الأمّ بذهاب الأخوين إلى المدرسة على كره منها ولكنّها فرضت على كمال رقابة أمّ حنفي وهي تقول له: «لو كان بوسعي أن أخرج كما أشاء لتبعتك بنفسي» وقد عارضها كمال بما وسعه من قوّة لأنّه أدرك بالبداهة أنّ هٰذه الرقابة التي لن تُخفي عن أمّه خافية من شئونه ستقضي قضاء مبرمًا على كلّ ما يتمتّع به في الطريق من ألوان العبث والشطارة، وإنّها ستُلحِق هٰذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردّد بينهما: البيت والمدرسة، إلى هٰذا امتعضت نفسه، أشدّ الامتعاض من السير في الطريق مصطحبًا هٰذه المرأة التي ستلفت الأنظار حتمًا ببدانتها المفرطة ومشيتها المتهالكة، ولٰكنّه لم يسعه إلّا أن يذعن لرقابتها سيّما بعد أن أمره أبوه بقبولها، قُصارى ما استطاعه تنفيسًا عن صدره أنّه كان ينتهرها كلّما تدانت منه، وأنّه حتّم عليها أن تتأخّر عنه مسيرة أمتار. على تلك الحال مضيا إلى مدرسة خليل آغا صباح الخميس وهو خامس أيّام المظاهرات في القاهرة، ولـمّا بلغا باب المدرسة اقتربت أمّ حنفي من البوّاب وسألته تنفيذًا للأمر اليوميّ الذي تلقّته في البيت:

ـ هل يوجد تلاميذ في المدرسة؟

فأجابها الرجل بغير اكتراث:

ـ منهم من يدخل، ومنهم من يذهب، والناظر لا يتعرّض لأحد!

كانت هٰذه الإجابة مفاجأة سيّئة لكمال، كان مهيّئًا النفس لسماع الإجابة التي باتت مألوفة منذ يوم الاثنين وهي «التلاميذ مضربون» فيعودان إلى البيت حيث يمضي سحابة النهار في حرّيّة حبّبت إلى قلبه الثورة من بعيد، ونازعته نفسه إلى الهرب تفاديًا من عواقب الإجابة الجديدة فخاطب البوّاب قائلًا:

ـ أنا ممّن يذهبون.

وابتعد عن المدرسة والمرأة في أثره، بيد أنّها سألته: لماذا لا يدخل مع الداخلين؟ فرجاها متردّدًا لأوّل مرّة في حياته ـ أن تقول لأمّه أنّ التلاميذ مضربون، وزيادة في الرجاء والتودّد دعا لها ـ وهما يمرّان بجامع الحسين ـ بطول العمر والسعادة، إلّا أنّ أمّ حنفي لم تستطع إلّا أن تصارح الأمّ بالحقيقة كما سمعتها فأنّبته الأمّ على كسله وأمرت المرأة بأن تعود به إلى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلقها بلسان حادّ راميًا إيّاها بالخيانة والغدر، لم يجد في المدرسة إلّا لِداته... ذوي الأسنان الصغيرة، أمّا مَن عداهم، وهم الأغلبيّة الساحقة، فكانوا مضربين، وألفى في فصله، الذي كان يتوافر له من صغار التلاميذ ما لم يتوافر لغيره من الفصول ـ نحوًا من ثلث التلاميذ، بيد أنّ المدرّس أمرهم أن يراجعوا دروسهم السابقة وانكبّ هو على تصحيح بعض الكرّاسات فتركهم في شبه إضراب في الواقع. فتح كمال كتابًا متظاهرًا بالقراءة دون أن يعيره أدنى انتباه فقد ساءه البقاء في المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو في البيت يتمتّع بالفراغ الذي جادت

به هٰذه الأيّام العجيبة بلا حسبان. ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل، وهفا خياله إلى أولٰئك المضربين في الخارج بدهشة واستطلاع، كثيرًا ما تساءل عن حقيقة أمرهم، أهم كما تدّعي أمّه «متهوّرون» لا يرحمون أنفسهم ولا أهليهم ملقين بأرواحهم إلى التهلكة، أم هم كما يصفهم فهمي أبطال فدائيّون يجاهدون عدوّ الله وعدوّهم؟! وكثيرًا ما مال إلى رأي أمّه لحنقه على التلاميذ الكبار ـ فئة المضربين ـ الذين خلّفوا في نفسه ونفوس أضرابه من التلاميذ الصغار أسوأ الآثار بما ينالهم على أيديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدّونهم في فناء المدرسة بضخامة أجسامهم وقحة شواربهم، بيْد أنّه لن يستسلم إلى هٰذا الرأي كلّ الاستسلام طالما كان لقول فهمي من الإقناع في نفسه ما لا قِبَل له بالاستهانة به، لن يسعه أن يسلبهم ما يضفيه عليهم من ضروب البطولة حتّى ودّ لو يطّلع من مكان آمن على معاركهم الدامية، قامت قيامة الدنيا ما في ذٰلك من شكّ، أو فلماذا يضرب المصريّون وينطلقون جماعات إلى الاشتباك بالجنود؟! وأيّ جنود؟! الإنجليز؟ الإنجليز الذين كان يكفي ذكر اسمهم لإخلاء الطرقات!... ماذا حَدَثَ للدنيا وللناس؟!... ذاك صراع عجيب قضى عنفه بأن تُنقَش عناصره الجوهريّة في نفس الغلام بلا وعي أو قصد فتغدو أسماء سعد زغلول، الإنجليز، الطلبة، الشهداء، المنشورات، المظاهرات، من القوى المؤثّرة الموحية في أعماقه وإن وقف من معانيها موقف المستطلع الحائر. وضاعف من حيرته أنّ آله استجابوا للحوادث استجابة متباينة وأحيانًا متناقضة، فبينا يجد فهمي ثائرًا يحمل على الإنجليز بحنق قاتل ويحنّ إلى سعد حنينًا يفجّر الدمع، إذا بياسين يناقش الأخبار في اهتمام رصين مشوب بأسف هادئ لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الأشعار والقصص، ثمّ السهر حتّى منتصف الليل، أمّا أمّه فلا تكفّ عن دعاء الله أن ينشر السلام ويعيد الأمان ويصفّي قلوب المصريّين والإنجليز جميعًا، والأدهى من كلّ أولٰئك زينب زوجة أخيه التي أفزعتها الأحداث فلم تجد مَن تصبّ عليه غضبها إلّا سعد زغلول نفسه متّهمة إيّاه بأنّه سبب هٰذا الشرّ كلّه، وأنّه «لو عاش كما يعيش عباد الله في دعة وسلام ما تعرّض له أحد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران». لذٰلك كان حماس الغلام يستعر لفكرة الصراع نفسه، وحزنه يفيض بفكرة الموت في ذاته دون أن يكوّن لنفسه معنًى واضحًا لما يدور حوله من بعيد أو قريب، وكم أسف يوم دعا تلاميذُ خليل آغا إلى الإضراب ـ لأوّل مرّة ـ فسنحت له فرصة ليشهد مظاهرة عن كثب أو يشترك فيها ولو في فناء المدرسة، ولٰكنّ الناظر بادر إلى حجز صغار التلاميذ في فصولهم فأفلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت إلى الهتافات العالية في دهشة ممزوجة بسرور خفيّ، لعلّ مبعثه الفوضى التي نشبت في كلّ شيء فعصفت بالروتين اليوميّ الثقيل بلا رحمة. أفلتت ذٰلك اليوم فرصة الاشتراك في مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ في البيت، وسيبقى مغلولًا في هٰذه الجلسة المملّة ينظر في الكتاب بعينين لا تريان شيئًا، ويسترق لمسات مع رفيقه على القِمَطر في حذر وخوف حتّى يدرك نهاية النهار الطويل، ولٰكن ثمّة شيء استرعى انتباهه فجأة، قد يكون صوتًا غريبًا بعيدًا أو وشًّا في الأذن، ولكي يستوثق من حاسّته نظر فيما حوله فرأى رءوس التلاميذ مرفوعة وأعينهم تتبادل النظرات ثمّ تتّجه معًا صوب النوافذ المطلّة على الطريق، إنّه حقيقة وليس وهمًا ما استرعى انتباههم، إنّها أصوات مندمجة في صوت ضخم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد، الآن وقد أخذت تشتدّ يمكن أن تسمّى ضوضاء، بل ضوضاء تقترب، وسرت في الفصل حركة وتعالى الهمس ثمّ ارتفع صوت قائلًا: «مظاهرة!» فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب، وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتّى وضحت هتافًا يرعد ويزمجر في جميع الجهات المحيطة بالمدرسة، وعادت تقرع أذنيه الأسماء التي ملأت ذهنه طوال الأيّام الماضية. سعد... الاستقلال... الحماية، وتدانى الهتاف وعلا حتّى أطبق على فناء المدرسة نفسها فوجمت

قلوب التلاميذ وأيقنوا أنّ الطوفان لا بدّ مغرقهم، ولٰكنّهم قابلوا ذٰلك بسرور صبيانيّ تنكبَّ عن تقدير العواقب في حميّة نزوعه إلى الفوضى والانطلاق، ثمّ ترامى إليهم وقع أقدام مقبلة في سرعة وصخب، ثمّ فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة واندفعت إلى الحجرة جماعات من الطلبة والأزهريّين كما تندفع المياه من فوهة الخزّان وهم يصيحون: «إضراب... إضراب... لا ينبغي أن يبقى أحد»، وفي لحظات وجد نفسه غائصًا في موج مصطخب يدفعه أمامه دفعًا يعطّل كلّ مقاومة وهو من الاضطراب في غاية، تحرّك في بطء شديد تحرّك حبوب البنّ في فوهة الطاحونة لا يدري أين تقع عيناه، ولا يرى من الدنيا إلّا أجسامًا متلاصقة في ضجّة تصكّ الآذان حتّى استدلّ بظهور السماء فوق رأسه على بلوغ الطريق، واشتدّ الضغط عليه حتّى كادت تكتم أنفاسه فصرخ صراخًا حادًّا عاليًا متواصلًا من شدّة الفزع، وما يدري إلّا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوّة وهي تشقّ بين الناس طريقًا حتّى ألصقته بجدار على الطوار، فراح يلهث ويتلمّس فيما حوله منجًى حتّى عثر على دكّان حمدان بائع البسبوسة وقد أنزل بابها الحديديّ إلى ما فوق العتبة بقليل، فهرع إليه ودخل زحفًا على ركبتيه، ولـمّا قام في الداخل رأى عمّ حمدان الذي كان يعرفه حقّ المعرفة وامرأتين وبعض صغار التلاميذ فأسند ظهره إلى جدار القائمة التي تحمل الصواني وصدره يعلو وينخفض بلا توانٍ وسمع عمّ حمدان وهو يقول:

ـ أزهريّون، طلبة، عمّال، أهالي... جميع الطرقات المؤدّية إلى الحسين مكتظّة بالبشر... ما كنت أحسب قبل اليوم أنّ الأرض تستطيع أن تحمل كلّ هٰؤلاء البشر.

إحدى المرأتين بدهشة:

ـ كيف يصرّون على التظاهر بعدما كان من إطلاق النار عليهم؟

المرأة الأخرى بحسرة:

ـ ربّنا الهادي، كلّهم أبناء ناس يا ولداه.

فقال عمّ حمدان:

ـ لم نَرَ شيئًا كهٰذا من قبل، ربّنا يحميهم.

تفجّر الهتاف في الحناجر يزلزل الجوّ زلزالًا، حينًا عن قرب كأنّه يدوّي في الدكّان، وحينًا عن بعد في ضوضاء شديدة غير متمايز كهزيم الريح، وتواصل بلا انقطاع، في حركة بطيئة مستمرّة دلّ عليها تفاوت درجات الشدّة والارتفاع بين الأمواج القادمة والذاهبة، وكلّما ظُنّ أنّه انقطع جاء غيره حتّى بدا وكأن لا نهاية له، تركّزت حياة كمال في أذنيه وهو يرهف السمع في اضطراب وقلق، بيْد أنّه لـمّا تتابع الوقت دون وقوع مكروه استردّ أنفاسه ومضى يعاوده الشعور بالطمأنينة، ثمّ وسعه أخيرًا أن يفكّر فيما يدور حوله كطارئ لا يلبث أن يزول فتساءل متى يجد نفسه في البيت ليروي لأمّه ما وقع له؟. «اقتحمت علينا الفصول مظاهرة لا أوّل لها ولا آخر، وما أدري إلّا وتيّارها الزاخر يحيط بي ويجرفني إلى الشارع، وهتفت مع من هتف: ليحيى سعد، لتسقط الحماية، ليحيى الاستقلال. وما زلت أتنقّل من طريق إلى طريق حتّى هجم الإنجليز علينا وأطلقوا الرصاص». ستفزع عند ذاك لحدّ البكاء ولا تكاد تصدّق أنّه حيّ يرزق وستتلو آيات كثيرة وهي ترتجف. «ومرّت رصاصة جنب رأسي ما زال زعيقها يطنّ في أذنيّ، وتخبّط الناس كالمجانين، وكدت أهلك مع الهالكين لولا أن جذبني رجل إلى دكّان...».

انقطع حبل أحلامه على صياح عالٍ غير منتظم ووقع أقدام متدافعة في اضطراب، فخفق قلبه ونظر في وجوه مَن حوله فرآهم محملقين في الباب كمن يتوقّع ضربة على أمّ رأسه، واقترب عمّ حمدان من الباب وانحنى حتّى نظر من الفرجة في أسفله ثمّ تراجع وأنزله حتّى ألصقه بالأرض بسرعة وهو يتمتم في اضطراب:

ـ الإنجليز...!

وصاح كثيرون في الخارج: «الإنجليز... الإنجليز» ونادى آخرون «الثّبات... الثّبات» وهتف غيرهم «نموت ويحيا الوطن»... ثمّ سمع الغلام لأوّل مرّة في حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب

فعرفها بالبداهة وارتعدت أوصاله، وما إن ندّت عن المرأتين صرخة حتّى أفحم في البكاء، وجعل عمّ حمدان يقول بصوت متهدّج: «وحّدوا الله... وحّدوا الله» ولٰكن الغلام شعر بالخوف، باردًا كالموت يزحف على جسمه كلّه من قدميه إلى رأسه. وتوالت الطلقات، وصكّت الآذان صلصلة عجلات وصهيل خيل، تتابعت الأصوات والحركات في سرعة فائقة تلاحقها زمجرات وصراخ وأنين، فترة اعتراك خاطفة بدت للقابعين وراء الباب دهرًا في حضرة الموت... ثمّ حلّ صمت مخيف كالإغماء الذي يعقب تبريح الألم، تساءل كمال بصوت متهدّج مبحوح:

- ذهبوا؟!...

فوضع عمّ حمدان سبّابته على فيه وهو يغمغم «هس»... وتلا آية الكرسيّ، فتلا كمال في سرّه - إذ خانته قدرته على الكلام - «قُلْ هو الله أحَد» لعلّها تطرد الإنجليز كما تطرد العفاريت في الظلام. على أنّ الباب لم يفتح إلّا عند الظهر فانطلق الغلام إلى الطريق المقفر ثمّ أطلق للريح ساقيه، وفيما هو يمرّ بالسلّم الهابط إلى قهوة أحمد عبده لمح شخصًا صاعدًا عرف فيه أخاه فهمي فهرع إليه كغريق عثرت يده على أداة النجاة وقبض على ذراعه فالتفت الشابّ نحوه فزعًا، ولمّا عرفه هتف به:

- كمال؟! أين كنت أثناء الضرب؟

ولاحظ الغلام أنّ صوت أخيه مبحوح مطموس المخارج، بَيْد أنّه أجابه بقوله:

- كنت في دكّان عمّ حمدان وسمعت الرصاص وكلّ شيء...

فقال له بعجلته ولهوجته:

- اذهب إلى البيت ولا تقل لأحد إنّك قابلتني... سامع؟

فسأله الغلام بارتباك:

- ألا تعود معي؟!

فقال باللهجة نفسها:

- كلّا... ليس الآن... سأعود في موعدي المعتاد، لا تنس أنّك لم تقابلني قطّ.

ودفعه حتّى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع الغلام راكضًا حتّى بلغ منعطف خان جعفر، فرأى شيخًا واقفًا وسط الطريق يشير إلى الأرض ويخاطب نفرًا من الرجال فنظر حيث يشير فرأى بقعًا حمراء ملبّسة بالتراب، وسمعه يقول بلهجة رثائيّة:

- هٰذا الدم الزكيّ يستصرخنا إلى مواصلة الجهاد، وقد شاء الله أن يسفك في رحاب سيّد الشهداء لنصل في الاستشهاد حاضرنا بماضينا، والله معنا...

وأحسّ فزعًا يركبه، فاستردّ بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون.

٥٦

كانت أمينة تتلمّس طريقها إلى باب الحجرة خلال ظلمة السَّحر، في حذر وتمهّل أن توقظ السيّد، حين ترامى إلى أذنيها لغط غريب صاعدًا من الطريق يطنّ طنين النحل. لم يكن يطرق أذنيها في هٰذه الساعة التي اعتادت أن تستيقظ فيها إلّا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمّال المبكّرين وهتاف رجل يحلو له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردّد في الصمت الشامل صائحًا بين حين وآخر «وحّدوه» أمّا هٰذا اللغط الغريب فلم تسمعه من قبل، وحارت في تفسيره فتطلّعت إلى معرفة مصدره فمضت بخطواتها الخفيفة إلى نافذة بالصالة مطلّة على الطريق ثمّ رفعت خصاصها وأخرجت رأسها فوجدت في الخارج ظلمة مختلطة عند الأفق ببشائر ضياء ولٰكن ليس إلى الحدّ الذي تستطيع معه رؤية ما يجري تحتها، بَيْد أنّ اللغط ازداد ارتفاعًا، وازداد في الوقت نفسه غموضًا، حتّى تبيّنت فيه أصواتًا آدميّة مجهولة النسب. دارت عيناها في الظلام الذي أخذت تألفه شيئًا ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحّاسين مع درب قرمز أشباحًا آدميّة غير واضحة المعالم، وأشياء على هيئة أهرامات صغيرات، وأخرى كأنّها الأشجار القصار، فارتدّت في حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمي وكمال، ثمّ تردّدت، أتوقظه ليرى ما هنالك ويحلّ لها تلك الألغاز أم تؤجّل ذٰلك إلى حين استيقاظه؟! ثمّ

أبت أن تزعجه طاوية رغبتها حتّى موعد استيقاظه عند مـطلع الشمس الـوشيـك، ثمّ صلّت، ثمّ عـادت مدفوعة بحبّ الاستطلاع إلى النافذة فأطلّت منها. بدا وشي الشروق ناشبًا في غلالة السحر وأضواء الصباح تسيـل من ذرى المآذن والقبـاب، فأمكنهـا أن تـرى الـطريق في كثير من الـوضـوح وفتّشت عينـاهـا عن الأشباح التي راعتها في الظلام فتبيّنت حقيقتها وندّت عنهـا آهة فـزع وارتدّت مهـرولـة إلى حجـرة فهمي فأيقظته بلا احتراس فانتفض الشابّ جالسًا في فراشه وهو يتساءل منزعجًا:

- ما لك يا أمّاه...؟

فقالت وهي تلهث:

- الإنجليز يملأون الطريق تحت بيتنا...

هبّ الشـابّ من فراشـه واثبًا إلى النـافـذة ورمى ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين معسكرًا صغيرًا يشرف على رءوس الطرق التي تتفرّع عنده، يتكـوّن من عدد من الخيام، وثلاث لوريّات وشراذم متفرّقة من الجند، وفيما يلي الخيام أقيمت البنادق أربعًا أربعًا، كلّ مجموعة تتساند رءوسها وتفترق قواعدها على هيئة هرم، وقد وقف الحرّاس كالتماثيل أمام الخيام وتبعثر الآخرون وهم يتراطنون ويتضاحكون، ورمى الشابّ ببصره ناحية النحّاسين فرأى معسكرًا ثانيًا عند تقاطع النحّاسين بالصاغة كما رأى في الناحية الأخرى من بين القصرين معسكرًا ثالثًا عند منعطف الخرنفش، ابتدره خاطر أهـوج لأوّل وهلة أنّ هٰؤلاء الجنود قـد جاءوا للقبض عليه!... ولٰكنّه ما لبث أن استسخفه معتذرًا عنه بقومته المزعجة من النوم الذي لم يكد يفيق منه، وبهٰذا الإحساس بالمطاردة الذي لم يفارقـه منذ شبّت الثورة، ثمّ وضحت له الحقيقة رويدًا، وهي أنّ الحيّ الذي أتعب السلطة المحتلّة بمظاهـراته المتـواصلة قد احتُلّ احتلالًا عسكريًّا. لبث ينظر خلال الخصـاص متفحّصًا الجنود والخيام والبنادق واللوريّات وقلبه يخفق في رهبة وحزن وحنق، حتّى تحوّل عن النافذة شاحب اللون وهو يتمتم مخاطبًا أمّه:

- إنّهم الإنجليز كما تقولين، جاءوا للإرهاب ومنع المظاهرات في منابتها...

وجعل يقطع الحجرة ذهابًا وإيابًا وهو يقول في سرّه حانقًا «هيهات... هيهات» حتّى سمع أمّه تقول:

- سأوقظ والدك لأخبره بالأمر...

قالتها المرأة كآخر ما عندها من حيلة، كأنّ السيّد - الذي يحلّ لها جميع مشكلات حياتها - كفيل أيضًا بأن يجد حلًّا لهٰذا المشكل يبلغ به برّ الأمان، ولٰكنّ الشابّ قال لها بأسًى:

- دعيه حتّى يستيقظ في وقته...

فتساءلت المرأة في رهبة:

- ماذا نفعل يا بنيّ وهم مرابطون أمام مدخل بيتنا؟

فهزّ فهمي رأسه في حيرة قائلًا:

- مـاذا نفعل؟! (ثمّ بلهجـة أكـثر ثقـة) لا داعي للخوف، ليس إلّا أنّهم يرهبون المتظاهرين...

قالت وهي تزدرد ريقًا جافًّا:

- أخاف أن يعتدوا على الآمنين في بيوتهم...

ففكّر قليلًا في قولها ثمّ تمتم:

- كلّا لو كان الاعتداء على البيوت مقصـدهـم ما وقفوا ساكنين حتّى الآن...

لم يكن مطمئنًّا إلى قوله كلّ الاطمئنان ولٰكنّه وجده أوفق ما يقال، وعادت أمّه تُسائله:

- وحتّى متى يقيمون بيننا؟!

بطرف شارد أجابها:

- من يـدري؟!... إنّهم نـاصبـون الخيام فلن يرحلوا سريعًا...

تنبّـه إلى أنّها تسألـه كما لـو كـان قـائـد القـوّات العسكـريّة فـنظر إليها في عـطف وهو يـداري بسمة ساخرة فرّجت ما بين شفتيه المتقعتين، وفكّر لحظة في مداعبتها ولٰكنّ كآبة الموقف صدّت نفسه، فعاوده الجدّ كما يقع له أحيانًا إذا روى ياسين له «نادرة» من نوادر والده تدعوه بطبيعتها إلى الضحك ولٰكن يصدّه عنه القلق الذي يعتريه كلّما اطّلع على جانب من شخصيّة أبيه الخفيّة، وسمعا وقع أقـدام تهرول نحـوهما، ثمّ اقتحم الحجرة ياسين تتبعه زينب على الأثر، وصـاح الشابّ الذي بدا منتفخ العينين مشعّث الشعر:

ـ أرأيتم الإنجليز. . . ؟

وهتفت زينب:

ـ أنا التي سمعتهم ثمّ أطللت من النافذة فرأيتهم وأيقظت سي ياسين. . .

وواصل ياسين الحديث قائلًا:

ـ لقد نقرت على باب والدي حتّى استيقظ وأخبرته ولـمّا رآهم بنفسه أمر بألّا يغادر البيت أحد وألّا يرفع مزلاج البيت، ولٰكن ماذا هم فاعلون؟. . . وما عسى أن نصنع؟. . . ألا توجد في البلد حكومة تحمينا؟. . .

فقال له فهمي:

ـ لا أظنّهم يتعرّضون لغير المتظاهرين.

ـ ولٰكن حتّى متى نظلّ محبوسين في بيوتنا؟!. . . إنّ البيوت ملأى بالنساء والأطفال فكيف يعسكرون تحتها؟

فغمغم فهمي في ضيق:

ـ سيجري علينا ما يجري على غيرنا فلنصبر ولننتظر. . .

وهتفت زينب في عصبيّة ظاهرة:

ـ لم نعد نسمع أو نرى إلّا الرعب والحزن، ربّنا على أولاد الحرام. . .

عند ذاك فتح كمال عينيه فردّدهما دهشًا في المجتمعين في حجرته على غير انتظار، ثمّ جلس في فراشه وتطلّع إلى أمّه بعينين متسائلتين فاقتربت من فراشه وربّتت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثمّ قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة، فسألها الغلام:

ـ ماذا جاء بكم إلى هنا؟

رأت أن تبلغه الخبر في أحسن صورة ممكنة فقالت برقّة:

ـ لن تذهب اليوم إلى المدرسة. . .

فتساءل بابتهاج:

ـ بسبب المظاهرات؟

فقال فهمي بشيء من الحدّة:

ـ الإنجليز يسدّون الطريق!

شعر كمال بأنّه أدرك سرّ تجمّعهم فقلّب عينيه في الوجوه مذهولًا، ثمّ وثب إلى النافذة ونظر من خصاصها طويلًا ثمّ عاد وهو يقول باضطراب:

ـ البنادق أربع أربع. . .

ونظر إلى فهمي كالمستغيث وتمتم في خوف:

ـ سيقتلوننا. . . ؟

ـ لن يقتلوا أحدًا، جاءوا لمطاردة المتظاهرين. . .

ومضت فترة صمت قصيرة وإذا بالغلام يقول وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ ما أجمل وجوههم!. . .

فسأله فهمي ساخرًا:

ـ هل أعجبوك حقًّا؟. . .

فقال كمال بسذاجة:

ـ جدًّا، كنت أتخيّلهم كالشياطين. . .

فقال فهمي بمرارة:

ـ من يدري، لعلّك لو رأيت الشياطين أعجبك منظرهم. . . !

لم يرفع مزلاج الباب في ذٰلك اليوم، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلّة على الطريق ولو لتغيير الهواء وإدخال الشمس، ولأوّل مرّة تبسّط السيّد أحمد في الحديث على مائدة الإفطار فقال بلهجة العليم الخبير إنّ الإنجليز يتشدّدون في منع المظاهرات وإنّهم لهٰذا احتلّوا الأحياء التي تكثر بها المظاهرات وإنّه رأى أن يمكثوا يومهم في البيت حتّى تتّضح الأمور. استطاع الرجل أن يتكلّم بثقة وأن يحافظ على مظهره المعهود من الجلال وألّا يدع منفذًا لأحد يتسرّب منه إلى القلق الذي تفشّى في باطنه مُذ هَبَّ من فراشه على نقر ياسين، ولأوّل مرّة كذٰلك جسر فهمي على مناقشة رأي أبيه فقال بأدب:

ـ ولٰكن يا والدي قد تظنّني المدرسة إذا مكثت في البيت من المضربين!

لم يكن السيّد يعلم شيئًا طبعًا عن اشتراك ابنه في المظاهرات فقال:

ـ للضرورة أحكام، أخوك موظّف وموقفه أدقّ من موقفك ولٰكنّ العذر واضح. . .

لم تواته شجاعته على مراجعة أبيه خشية أن يغضبه من ناحية، ولأنّه ـ من ناحية أخرى ـ وجد في أمره بمنع مغادرة البيت عذرًا يبرّر به أمام ضميره امتناعه عن

الخروج إلى الطريق المحتلّ بالجنود المتعطّشين إلى دماء أمثاله من الطلبة. انفضّت المائدة فأوى السيّد إلى حجرته، وما لبثت الأمّ وزينب أن اشتغلتا بواجباتهما اليوميّة، ولمّا كان اليوم مشمسًا، وهو يوم من أيّام مارس الأخيرة التي تكتنز في أعطافها نسائم دافئة من أنفاس الربيع فقد صعد الإخوة الثلاثة وجلسوا تحت عرش اللبلاب والياسمين. ووجد كمال في خُصّ الدجاج تسلية وأيّ تسلية فانتقل إليها، وراح يبذر للدجاج الحبّ ويطاردها مسرورًا بدجدجتها ويلتقط ما يعثر عليه من البيض في حين راح الأخوان يتحدّثان بالأنباء المثيرة التي تتناقلها الألسنة عن الثورة المستعرة في جنبات الوادي من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه. تكلّم فهمي عمّا يعلم من قطع السكك الحديد والتلغرافات والتليفونات وقيام المظاهرات في شتّى المديريّات والمعارك التي تنشب بين الإنجليز والثوّار والمذابح والشهداء والجنازات الوطنيّة التي تشيّع فيها النعوش بالعشرات والعاصمة المضربة طلبتها وعمّالها ومحاموها والتي لم يعد بها من وسيلة للمواصلات إلّا العربات الكارو، ثمّ قال الشابّ بحرارة:

ـ هٰذه الثورة حقًّا؟... فليقتلوا ما شاءت لهم وحشيّتهم فلن يزيدنا الموت إلّا حياة...

فقال ياسين وهو يهزّ رأسه عجبًا:

ـ ما كنت أتصوّر أنّ في شعبنا هٰذه الروح المكافحة...

فقال فهمي وكأنّه نسي كيف أشفى على اليأس قبيل نشوب الثورة حتّى فاجأته بزلزالها وبهرته بنورها:

ـ بل إنّه ممتلئ بروح الكفاح الخالد التي تشتعل في جسده الممتدّ من أسوان إلى البحر الأبيض، استثارها الإنجليز حتّى ثارت ولن تخمد إلى الأبد.

فقال ياسين وعلى شفتيه ابتسامة:

ـ حتّى النساء خرجن في مظاهرة...

فتمثّل فهمي أبياتًا من قصيدة حافظ في مظاهرة السيّدات:

خرج الغواني يحتججـ
ـن ورحتُ أرقب جمعهنّه
فإذا بهنّ تخذْن من
سود الثياب شعارَهنّه
فطلعْن مثل كواكب
يسطعن في وسط الدجنّه
وأخذن يجتزن الطريق
ودار سعْدٍ قصدهنّه

فاهتزّت نفس ياسين وقال ضاحكًا:

ـ ما كان أجدرني أنا بحفظها...

وفكّر فهمي في خاطر طارئ ثمّ تساءل بحزن:

ـ تُرى أترامت أنباء ثورتنا إلى سعد في منفاه؟... أعَلم الشيخ الكبير بأنّ تضحيته لم تذهب هباء أم تُراه غارقًا في يأس المنفى؟...

٥٧

لبثوا على السطح حتّى الضحى، وراق للأخوين أن يراقبا المعسكر البريطانيّ الصغير، فرأيا نفرًا من الجنود قد أقاموا مطبخًا وراحوا يعدّون الغداء، وتفرّق كثيرون ما بين مدخل درب قرمز والنحّاسين وبين القصرين في خلاء من المارّة، وبين حين وآخر كان يتجمّع كثيرون في طابور على نداء النفير ثمّ يأخذون بنادقهم ويركبون أحد اللوريات الذي ينطلق بهم صوب بيت القاضي ممّا دلّ على قيام مظاهرات في الأحياء القريبة، وكان فهمي يراقب تجمّعهم وذهابهم بقلب خافق وخيال متّقد...

وأخيرًا غادر الأخوان السطح تاركين كمال يلهو كيف شاء وحده، وأويا إلى حجرة المذاكرة، فأقبل فهمي على كتبه يراجع ما فاته في الأيّام المنقضية، وتناول ياسين «ديوان الحماسة» و«غادة كربلاء» وخرج إلى الصالة يستعين بهما على قتل الوقت الذي توافر وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود، كانت الروايات ـ بوليسيّة وغيرها ـ أشدّ استحواذًا على قلبه من الشعر، ولكنّه أحبّ الشعر كذلك. وعرفه من أيسر سبله، يفهم ما يسهل فهمه، ويقنع من الصعب بموسيقاه، فندر أن يلجأ إلى الهامش المشحون بالشروح، وربّما حفظ البيت وترنّم به وهو لا يفقه من

معناه إلّا أقلّه، أو يتصوّر له معنًى لا يمتّ إلى حقيقته بسبب، أو لا يدرك له معنًى على الإطلاق، ولٰكن رغم هٰذا كلّه رسب في عقله من صوره وألفاظه ما يعدّ ثروة يتيه بها مثله حتّى دأب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر، فإذا عرض له يومًا أن يكتب رسالة تهيّأ لها تهيّؤ الكتّاب واقحم عليها من الألفاظ الرنّانة ما يعلق بحافظته، وضمّنها ما فتح الله به عليه من مأثور الشعر حتّى عُرف بين معارفه بالبلاغة، لا لأنّه كان بليغًا حقًّا، ولٰكن لقصورهم عن مجاراته وارتياعهم حيال غريب محفوظاته. قبل اليوم لم يعهد مثل هٰذا الفراغ الطويل الذي قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة محرومًا من أسباب الحركة والتسلية، وربّما كانت القراءة خليقة بأن تسعفه على تحمّله لو كان به صبر عليها، ولٰكنّه اعتاد أن يلمّ بها في رفق، وفي الأوقات القصيرة التي تسبق خروجه إلى سهرته اليوميّة دون غيرها، وحتّى في تلك الأوقات لم يكن يجد بأسًا في أن يقطع القراءة بالمشاركة في أحاديث مجلس القهوة، أو يطالع قليلًا ثمّ يدعو كمال ليروي له ما قرأ مستلذًّا بإقبال الغلام على الإصغاء بذاك الشغف المأثور عن الأطفال والغلمان. إذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتي تستطيع أن تؤنس وحشته يومًا كيومه هٰذا، وقد قرأ أبياتًا من الشعر وفصولًا من «غادة كربلاء»، ومضى يتجرّع الملل قطرة فقطرة، لاعنًا الإنجليز من أعماق قلبه، ضجرًا برمًا ضيّق الصدر، حتّى حان وقت الغداء، جمعتهم المائدة مرّة أخرى، وقدّمت لهم الأمّ حساء ودجاجات محمّرة وأرزًّا، وأتمّت أطباقها - التي حرمت من الخضر بسبب الحصار المضروب حول البيت - بجبن وزيتون ومشّ، وأحضرت عسلًا أسود بدلًا من الحلوى، ولٰكن لم يأكل بشهوة إلّا كمال أمّا السيّد والأخوان فلم يسعدوا بقابليّة قويّة للطعام لقبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة، بيْد أنّ الطعام هيّأ لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وعلى الخصوص السيّد وياسين اللذين كان يسعهما الظفر بالنوم وقتما شاءا وكيفما أحبّا. وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل إلى الدور التحتانيّ لشهود جلسة القهوة ولٰكنّها كانت جلسة قصيرة إذ أنّ الأمّ لم يسعها أن تترك السيّد وحده طويلًا فودّعتهم وطلعت إليه، ولبث ياسين وزينب وفهمي وكمال يتسامرون في جوّ يغلب عليه الفتور حتّى استأذن فهمي ومضى إلى حجرة المذاكرة ثمّ دعا إليه كمال فغودر الزوجان منفردين. «ما عسى أن أصنع من الآن إلى ما بعد منتصف الليل؟»... أزعجه هٰذا السؤال الذي ألحّ عليه طويلًا وبدا له اليوم كئيبًا ذميمًا منتزعًا بالقوّة الغشوم من مجرى الزمان الذي يتدفّق في الخارج حافلًا بالمسرّات كما ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حطبًا. لولا الحصار العسكريّ لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة أحمد عبده، يحسو الشاي الأخضر، ويسامر معارفه من روّادها ويمتّع النفس بجوّها العتيق الذي يستهوي شعوره بمقدمه ويستأثر خياله بحجراته المطمورة تحت أنقاض التاريخ. قهوة أحمد عبده أحبّ المقاهي إلى قلبه، ولولا الغرض - والغرض مرض كما يقولون - ما اختار غيرها، ولٰكنّه الغرض الذي جذبه فيما مضى إلى الكلوب المصريّ لقربه من مقام بائعة الدوم وهو نفسه الذي أغراه بالانتقال بعد ذٰلك إلى قهوة سي عليّ بالغوريّة لوقوعها أمام بيت زنّوبة العوّادة. فهو يبدّل المقاهي تبعًا لغرضه، بل إنّه يبدّل من تعرض له صداقتهم فيها تبعًا له، ففيما وراء الغرض لا مقهًى ولا أصدقاء له، أين الكلوب المصريّ وأصحابه؟... أين قهوة سي عليّ ومعارفها؟... من حياته ذهبوا، ولعلّه لو صادفه أحدهم تجاهله أو تهرّب منه، والدور الآن على قهوة أحمد عبده وسمّارها، والله وحده يعلم ما يخبّئه الغد من مقامٍ وأصدقاء. على أنّه لم يكن يمكث بقهوة أحمد عبده طويلًا فسرعان ما يسترق الخطى إلى بقّالة كوستاكي أو بالأحرى إلى حانته السرّيّة ليحظى بالقارورة الحمراء أو «العادة» كما يحلو له أن يدعوها... أين منه «العادة» هٰذا المساء الكالح؟! وسرت في بدنه لتذكّر حانة كوستاكي رعدة شهوة، ثمّ ما لبث أن لاحت في عينيه نظرة سأم عميقة وتململ تململ السجين. بدا البقاء في البيت حسرة طويلة زاد من حدّة ألمها ما طاف بمخيّلته

من صور الهناء وذكريات النشوة المقترنة بالحانة والقارورة، فعذّبته الأحلام وضاعفت من وَجْده، وقد جرّت حنينه الملهوف على موسيقى الخمر الباطنيّة ولعبها بالرأس ذٰلك اللعب المدغدغ الحارّ السائل بهجة وأفراحًا، فلم يدرك قبل ذاك المساء أنّه أعجز من أن يصبر على هجر الشراب يومًا واحدًا ولم يحزن لما بدا له من ضعفه وعبوديّته، ولا لام نفسه على إسرافها الذي جرّ عليه التعاسة لأهون الأسباب، كان أبعد ما يكون عن لوم نفسه أو السخط عليها، ولم يذكر من بواعث ألمه إلّا الحصار الذي شنّه الإنجليز حول البيت، وأنّه يحترق ظمأ ومورد النشوات غير بعيد، ثمّ لاحت منه التفاتة إلى زينب فوجدها تتفرّس في وجهه بنظرة كأنّما تقول له حانقة «ما لك شاردًا، ما لك واجمًا، أليس لوجودي أيّ أثر في التسرية عنك!»... أدرك معناها كلّه في لحظة خاطفة التقت فيها عيناهما، ولٰكنّه لم يستجب لعتابها الحانق الحزين، وبالعكس لعلّه أحنقه وأثار ثائرته، أجل لم يحقد على شيء كما حقد على اضطراره للبقاء معها طوال الليل، بلا رغبة، ولا مسرّة، وحتّى محرومًا من النشوة التي يستعين بها على تحمّل حياته الزوجيّة. جعل يسترق إليها النظر ويتساءل في غرابة أليست هي هي!... أليست هي التي خلبت لبّي ليلة الزفاف؟!... أليست هي التي شغفتني هيامًا ليالي وأسابيع؟! فما لها لا تحرّك فيّ ساكنًا!... أيّ شيء طرأ عليها! ما لي أتململ برمًا وسأمًا فلا أجد من حسنها وأدبها ما يغنيني عن سكرة تأجّلت! ومال ـ كما فعل مرّات من قبل ـ إلى رميها بالنقص فيما برعت فيه زنّوبة ومثيلاتها من ضروب الخدمة والشطارة، والحقّ أنّ زينب كانت أولى تجاربه في المعاشرة الدائمة. فلم تطل به معاشرة العوّادة ولا بائعة الدوم، ولم يكن تعلّقه بإحداهما بمانعه من التنقّل إذا سنحت دواعيه، وقد ذكر لحظات حيرته هٰذه وأفكاره عنها بعد كرور أعوام طوال فعرف من نفسه ومن الحياة عامّة ما لم يجر له في خاطر. وانتبه على تساؤلها:

ـ لعلّك غير مرتاح إلى البقاء في البيت!؟...

لم يكن على حال يطيق معها حتّى العتاب فوقع تساؤلها التهكّميّ من نفسه موقع الضربة الطائشة من الدمّل فاندفع قائلًا بصراحة مؤلمة وإصرار:

ـ بلى...

ومع أنّها تحامت النقار من بادئ الأمر إلّا أنّ لهجته آذتها أشدّ إيذاء فقالت بحدّة:

ـ لا ذنب لي في هٰذا، أليس عجيبًا ألّا تطيق التخلّف عن سهرتك ولو ليلة واحدة...

فقال متسخّطًا:

ـ دلّيني على شيء واحد يجعل البيت محتملًا...

فقامت غاضبة وهي تقول في نبرات منذرة بالبكاء:

ـ سأخلي لك المكان لعلّه يطيب لك...!

وولّت كالهاربة وهو يتبعها بصرًا جامدًا، ثمّ قال لنفسه «يا لها من حمقاء لا تدري أنّ القدرة الإلٰهية وحدها هي التي تبقي عليها في بيتي». ومع أنّ الشجار نفّس عن حنقه قليلًا إلّا أنّه كان يفضّل ألّا يقع حتّى لا يضاعف من كآبة فراغه، ولم يكن يعجز عن استرضائها لو أراده ولٰكنْ عَقَلَه الفتور الذي ران على مشاعره جميعًا. غير أنّه لم تمض دقائق حتّى شمله هدوء نسبيّ فرنّ صدى عباراته القاسية التي وجّهها إليها في أذنيه فأقرّ بقسوتها، وبأنّه لم يكن ثمّة ما يدعو إليها، وداخله شبه ندم، لا لعثوره فجأة على ثمالة حبّ لها في زوايا قلبه ولٰكن لحرصه على ألّا يشذّ في معاملتها عن حدّ الأدب ـ ربّما إكرامًا لأبيها أو خوفًا من أبيه ـ حتّى في فترة الانتقال العصيبة التي أخذ على نفسه فيها إخضاعها لسياسته بالصلابة والحزم، واعتذر عن إسرافها بالغضب، ولم يكن الغضب بالانفعال المستغرب في هٰذه الأسرة، فما يركبهم الحلم إلّا حين قيام الأب بينهم مستأثرًا لنفسه من دونهم بكافّة حقوق الغضب.

بيد أنّ غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع الانطفاء ثمّ يردّون إلى ألوان من الأسف والندم، إلى هٰذا كلّه خصّ ياسين بالمكابرة فلم يدفعه أسفه إلى مصالحة زوجه بل قال لنفسه: «هي التي استثارت غضبي... ألم يكن بوسعها أن تخاطبني بلهجة

أرقّ!». إنّه يحبّ دائمًا أن تتحلّى بالصبر والحلم والعفو كيما ينطلق على هواه مطمئنًا إلى خطوطه الخلفيّة. اشتدّ ضيقه بسجنه بعد غضبها وانسحابها فغادر المكان إلى السطح. وجد الجوّ لطيفًا والليل ساجيًا والظلمة شاملة إلّا أنّها كثيفة تحت عرش اللبلاب والياسمين، رقيقة في نصف السطح الآخر المسقوف بقبّة السماء المرصّعة بلآلئ النجوم. وراح يقطع السطح ذهابًا وجيئة ما بين السور المطلّ على بيت مريم ونهاية حديقة اللبلاب المشرفة على قلاوون، مستسلمًا لخيالات شتّى، وفيما هو يسير الهوينا عند مدخل السقيفة تسلّل إلى أذنيه حفيف، أو لعلّه همس، بل أنفاس تتردّد بين لحظة وأخرى فحملق في الظلام متعجّبًا وهتف متسائلًا:

- من هنا؟

فجاءه صوت يعرفه حقّ المعرفة وهو يقول في نبرات نحاسيّة:

- أنا نور يا سيّدي. . .

تذكّر من توّه أنّ نور جارية زوجه تأوي ليلًا إلى حجرة خشبيّة لصق خُصّ الدجاج تحوي بعض الكراكيب، نظر صوب السطح حتّى ميّز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنّه قطعة من الليل تكاثفت وتجمّدت، ثمّ تراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطباشير على سبّورة حالكة السواد، واصل سيره دون أن ينبس وصورتها ترتسم في مخيّلته بطريقة تلقائيّة، سوداء في الأربعين متينة البنيان، غليظة الأطراف، ناهدة الصدر، عبلة الأرداف، ذات وجه لامع، وعينين برّاقتين، وشفتين ممتلئتين، فيها قوّة وخشونة وغرابة، أو هٰكذا بدت له مذ طرأت على بيته. وفجأة، وعلى حين غرّة، تفجّرت في صدره نيّة الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقعات بلا سابق إنذار، ولٰكن قويّة مسيطرة كأنّما تركّز فيها هدف حياته، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال أمّ حنفي ليلة زفاف عائشة، انبعثت في وجدانه الخامد حياة فوّارة، وانتشر القلق في دمه حتّى تكهرب، وحلّ محلّ الملل والسأم اهتمام حارّ ثائر جنونيّ، كلّ أولئك في لمح البصر، ودبّ النشاط في مشيته وفكره وخياله، وكفّ وهو لا يدري عن قطع السطح من أوّله إلى آخره مقصّرًا خطّ ذهابه وإيابه إلى الثلثين ثمّ إلى النصف، وكلّما مرّ بها اضطرب جسمه برغبة عارمة. جارية سوداء؟. . . خادم؟. . . وإن كانت، له سوابق غير منكورة، ليس حتمًا أن تقع بغيته على طراز زنّوبة، ميزة حُسن واحدة تغني كما أغنت عينا بائعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لنتن إبطيها وتلبّد الطين على ساقيها. بل الدمامة نفسها - ما دامت قد ركّبت على امرأة - اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلّع إليها عند أمّ حنفي أو عند ضاربة رمل عوراء خلا بها وراء بوّابة النصر، نور على أيّة حال ذات جسم مكتنز صلب يوحي - لا شكّ - ملمسه بالفتوّة والصراع، إلى أنّها جارية سوداء تعد بطرافة في الوصال وجدّة في التجربة وتحقيق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفء. وبدا الجوّ من حوله مهيّئًا آمنًا مظلمًا فاستحرّت رغبته وتوثّبت أعصابه واسترسل قلبه في دقّات متتابعة فرمى بنظرة ثاقبة موضعها ومال في سيره إليها بحيث «يتّفق» له أن يحتكّ بها على نحوٍ ما حين مروره بها مؤجّلًا الجهر برغبته حتّى يتاح له جسّ النبض في جوّ من الحذر أن تكون - كأمّ حنفي - بلهاء فتتجاوب أركان البيت بفضيحة جديدة، تقدّم في خطوات وئيدة محملقًا صوبها، يودّ بكلّ ما اضطرم في صدره من شهوة لو تنفذ كلمات عينيه - رغم الظلمة الفاشية - إلى نفسها، حتّى اقترب منها فاختلطت دقّات قلبه، ثمّ حاذاها فمسّ كوعه أعلى جسمها ولٰكنّه واصل سيره كأنّ ما وقع كان عفوًا، غير أنّ رعدة سرت في بدنه عند لمس الموضع الذي لم يتحقّق من هويّته في الغيبوبة التي تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند الإفاقة النسبيّة في نهاية السطح إلّا مسّ طريّ غزير الحنان وما ندّ عن صاحبته من تراجع بريء أيّد ما رجّحه من عدم ارتيابها في أمره فاستدار مصمّمًا على إعادة الكرّة. أعاد نحوها ثانية ذراعه حتّى مسّ كوعه إحدى ثدييها - لم يخطئه إحساسه هٰذه المرّة - ثمّ لم يسحبه كما كان ينتظر من شخص يدّعي أنّه ضلّ السبيل، بل تركه يصافح الثدي الأخرى مصافحة

رقيقة لا تبالي دفع الريب، ومضى وهو يقول لنفسه ستدرك غايتي بلا شكّ، بل لعلّها أدركتها فندّ عنها ما يوحي بأنّها أرادت أن تنتحي جانبًا ولكنّها أبطأت، أو بوغتت فذهلت، على أيّ حال لم تتّقيني باليد، ولم تحرّك ساكنًا، فلن تصرخ فجأة كما فعلت بنت المركوب، لنجرّب مرّة ثالثة. عاد هٰذه المرّة متعجّلًا جزعًا، فتثاقل حيالها، ثمّ مدّ كوعه إلى الصدر الناهد كقربة صغيرة منتفخة، ثمّ حرّك ذراعه حركة ناطقة بالتردّد والريبة معًا، وهمّ بمواصلة السير مدفوعًا برغبة في الفرار لولا أن وجد منها استسلامًا أو بلادة أغرقت ثمالة وعيه في تيّار من الجنون فتوقّف متسائلًا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرًا متهدّجًا:

ـ هٰذه أنت يا نور؟!

فقالت الجارية وهي تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتّى التصق ظهرها بالحائط وأوشك هو أن يلتصق بها:

ـ نعم يا سيّدي...

أراد أن يقول أيّ كلام يعنّ له حتّى يتمكّن من الجهر بما يضطرب في أعماقه كالملاكم الذي يلوّح بقبضته في الهواء متحيّنًا الفرصة ليضرب ضربته القاضية فسألها وأنفاسه تترامى على جبينها:

ـ لِمَ لم تذهبي إلى حجرتك؟

فقالت الجارية التي تعثّرت في نطاق حصاره:

ـ كنت أشمّ الهواء قليلًا...

وكأنّما غلب النهم تردّده فمدّ راحته إلى خاصرتها ثمّ جذبها برفق إلى صدره وهي تبدي ممانعة تحول بينه وبين ما يريد، ثمّ همس في أذنها وهو يلصق خدّه بخدّها:

ـ هلمّي إلى الحجرة.

فتمتمت في ارتباك:

ـ عيب يا سيّدي...

رنّت نبراتها النحاسيّة في الصمت رنينًا أزعجه، لم تكن تعمّدت أن ترفع صوتها ولكنّها ـ فيما بدا ـ لا يتأتّى لها الهمس أو أنّ من طبع همسها الرنين ولو في أخفض درجاته، على أنّه سرعان ما زايله الانزعاج لتوقّد شهوته من ناحية وللخلوّ لهجتها من الاحتجاج الذي يستوحيه مدلول عبارتها، فجذبها بيده وهو يغمغم:

ـ تعالي يا حلوة.

فسلست ليده، ربّما عن رضًى وربّما عن طاعة، وهو يغمر خدّها وصفحة عنقها بقبلاته مترنّحًا من شدّة الانفعال، وفي نشوة السرور جعل يقول:

ـ ماذا غيّبك عنّي طول هٰذه الأشهر!

فأجابته بلهجتها العاديّة الخالية من أيّ احتجاج:

ـ عيب يا سيّدي.

فقال وهو يبتسم:

ـ ما أرقّ ممانعتك، زيديني منها!...

ولكنّها أبدت شيئًا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة:

ـ عيب يا سيّدي... (ثمّ كالمحذّرة)... الحجرة ملأى بالبقّ.

فدفعها وهو يهمس في قفاها:

ـ أنام على العقارب من أجلك يا نور.

جارية، هٰكذا بدت بأدقّ ما تحمل هٰذه الكلمة من معانٍ، وقفت مستسلمة بين يديه في الظلام فوضع شفتيه على شفتيها وقبّلها بحرقة وتشوّق وهي ساكنة مستسلمة كأنّها تشاهد منظرًا لا دور لها فيه، حتّى قال لها بانفعال: «قبّليني» ثمّ أعاد لصق شفتيه بشفتيها وقبّل فقبّلته! ثمّ طلب إليها أن تجلس فردّدت قولها «عيب يا سيّدي» الذي بدا مضحكًا من ابتذاله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة، وما لبث أن وجد لذّة جديدة في تردّدها بين السلبيّة والإذعان فجدّ في طلب المزيد منه وتتابعت الممانعة اللفظيّة والإذعان الفعليّ فنسي الزمن، ثمّ خيّل إليه أنّ الظلام من حوله يتحرّك أو أنّ مخلوقات غريبة في طيّاته تتراقص، ربّما الجهد أصابه من طول ما لبث إن كان طال لبثه فإنّه على وجه اليقين لا يدري كم لبث، أو لعلّها التيّارات المتوقّدة المتلاطمة في رأسه تولّد من ارتطامها في بصره أنوار وهميّة، ولكن مهلًا، إنّ جدران الحجرة تتماوج، ناضحة بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانًا يهتك الأسرار، ورفع رأسه

محملقًا فرأى نورًا خافتًا يتسلّل من شقوق الجدار الخشبيّ مقتحمًا عليه خلوته، ثمّ ارتفع صوت زوجه في الخارج وهي تنادي الجارية قائلة:

- نمت يا نور؟!... نور. ألم تري سي ياسين؟

فانتفض قلبه فزعًا ووثب قائمًا واندفع على عجل ولهفة يتخطّف ثيابه ويرتديها وهو يتفحّص الحجرة ببصر زائغ لعلّه يجد مخبأ بين كراكيبها، ولكنّ نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صكّ أذنيه وقع شبشب يقترب فلم تتمالك الجارية من أن تقول بصوت باكٍ:

- أنت السبب يا سيّدي، ماذ أفعل الآن؟!

فلكزها في كتفها بقسوة حتّى أمسكت، وحدّق في الباب بفزع ويأس وهو يتقهقر ـ بدافع لا شعوريّ ـ إلى الركن البعيد عن المدخل حتّى التصق بالجدار، وتجمّد في موقفه يترقّب. تتابع النداء ولا مجيب، ثمّ انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدّمها مصباح وهي تهتف:

- نور... نور...

فلم يسع الجارية إلّا أن تخرج من صمتها مغمغمة بصوت شاحب حزين:

- نعم يا ستّي.

فقالت زينب بصوت ينمّ عن الحنق والتعنيف:

- ما أسرع أن تنامي يا شيخة! ألم تري سي ياسين؟... سيّدي الكبير أرسل في طلبه فبحثت عنه في الدور التحتانيّ والفناء وها أنا لا أجده فوق السطح، هل رأيته؟

وما أتمّت كلامها حتّى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو يطلّ على الجارية المرتبكة في جلستها باستغراب، ثمّ بحركة غريزيّة التفتت إلى يمينها فوقع بصرها على زوجها الملتصق بالحائط بجسم ضخم كأنّما ترهّل وتخاذل من الخزي والهوان، التقت عيناهما لحظة قبل أن يغضّ بصره، ومرّت لحظة أخرى في صمت قاتل، ثمّ ندّت عن الفتاة صرخة كالعواء وتراجعت وهي تهتف ضاربة صدرها بيسراها:

- يا فضيحتك السوداء!... أنت!... أنت!...

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف المصباح بيدها وارتعاش ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثمّ ولّت هاربة وعويلها يمزّق الصمت. قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه «انفضحت وما كان كان» ولبث بمرقفه ذاهلًا عمّا حوله حتّى انتبه إلى نفسه فغادر الحجرة إلى السطح دون أن يخطر له أن يتجاوزه. لم يدر ماذا يصنع ولا إلى أيّ مدًى تذاع الفضيحة، أتنحصر في شقّته أم تنتقل إلى الشقّة الأخرى؟... ثمّ راح يوبّخ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منعاه من أن يلحق بها كي يحصر الفضيحة في أضيق حدود، ثمّ تساءل وهو في أشدّ حالات الضيق كيف يتلقّى هٰذه الفضيحة؟ هل يسعفه الحزم هنا أيضًا؟ ربّما لو لم يتسرّب نبؤها إلى أبيه. وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المشئومة فالتفت نحوها فرأى شبح الجارية يغادرها وبيده لفّة كبيرة، ثمّ هرولت نحو باب السطح ومرقت منه، هزّ كتفيه استهانة، وفيما هو يتحسّس صدره بيده أدرك أنّه نسي أن يرتدي الفانلّة فعاد إلى الحجرة مسرعًا.

٥٨

في الصباح الباكر طُرق الباب، وكان الطارق شيخ الحارة، فقابل السيّد أحمد وأخبره بأنّه مكلّف من لدن السلطات بإبلاغ سكّان الأحياء المحتلّة بأنّ الإنجليز لن يتعرّضوا إلّا للمتظاهرين وأنّ عليه أن يفتح دكّانه، وعلى التلميذ أن يذهب إلى مدرسته والموظّف إلى وظيفته، وحذّره من حجز التلاميذ أن يظنّوا من المضربين لافتًا نظره إلى الأوامر المشدّدة بمنع المظاهرات والإضراب، بذلك استردّ البيت نشاطه الذي يستقبل به الصباح. وتنفّس رجاله الصعداء لإطلاق سراحهم بعد حبس البارحة، واستروحت النفوس شيئًا من الطمأنينة والسلام. قال ياسين لنفسه تعقيبًا على زورة شيخ الحارة: «الأحوال خارج البيت تتحسّن أمّا داخله فهي طين ووحل»، أجل قضت أكثريّة أهل البيت ليلة نكراء أحاطت بها الفضيحة ومزّق أوصالها النكد، زينب لم يستطع الصبر الذي تغلق به صدرها على حزنها وتذمّرها أن يصمد للمنظر المروّع الذي رأته

عيناها في حجرة جاريتها فتفجّر صدرها قاذفًا بِشُواظه كلّ سبيل، تعمّدت تعمّدًا أن يقرع عويلها آذان السيّد فجاءها مهرولًا متسائلًا... وكانت الفضيحة... قصّت عليه كلّ شيء متشجّعة بانفعالها الجنونيّ الذي لعلّها لولاه ما واتتها شجاعتها على مواجهته بما قصّت لما باتت تجد نحوه من تهيّب لم تجد مثله حيال أحد من الناس، انتقمت بذاك لكرامتها الذبيحة، وللصبر الذي تجرّعته حينًا مختارة وحملت عليه في أكثر الأحايين: «جارية! خادمة! في سنّ أمّه! وفي بيتي! ماذا عساه أن يفعل في الخارج إذن؟» لم تكن تبكي غيرة أو لعلّ الغيرة توارت إلى حين وراء حجب كثيفة من التقزّز والغضب كما تتوارى النار وراء سحب الدخان، وكأنّما غدت تؤثر الموت على أن تبقى معه تحت سقف واحد ولو يومًا واحدًا بعد ما كان، أجل هجرت مخدعها فقضت الليل في حجرة الاستقبال يقظى أكثره تهذي هذيان المحمومين ونائمة أقلّه نومًا ثقيلًا مريضًا مزعجًا. أصبحت وهي مصمّمة على هجر البيت. لعلّ هٰذا التصميم وحده الذي وجدت فيه مسكّنًا لأوجاعها. ماذا بوسع حميها نفسه أن يفعل؟... لن يستطيع أن يمنع المنكر بعد أن وقع، ولن يسعه مهما يكن جبروته أن ينزل بزوجها العقاب الذي يستحقّه حتّى يستشفي صدرها، أقصى ما يراه أن يزجره، أن يصبّ عليه غضبه، وسينصت ـ الفاسق ـ خافض الرأس كي يواصل فيما بعد سيرته الخبيثة!... هيهات. لقد رجاها السيّد أن تدع الأمر بين يديه، ونصحها طويلًا أن تعرض عن زلّته مستوصية بصبر الفضليات من مثيلاتها، ولكنّها لم تعد تحتمل الصبر أو العفو. جارية سوداء فوق الأربعين!... كلّا. ستهجره هٰذه المرّة بلا تردّد، ستفضي إلى أبيها ببثّها كلّه، وستبقى في كنفه حتّى يثوب إلى رشده، فإذا جاءها بعد ذٰلك نادمًا، وغيّر من سلوكه أو فلتذهب هٰذه الحياة كلّها ـ بخيرها وشرّها ـ إلى الشيطان، أخطأ ياسين حين ظنّها قد طوت صدرها على كربها عقلًا وحكمة، الحقّ أنّه غلبها الجزع من بادئ الأمر فبثّت همّها إلى أمّها، ولكنّ الأمّ أثبتت أنّها امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تتسرّب إلى الأب، وأوصت ابنتها بالصبر قائلة إنّ الرجال يسهرون ـ كوالدها مثلًا ـ وإنّهم أيضًا يشربون، وإنّه حسْبها أنّ بيتها عامر بالخير، وأنّ زوجها يعود إليها مهما سهر ومهما سكر. أصغت الفتاة إلى النصيحة على مضض، وجاهدت نفسها أيّما جهاد متحمّلة بالصبر ولم تألُ أن تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من أحلامها العريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصًا وقد دبّ الجنين في بطنها مبشّرًا بالأمومة المرموقة. ربّما كمن التذمّر في أعماقها بيد أنّها راضت نفسها على التسليم متأسّية بأمّها تارة وطورًا بامرأة سيّدها الكبير، ثمّ لم يخْلُ الحال من ريبة تختلج في صدرها بين حين وآخر عمّا يمكن أن يفعل زوجها في سهراته الخمريّة، وحدث أن أفضت إلى أمّها بمخاوفها، بل لم تخْفِ عنها ما لحق بالرجل من فتور في عواطفه. ولكنّ الأمّ الحكيمة أفهمتها أنّ ذاك الفتور ليس حتمًا نتيجة لما يقع في خاطرها، إنّه «شيء طبيعيّ» وإنّ الرجال جميعًا لديه سواء، وأنّها سوف تقتنع به بنفسها كلّما تقدّمت بها تجارب العمر. على أنّه لو صدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة؟... هل تراها تهجر بيتها لأنّ زوجها يلمّ بغيرها من النساء؟... كلّا. وألف مرّة كلّا، لو تخلّت امرأة عن مكانها لسبب كهٰذا لأقفرت البيوت من الفضليات، والرجل قد يطمح طرْفه إلى امرأة أو أخرى ولٰكنّه يعود دائمًا إلى بيته ما دامت زوجه خليقة بأن تبقى عنده المرجع الأخير والمأوى الثابت، والعاقبة للصابرات. ومضت تذكّرها بالمطلّقات بلا ذنب واللائي يشركهنّ في أزواجهنّ أخريات، أليس طيش زوجها ـ إن صحّ ـ خطبًا أخفّ من سلوك أولٰئك؟! ثمّ إنّه لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره، ومصيره يعقل فيثوب إلى بيته ويشغل بذرّيّته عن الدنيا جميعًا، ومعنى هٰذا أنّه ينبغي لها الصبر حتّى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق؟! ردّدت المرأة هٰذا، وغيره ممّا يجري مجراه، حتّى سلس جماح الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه. بيد أنّ واقعة السطح قضت على كلّ ما وطّنت النفس عليه فانهار البنيان جميعًا كأن لم

يكن.

ومع أنّ السيّد لم يفطن إلى هٰذه الحقيقة المؤسفة فظنّ الفتاة قد امتثلت لنصيحته إلّا أنّ غضبته كانت أشدّ من أن تمرّ بسلام، وقد أحسنت الجارية صنعًا بفرارها، أمّا ياسين فلم يبرح السطح، لبث يفكّر منزعجًا في العاصفة التي تتربّص به، حتّى ترامى إلى أذنيه صوت أبيه وهو يناديه بنبرات كفرقعة السياط فدقّ قلبه، ولكنّه لم يجب ولم يستجب وتسمّر يائسًا في مكانه، وما يدري إلّا والرجل يقتحم عليه السطح ثمّ يقف مدمدمًا لحظاتٍ وهو يتفحّص المكان حتّى يعثر على شبحه فيتّجه إليه ويقف على كثب منه شابكًا ذراعيه على صدره مصوّبًا نحوه رأسًا متصلّبًا متعجرفًا، ملتزمًا الصمت ومطيله كي يطيل له به العذاب والإرهاب، كأنّما أراد بصمته أن يعبّر له عمّا يجد نحوه ممّا يعيي الألفاظ حمله، أو أنّه أراد أن يرمز به إلى ما كان يودّ أن يؤدّبه به من مُبْرِح الركل واللكم فمنعه منه استواؤه رجلًا وزوجًا، ثمّ لم يعد يستطيع مع الصمت صبرًا فانهال عليه سبًّا وتعنيفًا وهو ينتفض غضبًا وهياجًا «أنت تتحدّاني تحت سمعي وبصري!... فلتذهب أنت وخزيك إلى جهنّم... دنّست بيتي يا وغد، هيهات أن يتطهّر هٰذا البيت ما دمت فيه... كان لك قبل الزواج عذر واهٍ فأيّ عذر لك الآن؟!»... «لو أصاب كلامي حيوانًا لأدّبه ولٰكنّه ينصبّ على حجر... إنّ بيتًا يضمّك خليق بأن تُستنزل عليه اللعنات»... نفّس عن صدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر وياسين بين يديه ساكن صامت خافض الرأس كأنّه يوشك أن يذوب في الظلام، حتّى أجهد الرجلَ الزعْقُ فولّاه ظهره وغادر المكان وهو يلعنه ويلعن أباه وأمّه، ومضى إلى حجرته يفور بالغضب فورًا. في ثورة الغضب رأى زلّة ياسين جريمة تستحقّ الإبادة، وفي ثورة الغضب لم يعد يذكر أنّ ماضيه كلّه صورة مطوّلة متكرّرة من ذلّة ياسين، وأنّه لا يزال دائبًا على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشبّ أبناؤه فصار منهم الأزواج والزوجات. لا لأنّه في ثورة الغضب ينسى حقًّا، ولٰكن لأنّه يُحِلّ لنفسه ما لا يُحِلّ لأحد من ذويه، له أن يفعل ما يشاء وعليه التزام الحدود التي يريدهم على أن يلتزموها فلعلّ غضبه على ما في ذنب ياسين من «تحدٍّ» لإرادته و«استهانة» بوجوده و«تشويه» للصورة التي يحبّ أن يتصوّره بها أبناؤه، كان أضعاف غضبه على الذنب نفسه، على أنّ غضبه ـ كما هي عادته ـ لم يستمرّ طويلًا، ما لبث أن خبا لظاه وخمد توقّده فعاوده الهدوء رويدًا وإن شاب مظهره ـ مظهره فقط ـ الوجوم والأسى، عند ذاك أمكنه أن ينظر إلى «جريمة» ياسين من أكثر من زاوية واحدة، أمكنه أن يتأمّلها بعقل مستقرّ فانجلى له قتامها عن مواضع شتّى ساخرة تسلّي بها عن وحدته الاضطراريّة. أوّل ما ابتدر ذهنه أن يلتمس للمذنب عذرًا، لا حبًّا في التسامح فإنّه يكره التسامح في بيته، ولٰكن ليتّخذ من ذاك العذر المرجّى «مبرّرًا» لخروجه عن إرادته، كأنّما يقول لنفسه «إنّ ابني لم يشقّ عصا الطاعة... هيهات، ولٰكن عذره كيت وكيت»... ولٰكن هل يلتمس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق؟... كلّا. إنّ الشباب عذر عن الذنب وليس عذرًا عن خروجه على إرادته وإلّا لجاز لفهمي بل لكمال أن يتماديا في الاستهانة بتعاليمه، ليلتمس العذر إذن عند رجولته، هٰذه الرجولة التي تحلّ له أن يستقلّ بنفسه عن إرادته ولو شيئًا ما وتعفيه هو ـ السيّد ـ من تحمّل مسئوليّة فعاله، كأنّما يقول لنفسه: «إنّه لم يخرج على إرادتي، هيهات، ولٰكنّه بلغ السنّ التي لا يعدّ فيها ذنبه خروجًا على إرادتي»... وغنيّ عن القول إنّه يأبى أن يعترف أمامه بهٰذا الحقّ ولن يعفو عنه لو يجاسر على المطالبة به، بل إنّه لا يعترف له به فيما بينه وبين نفسه إلّا في حال الوقوع في معصية تستوجب مبرّرًا للخروج على إرادته، ولم ينس حتّى في تلك الحال أن يذكّر نفسه التماسًا للمزيد من الطمأنينة ـ بأنّه أدّبه تأديبًا غليظًا نادرًا قلّ من يستبيحه من الآباء فقوبل بخضوع كامل قليل من يتحمّله من الأبناء... وعرّج خاطره إلى زينب متفكّرًا ولٰكنّه لم يجد نحوها أيّ عطف، لقد واساها إكرامًا لأبيها العزيز الحبيب، ولٰكنّه لا يظنّ أنّ الفتاة جديرة بأبيها حقًّا، ما

كان يخلق بزوجة كريمة أن تفضح زوجها ـ مهما تكن الظروف ـ على النحو الذي فضحت به ياسين!... لَشدّ ما أعولت!... لَشدّ ما صرخت!... ماذا كان يصنع هو ـ السيّد ـ لو أنّ أمينة فجَأته يومًا بمثل هٰذا التصرّف؟!... ولٰكن أين هي من أمينة؟!... ثمّ كيف قصّت عليه ما رأت دون حياء!... أف!... أف! لو لم تكن هٰذه الفتاة كريمة محمّد عفّت لحقّ لياسين أن يؤدّبها بل لما رضي هو أن تمرّ هٰده الواقعة دون عقاب زاجر، لقد أخطأ ياسين ولٰكنّها أخطأت خطأ أكبر. ثمّ عاد إلى ياسين سريعًا فراح يفكّر ـ بباطن مبتسم ـ في الطبيعة الواحدة التي تجمع بينهما، تلك الطبيعة الموروثة عن الجدّ بلا ريب، ومن يدري لعلّها تضطرم الآن في صدر فهمي تحت قناع التهذيب والاستقامة، بل ألا يذكر كيف عاد يومًا إلى البيت على غير انتظار فترامى إلى سمعه صوت كمال وهو يغنّي «يا طير يا للي على الشجر»؟!... تأخّر لحظتذاك وراء الباب ـ لا ليتظاهر بأنّه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب ـ ولٰكن ليتابع الصوت متذوّقًا معدنه سابرًا طول نفَسه، حتّى إذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوّة وهو يسعل ومضى إلى الداخل طاويًا صدره على ابتهاج لم يفطن إليه أحد، كم يلذّه أن يرى نفسه مترعرعة من جديد في حياة أبنائه على الأقلّ في ساعات الهدوء والصفاء، ولٰكن رويدًا... إنّ لياسين طبيعة خاصّة به لا يشركه هو فيها، أو أنّه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة إذا روعي المعنى الدقيق لهٰذه الكلمة، ياسين حيوان أعمى... ينقضّ مرّة على أمّ حنفي ويضبط مرّة أخرى مع نور، يتمرّغ في التراب دون مبالاة، وما هٰكذا هو! أجل إنّه يدرك مقدار الضيق الذي ألمّ بياسين لاضطراره إلى قضاء الليلة في شبه سجن، يدرك لأنّه كابده هو أيضًا كئيبًا محزونًا كمن فقد عزيزًا، ولٰكن همّه كان يتنزّه في بستان السطح ـ كما فعل الفتى ـ فصادف جارية ـ ولنفترض أنّها تكون ملبّية لذوقه ـ أكان يقدم على المغامرة؟... كلّا. مؤكّد كلّا، ولٰكن أيّ وازع كان يشكمه؟... لعلّه المكان؟ الأسرة! ولعلّه العمر الرشيد. آه. لقد تضايق عند ورود الوازع الأخير على ذهنه، وخيّل إليه أنّه يغبط ياسين على ريّق شبابه وجنون زلّته معًا!... مهما يكن من أمر فالطبيعتان مختلفتان، لم يكن السيّد ـ كابنه ـ مغرمًا بالمرأة بلا قيد ولا شرط، امتازت شهوته دائمًا بالرفاهية وحداها الانتخاب الرفيع، بل أثّرت في ميزاتها ميزات اجتماعيّة ضمّت إلى الميزات الطبيعيّة المألوفة، كان مغرمًا بالجمال الأنثويّ في لحمه وتبختره وأناقته، فلم تخل جليلة أو زبيدة أو أمّ مريم وعشرات غيرهنّ من ميزة أو أكثر من هٰذه الميزات، وفضلًا عن هٰذا كلّه فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب إلّا بالمنظر البهيج وبالمجلس الأنيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء، فلا يكاد يمضي طويل وقت على عشيقة جديدة حتّى تفطن إلى هواه فتهيّئ له ما تهفو إليه نفسه من جوّ عذب يعبق فيه الورود والبخور والمسك، وكما كان يعشق الجمال مجرّدًا كان يعشقه كذٰلك في هالاته الاجتماعيّة اللألاءة. تجذبه المكانة المرموقة والصيت البعيد، ويلذّ له أن ينوّه خاصّته بعشقه ومعشوقاته إلّا فيما ندر من أحوال توجب التستّر والكتمان كحال أمّ مريم، على أنّ هٰذا الحبّ «الاجتماعيّ» لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال، فالجمال والصيت ـ في هٰذا المجال ـ يسيران جنبًا لجنب كالشيء وظلّه، وغالبًا ما يكون الجمال اليد الساحرة التي تشقّ السبيل إلى الصيت والمكانة المرموقة، وقد عشق أشهر عوالم عصره فلم تخيّب إحداهنّ نزوعه إلى الجمال وولعه بالحسن. هٰذا ما جعله يذكر نزوات ياسين بازدراء وهو يردّد مستنكرًا «أمّ حنفي! نور!... يا له من حيوان» إنّه بريء من هٰذا الشذوذ بيد أنّه ليس في حاجة إلى أن يتساءل طويلًا عن مصدره فإنّه لم ينس بعد ذٰلك المرأة التي أنجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة، إنّه مسئول عن قوّة شهوته أمّا هي فمسئولة عن نوع هٰذه الشهوة النزّاعة إلى الحضيض. وقد عاوده في الصباح التفكير «الجدّيّ» في المسألة فكاد يدعو الزوجين إليه كي يصفّي ما بينهما ـ وما بينه وبين كليهما ـ من حساب، ولٰكن أرجأ ذٰلك إلى متّسع من الوقت أنسب من الصباح.

ولـمّا ساءل فهمي ياسين عمّا دعاه إلى التخلّف عن المائدة أجابه مقتضبًا «شيء تافه سوف أحدّثك عنه فيما بعد» وظلّ فهمي جاهلًا سرّ غضب أبيه على أخيه حتّى علم باختفاء الجارية نـور فحدس الأمـر كلّه. شهد الصباح الأسرة على غير مألوفها فقد غادر ياسين البيت مبكّرًا ولزمت زينب حجرتها ثمّ غادر الرجـال البيت واجفين متحاشين أن يرفعوا بصرًا صوب الجنود والأمّ من وراء خصاص المشربيّة تدعو الله أن يقيهم من كلّ سوء. ولم تشأ أمينة أن تقحم نفسها في «واقعة» السطح فنزلت إلى حجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر أن تلحق بها زينب كالعادة. لم تكن تقرّها على غضبتها لكرامتها فعَدَّتها تدليلًا أثار استياءها، وجعلت تتساءل «كيف تدّعي لنفسها من الحقـوق ما لم تـدّعه امـرأة قطّ؟...».

لا ريب أنّ ياسين قد أخطأ فدنّس البيت الطاهر ولٰكنّه أخطأ في حقّ أبيه وحرمته لا في حقّها هي... ألست ملاكًا بالقياس إلى هٰذه الفتاة؟!... ولٰكن لـمّا طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها وأقنعت نفسها بوجوب الذهاب إليهـا مواسيـة فصعدت إلى شقّتهـا ونادتها، ثمّ دخلت الحجـرة فلم تعثر لهـا على أثـر، ومضت من حجرة إلى حجرة وهي تنادي حتّى فُتِّشت البيت ركنًا ركنًا، ثمّ ضربت كفًّـا بكفّ وهي تقول «ربّاه... هل ارتضت زينب أن تهجر بيتها؟!...».

٥٩

لم تنجُ أمينة سحابة النهـار من قلق، فإنّ احتـمـال تعرّض الجنود لأحد من رجالها في ذهابه أو إيابه لم يكد يفارق رأسها. وكـان فهمي أوّل العائـدين فتخفّفت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولٰكنّها رأته متجهّـمًا فسألته:

ـ ماذا بك يا بنيّ؟

فهتف فهمي متأفّفًا:

ـ أكره أن أرى هٰؤلاء الجنود...

فقالت المرأة بإشفاق:

ـ لا تُبْدِ لهم الكراهية، إن كنت تحبّني لا تفعل...

ولٰكنّه لم يفعل بغير استعطافها. لم يتجاسر على أن يتحدّاهم ولو بالنظر وهو يتلمّس سبيله تحت رحمتهم، تحاشى أن ينحرف بصره إلى أحدهم، ومضى إلى البيت متسائلًا في سخرية عمّا كانوا يفعلونه لو أنّهم علموا بأنّه راجـع من مظاهـرة اشتبكت مـع جنـودهم في شبـه معركة، أو أنّه وزّع في مطلع اليوم عشرات المنشورات التي تحرّض على قتالهم، جلس يستعرض ما لاقاه في يومه مستحضرًا أقلّه كما وقع وأكثره كما كان يتمنّى أن يكـون. هٰكذا كـان رأيـه أن يعمـل نهارًا وأن يحلم مساء. تحدوه في الحالين أسمى العواطف وأفظعهـا، حبّ قومه من ناحية والرغبة في التقتيـل والإبادة من ناحية أخرى، أحلام يسكر بها وقتًا يطول أو يقصر ثمّ يفيق منهـا على حسرة لاستحـالتهـا وفتـور لسخـافـة تصوّراتها، أحلام تنسج لحمتهـا وسداهـا من معارك يتقـدّم صفوفهـا كجان دارك، واستيـلاء على سـلاح للعدوّ ثمّ الهجوم عليه، هزيمة الإنجليز، خطبة خالدة في ميـدان الأوبـرا، اضـطرار الإنجليـز إلى إعـلان استقلال مصر، عودة سعد من المنفى ظافرًا، لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم، مريم بين شهود الافتتاح التاريخيّ. أجل كانت أحلامه تتوّج دائمًا بصورة مريم رغم انزوائها ـ طوال تلك الأيّام ـ في ركن قصيّ من قلبه الذي شغلته الشواغل كلّها كما ينزوي القمر وراء السحب إبّان العاصفة. وما يدري إلّا وأمّه تقول له وهي تشدّ المنديل حول رأسها في ارتباك:

ـ ذهبت زينب إلى بيت أبيها غضبانة.

آه... كاد ينسى ما ألمّ بأخيه وأسرته في الصباح، الآن تأكّد لديه ما حدسه حين علم باختفاء الجـارية نور، وتحاشى عيني أمّه حياء أن تقرأ ما يدور بخلده خصوصًا وأنّه أيقن باطّـلاعها عـلى جليّة الأمـر، ولم يستبعـد أن تفطن إلى إدراكـه لـه أو في الأقـلّ أن ترجّحه، فلم يـذرِ ما يقـول لا سيّما أنّـه لم يعتد في محادثتها أن يبدي خلاف مـا يبطن، ولم يكن أبغض لديه من أن يقوم المكر مقام الصراحة بينهما، فقنع بأن يتمتم قائلًا:

ـ ربّما يصلح الحال...

لم تنبس أمينة بكلمة كأنّ اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفي جملة إخباريّة وأخرى دعائيّة في معالجته، وما لبث فهمي أن دارى ابتسامة كادت تفضح تحفّظه إذ أدرك أنّ أمّه تكابد مثل شعوره وأنّها تعاني ارتباكًا لعجزها الفطريّ عن التمثيل، لم تكن تحسن الكذب، وحتّى إذا اضطرّت إليه أحيانًا كشفتها طبيعة لا تستقرّ على بساطتها الأقنعة، على أنّ ارتباكهما لم يطل فما هي إلّا دقائق حتّى رأيا ياسين مقبلًا نحوهما. خيّل إليهما أنّه يطالعهما بوجه لا يقدّر المتاعب التي تترصّد في البيت وإن لم يعلم بعد بمدى ما بلغته، ولم يدهش فهمي لذلك كثيرًا لما يعلمه من استهانته بالمتاعب التي تنوء بغيره من الناس، ولكنّ الحقيقة أنّ ياسين غلبه شعور باهر بأنّه اجتاز مغامرة ظافرة أنسته إلى حين جلّ متاعبه. كان في طريقه إلى باب البيت حين اعترض سبيله جنديّ كأنّما انشقّت عنه الأرض فارتعدت مفاصله وتوقّع شرًّا لا قبل له به أو في الأقلّ إهانة جارحة على مرأى من أصحاب الحوانيت والمارّة، ولكنّه لم يتردّد في الدفاع عن نفسه، فقال برقّة وتودّد مخاطبًا الجنديّ كأنّما يستأذنه في المرور:

ـ من فضلك يا سيّدي.

ولكنّ الجنديّ طلب عود ثقاب وهو يبتسم ـ أجل يبتسم ـ فذهل ياسين لابتسامته حتّى استعصى عليه أن يفهم مراده حتّى أعاده، لم يكن يتصوّر أنّ جنديًّا إنجليزيًّا يبتسم على هٰذا النحو، أو ـ إذا كان الجنود الإنجليز يبتسمون كسائر البشر ـ أن يبتسم له أحدهم فيما يشبه الأدب، فاستخفّه سرورًا أربكه حتّى لبث جامدًا لحظات لا يحري جوابًا ولا يبدي حراكًا، ثمّ توثّب بكلّ ما فيه من قوّة لأداء هٰذه الخدمة البسيطة لذاك الجنديّ العظيم المبتسم، ولـمّا كان غير مدخّن فلا يحمل ثقابًا فقد بادر إلى الحاج درويش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع إلى الجنديّ مادًّا له يده بها فتناولها الجنديّ وهو يقول:

ـ أشكرك.

لم يكن أفاق من أثر الابتسامة السحريّة فجاء الشكر كقدح البيرة الذي يعلّ به من استوفى طاقته من الوسكي، ملأه الامتنان والزهو، تورّد وجهه المكتنز وضحكت أساريره وكأنّ عبارة «ثانك يو» نيشان سامٍ تقلّده على الملأ، إلّا أنّها ضمنت له أن يذهب ويجيء أمام المعسكر آمنًا، وما كاد الرجل يبدي أوّل حركة للذهاب، حتّى قال له متودّدًا من أعماق فؤاده:

ـ حظّ سعيد يا سيّدي.

ومضى إلى البيت كالمترنّح من الفرح. أيّ حظّ سعيد ظفر به هو!... إنجليزيّ ـ لا أستراليّ ولا هنديّ ـ وابتسم له وشكره!... إنجليزيّ أي رجل يتمثّل في خياله كأنموذج لكمال الجنس البشريّ، ربّما أبغضه كما يبغضه المصريّون جميعًا، ولكنّه في قرارة نفسه يحترمه ويجلّه حتّى ليخيّل إليه كثيرًا أنّه من طينة غير طينة البشر، هٰذا الرجل ابتسم له وشكره!.. وقد أجابه إجابات صحيحة مقلّدًا ما وسعته مرونة شدقيه طريقة النطق الإنجليزيّة فنجح نجاحًا باهرًا استحقّ عليه الشكر.. كيف يصدّق ما ينسب إليهم من الأعمال الوحشيّة!! لماذا نفوا سعد زغلول إذا كانوا على هٰذا الظرف كلّه؟! غير أنّ حماسه فتر بمجرّد أن وقع بصره على الستّ أمينة وفهمي واستطاع أن يقرأ نظرتهما، وسرعان ما اتّصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه، انتبه إلى أنّه يواجه مرّة أخرى المشكلة التي هرب منها مع الصباح الباكر. تساءل وهو يشير بإصبعه إلى فوق:

ـ لماذا لا تجلس معكما؟ ألا تزال غضبانة؟

فتبادلت أمينة مع فهمي نظرة ثمّ تمتمت بارتباك:

ـ ذهبت إلى أبيها.

فرفع حاجبيه دهشة وانزعاجًا ثمّ سألها:

ـ لماذا تركتها تذهب؟

فقالت أمينة وهي تتنهّد:

ـ تسلّلت دون أن يشعر بها أحد.

شعر بأنّه يجب أن يقول قولًا يرضي كرامته أمام أخيه وأمّه فقال باستهانة:

ـ إلى حيث...

وقرّر فهمي أن يقاوم رغبته في اللواذ بالصمت كي يوهم أخاه بأنّه لم يطّلع على سرّه وبالتالي أن ينفي

شبهة إذاعته هٰذا السرّ عن أمّه فسأله ببساطة:

ـ ما الذي دعا إلى هٰذا النكد؟!

فحدجه ياسين بنظرة متفحّصة ثمّ لوّح بيده الغليظة وهو يمطّ بوزه كأنّما يقول له «ليس ثمّة ما يدعو إلى النكد» ثمّ قال:

ـ بنات اليوم لم تعد بهنّ طاقة على حسن المعاشرة.

ثمّ ناظرًا إلى ستّ أمينة:

ـ أين هنّ ستّات الأمس؟!

نكّست أمينة رأسها حياء في الظاهر، وفي الحقّ لتداري ابتسامة لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التي يتّخذها ياسين الآن، صورة المتأمّل الواعظ المجنيّ عليه، والصورة التي ضبط بها مساء أمس فوق السطح. على أنّ انزعاج ياسين كان أعظم بكثير من القدر الذي سمح له الموقف بأن يتظاهر به، فإنّه على فداحة الخيبة التي مُني بها في حياته الزوجيّة لم يفكّر لحظة في قطع هٰذه الحياة، وجد فيها ملاذًا مستقرًّا ورعاية إلى ما بشّرت به من أبوّة وشيكة رحّب بها أيّما ترحيب، تمنّى دائمًا أن تبقى وراء ظهره ليعود إليها من شتّى جولاته كما يعود الرحّالة في نهاية العام إلى وطنه، ولم يغب عنه ما سيجرّه عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين أبيه وبين السيّد عفّت، إلى ما يلابس هٰذا كلّه من فضيحة ستفوح رائحتها حتّى تزكم الأنوف... بنت الكلب!... لَشدّ ما كان مصمّمًا على أن يستدرجها إلى الاعتراف بأنّها أخطأت خطأً أكبر من خطئه، بل لعلّه اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين، فأقسم ليحملنّها على الاعتذار وليأخذنّ نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل، ولٰكنّها ذهبت... قلبت خططه رأسًا على عقب... وضعته في مأزق غير يسير. بنت الكلب!... وانتُزع من تيّار أفكاره على صوت صراخ يمزّق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمي وأمّه فوجدهما يرهفان السمع باهتمام وقلق، وتواصل الصراخ فأدركوا بسهولة أنّه صادر عن امرأة، ولٰكن تساءلت أعينهم عن الناحية التي يترامى منها وعن سببه: أنعي ميت أم عراك أم استغاثة، وراحت أمينة تستعيذ بالله من الشرور جميعًا حتّى قال فهمي:

ـ إنّه قريب... لعلّه في طريق بيتنا.

ونهض فجأة مقطّبًا جبينه وهو يتساءل:

ـ ألا يكون الإنجليز قد هاجموا امرأة مارّة بالطريق؟

وهرع إلى المشربيّة والآخران في أثره، بيد أنّ الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلًا على الناحية التي ترامى منها، فرمى ثلاثتهم بأنظارهم خلال الخصاص يتفحّصون الطريق فاستقرّت على امرأة لفتت الأنظار بوقفتها الغريبة وسط الطريق وبمن أحاط بها من المارّة وأصحاب الحوانيت، على أنّهم عرفوها لأوّل وهلة وهتفوا معًا:

ـ أمّ حنفي...

وتساءلت أمينة التي كانت أرسلتها لتعود بكمال من المدرسة:

ـ ما لي لا أرى كمال معها؟! وماذا يوقفها هٰكذا كالجماد! كمال... ربّاه... أين كمال؟

ثمّ مدفوعة بشعور غريزيّ:

ـ هي التي كانت تصرخ... عرفت الآن صوتها... أين كمال؟... أغيثوني...

لم ينبس فهمي ولا ياسين بكلمة. استغرقهما فحص الطريق عامّة والمعسكر الإنجليزيّ خاصّة حيث رأوا أنظار المتجمّعين ـ وفي مقدّمتهم أمّ حنفي ـ تتّجه. لم يكن ثمّة شكّ لديهما في أنّ أمّ حنفي هي التي صرخت حتّى جمّعت الناس حولها، بل شعرا بالبداهة أنّها كانت تستغيث لأنّ ثمّة خطرًا تهدّد كمال، ثمّ تركّزت مخاوفهما في الإنجليز. ولٰكن أيّ خطر هو؟... وأين كمال؟... ماذا حدث للغلام؟ إنّ الأمّ لا تكفّ عن الاستغاثة بدورها وهما لا يدريان كيف يسكّنان خاطرها، لعلّهما في حاجة إلى من يسكّن خاطرهما... أين كمال؟... إنّ الجنود ما بين جالس وواقف وماض لطيّته، كلّ مشغول بشأنه كأنّ شيئًا لم يقع وكأنّ أحدًا من الناس لم يتجمّع. وهتف ياسين بغتة وهو يلكز فهمي في كتفه:

ـ ألا ترى هٰؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت سبيل بين القصرين؟... إنّ كمال يقف

بينهم... انظر.

فلم تملك الأمّ أن صرخت قائلة:

ـ كمال بين الجنود... ها هو يا ربّي... ربّاه... أغيثوني.

أربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكي الأذرع، وقد مرّت عينا فهمي أكثر من مرّة دون أن تعثرا على ضالّتهما، في هٰذه المرّة لمح كمال واقفًا وسط الدائرة كما لاح من فرجة انشقّت عنها ساقا الجنديّ الذي يوليهم ظهره، خيّل إليه أنّهم سيتقاذفونه بأرجلهم كالكرة حتّى يقضوا عليه، أنساه خوفه على أخيه نفسه فاستدار قائلًا بنبرات مضطربة:

ـ سأذهب إليه مهما تكن العواقب...

ولٰكنّ يد ياسين قبضت على منكبه وهو يقول بصوت حازم «قف»... ثمّ خاطب الأمّ بصوت هادئ باسم قائلًا:

ـ لا تخافي... لو أنّهم أرادوا أن يصيبوه بسوء ما تردّدوا... انظري إليه ألا يبدو منهمكًا في حديث طويل؟ ثمّ ما هٰذا الشيء الأحمر الذي بيده؟! أراهن على أنّها قطعة من الشيكولاته!... هدّئي روعك... إنّهم يتسلّون به «ومتنهّدًا» شدّ ما أفزعنا على لا شيء.

سكن روع ياسين، وما لبث أن تذكّر مغامرته السعيدة مع الجنديّ فلم يستبعد أن يوجد له من زملائه نظائر في لطفه ورقّته، ثمّ رأى أن يدعم قوله ويثبته في فؤاد الأمّ الملتاع فاشار إلى أمّ حنفي التي لم تزل في موقفها قائلًا:

ـ ألا تريان أنّ أمّ حنفي لم تكفّ عن الصراخ إلّا حين لم تجد داعيًا له. ها هم الناس ينفضّون من حولها تعلوهم الطمأنينة.

فغمغمت أمينة بصوت مرتعش:

ـ لن يطمئنّ قلبي حتّى يعود إليّ...

وتركّزت أعينهم في الغلام، أو فيما يلوح منه بين آونة وأخرى غير أنّ الجنود استردّوا أذرعهم المتشابكة وضمّوا سيقانهم المنفرجة كأنّما اطمأنّوا إلى عدول كمال عن التفكير في الهرب، فبدا الغلام بكامل هيئته، بدا باسمًا يتكلّم كما استدلّوا عليه من حركة شفتيه وإشارات يديه التي استعان بها على الإفصاح عن أفكاره فدلّ التفاهم بينه وبينهم على أنّهم يستطيعون إلى حدّ ما استعمال اللغة العربيّة، ولٰكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له؟... هٰذا ما لم يستطع أحد أن يخمّنه، بيد أنّهم ثابوا إلى رشدهم، حتّى الأمّ نفسها استطاعت أخيرًا أن تشاهد المنظر العجيب الذي يمثّل تحت ناظريها بدهشة ممزوجة بقلق صامت دون عويل أو استغاثة، على حين جعل ياسين يضحك قائلًا:

ـ الظاهر أنّنا غالينا في التشاؤم حينما ظننّا أنّ احتلال هٰؤلاء الجنود لحيّنا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهي.

ومع أنّ فهمي بدا ممتنًّا لسلوك الجنود مع كمال، إلّا أنّه لم يرتح إلى ملاحظة ياسين فقال دون أن تتحوّل عيناه عن الغلام:

ـ ربّما اختلفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم للأطفال. لا تغْلُ في تفاؤلك.

وكاد ياسين يندفع متحدّثًا عن مغامرته السعيدة، ولٰكنّه أدرك لسانه في اللحظة المناسبة فأمسك تفاديًا من إثارة أخيه، ثمّ قال على سبيل الملاطفة والتودّد:

ـ ربّنا يخلّصنا منهم على خير.

وتساءلت أمينة في لهفة:

ـ ألم يئن لهم أن يدعوه مشكورين؟

ولٰكن بدا على دائرة كمال أنّ ثمّة جديدًا ينتظر، فقد تراجع أحد الجنود الأربعة إلى خيمة قريبة ثمّ عاد بعد قليل بكرسيّ خشبيّ فوضعه أمام كمال، وما لبث الغلام أن وثب إلى الكرسيّ فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين إلى أسفل، كأنّما ينتظمه طابور القسم المخصوص، وقد انحدر طربوشه إلى قذاله ـ دون شعور منه في الغالب ـ كاشفًا عن مقدّم رأسه الكبير البارز. ما خطبه؟ ماذا وراء هٰذه الوقفة؟ لم يطل بأحد التساؤل إذ سرعان ما علا صوته الرفيع وهو ينشد:

يا عزيز عيني ... بدّي أروّح بلدي

يا عزيز عيني ... السلطة خدت ولدي

غنّاها مقطعًا مقطعًا بصوته اللطيف والجنود يتطلّعون إليه فاغري الأفواه ضاحكي الأسارير تلاحق أكفّهم ترديده بالتصفيق، وكان أحدهم قد تأثّر بما

أدركه من بعض معاني الأغنية فراح يهتف «أروّح بلدي... أروّح بلدي»... فتشجّع كمال بما حظي من سرور سامعيه وأقبل يجوّد من إنشاده ويحسّن من ترنّمه ويعلي من صوته، حتّى ختمت الأغنية بين التصفيق والاستحسان الذي شاركت فيه الأسرة من وراء الخصاص بقلوب ملؤها السرور والإشفاق. أجل شاركت الأسرة في الاستحسان بعد أن شاركت ـ بقلوبها أيضًا ـ في الغناء، تتبّعوه بإشفاق وقلق، دعوا له بالسلامة والإجادة، خافوا عليه الزلل أو النشاز كأنّما يغنّي بالإنابة عنهم جميعًا، أو كأنّما هم الذين يغنّون من حنجرته، وكأنّ كرامتهم ـ أفرادًا ومجموعة ـ أمست متعلّقة بنجاح الغناء، نسيت أمينة في لجّة هٰذا الشعور مخاوفها، حتّى فهمي لم يكن يفكّر في أثناء ذٰلك إلّا في الغناء وما يرجو له من نجاح، فلمّا انتهى بخير تنهّدوا من الأعماق وودّوا أن يبادر كمال إلى العودة قبل أن يطرأ طارئ يفسد عليهم مسك هٰذا الختام. والظاهر أنّ الحفلة آذنت بانتهاء فقد قفز كمال إلى الأرض فسلّم على الجنود فردًا فردًا ورفع يده محيّيًا ثمّ انطلق يعدو صوب البيت. فهرولت الأسرة من المشربيّة إلى الصالة لتكون في استقباله. أقبل عليها لاهثًا مورّد الوجه مبتلّ الجبين تنطق عيناه وأساريره وحركات أعضائه المرسلة بلا اتّزان أو غاية بالفرح والفوز. أترع قلبه الصغير سعادة غامرة ما كان بوسعه إلّا أن يعلن عنها بكلّ سبيل ودعو الآخرين إلى الاشتراك فيها كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان، وكانت نظرة واحدة تلقى بروية كافية لأن تريه مغامرته معكوسة على صفحات الوجوه... ولٰكنّ الفرح أعماه فهتف بهم:

ـ عندي خبر لن تصدّقوه ولن تتصوّروه...

فقهقه ياسين متسائلًا في سخرية:

ـ أيّ خبر يا عزيز عيني؟!

كشفت هٰذه الجملة الغشاوة عن عينيه كأنّها نور شعشع فجأة في الظلام فرأى الوجوه على ضوئها مفصحة ناطقة، بيد أنّ علمه برؤيتهم لمغامرته عوّضه عمّا ضاع من فرصة إدهاشهم بحديثه العجيب فأغرق في الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفّيه، ثمّ قال وهو يغالب الضحك:

ـ أرأيتموني حقًّا...؟!

عند ذاك جاء صوت أمّ حنفي وهي تقول بنبرات متشكّية:

ـ كان الأفضل أن يروا تعاستي!... عَلامَ هٰذا الفرح كلّه بعد أن سيّبت مفاصلي؟... حادثة أخرى كهٰذه والله يرحمني...

لم تكن قد خلعت ملاءتها فبدت كزكيبة فحم منتفخة، يعلو وجهها الشحوب والإعياء وتلوح في عينيها نظرة استسلام غريبة، فسألتها أمينة:

ـ ماذا حدث؟... ماذا دعاك إلى الصراخ؟... لقد لطف الله بنا فلم نشهد شيئًا مفزعًا...

فأسندت أمّ حنفي ظهرها إلى ضلفة الباب وأخذت تقول:

ـ حدث ما لن أنساه يا ستّي... كنّا عائدين وإذا بشيطان من هٰؤلاء الجنود يقفز أمامنا ويشير إلى سيّدي كمال ليذهب إليه ففزع سيّدي وجرى إلى درب قرمز، ولٰكن جنديًّا آخر اعترض سبيله فانحرف إلى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبي من الخوف وجعلت أستغيث بأعلى صوتي وعيناي لا تفارقانه وهو يجري من جنديّ إلى جنديّ حتّى أحاطوا به... كدت أموت من شدّة الخوف وزاغ بصري فلم أعد أرى شيئًا، وما أدري إلّا والناس قد اجتمعوا حولي ولٰكنّي لم أكفّ عن الصراخ حتّى قال لي عمّ حسنين الحلّاق: «ربّنا يكفيه شرّ أولاد الحرام. وحّدي الله.. إنّهم يلاطفونه...» آه يا ستّي لقد حضرنا سيّدنا الحسين ودفع عنّا الشرّ...

فقال كمال معترضًا:

ـ لم أصرخ أبدًا...

فضربت أمّ حنفي صدرها بكفّها قائلة:

ـ لقد ثقب صراخك أذنيّ حتّى جنّنتني...

فقال بصوت منخفض كالمعتذر:

ـ ظننتهم يريدون قتلي، ولٰكنّ أحدهم جعل يصفر لي ويربّت كتفي ثمّ أعطاني (وهنا جسّ جيبه)

شيكولاتة فذهب عنّي الخوف. . .

زايـل أمينة السرور، لعلّه كـان سرورًا زائفًـا متعجّـلًا، الحقيقة التي يجب ألّا تغيب عنهـا هي أنّ الفزع ركب كمال دقـائق، وأنّه يجب أن تـدعو ربّهـا طويلًا كي ينجّيه من عواقبه، لم تكن ترى في الفزع مجرّد شعور عابر، كلّا. . . إنّه شعور شاذّ تكتنفه هالة غامضة تأوي إليها العفاريت كما تأوي الخفافيش إلى الظلام، فإذا أحاط بشخص ـ خصوصًا الصغار ـ مسّه بضرّ سيّئ العاقبة، لـذلك فهـو يستوجب في نـظرها مزيدًا من العناية والحيطة، تلاوة من القرآن كانت أم بخورًا أم حجابًا، قالت بحزن:

ـ أفزعوك! قاتلهم الله. . .

وقرأ ياسين ما يدور في خاطرها. . . فقال مداعبًا:

ـ الشيكـولاتة رقيّـة ناجعـة للفزع. . . (ومخـاطبًـا كمال). . . هل دار الحديث بالعربي؟

رحّب كمال بالسؤال لأنّه فتح له مرّة أخرى أبواب الخيال والمغامرة، منتشلًا إيّاه من مضايقات الواقـع، فقال وقد استعادت أساريره انبساطها:

ـ كلّموني بعربي غريب!. . . ليتك سمعته بنفسك!

وراح يحـاكي طـريقتهم في الكـلام حتّى ضحـك الجميع، حتّى أمّه ابتسمت. . . فعـاد ياسـين يسألـه وكان يغبطه:

ـ ماذا قالوا لك؟

ـ كلامًا كثيرًا!. . . ما اسمك، أين بيتك، أتحبّ الإنجليز؟!

فهمي ساخرًا:

ـ وبم أجبتهم على هٰذا السؤال الفريد؟!

فرمق أخاه كالمتردّد. . . ولكنّ ياسين أجـاب عنه قائلًا:

ـ طبعًـا قال إنّـه يحبّهم. . . ماذا كنت تـريـد أن يقول؟. . .

على أنّ كمال استطرد يقول متحمّسًا:

ـ ولكنّي قلت لهم أيضًا أن يعيدوا سعد باشا.

فلم يتمالك فهمي أن ضحك عاليًا. . . وسأله:

ـ حقًّا!. . . وماذا قالوا لك؟

فقال كمال مستردًّا ارتياحه بضحك أخيه:

ـ أمسـك أحـدهم بـأذني وقـال لي «سعـد بـاشـا نو. . .».

فعاد ياسين يتساءل:

ـ وماذا قالوا أيضًا؟

فقال كمال ببراءة:

ـ سألوني. . . ألا يوجد بنات في بيتنا؟

فتبودلت نظرة جدّيّة بينهم لأوّل مرّة منذ قدِم كمال، ثمّ سأله فهمي باهتمام:

ـ وماذا قلت لهم؟

ـ قلت لهم إنّ أبلة عائشة وأبلة خديجة تـزوّجتا، ولٰكنّهم لم يفهمـوا كـلامي فقلت ليس في البيت إلّا نينة، فسألوني عن معنى نينة فقلت!. . .

رمى فهمي أخاه ياسين بنظرة كأنّما يقول: «أرأيت كيف أنّ سوء ظنّي في محلّه!» ثمّ ساخرًا:

ـ لم يعطوه الشيكولاتة لوجه الله. . .

فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلًا:

ـ ليس ثمّة ما يدعو إلى القلق. . .

وأبى أن يترك هٰذه السحابة تغشى مجلسهم فسـأل كمال:

ـ وكيف دعوك إلى الغناء؟

فقال كمال ضاحكًا:

ـ في أثنـاء الحديث انـطلق أحدهم يغنّي بصـوت منخفض، فاستأذنتهم في أن أسمعهم صوتي. . .!

فقهقه ياسين قائلًا:

ـ يا لك من فتًى جريء!. . . ألم يعاودك الخوف وأنت بين أرجلهم؟

فقال كمال في مباهاة:

ـ أبدًا. . . (ثمّ بتأثّر). . . ما أجملهم!. . . لم أر أجمـل منهم من قبـل. عيـون زرق . . وشعـر من ذهب. . . وبشرة نـاصعـة البيـاض. . . كـأنّهم أبلة عائشة!

وجرى فجأة إلى حجرة المذاكـرة ورفع رأسـه إلى صورة لسعد زغلول ثبّتت في الجدار إلى جانب صورة الخديو ومصطفى كامل ومحمّد فريد. . . ثمّ عاد وهو

يقول:

ـ إنّهم أجمل من سعد باشا كثيرًا...

فهزّ فهمي رأسه كالآسف وقال:

ـ يا لك من خائن...! اشتروك بقطعة من الشيكولاتة... لست صغيرًا ليغفر لك هٰذا القول، من مدرستك من يستشهد كلّ يوم، خيبة الله عليك...

وكانت أمّ حنفي قد أحضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البنّ... وأخذت أمينة تهيّئ القهوة للجلسة التقليديّة، عاد كلّ شيء إلى أصله إلّا ياسين فقد عاود التفكير في زوجه الغاضبة، على حين انتحى كمال جانبًا وأخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف المورّد اللامع، بدا أنّ تعنيف فهمي ضاع في الهواء إذ لم يكن في قلبه وقتذاك إلّا الرضى والحبّ...

٦٠

تعقّدت مشكلة ياسين الزوجيّة فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقّعها أحد، وما يدري السيّد أحمد إلّا ومحمّد عفّت قادم عليه في الدكّان في اليوم التالي لالتجاء زينب إلى بيته، ثمّ قال قبل أن يستردّ يده التي شدّ عليها السيّد بالسلام:

ـ يا سيّد أحمد... جئتك برجاء... يجب أن تطلّق زينب اليوم قبل الغد إن أمكن...

بهت السيّد، أجل قد ساءه سلوك ياسين أكبر إساءة، ولٰكنّه لم يتصوّر أن يبعث رجلًا فاضلًا كالسيّد محمّد عفّت إلى المطالبة بالطلاق، لم يتصوّر أن تدعو هٰذه «الهفوات» إلى الطلاق مطلقًا، بل لم يجْرِ له على بال أن تجيء المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة أبدًا، فخيّل إليه أنّ الدنيا انقلبت رأسًا على عقب، وأبى أن يصدّق أنّ محدّثه جادّ في طلبه فقال بلهجته اللطيفة التي طالما استأسرت قلوب أصدقائه:

ـ ليت الإخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وأنت تقذفني بهٰذه اللهجة القاسية!... أصغ إليّ... باسم صداقتنا أمنعك من أن تجري للطلاق ذكرًا على لسانك...

ثمّ تفرّس في وجهه ليسبر أثر كلامه فيه، ولٰكنّه وجده متجهّمًا كالحًا ينذر بالشرّ والتصميم، فبدأ يستشعر الخطورة والتشاؤم... دعاه إلى الجلوس فجلس وما تزداد صورته إلّا ظلامًا. إنّه يعرفه حقّ المعرفة، عنيد شديد المراس إذا ركبه الغضب كفر بالمودّة والمجاملة فتمزّقت على سنان حدّته أسباب القربى والعطف جميعًا، قال السيّد:

ـ وحّد الله... ولنتحدّث في هدوء...

فقال محمّد عفّت وكأنّه يقبس لهجته من نار الغضب الذي توهّج به خدّاه:

ـ صداقتنا في حرز، فلندعها جانبًا... ابنك ياسين لا يعاشر، تحقّقت من هٰذا بعد أن عرفت كلّ شيء، كم تصبّرت المسكينة!... حضنت همومها طويلًا، أخفت عنّي كلّ شيء، ثمّ بثّتها جملة حين تصدّع صدرها... يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرًا، أهانها ولفظها، ثمّ ماذا كانت عقبى صبرها الطويل؟! أن تضبطه في بيتها مع خادمتها! (وبصق على الأرض)... جارية سوداء؟... بنتي لم تخلق لهٰذا... كلّا وربّ السماوات، أنت أعرف الناس بمنزلتها عندي، كلّا... وربّ السماوات، لا كنت محمّد عفّت إذا سكتّ على هٰذا...

قصّة معادة، ولٰكنّ ثمّة جديدًا صدمه حتّى زلزله هو قوله إنّ ياسين «يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرًا»!... أعرف طريق الحانة أيضًا؟!... متى؟... كيف!... آه ليس في الوقت متّسع للتفكير أو الانزعاج، ليخفّف انفعاله كلّه، الساعة تتطلّب هدوءًا وضبطًا للنفس، يجب أن يملك الموقف ليتفادى استفحال الشرّ... قال بنبرات أسيفة:

ـ إنّ ما يحزنك يحزنني أضعافًا، ومن سوء الحظّ أنّ سوءة من السوءات التي حدّثتني عنها لم تتّصل لي بعلم أو تجْرِ لي على بال، اللّٰهمّ إلّا الحادثة الأخيرة وقد أدّبته عليها تأديبًا لا يستبيحه لنفسه أب غيري، ما عسى أن أصنع؟... لقد أخذته بالتأديب العنيف منذ كان

صبيًّا، ولٰكن وراء إرادتنا دنيا وشياطين تهزأ من تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيّبة.

قال محمّد عفّت وهو يتحاشى عيني السيّد بالنظر إلى المكتب:

ـ لم أجئ لأوجّه إليك لومًا أو أحمّلك تقصيرًا، أنت كأب مثال يحتذى ولا يجارى... ولٰكن هٰذا لن يغيّر من الحقيقة المحزنة، وهي أنّ ياسين كان غير ما أردت له أن يكون، وأنّه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة الزوجيّة.

فقال السيّد في عتاب:

ـ رويدك يا سيّد محمّد...!

فقال الرجل مستدركًا ولٰكن مصمّمًا على رأيه:

ـ على أيّ حال لن يصلح زوجًا لابنتي، سيجد من تقبله على علّاته ولٰكن غيرها، لم تخلق ابنتي لهٰذا... أنت أدرى الناس بمنزلتها عندي...

أدنى السيّد رأسه من رأس الرجل وقال بصوت منخفض... وكأنّما يداري ابتسامة:

ـ ليس ياسين بين الأزواج بنادرة، فكم منهم من يسكر ويعربد ويعمل البدع!

فقطّب محمّد عفّت لينفي عن نفسه شبهة الاستجابة لهٰذا الكلام الموحي بالدعابة... وقال بجفاء:

ـ إن كنت تشير إلى جماعتنا أو إليّ أنا خاصّة، فالحقّ أنّي أسكر وأعربد، وأعشق، ولٰكنّي... بل نحن جميعًا، لا نوحل في القاذورات!... جارية سوداء!... أهٰذه التي قضي على ابنتي بأن تتّخذها ضرّة؟!... كلّا... كلّا وربّ السماوات... لن تكون له ولن يكون لها...

أدرك السيّد أحمد أنّ محمّد عفّت ـ ربّما كابنته سواء بسواء ـ مستعدّ لأن يعفو عن أمور كثيرة، إلّا أن يخلط ياسين بين كريمته وبين جاريتها السوداء، إنّه يعرفه تركيًّا في عناد البغل، ثمّ ورد على ذهنه قول صديقه إبراهيم الفار يوم كاشفه بنيّته في خطبة زينب لابنه ياسين، فقد قال له: «أصيلة بنت أصيل، محمّد أخونا وحبيبنا، ابنته ابنتنا، ولٰكن هل فكّرت رويدًا في منزلة الفتاة من نفس أبيها... هل فكّرت في أنّ محمّد عفّت لا يتسامح من ذرّة غبار إذا مسّت لها ظفرًا؟!»...

لٰكنّه رغم هٰذا كلّه تعذّر عليه أن يقيس الأمور بغير مقياسه، وكان يفاخر دائمًا، بأنّ محمّد عفّت على فظاعة غضبه إذا غضب، لم يحتدّ عليه ولو مرّة واحدة طوال معاشرتهما المديدة!... قال متسائلًا:

ـ رويدك، ألا ترى أنّ مبادئنا واحدة وإن اختلفت التفاصيل؟ جارية سوداء أو عالمة... أليست كلتاهما امرأة؟!

فانتفخت أوداج محمّد عفّت وضرب حافّة المكتب بقبضته... وانفجر قائلًا:

ـ أنت لا تعني ما تقول! الخادمة خادمة والسيّدة سيّدة، لماذا لا تعشق الخادمات إذن؟! لم يشابه ياسين أباه، إنّي آسف لكون ابنتي حبلى، كم أكره أن يكون لي حفيد تجري في دمه القذارة!...

وخزته الجملة الأخيرة فغضب، ولٰكنّه استطاع أن يغلق قلبه على غضبه بقوّة حلمه الذي يحبو به أصدقاءه وأحبابه، حلم بين الأصدقاء لا يعادله في قوّته إلّا غضبه بين آله... ثمّ قال بهدوء:

ـ أقترح عليك أن تؤجّل الحديث إلى وقت آخر...

فقال محمّد عفّت محتدًّا:

ـ أرجو أن تحقّق رجائي الساعة...!

آه... لقد بلغ به الامتعاض حدًّا لم يكن الطلاق نفسه معه بالحلّ المستكره ولٰكنّه كان يشفق على صداقة العمر من ناحية، وتعزّ عليه الهزيمة من ناحية أخرى، أليس هو الرجل الذي يتشفّع به الناس ليفضّ الخصومات وليصل ما انقطع من المودّات والزيجات؟!... فكيف تحلّ به الهزيمة وهو يدافع عن ابنه فيرضى بحكم الطلاق؟!... أين حلمه؟... أين كياسته؟... أين لباقته؟...

ـ لقد أصهرت إليك لأوثّق أسباب الصداقة بيننا... فكيف أقبل أن أعرّضها للوهن؟...

فقال الرجل بإنكار:

ـ صداقتنا في حرز!... لسنا أطفالًا، ولٰكن كرامتي لا يمكن أن تمسّ...

فقال السيّد برقّة:

ـ ماذا عسى أن يقول الناس عن زيجة انقطعت ولـمّا تتمّ عامها الأوّل؟

فقال محمّد عفّت بعجرفة:

ـ لن يرجع عاقل العيب إلى ابنتي...

آه... مرّة أخرى!... ولكنّه تلقّاها بنفس الحلم، بدا وكأنّ استياءه لعجزه عن التوفيق قد غطّى استياءه من تهوّر الرجل الغاضب فلم يهتمّ بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير إخفاقه... راح يعزّي نفسه بأنّ الطلاق بيده هو وحده، إذا شاء منحه وإذا شاء منعه، محمّد عفّت يعلم ذٰلك حقّ العلم، لذٰلك جاء يستوهبه إيّاه باسم الصداقة التي لا شفيع له غيرها، فإذا قال لا فلا رادّ لكلمته، وسترجع الفتاة إلى ابنه طوعًا أو كرهًا،... ولكن تمسي الصداقة القديمة في خبر كان، أمّا إذا قال نعم فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجميل، وليس من العسير أن يتذرّع بكلّ أولٰئك في المستقبل لوصل ما انقطع، وإذن فالطلاق وإن يكن هزيمة إلّا أنّه هزيمة مؤقّتة تتضمّن تسامحًا ونبلًا غير منكورين وقد تنقلب فوزًا بعد حين. وما إن اطمأنّ إلى سلامة موقفه ولو بعض الشيء حتّى شعر بالرغبة في معاتبته على ما فرط في حقّه... فقال بلهجة ذات معنًى:

ـ لن يكون الطلاق إلّا بموافقتي... أليس كذٰلك؟... بيد أنّني لن أنبذ رجاءك ما دمت مصرًّا عليه، إكرامًا لك، إكرامًا للصداقة التي لم تَرْعَ لها حقًّا في مخاطبتي...

فتنهّد محمّد عفّت... إمّا ارتياحًا للنهاية المنشودة أو احتجاجًا على عتاب صديقه أو للإثنين معًا، ثمّ قال بلهجة قاطعة خلت من حدّة الغضب ولأوّل مرّة:

ـ قلت ألف مرّة إنّ صداقتنا في حرز...! إنّك لم تسئ إليّ قطّ، على العكس من ذٰلك فإنّك تكرمني بتحقيق رجائي وإن كرهته...

فردّد السيّد قوله محزونًا:

ـ نعم... وإن كرهته...

ثار حنقه حالما غاب الرجل عن ناظريه. انفجر الغيظ المكبوت فالتهم نفسه ومحمّد عفّت وياسين، ياسين خاصّة، ثمّ تساءل: تُرى هل يمكن أن تبقى الصداقة في حرز حقًّا فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقّعة؟... آه. لم يكن ليضنّ بنفيس في سبيل صون حياته عن مثل هٰذه الهزّة القاسية... لٰكنّه العناد التركيّ، لٰكنّه الشيطان، بل لٰكنّه ياسين، أجل ياسين دون غيره... قال له بغضب وازدراء:

ـ كدّرت صفو ودّ لم تكن الأيّام لتكدّره ولو اجتمعت له...

ثمّ قال له بعد أن أعاد على مسمعيه حديث محمّد عفّت:

ـ خيّبت أملي فيك فحسبي الله ونعم الوكيل، ربّيتك وأدّبتك ورعيتك... ثمّ انجلى تعبي كلّه عن ماذا؟... سكّير صعلوك تسوّل له نفسه الاعتداء على أحقر الخادمات في بيت الزوجيّة، لا حول ولا قوّة إلّا بالله، ما كنت أتصوّر أن يخرج من حضانتي ابن على هٰذه الصورة فالأمر لله من قبل ومن بعد، ما عسى أن أصنع بك؟... لو كنت قاصرًا لكسرت دماغك، ولٰكن لَتُكسّرنّها الأيّام، ها أنت تنال جزاءك الحقّ فتتبرّأ منك الأسرة الكريمة وتبيعك بأبخس الأثمان!...

لعلّه وجد نحوه بعض الرثاء، بَيْدَ أنّ سخطه غلب ثمّ استحال شعوره كلّه ازدراء، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوّته وجماله وضخامته، يوحل في القذارة كما قال محمّد عفّت قاتله الله، وعجز عن كبح جماح امرأة، ما أصغره، سرعان ما لحقت به الهزيمة التي لم يَنْجُ هو نفسه من هوانها من جرّاء طيشه. ما أحقره، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط أن يظلّ السيّد المطاع، أمّا أن ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره، لم يشابه أباه كما قال أيضًا محمّد عفّت قاتله الله، إنّي أفعل ما أشاء ولٰكنّي أظلّ السيّد أحمد وكفى، حكمة رائعة تلك التي ألهمتني أن أنشئ الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة، فإنّه لمّا يشقّ أن ينهجوا نهجي ويحظوا في نفس الوقت بالكرامة والاستقرار، ولٰكن واأسفاه ضاع جهدي هباء مع ابن هنيّة!...

ـ وهل وافقت يا أبي؟...

تردّد صوت ياسين كالحشرجة... فأجابه بخشونة قائلاً:

ـ نعم، إبقاءً على صداقة قديمة ولأنه أوفق حلّ في الوقت الحاضر على الأقلّ.

جعلت يد ياسين تنقبض وتنبسط في حركة آليّة عصبيّة، كأنّما كانت تشفط الدم من وجهه حتّى انقلب شديد الشحوب، شعر بهوان لم يشعر بمثله إلّا فيما كابد من سلوك أمّه، حموه يطالب بالطلاق!... أو بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق أو على الأقلّ توافق عليه!... أيّهما الرجل وأيّتهما المرأة؟! ليس عجيبًا أن ينبذ الإنسان حذاء أمّا أن ينبذ حذاء صاحبه!! كيف رضي أبوه له بهذا الخزي الذي لم يسمع بمثله من قبل؟!... حدج أباه بنظرة حادّة وإن عكست ما يعتلج في صدره من أنّات الاستغاثة، ثمّ قال بلهجة حرص الحرص كلّه على أن ينقّيها من أيّ أثر للاحتجاج أو الاعتراض، كأنّما يريد بها أن يذكّره بما عسى أن يكون أنسب:

ـ ثمّة طريقة لمعالجة الزوج الناشز...

شعر السيّد بشعور ابنه فأدركه التأثر، ولذلك لم يبخل عليه ببعض ما يدور في نفسه... فقال له:

ـ أعلم ذلك... ولكنّي اخترت أن نكون من الكرماء. محمّد عفّت عقل تركيّ حجريّ ولكنّ قلبه من ذهب، هذه الخطوة ليست الأخيرة، ليست النهاية، لم أغفل مصلحتك وإن كنت لا تستأهل خيرًا، دعني أتصرّف كما أشاء...

كما تشاء!... منذ يردّ لك مشيئة؟! تزوّجني وتطلّقني... تحييني وتميتني، لست هنا، خديجة عائشة فهمي ياسين... الكلّ واحد، الكلّ لا شيء، أنت كلّ شيء... كلّا... لكلّ شيء حدّ، لم أعد طفلاً، رجلاً مثلك سواء بسواء، أنا الذي أقرّر مصيري، أطلّق أو أودعها بيت الطاعة، تراب حذائي بمحمّد عفّت وزينب وصداقتكما...

ـ ما لك لا تتكلّم؟...

فقال دون تردّد:

ـ أمرك يا أبي...

أيّ عيشة وأيّ بيت وأيّ أب، زجر وتأديب ونصائح، ازجر نفسك... أدّب نفسك... انصح نفسك، أنسيت زبيدة؟... وجليلة؟... والغناء والشراب؟ ثمّ تطالعنا بعمامة شيخ الإسلام وسيف أمير المؤمنين، لم أعد طفلاً، اعْتَنِ بالقُصَّر ودعني وشأني، تزوّج... أمرك يا فندم... طلّق... أمرك يا فندم... ملعون أبوك.

٦١

خفّت حدّة المظاهرات شيئًا ما في حيّ الحسين بعد احتلال الجنود الإنجليز له فأمكن للسيّد أحمد أن يستأنف ممارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطرًّا إلى حين، أمكنه أن يصطحب أبناءه إلى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة... عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد... كان يدعو ابنه إليها حالما يبلغ صباه ليوجّه قلبه إلى العبادة مبكّرًا، مستوهبًا من ورائها البركة لنفسه ولأبنائه وللأسرة جميعًا، ربّما كانت أمينة وحدها التي لا ترتاح إلى تحرّك القافلة في نهاية كلّ أسبوع حاملة رجالها، ثلاثة رجال كالجبال طولاً وعرضًا إلى فتوّتهم وإشراقهم، كانت تُتبعهم ناظريها من خصاص المشربيّة فيخيّل إليها أنّهم ملتقى الأنظار فتجزع وتدعو الله أن يقيهم شرّ العين، وما ملكت يومًا أن أفضت بمخاوفها إلى السيّد فبدا وكأنّه تأثّر لتحذيرها حينًا، بيْد أنّه لم يستسلم للخوف طويلاً وقال لها: «إنّ بركة الفريضة التي نذهب لتأديتها حقيقة بأن تحفظنا من كلّ شرّ».

وكان فهمي يلبّي دعوة الجمعة ببشاشة قلب أولع بتأدية الفرائض منذ الصغر، مطيعًا في ذلك ـ قبل إرادة أبيه ـ عاطفة دينيّة صادقة، تمتاز إلى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به، استمدّه ممّا اطّلع عليه من آراء محمّد عبده وتلاميذه... لذلك كان الوحيد في الأسرة الذي يقف من إيمانها بالتعاويذ والرقى والأحجبة وكرامات الأولياء موقف المتشكّك، وإن أبت عليه دماثة خلقه أن يجهر بتشكّكه أو يعلن استهانته،

بل كان يتقبّل حجاب الشيخ متولّي عبد الصمد الذي يجيء به أبوه بين حين وآخر برضًى ظاهريّ. أمّا ياسين فكان يلبّي دعوة أبيه لأنّه لم يكن من تلبيتها بدّ، لعلّه لو ترك لشأنه ما فكّر يومًا في أن يدسّ جسمه الضخم في زحمة المصلّين، لا عن تزعزع في العقيدة، ولكن استهانة وتكاسلًا. . . لذا كان ليوم الجمعة عنده همّ يكابده مع مطلع الصباح، فإن حان وقت الذهاب إلى الجامع ارتدى بذلته في شيء من التذمّر، ثمّ يسير وراء أبيه كالأسير، ولكن كلّما اقترب من الجامع خطوة تخفّف من تذمّره رويدًا، حتّى يدخل الجامع منشرح الصدر فيؤدّي الصلاة ويدعو الله أن يغفر له ويعفو عن ذنوبه، دون أن يسأله التوبة كأنّما يشفق في أعماقه أن يستجاب دعاؤه فينقلب زاهدًا في اللذّات التي يحبّها حبًّا لا يرى للحياة بدونه معنًى. كان يعلم علم اليقين أنّ التوبة واجبة، وأنّ مغفرة لن تكتب له بدونها، ولكنّه كان يرجو أن تجيء في الوقت «المناسب» حتّى لا يخسر الدارَيْن، ولذا كان على تكاسله وتذمّره يحمد في النهاية الظروف التي تدفعه إلى تأدية فريضة هامّة كفريضة الجمعة يمكن ـ عند الحساب ـ أن تمحو بعضًا من سيّئاته وتخفّف من أوزاره، خصوصًا وأنّه لا يكاد يؤدّي غيرها فريضة.

أمّا كمال فلم توجّه إليه الدعوة إلّا حديثًا. مذ جاوز العاشرة، نهض إلى تلبيتها في زهو وخيلاء وفرح، شعر شعورًا غامضًا بأنّها تتضمّن اعترافًا بشخصه، وأنّها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمي وياسين وأبيه نفسه، ثمّ سرّه على وجه الخصوص أن يسير في ركاب أبيه آمنًا دون أن يتوقّع من ناحيته شرًّا، وأن يقف في الجامع إلى جانبه على قدم المساواة مؤتمّين جميعًا بإمام واحد. بيْد أنّه كان يستغرق في صلاته اليوميّة ـ في البيت ـ استغراقًا لا يظفر بمثله في صلاة الجمعة بالنظر إلى ما يعتريه من ارتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر، ولإشفاقه من أن تندّ عنه هفوة فتلتقطها إحدى حواسّ أبيه، إلى أنّ شدّة شعوره بالحسين ـ الذي يحبّه أكثر من نفسه ـ وهو في مسجده كانت تحول بينه وبين التوجّه الخالص لله كما ينبغي للمصلّي. . .

هٰكذا رآهم طريق النحّاسين مرّة أخرى وهم يحثّون الخطى إلى بيت القاضي، السيّد في المقدّمة وياسين وفهمي وكمال وراءه صفًّا، حتّى اتّخذوا مجالسهم في الجامع وراحوا ينصتون إلى خطبة الجمعة بين رءوس مشرئبّة إلى المنبر في صمت شامل، لم يكن السيّد على شدّة إنصاته يكفّ عن الدعاء الباطنيّ، وتوجّه قلبه إلى ياسين خاصّة، كأنّما رآه بعدما لحق به من عثار الحظّ أحقّ بالرحمة، فدعا الله طويلًا أن يصلح من شأنه ويقوّم ما اعوجّ من أمره ويعوّضه عمّا فقد خيرًا. . . على أنّ الخطبة جبهته بمعاصيه، أخلت ما بينه وبينها فطالعها وجهًا لوجه في هالة مرعدة من صوت الواعظ الجهوريّ الرنّان الناقد حتّى خيّل إليه أنّه يعنيه بالذات، وأنّه يشدّ على أذنه صارخًا فيها بأعلى صوته، وأنّه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قائلًا: «يا أحمد ازدجر. . . تطهّر من الفسق والخمر وتُب إلى الله ربّك» فألمّ به قلق وضيق كما ألمّا به يوم ناقشه الشيخ متولّي عبد الصمد الحساب، وهو ما يقع له كثيرًا عند سماع الخطبة فيسترسل في طلب الغفران والعفو والرحمة، ولكنّه ـ كابنه ياسين ـ لم يكن يطلب التوبة وإن طلبها فبلسانه دون قلبه، يقول بلسانه «اللّٰهمّ التوبة» على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنّهما آلتان موسيقيّتان تعزفان معًا في أوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان، لأنّه لم يتصوّر أن يرى الحياة بغير العين التي يراها بها ولا أن تبدو له بغير الوجه الذي تبدو به، فإذا ألحّ عليه القلق والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه. . . ولكنّه يلقى دفاعه في صورة دعاء واستغفار فيقول «اللّٰهمّ إنّك أعلم بقلبي وإيماني وحبّي، اللّٰهمّ زدني استمساكًا بتأدية فرائضك وقدرة على صنع الخير، اللّٰهمّ إنّ الحسنة بعشر أمثالها، اللّٰهمّ إنّك أنت الغفور الرحيم». . . وبهٰذا الدعاء تعاوده الطمأنينة رويدًا.

لم تكن لياسين مثل هٰذه المقدرة على التوفيق أو أنّه لم يشعر قطّ بحاجة إليها، لم تكن موضع تفكيره يومًا، يهيم بالحياة كما يشتهي ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو، ثمّ يستسلم للتيّار دون مقاومة أو ممانعة، قرعت

أذنيه كلمات الواعظ فتحرّك صوته الباطنيّ سائلًا الرحمة والمغفرة بطريقة آليّة وفي طمأنينة شاملة دون أن يستشعر خطورة حقيقيّة، إنّ الله أرحم من أن يحرق مسلمًا مثله بهفوات عابرة لا تؤذي أحدًا من عباده، ثمّ هنالك التوبة!... ستأتي «يومًا» فتمحو ما قبلها، واسترق نظره إلى أبيه وتساءل وهو يعضّ على شفتيه كأنّما يكتم ضحكة نافرة ممّا عسى أن يدور بخاطره وهو ينصت بهٰذا الاهتمام البادي إلى الخطبة؟... أهو يعاني العذاب كلّ صلاة جمعة أم تراه ينافق ويخادع؟... كلّا... لا هٰذا ولا ذاك... إنّه مثله ـ ياسين ـ يؤمن برحمة الله الواسعة، لو أنّ الأمر بالخطورة التي يصفه بها الواعظ لاختار أبوه إحدى السبيلين، استرق إليه نظرة أخرى فرآه كالجواد الكريم الجميل بين القاعدين المتطلّعين إلى المنبر، شعر نحوه بإعجاب وحبّ خالصين، لم يعد للحنق أثر في نفسه، ومع أنّ الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق، حتّى بثّ همّه إلى فهمي قائلًا: «لقد خرّب أبوك بيتي وجعلني أضحوكة بين الناس» إلّا أنّه تناسى الآن حنقه كما تناسى الطلاق والفضيحة وكلّ شيء، ثمّ هٰذا الواعظ نفسه ليس خيرًا من أبيه... بل هو على وجه اليقين أمعن في الضلال، حدّثه عنه مرّة أحد الأصحاب في قهوة أحمد عبده فقال: «إنّه يؤمن بشيئين... بالله في السماء وبالغلمان في الأرض، إنّه من طراز حسّاس ترفّ عينه وهو في الحسين إذا تأوّه غلام في القلعة»، بيد أنّه لم يحقد عليه لذاك، وعلى العكس وجد فيه كما وجد في أبيه ما يجد الجنديّ في الخنادق المحفورة في الخطوط الأماميّة التي على العدوّ أن يقتحمها قبل أن يصل إليه.

ثمّ دعا الداعي إلى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة، وقفوا صفوفًا متراصّة ملأت صحن الجامع الكبير، صار المسجد أجسادًا ونفوسًا ذكّر كمال احتشادها مشهد المحمل في النحّاسين واتّصلت الأزياء في خطوط طويلة متوازية وحّدتها البِدل والجبب والجلاليب، ثمّ انقلب الجمع جسمًا واحدًا تصدر عنه حركة واحدة مستشرفًا قبلة واحدة، وتردّدت التلاوات الهامسة في همهمة شاملة حتّى أذن بالسلام... عند ذاك انتثر سلك النظام، استردّت الحرّيّة أنفاسها، نهض كلٌّ لوجهته، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتّجه نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلبّث للحديث أو تريّث حتّى يخفّ الزحام... فاختلطت تيّاراتهم أيّما انتشار، أزفت الساعة السعيدة التي مني كمال بها... ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة إصالة عن نفسه وإنابة عن أمّه كما وعدها، بدأ يتحرّك ببطء في ركاب أبيه... وما يدري إلّا وشابّ أزهريّ يبرز من الزحمة فجأة فيعترض سبيلهم في حركة عنيفة لافتة للأنظار، ثمّ بسط ذراعيه لينحّي الناس جانبًا ومضى يتقهقر أمامهم وهو يتفحّص ياسين بنظرات ثاقبة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نار الغضب من صفحته المكفهرّة. عجب السيّد له فجعل يردّد بصره بينه وبين ياسين، على حين بدا ياسين أشدّ عجبًا فراح بدوره يردّد بصره بينه وبين أبيه متسائلًا، ثمّ انتبه أناس إلى المشهد فركّزوا فيه أنظارهم مترقّبين في دهشة واستطلاع وعند ذاك لم يتمالك السيّد أن خاطبه متسائلًا في استياء:

ـ ما لك يا أخي تنظر إلينا هٰكذا؟!

فأشار الأزهريّ إلى ياسين وصاح بصوت كالرعد:

ـ جاسوس!

نفذت الكلمة إلى صدر الأسرة كالرصاص فدار رأسها وحملقت أعينها وجمدت في أماكنها، على حين جرت التهمة على الألسن فردّدتها في فزع وحنق وأخذ الناس يتجمّعون حولهم وأذرعهم تشتبك في حذر لتحصرهم في دائرة ما لها من منفذ، وكان السيّد أوّل من ثاب إلى وعيه، ومع أنّه لم يفهم شيئًا ممّا يدور حوله... إلّا أنّه أدرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشابّ غاضبًا:

ـ ماذا تقول يا سيّدنا الشيخ؟... أيّ جاسوس تعني؟!

ولكنّ الشابّ لم يأبه للسيّد، فأشار مرّة أخرى إلى ياسين وصاح:

ـ حذار أيّها الناس، هٰذا الشابّ الخائن جاسوس من جواسيس الإنجليز اندسّ بينكم ليتسقّط الأنباء ثمّ

ينقلها إلى سادته المجرمين.

ركب الغضب السيّد فتقدّم من الشابّ خطوة وصاح به غير متمالك نفسه:

ـ أنت تهرف بما لا تعرف، فإمّا أن تكون مجرمًا أو مجنونًا، هٰذا الشابّ ابني لا خائن ولا جاسوس، كلّنا وطنيّون وهٰذا الحيّ يعرفنا كما نعرف أنفسنا.

فهزّ الشابّ منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطابيّ:

ـ جاسوس إنجليزيّ حقير، رأيته بعيني رأسي مرارًا وهو يناجي الإنجليز عند بين القصرين، عندي شهود على ذٰلك، ولن يجرؤ على تكذيبي... إنّي أتحدّاه... ليسقط الخائن...

وتجاوبت في أركان الجامع دمدمة غاضبة، تعالى الهتاف هنا وهناك «ليسقط الجاسوس»، وصاح غيرهم «فليؤدّب الخائن».

ولاحت في أعين القريبين نُذُر الوعيد تترصّد بادرة أو إشارة كي تنقضّ على الفريسة، لعلّه لم يؤخّر إقدامها إلّا منظر السيّد المؤثّر الذي وقف لصق ابنه كأنّما يتلقّى عنه ما يتهدّده من أذًى، ودموع كمال الذي أغرق في الانتحاب، أمّا ياسين فقد وقف بين السيّد وفهمي فاقد الوعي من الاضطراب والوجل، وجعل يقول بصوت متهدّج لم يسمعه أحد:

ـ لست جاسوسًا... لست جاسوسًا... الله على صدق قولي شهيد...

ولٰكنّ الغضب بلغ بالناس مداه، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة وهم يتدافعون بالمناكب ويتوعّدون «الجاسوس» شرًّا، على أنّ صوتًا من وسط الزحام ارتفع هاتفًا:

ـ تمهّلوا يا سادة... هٰذا ياسين أفندي كاتب مدرسة النحّاسين...

فانطلقت أصوات كالهدير:

ـ مدرسة النحّاسين أو الحدّادين فليؤدّب الخائن.

وكان رجل يشقّ طريقه بين الأجسام بصعوبة ولٰكن بعزم لا يقهر، فما بلغ الصفّ الأماميّ حتّى رفع يديه وهو يزعق: «اسمعوا... اسمعوا». ولـمّا هدأت الأصوات قليلًا قال وهو يومئ إلى السيّد أحمد:

ـ هٰذا السيّد أحمد عبد الجواد من أهل النحّاسين المعروفين... ولا يمكن أن يضمّ بيته جاسوسًا، فتريّثوا حتّى تنجلي الحقيقة.

ولٰكنّ الأزهريّ صرخ حانقًا:

ـ لا شأن لي بالسيّد أحمد أو السيّد محمّد، هٰذا الشابّ جاسوس مهما يكن من أمر أبيه، رأيته يضاحك الجلّادين الذين زحموا القبور بأبنائكم.

وما عتم أن صاح أناس لا حصر لهم:

ـ ليضرب بالأحذية...

وسرت في المتجمهرين حركة عنيفة، فأقبل متحمّسون من كلّ صوب ملوّحين بالأحذية والمراكيب حتّى شعر ياسين بالانهيار واليأس، دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا إلّا على وجه متحرّش يفور بالغضب والبغضاء، والتصق السيّد وفهمي بجانب ياسين بحركة غريزيّة كأنّما ليدفعا عنه الأذى أو ليقاسماه إيّاه، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه، على حين انقلب انتحاب كمال صراخًا كاد يغطّي على أصوات الثائرين. كان الأزهريّ أوّل المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضًا على بنيقة قميصه ثمّ جذبه بعنف لينتزعه من المأوى الذي لاذ به بين أبيه وأخيه حتّى لا تخطئه الأحذية، ولٰكنّ ياسين قبض على معصميه مقاومًا ودخل السيّد بينهما، ورأى فهمي أباه في الموقف المثير لأوّل مرّة في حياته... فاستفزّه غضب شديد أذهله عمّا يحدق بهم من خطر، دفع الأزهريّ في صدره دفعة قويّة ردّته إلى الوراء فصاح به متوعّدًا:

ـ حذار أن تتقدّم خطوة واحدة!

فصرخ الأزهريّ وقد جنّ جنونه:

ـ أدّبوهم جميعًا...

عند ذاك علا صوت قويّ يقول بلهجة آمرة:

ـ انتظر يا سيّدنا الشيخ... انتظروا جميعًا...

فاتّجهت الأنظار إلى الصوت، فإذا بأفندي شابّ يبرز من بين الجموع إلى الدائرة المحصورة يتبعه ثلاثة في مثل سنّه وزيّه، تقدّموا في خطوات ثابتة توحي بالثقة والعزم حتّى وقفوا بين الشيخ وذويه، تهامس

كثيرون متسائلين «بوليس... بوليس؟» بيد أنّ التساؤل انقطع حينما مدّ الأزهري يده إلى يد قائد الجماعة وشدّ عليها بحرارة، ثمّ سأل الأفندي الأزهريّ بنبرات حاسمة:

- أين هٰذا الجاسوس؟

فأشار الشيخ إلى ياسين بازدراء وتقزّز، فالتفت الشابّ إليه وثبّت عليه عينيه متفحّصًا إيّاه بدقّة وقسوة، وقبل أن ينبس بكلمة تقدّم فهمي خطوة إلى الأمام كأنّما ليسترعي انتباهه فلمحه الآخر... وسرعان ما اتّسعت عيناه دهشة وإنكارًا فغمغم قائلًا:

- أنت...

فابتسم ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكّم:

- هٰذا الجاسوس أخي!

فالتفت الشابّ إلى الأزهريّ متسائلًا:

- أأنت متأكّد ممّا تقول؟

فبادره فهمي قائلًا:

- ربّما صدق في قوله... إنّه رآه يحادث الإنجليز ولٰكن أساء التفسير أيّما إساءة، إنّ الإنجليز معسكرون أمام بيتنا وهم يتعرّضون لنا في الذهاب والإياب فنتورّط أحيانًا في محادثتهم على كره.. هٰذا كلّ ما هنالك.

وهمّ الأزهريّ بالكلام ولٰكنّ الشابّ أسكته بإشارة من يده، ثمّ خاطب الجمع قائلًا وهو يضع يده على منكب فهمي:

- هٰذا الشابّ من الأصدقاء المجاهدين، كلانا يعمل في لجنة واحدة فكلامه عندي مصدّق... أخلوا سبيلهم.

لم ينبس أحد بكلمة، انسحب الأزهريّ بلا تردّد ومضى الناس يتفرّقون، صافح الشابّ فهمي ثمّ ذهب يتبعه رفاقه، ربّت فهمي على رأس كمال حتّى كفّ عن البكاء، ساد الصمت فأخذ كلّ يضمّد جراحه، انتبه السيّد إلى وجوه نفر من معارفه قد أحاطوا به وراحوا يواسونه ويعتذرون إليه عن الخطأ الكبير الذي وقع فيه الأزهريّ ومن ضلّ به من الناس، ويؤكّدون له أنّهم لم يألوا جهدًا في الدفاع عنه فشكرهم، وإن كان لا يدري متى جاءوا ولا كيف دافعوا عنه، وعدل عن الزيارة لما استحوذ عليه من انفعال فاتّجه صوب الباب مطبق الفم متجهّم الوجه وتبعه الأبناء في صمت ثقيل.

٦٢

في الطريق استردّ أنفاسه، فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس الذين شاركوا في «الحادث» ولو بمجرّد الرؤية. كره وقتذاك كلّ شيء وراءه وقذفه باللعنات، لم يكد يرى من الطريق الذي يسير فيه شيئًا، فتبادل التحيّة مرّتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متكلّف لم يعهد فيه من قبل، تركّز شعوره في ذاته - ذاته الجريحة - وسرعان ما فار بالغضب... كان أحبّ إليّ أن تنتهي الحياة من أن أقف ذٰلك الموقف المزري، كالأسير بين طغمة من اللئام، وهٰذا المجاور المقمّل مدّعي الوطنيّة الجوعان تهجّم عليّ بكلّ وقاحة، لم يَرْعَ لي حرمة سنّ أو مهابة، لم أخلق لهٰذا، ليس «أنا» الذي يهان بتلك الكيفيّة، وبين أبنائي... لا تعجب... أبناؤك هم أصل البلوى... هٰذا الثور ابن المره لن يعفيك من متاعبك أبدًا. فقس الفضائح في بيتي وأوقع بيني وبين أعزّ الأصدقاء، ثمّ توّج عامنا بالطلاق... لم يكفه هٰذا كلّه، كلّا. ابن هنيّة لا بدّ أن يسامر الإنجليز جهارًا كي أدفع أنا الثمن للسفلة المتهجّمين، اذهب بهم إليها كي يكمل متحف عشّاقها بالإنجليز والأستراليّين.

- يبدو لي أنّني لن أخلص العمر من متاعبك؟

ندّت عنه هٰذه الجملة بحدّة، بيد أنّه قاوم رغبته في تأديبه لأنّه رغم غضبه قدّر حاله الذي يرثى لها، رآه ذاهلًا شاحبًا متوعّكًا فلم تطاوعه نفسه في الهجوم عليه، حسْبه الآن ما حاق به، ليس وحده الذي يتحفه بالمتاعب، هنالك البطل، ولٰكن فلنؤجّل همّه حتّى نفيق من متاعب الثور، ثور في البيت، في الحانة... ثور أمام أمّ حنفي ونور، أمّا في المعركة فهو رطل خرع لا فائدة منه ولا عائدة، يا أولاد الكلب!

الله يقطع الأولاد والخلف والبيوت، آه... لماذا تسوقني قدماي إلى البيت؟!.. لِمَ لا أتناول لقمتي بعيدًا عن الجوّ المسموم؟! ستولول هي الأخرى إذا علمت بالخبر، لست في حاجة إلى مزيد من القرف، إلى الدهّان... سأجد حتمًا صديقًا أقصّ عليه رزيّتي وأشكوا إليه همّي... كلّا... لديّ متاعب أخرى لا تقبل التأجيل أكثر من هٰذا. البطل، مصيبة جديدة يجب أن نجد لها علاجًا، إلى الغداء المسموم، وَلْولي... ولولي... ولولي... ملعون أبوك أنت الأخرى.

لم يكد فهمي يغيّر ملابسه حتّى دُعي إلى مقابلة والده، فلم يملك ياسين على خموده وكربه إلّا أن يغمغم قائلًا:

ـ جاء دورك...

فتساءل فهمي متجاهلًا المعنى الكامن وراء ملاحظة أخيه:

ـ ماذا تعني؟

فضحك ياسين ـ أجل وسعه أخيرًا أن يضحك ـ وقال:

ـ انتهى دور الخوَنة وجاء دور المجاهدين...!

لَشدّ ما تمنّى أن تغيب النعوت التي نعته بها صديقه في الجامع وراء ضجّة الثورة وذهول الانفعال، ولٰكنّها لم تغب، ها هو ياسين يردّدها، ولا شكّ أنّ أباه يدعوه من أجل مناقشتها. تنهّد فهمي من الأعماق ثمّ ذهب، وجد السيّد متربّعًا على الكنبة يعبث بحبّات سبحته وفي عينيه نظرة تنمّ عن تفكير كئيب، فحيّاه بأدب جمّ ووقف على بعد مترين من الكنبة في خضوع وامتثال، وردّ الرجل تحيّته بحركة خفيفة من رأسه تدلّ على الضيق أكثر ممّا تدلّ على التحيّة، وكأنّما تقول له: «إنّي أردّ تحيّتك مرغمًا كما تقضي اللياقة ولٰكن أدبك الزائف هٰذا لم يعد ينطلي عليّ». ثمّ حدجه بنظرة متجهّمة ينبعث منها شعاع الارتباك كأنّه مصباح كشّاف يفتّش عن مختبئ بالظلام وقال بحزم:

ـ دعوتك لأعرف كلّ شيء، أريد أن أعرف كلّ شيء، ماذا قصد في لجنة واحدة؟ صارحني بكلّ شيء دون تردّد.

ومع أنّ فهمي اعتاد في الأسابيع الأخيرة أن يواجه أخطارًا شتّى، حتّى الطلقات الناريّة ألف أزيزها، إلّا أنّه لاقى تحقيق أبيه بقلب ما قبل الثورة، ركبته الرهبة وشعر بأنّه لا شيء، وتركّز تفكيره في تحاشي غضبه ونشدان النجاة فقال برقّة وأدب:

ـ الأمر بسيط جدًّا يا بابا، لعلّ صديقي بالغ في قوله كي ينتشلنا من ورطتنا.

فقال السيّد وقد نفد صبره:

ـ الأمر بسيط جدًّا... عال... ولٰكن أيّ أمر هو؟... لا تُخْفِ عنّي أيّ شيء.

وكان فهمي يقلّب الأمر على مختلف وجوهه في سرعة خاطفة ليختار ما يصحّ قوله وتؤمن مغبّته... قال:

ـ سمّاها لجنة وهي لا تعدو أن تكون جماعة من الأصدقاء يتحدّثون كلّما اجتمعوا في الشئون الوطنيّة.

فهتف السيّد مغيظًا محنقًا:

ـ ألهٰذا استحققت لقب المجاهد...؟!

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنّما عزّ عليه أن يحاول ابنه اللعب به.. وارتسم الوعيد في تجعّدات عبوسته. فسارع فهمي ـ دفاعًا عن النفس ـ إلى الاعتراف بشيء ذي بال ليقنع أباه بأنّه امتثل لأمره كالمتّهم الذي يتطوّع بالاعتراف طمعًا في الرأفة... قال فيما يشبه الحياء:

ـ يحدث أحيانًا أن نقوم بتوزيع بعض النداءات الحاثّة على الوطنيّة...

فتساءل السيّد بانزعاج:

ـ المنشورات!... هل تعني المنشورات؟!

ولٰكنّ فهمي هزّ رأسه سلبًا، خاف أن يعترف بهٰذا الاسم الذي يقرن في البلاغات الرسميّة بأقصى العقوبات، وقال بعد أن وجد صيغة مقبولة تخفّف من خطورة اعترافه:

ـ ليست إلّا نداءات تحثّ على حبّ الوطن.

ترك الرجل السبحة تسقط من يده إلى حجره، وراح يضرب كفًّا على كفّ ويقول وهو لا يتمالك نفسه

من الانزعاج:

ـ أنت من موزّعي المنشورات!... أنت!...

زاغ بصر السيّد من شدّة الانزعاج والغضب: موزّع منشورات!... من الأصدقاء المجاهدين!... كلانا يعمل في لجنة واحدة!... هل بلغ الطوفان مرقده؟!... طالما راعه فهمي بأدبه وبرّه وذكائه، لولا أنّ الثناء في نظره مفسدة وأنّ الفظاظة تهذيب وتقويم لأوسعه ثناء، كيف انجلى هٰذا كلّه عن موزّع منشورات... مجاهد... كلانا يعمل في لجنة واحدة؟!... إنّه لا يحتقر المجاهدين، هو أبعد ما يكون عن ذٰلك، طالما تابع أنباءهم بحماس ودعا لهم عقب كلّ صلاة بالتوفيق، طالما ملأته أخبار الإضراب والتخريب والمعارك أملًا وإعجابًا، ولٰكنّ الأمر يختلف كلّ الاختلاف إذا صدر عمل من هٰذه الأعمال عن ابن من أبنائه، كأنّهم جنس قام بذاته خارج نطاق التاريخ، هو وحده الذي يرسم لهم الحدود لا الثورة ولا الزمن ولا الناس، الثورة وأعمالها فضائل لا شكّ فيها ما دامت بعيدة عن بيته... فإذا طرقت بابه، وإذا تهدّدت أمنه وسلامه وحياة أبنائه، تغيّر طعمها ولونها ومغزاها، انقلبت هوسًا وجنونًا وعقوقًا وقلّة أدب، فلتشتعل الثورة في الخارج وليشارك فيها هو بقلبه كلّه، وليبذل لها ما في وسعه من مال... وقد فعل ولٰكنّ البيت له وحده دون شريك، ومن تحدّثه نفسه ـ فيه ـ بالاشتراك في الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الإنجليز، إنّه يترحّم ليل نهار على الشهداء ويعجب كلّ الإعجاب بالشجاعة التي يتذرّع بها آلهم فيما يروي الرواة، ولٰكنّه لن يسمح لابن من أبنائه بأن ينضمّ إلى الشهداء ولا تطيب نفسه بهٰذه الشجاعة التي يتذرّع بها آلهم، فكيف سوّلت نفس فهمي له بالإقدام على هٰذه الخطوة الجنونيّة؟... كيف ارتضى ـ وهو خير أبنائه ـ أن يعرّض نفسه إلى الهلاك المبين؟... انزعج الرجل انزعاجًا لم يشعر بمثله من قبل، فاق انزعاجه في مأزق الجامع نفسه، فلم يتمالك أن يسأله بصرامة ووعيد كأنّه أحد مفتّشي البوليس الإنجليزيّ:

ـ ألا تعلم ما جزاء الذي يُضبط وهو يوزّع منشورات...؟!

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره فيه، أيقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزّت لها نفسه، ذكرى هٰذا السؤال نفسه بنصّه ومعناه حينما طرحه عليه الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذيّة ـ بين جملة أسئلة أخرى ـ وهو بصدد اختياره عضوًا فيها، ثمّ ذكر بالتالي كيف أجابه وقتذاك بعزم وحماس «كلّنا فداء للوطن» وقارن بين الظرفين اللذين ألقي فيهما السؤال الواحد، فاعتراه شعور بالسخرية، بيْد أنّه أجاب والده برقّة وبصوت يوحي بالتهوين:

ـ إنّي أقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط، ولا شأن لي بالتوزيع العامّ... فليس ثمّة مخاطرة أو خطر...

فهتف السيّد بغلظة وكأنّه يداري خوفه على ابنه بحدّة الغضب:

ـ إنّ الله لا يكتب السلامة لمن يعرّض نفسه للهلاك، وقد أمرنا سبحانه بألّا نعرّض أنفسنا للتهلكة...

ودّ الرجل أن يستشهد بالآية التي تترجم هٰذا المعنى، ولٰكنّه لم يكن يحفظ من القرآن إلّا السور القصيرة التي يتلوها في صلواته، فخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرّفه فيحمّل نفسه وزرًا لا يغتفر، فاكتفى بترديد المعنى وكرّره حتّى بلغ مداه، ولٰكنّه ما يدري إلّا وفهمي يقول بلهجته المهذّبة:

ـ ولٰكنّ الله يحثّ المؤمنين على الجهاد كذٰلك يا بابا...

ساءل فهمي نفسه فيما بعد متعجّبًا كيف واتته شجاعته على مجابهة السيّد بهٰذا القول الذي فضح ما داراه من استمساك برأيه!... لعلّه احتمى بالقرآن فوقف وراء معنًى من معانيه مطمئنًّا إلى أنّ أباه سيحجم في تلك الحال عن مهاجمته، وقد بوغت السيّد مباغتة شديدة بجرأة ابنه وحجّته معًا، ولٰكنّه لم يستسلم للغضب لأنّ الغضب ربّما أسكت فهمي ولٰكنّه لن يسكت حجّته، فتناسى جرأته إلى حين ريثما يقرع حجّته بحجّة مثلها من القرآن نفسه حتّى تتمّ

الهداية للابن الضالّ، وله بعد ذلك أن يعود إلى محاسبته كيفما شاء، وفتح الله عليه فقال:

ـ ذاك كان جهادًا في سبيل الله...

اعتبر فهمي جواب أبيه قبولًا للمناقشة والمحاجّة، فتشجّع مرّة أخرى قائلًا:

ـ جهادنا في سبيل الله كذلك، كلّ جهاد شريف فهو في سبيل الله...

آمن السيّد بقوله في قلبه، ولكنّ هذا الإيمان نفسه وما خلّفه من شعور بالضعف أمام محدّثه، هو ما جعله يرتدّ إلى غضبه دون إبطاء... بيْد أنّه لم يكن غضبًا لكبريائه فحسب، ولكن أيضًا لإشفاقه من أن يتمادى الشابّ في غيّه حتّى يودي بنفسه، فكفّ عن الجدل وتساءل مستنكرًا:

ـ أحسبتني قد دعوتك لتناقشني!

انتبه فهمي إلى ما تنطوي عليه كلمات أبيه من نذير، فضاعت أحلامه وانعقد لسانه... أمّا السيّد أحمد فعاد يقول بحدّة:

ـ لا جهاد في سبيل الله إلّا ما أريد به وجه الله وحده ـ أي الجهاد الدينيّ ـ لا جدال في هذا!... والآن أريد أن أعرف ألا يزال أمري مطاعًا؟

فبادره الشابّ قائلًا:

ـ بكلّ تأكيد يا بابا...

ـ إذن اقطع كلّ صلة بينك وبين الثورة... ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصّة أصدقائك!

إنّ قوّة في الوجود لا يمكن أن تحول بينه وبين واجبه الوطنيّ! لن يتراجع مطلقًا ولو خطوة واحدة، انتهى زمان ذلك إلى غير رجعة، إنّ هذه الحياة الحارّة الباهرة التي تنبعث من أعماق قلبه وتضيء جوانب نفسه لا يمكن أن تغيض وهيهات أن يغيضها هو بيده، كلّ هذا حقّ لا شكّ فيه، ولكن لماذا لا يلتمس وسيلة إلى إرضاء أبيه وتحامي غضبه؟!... إنّه لا يستطيع أن يتحدّاه ولا أن يجهر بمخالفة أمره... أجل استطاع أن يثور على الإنجليز وأن يتحدّى رصاصهم كلّ يوم تقريبًا، ولكنّ الإنجليز عدوّ مخيف وبغيض معًا أمّا أبوه فرجل مخيف ومحبوب، وهو يعبده بقدر ما يخافه فلن يهون عليه أن يصدمه بعصيان، وثمّة إحساس آخر لا سبيل إلى تجاهله هو أنّ وراء الثورة على الإنجليز مثاليّة نبيلة، أمّا وراء التمرّد على أبيه فليس إلّا الخزي والتعاسة، وماذا يدعو إلى هذا كلّه؟!... لماذا لا يعده بالطاعة ثمّ يفعل ما يشاء؟!... لم يكن الكذب في هذا البيت بالرذيلة المخزية، ولم يكن في وسع أحد منهم أن يتمتّع بالسلامة في ظلّ الأب دون حماية من الكذب، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين أنفسهم، بل ويتّفقون عليه في الموقف الحرج، وهل كان في نيّة الأمّ يوم تسلّلت في غيبة السيّد إلى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها؟ وهل كان في وسع ياسين أن يسكر، وهو أن يحبّ مريم، وكمال أن يتعفرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب؟!... ليس الكذب ممّا يتورّع عنه أحد منهم، ولو أنّهم التزموا الصدق مع أبيهم ما ذاقوا للحياة طعمًا، لهذا كلّه قال بهدوء:

ـ أمرك مطاع يا بابا...

وأعقب هذا التصريح صمت تنفّس فيه كلاهما من الراحة، فظنّ فهمي أنّ استجوابه قد انتهى بسلام، وظنّ السيّد أحمد أنّه انتشل ابنه من الهاوية، وبينما كان فهمي ينتظر أن يؤذن له بالانصراف، قام الأب فجأة واتّجه إلى صوان الملابس ففتحه ودسّ يده فيه والشابّ يراقبه بعينين لا تدركان شيئًا ثمّ عاد إلى مجلسه حاملًا القرآن، ونظر إلى فهمي مليًّا ثمّ مدّ يده بالكتاب إليه وهو يقول:

ـ أقسِم لي على هذا الكتاب...

وتراجع فهمي بحركة عكسيّة ندّت عنه قبل أن يتدبّر أمره، كأنّما يفرّ من لسان لهب امتدّ إليه فجأة، وتسمّر في موقفه وهو يحملق في وجه أبيه مرتبكًا مذعورًا يائسًا، فلبث السيّد مادًّا يده بالكتاب وهو ينظر إليه في غرابة وإنكار، ثمّ احمرّ وجهه كأنّه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف، وتساءل في ذهول وكأنّه لا يصدّق عينيه:

ـ ألا تريد أن تقسم؟!

ولكنّ لسان فهمي انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد

حراكًا، فتساءل الرجل بصوت هادئ تخلّلته رعشة متهدّجة أنذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما ينذر البرق بقعقعة الرعد:

ـ أكنت تكذب عليّ...؟

لم يطرأ على فهمي تغيّر إلّا أنّه غضّ بصره فرارًا من عيني أبيه، ووضع السيّد الكتاب على الكنبة ثمّ انفجر صائحًا بصوت مدوٌّ خاله فهمي كفوفًا تهوي على خدّيه:

ـ أنت تكذب عليّ يا بن الكلب!... أنا لا أسمح لمخلوق بأن يضحك على ذقني، ماذا تظنّ بي وماذا تظنّ بنفسك!... أنت حشرة خبيثة مجرمة، بنت كلب خدعت بظاهرها طويلًا، لن أنقلب امرأة على آخر الزمن، سامع؟! لن أنقلب امرأة على آخر الزمن، حيّرتموني يا أولاد الكلب وجعلتموني أضحوكة الناس، أنا أسلمك بنفسي إلى البوليس، فاهم؟! بنفسي يا بن الكلب، الكلمة هنا كلمتي أنا، أنا أنا أنا... (ثمّ متناولًا الكتاب مرّة أخرى) أقسم... آمرك بأن تقسم...

بدا فهمي وكأنّه في غيبوبة، كانت عيناه مثبّتتين على بعض الصور الغريبة المنقوشة على السجّادة الفارسيّة دون أن تريا شيئًا، وكأنّ تلك النقوش قد انطبعت بإدامة النظر على صفحة عقله فاستحال شتيتًا من الفوضى والخواء، وكلّما مرّت ثانية أمعن في الصمت واليأس، لم يبق له إلّا أن يلوذ بهٰذه المقاومة السلبيّة اليائسة، ونهض السيّد والكتاب في يده فاقترب خطوة منه ثمّ زعق:

ـ أتوهّمت أنّك رجل؟... أتوهّمت أنّك تستطيع أن تفعل ما تشاء؟!... لو أشاء أضربك حتّى أكسر رأسك..

لم يملك فهمي عند ذاك إلّا أن يبكي، لا خوفًا من التهديد فما كان يبالي في موقفه وتأثّره بأيّ أذًى يصيبه، ولكن تنفيسًا عن قهره وترويحًا عن الصراع الناشب في صدره، ثمّ جعل يعضّ على شفتيه ليكتم البكاء، ثمّ اعتراه الخجل لما ركبه من ضعف بيد أنّه وسعه أخيرًا أن يتكلّم لشدّة تأثّره من ناحية ومداراة لخجله من ناحية أخرى، فاسترسل قائلًا في ضراعة ورجاء:

ـ سامحني يا بابا، أمرك مطاع فوق العين والرأس ولكنّي لا أستطيع، إنّنا نعمل يدًا واحدة فلا أرضى ولا ترضى لي أن أنكص وأتخلّف على إخواني، هيهات أن تطيب لي الحياة إن فعلت، ليس ثمّة خطر وراء ما نعمل، غيرنا يقوم بأعمال أجلّ كالاشتراك في المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون، لست خيرًا منهم، إنّ الجنازات تشيّع بالعشرات معًا ولا هتاف فيها إلّا للوطن، حتّى أهل الضحايا يهتفون ولا يبكون. فما حياتي؟... وما حياة أيّ إنسان؟... لا تغضب يا بابا وفكّر فيما أقول... وأكرّر على مسمعك بأنّه ليس ثمّة خطر وراء عملنا السلميّ الصغير!...

وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففرّ من الحجرة هاربًا، كاد يصطدم وراء الباب بياسين وكمال اللذين وقفا ينصتان وقد ارتسم على وجهيهما الارتياع.

٦٣

كان ياسين ماضيًا إلى قهوة أحمد عبده حينما التقى في بيت القاضي بأحد أقرباء أمّه، فأقبل الرجل نحوه باهتمام ثمّ صافحه وهو يقول:

ـ كنت ذاهبًا إلى البيت لمقابلتك...

حدس ياسين وراء كلامه أنباء عن أمّه التي أورثته الهموم، فأحسّ ضيقًا وتساءل بفتور:

ـ خير إن شاء الله...؟

فقال الرجل باهتمام غير عاديّ:

ـ والدتك مريضة، مريضة جدًّا في الواقع، أصابها المرض منذ شهر أو أكثر ولكنّي لم أعلم به إلّا في هٰذا الأسبوع، وقد ظنّوه بادئ الأمر حالة عصبيّة فسكتوا عنه حتّى استفحل ثمّ تبيّن بعد فحص الأطبّاء أنّه ملاريا شديدة...

دهش ياسين للخبر الذي لم يكن يتوقّعه، كأنّه يتوقّع حديثًا عن طلاق أو زواج أو شجار وما شاكل ذٰلك، أمّا المرض فلم يقع له في حسبان، تساءل وهو لا يكاد يتبيّن مشاعره من شدّة اعتلاجها:

ـ وكيف حالها الآن...؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين:

ـ حالها خطيرة!... امتدّ العلاج دون أن يبشّر بأدنى تقدّم، وبالأحرى ازدادت الحال سوءًا، وقد أرسلتني إليك كي أصارحك بأنّها تشعر بدنوّ أجلها، وأنّها ترجو أن تراك دون تأخير...

ثمّ بلهجة ذات معنًى:

ـ يجب أن تذهب إليها بلا تردّد، هٰذه نصيحة ورجاء، والله غفور رحيم.

لعلّ كلام الرجل لم يخل من مبالغة أراد بها دفعه إلى الذهاب ولٰكنّه ليس اختلاقًا كلّه، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده، ها هو يخترق مرّة جديدة منحنى الطريق المفضي إلى الجمالية بين بيت المال وحارة الوطاويط، إلى يمينه عطفة التيه حيث تلبد بائعة الدوم في ذكريات الظلام المرتعشة وإلى الأمام طريق الآلام، سيرى عمّا قليل دكّان الفاكهة فيغضّ البصر ويتسلّل كاللصّ الهارب، كلّما ظنّ أنّه لن يعود إليه عادت به تعاسته، ما من قوّة كانت تستطيع أن تعيده إليها... إلّا الموت؟... الموت!... ترى هل حُمّت النهاية حقًّا؟!... قلبي يخفق، ألمًا؟... حزنًا؟... لا أدري إلّا أنّي خائف، إذا ذهبت فلن أعود إلى هٰذا المكان مرّة أخرى... سيغشى النسيان سالف الذكريات... ثمّ تردّ إليّ البقيّة الباقية من أملاكي، ولٰكنّي خائف... وحانق على هٰذه الأفكار الخبيثة، اللّٰهمّ احفظنا...

حتّى إذا حظيت بعيشة أرغد وبال أصفى فلن ينجو قلبي من الآلام، حين الموت سأودّع أمًّا بقلب ابن... أمّ وابن أليس كذٰلك؟... لست إلّا معذّبًا لا وحشًا ولا حجرًا، بيد أنّ الموت زائر جديد عليّ لم أشهد محضره من قبل، وددت لو كانت النهاية بغيره، سنموت جميعًا... حقًّا؟! يجب ألّا أستسلم للخوف، إنّ أنباء الموت لا تنقطع عنّا ليل نهار في هٰذه الأيّام، في شارع الدواوين والمدارس والأزهر، وهنالك في أسيوط كلّ يوم ضحايا، حتّى المسكين الفولي اللبّان فقد ابنه أمس، ما عسى أن يصنع أهل الشهداء؟... أيقضون العمر بكاء؟... إنّهم يبكون ثمّ ينسون وهٰذا هو الموت، أفّ... يخيّل إليّ أنّه ليس ثمّة مفرّ من المتاعب الآن، ورائي في البيت فهمي وعناده وأمامي أمّي فما أبغض الحياة! وإذا كان الأمر مكيدة ووجدتها في خير وعافية؟!... ستدفع الثمن غاليًا... يقينًا لتدفعنّ الثمن... لست لعبة أو أضحوكة، لن تجد «الابن» إلّا حين الموت، ترى ماذا بقي لي من ثروة؟... وإذا دخلت البيت ألتقي بذٰلك (الرجل) هنالك؟... لا أدري كيف أقابله... ستلتقي عينانا في لحظة رهيبة، الويل له، أتجاهله أو أطرده هٰذا هو الحلّ، هنالك ألوان من العنف لا تخطر له ببال، ولٰكن ستجمعنا الجنازة حتمًا... وهٰذا مضحك، تصوّر أن يسير وراء النعش أقدم الأزواج وأحدثهم وبينهما الابن دامع العينين... حتم وقتذاك أن تدمع عيناي... أليس كذٰلك؟... لن يكون في وسعي أن أطرده من الجنازة فتلاحقني الفضيحة حتّى اللحظة الأخيرة... ثمّ تدفن، أجل تدفن وينتهي كلّ شيء، ولٰكنّي خائف ومتألّم ومحزون، إنّ الله وملائكته يصلّون... هٰذه هي الدكّان المجرمة... وهٰذا هو... لن يعرفني، هيهات، إنّنا نتنكّر بالعمر، يا عمّ... أمّي تقول لك...

فتحت له الخادم الباب ـ نفس الخادم التي استقبلته منذ عام فأنكرته ـ فتطلّعت إليه كالمتسائلة لحظة، وسرعان ما غلبت نظرة التساؤل وراء لمعة كأنّما تقول له: «آه... أنت الذي تنتظر» ثمّ أفسحت له وهي تومئ إلى حجرة على يمين الداخل قائلة:

ـ تفضّل يا سيّدي... لا يوجد أحد...

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوّة كأنّما جاءته جوابًا شافيًا لبعض حيرته، فادرك أنّ أمّه أخلت له الطريق، اتّجه إلى الحجرة، تنحنح، ثمّ دخل، وقعت عيناه على عيني أمّه وهما ترفعان إليه من فراش على يسار الداخل، عينين حجبت صفاءهما المعهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتهما الواهنة كأنّما تتطلّع إليه من بعيد، وبالرغم من ذبولهما وما أوحى به انطفاؤهما من عدم الاكتراث لشيء فقد ثبتتا على وجهه ثبوت

العرفان، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان، لم يكن يبدو منها إلّا وجهها إذ اشتملت ببطّانيّة حتّى الذقن، وجه أدركه من التغيّر فوق ما أدرك العينين، جفّ بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورّد وشفّ جلده الرقيق عن عظام الفكّ والوجنتين البارزة فبدا صورة للرثاء والفناء، وقف ذاهلًا منكرًا كأنّه لا يصدّق أنّ ثمّة قوّة في الوجود تجرؤ على هٰذا العبث القاسي، فقبض قلبه فزعًا كأنّه يرى الموت نفسه، تخلّت عنه كأنّما ارتدّ طفلًا وافتقد أباه أيّما افتقاد، ثمّ دفعه تأثّر لا يقاوم إلى الفراش حتّى انحنى فوقها مغمغمًا في نبرات أسيفة:

ـ لا بأس عليك... كيف حالك؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت في حرارته آلامه المزمنة كما تغيب ـ في أحوال نادرة ـ ظاهرة مرضيّة ميئوس منها، كالشلل، عند هجوم فزع هائل مفاجئ... كأنّه يلقى أمّ طفولته التي أحبّها قبل أن تواريها عن قلبه الآلام، فتشبّث ـ وعيناه مرسلتان إلى الوجه الفاني ـ بهٰذا الشعور المستجدّ الذي ردّه أعوامًا طويلة إلى الوراء ـ إلى ما وراء الألم ـ كما يتشبّث المريض المتهالك بصحوة طارئة يخاف عليها إحساسًا باطنيًّا بوشك الزوال، تشبّث به بشدّة خليقة برجل يقدّر القوى المضادّة التي تتهدّده، وإن دلّ تشبّثه نفسه على أنّ آلامه لم تزل تضطرم في الأعماق منذرة إيّاه بما يترصّده من حزن إذا هو تهاون فخلط بشعوره الصافي ما يفسده من مشاعر أخرى، وأخرجت المرأة من تحت الغطاء يدًا ممصوصة معروقة اكتست بشرتها الجافّة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنّها يد محنّطة منذ آلاف السنين فتناولها بين يديه بتأثّر شديد، وعند ذاك سمع صوتها الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلًا:

ـ كما ترى، صرت خيالًا.

فغمغم:

ـ ربّنا يدركك برحمته، ويردّك إلى خير ممّا كنت.

فندّت عن رأسها المعصوب بخمار أبيض حركة دعائيّة كأنّما تقول: «ربّنا يسمع منك»، وأشارت إليه أن يجلس فجلس على الفراش ثمّ استرسلت ـ بقوّة جديدة استمدّتها من محضره ـ تقول:

ـ في أوّل الأمر كانت تنتابني رعشة غريبة فحسبتها طارئًا عصبيًّا، نصحوني بالطواف ببيوت الله وبالتبخّر فزرت الحسين والسيّدة وتبخّرت بأنواع شتّى من البخور الهنديّ والسودانيّ والعربيّ، ولٰكن لم تكن الحال تزداد إلّا سوءًا... أحيانًا كانت تملكني رجفة متواصلة لا تدعني حتّى أكون قد أشفيت على الهلاك، وتمرّ بي أوقات أجد جسمي باردًا كالثلج، وأوقات أخرى تمتدّ النار في جسدي حتّى أصرخ من شدّة الحرارة أخيرًا صمّم سـ... (أمسكت عن النطق بالفاعل منتبهة في اللحظة الأخيرة إلى الخطأ الذي كانت ستقع فيه). أخيرًا استحضرت الطبيب، ولٰكن لم يتقدّم بي العلاج خطوة واحدة نحو الصحّة إن لم يكن تأخّر خطوات، لم تعد ثمّة فائدة ترجى.

فقال ياسين وهو يضغط برقّة على راحتها:

ـ لا تيأسي من رحمة الله، إنّ رحمته واسعة.

فافترّ ثغرها المتقع عن ابتسامة ضعيفة وقالت:

ـ يسرّني أن أسمع هٰذا، يسرّني أن أسمعه منك أنت قبل الناس جميعًا، أنت عندي أغلى من الدنيا ومن عليها، صدقت إنّ رحمة الله واسعة، طالما ساءني الحظّ، لا أنكر الهفوات والأخطاء، العصمة لله وحده.

آنس ـ جزعًا ـ من حديثها ميلًا إلى ما يشبه الاعتراف، فانقبض صدره وجفل جفولًا حادًّا من أن تردّد على مسمعيه أمورًا لا يطيقها ولو على سبيل الندم والتكفير. فتوتّرت أعصابه حتّى أوشك أن تبدّل حالًا بعد حال، قال بتوسّل:

ـ لا تتعبي نفسك بالكلام.

رفعت إليه عينيها باسمة وهي تقول:

ـ مجيئك ردّ إليّ الروح، دعني أقُلْ لك إنّي لم أقصد في حياتي سوءًا بإنسان، كنت أنشد كسائر الخلق راحة البال فيعاندني الحظّ العاثر، لم أسئ إلى أحد ولٰكنّ كثيرين أساءوا إليّ.

شعر بأنّ رجاءه أن تمضي الساعة بسلام سيخيب... وأنّ عاطفته الصافية تعاني أزمة من التنغيص، فقال بلهجة التوسّل السالفة:

ـ دعي الناس بخيرهم وشرّهم، صحّتك الآن أهمّ من أيّ شيء آخر...

فربّتت على يده باستعطاف كأنّما تسأله أن يترفّق بها، ثمّ همست:

ـ فاتتني أشياء، لم أؤدّ إلى الله حقّه، وددت لو طال عمري حتّى أستدرك بعض ما فاتني، بيد أنّ قلبي كان دائمًا مفعمًا بالإيمان والله شهيد.

فقال وكأنّه يدفع عن نفسه وعنها معًا:

ـ القلب هو كلّ شيء، هو عند الله فوق الصوم والصلاة.

فشدّت على يده بامتنان ثمّ غيّرت مجرى الحديث قائلة بترحاب:

ـ وعدت إليّ أخيرًا، لم أجرؤ على دعوتك حتّى انتهى بي المرض إلى ما ترى، داخلني شعور بأنّني أودّع الحياة فلم أطق أن أفارقها قبل أن أملأ عينيّ منك، فأرسلت إليك وبي من الخوف من رفضك أكثر ممّا بي من خوف الموت نفسه، ولكنّك رحمت أمّك وأقبلت تودّعها فلك الشكر ودعاء أرجو الله أن يتقبّله.

اشتدّ التأثّر ولكنّه لم يدر كيف يعبّر عن شعوره، تثاقلت الكلمات الحنونة في فيه متعثّرة فيما يشبه الحياء أو الغرابة حالما أراد توجيهها إلى المرأة التي ألف مجافاتها ونبذها، بيد أنّه وجد في يده أداة تعبير طيّعة حسّاسة، فضغط على راحتها مغمغمًا:

ـ ربّنا يكتب لك السلامة.

وجعلت تدور حول المعنى الذي أفصحت عنه جملتها الأخيرة، مردّدة نفس الألفاظ تارة أو مستبدلة بها غيرها ممّا يدلّ على نفس معناها طورًا آخر، وراحت تفصّل الحديث بازدراد ريقها بجهد ملحوظ أو بالصمت القصير ريثما تستردّ أنفاسها، ممّا دعاه مرّات إلى أن يرجوها بالكفّ عن الحديث، ولكنّها كانت تبتسم لمقاطعته ثمّ تعود إلى مواصلة الحديث، حتّى توقّفت وقد لاح في وجهها اهتمام طارئ كلّما تذكّرت شيئًا ذا بال... وقالت:

ـ تزوّجت؟

فرفع حاجبيه في شيء من الضيق وتورّد وجهه، ولكنّها أخطأت فهمه فبادرته كالمعتذرة:

ـ لا عتاب... حقًّا كنت أودّ أن أرى عروسك وذرّيّتك، ولكن بحسبي أن تكون سعيدًا.

فما ملك أن قال باقتضاب:

ـ لست متزوّجًا، طلّقت منذ شهر تقريبًا.

لأوّل مرّة لاحت آي الانتباه في عينيها، لو كان في الإمكان أن يلتمعا لالتمعا... ولكن انبعث منهما شبه ضوء كالضوء الحالم الذي تنضح به ستارة كثيفة، وتمتمت:

ـ طلّقت يا بنيّ! ما أحزنني!

فابتدرها قائلًا:

ـ لا تحزني، لست حزينًا ولا آسفًا (ثمّ باسمًا) أخذت الشرّ وراحت.

ولكنّها تساءلت بنفس اللهجة:

ـ من الذي اختارها لك... هو أم هي؟!

فقال بلهجة نمّت عن رغبته في قفل باب هٰذا الحديث:

ـ اختارها الله، كلّ شيء قسمة ونصيب!

ـ أعلم هٰذا، ولكن من الذي اختارها لك؟ امرأة أبيك؟

ـ كلّا أبي الذي اختارها، ولا غبار على اختياره فهي من أسرة كريمة... ولكنّها القسمة والنصيب كما قلت.

فقالت ببرود:

ـ القسمة والنصيب واختيار أبيك... هٰذه هي!

ثمّ بعد وقفة قصيرة:

ـ حبلى...؟

ـ نعم...

وهي تتنهّد:

ـ الله ينكّد عيشة أبيك!

تعمّد ألّا يعقّب عليها، كما يمتنع عن حكّ قرحة تأكله لعلّها تسكن... فشملهما صمت، وأغمضت المرأة عينيها كأنّما أنهكها التعب، بيد أنّها فتحتهما هنيهة فابتسمت إليه وهي تسأله بصوت رقيق لا أثر فيه لانفعال:

- تُرى هل يمكن أن تنسى الماضي؟

فغضّ بصره متنفضًا وهو يشعر برغبة في الهرب لا تقاوم، ثمّ قال برجاء:

- لا تعودي إلى ذكراه، فليذهب إلى غير رجعة.

لعلّ قلبه لم يَعِ ما يقول، ولٰكنّ لسانه قال ما ينبغي أن يقال... أو لعلّ ذٰلك القول كان تعبيرًا صادقًا عن شعوره لحظتذاك، تلك اللحظة التي استغرقه فيها بكلّيّته الموقف المحيط به، ولعلّ قوله: «فليذهب إلى غير رجعة» قد وقع من مسمعه - ومن قلبه - موقعًا غريبًا خلّف وراءه قلقًا، ولٰكنّه أبى أن يجعله موضوعًا لتأمّله، فرّ من ذٰلك فرارًا، وتشبّث بعاطفته الصافية التي عقد العزم على التشبّث بها من بادئ الأمر، أمّا أمّه فعادت تسأله:

- وهل تحبّ أمّك كما كنت تحبّها في الزمن السعيد؟

فقال وهو يربّت على راحتها:

- أحبّها وأدعو لها بالسلامة.

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنيّ فيما انطبع على وجهها الذاوي من روح السلام والارتياح العميق، ثمّ شعر براحتها تضغط على يده كأنّما تبثّه ما يكنّه صدرها من امتنان، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمة حالمة أشاعت في الحجرة جوًّا من الطمأنينة والمودّة والحزن، لم يعد يبدو منها ما يدلّ على رغبتها في الحديث أو لعلّ الجهد حال بينها وبين هٰذه الرغبة، ثمّ تراخت جفونها رويدًا حتّى انطبقت، جعل ينظر إليها كالمتسائل ولٰكن لم تندّ عنه حركة، ثمّ انفرجت شفتاها قليلًا وانبعث منها شخير خفيف متقطّع. اعتدل في جلسته وهو يتوسّم وجهها ثمّ أغمض عينيه قليلًا ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذي طالعته به منذ عام فانقبض صدره وعاوده شعور الخوف الذي طارده طوال الطريق، ترى هل يتاح له أن يرى ذٰلك الوجه مرّة أخرى؟ وبأيّ قلب يلقاه إن عاد؟! لا يدري، لا يحبّ أن يتصوّر المضمر في علم الغيب، يودّ أن يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها، وأحاط به شعور الخوف والقلق، عجبًا! لقد ركبته رغبة في الهرب وهو ينصت إلى حديثها حتّى خيّل إليه أنّه ارتاح إلى نومها كلّ الارتياح ولٰكنّه ما كاد ينفرد بنفسه حتّى هاجمه الخوف... خوف لم يدرك له سببًا فتمنّى لو تصحو من سباتها وتعود إلى الحديث، حتّام ينتظر... هبها استغرقت في النوم حتّى الصباح!... لن يسعه أن يبقى طويلًا فريسة للخوف والقلق هٰكذا، يجب أن يضع حدًّا لآلامه... غدًا أو بعد غد تكون تهنئة أو تعزية... تهنئة أو تعزية؟! أيّهما أحبّ إلى نفسه؟! يجب أن يقف عن الحركة، تهنئة كانت أم تعزية لا ينبغي أن أسبق الحوادث، غاية ما يمكن قوله لو قدّر علينا أن نفترق الآن لافترقنا صديقين، تكون خير نهاية لأسوأ حياة، أمّا إذا مدّ الله في عمرها...

سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان - في الجهة المقابلة - التي عكست صورة الفراش فرأى جسم أمّه مطروحًا تحت البطّانيّة كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى إلّا يدها التي أخرجتها عند استقباله فحملها برفق وأدخلها تحت الغطاء ثمّ ثبّته حول عنقها بعناية، عاد ينظر إلى المرآة فخطر له هٰذا الخاطر! ربّما عكست هٰذه المرآة غدًا فراشًا خاليًا عاريًا!... ليست حياتها - حياة أيّ إنسان... لِمَ لا؟ - بأرسخ دوامًا من هٰذه الصور الوهميّة!... فاشتدّ به شعور الخوف وهمس لنفسه «يجب أن أضع حدًّا لآلامي... يجب أن أذهب»، بيد أنّ بصره تحرّك تاركًا المرآة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجيلة التفّ خرطومها حول عنقها كالثعبان فثبّت عليها في دهشة وإنكار سرعان ما حلّ مكانها شعور هائج بالتقزّز والغضب، ذٰلك الرجل! هو بلا ريب صاحب هٰذه النارجيلة... تخيّله متربّعًا على الكنبة القائمة بين الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذّذًا وأمّه تروّح له على الجمرات... آه تُرى أين هو الآن، في مكان بالبيت أم في الخارج؟ هل رآه من حيث لم يره؟... لم يعد يحتمل البقاء مع النارجيلة أكثر ممّا بقي فألقى نظرة على وجه أمّه التي وجدها مستغرقة في النوم ثمّ زايل مجلسه بخفّة وسار إلى الباب، ولمّا التقى بالخادم في الردهة الخارجيّة قال لها:

- ستّك نامت، سأعود غدًا صباحًا.

والتفت إليها مرّة أخرى وهو يغادر الباب الخارجيّ قائلًا:

ـ غدًا صباحًا.

كأنّما ينبّه الرجل نفسه إلى موعد حضوره ليختفي من وجهه، مضى إلى حانة كُستاكي رأسًا. شرب كعادته ولٰكنّه لم يطب بالشراب نفسًا، أعياه أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق، ومع أنّ أحلام الثروة وراحة البال لم تغب عن ذهنه إلّا أنّها لم تستطع أن تمحو عن مخيّلته صورة المرض وخواطر الفناء. ولمّا عاد إلى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة أبيه في انتظاره بالدور الأوّل فنظر إليها متعجّبًا ثمّ تساءل خافق القلب:

ـ أمّي؟!

فأحنت أمينة رأسها وقالت بصوت خافت:

ـ جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة، العمر الطويل لك يا ابني...

٦٤

تطوّرت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيّين إلى صداقة متبادلة، وقد حاولت الأسرة أن تتذرّع بمأساة ياسين في جامع الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولٰكنّه أجابهم بأنّه «صغير»، أصغر من أن يتّهم بالجاسوسيّة، ولكي يتفادى من منعهم إيّاه بالقوّة كان يمضي إلى المعسكر رأسًا بعد عودته من المدرسة تاركًا حقيبة كتبه مع أمّ حنفي فلم تكن ثمّة وسيلة إلى منعه إلّا باستعمال القوّة الأمر الذي لم يروا له موجبًا لا سيّما وأنّه يمرح في المعسكر تحت أعينهم متقبّلًا في كلّ موضع بالترحيب والتكريم، حتّى فهمي نفسه اغضى عنه ولم يكن يجد بأسًا في التسلّي بمشاهدته وهو يتنقّل بين الجنود «كقرد يلهو في غابة من الوحوش».

ـ قولوا لسيّدي الكبير.

هٰكذا اقترحت أمّ حنفي وهي تشكو تجرّؤ الجنود عليها ـ بسبب الصداقة اللعينة ـ ومحاكاة بعضهم لمشيتها بطريقة «يستحقّون عليها قطع رقبتهم» ولٰكنّ أحدًا لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجدّ، لا رحمة بالغلام فحسب، ولٰكن رحمة بهم هم أنفسهم خشية أن يجرّ التحقيق إلى معرفة تستّرهم الطويل على هٰذه الصداقة، فتركوا الغلام وشأنه، ولعلّهم لم يخلوا من رجاء في أن يقوم الشعور الطيّب المتبادل بين الغلام والجنود حائلًا بينهم وبين ما يحتمل أن يتعرّضوا له من عبث وأذًى في الذهاب والإياب! أسعد ساعات يومه كانت تلك التي يدخل فيها المعسكر، لم يكن جميع الجنود «أصدقاء» بالمعنى المفهوم من هٰذه الكلمة ولٰكن لم يعد أحد منهم يجهل شخصه، كان يصافح الأصدقاء ويشدّ على أيديهم بحرارة على حين يكتفي برفع يده، تحيّة للآخرين، وربّما صادف مجيئه قيام أحد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هاشًّا باشًّا وهو يمدّ يده فما يروعه إلّا أن يلقى منه جمودًا غريبًا مثيرًا كأنّما يتجاهله أو كأنّما تحوّل إلى صنم فلا يدرك أن ليس في الأمر تجاهل أو غضب إلّا من إغراق الآخرين في الضحك. ولم يكن من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصفير الإنذار، هنالك يهرعون إلى الخيام ثمّ يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم وخوذاتهم وحملوا بنادقهم، ويتحرّك لوري من موقفه وراء سبيل بين القصرين إلى وسط الطريق فيمضون إليه ويقفزون إلى داخله حتّى يكتظّ بهم، بات يدرك من المنظر الذي أمامه أنّ مظاهرة قامت في جهة ما وأنّ الجنود ذاهبون لتفريقها وأنّ قتالًا سينشب بينهم وبين المتظاهرين، ولٰكن لم يكن يهمّه في تلك الأوقات إلّا أن يتفقّد الأصدقاء ببصره حتّى يعثر عليهم في زحمة اللوري وأن يملأ منهم عينيه كأنّما يودّعهم، وأن يبسط كفّيه واللوري يبتعد بهم صوب النحّاسين داعيًا لهم بالسلامة ثمّ تاليًا الفاتحة!... على أنّه لم يكن يقضي في المعسكر أكثر من نصف ساعة كلّ أصيل وهو أقصى ما وسعه أن يتغيّبه عن البيت عقب عودته من المدرسة، نصف ساعة لم تكد تغفو فيها حاسّة من حواسّه دقيقة واحدة، يدور حول الخيام، يسير بين اللوريات مستطلعًا قطعها قطعة قطعة، يقف حيال أهرام البنادق طويلًا متفحّصًا أجزاءها جزءًا جزءًا خاصّة فوهة الماسورة التي يكمن فيها الموت... يقف على بعد لا

يسمح له بتجاوزه ونفسه ذاهبة حسرات على اللعب بها أو على الأقلّ لمسها، ولـمّا كانت زيارته توافق ميعاد الشاي فكان يمضي مع أصدقائه إلى المطبخ القائم عند مدخل درب قرمز ويأخذ مكانه في نهاية طابور «الشاي» كما يدعونه ثمّ يعود وراءهم حاملًا قدح شاي باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور السبيل يحتسون شرابهم وينشد الجنود أغاني جماعيّة وهو ينصت لهم باهتمام منتظرًا دوره في الغناء، تركت حياة المعسكر في نفسه أثرًا عميقًا بثّ في خياله وأحلامه يقظة شاملة، أثرًا نقش على صفحة قلبه إلى جانب الآثار التي نقشتها حكايات أمينة عن عالم الغيب والأساطير، وقصص ياسين الذي جذب روحه إلى دنياها الساحرة، والأطياف والرؤى التي تتخايل له في أحلام اليقظة وراء أغصان الياسمين واللبلاب وأصص الزهور ـ فوق السطح ـ عن حياة النمل والعصافير والدجاج، من ثمّ أنشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت أمّ مريم معسكرًا كامل العدّة والعدد، أقام خيامه بالمناديل والأقلام، وأسلحته بعيدان الخشب، ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى التمر، وعلى كثب من المعسكر مثّل المتظاهرين بالحصى. يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها في الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنادق غير أربع بينها حصاة (تمثّله هو) ينتحون جانبًا، يأخذ في محاكاة الغناء الإنجليزيّ ثمّ يجيء دور الحصاة لتغنّي «زوروني كلّ سنة مرّة» أو «يا عزيز عيني»، ينتقل إلى الحصى فينضّده صفوفًا ويهتف «يحيا الوطن... تسقط الحماية... يحيا سعد»، يعود إلى المعسكر مصفّرًا فتنتظم النوى صفوفًا كذلك وعلى رأس كلّ صفّ تمرة، ثمّ يدفع قبقابًا وهو ينفخ محاكيًا أزيز اللوري، ويضع النوى على سطح القبقاب ثمّ يدفعه مرّة أخرى صوب الحصى فتنشب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين!... ولم يكن يسمح لعواطفه الشخصيّة بأن تؤثّر في سير المعركة، على الأقلّ في بدئها ووسطها، كانت تتحكّم فيه رغبة واحدة هي أن يجعلها معركة «صادقة مشوّقة» يتنازعها الدفع والجذب من الجانبين وتتعادل الإصابات فتظلّ النتيجة مجهولة والاحتمال متأرجحًا بين الطرفين على أنّ المعركة لا تلبث طويلًا حتّى تستوجب نهاية تنتهي إليها، هنالك يجد نفسه في موقف حائر، أيّ جانب ينتصر؟... في جانب أصدقاؤه الأربعة وعلى رأسهم جوليون، وفي الجانب الآخر مصريّون يخفق معهم قلب فهمي!... في اللحظة الأخيرة يقرّر النصر للمتظاهرين فينسحب اللوري بقلّة من الجنود بينهم الأصدقاء الأربعة وإن كان قد ختم المعركة مرّة بصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت بأقداح الشاي ومختلف ألوان الحلوى...

وكان جوليون أعزّ أصدقائه، امتاز إلى جماله بدماثة الخلق فضلًا عن براعته النسبيّة في التكلّم بالعربيّة، وهو الذي جعل دعوته إلى الشاي حقًّا ثانيًا كما بدا أشدّ الجنود تأثّرًا بغنائه حتّى كان يدعوه كلّ يوم تقريبًا إلى غناء «يا عزيز عيني» فيتابعه باهتمام ثمّ يغمغم في تشوّق وحنين:

ـ أروّح بلدي... أروّح بلدي!

وآنس كمال منه هٰذه الروح فازداد له ألفة واطمئنانًا حتّى قال له مرّة جادًّا وكأنّما يدلّه عن مخرج من كربه:

ـ أرجعوا سعد باشا وعودوا إلى بلادكم!...

ولٰكنّ جوليون لم يَلْقَ اقتراحه بالارتياح الذي كان ينتظر وعلى العكس طلب إليه ـ كما فعل من قبل في ظرف مشابه ـ ألّا يعود إلى ذكر سعد باشا قائلًا: «سعد باشا... نو!» وهٰكذا فشل ـ على حدّ تعبير ياسين ـ أوّل مفاوض مصريّ!... ما يدري يومًا إلّا وأحد «الأصدقاء» يقدّم له صورة كاريكاتوريّة رسمها، فنظر كمال إليها بدهشة وانزعاج وهو يقول لنفسه «صورتي؟! ليست هٰذه صورتي!» ولٰكنّه شعر في قرارة نفسه بأنّها صورته دون غيره ولو على وجه ما، ثمّ رفع عينيه للواقفين فألفاهم يضحكون فأدرك أنّها نوع من المزاح وأنّ عليه أن يتقبّله بسرور فجاراهم في ضحكهم مداريًا بالضحك خجله، ولـمّا اطّلع عليها فهمي تفرّس هٰذا فيها بدهشة ثمّ قال:

ـ ربّاه... لم تترك عيبًا إلّا أبرزته!... الجسم النحيف الصغير، الرقبة الطويلة الهزيلة، الأنف

الكبير، الرأس الضخم، العينان الصغيرتان. . .

ثمّ ضاحكًا:

ـ الشيء الوحيد الذي يبدو أنّ «صديقك» يضمر نحوه إعجابًا هو بذلتك الأنيقة المهندمة ولا فضل لك في ذلك وإنّما الفضل لنينة التي لا تترك شيئًا في البيت إلّا هندمته!

ورمى إليه بطرف شامت ثمّ قال:

ـ بان السرّ الذي حبّبك إليهم!. . . إنّهم يتسلّون بالضحك على شكلك وأناقتك المفرطة، يعني بالعربي لست إلّا «قره جوز» في نظرهم. . . ماذا كسبت من وراء خيانتك؟!. . .

ولكنّ كلام فهمي لم يحدث أثرًا لأنّ الغلام كان يدرك مدى عداوته للإنجليز فظنّها مناورة يراد بها التفرقة بينه وبينهم!. . . وجاء يومًا المعسكر كعادته فرأى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلّع باهتمام إلى العطفة التي يفتح عليها بيت المرحوم السيّد محمّد رضوان فمضى نحوه ولكنّه رآه يلوّح بيده محدثًا إشارات غامضة لم يفقه لها معنى بيْد أنّه توقّف عن التقدّم ملبّيًا إحساسًا غريزيًّا خفي عنه معناه، ثمّ أغراه حبّ الاستطلاع بأن يدور حول الخيام المنصوبة أمام واجهة السبيل متسلّلًا إلى ما وراء جوليون وأن يمدّ بصره إلى الهدف الذي يتطلّع إليه، هنالك رأى كوّة في جناح بيت آل رضوان الذي يسدّ العطفة القصيرة يلوح منها وجه مريم واضحًا باسمًا مستجيبًا! وقف يردّد النظر بين الجنديّ وبين الفتاة في ذهول كأنّما يأبى أن يصدّق عينيه، كيف اقترفت مريم الظهور في الكوّة؟!. . . كيف تصدّت لجوليون على هٰذا النحو الفاضح؟! هو يلوّح بيديه وهي تبتسم!. . . أجل ها هي الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها!. . . وها هما عيناها يستغرقها النظر إليه حتّى أنّها لم تفطن بعد إلى وجوده هو! وندّت عنه حركة لفتت إليه جوليون فما كاد يطّلع على موقفه حتّى أغرق في الضحك وهو يرطن على حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة في ذعر بيّن. راح يتطلّع إلى الجنديّ في ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وإن بدا له الأمر كلّه غموضًا في غموض.

سأله جوليون متودّدًا:

ـ تعرفها؟. . .

فأحنى رأسه بالإيجاب ولم ينبس. غاب جوليون دقائق ثمّ عاد حاملًا لفافة كبيرة قدّمها إلى كمال قائلًا وهو يشير إلى بيت مريم:

ـ اذهب بها إليها. . .

ولكنّ كمال تراجع جافلًا وهو يهزّ رأسه يمنة ويسرة في عناد، لم تبرح تلك الحادثة مخيّلته، ومع أنّه شعر بخطورتها من بادئ الأمر إلّا أنّه لم يدرك مدى الخطورة على حقيقتها إلّا حين قصّ القصّة في مجلس القهوة مساء. استوت أمينة في جلستها وهي تتباعد وقد ظلّ فنجان القهوة معلّقًا بين أصبعيها لا هي تقرّبه من فيها ولا هي تضعه على الصينيّة على حين غادر فهمي وياسين الكنبة المواجهة لمجلس الأمّ مهرولين إلى الكنبة التي تجلس عليها هي وكمال وجعلا يحدّقان إليه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كلّ ما توقّع.

قالت أمينة وهي تزدرد ريقها:

ـ أرأيت هٰذا حقًّا!. . . ألم تخدعك عيناك؟!

وتأفّف فهمي:

ـ مريم؟! مريم؟! أمتأكّد أنت ممّا تقول؟!

وتساءل ياسين:

ـ أكان يشير إليها وكانت تبتسم إليه؟!. . . أرأيتها تبتسم حقًّا؟!. . .

وأعادت أمينة الفنجان إلى الصينيّة فأسندت رأسها إلى راحتها قائلة بلهجة تنمّ عن الوعيد:

ـ كمال! الكذب في مثل هٰذا الأمر جريمة لا يغفرها الله. . . راجع نفسك يا ابني. . . ألم تعدّ الحقّ في شيء؟!

وحلف كمال بأغلظ الأيمان فقال فهمي بيأس ومرارة:

ـ إنّه لا يكذب، ليس في وسع عاقل أن يتّهمه بالكذب فيما قال، ألا تدركون أنّ اختراع مثل هٰذه القصّة هو أبعد ما يكون عن تصوّر واحد في منه؟!. . .

فتساءلت الأمّ بصوت حزين:

ـ وكيف يسعني أن أصدّقه!

فقال فهمي وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ أجل كيف يمكن تصديقه!... (ثمّ بصوت حادّ) ولٰكنّه وقع... وقع...!

وقعت الكلمة الأخيرة من نفسه موقع الخنجر، كرّرها وكأنّما يكرّر الطعن متعمّدًا، حقًّا شغلته عن مريم الشواغل فلم تعد ذكراها تلوح إلّا في حاشية أحلام يقظته، ولٰكن الطعنة التي أصابت سمعتها نفذت إليها خلال قلبه. إنّه ذاهل... ذاهل... ذاهل، لا يدري إن كان نسي أم لم ينس، يحبّ أم يكره، يغضب للكرامة أم للغيرة... ورقة شجر جافّة في مهبّ زوبعة متناوحة...

ـ كيف يسعني أن أصدّقه؟... طالما كانت ثقتي في مريم كثقتي في خديجة أو عائشة، أمّها من الفضليات، أبوها طيّب الله ثراه كان من الأكرمين... جيران العمر ونعْم الجيران...

قال ياسين ـ الذي بدا طول الوقت مستغرقًا بالتفكير ـ بلهجة لم تخْلُ من سخرية:

ـ علام تعجبون؟... منذ القدم والله يخلق من صلب الأبرار أشرارًا.

فقالت أمينة محتجّة كأنّما تأبى أن تصدّق أنّها خدعت طوال ذٰلك الدهر:

ـ يشهد الله أنّي لم ألاحظ عليها ما يسوء قطّ...

فقال ياسين بحذر:

ـ ولا أحد منّا، حتّى خديجة العيّابة الكبرى، بل خدع بها من هو أفطن منك ومنّي!

فهتف فهمي متألّمًا:

ـ من أين لي أن أطّلع على الغيب؟! إنّه أمر يشقّ تصوّره.

وحنق على ياسين لدرجة الغليان، ثمّ بدا له الخلق جميعًا بغضاء، الإنجليز والمصريّون على السواء... الرجال والنساء ـ والنساء خاصّة ـ إنّه يختنق... هفت نفسه إلى الاختفاء ليتنشّق في وحدته نسمة راحة بَيْد أنّه لم يبرح مكانه كأنّما شدّ إليه بحبال غلاظ...

اتّجه ياسين إلى كمال متسائلًا:

ـ متى رأتك؟

ـ عندما التفت إليّ جوليون...

ـ ثمّ فرّت من النافذة؟

ـ نعم...

ـ هل رأت أنّك رأيتها؟

ـ التقت عينانا لحظة...

ياسين ساخرًا:

ـ مسكينة!... إنّها دون شكّ تتخيّل الآن مجلسنا هٰذا وحديثنا ذا الشجون!

ـ إنجليزيّ!...

هتف فهمي وهو يضرب كفًّا على كفّ.

ـ بنت السيّد محمّد رضوان!...

غمغمت أمينة متنهّدة وهي تهزّ رأسها عجبًا...

فقال ياسين متفكّرًا:

ـ مغازلة إنجليزيّ ليست بالمسألة الهيّنة على فتاة، هٰذه درجة من الفساد لا يمكن أن تظهر طفرة...

فسأله فهمي:

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنّه لا بدّ أن تسبقها درجات من الفساد!

فقالت أمينة برجاء:

ـ أستحلفكم بالله أن تمسكوا عن هٰذا الحديث...

فواصل ياسين حديثه، كأنّه لم يسمع رجاءها، قائلًا:

ـ مريم بنت سيّدة لها في التبرّج فنون بشهادتكنّ أنت وخديجة وعائشة...!

فهتفت أمينة بصوت ملؤه العتاب والزجر:

ـ ياسين!...

فقال ياسين كالمتراجع:

ـ أريد أن أقول إنّنا أسرة تعيش في حُقّ مغلق لا تكاد تعلم شيئًا عمّا يدور حولها، قصارى جهدنا أن نتصوّر الناس على مثالنا، اختلطت بنا مريم أعوامًا طوالًا ولٰكنّنا لم نعرفها على حقيقتها حتّى كشفها لنا آخر من ينشد عنده كشف الحقائق!...

وربّت على رأس كمال ضاحكًا، ولٰكنّ أمينة عادت

تقول بتوسّل حارّ:

ـ أستحلفكم بالله أن تغيّروا مجرى الحديث. . .

ابتسم ياسين ولم ينبس، فأطبق الصمت، لم يعد فهمي يتحمّل البقاء بينهم فاستجاب إلى الصوت الباطنيّ الذي يستصرخه ملهوفًا على الفرار. . . بعيدًا عن الأنظار والأسماع، هنالك يستطيع أن يخلو إلى نفسه، أن يعيد إليها الحديث من ألفه إلى يائه، كلمة كلمة، عبارة عبارة، جملة جملة، ليفهمه ويتفهّمه ثمّ ينظر أين يكون وضعه. . .

٦٥

كان الليل قد جاوز منتصفه عندما غادر السيّد أحمد عبد الجواد بيت أمّ مريم متلفّعًا بظلمة العطفة المسدودة. بدا الحيّ كلّه ـ كما أمسى يبدو مع الهزيع الأوّل من الليل مذ عسكر الإنجليز فيه ـ غارقًا في النوم متدثّرًا بالظلام، لا مقهى يسمر ولا بائع يسرح ولا دكّان يسهر ولا مارّ يدبّ، فلم يكن فيه أثر للحياة أو النور إلّا ما انبعث من المعسكر، ومع أنّ أحدًا من الجنود لم يتعرّض له بسوء في الذهاب أو الإياب إلّا أنّه لم يكن يخلو قطّ في قلق وتوجّس كلّما اقترب من المعسكر في طريقه إلى البيت خاصّة وأنّه يعود ـ آخر الليل ـ على حال من الإعياء والاسترخاء والذهول يشقّ معها مجرّد التفكير في السير الآمن المطمئنّ، انحدر إلى طريق النحّاسين ثمّ انعطف يمنة متّجهًا إلى البيت وهو يختلس النظر إلى الديدبان حتّى دخل أشدّ مناطق الطريق خطورة. . . تلك التي ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر، هنالك عاوده الإحساس الذي يخامره كلّما دخلها وهو أنّه هدف يسير لأيّ صائد، فحثّ خطاه ليخرج منها إلى الظلام المفضي إلى مدخل بيته ولكنّه ما كاد يخطو خطوة حتّى صكّ أذنيه صوت أجشّ غليظ يزعق وراءه راطنًا فادرك على جهله رطانته ـ من عنف اللهجة واقتضابها ـ أنّه رماه بأمر لا يقبل المناقشة فتوقّف عن السير والتفت وراءه مرتاعًا فرأى جنديًّا ـ غير الديدبان ـ يتّجه نحوه بقوّة شاكي السلاح، ماذا جدّ حتّى دعا إلى هٰذه المعاملة؟. . . أيكون الرجل ثملًا؟ أم لعلّه أذعن لنزوة اعتداء طارئة؟ أم هو يبتغي السلب والنهب؟ جعل يرقب اقترابه بقلب خافق وحلق جافّ وقد طار الخمار من رأسه. وقف الجنديّ على بعد خطوة منه ثمّ وجّه إليه بلهجة آمرة كلامًا سريعًا قصيرًا ـ لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة ـ وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملق السيّد في وجهه بيأس واستعطاف وهو يعاني مرارة العجز عن التفاهم معه كي يقنعه ببراءته ممّا يتّهمه به أو كي يعرف على الأقلّ ما يريد، ثمّ خطر له أنّه قصد بإشارته إلى بين القصرين أن يأمره بالابتعاد ظنًّا منه أنّه غريب فراح يشير إلى بيته بدوره ليفهمه أنّه من سكّانه وأنّه عائد إليه ولٰكنّ الجنديّ تجاهل حركته وهو يدمدم ثمّ أصرّ على إشارته وهو يهزّ رأسه في نفس الاتّجاه كأنّما يحثّه على الذهاب، ثمّ بدا أنّه ضاق به فقبض على منكبه وأداره بقوّة فدفعه في ظهره فوجد السيّد نفسه يتحرّك متّجهًا نحو بين القصرين والآخر وراءه فاستسلم ـ ومفاصله تكاد تسيب ـ إلى المقادير، جاوز في مسيره المجهول المعسكر ثمّ سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر أثر للضوء المنبعث من المعسكر فخاض أمواج الظلام الدامس والصمت الثقيل، لا منظر يرى إلّا أشباح البيوت ولا صوت يسمع إلّا وقع القدمين الغليظتين اللتين تتبعانه في نظام ميكانيكيّ كأنّهما يعدّان الدقائق الباقية له في الحياة، ولعلّها ثوان، أجل كان يتوقّع في أيّة لحظة أن ينقضّ عليه بخبطة تهوي به إلى النهاية فمضى يترقّبها بعينين محملقتين في الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقوة تتحرّك حركة عصبيّة من آن لآن كلّما ازدرد ريقه الجافّ الملتهب حتّى بوغت بوميض يجذب بصره إلى أسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الهلع وقد تهاوى قلبه ولٰكنّه تبيّنه دائرة من الضوء تذهب وتجيء فادرك أنّها شعاع من بطّاريّة أضاءها سائقه ليتعرّف على طريقه خلال الظلمات. استردّ أنفاسه بعد أن تخفّف من الذعر المباغت ولٰكنّه لم يستشعر نسمة راحة حتّى تلقّفه خوفه الأوّل، خوف الموت الذي يساق إليه، فعاد يترقّب حتفه بين لحظة وأخرى كأنّه

غريق توهّم في تخبّطه أنّه يرى تمساحًا يتوثّب لمهاجمته ثمّ تبيّن له أنّ ما رأى أعشاب طافية ولٰكن فرحته للنجاة من الخطر الوهميّ لم تكـد تتنفّس حتّى اختفت تحت ضغط الخطر الحقيقيّ المحيط به، إلى أين يسوقه؟ لو يستطيع أن يراطنه فيسأله! يبدو أنّه سيواصل سـوقه حتّى يدفع به إلى قرافة باب النصر، لا أثر لإنسان ولا لحيوان، أين الغفير؟ وحيد تحت رحمة من لا يرحم، متى كـان مثـل هٰـذا العـذاب... هـل يـذكـر؟ الكابوس... أجل إنّه الكابوس. كابده أكثر من مرّة خلال نوم مريض، إنّ ظلمة الكابوس نفسها لا تخلو أحيانًا من بارقة أمل قد يشرق بنفس النائم إحساس حنون بأنّ ما يعانيه حلم لا حقيقة وبأنّه سينجو من شرّه الآن أو بعد حين، هيهات أن يجود الدهر بمثل ذٰلك الأمل، إنّه صاحٍ لا نائم وهٰذا الجنديّ الشاكي السلاح حقيقة لا خيال وهٰذا الطريق الذي يشهد ذلّه وأسره شيء ملموس مخيف لا وهم، عذابه حقيقة لا سبيل إلى الشكّ فيها، إنّ أقلّ حركة ممانعة تندّ عنه خليقة بأن تطيح رأسه... لا سبيل إلى الشكّ في هٰذا أيضًا. قالت لـه أمّ مريم وهي تـودّعه: «إلى الغـد» الغد؟! هل يطلع ذٰلك الغد؟! سل القدمين الثقيلتين اللتين ترجّان الأرض وراء ظهرك... سل البندقيّـة ذات السـونكي الحادّ المـدبّب، قالت لـه أيضًا وهي تمـازحه «تكـاد رائحة الخمـر المتطايـرة من فيـك أن تسكرني»، الآن طارت الخمر وطار عقله، ولّت ساعة الصبوة، منذ دقائق معدودة... كـانت الصبوة كـلّ شيء في الحياة. الآن العذاب هو كلّ شيء... وليس بـين هٰـذا وذاك إلّا دقـائـق مـعـدودة، دقـائـق معدودة؟!... عندمـا بلغ منعطف الخـرنفش جذب عينيه شعاع يـومض في الظلام فلحظ الـطريق فرأى بطّاريّة تتحرّك في يد جنديّ آخر يسوق بين يـديه أشباحًا لم يتبيّن عددهم!... تساءل ترى هل صدرت إلى الجنود أوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال ليـلًا؟!... وإلى أين يسوقـونهم؟... وأيّ عقـاب سيقضون به عليهم؟ تساءل طويلًا وهو من الدهش والانـزعاج في نهايـة بيد أنّ رؤيتـه للضحـايـا الجـدد أدخلت على قلبه شيئًا من العزاء والارتياح، لم يعد على الأقـلّ وحيدًا كـما كان يـظنّ، وجد في بلواه أنـدادًا يؤنسون وحشته ويشاركونه المصير، كان يتقدّم قافلتهم بمسافة قصيرة فراح ينصت إلى وقع أقدامهم مستأنسًا إليها كما يستأنس الضالّ في مفازة إلى أصوات آدميّة ترامت إليه مع الريح، ولم تكن أمنية أعزّ على نفسه آنئذ من أن يلحقوا به لينضمّ إلى جماعتهم، سواء كانوا معـارف أو غربـاء، لتخفق قلوبهم معًا وهم يحثّـون الخطى نحو المصير المجهول. هٰؤلاء الرجال أبرياء وهو بريء ففيمَ القبض عليهم؟ فيم القبض عليه هو مثلًا؟ لا هو من الثوّار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتّى من الشبّان فهل يطّلعون على الأفئدة ويحاسبون عـلى المشاعر؟... أو تراهم يعتقلون أفراد الشعب بعد أن فرغوا من اعتقال الزعماء! لو كان يعرف الإنجليـزيّة فيسأل آسره؟... أين فهمي ليحادثه نيابة عنه؟... وخزه الألم والحنين، أين فهمي وياسين وكمال وخديجة وعائشة وأمّهم؟ هل يمكن أن تتصوّر أسرته ما آل إليه حاله من هوان وهي التي لم تره إلّا جبّارًا جليلًا؟ هل تتصوّر أنّ جنديًّا دفعه بعنف حتّى أوشك أن يطرحه أرضًا وأن يسوقه كما تساق السائمة؟ وجد لذكر آلـه ألمًا وحنينًا فكادت تدمع عيناه. كان يمـرّ في طريقـه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف أصحـابها، ومقـامٍ كان يومًا ـ خـاصّة عهـد الصبا والشبـاب ـ من سمّارهـا، فأحزنه أن يمضي بها سيرًا دون أن تنهض لنجدتـه أو حتّى ترثي لحاله، شعر حقًّا بأنّ أحزن صنوف الهوان ما حاق به في حيّه، ثمّ رفع عينيه إلى السماء باعثًا بفكره إلى الله المطّلع على قلبـه، بعث إليه بفكـره دون أن يجري له ذكرًا على لسانه ولو همسًا مستحييًـا من أن ينطق باسمـه وجسمه لم يتـطهّر من أنفـاس الشراب وعرق الغرام، ومـا لبث أن تضاعف خـوفه من أن يباعد دنسه بينه وبين النجاة، أو أن يلقى مصيرًا كِفاءً لما سلف من استهتاره، فغشي صـدره تطيّر وكـآبة، وأشفى على اليأس، حينما شارف سوق الليمون ترامى إلى الصمت الذي لا يؤنسه إلّا وقع أقدام أصـوات مبهمـة فأرهف محملقًـا في الظلام ـ وهـو يتقدّم بـين

الخوف والرجاء ـ فتناهت إلى أذنيه لجّة لم يَدْرِ إن كان مصدرها إنسان أو حيوان، غير أنّه تبيّن بعد قليل لغطًا فلم يتمالك أن قال لنفسه في لهفة «أصوات آدميّة!» ومال مع الطريق فلاحت لعينيه أضواء متحرّكة حسبها بادئ الأمر بطّاريّات جديدة ولكنّها وضحت مشاعل رأى على نورها جانبًا من بوّابة الفتوح يقف تحته جنود بريطانيّون، ثمّ تراءى له جنود من البوليس المصريّ ردّ منظرهم إلى صدره الدماء، سأعرف ما يُراد بي، لم يبق إلّا مسيرة خطوات، ماذا دعا إلى تجمهر الجنود الإنجليز والمصريّين عند البوّابة؟ لماذا يسوقون الأهالي من شتّى أنحاء الحيّ؟ عمّا قليل أعرف كلّ شيء، كلّ شيء؟ فلأستعذ بالله ولأسلّم إليه أمري، سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر إن كان في العمر بقيّة، الرصاص... المشنقة... دنشواي... أأنضمّ إلى سجلّ الشهداء؟ أأصبح نبأ من أنباء الثورة يتناقله محمّد عفّت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار كما كنّا نتناقل الأخبار في سهرات المساء؟ تصوّر السهرة ومكانك شاغر؟ رحمة الله عليك... كان وكان... لَشدّ ما يبكونك، وسيتذكّرونك طويلًا، ثمّ تنسى، ما أشدّ اضطراب قلبي، سلّم أمرك للذي خلقك، اللّهمّ حوالينا ولا علينا. ما إن اقترب من موقف الجنود حتّى اتّجهت الأنظار إليه باردة قاسية متوعّدة فغاص قلبه في الأعماق مخلّفًا وراءه في الأضلع ألمًا حادًّا، تُرى هل آن له أن يتوقّف؟ تثاقلت قدماه ولفّه التردّد والحيرة...

ـ ادخل...

هتف بها شرطيّ وهو يشير إلى داخل البوّابة فنظر السيّد إليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة، ثمّ مرّ بين الجنود لا يكاد يرى ما بين يديه من شدّة الفزع ويودّ لو يغطّي رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التي تستصرخه. هنالك تحت قبّة البوّابة رأى منظرًا عرفه بما يراد به بغير حاجة إلى سؤال، رأى حفرة عميقة كالخندق تعترض الطريق، كما رأى جمهورًا من الأهالي يعملون بلا توقّف وتحت إشراف الشرطة لسدّ الحفرة بأن يحملوا الأتربة في مقاطف ويفرغونها فيها، الكلّ يعمل بهمّة وسرعة والأعين تسترق النظر في خوف إلى الجنود الإنجليز الذين رابطوا عند مدخل البوّابة. اقترب منه شرطيّ ورمى إليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينمّ عن وعيد:

ـ افعل كما يفعل الآخرون...

ثمّ همسًا:

ـ أسرع حتّى لا يصيبك أذًى...

كانت هذه الجملة أوّل تعبير «إنسانيّ» يلقاه في رحلته المخيفة فسرت في صدره سرى النسمة في حلق المختنق، انحنى على المقطف فتناوله من علّاقته وهو يسأل الشرطيّ همسًا:

ـ هل يطلق سراحنا إذا تمّ العمل؟

فأجابه بنفس الصوت:

ـ إن شاء الله.

تنهّد من الأعماق، راودته نفسه على البكاء، شعر بأنّه يولد من جديد.. رفع بيسراه الجبّة من طرفها ودسّه في حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف إلى طوار البوّابة حيث تراكمت الأتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفّيه بالتراب ويفرغها في المقطف حتّى امتلأ ثمّ حمله بيده وذهب إلى الحفرة فأفرغه فيها وعاد إلى الطوار، واصل العمل بين جماعات مختلفة من الناس ضمّت الأفنديّة والمعمّمين، الهرمين والشبّان، يعملون جميعًا بهمّة عالية مستمدّة من رغبتهم في الحياة، وإنّه ليملأ مقطفه إذ لكزه كوع فالتفت إلى مصدره فرأى صديقًا يدعى غنيم حميدو صاحب معصرة زيوت بالجماليّة ممّن يلمّون بمجالس لهوه بين حين وآخر ففرح به فرحة عظمى كما فرح به الآخر، وسرعان ما تهامسا:

ـ أنت وقعت أيضًا!..

ـ قبلك.. وصلت قبيل منتصف الليل ورأيتك وأنت تتسلّم مقطفك فجعلت في ذهابي وإيابي أتبع طريقًا يميل إليك رويدًا رويدًا حتّى جاورتك.

ـ أهلًا.. أهلًا، أليس ثمّة أحد من أصدقائنا؟!

ـ لم أعثر على غيرك.

ـ قال لي الشرطيّ إنّهم سيطلقون سراحنا حالما تتمّ

العمل.

ـ قيل لي ذٰلك أيضًا، ربّنا يسمع منك.

ـ سيّبوا ركبي الله يخرب بيوتهم..

ـ لم تعد لي ركب على ما أظنّ!

وتبادلا ابتسامة مقتضبة..

ـ ما أصل هٰذه الحفرة؟

ـ يقال إنّ فتوّات الحسينيّة حفروها أوّل الليل ليمنعوا مسير اللوريّات ويقال أيضًا إنّ لوريًّا وقع فيها!

ـ إن صحّ هٰذا فقل علينا السلام!

وعندما تجاورا مرّة ثانية عند كوم الأتربة كانا قد ألفا الموقف بعض الشيء فعاودتهما الروح حتّى أنّهما لم يتمالكا أن ابتسما وهما يملآن مقطفيهما بالتراب كعمّال البناء فهمس غنيم:

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب..

فهمس السيّد باسمًا:

ـ أرجو أن يعطونا أجرًا مناسبًا.!

ـ أين قبض عليك؟

ـ أمام البيت.

ـ طبعًا!

ـ وأنت؟.

ـ كنت بالغًا منزولة، ولكنّني أفقت تمامًا، الإنجليز أقوى من الكوكايين!

ـ أقوى من القيء نفسه!

مضى الرجال يذهبون ويجيئون عجلين ما بين طوار الأتربة والحفرة على ضوء المشاعل، أثاروا التراب حتّى انتشر في فراغ القبّة خالقًا جوًّا خانقًا فعلاهم البهر وتصبّب منهم العرق من جبهاتهم واغبرّت وجوههم وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأنّهم أشباح انشقّت عنهم الحفرة، على أيّ حال لم يعد وحده، هٰذا الصديق وهٰؤلاء الرجال من حيّه، جنود البوليس المصريّون معهم بقلوبهم، آي ذٰلك أنّهم جرّدوا من سلاحهم.. لم يعد السيف ذو الغمد المعدنيّ يتدلدل من أحزمتهم، اصبر.. اصبر لعلّ هٰذه الغمّة أن تنكشف، هل كنت تتصوّر أنّك ستعمل حتّى مطلع الصبح وربّما حتّى الضحى، شدّ حيلك، ليس ثمّة أنّك ستحمل التراب وتُسخَّر في سدّ الحفرة؟ لا تريد الحفرة أن تمتلئ، لا فائدة ترجى من الشكوى، ولمن تشكو؟ جسمك قويّ صلب العود يستطيع أن يتحمّل رغم سكرة الليلة وعبثها. كم الساعة الآن؟ ليس من الحيطة أن تنظر فيها، لو لم يقع لي هٰذا لكنت الآن مستلقيًا على الفراش منعّمًا بلذيذ المنام، كنت أستطيع أن أغسل رأسي ووجهي وأشرب شربة رويّة من القلّة المعطّرة بالزهر، هنيئًا لنا هٰذه المشاركة في جحيم الثورة، لم لا؟ البلد ثائر. كلّ يوم.. كلّ ساعة ضحايا وشهداء، بيد أنّ قراءة الصحف وتناقل الأخبار شيء أمّا حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر، هنيئًا لكم أيّها النائمون في أسرّتكم، اللّٰهمّ احفظنا، لست لها.. لست لها، اللّٰهمّ اهزم المشركين بقوّتك، نحن ضعفاء.. لست لها، هل يتصوّر فهمي أيّ خطر يتهدّده؟ إنّه يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يحيق بأبيه، قال لي: «لا» لأوّل مرّة في حياته، قالها بدموعه ولكن سيّان عندي. المعنى واحد، لم أقل لأمّه، لن أقول لها، أأكشف لها عن عجزي؟ أأستعين بضعفها بعد أن أخفقت بقوّتي؟ كلّا.. لِتَبْقَ جاهلة بكلّ شيء، يقول إنّه لا يعرّض نفسه للخطر، حقًّا؟ اللّٰهمّ استجب، لولا هٰذا ما رحمته أبدًا، اللّٰهمّ احفظه، اللّٰهمّ احفظنا جميعًا من شرّ هٰذه الأيّام، كم الساعة الآن؟ إن طلع علينا الصباح أمنًّا القتل، لن يقتلونا أمام الخلق. الصباح؟

ـ بصقت على الأرض كي أتخلّص من الغبار اللازق بسقف حلقي فرماني أحد الأبالسة بنظرة وقف لها شعر رأسي!

ـ لا تبصق، تشبّه بي، لقد بلعت من التراب قدرًا يكفي لسدّ هٰذه الحفرة!.

ـ لعلّ زبيدة دعت عليك!

ـ لعلّها..

ـ ألم يكن سدّ حفرتها أطيب من سدّ هٰذه الحفرة؟.

ـ بل أشقّ!.

تبادلا ابتسامة سريعة ثمّ قال غنيم متنهّدًا:

ـ انقصم ظهري يا هوه!.

ـ مثلك، عزاؤنا أنّنا نشارك المجاهدين بعض آلامهم.

ـ ما رأيك في أن أرمي بالمقطف في وجه الجنود وأهتف بأعلى صوتي «يحيا سعد»؟!.

ـ اشتغلت المنزولة من جديد؟

ـ يا للخسارة!.. كانت قطعة «قد فصّ العين» حرّكتها بالشاي مرّة ومرّتين وثلاثًا، ثمّ ذهبت إلى الطمبكشيّة أسمع الشيخ علي محمود في بيت الحمزاوي، وعدت قبيل منتصف الليل وأنا أقول لنفسي «الوليّة الآن تنتظرك لا أفلح من خيّب لها رجاء» حين طلع ابن القرد وساقني من قفاي..

ـ ربّنا يعوّض عليك.

ـ آمين.

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينيّة والبعض الآخر من ناحية النحّاسين وسرعان ما انضمّوا إلى «العمّال». ألقى على المكان نظرة فوجده ازدحم بالجمهور أو كاد وقد انتشروا حول الحفرة في جميع الجهات، يذهبون إلى الطوار ويرجعون إليها في حركة لا تنقطع وأنوار المشاعل تضيء منهم وجوهًا لاهثة نال منها الإعياء والذلّ والخوف كلّ منال. الكثرة بركة وأمان، لن يذبحوا هذا الجمع الغفير من الناس، لن يأخذوا البريء بالمذنب، تُرى أين المذنبون؟ أين هؤلاء الفتوّات؟ هل يعلمون الآن أنّ إخوانًا لهم وقعوا في الحفرة التي حفروا؟! قاتلهم الله هل حسبوا أنّ حفر حفرة سيعيد سعدًا أو يخرج الإنجليز من مصر! لأنقطعنّ عن السهر إن كتب الله لي عمرًا جديدًا، أنقطع عن السهر؟ لم يعد السهر بمأمون، كيف يكون طعم الحياة، لا طعم للحياة في ظلّ الثورة، الثورة.. أيّ جنديّ يقبض عليك.. تحمل التراب بكفّيك، فهمي يقول لك لا!، متى تعود الدنيا إلى أصلها؟ صداع؟.. بل صداع وغثيان، دقائق من الراحة.. لا أطمع في مزيد! بهيجة في سابع نومة، أمينة تنتظر كما تنتظر «وليّة» غنيم، هيهات أن يخطر لكم ما حاق بأبيكم، ربّاه إنّ التراب يملأ أنفي وعينيّ، يا سيّدنا الحسين، امتلئي.. امتلئي.. أما كفاك هذا التراب كلّه؟! يا بن بنت رسول الله، غزوة الخندق.. هكذا دعاها سيّدنا الواعظ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه.. كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم!. فساد الزمن.. فسادي أنا، هل يعسكرون أمام البيت حتّى تنتهي الثورة؟.

ـ ألم تسمع الديكة؟

أرهف السيّد أذنيه ثمّ غمغم:

ـ الديكة تصيح! الفجر؟

ـ نعم.. ولكنّها لن تمتلئ قبل الصباح.

ـ الصباح!

ـ المهمّ أنّي محصور، محصور جدًّا.

اتّجه ذهن السيّد إلى أسفل فشعر بأنّه محصور أيضًا، وبأنّ جانبًا من آلامه يعود بلا شكّ إلى ذلك، وسرعان ما اشتدّ ضغط المثانة عليه كأنّما هيّجها تفكيره فيها، قال:

ـ وأنا كذلك.

ـ والعمل؟

ـ ما باليد حيلة!

ـ انظر هناك إلى ابن القرد الذي وقف يبول أمام دكّان على الزجاج!.

ـ آه..

ـ إخراج شويّة بول أهمّ الآن عندي من إخراج الإنجليز من مصر كلّها..

ـ إخراج الإنجليز من مصر كلّها؟! ليخرجوا أوّلًا من النحّاسين.

ـ ربّاه.. انظر.. لا يزال الجنود يأتون بالناس!

رأى السيّد جماعة جديدة تشقّ طريقها صوب الحفرة.

٦٦

استيقظ السيّد أحمد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقعته قد ذاع في الأهل والأصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهنّئين بالسلامة فراح يقصّ القصّة ويعيدها بأسلوب لم يَخْلُ ـ رغم جدّيّة الأمر ـ من فكاهة وتهويل حتّى أثار شتّى التعليقات. كانت أمينة

أوّل من سمع القصّة، ألقاها عليها وهو مشتّت النفس خائر القوى لا يكاد يصدّق حقًّا أنّه نجا فتلقّت وحدها الجانب المفجع خالصًا، وما كادت تغادره نائمًا حتّى استرسلت في البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أسرتها بعنايته ورحمته، ودعت الله طويلًا حتّى كلّ لسانها. ولٰكنّه حينما وجد نفسه محوطًا بأصدقائه خاصّة المقرّبين منهم أمثال إبراهيم الفار وعلي عبد الرحيم ومحمّد عفّت، استردّ الكثير من روحه المعنويّة فتعذّر عليه أن يغفل الجانب الفكاهيّ من الحادث حتّى غلب على ما عداه فانتهى الحديث إلى نوع من المزاح كأنّما كان يقصّ عليهم مغامرة من مغامراته. وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتانيّ فيما عدا الأمّ التي شغلت مع أمّ حنفي بتهيئة القهوة والأشربة، شهدت الصالة من جديد اجتماع ياسين وفهمي وكمال وخديجة وعائشة في مجلس الأمّ التقليديّ، وقد انضمّ إليهم خليل شوكت وإبراهيم شوكت سحابة النهار ولٰكنّهما صعدا إلى حجرة الأب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجوّ للإخوة، وكان الحزن الذي غشيهم طوال النهار على ما أصاب والدهم قد زايلهم بعودة الطمأنينة إلى نفوسهم فنبضت قلوبهم بالعواطف الأخويّة وتوثّبوا للسمر والمرح كعهدهم في الأيّام الخوالي. على أنّ الطمأنينة لم تستقرّ بنفوسهم حتّى رأوا والدهم بأعينهم، أقبلوا عليه واحدًا في إثر واحد فقبّلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثمّ غادروا الحجرة في نظام وأدب عسكريّين. ومع أنّ السيّد اكتفى بمدّ يده لياسين وفهمي وكمال بالتتابع دون أن ينبس بكلمة إلّا أنّه ابتسم إلى خديجة وعائشة وسألهما في رقّة عن الحال والصحّة، رقّة لم تحظيا بها إلّا بعد زواجهما، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بسرور كأنّما هو الذي يحظى بها. والحقّ أنّ كمال كان أسعد الجميع بزيارات شقيقتيه كلّما هلّت.. كان ينعم في أثنائها بسعادة عميقة لا يعكّر عليه صفوها إلّا التفكير في النهاية المتوقّعة. ودائمًا كان يجيء النذير بهٰذه النهاية من أحد الرجلين - إبراهيم أو خليل - إذا تمطّى أو تثاءب ثمّ قال «آن لنا أن نذهب» أمر مطاع لا يردّ، لم تتكرّم إحدى شقيقتيه - ولو مرّة واحدة - بأن تجيبه قائلة مثلًا «اذهب أنت وسألحق بك غدًا»! بيْد أنّه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التي تربط بين شقيقتيه وزوجيهما وسلّم بحكمهما وقنع بالزيارة القصيرة تجيء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع في مزيد. وبالرغم من هٰذا فلم يكن يتمالك أحيانًا إذا رآهما مقبلتين من أن يقول متمنّيًا «لو تعودان إلى البيت فتقيمان فيه كما كنتما»! فتبادره أمّه قائلة «ربّنا يكفيهما شرّ تمنّياتك الطيّبة!». بيد أنّ أعجب ما صادفه في حياتهما الزوجيّة كان ذٰلك التغيّر الذي طرأ على البطن.. وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطورًا غريبة كالأساطير، وفدت على حافظته ألفاظًا جديدة كالحَبَل والوحم وما اكتنف الأخير من قيء وتوعّك والتهام لحبّات الطين الجافّة.. ثمّ ما شأن بطن عائشة؟.. متى يقف عن النموّ الذي جعله كالقربة المنفوخة؟. وهٰذا بطن خديجة بدا - فيما يبدو - يخطو نفس الخطوات، وإذا كانت عائشة ذات البشرة العاجيّة والشعر الذهبيّ قد وحمت على الطين فعلى أيّ شيء توحم خديجة؟! غير أنّ خديجة لم تحقّق مخاوفه فتوحّمت على المخلّل حتّى استثارت منه أسئلة لا حصر لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع!.. وتقول أمّه إنّ بطن عائشة - وبطن خديجة بالتالي - سيتمخّض عن طفل صغير سوف يكون قرّة عينه.. ولٰكن أين يقيم هٰذا الطفل، وكيف يعيش، وهل يسمع ويرى، وماذا يسمع وماذا يرى، وكيف وجد، ومن أين جاء؟!.. على أنّ هٰذه الأسئلة لم تهمل، ظفر عنها بأجوبة جديرة حقًّا بأن تلحق بمعارفه عن الأولياء والعفاريت والرقى والتعاويذ وغير ذٰلك من الموادّ التي تزخر بها دائرة معارف أمّه.. لذٰلك سأل عائشة مستطلعًا باهتمام:

- متى يخرج الطفل؟.

فأجابته ضاحكة:

- اصبر لم يبق إلّا قليل.

فتساءل ياسين:

- أظنّك في الشهر التاسع؟.

فأجابته:

ـ نعم ولو أنّ حماتي تصرّ على أنّي في الثامن!.

فقالت خديجة بحدّة:

ـ أصل حماتك تصرّ دائمًا على أن يكون لها رأي مخالف، هٰذا كلّ ما هنالك!.

ولّما كان الجميع على علم بما ينشب كثيرًا بين خديجة وحماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثمّ ضحكوا.

وقالت عائشة:

ـ أودّ أن أقترح عليكم أن تنتقلوا إلى بيتنا فتبقوا معنا حتّى يجلو الإنجليز عن شارعكم.

فقالت خديجة بحماس:

ـ أجل، لم لا؟. إنّ البيت كبير وستنزلون على الرحب والسعة، فيقيم بابا ونينة عند عائشة لأنّها في الدور الأوسط، وتقيمون أنتم عندي.

رحّب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنمّ عن التحريض:

ـ من يقول لبابا؟

ولٰكنّ فهمي قال وهو يهزّ منكبيه:

ـ إنّكما تعلمان حقّ العلم أنّ بابا لا يمكن أن يوافق.

فقالت خديجة بأسف:

ـ ولٰكنّه يحبّ السهر فيكون عرضة لتحرّش الجنود، يا لهم من مجرمين!.

ساقوه في الظلام وحمّلوه التراب!... آه. رأسي يدور كلّما تصوّرت هٰذا.

فقالت عائشة:

ـ كنت أنتظر دوري لتقبيل يده وأنا أتفحّص جسمه جزءًا جزءًا لأطمئنّ عليه، كان قلبي يدقّ... وعيناي تغالبان الدمع... لعنة الله على الكلاب أولاد الكلاب!

فابتسم ياسين... وقال لعائشة محذّرًا وهو يلحظ كمال غامزًا بعينه:

ـ لا تسبّي الإنجليز هٰكذا فإنّ لهم بيننا أصدقاء!

فقال فهمي متهكّمًا:

ـ لعلّه ممّا يُسرّ له بابا أن يعلم أنّ الجنديّ الذي يقبض عليه ليلًا ما هو إلّا صديق من أصدقاء كمال.

فابتسمت عائشة إلى كمال متسائلة:

ـ ألا تزال تحبّهم بعد ما كان منهم؟

فغمغم كمال وقد تورّد وجهه حياء وارتباكًا:

ـ لو عرفوا أنّه أبي ما تعرّضوا له بسوء!

فما تمالك ياسين إلّا أن يضحك ضحكة عالية حتّى أنّه غطّى فمه بيده وهو ينظر في حذر إلى السقف كأنّما خاف أن يترامى صوت ضحكته إلى الدور الأعلى...

ثمّ قال ساخرًا:

ـ الأحرى بك أن تقول: إنّهم لو عرفوا أنّك مصريّ ما صبُّوا العذاب على مصر والمصريّين، ولٰكنّهم لا يعرفون؟

فقالت خديجة بلهجة لاذعة:

ـ دع هٰذا الكلام لغيرك أنت...! أتنكر أنّك من أصدقائهم كذٰلك؟!

ثمّ مخاطبة كمال بلهجة لاذعة:

ـ أتواتيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على أن تصلّي الجمعة في سيّدنا الحسين؟

ففطن ياسين إلى مرمى هجومها وقال مظهرًا الأسف:

ـ يحقّ لك أن تتطاولي عليّ ما دمت قد تزوّجت فاكتسبت بعض حقوق الآدميّين...

ـ ألم يكن لي هٰذا الحقّ من قبل؟!

ـ الله يرحم أيّام زمان...! ولٰكنّه الزواج يعيد إلى البائسات الروح!... اسجدي شكرًا للأولياء... ولتعاويذ وأقراص أمّ حنفي.

فقالت خديجة وهي تغالب ضحكة:

ـ يحقّ لك أن تتهجّم على الناس بالحقّ وبالباطل بعد أن ورثت المرحومة وصرت من عداد الملّاك.

فقالت عائشة بفرح صبيانيّ كأنّما لم تدرِ من الأمر شيئًا:

ـ أخي في عداد الملّاك!... ما أجمل أن أسمع هٰذا!... أأنت غنيّ حقًّا يا سي ياسين؟!

فقالت خديجة:

ـ دعيني أعدّ لك أملاكه، اسمعي يا ستّي: دكّان الحمزاوي وربع الغوريّة وبيت قصر الشوق...

فقال ياسين وهو يهزّ رأسه مغمضًا عينيه:

ـ ومن شرّ حاسد إذا حسد. . .

فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته:

ـ وما خفي من الحليّ والنقود المخبّأة أعظم. . .

فهتف ياسين في أسف صادق:

ـ اختفت كلّها وحياتك، سرقت، سرقها ابن الكلب، جعلت أبي يسأله عمّا إذا كانت تركت حليًّا أو نقودًا فقال اللصّ «ابحثوا بأنفسكم، علم الله أنّي كنت أنفق عليها في أثناء مرضها من جيبي الخاصّ». . . اسمعوا يا هوه. . . جيبه الخاصّ ابن الغسّالة!. . .

فقالت عائشة بتأثّر:

ـ يا ولداه!. . . مريضة طريحة الفراش تحت رحمة رجل طامع في مالها!. . . لا صديق ولا حبيب، غادرت الدنيا من دون أن يحزن عليها أحد.

فتساءل ياسين:

ـ من دون أن يحزن عليها أحد؟!

فأشارت خديجة من خلال باب موارب إلى ملابس ياسين المعلّقة بالمشجب وقالت محتجّة احتجاجًا ساخرًا:

ـ وهٰذا البابيون الأسود؟!. . . أليس آية على الحزن؟!

فقال ياسين جادًّا:

ـ لقد حزنت عليها حقًّا، ربّنا يرحمها ويغفر لها، ألم نكن تصافينا في آخر لقاء؟ الله يرحمها ويغفر لها ولنا. . .

فخفضت خديجة رأسها قليلًا رافعة حاجبيها ثمّ نظرت إليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظّارته وهي تقول:

ـ إحم. . . إحم. . . اسمعوا سيّدنا الواعظ (ثمّ وهي ترميه بنظرة شكّ) ولكن لم يبد عليك فيما أظنّ حزن شديد؟!

فرماها بنظرة مغيظة قائلًا:

ـ ما قصّرت في واجبي نحوها والحمد لله، أقمت لها مأتمًا استمرّ ثلاث ليالٍ، وكلّ جمعة أزور القرافة محمّلًا بالرياحين والفواكه. . . أم تريدينني ألطم وأعول وأحثو التراب على رأسي! إنّ للرجال حزنًا غير حزن النساء.

فهزّت رأسها كأنّما تقول «أفدتني أفادك الله» ثمّ قالت متنهّدة:

ـ آه من حزن الرجال!. . . ولٰكن خبّرني وحياتي عندك ألم يخفّف الدكّان والربع والبيت من لوعة الحزن؟!

فقال متأفّفًا:

ـ صدق من قال: إنّ قبح اللسان من قبح الوجه. . .

ـ من قائل هٰذا؟. . .

أجابها باسمًا:

ـ حماتك!

فضحكت عائشة، وضحك فهمي وهو يسأل خديجة:

ـ ألم تتحسّن العلاقات بينكما؟

فأجابته عائشة بالنيابة عنها قائلة:

ـ سوف يتحسّن ما بين الإنجليز والمصريّين قبل أن يتحسّن ما بينهما. . .

فقالت خديجة بحنق لأوّل مرّة:

ـ امرأة قويّة، ربّنا عليها، والله أنا بريئة ومظلومة. . .

فقال ياسين متهكّمًا:

ـ نصدّقك يا أختي بلا قسم، هٰذا شيء نشهد به أمام الله في يوم العذاب!

فعاد فهمي يسأل عائشة:

ـ وأنت كيف حالك معها؟

فقالت عائشة وهي تلحظ خديجة بإشفاق:

ـ على ما يرام. . .

فهتفت خديجة:

ـ آه من أختك عائشة. . . تعرف كيف تسوس وتطاطئ الرأس. . . اتفوخص. . .

فقال ياسين متصنّعًا الجدّ:

ـ على أيّ حال فلحماتك الرحمة ولك صادق التهنئة!

فقالت بسخرية:

ـ التهنئة الحقّة لك أنت قريبًا إن شاء الله حين تزفّ إلى عروسك الثانية!... أليس كذٰلك؟

فما تمالك إلّا أن ضحك ثمّ قال:

ـ ربّنا يسمع منك...

فتساءلت عائشة باهتمام:

ـ حقًّا؟...

ففكّر قليلًا... ثمّ قال في شيء من الجدّ:

ـ المؤمن لا يلدغ من جحر مرّتين، ولٰكن من يعلم بما يأتي به الغد؟! ربّما ثانية وثالثة ورابعة...

فهتفت خديجة:

ـ هٰذا ما أتوقّعه. الله يرحم جدّك!

فضحكوا جميعًا حتّى كمال، ثمّ عادت عائشة تقول بصوت أسيف:

ـ مسكينة زينب!... كانت فتاة لطيفة وطيّبة...

ـ كانت...! وكانت حمقاء أيضًا، أبوها ـ مثل أبي ـ لا يطاق، لو رضيت بمعاشرتي كما أحبّ ما فرّطت فيها أبدًا...

ـ لا تعترف بهٰذا، حافظ على كرامتك، لا تشمت بك خديجة...

قال باستهانة:

ـ نالت الجزاء الذي تستحقّه، فلينقعها أبوها ويشرب ماءها.

فغمغمت عائشة:

ـ ولٰكنّها حبلى يا ولداه!... أترضى لوليدك بأن ينمو بعيدًا عن رعايتك حتّى تستردّه غلامًا؟!...

آه، أصابت مقتلًا، ينمو في حضانة أمّه كما نما أبوه من قبل، ربّما كابد تعاسة كتعاسته أو أشدّ.. ربّما نمت معه كراهية لأمّه أو لأبيه، تعاسة على أيّ حال. قال عابسًا:

ـ ليكن حظّه كحظّ أبيه، ما باليد حيلة!

وساد الصمت قليلًا حتّى سأل كمال خديجة:

ـ وأنت يا أبلة متى يخرج الطفل...؟

فأجابته ضاحكة وهي تتحسّس بطنها:

ـ إنّه لا يزال في سنة أولى.

فعاد يقول لها ببراءة وهو يتفرّس في وجهها:

ـ نحفت جدًّا يا أبلة وصار وجهك قبيحًا...!

ضحكوا جميعًا وهم يغطّون أفواههم بأيديهم، ضحكوا حتّى شعر كمال بالحياء والارتباك، أمّا خديجة التي لم يكن الاستياء من كمال ممّا تستطيعه فقد مالت إلى أن تجاري التيّار فقالت ضاحكة:

ـ أعترف لكم بأنّي خسرت في أيّام الوحم كلّ اللحم الذي تعبت أمّ حنفي أعوامًا في جمعه ولمّه، نحفت وبرز أنفي وغارت عيناي وخيّل إليّ أنّ «الرجل» يقلّب عينيه مفتّشًا عبثًا عن العروس التي زفّوها إليه؟...

ثمّ ضحكوا ثانية حين قال ياسين:

ـ الحقّ أنّ زوجك مظلوم لأنه على غباوته البادية وسيم الطلعة فسبحان من جمع الشاميّ على المغربيّ...

تجاهلته خديجة وخاطبت فهمي قائلة وهي تومئ إلى عائشة:

ـ كلاهما ـ زوجي وزوجها ـ في الغباء سواء! لا يكادان يبرحان البيت ليل نهار، لا همّ ولا عمل، أمّا زوجها فوقته كلّه ضائع بين التدخين وعزف العود كأنّه شحّاذ من الشحّاذين الذين يمرّون على البيوت في الأعياد، وأمّا زوجي فلا تراه إلّا مستلقيًا يدخّن ويثرثر حتّى يدوّخ دماغي..

فقالت عائشة كالمعتذرة:

ـ الأعيان لا يعملون!

فقالت خديجة هازئة:

ـ العفو!... يحقّ لك أن تدافعي عن هٰذه الحياة، الحقّ أنّ الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينكما، كلاكما في الكسل والدعة والخمول شخص واحد، والنبيّ يا سي فهمي يمرّ اليوم كلّه وهو يدخّن ويعزف وهي تزوّق نفسها وتذهب وتجيء أمام المرآة...

تساءل ياسين:

ـ لم لا ما دامت ترى منظرًا حسنًا...؟!

وقبل أن تفتح خديجة فاها سألها مستعجلًا:

ـ خبّريني يا أختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيهًا بك؟

كانت شبعت من مهاجته فأجابته جادّة:

ـ سيجيء بإذن الله شبيهًا بأبيه أو جدّه أو جدّته أو خالته، أمّا... (ثمّ ضاحكة) أمّا إذا أبى إلّا أن يجيء شبيهًا بأمّه فالنفي يكون أحقّ به من سعد باشا!

ولكنّ كمال قال بلهجة خبير عليم:

ـ الإنجليز لا يهمّهم الجمال يا أبلا، إنّهم يعجبون كثيرًا برأسي وأنفي...

فضربت خديجة صدرها بيدها هاتفة:

ـ يدّعون صداقتك وهم يعبثون بك!... ربّما يسلّط عليهم زبلن من جديد.

ورمت عائشة فهمي بنظرة رقيقة وهي تقول:

ـ كم يسرّ دعاؤك بعض الناس...

فابتسم فهمي مغمغمًا:

ـ كيف أسرّ ولهم في بيتنا أصدقاء مغفّلون؟

ـ يا خسارة تربيتك له...

ـ من الناس من لا تنفع فيه التربية.

فتساءل كمال محتجًّا:

ـ ألم أرجُ جوليون أن يعيد سعد باشا؟

فقالت خديجة ضاحكة:

ـ في المرّة القادمة حلّفه برأسك الذي يعجب به.

شعر فهمي أكثر من مرّة بأنّ من حوله يسعون كلّما بدت فرصة إلى استدراجه إلى الحديث والتسلية، بيد أنّ ذلك لم يجد شيئًا في التخفيف من الإحساس بالغربة الذي غشيه طوال الوقت، هو إحساس كثيرًا ما يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة أو الوحدة رغم زحمة المجلس، ينفرد بقلبه وحزنه وحماسه بين أناس لاهين ضاحكين، حتّى نفي سعد يتّخذون منه دعابة إذا لزم الأمر... إختلس منهم النظرات تباعًا فوجدهم راضين، عائشة... هانئة وإن تكن تعبت قليلًا بسبب الحمل ولكنّها سعيدة بكلّ شيء حتّى بتعبها، خديجة... متوثّبة ضاحكة، ياسين... صحّة وعافية وغبطة، مَنْ من هؤلاء يكترث لحوادث هذه الأيّام! من منهم يهمّه بقي سعد أم نفي، جلا الإنجليز أم مكثوا! إنّه غريب، أو غريب على الأقلّ بين هؤلاء. ومع أنّ هذا الإحساس كان يلقى منه عادة نفسًا مسامحة فإنّه لم يَلْقَ هذه المرّة إلّا حنقًا وامتعاضًا، ربّما كان ذلك لما عاناه في الأيّام الأخيرة. كثيرًا ما توقّع أن يسمع عن زواج مريم، كان ذلك همّه وكربه بيد أنّه سلّم به سلفًا تسليم اليأس، وكاد يألفه بكرور الأيّام، إلّا أنّ حبّه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذي شغلته الشواغل الكبرى، حتّى وقعت واقعة جوليون فزلزل زلزالًا. تغازل إنجليزيًّا لا مطمع لها في الزواج منه فأيّ معنًى تتضمّنه هذه المغازلة؟ هل تصدر إلّا عن متهتّكة؟ مريم متهتّكة؟ وفيمَ كانت أحلامه الماضية؟ ولم يكن يخلو بكمال حتّى يدعوه إلى إعادة القصّة من جديد محتّمًا عليه أن يصف التفاصيل بدقّة، كيف لاحظ ما يدور، وأين كان موقف الجنديّ، وأين كان موقفه هو، وهل هو متأكّد من أنّ مريم نفسها التي كانت في الكوّة؟ وأنّها كانت تنظر حقًّا إلى الجنديّ؟ وهل رآها تبتسم إليه، وهل وهل وهل، ثمّ يسأله وهو يعضّ على أسنانه كأنّما يهرس الشقاء الذي يعذّبه: وهل تراجعت في خوف حين وقعت عيناها عليك؟ ثمّ يمضي متخيّلًا المواقف والمناظر، موقفًا موقفًا، ومنظرًا منظرًا، ويتخيّل الابتسامة طويلًا حتّى كأنّه يرى الشفتين المفترّتين كما رآهما يوم زفاف عائشة وصاحبتها تتبع العروس في فناء بيت آل شوكت.

ـ يبدو أنّ نينة لن تجالسنا اليوم.

قالته عائشة بصوت يدلّ على الأسف.

فقالت خديجة:

ـ الزوّار يملأون البيت.

ياسين ضاحكًا:

ـ أخاف أن يشتبه الجنود في كثرة القادمين فيظنّوا أنّ اجتماعًا سياسيًّا ينعقد في بيتنا.

خديجة في مباهاة:

ـ إنّ أصدقاء بابا يحجبون عين الشمس...

فقالت عائشة:

ـ رأيت السيّد محمّد عفّت نفسه على رأس القادمين.

فأمّنت خديجة على قولها قائلة:

ـ كان صديقًا حميمًا لبابا من قبل أن نرى نور

الدنيا.

فقال ياسين وهو يهزّ رأسه:

ـ اتّهمني بابا ظلمًا بأنّني قطعت ما بينهما.

ـ ألا يفرّق الطلاق بين أعزّ الأصدقاء؟!

ياسين باسمًا:

ـ إلّا أصدقاء أبيك!

عائشة بفخار:

ـ من ذا تطاوعه نفسه على مخاصمة بابا؟ والله ما في الدنيا كلّها نظير له...

ثمّ وهي تتنهّد:

ـ كلّما تصوّرت ما وقع له أمس شاب شعر رأسي...

أخيرًا ضاقت خديجة بوجوم فهمي فعزمت على أن تعالجه بطريقة مباشرة بعد أن أخفقت ـ فيما رأت ـ الطرق غير المباشرة، فالتفتت إليه متسائلة:

ـ أرأيت يا أخي كيف أنّ ربّنا أكرمك يوم لم يأذن بتحقيق رغبتك نحو... مريم؟!

نظر فهمي إليها بين الدهشة والحياء، سرعان ما تركّزت فيه الأبصار حتّى كمال تطلّع إليه باهتمام، وساد صمت نمّ عمقه عن شعور مكبوت طال في الصدر تجاهله أو إخفاؤه حتّى أفصحت عنه خديجة بجوأة فتطلّعوا إلى الشابّ في صمت المنتظر للجواب كأنّما هو نفسه الذي طرح السؤال، غير أنّ ياسين رأى أن ينهي الصمت قبل أن يستفحل فيبعث على الألم فقال متظاهرًا بالسرور:

ـ أصل أخيك وليّ والله يحبّ أولياءه...

وكان فهمي يكابد حرجًا وحياء فقال باقتضاب:

ـ هٰذه مسألة قديمة عفاها النسيان...

فقالت عائشة بلهجة المعتذر:

ـ لم يكن سي فهمي وحده الذي خدع بها، كلّنا خدعنا بها...

فقالت خديجة مدافعة عن نفسها ـ بأقصى ما في وسعها ـ تهمة الغفلة:

ـ على أيّ حال أنا لم أقتنع لحظة واحدة فيما مضى، حتّى مع اعتقادي ببراءتها، بأنّها جديرة به...

فعاد فهمي يقول متظاهرًا بالاستهانة:

ـ هٰذه مسألة قديمة عفاها النسيان، إنجليزيّ... مصريّ... سيّان، دعونا من هٰذا كله...

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير في «مسألة» مريم... مريم؟!... لم يكن ينظر إليها فيما مضى ـ إنْ مرّت في مجال بصره ـ إلّا عابرًا، ثمّ زاده زهدًا فيها تعلّق فهمي بها، حتّى ذاعت فضيحتها في الأسرة... هناك ثار اهتمامه، تساءل طويلًا أيّ فتاة هي؟ ودَّ لو ملأ عينيه منها، تمنّى لو كان سبر الفتاة التي استرعت تشوّق «إنجليزيّ»... إنجليزيّ جاء الحيّ مقاتلًا لا مغازلًا، لم يبد سخطه عليها إلّا مجاراة للحديث كلّما تناولها أمّا في الباطن فقد أطربه غاية الطرب وجود «مفضوحة» جريئة مثلها على كثب منه فلا يفصله عنها إلّا جدار، شاع في صدره العريض المكتنز ذاك الطرب البهيميّ الذي يدعوه إلى الصيد وإن وقف ـ احترامًا لحزن فهمي الذي يحبّه ـ عند حدّ الشعور واللذّة السلبيّة المجرّدة، لم يعد في الحيّ من يستثير اهتمامه كمريم.

ـ آن أوان الذهاب.

قالت خديجة ذٰلك وهي تنهض على حين ترامى إليهم صوت إبراهيم وخليل وهما يتحدّثان قادمين من الردهة الخارجيّة. قام الجميع، من يتمطّى ومن يحبك ملابسه، إلّا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلّع إلى باب الصالة بحزن وقلب خافق...

٦٧

جلس السيّد أحمد إلى مكتبه، مكبًّا على دفاتره، يزاول عمله اليوميّ الذي يتناسى به ـ ولو إلى حين ـ همومه الشخصيّة والهموم العامّة التي تتطاير بها الأنباء الدامية. غدا يحبّ الدكّان حبّه مجالس الأنس والطرب لأنّه على الحالين يظفر بما ينتزعه من جحيم الفكر، إلّا أنّ جوّ الدكّان حافل بالمساومة والبيع والشراء والربح وغير ذٰلك من شئون الحياة العاديّة، حياة كلّ يوم، فلا تخلو من أن تبعث في نفسه شيئًا من الثقة الموحية بإمكان عودة كلّ شيء إلى أصله، إلى حالته الأولى من

الاستقرار والسلام. السلام؟ أين ذهب ومتى يأذن بالعودة؟!... حتّى في هٰذا الدكّان تجري أحاديث الدماء همسًا مفجعًا، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فما تألو ألسنتهم أن تردّد الأنباء وتندب الأحداث، فوق زكائب الأرزّ والبنّ سمع عن معركة بولاق ومذابح أسيوط والجنازات التي تشيّع فيها النعوش بالعشرات والشابّ الذي انتزع من العدوّ مدفعًا رشّاشًا أراد أن يدخل به الأزهر لولا أن سبقته المنيّة فانغرست في جسمه عشرات المقذوفات، هٰذه الأنباء وغيرها ممّا يصطبغ بلونها القاني تقرع أذنيه بين حين وآخر في المكان الذي يلوذ به ناشدًا النسيان. ما أتعس الحياة في ظلّ الموت، هلّا عجّلت الثورة بتحقيق غايتها من قبل أن يمتدّ أذاها إليه أو إلى أحد من ذويه!... إنّه لا يبخل بمال ولا يضنّ بعاطفة أمّا بذل الحياة فأمر آخر، أيّ عذاب صبّه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء! لم تعد الثورة «فرجة» حماسيّة، إنّها تهدّد أمنه في الذهاب والإياب، وتتوعّد ابنه «العاصي». فتر حماسه لها، هي دون غايتها، يحلم بالاستقلال وبعودة سعد ولٰكن دون ثورة أو دماء، أو ذعر، يهتف مع الهاتفين ويتحمّس مع المتحمّسين ولٰكنّ عقله يقاوم التيّار متعلّقًا بالحياة فمكث وحده في المجرى كأصل شجرة اقتلعت العواصف أغصانها، لن يوهن شيء وإن جلّ من حبّه للحياة، فلتبْقَ له إلى آخر العمر، وليؤمن فهمي إيمانه لتبقى له حياته إلى آخر العمر كذٰلك، فهمي العاقّ الذي رمى بنفسه إلى التيّار بلا حزام نجاة...

ـ هل السيّد أحمد موجود؟

سمع السيّد صوت السائل وهو يشعر باندفاع شخص داخل الدكّان كأنّه مقذوف آدميّ فرفع رأسه عن مكتبه فرأى الشيخ متولّي عبد الصمد يتوسّط المكان رامشًا بعينيه الملتهبتين مدقّقًا النظر ـ عبثًا ـ صوب المكتب فهشّ قلبه وابتسمت أساريره ثمّ هتف بالقادم:

ـ تفضّل يا شيخ متولّي، حلّت البركة...

فلاح الاطمئنان في وجه الشيخ وتقدّم يهتزّ أعلاه ما بين الوراء والأمام كأنّه راكب جملًا، فمال السيّد فوق مكتبه ومدّ يده حتّى التقت بيد الرجل وشدّ عليها متمتمًا «الكرسيّ على يمينك، تفضّل بالجلوس» فأسند الشيخ متولّي عصاه إلى المكتب وجلس على الكرسيّ ثمّ اعتمد بيديه على ركبتيه وهو يقول:

ـ الله يحفظك ويصونك...

فقال السيّد من قلبه:

ـ ما أطيب دعاءك وما أحوجني إليه!

ثمّ ملتفتًا صوب جميل الحمزاوي الذي كان يزن أرزًّا لزبون:

ـ لا تنسَ أن تهيّئ لفّة سيّدنا الشيخ...

فجاء صوت جميل الحمزاوي قائلًا:

ـ من ذا الذي ينسى سيّدنا الشيخ!

فبسط الشيخ راحتيه ورفع رأسه وهو يحرّك شفتيه بالدعاء في هينمة لم يسمع منها إلّا وسوسة متقطّعة، ثمّ عاد إلى وضعه الأوّل فصمت لحظة ثمّ قال بلهجة الافتتاح:

ـ أبدأ بالصلاة على نور الهدى.

فقال السيّد بحرارة:

ـ عليه أزكى الصلاة والسلام...

ـ وأثنّي بالترحّم على أبيك طيّب الذكر.

ـ رحمه الله رحمة واسعة.

ـ ثمّ أسأل الله أن يقرّ عينيك بأسرتك وذرّيّتك وذرّيّة ذرّيّتك وذرّيّة ذرّيّة ذرّيّتك.

ـ آمين.

متنهّدًا:

ـ وأدعوه أن يعيد إلينا أفندينا عبّاس ومحمّد فريد وسعد زغلول...

ـ اللّٰهمّ استجب.

ـ وأن يخرب بيت الإنجليز بما أثموا وبما يأثمون...

ـ سبحان المنتقم الجبّار.

عند ذاك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفّه ثمّ قال:

ـ أمّا بعد فقد رأيتك في منامي تلوّح بيديك فما

فتحت عينيّ حتّى صحّ عزمي على زيارتك.

فابتسم السيّد ابتسامة لا تخلو من حزن وقال:

ـ لا أعجب لذٰلك فإنّي في مسيس الحاجة إلى بركتك، زادك الله بركة على بركة..

فمال وجه الشيخ نحو السيّد في عطف وتساءل:

ـ أحقّ ما بلغني عن حادث بوّابة الفتوح؟

فأجاب السيّد مبتسمًا:

ـ نعم... من أبلغك يا ترى؟

ـ كنت مارًّا بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفني وقال لي «ألم يبلغك ما فعل الإنجليز بحبيبك السيّد أحمد وبي؟» فاستوضحته منزعجًا فقصَّ عليَّ العجب العجاب...

قصَّ عليه السيّد الحادث بتفاصيله، لم يكن يملّ ترديده، ولعلّه قصّه في الأيّام القلائل الأخيرة عشرات المرّات.

وأصغى الشيخ وهو يتلو همسًا آية الكرسيّ: أفزعت يا بنيّ؟ كيف كان فزعك... خبّرني.... لا حول ولا قوّة إلّا بالله... ولٰكن هل قنعت بالسلامة؟... أنسيت أنّ الفزع لا يمضي إلى حال سبيله؟... صلّيت طويلًا وسألت الله النجاة! هٰذا جميل ولٰكن يلزمك حجاب..

ـ كيف لا!... يزيدنا بركة يا شيخ متولّي... والأولاد وأمّهم، ألم يدركهم الفزع؟

ـ طبعًا... قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة والإرهاب، الحجاب... الحجاب... وفيه الشفاء...

ـ أنت الخير والبركة يا شيخ متولّي.. فقد نجّاني الله من شرّ كبير، ولٰكن ثمّة شرّ لا يزال يتهدّدني ويقضّ مضجعي.

مال وجه الشيخ نحو السيّد في عطف مرّة أخرى وتساءل:

ـ ماذا بك يا بنيّ عفا الله عنك؟

فرنا السيّد إليه بطرف واجم وغمغم في ضجر:

ـ ابني فهمي...

فرفع الشيخ حاجبيه الأشيبين متسائلًا أو منزعجًا ثمّ قال برجاء:

ـ محفوظ بإذن الرحمٰن...

فهزّ السيّد رأسه بأسًى وقال:

ـ عقّني لأوّل مرّة والأمر لله...

فبسط الشيخ متولّي ذراعيه أمامه كأنّما يتّقي بهما البلاء وهتف:

ـ معاذ الله، فهمي ابني، وأنا أعلم علم اليقين أنّه طبع على البرّ.

فقال السيّد أحمد متسخّطًا:

ـ يأبى حضرته إلّا أن يفعل كما يفعل الشبّان في هٰذه الأيّام الدامية...

فقال الشيخ في دهش واستنكار:

ـ أنت أب حازم ما في ذٰلك شكّ، ما كنت أتصوّر أنّ ابنًا من أبنائك يجرؤ على أن يردّ لك أمرًا...

حزّ هٰذا القول في قلبه حتّى أدماه وضاق به صدره، ثمّ وجد من نفسه نزوعًا إلى التهوين من عصيان ابنه ليدفع عن شخصه تهمة الضعف أمام الشيخ وأمام نفسه معًا فقال:

ـ لم يجرؤ على هٰذا صراحة طبعًا ولٰكنّي دعوته إلى أن يحلف على المصحف بألّا يشترك في أيّ عمل من أعمال الثورة فبكى، بكى من دون أن يجسر على قول لا، ما عسى أن أصنع؟ لا أستطيع أن أحبسه في البيت ولا يسعني أن أراقبه في المدرسة، وأخاف أن يكون تيّار هٰذه الأيّام أقوى من أن يقاومه شابّ مثله، ماذا أصنع؟... أأهدّده بالضرب؟... أضربه؟... لٰكن ما عسى أن يجدي التهديد مع شخص لا يبالي تعريض نفسه للموت!

فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق:

ـ وهل ألقى بنفسه في المظاهرات؟

فقال السيّد وهو يهزّ منكبيه العريضين:

ـ كلّا ولٰكنّه يوزّع المنشورات، لـمّا ضيّقت عليه زعم أنّه يكتفي بالتوزيع على خاصّة أصدقائه.

ـ ما له ولهٰذه الأعمال!... إنّه الوديع ابن الوديع ولهٰذه الأعمال رجال من صنف آخر، ألم يعرف أنّ الإنجليز وحوش لا تتطرّق الرحمة إلى قلوبهم الغليظة؟... وإنّهم يتغذّون صباح مساء بدماء

المصريّين المساكين؟... كلّمه بالحسنى، عظه، بيّن له النور من الظلام، قل له إنّك أبوه وإنّك تحبّه وتخاف عليه، أمّا أنا فسأعمل من ناحيتي على إعداد حجاب من نوع خاصّ وأدعو له في صلاتي وخاصّة صلاة الفجر، والله المستعان من قبل ومن بعد...

قال السيّد بحزن:

ـ إنّ أنباء القتلى تتواتر كلّ ساعة معلنة آي التحذير لمن يعتبر فما الذي أصاب عقله؟ لقد ضاع ابن الفولي اللبّان في غمضة عين فشهد مأتمه معي وعزّى والده المسكين، كان الشابّ يوزّع سلاطين اللبن الزبادي فصادف في طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالاشتراك فيها بلا وعي، وما هي إلّا ساعة أو نحوها حتّى خرّ صريعًا في ساحة الأزهر، لا حول ولا قوّة إلّا بالله... إنّا لله وإنّا إليه راجعون، لـمّا تأخّر عن ميعاد عودته قلق أبوه فمضى إلى زبائنه يسأل عنه، قال له بعضهم إنّه جاءهم بالزبادي وذهب وقال آخرون إنّه لم يمرّ عليهم كعادته، حتّى بلغ حمروشًا بائع الكنافة فوجد عنده الصينيّة وما تبقّى من السلاطين التي لم توزّع وأخبره الرجل بأنّه تركها عنده واشترك في مظاهرة المساء، فجنّ جنون المسكين وقصد من توّه قسم الجماليّة فوجّهوه إلى قصر العيني وهناك عثر على ابنه في المشرحة، لقد علم بالقصّة بحذافيرها كما قصّها علينا الفولي ونحن في بيته نعزّيه، علم كيف فقد الشابّ وكأن لم يوجد ولمس حزن أبيه المبرّح وسمع صوات أهله، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الإنجليز، لو كان حجرًا لعقل ولكنّه خير أبنائي فللّه الحمد والشكر...

فقال الشيخ متولّي بصوت أسيف:

ـ أعرف ذٰلك الشابّ المسكين، إنّه أكبر أبناء الفولي أليس كذٰلك؟... كان جدّه مكاريًا وكنت أكتري حماره للذهاب إلى سيّدي أبي السعود، إنّ للفولي أربعة أولاد ولٰكن الفقيد كان أحبّهم إلى قلبه.

هنا اشترك جميل الحمزاوي لأوّل مرّة في الحديث قائلًا:

ـ أيّامنا هٰذه مجنونة وقد تلفت عقول الناس حتّى صغارها، بالأمس قال ابني فؤاد لأمّه إنّه ودّ لو يشترك في مظاهرة!

فقال السيّد بقلق:

ـ يعملها الصغار ويقع فيها الكبار!... ابنك فؤاد صديق ابني كمال وكلاهما في مدرسة واحدة، ألا تحدّثه نفسه... ألا تحدّثهما نفسهما مرّة بأن يسيرا في مظاهرة!... هه!... ما من عجيبة تعدّ الآن عجيبة!..

فقال الحمزاوي وقد ندم على ما فرط منه:

ـ ليس إلى هٰذا الحدّ يا سي السيّد، على أنّي أدّبته بلا رحمة على تمنّياته الساذجة، إنّ سي كمال لا يخرج إلّا مصحوبًا بأمّ حنفي حفظه الله ورعاه...

ساد الصمت فلم يعد يسمع في الدكّان إلّا خشخشة الورقة التي يلفّ فيها الحمزاوي هديّة الشيخ متولّي عبد الصمد، ثـمّ تنهّد الشيخ وقال:

ـ فهمي ولد عاقل، لا ينبغي أن يمكّن الإنجليز من نفسه العزيزة، الإنجليز!... حسبي الله... ألم تسمع بما فعلوا في العزيزيّة والبدرشين؟...

كان السيّد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة في التساؤل، إلّا أنّه لم يتوقّع جديدًا فوق ما يقرع سمعه هٰذه الأيّام، فاكتفى بأن يرفع حاجبيه متظاهرًا بالاهتمام فأنشأ الشيخ يقول:

ـ كنت أوّل أمس في زيارة الحسيب النسيب شدّاد بك عبد الحميد بسرايه العامرة بالعبّاسيّة، دعاني إلى الغداء والعشاء فأتحفته بأحجبة له ولآل بيته، وهناك حدّثني بحديث العزيزيّة والبدرشين...

سكت الشيخ قليلًا فتساءل السيّد أحمد:

ـ تاجر الأقطان المعروف؟

ـ شدّاد بك عبد الحميد أكبر تاجر قطن، لعلّك عرفت ابنه عبد الحميد بك شدّاد فقد كان يومًا على صلة وثيقة بالسيّد محمّد عفّت؟...

فقال السيّد ببطء ليملي لنفسه في التذكير:

ـ أذكر أنّي رأيته مرّة في مجلس السيّد محمّد عفّت قبل نشوب الحرب، ثمّ سمعت عن إبعاده عن القطر عقب عزل أفندينا، أما من جديد عنه...؟

فقال الشيخ متولّي بلهجة سريعة عابرة كأنّما يضع كلامه بين قوسين ليعود إلى حديثه الأوّل:

ـ لا يـزال مبعدًا عن البـلاد، وهو يقيم في بـلاد فرنسا ومعه زوجه وأولاده، لَشدّ ما يخاف شدّاد بك أن يموت قبل أن يرى ابنه في هٰذه الدنيا...

وسكت مرّة أخرى، ثمّ مضى يهزّ رأسه يمنة ويسرة ويقول بصوت منغوم كأنّما ينشد مطلع توشيح نبويّ:

ـ بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاث والناس نيام حـاصر البلدتين بضـع مئات من الجنـود البريـطانيّين مدجّجين بالسلاح...

انتبه السيّد انتباهة قـاسية... حـاصروا البلدتين والناس نيام؟... أليس أولٰئك المحاصرون من جنس هٰؤلاء الـذين يعسكـرون أمـام البيت؟... بـدءوا بالاعتداء عليّ فأيّ خطوة تالية يضمرون؟!...

ضرب الشيخ على ركبتيـه كأنّمـا إنشاده ينـوّع من الإيقاع ثمّ استطرد قائلًا:

ـ واقتحموا على العُمدتين داريهما فأمروهما بتسليم السلاح ثمّ مرقوا إلى الحريم فنهبوا الحلى وأهانوا النساء وجرّوهنّ من شعـورهنّ إلى الخـارج وهنّ يـولـولـن ويستغثن ومـا من مغيث، عـطفـك اللّٰهـمّ عـلى المستضعفين من عبادك...

دار العمدتين!... العمدة شخصيّة حكوميّة أليس كذٰلك؟... لست عمدة ولا داري بدار عمديّة، ما أنـا إلّا رجل كسـائر النـاس، مـا عسى أن يصنعـوا بأمثالنا. تصوّر أمينة مجرورة من شعـرها، أيقضى عليّ بأن أتمنّى الجنون!... الجنون؟...

واصل الشيخ حديثه وهو يهزّ رأسه قائلًا:

ـ وأجبروا العمدتين على أن يـدلّوهمـا على بيـوت مشايخ البلدتين وأعيانها ثمّ اقتحموا البيوت محطّمين الأبواب، نهبوا كلّ ثمين، اعتدّوا على النساء اعتداء إجـراميًّا بعـد أن قتلوا الـلاتي حـاولن الـدفـاع عن أنفسهنّ، وضربوا الرجال ضربًا مبرّحًا، ثمّ غادروهما بعد أن لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب أو عرض لم يثلم...

ليـذهب كلّ ثمـين إلى الجحيم... «أو عرض لم يثلم»... أين رحمـة الله؟... أين انتقـامـه؟... الطوفان... نوح... مصطفى كامل. تصوّر...! كيف يمكن أن تبقى معه بعد ذٰلك تحت سقف واحد! أيّ ذنب جنت!... وهو بأيّ وجه؟!...

ضرب الشيخ بيده ثلاثًا عـلى ركبتيه ثمّ عـاد إلى الحديث وقد تهدّج صوته فصار بالنواح أشبه، قال:

ـ وأضرمـوا النار في البلدتـين مستعينين بمـا عـلى أسقف الدور من حطب وقشّ وبمـا صبّوا عليهـا من بترول، استيقظت القرى في فزع رهيب وفـرّ أهلوها عن بيوتهم كالمجانين، وعلا الصراخ والأنين، وامتدّت ألسنة اللهب في كلّ مكـان حتّى استحالت البلدتـان شعلة من النيران...

هتف السيّد بلا وعي:

ـ يا ربّ السماوات والأرض!

فمضى الشيخ قائلًا:

ـ وضرب الجنود نطاقًا حول البلدتين المشتعلتين من بعيد يتربّصون بالأهالي البؤساء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم تتبعهم الأغنام والكلاب والقطط يرومون سبيلًا للنجاة من النار، فما إن بلغوا مواقف الجنود حتّى انهال هٰؤلاء على الذكور ضربًا وركلًا، ثمّ حجـزوا النساء ليسلبوا حليهنّ ويهتكوا أعراضهنّ، فإذا قاومت إحـداهنّ قتلت، وإذا ندّت عن زوج أو أب أو أخ حركة دفاع رمي بالرصاص...

ثمّ التفت الشيخ متولّي إلى السيّد الذاهل وضرب كفًّا على كفّ وهو يهتف:

ـ وساقوا بقيّة الضحايا إلى معسكر قريب وهنالك أجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمّن اعـترافهم بجرائم لم يرتكبوها وإقرارًا بأنّ ما أنزله الإنجليز بهم جزاء حقّ على ما فعلوا، هٰذا ما حصل يا سيّد أحمد للعزيزيّة والبدرشين، هٰذا مثل من أمثلة التنكيل التي نسامها بلا رحمة ولا شفقة، اللّٰهمّ فاشهد...

وساد صمت كئيب أليم خلا فيه كلّ إلى أفكـاره وتخيّلاته حتّى قطعه جميل الحمزاوي وهو يهتف متأوّهًا:

ـ ربّنا موجود...

فهتف السيّد مؤمّنًا على قوله:

ـ نعم! (ومشيرًا إلى الجهات الأربع) في كلّ مكان...

وخاطب الشيخ متولّي السيّد قائلًا:

ـ قل لفهمي إنّ الشيخ متولّي ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة، قل له سلّم إلى الله ربّك فهو القادر وحده على إهلاك الإنجليز كما أهلك مَن قبلهم مِمّن شقّوا عصا طاعته...

ثمّ مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيّد إلى جميل الحمزاوي فجاءه بالهديّة ووضعها في يده ثمّ ساعده على النهوض. صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول:

ـ «غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون»... صدق الله العظيم...

٦٨

عند الغلس، ونور الصباح يولد رويدًا من ظلمة الفجر، طرقت خادم من السكّريّة بيت السيّد فأخبرت أمينة بأنّ عائشة قد جاءها المخاض. كانت أمينة في حجرة الفرن فعهدت بالعمل إلى أمّ حنفي وهرعت إلى باب السلّم. بدا على أمّ حنفي الاستياء ربّما لأوّل مرّة في تاريخ خدمتها الطويل بهٰذا البيت، أما كان يحقّ لها أن تشهد ولادة عائشة؟ لها كلّ الحقّ... كأمينة سواء بسواء، فتحت عائشة عينيها في حجرها، كلّ ابن في هٰذا البيت له أمّان: أمينة وأمّ حنفي، كيف يحال بينها وبين ابنتها في هٰذه الساعة الرهيبة!... هل تذكرين ولادتك؟... وربع الطمبكشيّة، كان المعلّم في الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل، وجدت في أمّ حسنيّة صديقة وقابلة معًا!... ترى أين أمّ حسنيّة الآن؟... ألا زالت على قيد الحياة؟ ثمّ جاء حنفي بعد تأوّهات الألم، ذهب بين تأوّهات الألم أيضًا، وهو في المهد، لو عاش لكان ابن عشرين الآن؟... سيّدتي الصغيرة تتألّم وأنا هنا أهيّئ الطعام. امتلأ قلب أمينة بفرح موصول بإشفاق، هو الإحساس الذي خفق به قلبها أوّل مرّة يوم استقبلت التجربة بنفسها. ها هي عائشة تتأهّب لاستقبال أوّل مولود تستهلّ به أمومتها، كما استهلّت هي أمومتها بخديجة، هٰكذا تمتدّ الحياة التي انبثقت منها إلى غير نهاية، ومضت إلى الأب فزفّت إليه البشرى بنبرات رقيقة مهذّبة، مبالغة هٰذه المرّة في حيائها وتهذيبها أن يستشفّ وراء صوتها رغبتها الحارّة في الانطلاق إلى ابنتها غير أنّ السيّد تلقّى الخبر في هدوء ثمّ أمرها بالذهاب دون إبطاء!... راحت ترتدي ملابسها على عجل وقد شعرت بأنّ المزايا التي تكسبها امرأة ضعيفة مثلها بإنجاب الأطفال خليقة بصنع المعجزات أحيانًا، وعلم الأخوة بالخبر عند استيقاظهم عقب ذهاب الأمّ بقليل. علت وجوههم ابتسامة وتبادلوا نظرة متسائلة. عائشة أمّ! أليس ذٰلك غريبًا؟ ما وجه الغرابة فيه. كانت نينة أصغر منها يوم ولدت خديجة. هل ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها؟ ابتسامتان. هٰذا نذير لي، عمّا قليل تلد بنت الكلب أيضًا... من تعني؟! زينب. آه لو سمعك بابا. عائشة أمّ، وأنا أب، وأنا خال وعمّ، ستكون أنت أيضًا خال وعمّ يا سي كمال، يجب أن أتخلّف اليوم عن المدرسة لأذهب إلى أبلا عائشة. جميل جدًّا، استأذن بابا إن استطعت على المائدة!... أوووه. نحن في حاجة إلى مزيد من المواليد لنسدّ العجز الذي أوقعه الإنجليز بنا... لو تخلّفت عن المدرسة ما حدث شيء غير عاديّ، ثلاثة أرباع التلاميذ مضربون أكثر من شهر، قل هٰذا لبابا وسيقتنع حتمًا بحجّتك فيضربك بطبق الفول في وجهك. أوووه. مولود جديد، بعد ساعة أو ساعتين يصير بابا جدًّا ونينة جدّة ونحن أخوالًا. شيء خطير، كم مولودًا يا ترى يرى نور الدنيا في هٰذه اللحظة؟... وكم إنسانًا يغيب عنه هٰذا النور في هٰذه اللحظة؟... يجب أن نبلغ جدّتي. أستطيع أن أذهب إلى الخرنفش لإبلاغها إذا تخلّفت عن المدرسة! قلنا لك لا شأن لنا بمدرستك، قل لبابا وسيرحّب بفكرتك. أوووه. لعلّ عائشة تتألّم الآن. مسكينة المحبوبة، إنّ الطلق لا يلين للشعر الذهبيّ والأعين الزرق ربّنا يقوّمها بالسلامة، عند ذاك نشرب المغات

ونشعل الشموع، ذكر أم أنثى؟ . . . أيهما تفضّل؟ . . . الذكر طبعًا، ربّما بدأت بأنثى كأمّها. لم لا تبدأ بذكر كأبيها؟ هاها، عندما يحين ميعاد انصراف المدرسة يكون الطفل قد خرج فلن أتمكّن من مشاهدة خروجه. أتريد أن تراه وهو يخرج؟ طبعًا. أجّل هٰذه الرغبة حتّى يكون المولود ابنك أنت! . . . كان كمال أشدّ الجميع تأثّرًا بالخبر، شُغل به عقلًا وقلبًا وخيالًا، لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وأنّه يحصى حركاته وسكناته ليبلّغها أوّل فأوّل إلى أبيه لما كان في وسعه أن يقاوم الإغراء الذي يناديه للذهاب إلى السكّريّة. ومكث في المدرسة جسدًا بلا روح، هامت روحه في السكّريّة تتساءل عن القادم الجديد الذي ترقّب مقدمه أشهرًا وهو يمنّي النفس بالاطّلاع على سرّه المكنون. شهد مرّة ولادة قطّة وهو دون السادسة إذ استرعت انتباهه بموائها الحادّ فهرع إليها تحت عرش اللبلاب فوق السطح فوجدها تتلوّى ألمًا وقد جحظت عيناها، ثمّ رأى جسمها يتصدّع عن فلذة ملتهبة فتراجع متقزّزًا وهو يصرخ بأعلى صوته. طافت هٰذه الذكرى بمخيّلته وألحّت عليه حتّى عاوده تقزّزه القديم وانتشرت حوله مضجرة مقلقة كالضباب غير أنّه لم يستسلم للخوف، أبى أن يتصوّر أنّ ثمّة علاقة بين القطّة وعائشة إلّا ما يكون بين الحيوان والإنسان وهو - في إيمانه - أبعد ممّا بين الأرض والسماء، ولكن ماذا يحدث في السكّريّة إذن؟ . . . ماذا طرأ على عائشة من غرائب الأمور؟ . . . ثمّة أسئلة حيارى لا تنعم بجواب. . . ما كاد يغادر المدرسة عصرًا حتّى اندفع يقطع الطريق عدوًا إلى السكّريّة.

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث، ومضى إلى باب الحريم فلاحت منه التفاتة إلى المنظرة فما يدري إلّا وعيناه تلتقيان بعيني والده الذي جلس شابكًا راحتيه على مقبض عصاه القائمة بين رجليه. تسمّر في مكانه جامدًا محملقًا كأنّما نوّم تنويمًا مغناطيسيًّا، لم يطرف ولم يبد حراكًا، ركبه شعور بالذنب لا يدريه فلبث يترقّب انقضاض العقاب عليه وبرودة الخوف تسري في أطرافه حتّى اشتبك السيّد أحمد في حديث مع شخص يجلس إلى جانبه فالتفت نحوه فاستردّ كمال عينيه وهو يزدرد ريقه، عند ذٰلك لمح في داخل المنظرة إبراهيم شوكت وياسين وفهمي قبل أن يفرّ إلى الداخل، رقي في السلّم وثبًا حتّى انتهى إلى دور عائشة فدفع بابًا مواربًا ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفًا في الصالة، ورأى باب حجرة النوم مغلقًا وقد ترامى من ورائه إلى سمعه أصوات تتحادث ميّز منها أمّه وحرم المرحوم شوكت وصوتًا ثالثًا لا يعرفه، سلّم على زوج أخته ثمّ سأله وهو يتطلّع إليه بطرف باسم:

- آبلا عائشة ولدت؟

فرفع الرجل سبّابته إلى شفتيه محذّرًا وهو يقول:

- هس. . . ؟

أدرك كمال أنّه لم يرحّب بالسؤال، بل أنّه لم يرحّب بمقدّمه كسالف عادته فخجل وعانى قلقًا لم يدرِ له سببًا، وأراد أن يتقدّم من الباب المغلق ولٰكنّ صوت خليل أوقفه وهو يهتف باقتضاب ينمّ عن الضجر:

- لا. . .

فتحوّل نحوه متسائلًا ولٰكنّ الرجل قال له في عجلة ولهوجة:

- انزل يا شاطر والعب تحت. . .

انكسرت نفس الغلام فتقهقر متثاقلًا بائخًا وقد عزّ عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هٰذا الجزاء البخس، ولـمّا بلغ عتبة الصالة صكّ أذنيه صوت غريب آت من الحجرة المغلقة، بدأ رفيعًا حادًّا عاليًا، ثمّ غلظ وترهّل حتّى بحّ، وانتهى بحشرجة طويلة قاسية، ثمّ غاب لحظة مقدارها تردّد النفس المقطوع، ثمّ بعث آهة عميقة شاكية، بدا له غريبًا أوّل الأمر كأنّه لم يعرف صاحبه، ولٰكنّ نبرة من نبراته المعذّبة تميّزت وسط الحدّة والغلظة والحشرجة فوشت بهويّة مصدره، صوت عائشة بلا ريب، أو هو عائشة مذابة منصهرة، ثمّ تأكّد من ظنّه عند تردّد الآهة العميقة الشاكية، فارتعشت جوارحه، وخيّل إليه أنّه يراها تتلوّى على حال من الألم دعت إلى مخيّلته بصورة القطّة القديمة، وعطف رأسه صوب خليل فألفاه

يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم «يا لطيف يا ربّ» فخيّل إليه مرّة أخرى أنّ جسم عائشة ينقبض وينبسط مثل راحة الرجل، لم يعد يملك من نفسه شيئًا فركض إلى الخارج مفحمًا في البكاء، وعندما انتهى إلى باب الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرّت به دون أن تنتبه إليه حتّى وقفت على عتبة باب الحريم ثمّ نادت سيّدها إبراهيم فجاء الرجل مسرعًا فقالت له «الحمد لله يا سيدي»، لم تزد على ذٰلك شيئًا ولم تنتظر حتّى تسمع ما يقول ولٰكنّها دارت على عقبيها وهرعت إلى السلّم فرقيت فيه دون تردّد، رجع إبراهيم إلى المنظرة متهلّل الوجه فلبث كمال وحده لا يدري ما يفعل ولٰكن لم تمضِ دقيقة حتّى عاد إبراهيم يتبعه السيّد أحمد فياسين ثمّ فهمي فتنحّى الغلام جانبًا حتّى مرّوا ثمّ صعد في أعقابهم خافق القلب، وقابل خليل الآتين أمام مدخل الشقّة فسمع أباه وهو يقول له:

ـ الحمد لله على السلامة...

فغمغم خليل في وجوم:

ـ الحمد لله على كافّة الأحوال!...

فسأله السيّد باهتمام:

ـ مالك...؟

فقال بصوت منخفض:

ـ إنّي ذاهب لاستدعاء الطبيب...

فتساءل السيّد قلقًا:

ـ المولود...؟

فأجابه وهو يهزّ رأسه سلبًا:

ـ عائشة!... ليست على ما يرام، سأجيء بالطبيب حالًا...

وذهب مخلّفًا وراءه وجومًا وقلقًا واضحين، ثمّ دعاهم إبراهيم شوكت إلى حجرة الاستقبال فمضوا إليها صامتين. وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل فسلّمت وهي تبتسم لتدخل الطمأنينة إلى قلوبهم ثمّ جلست وهي تقول:

ـ قاست المسكينة طويلًا حتّى أنهكت قواها، ولٰكنّها حال عارضة وستزول وشيكًا، إنّي واثقة ممّا أقول ولٰكنّ ابني بدا اليوم خوّافًا على غير عادته، على أنّه لا ضرر ألبتّة من مجيء الطبيب (ثمّ مناجية نفسها بصوت خفيض) الطبيب ربّنا وربّنا هو الطبيب...

لم يعد السيّد يطيق ما يلتزم به عادة من وقار وبرود أمام أبنائه فسألها في قلق غير خاف:

ـ ماذا بها؟... ألا أستطيع أن أراها؟...

فابتسمت المرأة وقالت:

ـ ستراها عمّا قريب وهي بخير وعافية، الحقّ على ابني المجنون هو الذي أزعجكم بغير موجب...

كان وراء الصدر العريض القويّ والوقار الحازم المهيب قلب يتعذّب أشدّ العذاب، كان وراء العينين الواجمتين الرزينتين دمع متجمّد... ماذا دهم الصغيرة؟ الطبيب؟! لماذا تحول العجوز بيني وبينها؟! ابتسامة رقيقة أو كلمة حنونة منّي أنا، منّي أنا خاصّة، حقيقة بأن تخفّف من آلامها، زواج وزوج وألم، لم تذق في بيتي مرارة الألم قطّ، العزيزة الجميلة الصغيرة رحمتك اللّٰهمّ، فسد طعم الحياة، إنّه ليفسد لأهون أذًى يتهدّدهم، فهمي... أراه واجمًا متألّمًا... هل أدرك معنى الألم؟... من أين له أن يعرف قلب الأمّ! العجوز مطمئنّة وواثقة ممّا تقول، ابنها أزعجنا بغير موجب، اللّٰهمّ استجب، أنت أعلم بحالي بأن تنجّيها كما نجّيتني من الإنجليز، قلبي لا يطيق هٰذا العذاب، عند الله الرحمة، وهو قادر على حفظ أبنائي من كلّ سوء، لا طعم للحياة بغير ذٰلك، لا طعم للسرور والطرب واللهو إذا انغرست في جنبي شوكة حادّة، قلبي يدعو لهم بالسلامة، لأنّه قلب أب، ولأنّه لا تطيب المسرّات إلّا لخليّ، هل ألقى سمّار الليل بقلب سعيد؟... أحبّ إذا ضحكت أن تنطلق الضحكة من أعماق قلبي صافية، القلب القلق كالوتر المختلّ، حسبي فهمي، إنّه يلحّ عليّ كوجع الأسنان، ما أبغض الألم، دنيا بلا ألم، لا شيء على الله بكثير، دنيا بلا ألم ولو تكون قصيرة، دنيا تقرّ فيها عيني بهم جميعًا. هنالك أضحك وأغنّي وألهو، يا أرحم الراحمين، عائشة يا أرحم الراحمين!

بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبًا بالطبيب

فدخلا الحجرة من فورهما ثمّ أغلق الباب وراءهما، وعلم السيّد بمقدمهما فقام واتّجه إلى باب حجرة الاستقبال ووقف على العتبة قليلًا وهو يمدّ البصر إلى الباب المغلق ثمّ عاد إلى مجلسه فجلس. قالت حرم المرحوم شوكت:

ـ لَتَعْلَمَنَّ صدق رأيي حالما يتكلّم الطبيب...

فغمغم السيّد وهو يرفع رأسه إلى أعلى:

ـ عنده العفو...

عمّا قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشكّ مهما تكن العواقب. إنّ قلبه يخفق خفقانًا سريعًا متواصلًا، فليصبر، لم يبق إلّا القليل. إنّ إيمانه بالله قويّ عميق لا يتزعزع فليسلّم إليه أمره، سيخرج الطبيب طال مكثه أم قصر وعند ذاك يسأله عمّا وراءه، الطبيب؟... لم يفكّر في ذلك من قبل، طبيب عند نفساء؟!... مع الرحم وجهًا لوجه، أليس كذلك؟ ولكنّه طبيب!... ما الحيلة؟! المهمّ أنّ ربّنا يأخذ بيدها فلنسأله السلامة، وجد السيّد إلى قلقه حياء وامتعاضًا. واستمرّ الفحص زهاء ثلث ساعة ثمّ فتح الباب فنهض السيّد ومضى من توّه إلى الصالة، وتبعه الأبناء حتّى تجمّعوا حول الطبيب. كان الطبيب من معارف السيّد فصافحه باسمًا ثمّ قال:

ـ بخير وعافية...

ثمّ في شيء من الجدّ:

ـ جاءوا بي للوالدة ولكنّي وجدت أنّ التي في حاجة إلى العناية حقًّا هي المولودة...

تنفّس السيّد بارتياح لأوّل مرّة منذ حوالي الساعة فتساءل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة:

ـ أأطمئنّ إذن على عهدتك؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش:

ـ نعم، ولكن ألا تهمّك حفيدتك؟!

فقال السيّد باسمًا:

ـ لا عهد لي بعد بواجبات الجدّ...

وتساءل خليل:

ـ أليس ثمّة أمل في حياتها؟

فقال الرجل وهو يزوي ما بين حاجبيه:

ـ الأعمار بيد الله، ولكنّي وجدت قلبها ضعيفًا، من المحتمل أن تموت الليلة، وإذا مرّت الليلة بسلام جازت الخطر الماثل ولكنّي لا أظنّ أنّها تعمّر طويلًا، في تقديري أنّه لا يمكن أن يمتدّ بها العمر إلى ما بعد العشرين، ولكن من يعلم؟ الأعمار بيد الله وحده...

ولـمّا ذهب الطبيب إلى طيّته التفت خليل نحو أمّه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة تنمّ عن أسف وقال:

ـ كان في نيّتي أن أسمّيها نعيمة باسمك...

فقالت المرأة وهي تلوّح بيدها مؤنّبة:

ـ الطبيب نفسه قال: إنّ الأعمار بيد الله أفتكون أنت أضعف إيمانًا منه، سمّها نعيمة، يجب أن نسمّيها نعيمة إكرامًا لي، وسيكون عمرها بإذن الله مديدًا كعمر جدّتها!

كان السيّد يحادث نفسه: دعا الأحمق الطبيب ليطّلع على زوجه بغير موجب، بغير موجب!... يا له من أحمق. ولم يستطع أن يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة:

ـ حقًّا الخوف يفقد الرجال حسن الرويّة، أما كان يجمل بك أن تفكّر قليلًا قبل أن تبادر إلى إحضار رجل غريب ليرى زوجك بملء عينيه؟!

لم يجب خليل، ولكنّه نظر فيمن حوله وقال بجدّ:

ـ لا يجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب...

٦٩

ـ ماذا في الطريق؟...

تساءل السيّد أحمد وهو ينهض في عجلة من وراء مكتبه، فذهب صوب باب الدكّان يتبعه جميل الحمزاوي وبعض الزبائن. لم يكن طريق النحّاسين طريقًا هادئًا. كان أبعد ما يكون عن الهدوء، صوته الجهير لا يخفت من الفجر إلى ما قبيل الفجر، حناجر عالية هتّافة بنداءات الباعة ومساومات الشارين ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة، يتحادثون وكأنّهم يخطبون، حتّى أخصّ الشئون تترامى إلى جوانبه وتطير حتّى مآذنه، إلى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حينًا وطقطقة الكارو حينًا آخر، لم

يكن طريقًا هادئًا بحال ولٰكن تعالت ضجّة فجائيّة وفدت من بعيد في بادئ الأمر كهدير الأمواج ثمّ غلظت واشتدّت حتّى صارت بعزيف الريح أشبه وقد لفّت الحيّ كلّه قريبه وبعيده، بدت غريبة شاذّة حتّى في هٰذا الطريق الصاخب، ظنّها السيّد أحمد مظاهرة ثائرة كما ينبغي لرجل عاش في تلك الأيّام، ولٰكن جلجلت في طيّاتها زغاريد مبشّرة بالأفراح، فمضى الرجل متسائلًا إلى الباب ولم يكد يبلغه حتّى اصطدم بشيخ الحارة الذي أقبل مندفعًا وهو يهتف بوجه ظفر منه البِشر:

ـ أبلغك الخبر؟

فقال السيّد وعيناه تلمعان تفاؤلًا من قبل أن يسمع شيئًا:

ـ كلّا... ماذا وراءك؟

قال الرجل بحماس:

ـ سعد باشا أفرج عنه...

فما تمالك السيّد أن تساءل صائحًا:

ـ حقًّا؟!

فقال شيخ الحارة بيقين:

ـ أذاع اللنبي الساعة بيانًا بهٰذه البشرى...

في اللحظة التالية كانا يتعانقان، واشتدّ التأثّر بالسيّد أحمد فاغرورقت عيناه ثمّ قال وهو يضحك مداراة لتأثّره:

ـ كان العهد به دائمًا أن يذيع الإنذارات لا البشريات فماذا غيّره ابن الهرمة؟!

فقال شيخ الحارة:

ـ سبحان الذي لا يتغيّر...

وصافح السيّد ثمّ غادر الدكّان وهو يصيح «الله أكبر، الله أكبر، النصر للمؤمنين!».

وقف السيّد على عتبة الدكّان مقلّبًا عينيه في أنحاء الطريق بقلب ارتدّ إلى براءة الطفولة وبهجتها، طالع أثر الخبر السعيد في كلّ مكان... في الدكاكين التي سدّت مداخلها بأصحابها وزبائنها وهم يتبادلون التهاني، في النوافذ التي تزاحمت فيها الأحداث وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها، في المظاهرات التي تألّفت ارتجالًا ما بين النحّاسين والصاغة وبيت القاضي هاتفة قلوبها لسعد، وسعد وسعد ثمّ سعد، في المآذن التي اعتلى المؤذّنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون، في العربات الكارو التي تجمّعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفّعات بالملاءات اللفّ وهنّ يرقصن ويردّدن الأغاني الوطنيّة، لم يعد يرى إلّا آدميّين أو بالأحرى هاتفين، اختفت الأرض وتوارت الجدران وتعالى الهتاف لسعد في كلّ مكان كأنّما الجوّ قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقّف مردّدة اسمه. وجرى نبأ فوق الرءوس الحاشدة أنّ الإنجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تأهّبًا للرحيل إلى العبّاسيّة فاستمرّ الحماس وحمست النشوات. لم يَرَ السيّد أحمد منظرًا كهٰذا من قبل فراح يقلّب عينين متألّقتين وفؤاده يخفق وثبًا وباطنه يردّد مع النسوة الراقصات «يا حسين... حملة وانشالت!» حتّى أدنى جميل الحمزاوي رأسه من أذنه قائلًا:

ـ الدكاكين توزّع الشربات وترفع الأعلام...

فقال له بحماس:

ـ اصنع كما يصنعون وأكثر، أرني همّتك...!

ثمّ بصوت متهدّج:

ـ علّق صورة سعد تحت البسملة...

فنظر إليه جميل الحمزاوي كالمتردّد ثمّ قال محذّرًا:

ـ هٰذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج ألا يحسن بنا أن نتريّث حتّى تستتبّ الأمور؟

فقال السيّد باستهانة:

ـ مضى عهد الخوف والدماء إلى غير رجعة، ألا ترى أنّ المظاهرات تمرّ تحت أعين الإنجليز دون أن يتعرّضوا لها بسوء؟ علّق الصورة وتوكّل على الله.

غار عهد الخوف والدماء، أليس كذٰلك؟ سعد حرّ طليق ولعلّه في طريقه الآن إلى أوربا، لم يعد بيننا وبين الاستقلال إلّا خطوة أو كلمة، مظاهرات الزغاريد بدلًا من مظاهرات الرصاص، الأحياء منّا قوم سعداء، اخترقوا النيران وخرجوا سالمين، رحمة الله على الشهداء، فهمي؟! نجا من خطر لم يقدّره، والحمد لله والشكر لله، أجل نجا فهمي، ماذا تنتظر؟... صلّ

إلى الله ربّك.

لـمّا اجتمعت الأسرة مساء وشت الحناجر المبحوحة بيوم مليء بالهتاف، كان مساء سعيدًا، نمّت عن سعادته الأعين والثغور والحركة والكلام حتّى أمينة نهل قلبها من نخب السعادة المبذول مشاركة للأبناء واستبشارًا بعودة السلام وفرحًا بالإفراج عن سعد:

ـ من المشربيّة رأيت ما لم ترَ عين من قبل، هل قامت القيامة ونصب الميزان؟! وأولئك النسوة هل جُنِنَّ؟! لا يزال صدى ترديدهنّ يرنّ في أذني «يا حسين... حملة وانشالت».

قال ياسين ضاحكًا وهو يعبث بشعر كمال:

ـ تحيّة شيّعوا بها الإنجليز الراحلين كما يشيّع الضيف الثقيل بكسر القُلّة وراءه!...

نظر إليه كمال من دون أن ينبس على حين عادت أمينة تتساءل:

ـ أرضي الله عنّا أخيرًا...؟

فأجابها ياسين قائلًا:

ـ بلا ريب (ثمّ مخاطبًا فهمي) ماذا تظنّ؟

قال فهمي الذي بدا في فرح الأطفال:

ـ لو لم يسلّم الإنجليز بمطالبنا لما أفرجوا عن سعد، سوف يسافر إلى أوربا ثمّ يعود بالاستقلال، هٰذا ما يؤكّده الجميع، ومهما يكن من أمر سيبقى يوم ٧ إبريل سنة ١٩١٩ رمزًا لانتصار الثورة.

فعاد ياسين يقول:

ـ يا له من يوم! اشترك الموظّفون في المظاهرات علانية، ما كنت أظنّ أنّ بي هٰذه القدرة العظيمة على السير المتواصل والهتاف العالي...!

فضحك فهمي قائلًا:

ـ وددت لو رأيتك وأنت تهتف متحمّسًا، ياسين يتظاهر ويتحمّس ويهتف!... يا له من منظر فريد!

يوم عجيب في الأيّام حقًّا، اكتسحه سيله الزاخر فحمله بين أمواجه العاتية كوريقة لا وزن لها حتّى طار به كلّ مطار، لا يكاد يصدّق أنّه ثاب إلى رشده وأنّه آوى إلى برج المراقبة الهادئ يشاهد من منظاره الحوادث في هدوء وعدم اكتراث!... جعل يستحضر الحال التي تلبّسته في المظاهرات على ضوء ملاحظة فهمي حتّى قال بغرابة:

ـ الواحد منّا ينسى نفسه وهو بين الناس نسيانًا غريبًا فكأنّه يبعث شخصًا جديدًا...

سأله فهمي باهتمام:

ـ أكنت تشعر بحماس صادق؟

ـ هتفت لسعد حتّى بحّ صوتي واغرورقت عيناي مرّة أو مرّتين.

ـ كيف اشتركت في المظاهرة؟

ـ بلغنا نبأ الإفراج عن سعد ونحن في المدرسة ففرحت فرحًا عظيمًا حقًّا، أكنت تتوقّع غير هٰذا؟... وإذا بالمدرّسين يقترحون الانضمام إلى المظاهرة الكبيرة في الخارج فلم أجد من نفسي ميلًا إلى مجاراتهم وفكّرت في التسلّل إلى البيت، غير أنّي اضطررت إلى السير معهم حتّى تسنح لي فرصة للزيغان، ماذا حصل بعد ذٰلك! وجدت نفسي في بحر متلاطم من الناس وجوّ مكهرب من الحماس فما ملكت أن ذهلت عن نفسي واندمجت في التيّار كأشدّ ما يكون المرء ـ صدّقني في هٰذا ـ حماسًا وأملًا...!

فهزّ فهمي رأسه وهو يغمغم:

ـ شيء عجيب...

ضحك ياسين عاليًا ثمّ قال:

ـ أحسبتني فاقد الوطنيّة؟! المسألة أنّي لا أحبّ الزياط والعنف، ولا أجد حرجًا في التوفيق بين حبّ الوطن وحبّ السلامة...

ـ وإذا شقّ التوفيق بينهما...؟

فقال مبتسمًا ولٰكن دون تردّد:

ـ قدّمت حبّ السلامة! نفسي أوّلًا... ألا يستطيع الوطن أن يسعد إلّا بالتهام حياتي؟! يفتح الله، أنا لا أفرّط في حياتي ولٰكنّي سأحبّ الوطن ما دمت «حيًّا».

قالت أمينة:

ـ هٰذا عين العقل (ثمّ متطلّعة إلى فهمي) هل عند سيّدي رأي آخر...؟

قال فهمي بهدوء:

ـ كلّا طبعًا، إنّه عين العقل كما قلت...

ولم يَرَ كمال أن يبقى بمعزل عن الحديث لا سيّما أنّه كان مقتنعًا بأنّه لعب في يومه دورًا خطيرًا حقًّا فقال:

ـ وأضربنا نحن كذٰلك ولكنّ الناظر قال لنا: إنّنا ما زلنا صغارًا، وإنّنا إذا خرجنا من المدرسة داستنا الأقدام، ثمّ سمح لنا بالتظاهر في فناء المدرسة فتجمّعنا فيه وهتفنا (هنا هتف عاليًا: يحيا سعد) طويلًا جدًّا، ثمّ لم نعد إلى الفصول لأنّ المدرّسين كانوا قد غادروا المدرسة منضمّين إلى المتظاهرين في الخارج...!

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال:

ـ ولٰكنّ أصدقاءك ذهبوا...!

ـ في داهية...!

ندّت عنه هٰذه العبارة بلا تفكير وهي أبعد ما تكون عن حقيقة شعوره، لأنّ الحال تقتضيها من ناحية، ولأنّه أراد أن يداري بها هزيمته أمام سخرية ياسين من ناحية أخرى، أمّا قلبه فكان يكابد دهشة وغمزًا، لم ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة في المكان المهجور الذي كان يحتلّه المعسكر يقلّب عينيه في أرجائه في صمت أليم وعيناه مغرورقتان. سوف يمضي وقت طويل قبل أن ينسى مجلس الشاي على طوار سبيل بين القصرين والإعجاب الذي كان يحظى به غناؤه، والمودّة التي كان يلقاها من الجنود خاصّة جوليون، والصداقة التي ربطته بالسادة المتفوّقين الذين يعلون في اعتقاده على سائر البشر! قالت أمينة:

ـ سعد باشا رجل سعيد الحظّ، الدنيا كلّها تهتف باسمه، ولا أفندينا في زمانه... رجل مؤمن بلا ريب لأنّ الله لا ينصر إلّا المؤمنين. نصره على الإنجليز الذين غلبوا زبلن نفسه، أيّ فوز وراء هٰذا؟!... لقد ولد الرجل في ليلة القدر.

سألها فهمي باسمًا:

ـ أتحبّينه...؟

ـ أحبّه ما دمت تحبّه...

بسط فهمي راحتيه ورفع حاجبيه مستنكرًا ثمّ قال:

ـ لا يعني هٰذا شيئًا...!

فتنهّدت فيما يشبه الارتباك ثمّ قالت:

ـ كنت كلّما بلغني نبأ أسيف تقطّع قلبي حزنًا وقلت لنفسي «يا ترى أكان يقع هٰذا لو لم يقم سعد قومته؟!»، على أنّ رجلًا يجمع الكلّ على حبّه لا بدّ أنّ الله يحبّه كذٰلك...

ثمّ متنهّدة بصوت مسموع:

ـ أسفي على الهالكين، كم أمًّا تبكي الآن بحرارة؟... كم أمًّا لم تزدها فرحة اليوم إلّا حسرة على حسرة.

قال لها فهمي وهو يغمز ياسين بطرفه:

ـ الأمّ الوطنيّة حقًّا تزغرد لاستشهاد ابنها...

فوضعت أصبعيها في أذنيها وهتفت:

ـ اللّٰهمّ إنّي أشهدك على ما يقول سيّدي الصغير!... أمّ تزغرد لاستشهاد ابنها! أين؟! على هٰذه الأرض؟ ولّا تحت الأرض في عالم الشياطين!...

قهقه فهمي عاليًا ومضى يفكّر مليًّا، ثمّ قال وعيناه تلمعان باسمتين:

ـ نينة...! سأبوح لك بسرّ خطير آن له أن يذاع. لقد اشتركت في المظاهرات وقابلت الموت وجهًا لوجه...!

سهمت إليه غير مصدّقة ثمّ قالت وعلى شفتيها ابتسامة باهتة:

ـ أنت؟!... محال... إنّك من لحمي ودمي وقلبك من قلبي، لست كالآخرين...

فقال بيقين وهو يبتسم إليها:

ـ أقسم لك على ذٰلك بالله العظيم...

اختفت الابتسامة واتّسعت العينان في ذهول، ثمّ ردّدت بصرها بينه وبين ياسين الذي حدجه بدوره بنظرة متسائلة، ثمّ غمغمت وهي تزدرد ريقها:

ـ ربّاه!... كيف أصدّق أذنيّ!

ثمّ بعد أن هزّت رأسها في حيرة أليمة:

ـ أنت!...

كان يتوقّع انزعاجها ولٰكن ليس ـ بالنظر لمجيء اعترافه بعد زوال الخطر ـ إلى الحدّ الذي بدا عليها، فبادرها قائلًا:

ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى، لا داعي الآن

للانزعاج...

فقالت بإصرار ونرفزة:

ـ صه... أنت لا تحبّ... أمّك، سامحك الله...

فضحك فهمي في شيء من الارتباك. قال كمال لأمّه وهو يبتسم بمكر:

ـ أتذكرين يوم دكّان البسبوسة وضرب النار؟ رأيته وأنا عائد في الطريق المقفر فنبّه عليّ بألّا أخبر أحدًا بأنّي رأيته...

ثمّ نظر إلى فهمي وسأله باهتمام وتشوّق:

ـ قصّ علينا يا سي فهمي ما لقيت في المظاهرات، كيف كانت تقع المعارك؟ وكيف يصرخ القتلى؟ ألم تطلق النار قطّ؟...

فتدخّل ياسين في الحديث قائلًا للأمّ:

ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى، اشكري الله على نجاته، هٰذا أولى بك من الانزعاج...

سألته بجفاء:

ـ أكنت تعلم بذٰلك...؟

فبادرها قائلًا:

ـ لا وحياة تربة أمّي (ثمّ مستدركًا) وديني وأيماني وربّي...

ثم نهض من مجلسه، منتقلًا إلى جوارها فوضع يده على منكبيها وقال برقّة:

ـ أتطمئنّين حين كان ينبغي الانزعاج وتنزعجين حين ينبغي الاطمئنان! وحّدي الله، زال الخطر وعاد السلام، ها هو فهمي بين يديك... (وضاحكًا) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولًا وعرضًا، ليلًا ونهارًا، بلا خوف أو قلق...

وقال فهمي جادًّا:

ـ نينة، رجائي إليك ألّا تكدّري صفونا بحزن لا موجب له...

تنهّدت... فتحت فاها لتتكلّم ولٰكنّها حرّكت شفتيها دون أن تنبس، ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه، ثمّ نكست وجهها لتخفي عينيها المغرورقتين...

٧٠

بات فهمي تلك الليلة وهو عاقد العزم على استرضاء أبيه مهما كلّفه الأمر، وفي صباح اليوم التالي صمّم على تنفيذ عزمه دون تردّد، ومع أنّه لم يضمر لأبيه ـ طول فترة العصيان ـ أيّ إحساس بالغضب أو التحدّي فإنّ ضميره كابد شعورًا بالذنب ناء به قلبه الحسّاس المشرّب بالطاعة والولاء. حقًّا لم يتحدّاه بلسانه ولٰكنّه خالف إرادته بالفعل، بل خالفها مرارًا وتكرارًا، فضلًا عن امتناعه عن القسم يوم دعاه إليه في حجرته وإعلانه بالبكاء تمسّكه برأيه رغم إرادة الرجل، كلّ أولٰئك أحلّه ـ على حسن نيّته ـ موقفًا عاقًّا شرّيرًا لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله، ولم يكن سعى إلى استرضائه من قبل خشية أن ينكأ الجرح دون أن يسعه أن يلأمه، لأنّه قدّر أن يدعوه السيّد إلى القسم تكفيرًا عمّا بدر منه فيضطرّ مرّة أخرى إلى الامتناع مؤكّدًا عصيانه من حيث أراد أن يعتذر عنه. الحال اليوم غيرها بالأمس، انتشى قلبه بالسرور والظفر، الوطن كلّه ثمل بخمر السعادة والفوز، فلا يطيق أن يقوم بينه وبين أبيه حجاب من سوء الظنّ ولو لحظة واحدة، الاسترضاء، فالعفو الذي يهفو إليه، ثمّ السعادة الحقّة التي لا تشوبها شائبة، دخل حجرة أبيه قبيل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوي سجّادة الصلاة مغمغمًا بالدعاء، لمحه الرجل بلا ريب ولٰكنّه تجاهله فمضى إلى الكنبة دون أن يلتفت صوبه وجلس. عند ذاك تراءى فهمي بموقفه عند الباب ملفوفًا بالارتباك والحياء فحدجه بنظرة جافّة مستنكرة كأنّما تتساءل «من هٰذا الواقف وماذا جاء به!؟» فتغلّب فهمي على ارتباكه وتقدّم من مجلس أبيه في خطًى خفيفة حتّى انحنى على يده فتناولها فلثمها باحترام لا حدّ له، وصمت مليًّا ثمّ قال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ صباح الخير يا بابا.

واصل التحديق فيه صامتًا كأنّه لم يسمع تحيّته حتّى غضّ الشابّ بصره ارتباكًا وغمغم في نبرات نمّت عن اليأس:

ـ إنّي آسف...

صمت وإصرار على الصمت...

- آسف جدًّا، لم أذق طعم السكينة منذ...

وجد أنّ الكلام كاد يستدرجه إلى ذكر ما ودّ من كلّ قلبه أن يتحاشاه فامسك، وما يدري إلّا والسيّد يسأله بجفاء وتبرّم:

- وماذا تريد؟...

رحّب بإقلاعه عن الصمت أيّما ترحيب فتنهّد بارتياح كأنّه لم يستشعر جفاءه وقال برجاء:

- أريد أن تكون راضيًا عنّي...

قال السيّد بضجر:

- غُرْ من وجهي...

فقال فهمي وهو يشعر بقبضة اليأس تتراخى قليلًا عن عنقه:

- عندما أنال رضاك...

تساءل السيّد متحوّلًا فجأة إلى التهكّم:

- رضاي!... لِمَ لا؟... هل فعلت لا سمح الله ما يستوجب السخط؟!

رحّب بالتهكّم أضعاف ترحيبه بالإقلاع عن الصمت، التهكّم عند أبيه أوّل خطوة نحو الصفح، غضبه الحقيقيّ صفع أو لكم أو ركل أو سبّ أو كلّ أولئك جميعًا، التهكّم أوّل بشير بالتحوّل، انتهز الفرصة وتكلّم، تكلّم كما ينبغي لرجل قد يعمل في المحاماة غدًا أو بعد غد، هٰذه فرصتك! وتكلّم، الاستجابة لنداء الوطن لا تعدّ عصيانًا لإرادة حضرتك، لم أفعل شيئًا يحسب بين الأعمال الوطنيّة حقًّا، توزيع منشورات على الأصدقاء... وما توزيع المنشورات على الأصدقاء؟ أين أنا ممّن بذلوا الحياة رخيصة؟ فهمت من كلام حضرتك أنّك تخاف على حياتي لا لأنّك تستنكر حقًّا الواجبات الوطنيّة، فقمت بشيء من الواجب وأنا مطمئنّ إلى أنّي - في الواقع - لا أخالف لك إرادة... إلخ... إلخ...

- علم الله أنّه لم يخطر ببالي قطّ أن أعصي لك أمرًا.

قال السيّد بحدّة:

- كلام فارغ، تتظاهر بالطاعة الآن لأنّه لم يعد ثمّة داع إلى العصيان، لِمَ لم تطلب رضاي قبل اليوم...؟

قال فهمي بحزن:

- كانت الدنيا في دم وكرب وكنت من الحزن في شغل شاغل...

- شغلك عن طلب رضاي؟!

قال بحرارة:

- شغلني عن نفسي لا عن طلب رضاك...

ثمّ بصوت منخفض:

- لن أستطيع أن أعيش بغير رضاك...

قطّب السيّد، لا غضبًا كما تظاهر، ولٰكن ليخفي الأثر اللطيف الذي بعثه كلام الشابّ في نفسه، هٰكذا يكون الكلام وإلّا فلا، يجيد صناعة الكلام حقًّا، هٰذه هي البلاغة أليس كذٰلك؟ سأعيد أقواله على مسامع الأصدقاء الليلة لأمتحن أثره في نفوسهم، ترى ما عسى أن يقولوا؟ الولد سرّ أبيه... هٰذا ما ينبغي أن يقال، قديمًا قيل لي إنّني لو أتممت مراحل التعليم لكنت أبلغ المحامين، إنّي أبلغ الناس بغير التعليم والمحاماة، الحديث اليوميّ كالقانون سواء بسواء في الكشف عن موهبة البلاغة، كم من محامٍ أو من موظّف كبير ينكمش في المجلس أمامي كالعصفورا ولا فهمي نفسه بمستطيع أن يسدّ مكاني يومًا ما، سيقولون لي وهم يضحكون حقًّا الولد سرّ أبيه، امتناعه عن القسم لا يزال يحزّ في نفسي، لٰكن أليس من دواعي الفخر لي أنّه اشترك في الثورة ولو من بعيد؟ ليته اشترك في الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتّى اليوم، سأقول من الآن فصاعدًا إنّه خاض غمار الثورة، أتظنّون أنّه اكتفى بتوزيع المنشورات كما كان يؤكّد لي؟ لقد رمى ابن الكلب بنفسه في التيّار الدامي، يا سيّد أحمد ينبغي أن نشهد لابنك بالوطنيّة والشجاعة... لم نشأ أن نقول لك هٰذا في إبّان الخطر أمّا وقد استقرّ السلام فلا حرج من قوله... أتنكر أنت شعورك الوطنيّ؟... ألم يثن عليك جامعو التبرّعات من مندوبي الوفد... والله لو كنت شابًّا لفعلت ما لم يفعله ابنك ولٰكنّه عصاني! عصى لسانك وأطاع قلبك! الآن ما عسى أن أفعل؟ يريد قلبي أن يهبه العفو ولٰكنّي أخاف أن يستهين بمخالفتي!

ـ وأنا لن أستطيع أن أنسى أنّك خالفت إرادتي، أحسبت أنّ الخطبة الفارغة التي صبّحتني بها على غيار الريق يمكن أن تؤثّر فيّ؟!

همّ فهمي بالكلام ولكنّ أمّه دخلت في تلك اللحظة وهي تقول:

ـ الفطور جاهز يا سيّدي.

وقد دهشت لوجود فهمي على غير انتظار فردّدت عينيها بينهما، وتلكّأت قليلًا لعلّها تسمع شيئًا ممّا يدور ولكنّها رأت في الصمت ـ الذي خافت أن يكون مجيئها باعثه ـ ما دعاها إلى مغادرة الحجرة على عجل. نهض السيّد للانتقال إلى حجرة المائدة فتنحّى فهمي جانبًا وقد علاه حزن شديد لم يخفّ أثره عن عيني الرجل فتردّد لحظات ثمّ قال أخيرًا بصوت سلميّ:

ـ أريد مستقبلًا ألّا تصرّ على حماقتك وأنت تخاطبني..

وسار فتبعه الشابّ ممتنًّا باسم الأسارير، ثمّ سمعه يقول متهكّمًا وهما يقطعان الصالة:

ـ أظنّك حاسب نفسك على رأس الذين أفرجوا عن سعد!

غادر فهمي البيت قرير العين فمضى من توّه إلى الأزهر حيث اجتمع بزملائه أعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر في تنظيم المظاهرات السلميّة الكبرى التي سمحت السلطة بقيامها للإعراب عن ابتهاج الشعب والتي تقرّر أن يشترك فيها ممثّلو الأمّة بكافّة طبقاتها، دام الاجتماع وقتًا غير قصير، ثمّ تفرّق المجتمعون كلّ إلى وجهته فركب الشابّ إلى ميدان المحطّة بعد أن عرف الدور الذي عهد به إليه وهو الإشراف على تجمّعات طلبة المدارس الثانويّة. لئن كان يعدّ ما يعهد عادة إليه ـ بالقياس إلى غيره، من الأدوار الثانويّة إلّا أنّه كان يقوم به بدقّة وعناية وغبطة كأنّما هو أسعد ما يحظى به في حياته غير أنّه لم يكن يخلو في جهاده من تعاسة خفيفة لم يعلم بها أحد سواه، منشؤها ما اقتنع به من أنّه دون الكثيرين من أقرانه جرأة وإقدامًا... أجل لم ينكص عن مظاهرة من المظاهرات التي دعت إليها اللجنة ولكنّه كان يفقد جنانه عند ظهور اللوريات المحمّلة بالجنود وخاصّة عند إطلاق الرصاص وتساقط الضحايا... فمرّة لاذ بمقهًى وهو يرتعد، ومرّة أخرى جرى على وجهه شوطًا بعيدًا حتّى وجد نفسه في قرافة المجاورين، أين هو من حامل اللواء في مظاهرة بولاق، أو مذبحة بولاق كما غدت تسمّى، الذي استشهد ويداه قابضتان على اللواء وقدماه ثابتتان في الطليعة وحنجرته تهتف بالثبات؟! أين هو من أقران ذٰلك الشهيد الذين تبادروا إلى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلّدت صدورهم نياشين الرصاص؟! أين هو من ذٰلك الشهيد الذي انتزع المدفع الرشّاش من أيدي الجنود في الأزهر؟! أين هو من هٰؤلاء جميعًا وغيرهم ممّن تطير الأنباء بأي بطولتهم واستشهادهم؟! كانت أعمال البطولة تتراءى لعينيه رائعة باهرة تخطف الأبصار، وطالما أنصت إلى نداء باطنيّ يهيب به إلى الإقدام والتأسّي بالأبطال، ولٰكن كانت تخذله أعصابه في اللحظة الحاسمة فما إن تنحسر موجة المعركة حتّى يجد نفسه في المؤخّرة إن لم يكن مختبئًا أو هاربًا، ثمّ يعود إلى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتماسك بضمير معذّب وقلب حائر ورغبة في الكمال لا تحدّ، متعزّيًا أحيانًا بقوله «ما أنا إلّا محارب أعزل، ولئن فاتني الرائع من أعمال البطولة فحسبي أنّني لم أتردّد مرّة واحدة عن الإلقاء بنفسي في أتون المعركة». في طريقه إلى ميدان المحطّة جعل يراقب الطرق والمركبات، كان الجميع يتوجّهون ـ فيما بدا ـ وجهته، طلبة وعمّالًا وموظّفين وأهلين راكبين وراجلين، تظلّلهم جميعًا طمأنينة خليقة بقوم ذاهبين إلى مظاهرة سلميّة مصرّح بها، إنّه مثلهم، يشعر بشعورهم، لا كعهده القديم حين كان يلتمس طريقه إلى موعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب تثقل ضرباته كلّما تخايل لعينيه شبح الهلاك. ذاك عهد مضى، اليوم يمضي مطمئنّ الجانب باسم الثغر... انتهى الجهاد؟ خرج منه سليمًا لا عليه ولا له. ولا له؟! ليته عانى شيئًا ممّا تعرّض له الآلاف كالسّجن أو الضرب أو إصابة غير مميتة! أليس من المحزن أن تكون السلامة المطلقة جزاء من أوتي قلبًا كقلبه وحماسًا كحماسه!

كطالب مجتهد لم يتح له أن يظفر بأيّة شهادة... أتنكر سرورك بالنجاة؟ أكنت تفضّل أن تكون من الشهداء؟ كلّا، أكنت تتمنّى لو كنت من المصابين غير الهالكين؟ نعم، كان ذٰلك في وسعك فلم نكصت؟ لم تكن تضمن أن تقع الإصابة غير مميتة أو أن يكون السجن عابرًا، أنت لا تكره النجاة الراهنة ولٰكنّك تتمنّى لو كان أصابك شيء دون أن يغيّر من هٰذه النهاية الجميلة، ينبغي إذا جاهدت مرّة أخرى أن أطّلع على الغيب؟ أمضي إلى المظاهرة السلميّة بقلب مطمئنّ وضمير قلق - بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر، قبل الميعاد المحدّد لقيام المظاهرة بساعتين فاتّخذ مكانه في الموضع الذي حدّد له! باب المحطّة. لم يكن بالميدان إلّا المشرفون وجماعات متفرّقة من شتّى الطوائف، وكان الجوّ معتدلًا إلّا أنّ شمس أبريل صبّت على من تعرّض لأشعّتها لظًى، ولم يطل الانتظار فأخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية إليه، ومضت كلّ جماعة صوب عملها، بذٰلك شرع فهمي في عمله بلذّة وفخار، بالرغم من بساطة العمل الذي لم يَعْدُ أن يكون ترتيبًا للمدارس كلّ وراء علَمها إلّا أنّه ملأ نفسه زهوًا وخيلاء سيّما وأنّه كان يشرف على طلبة كثيرين ممّن يكبرونه سنًّا حتّى بدت التسعة عشر عامًا التي يجرّها وراءه ذيلًا قصيرًا في زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفتلت شواربهم، ولاحظ أعينًا ترمقه باهتمام وشفاهها تتهامس عليه كما سمع اسمه - مقرونًا بصفته الشعبيّة - يجري على بعض الألسن «فهمي أحمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا» فحرّك أوتار قلبه حتّى أطبق شفتيه دون أن تندّ عنها بسمة حياء أو ارتباك من «مهابته». أجل ينبغي أن يحافظ على منظر مندوب اللجنة العليا، على الجدّ والصرامة الخليقتين بالرعيل الأوّل من شباب المجاهدين كي ينفسح المجال لأخيلة المتطلّعين لحدس ما يخفي وراءه من أعمال البطولة والكفاح، فلتتحقّق تلك الأعمال الخارقة - التي عجز عن تحقيقها في الواقع في أخيلتهم، لن تفتر له رغبة في المزيد منها وإن وخز قلبه إحساسه الحادّ بالحقيقة العارية. موزّع منشورات وجنديّ من جنود المؤخّرة! هٰذا هو بلا زيادة، اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانويّة فيواجه زعامة كبيرة. ترى هل يقدّر الآخرون عمله أكثر ممّا يقدّره هو؟! لَشدّ ما يحبونه بالاحترام والمحبّة، لم يعقد اجتماع إلّا وكان له فيه رأي مسموع، والخطابة؟ ليس من الضروريّ أن تكون خطيبًا... أليس كذٰلك؟ ليس محالًا أن تكون عظيمًا وأنت غير خطيب ولٰكن أيّ خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدي الزعيم فيستبق الخطباء وتلوذ أنت بالصمت، كلّا لن ألوذ بالصمت، سوف أتكلّم، ساطلق لقلبي العنان أجاد أم لم يجد، متى تقف بين يدي سعد؟ متى تراه لأوّل مرّة فتملأ منه عينيك؟ إنّ قلبي يخفق وعيناي تحنّان للدموع، سيكون يومًا عظيمًا، ستخرج مصر كلّها لاستقباله، لن يكون يومنا هٰذا إلى ذٰلك إلّا كالقطرة إلى البحر، ربّاه! امتلأ الميدان، امتلأت الشوارع المفضية إليه. عبّاس نوبار الفجّالة، لم تسبق كهٰذه مظاهرة، مائة ألف، طرابيش عمائم، طلبة... عمّال... موظّفون... الشيوخ والقساوسة، القضاة... من كان يتصوّر هٰذا، لا يبالون الشمس... هٰذه مصر، لِمَ لم أدْعُ بابا؟ صدق ياسين... الواحد منّا ينسى بين الناس نفسه، يعلو على نفسه، أين همومي الشخصيّة؟... لا شيء، لَشدّ ما يخفق قلبي، سأتحدّث عن هٰذا طويلًا الليلة وما بعدها. تُرى هل ترتعد نينة مرّة أخرى؟ منظر جليل تخشع له القلوب وتطمئنّ، أريد أن ألمس أثره في وجوه الشياطين! ها هي ثكناتهم تشرف على الميدان، الراية اللعينة ترفرف، هناك رءوس في النوافذ... فيم تتهامس؟! الديدبان تمثال لا يرى شيئًا، لم تقضِ رشّاشاتكم على الثورة، افقهوا هٰذا، سترون عمّا قريب سعد في هٰذا الميدان عائدًا مظفّرًا تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح، سوف ترون قبل الجلاء. تحرّك الموكب العظيم فتدفّقت موجاته تباعًا مردّدة الهتافات الوطنيّة، بدت مصر مظاهرة واحدة، بل رجلًا واحدًا، بل هتافًا واحدًا، تتابعت طوابير الطوائف طويلًا، طويلًا جدًّا، حتّى خيّل إليه أنّ الطلائع

ستشارف عابدين قبل أن يتزحزح هو وجماعته أمام باب المحطّة، أوّل مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرشّاشة الطريق عليها، لا رصاص من ناحية ولا زَلَط من الناحية الأخرى، وافترّ ثغره عن ابتسامة، رأى الجماعة التي تعسكر أمامه مباشرة تتحرّك فدار على عقبيه كي يواجه مظاهرته «الخاصّة» ورفع يديه فسرت في الصفوف حركة تأهّب وتوثّب، ثمّ هتف بأعلى صوته وهو يسير مقهقرًا. واصل مهمّة القيادة والهتاف حتّى مدخل شارع نوبار ثمّ تخلّى عن الثانية لغيره ممّن أحاطوا به متربّصين دورهم بأفواه قلقة متحرّكة كأنّما قد جاءها المخاض والطلق فلا تستريح حتّى تقذف بهتافاتها، دار على عقبيه مرّة أخرى سائرًا بوجهه، يشرئبّ بعنقه تارة ليشاهد ما تقدّم من جسم المظاهرة التي لم يعد يرى لها أوّلًا ويتلفّت يمنة ويسرة تارة أخرى ليرى من اكتظّت بهم الأرصفة والنوافذ والشرفات والأسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا يردّدون الهتافات. امتلأت نفسه بمنظر الألوف الحاشدة قوّة إلى قوّة وطمأنينة على طمأنينة، كأنّها دروع منصوبة حواليه، قوّة متماسكة لا ينفذ منها الرصاص، إنّ قوّات البوليس تتعهّد النظام بعد أن أعياها الطعان والهجوم، إنّ منظر هٰؤلاء الرجال الذاهبين الجائين على صهوات جيادهم كأنّهم حرّاس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها، لأبلغ دليل على انتصار الثورة، الحكمدار؟! أليس هٰذا هو رسل بك... بلى هو إنّه يعرفه حقّ المعرفة، وهٰذا وكيل الحكمدار يخبّ وراءه ملقيًا على الأفق نظرة جامدة مترفّعة كأنّما تحتجّ احتجاجًا صامتًا على السلام الذي احتضن المظاهرة، ما اسمه؟ هل يمكن أن ينسى الاسم الذي ملأ الأسماع في الأيّام السود الدامية؟! أوّله جيم أليس كذٰلك؟ جا... جو... جي... يأبى أن يستجيب إلى الذاكرة، جوليون!! أوه كيف تسلّل هٰذا الاسم البغيض إلى وعيه؟! هوى عليه كالتراب فأطفأ حماسه، كيف لنا أن نلبّي نداء الحماس والظفر ما دام القلب ميتًا! قلب ميت؟! لم يكن ميتًا منذ دقيقة، لا تستسلم للحزن، لا تدع قلبك يبتعد عن المظاهرة، ألم تعاهد نفسك على النسيان؟ بل إنّك نسيت بالفعل، مريم... من هي؟! ذٰلك التاريخ القديم؟! نحن نعيش للمستقبل لا للماضي... جيز... مستر جيز... مستر جيز... هٰذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه، عد إلى الهتاف كي تنفض عن نفسك هٰذا الغبار الطارئ. مضت «مظاهرته» تقترب رويدًا من حديقة الأزبكيّة التي لاحت أشجارها الباسقة فوق الأعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الأوبرا من بعيد رءوسًا متلاصقة كأنّها تنبت من جسد واحد ملأ الأرض طولًا وعرضًا. كان يهتف بقوّة وحماس والجمهور يردّد هتافه بصوت ملأ الجوّ كهزيم الرعد، ولمّا شارفوا سور الحديقة دوّت ـ على حين بغتة ـ فرقعة حادّة فشلّت حنجرته وتلفّت فيما حواليه متسائلًا في انزعاج، صوت معهود كثيرًا ما صكّ أذنيه في الشهر المنصرم وكثيرًا ما تردّد صداه في ذاكرته في هدأة الليل بيد أنّه لم يستطع أن يألفه فما يكاد يدوّي حتّى يخطف دمه ويوقف قلبه على الخفقان...

ـ رصاص؟!...

ـ غير معقول، ألم يصرّحوا بالمظاهرة؟...

ـ أسقطت من حسابك الغدر؟

ـ ولٰكن لا أرى جنودًا...؟!

ـ حديقة الأزبكيّة معسكر هائل مكتظّ بهم...

ـ لعلّها فرقعة عجلة سيّارة...

ـ لعلّها...

أرهف أذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب إلى السكينة، وما هي إلّا لحظات حتّى دوّت فرقعة ثانية... آه... لم يعد ثمّة شكّ، رصاصة كسابقتها، أين ترى استقرّت؟ أليس يوم سلام؟! شعر بحركة اضطراب تسري بين المتظاهرين وافدة من الأمام كالموجة الثقيلة التي تدفعها إلى الشاطئ باخرة تمخر وسط النهر، ثمّ تراجع الألوف وانتشروا باعثين في كلّ ناحية دفعات جامحة جنونيّة من الاضطراب والارتباك والارتطام، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف، وسرعان ما انتثرت الصفوف المتناسقة وانهدّ البنيان المشيّد. تلاحقت جملة من

الطلقات الحادّة فتعالى صراخ الغضب وأنين الألم، ماج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته إلى جميع المنافذ لا تبقي على شيء في طريقها ولا تذر. اهرب، ما من الهرب بدّ، إن لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام، همّ بالهرب أو بالتراجع أو حتّى التحوّل عن موقفه ولٰكنّه لم يفعل شيئًا، ما وقوفك وقد تشتّت الجمع؟! في خلاء أنت، اهرب... صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية. ما أشدّ الضوضاء، ولٰكن بِمَ علا صراخها؟ هل تذكر؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات. ماذا تريد؟ أن تهتف؟ أيّ هتاف؟ أو نداء فحسب... من؟ ما؟ في باطنك يتكلّم، هل تسمع؟ هل ترى؟ ولٰكن أين؟ لا شيء، لا شيء، ظلام في ظلام، حركة لطيفة تطّرد بانتظام كدقّات الساعة ينساب معها القلب... تصاحبها وشوشة. باب الحديقة. أليس كذٰلك؟ يتحرّك حركة تموّجيّة سائلة، يذوب رويدًا، الشجرة السامقة ترقص في هوادة، السماء... السماء؟ منبسطة عالية، لا شيء إلّا السماء هادئة باسمة يقطر منها السلام.

٧١

سمع السيّد أحمد عبد الجواد وقع أقدام على مدخل الدكّان فرفع رأسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبّان يتقدّمون نحوه تعلوهم سيماء الجدّ والرزانة حتّى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون:

ـ السلام عليكم ورحمة الله...

فنهض السيّد قائلًا بأدبه المعهود:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثمّ مشيرًا إلى الكراسي) تفضّلوا...

ولٰكنّهم لم يلبّوا الإشارة شاكرين وقال أوسطهم:

ـ حضرتك السيّد أحمد عبد الجواد؟

فقال السيّد باسمًا وإن لاح في عينيه التساؤل:

ـ نعم يا سيّدي...

ماذا يريدون يا ترى؟ الشراء مستبعد... ما للشراء والمشية العسكريّة التي جاءوا عليها! ما للشراء واللهجة الجدّيّة التي يتكلّمون بها! ثمّ الساعة جاوزت السابعة مساء. ألا يرون الحمزاوي وهو يرفع الزكائب إلى الرفوف إيذانًا بإغلاق الدكّان؟ أيكونون من جامعيّ التبرّعات، لٰكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة، وأنا لم أعد صالحًا الآن إلّا للسهرة! يا هٰؤلاء اعلموا أنّي لم أغسل رأسي ووجهي بالكولونيا وأمشّط شعري وشاربي وأحبك جبّتي وقفطاني كي ألقى وجوهكم! ماذا تريدون؟ غير أنّه خيّل إليه وهو يرنو إلى محدّثه أنّ وجهه ليس غريبًا عليه، رآه من قبل؟ أين؟ متى؟ تذكّر، من المؤكّد أنّه لا يراه لأوّل مرّة، آه... قال باسمًا وقد شاع الارتياح في وجهه:

ـ أليس حضرتك الشابّ النبيل الذي تقدّم لإنقاذنا في الوقت المناسب يوم حمل الناس علينا في مسجد الحسين رضي الله عنه؟

فقال الشابّ بصوت خفيض:

ـ بلى يا سيّدي...

صدق ظنّي، يقول البلهاء إنّ الخمر تضعف الذاكرة؟ لٰكن ما بالهم ينظرون إليّ هٰكذا؟ انظر، انظر؟ هٰذه النظرات لا تنبئ عن خير، اللّٰهمّ اجعله خيرًا، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قلبي ينقبض لأمر ما، جاءوا لأمر يتعلّق بـ...

ـ فهمي؟! جئتم تريدونه... لعلّكم!؟

نكّس الشابّ عينيه ثمّ قال بصوت متهدّج:

ـ مهمّتنا شاقّة يا سيّدي ولٰكنّها فرض واجب، ربّنا يلهمك الصبر!...

مال السيّد فجأة إلى الأمام معتمدًا على حافّة المكتب وهتف:

ـ الصبر؟ علامَ؟... فهمي؟!...

قال الشابّ بحزن بالغ:

ـ يؤسفنا أن ننعي إليك أخانا المجاهد فهمي أحمد...

صاح بلهجة منكرة وإن لاحت في عينيه نظرة قاطعة بالتصديق واليأس:

ـ فهمي؟...

ـ استشهد في مظاهرة اليوم...

وقال الذي إلى يمينه:

ـ انتقل إلى جوار الله وطنيًا نبيلًا وشهيدًا كريمًا...

تلقّى كلماتهم بأذن أصمّها الشقاء على حين ختم الصمت شفتيه واسترسلت عيناه في نظرة شاردة غائبة. مضت هنيهة خيّم الصمت فيها عليهم أجمعين حتّى جميل الحمزاوي تسمّر تحت الرفوف ذاهلًا يمدّ إلى الرجل بصرًا ملؤه الجزع، أخيرًا عاد الشابّ يغمغم:

ـ لَشدّ ما أحزننا فقده ولكن ليس لنا إلّا أن نتلقّى قضاء الله بصبر المؤمنين، وإنّك لمن المؤمنين يا سيّدي...

إنّهم يعزّونك، لا يعلم هٰذا الشابّ أنّك أوّل من يحسن إلقاء التعازي في مثل هٰذا الموقف!... ماذا تعني هي للقلب المصاب؟ لا شيء! من أين للكلام أن يطفئ النار؟... مهلًا... ألم تخطر الرزيّة بقلبك قبل أن يتكلّم قائلهم؟ بلى... تخايل لعينيّ شبح الموت، الآن والموت حقيقة تلقى إلى سمعك تأبى أن تصدّق، أو تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدّق، كيف أصدّق أنّ فهمي مات حقًّا، كيف تصدّق أنّ فهمي الذي كان يطلب رضاك من ساعات فتثاقلت عنه، فهمي الذي تركنا هٰذا الصباح ممتلئًا صحّة وعافية وأملًا وسرورًا، مات... مات! لن أراه بعد اليوم لا في البيت ولا في أيّ مكان من ظهر الأرض؟ كيف يكون البيت من غيره؟ كيف أكون أنا بعده؟ أين تذهب الآمال المعقودة عليه؟ لم يعد ثمّة أمل إلّا في الصبر... الصبر؟ آه... هل تشعر بوخز الألم الحادّ؟ هٰذا هو الألم حقًّا... كنت تخدع أحيانًا فتزعم أنّك متألّم. كلّا. لم تتألّم قبل اليوم، هٰذا هو الألم حقًّا...

ـ سيّدي، شدّ حيلك وسلّم أمرك إلى الله...

رفع السيّد رأسه إلى الشابّ، ثمّ قال بصوت مريض:

ـ ظننت عهد القتل قد انتهى...

فقال الشابّ بنبرات غاضبة:

ـ كانت مظاهرة اليوم سلميّة، وقد أذنت بها السلطات فاشترك فيها صفوة الرجال من شتّى الهيئات، وسارت أوّل الأمر في أمان حتّى بلغ منتصفها حديقة الأزبكيّة، وما ندري إلّا والرصاص ينهال علينا من وراء السور بلا سبب، لم يتعرّض أحد للجنود لا بخير ولا بشرّ حتّى الهتاف بالإنجليزيّة امتنعنا عنه تفاديًا من الاستفزاز، ولٰكنّهم مسّهم جنون القتل فجأة فعمدوا إلى بنادقهم وأطلقوا النار، وقد انعقد الإجماع على توجيه احتجاج شديد إلى دار الحماية، بل قيل: إنّ اللنبي سوف يعلن أسفه عمّا بدر من الجنود...

قال السيّد بنفس اللهجة المريضة:

ـ ولٰكنّه لن يردّ حياة إلى ميت...

ـ واأسفاه!...

قال السيّد بتفجّع:

ـ لم يشترك في المظاهرات الخطرة، هٰذه أوّل مظاهرة ينضمّ إليها!...

تبادل الشبّان نظرة ذات معنًى فلم ينبس أحدهم بكلمة... وكأنّما ضاق السيّد بالحصار المضروب حوله فقال وهو يزفر:

ـ الأمر لصاحب الأمر، أين أجده الآن؟

قال الشابّ:

ـ في قصر العيني «ثمّ وهو يشير إلى السيّد متمهّلًا لـمّا رآه يتعجّل الذهاب» ستشيّع جنازته مع ثلاثة عشر شهيدًا من إخواننا في تمام الساعة الثالثة من مساء الغد...

هتف السيّد في جزع:

ـ ألا يترك لي تشييع جنازته من بيته!...

فقال الشابّ بقوّة:

ـ بل تشيّع جنازته مع إخوانه في احتفال شعبيّ...

ثمّ برجاء:

ـ القصر محاصر الآن بقوّات من البوليس، ولا بأس من الانتظار ما دمنا نحرص على تمكين أهالي الشهداء من توديعهم قبل تشييع الجنازة، لا يليق أن يشيّع فهمي في جنازة عاديّة كمن قضوا في بيوتهم...

ثمّ مدّ له يده مودّعًا وهو يقول:

ـ اصبر وما صبرك إلّا بالله...

وصافحه الآخران مكرّرين له العزاء، ثمّ ذهبوا جميعًا... أسند رأسه إلى راحته وهو يغمض عينيه

فجاءه صوت جميل الحمزاوي وهو يعزّيه بنبرات باكية، ولٰكنّه بدا ضيّق الصدر بالتعزية، ولم يعد يحتمل البقاء فزايل موضعه يسير بخطّى بطيئة ثقيلة حتّى غادر الدكّان، ينبغي أن يخرج من حيرته، فإنّه لا يدري حتّى كيف يحزن، يودّ لو يخلو إلى نفسه ولٰكن أين؟ سينقلب البيت جحيمًا بعد دقيقة أو دقيقتين، وسيلحق به الأصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير... متى يتأمّل الخسارة التي مني بها... متى يتهيّأ له أن يغيب فيها عن الدنيا جميعًا؟ يبدو هٰذا بعيدًا... ولٰكنّه آتٍ لا ريب فيه، وهٰذا قصارى ما يجد من عزاء في راهنه... أجل سيأتي وقت يخلو فيه إلى نفسه ويفرغ إلى حزنه بكلّ كيانه، هنالك ينعم النظر في موقفه على ضوء الماضي والحاضر والمستقبل، أطوار حياته كلّها من طفولته وصباه إلى ريّق شبابه، ما أثار من آمال وما خلّف من ذكريات مطلقًا لدموعه العنان حتّى يستنفدها عن آخرها، حقًّا أنّ أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعي للجزع، انظر إلى ذكرى الملاحاة التي نشبت بينهما عقب صلاة الجمعة أو ذكرى ما دار بينهما هٰذا الصباح من استعطاف وعتاب، كم يستغرقان من وقته تأمّلًا وتذكّرًا وشجنًا؟ كم يستهلكان من قلبه؟ كم يهيجان دموعه؟ كيف يجزع؟ الأيّام تدّخر له كلّ هٰذه السعادة؟ رفع رأسه المثقل بالفكر فلاحت لعينيه المظلمتين مشربيّات البيت فذكر أمينة لأوّل مرّة حتّى أوشكت أن تخونه قدماه... ما عسى أن يقول لها؟ كيف تتلقّى الخبر؟ الضعيفة الرقيقة التي تبكي لمصرع عصفور! أتذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولي اللبّان؟! ماذا تصنع لمقتل فهمي؟... مقتل فهمي!... أهٰذه هي نهايتك حقًّا يا بنيّ؟... يا بنيّ العزيز التعيس!... أمينة... ابننا قتل، فهمي قتل... يا له... أتأمر بمنع الصوات كما أمرت بمنع الزغاريد من قبل؟... أم تصوّت بنفسك أم تدعو النائحات؟!... لعلّها تتوسّط الآن مجلس القهوة بين ياسين وكمال متسائلة عمّا أخّر فهمي، سوف يتأخّر طويلًا، لن تريه أبدًا... ولا جثّته، ولا نعشه، يا للقسوة، سأراه أنا في القصر أمّا أنت فلن تريه، لن أسمح بهٰذا... قسوة أم رحمة؟ ما الفائدة؟... وجد نفسه أمام البيت فامتدّت يده إلى المطرقة ثمّ تذكّر أنّ المفتاح في جيبه فأخرجه وفتح الباب ثمّ دخل... ترامى عند ذاك إلى سمعه صوت كمال وهو يغنّي بعذوبة:

زوروني كلّ سنة مرّة حرام الهجر بالمرّة


قصر الشوق

- ١ -

أغلق السيّد أحمد عبد الجواد باب البيت وراءه، ومضى يقطع الفناء على ضوء النجوم الباهت في خطوات متراخية، وطرف عصاه ينغرز في الأرض التربة كلّما توكّأ عليها في مشيته المتثائبة. تشوّق وحوانبه تحمى بمثل الوهج إلى الماء البارد الذي سيغسل به وجهه ورأسه وعنقه كي يلطّف - ولو إلى حين - من حرارة يوليه والنار المستعرة في جوفه ورأسه، فهشّ لفكرة الماء البارد حتّى انبسطت أساريره. ولمّا جاز باب السلّم لاح له الضوء الواني الهابط من أعلى يتحرّك على الجدران واشيًا بحركة اليد القابضة على المصباح، فرقي على السلّم يدًا على الدرابزين ويدًا على عصاه التي بعث طرفها دقّات متتابعة اكتسبت من قديم إيقاعًا خاصًّا غدا ينمّ عنه كما تنمّ عنه سماته. وعند رأس السلّم بدت أمينة والمصباح في يدها، حتّى إذا انتهى إليها توقّف وصدره يعلو وينخفض ريثما يستردّ أنفاسه، ثمّ حيّاها تحيّته الليليّة المألوفة قائلًا:

- مساء الخير. .

فغمغمت أمينة وهي تتقدّمه بالمصباح:

- مساء الخير يا سيّدي! . .

في الحجرة هرع إلى الكنبة فتهالك عليها، ثمّ تخلّص من عصاه وخلع طربوشه، وطرح قذاله على المسند مادًّا ساقيه إلى الأمام حتّى انحسر جناحا الجبّة عن قفطانه، وكشف القفطان عن رجلَي سرواله المتداخلتين في جوربه، وأغمض عينيه وهو يجفّف بمنديله جبهته وخدّيه وعنقه؛ على حين كانت أمينة تضع المصباح على الخوان، ثمّ وقفت تترقّب قيامه لتساعده في نزع ثيابه، وهي تنظر إليه باهتمام مشوب بقلق، وتودّ لو تواتيها شجاعتها فتسأله أن يعفي نفسه من الدأب على السهر الذي لم تعد تنهض به صحّته بالاستخفاف المعهود قديمًا. ولٰكنّها لم تدرِ كيف تفصح عن أفكارها الأسيفة! توالت دقائق قبل أن يفتح عينيه، ثمّ نزع الساعة الذهبيّة من قفطانه والخاتم الماسيّ فأودعهما داخل الطربوش، ثمّ نهض ليخلع الجبّة والقفطان بمعاونة أمينة، هناك بدا جسمه كالعهد به: طولًا، وعرضًا، وامتلاء. . لولا شعيرات اغتصبها المشيب من فوديه، وعندما أدخل رأسه في طاقة الجلباب الأبيض غلبه الابتسام فجأة، إذ ذكر كيف تقيّأ السيّد عليّ عبد الرحيم الليلة في مجلس الأنس، وكيف اعتذر عن ضعفه ببرد أصاب معدته. وكيف تعمّدوا أن يعيّروه به زاعمين أنّه لم يعد يحتمل الشراب، وأنّه ليس كلّ الرجال من يستطيعون معاشرة الخمر إلى نهاية العمر ألخ ألخ، وذكر كيف غضب السيّد عليّ وجدّ في دفع الريبة عنه، يا عجبًا. ألهٰذا الحدّ يعير بعض الناس أهمّيّة لهٰذه الأمور التوافه؟! ولٰكن إذا لم يكن ذٰلك كذٰلك فلِمَ فاخر هو في صخب الحديث الضاحك بأنّه يستطيع أن يشرب حانة دون أن تضطرب له معدة؟!

جلس على الكنبة مرّة أخرى ومدّ ساقيه للمرأة التي راحت تخلع الحذاء والجورب، وغابت عن الحجرة قليلًا، وعادت بالطست والإبريق وجعلت تصبّ له الماء فيغسل رأسه ووجهه وعنقه ويتمضمض، وأخيرًا تربّع في جلسته مستعرضًا نسمة الهواء التي تهفو في لطف ما بين المشربيّة والنافذة المطلّة على الفناء.

ـ يا له من صيف فظيع صيف هٰذا العام!

فقالت أمينة وهي تسحب الشلتة من تحت السرير، وتتربّع بدورها عليها على كثب من قدميه:

ـ ربّنا يلطف بنا (ثمّ وهي تتنهّد) الدنيا كلّها كوم وحجرة الفرن كوم! السطح هو المتنفّس الوحيد في الصيف بعد مغيب الشمس.

بدت في جلستها غيرها بالأمس، نحفت واستطال وجهها، أو لعلّه تراءى أطول ممّا هو لما حلّ بالخدّين من رقّة، وقد انتشر المشيب فيما انحسر عنه منديل رأسها من خصلات، فأضفى عليها روح كبر أكثر ممّا تستحقّ.. وغلظت الشامة في وجنتها قليلًا، على حين نمّت عيناها ـ إلى نظرة الخضوع القديمة ـ عن شرود مُزج بالحزن، كما اشتدّت حيرتها لما طرأ عليها من تغيّر. ولئن كانت قد رحّبت به بادئ الأمر على سبيل التعزّي إلّا أنّها أخذت تتساءل في قلق: أليست هي في حاجة إلى صحّتها ما دام في العمر بقيّة؟ بلى! والآخرون في حاجة إلى صحّتها أيضًا، ولٰكن كيف يعاد الشيء إلى أصله؟! ثمّ إنّها تقدّمت سنين، لعلّها لم تكن بالكثرة التي تبرّر هٰذا التغيّر ولٰكنّها ممّا يترك أثرًا ولا شكّ.

هٰكذا كانت تقف في المشربيّة الليالي المتعاقبة تراقب الطريق من وراء الخصاص، فترى طريقًا لا يتغيّر، والتغيّر يدبّ إليها غير متوانٍ. وعلا صوت النادل في القهوة فتطاير إلى الحجرة الصامتة كالصدى، فابتسمت وهي تسترق النظر إلى السيّد.

ما أحبّ هٰذا الطريق الذي يسهر الليالي سامرًا إلى قلبها، إنّه الصديق الغافل عن القلب الذي يحبّه من وراء خصاص، معالمه ملء نفسها، سُمّاره أصوات حيّة تعيش في مسامعها، هٰذا النادل الذي لا يستكنّ له لسان، وذو الصوت المجروح الذي يعقّب على حوادث اليوم بلا تعب أو ضجر، وذو الصوت العصبيّ الذي يتصيّد بخته في «الكومي» و«الولد»، ووالد هنيّة الطفلة المصابة بالسعال الديكيّ الذي يُسأل عنها فيجيب ليلة بعد أخرى «عند الله الشفاء»، آه.. كأنّ المشربيّة ركن من القهوة هي جليسته. كانت ذكريات الطريق ترتسم على مخيّلتها وراء عينين لا تفارقان الرأس المتوسّد لمسند الكنبة، فلمّا انقطع التيّار تركّز انتباهها في الرجل فتبيّنت في صفحتي وجهه حمرة شديدة اعتادت أن تطالعها في أعقاب الليالي الأخيرة، ولم تكن ترتاح إليها فتساءلت في إشفاق:

ـ سيّدي بخير..؟

فاعتدل رأسه، وهو يتمتم:

ـ بخير، والحمد لله (مستدركًا) ما أفظع الجوّ!!

الزبيب خير مُسْكِر في الصيف.. هٰكذا قالوا له وأعادوا، ولٰكنّه لا يطيقه، فإمّا الويسكي وإلّا فلا. عليه إذن أن يعاني خمار سكرة صيف ـ وصيف شديد ـ كلّ ليلة. شدّ ما ضحك هٰذه الليلة... ضحك حتّى كلّت عروق عنقه. ولٰكن فيم كان الضحك؟! لا يكاد يذكر شيئًا، وليس هناك شيء يروى أو يعاد، ولٰكنّ جوّ المجلس كان مشحونًا بكهرباء لطيفة بحيث إنّ أيّ لمسة كانت تُحدث اشتعالًا، فما هو إلّا أن قال السيّد إبراهيم الفار: «أبحر الإسكندريّة من سعد اليوم إلى باريس» وكان يقصد أن يقول: «أبحر سعد من الإسكندريّة اليوم إلى باريس» حتّى انفجروا ضاحكين، فعُدّت «نادرة» من نوادر الخمر اللسانيّة. وابتدروه قائلين: «وسيمكث في المفاوضة ريثما يستردّ صحّته، ثمّ يبحر إلى الدعوة تلبية للندن التي تلقّاها من» أو «وسينال رامزاي مكدونالد من الاستقلال على الموافقة» و«سيعود حاملًا مصر إلى الاستقلال»، وجعلوا يتحدّثون عن المفاوضة المنتظرة ويعلّقون عليها بما يحلو لهم من المداعبات..

حقًّا.. إنّ دنيا الأصدقاء على رحابتها تتلخّص في ثلاثة: محمّد عفّت، وعليّ عبد الرحيم، وإبراهيم الفار.. فهل يستطيع أن يتصوّر للدنيا وجودًا من دون

وجودهم؟! إنّ إشراق وجوههم بالبِشْر الصادق حين رؤيته، سعادة لا تدانيها سعادة. التقت عيناه الحالمتان بعينَي أمينة المستطلعتين، فقال وكأنّه يذكّرها بأمر هامّ:

ـ غدًا..

فقالت، وقد شاعت في وجهها ابتسامة:

ـ كيف أنسى!

فقال بشيء من الفخار لم يحاول مداراته:

ـ قيل لي إنّ نتيجة البكالوريا كانت سيّئة هٰذا العام..

فقالت وهي تشاركه فخاره بمعاودة الابتسام:

ـ ربّنا ينجّح مقاصده، ويمدّ في عمرنا حتّى نشهد نجاحه في الدبلوم..

فتساءل:

ـ هل ذهبتِ اليوم إلى السكّريّة؟

ـ نعم، ودعوتهم جميعًا، وسوف يحضرون إلّا الستّ الكبيرة التي اعتذرت بتعبها، فقالت: إنّ ابنيها سينوبان عنها في تهنئة كمال.

فقال السيّد، وهو يومئ بذقنه صوب جبّته:

ـ جاءني اليوم الشيخ متولّي عبد الصمد بأحجبة لأولاد خديجة وعائشة، ودعا لي قائلًا: «إن شاء الله أعمل لك أحجبة لأولاد أحفادك».

ثمّ وهو يهزّ رأسه باسمًا:

ـ لا شيء على الله ببعيد، ها هو الشيخ متولّي نفسه كالحديد رغم الثمانين!..

ـ ربّنا يمتّعك بالصحّة والعافية!

فتفكّر مليًّا، وهو يعدّ على أصابعه، ثمّ قال:

ـ لو امتدّ العمر بأبي ـ رحمه الله ـ ما زاد على عمر الشيخ كثيرًا..

ـ رحم الله الراحلين..

وخيّم الصمت ريثما ذهب الأثر الذي تركه ذكر «الراحلين»، ثمّ قال الرجل بلهجة مَن تذكّر أمرًا هامًّا:

ـ زينب خطبت!

اتّسعت عينا أمينة، وهي ترفع رأسها قائلة:

ـ حقًّا؟!..

ـ نعم، أخبرني محمّد عفّت بذلك الليلة!..

ـ مَن؟

ـ موظّف يدعى محمّد حسن، رئيس إدارة المحفوظات بالمعارف.

فتساءلت بوجوم:

ـ يبدو أنّه متقدّم في السنّ؟

فقال كالمعترض:

ـ كلّا، في الحلقة الرابعة، خمسة وثلاثين.. ستّة وثلاثين.. أربعين عامًا على الأكثر!

ثمّ بلهجة تهكّميّة:

ـ جرّبتُ حظّها مع الشباب فأخفقت، أعني الشباب الذين لا يرفعون رأسًا، فلتجرّب حظّها مع الرجال العقلاء!

فقالت أمينة بأسف:

ـ كان ياسين أَوْلى بها، على الأقلّ من أجل خاطر ابنها..

كان هٰذا رأي السيّد، وعنه دافع طويلًا لدى محمّد عفّت، بيد أنّه لم يعلن موافقته على رأيها مداراة لخيبة مسعاه، فقال متسخّطًا:

ـ لم يعد للرجل به من ثقة، والحقّ أنّه غير جدير بالثقة، لذلك لم ألحّ عليه، لم أقبل أن أستغلّ صداقتنا في حمله على ما لا خير فيه..

فغمغمت أمينة في شيء من الإشفاق:

ـ هفوة شباب لا يضيق عنها العفو!

هان على السيّد أن يعترف بجانب من مسعاه الخائب، فقال:

ـ لم أقصّر في حقّه ولٰكنّي لم أصادف ترحيبًا، وقال لي محمّد عفّت برجاء: «إنّ السبب الأوّل في اعتذاري هو إشفاقي من تعريض صداقتنا إلى الشقاق»، وقال لي أيضًا: «لا أستطيع أن أرفض لك رجاء، ولٰكنّ صداقتنا أعزّ لديّ من رجائك».. فأمسكت عن الكلام..

قال محمّد عفّت هٰذا حقًّا، ولٰكنّه لم يصرّح به إلّا مدافعة لإلحاحه. والحقّ أنّ السيّد كان شديد الرغبة في وصل ما انقطع من مصاهرة محمّد عفّت لمكانته من

نفسه ومكانة أسرته من المجتمع، ولم يكن يطمع في أن يجد لياسين زوجة خيرًا من زينب، ولكنّه لم يسعه إلّا التسليم بالهزيمة، خاصّة بعد أن صارحه الرجل بما يعلم عن حياة ياسين الخاصّة، حتّى قال له: «لا تقل لي إنّنا نحن أنفسنا لا نختلف عن ياسين، فالحقّ أنّنا نختلف بعض الشيء، والحقّ أنّي لا أرتضي لزينب ما ارتضيت لأمّها!».

تساءلت أمينة:

ـ هل علم ياسين بما كان؟

ـ سيعلم غدًا أو بعد غد، هل ترينه يكترث لذلك؟ إنّه أبعد ما يكون عن تقدير الزيجة المشرّفة..

فهزّت أمينة رأسها أسفًا، ثمّ تساءلت:

ـ ورضوان؟

فقال السيّد مقطّبًا:

ـ سيبقى عند جدّه، أو يلحق بأمّه إن لم يصبر على فراقها، الله يخيّر من حيّره..!

ـ مسكين يا ربّي، أمّه في ناحية وأبوه في ناحية، أتطيق زينب فراقه..؟

فقال السيّد فيما يشبه الازدراء:

ـ للضرورة أحكام (ثمّ متسائلًا) متى يبلغ السنّ؟.. ألا تذكرين؟

فتفكّرت أمينة قليلًا، ثمّ قالت:

ـ إنّه أصغر قليلًا من نعيمة بنت عائشة، وأكبر قليلًا من عبد المنعم ابن خديجة، فيكون في الخامسة يا سيّدي، سوف يستردّه أبوه بعد عامين، أليس كذلك يا سيّدي؟

قال السيّد، وهو يتثاءب:

ـ يا ترى من يعيش (ثمّ مستطردًا) وكان متزوّجًا، أعني الزوج الجديد!

ـ وله أولاد؟

ـ كلّا لم ينجب من زوجه الأولى..

ـ لعلّ هذا ما حسّنه في عينَي السيّد محمّد عفّت..

فقال السيّد بامتعاض:

ـ ولا تنسَيْ مقامه..

فقالت أمينة معترضة:

ـ لو أنّ الأمر أمر مقام ما عدل بابنك أحدًا، على الأقلّ من أجلك أنت..

فشعر باستياء حتّى لعن في سرّه ـ على حبّه ـ محمّد عفّت، ولكنّه عاد يجرّ خطًّا تحت النقطة التي يتعزّى بها، فقال:

ـ لا تنسَيْ أنّه لولا حرصه على أن يضع صداقتنا في حرز حريز ما تردّد عن قبول رجائي..

فقالت أمينة معربة عن نفس الإحساس:

ـ طبعًا، طبعًا يا سيّدي، إنّها صداقة العمر، وليست لهوًا ولعبًا.

عاوده التثاؤب مرّة أخرى، فتمتم قائلًا:

ـ خذي المصباح خارجًا..

قامت أمينة لتنفيذ أمره فأغمض عينيه قليلًا، ثمّ نهض دفعة واحدة كأنّما ليقاوم الكسل واتّجه نحو الفراش فاستلقى عليه... إنّه الآن خير حالًا!! ما أهنأ الرقاد بعد التعب!! أجل. لا يخلو رأسه من نبض قارع، ولكنّ رأسه لا يكاد يخلو من شيء ما، فليحمد الله على أيّ حال! الصفاء الكامل ماضٍ مضى، ثمّة شيء نفتقده كلّما خلونا إلى أنفسنا ولكنّه لا يعود، يلوح لنا من الماضي بذكرى شاحبة كهٰذا الضوء الخافت الذي تشفّ عنه شرّاعة الباب. فليحمد الله على أيّ حال!! ولينعم بحياة يغبطه عليها الغابطون!! الأجدى أن يقطع برأي فيما إذا كان سيقبل الدعوة أم لا، أو فليدع ما للغد للغد، إلّا ياسين.. فإنّه مسألة الأمس واليوم والغد، ليس صغيرًا من بلغ الثامنة والعشرين، وليس المشكل أن يبحث له عن زوجة أخرى، ولكنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم. متى تسطع هداية الله فتملأ الأرض حتّى يبهر نورها الأعين؟ هنالك يهتف من الأعماق أنّ الحمد لله، ولكن ماذا قال محمّد عفّت؟ إنّ ياسين يصول ويجول في الأزبكيّة حتّى سراديبها... كانت الأزبكيّة مغنى آخر حينما كان هو يصول فيها ويجول، وهزّه الحنين مرّات إلى معاودة بعض مشاربها إحياء للذكريات. فليحمد الله على أنّه علم بسرّ ياسين قبل أن يُقدِم، وإلّا لضحك الشيطان من أعماق قلبه

الهازئ. أوسعوا الطريق للأبناء فقد شبّوا، عنها صدّك الأستراليّون أوّل الأمر، وأخيرًا هٰذا البغل الأستراليّ. . .

- ٢ -

تتابعت دقّات العجين من حجرة الفرن في هدأة السحَر مع صياح الديكة، كانت أمّ حنفي مكبّة على جرّة العجين بجسمها اللحيم، يلوح وجهها ريّان على ضوء المصباح المنبعث من فوق سطح الفرن، لم ينل الكبر من شعرها ولا شحمها ولٰكن شابت ملامحها جهامة واخشوشنت قسماتها، وإلى يمينها قعدت أمينة على كرسيّ المطبخ تفرش ألواح العجين بالردّة استعدادًا لاستقبال الأقراص، تُواصِل العمل - في صمت - حتّى توقّفت أمّ حنفي عن العجين. فاستخرجت يدها من الجرّة ومسحت على جبينها المبتلّ بالعرق ببطن مرفقها، ثمّ لوّحت بقبضتها المغطّاة بالعجين كقفّاز ملاكمة أبيض، وقالت:

- أمامك يا ستّي يوم شاقّ ولٰكنّه لذيذ، كثّر الله من أيّام السرور. . .

فغمغمت أمينة دون أن ترفع رأسها عن عملها:

- علينا أن نقدّم مائدة شهيّة. . .

فابتسمت أمّ حنفي، وهي تومئ بذقنها إلى سيّدتها، قائلة:

- البركة في المعلّمة. . .

ثمّ غرست يديها في الجرّة مرّة أخرى، وعادت إلى ملاكمة العجين.

- وددت لو قنعنا بتوزيع الثريد على فقراء الحسين.

فقالت أمّ حنفي بلهجة معاتبة:

- لن يكون بيننا غريب.

فتمتمت أمينة بصوت لم يخلُ من ضيق:

- ولٰكنّها وليمة وضجّة على أيّ حال، فؤاد ابن جميل الحمزاوي نال البكالوريا أيضًا، ولا مَن رأى ولا مَن سمع!!

ولٰكنّ أمّ حنفي أصرّت على المعاتبة، قائلة:

- ما هي إلّا فرصة نجتمع فيها بمن نحبّ.

كيف تكون مسرّة دون تأنيب أو توجّس خيفة. قديمًا استخبرت السنين فأجابت بأنّ تاريخ ابتدائيّة هٰذا سيوافق تاريخ ليسانس ذاك، حفل لم يجئ ونذر لم يوفَ. ١٩. . ٢٠. . ٢١. . ٢٢. . ٢٣. . ٢٤. . شباب العمر اليافع الذي حُرمت من احتضان ينعه، من قسمة التراب كان، يا انصداع القلب الذي يسمّونه الحسرة.

- ستفرح ستّ عائشة بالبقلاوة، وتذكر أيّام زمان يا ستّي. . .

ستفرح عائشة وأمّ عائشة ستفرح أيضًا، نهار وليل وشبع وجوع ويقظة ونوم، وكأنّ شيئًا لم يكن. سلي الزعيم الذي زعم بأنّك لن تعيشي بعده يومًا واحدًا، عشت لتحلفي بتربته، إذا زلزل القلب فليس معناه أن تزلزل الدنيا، كأنّه نسيّ منسيّ حتّى تزار المقابر، كنت ملء العين والنفس يا بنيّ ثمّ لا يذكرونك إلّا في المواسم، أين أنتم يا هٰؤلاء؟ كلٌّ مشغول بشواغله، إلّا أنت يا خديجة قلب أمّك وروحها حتّى وصّيتك يومًا بالصبر، لم تكن كذٰلك عائشة، مهلًا! لا ينبغي أن أكون ظالمة، حزنت حزنها كما ينبغي، كمال لا لوم عليه، رفقًا بالقلوب الغضّة، بات الأوّل والأخير، شاب شعرك وصرت كالخيال، هٰكذا تقول أمّ حنفي، لا كانت الصحّة ولا كان الشباب، تقاربين الخمسين وهو لم يتمّ العشرين، حَبَل ووحم وولادة ورضاعة وحبّ وآمال، ثمّ لا شيء. . . ترى هل خلا من الأفكار رأس سيّدي؟ دعيه وشأنه! ليس حزن الرجال كحزن النساء، هٰكذا قولك يا أمّي جعل الله الجنّة مثواك، يحزّ في نفسي يا أمّي أنّه عاد إلى سيرته، كأنّ فهمي لم يمت، وكأنّ ذكراه قد تبخّرت، بل يلومني كلّما لجّ بي الحزن، أليس هو أباه كما أنا أمّه؟. . . يا أمينة يا مسكينة. . . لا تفتحي صدرك لهٰذه الأفكار. . . لو صحّ أن نحكم على القلوب بقلب الأمّ لبدت القلوب أحجارًا. . . إنّه رجل وليس حزن الرجال كحزن النساء. . . لو استسلم الرجال للأحزان لناءت بها كواهلهم المثقلة بالأعباء، عليك إذا أنست منه حزنًا أن تسرّي عنه. . . . إنّه ركنك يا ابنتي المسكينة». غاب

ذلك الصوت الحنون وصادف فقده قلوبًا مترعة بالحزن فلم يكد يبكيه أحد، وشهد شاهد حكمتها ليلة عاد في أخريات الليل ثملًا، ثمّ ارتمى على الكنبة مجهشًا في البكاء، وتمنّيت ليلتئذٍ له السلامة ولو بالنسيان الأبديّ، أنت نفسك ألا تنسين أحيانًا؟ ثمّة ما هو أفظع من ذٰلك، هو تمتّعك بالحياة وحرصك عليها. هٰذه هي الدنيا. هٰكذا يقولون! فتردّدين ما يقولون وتؤمنين به. كيف جاز لك ـ يومًا ـ بعد هٰذا أن تحنقي على ياسين برءه ومواصلته مألوف الحياة! مهلًا، الإيمان والصبر... سلّمي إلى الله، فكلّ ما جاءك من عنده، «أمّ فهمي» إلى الأبد، سوف أظلّ ما حييت أمّك يا بنيّ وتظلّ ابني...

تتابعت دقّات العجن، ففتح السيّد عينيه على نور الصباح الباكر، وراح يتمطّى ويتثاءب بصوت مرتفع ممطوط، تصاعد كالتذمّر أو الاحتجاج، ثمّ جلس في الفراش مستندًا براحتيه على ساقيه الممدودتين، فبدا ظهره مقوّسًا وقد نضح أعلى الجلباب الأبيض بالعرق، وجعل يحرّك رأسه يمنة ويسرة كأنّما لينفض عنه وطأة الوخم، ثمّ انزلق إلى أرض الحجرة، ومضى متهاديًا إلى الحمّام إلى الدشّ البارد... الدواء الوحيد الذي يغيّر عليه بدنه فيعيد إلى رأسه اتّزانه وإلى نفسه اعتدالها، تجرّد من ثيابه، ولـمّا تعرّض لرشاش الماء وردت ذهنه ذكرى الدعوة التي وُجّهت إليه أمس، فخفق فؤاده الذي تلقّى الذكرى والإحساس المنعش بالماء البارد معًا، عليّ عبد الرحيم قال: «نظرة إلى الوراء، إلى حبيبات رمان، لا يمكن أن تمضي الحياة هٰكذا إلى الأبد، إنّي أعرف الناس بك». أيُقدِم على هٰذه الخطوة الأخيرة؟ خمس سنوات مضت وهو يأبى أن يخطوها. أكان تاب إلى الله توبة مؤمن مصاب؟ أم أضمر التوبة وخاف أن يجهر بها؟ أم أطلقها نيّة صادقة دون تورّط في التوبة؟... لا يذكر، ولا يريد أن يذكر، ليس صغيرًا سن يدنو من الخامسة والخمسين. ولٰكن ما لفكره قد تقلقل وتزلزل؟! كحاله يوم دُعي إلى السماع فلبّى، هل يلبّي النداء إلى حبيبات زمان بالمثل؟ متى يبعث الحزن ميتًا؟، هل أمرنا الله أن نُهلك أنفسنا وراء من نحبّهم إذا ذهبوا!؟ في عام الحداد والتقشّف كاد الحزن يقتله قتلًا، عام طويل لم يذق فيه شرابًا، ولم يسمع نغمًا، ولم تندّ عن فيه ملحة حتّى شابت شعيراته... أجل لم يتسلّل الشيب إلى شعره إلّا في ذٰلك العام، رغم أنّه عاد إلى الشراب والسماع رحمة بالأصدقاء المقرّبين الذين انقطعوا عن اللذّات إكرامًا لحزنه، كذب وصدق، عاد إلى الشراب لنفاد صبره ورحمة بالأصدقاء الثلاثة، لم يكونوا كالآخرين، وما على الآخرين مِن مَلام، حزنوا لحزنك، ثمّ جعلوا يراوحون بين مجلسك الجافّ ومجالسهم النديّة فأيّ تثريب عليهم!؟ بيد أنّ الثلاثة المحبّين أبوا أن ينالوا من الحياة نصيبًا أوفى ممّا ارتضيت لنفسك، وعدتَ رويدًا إلى أشياء، إلّا المرأة رأيتها كبيرة فلم يلحّوا عليك أوّل الأمر، لشدّ ما تأبّيت وحزنت، لم يؤثّر فيك رسول زبيدة، رددت أمّ مريم بوقار حزين حازم وأنت تكابد آلامًا لا قِبَل لك بها، ظننت أن لن تعود أبدًا، وخاطبت نفسك المرّة تلو المرّة... «أأعود إلى أحضان الغواني وفهمي في قبضة التراب!؟» آه... ما أحوجنا في ضعفنا وتعاستنا إلى الرحمة!! فليداوم على الحزن من يضمن ألّا يموت غدًا، مَن قائل هٰذه الحكمة؟ واحد من اثنين: عليّ عبد الرحيم أو إبراهيم الفار. محمّد عفّت بك لا يجود بالحِكَم. رفض رجائي، وزوّج البنت من رجل غريب، ثمّ ضحك عليّ بالقبل، لا ينكر غضبه ويشفق من أن يطالعني به كما وقع قديمًا، لله هو أيّ وفاء وأيّ ودّ أتذكر كيف امتزج دمعه بدمعك في القرافة؟ ولٰكنّه القائل فيها بعد «أخاف عليك الكبر إن لم تفعل... تعال إلى العوّامة». ولـمّا آنس تردّدًا قال: «لتكن زيارة بريئة... لن يجرّدك أحد من ملابسك ويرميك على امرأة». لم أحزن قليلًا علم الله، بموته مات جزء جسيم منّي. مات أملي الأوّل في الدنيا، منذا يلومني على الصبر والعزاء؟ قلبي جريح وإن ضحكت! ترى، كيف هنّ؟ ماذا فعل بهنّ الزمان في خمسة أعوام؟ خمسة أعوام طوال؟

* * *

كان شخير ياسين أوّل ما تلقّى كمال من عالم

اليقظة، فلم يتمالك أن يناديه وهو إلى معاكسته أرغب منه إلى إيقاظه في ميعاده، ولاحقه بصوته غير متوانٍ حتّى ردّ عليه الآخر بصوت كالنزع تشكّيًا وتذمّرًا، ثمّ تقلّب بجسمه الضخم فطقطق الفراش فيما يشبه الأنين والتوجّع ثمّ فتح عينين حمراوين وتأوّه.

لم يكن ثمّة ـ في رأيه ـ ما يدعو إلى هٰذه العجلة ما دام أحد منهما لن يذهب إلى الحمّام قبل عودة الأب منه، لم يعد من اليسير استعمال حمّام الدور الأوّل منذ قضى التنظيم الجديد للبيت ـ منذ خمسة أعوام ـ بنقل الحجرات إلى الدور الأعلى فيما عدا حجرة الاستقبال والصالة المتّصلة بها التي فُرشت بأثاث بسيط باعتبارها مدخلًا لها، ومع أنّ ياسين وكمال لم يرحّبا ـ قطّ ـ بالإقامة مع الأب في دور واحد، إلّا أنهما لم يجدا بدًّا من احترام الرغبة في مقاطعة الدور الأوّل الذي لم تعد تدخله قدم إلّا حين يلمّ بالبيت زائر. أغمض ياسين عينيه، ولٰكنّه لم ينم، لا لأنّ معاودة النوم كانت عبثًا فحسب، ولٰكن لأنّ صورة انبعثت في خياله فأشعلت إحساسه... وجه مستدير، تتوسّط صفحته العاجيّة عينان سوداوان. مريم! فاستجاب لداعي الأحلام... واستسلم لتخدير ألذّ من تخدير المنام.

قبل أشهر معدودات، لم تكن بالنسبة إليه موجودة قطّ، وكأنّها لم تكن، حتّى سمع أمّ حنفي تتحدّث ـ ذات مساء ـ إلى امرأة أبيه، فتقول: «أما سمعت بالخبر يا ستّي؟... ستّ مريم طلّقت من زوجها وعادت إلى أمّها» هنالك عاوده ذكر مريم، وفهمي، والجنديّ الإنجليزيّ، صديق كمال وإن غاب عنه اسمه، ثمّ ذكر بالتالي اهتمامه القديم بشخصيّتها الذي جاش بها صدره عقب ذيوع الفضيحة، ما يدري إلّا وقد أضاءت فجأة في نفسه لوحة معبّرة، كما تضيء الإعلانات الكهربائيّة في الليل، سُطّر عليها «مريم... جارتك... الجدار لصق الجدار... مطلّقة... ذات تاريخ وأيّ تاريخ... أبشِرْ»، ولٰكنّه ما لبث أن جفل من نفسه، لأنّ اقترانها بذكرى فهمي صدّه وآلمه وأهاب به أن يغلق هٰذا الباب وأن يُحكم إغلاقه، وأن يندم ـ إن كان ثمّة ندم ـ على فكرة خفيّة عابرة. صادفها بعد ذٰلك في الموسكي مع أمّها، فالتقت الأعين على سهوة، ولٰكن سرعان ما لاح فيها العرفان، ونمّت بسمات لا تكاد تُرى بالعين المجرّدة عن عرفانها، فتحرّك قلبه، تحرّك للعرفان ـ فحسب ـ أوّل الأمر، ثمّ للطيف الأثر الذي خلّفه وجه عاجيّ مكحول العينين، وجسم نابض بالفتوّة والحيويّة، ذكّره بزينب في إبّانها... فمضى إلى طيّته متفكّرًا هائجًا. غير أنّه بعد خطوات، أو حال هبوطه إلى قهوة أحمد عبده، هفّت عليه ذكرى محزنة بعثت في قلبه الشجن، بُعث فهمي في خياله بشتّى ذكرياته: صورته وأماراته وأسلوبه في الحديث والحركة ففتر وجده وباخ وغشيه حزن غليظ، يجب أن ينتهي كلّ شيء... لِمَ؟...

عاد يتساءل بعد ساعة، أو بعد أيّام، فكان الجواب: فهمي... أيّة علاقة بين الاثنين؟. ودّ يومًا أن يخطبها، ولِمَ لَمْ يفعل؟... أبوك لم يوافق. فقط؟... هٰذا في الأقلّ أصل المسألة. ثمّ؟ جاءت فضيحة الإنجليزيّ، فمحت ما بقي من أثر باهت... أثر باهت؟... أجل لأنّه على الأرجح كان نسي. إذن نسي أوّلًا، ونبذ أخيرًا؟ نعم، فأيّة علاقة هنالك؟... لا علاقة؟ ولٰكن!!... أعني شعور الأخوّة، هل يمكن أن يرقى شكّ إلى شعورك؟... كلّا وألف مرّة كلّا. الفتاة تستحقّ...؟... نعم، وجهًا وجسمًا؟... وجهًا وجسمًا فما انتظارك؟...

في النافذة كان يلمحها حينًا بعد حين، ثمّ فوق السطح... فوق السطح مرّات، ومرّات...

لِمَ طلّقت؟... لسوء في خلق زوجها، فيكون الطلاق من حسن حظّها. أو لسوء في خلقها فيكون الطلاق من حسن حظّك أنت.

ـ قم وإلّا غلبك النوم.

فتثاءب وهو يتخلّل شعره الملهوج بأصابعه الغلاظ، ثمّ قال:

ـ يا بختك بعطلتك المدرسيّة الطويلة!

ـ ألم أستيقظ قبلك؟

ـ ولٰكن بوسعك أن تواصل النوم إذا شئت...

ـ لا أشاء كما ترى...

ضحك ياسين ضحكة لا معنى لها، ثمّ تساءل:
ـ ما اسم الجنديّ الإنجليزيّ صديقك القديم؟
ـ أوه... جوليون...
ـ أجل جوليون...
ـ ما الذي دعاك إلى السؤال عنه؟
ـ لا شيء!!
لا شيء؟ ما أسخف لساننا، أليس ياسين خيرًا من جوليون؟ في الأقلّ جوليون عابر وياسين مقيم، في وجهها شيء يبتسم إليك دوامًا، ألم تلاحظ مثابرتك على الظهور فوق السطح؟ بلى وذكر جوليون، ليست ممّن يفوتهنّ معنى، ردّت تحيّتك... أوّل مرّة أدارت رأسها باسمة، في المرّة الثانية ضحكت، ما أجمل ضحكتها! في الثالثة أشارت إلى أسطح البيوت محذّرة، سأعود بعد الغروب. هٰكذا قلت في جرأة، ألم يرسل جوليون إشارته من الطريق العامّ؟
ـ لشدّ ما أحببت الإنجليز في صغري!... انظر كيف أمقتهم الآن مقتًا...
ـ سعد بطلك سافر ينشد صداقتهم!
هتف كمال بحدّة:
ـ والله لأبغضنّهم ولو وحدي...
وتبادلا نظرة أسى صامتة، تناهى إليهما وقع قبقاب السيّد وهو راجع إلى حجرته مبسملًا محوقلًا، فانزلق ياسين إلى الأرض وغادر الحجرة وهو يتثاءب.

تقلّب كمال على جنبه ثمّ استلقى على ظهره مسترخيًا وثنى ساعديه شابكًا راحتيه تحت رأسه، ومضى ينظر فيما أمامه بعينين لا تريان شيئًا... لتسعد بك رأس البرّ، لم تخلق بشرتك الملائكيّة لتصلى حرّ القاهرة، فلتطبْ بموطئ قدميك الرمال، وليهنأ بمشهدك الماء والهواء، سوف تشيدين بالمصيف، وعيناك تنطقان بالمسرّة والحنين، فأتطلّع إليهما بقلب مشوق وعين تسائل الغيب ـ في حسرة ـ عن المكان الذي استهواك فاستحقّ عن جدارة رضاك... ولٰكن متى تعودين ومتى ينسكب في أذنيّ تغريدك المسحور؟ كيف المصيف؟ ليتني أدري... قيل إنّه حرّيّة كالهواء، ولقاء بين أحضان الماء، وأهواء بعدد حبّات الرمال... وخلق كثيرون يحظون بمحيّاك... أمّا أنا... أنا الذي خفقات قلبه تئنّ لشكاتها الجدران فأتلظّى في سعير الانتظار. هيهات! أن تنسى وجهك المنطلق بالبِشْر وأنت تغمغمين: «سنسافر غدًا... ما أجمل رأس البرّ!» ولا اكتئابي وأنا أتلقّى نذير الفراق من ثغر يومض بسنا السرور كمن يتلقّى السمّ مدسوسًا في طاقة من الزهر الفوّاح، ولا غيرتي من الجماد الذي قدر على إسعادك حين عجزتُ وحظي بمودّتك حين حرمت. ألم تلحظي حين الوداع اكتئابي؟ كلّا لم تلحظي شيئًا، لا لأنّي كنت واحدًا بين كثيرين ولٰكن لأنّك يا حبيبة لا تلحظين... كأنّما كنت شيئًا لا يسترعي انتباهك... أو كأنّما أنت مخلوق بديع غريب استوى فوق الحياة يطالعنا من عَلُ بعينين هائمتين في ملكوت لا ندريه... هٰكذا وقفنا وجهًا لوجه... أنت شعلة من سعادة سادرة، وأنا رماد من وجوم وكآبة... تحظين بحرّيّة مطلقة أو تذعنين لسنن فوق مداركنا، وأنا أدور في فلكك مجذوبًا بقوّة هائلة... كأنّك الشمس، وكأنّني الأرض، هل وجدت عند الشاطئ حرّيّة لم تنعمي بها في مغاني العبّاسيّة؟ كلّا، وحقّ قدرك عندي... لست كالأخريات... في حديقة القصر والطريق، آثار عاطرات لقدميك... وفي قلب كلّ صديق ذكريات وآمال... آنسة سهلة ممتنعة، تطوف بنا على غير مثال، كأنّ الشرق قد استوهبها الغرب في ليلة القدر... أيّ جديد من الجود ترى تهبين إذا امتدّ الشاطئ وترامى الأفق واكتظّ الساحل بالمعجبين؟ أيّ جديد يا أملي وحسرتي؟! القاهرة في غيبتك خواء تنضح كآبة ووحشة، كأنّها عكّارة الحياة والأحياء... ثمّة مناظر ومعالم، ولٰكنّها لا تخاطب وجدًا ولا تحرّك قلبًا، كأنّها عاديات الدنيا وذكرياتها في قبر فرعونيّ لم يفضّ... ما من مكان بها يعدني بعزاء أو تسلية أو مسرّة. إخالني حينًا مختنقًا وحينًا سجينًا وحينًا مفقودًا ضالًا غير مفتقد. يا عجبًا أكان وجودك ينيل أملًا أفقدنيه البعاد؟ كلّا يا قضائي وقدَري، ولٰكنّك كالأمنية، الاستظلال بجناحها بَرْد وسلام وإن

اعتصمت بالمحال، هل يُغني المشتاق المتطلّع إلى ظلمة السماء معرفته أنّ البدر يسطع فوق المكان الآخر من الأرض؟... كلّا وإن لم يدر للبدر امتلاكًا. إنّما أطمع إلى الحياة في صميمها ونشوتها ولو بفادح الألم، بل أنت حالّة في ما خفق الفؤاد والفضل لهٰذا المخلوق السحريّ: الذاكرة. عن إعجازها غفلت حتّى عرفتك، اليوم أو غدًا أو بعد دهر في العبّاسيّة أو رأس البرّ أو في أقصى الأرض لن تبرح مخيّلتي عيناك السوداوان الساجيتان، وحاجباك المقرونان، وأنفك السويّ اللطيف، ووجهك الدرّيّ الخمريّ، وجيدك الطويل، وقامتك الهيفاء، وما شئت من سحر يكتنفك مزريًا بكلّ وصف مسكرًا كعرف الفلّ والياسمين، لأملكنّ هٰذه الصورة ما ملكت الحياة، وبعد الحياة لتقوّضنّ عوائق وموانع فيكون المصير إليّ... إليّ وحدي بما أحببت هٰذا الحبّ كلّه... وإلّا فخبّريني عن معنى لهٰذه الحياة ينشد أو عن طعم للخلود يرام. لا تزعم أنّك سبرت جوهر الحياة إلّا أن تحبّ، السمع والبصر والذوق والجدّ واللهو والمودّة والظفر مسرّات تهوي عند مَن فعم الحبّ قلبه، من أوّل نظرة، يا قلبي. ما ارتدّت عنها عيناي حتّى آمنت بأنّها زيارة مقيم لا زيارة عابر، لحظة خاطفة حاسمة، ولٰكن في مثلها تُخلق الأرواح في الأرحام وتزلزَل الأرض... ربّاه لم أعد أنا... قلبي تلاطمه جدران الأضلع، أسرار السحر تنفث معانيها، العقل يتهادى حتّى يمسّ الجنون، اللذّة تسطع حتّى تعانق الألم، أوتار الوجود والنفس تجود بالنغم المكنون، دمي يصرخ مستغيثًا لا يدري ممّ يستغيث، الأعمى يبصر والكسيح يسير والميت يحيا، حلّفتك بكلّ عزيز ألّا تذهبي أبدًا، أنت يا إلٰهي في السماء وهي في الأرض، آمنت بأنّ ما مضى من حياتي كان تمهيدًا لبشارة الحبّ، لم أمت صغيرًا ولم ألحق بمدرسة غير فؤاد الأوّل ولم أصادق أوّل ما صادقت من تلاميذها حسين ولم... ولم... كلّ أولٰئك كي أُدعى يومًا إلى قصر آل شدّاد، يا للذكرى! يكاد القلب من وقعها يقتلع، كنت وحسين وإسماعيل وحسن منهمكين في شتّى الأحاديث حين ورد مسامعنا صوت رخيم محيّيًا، التفتُّ وأنا من الذهول في غاية... من تكون القادمة؟... كيف لفتاة أن تقتحم على غرباء مجلسهم؟... ثمّ سرعان ما انقطعت عن التساؤل... وتناسيت التقاليد جميعًا... وجدتني حيال مخلوق لا يمكن أن يكون من هٰذه الأرض جاء. بدت وكأنّها صديقة للجميع إلّاي، فقال حسين يعارف بيننا: «صديقي كمال... أختي عايدة» ليلتئذٍ عرفت لِمَ خلقت... لِمَ لَمْ أمت... لِمَ دفعتني المقادير إلى العبّاسيّة، وحسين، وقصر آل شدّاد، متى كان ذٰلك؟ كان الزمان نسيًا منسيًا وأسفاه! إلّا اليوم، كان يوم الأحد... عطلة مدرستها الفرنسيّة الذي صادف عطلة رسميّة لعلّها مولد النبيّ، وعلى اليقين كانت مولدي أنا، ما قيمة التاريخ؟ سحر التقويم أنّه يوهمنا بأنّ الذكرى تُبعث حيّة وتعود ولو أنّ شيئًا لا يعود، لن تفتأ تجدّ في البحث عن التاريخ، ولن تفتأ تردّد: مطلع السنة الثانية بالمدرسة... أكتوبر نوفمبر... حين زيارة سعد للصعيد وقبل نفيه للمرّة الثانية... مستخبرًا الذاكرة والشواهد والأحداث وليس إلّا أنّك تتشبّث تشبُّث اليائس باستعادة سعادة مفقودة وعهد مضى إلى الأبد. لو مددت يدك عند التعارف كما كدت لصافحتك فعرفت مسّها، وهو ما تتخيّله حينًا بعد حين بشعور ملؤه الشكّ والهيام، كأنّما هي مخلوق غير جسمانيّ لا مسّ له... وهٰكذا ضاعت فرصة كالحلم كما ضاع الزمان، ثمّ أقبلت على صديقيها تحادثهما ويحادثانها ـ بغير كلفة ـ وأنت قابع في مقعدك تحت الكشك تكابد حيرة المتشبّع بتقاليد حيّ الحسين، حتّى عدت تتساءل: ترى، أهي تقاليد خاصّة بالقصور، أم نفحة من باريس التي نشأ المعبود بين أحضانها؟... ثمّ تستغرق في رخامة الصوت وتستطعم نبراته وتنتشي بتغريده وتمتلئ بكلّ حرف يندّ عنه، ولعلّك ـ يا مسكين ـ لم تدرك وقتها أنّك تولد من جديد، وأنّك كالوليد سوف تستقبل دنياك الجديدة بالارتياع والدموع. وقالت ذات الصوت الرخيم: «سنذهب هٰذا المساء لمشاهدة الغندورة». فسألها إسماعيل باسمًا:

«أتحبّين منيرة المهديّة؟»... فتردّدت كما ينبغي لآنسة نصف باريسيّة، ثمّ أجابت: «ماما تحبّها»، ثمّ اشترك حسين وإسماعيل وحسن في حديث عن منيرة وسيّد درويش وصالح وعبد اللطيف البنّا، ثمّ ما أدري إلّا والصوت الرخيم يسأل: «وأنت يا كمال، ألا تحبّ منيرة؟»، أتذكّر ذلك النداء الذي نزل على غير انتظار؟ أعني أتذكّر النغمة الطبيعيّة التي تجسّمها؟ لم يكن قولًا، ولكن نغمًا وسحرًا استقرّ في الأعماق كي يغرّد دومًا بصوت غير مسموع ينصبّ فؤادك إليه في سعادة سماويّة لا يدريها أحد سواك، كم روّعك وأنت تتلقّاه، كأنّ هاتفًا من السماء اصطفاك فردّد اسمك، سُقيت المجد كلّه والسعادة كلّها والامتنان كلّه في نهلة واحدة وددت بعدها لو تهتف مستنجدًا: «زمّلوني... دثّروني»، ثمّ أجبت وإن كنت لا أذكر بماذا أجبت، لبثْ دقائق ثمّ ودّعَتْنا ومضت، في عينيها السوداوين نظرة أنيقة، تنمّ إلى جمالها الفاتن عن صراحة محبّبة وجرأة مصدرها الثقة ـ لا الاستهتار أو القحة ـ وترفُّع مروّع، كأنّما تجذبك وتدفعك معًا... جمالها فتنة لا أدرك له كنهًا ولا أدري له شبهًا، وكان يخيّل إليّ كثيرًا أنّه ليس إلّا ظلًّا لسحر أعظم يكمن في شخصها... من أجل أيّ هذين أحبّها؟... كلاهما لغز، ولغز ثالث هو حبّي. يتراجع ذلك اليوم كلّ يوم يومًا إلّا انّ ذكرياته ناشبة في قلبي أبدًا. لبناتها مكان وزمان وأسماء وصحاب وأحاديث يتقلّب القلب في جنباتها نشوان حتّى يخال أنّها الحياة جميعًا، فيتساءل فيما يشبه الشكّ: هل كانت ثمّة وراء ذلك حياة؟... هل حقًّا مضى زمن قبلها خلا من الحبّ قلبي واقفرت من تلك الصورة الإلهيّة نفسي؟. ربّما أسكرتك السعادة حتّى تحزن على ما ضاع من ماض جديب وربّما لسعك الألم حتّى تذوب حسرات على السلام الذي ولّى، وبين هذا وذاك لا يجد قلبك إلى الاستقرار سبيلًا، فيمضي ملتمسًا الشفاء في شتّى العقاقير الروحيّة، يستمدّها من الطبيعة آنًا، ومن العلم آنًا، ومن الفنّ حينًا، وفي العبادة أحيانًا كثيرة... قلب استيقظ فانطلقت من صميمه شهوة مولعة بالمسرّات الإلهيّة... أيّها الناس حبّوا أو موتوا... لسان حالك وأنت تسير مزهوًّا فخورًا بما تحمل بين جنبيك من نور الحبّ وأسراره... يزدهيك علوّ فوق الحياة والأحياء، ويصل أسبابك بالسموات جسر مفروش بورود السعادة، وأنت أنت الذي تخلو حينًا آخر إلى نفسك فتطغى عليك حساسيّة أليمة مريضة بإحصاء النقائص وتُقْصيها بلا رحمة في كائنك الصغير ودنياك المتواضعة وهناتك الآدميّة... ربّاه، كيف تخلق نفسك من جديد؟ هذا الحبّ طاغية يتيه فوق كافّة القيم وفي ركابه يتألّق معبودك، لا تكمّله الفضائل ولا تنقصه المثالب، النقيصة تلوح في تاجه الدرّيّ حسنًا يشغلك إعجابًا، هل أزرى بها في نظرك أن تخرج على التقاليد المرعيّة؟ كلّا، بل إنّ خروجها بالتقاليد المرعيّة أزرى. يطيب لك أحيانًا أن تسأل نفسك: ماذا تروم من حبّها؟ أجب بكلّ بساطة: أن أحبّها، أيجوز أن تنبثق في النفس هذه الحياة كلّها ثمّ يتساءل عن غاية وراءها؟ لا شيء وراءها. العادة هي التي ربطت بين لفظي الحبّ والزواج، ليست فوارق السنّ والطبقة هي وحدها التي تجعل من الزواج غاية مستحيلة في مثل حالي، ولكنّه الزواج نفسه، بما يستنزل الحبّ من سمائه إلى أرض العقود والعرق... ويسألك الذي يأبى إلّا أن يحاسبك، بِمَ جادت عليك لقاء التهالُك في حبّها؟. أجبه بلا تردّد: ابتسامة فاتنة، و«يا كمال» الغالية، وزيارتها للحديقة في الأوقات السعيدة النادرة، وترائيها مع الصباح النديّ، وسيّارة المدرسة تمضي بها، ومعابثتها الخيال في سبحات اليقظة وتهويم الأحلام. ثمّ تسألك النفس الطمّاعة المجنونة: أمن المحال أن يكون المعبود مشغولًا بأمر عابده؟... أجبها غير مستسلم لإغراء الآمال الكواذب: حسن أن يذكر عند العودة اسمنا...».

ـ بسرعة إلى الحمّام، هل تأخّرت؟!

مالت عينا كمال ـ وقد لاح فيهما رجع المفاجأة ـ إلى ياسين الذي عاد إلى الحجرة وهو ينشّف رأسه بالفوطة، ثمّ وثب إلى الأرض فبدا فرعه الطويل نحيفًا، وألقى نظرة طويلة على المرآة كأنّما يتفحّص

رأسه الضخم وجبينه البارز وأنفه الذي تراءى لكبره وقوّته كأنّه منحوت من الجرانيت، ثمّ تناول فوطته من على شباك السرير ومضى إلى الحمّام.

وكان السيّد أحمد قد فرغ من الصلاة، فعلا صوته الغليظ بالدعاء المعتاد للأولاد ولنفسه، سائلًا الله الهداية والستر في الدارين... وفي أثناء ذٰلك كانت أمينة تعدّ المائدة، ثمّ ذهبت إلى حجرة السيّد، فدعته ـ بصوتها الوديع ـ إلى تناول الفطور، واتّجهت إلى حجرة ياسين وكمال فكرّرت الدعوة.

اتّخذ الثلاثة أماكنهم حول الصينيّة، وبسمل الأب وهو يتناول رغيفًا معلنًا بدء الأكل، فتبعه ياسين ثمّ كمال، على حين وقفت الأمّ وقفتها التقليديّة إلى جانب صينيّة القلل. كان مظهر الأخوين يدلّ على الأدب والخشوع، ولٰكن خلا قلباهما ـ أو كادا ـ من الخوف الذي كان يركبهما ـ قديمًا ـ في حضرة الأب، ياسين: لأنّ بلوغه الثامنة والعشرين منحه امتيازًا من امتيازات الرجولة، وضمانًا ضدّ الإهانات الجارحة والاعتداءات التعيسة، وكمال: لأنّ بلوغه السابعة عشرة، وتقدّمه في الدراسة وهباه نوعًا من الضمان أيضًا إلّا يكن بقوّة ضمان ياسين، فإنّه لم يخلُ من العفو والتسامح على الأقلّ في الهفوات التافهة، إلى أنّه آنس من أبيه في السنوات الأخيرة أسلوبًا من المعاملة تخفّف من البطش والإرهاب بدرجة محسوسة، ولم يكن من النادر أن يدور حديث مقتضب بين الآكلين بعد أن كان الصمت يتحكّم في مجلسهم تحكّمًا مخيفًا، إلّا أن يسأل الأب أحدهم فيجيب بعجلة ولهوجة ولو بفم ممتلئ بالطعام. أجل لم يعد غريبًا أن يخاطب ياسين أباه، فيقول مثلًا: «زرت أمس رضوان في بيت جدّه، وهو يقرئكم السلام ويقبّل يدكم»، فلا يعدّ السيّد الخطاب جرأة غير محمودة، ولٰكنّه يقول له ببساطة: «ربّنا يحفظه ويرعاه»... ولا يبعد عند ذٰلك أن يتساءل كمال بأدب، محدثًا بذٰلك تطوّرًا خطيرًا في علاقته التاريخيّة بأبيه: «متى يستحقّ رضوان شرعًا لأبيه يا بابا؟». فيجيبه السيّد: «عندما يبلغ السابعة»، بدلًا من أن يصيح به: «اخرس يا ابن الكلب». طاب لكمال يومًا أن يتعرّف على تاريخ آخر شتمة تلقّاها من أبيه، حتّى تذكّر أنّه كان ذٰلك قبل عامين على وجه التقريب، أو بعد حبّه ـ الذي غدا يؤرّخ به ـ بعام، إذ شعر وقتذاك بأنّ مصادقته لشبّان من طراز حسين شدّاد وحسن سليم وإسماعيل لطيف تتطلّب زيادة كبيرة في مصروفه كي يتأتّى له مجاراتهم في لهوهم البريء، فشكا أمره إلى أمّه راجيًا إيّاها أن تخاطب أباه في شأن الزيادة المأمولة، ومع أنّ مخاطبة الأب ـ في مثل هٰذا الأمر ـ لم تكن يسيرة على الأمّ، إلّا أنّها هانت بعض الشيء بتغيُّر معاملته لها عقب وفاة فهمي، فحدّثته منوّهة بعلاقة جديدة مشرّفة لابنها بأصدقاء من «الأكابر»، وعند ذاك دعا السيّد كمال، وصبّ عليه غضبه، حتّى صاح به: «هل ظننتني تحت أمرك أو أمر أصحابك!... ملعون أبوك وأبوهم»، فغادره كمال خائب الرجاء وقد ظنّ أنّ الأمر انتهى عند ذاك... ولٰكنّه ما يدري إلّا والرجل يسأله عن هويّة أصدقائه على مائدة إفطار اليوم التالي، وما إن سمع اسم حسين عبد الحميد شدّاد، حتّى سأله باهتمام: «من العبّاسيّة صاحبك؟». فأجاب كمال بالإيجاب، وقلبه يخفق، فقال السيّد: «كنت أعرف جدّه شدّاد بك، وأعرف أيضًا أنّ أباه عبد الحميد بك كان مبعدًا في الخارج لسابق علاقته بالخديو عبّاس... أليس كذٰلك؟»، فأجاب كمال بالإيجاب مرّة أخرى، وهو يغالب وجده الذي أهاجه الحديث عن والد معبودته وذكر لتوّه ما علم عن الأعوام التي قضتها الأسرة في باريس، حيث ترعرعت معبودته في نور مدينة النور، فما تمالك أن شعر نحو أبيه بإجلال وإكبار جديدين ومودّة مضاعفة، وعدّ معرفته لجدّ معبودته رقية سحريّة تنسبه ـ ولو من بعيد ـ إلى منزل الوحي ومبعث السنا. ثمّ ما لبثت أمّه أن زفّت إليه بشرى موافقة والده على مضاعفة مصروفه.

منذ ذٰلك اليوم لم يتعرّض لشتمة جديدة، إمّا لأنّه لم يرتكب ما يستوجبها، وإمّا لأنّ أباه رأى أن يعفيه من الشتم إطلاقًا... وقف كمال إلى جانب أمّه في المشربيّة يشاهدان السيّد أحمد في الطريق، وهو يردّد ـ في وقار ولطف ـ تحيّات عمّ حسنين الحلّاق والحاجّ

درويش بائع الفول والفوليّ اللبّان وبيّومي الشربتلي، وأبو سريع صاحب المقلى. ثمّ رجع إلى الحجرة حيث وجد ياسين واقفًا أمام المرآة يتأنّق في عناية وصبر. جلس على كنبة بين السريرين، وراح يتأمّل جسم أخيه الطويل البدين ووجهه المورّد المكتنز بنظرة باسمة غامضة، كان يكنّ له حبًّا أخويًّا صادقًا، بيد أنّه لم يكن يستطيع ـ كلّما أنعم فيه الفكر أو النظر ـ أن يقاوم شعورًا خفيًّا بأنّه حيال «حيوان أليف جميل»، على رغم أنّه أوّل من هزّ أوتار أذنيه بأنغام الشعر ونفثات القصص، ربّما تساءل، تساؤل من يرى في الحبّ جوهر الحياة والروح، أمن الممكن أن يتصوّر ياسين عاشقًا؟ فيتمثّل الجواب ضحكة باطنيّة أو منطلقة، أجل ما للحبّ وهٰذه الكرش المترعة! ما للحبّ وهٰذا الجسم اللحيم! ما للحبّ وهٰذه النظرة الشهوانيّة الساخرة! ثمّ لا يتمالك أن يجد نحوه إحساسًا بالازدراء الملطّف بالعطف والودّ، وإن لم يخلُ أحيانًا ـ خاصّة في الأوقات التي تعتري حبّه فيها نوبة من نوبات الألم والهبوط ـ من عاطفة إعجاب بل حسد، كذٰلك بدا ياسين لعينيه أبعد ما يكون عن عرش الثقافة، الذي بوّأه إيّاه قديمًا حينما كان يظنّه عالـمًا ساحرًا مالكًا لفنون الشعر والقصص، تكشّف له قارئًا سطحيًّا يقنع من وقت مجلس القهوة ببضع ساعة يتنقّل فيها بلا جهد أو عناء بين الحماسة وقصّة من القصص قبل انطلاقه إلى قهوة أحمد عبده، حياة عاطلة من بهاء الحبّ وأشواق المعرفة الحقيقيّة وإن كنّ لصاحبها حبًّا أخويًّا لا تشوبه شائبة... لم يكن كذٰلك فهمي، كان مَثله الأعلى في الحبّ والعقل، ولٰكنّه بدا أخيرًا كالمتخلّف بعض الشيء عمّا يطمح إليه، أجل ساوره شكّ يقارب اليقين في أنّ فتاة كمريم يمكن أن تبعث في النفس حبًّا حقيقيًّا كالحبّ الذي يضيء به نفسه، كما ارتاب في أن تضاهي الثقافة القانونيّة التي نزع إليها أخوه الراحل المعرفة الإنسانيّة التي يتشوّقها بكلّ قوّة نفسه، كان يتأمّل من حوله بعين تنفتح على التأمّل والنقد، وذهب في ذٰلك كلّ مذهب، إلّا أنّه وقف عند عتبة أبيه لا يجرؤ على أن يرفع قدمًا، لاح الرجل لعينيه شيئًا هائلًا يتربّع على عرشه فوق النقد!!

ـ أنت اليوم عريس! اليوم عيد من أعيادك الظافرة، أليس كذٰلك؟ لولا نحافتك ما وجدت ما أؤاخذك عليه...

قال كمال مبتسمًا:

ـ إنّي راضٍ عنها.

ألقى ياسين على صورته نظرة أخيرة، ثمّ وضع الطربوش على رأسه وأماله يمنة بعناية حتّى أوشك أن يمسّ حاجبه، ثمّ قال وهو يتجشّأ:

ـ أنت حمار كبير يحمل البكالوريا، تمتّع بالطعام والراحة فهٰذه هي العطلة، كيف تسوّل لك نفسك أن تقرأ في العطلة أضعاف ما تقرأ في عامك الدراسيّ؟! اللّٰهمّ إنّي بريء من النحافة وأصحابها!

ثمّ، وهو يغادر الغرفة والمنشّة العاجيّة في يده:

ـ لا تنس أن تختار لي قصّة جيّدة، مثل «باردليان»، و«فوستا»، هه؟... مضى زمن كنت تستجديني فصلًا من رواية، هاك زمنًا أغبر أشحذك فيه القصص!

ارتاح إلى الوحدة التي يخلو فيها إلى نفسه، فنهض وهو يغمغم: من أين له بالبدانة والقلب لا ينام؟!. لم تكن تحلو له الصلاة إلّا خاليًا، صلاة بالجهاد أشبه ويشترك فيها القلب والعقل والروح، جهاد من لا يضنّ بجهد للفوز بالضمير الطاهر النقيّ ولو لاحق نفسه بالحساب تلو الحساب على الهفوة والخاطرة... أمّا الدعاء في أعقاب الصلاة، فلها، لها وحدها...

ـ ٣ ـ

عبد المنعم : الفناء أوسع من السطح، ولا بدّ أن نزيح الغطاء عن البئر لنرى ما فيها...

نعيمة : ستغضب ماما وخالتي وجدّتي...

عثمان : لن يرانا أحد...

أحمد : البئر فظيعة، ويموت مَن ينظر فيها.

عبد المنعم : نرفع الغطاء، ثمّ ننظر من بعيد... (ثمّ بصوت مرتفع)... هيّا بنا ننزل.

أمّ حنفي : (معترضة باب السطح) لم يبقَ فيّ حَيْل للنزول والطلوع، قلتم نطلع السطح فطلعنا السطح،

وقلتم ننزل الفناء فنزلنا إلى الفناء، نطلع السطح مرّة ثانية فطلعنا السطح مرّة ثانية، ماذا تريدون من الفناء؟... الجوّ حارّ تحت، أمّا هنا فالنسمة جارية، وعمّا قليل تغيب الشمس.

نعيمة : سيرفعون غطاء البئر لينظروا فيها...

أمّ حنفي : سأنادي ستّ خديجة وستّ عائشة.

عبد المنعم : نعيمة كذّابة، لن نرفع الغطاء، ولن نقترب منه، سنلعب في الفناء قليلًا ثمّ نعود، ابقي هنا حتّى نعود.

أمّ حنفي : أبقى هنا؟! رِجْلي على رجلكم، الله يهديكم... ليس في البيت كلّه مكان أجمل من السطح، انظروا إلى هٰذا البستان!

محمّد : نامي لأركبك...

أمّ حنفي : كفاية ركوب، اختر لنفسك لعبة أخرى، الله، الله... انظروا إلى الياسمين واللبلاب، انظروا إلى الحمام...

عثمان : أنت قبيحة كالجاموسة، ورائحتك نتنة...

أمّ حنفي : الله يسامحك، عرقي سال من الجري وراءكم.

عثمان : خلّينا نر البئر ولو شويّة صغيرة.

أمّ حنفي : البئر ملأى بالعفاريت، ولذلك سددناها.

عبد المنعم : كذّابة، لم تقل ماما ولا خالتي هٰذا...

أمّ حنفي : الحقيقة عندي أنا، أنا وستّي الكبيرة، كنّا نراهم رؤية العين، فانتظرنا حتّى دخلوا، وألقينا على فوهة البئر الغطاء الخشبيّ وأثقلناه بالحجارة. لا تذكروا البئر، وقولوا معي: «باسم الله الرحمٰن الرحيم»...

محمّد : نامي لأركبك.

أمّ حنفي : انظروا إلى اللبلاب والياسمين! ليت عندكم مثلها، ليس في سطحكم إلّا الدجاج والخروفان اللذان تسمّنونهما للعيد.

أحمد : ماء... ماء... ماء...

عبد المنعم : هاتي سلّمًا لنطلع عليها!

أمّ حنفي : يا ساتر يا ربّ، الولد لخاله، العبوا في الأرض لا في السماء.

رضوان : في شرفة بيتنا وفي السلاملك أصص ورد أحمر وأبيض وقرنفل...

عثمان : عندنا خروفان ودجاج...

أحمد : ماء... ماء... ماء.

عبد المنعم : أنا في الكتّاب، من منكم في الكتّاب؟

رضوان : أنا حافظ «الحمد».

عبد المنعم : الحمد، كبّة لمبه!

رضوان : إخْص، أنت كافر.

عبد المنعم : هٰذا ما يتغنّى به العريف في الطريق...

نعيمة : قلنا ألف مرّة لا تردّد كلامه...

عبد المنعم : (لرضوان) لماذا لا تعيش مع باباك خالي ياسين؟

رضوان : أنا عند ماما.

أحمد : أين ماما؟

رضوان : عند جدّي الآخر!

عثمان : أين جدّك الآخر؟

رضوان : في الجماليّة!... في بيت كبير وسلاملك.

عبد المنعم : لماذا أمّك في بيت، وأبوك في بيت؟

رضوان : ماما عند جدّي هناك، وبابا عند جدّي هنا...

عثمان : لِمَ لا يوجدان في بيت واحد مثل بابا وماما...؟

رضوان : القسمة والنصيب، هٰذا ما تقوله جدّتي الأخرى!

أمّ حنفي : قرّرتموه حتّى أقرّ، لا حول ولا قوّة إلّا بالله! ارحموه والعبوا...

أحمد : نامي لأركبك...

رضوان : انظروا إلى العصفورة فوق عود اللبلاب...

عبد المنعم : هاتوا سلّمًا، وأنا أقبض عليها...

أحمد : لا ترفع صوتك، إنّها تنظر إلينا وتسمع كلّ كلمة نقولها...

نعيمة : ما أجملها، عرفتها! هي العصفورة التي رأيتها أمس فوق حبل الغسيل عندنا...

أحمد : الأخرى في السكّريّة، فكيف عرفت الطريق إلى بيت جدّي...؟

عبد المنعم : يا حمار، العصفورة تطير من السكّريّة إلى هنا وتعود قبل المساء.

عثمان : أهلها هناك وأقاربها هنا. . .

محمّد : نامي لأركبك، أو أبكي حتّى تسمعني ماما. . .

نعيمة : نلعب الحجلة؟

عبد المنعم : بل نتسابق. . .

أمّ حنفي : من غير شجار بين السابق والمسبوق.

عبد المنعم : اسكتي يا جاموسة. . .

عثمان : ناع ع ع. . . ناع ع ع.

أحمد : ماء. . . ماء. . . ماء.

محمّد : سأدخل السباق راكبًا، نامي لأركبك. . .

عبد المنعم : واحد. . اثنان. . . ثلاثة. . .

* * *

احتفى السيّد أحمد عبد الجواد بالمدعوّين فأخلى نفسه لهم النصف الأوّل من النهار كلّه، ثمّ توسّط مائدة الوليمة التي ضمّت: إبراهيم شوكت، وخليل شوكت، وياسين وكمال. ثمّ دعا بالرجلين إلى حجرة نومه في جلسة عائليّة، فمضوا يتسامرون في جوّ من المودّة والمؤانسة وإن لم يخلُ من تحفّظ من ناحية السيّد وتأدّب من ناحية صهريه، مصدره ما يلتزمه الرجل في المعاملة مع آل بيته حتّى الوارد من الخارج منهم على رغم المقاربة في السنّ بينه وبين إبراهيم شوكت زوج خديجة.

ودعي الأطفال إلى حجرة الجدّ ليقبّلوا يده ويتلقّوا هداياه النفيسة من الشيكولاطة والملبن، فتقدّموا إليه بترتيب أسنانهم: نعيمة بنت عائشة أوّلًا، فرضوان بن ياسين، فعبد المنعم بن خديجة، فعثمان بن عائشة، فأحمد بن خديجة، ثمّ محمّد بن عائشة. راعى السيّد المساواة المطلقة في توزيع عطفه وابتساماته على أحفاده، منتهزًا فرصة خلوّ الحجرة من مراقبين ـ عدا إبراهيم وخليل ـ ليتخفّف بعض الشيء من تحفّظه المأثور، فهزّ الأيدي الصغيرة بترحاب، وقرص الخدود المورّدة بحنان، ولثم الجباه وهو يداعب هٰذا ويمازح ذاك، وظلّ مراعيًا المساواة حريصًا عليها حتّى مع رضوان أحظى الصغار بمحبّته.

كان من عادته إذا خلا إلى أحد من أحفاده أن يتفحّصه بشغف، مدفوعًا بعواطف أصيلة كالأبوّة وأخرى دخيلة كحبّ الاستطلاع. وكان يجد لذّة كبيرة في تتبُّع ملامح الأجداد والآباء والأمّهات في السلالات الجديدة الصاخبة التي لم تكد تلقّن احترامه فضلًا عن مخافته، وقد أسره جمال نعيمة ذات الشعر الذهبيّ والعينين الزرقاوين التي فاقت أمّها نفسها حسنًا ورواءً، فاتحفت الأسرة بقسمات غنيّة من الحسن بعضها مشتقّ من أمّها والبعض الآخر متوارث عن آل شوكت، وعلى هٰذا المنهج من الجمال سار شقيقاها عثمان ومحمّد مع ميل واضح إلى ملامح الأب ـ خليل شوكت ـ خاصّة في عينيه الواسعتين البارزتين ذواتي النظرة الهادئة الخاملة، وعلى خلاف هٰذا تبدّى عبد المنعم وأحمد ابنا خديجة، فبشرتها وإن تكن شوكتيّة، إلّا أنّ عينيهما هما عينا الأمّ أو الجدّة الصغيرتان الجميلتان، أمّا الأنف فينذر بمشابهة أنف الأمّ أو الجدّ على الأصحّ، أمّا رضوان فما كان له إلّا أن يكون جميلًا حظي بعيني أبيه أو عيني هنيّة السوداوين المكحولتين وبشرة آل عفّت العاجيّة، وأنف ياسين المستقيم. أجل ترقرقت الملاحة في وجهه آسرة. مضى زمن طويل مذ كان يتعلّق به أطفاله بلا خوف من ناحيتهم ولا تكلّف من ناحيته كما يفعل الأطفال اليوم، يا لها من أيّام! ويا لها من ذكريات! ياسين وخديجة وفهمي ثمّ عائشة وكمال، ما منهم إلّا وقد دغدغه تحت إبطه وأركبه منكبيه، ترى هل يتذكّرون؟ لقد كاد هو ينسى، على أنّ نعيمة تبدو رغم ابتسامتها الوضيئة متحلّية بالحياء والأدب، أمّا أحمد فلم يكفّ عن المطالبة بالمزيد من الشيكولاطة والملبن، على حين وقف عثمان ينتظر نتيجة المطالبة بفارغ الصبر، وأمّا محمّد فهرول إلى الساعة الذهبيّة والخاتم الماسيّ في جوف الطربوش وكبشهما فما استخلصهما خليل شوكت من يده إلّا بالقوّة. ومرّت لحظات توزّع السيّد الارتباك والحيرة، فلم يدر ماذا يفعل وهو محاط، بل مهدّد من كلّ جانب بالأحفاد الأعزّاء. . . وقبيل العصر غادر السيّد البيت إلى الدكّان، وبذهابه تمتّعت الصالة ـ حيث اجتمع بقيّة

أفراد الأسرة ـ بكامل حرّيّتها. ورثت صالة الدور الأعلى أختها بالدور المهجور، ففُرشت بحصيرها وكنباتها، وعُلّق بسقفها الفانوس الكبير، فغدت مجلسًا ومقهى لمن تبقّى من الأسرة في البيت القديم. وقد حافظت طوال اليوم ـ رغم امتلائها ـ على هدوئها، حتّى إذا لم يعد يبقى من السيّد إلّا ما سطع في الجوّ من عرف الكولونيا التي تَطيَّب بها، استردّت أنفاسها، فتعالت بها الأصوات والضحكات، ودبّت فيها الحركة، واتّخذ المجلس هيئته كالعهد القديم، فتربّعت أمينة على كنبة أمام أدوات القهوة، وعلى الأخرى المواجِهة لها جلست خديجة وعائشة، وعلى ثالثة جانبيّة قعد ياسين وكمال، وما لبث أن انضمّ إليهم إبراهيم شوكت، وخليل شوكت ـ بعد ذهاب السيّد ـ فجلس إبراهيم إلى يمين حماته، وخليل إلى يسارها.

لم يكد إبراهيم يستقرّ على مجلسه، حتّى خاطب أمينة قائلًا بلهجة متودّدة:

ـ بارك الله في اليد التي قدّمت لنا أشهى الطعام وألذّه (ثمّ وهو يردّد عينيه البارزتين الخاملتين في الجلوس كأنّما يلقي محاضرة) الطواجن... الطواجن!... معجزة هٰذا البيت، ليس الطاجن بما يحويه من المأكول ـ وإن لذّ وطاب ـ ولٰكن بتسبيكه قبل كلّ شيء. التسبيك هو كلّ شيء. هو الصنعة، وهو المعجزة، دلّوني على طواجن كالتي التهمناها اليوم!...

كانت خديجة تتابع كلامه باهتمام، وهي بين التأييد له اعترافًا بمهارة أمّها والاحتجاج عليه لتجاهله إيّاها، فلمّا أمسك كي يهيّئ للمنصتين فرصة للإقرار برأيه، لم تتمالك من أن تقول:

ـ هٰذا حكم مسلّم به وليس في حاجة إلى شهادة شاهد، غير أنّي أذكّر ـ وأحبّ ان افكّر أيضًا ـ بأنّك ملأت بطنك في بيتك مرارًا من طواجن لا تقلّ صنعة عن طواجن اليوم!

ارتسمت ابتسامة ـ ذات معنى ـ على وجوه عائشة وياسين وكمال، وبدا على الأمّ أنّها تغالب حياءها، لتقول كلمة تجمع بين الشكر لإبراهيم وإرضاء خديجة، ولٰكنّ خليل شوكت بادر قائلًا:

ـ صدقت خديجة هانم، إنّ لطواجنها فضلًا علينا جميعًا، لا يمكن أن تنسى ذٰلك يا أخي...

فردّد إبراهيم نظره بين زوجه وحماته، وهو يبتسم كالمعتذر، ثمّ قال:

ـ معاذ الله أن أنكر هٰذا الفضل، ولٰكنّي بصدد التحدّث عن المعلّمة الكبيرة (ثمّ وهو يضحك) وعلى أيّ حال فأنا أنوّه بفضل والدتك لا والدتي أنا!

وانتظر حتّى خفّت أصوات الضحك التي أثارها قوله الأخير، ثمّ واصل تقريظه مُتلفّتًا نحو الأمّ، وهو يقول:

ـ نعود إلى الطواجن، ولٰكن لِمَ نقصر كلامنا على الطواجن؟! الحقّ أنّ الصنوف الأخرى لم تكن دون الطواجن لذّة وفخامة، خذوا مثلًا: البطاطس المحشوّ، الملوخيّة، الأرزّ المفلفل بالكبد والقوانص، المحاشي المتنوّعة، والله أكبر على الدجاج ولحمه المكتنز... خبّريني أيّ غذاء تطعمينه يا حماتي؟

أجابته خديجة في تهكّم:

ـ من الطواجن تطعمه!

ـ سأكفّر طويلًا عن إقراري بالفضل لأهله، ولٰكنّ الله غفور رحيم، مهما يكن من أمر فلندعُ الله أن يكثر من أيّام الأفراح... مبارك عليك البكالوريا يا سي كمال، وعقبى للدبلوم إن شاء الله...

قالت أمينة بامتنان، وكانت مورّدة الوجه من الحياء والسرور:

ـ ربّنا يفرّحك بعبد المنعم وأحمد، ويفرّح سي خليل بنعيمة وعثمان ومحمّد، (ثمّ ملتفتة إلى ياسين) ويفرّح ياسين برضوان...

كان كمال يسترق النظر إلى إبراهيم حينًا وإلى خليل آخر، وعلى شفتيه ابتسامة ثابتة يداري بها عادة مللِه من الحديث، الذي تنعدم متعته وتقضي اللياقة بالاشتراك فيه ولو بحسن الإنصات. إنّ الرجل يحدّث عن الطعام وكأنّه لم يزل على المائدة سكران بشهوة الأكل. الطعام... الطعام... الطعام... لِمَ استحقّ هٰذا التقديس كلّه؟ هٰذان الرجلان العجيبان

لا يبدو أنّهما يتغيّران مع الزمن، كأنّهما بمنأى عن تيّاره. إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأمس، لم يكد يطرأ عليه من إشرافه على الخمسين إلّا أثر غير ملحوظ تحت العينين أو فيما حول طرفَي الفم، ونظرة رزينة ثقيلة لم تكسبه وقارًا بقدر ما أكسبته مزيدًا من الخمول، ولٰكنّ شعرة واحدة ـ سواء في رأسه أم في شاربه المفتول ـ لم تشب، وبدانته لم تزل مدمجة قويّة لم يعتورها ترهّل، إلى أنّ التشابه الذي جمع بين الشقيقين إلّا في أغراض لا يعتدّ بها: كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل وشعر إبراهيم القصير المحلوق، وتماثُلهما في الصحّة والنظرة الخاملة كان ممّا يبعث على الضحك والازدراء حقًّا. وكانا يرتديان بذلتين من الحرير الأبيض وقد نزع كلّ منهما جاكتته فلاح قميصه الحريريّ والأزرار الذهبيّة تلمع في عرا أكمامه. مظهر ينمّ على وجاهة هي كلّ ما هنالك. في بحر السنوات السبع التي وصلت بين الأسرتين، كان يخلو إلى هٰذا أو ذاك منهما كثيرًا أو قليلًا، ولٰكنّ حديثًا واحدًا ذا طعم لم يجرِ بينهم!... فيمَ الانتقاد؟ ولولا ذاك ما كان هٰذا الانسجام الموفّق بينهما وبين شقيقتيه؟! إنّ الازدراء ـ من حسن الحظّ ـ لا يناقض العطف والإيثار بالخير والمودّة. أوه... يبدو أنّ حديث الطواجن لم ينته بعد، ها هو سي خليل شوكت يتهيّأ ليلقي كلمته:

ـ لم يَعْدُ أخي إبراهيم الحقّ فيما قال، يَدٌ لا عدمناها، ومائدة جديرة بأن ينادي بها المنادون...

كانت أمينة في أعماقها تحبّ الثناء، وكثيرًا ما تعاني مرارة الحرمان منه، لشعورها بالجهد الدائب الذي تبذله عن حبّ وطواعية في خدمة البيت وآله، وكثيرًا ما نهمت إلى سماع كلمة طيّبة من السيّد، ولٰكنّ السيّد لم يكن من عادته أن يجود بالثناء عليها وإذا جاد ففي اقتضاب وفي أحوال نادرة لا تكاد تذكر، لذٰلك وجدت نفسها بين إبراهيم وخليل في موقف عُجب غير مألوف ملأها سرورًا حقًّا، ولٰكنّه هيّج لحدّ الارتباك حياءها، فقالت تداري مشاعرها:

ـ لا تبالغ يا سي خليل، أنت لك أمّ مَن يألف طعامها يزهد في أيّ طعام سواه!...

وبينا عاد خليل إلى توكيد الثناء، اتّجهت عينا إبراهيم بحركة عكسيّة إلى خديجة، فالتقى بعينيها وهما تحدجان إليه كأنّما توقّعت نظرته فاستعدّت لها، فابتسم كالظافر، وقال يخاطب حماته:

ـ لا يقرّك بعض الناس علـى هٰـذا الـرأي يا حماتي...

أدرك ياسين مرمى هٰذه الملاحظة، فضحك ضحكة عالية، وسرعان ما ضجّ المجلس بالضحك، حتّى أمينة ابتسمت ابتسامة عريضة واهتزّ نصفها الأعلى بضحكة مكتومة فدارت استسلامها بخفض رأسها كأنّما تنظر في حجرها، بقيت خديجة وحدها جامدة الوجه وانتظرت حتّى هدأت العاصفة، ثمّ قالت بتحدٍّ:

ـ لم يكن خلافنا حول الطعام وطهيه، ولٰكن حول حقّي في الاستقلال بشئون بيتي، ولا عليَّ من هٰذا...

تجدّدت في النفوس ذكرى المعركة القديمة التي استعرت في العام الأوّل من زواج خديجة بينها وبين حماتها حول «المطبخ»، وهل يظلّ واحدًا للبيت كلّه تحت إشراف الأمّ، أو تستقلّ خديجة بطبيخها كما أرادت. كان خلافًا خطيرًا هدّد وحدة الأسرة الشوكتيّة وترامت أنباؤه إلى بين القصرين، حتّى علم به الجميع ما عدا السيّد الذي لم يجرؤ أحد على إبلاغه إيّاه، لا هو ولا سائر الخلافات التي نشبت تباعًا بعد ذٰلك بين الحماة وكنّتها. وأدركت خديجة مذ فكّرت في الكفاح أنّ عليها أن تعتمد على نفسها وحدها، فزوجها على حدّ تعبيرها «رجل نائم» لا هو لها ولا عليها، كلّما حرّضته على استخلاص حقّها قال لها كالمداعب: «يا ستّ... دعينا من وجع الدماغ»، ولٰكنّه إذا كان لم يؤيّدها فإنّه كذٰلك لم يشكمها. فانبرت إلى الميدان وحيدة ورفعت رأسها حيال العجوز المبجّلة بجرأة لم تكن متوقّعة وبعناد لم يخذلها حتّى في ذٰلك الموقف الدقيق. عجبت العجوز لجرأة البنت التي تلقّتها على يدها من عالم الغيب. وسرعان ما احتدم الخصام وجنّ الغضب، وراحت تذكّرها بأنّه لولا فضلها عليها ما صحّ ولو في الأحلام أن تظفر مثلها بزوج من آل شوكت، ولٰكنّ خديجة رغم ثورتها كظمت غيظها

فوقفت عند التصميم على نيل ما تراه حقًّا لها دون اللجوء إلى حدّة لسانها المأثورة، لسابق منزلة العجوز من ناحية، ولخوفها من أن تشكوها إلى أبيها من ناحية أخرى، ثمّ هداها مكرها إلى أن تحرّض عائشة على العصيان، ولكنّها وجدت من الفتاة الكسول إعراضًا وجبنًا، لا حبًّا في الحياة ولكن إيثارًا للراحة والدعة اللتين تمتّعت بهما - بغير حساب - في ظلّ الحضانة الإجباريّة التي فرضتها حماتها على الجميع، فصبّت غضبها عليها ورمتها بالضعف والتنبلة، ثمّ ركبها العناد فواصلت «الجهاد» بلا توانٍ أو تردّد حتّى ضاق صدر العجوز فسلّمت كارهة بحقّ كِنّتها «الغجريّة» بالاستقلال بمطبخها وهي تقول لابنها الأكبر: «أنت وشأنك. إنّك رجل ضعيف لا قبل لك بتأديب زوجك، وجزاؤك الحقّ أن تُحرم من طعامي إلى الأبد!». ظفرت خديجة ببغيتها فاستردّت أدوات جهازها النحاسيّة، وهيّأ لها إبراهيم المطبخ كما رسمت، ولكنّها خسرت حماتها وفتكت بأسباب المودّة التي ربطت بينهما مذ درجت في المهد، ولم تحتمل أمينة فكرة الخصام فصبرت حتّى هدأت النفوس ثمّ سعت سعيها عند السيّدة المبجّلة مستعينة بإبراهيم وخليل حتّى تمّ صلح، ولكن أيّ صلح كان؟... كان صلحًا لا يكاد يستقرّ حتّى يصطدم بنقار، ثمّ يعقبه صلح، فنقار من جديد، وهٰكذا... وكلّ واحدة منهما تلقي التبعة على الأخرى، وأمينة بينهما حائرة، وإبراهيم واقف موقف المحايد أو المتفرّج، كأنّ الأمر لا يعنيه، فإذا رأى أن يتدخّل تدخّل وانيًا وقنع بترديد النصيحة في هدوء بل برود غير مبالٍ بتوبيخ أمّه أو عتاب زوجه، ولولا إخلاص أمينة ودماثة خلقها لسارت العجوز بشكواها إلى السيّد أحمد، ولكنّها عدلت عن ذٰلك كارهة ومضت تنفّس عن صدرها في أحاديثها الطويلة مع كلّ من يلقاها من الأهل والجيران، معلنة على رؤوس الأشهاد بأنّ اختيارها خديجة زوجة لابنها كان أكبر غلطة ارتكبتها في حياتها وأنّ عليها أن تتحمّل الجزاء.

قال إبراهيم معقّبًا على كلام خديجة، وهو يبتسم، كأنّما ليخفّف بابتسامته من وقع تعقيبه:

- ولٰكنّك لم تكتفِ بالمطالبة بحقّك، بل طعنت بلسانك ما حلا لك الطعن، هٰذا إذا لم تكن خانتني الذاكرة...

ورفعت خديجة رأسها المعصوب بمنديل بنّيّ في تحدٍّ، وقالت وهي ترمق زوجها بنظرة تهكّم وغيظ:

- ولِمَ تخونك الذاكرة؟! هل من أفكار أو مشاغل ترهقها حتّى تخونك! ليت للناس جميعًا ذاكرة هادئة مطمئنّة خالية البال كذاكرتك! لم تخنك ذاكرتك يا سي إبراهيم، ولكنّها خانتني أنا! والحقّ أنّي لم أتعرّض لمقدرة نينتك، ولم يكن لي بها شأن ولا حاجة إليها، فإنّي أعرف بحمد الله كافّة واجباتي وأعرف كيف أؤدّيها على خير وجه، ولكنّي كرهت أن أقبع في بيتي وأن يجيئني الطعام من الخارج كنزلاء الفنادق، وفضلًا عن هٰذا كلّه فإنّي لم أطق - كما يحلو «لبعض الناس» - أن أمضي نهاري نائمة أو لاهية وغيري يقوم بمهامّ بيتي.

أدركت عائشة من توّها المقصود من «بعض الناس»، فضحكت ولمّا تكمل خديجة كلامها، ثمّ قالت بلهجة لطيفة كأنّما دافعها الإشفاق:

- افعلي ما يحلو لك ودعي الناس - أو بعض الناس - وشأنهم، لا شيء الآن يدعو إلى كدرك، فأنت سيّدة مستقلّة - عقبى لمصر - وتعملين من طلوع الفجر إلى نزول الليل: في المطبخ، والحمّام، وفوق السطح، وتعنين في وقت واحد بالأثاث والدجاج والأولاد، والجارية سويدان لا تجرؤ على الاقتراب من شقّتك أو حمل ابن من أبنائك، ربّاه... لِمَ هٰذا العناء وقليل منه يغني؟!

أجابت خديجة بحركة من ذقنها، وهي تغالب ابتسامة دلّت على أنّها وجدت في كلام عائشة ما استأنست إليه، وعند ذاك قال ياسين:

- بعض الناس يُخلقون للسيادة، وبعضهم يُخلقون للعبوديّة...

فقال خليل شوكت، وهو يبتسم كاشفًا عن ثنيتيه المتراكبتين:

- خديجة هانم مثال صالح لستّ البيت، غير أنّها

تتجاهل حقها من الراحة.

فقال إبراهيم شوكت مؤمِّنًا على قوله:

ـ هٰذا رأيي بالتمام، صارحتها به مرارًا، ثمّ آثرتُ السكوت تفاديًا من وجع الدماغ...

نظر كمال إلى أمّه، وكانت تملأ فنجان خليل للمرّة الثانية واستحضر صورة أبيه مقرونة بذكريات جبروته، فعلت شفتيه ابتسامة، ثمّ مدّ بصره إلى إبراهيم مدهوشًا وهو يقول:

ـ كأنّك تخافها!

فقال الرجل وهو يهزّ رأسه الكبير:

ـ أنا أتفادى من النكد ما وجدت سبيلًا إلى السلامة، وأختك تتفادى من السلامة ما وجدت سبيلًا إلى النكد!

هتفت خديجة:

ـ اسمعوا الحِكَم (ثمّ وهي تشير إليه كالمتحدّية) أنت تتفادى من اليقظة ما وجدت سبيلًا إلى النوم!

فقالت لها أمّها، وهي تحدجها بنظرة تحذير:

ـ خديجة!

فربّت إبراهيم على منكب حماته، قائلًا:

ـ عندنا من هٰذا كثير!... ولٰكن اشهدي بنفسك!

وكان ياسين يردّد بصره بين خديجة القويّة الممتلئة، وعائشة النحيفة الرقيقة بحركة متعمّدة للفت الأنظار، ثمّ قال كالمستنكر:

ـ حدّثتمونا عن تعب خديجة المتّصل من الفجر إلى الليل، فأين أثر ذٰلك التعب؟!... كأنّها هي اللاهية وكأنّ عائشة هي العاملة!...

فقالت خديجة، وهي تبسط راحة يمناها في وجهه مفرّجة بين أصابعها الخمس:

ـ ومن شرّ حاسد إذا حسد!

ولٰكنّ عائشة لم ترتح لمجرى الحديث الأخير، فلاحت في عينيها الزرقاوين الصافيتين نظرة اعتراض، واندفعت للذود عن نحافتها متجاهلة الغاية الواضحة من ملاحظة ياسين، وهي تعاني شيئًا من الغيرة فقالت:

ـ لم تعد السمانة موضة العصر (ثمّ مستدركة عندما شعرت باتّجاه رأس خديجة نحوها)، أو على الأقلّ فالنحافة موضة كذٰلك عند كثيرات...!

فقالت خديجة بتهكّم:

ـ النحافة موضة العاجزات عن السمانة.

خفق قلب كمال عندما تناهت كلمة «النحافة» إلى سمعه، فوثب من باطنه إلى مخيّلته صورة القامة الفارعة والقدّ المشوق، فرقص قلبه بطرب روحانيّ وانبثقت منه النشوات، ثمّ احتضنته فرحة صافية نسي في حلمها الهادئ العميق نفسه ومكانه وزمانه. فلم يدرِ كم فيها لبث حتّى انتبه على ظلّ سحابة من الأسى تجيء كثيرًا ذيلًا لحلمه، لا كما يجيء الغريب الدخيل أو العنصر المتنافر، ولٰكنّها تتسرّب إلى الحلم الباهر كأنّها خيط من نسجه أو نغمة من هارمونيته. تنفّس تنفّسًا عميقًا، ثمّ جال ببصره الحالم في الوجوه التي يحبّها من قديم، والتي يبدو أنّها تتباهى على نحو أو آخر بحسنها، خاصّة الوجه الأشقر الذي هام زمنًا باحتساء الماء من موضع شفتيه... استرجع هٰذه الذكرى في حياء ـ وما يشبه التأفّف ـ فشعر بأنّ أيّ نموذج من الجمال خلا النموذج المعبود خليق بأن يثير تعصّبه وإن حظي بعطفه وحبّه.

ـ لن أرضى عن النحافة ولو في الرجال (واصلت خديجة حديثها). انظروا إلى كمال ما أجدره بأن يعنى بزيادة وزنه، لا تظنّ يا بنيّ أنّ طلب العلم هو كلّ شيء.

أصغى كمال إليها باسمًا في استهانة وهو يتفحّص جسمها الذي تراكم لحمه وشحمه، ووجهها الذي توارت بالاكتناز عيوبه، معجبًا بروح السعادة والفوز التي تكتنفها، غير أنّه لم يجد في نفسه الرغبة في مناقشة رأيها، أمّا ياسين، فقال بتحدٍّ وسخرية معًا:

ـ إذًا فأنت راضية عنّي، لا تكابري في هٰذا!

كان ثانيًا ساقه اليمنى تحته طارحًا الأخرى على الأرض، وقد فتح ـ من الحرّ ـ طوق جلبابه، فبدت من فتحة فانلّته الواسعة خصلات من شعر صدره الأسود الأثيث، فألقت عليه نظرة نافذة، ثمّ قالت:

ـ لٰكنّك زدتها حبّتين، ثمّ إنّ شحمك وصل إلى

المخّ، وهٰذا شيء آخر.

نفخ ياسين كاليائس، ثمّ التفت إلى إبراهيم شوكت متسائلًا في إشفاق وعطف:

ـ خبّرني عمّا تصنع بين زوجك ـ وهٰذه حالها ـ وبين والدتك؟

أشعل إبراهيم سيجارة، وأخذ نفسًا، ثمّ نفخه وهو يمطّ بوزه مشاركًا أخاه خليل ـ الذي لم يكن ينـزع غليونه من فيه إلّا حين يتكلّم ـ في تعفير جوّ الصالة، ثمّ قال في عدم اكتراث:

ـ أذنًا من طين وأذنًا من عجين، هٰذا ما تعلّمته من التجربة!

فقالت خديجة، مخاطبة ياسين بصوت مرتفع وشى بغيظها:

ـ لا دخل للتجربة في ذٰلك، التجربة بريئة وحياتك عندي. المسألة أنّ ربّنا أعطاه طبعًا مثل دندورمة عمّ بدر التركي، ولو تحرّكت مئذنة الحسين ما اهتزّت له شعرة...!

رفعت أمينة رأسها، فرمقت خديجة بنظرة عتاب وتحذير حتّى ابتسمت الابنة وخفضت عينيها فيما يشبه الحياء، وإذا بخليل شوكت يقول في فخار لطيف:

ـ هٰذا طبع آل شوكت، وهو طبع سلطانيّ. أليس كذٰلك؟!

فقالت خديجة ـ بلهجة ذات مغزى ـ وهي تضحك لتخفّف من وقع كلامها:

ـ من سوء حظّي يا سي خليل أنّ والدتك لم تتطبّع بهٰذا الطبع السلطانيّ!

فبادرتها أمينة قائلة وقد نفد صبرها:

ـ حماتك لا نظير لها في النساء، سيّدة جليلة بكلّ معنى الكلمة!!

فمال رأس إبراهيم يسرة، وهو يحدج زوجه بنظرة من عَلٍ التمعت بها عيناه البارزتان، ثمّ قال وهو يتنهّد في ظفر:

ـ وشهد شاهد من أهلها، الله يكرمك يا حماتي... (ثمّ مخاطبًا الجميع) يا هوه أمّي ستّ كبيرة، وفي سنّ تستوجب الرعاية والحلم، وزوجي لا تعرف عن الحلم شيئًا...

فانبرت خديجة للدفاع عن نفسها قائلة:

ـ أنا لا أغضب بلا سبب، ولم يكن الغضب من طبعي في يوم من الأيّام، وهاك أهلي فسلهم عمّا تشاء!

ساد الصمت. كان أهلها لا يدرون ما يقولـون، حتّى ندّت عن كمال ضحكة، فلفتت إليه الأنظار، فلم يتمالك أن يقول:

ـ أبلة خديجة أغضب حليمة عرفتها!

فتشجّع ياسين قائلًا:

ـ أو هي أحلم غضوب، والله أعلم...

انتظرت خديجة حتّى هدأت ثائرة الضحك التي أعقبت ذٰلك. ثمّ أومأت إلى كمال وهي تهزّ رأسها في حسرة، قائلة:

ـ خانني الذي حملته على حجري أكثر ممّا حملت أحمد وعبد المنعم.

فقال كمال كالمعتذر:

ـ لا أظنّني أفشيت سرًّا...

وسرعان ما اتّخذت أمينة موقفًا جديدًا للدفاع عن خديجة التي بـدت في مركـز لا تُحسد عليه، فقالت باسمة:

ـ جَلَّ مَنْ له الكمال...

وجاراها إبراهيم شوكت في لباقة قائلًا:

ـ صدقت، إنّ لزوجي مزايا لا يُستهان بها، لعنة الله على الغضب الذي يصيب أوّل ما يصيب صاحبه، لا شيء في الدنيا يستحقّ في نظري الغضب!

فقالت خديجة ضاحكة:

ـ يا بختك!... لذٰلك تمضي الأيّام ـ عيني عليك باردة ـ وأنت من التغيّر في حصن!

بدا على أمينة الاستياء ـ لأوّل مرّة ـ بصورة جدّيّة، فقالت في عتاب:

ـ ربّنا يصون له شبابه، هو وأمثاله!

تساءل إبراهيم ضـاحكًـا، وهـو لا يخفي سروره بدعاء حماته:

ـ شبابه؟!

فقـال خليل شـوكت يجيبـه، وإنْ وجّـه الخـطاب لأمينة:

ـ إنّ التاسعة والأربعين في آل شوكت تُعدّ من مراحل الشباب!

فعادت أمينة تقول في إشفاق:

ـ يا بنيّ لا تتكلّم هٰكذا ودعونا من هٰذه السيرة. . .

ابتسمت خديجة لما بدا من أمّها من إشفاق كانت هي على علم وإيمان بأسبابه وبواعثه، ذٰلك أنّ الإشادة بالصحّة جهرًا في البيت القديم ـ صراحة ـ مكروهة، لتجاهلها «العين» وشرّها، وهي نفسها ـ خديجة ـ لم تكن لتعالن بقوّة صحّة زوجها لو لم تكن قضت السنوات الستّ الأخيرة من حياتها بين آل شوكت، حيث لا تحظى عقائد كثيرة ـ كالحسد مثلًا ـ بإيمان عميق، وحيث يخوضون في أمور شتّى بلا خوف ـ كسيّر الجنّ والموت والمرض ـ يحول الإشفاق والحذر دون الخوض فيها في البيت القديم، إلى هٰذا كلّه، كانت العلاقة بين الزوجين أوثق ممّا تبدو في الظاهر، فلم يكن ثمّة ما يتهدّدها من قول أو فعل، كانا زوجين موفّقين، يشعر كلاهما في أعماقه بأنّه لا غنى له عن الآخر رغم شتّى المآخذ، وقد كان مرض إبراهيم يومًا فرصة غريبة جَلَتْ مكنون ما يعمر صدر خديجة من محبّة ووفاء. أجل! لم يكن النقار ليسكت بينهما، على الأقلّ من ناحيتها هي، فلم تكن أمّه هدفها الوحيد، ورغم سياسة الرجل وبروده لم يُعْيِها أن تكتشف فيه موضعًا كلّ يوم لانتقاد. مثل: كثرة نومه، قبوعه في البيت بلا عمل، تكبّره على مجرّد فكرة أن يكون له عمل في الحياة، ثرثرته التي لا تنتهي، تجاهله لما ينشب بينها وبين أمّه من نزاع وملاحاة. . . حتّى مرّت أيّام وأيّام ـ على حدّ تعبير عائشة ـ لم يكن لها من حديث إلّا شكّه ولسعه ـ ولٰكن رغم هٰذا كلّه ـ أو بفضل هٰذا، من يدري؟! فالنقار نفسه يقوم أحيانًا بوظيفة الشطّة في تهييج شهوة الطعام. ظلّت عواطفها قويّة ثابتة لا تتأثّر بما يكدّر الظاهر، كأنّها التيّارات المائيّة العميقة التي لا يتحوّل مجراها بفورات السطح وتشنّجاته، إلى ذٰلك لم يسع الرجل إلّا أن يقدّر نشاطها حقّ قدره، بعد أن لمس آثاره في رونق مسكنه ولذّة مطعمه وأناقة ملبسه وهندمة ابنيه. فكان يقول لها مداعبًا: «الحقّ أنّك لقيّة يا غجريّة!» رغم رأي أمّه في هٰذا النشاط الذي لم تتردّد عن الجهر به في أوقات الخصام، وما أكثرها، فتقول لخديجة ساخرة: «هٰذه فضيلة الخدم لا الهوانم»، فتبادرها خديجة قائلة: «أنتم أناس لا عمل لكم إلّا الأكل والشرب، سيّد البيت الحقيقيّ من يخدمه»، فتقول العجوز مواصلة تهكّمها: «لقّنوك هٰذا الكلام في بيتك كي يخفوا عنك أنّك لم تكوني تصلحين في نظرهم إلّا للخدمة!»، فتصيح خديجة: «أنا أعلم بسبب حنقك عليّ، أعلم به منذ لم أجعل لك وزنًا في بيتي»، فتصرخ العجوز: «يا ربّي اشهد. السيّد أحمد عبد الجواد رجل طيّب، ولٰكنّه أنجب شيطانة، أنا أستحقّ ضرب الشبشب جزاء اختياري لك». فتمضي خديجة وهي تغمغم، حتّى لا تتبيّن المرأة كلامها: «أنت تستحقّين ضرب الشبشب. . . لا أجادلك في هٰذا».

نظر ياسين إلى عائشة، وقال وهو يبتسم في خبث:

ـ ما أسعدك بنفسك يا عائشة، علاقتك حسنة مع جميع الأحزاب!

فأدركت خديجة ما وراء كلامه من التعريض بها، وقالت له وهي تهزّ كتفيها متظاهرة بالاستهانة:

ـ وقّاع يسعى بوقيعة بين أختين!

ـ أنا؟!. . . حسبي الله، فهو المطّلع على حسن نيّتي!

وهي تهزّ رأسها كالآسفة:

ـ لم تكن يومًا ذا نيّة حسنة!

وقال خليل شوكت، معلّقًا على كلام ياسين:

ـ نحن نعيش في سلام، وشعارنا: «عش ودع غيرك يعيش»!

فضحكت خديجة حتّى بدت أسنانها اللامعة الدقيقة، وقالت بلهجة لم تخلُ من تهكّم:

ـ بيت سي خليل بيت أفراح، لا يزال هو يلعب بأوتار العود، والهانم تسمع أو تستعرض نفسها في المرآة أو تحادث هٰذه أو تلك من صويحباتها من النافذة أو المشربيّة، ونعيمة وعثمان ومحمّد يلعبون بالمقاعد والوسائد، حتّى إنّ عبد المنعم وأحمد إذا ضاقا برقابتي فرّا إلى شقّة خالتهما فانضمّا إلى فرقة التخريب. . .!

تساءلت عائشة باسمة:

ـ أهٰذا كلّ ما ترين في بيتنا السعيد؟

قالت خديجة بنفس اللهجة:

ـ أو تغنّين ونعيمة ترقص... !

عائشة بمباهاة:

ـ حسبي أنّ جميع الجارات يحببنني، وانّ حماتي تحبّني كذٰلك...

ـ لا أتصوّر أن أفتح صدري لإحدى أولٰئك النسوة الثرثارات، أمّا حماتك فتحبّ من يتملّقها ويسجد لها...

ـ يجب أن نحبّ الناس، وما أسعد أن يحبّنا الناس كذٰلك، حقًّا من القلب للقلب رسول، إنّهنّ جميعًا يخشينك وكثيرًا ما قلن لي: «أختك لا ترحّب بنا ولا تتعب من تنقُّصِنا!»... (ثمّ مخاطبةً أمّها وهي تضحك)... لا تزال تسمّي الناس بأسماء هزليّة، ثمّ تتندّر بها في البيت، فيحفظها عبد المنعم وأحمد، ويردّدانها في الحارة بين الغلمان فتذيع!

عاود الضحك الصامت أمينة، كذٰلك ضحكت خديجة في شيء من الارتباك، كأنّما طافت بها ذكريات بعض مواقف محرجة، على حين راح خليل يقول في ابتهاج غير خافٍ:

ـ بالجملة نحن تخت صغير، فيه العوّاد والمطربة والراقصة! حقًّا لا يزال ينقصنا جماعة المنشدين والمردّدين، ولٰكنّي أتوسّم في أولادي خيرًا، والمسألة مسألة وقت!

فقال إبراهيم شوكت، موجّهًا الخطاب إلى أمينة:

ـ أشهد أنّ بنت بنتك نعيمة راقصة بارعة!

ضحكت أمينة حتّى تورّد وجهها الشاحب، ثمّ قالت:

ـ رأيتها وهي ترقص، ما ألطفها!

قالت خديجة بحماس نطق بحنانها العائليّ المأثور:

ـ ما أجملها! كأنّها صورة من صور الإعلانات.

فقال ياسين:

ـ ما أجملها عروسًا لرضوان!

فقالت عائشة ضاحكة:

ـ ولٰكنّها بكريّة الأسرة!... آه... لم يمكنني أن أغالط في عمرها كما يجدر بالأمّهات!

فتساءل ياسين بعدم اكتراث:

ـ لماذا يشترط الناس أن تكون العروس أحدث سنًّا من العريس؟

فلم يجبه أحد، حتّى قالت أمينة:

ـ لن يطول انتظار نعيمة للعريس المناسب!

فعادت خديجة تقول.

ـ ما أجملها يا ربّي! لم أرَ لجمالها مثيلًا...

فتساءلت عائشة ضاحكة:

ـ وأمّها؟!... ألم تري أمّها؟

فقطّبت خديجة لتضفي على كلامها صفة الجدّيّة، وهي تقول:

ـ هي أجمل منك يا عائشة، لن تستطيعي المكابرة في هٰذا!

ثمّ ما لبثت أن عاودتها سخريتها فقالت:

ـ وأنا أجمل منكما معًا!

«هٰؤلاء الناس يتحدّثون عن الجمال! ماذا عرفوا من كنه الجمال؟ تعجبهم ألوان: بياض العاج، وسبائك الذهب. سلوني أنا عنه، ولن أحدّثكم عن السمرة الصافية والأعين السود السواجي والقامة الهيفاء والأناقة الباريسيّة. كلّا! كلّ أولٰئك جميل، ولٰكنّه خطوط وشكول وألوان تخضع في النهاية للحواسّ والقياس. الجمال هزّة في القلب جارحة وحياة في النفس عامرة وهَيَمان تسبح الروح على أثيره حتّى تعانق السماوات... حدّثوني عن هٰذا إن استطعتم...».

ـ لِمَ يلتمس نساء السكّريّة ودّ خديجة هانم؟.. ربّما كان لها مزايا ـ كما يشهد بذٰلك زوجها ـ ولٰكنّ الناس عامّة يستهويها الوجه الصبيح واللسان الحلو...!

قال ياسين ذٰلك كي يتكش خديجة من جديد، بعد أن رأى الحديث يتحوّل عنها في سلام، فرمته بنظرة كأنّما تقول له: «تأبى أن أرحمك».

ثمّ قالت وهي تتنهّد بصوت مسموع:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل، لم أكن أعلم أنّ لي هنا حماة أخرى.

ثمّ إذا بها تعود من جديد إلى ذلك الموضوع، ولكن بلهجة جدّيّة تاركة ياسين وشأنه على غير ما توقّع، فتقول:

- ليس عندي متّسع من الوقت كي أضيّعه في الزيارات، البيت والأولاد يلتهمون وقتي كلّه، خاصّة وأنّ زوجي لا يهتمّ لا بالبيت ولا بالأولاد!

قال إبراهيم شوكت، مدافعًا عن نفسه:

- اتّقي الله ولا تغالي شأنك في كلّ شيء، الأمر وما فيه أنّه ينبغي لمن كان له زوجة كزوجتي أن يقف موقف الدفاع من حين لآخر، الدفاع عن قطع الأثاث التي تكاد تنبري من كثرة النفض والمسح، والدفاع عن الأولاد الذين تحمّلهم فوق ما يطيقون... آخر العهد بذاك، ما علمتم مِن دَفْعها عبد المنعم إلى الكتّاب ولـمّا يبلغ الخامسة من عمره!

قالت خديجة بفخار:

- لو اتّبعت رأيكم لاستبقيته في البيت حتّى يبلغ سنّ الرشد! كأنّ بينكم وبين العلم عداوة، كلّا يا حبيبي، سينشأ أولادي على ما نشأ عليه أخوالهم. إنّي أذاكر عبد المنعم في دروسه بنفسي!

ياسين مستنكرًا:

- أنت تذاكرينه؟!

- لِمَ لا؟! كما كانت نينة تذاكر كمال، أجالسه كلّ مساء فيسمعني ما يحفظونه في الكتّاب.

ثمّ وهي تضحك:

- وبذلك أيضًا أستذكر مبادئ القراءة والكتابة التي أخاف أن أنساها بمرور الزمن...

تورّد وجه أمينة حياء وسرورًا، فرنت إلى كمال كأنّما تستجديه إشارة إلى ذكر الليالي الخوالي فابتسم إليها ابتسامة ذكور «لتنشئ خديجة ابنيها على ما نشأ عليه أخوالهما، ليكن منهما من يتأثّر كمال الذي يشقّ السبيل إلى المدرسة العليا، ليكن منهما من يتشبّه بـ....، آه ما أضعف الصدور المتصدّعة عن تحمّل الخفقات الوالهة، لو امتدّ به العمر لكان اليوم قاضيًا أو في الطريق إليها، كم حدّثك عن آماله أو آمالك! أين مضى كلّ ذلك؟ ليته عاش ولو فردًا من غمار الناس...»...

قال إبراهيم شوكت، مخاطبًا كمال:

- لسنا كما تتّهمنا أختك. لقد دخلت امتحان الابتدائيّة سنة ١٨٩٥ ودخله خليل سنة ١٩١١، كانت الابتدائيّة على أيّامنا شيئًا عظيمًا على خلاف الحاصل الآن حيث لا يكاد يقنع بها أحد، لم نواصل التعليم، لأنّه لم يكن في نيّتنا أن نتوظّف، أو بمعنى آخر لم نكن في حاجة إلى الوظيفة!...

أعجب كمال إعجابًا ساخرًا بقوله «دخلت امتحان الابتدائيّة»، ولكنّه قال مجاملًا:

- هذا أمر طبيعيّ...

كيف يكون للعلم قيمة ذاتيّة عند ثورين سعيدين؟، كِلاكما تجربة ثمينة علّمتني أنّه من الجائز أن أحبّ - أيّ حبّ كان - من أحتقر... أو أن أتمنّى الخير - كلّ الخير - لشخص تثير مبادئه في الحياة نفوري وتقزّزي، لا أملك إلّا أن أكره الحيوانيّة من صميم قلبي، صار ذلك حقيقة وحقًّا منذ هفّت على القلب نسمة السماء!

هتف ياسين في حماس هزليّ:

- لتحيى الابتدائيّة القديمة!

- نحن حزب الأغلبيّة على أيّ حال!

تضايق ياسين من إقحام خليل نفسه - وأخاه ضمنًا - على حزب الابتدائيّة التي لم ينالاها، ولكنّه لم يجد بدًّا من التسليم، على حين راحت خديجة تقول:

- سيواصل عبد المنعم وأحمد التعليم حتّى ينالا الدبلوم العالي، سيكونان عهدًا جديدًا في آل شوكت، اسمعوا وقع هذين الاسمين جيّدًا: عبد المنعم إبراهيم شوكت، أحمد إبراهيم شوكت... ألا يرنّ الاسم رنين «سعد زغلول»؟!

فصاح إبراهيم ضاحكًا:

- من أين لك هذا الطموح كلّه؟

- لِمَ لا؟... ألم يكن سعد باشا مجاورًا بالأزهر؟! من الجراية إلى رياسة الوزراء، وكلمة منه تقيم الدنيا وتقعدها، ليس شيء على الله بكثير!!

تساءل ياسين متهكّمًا:

- هلّا قنعت بأن يكونا مثل عدلي أو ثروت؟

فصاحت كالمستعيذة بالله:

ـ الخونة؟! لن يكونوا من الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار!

أخرج إبراهيم من جيب بنطلونه منديلًا، ومسح به وجهه الذي زادت حمرته عمقًا بحرارة الجوّ ونضح عرقًا بما يشرب من ماء مثلوج وقهوة ساخنة، ثمّ قال وهو آخذ في تجفيفه:

ـ لو أنّ لشدّة الأمّهات فضلًا في خلق العظماء، فابشري من الآن بما ينتظر ابنيك من مجد كبير!

ـ تريدني على أن أتركهما وشأنهما؟

قالت عائشة برقّة:

ـ لا أذكر أنّ نينة انتهرت أحدًا منّا فضلًا عن ضربه، ألا تذكرين؟

فقالت خديجة كالآسفة:

ـ لم تلجأ نينة إلى الشدّة، لأنّ بابا كان هناك! كان ذكره كافيًا لإلزام كلٍّ حدَّه، أمّا عندي، أو عندك فالحال من بعضه، فالأب غير موجود إلّا بالاسم (اضطرّت أن تضحك) ما عسى أن أفعل والحال كذلك؟ إذا كان الأب أمًّا، فعلى الأمّ أن تكون أبًا... !

ياسين مبتهجًا:

ـ يقيني أنّكِ نجحت في أبوّتك! أنت أب... هٰذا ما شعرت به طويلًا، ولٰكن كانت تنقصني معرفته!

فتظاهرت بالرضى قائلة:

ـ أشكرك يا بمبة كشر...

«خديجة وعائشة، صورتان متعارضتان... تأمّل جيّدًا، أيّهما تظنّ الأجدر بأن تكون معبودتك على مثالها؟... أستغفر الله! معبودتي على غير مثال، لا أتصوّرها ربّة بيت. ما أبعد هٰذا عن التصوّر! معبودته في ثياب البيت تنهنه طفلًا أو ترعى مطبخًا؟! يا للفزع ويا للتقزّز، بل لاهية أو سادرة أو رافلة في حلّة باهرة في حديقة أو سيّارة أو ملهى، ملاك في زيارة طارئة سعيدة للدنيا، جنس مفرد غير سائر الأجناس لا يعرفه إلّا قلبي، لا يجمعها وهٰؤلاء النسوة إلّا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقيّ، لا يجمع جمالها وجمال عائشة وسائر ألوان الجمال إلّا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقيّ، هاك حياتي أكرّسها لمعرفتك، هل ثمّة وراء ذٰلك ظمأ لعرفان؟».

ـ يا ترى ما أخبار مريم؟

تساءلت عائشة حال خطرت صديقتها القديمة ببالها، فأحدث الاسم آثارًا متباينة في كثير من الجالسين، تغيّر وجه أمينة حتّى ثمّت أساريره عن الامتعاض الشديد، تجاهل ياسين السؤال كأنّه لم يسمعه متشاغلًا بتفحّص أظافره، وردت رأس كمال جملة من ذكريات هزّت نفسه هزًّا، أمّا خديجة فأجابتها بلهجة باردة:

ـ أيّ أخبار جديدة تتوقّعين؟ طلّقت وعادت إلى بيتها!

انتبهت عائشة ـ بعد فوات الفرصة ـ إلى أنّها انزلقت سهوًا إلى ورطة، وأنّها أساءت إلى أمّها بهفوة لسان. ذٰلك أنّ أمّها آمنت منذ عهد بعيد بأنّ مريم وأمّ مريم لم تَصْدقا في حزنهما على فهمي، إن لم تكونا شمتتا بهم من أجل ذٰلك، لما سبق من معارضة السيّد في خطبة مريم للفقيد. وكانت خديجة البادئة بترديد ذٰلك الظنّ، فتابعتها الأمّ عليه بلا تردّد أو تفكير، وسرعان ما تغيّرت عواطفها نحو جارتها القديمة حتّى أوحى ذٰلك بالتنكّر فالقطيعة.

قالت عائشة بارتباك، محاولة الاعتذار عمّا بدر منها:

ـ لا أدري ماذا دعاني للسؤال عنها؟

فقالت أمينة بانفعال ظاهر:

ـ ما ينبغي لك أن تفكّري فيها.

كانت عائشة قد أعلنت شكّها ـ عند ذٰلك التاريخ ـ في واقعيّة التهمة التي أُلصقت بصديقتها، معتلّة بأنّ الخطبة وما دار حولها بقي طيّ الكتمان، فلم يتناه نبؤه إلى بيت مريم في حينه، ممّا ينفي على الفتاة وآلها دواعي الشماتة... ولٰكنّ أمّها لم ترَ رأيها محتجّة بأنّ مسألة خطيرة كهٰذه المسألة ممّا يتعذّر منع تسرّب خبرها إلى أصحاب الشأن فيها، فلم تلبث عائشة وراء رأيها طويلًا خشية أن تُتّهم بمحاباة مريم أو بفتور حماسها لذكرى شقيقها، لٰكنّها بإزاء انفعال أمّها، وجدت

نفسها مساقة إلى تلطيف وقع هفوتها، فقالت:

ـ لا يدري بالحقيقة يا نينة إلّا الله... لعلّها بريئة ممّا رميناها به.

فاشتدّ امتعاض أمينة على خلاف ما توقّعت عائشة، حتّى لاحت في وجهها بوادر غضب بدت غريبة عنها لما عُرف عنها من حلم وهدوء، وقالت بصوت متهدّج:

ـ لا تحدّثيني عن مريم يا عائشة.

وصاحت خديجة مشاركة أمّها في عواطفها:

ـ قطعت مريم وسيرتها!

فابتسمت عائشة في ارتباك دون أن تنبس. وقد لبث ياسين متشاغلًا بأظافره حتّى انتهى ذاك الحديث الحامي، وأوشك مرّة أن يشترك فيه متشجّعًا بقول عائشة «لا يدري بالحقيقة يا نينة إلّا الله...»، ولٰكنّ اندفاع أمينة إلى الردّ عليها بذاك الصوت المتهدّج غير المعهود أسكته. أجل أسكته وانطلق لسانه باطنيًّا بالشكر على نعمة السكوت. وكان كمال يتابع الحديث باهتمام وإن لم يبدُ أثره على وجهه، وقد أكسبه حمل الحبّ عهدًا طويلًا ـ في ظروف حسّاسة غير مواتية ـ قدرة على التمثيل تحكّم بها في كتمان عواطفه ومطالعة الناس ـ إن دعت الضرورة ـ بمظهر على نقيض مخبره، فذكر ما سمع قديمًا من «شماتة» آل مريم، ومع أنّه لم يأخذ التهمة مأخذ الجدّ إلّا أنّه تذكّر عهد الرسالة السرّيّة التي ذهب بها إلى مريم والردّ الذي عاد به إلى فهمي، ذٰلك سرّ قديم صانه ولم يزل مستمسكًا بصونه رعاية لعهد أخيه واحترامًا لرغبته، وقد لذّ له أن يعجب كيف لم يفقه معنى الرسالة التي حملها إلّا أخيرًا، حين انبثقت معانيها في نفسه خلقًا جديدًا... كان ـ على حدّ تعبيره ـ حجرًا يحمل نقوشًا مبهمة حتّى جاء الحبّ فحلّ رموزها، ولم يفته أن يلاحظ غضب أمّه، وهو ظاهرة جديدة في حياتها لم تكن تعرفها قبل العهد المشئوم، لم تعد كما عهد، أجل لم تتغيّر تغيّرًا خطيرًا أو دائمًا ولٰكنّها غدت عرضة بين الحين والحين لنوبات لم تكن تطرأ عليها ولم تكن إذا طرأت تستسلم لها، ما عسى أن يقول في ذٰلك؟ إنّ قلب الأمّ الجريح الذي لا يعرف عنه إلّا شذرات وقع عليها ضمن مطالعاته، شدّ ما يتألّم لها، ثمّ ما وراء عائشة وخديجة؟ هل يمكن أن تُرمى عائشة ببرود نحو ذكرى فهمي؟ لا يتصوّر هٰذا ولا يطيقه، إنّها امرأة سليمة الطويّة وفي قلبها متّسع للصداقة والمودّة، تميل فيما يبدو ـ ولها عذرها ـ إلى تبرئة مريم، ولعلّها تحنّ إلى عهدها بهٰذا القلب المفتوح للناس جميعًا، أمّا خديجة فقد ازدردتها الحياة الزوجيّة، لم تعد إلّا أمًّا وربّة بيت، لا حاجة بها إلى مريم أو غيرها، لم يبقَ لها من ماضيها إلّا عواطفها الثابتة نحو أسرتها، نحو أمّها خاصّة، فهي تدور حيث تدور، ما أعجب هٰذا كلّه!

ـ وأنت يا سي ياسين إلامَ تبقى أعزب؟

وجّه إبراهيم هٰذا السؤال إلى ياسين، مدفوعًا برغبة صادقة في تنقية الجوّ ممّا شابهُ، فأجابه ياسين مازحًا:

ـ غادرني الشباب وقُضي الأمر!

فقال خليل شوكت بلهجة جدّيّة، دلّت على أنّه لم يفطن إلى ما في قول ياسين من مزاح:

ـ لقد تزوّجت وأنا في مثل سنّك تقريبًا، ألست في الثامنة والعشرين؟

فتضايقت خديجة من ذكر سنّ ياسين الذي كشف بطريقة غير مباشرة عن سنّها، فخاطبت ياسين قائلة بلهجة حادّة:

ـ هلّا تزوّجت وأرحت الناس من حديث عزوبيّتك؟

فقال ياسين راميًا ـ قبل كلّ شيء ـ إلى التودّد إلى أمينة:

ـ مرّت بنا أعوام أنْست الإنسان رغائبه!

ارتدّ رأس خديجة إلى الوراء، كأنّما دفعته قبضة يد، ثمّ رمته بنظرة كأنّما تقول «غلبتني يا شيطان»، ثمّ قالت وهي تتنهّد:

ـ آه منك! قل إنّ الزواج لم يعد يروقك وهو الأصدق!

فقالت أمينة ممتنّة لتودّده:

ـ ياسين رجل طيّب، والرجل الطيّب لا يمتنع عن الزواج إلّا مضطرًّا، الحقّ آن لك أن تفكّر في استكمال دينك...

يا طالما فكّر في استكمال دينه، لا ليجرّب حظّه من جديد فحسب ولكن رغبة في ردّ الإهانة التي لحقت به يوم اضطرّ ـ بدافع من أبيه ـ إلى تطليق زينب إنفاذًا «لمشيئة» أبيها محمّد عفّت!! ثمّ كان مصرع فهمي فصرفه عن التفكير في الزواج حتّى كاد يألف هٰذه الحياة الطليقة ويعتادها، غير أنّه قال لأمينة، وكان يؤمن بما يقول:

ـ لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، وكلّ شيء رهن بوقته. . .

قطع عليهم أفكارهم بغتة ضجّة وصياح وضوضاء جاءت من ناحية السلّم، مختلطة بوقع أقدام متدافعة، فاتّجهت الأبصار متسائلة نحو باب السلّم، وما هي إلّا لحظة حتّى ظهرت أمّ حنفي على عتبة الباب عابسة لاهثة، وهي تصيح:

ـ الأولاد يا ستّي، سي عبد المنعم وسي رضوان متشابكان، رموني بالحصى وأنا أخلّص بينهما. . .

قام ياسين وخديجة، فهرعا إلى الباب، ثمّ نفذا إلى السلّم، ومضت دقيقة أو دقيقتان عادا بعدها، ياسين قابضًا على يد رضوان، وخديجة دافعة أمامها عبد المنعم وهي تلكمه برحمة في ظهره، ثمّ تتابعت البقيّة مهلّلة، فجَرَتْ نعيمة إلى أبيها خليل، وعشهان إلى عائشة، ومحمّد إلى جدّته أمينة، وأحمد إلى أبيه إبراهيم، ثمّ جعلت خديجة تنتهر عبد المنعم وتنذره بأنّه لن يرى بيت جدّه مرّة أخرى، حتّى صاح بصوت باكٍ، وهو يشير متّهمًا إلى رضوان الذي جلس بين أبيه وكمال:

ـ قال إنّهم أغنى منّا. . .

فصاح رضوان محتجًّا:

ـ هو الذي قال لي إنّهم أغنى منّا، وقال أيضًا: إنّهم يملكون بوّابة المتولّي بكنوزها!

فطيّب ياسين خاطره، وهو يقول ضاحكًا:

ـ اعذره يا بنيّ، إنّه مزّاع مثل أمّه. . .!

فقالت خديجة لرضوان، وهي لا تتمالك نفسها من الضحك:

ـ تتشاجران على بوّابة المتولّي؟! عندك يا سيّدي باب النصر وهي قريبة من بيت جدّك، فخذها ولا تتشاجر!

فقال رضوان، وهو يهزّ رأسه بإباء:

ـ فيها أموات لا كنوز، فليأخذها هو!

عند ذاك علا صوت عائشة، وهي تقول برجاء وإغراء:

ـ صلّوا على النبيّ، أمامكم فرصة نادرة كي تسمعوا نعيمة وهي تغنّي، ما رأيكم في هٰذا الاقتراح؟. . .

فجاءها الاستحسان والتشجيع من أركان الصالة جميعًا، حتّى رفع خليل نعيمة بين يديه ووضعها على حجره، وهو يقول لها «أسمِعي هٰذا الجمهور صوتك. الله. . . الله. . . إيّاك والخجل، أنا لا أحبّ الخجل»، ولكنّ نعيمة غلب عليها الخجل، فدفنت وجهها في حجر أبيها حتّى لم يعد يبدو منه إلّا هالة من نضار الذهب، وحانت من عائشة التفاتة، فرأت محمّد وهو يحاول عبثًا أن ينزع الشامة من خدّ جدّته، وقامت إليه وعادت به إلى مجلسها رغم ممانعته، ثمّ واصلت تشجيع نعيمة على الغناء، وألحّ معها خليل حتّى همست الصغيرة في أذن أبيها بأنّها لن تغنّي إلّا إذا توارت عن الأنظار وراء ظهره، فسمح لها بما أرادت، فزحفت على أربع حتّى لبدت بين ظهره ومسند الكنبة. . . وعند ذاك شمل الصالة سكون باسم مترقّب، وامتدّت فترة السكوت فأوشك خليل أن يفقد صبره، ولكنّ صوتًا رفيعًا لطيفًا بدأ يتكلّم فيما يشبه الهمس، ثمّ أخذ يتشجّع رويدًا رويدًا، حتّى سرت في نبراته الحرارة فعلا مغنّيًا:

حوِّد من هنا وتعال عندنا
يا اللّي أنا وانت نحبّ بعضنا

وراحت الأيدي الصغيرة تصفّق على إيقاعه.

ـ ٤ ـ

ـ آنَ لك أن تخبرني عن المدرسة التي تنوي الالتحاق بها. . .

كان السيّد أحمد عبد الجواد متربّعًا على الكنبة

بحجرة نومه، على حين جلس كمال على طرفها المواجه للباب شابكًا ذراعيه على حجره يكتنفه الأدب والطاعة. ودّ السيّد لو يجيبه الفتى قائلًا: «الرأي رأيك يا أبي». بيد أنّه كان مسلّمًا بأنّ اختيار المدرسة ليس من الأمور التي يدّعي لنفسه فيها حقًّا مطلقًا، وأنّ موافقة الابن عامل جوهريّ في الاختيار، إلى أنّ مدى علمه بالموضوع كلّه كان محدودًا جدًّا، وقد استمدّ أكثره ممّا يثار أحيانًا في بعض مجالسه بين أصحابه من الموظّفين والمحامين الذين أجمعوا على الإقرار بحقّ الابن في اختيار نوع دراسته تفاديًا من الإخفاق والفشل، لهذا كلّه لم يستنكف أن يجعل الأمر شورى مسلّمًا أمره إلى الله. . .

ـ نويت يا بابا بإذن الله، وبعد موافقة حضرتك طبعًا، الالتحاق بمدرسة المعلّمين العليا!

ندّت عن رأس السيّد حركة موحية بالانزعاج، واتّسعت عيناه الزرقاوان الواسعتان، وهو يحدج ابنه بغرابة، ثمّ قال بنبرات ناطقة بالاستنكار:

ـ المعلّمين العليا!. . . مدرسة المجّانيّة! أليس كذلك؟

فقال كمال بعد تردّد:

ـ ربّما، لا أدري شيئًا عن هذا الموضوع. . .

فلوّح السيّد بيده مستهزئًا، كأنّما أراد أن يقول له: «ينبغي أن تتجمّل بالصبر قبل أن تقطع برأي فيما ليس لك به علم»، ثمّ قال بازدراء:

ـ هي كما قلت لك، ولذلك يندر أن تجذب أحدًا من أولاد الناس الطيّبين، ثمّ إنّ مهنة المعلّم. . . أتدري شيئًا عن مهنة المعلّم أم أنّ عِلمك بها لا يعدو علمك بمدرستها؟ هي مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، إنّي عليم بما يقال عن هذه الشئون، أمّا أنت فغرّ صغير لا تدري من أمور الدنيا شيئًا، هي مهنة يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كلّ معاني العظمة والجلال، ولقد عرفت أناسًا من الأعيان والموظّفين المحترمين يأبون ـ الإباء كلّه ـ أن يزوّجوا بناتهم من معلّم مهما تكن مكانته. . .

ثمّ بعد أن تجشّأ ونفخ طويلًا:

ـ فؤاد بن جميل الحمزاوي، وهو من كنت تخلع عليه البالي من بذلك سيلتحق بمدرسة الحقوق، ولد ذكيّ متفوّق ولكنّه ليس أذكى منك، وقد وعدت أباه بالمعاونة في تسديد مصروفاته حتّى تتحقّق له المجّانيّة، فكيف أنفق على أولاد الناس في المدارس المحترمة وابني يتعلّم بالمجّان في المدارس الحقيرة؟!. . .

كان هذا التقرير الخطير عن «المعلّم ورسالته» مفاجأة مزعجة لكمال. لِمَ هذا التحامل كلّه؟ لا يمكن أن يرجع ذلك إلى علم المعلّم الذي هو تلقين العلم، فهل يرجع إلى مجّانيّة المدرسة التي تخرّجه؟ لم يكن يتصوّر أن يكون للغِنى أو للفقر دخل في تقدير العلم أو أن يكون للعلم قيمة خارجة عن ذاته. كان يؤمن بذلك إيمانًا عميقًا لا يمكن أن يتزعزع، كما يؤمن بكفالة الأراء السامية التي يطّلع عليها في مؤلّفات رجال يحبّهم ويعتزّ بهم، مثل: المنفلوطي، والمويلحي وغيرهما. كان يعيش بكلّ قلبه في عالم «المثال» كما ينعكس على صفحات الكتب، فلم يتردّد فيما بينه وبين نفسه عن تخطئة رأي أبيه رغم جلاله ومكانته من نفسه، معتذرًا عن ذلك بجناية المجتمع المتأخّر عليه، وأثر «الجهلاء» من أصحابه فيه، وهو ما أسف له كلّ الأسف، بيد أنّه لم يسعه إلّا أن يقول ملتزمًا غاية ما يستطيع من الأدب والرقّة، وكان في الواقع يردّد نصًّا من مطالعاته:

ـ العلم فوق الجاه والمال يا بابا. . .

ردّد السيّد رأسه بين كمال وبين صوان الملابس، كأنّما يُشهد شخصًا غير منظور على خرق الرأي الذي سمع، ثمّ قال باستياء:

ـ حقًّا؟! عشت حتّى أسمع هذا الكلام الفارغ، كأنّ ثمّة فرقًا بين الجاه والعلم! لا علم حقيقيّ بلا جاه ومال. ثمّ ما لك تتكلّم عن العلم كأنّه علم واحد! ألم أقل لك إنّك غرّ صغير؟ هنالك علوم لا علم واحد. للصعاليك علومهم، وللباشوات علومهم. افهم يا جاهل قبل أن تندم!

كان على يقين من احترام أبيه للدين ولأهله بالتالي، فقال بمكر:

ـ إنّ الأزهريّين يتعلّمون كذلك بالمجّان ويشتغلون بالتدريس، ولكنّ أحدًا لا يستطيع أن يحتقر علومهم. . .

فأومأ له بذقنه باحتقار، وهو يقول:

ـ الدين شيء، ورجال الدين شيء آخر!

فقال مستمدًّا من اليأس قوّة يستعين بها على مناقشة الرجل الذي لم يتعوّد إلّا طاعته:

ـ ولكنّك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبّهم!

فقال السيّد بلهجة لم تخلُ من حدّة:

ـ لا تخلط بين الأمور، أنا أحترم الشيخ متولّي عبد الصمد وأحبّه كذلك، ولكن أن أراك موظّفًا محترمًا أحبّ إليّ من أن أراك مثله، ولو سرت بالبركة بين الناس ودفعت عنهم السوء بالأحجبة والتعاويذ. . . لكلّ زمان رجال، ولكنّك لا تريد أن تفهم!

تفحّص الرجلُ الشابَّ ليسبر أثر كلامه فيه، فغضّ كمال بصره، وعضّ على شفته السفلى، وجعل يرمش، ويحرّك زاوية فيه اليسرى في عصبيّة. يا عجبًا! ألهذا الحاضر يصرّ الناس على ما فيه ضرر محقّق لهم؟ وأوشك أن ينفجر غاضبًا، ولكنّه تذكّر أنّه إنّما يعالج أمرًا خارجًا عن نطاق سلطته المطلقة، فكظم غيظه، وساءله:

ـ ولكن ما الذي جعلك تتحمّس لمدرسة المعلّمين وحدها كأنّها استأثرت بالعلم كلّه؟! ما الذي لا يروقك في مدرسة الحقوق مثلًا؟ أليست هي المدرسة التي تخرّج الكبراء والوزراء؟ أليست هي المدرسة التي تثقّف بعلومها سعد باشا وأضرابه من الرجال؟

ثمّ بصوت منخفض، وقد عكست عيناه نظرة واجمة:

ـ وهي المدرسة التي وقع اختيار المرحوم فهمي عليها بعد رويّة وتفكير، ولو لم يعاجله الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو القضاء، أليس كذلك؟

قال كمال بتأثّر:

ـ جميع قولك حقّ يا بابا، ولكنّني لا أحبّ دراسة القانون!

ضرب الرجل كفًّا بكفّ، وهو يقول:

ـ لا يحبّ! وما دخل الحبّ في العلم والمدارس؟! قل لي ماذا تحبّ في مدرسة المعلّمين؟ اريد أن أعرف أمارات الحسن التي فتنتك فيها، أم أنت ممّن يحبّون الرمامة؟ تكلّم ها أنا مصغٍ إليك. . .

ندّت عنه حركة، كأنّه يستجمع قواه لإيضاح ما غمض على أبيه من الرأي، ولكنّه كان مسلّمًا بصعوبة مهمّته، ومقتنعًا في الوقت نفسه بأنّها ستجرّ عليه مزيدًا من السخريات التي ذاق أمثلة منها فيما سلف من النقاش، وفضلًا عن هٰذا كلّه، فلم يكن يستبين هدفًا واضحًا محدّدًا حتّى يستطيع بدوره أن يوضحه لأبيه، فما عسى أن يقول؟ في وسعه إذا تأمّل قليلًا أن يعرف ما لا يريد، فليس القانون ببغيته ولا الاقتصاد ولا الجغرافيا ولا التاريخ ولا اللغة الإنجليزيّة وإن كان يقدّر أهمّيّة المادّتين الأخيرتين لما يتطلّع إليه، هٰذا ما لا يريد، فما الذي يريد؟ إنّ في نفسه أشواقًا تحتاج إلى عناية وتأمّل حتّى تتّضح أهدافها، ولعلّه غير متوكّد من أنّه سيظفر بها في مدرسة المعلّمين، وإن رجح عنده أن تكون ـ هٰذه المدرسة ـ أقصر سبيل إليها. أشواق تهزّها مطالعات شتّى لا تكاد تجمعها صفة واحدة: مقالات أدبيّة، واجتماعيّة، ودينيّة، وملحمة عنتر، وألف ليلة وليلة، والحماسة، والمنفلوطي، ومبادئ الفلسفة، إلى أنّها ربّما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التي كاشفه بها ياسين قديمًا، بل والأساطير التي سكبتها في روحه أمّه من قبل ذٰلك. . . كان يحلو له أن يطلق على هٰذا العالم الغامض اسم «الفكر»، وعلى نفسه اسم «المفكِّر»، فيؤمن بأنّ حياة الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبعها النورانيّ على المادّة والجاه والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة. . . هي كذٰلك!! وضحت معالمها أم لم تتّضح، فاز بها في مدرسة المعلّمين أم لم تكن هٰذه المدرسة إلّا وسيلة إليها. لا يملك عقله أن يتحوّل عن هٰذه الغاية أبدًا، ولكن من الحقّ كذٰلك أن يقرّ بأنّ ثمّة صلة قويّة تربطها بقلبه أو بالحريّ بحبّه! كيف كان ذٰلك؟ ليس بين «معبودته» وبين القانون أو الاقتصاد من سبب، ولكن ثمّة أسباب وإن دقّت وخفيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما

شاكل ذٰلك من المعارف التي يستهويه النهل من منابعها، على نحو يشبه ما بينها وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوّف إليها في هزّة الطرب وأريحيّة النشوة. إنّه يجد هٰذا كلّه في نفسه ويؤمن به كلّ الإيمان، ولٰكن ما عسى أن يقول لأبيه؟ لجأ مرّة أخرى إلى المكر، وهو يقول:

ـ إنّ مدرسة المعلّمين تدرّس علومًا جليلة، كتاريخ الإنسان الحافل بالعظات، وكاللغة الإنجليزيّة!

كان السيّد يتفحّصه وهو يتكلّم، وإذا بمشاعر الاستياء والحنق ترايله فجأة. تأمّل ـ وكأنّه يراه لأوّل مرّة ـ نحافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه، فوجد في منظره غرابة تضاهي ما في آرائه من شذوذ، وأوشكت روحه الساخرة أن تضحك في باطنه، ولٰكنّ عطفه وحبّه أبيا عليه ذٰلك، غير أنّه تساءل فيما بينه وبين نفسه: النحافة ظاهرة مؤقّتة، الأنف عندي مصدره، ولٰكن من أين له هٰذا الرأس العجيب؟ أليس من المحتمل أن يعرض له شخص ـ مثلي ـ ممّن ينقّبون عن العيوب صيدًا لمزاحهم؟ ضايقته هٰذه الفكرة مضايقة ضاعفت من عطفه عليه، فعندما تكلّم جاء صوته أهدأ نبرة وأدنى إلى الحلم والنصح، قال:

ـ العلم في ذاته لا شيء، والعبرة بالنتيجة، القانون يفضي بك إلى وظيفة القضاء، أمّا التاريخ والعظات فمؤدّاها أن تكون معلّمًا بائسًا، عند هٰذه النتيجة قف طويلًا وتأمّل (ثمّ ونبرات صوته تعلو قليلًا في شيء من الحدّة) لا حول ولا قوّة إلّا بالله، عظات وتاريخ وسخام، هلّا حدّثتني بكلام معقول؟!

تورّد وجه كمال حياء وألـمًا وهو يستمع إلى رأي أبيه في المعارف والقيم السامية التي يقدّسها، وكيف استنزلها إلى مستوى السخام وقرنها به، غير أنّه لم يُعدَم عزاء فيما ورد ذهنه ـ في لحظته تلك ـ جليل دون شكّ، إلّا أنّه ضحيّة زمان ومكان ورفاق. ترى هل يجدي معه النقاش؟ هل يجرّب حظّه مرّة أخرى مستعينًا بمكر جديد؟

ـ الواقع يا بابا أنّ هٰذه العلوم تحوز أكبر التقدير في الأمم الراقية؟ إنّ الأوروبيّين يقدّسونها، ويقيمون التماثيل للنابغين فيها!

حوّل السيّد وجهه عنه، ولسان حاله يقول: «اللّٰهمّ طوّلك يا روح»، بيد أنّه لم يكن غاضبًا حقًّا، ولعلّه رأى الأمر كلّه مفاجأة مضحكة لم تخطر له ببال، ثمّ أعاد إليه وجهه، وهو يقول:

ـ بصفتي والدك أريد أن أطمئنّ على مستقبلك، أريد لك وظيفة محترمة، هل يختلف اثنان في هٰذا؟ الذي يهمّني حقًّا أن أراك موظّفًا مهابًا لا مدرّسًا بائسًا وإن أقاموا له تمثالًا كإبراهيم باشا أبي أصبع! يا سبحان الله! عشنا وشفنا وسمعنا العجب! ما لنا نحن وأوروبا؟! أنت تعيش في هٰذا البلد، فهل هو يقيم التماثيل للمعلّمين؟... دلّني على تمثال واحد لمعلّم؟! (ثمّ بلهجة استنكاريّة) خبّرني يا بنيّ: أتريد وظيفة أم تمثالًا؟!

ولـمّا لم يجد إلّا الصمت والارتباك، قال فيما يشبه الحزن:

ـ في رأسك أفكار لا أدري كيف اندسّت إليه، إنّي أدعوك إلى أن تكون واحدًا من الرجال العظماء الذين يهزّون الدنيا بجلالهم ومراكزهم، فهل عندك مثال تتطلّع إليه لا أدريه؟ صارحني بما في نفسك حتّى يرتاح بالي وأدرك غرضك، الحقّ أنّي في حيرة من أمرك!!

فليتقدّم خطوة جديدة يفصح بها عن بعض ما في نفسه وأمره لله، قال:

ـ هل من العيب يا بابا أن أتطلّع إلى أن أكون كالمنفلوطي يومًا ما؟

قال السيّد بدهشة:

ـ الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي؟! رحمة الله عليه رأيته أكثر من مرّة في سيّدنا الحسين... لكنّه لم يكن معلّمًا فيما أعلم، كان أعظم من هٰذا بكثير، كان من جلساء سعد وكتّابه، ثمّ إنّه كان من الأزهر لا من المعلّمين، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته، كان هبة من الله... هٰكذا يقولون عنه!! نحن نبحث في مستقبلك والمدرسة التي ينبغي أن تدخلها ولندعْ ما لله لله، فإن كنتَ أنت الآخر هبة من الله أيضًا، فستكون في عظمة المنفلوطي وأنت وكيل نيابة أو قاضٍ، لِمَ لا؟!

كمال، وهو يناضل في استماتة:

- لست أتطلّع إلى شخص المنفلوطي فحسب ولْكن إلى ثقافته أيضًا، ولا أجد مدرسة هي أقرب إلى تحقيق غرضي، أو في الأقلّ إلى تمهيد السبيل إليه من مدرسة المعلّمين، لذْلك آثرتها، ليس بي من رغبة خاصّة في أن أكون معلّمًا، بل لعلّي لم أقبل هٰذا إلّا لأنّه السبيل المتاح إلى ثقافة الفكر...

الفكر؟!... وردّد مقطع أغنية الحامولي «الفكر تاه اسعفيني يا دموع العين» الذي طالما أحبّه واستعاده فيما مضى من زمانه، أهٰذا هو الفكر الذي يسعى وراءه ابنه؟ سأله بدهشة:

- ما هي ثقافة الفكر؟

لجّت به الحيرة، فازدرد ريقه، وقال بصوت منخفض:

- لعلّي لا أعرفها، (ثمّ يبتسم متودّدًا) لو كنت أعرفها لما كان بي حاجة إلى طلب تعلّمها!

فسأله مستنكرًا:

- إذا كنت لا تعرفها فبأيّ حقّ اخترتها؟... هه.؟... هل تهيم بالضعة لوجه الله؟

تغلّب على ارتباكه بجهد شديد، وقال مدفوعًا باستماتته في الدفاع عن سعادته:

- إنّها أكبر من أن يحاط بها، إنّها تبحث فيما تبحث عن أصل الحياة ومآلها!

تأمّله مليًّا في ذهول قبل أن يقول:

- أمن أجل هٰذا تريد أن تضحّي بمستقبلك؟ أصل الحياة ومآلها؟! أصل الحياة آدم، ومصيرنا إلى الجنّة أو النار، أم جدّ جديد في ذْلك؟

- كلّا، أعلم هٰذا، أريد أن أقول...

فعاجله قائلًا:

- هل جننت؟... أسألك عن مستقبلك، فتجيبني بأنّك تريد أن تعرف أصل الحياة ومآلها؟!... وماذا تعمل بعد ذْلك؟... تفتح دكّانًا لاستطلاع الغيب؟!

خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن يُغلب على أمره أو يضطرّ إلى التسليم بوجهة نظر أبيه، فقال مستنجدًا شجاعته:

- اعذرني يا بابا إذا لم أكن أحسنت التعبير عن رأيي، أريد أن أواصل دراستي الأدبيّة التي بدأتها بعد الكفاءة، أن أدرس التاريخ واللغات والأخلاق والشعر، أمّا المستقبل فأمره بيد الله!

فهتف السيّد متهكّمًا حانقًا، وكأنّما يُتمّ سرد ما سكت كمال عنه:

- وادرس أيضًا فنّ الحواة والقره جوز وفتح المندل ونبين زين نبين. لِمَ لا، اللّٰهمّ غفرانك، أكنت حقًّا تدّخر لي هٰذه المفاجأة؟... لا حول ولا قوّة إلّا بالله!

اقتنع السيّد أحمد بأنّ الحال أخطر ممّا قدّر، فحار في أمره، وجعل يسائل نفسه: أأخطأ فيما أباح لابنه من حرّيّة القول والرأي؟ كلّما مدّ له في حبل الصبر والتسامح لجّ الآخر في العناد وتمادى في الجدل... وما لبث أن قام في نفسه صراع بين نزعته الاستبداديّة وبين تسليمه بحقّ «اختيار المدرسة»، حرصًا على مستقبل كمال من ناحية وكراهية للانهزام من ناحية أخرى، ولْكنّه انتهى على غير عادته - أو بالأحرى على غير عادته في الزمن القديم - بتغليب الحكمة، فعاد إلى النقاش وهو يقول:

- لا تكن غرًّا، ثمّة شيء في عقلك لا أدريه أسأل الله لك منه النجاة، ليس المستقبل لهوًا ولعبًا، ولْكنّه حياتك التي لن تكون لك حياة غيرها، فكّر في الأمر طويلًا، الحقوق خير مدرسة لك، إنّي أفهم الدنيا خير منك، ولي أصدقاء من كافّة الطبقات ولا خلاف بينهم في ذْلك، أنت طفل أحمق، ألا تدري ما هي النيابة وما هو القضاء؟ هٰذه وظائف تهزّ الأرض هزًّا وفي وسعك أن تتبوّأ واحدة منها، كيف تُعرض عنها بكلّ بساطة وتختار أن تكون... معلّمًا؟!

شدّ ما يتألّم - لا غضبًا لكرامة المعلّم فحسب - ولْكن غضبًا لكرامة العلم أوّلًا وأخيرًا، العلم الحقيقيّ في نظره! لم يكن حسن الظنّ بالوظائف التي تهزّ الأرض هزًّا، فطالما وجد الكتّاب المسيطرين على روحه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل وغير ذْلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف، فآمن - تبعًا لأقوالهم - بألّا عظمة حقيقيّة إلّا في حياة العلم

والحقيقة، واقترنت من ثمّ كلّ مظاهر السلطان والجاه في ذهنه بالزيف والتفاهة، غير أنّه تحاشى الإفصاح عن إيمانه هٰذا أن يستفحل غضب أبيه، وقال برقّة وتودّد:

ـ على أيّ حال مدرسة المعلّمين مدرسة عليا!

تفكّر السيّد مليًّا، ثمّ قال متبرّمًا يائسًا:

ـ إذا لم تكن بك رغبة في الحقوق، وبعض الناس يعشقون التعاسة، فاختر مدرسة محترمة: الحربيّة، البوليس... وشيء خير من لا شيء!

فقال كمال منزعجًا:

ـ أدخل الحربيّة أو البوليس وقد نلت البكالوريا؟

ـ ما حيلتي إذا لم يكن لك في الطبّ نصيب؟!

عند ذاك شعر بضوء آتٍ من ناحية المرآة أقلق عينه اليسرى، فمدّ بصره صوب الصوان، فرأى أشعّة شمس العصر المائلة المتسرّبة إلى الحجرة من النافذة المطلّة على الفناء، وقد زحفت من الجدار المواجه للفراش حتّى غيّبت جانب المرآة، مؤذنة باقتراب موعد انصرافه إلى الدكّان، فتزحزح قليلًا مبتعدًا عن الضوء المنعكس، ثمّ نفخ نفخة وشت بضيقه وأنذرت ـ أو بشّرت ـ في الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث، وتساءل واجمًا:

ـ ألا توجد مدرسة أخرى غير هٰذه المدارس المغضوب عليها؟

فقال كمال وهو يغضّ بصره حرجًا لعجزه عن إرضاء أبيه:

ـ لم يبقَ إلّا مدرسة التجارة ولا أرب لي فيها!

ومع أنّ مبادرته إلى الرفض أحنقته، إلّا أنّه لم يجد من نفسه نحو المدرسة الجديدة إلّا الفتور، لظنّه أنّها إنّما تخرّج «تجّارًا»، ولم يكن يرضى لابنه أن يكون تاجرًا. لم يغب عن علمه أوّل الأمر أنّ متجرًا كمتجره ـ وإن هيّأ له حياة صالحة ـ فإنّه أعزّ من أن يهيّئ هٰذه الحياة لمن يخلفه فيها من أبنائه إذا روعي ما سيفرّق من دخله على بقيّة المستحقّين، فلن يعمل على إعداد أحد منهم ليحلّ محلّه، على أنّ ذٰلك لم يكن السبب الجوهريّ لفتوره، كان في الحقّ يكبر الوظيفة والموظّفين ويدرك خطرهم ومنزلتهم في الحياة العامّة كما لمس ذٰلك بنفسه، سواء في أصدقائه من الموظّفين أو في بعض اتّصالاته الحكوميّة المتعلّقة بعمله، فأراد أبناءه على أن يكونوا موظّفين وأعدّهم لذاك، كذٰلك لم يكن يخفى عليه أنّ التجارة لا تحظى بربع ما تحظى به الوظيفة من التقدير في نظر الناس وإن أخلفت أضعافها من المال. وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذٰلك بلسانه، بل كان يعتزّ بإكبار الموظّفين له فيعدّ نفسه من الناحية «العقليّة» موظّفًا أو ندًّا للموظّفين، ولٰكن مَن غيره يسعه أن يكون تاجرًا وندًّا للموظّفين معًا؟ ومن أين لأبنائه بشخصيّة مثل شخصيّته؟! آه يا لها من خيبة أمل! كم تمنّى قديمًا أن يرى ابنًا من أبنائه طبيبًا، وكم ناط بفهمي أمنيته حتّى قيل له إنّ البكالوريا الأداب لا تؤدّي إلى مدرسة الطبّ فرضي بالحقوق واستبشر بما بعدها خيرًا، ثمّ علّق أمله بكمال فاختار قسم الأداب فعاد الرجل يحلم بما بعد الحقوق، ولٰكنّه لم يتصوّر قطّ أن تنجلي المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة «نابغة» الأسرة، وبإصرار كمال على أن يكون معلّمًا! أيّ خيبة أمل! وبدا السيّد حزينًا حقًّا، وهو يقول:

ـ لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حرّ فيما تختار لنفسك، ولٰكن ينبغي أن تذكر دائمًا أنّني لم أوافقك على رأيك، فكّر في الأمر طويلًا، لا تتعجّل، فما يزال أمامك فسحة من الوقت وإلّا ندمت على سوء اختيارك مدى الحياة، أعوذ بالله من الحمق والجهل والسخف!!

وطرح الرجل رجله على الأرض آتيًا حركة دلّت على شروعه في القيام ليأخذ أهبته لمغادرة البيت، فنهض كمال في أدب وحياء، وانصرف.

عاد إلى الصالة فوجد أمّه وياسين جالسين يتحادثان، وكان مُوزَّع النفس كاسِف البال لمعارضته لأبيه ولإصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين، ثمّ لما بدا عليه أخيرًا من ضيق وحزن، فقصّ على ياسين خلاصة ما دار في الحجرة من نقاش، وأنصت إليه الشابّ وعلى جبهته علامة احتجاج وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، وسرعان ما صارحه بأنّه من رأي السيّد وأنّه يعجب لجهله للقيم

الجليلة في هٰذه الحياة، وتطلّعه لأخرى وهميّة أو سخيفة. تريد أن تجود بحياتك للعلم؟ ما معنى هٰذا؟! إنّه سلوك رائع كما يبدو في فصل من فصول المنفلوطي أو في نظرة من نظراته، أمّا في الحياة فما هو إلّا عبث لا يقدّم ولا يؤخّر، وأنت تعيش في الحياة لا في كتب المنفلوطي... أليس كذٰلك؟ الكتب تقرّر أمورًا غريبة وخارقة، مثال ذٰلك، أنّك تقرأ فيها أحيانًا «كاد المعلّم أن يكون رسولا»، ولٰكن هل صادفت مرّة معلّمًا يكاد أن يكون رسولًا؟ تعال معي إلى مدرسة النحّاسين أو تذكّر من تشاء من معلّميك، ودلّني على واحد منهم يستحقّ أن يكون آدميًّا لا رسولًا! وما هٰذا العلم الذي تريد؟ أخلاق وتاريخ وشعر؟ كلّ أولٰئك جميل للتسلية، حاذر من أن تفلت من يديك فرصة الحياة الرفيعة، كم أتحسّر أحيانًا على معاكسة الظروف التي حالت بيني وبين مواصلة الدراسة!

تساءل عندما خلا إلى أمّه على أثر ذهاب الأب وياسين، ترى ما رأيها؟... لم تكن ممّن يؤخذ رأيهم في مثل هٰذا الأمر، بيد أنّها تابعت أكثر حديثه مع ياسين، إلى أنّها كانت على علم برغبة السيّد في إلحاقه بمدرسة الحقوق، الأمر الذي باتت تتطيّر منه فلم ترتح إليه، على أنّ كمال كان يعرف كيف يظفر بموافقتها من أقصر سبيل، قال لها:

ـ إنّ العلم الذي أرغب في دراسته وثيق الصلة بالدين، ومن فروعه: الحكمة والأخلاق، وتأمّل صفات الله وكنه آياته ومخلوقاته! فتطلّق وجه أمينة، وقالت بحماس:

ـ هٰذا هو العلم حقًّا، علم أبي، علم جدّك، إنّه أجلّ العلوم!

وفكّرت قليلًا وهو ينظر إليها من طرف خفيّ باسمًا، ثمّ عادت تقول بنفس الحماس:

ـ منذا الذي يحتقر المعلّم يا بنيّ؟ ألم يقولوا في الأمثال «من علّمني حرفًا صرت له عبدًا»؟

فقال مردّدًا حجّة أبيه الذي هاجم بها اختياره، وكأنّما يستوعبها رأيًا يؤكّد به موقفه:

ـ ولٰكنّهم يقولون إنّ المعلّم لا حظّ له في المناصب الرفيعة!

فلوّحت بيدها باستهانة قائلة:

ـ المعلّم موفور الرزق. أليس كذٰلك؟ حسبك هٰذا، إنّي أسأل الله لك الصحّة وطول العمر وصالح العلم، كان جدّك يقول: «إنّ العلم أعزّ من المال»!

أليس عجيبًا أن يكون رأي أمّه خيرًا من رأي أبيه؟ ولٰكنّه ليس برأي، إنّه شعور سليم، لم تفسده ممارسة الحياة الواقعيّة التي أفسدت رأي أبيه. ولعلّ جهلها بشئون العالم هو الذي صان شعورها عن الفساد، ترى ما قيمة شعور ـ وإن سما ـ إذا كان مصدره الجهل؟ وألا يكون لهٰذا الجهل نفسه أثره في تكوين آرائه؟... ثار على هٰذا المنطق، وقال يحاوره: إنّه عرف الدنيا خيرها وشرّها في الكتب وآثر الخير عن إيمان وتفكير، وقد يلتقي الشعور الفطريّ الساذج بالرأي الحكيم دون أن تهوي سذاجة الفطرة من أصالة الحكمة. أجل! إنّه لا يشكّ لحظة في صدق رأيه وجلاله، ولٰكن هل يدري ماذا يريد؟ ليست مهنة المعلّم بالتي تجذبه، إنّه يحلم أن يؤلّف كتابًا، هٰذه هي الحقيقة، أيّ كتاب؟ لن يكون شعرًا، إذا كانت كرّاسة أسراره تحوي شعرًا، فمرجع ذٰلك إلى أنّ عايدة تحيل النثر شعرًا لا إلى شاعريّة أصيلة فيه، فالكتاب سيكون نثرًا، وسيكون مجلّدًا ضخمًا في حجم القرآن الكريم وشكله، وستحدق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذٰلك، ولٰكن عمّ يكتب؟ ألم يحوِ القرآن كلّ شيء؟ لا ينبغي أن ييأس، ليجدنّ موضوعه يومًا ما، حسبه الآن أنّه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه، أليس كتاب يهزّ الأرض خيرًا من وظيفة وإن هزّت الأرض؟! كلّ المتعلّمين يعرفون سقراط، ولٰكن مَن منهم يعرف القضاة الذين حاكموه؟!

ـ ٥ ـ

ـ مساء النور!...

لا تجيب! هٰذا ما قدّرته وما أنا به عليم. هي البداية دائمًا... منذ قديم وإلى الأبد، ها هي توليك

ظهرها، ابتعدت عن الحائط نحو حبل الغسيل، تحبك المشابك، ألم تحبكيها من قبل؟... بلى ولٰكنّك تدارين موقفك، إنّي أفهم كلّ الفهم، عشرة أعوام في المجون ليست بالخبرة القليلة، متّع عينيك بمنظرها قبل أن يستقرّ الظلام الزاحف فلا تبدو إلّا شبحًا، سمنتْ واكتنزتْ، زادت حسنًا عمّا كانت أيّام صباها. كالغزال كانت ولٰكنّها لم تكن تملك هٰذه الأرداف العبلة، رويدًا... لم يزل لها من رشاقة البكارة نصيب محترم، ما عمرك يا شاطرة؟ زعم أهلك قديمًا أنّك في سنّ خديجة. رأي خديجة أنّك تكبرينها بسنوات وسنوات. امرأة أبي تؤكّد هٰذه الأيّام أنّك في الثلاثين مستشهدة بذكريات قديمة من نوع: أيّام كنت حبلى في خديجة كانت صبيّة في الخامسة ألخ، ما قيمة العمر؟ هل أنت ستعاشرها حتّى الكبر؟! في الأيّام القصيرة تستوي الشابّة والنصف، جميلة وجذّابة ومشبعة دسمة، آه، نظرت صوب الطريق ولحظتك، أرأيت مقلتها وهي تلحظك كالدجاجة؟ لن أبرح موقفي يا مليحة، فتى تعرفين الشيء الكثير عن جماله وقوّته وماله، أليس هو خيرًا من ذٰلك الإنجليزيّ القديم...؟

ـ هل التحيّة عندكم لا تستحقّ ردًّا ولو بمثلها؟

ولْتك قذاها مرّة أخرى، مهلًا... ألم تبتسم؟ بلى ومن سوّى جمالها فجعله فتنة، لقد ابتسمت، مهّدت لهٰذه الخطوة الأخيرة فأحسنت التمهيد، لا شكّ أنّها تعلم بكلّ حركاتي ومناوراتي السابقة، آنَ لي... وآنْ لك... من حسن حظّي أنّك لست من المصابات بداء الحشمة، ذاك الإنجليزيّ... جوليون، الجواد الكريم القائم أمامك موطأ المتن، ألا تسمعين حمحمته؟

ـ أليس للجار عندكم إكرام؟... إنّي أشحذك تحيّة هي من صميم حقوقي!

جاءه صوت رقيق خافت ـ بدا لتحوُّل الوجه عنه كأنّه آتٍ من بعيد ـ وهو يقول:

ـ ليست من حقّك... على هٰذا النحوا

أجيب الطارق. رُفعت سقّاطة الباب. لن تظفر بالمناغاة حتّى تلعق الزجر. اثبت، الثبات... الثبات... كما يهتف به المجاورون.

ـ إذا كان صدر منّي ما أغضبك فلن أغتفره لنفسي ما حييت؟

هي في عتاب:

ـ إنّ سطح بيت أمّ عليّ، الداية، في مستوى سطحنا وسطحكم، ما عسى أن يظنّ الناظر إذا رأى موقفك منّي وأنا أنشر الغسيل؟...

ثمّ في تساؤل هازئ:

ـ أم تريد أن تجعل منّي أحدوثة؟!

بُعْد الشرّ عنك؟ هل راعيتِ هٰذا الحذر في موقفك مع جوليون في الزمن القديم؟ لٰكن مهلًا، إنّ جمال عينيك وعجيزتك يغفر ما تقدّم وما تأخّر من ذنبك!

ـ لا أبقاني الله في الحياة لحظة واحدة إن كنت قصدتك بسوء، لقد تواريت تحت سقيفة الياسمين حتّى غابت الشمس، ولم أقترب من السور حتّى ثبت عندي خلوّ سطح أمّ عليّ الداية...

ثمّ وهو يتنهّد بصوت مسموع:

ـ وعذري بعد ذٰلك أنّي واليت صعود السطح أبدًا كي أظفر بهٰذه الخلوة... فلمّا وجدتها الساعة استخفّني السرور، وعلى أيّ حال ربّنا يستر...

ـ عجيبة!... لِمَ هٰذا التعب كلّه؟

سؤال لا يبعث عليه الجهل، يسألْنَ عمّا يعرفْنَ، ارتضت أن تحاورك فاهنأ بحوارها...

ـ قلت لنفسي: أن تحيّيها وتردّ تحيّتك ألذّ من الصحّة والعافية!

التفتت إليه برأس دلّت حركته في شبه الظلام على تكتّم الضحك، وقالت:

ـ لسانك أطول من جسمك، ترى ماذا وراء كلامك؟

ـ وراءه؟!. هلّا اقتربت من السور؟ عندي حديث طويل، منذ أيّام وأنا أغادر البيت إلى الطريق، لاحت منّي التفاتة إلى الأرض فرأيت ظلّ يد تتحرّك، فنظرت إلى فوق فرأيتك مطلّة من السور، رأيت منظرًا جميلًا لا يمكن أن يُنسى...

دارت على عقبيها ولٰكنّها لم تقترب خطوة، ثمّ قالت

في لهجة تنمّ عن الاتّهام:

ـ كيف تنظر إلى فوق!؟... ولو كنت جارًا حقًّا كما تقول ما سمحت لنفسك بأن تجرح جارتك، ولٰكنك سيّئ النيّة فيما بدا منك باعترافك فيما يبدو منك الساعة!

حقّ أنّه سيّئ النيّة، أليس الفسق من سوء النيّة؟ سوء نيّة من النوع الذي تحبّينه، آه من النسوان، بعد ساعة ستطالبين به كحقّ من حقوقك، بعد ساعتين سأهرب وتجدّين في أثري، على أيّ حال ليلتنا فلّ...

ـ ربّنا يعلم بحسن نيّتي، نظرت إلى فوق لأنّي لا أستطيع أن أمنع النظر عن مكان تكونين فيه، ألم تدركي هٰذا؟ ألم تشعري به؟ جارك القديم يتكلّم وإن تأخّر به الزمن.

هازئة:

ـ تكلّم. أطلق الحرّيّة للسانك الطويل، ارفع صوتك، ماذا تفعل لو اقتحمت عليك السطح امرأة أبيك فرأتك ورأتني؟

لا تزوغي يا بنت اللبؤة، سيكون من المعجزات أن أطوي عقلك، أتخافين امرأة أبي حقًّا؟ آه... إنّ ليلة في حضنها تساوي العمر كلّه!

ـ سأسمع وقع الأقدام قبل مجيئها، خلّينا فيما نحن فيه...

ـ ما هٰذا الذي نحن فيه؟

ـ إنّه يجلّ عن الوصف!

ـ لا أجد شيئًا ممّا تقول، لعلّ هٰذا ما أنت وحدك فيه!

ـ لعلّه، إنّه لأمر مؤسف حقًّا، أمر مؤسف أن يتكلّم قلب فلا يجد من يستجيب له، إنّي أذكر أيّام زياراتك لبيتنا. تلك الأيّام التي كنّا فيها وكأنّنا أسرة واحدة، وأتحسّر...

غمغمت وهي تهزّ رأسها:

ـ تلك الأيّام!

لِمَ عدت إلى الماضي؟ أخطأت خطأ كبيرًا، احذر أن يفسد عليك الألم جهدك كلّه، ركّز إرادتك كي تنسى كلّ شيء إلّا الحاضر...

ـ ثمّ رأيتك أخيرًا فرأيت شابّة جميلة كالزهرة، تتطلّع في ظلام الليل فتنوّره، فكأنّما أراك لأوّل مرّة، ساءلت نفسي أتكون هٰذه جارتنا مريم التي كانت تلعب مع خديجة وعائشة؟ كلّا... هٰذه فتاة اكتمل لها الحسن ونضج، وشعرت بأنّ الدنيا تتغيّر من حولي...

قالت، وقد عاود صوتها عبثه:

ـ في تلك الأيّام لم تكن عيناك تستبيحان التطلّع إلى أحد! كنت جارًا بمعنى الكلمة، ولٰكن ماذا بقي من تلك الأيّام؟ تغيّر كلّ شيء، عدنا كالأغراب، وكأنّنا لم نتبادل كلمة، ولم ننشأ معًا نشأة الأسرة الواحدة. هٰذا ما أراده أهلك.

ـ دعينا من هٰذا، لا تحمّليني همًّا إلى همّ.

ـ اليوم تتطلّع بعينيك... في النافذة، وفي الطريق، وها أنت تقطع عليّ السطح!

ماذا يمنعكِ من الذهاب إن كنت حقًّا تريدينه؟ كذبك ألذّ من الشهد يا نور الظلام...

ـ هٰذا قليل من كثير، إنّي أتطلّع إليك أيضًا من حيث لا تدرين، وأراك في الخيال أكثر ممّا تتصوّرين، أقول لنفسي الآن وأنا على بيّنة ممّا أقول: إمّا القرب وإمّا الموت!

هسيس ضحكة مكتومة اهتزّ لها قلبه، ثمّ تساءلت:

ـ من أين لك هٰذا الكلام؟

أشار إلى صدره، وهو يقول:

ـ من قلبي!

مسحت بقدمها على أرض السطح محدثة بالشبشب حفيفًا ينذر بالتحرّك ولٰكنّها لم تزايل موضعها، وقالت:

ـ ما دام الأمر قد بلغ القلب، فينبغي أن أذهب!

بحماس علا به صوته أوّلًا حتّى انتبه إلى نفسه فخفضه:

ـ بل يجب أن تأتي، أن تأتي إليّ، الآن وإلى الأبد. (ثمّ بمكر) إلى قلبي... هو لك وما يملك!

وبلهجة وعظيّة عابثة:

ـ لا تفرّط في نفسك على هٰذا النحو، حرام عليّ أن أحرمك قلبك وما يملك...

إلى أيّ مدى ذهب بك الفهم؟ إنّي أخاطب فيك اللبؤة التي أحبّها، لست بلهاء وحقّ ذكرى جوليون، تعالي يا بنت القديمة، أخاف أن أضيء في الظلام من شدّة النار التي تستعر في جسدي...

ـ هو وما يملك لك عن طيب خاطر، سعادته في أن تقبليه وتملكيه، وأن تكوني له وحده!

قالت ضاحكة:

ـ أرأيت يا ماكر؟... تريد أن تأخذ لا أن تعطي...

من أين لك بهٰذا اللسان؟ ولا زنّوبة في زمانها، ملعونة الدنيا من غيرك!...

ـ أريد أن تكوني لي كما أكون لك... أين الظلم في هٰذا؟

صمت، ونظر متبادل بين الشبحين، حتّى قالت:

ـ لعلّهم يتساءلون الآن عمّا أخّرك!

فقال مستعطفًا بمكر:

ـ ليس ثمّة في الدنيا من يهتمّ بأمري!

عند ذاك غيّرت لهجتها متسائلة بجدّ:

ـ كيف ابنك؟... لا يزال عند جدّه؟

ماذا وراء هٰذا السؤال الغريب؟

ـ بلى...

ـ ما عمره الآن؟

ـ خمس سنوات...

ـ وما أخبار والدته؟

ـ إنّها تزوّجت أو ستتزوّج في القريب العاجل...

ـ خسارة!... لِمَ لم تردّها ولو إكرامًا لرضوان؟

يا بنت اللبؤة!... أفصحي عمّا ترومين...

ـ أهٰذه رغبتك حقًّا؟

وهي تضحك ضحكة خافتة:

ـ يا بخت من وفّق رأسين في الحلال!

وفي الحرام؟!

ـ لٰكنّني لا أنظر إلى الوراء...

ساد صمت بدا غريبًا مليئًا بالفكر... حتّى قالت بصوت جمع بين التحذير واللين:

ـ إيّاك وأن تقطع عليّ السطح مرّة أخرى.

فقال بجرأة:

ـ أمرك مطاع، ليس السطح بالمكان المأمون، ألم تعلمي بأنّ لي بيتًا في قصر الشوق؟!

هتفت مستنكرة:

ـ بيتك!. أهلًا يا سي بيته!

فسكت قليلًا، كأنّما يحاذر، ثمّ تساءل:

ـ خمّني فيم أفكّر؟

ـ لا شأن لي بهٰذا...

صمت، ظلام، خلوة، ما أفظع تأثير الظلام في أعصابي...

ـ إنّي أفكّر في سورَي سطحينا المتلاصقين، بم يوحي منظرهما إليك؟

ـ لا شيء...

ـ منظر حبيبين متلاصقين...

ـ لا أحبّ سماع هٰذا الكلام...

ـ تلاصقهما يذكّر أيضًا بأنّه ليس ثمّة ما يفصل بينهما.

ـ هيه!

ندّت عنها كاستدراج مليء بالوعيد، فقال ضاحكًا:

ـ كأنّهما يقولان لي: اعبر!

تراجعت خطوتين حتّى التصق ظهرها بملاءة منشورة، ثمّ همست في تحذير جدّيّ:

ـ لا أسمح بهٰذا!

ـ هٰذا... ما هٰذا؟

ـ هٰذا الكلام.

ـ والفعل؟

ـ سأتركك غاضبة!

كلّا وحياتك الغالية... أتعنين ما تقولين؟ أأنا أغبى ممّا أظنّ؟ أم أنت أمكر ممّا أتصوّر؟ لِمَ تكلّمتْ عن رضوان وأمّه؟ هل تلوّح بالزواج؟ ما أشدّ رغبتك إليها؟ رغبة جنونيّة...

قالت مريم بغتة:

ـ آه... ما الذي يدعوني إلى البقاء؟

ودارت حول نفسها، ثمّ تطامن رأسها لتمرّ من تحت الغسيل، فأرسل صوته وراءها قائلًا في جزع:

ـ تذهبين دون تحيّة!
اشرأبّ رأسها فوق حبل الغسيل، ثمّ قالت:
ـ البيوت من أبوابها، هٰذه تحيّتي. . .
واتّجهت مسرعة نحو باب السطح فمرقت منه.

عاد ياسين إلى الصالة فاعتذر لأمينة عن طول غيبته بحرارة الجوّ في الداخل، ثمّ ذهب إلى حجرته ليرتدي بذلته. كان كمال يُتبعه عينيه في دهشة وتفكير. ونظر إلى أمّه فألفاها هادئة مطمئنّة وكانت فرغت من احتساء قهوتها وقراءة الفنجان، فتساءل ترى ماذا يحدث لها لو علمت بما دار فوق السطح؟. . . هو نفسه لم يزايله القلق منذ اطّلع مصادفة على منظر المتناجيين حين مضى وراء أخيه مستطلعًا غيبته، فعل ياسين ذٰلك، هل هانت عليه ذكرى فهمي؟ لا يستطيع أن يتصوّر هٰذا، كان ياسين يحبّ فهمي حبًّا صادقًا، وقد حزن عليه حزنًا شديدًا، لا يجوز أن يرتاب في إخلاصه، إلى أنّ هٰذه «الحوادث» كثيرًا ما تقع، ثمّ إنّه لم يدرِ لِمَ يربطون دائمًا بين فهمي ومريم؟! لقد علم المرحوم بواقعة جوليون في حينها، ثمّ مرّ زمن طويل بدا عليه أنّه نسيها نسيًا تامًّا وشُغل عنها بما هو أجلّ وأخطر، وما كانت تستحقّ غير ذٰلك وما كانت يومًا كفئًا له. إنّه ممّا يدعو إلى النظر حقًّا أن يتساءل: هل يمكن أن ينسى الحبّ؟ الحبّ لا يُنسى، هٰذا ما يؤمن به، ولكن من أدراه أنّ فهمي أحبّ مريم بالمعنى الذي يفهمه ـ أو يشعر به ـ هو من الحبّ؟ لعلّها كانت رغبة قويّة، كهٰذه الرغبة التي تستحوذ الساعة على ياسين، بل كتلك الرغبة القديمة إلى مريم نفسها التي ناوشته هو على عهد البلوغ وعابثت أحلامه، أجل وقع هٰذا أيضًا، وعانى منها الميْن: ألم الرغبة وألم الندم، وكانا في القوّة متعادلين فلم ينقذه من شرّهما إلّا زواج مريم واختفاؤها. يهمّه أن يعلم الآن هل تألّم ياسين وهل وخزه الندم؟ وإلى أيّ مدى؟ لا يتصوّر أن يكون الأمر جرى سهلًا مهما يكن ظنّه بحيوانيّة ياسين وفتور حماسه للمُثل العليا، وعلى رغم نظرته المتسامحة للأمر كلّه شعر بامتعاض وقلق كما ينبغي لإنسان لا يعدل بمثاليّته شيئًا في الوجود.

رجع ياسين من الحجرة وقد ارتدى ملابسه وأخذ زينته، فحيّاهما وانصرف، وبعد قليل سمعا نقر استئذان على باب الصالة فدعا كمال القادم ـ وهو على يقين من هويّته ـ فدخل شابّ يماثله في السنّ، قصير القامة، وسيم الطلعة، مرتديًا جلبابًا وجاكتة، فقصد أمينة وقبّل يدها، ثمّ صافح كمال وجلس إلى جانبه. . . كان في سلوكه ـ رغم ما أخذ به نفسه من التأدّب ـ ألفة كأنّما كان واحدًا من أهل البيت، وأكثر من هٰذا فقد أقبلت أمينة تحادثه وهي تدعوه بكلّ بساطة «يا فؤاد»، وتسأله عن صحّة أبيه جميل الحمزاوي ووالدته، فيجيبها مستشعرًا السرور، والامتنان في حسن استقبالها، وترك كمال صديقه مع والدته، ومضى إلى حجرته ليرتدي جاكتته، ثمّ يعود إليه فينطلقا معًا.

ـ ٦ ـ

سارا جنبًا إلى جنب صوب درب قرمز، متجنّبين طريق النحّاسين، ليتفاديا من المرور بالدكّان حيث يوجد والداهما. . . كمال بقامته الطويلة النحيلة، وفؤاد بقامته القصيرة، تكاد صورتاهما تلفتان الأنظار بتناقضهما. تساءل فؤاد بصوت هادئ:
ـ أين تذهب هٰذا المساء؟
فأجابه كمال بصوته الانفعاليّ:
ـ قهوة أحمد عبده. . .

كان كمال ـ عادة ـ يقرّر، وفؤاد يوافق رغم ما عُرف عن الأخير من رجاحة العقل، ورغم نزوات كمال التي كانت تبدو مضحكة في عين رفيقه، مثل دعواته المتكرّرة له للذهاب إلى جبل المقطّم والقلعة والخيميّة لتسريح النظر ـ على حدّ تعبيره ـ في مخلّفات التاريخ وعجائب الحاضر، ولكنّ الحقّ أنّ العلاقة بين الصديقين لم تخلُ من تأثّر بفارق طبقتيهما، وكون الأوّل ابن صاحب الدكّان والآخر ابن وكيله، وعمّق هٰذا التأثّر أنّ فؤاد اعتاد في صباه أن يؤدّي ما يكلّف به من شراء بعض حوائج لبيت السيّد أحمد، وأن يكون صنيعة لكرم أمينة التي لم تكن تضنّ عليه بأحسن ما

عندها من مـأكل ـ وكثيرًا ما يصادف مجيئه أوقـات الغذاء ـ وأصلح ما يمكن استغنـاء عنه من مـلابس كمال، فربط بينهما منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية وبالتبعيّة من ناحية أخرى. . . وهو وإن مضى يزول بحلول شعور الصداقـة محلّه، إلّا أنّ أثره النفسيّ لم يُقتلع من الأعماق، وقد قضت ظروف بألّا يجد كمال من رفيق تقـريبًا طـوال العـطلة الصيفيّـة إلّا فؤاد الحمـزاوي، ذٰلك أنّ رفـاق صباه من أهـل الحيّ لم يـواصلوا التعليم إلى النهـايـة: منهم من تـوظّف بالابتدائيّة أو الكفاءة، ومنهم من اضـطرّ إلى مزاولـة عمـل من الأعـمال البسيـطة مثـل صبيّ قهـوة بـين القصرين وصبيّ الكـوّاء البلديّ بخان جعفـر. كان كلاهما من أقرانه في الكتّاب، وما زال ثلاثتهم يتبادلون تحيّة الزمالة القديمة كلّما اتّفق لهم اللقاء، تحيّة مشربة بالاحترام من ناحيتهما لما يضفيه طلب العلم عليه من امتياز، مشبعة من ناحيته بـالمودّة الصـادرة عن نفس مطبوعة على التواضع والبساطة، أمّا أصدقـاؤه الجدد الذين اكتسب صداقتهم في العبّاسيّة: حسن سليم، وإسماعيل لـطيف، وحسين شـدّاد فكانـوا يقضـون العطلة في الإسكندريّة ورأس البرّ، فلم يبقَ لـه من رفيق إلّا فؤاد.

بلغا مدخل قهوة أحمد عبده بعـد مسيرة دقـائق، فهبطا إلى مستقرّها الغريب في جوف الأرض تحت حيّ خان الخليلي، واتّجهـا إلى مقصورة خـالية، وفيـا هما يجلسان متقابلين حول المائـدة تمتم فؤاد في شيء من الحياء:

ـ ظننتك ستذهب هٰذا المساء إلى السينما!

وشى قوله برغبته في الذهاب إلى السينـما، ولعلّها راودته قبل أن يذهب إلى مقابلة كمال في بيته ولٰكنّه لم يفصح عنها، لا لأنّه لا يستطيع أن يثني كمال عن رأي فحسب، وإنّما لأنّ كمال هو الذي يقوم بنفقات السينما إذا ذهبا إليها معًا، فلم تواتِه شجاعته على التلميح إلى رغبته حتّى استقرّ بهما المجلس بالقهوة حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريئة العابرة.

ـ سنذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصريّ لمشـاهـدة شـارلي شـابلن، فـلنلعـب الآن عشرة دومينو. . .

خلعا طربوشيهما ووضعاهما على مقعد ثـالث، ثمّ نادى كمال النادل، طلب شايًـا أخضر ودومينو. بـدا المقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة، طُمر تحت ركام التاريخ إلّا رأسه الكبير، فقد تشبّث بسطح الأرض فاغرًا فاه عن أنياب بارزة عـلى هيئة مدخل ذي سلّم طويل، وثمّة في الداخل صحن واسع مربّع الشكل مبلّط بالبلاط المعصرانيّ تتوسّـطه فسقيّة رُصّت على حافتها أصص القرنفل، وأحدقت بها من الجهـات الأربع أرائـك فُـرشت بـالحصـير المـزركش والوسائد، أمّا جدرانه فقد انتظمتهـا مقاصـير صغيرة الحجم متجاورة، كأنّ الواحد منها كهف منحوت في الحائط، لا نافذة بها ولا باب لها، واقتصر أثاثها على مائدة خشبيّة وأربعة مقاعد ومصباح صغير يشتعل ليل نهار في كوّة بأعـلى الجدار المـواجه للمـدخل. وكـأنّ القهوة اكتسبت من موقعهـا الغريب بعض صفـاتـه، فهي تهوّم في هدوء غير مألوف لسائر المقاهي، وضوء غير باهر، وجوّ رطيب، وقد انطوت كلّ جماعـة على نفسها في مقصورتها أو فوق أريكتها، تدخّن النارجيلة وتحسـو الشاي وتهيم في دردشـة لا نهاية لهـا، تكـاد تشملهـا نغمة صبـا وانية متّصلة إلّا أن تقـطعهـا في فترات متباعدة سعلة أو ضحكة أو قرقرة مدخّن منهم.

كانت قهوة أحمد عبده في نظر كمال مجتلى للمتأمّل وتحفه للحالم، أمّا فؤاد ـ وإن لم تغب عنه طرافتها أوّل عهده بها ـ فلم يعد يجد فيها إلّا مجلسًا كئيبًـا تغشاه الرطوبة والهواء الفاسد، ولٰكنّـه لم يكن يملك إلّا ان يلبّي كلّما دُعي إليها!

ـ أتذكر يوم أن رآنا أخوك سي ياسـين ونحن في مجلسنا هٰذا؟

قال كمال باسمًا:

ـ نعم، سي ياسين متسامح ولطيف ولم يشعرني أبدًا بأنّه أخي الأكبر، بيد أنّي رجوته يومذاك ألّا يشير إلى مجلسنا في البيت لا خوفًا من أبي، فإنّ أحدًا عندنا لا يجرؤ على مكاشفته بمثل هٰذا الأمر، ولٰكن إشفاقًا من

إزعاج والدتي، تصوّر أنّها ترتعب إذا علمت بتردّدنا على هٰذه القهوة أو غيرها، وتظنّ أنّ أغلبيّة روّاد المقاهي من الحشّاشين وسيّئي السمعة!

ـ ومي ياسين، ألم تعلم بأنّه من روّاد المقاهي؟

ـ إذا قلت لها هٰذا قالت لي: إنّ ياسين «كبير» ولا خوف عليه، أمّا أنا فصغير! الظاهر أنّي سأظلّ معدودًا في الصغار في بيتنا حتّى يدركني المشيب!

جاء النادل بالدومينو، وقدحين من الشاي على صينيّة فاقعة الاصفرار، فتركها جميعًا على المائدة وذهب، تناول كمال قدحه من فوره وراح يحتسيه من قبل أن تخفّ حرارته، ينفخ السائل ثمّ يتمزّزه، وينفخ مرّة أخرى ويمصمص شفتيه كلّما لسعته الحرارة، ولٰكنّ ذٰلك لا يردعه فيعاود المحاولة في عناد وجزع كأنّه محكوم عليه بالفراغ منه في دقيقة أو دقيقتين، على حين جعل فؤاد يراقبه صامتًا أو يمدّ بصره إلى لا شيء وهو مستند إلى ظهر مقعده في رزانة أكبر من سنّه، تلوح في عينيه الواسعتين الجميلتين نظرة عميقة هادئة، ولم يمدّ يده إلى قدحه حتّى كان كمال قد فرغ من مغالبة قدحه، وعند ذاك أقبل يتحسّى الشاي في تأنٍّ مستطعمًا مذاقه مستلذًّا نكهته، وهو يغمغم بعد كلّ حسوة «الله... ما أطيبه!»، والآخر يحثّه على الفراغ منه بصبر نافد كي يأخذا في اللعب، وهو يقول منذرًا:

ـ لأهزمنّك اليوم. لن يحالفك الحظّ أبد الدهر...

فيبتسم فؤاد مغمغمًا:

ـ سنرى...

وأخذا يلعبان...

كان كمال يولي المباراة اهتمامًا عصبيًّا، كأنّه يخوض معركة تتوقّف على نتائجها حياته أو كرامته، بينا مضى فؤاد في نَظْمِ قِطَعه بهدوء ومهارة فلم تفارق الابتسامة شفتيه، أقبل الحظّ أم أدبر، هشّ كمال أم عبس، وقد خرج كمال ـ كعادته ـ عن طوره، فهتف به: «لعب سخيف، وحظّ سعيد». فلم يزد الآخر عن أن ضحك ضحكة مهذّبة لا تثير حنقًا ولا توحي بتحدٍّ. طالما قال كمال لنفسه وهو يتميّز غيظًا «لن يبرح حظّه راكبًا حظّي»، ولم يكن يلقى اللعب بالتسامح الخليق باللهو والتسلية، بل الحقّ لم يكن ثمّة فارق ـ في اهتمامه وحماسه ـ بين جدّه ولهوه. على أنّ تفوّق فؤاد في المدرسة لم يكن دون تفوّقه في الدومينو، كان أوّل فرقته بينا كان هو في الخمسة الأوائل، فهل ثمّة دور للحظّ في ذٰلك أيضًا؟ كيف يعلّل تفوّق الشابّ الذي ينطوي له في الأعماق على شعور بالاستعلاء ظنّ أنّه ينبغي أن يمتدّ إلى المواهب العقليّة على السواء؟ لم يُعدم رأيًا يهوّن به من تفوّق صاحبه، فهو يقول إنّه يكرّس وقته كلّه للمذاكرة وإنّه لو كان عقله بالتفوّق الذي يزعمون لأغنى عنه بعض هٰذا الوقت، ويقول أيضًا: إنّه يتجنّب الألعاب الرياضيّة وقد برّز هو في أكثر من نوع منها، ويقول أخيرًا: إنّ فؤاد يقتصر في مطالعاته على الكتب المدرسيّة، وإذا تراءى له أن يقرأ كتابًا غير مدرسيّ في العطلة لاحظ في اختياره أن يكون مفيدًا لدراسته اللاحقة، أمّا هو فلا تحدّ مطالعته حدود ولا توجّهها منفعة، فما وجه الغرابة في ذٰلك في أن يسبقه الشابّ في الترتيب؟ غير أنّ سخطه هٰذا لم يعرّض صداقتهما للوهن، كان يحبّه ويجد في رفقته مؤانسة ومسرّة إلى أنّه لم يضنّ ـ على الأقلّ فيما بينه وبين نفسه ـ بالإقرار بفضائله ومزاياه.

تواصل اللعب وانتهت العشرة ـ على غير ما أنذر به مطلعها ـ بانتصار كمال! فتطلّق وجهه، وضحك ضحكة عالية، ثمّ سأل غريمه: «عشرة أخرى؟» لٰكنّ فؤاد قال باسمًا: «حسبنا اليوم ما كان» لعلّه كان ملَّ اللعب، أو لعلّه أشفق من أن تجيء نتيجة العشرة المقترحة مخيّبة لآمال كمال فينقلب سروره غمًّا، فهزّ كمال رأسه كالمتعجّب وقال:

ـ إنّك كالسمك من ذوي الدم البارد!

ثمّ بلهجة المنتقد، وهو يدلك أرنبة أنفه العظيم بإبهامه وسبّابته:

ـ إنّي أعجب لك، إذا غُلبت لم تأبه للأخذ بثأرك، وتحبّ سعد ولٰكنّك تنكص عن الاشتراك في مظاهرة أريدَ بها تحيّته يوم ولي الوزارة، وتتبارك بسيّدنا الحسين ولٰكن لم تهتزّ لك شعرة يوم ثبت لنا من تاريخه أنّ جثمانه غير ثاوٍ في ضريحه القريب! إنّي أعجب لك...

شدّ ما يخنقه البرود، إنّ ما يسمّونه «العقل» لا يطيقه، وكأنّه يحبّ الجنون ويهيم به، إنّه يذكر يوم قيل لهما في المدرسة: «إنّ ضريح الحسين رمز له ولا شيء غير ذٰلك». عادا يومذاك معًا وفؤاد يردّد ما قاله مدرّس التاريخ الإسلاميّ، وكان كمال يتساءل منزعجًا: كيف أوتي صاحبه تلك القوّة التي تحمّل بها الخبر كأنّه شأن لا يعنيه؟! أمّا هو فلم يستسلم لتفكير، لم يستطع أن يفكّر البتّة، وكيف لثائر أن يفكّر؟ سار كالمترنّح من هول الطعنة التي نفذت إلى صميم قلبه، كان يبكي خيالًا نضب وحلمًا تبدّد، لم يعد الحسين بجارهم، بل لم يكن بجارهم يومًا من الأيّام، أين ذهبت القبلات التي طُبعت على باب الضريح في صدق وحرارة؟ أين يذهب الاعتزاز بالقرب والإدلال بالجوار؟ لا شيء من هٰذا كلّه، لم يبقَ إلّا رمز في الجامع ووحشة وخيبة في القلب، وبكى ليلتذاك حتّى بلّل وسادته، تلك كانت الصدمة التي لم تحرّك في صديقه العاقل إلّا لسانه حين علّق عليها مردّدًا أقوال مدرّس التاريخ، ألا ما أبشع العقل!

ـ هل علم والدك برغبتك في دخول مدرسة المعلّمين؟

قال كمال بحدّة جاءت معبّرة عن ضيقه ببرود صاحبه وألمه المتخلّف عن مناقشة أبيه معًا:

ـ نعم!...

ـ وماذا قال لك؟

فقال يروّح عن صدره بمهاجمة محدّثه عن طريق غير مباشر:

ـ وأسفاه!... إنّ والدي كأكثر الناس ممّن يهيمون بالمظاهر الزائفة، الوظيفة... النيابة... القضاء... هٰذا كلّ ما يهمّه، لم أدرِ كيف أقنعه بجلال الفكر والقيم السامية الحقيقة بالنشدان في هٰذه الحياة! غير أنّه ترك لي حرّيّة التصرّف...

جعلت أصابع فؤاد تعبث بقطعة من الدومينو، وهو يقول في حذر وإشفاق:

ـ قيم جليلة بلا شكّ، ولٰكن أين البيئة التي ترفعها إلى المنزلة اللائقة بها؟

ـ لا يمكن أن أنبذ عقيدة سامية لا لشيء إلّا أنّ من حولي لا يؤمنون بها...

فعاد يقول في هدوء مسكّن:

ـ روح جديرة بالإعجاب!... ولٰكن ألا يحسن بك أن تقدّر مستقبلك في ضوء الواقع؟

فتساءل كمال بازدراء:

ـ ترى لو كان زعيمنا قد أخذ بهٰذه النصيحة، أكان يفكّر جدّيًّا في أن يذهب إلى دار الحماية للمطالبة بالاستقلال؟

ابتسم فؤاد ابتسامة كأنّها تقول «رغم ما في حجّتك من وجاهة فهي لا تصلح قاعدة عامّة في الحياة»، ثمّ قال:

ـ ادخل الحقوق حتّى تضمن عملًا محترمًا، ولك بعد ذٰلك أن تواصل ثقافتك كما تشاء!

ـ لم يجعل الله لامرئ من قلبين في جوفه، ثمّ دعني أحتجّ على ربطك العمل المحترم بالحقوق! كأنّ التدريس ليس عملًا محترمًا!!

فبادر فؤاد يقول بتوكيد يدفع به عن نفسه الشبهة:

ـ لم أقصد هٰذا مطلقًا، ومنذا الذي يقول إنّ حفظ العلم ونشره ليس عملًا محترمًا؟... لعلّي كنت أردّد رأي الناس وأنا لا أدري، والناس كما أشرت إليّ شيء من هٰذا تبهرهم أضواء القوّة والنفوذ!

فهزّ كمال منكبيه استهانة، وقال بإصرار:

ـ إنّ حياة تكرّس للفكر لهي أجلّ حياة...

هزّ فؤاد رأسه كالموافق دون أن ينبس، وظلّ لائذًا بالصمت حتّى سأله كمال:

ـ ما الذي دعاك إلى اختيار الحقوق؟

ففكّر قليلًا ثمّ أجابه:

ـ لم أكن مثلك واقعًا في غرام الفكر، فكان عليّ أن أختار دراسة عالية على ضوء المستقبل وحده، فاخترت الحقوق...

أليس هٰذا هو صوت العقل؟ بل إنّه هو، شدّ ما يثير حنقه، تمرّده، أليس من الظلم أن يمضي العطلة الطويلة وهو حبيس هٰذا الحيّ ولا رفيق له إلّا هٰذا «العاقل»؟ ثمّة حياة أخرى تعارض حياة الحيّ العتيق

معارضة الضدّ للضدّ، وثمّة رفاق آخرون يخالفون فؤاد مخالفة النقيض للنقيض، إلى تلك الحياة وإلى أولٰئك الرفاق تهفو نفسه، إلى العبّاسيّة، إلى الطراز الطريف من الشباب، وقبل كلّ شيء إلى الأناقة الرفيعة والنخمة الباريسيّة والحلم البديع... إلى معبودته، آه... إنّ نفسه تنازعه إلى البيت، إلى حجرته كي يخلو إلى نفسه فيدعو كرّاسته، يراجع تاريخًا أو يستعيد ذكرى أو يسجّل نفثة. ألم يئنْ له أن يقوّض هٰذا المجلس ويذهب؟

ـ قابلت أناسًا فسألوني عنك...!

تساءل كمال، وهو ينزع نفسه بمشقّة من تيّار الوجد:

ـ من؟

فؤاد ضاحكًا:

ـ قمر ونرجس!

قمر ونرجس ابنتا أبو سريع صاحب المقلى، قبو قرمز، الأزقّة المظلمة بعد الغروب، العبث المشوب بالسذاجة الدنسة أو الدنس الساذج، المراهقة المحمومة، ألا يذكر هٰذا كلّه؟ ما لشفتيه تتقلّصان تقزّزًا؟ ذٰلك التاريخ قديم نسبيًّا، قبل حلول الروح القدس، لا يذكره إلّا ويثور قلبه سخطًا وألـمًا وخجلًا كما ينبغي لقلب أترع بشراب الحبّ الطهور.

ـ كيف قابلتهما؟

ـ في زحمة مولد الحسين، فسرت إلى جانبها دون تردّد أو ارتباك، كأنّنا أسرة واحدة جاءت لتطوف بالمولد!

ـ يا لك من جريء!

ـ أحيانًا، سلّمت فسلّمتا، وتحادثنا مليًّا، ثمّ سألتني قمر عنك!

تورّد وجهه قليلًا، وهو يسأل:

ـ ثمّ؟

ـ اتّفقنا مبدئيًّا على أن أخبرك، ثمّ نتقابل جميعًا!

هزّ كمال رأسه في نفور، ثمّ قال باقتضاب:

ـ كلا...

فقال فؤاد في دهش:

ـ كلّا؟ ظننتك ترحّب بلقاء تحت القبو أو في فناء البيت المهجور. نضج جسماهما، وعمّا قليل تصيران امرأتين بكلّ معنى الكلمة، وعلى فكرة كانت قمر مرتدية الملاءة اللفّ ولٰكنّها كانت سافرة فقلت لها ضاحكًا: لو لبست البرقع ما تجرّأت على محادثتك!

قال كمال بإصرار:

ـ كلّا...

ـ لِمَ؟

ـ لَمْ أعد أطيق القذارة!

ثمّ بحدّة نمّت عن ألم دفين:

ـ لا أستطيع أن ألقى الله في صلاتي وثيابي الداخليّة ملوّثة!

فقال فؤاد بسذاجة:

ـ تطهّر واغتسل قبل الصلاة!

فقال كمال، وهو يهزّ رأسه للاستعارة الضائعة:

ـ إنّ الماء لا يطهّر من الدنس...

ذٰلك الصراع القديم، كان يمضي في لقاء قمر مضطربًا بالشهوة والقلق ويعود بضمير معذّب وقلب باكٍ، ثمّ عقب الصلاة يستغفر استغفارًا حارًّا طويلًا، لٰكنّه يمضي مرّة أخرى مغلوبًا على أمره ثمّ يعود بالعذاب ليستغفر من جديد... يا لها من أيّام نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب، ثمّ انبثق النور. هناك وسعه أن يحبّ وأن يصلّي معًا، كيف لا؟! والحبّ من منبع الدين يقطر صافيًا! قال فؤاد في شيء من الحسرة:

ـ انقطعت علاقتي بنرجس منذ مُنِعَت من اللعب في الحارة!

فسأله كمال باهتمام:

ـ ألم تكن ـ وأنت المؤمن ـ تتعذّب بتلك العلاقة؟

فقال فؤاد، وهو يغضّ البصر حياء:

ـ هنالك أمور ما منها بدّ...

ثمّ متسائلًا وكأنّه يداري حياءه:

ـ أترفض حقًّا انتهاز هٰذه الفرصة؟

ـ بكلّ تأكيد!!

ـ لوجه الدين وحده؟

ـ أليس هٰذا كافيًا؟

ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة، وقال:

ـ كم تحمّل نفسك ما لا يُحتمل...

فقال كمال بإصرار:

ـ إنّي لكذٰلك وما ينبغي لي أن أكون غير ذٰلك...

وتبادلا نظرة طويلة، أفصحت في عيني كمال عن الإصرار والتحدّي، فانعكست في عيني فؤاد مهادنة وابتسامة كاشعّة الشمس الجهنّميّة التي تنعكس على سطح الماء لألاء ضاحكًا، ثمّ واصل كمال حديثه:

ـ إنّي أرى الشهوة غريزة حقيرة، وأمقت فكرة الاستسلام لها، لعلّها لم تُخلق فينا إلّا كي تلهمنا الشعور بالمقاومة والتسامي حتّى تعلو عن جدارة إلى مرتبة الإنسانيّة الحقّة، إمّا أن أكون إنسانًا وإمّا أن أكون حيوانًا...

فتريّث فؤاد قليلًا، ثمّ قال بهدوء:

ـ أظنّ أنّها ليست شرًّا خالصًا، فهي الدافع إلى الزواج، فالذرّيّة!!

خفق قلب كمال خفقة عنيفة لم تجرِ لفؤاد في خاطر، أهٰذا هو الزواج في النهاية؟ لكنّه لم يكن يجهل هٰذه الحقيقة في جملتها وإن كان في حيرة لا يدري كيف يوفّق الناس بين الحبّ والزواج، إنّها مشكلة لم يرتطم بها في حبّه، لأنّ الزواج بدا دائمًا ـ ولأكثر من سبب ـ فوق مرتقى أمانيه ولٰكنّ ذٰلك لم يمنع من قيامه مشكلة تتطلّب الحلّ. ما كان يتصوّر أن يكون اتّصال سعيد بينه وبين معبودته إلّا عن طريق العطف الروحيّ من ناحيتها والتطلّع الهيمان من ناحيته، طريق بالعبادة أشبه، بل هو لعبادة نفسها، فأيّ شأن للزواج في هٰذا؟

ـ الذين يحبّون حقًّا لا يتزوّجون.

تساءل فؤاد بدهش:

ـ ماذا قلت؟...

فطن حتّى قبل تساؤل فؤاد إلى أنّ لسانه خان إرادته، فبدا عليه الارتباك لحظة حرجة، وراح يتذكّر آخر أقوال فؤاد قبل ندود هٰذه الجملة الغريبة عنه حتّى اهتدى بشيء من الجهد ـ على حداثة العهد بسماعها ـ إلى كلماته عن الزواج والذرّيّة، فصمّم على مداراة هفوته وعلى تصحيح معناها ما أمكن، فقال:

ـ الذين يحبّون ما فوق الحياة لا يتزوّجون، هٰذا ما عنيت.

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أو لعلّه كان يقاوم ضحكة، غير أنّ عينيه العميقتين لم تنمّا عمّا وراءهما، واكتفى بأن قال:

ـ هٰذه أمور خطيرة، والحديث عنها الآن سابق لأوانه، فلندعها مرهونة بأوقاتها...

فرفع كمال منكبيه استهانة وثقة، وقال:

ـ فلندعها ولننتظر...

فؤاد في وادٍ وهو في وادٍ، على ذٰلك فهما صديقان، لا يسعه أن ينكر أنّ الخلاف في نفسه يجذبه إليه على ما في ذٰلك من جهد تعانيه أعصابه المرّة بعد المرّة، ألم يئنْ له أن يعود إلى البيت؟ الوحدة ومناجاة النفس تتجاذبانه، الكرّاسة النائمة في درج مكتبه تهيّج جيشان صدره، لا بدّ للمكدود في مكابدة الواقع من انتجاع بعض الراحة في الانطواء...

آنَ أن نعود...

ـ ٧ ـ

كان الحنطور يتابع سيره على شاطئ النيل حتّى وقف أمام عوّامة في نهاية المثلّث الأوّل من طريق امبابة، وما لبث أن غادره السيّد أحمد عبد الجواد ثمّ تبعه على الأثر السيّد عليّ عبد الرحيم.

كان الليل قد جثم في مجثمه وغشيت الظلمة كلّ شيء إلّا أضواء متباعدة تطلّ من نوافذ العوّامات والذهبيّات التي ينتظمها الشاطئان من جسر الزمالك فهابطًا، وأنوار خافتة لاحت عند موقع القرية في نهاية الطريق كالسحابة الناضحة بوهج الشمس في سماء ملبّدة بالغيوم الدكن.

كان السيّد أحمد يجيء للعوّامة للمرّة الأولى على رغم اكتراء محمّد عفّت لها منذ أربع سنوات ـ ذٰلك أنّ صاحبها خصّصها لمجالس الغرام وقد حرّمها السيّد أحمد على نفسه منذ مصرع فهمي ـ فتقدّمه عليّ عبد

الرحيم ليدلّه على المعبر، حتّى إذا قارب السلّم، قال محذّرًا:

ـ السلّم ضيّق ودرجاته مرتفعة ولا درابزين له، ضع يدك على كتفي وانزل على مهل...

هبطا بحذر شديد، وخرير الماء المتلاطم على الشاطئ ومقدّم العوّامة يداعب آذانهما، وقد فغمت أنفيهما رائحة نباتيّة مازجها عرف الطمي الذي جاد به الفيضان في ذلك الوقت من أوّل سبتمبر، قال عليّ عبد الرحيم وهو يتحسّس زرّ الجرس على جدار المدخل:

ـ هذه ليلة تاريخيّة في حياتك وحياتنا، ينبغي أن نطلق عليها اسمًا مناسبًا احتفالًا بها، ليلة رجوع الشيخ؟... ما رأيك؟...

قال السيّد أحمد، وهو يشدّ قبضته على منكبه:

ـ لكنّني لست شيخًا، الشيخ الحقيقيّ كان أبوك!...

عليّ عبد الرحيم وهو يضحك:

ـ سترى الآن وجوهًا لم ترها منذ خمس سنوات...

قال السيّد كالمتردّد:

ـ لا يعني هذا أنّي أغيّر من سلوكي أو أحيد عن خطّتي (ثمّ بعد لحظة سكوت) قد... قد...

ـ تصوّر كلبًا يعد بألّا يقرب اللحم إذا تُرك في المطبخ!

ـ الكلب الحقيقيّ كان أبوك يا بن الكلب...

رنّ الجرس، فُتح الباب بعد نصف دقيقة عن وجه نوبيّ عجوز، تنحّى جانبًا وهو يرفع يديه إلى رأسه تحيّة للقادمين، فدخل الرجلان ومالا إلى باب على يسار الداخل فجازاه إلى دهليز قصير مضاء بمصباح كهربائيّ يتدلّى من السقف، وقد حُلّي جداراه المتقابلان بمرآتين قام تحت كلّ منهما مقعد جلديّ كبير وخوان، وكان في نهاية الدهليز المواجه لمدخله باب آخر موارب وشى بأصوات السمّار التي اهتزّ لها صدر أحمد عبد الجواد، فدفعه عليّ عبد الرحيم ودخل، فتبعه السيّد، ولكنّه ما كاد يعبر عتبته حتّى وجد نفسه حيال الحاضرين وهم وقوف، وقد أقبلوا نحوه مرحّبين مهلّلين يكاد يطفر البِشْر من وجوههم، وكان محمّد عفّت أسرعهم إليه فعانقه، وهو يقول:

ـ طلع البدر علينا...

ثمّ عانقه إبراهيم الفار، قائلًا:

ـ أتاني زماني بما أرتضي...

وتنحّى الرجال جانبًا، فرأى جليلة، وزبيدة، وامرأة ثالثة وقفت متأخّرة عنهما خطوتين ما لبث أن تذكّر فيها زنّوبة العوّادة. آه... الماضي كلّه قد جُمع في إطار واحد، وتطلّقت أساريره وإن بدا عليه شيء من الارتباك، ولكنّ جليلة ضحكت ضحكة طويلة، ثمّ فتحت ذراعيها وعانقته، وهي تقول بنبرات غنائيّة:

ـ كنت فين يا حلو غايب...

ولـمّا أطلقته رأى زبيدة على بعد ذراع كالمتردّدة وإن أضاء وجهها نور الترحيب والسرور، فمدّ نحوها ذراعه فشدّت عليها، وعند ذاك زوّت ما بين حاجبيها المزجوجين في عتاب، قائلة بلهجة لم تخلُ من تهكّم:

ـ من بعد تلتاشر سنة...

فما تمالك أن ضحك من أعماق صدره، وأخيرًا رأى زنّوبة بموقفها لم تبرحه، وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة حياء كأنّها لم تجد من ماضيها ما يعطيها حقًّا في رفع الكلفة بينهما، فمدّ لها يده مصافحًا، وهو يقول مشجّعًا ومجاملًا:

ـ أهلًا بأميرة العوّادات...

ورجعوا إلى مجالسهم، فشبك محمّد عفّت ذراعه بذراع أحمد ومضى به إلى مجلسه، فأجلسه إلى جانبه، وهو يتساءل ضاحكًا:

ـ وقعت أم الهوى رماك؟

فغمغم السيّد أحمد:

ـ رماني الهوى فوقعت...

أخذ المكان يستبين لعينيه اللتين غابتا عنه أوّل الأمر في حرارة اللقاء ومزاح المرحّبين، فوجد نفسه في حجرة متوسّطة الحجم، طُليت جدرانها وسقفها بلون زمرّديّ، تطلّ على النيل بنافذتين وعلى الطريق بنافذتين، وقد أغلق خصاص نوافذها وفتح زجاجها، يتدلّى من سقفها مصباح كهربائيّ ذو غطاء مخروطيّ من البلّور يركّز نوره على سطح خوان توسّط الحجرة

حاملًا الأقداح وقوارير الويسكي، وقد فُرشت الأرض ببساط متجانس اللون مع الجدران والسقف، وقامت في كلّ جانب من الحجرة كنبة كبيرة شُطرت بنمرقة وغُشّيت بغطاء مزركش، أمّا الزوايا فقد احتُلّت بشلّت ووسائد. جلست جليلة وزبيدة وزنّوبة على الكنبة المجاورة للنيل، واقتعد الرجال الثلاثة الكنبة المواجهة لها، بينا انتشرت على الشلت آلات الطرب كالعود والدفّ والدربكّة والصنج. أجال بصره في المكان مليًّا، ثمّ تنهّد بارتياح، وقال بتلذّذ:

ـ الله... الله، كلّ شيء جميل، لِمَ لا تفتحون النافذتين المطلّتين على النيل؟

فأجابه محمّد عفّت:

ـ يُفتحان عندما ينقطع مرور السفن الشراعيّة، وإذا بُليتم فاستتروا...

فبادره السيّد أحمد باسمًا:

ـ وإذا استترتم فابتلوا!

فهتفت جليلة كالمتحدّية:

ـ أرنا شطارة زمان!

لم يقصد بقوله إلّا المزاح، والحقّ أنّ إقدامه على هٰذه الخطوة الثوريّة ـ مجيئه إلى العوّامة ـ بعد طول الإحجام أورثه قلقًا وتردّدًا، لكنّ ثمّة شيء آخر، تغيير من نوع ما عليه أن يكتشفه بنفسه ولنفسه، فليسدّد بصره وليمعن النظر، ماذا يرى؟ هاك جليلة وزبيدة، كلتاهما كالمحمل ـ كما كان يقول قديمًا ـ أو لعلّهما ازدادتا شحمًا ولحمًا، ولٰكن ثمّة شيء يكتنفهما، لعلّه إلى متناول الشعور أقرب منه إلى متناول الحسّ، إلّا أنّه وجه من وجوه الكبر بلا مراء، لعلّ أصحابه لم يفطنوا إليه لأنّهم لم ينقطعوا عن المرأتين مثلما انقطع، ترى ألم يطرأ عليه هو أيضًا مثل الذي طرأ عليهما؟ انقبض قلبه وفتر حماسه، الصديق العائد بعد غيبة طويلة هو أفصح مرآة للإنسان، لكن كيف السبيل إلى هٰذا التغيير حتّى يقبض عليه؟ ليست هنالك شعرة بيضاء واحدة في رأسيهما... ولٰكن ما للشيب ورءوس الغواني؟ وليس ثمّة تجعّدات كذٰلك. هل غُلبتَ على أمرك؟ كلّا، إليك نظرة هاتين العينين، إنّها تعكس روحًا خابيًا رغم ما يكتنفه من لألاء برّاق يستخفي حينًا وراء الابتسام واللعب ثمّ يبين على حقيقته فيما بين ذٰلك فتقرأ فيه نعي الشباب، إنّه الرثاء الصامت، أليست زبيدة في الخمسين من عمرها؟ وجليلة جاوزتها بأعوام، إنّها لدته ولن تكابر في هٰذا مهما أنكره لسانها، ثمّة تغيير في قلبه أيضًا ينذر بالنفور والتقلّص، لم يكن كذٰلك حين جاء، جاء يجري لاهثًا وراء صورة لم يعد لها من وجود، ليكن، حاشا أن يستسلم للهزيمة... اشرب، واطرب، واضحك، لن يدفعك أحد على رغمك إلى ما لا تودّ...

قالت جليلة:

ـ لم أكن أصدّق أنّ عينيّ ستقعان عليك في هٰذه الدنيا!

وجد إغراء شديدًا في أن يسألها:

ـ كيف ترينني؟

فتدخّلت زبيدة بينهما قائلة:

ـ كالعهد بك، جمل ولا كلّ الجمال، شعرة بيضاء تلمع تحت طربوشك ولا شيء خلاف ذٰلك!

فقالت لها جليلة محتجّة:

ـ دعيني أجب أنا، لأنّ سؤاله كان لي (ثمّ مخاطبة السيّد) أراك كما كنت، لا غرابة في ذٰلك، ما «نحن» إلّا أبناء الأمس القريب!

فطن السيّد إلى ما رمت إليه، فقال متكلّفًا الجدّ والصدق:

ـ أمّا أنتما فقد ازددتما حسنًا ورواءً، لم أكن أنتظر هٰذا كلّه.

زبيدة، وهي تتفحّصه باهتمام:

ـ ما الذي غيّبك عنّا ذٰلك العمر كلّه؟ (ثمّ ضاحكة) كان بوسعك، لو كان فيك خير، أن تلقانا لقاء بريئًا، ألا يكون لقاء بيننا إلّا إذا كان الفراش تحتنا؟

قال السيّد إبراهيم الفار، وهو يرعش ذراعه في الهواء ليحسر كمّ القفطان عنه:

ـ لا علم له ولنا بأنّ ثمّة لقاء بريئًا يمكن أن يجمع بيننا وبينكنّ!

زبيدة متأفّفة:

ـ أعوذ بالله منكم يا رجال، لا تودّون المرأة إلّا مطيّة!

فقهقهت جليلة قائلة:

ـ يا ستّ أمّك احمدي ربّنا على ذٰلك، أكنت تكتنزين هٰذا الشحم كلّه لو لم تضمري في نفسك أن تكوني مطيّة أو حشيّة؟

فقالت لها زبيدة معاتبة:

ـ خلّي بيني وبين المتّهم كي أحقّق معه...

قال السيّد أحمد باسمًا:

ـ كنت محكومًا عليّ بخمس سنوات بريئة بدون شغل...

فعادت زبيدة تهاجمه قائلة في تهكّم:

ـ يا ولداه! حرّمت على نفسك اللذّات كلّها، كلّها يا ولداه، حتّى لم يبقَ لك منها إلّا الطعام والخمر والطرب والمزاح والسهر حتّى مطلع الفجر كلّ ليلة!

فقال السيّد كالمعتذر:

ـ هٰذه أشياء لا بدّ منها للقلب الحزين، أمّا الأخرى...!

زبيدة وهي تلوّح له بيدها كأنّما تقول له «آه منك آه»:

ـ علمت الآن أنّك تعدّنا شرًّا من كافّة الذنوب والخطايا...

محمّد عفّت هاتفًا مقاطعًا، كأنّما تذكّر أمرًا هامًّا كاد يفلت منه:

ـ هل جئنا من أقصى الأرض كي نتكلّم، على حين تطلّ علينا الأقداح ولا تجد من يعنى بها! املأ الأقداح يا عليّ، اربطي الأوتار يا زنّوبة؟ اخلع ملابسك يا حضرة المحترم، أنت حاسب نفسك في مدرسة؟ انزع الجبّة والطربوش، لا تظنّ أنّك أعفيت من التحقيق، ولٰكن يجب أوّلًا أن تسكر المحكمة وأن تسكر النيابة ثمّ نعود إلى التحقيق، جليلة أصرّت على تأجيل السكْر حتّى يحضر سلطان الفرفشة أو كما قالت، هٰذه الوليّة تعزّك إعزاز الشيطان للضالّ المزمن، بارك الله لك فيها وبارك لها فيك...

نهض السيّد أحمد ليخلع الجبّة، قام عليّ عبد الرحيم ليتولّى ـ كعادته ـ مهمّة الساقي، صدرت عن أوتار العود همسات غير مؤتلفة للاختبار، دندنت زبيدة في غمغمة، سوّت جليلة بأناملها خصلات شعرها وطوق الفستان فيما بين ثدييها، تابعت أعين بتشوّق يدَي عليّ عبد الرحيم وهو يملأ الأقداح، تربّع السيّد أحمد في مجلسه وهو يجيل بصره في المكان والناس حتّى التقت عيناه اتّفاقًا بعينَي زنّوبة فابتسمت الأعين تحيّة، قدّم عليّ عبد الرحيم الدفعة الأولى من الكئوس. قال محمّد عفّت: صحّتكم ومحبّتك، قالت جليلة: نخب العودة يا سي أحمد، قالت زبيدة: نخب الهداية بعد الضلال، قال أحمد: نخب الأحباب الذين فرّق الحزن بيني وبينهم... شربوا عندما رفع السيّد أحمد كأسه إلى شفتيه، رأى من فوق سفح الكأس وجه زنّوبة مرفوعًا كذٰلك إلى كأسه فهزّته نضارته، قال محمّد عفّت لعليّ عبد الرحيم: املأ الثاني، وقال له إبراهيم الفار: والثالث في أثره حتّى نثبت الأساس، قال عليّ عبد الرحيم وهو يشمّر: خادم القوم سيّدهم. وجد أحمد عبد الجواد نفسه يتابع أنامل زنّوبة وهي تربط الأوتار، فتساءل عن عمرها ثمّ قدّره بين الخامسة والعشرين وبين الثلاثين، ساءل نفسه مرّة أخرى عمّا جاء بها... العود؟!... أم أنّ خالتها زبيدة تهيّئ لها سبيل الرزق؟ قال السيّد إبراهيم الفار: إنّ النظر إلى ماء النيل يدوّخه. فهتفت به جليلة: يا ابن الدايخة! سأل عليّ عبد الرحيم: إذا رميت امرأة في حجم جليلة أو زبيدة إلى الماء فهل تغرق أم تطفو؟ فأجابه السيّد أحمد بأنّها تطفو إلّا إذا كان بها ثقب، ساءل السيّد أحمد نفسه عمّا يحدث لو نزعت به نفسه إلى زنّوبة، فأجابت نفسه بأنّ ذٰلك يكون فضيحة لو أراده الآن، أمّا بعد خمس كئوس فلن يخلو من حرج، وأمّا بعد زجاجة فيكون واجبًا... اقترح محمّد عفّت أن يشربوا كأسًا في صحّة سعد زغلول ومصطفى النحّاس اللذين سيسافران في نهاية الشهر من باريس إلى لندن للمفاوضة، اقترح إبراهيم الفار أن يشربوا كأسًا آخر في صحّة مكدونالد صديق المصريّين، تساءل عليّ عبد

الرحيم عمّا عناه مكدونالد بقوله: «إنّه يستطيع أن يحلّ القضيّة المصريّة قبل أن يفرغ من فنجان القهوة الذي كان بين يديه». فأجابه احمد عبد الجواد بأنّ ذٰلك يعني أنّ الإنجليزيّ يشرب فنجان القهوة ـ في المتوسّط ـ في نصف قرن، تذكّر السيّد احمد كيف ثار على الثورة عقب مصرع فهمي وكيف ثاب رويدًا إلى مشاعره الوطنيّة الأولى لما أسبغه الناس عليه من تقدير وإكبار بصفته والد لشهيد نبيل، ثمّ كيف انقلبت مأساة فهمي مع الزمن مفخرة يباهي بها وهو لا يدري!

رفعت جليلة كأسها صوب السيّد أحمد وهي تقول:

ـ صحّتك يا جملي، طالما كنت أسائل نفسي هل نسينا حقًّا السيّد أحمد؟ ولٰكنّي علم الله عذرتك ودعوت الله أن يلهمك الصبر والعزاء، لا تعجب فأنا أختك وأنت أخي...

فسألها محمّد عفّت بخبث:

ـ إذا كنت أخته وكان أخاك كما تدّعين، فهل يفعل الأخوان ما فعلتما في زمانكما؟

فأطلقت ضحكة أعادت إلى الأذهان ذكريات عام ١٩١٨ وما قبله، وقالت:

ـ سل أخوالك يا روح أمّك...

قالت زبيدة وهي تلحظ أحمد عبد الجواد بمكر:

ـ بدا لي رأي آخر في تفسير غيبته الطويلة...

سألها أكثر من صوت عمّا بدا لها، على حين تمتم السيّد أحمد بصوت المستعيذ:

ـ يا ساتر استر...

ـ بدا لي أنّه ربّما كان حصل عنده ضعف ممّا يدرك الكهول أمثاله، فاعتلّ بالحزن واختفى...

قالت جليلة معترضة وهي تهزّ رأسها على أسلوب العوالم:

ـ إنّه آخر من يدركه الكبر!

فسأل السيّد محمّد عفّت السيّد أحمد:

ـ أيّ الرأيين أصحّ؟

فقال السيّد أحمد بلهجة ذات معنى:

ـ الرأي الأوّل يعبّر عن الخوف والآخر يعبّر عن الرجاء؟

قالت جليلة بظفر وارتياح:

ـ لست ممّن يخيب عندهم الرجاء.

همّ بأن يقول «عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان»، ولٰكنّه خاف أن يُدعى للامتحان أو أن يُفهم قوله على أنّه تقديم في الامتحان، على حين كان كلّما أنعم النظر تمكّن منه شعور بالنفور وبالزهد لم يجْرِ له في خاطر قبل المجيء. أجل ثمّة تغيّر لا ينكر، مضى الأمس، وليس اليوم كالأمس، لا زبيدة بزبيدة ولا جليلة بجليلة، وليس ثمّة ما يستحقّ المغامرة، ليقنع بالأخوّة التي نوّهت بها جليلة، وليمدّها حتّى تظلّل زبيدة نفسها، قال برقّة:

ـ من أين للكبر أن يدرك آدميًّا وهو بينكنّ!

تساءلت زبيدة وهي تقلّب عينيها في الرجال الثلاثة:

ـ أيّكم الأكبر؟

فقال السيّد أحمد ببراءة:

ـ أنا ولدت في أعقاب ثورة عرابي...!

فقال محمّد عفّت محتجًّا:

ـ قل كلامًا غير هٰذا، لقد بلغني أنّك كنت من جنود عرابي...!

فقال السيّد أحمد:

ـ كنت جنديًّا من بطونهم، كما يقال الآن: تلميذ من منازلهم...

فتساءل عليّ عبد الرحيم كالداهش:

ـ وماذا صنعت المرحومة والدتك وأنت داخل خارج إلى المعركة؟!

صاحت زبيدة بعد أن أفرغت الكأس في فيها:

ـ لا تهربوا بالهزار، إنّي أسألكم عن أعماركم...

قال إبراهيم الفار بتحدٍّ:

ـ ثلاثتنا بين الخمسين والخمسة والخمسين، فهل تكاشفاننا بعمركما؟...

هزّت زبيدة كتفيها استهانة، وقالت:

ـ أنا ولدت...

ثمّ ضاقت عيناها المكحولتان وهما تُرفعان إلى المصباح في حال تذكّر، غير أنّ السيّد أحمد عاجلها

متمّمًا ما توقّفت عن إتمامه:

ـ عقب ثورة سعد باشا؟!

ضحكوا طويلًا حتّى ألعبت لهم الوسطى، ولٰكنّ جليلة لم ترحّب بالحديث فيما بدا، فصاحت بهم:

ـ دعونا من هٰذه السيرة المقطرنة! ما لنا نحن والأعمار! ليسأل عنها صاحب الأمر في سماواته، أمّا نحن فالمرأة منّا شابّة ما وجدت مَن يرغب فيها، والرجل منكم شابّ ما وجد مَن ترغب فيه...

هتف عليّ عبد الرحيم بغتة:

ـ هنّئوني!

وسئل عمّا يهنّأ عليه، فواصل الهتاف قائلًا:

ـ سكرت...

قال أحمد عبد الجواد: إنّهم ينبغي أن يلحقوا به قبل أن يضلّ وحده في عالم السكر، حثّتهم جليلة على أن يتركوه وحده جزاء تعجّله، آوى عليّ عبد الرحيم في ركن وفي يده كأس مترعة وهو يقول لهم: ابحثوا عن ساقٍ غيري. قامت زبيدة إلى حيث تركت ملابسها الخارجيّة وفحصت في حقيبتها عن حُقّ الكوكايين حتّى اطمأنّت إلى أنّه في مكانه، اغتنم إبراهيم الفار فرصة خلوّ مكان زبيدة فجلس فيه ثمّ أسند رأسه إلى كتف جليلة وهو يتنهّد بصوت مسموع، نهض محمّد عفّت إلى النافذتين المطلّتين على النيل وأزاح الخصاص عنهما جانبًا فلاح سطح الماء ظلمات متحرّكة عدا خطوط من الضياء الهادئ رسمتها على الأمواج الأشعّة المرسَلة من مصابيح الذهبيّات الساهرة، لعبت زنّوبة بأوتار العود محدثة نغمة راقصة فاتّجهت عينا السيّد إليها مليًّا ثمّ قام ليملأ كأسه لنفسه، عادت زبيدة فجلست بين محمّد عفّت وأحمد عبد الجواد وهي تضرب الأخير على سلسلة ظهره، علا صوت جليلة وهي تغنّي:

«يوم ما عضّتني العضّة...».

هتف إبراهيم الفار بدوره: هنّئوني... اشترك محمّد عفّت وزبيدة في غناء جليلة عند جملة: «وجابولي طاسة الخضّة»، اشتركت زنّوبة في الأغنية، فعاود السيّد أحمد النظر إليها وما يدري إلّا وهو ينضمّ إلى المغنّين. جاء صوت عليّ عبد الرحيم من ركن الحجرة مؤيّدًا. هتف إبراهيم الفار ورأسه لا يزال مسندًا إلى كتف جليلة: مغنّون ستّة وسمّيع واحد هو أنا. قال السيّد أحمد لنفسه دون أن يتوقّف عن الغناء: سوف تلبّي وهي من الرضى والسرور في نهاية، ثمّ ساءل نفسه أيضًا: ألليلة عابرة أم معاشرة طويلة؟ قام إبراهيم الفار فجأة واندفع يرقص، جعل الجميع يصفّقون على الواحدة ثمّ غنّوا معًا:

«خدني في جيبك بقه... بين الحزام والمنطقة».

ساءل السيّد أحمد نفسه: ترى أتقبل زبيدة أن يكون اللقاء في بيتها؟... انتهت الأغنية والرقص فاستبقوا إلى التراشق بالدعابات دون توقّف، جعل أحمد عبد الجواد كلّما أطلق دعابة يسترق النظر إلى وجه زنّوبة ليرى أثرها فيه، اشتدّ الهرج والمرج، ومضى الوقت منسرقًا...

ـ آن لي أن أذهب...

قال عليّ عبد الرحيم ذٰلك، وهو ينهض متّجهًا إلى ملابسه. فصاح به محمّد عفّت ساخطًا:

ـ قلت لك أن أحضرها معك حتّى لا نقطع السهرة!

تساءلت زبيدة وهي ترفع حاجبيها:

ـ من هي المحروسة؟

فقال إبراهيم الفار:

ـ رفيقة جديدة، معلّمة قدّ الدنيا وصاحبة بيت بوجه البركة...

فسأله السيّد أحمد باهتمام:

ـ مَن...؟

أجاب عليّ عبد الرحيم، وهو يحبك الجبّة ضاحكًا:

ـ صاحبتك القديمة سنيّة القللي...

فاتّسعت عينا السيّد الزرقاوان، وتجلّت فيهما نظرة حالمة، ثمّ قال باسمًا:

ـ اذكرني عندها وأقرئها السلام...

قال عليّ عبد الرحيم، وهو يفتل شاربه ويتأهّب للذهاب:

ـ سألتْ عنك واقترحتْ عليَّ أن أدعوك إلى قضاء سهرة في بيتها بعد مواعيد العمل، فقلت لها إنّ بكره

اسم النبيّ حارسه قد بلغ السنّ التي تعدّ في أسرتهم موجبة للدخول في وجه البركة وغيرها من وجوه الفسق، فلا يأمن أبوه إن جاء أن يلتقي به في إحدى جولاته...!

وضحك الرجل ملء شدقيه، ثمّ سلّم وغادر الحجرة إلى الدهليز، فتبعه على الأثر محمّد عفّت وأحمد عبد الجواد ليوصلاه إلى الباب الخارجيّ واستمرّوا يتحادثون ويتضاحكون حتّى غادر السيّد عليّ العوّامة، وعند ذاك غمز محمّد عفّت دراع أحمد عبد الجواد، وهو يتساءل:

- زبيدة أم جليلة؟

فقال السيّد أحمد ببساطة:

- لا هٰذه ولا تلك!

- لِمَ؟ كفى الله الشرّ!!

فقال بلهجة القانع:

- خطوة خطوة، سوف أكتفي ما بقي من هٰذه الليلة بالشراب وسماع العود...!

ألحّ عليه أن يقدّم رجله خطوة أخرى، ولٰكنّه اعتذر فلم يثقل عليه، عادا إلى الحجرة المبعثرة الفاقدة الوعي فاستردّا مجلسيهما. قام إبراهيم الفار مقام الساقي، افتضحت أمارات السكر في وهج العيون وسلس الحديث وتحرّر الأعضاء، غنّوا جميعًا وراء زبيدة:

«البحر بيضحك ليه...».

لوحظ أنّ صوت السيّد أحمد عبد الجواد علا حتّى كاد يغطّي على صوت زبيدة، روت جليلة تناتيش من مغامراتها. مذ وقع بصري عليك شعرت بأنّ الليلة لن تمرّ بلا مغامرة، ما أملح الصغيرة، الصغيرة؟ هي كذٰلك ما دمت تكبرها بربع قرن. تحسّر إبراهيم الفار على العصر الذهبيّ للنحّاس على أيّام الحرب، فقال لهم بلسان ثقيل «كنتم تقبّلون يدي من أجل رطل نحاس» فقال له السيّد أحمد: «إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيّدي». اشتكت زبيدة شدّة السكر فقامت تتمشّى ذهابًا وجيئة، وعند ذاك جعلوا يصفّقون على إيقاع مشيتها المترنّحة ويهتفون بها:

«تاتا خطّي العتبة... تاتا خطّي العتبة».

الخمر تشلّ العضو الذي يفرز الحزن، غمغمت جليلة قائلة: «حسبنا»، ونهضت فغادرت الحجرة إلى ردهة تفضي إلى مخدعين متقابلين، فمالت إلى المخدع المجاور للنيل ودخلت، وما لبث أن ترامت إليهم طقطقة الفراش وهو يتلقّى جسمها العظيم، راقَ زبيدة تصرّف جليلة فاتّبعت أثرها إلى المخدع الآخر باعثة وراءها طقطقة أعنف، قال إبراهيم الفار: «إنّ لسان السرير قد نطق». تناهى إليهم من المخدع الأوّل صوت وانٍ يترنّم محاكيًا بحّة منيرة: «يا حبيبي تعالى»، فقام محمّد عفّت وهو يجيب مترنّمًا كذٰلك: «آديني جي». نظر إبراهيم الفار إلى أحمد عبد الجواد متسائلًا، فقال له السيّد: «إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»، فقام وهو يقول: «لا حياء في العوّامة!»... خلا الجوّ، ها هي الساعة التي رصدتها طويلًا، نحّت الصغيرة العود جانبًا وتربّعت وهي تسبل حاشية الفستان على ساقيها المتشابكتين. ساد صمت وتبودل نظر ثمّ مدّت بصرها إلى لا شيء، تكهرب الصمت فلم يعد يُحتمل، نهضت فجأة فسألها: إلى أين؟ فغمغمت وهي تمرق من الباب: «الحمّام»، قام بدوره إلى مجلسها فجلس وتناول العود وراح يعبث بأوتاره، وهو يتساءل: «أليس ثمّة حجرة ثالثة؟» لا ينبغي لقلبك أن يدقّ هٰكذا كأنّما الجنديّ الإنجليزيّ يسوقك أمامه في الظلام، ليلة أمّ مريم هل تذكر؟ لا تعد إلى ذكراها فهي ألم، عادت من الحمّام... ما أنضرها!...

- أتضرب العود؟

أجاب باسمًا:

- علّميني...

- حسبك الدفّ فإنّك من رجاله!

وهو يتنهّد:

- تلك أيّام خلت، ما ألطفها، كنت طفلة! ما لك لا تجلسين؟

تكاد تلمسك، ما أحلى أوّل الصيد!

- خذي العود وأسمعيني...

ـ شبعنا غناء وعزفًا وضحكًا، عرفت الليلة أكثر من ذي قبل لماذا يفتقدونك في كلّ سهرة!

فابتسم ابتسامة وشت بسروره، ثمّ قال بمكر:

ـ ولٰكنّك لم تشبعي شربًا؟

فأجابت بالإيجاب وهي تضحك، فوثب كالجواد إلى المائدة، ثمّ عاد بزجاجة مملوءة حتّى النصف، وكأسين، وجلس وهو يقول: «لنشرب معًا». الشرهة اللذيذة تنفث عيناها شيطنة وسحرًا، سلها عن الحجرة الثالثة... سَلْ نفسك: ليلة أم معاشرة... وعن العواقب لا تسل، أحمد عبد الجواد بجلالة قدره يفتح ذراعيه لزنّوبة العوّادة... بصحاف الفاكهة كانت تقف بين يديك... لكن لتحلّ بك السعادة جزاء نضارتك، أمّا الكبر فلم يكن أبدًا من شيمي... رأى كفّها القابضة على الكأس قريبة من ركبته، فمدّ راحته وربّت عليها بلطف، ولٰكنّها سحبتها في صمت إلى حجرها دون أن تلتفت إليه، فساءل نفسه ترى هل يحلو التدلّل في هٰذا الوقت المتأخّر خاصّة إذا كان الداعي مثله وكانت المدعوّة مثلها؟ غير أنّه لم يحد عن سنن الملاينة والملاطفة، فسألها بلهجة ذات معنى:

ـ أليس ثمّة حجرة ثالثة في العوّامة؟

قالت تجيب على ظاهر السؤال متجاهلة مغزاه وهي تشير صوب باب الدهليز:

ـ في الناحية الأخرى...

تساءل وهو يفتل شاربه مبتسمًا:

ـ أليست تسع كلينا؟

فقالت بصوت لا أثر للدلال فيه، وإن لم يجاوز حدود الأدب:

ـ تسعك وحدك إن طاب لك النوم!

فسألها كالداهش:

ـ وأنت؟

فقالت بنفس اللهجة:

ـ مستريحة كما أنا...

تزحزح قليلًا مقتربًا منها، ولٰكنّها قامت فوضعت كأسها على المائدة، ثمّ مضت إلى الكنبة المقابلة له، فجلست راسمة على وجهها صورة الجدّ والاحتجاج الصامت حتّى عجب الرجل لشأنها فباخ حماسه ووجد وخزة في كبريائه، ثمّ جعل ينظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة متكلّفة حتّى سألها:

ـ ماذا أغضبك؟

فلازمت الصمت مليًّا، ثمّ شبكت ذراعيها على صدرها.

ـ إنّي أتساءل عمّا أغضبك؟

قالت باقتضاب:

ـ لا تسل عمّا تعلم...

ضحك فجأة ضحكة عالية معلنًا بها عن استهانته وعدم تصديقه، وقام بدوره فملأ الكأسين ثمّ قدّم لها كأسها، وهو يقول:

ـ روّقي مزاجك...

فتناولت الكأس تأدّبًا ثمّ أعادتها إلى المائدة، وهي تغمغم «أشكرك» فتراجع إلى مجلسه وقعد، ثمّ رفع كأسه إلى شفتيه وتجرّعها دفعة واحدة وقهقه ضاحكًا.

أكان في وسعك أن تتوقّع هٰذه المفاجأة؟ لو أستطيع أن أرجع في الزمن ربع ساعة إلى الوراء، زنّوبة... زنّوبة... ولا شيء غير زنّوبة فهل تصدّق ذٰلك؟ لا تتشتّت حيال الصدمة، من يدري لعلّه دلال موضة ١٩٢٤ يا حصانيّ ١٩٠٠، ماذا تغيّر فيّ؟... لا شيء... لٰكنّها زنّوبة... أليس ذٰلك هو اسمها؟ لكلّ رجل حتمًا من امرأة تعرض عنه، وما دامت زبيدة وجليلة وأمّ مريم يسعين إليك فمَن غير زنّوبة ـ هٰذه الخنفساء ـ تعرض عنك؟! تحمّل حتّى تحتمل، ليس الأمر على أيّ حال بكارثة، آه، انظر انظر، ساقها مليحة مدملجة، أساسها متين، لِمَ تظنّ أنّها أعرضت عنك حقًّا؟...

ـ اشربي يا حلوة...

قالت بصوت يجمع بين الأدب والحزم:

ـ عندما يروق لي الشراب...

فسدّد نحوها بصره، ثمّ تساءل بلهجة ذات معنى:

ـ ومتى يروق لك...؟

فقطّبت معلنة عن مدى فهمها لإشارته ولم تجب...

تساءل السيّد، وكان يشعر في تلك اللحظة أنّه يتدهور:

ـ ألم يصادف تودّدي القبول؟

فطامنت من رأسها لتخفي وجهها عن عينيه، وقالت برجاء حازم:

ـ هلّا كففت عن هٰذا؟

تملّكه غضب فجائيّ فجاء كردّ فعل لإحساسه بالتدهور، فتساءل داهشًا:

ـ لِمَ تجيئين إلى هنا؟

قالت باحتجاج، وهي تشير إلى العود المستلقي على الكنبة غير بعيد عنه:

ـ أجيء من أجل هٰذا...

ـ فقط؟... لا تناقض بين هٰذا وبين ما أدعوك إليه...!

تساءلت باستياء:

ـ بالقوّة؟

فقال وهو يعاني سكرات الخيبة والحنق:

ـ كلّا، ولكنّي لا أجد سببًا للرفض!

فقالت ببرود:

ـ لعلّ عندي أسبابًا...

ضحك ضحكة عالية فاضية، ثمّ غلبه الحنق، فقال هازئًا:

ـ لعلّك تخافين على بكارتك!

رنت إليه بنظرة طويلة قاسية، ثمّ قالت بحنق وتشفٍّ:

ـ أنا لا أرضى إلّا بمن أحبّه...

همّ بأن يضحك مرّة أخرى، ولكنّه أمسك بعد أن ضاق صدره بهٰذه الضحكات الآليّة المحزنة، ومدّ يده إلى القارورة فصبّ منها في كأسه بلا تدبّر حتّى امتلأت إلى النصف، ولكنّه تركها على المائدة، وراح ينظر إلى المرأة في حيرة لا يدري كيف يخرج من المأزق الذي دفع نفسه إليه... الأفعى بنت الأفعى لا ترضى إلّا بمن تحبّه، هل يعني هٰذا إلّا أنّها تحبّ كلّ ليلة رجلًا! هيهات أن تمحى من صفحتك فضيحة الليلة! السادة هناك في الداخل، وأنت هنا تحت رحمة عوّادة متدلّلة... اسلخها بلسانك... اركلها بقدمك... ادفعها أمامك إلى الحجرة قهرًا. الأجدر أن تشيح عنها بوجهك وتغادر المكان فورًا، في أعيننا لعنة تذلّ الأعناق، ما ألطف جيدها، لا تمار في حلاوتها، طاش الرأي ووجب الألم...

ـ لم أكن أتوقّع هٰذا الجفاء...

وقطّب مصمّمًا وقد تجهّم وجهه، فنهض رافعًا كتفيه في استهانة، وهو يقول:

ـ ظننتك مثل خالتك لطافة وذوقًا فخاب ظنّي، ولن ألوم إلّا نفسي...

سمع وسوسة شفتيها وهي تمتصّ ريقها مصّة الاحتجاج والانتقاد. ولٰكنّه مضى إلى ملابسه فأخذ يلبسها على عجل حتّى انتهى منها في أقلّ من نصف المدّة التي تتطلّبها عادة أناقته. كان مصمّمًا غاضبًا، ولٰكنّ اليأس لم يبلغ به نهايته، ظلّ جزء من نفسه متمرّدًا يأبى أن يصدّق ما وقع أو يعزّ عليه ان يسلّم به، فتناول عصاه وهو يترقّب بين لحظة وأخرى أن يحدث شيء فيكذّب ظنّه ويصدّق أمانيّ كبريائه الجريح، كأن تضحك فجأة حاسرة عن وجهها قناع الجدّ الزائف، أو أن تهرع إليه مستنكرة غضبه، أو أن تثب أمامه لتحول بينه وبين الذهاب، أجل كثيرًا ما تكون مصّة الريق التي ندّت عنها مناورة يعقبها الاستسلام، غير أنّ شيئًا من ذٰلك لم يحدث.

ولبثت وهي بمجلسها تنظر إلى لا شيء، متجاهلة إيّاه كأنّها لا تراه، فغادر الحجرة إلى الدهليز ومنه إلى الباب الخارجيّ ثمّ إلى الطريق وهو يتنهّد في حزن وأسف وغيظ. قطع الطريق المظلم مشيًا على الأقدام حتّى بلغ جسر الزمالك وجوّ الخريف الرطيب يتسلّل في لطف إلى داخل ملابسه، ومن هناك استقلّ تاكسي، فطوى به الأرض طيًّا وهو ذاهل من السكر والفكر، حتّى انتبه إلى ما حوله في ميدان الأوبرا والسيّارة تدور به في طريقها إلى العتبة الخضراء، في أثناء دورانها حانت منه التفاتة فلمح على ضوء المصابيح سور حديقة الأزبكيّة فعلق به بصره حتّى غيّبه عنه منعطف الطريق، ثمّ أغمض عينيه وهو يشعر

بشكّة تنفذ إلى أعماق قلبه، ووجد في باطنه صوتًا كالأنين يهتف في عالمه الصامت داعيًا بالرحمة للفقيد العزيز، فلم يجرؤ على ترديد الدعاء بلسانه أن يذكر اسم الله بلسان مشبع بالخمر، وعندما رفع جفنيه، ذرفت عيناه دمعتين غزيرتين...

- ٨ -

لم يدرِ ماذا ركبه!! شيطان رجيم أم داء وبيل؟ نام وهو يأمل أن يكون انتهى من سخف الليلة الماضية، بسخف السكر دعاه، وللسكر سخف لا ريب فيه يفسد لذّاته ويقلب مسرّاته، وعندما ألقى عليه الصباح نوره وجده من قلق يتقلّب، ورشاش الدشّ يترشّش على جسده العاري تشتّت فكره وخفق قلبه، تخايل لعينيه وجهها وطنّت في أذنيه وسوسة شفتيها ورجّع قلبه صدى الألم، ثمّ تجترّ أفكارك الظامئة كفتى مراهق والطريق من حولك يحيّيك تحيّة الإجلال. يحيّون فيك الوقار والورع وحسن الجوار، ولو علموا أنّك تردّ تحيّاتهم في آليّة وفكرك عنهم غائب مهموم في حلم جارية عالمة... عوّادة... امرأة تعرض جسدها كلّ ليلة في سوق المضاجع... لو علموا ذٰلك، لأولوك بدل التحيّة ابتسامة هزء ورثاء. فلتقل الأفعى «نعم» وعند ذٰلك أعرض عنها بكلّ ازدراء وارتياح، ماذا دهاني وماذا أروم، هل أدركك الكبر؟ أتذكر ما ابتلى جليلة وزبيدة من عاديات الزمن؟ تلك آثار بغيضة يجدها القلب ولا يدركها الحسّ، لكن مهلًا، حذار أن تسلّم للوهم فيسلّمك الوهم لقمة سائغة للانهيار... ما هي إلّا شعرة بيضاء، لغير ذٰلك من البواعث أعرضت عنك العوّادة الحقيرة... الفظها كما تلفظ ذبابة اندسّت في فيك وأنت تتثاءب، واأسفاه!! أنت تعلم أنّك لن تلفظها، لعلّها الرغبة في الانتقام ولا شيء سوى ذٰلك. ردّ اعتبار ليس إلّا. ينبغي أن تقول الجارية «نعم»، ولك أن تهجرها بعد ذٰلك قرير العين. لا شيء فيها يستحقّ النضال. أتذكر ساقيها وجيدها وشهوة عينيها؟ لو داويت كبرياءك بلعقة من الصبر لفزت ـ من ليلتك ـ بالمتعة والبهجة، ماذا وراء هٰذا القلق كلّه؟! إنّي أتألّم، أجل! إنّي أتألّم، إنّي مكروب بما نزل بي من مهانة، أتوعّدها بالازدراء ثمّ تخطر منها على القلب خطرة فتستعر عروقي... استبق الحياء ولا تجعل من نفسك أضحوكة، إنّي أستحلفك بالأولاد مَن بقي منهم ومَن ذهب... هنيّة كانت المرأة الوحيدة التي هجرتك فجريت وراءها، ماذا لقيت منها؟ ألا تذكر!! فتوّة الزفّة يرقص ويسكر ويصول ويجول، ثمّ يُعمل عصاه في المصابيح وطاقات الورد والمزامير والمدعوّين، حتّى يغطّي الصلوات على الزغاريد... ذاك رجل؟! كن فتوّة العوّامة واقتل أعداءك بالتجاهل والإعراض. ما أضعف أعداءك وما أقواهم، ساق مسترخية لا تكاد تقوى على المشي غير أنّها تهدّ الجبال الرواسي، ما أفظع سبتمبر إذا ارتفعت حرارته المشبعة بالرطوبة، ما ألطف أماسيّه خاصّة ما يكون منها في العوّامة. إنّ بعد العسر يسرًا...

فكّر في أمرك وانظر في أيّ اتّجاه تسير، المكتوب لازم تشوفه العين، الإقدام مُرّ والنكوص مرعب، كم كنت تراها وهي في ميعة الصبا فلم توقظ فيك نائمًا ومررت بها كأنّها شيء لم يكن، ماذا جدّ حتّى زهدت فيمن احببت وأحببت من كنت تزهد، ليست أجمل من زبيدة ولا جليلة ولو كان بها جمال ينافس جمال خالتها ما اصطحبتها، على ذٰلك فأنت تريدها وتريدها بكلّ قوّة نفسك... آه!! ما جدوى المكابرة؟! لا أرضى إلّا بمن أحبّه!! أَحَبَّكِ برص يا بنت اللبؤة... تألّم حتّى تختنق، ما أذلّ الإنسان مثل نفسه، هل تذهب إلى العوّامة؟ ليست خير مكان لإذاعة الفضائح، البيت؟ هناك زبيدة!! أهلًا أهلًا!! أعدت أخيرًا إلى عرينك؟ بم تجيبها؟ لم أعد لذاك، ولكنّي أريد بنت أختك! يا له من سخف! دع الهذر. هل فقدت صوابك!؟ استعن بالفار أو بمحمّد عفّت. السيّد أحمد عبد الجواد يبحث لنفسه عن شفيع إلى... زنّوبة!... أليس من الأفضل أن تفصد نفسك حتّى يتفصّد الدم الخبيث الذي يسمك الذلّ!

كان الليل قد غشي الغوريّة وأغلقت أبواب حوانيتها، حين أقبل أحمد عبد الجواد من دكّانه عقب

إغلاقها، يسير في خطوات وئيدة وعيناه تتفحّصان الطريق والنوافذ، لاح وراء نافذتي زبيدة ضوء، ولٰكنّه لم يدرِ ماذا كان يدور وراءهما، أوغل في الطريق وقتًا ثمّ عاد من حيث أتى، فوصل مسيره إلى بيت محمّد عفّت بالجمالية حيث يلتقي الأصدقاء الأربعة قبل انطلاقهم إلى السهرة معًا. قال السيّد مخاطبًا محمّد عفّت:

ـ ما ألطف ليالي العوّامة، لا يزال قلبي يحنّ إليها!

فقال محمّد عفّت ضاحكًا في ظفر:

ـ هي رهن إشارتك في أيّ وقت تشاء...

وعقّب عليّ عبد الرحيم على ذٰلك بقوله:

ـ حننت إلى زبيدة، يا عكروت...

فبادر السيّد قائلًا في جدّ:

ـ كلّا...

ـ جليلة؟

ـ العوّامة ولا شيء عداها...

فسأله محمّد عفّت بمكر:

ـ أتريدها سهرة قاصرة علينا، أم ندعو إليها صديقات الزمان الأوّل؟

فضحك السيّد ضحكة أعلن بها هزيمته، ثمّ قال:

ـ بل تدعوهنّ يا بن الماكرة، وليكن ذٰلك مساء الغد، لأنّ الوقت تأخّر بنا الليلة، ولكنّي لن أجاوز الاستمتاع بالمجالسة والمؤانسة...

قال إبراهيم الفار «إحم»، وقال عليّ عبد الرحيم: «على روحي أنا الجاني»، وقال محمّد عفّت ساخرًا: «سمّه كما تشاء، تعدّدت الأسماء والفعل واحد».

ثمّ كان اليوم التالي كأنّما اكتشف قهوة سي عليّ لأوّل مرّة. انجذب إليها قبيل الأصيل، وجلس على الأريكة تحت الكوّة، فأقبل عليه صاحب القهوة مرحّبًا، فقال له السيّد وكأنّه يبرّر مجيئه إلى القهوة لأوّل مرّة:

ـ كنت راجعًا من بعض الأعمال، فنازعتني النفس إلى احتساء شايك العذب.

زيارة لا يبدو أنّها من السهل أن تتكرّر... رويدًا رويدًا!! ستفضح نفسك أمام الناس، ما جدوى هٰذا كلّه؟! هل يسرّك حقًّا أن تراك من وراء الخصاص لتهزأ من تدهورك؟ إنّك لا تدري ماذا تصنع بنفسك، أتعبتَ عينيك في محجريهما ودوّخت دماغك، لن تبدو لك، والأدهى من هٰذا أن تتفرّج عليك ساخرة من وراء خصاص، ماذا جاء بك؟ تريد أن تملأ عينيك منها. اعترف، تريد أن تقيس أبعاد جسمها اللدن... أن ترى ابتسامتها وإغضاءتها... أن تتابع أناملها المخضّبة، فيم هٰذا كلّه؟ لم يسلف لك شيء كهٰذا مع من فُقنها حسنًا ورواء وشهرة، أقُضي عليك أن تتعذّب وتهون في سبيل الشيء الحقير!. لن تبدو... تطلّع كيفما شئت... الفتْ إليك الأنظار... السيّد أحمد عبد الجواد في قهوة سي عليّ يسترق النظر من الكوّة، لشدّ ما تدهورت!! من أدراك أنّها لم تفش سرّك؟. لعلّ التخت يدري، ولعلّ زبيدة نفسها تدري، ولعلّ الجميع يدرون!! مدّ يده المحلّاة بالخاتم الماسيّ إليّ فصددته ثمّ توسّل إليّ فأصررت على صدّه... هٰذا هو السيّد أحمد عبد الجواد الذي تشيدون به!... لشدّ ما تدهورت!! أقصى التدهور ما تنحدر إليه، بل ما تصرّ على الانحدار إليه وأنت أعلم الناس بما ينطوي عليه فعلك المشين من مذلّة وهوان، إذا عرف السرّ أصحابك وزبيدة وجليلة، فماذا أنت صانع؟! حقًّا أنت ماهر في مداراة الحرج بالنكتة، ولكن سوف تنحسر موجات الضحك والقهقهة عن الحقيقة المرّة... هٰذا مؤلم وآلم منه أنّك تريدها. لا تكذب على نفسك، فأنت تريدها حتّى المات. ماذا أرى؟... تساءل وهو ينظر إلى عربة كارو جاءت فوقفت أمام بيت العالمة، ثمّ ما لبث أن فُتح الباب فخرجت عيّوشة الدفّافة ساحبة وراءها عبده القانونجيّ، ثمّ تبعتها بقيّة الجوقة، فادرك أنّهم ذاهبون إلى فرح من الأفراح. وشعر الرجل شعورًا عنيفًا بخفقان قلبه وهو يتطلّع إلى الباب في ترقّب مشوق محزن. اشرأبّ بعنقه في غير ما حيطة متجاهلًا ما حوله من الناس، ثمّ رنّت ضحكة وراء الباب، ثمّ برز العود في جراب بمبيّ يسبق صاحبته التي خرجت في نشاط ثوريّ ضاحكة ثمّ وضعت العود على مقدّم

العربة، وصعدت إليها بمعونة عيّوشة، وجلست في الوسط حتّى لم يعد يُرى منها إلّا منكبًا يبدو خلال زاوية انفرجت ما بين عيّوشة وعبده الضرير. أصرّ السيّد على أسنانه حنينًا وحنقًا معًا. أتبع العربة عينيه وهي تتمايل ذات اليمين وذات الشمال موغلة في الطريق، مخلّفة في صدره إحساسًا عميقًا بالكآبة والهوان، وتساءل: هل يقوم فيتبعها؟ غير أنّه لم يحرّك ساكنًا ولم يزد على أن قال لنفسه: «كان المجيء إلى هنا حماقة جنونيّة».

ذهب في المساء الموعود إلى العوّامة بإمبابة، لم يكن استقرّ على رأي فيما ينبغي أن يفعل على كثرة ما أدار الأمر في ذهنه. ثمّ أخيرًا، رهن حلّ مشاكله بيد الظروف والفرص... حسبه أنّه ضمن رؤيتها ومجالستها والانفراد بها في آخر الليل، سوف يجسّ النبض من جديد وربّما أعاد الكرّة مستعينًا هذه المرّة بكافّة ضروب الإغراء، دخل العوّامة كالوجل، وعلى حال لو رآها على غيره وحدس بواعثها لأغرقه ضحكًا وسخرية. هنالك وجد الإخوان وجليلة وزبيدة ولكنّه لم يعثر للعوّادة على أثر!! وقد استُقبل استقبالًا حارًّا، وما كاد يخلع جبّته وطربوشه ويتّخذ مجلسه حتّى انفجرت القهقهات من حوله فاندمج في جوّها بقوّة مرونته. حدّث ونكّت ومازح وداعب مغالبًا قلقه محاورًا همّه، غير أنّ مخاوفه كمنت تحت تيّار المرح دون أن تتبدّد كما يكمن الألم إلى حين تحت تأثير المخدّر، وما برح يأمل أن ينفتح باب فتأتي منه أو أن يشير إليها بكلمة تفسّر غيابها أو تَعِدُ بقرب حضورها، وكلّما مضى الوقت متثاقلًا متثائبًا شحب أمله وفتر حماسه وغيّم المأمول من صفوه.

ترى أيّهما كان الطارئ: حضورها أوّل أمس، أم تخلّفها اليوم؟ لن أسأل أحدًا، الظواهر تنمّ على أنّ سرّك لا يزال مصونًا، لو علمت به زبيدة ما تورّعت أن تجعل منه فضيحة وجرسة. ضحك كثيرًا وشرب أكثر، سأل زبيدة أن تغنّيه «أضحك من الفم وأبكي من صميم قلبي»، أوشك مرّة أن يخلو بمحمّد عفّت ليكاشفه بما يريد، أوشك مرّة أن يجسّ نبض زبيدة نفسها بيد أنّه ضبط نفسه فخرج من أزمته مصون السرّ والكرامة.

ولمّا قام عليّ عبد الرحيم عند منتصف الليل ليذهب إلى رفيقته بوجه البركة، قام معه على غير توقّع من أحد ليعود إلى بيته، وعبثًا حاولوا أن يثنوه عن عزمه أو أن يستنظروه ساعة، فذهب مخلّفًا وراءه دهشة، وخيبة للذين حدسوا وراء مجيئه المرسوم ظنونًا لم تقع.

ثمّ كان يوم الجمعة فخرج إلى جامع الحسين قبيل الصلاة بقليل، وإنّه ليسير في شارع خان جعفر، إذ رآها عابرة من حارة الوطاويط في طريق الجامع!... آه... لم يخفق قلبه مثل تلك الخفقة من قبل، وأعقبها على الأثر جمود شمل حركته النفسيّة كلّها، حتّى خيّل إليه - فيما يشبه الغيبوبة، وخلافًا للواقع - أنّه توقّف عن السير، وأنّ العالم من حوله صمَت صمْت القبور، كمثل السيّارات التي تتوقّف محرّكاتها عن الدفع فيخرس أزيزها ولكنّها تسير بقوّة القصور الذاتيّ في سكون شامل، ولمّا أفاق إلى نفسه وجدها تتقدّمه بمسافة غير قصيرة، فتبعها على الأثر دون تدبّر أو رويّة، فمرّ بالجامع دون أن يعرّج إليه، ثمّ مال وراءها عن بُعْد إلى السكّة الجديدة. ماذا يبغي؟. إنّه لا يدري!! كان يطيع ردّ الفعل طاعة عمياء، لم يكن سبق له أن تعقّب امرأة في الطريق ولا في أيّام شبابه الأوّل فأخذ ينتابه الحرج والحذر، ثمّ دهمته فكرة ساخرة مفزعة معًا: أن يهتك سرّ المطاردة الخفيّة، ياسين أو كمال! على أنّه حرص على ألّا تقصر المسافة بينه وبينها عمّا كانت عليه مذ بدأت المطاردة، وراحت عيناه ترتويان من هيئة جسمها اللطيف بنهم وظمأ وهو يستقبل موجات متتابعة من الأشواق والآلام، حتّى رآها تعدل عن الطريق إلى دكّان صائغ من معارفه يدعى يعقوب، تباطأت قدماه كي يتيح لنفسه فرصة للتدبّر وتضاعف شعوره بالحرج والحذر: ألا يعود من حيث أتى؟ أم يمرّ بالدكّان دون أن يلتفت نحوها؟ أم ينظر إلى الداخل وينتظر ما يحدث؟

كان يقترب من الدكّان رويدًا، حتّى إذا لم يبقَ بينه

وبينها إلّا أقدام خطرت له خاطرة جريئة، فاندفع إلى تنفيذها بلا تردّد متجاهلًا خطورتها، وهي أن ينتقل إلى الطوار ثمّ يسير متمهّلًا أمام الدكّان على أمل أن يراه صاحبه فيدعوه كعادته إلى الجلوس فيلبّي دعوته!. مضي متمهّلًا فوق الطوار حتّى بلغ الدكّان، فنظر إلى الداخل كأنّما ينظر عفوًا، فالتقت عيناه بعيني يعقوب... وإذا بالخواجا يهتف به:

ـ أهلًا بالسيّد أحمد، تفضّل...

ابتسم السيّد متودّدًا ثمّ عرّج إلى الداخل فتصافحا بحرارة ودعاه الخواجا إلى كوب خرّوب، فقبل الدعوة قبول الكرام، وجلس على طرف كنبة جلديّة من قبل الخوان المنصوب عليه الميزان. لم يبدُ عليه أنّه فطن إلى وجود ثالث في الدكّان حتّى جلس فتراءت أمام عينيه زنّوبة وهي واقفة حيال الخواجا تقلّب بين يديها قرطًا فتظاهر بالدهش، والتقت عيناهما وهو على تلك الحال... ابتسمت فابتسم، ثمّ بسط راحته على صدره محيّيًا، وهو يقول:

ـ صباح الخير... كيف حالك؟

فقالت وهي تعاود النظر إلى القرط:

ـ بخير ربّنا يكرمك...

كان الخواجا يعقوب يعرض استبدال القرط بأسورة مع دفع فرق اختلفا عليه، فانتهز السيّد فرصة انشغالها ليملأ عينيه من صفحة خدّها، ولم يغب عليه ما في المساومة والاستبدال من فُرص تتيح له التدخّل بالحسنى، لعلّ وعسى... غير أنّها قطعت عليه سبيله وإن لم تدرِ بما أضمر، فردّت القرط إلى صاحبه وهي تعلنه بأنّها عدلت نهائيًا عن المبادلة، وطلبت إليه إصلاح الأسورة، ثمّ حيّته، وحيّت السيّد بإحناءة من رأسها وغادرت الدكّان! حدث هٰذا كلّه بسرعة لم يكن ثمّة داعٍ إليها فيما بدا له، فأخذ وانزعج واستحوذ عليه الفتور والضيق. ولبث مع الخواجا يعقوب يتبادلان حديث المجاملات المألوف حتّى شرب كوب الخرّوب، ثمّ استأذن في الانصراف وذهب.

ذكر ـ في خجل شديد ـ صلاة الجمعة التي أوشكت أن تفوته، ولٰكنّه تردّد في المضيّ إلى الجامع، لم تُواته الشجاعة على الانتقال المباشر من تعقّب امرأة وقت الصلاة إلى الجامع، ألم ينقضْ نزقه وضوءه؟ بل ألم يجعله غير أهل للوقوف بين يدي «الرحمٰن»؟ عدل عن الصلاة محزونًا متألّمًا فسار في الطرقات ساعة على غير هدى، ثمّ عاد إلى البيت معاودًا التفكير في ذنبه، على أنّ رأسه ـ حتّى في تلك اللحظات الحسّاسة المليئة بالندم ـ لم يغلق بابه دون زنّوبة! قال مخاطبًا محمّد عفّت، وكان قد سبق إلى بيته مساء ليخلو إليه قبل توافد الأصدقاء:

ـ أريد منك خدمة، أن تدعو مساء الغد زبيدة إلى العوّامة!

ضحك محمّد عفّت، وقال له:

ـ إن كنت تريدها فلِمَ هٰذا اللفّ والدوران! لو طلبتها أوّل ليلة لفتحت لك ذراعيها على الرحب والسعة...

فقال أحمد عبد الجواد في شيء من الحرج:

ـ أريد أن تدعوها وحدها...!

ـ وحدها؟! يا لك من رجل أنانيّ لا تفكّر إلّا في نفسك، والفار وأنا؟! بل لنجعلها ليلة من ليالي العمر، ولندعُ زبيدة وجليلة وزنّوبة أيضًا!...

تساءل أحمد عبد الجواد فيما يشبه الاستنكار:

ـ زنّوبة؟!.

ـ لِمَ لا؟! إنّها احتياطيّ لا بأس به، يُرجع إليه عند الضرورة...

ما آلمني!. كيف تمنّعت بنت القديمة ولِمَ؟!

ـ أنت لم تدرك بعد غايتي، الحقّ أنّي لا أنوي المجيء غدًا!

قال محمّد عفّت في استغراب:

ـ تطلب أن أدعو زبيدة! وتقول إنّك لن تجيء غدًا! ما هٰذه الألغاز!!.

ضحك أحمد ضحكة عالية يداري بها ارتباكه، ثمّ لم يجد بدًّا من أن يقول كاليائس:

ـ لا تكن بغلًا، سألتك أن تدعو زبيدة وحدها، كي تبقى زنّوبة في البيت وحدها!

ـ زنّوبة يا بن أمّ أحمد!؟

ثمّ وهو يسترسل في الضحك:

ـ لِمَ كلّ هٰذا التعب؟ لِمَ لم تطلبها أوّل ليلة في العوّامة؟! ولو أشرت إليها بأصبعك لطارت إليك، ولزقت فيك بالغراء!

ابتسم ابتسامة فارغة، رغم شعوره الأليم بالامتعاض، ثمّ قال:

ـ نفّذ ما أُمرت به، هٰذا ما أريد...

قال محمّد عفّت وهو يفتل شاربه:

ـ ضعُف الطالب والمطلوب!

فقال أحمد عبد الجواد جادًّا جدًّا:

ـ ليكن هٰذا سرًّا بيننا...

طرق الباب في ظلام دامس وفي خلاء من المارّة، وكانت الساعة تدور في التاسعة، فُتح الباب بعد حين دون أن يبدو الفاتح، ثمّ جاءه صوت ارتجّ له فؤاده ارتجاجًا يتساءل قائلًا: «من؟» فقال بهدوء «أنا»، وهو يدخل بغير استئذان، ثمّ ردّ الباب وراءه فوجد نفسه قبالتها وهي واقفة على آخر درجة من السلّم مادّة ذراعها بالمصباح، حدجته بنظرة داهشة، ثمّ غمغمت:

ـ أنت!

فوقف صامتًا مليًّا، وعلى فيه ابتسامة خفيفة تنمّ عن الإشفاق والقلق، ولـمّا لم يأنس منها اعتراضًا أو غضبًا تشجّع قائلًا:

ـ أهٰذا هو استقبالك لصديق قديم؟!

فولّته كشحها، ومضت ترقى في الدرج، وهي تقول:

ـ تفضّل...

تبعها صامتًا، وقد استنتج من فتحها الباب بنفسها أنّها بمفردها في البيت، وأنّ مكان الجارية جلجل التي ماتت منذ عامين لا يزال شاغرًا... تبعها حتّى دخلا إلى الدهليز، فعلّقت المصباح بمسمار في الجدار على كثب من الباب، ثمّ دخلت وحدها حجرة الاستقبال، فأوقدت المصباح الكبير المدلّى من السقف ـ زادته هٰذه الحركة اطمئنانًا إلى استنتاجه ـ ثمّ خرجت فأومأت له بالدخول وذهبت...

مضى إلى الحجرة ثمّ جلس في الموضع الذي كان يجلس فيه في العهد القديم على الكنبة الوسطى، فنزع طربوشه وحطّه على النمرقة التي تشطر الكنبة، ومدّ ساقه وهو يلقي نظرة فاحصة على ما حوله... إنّه يذكر المكان كما لو كان لم يغادره إلّا أمس القريب، هٰذه الكنبات الثلاث، وهٰذه المقاعد، وهٰذا البساط الفارسيّ، وهٰذه الأخونة الثلاثة المطعّمة بالصدف، كلّ شيء كان بصفة عامّة كما كان!! هل يذكر متى جلس آخر مرّة في هٰذا المكان؟ إنّ ذكرياته عن بهو الطرب وحجرة النوم أوضح وأثبت، بيد أنّه لا يمكن أن ينسى أوّل لقاء تمّ بينه وبين زبيدة في هٰذه الحجرة، في هٰذا الموضع بالذات!! وجملة ما دار فيه، لم يكن أحد يومذاك مثله خلوّ بال وثقة بالنفس؟ ترى متى تعود؟ ماذا أحدثت زيارته في نفسها؟ إلى أيّ درجة سيرتفع غرورها؟ وهل أدركت أنّه جاء من أجلها هي لا من أجل خالتها؟ إن أخفق هٰذه المرّة فقُلْ عليه السلام!

سمع وقع شبشب خفيف، ثمّ بدت زنّوبة عند الباب في فستان أبيض منمنم بورد أحمر، ملتفعة بوشاح مرصّع بالترتر، أمّا رأسها فحاسر، وأمّا شعرها فمجدول في ضفيرتين غليظتين استرسلتا على ظهرها... استقبلها واقفًا باسمًا متفائلًا بالزينة التي تبدّت فيها، فحيّته بابتسامة، وأشارت إليه أن يجلس، ثمّ جلست على الكنبة التي تتوسّط الجدار الذي إلى يمينه، وهي تقول بصوت لم يخلُ من دهش:

ـ أهلًا وسهلًا، أيّ مفاجأة!

فابتسم السيّد متسائلًا:

ـ من أيّ نوع يا ترى هٰذه المفاجأة؟

قالت وهي ترفع حاجبيها في حركة غامضة لم تنمّ عمّا إذا كانت ستتكلّم جادّة أم ساخرة:

ـ سارّة طبعًا!

ما دمنا قد أطعنا أقدامنا حتّى جاءت بنا إلى هنا فعلينا أن نتحمّل الدلال بكافّة أنواعه: ثقيله وخفيفه.

تفحّص جسمها ووجهها ـ في هدوء ـ كأنّما ينقّب فيهما عمّا لوّعه وعبث بوقاره، فساد الصمت حتّى رفعت إليه وجهها دون أن تنبس، ولٰكن في حركة نمّت

عن تساؤل مُشرَب بأدب، كأنّما تقول له: «نحن في الخدمة».

فتساءل السيّد في مكر:

ـ هل يطول انتظارنا للسلطانة؟ ألم تفرغ بعد من ارتداء ملابسها؟

فحدجته بنظرة غريبة وهي تضيّق عينيها، ثمّ قالت:

ـ السلطانة ليست في البيت...

فتساءل متظاهرًا بالدهشة:

ـ أين هي يا ترى؟

فقالت وهي تهزّ رأسها، راسمة على شفتيها ابتسامة غامضة:

ـ علمي علمك...

فكّر في إجابتها قليلًا، ثمّ قال:

ـ ظننتها تطلعك على خطّ سيرها؟

فلوّحت بيدها كالمستنكرة، وقالت:

ـ إنّك حَسَن الظنّ بنا (ثمّ ضاحكة) السلطة العسكريّة زمانها انتهى! وإن شئت فأنت أحقّ منّي بالاطّلاع على خطّ سيرها!

ـ أنا؟!

ـ لِمَ لا، ألستَ صديقها القديم؟

قال، وهو يحدجها بنظرة باسمة عميقة ناطقة:

ـ الصديق القديم والغريب سواء، ترى هل يطّلع أصدقاؤك القدماء على خطّ سيرك؟

رفعت منكبها الأيمن وهي تمطّ بوزها، قائلة:

ـ ليس لي أصدقاء، لا قدماء ولا حديثون...

فراح يعبث بفردة شاربه وهو يقول:

ـ هٰذا كلام لمن لا عقل له، أمّا من له ولو شيء من العقل فلا يتصوّر كيف يمكن أن تكوني بين قوم يبصرون ولا يستبقوا إلى صداقتك...

ـ إن هي إلّا تصوّرات الكرماء أمثالك! ولٰكنّها لا تعدو التصوّرات الخياليّة، الدليل على هٰذا أنّك صديق قديم لهٰذا البيت، فهل راق لك يومًا أن تهبني قسطًا من صداقتك؟

قطّب في ارتباك، ثمّ قال بعد تردّد:

ـ كنت وقتذاك، أعني أنّه كانت ثمّة ظروف...

ففرقعت بأصابعها، وقالت ساخرة:

ـ لعلّها نفس الظروف التي حالت بيني ـ يا عيني ـ وبين الآخرين!

ألقى بظهره إلى مسند الكنبة في حركة سريعة تمثيليّة ثمّ مدّ نظره إليها من فوق أنفه العظيم، وهو يهزّ رأسه كالمستعيذ بالله منها، ثمّ قال:

ـ أنت عقدة، وها أنا أعترف بأنّني لا قِبَل لي بك!

فدارت ابتسامة بعثها الثناء، ثمّ تظاهرت بالدهشة، وهي تقول:

ـ لا أفهم ممّا تعني شيئًا، الظاهر أنّك في وادٍ وأنّي في وادٍ، المهمّ أنّك قلت إنّك جئت لمقابلة خالتي، فهل من رسالة أبلغها إيّاها عند عودتها؟.

ضحك السيّد ضحكة قصيرة، ثمّ قال:

ـ قولي لها إنّ أحمد عبد الجواد جاء ليشكوني إليك، فلم يجدك!

ـ تشكوني أنا! ماذا صنعت؟

ـ قولي لها إنّي جئت أشكو إليها ما لقيت منك من قسوة ليست من شيم الحسان!

ـ يا له من قول خليق برجل يجعل من كلّ شيء مادّة لمزاحه ودعابته!

فاعتدل في جلسته، وقال جادًّا:

ـ معاذ الله أن أجعل منك مادّة للمزاح أو الدعابة؟! إنّ شكواي صادقة، ويخيّل إليّ أنّك واقفة على سرّها، ولٰكنّه دلال الحسان، وللحسان الحقّ كلّ الحقّ في التدلّل، ولٰكن عليهنّ مراعاة الرحمة أيضًا.

فمصمصت بشفتيها قائلة:

ـ عجب!...

ـ لا عجب ألبتّة!! أتذكرين ما كان بالأمس في دكّان يعقوب الصائغ؟ هل يستحقّ ذٰلك اللقاء الجافّ مَن كان يعتزّ بِمثل مودّتي لكم وقدم عهدي بكم؟ وددت لو استعنت بي مثلًا فيما كان بينك وبين الصائغ، ووددت لو أتحت لي الفرصة كي أضع خبرتي في خدمتك، أو أن تتواضعي درجة أخرى فتسمحي لي بأن أنهض بالأمر كلّه كما لو كانت الأسورة أسورتي

أو كانت صاحبتها صاحبتي!...

ابتسمت، وهي ترفع حاجبيها في شيء من الارتباك، ثمّ قالت باقتضاب:

ـ تشكر...

تنفّس الرجل تنفّسًا عميقًا ملأ به صدره العريض، ثمّ قال بحماس:

ـ مثلي لا يقنع بالشكر، ماذا يفيد الجائع إن أعرضت عنه، وأنت تقولين له: «على الله؟!»، الجائع يريد الطعام، الطعام الشهيّ اللذيذ.

شبكت ذراعيها على صدرها وهي تتظاهر بالدهش، ثمّ قالت ساخرة:

ـ أنت جائع يا سي السيّد؟! عندنا ملوخيّة وأرانب تستاهل فمك...

وهو يضحك عاليًا:

ـ عال، اتّفقنا، ملوخيّة وأرانب، تضاف إليها زجاجة ويسكي، ثمّ نحلّي بشيء من العود والرقص، ونتمدّد ساعة معًا حتّى نهضم...

فلوّحت له بيدها كأنّما تهتف به «إلى الوراء»، وقالت:

ـ الله الله، سكتنا له دخل بحماره... بُعْدك!

ضمّ أصابع يمناه الخمس، حتّى صارت كفم مزموم، وجعل يرفعها ويخفضها بتؤدة، وهو يقول بلهجة وعظيّة:

ـ يا بنت الحلال لا تضيّعي الوقت الغالي في الكلام...

وهي تهزّ رأسها في زهو ودلال:

ـ بل قل لا تضيّعي الوقت الغالي مع الكهول...!

مسح السيّد صدره العريض بكفّه في حركة توحي بالتحدّي الباسم، ولكنّها هزّت منكبيها ضاحكة، وهي تقول:

ـ ولو...

ـ ولو؟ يا لك من طفلة، حرام عليّ النوم إن لم أعلّمك ما ينبغي أن تعلميه، هاتي الملوخيّة والأرانب والويسكي والعود وزنّار الرقص، هيّا... هيّا...

ثنت سبّابة يسراها وألصقتها بحاجبها الأيسر، ثمّ أرعشت حاجبها الأيمن وهي تتساءل:

ـ ألا تخاف أن تكبسنا السلطانة على غفلة؟

ـ لا تخافي، لن تعود السلطانة الليلة...

فحدجته بنظرة حادّة مريبة، وتساءلت:

ـ من أدراك بذلك؟

انتبه إلى عثرة لسانه، فأوشك لحظة أن يغلبه الارتباك، ولكنّه تخلّص منه قائلًا في لباقة:

ـ السلطانة لا تبقى في الخارج حتّى هٰذه الساعة إلّا لضرورة تستدعي بقاءها حتّى الصباح!

جعلت تحدّق في وجهه طويلًا دون أن تنبس، ثمّ هزّت رأسها في سخرية ظاهرة، ثمّ قالت بصوت مليء بالثقة:

ـ يا لمكر الكهول! يضعف فيهم كلّ شيء إلّا مكرهم! هل حسبتني غفلانة؟ كلّا وحياتك، إنّي أعلم كلّ شيء...

عاد إلى العبث بفردة شاربه في شيء من الضيق، ثمّ سألها:

ـ ماذا تعلمين؟

ـ كلّ شيء!

وتريّثت قليلًا لتزيد من ارتباكه، ثمّ استطردت:

ـ أتذكر يوم جلست على قهوة سي عليّ لتسترق النظر من نافذة القهوة؟ يومها عيناك حفرت جدار بيتنا من شدّة النظر! ولـمّا ركبت العربة الكارو مع أفراد التخت ساءلت نفسي: ترى هل يتبعنا مهلّلًا وراءنا كما يفعل الصبية؟ ولٰكنّك عقلت وانتظرت فرصة أحسن!

قهقه الرجل حتّى اشتدّت حمرة وجهه، ثمّ قال بتسليم:

ـ اللّٰهمّ اعفُ عنّا...

ـ ولٰكنّك نسيت عقلك أمس، عندما رأيتني أمام خان جعفر فتبعتني حتّى دخلت ورائي دكّان يعقوب...

ـ عرفت هٰذا أيضًا يا بنت أخت زبيدة؟

ـ نعم يا زين العشّاق، بيد أنّي لم أكن أتصوّر أنّك ستدخل ورائي الدكّان، ولٰكنّي ما لبثت أن وجدتك جالسًا فوق الكنبة ولا عفريت النسوان نفسه، ولـمّا

تظاهرت بالدهشة لرؤيتي كدت أطلق لساني فيك بما قسم، ولكنّ الموقف أملى عليّ الأدب. . .

تساءل ضاحكًا، وهو يضرب كفًّا بكفّ:

ـ ألم أقل إنّك عقدة؟

فواصلت الحديث وهي في نشوة من الفوز والسرور:

ـ وما أدري ليلة إلّا والسلطانة تقول لي: استعدّي، إنّنا ذاهبتان إلى عوّامة محمّد عفّت، فمضيت لأستعدّ، ولكنّي سمعتها تقول بعد ذٰلك: إنّ السيّد أحمد هو الذي اقترح الدعوة! لعب في عبّي الفار، وقلت لنفسي: السيّد أحمد لا يقترح شيئًا لوجه الله، وفهمت الفولة، فلم أذهب معتلّة بصداع!

ـ يا لي من مسكين! وقعت في مخالب من لا يرحم، هل عندك مزيد؟. . .

ـ لو اطّلعتم على الغيب لاخترتم الواقع. . . .

ـ ما أحلى هٰذا الكلام! قلّد الوعّاظ، يا أفسق خلق الله!

وهو يضحك عاليًا:

ـ الله يسامحك. . . .

ثمّ متسائلًا في سرور غير خافٍ:

ـ فهمت الفولة هٰذه المرّة أيضًا، ولكنّك بقيت، فلم تغادري البيت أو تخفي نفسك. . .

ونهض قبل أن يتمّ جملته فاتّجه نحوها، وجلس إلى جانبها، ثمّ تناول طرف الوشاح المرصّع بالترتر فقبّله، وهو يقول:

ـ اللّهمّ إنّي أشهد بأنّ هٰذه المخلوقة الجميلة ألذّ من أنغام عودها، لسانها سوط، وحبّها نار، وعاشقها شهيد، وسوف يكون لهٰذه الليلة شأن في التاريخ كلّه. . .

أبعدته عنها بكفّها قائلة:

ـ لا تأخذني في دوكة، هوه!، عد إلى مجلسك. . .

ـ لن يفصل بيننا شيء بعد الآن. . . .

جذبت وشاحها فجأة من يده ونهضت مبتعدة قليلًا، ثمّ وقفت على بعد ذراع منه تمعن فيه نظرًا صامتًا، وكأنّما تراجع نفسها في أمور ذات شأن، ثمّ قالت:

ـ لم تسألني عمّا جعلني أتخلّف عن الذهاب إلى العوّامة ـ يوم دعانا محمّد عفّت ـ بناء على اقتراحك. . .

ـ كي تزيدي النار اشتعالًا!!

ضحكت ثلاث ضحكات متقطّعة، ثمّ صمتت مليًّا، ثمّ قالت:

ـ فكرة لا بأس بها ولٰكنّها قديمة، أليس كذٰلك يا زين الفسّاق؟. . . ستظلّ الحقيقة سرًّا حتّى أرى أن أفشيه عندما يحلو لي. . .

ـ أقدّم حياتي ثمنًا له. . .

ابتسمت ابتسامة صافية لأوّل مرّة، ولاحت في عينيها نظرة رقيقة جاءت في أعقاب سخرياتها، كما يجيء الهدوء في أعقاب زوبعة، وبشّر حالها بسياسة جديدة ومعنى جديد، فاقتربت منه خطوة ومدّت يديها إلى شاربه برشاقة وراحت تجدله بعناية، ثمّ قالت بنبرات لم يسمعها من قبل:

ـ إذا قدّمت حياتك ثمنًا لهٰذا، فماذا يبقى لي أنا؟

وجد راحة عميقة لم يجد مثلها منذ تلك الليلة الخاسرة في العوّامة، وكأنّما كان يفوز بامرأة لأوّل مرّة في حياته، تناول يديها من فوق شاربه وأودعهما بين راحتيه الكبيرتين، ثمّ قال بحنان وامتنان:

ـ أنا نشوان يا ستّ الكلّ، نشوان لحدّ يعجزني عن الوصف، دمت لي إلى الأبد، إلى الأبد، لا عاش من ردّ لك رجاء أو طلبًا، أتمّي نعمتك عليّ وهيّئي مجلسنا، الليلة ليست كالليالي الأخريات، وهي تستحقّ أن نحتفل بها حتّى مطلع الفجر. . .

قالت وهي تلعب بأناملها بين راحتيه:

ـ ليست هٰذه الليلة كالليالي الأخريات حقًّا، ولكن ينبغي أن نقنع منها بالقليل. . .

القليل! هل ثمّة صدّ بعد هٰذا اللطف كلّه؟ لم يعد بك صبر.

مضى يربّت كفّيها، ثمّ بسط راحتيها، ونظر بافتتان في لون الحنّاء الورديّ الذي يصبغهما، وما يدري إلّا وهي تسأله بصوت ضاحك:

ـ هل تقرأ الكفّ يا سيّدنا الشيخ؟

ابتسم، وقال مداعبًا:

ـ أنا من المشهود لهم في قراءته، أتحبّين أن أقرأ لك كفّك؟

أحنت رأسها بالإيجاب. فراح يتأمّل راحتها اليمنى متظاهرًا بالتفكير، ثمّ قال باهتمام:

ـ في طريقك رجل سيكون له شأن في حياتك...

تساءلت ضاحكة:

ـ في الحلال يا ترى؟

ارتفع حاجباه وهو يمعن النظر في كفّها، ثمّ قال دون أن يبدو على وجهه أثر ولو خفيف للمزاح:

ـ بل في الحرام!

ـ أعوذ بالله! ما عمره؟

نظر إليها من تحت حاجبيه، ثمّ قال:

ـ غير واضح ولكن إذا قسته بمقياس مقدرته فهو في عنفوان الشباب!...

فتساءلت بمكر:

ـ أهو كريم يا ترى؟

آه، لم يكن الكرم ممّا يزكّيك عندهنّ قديمًا.

ـ لم يعرف البخل قلبه...

فكّرت قليلًا ثمّ عادت تتساءل:

ـ هل يرضيه أن أبقى كالتابعة في هذا البيت؟

العجل وقع هاتوا السكاكين...

ـ بل سيجعلك سيّدة قدّ الدنيا!...

ـ أين يا ترى سأقيم في كنفه؟

زبيدة نفسها لم تكلّفك شيئًا من هذا، سيقولون فيك ويعيدون...

ـ شقّة جميلة...

ـ شقّة؟!...

عجب للهجتها المستنكرة، فسألها داهشًا:

ـ ألا يعجبك هذا؟

قالت وهي تشير إلى راحتها:

ـ ألا ترى ماء يجري؟... انظر جيّدًا...

ـ ماء يجري!... أتودّين السكنى في حمّام؟

ـ ألا ترى النيل... عوّامة أو ذهبيّة...؟!

أربعة جنيهات أو خمسة شهريًا دفعة واحدة، غير النفقات الأخرى، آه!، لا تعشقوا أولاد السفلة!...

ـ لماذا تختارين مكانًا بعيدًا عن العمران؟...

اقتربت منه حتّى مسّت ركبتاها ركبتيه، وقالت:

ـ لستَ دون محمّد عفّت جاهًا، ولستُ دون السلطانة حظًّا ما دمت تحبّني كما تقول، وفي وسعك أن تسهر فيها أنت وأصحابك، إنّها حلمي فحقّقه لي...!

أحاط وسطها بذراعيه، ولبث صامتًا ليستشعر في هدوء مسّها ولينها، ثمّ قال:

ـ لك ما تشائين يا أملي...

فكان الشكر أن ألصقت راحتيها بخدّيه، ثمّ قالت:

ـ لا تظنّ أنّك تعطي دون أن تأخذ، اذكر دائمًا أنّه من أجلك سأغادر هذا البيت الذي عشت عمري فيه إلى غير رجعة، واذكر أنّني إذ أطالبك بأن تجعلني سيّدة فما ذلك إلّا لأنّه لا يليق بمن كانت صاحبة لك أن تكون أقلّ من سيّدة...!

شدّ ذراعيه حول وسطها حتّى التصق صدرها بوجهه، ثمّ قال:

ـ إنّي أدرك كلّ شيء يا نظري، سيكون لك ما تحبّين وأكثر، أحبّ أن أراك كما تحبّين أن تري نفسك، والآن هيّئي لنا مجلسنا، أريد أن أبدأ حياتي من الليلة...

أمسكت بساعديه، ثمّ ابتسمت إليه ابتسامة اعتذار، وقالت برقّة:

ـ عندما نجتمع في عوّامتنا على النيل...

قال لها محذّرًا:

ـ لا تثيري جنوني، هل تستطيعين أن تقاومي صولتي؟

فتراجعت وهي تقول بلهجة تجمع بين التوسّل والإصرار:

ـ ليس في البيت الذي عملت فيه وصيفة، انتظر حتّى يجمعنا المسكن الجديد، مسكنك ومسكني، عند ذاك أكون لك إلى الأبد، ليس قبل ذلك وحياتك عندي وحياتي عندك...!

«خير إن شاء الله» . . .

هٰذا ما ردّده أحمد عبد الجواد في نفسه وهو يطالع ياسين مقبلًا نحوه في الدكّان. . . . كانت زيارة غريبة وغير متوقّعة، أعادت إلى ذاكرته زيارته القديمة لدكّانه، يوم جاءه ليشاوره فيما ترامى إليه من اعتزام المرحومة أمّه الزواج للمرّة الرابعة، والحقّ أنّه أيقن أنه لم يجئه لتبادل التحيّة والسلام ولا للحديث في شأن عاديّ ممّا يمكن أن يحدثه في البيت، أجل إنّ ياسين لا يجيء إلى مقابلته في الدكّان إلّا لشأن خطير. صافحه، ثمّ دعاه إلى الجلوس، وهو يقول:

- خير إن شاء الله . . .

جلس ياسين على كرسيّ قريب من مجلس أبيه وراء مكتبه، موليًا بقيّة الدكّان ظهره حيث وقف جميل الحمزاوي أمام الميزان يزن بضاعة لبعض الزبائن، ونظر إلى أبيه في شيء من ارتباك وكّد حدسه، فأغلق الرجل دفترًا كان يسجّل فيه أرقامًا واعتدل في جلسته متأهّبًا لما يجيء، وقد بدت إلى يمينه الخزينة نصف مفتوحة، وفوق رأسه صورة سعد زغلول في بدلة الرياسة معلّقة في الجدار تحت إطار البسملة القديم. ولم يكن قصد الدكّان اعتباطًا ولٰكن عن تدبّر وتفكير باعتباره آمن مكان لمقابلة أبيه بما جاء من أجله، إذ أنّ وجود جميل الحمزاوي به ومن يتّفق وجودهم من الزبائن خليق بأن يهيّئ له درعًا واقيًا من الغضب إذا جاءت دواعيه، وكان يحسب ألف حساب لغضب أبيه رغم الحصانة التي اكتسبها بتقدّم العمر والمعاملة الطيّبة التي يحظى بها بوجه عامّ . . .

قال ياسين بأدب بالغ:

- اسمح لي بقليل من وقتك الغالي، لولا الضرورة ما تجرّأت على إزعاجك، ولٰكنّي لا يمكن أن أخطو خطوة دون استنارة برأيك، واعتماد على رضاك . . .

ابتسم بباطن السيّد أحمد هازئًا من هٰذا الأدب الجمّ، وجعل يتأمّل فتاه الضخم الجميل الأنيق في حذر، ملقيًا عليه نظرة إجماليّة شملت شاربه المجدول على طريقته - هو - وبذلته الكحليّة وقميصه ذا البنيقة المنشّية والبابيون الأزرق والمنشّة العاجيّة والحذاء الأسود اللامع، ولم يكن ياسين قد مسّ مظهره - تأدّبًا في محضر أبيه - إلّا في نقطتين، فأخفى طرف منديله الحريريّ الذي يطلّ من جيب جاكتته الأعلى، وعدّل طربوشه الذي يعوجه عادة إلى اليمين. يقول: إنّه لا يمكن أن يخطو خطوة دون استنارة برأيه!! مرحى . . . هل استنار به وهو يسكر؟ وهو يسبح على وجهه في وجه البركة الذي حرّمه عليه؟ هل استنار به ليلة وثب على الجارية فوق السطح؟ مرحى!! مرحى!! ماذا وراء هٰذه الخطبة المنبريّة؟

- طبعًا، هٰذا أقلّ ما يُنتظر من رجل عاقل مثلك، خير إن شاء الله؟

التفت ياسين التفاتة سريعة لحظ بها جميل الحمزاوي ومن معه، ثمّ قرّب الكرسيّ من المكتب، واستجمع شجاعته، قائلًا:

- اعتزمت - بعد موافقتك ورضاك - أن أكمل نصف ديني . . .

مفاجأة حقيقيّة! . غير أنّها مفاجأة سارّة على غير ما توقّع، ولٰكن مهلًا!! لن تكون سارّة حقًّا إلّا بشروط، فلينتظر حتّى يسمع الأهمّ من الحديث!! أليس ثمّة ما يدعو إلى القلق؟ بلى! تلك المقدّمة البالغة في الأدب والتودّد، إيثاره الدكّان مكانًا للحديث لدواعٍ لا يمكن أن تخفى عن فطنة الفَطِن، أمّا الزواج في ذاته فطالما تمنّاه له، تمنّاه حين ألحّ على محمّد عفّت ليردّ إليه زوجته، وتمنّاه حين دعا الله في أعقاب صلواته أن يهديه إلى الرشاد وبنت الحلال، بل لعلّه لولا إشفاقه من أن يحرجه مع أصدقائه كما أحرجه من قبل مع محمّد عفّت لما تردّد من تزويجه مرّة أخرى، فلينتظر! وعسى ألّا يتحقّق شيء من مخاوفه . . .

- اعتزام جميل أوافق عليه كلّ الموافقة، فهل وقع اختيارك على أسرة معيّنة؟

خفض ياسين عينيه لحظة، ثمّ رفعهما قائلًا:

- وجدت بغيتي، بيت كريم خبرناه بطول الجوار، وكان ربّه من معارفك المحمودين . . .

رفع السيّد حاجبيه متسائلًا دون أن ينبس، فقال ياسين:

ـ المرحوم السيّد محمّد رضوان!

ـ لا. . . . !

ندّت عن السيّد أحمد قبل أن يتمالك نفسه، ندّت عنه في تأفّف واحتجاج حتّى شعر بأنّه ينبغي أن يبرّر تأفّفه واحتجاجه بسبب وجيه يداري به حقيقة مشاعره، ولم يعوزه ذٰلك، فقال:

ـ أليست كريمته مطلّقة؟! فهل ضاقت الدنيا حتّى تتزوّج من ثيّب؟!. . .

لم يفاجأ ياسين بهٰذا الاعتراض، كان يتوقّعه منذ اللحظة التي عزم فيها على الزواج من مريم، غير أنّه كان قويّ الأمل في التغلّب على معارضة أبيه التي لم يتصوّر أن تكون إلّا صدى لتفضيل البكر على الثيّب أو تجنّبًا لامرأة عسيّة بأن تذكّره بمأساة ابنه الراحل، وكان يؤمن بحكمة أبيه ويرجو أن تستهين في النهاية بهٰذين المأخذين الواهيين، بل كان يعتمد كلّ الاعتماد على موافقته في التغلّب على المعارضة الحقيقيّة التي يتوقّعها عند امرأة أبيه. . . تلك المعارضة التي وقف أمام التفكير فيها حائرًا حتّى خطر له أن يغادر البيت مغادرة الهارب كي يتزوّج كما يحلو له مواجهًا الجميع بالأمر الواقع، ولولا أنّ إغضاب أبيه كان فوق طاقته لفعل، إلّا أنّه عزّ عليه أن يتجاهل عواطف أمّه الثانية ـ بل أمّه الأولى ـ قبل أن يبذل قصاراه لاستمالتها واقتناعها برأيه، قال:

ـ لم تضق بي الدنيا، ولكنّها القسمة والنصيب. . . أنا لا أبحث عن المال أو الجاه، وحسبي الأصل الطيّب والخلق القويم. . .

إن كان ثمّة عزاء وسط هٰذه الأمور المعقّدة المؤسفة، فهو صدق رأيه الذي لا يكذب أبدًا. هٰذا هو ياسين بلا زيادة ولا نقصان، إنسان ـ أو حيوان ـ تسير المتاعب بين يديه ومن خلفه، ولو جاء بنبأ سعيد أو زفّ إليه بشرى سارّة لما كان ياسين ولخاب تقديره ورأيه فيه، لعلّه ممّا لا يعيبه ألّا يبحث في الزوجة عن المال أو الجاه أمّا الخلق فمسألة أخرى، ولٰكنّ البغل معذور ويبدو ـ وهٰذا طبيعيّ ـ أنّه لا يدري شيئًا عن سيرة أمّ الفتاة التي يرومها زوجة، تلك سيرة يعرفها هو وحده معرفة الفاعل، ولعلّ آخرين سبقوه إليهما أو لحقوا به، فما العمل؟ أجل قد تكون الفتاة مهذّبة، ولٰكن من المؤكّد أنّها لم تظفر بأحسن أمّ ولا بأحسن بيئة، ومن المؤسف أنّه لا يستطيع أن يجهر برأيه ـ ذاك ـ ما دام لا يسعه أن يقرن القول بالدليل، خاصّة وأنّه رأي خليق بأن يقابل ـ ممّن يسمعه لأوّل مرّة ـ بالإنكار والانزعاج، والأدهى من ذٰلك أنّه يخاف أن يلمّح إليه فيدفع ياسين إلى البحث والاستقصاء فيعثر آخر الأمر على أثر بصماته هو ـ أبيه ـ فتكون الفضيحة التي ليس وراءها فضيحة.

المسألة إذن دقيقة حرجة، ثمّ إنّ ثمّة شوكة حادّة تكمن في تضاعيفها ـ هي ـ تاريخ قديم يتّصل بفهمي، ألا يذكر ياسين ذٰلك؟ كيف هان عليه أن يرغب في فتاة تطلّع إليها قديمًا أخوه الراحل؟ أليس هٰذا سلوكًا بغيضًا؟ بل إنّه لكذٰلك وإن كان لا يشكّ في إخلاص الشابّ لأخيه الراحل، إنّ منطق الحياة القاسي يقيم عذرًا لأمثاله، إنّ الرغبة طاغية أعمى لا يرحم وهو أخبر الناس بذٰلك!

قطّب الرجل ليشعره بتضايقه، ثمّ قال:

ـ إنّ قلبي لم يرتح لاختيارك، لا أدري لماذا، كان المرحوم السيّد محمّد رضوان رجلًا طيّبًا حقًّا، ولٰكنّ الشلل حال بينه وبين رعاية بيته من زمن بعيد سابق لوفاته، لم أقصد بهٰذه الملاحظة إساءة الظنّ بأحد، كلّا! ولٰكنّه كلام يقال، ربّما ردّده بعض الناس، هه؟ الأهمّ عندي أنّ الفتاة مطلّقة، لماذا طُلّقت؟ هٰذا سؤال من أسئلة كثيرة ينبغي أن تعلم جوابها، لا يصحّ أن تأمن مطلّقة حتّى تستقصي كلّ شيء عنها، لعلّ هٰذا ما أردت قوله، والدنيا ملأى ببنات الناس الطيّبين.

قال ياسين متشجّعًا بأسلوب أبيه، الذي اقتصر على النقاش والنصح:

ـ بحثت بنفسي وبواسطة آخرين، فتبيّن لي أنّ الحقّ كان على الزوج، إذ كان متزوّجًا وأخفى عنهم

ذٰلك، فضلًا عن عجزه عن الإنفاق على بيتين في وقت واحد وسوء خلقه!

سوء خلقه! إنّه يتكلّم ـ بلا حياء ـ عن سوء الخلق، البغل يمدّك بمادّة بكر لمزاح سهرة كاملة! قال:

ـ إذن فرغت من البحث والتقصّي!

قال ياسين بحياء، وهو يتهرّب من عيني أبيه الحادّتين:

ـ تلك خطوة بديهيّة. . .

فسأله الرجل وهو يخفض عينيه:

ـ ألم تدرك أنّ تلك الفتاة ترتبط بذكريات أليمة لنا؟

اعتراه الارتباك حتّى اختطف لونه، وهو يقول:

ـ لم يكن من الممكن أن يغيب عنّي هٰذا، ولكنّه وهم لا أصل له، فإنّي أعرف عن يقين أنّ المرحوم لم يهتمّ بالأمر كلّه إلّا أيّامًا معدودات ثمّ نسيه نسيانًا تامًّا، وأكاد أجزم بأنّه ارتاح فيها بعد إلى فشل مسعاه إذ اقتنع بأنّ الفتاة لم تكن طلبته كما توهّم. . .

ترى: أيقول ياسين الحقّ، أم يدافع عن موقفه؟ كان نجيّ المرحوم ولعلّه الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يزعم أنّه مطّلع على ما لا علم للآخرين به من خاصّة شئونه، فليته كان صادقًا! أجل، ليته كان صادقًا إذن لأعفاه من عذاب يؤرّقه كلّما ذكر أنّه وقف يومًا عثرة في سبيل سعادة الفقيد أو كلّما خطر بباله أنّه ربّما مات تعيس القلب أو ناقمًا عليه استبداده وتعنّته، تلك الآلام التي نهشت قلبه، هل يريد ياسين أن يعفيه منها؟

سأل ياسين بلهفة لم يفطن الشابّ إلى عمقها:

ـ أأنت حقًّا على يقين ممّا تقول؟ هل صارحك به؟

ولثاني مرّة في حياته رأى ياسين أباه على حال من الانكسار لم يشهد مثلها إلّا يوم مصرع فهمي، وهو يقول له:

ـ كاشِفْني الحقيقة عارية عن كلّ تخفيف، الحقيقة الكاملة، هٰذا يهمّني فوق ما تتصوّر، (وكاد يعترف له بألمه، ولٰكنّه أمسك الاعتراف وهو على طرف لسانه)... الحقيقة الكاملة يا ياسين!

فقال ياسين دون تردّد:

ـ إنّي على يقين ممّا أقول! خبرته بنفسي وسمعته بأذنيّ، لا شكّ في ذٰلك مطلقًا!. . .

في ظروف أخرى لم يكن هٰذا القول ـ ولا أبلغ منه ـ كافيًا لإقناعه بصدق ياسين، لٰكنّه كان في الحقّ متعطّشًا إلى تصديقه، فصدّقه وآمن به، وامتلأ قلبه نحوه بامتنان عميق وسلام شامل. لم تعد مسألة الزواج ـ في تلك اللحظة على الأقلّ ـ ممّا يكربه، ولاذ بالصمت مليًّا هانئًا بالسلام الذي غمر قلبه، ورويدًا رويدًا!! مضى يستردّ شعوره بالموقف ويرى ياسين بعد أن غيّبه عن عينيه الانفعال، فعاد يفكّر في مريم وأمّ مريم وزواج ياسين وواجبه وما يستطيع قوله وما لا يستطيع قوله، قال:

ـ مهما يكن من أمر فإنّي أودّ أن تولي المسألة تفكيرًا أعمق، وحذرًا أشدّ، لا تتعجّل، مدّ لنفسك فسحة التدبّر والمراجعة، إنّها مسألة مستقبل وكرامة وسعادة، وإنّي على استعداد لأن أختار لك بنفسي مرّة أخرى إذا وعدتني وعد رجل صادق ألّا تجعلني أندم على تدخّلي لما فيه صلاحك، هه؟ ما رأيك؟

صمت ياسين متفكّرًا، مستاء من تحوّل الحديث إلى مجرى ضيّق محفوف بالحرج، حقًّا أنّ الرجل يتحدّث بحلم عجيب، ولٰكنّه لم يخفِ قلقه وعدم ارتياحه. فإذا أصرّ على رأيه بعد ذٰلك فقد يجرّهما النقاش إلى شقاق غير مستحبّ، ولٰكن هل ينكص تفاديًا من هٰذه العاقبة؟ كلّا! لم يعد طفلًا! سيتزوّج بمن يشاء كما يشاء، ولٰكن فليعنه الله على الاحتفاظ بمودّة أبيه! قال:

ـ لا أريد أن أجشّمك تعبًا جديدًا، شكرًا لك يا بابا، غاية ما أتمنّى أن أحظى بموافقتك ورضاك. . .

لوّح السيّد يده في نفاد صبر، وقال بلهجة لم تخلُ من حدّة:

ـ تأبى أن تفتح عينيك على ما في رأيي من حكمة. . . !

فقال ياسين برجاء حارّ:

ـ لا تغضب يا بابا، أستحلفك بالله ألّا تغضب، إنّ رضاك بركة، ولا أطيق أن تضنّ عليّ بها، دعني أجرّب حظّي وادعُ لي بالتوفيق. . .

اقتنع أحمد عبد الجواد بأنّ عليه أن يسلّم بالأمر الواقع، فسلّم به في حزن ويأس... أجل! ربّما كانت مريم ـ رغم استهتار أمّها ـ فتاة شريفة وزوجة صالحة، ولْكن لا شكّ كذٰلك في أنّ ياسين لم يوفّق إلى اختيار أصلح الزوجات ولا أفضل البيوت.

الأمر لله، مضى الزمن الذي كان يملي فيه إرادته إملاء فلا يجد رادًّا لها، وياسين اليوم رجل مسئول ولن يجني من محاولة فرض رأيه عليه إلّا العصيان... فليسلّم بالأمر الواقع، وليسأل الله السلامة...

عاود النصح والتبصير فلجأ ياسين كرّة أخرى إلى الاعتذار والتودّد حتّى لم يعد ثمّة زيادة لمستزيد... غادر الدكّان وهو يقنع نفسه بأنّه نال موافقة أبيه ورضاه، على أنّه كان يعلم أنّ الأزمة الخطيرة حقًّا هي التي تنتظره في البيت، وكان يعلم أيضًا أنّه سيترك البيت حتمًا، لأنّ مجرّد التفكير في إمكان ضمّ مريم إلى الأسرة ضرب من الجنون، فرجا أن يتركه بسلام غير مخلّف وراءه عداوة أو حقدًا، إذ لم يكن من اليسير عليه أن يستهين بامرأة أبيه أو يتنكّر لعهدها وفضلها عليه، لم يكن يتصوّر أن تدفعه الأيّام إلى وقوف هٰذا الموقف الغريب من البيت وآلِهِ، ولْكن تعقّدت الأمور وضاقت السبل حتّى لم يبقَ من منفذ إلّا الزواج. والعجب أنّه لم تغب عن فطنته السياسة النسائيّة التي رُسمت للإيقاع به، سياسة قديمة تتلخّص في كلمتين: التودّد والتمنّع. ولْكنّ الرغبة في الفتاة كانت قد تسرّبت إلى دمه ولم يعد بدّ من إروائها بأيّ سبيل ولو كان الزواج، وأعجب من ذاك أنّه كان يعلم من تاريخ مريم ما يعلمه أفراد أسرته جميعًا ـ عدا والده بطبيعة الحال ـ ولْكنّ رغبته طغت فلم يصدّه ذٰلك عن فكرته أو يزهده فيها، وقال لنفسه: لِمَ أكرب قلبي على ماضٍ فات لست مسئولًا عنه، سنبدأ معًا حياة جديدة، ومن هنا تبدأ مسئوليّتي، وإنّ ثقتي بنفسي لا حدّ لها، وإذا حدث أن خيّبتْ ظنّي نبذْتُها كما يُنبذ الحذاء البالي...

والحقّ أنّه لم يستلهم فيما عزم فكره ولْكنّه استخدمه في تبرير رغبته الجامحة التي لا تزدجر، فأقبل على الزواج هٰذه المرّة كبديل من مخادنة امتنعت عليه، غير أنّ ذٰلك لا يعني أنّه أضمر نحوه سوءًا أو أنّه اتّخذه ذريعة مؤقّتة لقضاء لبانة، فالحقّ أيضًا أنّ نفسه ـ رغم تقلّباتها التي لا تنفكّ عنها ـ كانت تهفو إلى حياة الزوجيّة والبيت المستقرّ...

مرّ هٰذا كلّه بخاطره وهو متّخذ مكانه ـ إلى جنب كمال ـ بمجلس القهوة، ذٰلك المجلس الذي يبدو أنّه يشهد آخر أيّامه فيه، ومضى يجيل طرفه بين كنباته وحصره الملوّنة والفانوس الكبير المدلّى من سقفه في كثير من الأسى، وكانت أمينة متربّعة كعادتها على الكنبة القائمة بين بابي حجرة نوم السيّد وحجرة المائدة، عاكفة على المجمرة رغم دفء الجوّ لتصنع قهوتها، وقد تلفّعت بخمار أبيض فوق جلباب بنفسجيّ نمّ عن ضمورها، واكتنفها هدوء يشاب عند الصمت بأمارات الحزن، كما الشاطئ إذا استكنّ شفّ عمّا في باطنه. شدّ ما شعر بالأسف والحرج وهو يأخذ أهبته للإفصاح عمّا في ضميره، ولْكن لم يكن من الإفصاح بدّ، فقال بعد أن فرغ من احتساء قهوته دون أن يذوق لها طعمًا:

ـ والله يا نينة لديّ مسألة أريد أن أستشيرك فيها...

وتبادل مع كمال نظرة دلّت على أنّ الأخير على عِلْم سابق بموضوع الحديث، وأنّه يترقّب عواقبه باهتمام لا يقلّ عن اهتمام ياسين نفسه. قالت أمينة:

ـ خير يا بنيّ...

قال ياسين باقتضاب:

ـ قرّرت أن أتزوّج...

فتجلّى في عينيها العسليّتين الصغيرتين اهتمام باسم، ثمّ قالت:

ـ خير ما قرّرت يا بنيّ، لا ينبغي أن يطول انتظارك أكثر ممّا طال.

ثمّ لاحت في عينيها نظرة متسائلة، ولْكنّها بدل أن تفصح عن تساؤلها، قالت وكأنّما تستدرجه إلى الاعتراف كأنّ ثمّة سرّ:

ـ خاطِبْ والدك أو دعني أخاطبه، ولن يعجزه أن يجد لك زوجة جديدة خيرًا من الأولى...

قال ياسين في رزانة بدت لها أكثر ممّا يستدعي الأمر:

ـ خاطبت أبي بالفعل، وليس هناك حاجة إلى تكليفه عناء جديدًا لأنّي اخترت بنفسي، وقد وافق أبي، فأرجو أن أحوز موافقتك أيضًا.

تورّد وجهها حياء وسرورًا بما أولاها من أهمّيّة، فقالت:

ـ ربّنا يوفّقك إلى ما فيه الخير، عجّل حتّى تعمّر لنا الدور المهجور، ولكن مَن بنت الحلال التي قرّرت أن تتّخذها زوجة؟

تبادل مع كمال نظرة أخرى، ثمّ قال في عناء:

ـ جيران تعرفينهم!...

ارتسم بين حاجبيها تقطيب التذكّر وهي تمدّ نظرها إلى لا شيء، محرّكة سبّابتها كأنّما تحصي مَن في مخيّلتها من الجيران، ثمّ قالت:

ـ إنّك تحيّرني يا ياسين، هلّا تكلّمت وأرحتني!

قال وهو يبتسم ابتسامة شاحبة:

ـ جيراننا الأقربون!

ـ مَن...؟!

ندّت عنها في إنكار وانزعاج وهي تحملق في وجهه، فخفض رأسه وأطبق شفتيه متجهّم الوجه، فعادت تقول بصوت متهدّج، وهي تشير بإبهامها إلى الوراء:

ـ أولئك؟! مستحيل، هل تعني ما تقول يا ياسين؟!

فأجاب بالصمت المتجهّم حتّى زعقت:

ـ خبر أسود... أولئك الذين شمتوا بنا في أجلّ مصاب؟!

فلم يتمالك أن هتف بها:

ـ أستحلفك بالله ألّا تردّدي هٰذا القول، إنّه وهم باطل، ولو اقتنع به قلبي لحظة واحدة...

ـ طبعًا تدافع عنهم، ولكنّه دفاع لا ينطلي على أحد، لا تتعب نفسك في إقناعي بالمحال، يا ربّي!! أيّ ضرورة تدعو إلى هٰذه الفضيحة؟! كلّهم نقائص وعيوب، فهل من فضيلة واحدة تبرّر هٰذا الاختيار الجائر؟ قلت إنّك نلت موافقة أبيك، الرجل لا يعلم عن هٰذه الأمور شيئًا، قل إنّك خدعته...

قال ياسين بتوسّل:

ـ هدّئي روعك، ليس أكره عندي من إغضابك، هدّئي روعك ولنتكلّم في هدوء...

ـ كيف أسمع لك وأنا أتلقّى منك هٰذه اللطمة القاسية؟! قل إنّ الأمر لا يعدو أن يكون مزاحًا سخيفًا، مريم؟! الفتاة المستهترة التي تعرف من أمرها ما نعرف جميعًا؟... هل نسيت تاريخها الفاضح؟... هل نسيت حقًّا؟ أتريد أن تجيء بهٰذه الفتاة إلى بيتنا؟!

قال وهو يزفر كأنّما يطرد من صدره الكرب والاضطراب:

ـ لم أقل هٰذا قطّ، هٰذا أمر لا أهمّيّة له، المهمّ عندي حقًّا أن تنظري إلى المسألة كلّها نظرة جديدة خالية من التحامل...

ـ أيّ تحامل يا هٰذا؟! هل ادّعيت عليها بالباطل؟ تقول إنّ أباك وافق، فهل أخبرته عن عبثها الفاضح مع الجنود الإنجليز؟ ماذا جرى لأولاد الناس الطيّبين يا ربّي؟!

ـ هدّئي روعك، دعينا نتحدّث في هدوء، ماذا يجدي هٰذا الهياج؟!

صاحت بحدّة لم تكن من طباعها في الزمن الأوّل:

ـ إنّ روعي لا يمكن أن يهدأ ما دام الأمر يتعلّق بالكرامة.

ثمّ بصوتٍ باكٍ:

ـ وأنت تسيء إلى ذكرى أخيك الغالي.

ياسين وهو يزدرد ريقه:

ـ أخي؟ رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته، إنّ هٰذا الأمر لا يمسّ ذكراه في أيّ شيء، صدّقيني فإنّي أدرى بما أقول، لا تُقلِقي مرقده!

ـ لست أنا التي أقلق مرقده، إنّما يقلق مرقده حقًّا أخوه الذي يتطلّع إلى هٰذه الفتاة، أنت تعلم هٰذا يا ياسين!! ولا تستطيع أن تنكره...

ثمّ في انفعال شديد:

ـ لعلّك كنت تتطلّع إليها حتّى في ذٰلك الزمن البعيد!

ـ نينة!!

ـ لم تعد لي ثقة في شيء، كيف تبقى لك ثقة في شيء بعد هٰذا الغدر؟! هل ضاقت الدنيا وأقفرت حتّى لم تجد من فتياتها زوجة إلّا الفتاة التي أدمت قلب أخيك؟ ألا تذكر ما أصابه من حزن وهو يستمع معنا إلى قصّة الجنديّ الإنجليزيّ؟!...

بسط ياسين ذراعيه في توسّل، قائلًا:

ـ فلنؤجّل هٰذا الحديث إلى وقت آخر، سأثبت لك فيما بعد أنّ المرحوم لبّى نداء ربّه وليس في قلبه أيّ أثر لهٰذه الفتاة، أمّا الآن فلم يعد الجوّ صالحًا للكلام...

صاحت به غاضبة:

ـ هيهات أن يصلح عندي جوّ لهٰذا الكلام، إنّك لا ترعى ذكرى فهمي...!

ـ ليتك تتصوّرين ما يُحدثه فيّ كلامك من حزن!

صاحت، وقد بلغ بها الغضب منتهاه:

ـ أيّ حزن؟! إنّك لم تحزن على أخيك! من الغرباء من حزن عليه أكثر منك!

ـ نينة!...

وهمّ كمال بالتدخّل في الحديث، ولٰكنّها أسكتته بإشارة من يدها، وهتفت:

ـ لا تدْعني نينة، لقد كنت لك أمًّا حقًّا، ولٰكنّك لم تكن لي ابنًا ولم تكن لابني أخًا!

لم يعد يحتمل البقاء، فنهض محزونًا مكتئبًا، وغادر الصالة إلى حجرته، وما لبث كمال أن لحق به ولم يكن دونه حزنًا وكآبة فقال له:

ـ ألم أحذّرك؟...

فقال ياسين مقطّبًا:

ـ لن أبقى في هٰذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن...!

فقال كمال بجزع:

ـ يجب أن تعذرها، أنت تعلم أنّ والدتي لم تعد كما كانت، إنّ أبي نفسه يغضي عن بعض هفواتها أحيانًا، ما هي إلّا غضبة لا تلبث أن تسكت فلا تحاسبها على كلامها، هٰذا رجائي إليك...

قال ياسين، وهو يتنهّد:

ـ لن أحاسبها يا كمال، لن أبيع جميل الأعوام بإساءة ساعة، إنّها معذورة كما قلت، ولٰكن كيف أطالعها بوجهي صباح مساء، وهٰذا ظنّها بي؟

ثمّ بعد لحظات صمت مشحونة بالكآبة:

ـ لا تصدّق أنّ مريم أدمت قلب المرحوم، لقد استأذن المرحوم يومًا في أن يخطبها فرفض أبوك، وتناسى المرحوم الأمر حتّى نسيه فانتهى كلّ شيء، فما ذنب الفتاة في ذٰلك، وما ذنبي أنا إذا أردت أن أتزوّجها بعد ستّ سنوات من ذٰلك التاريخ؟!

قال كمال برجاء:

ـ لم تعدُ الحقّ فيما قلت، وسوف تقتنع نينة به عاجلًا، فأرجو أن يكون كلامك عن عدم البقاء في البيت مجرّد هفوة لسانيّة...

فقال ياسين وهو يهزّ رأسه في حزن:

ـ أنا أوّل من يعزّ عليه هجر هٰذا البيت، ولٰكنّي سأتركه عاجلًا أو آجلًا ما دام انتقال مريم إليه مستحيلًا، فلا تنظر إلى مسألة ذهابي إلّا من هٰذه الزاوية، سأنتقل إلى بيتي بقصر الشوق، ومن حسن الحظّ أنّ شقّة أمّي لا تزال خالية، وسأقابل والدي في الدكّان وأوضح له أسباب ذهابي متحاشيًا كلّ ما يعكّر صفوه، لست غاضبًا، سأترك البيت آسفًا عليه كلّ الأسف، آسفًا على فراق أهله وأوّلهم نينة، لا تحزن ستعود المياه إلى مجاريها في وقت قريب، ليس في هٰذه الأسرة قلب أسود، وقلب والدتك أنصعها بياضًا...

ومضى إلى صوان ملابسه ففتحه، وجعل ينظر إلى ملابسه ولوازمه، وتردّد قليلًا قبل أن ينفّذ ما عقد العزم عليه، فالتفت إلى كمال، وهو يقول:

ـ سأتزوّج من هٰذه الفتاة كما قضت بذٰلك المقادير، ولٰكنّي ـ علم الله ـ مقتنع كلّ الاقتناع بأنّي لم أسئ إلى ذكرى فهمي، أنت أعلم يا كمال بما كان من حبّي له، كيف لا؟ إذا كان هناك من سيساء بهٰذا الزواج، فهو أنا....!

ـ ١١ ـ

قادت خادم صغيرة ياسين إلى حجرة الاستقبال ثمّ انصرفت. كان يقوم بزيارة بيت المرحوم السيّد محمّد رضوان لأوّل مرّة في حياته، وكانت الحجرة ـ على

طراز الحجرات ببيت أبيه ـ واسعة الأركان، مرتفعة السقف، فيها مشربيّة تشرف على شارع بين القصرين ونافذتان تطلّان على العطفة الجانبيّة التي يفتح عليها مدخل البيت، وقد فُرشت أرضها ببسط صغيرة، واصطفّت في جوانبها الكنبات والمقاعد، وأسدلت على الباب والمنافذ ستائر من مخمل رماديّ باهت من القِدَم، وعلى الجدار المواجه للباب عُلّقت البسملة في إطار أسود كبير، بينا توسّطت الجدار الأيمن ـ فوق الكنبة الرئيسيّة ـ صورة للمرحوم السيّد محمّد رضوان تمثّله في أوسط العمر...

اختار ياسين أوّل كنبة صادفته إلى يمين المدخل، فجلس وهو يتفحّص المكان بعناية حتّى ثبتت عيناه على وجه السيّد محمّد رضوان الذي بدا وكأنّه يبادله النظر بعيني مريم! ابتسم ابتسامة راضية وراح ينشّ لا شيء بمنشّته العاجيّة... ثمّة مشكلة قد واجهته مذ فكّر في المجيء لخطبة مريم، هي خلوّ البيت من جنس الرجال وعدم توفيقه إلى إنابة أحد من جنس النساء عنه. فكانت النتيجة أن جاء وحده كأنّه مقطوع من شجرة ـ على حدّ تعبيره ـ الأمر الذي أخجله بعض الشيء كرجل ورث عن وسطه الاعتزاز بالأهل والأسرة، غير أنّه كان مطمئنًّا من ناحية أخرى إلى أنّ مريم لا بدّ وأن تكون قد مهّدت له السبيل عند أمّها، بحيث أنّ مجرّد إعلان زيارته سيشي بما جاء من أجله، ومن ثمّ يهيّئ له جوًّا طيّبًا لإنجاز مهمّته.

عادت الخادم إلى الظهور حاملة صينيّة القهوة، فوضعتها على المنضدة أمامه، وتراجعت وهي تخبره بأنّ ستّها الكبيرة في الطريق إليه... وستّها الصغيرة ترى هل علمت بحضوره؟ وما صدى ذلك في نفسها الرقيقة؟ سوف يحملها بحسنها إلى قصر الشوق، ولتفعل بنا القوّة ما تشاء! من كان يظنّ لأمينة هذه القدرة على الغضب؟ كانت في وداعة الملاك. قاتَلَ الله الحزن!! كذلك غضب أبوه وهو يعترف له في الدكّان بأنّه هجر البيت ولكن غضب رحيم كشف عن تأثّره وحزنه. ترى: هل تُطْلعه أمينة على تاريخ مريم؟ غَضَب الثكلى شيء مخيف، ولكنّ كمال وعد بأن يحملها على السكوت... في قصر الشوق صادفتك أوّل مفاجأة سعيدة في هذا الجوّ العاصف!! هو موت الفكهانيّ وحلول ساعاتيّ محلّه، إلى القبر...! سمع نحنحة عند الباب، فاتّجه بصره إليه وهو ينهض، وما لبث أن رأى ستّ بهيجة وهي تدخل بجنبها، إذ أنّ مصراع الباب المفتوح لم يكن ليتّسع لها إذا دخلت بعرضها، ولمح عن غير قصد الخطوط التي تحدّ تفاصيل جسمها الجسيم، فلم يتهالك من العجب عندما مرّت أمام عينيه عجيزتها التي كادت قمّتها تبلغ منتصف ظهرها ويفيض أسفلها على فخذيها، فكأنّها كرة منطاد!! وأقبلت نحوه في خطوات متمهّلة ناءت بقناطير اللحم والشحم، ثمّ مدّت له يدًا بضّة بيضاء برزت من كمّ فستانها الأبيض الفضفاض، وهي تقول:

ـ أهلًا وسهلًا، شرّفت ونوّرت...

فصافحها ياسين بأدب، ولبث واقفًا حتّى جلست على الكنبة المجاورة فجلس... كان يراها عن كثب لأوّل مرّة، إذ أنّ علاقتها القديمة بأسرته واكتسابها مع الأيّام منزلة أشبه بمنزلة الأمّ في السنّ والاحترام حملاه على تجنّب تفحّصها ـ كما يفعل مع غيرها من النساء ـ كلّما لمحها عن بُعْد في الطريق، لذلك خيّل إليه أنّه عثر على كشف جديد. وكانت ترتدي فستانًا قد غطّى على جسمها من العنق إلى ما فوق القدمين، وحتّى القدمان وارتها في جورب أبيض رغم دفء الجوّ، بينا امتدّ كُمّا الفستان على ذراعيها وساعديها حتّى المعصمين، ولفّت رأسها وعنقها بخمار أبيض طرح ذيله العريض على أعلى الصدر والظهر فبدت في احتشام يناسب المقام ويوافق العمر الذي قارب الخمسين ـ فيما علم ـ وإن تبدّت في صحّة ريّانة تنطق بصفاء المزاج وشباب القلب. ولاحظ فيما لاحظ أنّها تطالعه بوجه طبيعيّ لم يمسّه زخرف أو زواق رغم ما عُرف عنها من حبّ التبرّج وإتقان التزيّن، الأمر الذي نصّبها من قديم مرجعًا لكلّ ما يتعلّق بالذوق النسائيّ من ملبس وزواق في الحيّ كلّه. وذكر بهذه المناسبة كيف كانت أمينة تدافع عن هذه المرأة كلّما عنّ لأحد أن ينتقد

إفراطها في التبرّج، ثمّ كيف انقلبت تحمل عليها لأتفه الأسباب في السنوات الأخيرة رامية إيّاها بقلّة الحياء وتجاهُل ما يستوجبه عمرها من احتشام.

ـ خطوة عزيزة يا ياسين أفندي...

ـ الله يكرمك!!

كاد يختم جملته بقوله «يا تيزة» ولكنّ إحساسًا غريزيًّا خوّفه في اللحظة الأخيرة من النطق بها، خاصّة وأنّه لاحظ أنّها لم تدْعُه «بيا ابني» كما كان المنتظر، وعادت المرأة تسأل:

ـ كيف حالكم؟ والدك وأمّ فهمي وخديجة وعائشة وكمال؟

أجاب، وهو يشعر بحياء لسؤالها عن الذين ناصبوها العداء بلا سبب وجيه:

ـ كلّهم بخير، سألت عنك العافية...

لا شكّ أنّها تفكّر الآن في الجفاء الذي قوبلت به في بيت أبيه عقب وفاة فهمي فاضطرّها إلى الانقطاع عن أسرته بعد معاشرة دامت العمر كلّه. يا له من جفاء!! بل يا لها من عداوة صامتة!! لم يكن إلّا أن أعلنت امرأة أبيه يومًا أنّ «شعورها» يحدّثها بأنّ مريم وأمّها لم تصدقا في حزنهما على فهمي! لِمَ كفى الله الشرّ؟. قالت إنّه من غير المعقول أن يكون رَفْض السيّد لخطبة مريم لم يبلغهما في حينه عن طريق أو آخر أو حتّى استنتاجًا، ومن غير المعقول أن تعلما به ولا تضطغناه عليهم! وردّدت كثيرًا أنّها سمعت أنّ مريم تندب فهمي في المأتم فتقول: «أسفي على شبابك الذي لم تتمتّع به» فترجمتها إلى «أسفي على شبابك الذي وقف أهلك في سبيله فلم تتمتّع به!». وزادت على ذٰلك ما شاء لها حزنها وقهرها، ولم تنفع معها حيلة في تحوّلها عن «شعورها»، وسرعان ما تغيّر سلوكها نحو مريم وأمّها حتّى كانت القطيعة!... قال وهو لم يزل تحت تأثير الحياء والحرج:

ـ لعن الله الشيطان!

فقالت بهيجة مؤمّنة على قوله:

ـ ألف لعنة!... طالما ساءلت نفسي عمّا جنيت حتّى ألاقي ما لاقيت من الستّ أمّ فهمي، ولٰكنّي أعود فأدعو لها بالصبر... المسكينة!

ـ جزاك الله كلّ خير على نبل خلقك وطيبة قلبك، حقًّا إنّها مسكينة وفي حاجة إلى الصبر!

ـ ولٰكن ما ذنبي أنا؟!

ـ لا ذنب لك، إنّه الشيطان لعنة الله عليه...

هزّت المرأة رأسها هزّة الضحيّة البريئة، وصمتت قليلًا، حتّى حانت منها التفاتة إلى فنجال القهوة الذي بدا كالمنسيّ على صينيّة القهوة، فقالت وهي تومئ إليه:

ـ ألم تشرب قهوتك بعد؟

فرفع ياسين الفنجال إلى فيه، وحسا الحسوة الأخيرة، ثمّ أعاده إلى الصينيّة، وتنحنح قليلًا، ثمّ أنشأ يقول:

ـ شدّ ما ساءني ما انتهت إليه صداقة الأسرتين، ولٰكن ما باليد حيلة، على أيّ حال ينبغي أن نتناسى ذٰلك تاركين أمره للزمن، والواقع أنّني لم أكن أحبّ أن أثير أسيف الذكريات، فما لهٰذا جئت، إنّما جئت لغرض آخر هو أبعد ما يكون عن الذكريات الأسيفة...

هزّت المرأة رأسها هزّة كأنّما تطرد الذكريات الأسيفة، ثمّ ابتسمت ابتسامة استعداد لسماع جديد، كانت تهزّ رأسها وابتسامتها كالآلة الموسيقيّة المصاحبة للمغنّي إذا غيّرت عزفها تمهيدًا لدخول المغنّي في طبقة جديدة من النغم، قال ياسين مستمدًّا من ابتسامتها طلاقة:

ـ أنا نفسي لا تخلو حياتي من ذكريات أسيفة تتّصل بحياتي الماضية... أعني تجربتي الأولى في الزواج الذي لم يوفّقني الله فيه إلى بنت الحلال! ولٰكنّي لا أريد أن أرجع إلى ذٰلك، الواقع أنّني جئت بعد أن عزمت ـ متوكّلًا على الله ـ على فتح صفحة جديدة مستبشرًا الخير كلّه فيما اعتزمت...

التقت عيناهما على الأثر فطالع فيهما الترحيب الجميل... ترى: هل كان موفّقًا في الإشارة إلى زواجه الأوّل؟ ترى ألم يترامَ إلى سمع هٰذه المرأة شيء عن الأسباب الحقيقيّة لفشل ذٰلك الزواج؟ لا تشغل

بالك، إنّ ملامحها الجميلة توحي بالتسامح إلى غير حدّ، ملامحها الجميلة!! أليس كذلك؟ بلى، لولا فارق السنّ لكانت أجمل من مريم، كانت بلا مراء أجمل من مريم في شبابها الذاهب... كلّا! إنّها أجمل من مريم رغم فارق السنّ!... إنّها لكذلك!...

- أظنّكِ فطنت إلى مقصدي، أعني إلى أنّني جئت طالبًا يد كريمتك مريم هانم...

أضاء الوجه الرقراق ابتسامة بثّت فيه حيويّة جديدة، وقالت:

- لا يسعني إلّا أن أقول أهلًا وسهلًا، نِعْم الأسرة ونِعْم الرجُل، أمس أوقعنا سوء الحظّ فيمن لا خَلاق له، اليوم يسعى إلى مريم رجل جدير حقًّا بإسعادها، وستكون بفضل الله جديرة بإسعاده، ونحن - مهما فرّق بيننا سوء التفاهم - أسرة واحدة من قديم الزمن...

اغتبط ياسين حتّى راحت أصابعه تسوّي البابيون بلمسات سريعة غير مقصودة، ثمّ قال وقد تورّد وجهه الأسمر الجميل:

- أشكرك من صميم قلبي، جزى الله عنّي لسانك الحلو، نحن أسرة واحدة كما قلت رغم أيّ شيء، ومريم هانم فتاة يزدان بها حيّنا كلّه أصلًا وخلقًا، أرجو أن يعوّضها الله من صبرها خيرًا وأن يعوّضني بها من صبري خيرًا.

غمغمت «آمين» وهي تنهض، ثمّ أقبلت بجسمها المتخثر نحو المنضدة، فتناولت صينيّة القهوة وهي تنادي ياسمينة، ثمّ استدارت حاملة إيّاها فأعطتها الخادم التي جاءت على عجل، ولفتت عنقها فجأة لتقول له «آنستنا» فباغتته وهو يحملق في ردفيها الثقيلتين!! وشعر لتوّه بأنّه «ضُبط في حالة تلبُّس» فبادر بخفض عينيه ليوهمها بأنّه كان ينظر إلى الأرض، ولٰكن بعد فوات الأوان!... وارتبك وجعل يسأل نفسه عمّا عسى أن تظنّ به، ثمّ اختلس منها نظرة بعد أن عادت إلى مجلسها فلمح على شفتيها ابتسامة خفيفة كأنّما تقول له «رأيتك». لعن عينيه اللتين لا تعرفان الحياء، وتساءل عمّا يمكن أن يكون قد دار في رأسها... أجل إنّها تحاول أن تبدو كأنّها لم ترَ شيئًا، ولٰكنّ هيئتها - بعد ابتسامتها - تقول له أيضًا «رأيتك». لينسَ الهفوة فهٰذا خير حلّ، ولٰكن هل تصير مريم مثل أمّها يومًا ما؟ متى يجيء هٰذا اليوم؟! للأمّ مزايا لا يجود بها الزمان إلّا في النادر، يا لها من امرأة!! إنّ خير وسيلة لتغيير أفكاره وتبديد سحابة الشكّ هي أن يمزّق الصمت، قال:

- إذا حاز طلبي القبول، فستجديني رهن إشارتك لمناقشة التفاصيل الهامّة...

ضحكت ضحكة قصيرة، فبدا وجهها في إشراقتها لطيفًا شابًّا، وقالت:

- كيف لا يحوز القبول يا ياسين أفندي؟! أصل وجوار على رأي المثل...

قال، وقد تورّد وجهه:

- إنّك تأسرينني بلطفك!

- ما عدوت الحقّ، والله شهيد!

ثمّ متسائلة بعد فاصل صمت قصير:

- هل تمّت موافقة البيت؟

تجلّت في عينيه نظرة جدّ لحظة، ثمّ ضحك ضحكة فاترة من أنفه، وقال:

- دعينا من البيت وسيرته!

- لِمَ كفى الله الشرّ؟

- ليس البيت على ما يرام!

- ألم تشاور السيّد أحمد؟

- أبي موافق...

فضربت يدًا على يد، وقالت:

- فهمت، أمّ فهمي؟! أليس كذلك؟! إنّها أوّل من تبادر إلى ذهني وأنت تفاتحني بالموضوع، طبعًا لم توافق، هه؟ سبحان الذي لا يتغيّر، امرأة أبيك امرأة غريبة!

هزّ كتفيه استهانة، وهو يقول:

- لا يقدّم هٰذا ولا يؤخّر...

قالت متشكّية:

- طالما ساءلت نفسي عمّا جنيت؟ أيّ إساءة أسأت بها إليها!

- لا أحبّ أن أقدّم على حديثنا حديثًا آخر لا يجني

منه الإنسان إلّا وجع الدماغ، ليكن ظنّها ما يكون، المهمّ أنّي ماضٍ إلى هدفي، ولا يعنيني إلّا موافقتك أنت. . .

ـ إذا لم يتّسع لك بيتك فبيتنا تحت أمرك. . .

ـ شكرًا. . . لديّ بيتي بقصر الشوق بعيدًا عن الحيّ كلّه، أمّا بيت أبي فقد غادرته من أيّام. . .

ضربت صدرها بيدها هاتفة:

ـ طردتك!. . .

قال ضاحكًا:

ـ كلّا لم يبلغ الأمر إلى هٰذا الحدّ، المسألة وما فيها أنّ اختياري آلها لأسباب قديمة لها صلة بالمرحوم أخي (هنا نظر إليها نظرة ذات معنى)، ومع أنّني لم أجد في معارضتها وجه حقّ مقنع، فإنّني رأيت من اللياقة أن أعدّ للزوجيّة بيتًا جديدًا. . .

سألته، وهي ترفع حاجبيها وتهزّ رأسها فيما يشبه الشكّ:

ـ لِمَ لم تنتظر في بيتك حتّى يحين ميعاد الزواج؟

فضحك ضحكة تسليم، وقال:

ـ آثرت الابتعاد خوفًا من تفاقم الخلاف!

فقالت كالمتهكّمة:

ـ ربّنا يصلح الحال. . .

وقامت مرّة أخرى قبل أن تتمّ جملتها، فاتّجهت إلى النافذة المطلّة على العطفة الجانبيّة وفتحتها لتفتح لنور الأصيل بعد أن بات باب المشربيّة غير كافٍ لإضاءة الغرفة، وجد نفسه على رغمه وحذره يسترق النظر إلى كنزها النفيس وهو يطالعه كالقبّة. رآها وهي تعتمد على الكنبة بركبتها ثمّ تميل على حافة النافذة لتشبك مصراعيها فرأى منظرًا عجبًا ترك في نفسه أثرًا داميًا. تساءل وهو يشعر بجفاف حلقه: لِمَ لم تدعُ الخادم لتفتح النافذة؟ كيف ارتضت أن تعرض أمام ناظريه ـ اللذين باغتتهما منذ قليل في حالة «تلبّس»ـ هٰذا المنظر الذي لا يخفى عنها مغزاه؟ لِمَ وكيف وكيف ولِمَ؟ كان فيما يتّصل بالنساء مرهف الحسّ سيّئ الظنّ، فلاح له شيء كالشكّ يتردّد على عتبة إدراكه لا يريد أن يدخل ولا يريد أن يختفي، ولٰكنّه بادر فأغمض عينيه متأثّرًا بخطورة الموقف. إمّا أن يكون مجنونًا وإمّا أن تكون ـ هي ـ المجنونة، أو فلا هٰذا ولا ذاك؟ مَن له بمن ينتشله من حيرته! استقام جسمها المائل، فوقفت، ثمّ تحوّلت عن النافذة متّجهة إلى مجلسها. فبادر إلى رفع عينيه صوب البسملة ـ قبل تحوّلها ـ متظاهرًا بالاستغراق في تفحّصها، ولم يلفت رأسه نحوها حتّى صدرت عن الكنبة طقطقة تنبئ بجلوسها، وعند ذاك التقت عيناهما، فرأى في عينيها نظرة باسمة ماكرة أشعرته بأنّه لم تخفَ عنها خافية، وكأنّها تقول له بأفصح لسان «رأيتك!». لبث حينًا مضطرب النفس والخاطر، ولم يكن على بيّنة من شيء فخاف أن يكون ظلمها أو أن يكون عرّض نفسه أمامها للاتّهام، وبدا له أنّه سيحاسَب على كلّ حركة تبدر منه، وأنّ أيّ هفوة قد تنقلب فضيحة.

ـ ما زال الجوّ مائلًا إلى الحرارة والرطوبة. . .

جاء صوتها هادئًا طبيعيًّا، ودلّ ـ إلى ذٰلك ـ على رغبتها في إزاحة الصمت، فقال بارتياح:

ـ أجل إنّه كذٰلك. . .

عاودته الطمأنينة، غير أنّه ما لبث أن تخايل لعينيه المنظر الذي رآه عند النافذة، وجد نفسه على رغمه يجترّه ويتيه في جاذبيّته، ويتمنّى لو كان عثر على مثله في إحدى مغامراته. لو كان لمريم مثل هٰذا الجسم! ألا في مثله فليتنافس المتنافسون. ولعلّها ظنّته ـ لصمته ـ لا يزال مشغولًا بما أثارته من حديث خلافه مع امرأة أبيه، فقالت فيما يشبه الدعابة:

ـ لا تشغل بالك، لا شيء في هٰذه الدنيا يستحقّ شغلة البال!

ثمّ لوّحت بيديها ورأسها ـ واهتزّ جسمها فيما بين ذٰلك اهتزازة خاصّة ـ كأنّما لتحثّه على الاستهانة بالهموم، فابتسم مطاوعًا وهو يغمغم: «نطقت بالحقّ». غير أنّه كان يبذل قصاراه ليملك نفسه. أجل فقد حدث أمر جلل. لم يكن في ظاهره إلّا تلك الحركة الشاملة التي أرادت بها الإفصاح عن الاستهانة وحثّه عليها، إلّا أنّها كانت حركة بالغة الخطورة من حيث دلالتها على الخلاعة والدلال والاستهتار، وقد

ندّت عنها في لحظة نسيان فخرجت بها عمّا التزمته طوال الجلسة من تأدّب واحتشام وكشفت عن خبيئة طبيعتها وهي لا تدري، أو وهي تدري؟ لا يستطيع أن يقطع بهٰذا أو بذاك ولكنّه لم يعد به شكّ في أنّه حيال امرأة جديرة حقًّا بأن تكون أمّ مريم ذات التاريخ القديم! أبى أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من أمر، فهٰذه الحركة الراقصة المغناج لا يمكن أن تصدر عن سيّدة مصون! ولم يكن إزعاجه إلّا لحظة عابرة، فسرعان ما حلّ محلّه إحساس بسرور شهوانيّ ماكر، وراح يتذكّر أين ومتى رأى هٰذه الحركة من قبل، على زنّوبة؟ جليلة ليلة اقتحمت على أبيه المنظرة ببيت آل شوكت؟ آه... هٰذه هي!. وخيّل إليه أنّها رغم سنّها أشهى من مريم وألذّ، وغلبته فطرته فحدّثته نفسه بأن يجسّ النبض وألّا يقف إن أمكن عند حدّ! وشعر برغبة في الضحك من غرابة أفكاره، وبأنّه سيسلك طريقًا وعرًا لم يطرق من قبل، ولكنّه لم يعتد يومًا ان يزجر النفس عن هوى... أين يتأدّى به هٰذا المسلك؟ هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمّها! كلّا! إنّه لا يضمر ذٰلك قطّ، ولكن تصوّروا كلبًا قد عثر على عظمة وهو في طريقه إلى المطبخ فهل يتعفّف؟... بيد أنّها مجرّد أفكار وتخيّلات وفروض! فلأنتظر!...

وتبادلا ابتسامة في الصمت الذي عاد فسحب ذيله بينهما، أمّا ابتسامتها فكانت فيها بدا تحيّة مضيف لضيف، وأمّا ابتسامته فقد انفغمت، على فم حائر بهمسات الاعتداء المختنق.

ـ نوّرت بيتنا يا ياسين أفندي...

ـ يا ستّي بيتك لا ينقصه النور، أنت تنوّرين البلد وما فيها...

ضحكت ضحكة مالت برأسها إلى الوراء، وهي تتمتم:

ـ الله يكرمك يا ياسين أفندي!...

كان ينبغي أن يعود إلى الحديث عن طلبه أو أن يستأذن في الانصراف على أن يسمّي موعدًا آخر لمواصلة الحديث، ولكنّه لم يعد إلى الحديث ولم يستأذن في الانصراف... بل راح يحدجها بنظرات ريبة تطول حينًا وتقصر حينًا دون انقطاع وفي صمت مريب. النظرات معانٍ لا تخفى على ذي عينين!! لا بدّ من إيصال أفكاره إليها بالنظرات وحدها حتّى يرى ردّ الفعل... اعرف لقدمك قبل الخطو موضعها وليسقط اللنبي، خذي هٰذه النظرة الناريّة وخبّريني إن كنت صادقة عن أيّ مجنون يسعه أن يتجاهل سوء مقصدها أو يدّعي براءتها؟ انظر ها هي ترفع عينيها وتخفضهما كالشاردة وعلى حال بيّنة من الفهم المريب، تستطيع الآن أن تقول إنّ الفيضان وصل إلى أسوان وإنّه لا مناص من فتح الخزّان، وأنت تخطب إليها ابنتها؟! مجنون من لا يؤمن بالجنون بعد اليوم، أنتِ الآن أشهى شيء إلى نفسي، وليكن بعد ذٰلك الطوفان... منظرك لا يوحي باليأس أبدًا!

ـ هل تقيم في قصر الشوق بمفردك؟

ـ نعم...

ـ قلبي عندك...

جملة قد تصدر عن شيطان، وقد تصدر عن ملاك، ترى هل تتنصّت مريم الآن وراء الباب؟

ـ أنت جرّبت الوحدة بنفسك في بيتك هٰذا، إنّها شيء لا يُحتمل!...

ـ حقًّا لا يُحتمل!

وفجأة امتدّت يدها إلى خمارها فنزعته من حول رأسها وعنقها وهي تقول كالمعتذرة «لا تؤاخذني الدنيا حارّة». فبدا رأسها في منديل برتقاليّ وأسفر عنقها الوضيء. رنا إلى عنقها مليًّا في قلق متزايد، ثمّ لحظ الباب كالمتسائل عمّن عسى أن يكون رابضًا وراءه... أغيثوا الذي جاء يخطب البنت فوقع في الأمّ. وقال ردًّا على اعتذارها:

ـ خذي راحتك، أنت في بيتك، ولا غريب في البيت...

ـ ليت أنّ مريم كانت في البيت لأزفّ إليها الخبر!

خفق قلبه خفقة حادّة كإشارة الهجوم، وتساءل:

ـ وأين هي؟

ـ عند جماعة من معارفنا في الدرب الأحمر.

وداعًا يا عقلي! خاطب بنتك يريدك وأنت تريدينه،

ليرحم الله من يحسنون الظنّ بالنساء، لا يمكن أن يكون في رأس هٰذه المرأة عقل، جارة العمر ولا تعرفها إلّا اليوم!... مجنونة... مراهقة في الخمسين!...

ـ متى تعود مريم هانم؟

ـ قبيل المساء ..

قال بخبث:

ـ أشعر بأنّ زيارتي قد طالت...

ـ لم تطل زيارتك، أنت في بيتك...

فسألها بخبث أيضًا:

ـ ترى هل أطمع في أن تردّي لي الزيارة؟

فابتسمت ابتسامة عريضة، كأنّما تقول له «إنّي أدرك ما وراء هٰذه الدعوة»، ثمّ أطرقت في حياء وإن لم يغب عنه ما في حركتها من تمثيل، ولٰكنّه لم يبالها، وراح يصف لها موقع بيته من الحارة وموضع شقّته من البيت، وهي مطرقة صامتة باسمة. ترى ألم تشعر بأنّها تسيء إلى ابنتها أبلغ إساءة، وأنّها تعتدي عليها أنكر اعتداء؟!

ـ متى تتكرّمين بالزيارة؟

غمغمت وهي ترفع وجهها:

ـ لا أدري ماذا أقول!

فقال بتوكيد وثقة:

ـ أقول أنا بالنيابة عنك، مساء الغد، ستجدينني في انتظارك!

ـ ثمّة أمور يجب أن نعمل حسابها!

ـ سنعمل حسابها معًا... في بيتي!

وقام من فوره وهمّ بأن يتقدّم نحوها، فأشارت إليه وهي تلتفت نحو الباب محذّرة، ثمّ قالت وكأنّما لا تقصد إلّا التفادي من صولته:

ـ غدًا مساء...!

ـ ١٢ ـ

وعرف بيت قصر الشوق بهيجة زائرة مواظبة. كانت إذا نشر الظلام ستاره، تتلفّع بملاءتها، وتمضي إلى الجمالية، فإلى بيت هنيّة... وهنالك تجد ياسين في انتظارها بالحجرة الوحيدة المفروشة في الشقّة. لم يجرِ لمريم ذكر بينهما إلّا حين قالت له مرّة:

ـ لم أستطع أن أخفي عن مريم نبأ زيارتك، لأنّ خادمتنا تعرفك، ولٰكنّي قلت لها: إنّك فاتحتني برغبتك في خطبتها بعد تذليل العقبات التي تعترض سبيلك في محيط الأسرة!

ووجد نفسه مذهولًا عن مناقشتها، فأبدى موافقته واستحسانه. واستقبلا معًا حياة حافلة بالمتع، وجد ياسين ذات «الكنز» ملبّية بين يديه، فانطلق انطلاق الجواد الجامح، ولم تكن الحجرة التي أُثّثت على عجل واقتصاد بالمكان الصالح لمطارحة الغرام، ولٰكنّه لم يألُ عن تهيئة الجوّ الخلّاب بتوفير الطعام والشراب حتّى يطيب له الوصال فيواصل صولاته بذٰلك النهم الغريزيّ الذي لا يعرف حدًّا أو اعتدالًا. وما لبث أن أدركه الملال قبل أن يتمّ الأسبوع الأوّل دورته. هي نفس الحلقة التي تدور فيها شهوته حتّى غدا الدواء نوعًا من الداء بيد أنّه لم يؤخذ على غرّة، كلّا! ولم يضمر نحو تلك العلاقة الغريبة من بادئ الأمر أيّ نيّة حسنة ولا قدّر لها أيّ دوام، بل لعلّه لم يبلغ من وراء المغازلة في حجرة الاستقبال إلّا ضجعة عابرة، غير أنّه وجد من المرأة تعلّقًا به وحرصًا عليه وأملًا في أن يكون قنع بها راضيًا وعدل عن مشروع الزواج، فلم يرَ بدًّا من مجاراتها كيلا يفسد على نفسه لذّتها مؤمنًا بأنّ الزمن وحده كفيل بإرجاع كلّ شيء إلى أصله! وما أسرع أن رجع كلّ شيء إلى أصله بالنسبة إليه هو، بل ربّما أسرع ممّا قدّر، وكان جاراها وهو يظنّ أنّ جدّة محاسنها خليقة بأن تحتفظ برونقها أسابيع أو شهرًا، ألا يا ربّما كذب الظنّ!... أمّا عن مظهرها الشهيّ فبحسبه أن جعله يرتكب أكبر حماقة في حياته العامرة بالحماقات، ولٰكنّ الكهولة تكمن وراء ذٰلك كما تكمن الحمّى وراء تورّد الخدّين الكاذب، وإنّ القناطير المقنطرة من اللحم البشريّ المتحبّكة تحت طيّات الثياب ـ على حدّ قوله ـ غيرها إذا تجرّدت، للعيان، وليس كاللحم البشريّ مسجّل لآثار العمر الحزينة، حتّى قال لنفسه «الآن أدرك لماذا تعبد النساء الملابس!» لم يكن عجيبًا بعد ذٰلك أن يقول عنها وقد ضاق باندلاقها عليه أنّها

«مرض»، وأن يجمع العزم على قطع علاقته بها.

وعادت مريم ـ بعد خمود النزوة الجنونيّة ـ إلى سابق مكانتها من نفسه، كلّا، لم تكن بارحتها، ولكنّ النزوة الطارئة غشيتها كما تغشى السحابة العجلى وجه القمر، عجبًا! لم تعد رغبته في مريم مجرّد استجابة لولعه الخالد بجنسها وإن غلب ذلك عليها، ولكنّها ارضت من ناحية أخرى حنينه إلى تكوين الأسرة التي كان يعتدّها مصيرًا محتومًا ومرغوبًا فيه أيضًا. واستوصى بالصبر ـ كارهًا ـ على أن تثوب بهيجة إلى رشدها، أن تقول له يومًا «حسبنا لعبًا وهلمّ إلى عروسك» ولكنّه لم يجد لأمله صدى في نفسها، كانت تواظب على الزيارة ليلة بعد أخرى، وما تزداد إلّا إغراقًا وتهالكًا، وشعر بأنّها تمتلئ مع الزمن إيمانًا بحقّها عليه كأنّه بات محور حياتها وملك يمينها.

أجل! لم تكن تنظر إلى الأمر بعين الاستهانة أو اللهو، وإلى هٰذا تكشّفت نفسها له عن خفّة وطيش ونزق أقنعته جميعًا بأنّ سلوكها الشاذّ معه في أوّل مقابلة لم يكن أمرًا مستغربًا، فاستهان بها وازدراها وتضخّمت عيوبها في عينيه الزاريتين حتّى ضاق بها كلّ الضيق وصمّم على التخلّص منها في أوّل فرصة تسنح، وإن حرص على تجنّب الفظاظة أن تبعثر العراقيل في طريق مريم. قال لها مرّة:

ـ ألا تتساءل مريم عن سرّ اختفائي؟

فقالت وهي تطمئنه بحركة من رأسها:

ـ إنّها على بيّنة من معارضة أسرتك.

فقال بعد تردّد:

ـ أصارحك بأنّنا كنّا نتحادث أحيانًا فوق السطح، وأنّي ردّدت لها مرّات بأنّني مصمّم على الزواج منها مهما يكن من معارضة المعارضين.

فحدجته بنظرة نافذة، وهي تتساءل:

ـ ماذا تريد؟

قال متظاهرًا بالبراءة:

ـ أريد أن أقول إنّها سمعت منّي ذٰلك التوكيد، وإنّها علمت بعد ذٰلك بزيارتي لك، فينبغي أن تقتنع بسبب وجيه لاختفائي!...

فقالت بغير مبالاة أدهشته:

ـ لن يضيرها ألّا تقتنع، فليس كلّ كلام بمفضٍ إلى خطبة ولا كلّ خطبة بمفضية إلى زواج، إنّها تعلم علم اليقين...

ثمّ بصوت منخفض:

ـ ولن يضيرها أن تفقدك، إنّها شابّة في عزّ جمالها، ولن تُعدم خاطبًا اليوم أو غدًا!...

كأنّها تعتذر عن أنانيّتها، أو تلمح إلى أنّها هي ـ لا ابنتها ـ التي يضيرها فقده، فلم يزده قولها إلّا ضيقًا ومللًا، إلى أنّه اخذ يتوجّس خيفة من معاشرة امرأة تكبره بعشرين عامًا، متأثّرًا بما يتردّد بين العامّة من أنّ مخادنة الكهلات تذبل الشبّان، حتّى شحنت ساعات اللقاء ـ من ناحيته ـ بالتوتّر والحذر فمقتها مقتًا...

وإنّه لعلى ذاك إذ صادف مريم يومًا في السكّة الجديدة، فتقدّم منها دون تردّد، وسلّم عليها، وسار إلى جانبها كأنّه من ذوي قرباها، كانت قلقة عابسة، فأخبرها بأنّه كان يقنع والده بالموافقة حتّى ظفر بها، وأنّه يعدّ مسكنه بقصر الشوق ليكون صالحًا لهما، واعتذر عن طول غيبته بكثرة مشاغله، ثمّ قال لها: «أخبري والدتك بأنّني ساجيء غدًا لمقابلتها للاتّفاق على عقد القران!» ومضى سعيدًا بانتهاز الفرصة التي سنحت على غير ميعاد، غير عابئ ـ في غمرة السعادة ـ بما سيكون موقف بهيجة منه. وفي مساء ذٰلك اليوم جاءت بهيجة في ميعادها إلى قصر الشوق، ولٰكنّها جاءت هٰذه المرّة كسيرة النفس، بادرته هاتفة قبل أن ترفع برقعها:

ـ بعتني غيلة وغدرًا...

ثمّ انحطّت على الفراش، وهي تنزع برقعها في نرفزة، وتقول:

ـ لم يطف بخاطري أنّك تضمر لي هٰذا الغدر كلّه، ولٰكنّك جبان غادر كسائر الرجال...

قال ياسين برقّة المعتذر:

ـ ليس الأمر كما تتصوّرين، الحقّ أنّي قابلتها صدفة...

فصاحت بوجه مكفهرّ:

ـ كذّاب! كذّاب! وحقّ من هو قادر على أن يريني فيك ما أشتهي. هل تظنّني أصدّقك ما حييت بعد ما كان (ثمّ وهي تحاكيه محاكاة كاريكاتوريّة) الحقّ أنّي قابلتها صدفة! أيّ صدفة يا عمر؟! وهبها صدفة حقًّا، فلِمَ كلّمتها في الطريق أمام الرائح والغادي؟ أليس هٰذا فعل الغادر السيّئ النيّة؟ (ثمّ وهي تعود إلى المحاكاة الكاريكاتوريّة) الحقّ أنّي قابلتها صدفة...!

فقال في شيء من الارتباك:

ـ وجدتني معها فجأة ـ وجهًا لوجه ـ فامتدّت يدي بالسلام عليها! ما كان بوسعي تجاهلها بعد ما كان من تحادثنا فوق السطح.

فصاحت به بوجه مصفرّ من الغضب:

ـ فامتدّت يدي بالسلام عليها! اليد لا تمتدّ إلّا إذا مدّها صاحبها، قطعت اليد وصاحبها، قل إنّك مددت يدك إليها لتتخلّص منّي...

ـ لم يكن من السلام بدّ، أنا إنسان وفي وجهي دم!

ـ دم؟! أين هو ذاك؟ دم يلطشك يا غادر يا ابن الغادر...

ثمّ بعد أن ازدردت ريقها:

ـ ووعدك إيّاها بالمجيء للاتّفاق على عقد القران، هل أفلت منك أيضًا كما أفلتت يدك؟... تكلّم يا سي دم...

قال بهدوء عجيب:

ـ إنّ كلّ الحيّ يعلم الآن بأنّي هجرت بيت أبي لأتزوّج من ابنتك، فلم يكن من المستطاع تجاهل ذٰلك وأنا أحدّثها...

فصاحت بحدّة:

ـ كان بوسعك أن تنتحل من الأعذار ما تشاء لو كانت بك رغبة إلى ذٰلك، لست ممّن يعيبهم الكذب، ولٰكنّك أردت التخلّص منّي، هٰذه هي الحقيقة...

قال وهو يتحاشى نظرتها:

ـ ربّنا يعلم بحسن نيّتي!

فحدجته بنظرة طويلة، ثمّ سألته في تحدٍّ:

ـ أتعني أنّك تورّطت في وعدك لها على غير رغبة منك؟

أدرك خطورة التسليم بذٰلك، فغضّ بصره ولاذ بالصمت، فقالت وهي تزفر من الغيظ:

ـ أرأيت أنّك كذّاب كما قلت لك؟

ثمّ صارخة:

ـ أرأيت؟! أرأيت يا غادر يا ابن الغادر؟!

قال بعد تردّد:

ـ إنّ سرًّا لا يمكن أن يخفى إلى الأبد، تصوّري ماذا يقول الناس لو كشفوا سرّ علاقتنا، بل تصوّري ماذا تقول مريم!

فصرفت بأسنانها من الحنق، وقالت:

ـ يا لك من خنزير! لِمَ لم تذكر هٰذه الاعتبارات يوم وقفت أمامي سائل اللعاب كالكلب؟ آه يا جنس الرجال، جهنّم الحمراء عقوبة تافهة لكم!

ابتسم خفيفًا، وكان أوشك أن يضحك لولا فرملة الجبن، ثمّ قال بتودّد ورقّة:

ـ لقد قضينا وقتًا طيّبًا سوف أذكره دائمًا بكلّ خير، حسبك غضبًا واستياء، ما مريم إلّا ابنتك، وإنّك أوّل من يروم سعادتها...

وهي تهزّ رأسها بتهكّم:

ـ أأنت الذي ستسعدها؟! اسمعي يا حيطان، المسكينة لا تدري أيّ إبليس ستتزوّج، أنت دائر ابن دائرة، وربّنا يكفينا شرّ ما وقعت فيه...

قال بهدوئه الذي التزمه من أوّل الأمر:

ـ عند ربّنا الصلاح، إنّي أرغب رغبة صادقة في بيت مستقرّ، وزوجة بنت حلال!!

قالت هازئة:

ـ أقطع ذراعي إن صدقت، سوف نرى، لا تظنّ بأمومتي الظنون، إنّ سعادة ابنتي مقدّمة عندي على كلّ اعتبار، ولولا أنّك خدعتني وغدرت بي ما كان يهمّني أن أهديك إليها على الحذاء!

ساءل ياسين نفسه: ترى هل مرّت الأزمة بسلام؟ وانتظر أن تلبس برقعها وتودّعه، ولٰكنّها لم تحرّك ساكنًا، ومضى الوقت ـ وهي بمجلسها من الفراش، وهو بمجلسه على الكرسيّ قبالتها ـ لا يدري كيف، ولا متى تتقوّض هٰذه الجلسة الغريبة المتوتّرة، واسترق

النظر إليها، فوجدها ترنو إلى الأرض كالسارحة على حال من التسليم نزعت به إلى العطف عليها، هل تعود مرّة أخرى إلى المهاترة؟ غير مستبعد!! ولكنّها - فيما يبدو - تفكّر في موقفها الدقيق بينه وبين ابنتها وتنحني أمام مقتضياته، وما يدري إلّا وهي تنتزع الملاءة عن نصفها الأعلى وتغمغم «الجوّ حارّ» ثمّ تزحزحت حتّى نهاية الفراش فاستندت إلى شباكه، ومدّت ساقيها غير عابئة بالحذاء الذي انغرز كعباه في طيّات اللحاف، ثمّ واصلت شرودها، ترى: ألا يزال لديها ما تقول؟ سألها بلهجة بالغ في رقّتها:

- هل تسمحين لي بأن أزوركم غدًا...؟

تجاهلت سؤاله دقيقة أو نحوها، ثمّ حدجته بنظرة كاللعنة، وقالت:

- على الرحب والسعة يا بن القديمة!

ابتسم قانعًا وهو يشعر بنظراتها تلهب وجهه، وعادت هي تقول بعد هنيهة:

- لا تظنّني بلهاء، كنت موطّنة النفس على توقّع هذه النهاية عاجلًا أو آجلًا، ولولا أنّك تعجّلتها بطريقة... (ثمّ بتسليم وازدراء معًا)... ما علينا...

لم يصدّقها، ولكنّه تظاهر بتصديقها، ومضى يقول: إنّه كان واثقًا من ذلك، وإنّه يرجو أن تعفو عنه وتشمله برضاها، ولكنّها لم تعن بالإصغاء إليه، وتزحزحت - مرّة أخرى - إلى حافة الفراش، فطرحت ساقيها على الأرض، وقامت فأخذت تحبك ملاءتها، وهي تقول: «أستودعك الله»... فقام صامتًا وتقدّمها إلى الباب وفتحه، ثمّ تقدّمها مرّة أخرى إلى الخارج، وما يدري إلّا وصفعة تهوي على قفاه، على حين مرقت المرأة من جانبه إلى السلّم وتركته وراءها كالذاهل وكفّه منطرحة على موضع الصفعة، التفتت نحوه ويدها على الدرابزين، وقالت:

- تعيش وتأخذ غيرها، آذيتني أكثر من هذا، ألا يحقّ لي أن أشفي غليلي ولو بصفعة يا ابن الكلب...؟!

- يا سيّد أحمد لا تؤاخذني إذا صارحتك بأنّك تبذّر نقودك هذه الأيّام بلا حساب...

قال جميل الحمزاوي ذلك بلهجة جمعت بين أدب المستخدم وإدلال الصديق. وكان الرجل لا يزال قويّ البنية جيّد الصحّة على بلوغه السابعة والخمسين من عمره، أمّا رأسه فقد رصّعه المشيب، ولم تؤثّر السنون في نشاطه شيئًا فلم يزل يومه ينقضي على حركة دائبة في خدمة الدكّان وعملائه كعهده منذ التحق به على أيّام منشئه الأوّل. وقد اكتسب مع طول العهد حقوقًا ثابتة واحترامًا جديرًا بنشاطه وأمانته، فنزل من نفس أحمد عبد الجواد منزلة الصديق، ولم يكن عطف الرجل عليه الذي تمثّل أخيرًا في معاونته على إلحاق ابنه فؤاد بمدرسة الحقوق إلّا مضاعفًا لإخلاصه وموجبًا عليه مصارحته عندما تجب المصارحة لدفع ضرّ أو تحقيق منفعة. على أنّ أحمد قال بلهجة مطمئنّة، ولعلّه كان يشير إلى الرواج الذي لم تزل تثمل السوق بسكرته:

- الحال معدن، والحمد لله...

فقال جميل الحمزاوي باسمًا:

- ربّنا يزيد ويبارك، غير أنّي لا أزال أكرّر القول عليك بأنّك لو كنت اتّخذت من التجّار خلقهم كما اتّخذت حرفتهم، لكنت الآن من كبار الأغنياء...

ابتسم أحمد ابتسامة الرضى والقناعة وهو يهزّ منكبيه استهانة. ربح كثيرًا وأنفق كثيرًا، فكيف يأسف على ما جنى من لذّات العيش؟ لم يفقد يومًا حاسّة التوازن بين دخله ومنصرفه، ولم يخلُ رصيده من الستر، وقد تزوّجت عائشة وتزوّجت خديجة، وطرق كمال باب المرحلة النهائيّة من حياته الدراسيّة، فماذا عليه لو تمتّع بعد ذلك بطيّبات الحياة؟ على أنّ الحمزاوي لم يعد الحقّ في ملاحظته على تبذيره. فالحقّ أنّه يبدو - هذه الأيّام - أبعد ما يكون عن الاعتدال والقصد، تشعّبت وجوه نفقاته: فالهدايا تستنزف مالًا لا يُستهان به، والعوّامة تستحلب دسمه، ومحظيّته تستأديه القرابين، وفي الجملة فإنّ زنّوبة تدفعه إلى الإسراف دفعًا، وهو من ناحيته يدفع بلا مقاومة تُذكر، لم يكن كذلك في

الأيّام الخالية، حقًّا كان ينفق عن سعة!! ولٰكنّ امرأة لم تستطع أن تخرجه عن حدّ الاعتدال أو تضطرّه إلى ركوب الإسراف. كان بالأمس مستشعرًا قوّته، ولم يكن يبالي كثيرًا أن تجاب كلّ مطالبه الحبيبة، ولم يكن يبالي إن تدلّلت عليه أن يتدلّل عليها تيّاهًا بفتوّته وفحولته. اليوم أذلّ حرصه على حبيبته عنقه فهان عليه الغالي، وكأنّه لم يعد يروم من مطلب في هٰذه الحياة وراء استبقاء مودّتها واستمالة قلبها، ويا لها من مودّة متعزّزة، ويا له من قلب عصيّ!! ولم يكن في واقع حاله ليغيب عن فطنته، شعر به شعور الألم والحزن، وذكر به أيّام عزّته في لهفة وأسى وإن لم يقرّ بأنّها ذهبت وتولّت، ولٰكنّه لم يحرّك إصبعًا للمقاومة الجدّيّة ولم يكن ذٰلك في طوقه! وقال مخاطبًا جميل الحمزاوي فيما يشبه السخرية:

ـ لعلّه من الظلم أن تعدّني تاجرًا!... (ثمّ في تسليم)... الله هو الغنيّ...

وجاء نفر من الناس فشغل بهم الحمزاوي، وما كاد أحمد يخلو إلى نفسه حتّى رأى قادمًا يزحم الباب على سعته ويتّجه إليه متبخترًا. كانت مفاجأة وذكر لتوّه أنّه لم تقع عيناه على القادم منذ أربع سنوات أو يزيد، ثمّ نهض مرحّبًا مدفوعًا بأدبه وحده، وهو يقول:

ـ أهلًا وسهلًا، بجارتنا المكرّمة...

فمدّت له أمّ مريم يدها ملفوفة في طرف ملاءتها قائلة:

ـ أهلًا بك يا سيّد أحمد...

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكرسيّ الذي جلست عليه يومًا يُعتبر الآن من التاريخ، ثمّ قعد وهو يتساءل... لم يكن رآها منذ جاءت لمقابلته في هٰذا الدكّان بعد مرور عام على وفاة فهمي محاولة استدراجه إلى بيتها مرّة أخرى. عجب يومئذٍ لجرأتها ـ ولم يكن أفاق من الحزن ـ فقابلها بجفاء وشيّعها ببرود. ترى ما الذي جاء بها اليوم؟! وألقى عليها نظرة شاملة فوجدها كالعهد بها: جسامة وأناقة، يفوح من أعطافها الطيب، وتتألّق عيناها فوق البرقع. غير أنّ تبرّجها لم يجدِ في إخفاء دبيب الزمن، فلاحت أمارات الكبر تحت عينيها، وذكر بها جليلة وزبيدة، شدّ ما يستبسل أولٰئك النسوة في معركة الحياة والشباب، أمّا أمينة فسرعان ما تهاوت فريسة للحزن والذبول!...

وقرّبت بهيجة الكرسيّ من المكتب، ثمّ قالت بصوت خافت:

ـ لا تؤاخذني يا سي السيّد على هٰذه الزيارة، فللضرورة أحكام...

فقال أحمد ـ من فوره ـ وقد كان يبدو رزينًا جادًّا:

ـ أهلًا وسهلًا، إنّ زيارتك تشريف لنا وتكريم...

فقالت باسمة، وقد نمّت نبرات صوتها على الامتنان:

ـ تشكر، والحمد لله على أنّي وجدتك بخير وعافية!!

فشكرها بدوره، ودعا لها بالصحّة والعافية، فعادت تشكر له شكره ودعاءه وتدعو له من جديد، ثمّ سكتت لحظات، وقالت باهتمام:

ـ جئتك لأمر هامّ، قيل لي: إنّه بلغ إليك في حينه، وإنّه نال موافقتك، وأعني طلب ياسين أفندي ليد ابنتي مريم، فهل صحيح ما قيل لي؟ هٰذا ما جئت من أجل التحقّق منه...

خفض أحمد عبد الجواد عينيه أن تقرأ فيهما الحنق الذي اشتملت به جوانحه وهو يتابع كلامها، ولم يخدع بتظاهرها بالاهتمام بموافقته، فلتحاول خداع غيره ممّن يجهلون خباياه، أمّا هو فيعلم علم اليقين أنّ موافقته وعدمها عندها سواء، بل ألم تدرك ما وراء تخلّفه عن زيارتها مع ابنه؟... ولٰكنّها جاءت لتحمله على الإقرار بالموافقة، وربّما لغرض آخر لا يلبث أن يستبينه، رفع إليها عينين هادئتين، وقال:

ـ حدّثني ياسين عن رغبته فدعوت له بالتوفيق، كانت مريم ولم تزل ابنتنا...

ـ الله يبارك لي في عمرك يا سي السيّد. هٰذه المصاهرة ستشرّفنا بين الناس...

ـ أشكر حسن ظنّك...

فقالت بحماس:

ـ ويسرّني أن أصارحك بأنّي أجّلت إعلان موافقتي حتّى أتأكّد من موافقتك أنت!

قارحة!. لعلّها أعلنت موافقتها حتّى قبل أن ترى ياسين!

ـ أكرّر الشكر، يا ستّ أمّ مريم...

ـ لذٰلك كان أوّل ما قلت لياسين أفندي، دعني أتأكّد أوّلًا من موافقة والدك، فإنّ كلّ شيء يهون إلّا سخطه!

الله... الله!. لم تكد تسرق البغل حتّى نشطت لرمي الأحابيل حول صاحبه...

ـ ليس بمستغرب أن يصدر عنك ذٰلك القول النبيل!

فواصلت حديثها في حماس مظفّر، قائلة:

ـ إنّك يا سي السيّد رَجُلنا، وخير مَن يفخر به حيّنا كلّه!

مكر النساء، ودلال النساء، ما أضيقه بهما معًا، هل خطر لها ببال أنّه يتمرّغ في التراب مناشدة لعطف عوّادة زهد فيها السكارى؟!

قال في تواضع:

ـ أستغفر الله...

فقالت بلهجة حزينة علا بها صوتها قليلًا، حتّى خاف أن يبلغ الموجودين بالناحية الأخرى من الدكّان، فحرّك رأسه نحوهم محذّرًا:

ـ لشدّ ما حزنت عندما أنبأني بأنّه هجر بيت والده...

فبادرها قائلًا وقد تجهّم وجهه:

ـ الحقّ أنّ سلوكه أغضبني. فعجبت كيف تأتّى له أن يرتكب تلك الحماقة، كان ينبغي أن يستشيرني أوّلًا، ولٰكنّه حمل متاعه إلى قصر الشوق، ثمّ جاء يعتذر إليّ!! عبث صبيانيّ يا ستّ أمّ مريم. وقد وبّخته ولم أكترث لخلافه المزعوم مع أمينة. ذٰلك تعلّل سخيف حاول به أن يبرّر حماقة أسخف منه!!

ـ هٰذا ما قلته له وحياتك، ولٰكنّ الشيطان شاطر، وقلت له أيضًا: إنّ ستّ أمينة معذورة، ربّنا يصبّرها على ما ابتلاها به... وعلى أيّ حال فمثلك يرجى منه الصفح يا سي السيّد...

فأشار بيده إشارة قصيرة، كأنّما تقول «دعينا من هٰذا» فقالت متودّدة:

ـ لكنّني لا أقنع إلّا بالصفح والرضى...

أف، ليته يستطيع أن يصارحها بمدى اشمئزازه منهم جميعًا، هي وابنتها والبغل الكبير...

ـ ياسين ابني على كلّ حال، وفّقه الله إلى الهداية...

أمالت رأسها إلى الوراء قليلًا، وأبقته على وضعه مليًّا ريثما تستمتع بلذّة النجاح والارتياح، ثمّ عادت تقول في نبرات لطيفة:

ـ ربّنا يجبر خاطرك يا سيّد أحمد، ساءلت نفسي وأنا قادمة إليك؛ ترى: أيكسفني ويردّني خائبة، أم يعامل جارته القديمة بما تعوّد أن يعاملها به في الأيّام الخالية؟ الحمد لله فأنت دائمًا عند حسن الظنّ بك، مدّ الله في عمرك ومتّعك بالصحّة والعافية!!

تظنّ أنّها ضحكت على ذقنه، يحقّ لها هٰذا، ما أنت إلّا أب خائب مات خير أبنائه، وخاب الابن الثاني، وركب الثالث رأسه، كلّ هٰذا على رغمي يا قارحة...

ـ إنّي عاجز عن شكرك...

وهي تخفض رأسها:

ـ مهما قلت فيك فهو دون ما تستحقّ، طالما أقررت لك به فيما مضى...

آه، ذٰلك الماضي! أوصدي ذٰلك الباب وحياة البغل الذي جئت تسجّلين حقّ ملكيّته! وبسط راحته على صدره آية على الشكر، فراحت تقول بلهجة حالمة:

ـ كيف لا، ألم أعزّك إعزازًا لم يحظ به إنسان قبلك ولا بعدك؟

هٰذا هو المطلوب، كيف لم يفطن إليه من أوّل لحظة!؟ لم تجيئي من أجل ياسين ولا من أجل مريم، ولكن من أجلي أنا، بل من أجل نفسك! أنت أنت لم يغيّر الزمن منك شيئًا، إلّا شبابك، ولكن رويدك!! هل تستطيعين أن تردّي الأمس الذي ولّى؟ مرّ بقولها دون تعليق مكتفيًا بابتسامة شكر، فابتسمت ابتسامة

عريضة كشفت عن أسنانها من ثقوب البرقع، وقالت فيما يشبه العتاب:

ـ يبدو أنّك لا تذكر شيئًا...

أراد أن يعتذر عن فتوره دون أن يمسّ إحساسها فقال:

ـ لم يبق في الرأس عقل أتذكّر به...

فهتفت بإشفاق:

ـ لشدّ ما أغرقت في الحزن، الحياة لا تحتمل هٰذا ولا تسيغه، وأنت ـ ولا تؤاخذني على ما سأقول ـ رجل ألِفَ الحياة المليحة، فالحزن إذا أثّر في الإنسان العاديّ قيراطًا يؤثّر فيك أربعة وعشرين قيراطًا...

موعظة يراد بها منفعة الواعظ، ليت أنّ ياسين كان يعتصم بمثل شبعي، لماذا أتقزّز منك؟ أنت دون شكّ أطوع من زنّوبة وأقلّ نفقة بما لا يقاس، ولٰكن يبدو أنّ قلبي أصبح مولعًا بالمتاعب. قال بدهاء ومسكنة معًا:

ـ من أين للقلب المحزون أن يضحك؟

اندفعت تقول بحماس وكأنّها شامت برق أمل:

ـ اضحك يضحك قلبك، لا تنتظر حتّى يضحك هو، هيهات أن يضحك وحده بعد ما عانى من طول الوجوم، عد إلى حياتك القديمة تعد إليك بهجتها الغافية، ابحث عن مسرّات زمانك الأوّل وأحبابه، من أدراك أن ليس ثمّة قلوب تهفو إليك وتقيم على عهدك رغم إعراضك الطويل عنها؟

طرب الفؤاد على رغمه وتاه هٰذا ما ينبغي أن يقال حقًّا لأحمد عبد الجواد، وما كان يسكب في أذنيه على قرع الكئوس في ليالي الطرب، أين العوّادة لتسمع هٰذا المديح علّها تخفّف من غلوائها؟! لٰكن يردّده من أنت عنه راغب! قال بصوت لا أثر فيه للطرب:

ـ ولّى ذٰلك الزمان...

مال نصفها الأعلى إلى الوراء استنكارًا، وقالت:

ـ لم تزل شابًّا وربّ الحسين!... (ثمّ وهي تبتسم في حياء)جمل له طلعة البدر! لم يولّ زمانك ولن يولّي أبدًا، لا تكبّر نفسك قبل الأوان، أو دع الحكم على ذٰلك للآخرين فلعلّهم يرونك بغير العين التي ترى بها نفسك...

قال بأدب، ولٰكن بلهجة تعبّر بلطف عن رغبته في إنهاء الحديث:

ـ اطمئنّي يا ستّ أمّ مريم إلى أنّني لا أقتل نفسي حزنًا، فإنّني أتسلّى عن الهمّ بشتّى ضروب التسلية...

تساءلت وقد فتر حماسها قليلًا:

ـ أيكفي هٰذا للترفيه عن رجل مثلك؟

فقال بقناعة:

ـ لا تتطلّع النفس إلى شيء وراءه...

بدا أنّه تنغّص صفوها، وإن تظاهرت بالارتياح وهي تقول:

ـ أحمد الله على أنّني وجدتك على ما أحبّ لك من راحة البال وصفائه...

لم يعد ثمّة قول يقال، فنهضت وهي تمدّ له يدها ملفوفة في طرف الملاءة، فتصافحا، ثمّ قالت وهي تهمّ بالذهاب:

ـ فتّك بعافية...

وذهبت وهي تحوّل عنه عينين لم يجدِ التصنّع في إخفاء ما غشيهما من خيبة...

ـ ١٤ ـ

طوت سوارس شارع الحسينيّة، ثمّ أخذ جواداها المهزولان يخبّان فوق أسفلت العبّاسيّة والسائق يلهبهما بسوطه الطويل. كان كمال جالسًا في مقدّمة العربة على طرف المقعد الطويل فيما يلي السائق، فأمكنه أن يرى بلفتة من رأسه ـ في غير جهد ـ شارع العبّاسيّة ممتدًّا أمام عينيه، في اتّساع لا عهد للحيّ القديم به وطول لا يلوح له منتهى، أرضه مستوية ملساء، وبيوته على الجانبين ضخمة ذوات أفنية رحيبة بعضها يزدان بحدائق غنّاء.

كان يضمر للعبّاسيّة إعجابًا كبيرًا ويكنّ لها حبًّا وإجلالًا يبلغان حدّ التقديس، أمّا الإعجاب فمردّه إلى نظافتها وهندستها والهدوء المريح المخيّم على ربوعها، وكلّ أولٰئك سمات لا يعرفها حيّه العتيق الزيّاط. وأمّا الحبّ والإجلال فمرجعهما إلى أنّها وطن قلبه ومنزل وحي حبّه ومثوى قصر معبودته.

منذ أعوام أربعة وهو يتردّد عليها بقلب مرهف

وحواسّ مشحوذة حتّى حفظها عن ظهر قلب، فحيثما مدّ بصره ارتدّ إليه بصورة مألوفة كأنّها وجه صديق قديم، وجميع معالمها ومناظرها ودروبها وعدد من أهلها قد اقترن في ذهنه بأفكار وعواطف وأخيلة أمست ـ في جملتها ـ جوهر حياته ومعقد أحلامه، فحيثما ولّى وجهه فثمّة منادٍ يدعو القلب للسجود.

وأخرج من جيبه خطابًا تلقّاه من البريد أوّل أمس، وكان مرسله حسين شدّاد ينبئه فيه بعودته ـ وصديقيه حسن سليم وإسماعيل لطيف ـ من المصيف، ويدعوه إلى مقابلتهم جميعًا في بيته الذي تسير به سوارس إليه... نظر إلى الخطاب بعين حالمة شاكرة وامقة ساجدة عابدة متعبّدة، لا لأنّ مرسله شقيق معبودته فحسب، ولكن لظنّه أنّ الخطاب كان مودعًا في مكان ما بالبيت قبل أن يكتب حسين عليه رسالته، وأنّه والحال كذلك غير مستبعد أن تكون عينها الجميلة قد وقعت عليه في ذهابها أو مجيئها أو أن تكون أناملها قد لمسته لسبب أو لآخر أو حتّى عفوًا، بل حسبه أن يظنّ أنّه كان مودعًا في نفس المكان الذي يحلّ فيه جسمها وتعمره روحها كي يستحيل الخطاب إلى رمز قدسيّ تهفو إليه روحه ويشتاق إليه قلبه. ومضى يقرأ الخطاب للمرّة العاشرة حتّى وقف عند هٰذه الجملة «عدنا إلى القاهرة مساء أوّل أكتوبر» أي أنّها شرّفت العاصمة منذ أربعة أيّام وهو لا يدري، كيف لم يدرِ؟! كيف لم يفطن إلى وجودها سواء بالغريزة أو بالشعور أو بالبصيرة؟! كيف جاز للوحشة التي غشيته طوال الصيف أن تمدّ ظلّها الثقيل على هٰذه الأيّام الأربعة المباركة؟! هل رانت الكآبة المتواصلة على حساسيّته بطبقة من البلادة والجمود؟ على أيّ حال فالساعة يرفّ قلبه وتحلّق روحه في أجواء من السمر والسعادة!! الساعة يشرف على الدنيا من ذروة رفيعة تبدو منها معالمها في هالة من الشفافيّة والنورانيّة كأنّها أطياف في دنيا الملائكيّة!! الساعة يضطرم وجدانه بنشاط الحيويّة ونشوة الحبور وسكرة الطرب!! الساعة ـ أو حتّى في هٰذه الساعة ـ يطوف به طائف الألم الذي يلازم مسرّة الحبّ عنده ملازمة الصدى للصوت. قديمًا كانت تحمله سوارس في هٰذا الطريق نفسه وقلبه من الحبّ خالٍ لم يمسّ، ماذا كان يجد من مشاعر وآمال وخوف ورجاء؟ لا يذكر حياة ما قبل الحبّ إلّا ذكرى مجرّدة، ينكرها ما عرف للحبّ قدره، ويحنّ إليها كلّما نبا به ألم، ولٰكنّها لشدّة إحساسه بخاطره كادت تلحق بالأساطير، لذلك بات يؤرّخ بالحبّ حياته، فيقول: كان ذٰلك قبل الحبّ «ق. ح»، وحدث ذٰلك بعد الحبّ «ب. ح».

وقفت العربة عند الوايليّة، فأعاد الخطاب إلى جيبه، وغادرها متّجهًا إلى شارع السرايات وعيناه تتطلّعان إلى أوّل قصر على اليمين فيما يلي صحراء العبّاسيّة. بدا القصر بدوريه من الخارج بناء ضخمًا عاليًا، يتّصل مقدّمه بشارع السرايات وينتهي مؤخّره بحديقة رحيبة تراءت رءوس أشجارها العالية من وراء سور رماديّ متوسّط الارتفاع يحيط بالقصر والحديقة معًا ويرسم مستطيلًا هائلًا ممتدًّا في الصحراء التي تكتنفه من الجنوب والشرق. كان منظره مطبوعًا على صفحة نفسه، يستأسره جلاله وتفتنه آي فخامته، ويرى في عظمته تحيّة مزجّاة عن جدارة بصاحبه، وتلوح لعينيه نوافذ مغلقة وأخرى مرخاة الستائر، فيلمح في تحفّظها وانطوائها ما يرمز إلى عزّة محبوبه وعصمته وامتناعه وغموضه، وهي معانٍ تؤكّدها الحديقة المترامية والصحراء الغارقة في الأفق، وتعرض هنا أو هناك نخلة سامقة أو لبلاب متسلّق جدارًا أو جدائل ياسمين مسترسلة فوق سور فتناوش قلبه بذكريات انعقدت فوق هاماتها كالثمار تسارّه بحديث الوجد والألم والعبادة وقد غدت طلًّا للحبيب ونفحة من روحه وانعكاسًا لملامحه، ناشرة بجملتها ـ وبما عرف من أنّ باريس كانت لأهل القصر منفى ـ جوًّا من الجمال والحلم تواءم مع حبّه في سموّه وقداسته وبذخه وتطلّعه إلى المجهول.

رأى وهو يقترب من مدخل القصر البوّاب والطاهي وسائق السيّارة جالسين فوق أريكة على كثب من الباب كعادتهم في العصارى، فلمّا بلغ مجلسهم وقف البوّاب، وقال له «حسين بك ينتظرك في الكشك»

فدخل مستقبلًا مزيجًا من عرف الفلّ والقرنفل والورد التي نُضّدت أصصها على جانبي السلّم المفضي إلى الفراندا الكبيرة التي تطالع القادم على بعد يسير من الباب، ثمّ مال يمنة إلى ممرّ جانبيّ يفصل القصر عن السور ويسير بينهما حتّى مشارف الحديقة فيما يلي الفراندا الخلفيّة للقصر.

ليس من الهيّن على قلبه الخفّاق أن يمشي في هٰذا المحراب الكبير، ولا أن يطأ أديمًا وطئته قدماها من قبل، إنّه يكاد من إجلال يتوقّف، أو يمدّ يده إلى جدار البيت تبرّكًا، كما كان يمدّها إلى ضريح الحسين من قبل أن يعلم أنّه لم يكن إلّا رمزًا، ترى: في أيّ مكان من القصر يمرح محبوبه الساعة؟ وما عسى أن يفعل إذا طالعته بلفتتها الفاتنة؟ ليته يجدها في الكشك كي تجزى عين عن طول التصبّر والتشوّق والتسهّد!!

ألقى على الحديقة نظرة شاملة حتّى سورها الخلفيّ الذي ترامت وراءه الصحراء، وكانت الشمس المائلة فوق القصر صوب الشارع تجلو منها أعالي الأشجار والنخيل وسقائف الياسمين المبطّنة للسور من كافّة نواحيه، ودوائر الأزهار والورود ومربّعاتها وأهلّتها تكتنفها ممرّات الفسيفساء، ثمّ سار في ممشى وسيط يفضي إلى كشك قائم وسط الحديقة، وقد تراءى فيه عن بعد حسين شدّاد، وضيفاه: حسن سليم وإسماعيل لطيف جلوسًا على كراسي خيزران حول مائدة مستديرة خشبيّة انتثرت عليها أكواب حول دورق ماء. سمع هتاف ترحيب صدر عن حسين فآذنه بانتباههم إلى مقدمه، وما لبثوا أن قاموا للقائه فعانقهم واحدًا واحدًا بعد فراق دام الصيف كلّه، حمدًا لله على السلامة، أنت أوحشتنا جدًّا، شدّ ما اسمرّت وجوهكم فلا خلاف الآن بينكما وبين إسماعيل، بل أنت بيننا كأوروبيّ بين ملوّنين، عمّا قليل يعود كلّ شيء إلى أصله، كنّا نتساءل لِمَ لا تلوّننا شمس القاهرة؟ منذا يجرؤ على التعرّض لشمس القاهرة إلّا مَن رام ضربة شمس! ولٰكن ما سرّ هٰذه السمرة المكتسَبة؟... أذكر أنّنا تلقّينا تفسيرًا لهٰذا في بعض دروسنا، أجل لعلّه في الكيمياء، لقد درسنا الشمس خلال علوم شتّى كالجغرافيا الفلكيّة والكيمياء والطبيعة، ففي أيّ من أولٰئك نجد تفسيرًا لسمرة المصيف! هٰذا سؤال متأخّر عن أوانه لأنّنا انتهينا من الدراسة الثانويّة! إلينا إذن بأخبار القاهرة، بل عليك أنت أن تحدّثنا عن رأس البرّ، وعلى حسن وإسماعيل أن يحدّثانا بعدك عن الإسكندريّة، انتظروا فلكلّ وقت حديثه...

لم يكن الكشك إلّا مظلّة خشبيّة مستديرة تقوم على عمود ضخم، وأرضه رمليّة تحدق بها أصص الورد، ويقتصر أثاثه على المائدة الخشبيّة والكراسي الخيزران، وقد جلسوا وراء المائدة على هيئة نصف دائرة مولّين وجوههم شطر الحديقة. بدوا سعداء باللقاء وكان الصيف يفرّق بينهم فيما عدا حسن سليم وإسماعيل لطيف اللذين يصيّفان عادة في الإسكندريّة، ومضوا يتضاحكون لأقلّ سبب، وأحيانًا لمجرّد تبالُد النظر كأنّما يجترّون ذكريات مزاح ماضية. وكان الأصدقاء الثلاثة يرتدون قمصانًا حريريّة وبنطلونات رماديّة. كمال وحده بدا في بدلة رصاصيّة خفيفة، إذ كان يعتبر رحلة العبّاسيّة ذات صفة رسميّة على خلاف حيّه الذي يجول فيه مكتفيًا بلبس الجاكتة فوق الجلباب. كلّ شيء من حوله كان يخاطب قلبه فيهزّه من الأعماق. هٰذا الكشك الذي تلقّى فيه رسالة الحبّ، وهٰذه الحديقة التي خصّت وحدها بسرّه، وهٰؤلاء الأصدقاء الذين يحبّهم للصداقة ويحبّهم مرّة أخرى لاقترانهم بسيرة حبّه، كلّ شيء يخاطب حبّه وقلبه، يتساءل متى تجيء؟ وهل يمكن أن تمضي الجلسة دون أن تقع عليها عيناه المشوّقتان؟ وعلى سبيل التعويض راح يطيل النظر إلى حسين شدّاد ما وسعه ذٰلك، ولم يكن ينظر إليه بعين الصديق فحسب، لأنّ أخوّته لمعبودته أضفت عليه سحرًا من السحر وسرًّا من السرّ، فبات يكنّ له - إلى الحبّ - إكبارًا وتقديسًا ودهشًا. وكان حسين يشبه شقيقته إلى حدّ كبير بعينيه السوداوين وقامته الطويلة الرشيقة وشعره السبط العميق السواد ولفتاته وسكناته الجامعة بين السموّ واللطافة، فلم يكن ثمّة فارق جوهريّ بينهما إلّا في أنفه الأقنى الممتلئ وبشرته التي

غشيتها سمرة المصطاف. ولمّا كان كمال وحسين وإسماعيل من الناجحين في امتحان البكالوريا ذلك العام ـ مع ملاحظة أنّ الأوّلين كانا في السابعة عشرة والأخير في الحادية والعشرين ـ فقد تحدّثوا عن الامتحان وما تفرّع عنه من شئون المستقبل، وكان البادئ بالحديث إسماعيل لطيف، وكان إذا تحدّث تطاول بعنقه كأنّما ليداري قصر قامته وضآلة حجمه ـ على الأقلّ بالقياس إلى أصدقائه الثلاثة ـ غير أنّه كان مدمج الخلق مفتول العضلات، وفي نظرة عينيه الضيّقتين الحادّة الساخرة وأنفه المدبّب الحادّ وحاجبيه الكثيفين وفمه العريض القويّ ما يكفي لتحذير من تحدّثه نفسه بالتهجّم عليه. قال:

ـ نتيجتنا هٰذا العام مائة في المائة، لم يحصل شيء كهٰذا من قبل ـ على الأقلّ ـ فيما يخصّني أنا. كان ينبغي أن أكون في السنة النهائيّة من التعليم العالي كحسن الذي دخل معي مدرسة فؤاد الأوّل في يوم واحد وسنّ واحدة، وقد سألني أبي ساخرًا لمّا رأى رقمي في الجريدة بين الناجحين «ترى هل يمدّ الله في عمري حتّى أراك من حملة الدبلوم!؟».

قال حسين شدّاد:

ـ لست متأخّرًا إلى الحدّ الذي يبرّر يأس والدك. . .

قال إسماعيل ساخرًا:

ـ صدقت فقضاء عامين في كلّ فصل ليس بالشيء الكثير. . .

ثمّ موجّهًا الخطاب إلى حسن سليم:

ـ أمّا أنت فلعلّك مشغول منذ الآن بما بعد الليسانس؟

كان حسن سليم بالسنة النهائيّة بمدرسة الحقوق، فأدرك أنّ إسماعيل لطيف يدعوه إلى إعلان رأيه فيما ينويه عقب الفراغ من الدراسة، غير أنّ حسين شدّاد سبقه إلى الردّ على إسماعيل قائلًا:

ـ لا داعي لأن يشغل نفسه، سوف يحصل حقًّا على وظيفة في النيابة أو في السلك السياسيّ!

خرج حسن سليم عن هدوئه المتّسم بالكبرياء، ولاح في وجهه الحسن الدقيق القسمات التحفّز للنضال، فتساءل متحدّيًا:

ـ من أين لي بما يجعلني أطمئنّ إلى رأيك؟!

وكان يعتزّ باجتهاده وذكائه ويريد الجميع أن يقرّوا له بهما، ولم يكن أحد يماري في ذٰلك، ولٰكن لم يكن أحد كذٰلك ينسى أنّه نجل سليم بك صبري المستشار بمحكمة الاستئناف، وأنّ تمتّعه بهٰذه الأبوّة ميزة يفوق أثرها كلّ ما للذكاء والاجتهاد من أثر، بيد أنّ حسين شدّاد تحاشى ما يهيجه، فقال:

ـ في تفوّقك الضمان الذي تسأل عنه. . .

ولم يتركه إسماعيل لطيف كي يستمتع بإطراء حسين له، فقال:

ـ وهناك والدك، وهو فيما أعتقد أهمّ من التفوّق بكثير. . .!

ولٰكنّ حسن قابل الهجوم باستهانة غير متوقّعة، إمّا لأنّه ملّ مناجزة إسماعيل الذي لم يكد يفترق عنه يومًا طيلة اصطيافهما بالإسكندريّة، وإمّا لأنّه بات يرى في صاحبه مشاكسًا «محترفًا» لا يصلح أن يأخذ أقواله دائمًا مأخذ الجدّ. على أنّ رابطة الأصدقاء لم تكن تخلو من نقار جدليّ يبلغ أحيانًا حدّ الشغب دون أن يوهن من قوّتها. تساءل حسن سليم وهو يرمق إسماعيل متهكّمًا:

ـ وأنت كيف انتهى سعي الساعين لك؟

ضحك إسماعيل ضحكة عالية، كشف عن أسنانه الحادّة المصفرّة من أثر التدخين الذي كان من أوائل روّاده من تلاميذ الثانويّ، وقال:

ـ نتيجة لا تسرّ، لم تقبلني الطبّ ولا الهندسة لنقص المجموع، فلم يبقَ أمامي إلّا التجارة والزراعة، فاخترت أولاهما. . .

لاحظ كمال في تأثّر كيف تجاهل صاحبه مدرسة المعلّمين كأنّما ليست في الحسبان، غير أنّه وجد في إيثاره لها، مع قدرته على دخول الحقوق التي لا نزاع في مكانتها، وجد في ذٰلك مثاليّة تعزّى بها على حزنه ووحشته. ضحك حسين شدّاد ضحكته اللطيفة التي تجلو جمال ثغره وعينيه، وقال:

ـ آه لو اخترت الزراعة! تصوّروا إسماعيل في حقل

يقضي عمره بين الفلّاحين...!

قال إسماعيل بقناعة:

- لا عليّ من هٰذا لو كان الحقل في عماد الدين...

عند ذاك نظر كمال إلى حسين شدّاد متسائلًا:

- وأنت؟

مدّ حسين بصره إلى بعيد متفكّرًا قبل أن يجيب، فأتاح لكمال فرصة كي يتوسّمه، شدّ ما تفتنه فكرة أنّه شقيقها، أي أنّ بينهما ما قام يومًا ما بينه وبين خديجة وعائشة من مخالطة وألفة، تصوُّر يعزّ عليه أن يعتنقه، لٰكنّه يجالسها ويحادثها وينفرد بها ويلمسها، يلمسها؟! ويؤاكلها! ترى كيف تتناول طعامها؟ هل تتمطّق؟ هل تأكل الملوخيّة والمدمّس مثلًا؟ ما أبعد هٰذا عن التصوّر أيضًا! المهمّ أنّه شقيقها، وأنّه - كمال - يلمس يده التي تلمس يدها، لو أتيح له أن يشمّ أنفاسه التي تماثل ولا شكّ أنفاسها؟! أجاب حسين شدّاد:

- مدرسة الحقوق بصفة مؤقّتة...

ألا يحتمل أن يتّخذ من فؤاد جميل الحمزاوي صديقًا؟ لِمَ لا؟ لا شكّ أنّ الحقوق مدرسة جليلة الشأن حقًّا ما دام حسين سيلتحق بها، من المجازفة أن تحاول إقناع الناس بقيمة مثال معنويّ...

قال إسماعيل لطيف ساخرًا:

- لم أكن أعلم أنّ من الطلّاب من يلتحق بمدرسة ما بصفة مؤقّتة! حدّثنا عن هٰذا من فضلك...

قال حسين شدّاد جادًّا:

- جميع المدارس عندي سواء، ليس في هٰذه المدرسة أو تلك ما يجذبني إليها، حقًّا أريد أن أتعلّم، ولٰكنّي لا أريد أن أعمل، ولن أجد في مدرسة من مدارسنا ما أبتغيه من علم لا يراد به عمل، ولٰكنّي لم أظفر في بيتنا بشخص يوافقني على رأيي، ولا أرى مناصًا من أن أجاريهم إلى حدّ ما، وساءلتهم أيّ مدرسة تختارون؟ فأجاب أبي: وهل يوجد غير الحقوق؟ فقلت إذن لتكن الحقوق!

إسماعيل لطيف محاكيًا لهجته وحركاته:

- بصفة مؤقّتة...

ضحكٌ عامّ، ثمّ استطرد حسين شدّاد قائلًا:

- أجل بصفة مؤقّتة أيّها المشاكس، فمن غير المستبعد إذا سارت الأمور على ما أشتهي أن أقطع دراستي المحلّيّة كي أسافر ولو بحجّة دراسة القانون في معاهدها، وهناك أنهل من منابع الثقافات بغير قيد، وهنالك أفكّر وأرى وأسمع...

إسماعيل لطيف مصرًّا على محاكاة لهجته وحركاته، وكأنّما يتمّ ما ظنّ أنّ الآخر سكت عنه:

- وأذوق وألمس وأشمّ...!

واصل حسين شدّاد حديثه بعد فاصل ضحك قائلًا:

- ثق بأنّ مقصدي غير ما تحلم به!

صدّقه كمال بكلّ قلبه بلا حاجة إلى دليل لا لأنّه يكرمه عن شبهة الكذب فحسب، ولٰكن لأنّه يؤمن بأنّ الحياة التي يتطلّع إلى الاستمتاع بها في فرنسا خليقة «وحدها» باستهواء النفوس، هيهات أن يدرك إسماعيل هٰذه الحقيقة على بساطتها، لا هو ولا أضرابه ممّن لا يؤمنون إلّا بالأرقام والمظاهر. طالما أثار حسين أحلامه، هٰذا حلم منها يمتاز بالرحابة والجمال، حلم عامر بثمار الروح والفكر والسمع والبصر!! كم طاف بي في نومي أو في يقظتي، ثمّ بعد شدّة التطلّع وطول السعي انتهى المطاف بي وبه إلى مدرسة المعلّمين!! وسأل حسين:

- أتعني حقًّا ما قلت من أنّك لا تريد أن تعمل؟!

فقال حسين شدّاد وفي عينيه السوداوين الجميلتين نظرة حالمة:

- لن أكون مضاربًا في البورصة كأبي؛ لأنّي لا أطيق حياةً: العملُ المتواصلُ جوهرها والمال غايتها، ولن أكون موظّفًا، لأنّ الوظيفة عبوديّة في سبيل الرزق، ورزقي موفور. أريد أن أحيا في الدنيا سائحًا، أقرأ وأرى وأسمع وأفكّر، وأنتقل من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل...

قال حسن سليم معترضًا، وكان يرمقه طيلة الحديث بنظرة استخفاف داراها بتحفّظه الأرستقراطيّ:

- ليست الوظيفة وسيلة إلى الرزق دائمًا، إنّي مثلًا

في غنى عن السعي إلى الرزق، ولكن يهمّني بلا شكّ أن أشغل وظيفة سامية، فإنّه يجب على الإنسان أن يعمل، وإنّ العمل السامي هدف يُراد لذاته.

وقال إسماعيل لطيف، مصدّقًا على قول حسن:

ـ هٰذا حقّ، الأعمال القضائيّة والدبلوماسيّة وظائف يتمنّاها أغنى الأغنياء (ثمّ ملتفتًا إلى حسين شدّاد) لِمَ لا تختار لنفسك وظيفة من هٰذه الوظائف وهي في حدود طاقتك...؟

وقال كمال مخاطبًا حسين أيضًا:

ـ السلك السياسيّ حقيق بأن يهيّئ لك العمل السامي والسياحيّ معًا!

ولكنّ حسن سليم قال بلهجة ذات معنى:

ـ إنّه باب ضيّق!

فقال حسين شدّاد:

ـ للسلك السياسيّ مزايا رائعة بلا ريب، إلّا أنّه في الغالب وظيفة شرفيّة فلا يتعارض كثيرًا مع رغبتي عن عبوديّة العمل، وهو سياحة وفراغ يتيحان لي ما أحبّ من الحياة الروحيّة والجماليّة، ولكنّني لا أظنّني بالغه، لا لأنّه باب ضيّق كما قال حسن، ولكن لأنّي أشكّ في أنّي سأواصل التعليم النظاميّ حتّى نهايته...

إسماعيل لطيف، وهو يضحك متخابثًا:

ـ يغلب على ظنّي أنّك تريد فرنسا لأمور لا شأن لها بالثقافة، وحسنًا تفعل...

ضحك حسين شدّاد وهو يهزّ رأسه سلبًا، ثمّ قال:

ـ كلّا، أنت تفكّر بأهوائك، إنّ لرغبتي عن التعليم المدرسيّ أسبابًا أخرى، أوّلها: أنّني غير مكترث لدراسة القانون، ثانيًا: أنّه لا توجد مدرسة يمكن أن تمدّني بما أريد الإلمام به من شتّى المعارف والفنون، كالمسرح والتصوير والموسيقى والفلسفة. ما من مدرسة إلّا وستشحن رأسك بالتراب كي تعثر فيه ـ إن عثرت ـ على ذرّات من التبر، في باريس يتاح لك أن تشهد محاضرات في شتّى الفنون والمعارف دون تقيّد بنظام أو امتحان، إلى ما يتهيّأ لك من الحياة السامية الجميلة...

ثمّ مستطردًا بصوت خافت، وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ وربّما تزوّجت هناك كي أقضي العمر سائحًا في عالَمي الواقع والخيال!

لم يبدُ على وجه حسن سليم أنّه يولي الحديث اهتمامًا جدّيًّا، أمّا إسماعيل لطيف فرفع حاجبيه الكثيفين، تاركًا عينيه تُفصحان عمّا يضطرب في صدره من مكر وسخرية. كمال وحده الذي بدا متأثّرًا متحمّسًا، إنّه يستشرف نفس الآمال مع شيء من تعديل لا يمسّ الجوهر، لا تهمّه السياحة ولا الزواج في فرنسا، ولكن مَن له بهٰذه المعارف التي لا تتقيّد بنظام أو امتحان؟ إنّها أجدى بلا جدال من التراب الذي سيشحن به رأسه في المعلّمين كي يفوز في النهاية بذرّات من التبر، باريس؟! غدت حلمًا جميلًا منذ عَلِمَ بأنّها احتضنت عهدًا غضًّا من عمر معبودته، لا تزال تدعو حسين بسحرها، وتفتن خياله هو بشتّى وعودها، كيف الشفاء من لوعة الآمال؟ قال بعد تردّد وإشفاق:

ـ يخيّل إليّ أنّ أقرب المدارس في مصر إلى تحقيق ولو جزء يسير من رغبتك هي المعلّمين العليا!

تحوّل إسماعيل لطيف نحوه فيما يشبه القلق، وسأله:

ـ ماذا اخترت أنت؟ لا تقل مدرسة المعلّمين! ربّاه، نسيت أنّ بك لوثة قريبة الشبه بلوثة حسين!

ابتسم كمال ابتسامة عريضة كشفت عن مرونة منخريه العظيمين، وقال:

ـ التحقت بالمعلّمين للسبب الذي ذكرت!...

فنظر حسين شدّاد إليه باهتمام، ثمّ قال باسمًا:

ـ لا شكّ أنّ ميولك الثقافيّة أتعبتك كثيرًا قبل أن يقع اختيارك...

فقال له إسماعيل لطيف بلهجة نمّت عن الاتّهام:

ـ إنّك مسئول لدرجة كبيرة عن توكيد ميوله هٰذه، بل الحقّ أنّك تتكلّم كثيرًا وتقرأ قليلًا، أمّا المسكين فيأخذ الأمر مأخذ الجدّ ويقرأ لحدّ العمى، انظر إلى تأثيرك السيّئ فيه كيف دفع به إلى المعلّمين نهاية الأمر!...

استطرد حسين حديثه متجاهلًا مقاطعة إسماعيل:

ـ هل ثبت لديك أنّ في المعلّمين ما تودّ؟!

قال كمال بحماس، وقد انشرح صدره بأوّل صوت يتساءل عن مدرسته بلا احتقار أو استنكار:

ـ حسبي أن تتاح لي دراسة الإنجليزيّة لأتّخذ منها وسيلة ناجعة للاطّلاع غير المحدود، وإلى هٰذا فهناك فرصة طيّبة ـ فيما أظنّ ـ لدراسة التاريخ والتربية وعلم النفس...

فكّر حسين شدّاد قليلًا، ثمّ قال:

ـ عرفت كثيرًا من المعلّمين الذين خالطتهم عن كثب في دروسي الخصوصيّة، لم يكونوا مثالًا طيّبًا للرجل المثقّف، ولكن لعلّ النظام الدراسيّ العتيق هو المسئول عن ذٰلك...

فقال كمال بحماس لم يفتر:

ـ حسبي الوسيلة، الثقافة الحقّة تتوقّف على الإنسان لا المدرسة!

وتساءل حسن سليم:

ـ أتنوي أن تصير معلّمًا؟

ومع أنّ حسن طرح سؤاله بأدب، فإنّ كمال لم يطمئنّ إليه كلّ الاطمئنان، إذ أنّ التزامه الأدب كان طبعًا مأثورًا عنه فلا يزايله إلّا عند الضرورة القصوى أو حيث يشرع غيره في العراك، وذٰلك نتيجة طبيعيّة لرزانته من ناحية، ولتربيته الأرستقراطيّة النبيلة من ناحية أخرى، فلم يكن من اليسير على كمال أن يعرف إن كان سؤال صاحبه يخلو حقًّا من الاستنكار أو الازدراء، لذٰلك حرّك منكبيه استهانة، وقال:

ـ لا مفرّ من ذٰلك ما دمتُ مصمّمًا على تعلّم ما أروم من العلم!

وكان إسماعيل لطيف يتفحّص كمال من طرف خفيّ... رأسه وأنفه، وعنقه الطويل وقامته النحيلة، وكأنّما كان يتخيّل أثر هٰذه الصورة في التلاميذ عامّة وفي أشقيائهم خاصّة، فما ملك أن غمغم:

ـ تلك لعمري كارثة!

أمّا حسين شدّاد، فعاد يقول في لطف وثنى بميله إلى كمال:

ـ الوظيفة شيء ثانويّ عند ذوي الأهداف البعيدة، على أنّه لا ينبغي أن ننسى أنّ نخبة من نابهي مصر قد تخرّجوا في المدرسة...

انقطع حديث المدرسة عند ذاك، فساد الصمت، وحاول كمال أن يلقي بروحه في أحضان الحديقة، غير أنّ الحديث ترك في رأسه حرارة كان عليه أن ينتظر حتّى تبترد، وسنحت منه نظرة، فرأى دورق الماء المثلوج على المائدة، فخطرت له خاطرة قديمة طالما منّته بالسعادة في مثل ظرفه هٰذا، ان يملأ كوبًا ويشربه لعلّه يلمس بشفتيه موضعًا منه يكون قد اتّفق أن لمسته شفتاها وهي تشرب مرّة، فقام إلى المائدة، وملأ من الدورق كوبًا وشربه، ثمّ عاد إلى مجلسه مركّزًا انتباهه في نفسه وهو يترقّب، كأنّما كان ينتظر ـ فيما لو حالفه الحظّ فأصاب الهدف ـ أن يتغيّر شأنه، أن تنبثق من روحه قوّة سحريّة لا عهد له بها، أن ينتشي بنشوة إلٰهيّة يرقى بها في معارج السماوات السعيدة، ولكنّه، أجل!! ولكنّه قنع في النهاية بلذّة المغامرة وبهجة الأمل، ثمّ راح يتساءل في قلق: متى تجيء؟... هل يمكن أن تلحق هٰذه الفترة الواعدة بأشهر الفراق الثلاثة الماضية؟... وعادت عيناه إلى الدورق، فطافت به ذكرى حديث قديم دار بينه وبين إسماعيل لطيف عن هٰذا الدورق أو بالحريّ عن الماء المثلوج الذي لا يقدّم شيء خلافه في سراي شدّاد! وكان إسماعيل قد أشار ـ وهو بصدد الحديث عن ذٰلك ـ إلى النظام الاقتصاديّ الدقيق الذي تخضع له السراي من السطح إلى البدروم، وتساءل: أليس ذٰلك نوعًا من البخل؟، غير أنّ كمال أبى أن توصم أسرة معبودته بما يشين، فدفع عنها التهمة مستشهدًا ببذخها وخدمها وحشمها والسيّارتين اللتين تملكهما: المنيرفا، والفيات التي يكاد يختصّ بها حسين، فكيف تُتّهم بعد ذٰلك بالبخل؟! هنالك قال إسماعيل ـ ولم يكن يعوزه طول اللسان ـ إنّ البخل أنواع، وإنّه لـمّا كان شدّاد بك مليونيرًا بكلّ معنى الكلمة، فإنّه رأى لزامًا عليه أن يحيط نفسه بمظاهر الجاه، ولكنّه اكتفى بما يعدّ في «بيئته» من الضروريّات، أمّا القاعدة المتّبعة التي لا يحيد عنها فرد من الأسرة، فهي ألّا يتسامح في إنفاق مليّم واحد في غير موضعه وبلا موجب... الخدم

يتناولون أدنى الأجور ويأكلون أقلّ الطعام، وإن كسر أحدهم طبقًا خصم ثمنه من مرتّبه. حسين شدّاد نفسه فتى الأسرة الوحيد لا يعطى مصروفًا أسوة بأمثاله من الأبناء أن يتعوّد بعثرة النقود بلا ضرورة، أجل ربّما ابتاع له أبوه كلّ عيد عددًا من الأسهم أو السندات، ولٰكنّه لا يعطيه قرشًا في يده... أمّا زوّار النجل العزيز، فلا يقدّم لهم إلّا الماء المثلوج!... أليس هٰذا بخلًا، وإن يكن بخلًا أرستقراطيًّا؟! ذكر كمال ذٰلك الحديث وهو ينظر إلى الدورق، وتساءل كما تساءل قديمًا في ارتياع: أمن الممكن أن ترتقي إلى أسرة معبودته هنة من الهنات؟ أبى قلبه أن يصدّق هٰذا إباء من ينزّه الكمال عن المآخذ وإن هانت بيد أنّه خُيّل إليه أنّ ثمّة شعورًا بما يشبه الارتياح يعابثه هامسًا في أذنه «لا تفزع... أليس هٰذا النقص إن صحّ ممّا ينزلها ولو درجة إليك، أو يرفعك ولو درجة إليها؟!»، ومع أنّه وقف من أقوال إسماعيل موقف التحفّظ والارتياب، فإنّه وجد نفسه يعيد النظر وهو لا يدري في «رذيلة» البخل، فيقسّمها إلى نوع دنيء وآخر ليس إلّا سياسة حكيمة تمدّ الحياة الاقتصاديّة بأسس بارعة من النظام والدقّة، فمن الإسراف كلّ الإسراف تسميته بخلًا أو اعتباره رذيلة، كيف لا، وهو لا يتعارض مع تشييد القصور واقتناء السيّارات واتّخاذ كافّة مظاهر البذخ والبلهنيّة؟ كيف لا، وهو يصدر عن نفوس سامية مطهّرة من الخبائث والضعة؟!

استيقظ من أفكاره على يد إسماعيل لطيف وهي تقبض على ذراعه وتهزّه، ثمّ سمعه وهو يقول مخاطبًا حسن سليم:

ـ حذار، ها هو مندوب الوفد يردّ عليك!

أدرك من فوره أنّهم طرقوا حديث السياسة وهو عنهم ساهٍ، حديث السياسة... ما أشقّه وما ألذّه، دعاه إسماعيل «مندوب الوفد» فلعلّه يتهكّم، فليتهكّم ما شاء له أن يتهكّم، الوفد عقيدة تلقّاها عن فهمي واقترنت في قلبه باستشهاده وتضحيته. نظر إلى حسن سليم، وقال باسمًا:

ـ أيّها الصديق الذي لا تبهره إلّا العظمة، ماذا قلت عن سعد؟

لم يبدُ على حسن سليم أنّه اكترث لحديث العظمة، ولم يكن كمال يتوقّع غير ذٰلك، فطالما صاوله حتّى وقف على رأيه العنيد المتعجرف ـ ولعلّه رأي أبيه المستشار أيضًا ـ في سعد زغلول الذي يكاد هو من حبّ وإخلاص أن يقدّسه. لم يكن سعد زغلول إلّا مهرّجًا شعبيًّا في نظر حسن سليم، وكان يردّد هٰذا الوصف في تقزّز وازدراء مثيرين خارقًا المعتاد من أدبه ودماثته، ثمّ يمضي في السخرية من سياسته ومأثوراته البلاغيّة، منوّهًا في الوقت نفسه بعظمة عدلي وثروت ومحمّد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريّين الذين لم يكونوا في نظر كمال إلّا «خونة» أو إنجليز مطربشين! أجاب حسن سليم بهدوء:

ـ كنّا نتحدّث عن المفاوضات التي لم تستمرّ إلّا ثلاثة أيّام، ثمّ قُطعت!

فقال كمال بحماس:

ـ يا له من موقف وطنيّ جدير بسعد حقًّا، طالب بحقوقنا الوطنيّة مترفّعًا عن المساومة، ثمّ قطع المفاوضة حين وجب قطعها، وقال قولته الخالدة: «لقد دعونا إلى هنا لكي ننتحر، ولٰكنّنا رفضنا الانتحار، وهٰذا كلّ ما جرى».

قال إسماعيل لطيف، وكان يجد في السياسة مادّة للعبث:

ـ لو قَبِلَ أن ينتحر لتوّج حياته بأجلّ خدمة يمكن أن يؤدّيها إلى بلاده!

انتظر حسن سليم حتّى فرغ إسماعيل وحسين من الضحك، ثمّ قال:

ـ ماذا أفدنا من هٰذه المأثورة؟ ليست الوطنيّة عند سعد إلّا نوعًا من البلاغة التي تستهوي العامّة، «لقد دعونا إلى هنا لكي ننتحر ألخ ألخ»، «يعجبني الصدق في القول ألخ ألخ»!... كلام في كلام، هنالك رجال لا يتكلّمون ولٰكنّهم يعملون في صمت، وقد حقّقوا للوطن الفائدة الوحيدة التي جناها في تاريخه الحديث...

احتدم الغيظ في قلب كمال، ولولا ما يكنّه لحسن من احترام لشخصيّته وسنّه لانفجر، وعجب كيف

يتابع «شابّ» مثله أباه ـ وهو من جيل قديم على أيّ حال ـ في انحرافه السياسيّ!

ـ أنت تقلّل من شأن الكلام كأنّه لا شيء، الحقّ أنّ أخطر ما تمخّض عنه تاريخ البشريّة من جلائل الأمور يمكن إرجاعه في النهاية إلى كلمات، الكلمة العظيمة تتضمّن الأمل والقوّة والحقيقة، نحن نسير في الحياة على ضوء كلمات، على أنّ سعد ليس صانع كلمات فحسب، إنّ سجلّه حافل بالأعمال والمواقف!!

تخلّل حسين شدّاد شعره الفاحم بأنامله الطويلة الرشيقة وهو يقول:

ـ أوافق على ما قلت عن قيمة الكلمة بصرف النظر عن سعد... !

لم يعبأ حسن بمقاطعة حسين شدّاد، فقال مخاطبًا كمال:

ـ إنّ الأمم تحيا وتتقدّم بالعقول والحكمة السياسيّة والسواعد، لا بالخطب والتهريج الشعبيّ الرخيص...

نظر إسماعيل لطيف إلى حسين شدّاد، وهو يتساءل ساخرًا:

ـ ألا ترى أنّ من يُتعب نفسه في الكلام عن إصلاح هٰذا البلد كالنافخ في قربة مثقوبة؟

التفت كمال إلى إسماعيل ليخاطب من وراء حسن بما تردّد عن مخاطبته وجهًا لوجه، قال منفّسًا عن غيظه:

ـ أنت لا تهمّك السياسة في شيء، لكنّ مزاحك يفصح أحيانًا عن موقف «قلّة» من المحسوبين على المصريّين كأنّك ناطق بلسانهم، تراهم يائسين من نهوض الوطن، يأس الاحتقار والتعالي لا يأس الطموح والتطرّف، ولولا أنّ السياسة مطيّة لأطماعهم لاعتزلوها كما تفعل أنت!

ضحك حسين شدّاد ضحكته اللطيفة، ومدّ يده إلى ذراع كمال، فشدّ عليها قائلًا:

ـ أنت مجادل عنيد، يعجبني حماسك وإن لم أشاركك الإيمان به، على أنّني كما تعلم محايد، لا من الوفديّين ولا من الدستوريّين، لا استهانة كإسماعيل لطيف، ولٰكن لاعتقادي بأنّ السياسة تفسد الفكر والقلب، ينبغي أن تعلو عليها حتّى تتراءى لك الحياة ميدانًا لانهائيًّا للحكمة والجمال والتسامح، لا معترك صراع وكيد...

ارتاح إلى صوت حسين فسكنت فورته، كان يطرب لموافقته إذا وافقه على رأي، ويتّسع صدره لمعارضته إذا عارضه فيه، ومع أنّه كان يشعر بأنّ تبريره للحياد ما هو إلّا اعتذار عن ضعف وطنيّته، فإنّه لم يحنق عليه لذٰلك ولم يرَ فيه نقيصة ولٰكن وَسِعَها عفوه وحلمه وتسامحه، قال يجاريه:

ـ الحياة هي هٰذا كلّه، هي الصراع والكيد والحكمة والجمال، فأيّ وجه تتجاهله من وجوهها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها وقدرتك على التأثير فيها بما يوجّهها نحو الأحسن، لا تحتقر السياسة أبدًا، فالسياسة هي نصف الحياة، أو هي الحياة كلّها إذا عددت الحكمة والجمال ممّا فوق الحياة...

حسين شدّاد كالمعتذر:

ـ فيما يتعلّق بالسياسة، أصارحك بأنّني لا أثق في جميع أولٰئك الرجال...

سأله كمال كالمتودّد:

ـ ماذا نزع ثقتك من سعد؟

ـ بل دعني أسألك عمّا يجعلني أضع ثقتي فيه!... سعد وعدلي وعدلي وسعد، ما أسخف هٰذا كلّه، على أنّه إذا كان سعد وعدلي سيّين عندي في الناحية السياسيّة فإنّني لا أراهما كذٰلك كرجلين، إذ لا يمكن أن أتجاهل ما يمتاز به عدلي من كريم الأصل وعظيم الجاه والثقافة، أمّا سعد ـ وإيّاك أن تغضب ـ فما هو إلّا أزهريّ قديم!...

آه، شدّ ما يحزّ في نفسه أن يندّ عن حسين أحيانًا ما يشي بتعاليه عن الشعب فيشعر وهو من الحزن في نهاية كأنّه يتعالى عنه هو أو ـ وهو الأدهى والأمرّ ـ كأنّه ينطق بلسان الأسرة جميعًا، أجل، إنّه إذا حادثه أشعره كأنّما يتكلّم عن شعب غريب «عنهما» معًا، ولٰكن أكان ذٰلك عن خطإ في التصوير أم عن مجاملة؟ ومن عجب أنّ موقف حسين هٰذا لم يغضبه من ناحية دلالته العامّة بقدر ما أحزنه من ناحية دلالته الخاصّة به، فلم يستثر

عداوته الطبقيّة ولا إحساسه الوطنيّ... انهزمت هٰذه المشاعر حيال بشاشة وضيئة تنمّ عن الصراحة وحسن الطويّة، وتراجعت أمام حبّ لا تنال منه الآراء والأحداث، على الضدّ من هٰذا كان شعوره حيال موقف حسين شدّاد منه، فكان ـ رغم صداقتهما ـ يهيّج غضبه لوطنه، ولم يشفع له عنده تأدّبه في الخطاب وتحفّظه في إظهار مشاعره، بل لعلّه آنس فيهما «حكمة» تضاعف من مسئوليّته وتؤكّد تعصّبه الأرستقراطيّ الموجّه ضدّ الشعب، قال مخاطبًا حسين:

ـ أفي حاجة أنا أن أذكّرك بأنّ العظمة شيء غير العمامة والطربوش أو الفقر والغنى؟ يبدو لي أنّ السياسة تضطرّنا أحيانًا إلى مناقشة البديهيّات!...

قال إسماعيل لطيف:

ـ إنّ ما يعجبني في الوفديّين ـ أمثال كمال ـ هو شدّة تعصّبهم!

ثمّ وهو يجيل بصره في الجالسين:

ـ أمّا ما يسوءني منهم، فهو شدّة تعصّبهم أيضًا!

قال حسين شدّاد ضاحكًا:

ـ أنت سعيد الحظّ، لأنّك مهما أبديت في السياسة من رأي، فلن يعترض سبيلك معقّب...!

هنا سأل حسن سليم حسين شدّاد قائلًا:

ـ تزعم أنّك تربأ بنفسك عن السياسة، فهل تصرّ على ذٰلك حتّى إذا تعلّق الأمر بالخديو السابق؟

اتّجهت الأعين نحو حسين في تحدٍّ باسم لما هو معروف عن تشيّع والده شدّاد بك للخديو السابق، الأمر الذي أبعد من أجله أعوامًا قضاها في باريس، ولٰكنّ حسين قال في غير مبالاة:

ـ لا تعنيني هٰذه الأمور في كثير أو قليل، كان والدي ولا يزال من رجال الخديو، ولٰكنّني لست مطالبًا باعتناق آرائه...

سأله إسماعيل لطيف، وفي عينيه الضيّقتين بريق ضاحك:

ـ أكان والدك من الذين يهتفون «الله حيّ... عبّاس جي»؟

فقال حسين شدّاد ضاحكًا:

ـ لم أسمع عن هٰذا الذكر إلّا منكم، والحقّ الذي لا ريب فيه، أنّه لم يعد بين أبي وبين الخديو إلّا الصداقة والوفاء، وفضلًا عن ذٰلك فليس ثمّة حزب ـ كما تعلمون ـ يدعو اليوم إلى عودة الخديو...

قال حسن سليم:

ـ أمسى الرجل وعهده في ذمّة التاريخ، الحاضر يمكن تلخيصه في كلمتين، وهما، أنّ سعد يأبى أن يقوم في مصر من يتكلّم باسمها غيره ولو كان خير الرجال وأحكمهم!

لم يكد يتلقّى الضربة كمال حتّى جاوبه قائلًا:

ـ الحاضر في كلمة واحدة، أن ليس في مصر من يتكلّم باسمها إلّا سعد، وأنّ التفاف الأمّة حوله جدير في النهاية بأن يبلغ بها ما نرجو من الآمال...

وشبك ذراعيه على صدره، ومدّ ساقيه حتّى مسّ طرف حذائه رجل المائدة، وهمّ بالاسترسال في حديثه لولا أن جاءهم من الوراء صوت غير بعيد يتساءل «ألا تريدين يا بدور أن تحيّي أصدقاءك القدماء؟» فانعقد لسانه، ووثب قلبه وثبة عنيفة رجّت صدره رجًّا أفزعه أوّل الأمر وآلمه، وفي أسرع من لمعان البرق استغرقته سكرة طاغية من السعادة كاد يغمض لها عينيه من شدّة التأثّر، ثمّ وجد أنّ كلّ خاطرة تنبض بها نفسه قد اتّجهت صوب السماء، قام مع الأصدقاء كما قاموا، واستدار معهم إلى الوراء، فرأى على بعد خطوة من الكشك عايدة واقفة ممسكة بيد بدور شقيقتها الصغرى ذات الأعوام الثلاثة، وهما يتطلّعان إليهم بأعين هادئة باسمة... ها هي ذي بعد انتظار ثلاثة أشهر أو يزيد، ها هو «الأصل» الذي تملأ «صورته» روحه وجوارحه ويقظته، ونومه، ها هي قائمة أمام عينيه شاهدًا على أنّ الألم الذي لا حدّ له والسرور الذي لا وصف له واليقظة المحرقة للنفس والحلم المدوّم في السماء، إنّ كلّ أولٰئك ربّما رجعت في آخر الأمر إلى آدميّ لطيف تترك قدماه انطباعاتها على أرض الحديقة! ورنا إليها فجذب مغناطيسها شعوره كلّه حتّى سلبه الإحساس بالزمان والمكان والأناسيّ والنفس، فعاد وكأنّه روح مجرّدة تسبح في فراغ نحو معبودها... على

أنّ إدراكه لها هي نفسها لم يكن حسّيًّا بقدر ما كان روحيًّا، تمثّل في نشوة ساحرة وغبطة شادية وسبحة عالية، بينا وهنت منه الرؤية أو تلاشت، كأنّ قوّة انفعاله الروحيّ استأثرت بكلّ حيويّته فغودرت حواسّه وقواه العاقلة والمدركة والملاحظة في سبات أشرف به على نوع من الفناء، لذلك كانت دائمًا أطوع لذاكرته منها إلى حواسّه، لا يكاد يرى منها وهو في محضرها شيئًا، ولكنّها تتراءى فيها بعد في ذاكرته بقامتها الهيفاء ووجهها البدريّ الخمريّ وشعر عميق السواد مقصوص «ألا جرسون» ذي قصّة مسترسلة على الجبين كأسنان المشط وعينين ساجيتين تلوح فيهما نظرة لها هدوء الفجر ولطفه وعظمته، كان يرى هذه الصورة بذاكرته لا بحواسّه كالنغمة الساحرة نفنى في سماعها فلا نذكر منها شيئًا حتّى تفاجئنا مفاجأة سعيدة في اللحظات الأولى من الاستيقاظ أو في ساعة انسجام، فتتردّد في أعماق الشعور في لحن متكامل. وتساءلت أحلامه وأمانيّه: ترى هل تغيّر من طريقتها المألوفة فتمدّ يدها للمصافحة فيلمسها ولو مرّة في الحياة؟ لكنّها حيّتهم بابتسامة وتحنية من رأسها، وهي تتساءل بذلك الصوت الذي يزري بأحبّ الألحان إليه:

- كيف حالكم جميعًا؟

فاستبقت الأصوات إليها بالتحيّة والشكر والتهنئة على سلامة العودة، عند ذاك عبثت أناملها الرشيقة برأس بدور وهي تقول لها:

- صافحي أصدقاءك!

فثنت بدور شفتيها داخل فيها وعضّت عليهما وهي تردّد عينيها بينهم في حياء حتّى استقرّتا على كمال، فابتسمت وابتسم! قال حسين شدّاد، وكان على علم بما بين الطفلة وكمال من مودّة:

- إنّها تبتسم لمن تحبّه!

- أتحبّين هذا حقًّا؟ (ثمّ وهي تدفعها نحوه) إذن سلّمي عليه...

مدّ لها كمال يديه متورّد الوجه من السرور، فأقبلت نحوه، فرفعها بين يديه حتّى أقرّها في حضنه، وراح يقبّل خدّيها في حنان وتأثّر شديدين، كان بهذا الحبّ سعيدًا فخورًا، ليست التي بين يديه إلّا فلذة من جسد الأسرة، فهو يضمّ الكلّ إذ يضمّ الجزء إلى صدره، هل أمكن اتّصال العبد بمعبوده إلّا عن وساطة كهذه الوساطة؟... والسحر كلّ السحر في هذا الشبه الغريب بين الطفلة وشقيقتها، كأنّ المطمئنّة إلى صدره عايدة نفسها في طور من أطوار حياتها الماضية، كانت يومًا مثل بدور سنًّا وحجمًا وجودًا فتأمّل!... فليهنأه هذا الحبّ الطاهر... ليسعد بعناق جسم تعانقه هي... وبتقبيل وجنة تقبّلها هي... وليحلم حتّى يشرد منه العقل والقلب. إنّه يدري لِمَ يحبّ بدور ولِمَ يحبّ حسين ولِمَ يحبّ القصر وحديقته وخدمه، إنّه يحبّها جميعًا إكرامًا لعايدة، أمّا الذي لا يدريه فهو حبّ عايدة نفسها!... ردّدت عايدة عينيها بين حسن سليم وإسماعيل لطيف، ثمّ سألتهما:

- كيف وجدتما الإسكندريّة؟

فقال حسن:

- رائعة!...

على حين تساءل إسماعيل:

- ماذا يجذبكم إلى رأس البرّ دوامًا؟

فقالت بصوت رخيم مشرّبة نبراته بعذوبة موسيقيّة:

- صيّفنا مرّات في الإسكندريّة، ولكنّ الاصطياف لا يطيب لنا إلّا في رأس البرّ، هنالك الهدوء والبساطة وألفة لا تجدها إلّا في بيتك!

فقال إسماعيل ضاحكًا:

- من سوء الحظّ أنّ الهدوء لا يطيب لنا...

ما أسعده بهذا المنظر... هذا الحديث... هذا الصوت، تأمّل أليست هذه هي السعادة؟! فراشة كنسمة الفجر تقطر ألوانًا بهيجة وترشف رحيق الأزاهر... هذا أنا، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد!...

قالت عايدة:

- كانت رحلة ممتعة، ألم يحدّثكم حسين عنها؟

قال حسين بلهجة انتقاديّة:

- بل كانوا يتناقشون في السياسة!

فالتفتت ناحية كمال قائلة:

ـ هنا شخص لا يحلو له إلّا حديثها...

من عينيها نظرة تلقى إليك كالرحمة، صفاؤها يجلو روحًا ملائكيًا، بعثت كما يبعث عبّاد الشمس في ضوئها المشرق، لو يدوم هٰذا الموقف إلى الأبد!...

ـ لم أكن المسئول عن إثارة المناقشة اليوم...

فقالت باسمة:

ـ لكنّك اغتنمت الفرصة...

ابتسم في تسليم، وعند ذاك حوّلت عينيها إلى بدور هاتفة:

ـ أتنوين أن تنامي بين ذراعيه!... كفاك سلامًا...

غلب الحياء بدور، فدفنت رأسها في صدره، فجعل يربّت على ظهرها في حنان، غير أنّ عايدة توعّدتها قائلة:

ـ إذن سأتركك وأرجع وحدي...

فرفعت بدور رأسها ومدّت لها يدها وهي تغمغم «لا»، فقبّلها كمال وأنزلها إلى الأرض، فجرت إلى عايدة وقبضت على يدها، ألقت عايدة عليهم نظرة شاملة ثمّ لوّحت بيدها تحيّة وذهبت من حيث أتت. عادوا إلى مقاعدهم فواصلوا الحديث كيفما اتّفق. هٰكذا كانت تقع زيارات عايدة في كشك الحديقة، مفاجأة سعيدة قصيرة ولٰكنّه بدا قانعًا، وشعر بأنّ تصبّره طيلة أشهر الصيف لم يذهب هدرًا، لِمَ لا ينتحر الناس ضنًّا بالسعادة كما ينتحرون فرارًا من الشقاء؟ ليس من الضروريّ أن تسيح كما يودّ حسين أن يسيح كي تلقى متع الحواسّ والعقل والروح، فمن الجائز أن تفوز بكلّ أولٰئك في لحظة خاطفة دون أن تبرح مكانك! من أين لبشر أن يؤتى القدرة على إحداث هٰذا كلّه؟! أين فورة السياسة وحرارة الجدل واحتدام الخصام وتصادم الطبقات؟... ذابت كلّها وتوارت تحت نظرة من عينيك يا معبودتي، ما الفاصل بين الحلم والحقيقة وفي أيّهما تراني أهيم الساعة؟

ـ موسم الكرة سيبدأ عمّا قريب...

ـ كان الموسم الماضي موسم الأهليّ دون شريك!

ـ هُزم المختلَط بالرغم من أنّ فريقه يضمّ أبطالًا أفذاذًا...

انبرى كمال للدفاع عن المختلَط ـ كما دافع عن سعد ـ صادًّا عنه هجمات حسن سليم. كان أربعتهم من لاعبي الكرة على تفاوت في الحذق والحماس، فكان إسماعيل أمهرهم إلى حدّ أنّه برز بينهم كالمحترف بين الهواة، على حين كان حسين شدّاد أضعفهم، أمّا كمال وحسن فكانا بين ذٰلك، وقد اشتدّت المناظرة بين كمال وحسن، ذاك يُرجع هزيمة المختلط إلى سوء الحظّ وهٰذا يردّها إلى تفوّق لاعبي الأهليّ الجدد... واستمرّ الجدل دون أن ينزل أحدهما عن رأيه. تساءل كمال: لِمَ يجد نفسه دائمًا في الجانب المضادّ للجانب الذي يقف فيه حسن سليم؟ الوفد الأحرار، المختلَط الأهليّ، حجازي مختار، وفي السينما يفضّل شارلي شابلن فيفضّل الآخر ماكس لندر!

غادر المجلس قبيل المغيب، وفيما هو يسير في الممرّ الجانبيّ المفضي إلى الباب الخارجيّ إذ سمع صوتًا يهتف:

ـ ها هو ذا...

رفع رأسه مسحورًا فرأى عايدة في إحدى نوافذ الدور الأوّل، مُجلسة بدور على حافة النافذة بين يديها وهي تشير لها إليه، وقف تحت النافذة مباشرة مرفوع الرأس، يتطلّع بوجه باسم إلى الطفلة التي لوّحت له بيدها الصغيرة، ويلمح بين لحظة وأخرى إلى الوجه الذي استقرّت في هيئته ورموزه آماله في الحياة وما بعد الحياة، وقلبه يتلاطم بين الضلوع سكرًا، لوّحت له بدور بيدها مرّة أخرى، فسألتها عايدة:

ـ تذهبين إليه؟

حنت الصغيرة رأسها بالإيجاب، فضحكت عايدة من هٰذه الرغبة التي لن تتحقّق، على حين مضى هو يتوسّمها متشجّعًا بضحكاتها ـ غارقًا بروحه في حور عينيها وملتقى حاجبيها مسترجعًا صدى ضحكتها المترعة ونبرات صوتها الدافئ حتّى اضطربت أنفاسه من وجد وهيام، ولـمّا كان الموقف يملي عليه أن يتكلّم، فقد سأل معبودته وهو يشير إلى محبوبته الصغيرة:

ـ هل ذَكَرَتْني في المصيف؟

قالت عايدة وهي تتراجع برأسها قليلًا:

ـ سلها هي، لا شأن لي بما بينك وبينها!

ثمّ مستدركة قبل أن ينبس هو بكلمة:

ـ هل ذَكَرْتَها أنت؟

آه، موقفك فوق السطح بين مريم وفهمي، قال بحرارة:

ـ لم تغب عن ذاكرتي يومًا واحدًا...

نادى عند ذاك صوت من داخل القصر فاعتدلت عايدة في وقفتها ورفعت بدور بين يديها، ثمّ قالت معلّقة على كلامه وهي تهمّ بالذهاب:

ـ يا له من حبّ عجيب!

وغابت عن النافذة...

ـ ١٥ ـ

لم يبق من روّاد مجلس القهوة إلّا أمينة وكمال، وحتّى كمال كان يبرحه عند الأصيل إلى الخارج فتلبث الأمّ بمفردها أو تدعو أمّ حنفي إلى مؤانستها حتّى يحين وقت النوم. وكان ياسين قد خلّف وراءه فراغًا، ومع أنّ أمينة حرصت دائمًا على ألّا تعود إلى ذكراه فإنّ كمال شعر لغيابه بوحشة غاضت أبهج ما كان يجد في مجلس القهوة من متعة. وكانت القهوة ـ قديمًا ـ شراب المجلس الذي يجتمع حوله الأبناء للسمر. فانقلب اليوم ـ عند الأمّ ـ كلّ شيء فيه، فأسرفت في حسوها إسرافًا وهي لا تدري حتّى صار صنع القهوة وحسوها سلوة وحدتها، فربّما احتست خمسة أو ستّة ـ وأحيانًا عشرة ـ فناجيل تباعًا، وكان كمال يتابع إفراطها بقلق ويحذّرها من عواقبه، فتردّ عليه بابتسامة كأنّما تقول له «وماذا أفعل إذا لم أشرب؟» ثمّ تقول له بلهجة الواثق المطمئنّ «لا ضرر من القهوة».... جلسا متقابلين، هي على الكنبة الفاصلة بين حجرتي النوم والمائدة، وهو على الكنبة المتوسّطة لحجرتي نومه ومكتبه، وكانت عاكفة على المجمرة التي دفنت الكنجة حتّى نصفها في جمراتها، وكان صامتًا شارد النظرة، وفجأة سألته:

ـ فيم تفكّر يا ترى؟ دائمًا تُرى وكأنّك مشغول الفكر بأمر ذي بال.

آنس من صوتها ما يشبه العتاب، فقال:

ـ العقل يجد دائمًا ما يشغله!

فرفعت إليه عينيها الصغيرتين العسليّتين كالمتسائلة، ثمّ قالت في شيء من الحياء:

ـ مضى زمن كنّا لا نجد وقتًا يتّسع لحديثنا!

حقًّا؟ ذٰلك ماضٍ مضى، عهد الدروس الدينيّة وقصص الأنبياء والشياطين، عهد تعلّقه بها لحدّ الجنون، انقضى ذٰلك العهد، فيم يتحدّثان اليوم؟ إلّا تكن دردشة لا معنى لها فلا وجه للكلام على الإطلاق، ابتسم كأنّما يعتذر بابتسامته عن صمته السابق واللاحق معًا، ثمّ قال:

ـ نحن نتكلّم كلّما وجدنا للكلام موضوعًا.

فقالت برقّة:

ـ ليس للكلام حدود لمن أراد أن يتكلّم، ولٰكنّك تبدو غائبًا دائمًا أو كالغائب...

ثمّ بعد تفكير:

ـ أنت تقرأ كثيرًا، في عطلتك تقرأ كما تقرأ في وقت دراستك، لم تستوفِ يومًا حظّك من الراحة، أخاف أن تكون أتعبت نفسك أكثر ممّا ينبغي...

فقال كمال بلهجة دلّت على أنّه لم يرحّب بهذا التحقيق:

ـ اليوم طويل جدًّا، وقراءة ساعات لا يمكن أن تُتعب إنسانًا، ليست إلّا نوعًا من التسلية وإن تكن تسلية مفيدة...

فقالت بعد تردّد:

ـ أخاف أن تكون القراءة سبب ما يبدو عليك كثيرًا من الصمت والشرود...

كلّا ليست القراءة، القراءة ملاذ من التعب لو تعلمين، شيء آخر يشغل عقله طيلة الوقت ولا يسلم منه وقت القراءة نفسه، شيء لا علاج له عندها ولا عند غيرها من البشر، إنّه مرض قلب يتعبّد حائرًا ولا يدري ماذا وراء عنائه يروم! قال بمكر:

ـ القراءة كالقهوة لا ضرر منها! ألا تحبّين أن أصير «عالـمًا» كجدّي؟

فشاعت البهجة والفخار في الوجه المستطيل الشاحب، وقالت:

ـ بلى، إنّي أودّ ذلك بكلّ قلبي، ولكنّني أحبّ أن أراك دائمًا منشرح الصدر. . .

قال باسمًا:

ـ إني منشرح الصدر كما تحبّين، فلا تشغلي البال بمحض أوهام.

كان يلاحظ أنّ رعايتها له ازدادت في السنوات الأخيرة أكثر ممّا ينبغي، وأكثر ممّا يودّ، وأنّ تعلّقها به وحدبها عليه وإشفاقها ممّا يضرّه ـ أو ممّا تتوهّم أنّه يضرّه ـ باتت شغلها الشاغل إلى حدّ ضايقه واستفزّه للذود عن حرّيّته وكرامته، بيد أنّه لم تغب عنه أسباب هٰذا التطوّر الذي بدأ عقب مصرع فهمي وابتلائها بفقده، فلم يجاوز أبدًا في ذوده عن حرّيّته حدود اللطف والأدب:

ـ يسرّني أن أسمع هٰذا منك وأن يكون حقًّا وصدقًا، لست أبغي إلّا سعادتك، ولقد دعوت لك اليوم في سيّدنا الحسين دعاء أرجو أن يمنّ الله باستجابته!

ـ آمين. . .

ونظر إليها وهي ترفع الكنجة لتملأ فنجانها للمرّة الرابعة، فانفرج ركنا فيه عن ابتسامة خفيفة. . . ذكر كيف كانت زيارة الحسين لديها أمنية في حكم المستحيل، ها هي اليوم تزوره كلّما زارت القرافة أو السكّريّة، ولٰكن ما أفدح الثمن الذي دفعته نظير هٰذه الحرّيّة الضئيلة! هو نفسه له أمانيه التي في حكم المستحيل فأيّ ثمن تقتضيه كي تتحقّق؟ الا إنّ أيّ ثمن ـ وإنْ جلّ ـ يهون في سبيل ذلك، عاد يقول ضاحكًا ضحكة مقتضبة:

ـ إنّ لزيارة الحسين ذكريات لا تُنسى. . .

تحسّست ترقوتها بيديها، وهي تبتسم قائلة:

ـ وأثر باقٍ لا يزول. . .

فقال كمال في شيء من الحماس:

ـ لست اليوم حبيسة البيت كما كنت قديمًا، أصبح من حقّك أن تزوري خديجة وعائشة أو سيّدنا الحسين كلّما أردت، تصوّري أيّ حرمان كنت تمنّين به نفسك لو لم يفكّ أبي قيودك!

رفعت إليه عينيها فيما يشبه الارتباك أو الخجل، كأنّما كبر عليها أن تذكّر بامتياز نالته نتيجة لثكلها، ثمّ أطرقت في وجوم ولسان حالها يقول «ليتني بقيت كما كنت وبقي لي فقيدي»، غير أنّها تحاشت الإفصاح عمّا جاش به صدرها إشفاقًا من تكدير صفوه، وقنعت بأن تقول وكأنّها تعتذر عمّا حظيت به من حرّيّة:

ـ ليس خروجي بين حين وآخر فرجة أستمتع بها، إنّي أزور الحسين لأدعو لك، وأزور أختيك لأطمئنّ عليهما ولأحلّ مشكلات لا أدري من كان غيري يحلّها!

فابتده المشكلات التي تعني، ولـمّا كان يعلم أنّها زارت السكّريّة اليوم، فقد تساءل:

ـ هل من جديد في السكّريّة؟

قالت وهي تتنهّد:

ـ العادة. . . !

هزّ رأسه أسفًا، وهو يبتسم قائلًا:

ـ مخلوقة للنقار، هٰذه هي خديجة. . .

قالت أمينة بحزن:

ـ قالت لي حماتها: إنّ أيّ محادثة معها مخاطرة غير محمودة العواقب. . .

ـ الظاهر أنّ حماتها ـ نفسها ـ قد خرفت!

ـ لها من الكبر أعذار، ولٰكن ما عذر أختك؟

ـ ترى آآثرتها على الحقّ أم آثرت الحقّ عليها؟

وضحك ضحكة ذات مغزى، فتنهّدت أمينة مرّة اخرى، وقالت:

ـ أختك حامية الطبع، وسرعان ما تضيق حتّى بالنصيحة الخالصة، ويا ويلي إذا جاملت حماتها مراعاة لسنّها ومكانتها، هنالك تسألني وعيناها تحمارّان «أنت معي أم عليّ؟»، لا حول ولا قوّة إلّا بالله، معي أم عليّ! . . . هل نحن في حرب يا ابني؟. ومن الغريب أن يكون الحقّ أحيانًا على حماتها ولكنّها تتمادى في الخصام حتّى ينقلب الحقّ عليها هي. . . !

هيهات أن يسخطه عليها شيء، كانت ولا تزال أمّه

الثانية ومورد حنان لا ينضب، أين منها عائشة الجميلة السادرة التي تشبّعت بالشوكتيّة حتّى ذؤابتها!

ـ وعمَّ أسفر التحقيق؟

ـ بدأ الشجار بالزوج هٰذه المرّة وعلى غير المألوف، دخلتُ الشقّة وهما يتجادلان في عنف حتّى عجبت لما أهاج الرجل الطيّب، فتدخّلت بينهما بالسلام، ثمّ عرفت سبب هٰذا كلّه، كانت معتزمة أن تنفض الشقّة، ولٰكنّه ظلّ نائمًا حتّى التاسعة فأصرّت على إيقاظه حتّى استيقظ غاضبًا، وركبه عناد مفاجئ فأبى أن يغادر الفراش، وسمعتْ والدته الزعق، فجاءت على عجل، وما لبثت النار أن اشتعلت، ولم يكد هٰذا الشجار أن ينتهي حتّى شبّ آخر بسبب أحمد الذي عاد من الطريق مطيَّن الجلباب، فضربته وأرادت أن يستحمّ من جديد، فاستغاث الولد بأبيه، وتصدّى الرجل لحمايته، فكان الشجار الثاني في نصف نهار!

وهو يضحك:

ـ وماذا فعلت؟

ـ بذلت ما في وسعي ولٰكنّي لم أسلم، فلامتني طويلًا على وقوفي موقف الوسيط، وقالت لي: كان ينبغي أن تنضمّي إليّ كما انضمّت أمّه إليه!

ثمّ وهي تتنهّد لثالث مرّة:

ـ قلت لخديجة: ألا تذكرين كيف كنت تريني أمام والدك، فقالت بحدّة: «هل تظنّين أنّه يوجد رجل مثل أبي في هٰذه الدنيا!؟».

وردت مخيّلته على غير ميعاد صورة عبد الحميد بك شدّاد وحرمه سنيّة هانم، وهما يسيران جنبًا إلى جنب، من الفراندا إلى السيّارة المنيرفا المنتظرة أمام باب القصر، لا سيّد ولا مسود ولٰكن صديقين متساويين، يتحادثان في غير كلفة وهي تتأبّط ذراعه، حتّى إذا بلغا السيّارة تنحّى البك جانبًا حتّى تركب هي أوّلًا. هل يتأتّى لك أن ترى والديك في مثل هٰذه الصورة؟! يا لها من خاطرة مضحكة! يتحرّكان في جلال خليق بالمعبودة التي أنجباها، ولو أنّ الهانم لم تكن دون أمّه كهولة إلّا أنّها كانت ترتدي معطفًا نفيسًا آية في الذوق والأناقة والغندرة، وتنطلق سافرة الوجه، وجه مليح وإن يكن دون الوجه الملائكيّ بما لا يقاس، وتنشر فيما حولها شذى عَطِرًا وروعة آسرة، ودّ لو يعلم كيف يتحادثان وكيف يأتلفان، وكيف يتخاصمان إن كانا يتخاصمان. شغفا بمعرفة حياة تمتّ إلى حياة معبودته بأوثق الوشائج والصلات، أتذكر كيف كنت تطالعهما بين المتعبّد الراني إلى كبار الكهنة والسدنة؟ قال بهدوء:

ـ لو تطبّعت خديجة ببعض طباعك لضمنت حياة سعيدة...

ابتسمت أساريرها في سرور، غير أنّ سرورها ارتطم بالحقيقة المرّة، وهي أنّ طباعها لم تستطع على دمائتها أن تضمن لها السعادة دوامًا، ثمّ قالت والابتسامة لا تفارق شفتيها لتداري بها أفكارها السوداء التي تشفق من إطلاعه عليها:

ـ هو وحده الهادي، ربّما يزيد طبعك حلاوة حتّى تكون من الذين يحبّون الناس ويحبّهم الناس...

فبادرها متسائلًا:

ـ كيف تجدينني؟

فقالت بإيمان:

ـ أنت كذٰلك، وأكثر...

لٰكن كيف يتأتّى لك أن تحبّك الملائكة؟! ادعُ صورتها السعيدة وتأمّل قليلًا، هل يمكن أن تتخيّلها مسهّدة طريحة حبّ وجوى؟ وما أبعد ذٰلك عن خوارق الظنون، إنّها فوق الحبّ ما دام الحبّ نقصًا لا يدرك الكمال إلّا بالحبيب، اصبر ولا تلوِ قلبك من الألم، حسبك أن تحبّ، حسبك منظرها الذي يشعشع بالنور روحك، وأنغام نبراتها التي تسكر بالتطريب جوارحك، من المعبودة ينبثق نور تتبدّى فيه الكائنات خلقًا جديدًا، الياسمين واللبلاب من بعد صمت يتناجيان، والمآذن والقباب تطير فوق بساط الشفق صوب السماء، معالم الحيّ العتيق تنطق عن حكمة الأجيال، أوركسترا الوجود تستأنف زفرات الصراصير، الحنان يفيض من الجحور، الأناقة تزخرف الأزقّة والدروب، عصافير الغبطة تزقزق فوق القبور، الجمادات تتيه في صمت التأمّلات، قوس قزح يتجلّى في الحصيرة التي تطرح عليها قدميك، هٰذه دنيا معبودتي!

- كنت مارّة بالأزهر في الطريق إلى الحسين، فقابلتني مظاهرة كبيرة تهتف بهتافات ذكّرتني بالماضي، هل جدّ جديد يا بنيّ؟

قال:

- الإنجليز لا يريدون أن يذهبوا بسلام!

قالت بحدّة، وفي عينيها نظرة غضب تبرق:

- الإنجليز... الإنجليز!... متى تنزل عليهم نقمة الله العادل؟

انطوت دهرًا لسعد نفسه عن مثل هٰذه الكراهية، لولا أن أقنعها في النهاية بأنّه لا يجوز أن يبغضوا شخصًا أحبّه فهمي!. وعادت تتساءل في قلق ظاهر:

- ماذا تعني يا كمال؟ هل نعود إلى أيّام البلاء؟

فقال بامتعاض:

- لا يعلم الغيب إلّا الله!

فاعتراها ضيق بدا في تقلّصات وجهها الشاحب، وقالت:

- اللّٰهمّ قِنا العذاب فلنتركهم لغضب القهّار، هٰذه هي الخطّة المثلى، أمّا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة فهو الجنون والعياذ بالله!

- هدّئي من روعك، لا محيد من الموت، الناس يموتون بسبب أو بآخر، وبلا سبب على الإطلاق!

قالت في استياء:

- لا أنكر أنّ قولك حقّ، ولكنّ لهجتك لا تعجبني!

- كيف تريدين أن أتكلّم؟

قالت بصوت مؤثّر:

- أريد أن تعلن موافقتك على أنّه من الكفر أن يعرّض الإنسان نفسه للتهلكة...

قال في تسليم، وهو يداري ابتسامة:

- أوافق...

فرمقته بارتياب، وقالت بتوسّل:

- وأن تقول ذٰلك بالقلب لا باللسان...

- بالقلب أتكلّم...

ما أعظم الفارق بين الواقع والمثال، أنت تتطلّع بحماس إلى المثل الأعلى في الدين والسياسة والفكر والحبّ، الأمّهات لا يفكّرن إلّا في السلامة، أيّ أمّ ترضى أن تدفن ابنًا في كلّ خمسة أعوام، لا بدّ للحياة المثاليّة من قرابين وشهداء،... الجسم والعقل والروح قرابينها، فهمي ضحّى بحياة واعدة في سبيل ميتة رائعة، فهل تستطيع أن تلقى الموت كما لقيه؟ قلبك لا يتردّد عن الاختيار ولو حطّم قلب هٰذه الأمّ التعيسة، ميتة تستنزف جرحًا وتضمّد جروحًا، يا له من حبّ... أجل، ولٰكنّه ليس الذي بيني وبين بدور وأنت تعلمين، الحبّ العجيب حقًّا هو حبّي لكِ، هو شهادة للدنيا ضدّ المتشائمين من خصومها، علّمني أنّ الموت ليس أفظع ما نخاف وأنّ الحياة ليست أبهج ما نبتغي، وأنّ من الحياة ما يغلظ ويفرّ حتّى يلتمس الموت، ومنها ما يرقّ ويثرى حتّى يهفو إلى الخلود، ومناداتها لك ما أطربها، بصوت لا تدري كيف تصفه، لا رفيع النبرة ولا غليظها، مثل «فا» السلّم الموسيقيّ المنبعثة من كمان، رنينه في صفاء النور، ولونه لو تخيّلت له لونًا في زرقة السماء العميقة، دافئ الإيمان، داعية إلى السماء...

- ١٦ -

- يوم الخميس القادم سأعقد زواجي متوكّلًا على الله...

- ربّنا يوفّقك!

- سيكون التوفيق من نصيبي إذا رضي عنّي أبي...

- إنّه راضٍ عنك، والحمد لله...

- سيقتصر الحضور على الأهل، ولن تلقى هنالك ما يضايق حضرتك.

- عظيم عظيم!!

- وددت لو كانت نينة في الحاضرين، ولكن...

- ما علينا، المهمّ أن تمرّ الليلة في هدوء...

- لم يغب عنّي هٰذا بطبيعة الحال، أنا أعرف الناس بطبعك، ولن يعدو اليوم كتابة العقد وشرب الشربات...

- عظيم، ربّنا يهديك إلى سواء السبيل...

- كلّفت كمال أن يبلغ والدته تحيّاتي وأن يرجوها

عنّي ألّا تحرمني من دعائها الطيّب كما عوّدتني من قديم، وأن تعفو عمّا كان. . .

ـ طبعًا. . . طبعًا!!

ـ أرجو أن تكرّر على سمعي أنّك راضٍ عنّي.

ـ إنّي راض عنـك، والله أسأل أن يكتب لـك التوفيق والفلاح، إنّه سميع الدعاء. . .

هٰكذا سارت الأمور ضدّ مشيئة السيّد أحمد، واضطرّ إلى مجاراتها أن ينصدع ما بينه وبين ابنه، وكان قلبه في الحقّ أرقّ من أن يتصدّى لياسين بخصام جدّيّ فضلًا عن القطيعة، فقبل أن يسلّم بيده ابنه البكر إلى بنت بهيجة، وأن يبارك ـ بنفسه ـ العلاقة التي ستضمّ خليلته السابقة إلى صميم أسرته! بل لم يقبل تدخُّل أمينة حين أعربت له عن رجائها في أن يمتنع «إخوة فهمي» عن شهود زواج ياسين من مريم، فقال لها بلهجة حاسمة «فكرة سخيفة، من الناس من يتزوّج من أرملة أخيه على حبّه والوفاء له، ومريم لم تكن زوجة فهمي ولا حتّى خطيبته، وذٰلك تاريخ قديم مضى عليه ستّة أعوام، لست أنكر أنّه لم يوفّق في اختياره ولٰكنّه حسن النيّة بقدر ما هو بغل، ولم يسئ إلى أحد كما أساء إلى نفسه، أسرة كان بوسعه أن يصهر إلى خير منها، وفتاة مطلّقة، الأمر لله وذنبه على جنبه». . . سكتت أمينة كأنّما سلّمت بحجّته، فإنّها وإن كانت اكتسبت مع الأيّام السود بعض جرأة تعينها على الإفصاح عن رأيها للسيّد إلّا أنّها لم تكن من القوّة بحيث تجعلها تراجعه أو تجادله، ولذٰلك فعندما زارتها خديجة لتخبرها بأنّ ياسين دعاها إلى حضور زواجه، وأنّها تفكّر في ادّعاء المرض لتتخلّف عن الذهاب لم توافقها على رأيها ونصحتها بقبول دعوة أخيها.

وجاء يوم الخميس، فذهب السيّد أحمد عبد الجواد إلى بيت المرحوم محمّد رضوان، حيث وجد ياسين وكمال ـ الذي سبقه إليه ـ في استقباله، ثمّ لحق بهم بعد قليل إبراهيم شوكت وخليل شوكت مصحوبينِ بخديجة وعائشة، ولم يكن في البيت من آل مريم سوى بضع نساء، فاطمأنّ السيّد أحمد إلى مرور اليوم بسلام! وكان في طريقه إلى حجرة الاستقبال قد رأى معالم مألوفة في البيت، مرّ بها من قبل في ظروف جدّ مختلفة، فهجمت عليه ذكريات الماضي محدثة في نفسه ألوانًا من الاستياء والضجر لسخريتها الصامتة من الدور الجديد الذي جاء يمثّله كوالد وقور للعريس، وراح يلعن في سرّه ياسين الذي أوقعه ـ وأوقع نفسه وهو لا يدري ـ في هٰذا المأزق، غير أنّ الأمر الواقع حمله على أن يراجع نفسه ويمنّيها قائلًا: إنّه ليس على الله بكثير أن يخلق البنت على غير مثال الأمّ، وأن يجد ياسين في مريم زوجًا صالحة ـ بكلّ معنى الكلمة ـ وأن يقيه نزق أمّها، ثمّ سأل الله الستر!

وكان ياسين آخذًا زينته، بادي السرور رغم تواضع الحفل المقام لزواجه، وسرّه ـ على وجه الخصوص ـ أن لم يتخلّف أحد من إخوته عن الحضور، وكان يشفق من أن تؤثّر الأمّ في بعضهم فيتخلّف! أكان في وسعه أن يستغني عن مريم إكرامًا لهم؟ كلّا، أحبّها، ولم تجعل هي من سبيل إليها إلّا الزواج فلم يكن من الزواج بدّ، لِمَ لا؟ ليست اعتراضات والده أو زوجه بعادلة أو ممّا يكترث لعواقبها، ثمّ إنّ مريم أوّل امرأة يرغب الزواج منها عن معرفة ونظر، وهو إلى هٰذا متفائل جدًّا بزواجه ويرجو أن تستقرّ به حياة زوجيّة دائمة، أليس كذٰلك؟ بلى وهو يشعر أنّه سيكون زوجًا طيّبًا وستكون زوجة طيّبة وسيجد رضوان في مقبل الأيّام بيتًا سعيدًا ينمو فيه وينضج، لقد دار كثيرًا وآنَ له أن يستكنّ، في غير الظروف التي اكتنفت زواجه لم يكن يتردّد عن أن يحتفل به احتفالًا شاملًا لشتّى ألوان البهجة والسرور، ليس كهلًا ولا فقيرًا ولا هو ممّن «يدّعون» كراهية الليالي الملاح حتّى يرضى بهٰذا الحفل الموحش الصامت الذي هو بالمآتم أشبه، ولٰكن مهلًا، فللضرورة أحكام، وليزجِ تقشّفه هٰذا تحيّة لذكرى فهمي.

وكان لقاء مريم بخديجة وعائشة ـ بعد فراق طال أعوامًا ـ مؤثّرًا على تحفّظه ولم يخلُ من حرج بيّن. تبادلن القبلات والتهاني، وتحادثن طويلًا فشرّقن وغرّبن، ولٰكنّهنّ تجنّبن الماضي ما استطعن إلى ذٰلك سبيلًا. وكانت اللحظات الأولى أحرجها جميعًا.

فتوقّعت كلّ واحدة منهنّ ترديدًا لذكرى ماضية على نحو يثير عتابًا أو ملامًا، ماذا دعا إلى تقاطعهنّ أو لِمَ تعكّر الجوّ، ولٰكنّها مرّت بسلام، ثمّ وجّهت مريم الحديث بلباقة إلى ثياب خديجة ورشاقة عائشة التي لا زالت تحافظ عليها رغم إنجابها ثلاثة، ثمّ سألت مريم وأمّها عن «الوالدة»، فكان الجواب أنّها بخير ولم يزدن حرفًا. ونظرت عائشة إلى صديقتها القديمة بعين ملؤها المودّة والحنان وقلب متعطّش إلى حبّ الناس دوامًا، ولولا إحساس بالإشفاق لساقت الكلام إلى الذكريات الماضية ولضحكت ملء فيها، أمّا خديجة فجعلت تسترق إليها نظرات متفحّصة، ومع أنّ مريم ظلّت سنوات لا تخطر لها على بال فإنّ أنباء زواجها من ياسين أطلقت لسانها بالملاحظات المرّة، وراحت تذكّر عائشة بواقعة «الإنجليزيّ» وتتساءل عمّا أعمى ياسين وأصمّه! على أنّ شعور خديجة العائليّ المرهف الذي يتقدّم سائر مزاياها، لم يسمح لها بلَوْك شيء من ذٰلك على مسمع من آل شوكت غير مستثنية زوجها نفسه، حتّى نبّهت أمّها إلى ذٰلك قائلة «سواء رضينا أم لم نرضَ فستصبح مريم من أسرتنا!»... ولا عجب، فما زالت خديجة حتّى بعد إنجاب عبد المنعم شوكت وأحمد شوكت تعدّ آل شوكت «أغرابًا» لدرجة ما.

وجاء المأذون في مطلع المساء، ثمّ عقد الزواج، ودارت أكواب الشربات، وانطلقت زغرودة واحدة، وتلقّى ياسين التهاني والدعوات الصالحات، ودُعيت العروس إلى مقابلة «سيّدها الكبير» وآل زوجها، فجاءت محاطة بأمّها وخديجة وعائشة وقبّلت يده وصافحت الآخرين وعند ذاك قدّم السيّد لها هديّة الزواج، أسورة ذهبيّة ذات فصوص دقيقة من الماس والزمرّد، واستمرّت الجلسة العائليّة وقتًا غير قصير، وحوالى التاسعة أخذ الحاضرون في الانصراف تباعًا، ثمّ جاء حنطور فحمل العروسين إلى بيت ياسين بقصر الشوق الذي جُهّز دوره الثالث لاستقبال العروس، وظنّ الجميع أنّ الستار قد أُسدل على الزواج الثاني لياسين بخيره وشرّه؛ ولٰكن حدث بعد مرور أسبوعين من تاريخ الزواج أن شهد بيت المرحوم محمّد رضوان حفلًا آخر لزواج جديد، عُدّ بحقّ مفاجأة غريبة في بيت السيّد أحمد والسكّريّة وقصر الشوق بل في حيّ بين القصرين جميعًا!! فعلى حين غرّة - ودون سابق إنذار - لم يدرِ الناس إلّا وبهيجة تعقد زواجها على بيومي الشربتلي!... عجب الناس لهٰذا الزواج كلّ العجب، وكأنّما كانوا يفطنون - لأوّل مرّة - إلى أنّ دكّان بيومي الشربتلي تقع على ناصية عطفة بيت آل رضوان تحت إحدى مشربيّات البيت العتيدة مباشرة، فوقفوا أمام هٰذه الحقيقة يتساءلون، وحُقّ للناس أن يعجبوا، فالعروس أرملة رجل عُرف في حياته بينهم بالطيبة والتقوى، وهي معدودة من «سيّدات» الحيّ المحترمات رغم ولعها بالتبرّج، فضلًا عن بلوغها الخمسين من عمرها، بينا كان الزوج من العامّة ذوي الجلابيب يبيع الخرّوب والتمرهندي في دكّان صغير، ولم يجاوز الأربعين من عمره إلى كونه زوجًا رسخت قدمه في الحياة الزوجيّة عشرين عامًا، أنجب خلالها تسعًا من الإناث والذكور! كلّ ذٰلك أثار القيل والقال!! فخاض الناس - دون تورّع - في مقدّمات الزواج التي لم يشعر بها أحد، متى وكيف بدأت ثمّ كيف نضجت حتّى انتهت بالزواج؟! وأيّ الطرفين كان البادئ الداعي وأيّهما كان المستجيب الملبّي؟!...

قال عمّ حسنين الحلّاق، وكان دكّانه يقع في الجانب الآخر من الطريق لصق سبيل بين القصرين إنّه كثيرًا ما كان يرى ستّ بهيجة واقفة أمام دكّان بيومي تشرب الخرّوب، ربّما تبادلا حديثًا قصيرًا، فلا يظنّ - لحسن نيّته - إلّا خيرًا!... وقال أبو سريع صاحب المقلى، وكان دكّانه يتأخّر ميعاد إغلاقه عن بقيّة الدكاكين: بأنّه - أستغفر الله - لاحظ مرّات أنّ قومًا يتسلّلون بليل إلى داخل البيت، ولٰكنّه لم يكن يعلم أنّ بيومي بينهم! وتكلّم درويش بائع الفول، وتكلّم الفوليّ اللبّان، ومع أنّهم تظاهروا بالرثاء للأب المعيل وانتقدوا - بمرارة - الرجل الأخرق الذي تزوّج امرأة في سنّ أمّه، فإنّهم في قرارة النفس نفسوا عليه حظّه ونقموا عليه ارتفاعه عن طبقتهم بهٰذه الحيلة «غير المناسبة»، ثمّ طال الحديث بعد ذٰلك عن تقدير

«ميراثه» المنتظر في البيت، وعن الغنائم المحتملة من نقود وحليّ!

أمّا بيت السيّد وبيت السكّريّة بل وبيت قصر الشوق قد زُلزلوا زلزالًا شديدًا، يا للفضيحة!... هكذا هتفت ألسنتهم، وغضب السيّد أحمد غضبًا أرعب آل بيته فتجنّبوا مخاطبته أيّامًا متتابعات، أليس من حقّ بيومي الشربتلي أن يدّعي قرابته من الآن فصاعدًا؟ ملعون ياسين وملعونة شهواته، بيومي الشربتلي أصبح «عمّه» وأنف الجميع في الرغام، وصاحت خديجة عندما تلقّت النبأ «يا خبر أسود»، ثمّ قالت لعائشة «منذا يلوم نينة بعد الآن؟ إنّ قلبها لا يكذّبها أبدًا»، وأقسم ياسين ـ بين يدي أبيه ـ على أنّ الأمر وقع على غير عِلْم منه ولا من زوجه، وأنّه أحزنها حزنًا فاق كلّ تصوّر، ولٰكن ما حيلتها؟! ولم تقف الفضيحة عند هٰذا الحدّ، فإنّه ما كادت زوجة بيومي الأولى تعلم بالخبر حتّى طاش عقلها، فغادرت بيتها كالمجنونة سائقة أمامها ذرّيّتها جميعًا، ثمّ انقضّت على بيومي في دكّانه، فنشب بينهما عراك عنيف استُعمل فيه اللسان واليد والقدم والزعق والصراخ على مرأى ومسمع من الأطفال الذين جعلوا يعولون ويستنجدون بالمارّة حتّى تجمهر الناس أمام الدكّان السابلة وأصحاب الدكاكين والنساء والأطفال، فخلّصوا بين الزوجين وجرّوا المرأة جرًّا إلى الطريق، فوقفت تحت مشربيّة بهيجة مشقوقة الجلباب ممزّقة الملاءة منفوشة الشعر دامية الأنف، ثمّ رفعت رأسها إلى النوافذ المغلقة وأطلقت لسانها كالسوط المحمّلة أطرافه بالرصاص المنقوع في السمّ، والأدهى من هٰذا كلّه أنّها برحت موقفها رأسًا إلى دكّان السيّد أحمد بصفته والد زوج بنت زوجها، وتوسّلت إليه بلهجة خطابيّة باكية أن يستعمل نفوذه لإقناع زوجها في الرجوع عن غيّه، فاستمع السيّد إليها وهو يكظم غيظه وحزنه على ما آلَ إليه أمره، ثمّ أفهمها برقّة ـ ما استطاع ـ أنّ هٰذا الأمر كلّه خارج عن دائرة نفوذه بخلاف ما تتصوّر، وما زال بها حتّى صرفها عن الدكّان وهو يغلي من الحنق، على أنّه رغم حنقه فكّر طويلًا وهو بين الحيرة والتساؤل فيما دفع بهيجة إلى هٰذا الزواج الغريب، خاصّة وهو يعلم علم اليقين أنّه لم يكن يعزّ عليها إرضاء قلبها لو كان به رغبة إلى بيومي الشربتلي دون حاجة إلى تعريض نفسها وآلها لشتّى القلاقل بالاقتران منه، لِمَ أقدمت على هٰذه الحماقة غير مبالية بزوج الرجل وعياله ولا عابئة بعواطف ابنتها وآلها الجدد كأنّما قد أصابها مسّ؟ ألا يكون الإحساس المحزن بالكبر هو الذي جعلها تفزع إلى الزواج، بل والتضحية بكثير ممّا تملك جريًا وراء سعادة كان يضمنها لها الشباب الذي تخلّى عنها؟ تأمّل هٰذه الفكرة في حزن واكتئاب، وذكر مذلّته بين يدي زنّوبة العوّادة التي أبت أن تجود عليه بنظرة عطف حتّى حملها إلى العوّامة، تلك المذلّة التي زعزعت ثقته بنفسه وحملته ـ على طمأنينته الظاهرة ـ على التجهّم للزمان الذي سبق فتجهّمه.

على أيّ حال لم تتمتّع بهيجة بزواجها طويلًا!!

مع نهاية الأسبوع الثالث منه شكت دمّلًا في ساقها، ثمّ تبيّن بالكشف الطبّيّ أنّها مصابة بمرض السكّر فنُقلت إلى قصر العيني، وترامت الأخبار عن خطورة حالها أيّامًا، ثمّ وافاها الأجل المحتوم.

- ١٧ -

أمام سراي آل شدّاد وقف كمال متأبّطًا حقيبة صغيرة، في بدلة رماديّة أنيقة، وحذاء أسود لامع، وقد استقام طربوشه فوق رأسه الكبير... بدا طويلًا نحيفًا، وبرز عنقه من فوق بنيقة القميص غير عابئ بحمل الرأس الكبير والأنف العظيم. وكان الجوّ لطيفًا تتخلّله نسائم باردة تؤذن باقتراب ديسمبر، وكان في السماء سحاب متفرّق ناصع البياض يتحرّك وانيًا فيحجب شمس الصباح حينًا بعد حين. وقف كمال وقفة المنتظر وعيناه متّجهتان نحو الجراج، حتّى خرجت منه الفيات يسوقها حسين شدّاد ثمّ دارت في شارع السرايات ووقفت أمامه، وأخرج حسين شدّاد رأسه من نافذتها وهو يسأل كمال:

ـ ألم تجيئا بعد؟

*نفخ في البوق ثلاثًا، ثمّ عاد يقول وهو يفتح الباب:

ـ تعال اجلس إلى جانبي . . .

ولٰكنّ كمال اكتفى بإدخال الحقيبة وهو يغمغم «صبرًا». وترامى إليه صوت بدور من ناحية الحديقة، فالتفت صوبه فرآها مقبلة تركض وفي أثرها عايدة . . . أجل، المعبودة تخطر بقوامها البديع في فستان سنجابيّ قصير على أحدث موضة، توارى أعلاه تحت درّاعة من الحرير كحليّة اللون كشفت عن ساعديها الخمريّتين الصافيتين، وكانت هالة شعرها الأسود تحدق بقذالتها وعارضيها وتنوس بحركة مشيتها نوسانًا تموّجيًّا، أمّا أسلاك قصّتها الحريريّة فاستكنّت على الجبين كأسنان المشط، وفي وسط هٰذه الهالة بدا الوجه البدريّ في طابع من الحسن أنيق ملائكيّ كأنّه سفير سام لدولة الأحلام السعيدة. تسمّر في موضعه تحت تأثير التيّار المغناطيسيّ، على حال بين اليقظة والنوم، ولم يبقَ من الدنيا في وعيه إلّا عاطفة امتنان وجيشة وجدان، وجعلت هي تقترب في خفّة وتبختر كأنّها نغمة حلوة مجسّمة حتّى سطعه من أعطافها عبير باريسيّ، ولـمّا التقت الأعين لمعت في ناظريها وشفتيها المضمومتين ابتسامة موسومة بالبشاشة والهدوء والأرستقراطيّة معًا فردّ عليها كمال بابتسامة حائرة وسجدة من رأسه، عند ذاك خاطبها حسين قائلًا:

ـ اجلسي أنت وبدور في المقعد الخلفيّ.

تأخّر كمال خطوة ففتح باب السيّارة الخلفيّ ووقف منتصب القامة كأحد الحاشية، فكانت مكافأته ابتسامة وكلمة شكر بالفرنسيّة، وانتظر حتّى دخلت بدور فالمعبودة، ثمّ أغلقه واندسّ إلى جانب حسين، ونفخ حسين مرّة أخرى وهو ينظر صوب القصر، فما لبث أن جاء البوّاب حاملًا سلّة صغيرة فوضعها لصق حقيبة كمال فيما بينه وبين حسين، فقال الأخير ضاحكًا وهو ينقر بأصبعه على السلّة والحقيبة:

ـ ما جدوى رحلة بلا طعام؟!

وزمجرت السيّارة وهي تتحرّك، ثمّ انطلقت إلى شارع العبّاسيّة وحسين شدّاد يقول مخاطبًا كمال:

ـ عرفت عنك أشياء كثيرة، اليوم يتاح لي أن أضيف إليها معلومات جديدة عن معدتك، ويبدو لي أنّك رغم نحافتك أكول، فهل تراني مخطئًا؟

فقال كمال باسمًا، وكان سعيدًا منشرحًا فوق مطمح البشر:

ـ انتظر حتّى تعرف بنفسك . . .

سيّارة واحدة تحملها معًا، مشاركة من نوع ما تعزّ فيما عدا الأحلام، تهمس الأماني: لو جلست أنت في المقعد الخلفيّ وجلست هي في المقعد الأماميّ لملأت عينيك منها طوال الطريق ولا رقيب، لا تكن طمّاعًا جحودًا واسجد حمدًا وشكرًا، استنقذ رأسك من شتّى الفكر وخلّص نفسك من تيّار الوجد وعش بكلّ وعيك في الساعة الراهنة، أليست ساعة بالعمر أو أكثر؟

ـ لم أستطع أن أدعو حسن وإسماعيل إلى رحلتنا هٰذه!

نظر كمال إليه كالمتسائل دون أن ينبس. بيد أنّ قلبه خفق في سرور وحياء لهٰذا الامتياز الذي خُصّ به وحده، على حين استطرد حسين قائلًا بلهجة المعتذر:

ـ السيّارة كما ترى لا يمكن أن تتّسع للجميع . . .

فقال كمال بصوت خافت:

ـ هٰذا واضح . . .

فعاد الآخر يقول باسمًا:

ـ وإذا لم يكن من الانتخاب بدّ فانتخب مَن يشابهك، ولا شكّ أنّ ميولنا متقاربة في هٰذه الحياة، أليس كذٰلك؟

فقال كمال بوجه وشت أساريره بالفرحة التي غمرت قلبه:

ـ بلى . . .

ثمّ وهو يضحك:

ـ غير أنّي قانع بالرحلة الروحيّة، أمّا أنت فيبدو أنّك لن تقنع حتّى تصل الرحلة الروحيّة بالرحلة حول الأرض . . .

ـ ألا تهفو نفسك إلى السياحة في جنبات الأرض الواسعة؟

فكّر كمال قليلًا، ثمّ قال:

ـ يخيّل إليّ أنّي مطبوع على حبّ الاستقرار وكأنّي

أجفـل من فكـرة الـرحـلات، أعني من الحـركـة والاضطراب لا من الرؤية والاستطلاع، وددت لو كان من الميسور أن يطوف بي العالم حيث أنا!

ضحك حسين شدّاد ضحكته اللطيفة المنبعثة من القلب، وقال:

ـ قف في منـطاد ثابت إن استـطعت، وانـظر إلى الأرض وهي تدور من تحتك!

تملّى كمال ضحكـة حسين اللطيفـة الجذّابـة مليًّا، فـوردت ذهنه صـورة حسن سليم وراح يقـارن بين هٰذين اللونين من الأرستقراطيّة: أحدهما يمتاز باللطف والبشاشة، والآخر يتّسم بالتحفّظ والكبرياء، وكلاهما بعد ذٰلك جليل. وقال كمال:

ـ من حسن الحظّ أنّ الرحلات الفكريّة لا تقتضي التنقّل حتمًا...

فرفع حسين شدّاد حاجبيه فيما يشبه الشكّ، غير أنّه عدل عن متابعة الموضوع قائلًا بابتهاج:

ـ المهمّ الآن أنّنا نقوم برحلة قصيرة معًا، وأنّ ميولنا متقاربة في هٰذه الحياة...

وما يدري إلّا والصوت العذب يجيء من الـوراء قائلًا:

ـ وبـالاختصـار فـإنّ حسـين يحبّـك كـما تحبّـك بدور...!

نفذت هٰذه الجملة المعطّرة بالحبّ الملحّنة بالصوت الملائكيّ في قلبه فطيّرته نشوة وطربًا، كالنغمة الساحرة التي تندّ فجأة في تضاعيف أغنية فوق المنتظر والمألوف والمتخيَّـل من الأنغام، فتـترك السـامـع بين العقـل والجنون. المعبود يعبث بألفاظ الحبّ سادرًا، يلقيها عليك غافلًا عن أنّه يلقي مغنسيومًا على قلب يحترق، استرجع صداها لتستعيد رنين الحبّ في أوتـار ثغره، والحبّ لحن قديم غير أنّـه يضحي جديدًا عجبًا في ترنيمة خالقة، يا إلٰهي؟! إنّني أفنى من فرط السعادة. قال حسين معلّقًا على قول أخته:

ـ عايدة تترجم أفكاري بلغتها النسائيّة الخاصّة...

انطلقت السيّارة إلى السكاكيني فإلى شارع الملكة نـازلي ثمّ إلى شـارع فؤاد الأوّل، ومنـه مـرقت إلى الزمالك في سرعة عدّها كمال جنونيّة:

ـ في السماء غيم، ولٰكنّا في حاجة إلى مـزيد منـه لنضمن نهارًا سعيدًا في سفح الهرم.

وعلا الصوت البديع وهو يخاطب بـدور فيما بـدا قائلًا:

ـ انتظري حتّى نصل إلى الهرم، وهنالـك اجلسي معه كيفما يحلو لك...

فسألها حسين ضاحكًا:

ـ ماذا تريد بدور؟

ـ تريد يا سيّدي أن تجلس مع صاحبك...

صاحبك! لِمَ لم تقولي «كمال»؟ هلّا أسعدت الاسم بما لا يطمح إليه صاحبه؟ وخاطبه حسين قائلًا:

ـ أمس سمعها بابا وهي تسألني: هل يجيء معنا أنكل كمال إلى الهرم؟ فسألني من يكـون كمال؟ ولـمّا أجبته سألها: «أتحبّين أن تتزوّجي أنكل كمال؟» فأجابته بكلّ بساطة «نعم!».

فـالتفت كمال إلى الـوراء، ولٰكنّها تـراجعت حتّى التصقت بمسند المقعد وأخفت وجهها في كتف أختها، فتزوّد كمال من الوجه البديع بنظرة خاطفـة ثمّ أعاد رأسه، وهو يقول بلهجة الرجاء:

ـ لعلّها عند الجدّ لا تنسى كلمتها!

ولـمّا بلغت السيّارة طريق الجيزة ضاعف حسين من سرعتها فعلا أزيـزهـا وسـاد الصمت، رحّب كـمال بالصمت ليفرغ إلى نفسه ويتملّى سعادته، كان أمس حديث الأسرة فاختاره ربّها زوجًا للصغيرة، يا أغاريد الـزهور والسعـادة، احفظ عن ظهر قلب كـلّ كلمة تقـال... امـلأ نفسك بعبـير بـاريس، زوّد أذنـك بـالهديـل والبغام، علّك تعـود إليها إذا عـادت ليالي السهـاد، كلمات المعبودة عـاطلة عن حكمة الحكـماء ودرر الأدباء، فما بالها تهزّك حتّى الأعماق وفي فؤادك تفجّر ينابيع السعادة! هٰذا الذي جعـل السعادة سرًّا تتيه فيه العقول والأفهام، أيّها المجدّون اللاهثون وراء السعـادة إنّي وجدتهـا في الكلمة الفـارغة والـرطـانـة الغامضة والصمت أيضًا وفي لا شيء، ربّاه ما أعظم هٰذه الأشجار الباسقة على الجانبين تتعانق أعاليها فوق

الطريق فتنتشر سماء من الخضرة اليانعة، وهذا النيل الجاري مكتسبًا من وشي الشمس غلالة من اللآلئ، متى رأيت هذا الطريق آخر مرّة؟ في رحلة إلى الهرم وأنا في السنة الثالثة، في كلّ رحلة عاهدت نفسي بالعودة إليه منفردًا، ووراءك تجلس من ترى بوحيها كلّ شيء جديدًا وجميلًا حتّى مجرى الحياة الأثريّة في الحيّ العتيق، هل لك أمنية فوق ما أنت فيه؟... نعم: أن تواصل السيّارة انطلاقها على هذه الحال التي نحن عليها إلى الأبد، ربّاه أهذا هو الجانب الذي طالما أعياك وأنت تتساءل عمّا تريد من هذا الحبّ؟ هبط عليك من وحي الساعة يكتنفه المحال، اسعد بالساعة المتاحة، ها هو الهرم يلوح من بعيد صغيرًا، وعمّا قليل تقف عند قدميه كالنملة عند أصل الشجرة الفارعة...

- نحن ذاهبون إلى زيارة قرافة جدّنا الأوّل!

فقال كمال ضاحكًا:

- لنقرأ الفاتحة بالهيروغليفيّة...

فقال حسين ساخرًا:

- وطن أجلّ مخلّفاته قبور وجثث!... (وهو يشير صوب الهرم) انظر إلى الجهد الضائع...

قال كمال بحماس:

- ذلك الخلود!...

- أوه... سوف تنشط كعادتك للدفاع، أنت وطنيّ لحدّ المرض، لن نختلف في هذا، ربّما كان أحبّ إليّ أن أكون في فرنسا من أن أكون في مصر...

فقال كمال وهو يواري ألمه تحت ابتسامة رقيقة:

- ستجد هنالك الفرنسيّين أعظم أمم الأرض وطنيّة!...

- نعم، الوطنيّة مرض عالميّ، لكنّي أحبّ فرنسا نفسها، وأحبّ في الفرنسيّين مزايا لا تمتّ إلى الوطنيّة بسبب...

هذا محزن مؤسف حقًّا بيد أنّه لا يثير حفيظته، لأنّه صادر عن حسين شدّاد... إسماعيل لطيف يحنقه أحيانًا باستهانته... حسن سليم يغضبه أحيانًا بتكبّره... أمّا حسين شدّاد فيحظى برضاه على أيّ حال من الأمر.

وقفت السيّارة غير بعيد من سفح الهرم الأكبر منضمّة إلى صفّ طويل من السيّارات الفارغة، ولاح خلق كثيرون هنا وهناك، تفرّقوا جماعات صغيرة، ومنهم من امتطى حمارًا أو جملًا أو تسلّق الهرم، غير باعة ومكارين وجمّالين، أرض واسعة لا تحدّ إلّا أنّ الهرم انطلق في وسطها كمارد خرافيّ، أمّا تحت المنحدر من الناحية الأخرى فقد ترامت المدينة، رءوس أشجار وخطّ مياه وأسطح عمارات، ترى أين يقع بين القصرين من هذا كلّه؟ والبيت القديم؟ أين أمّه وهي تسقي الدجاج تحت سقيفة الياسمين؟

- فلنترك كلّ شيء في السيّارة لنتجوّل أحرارًا...

غادروا السيّارة، ومضوا صفًّا واحدًا بدأ من السيّارة بعايدة فحسين ثمّ بدور، وأخيرًا كمال الذي أمسك بيد صديقته الصغيرة، وطافوا بالهرم الأكبر متفحّصين أركانه ثمّ أوغلوا في الصحراء. وكانت الرمال تقاوم أقدامهم فتعرقل انطلاقهم، غير أنّ الهواء هفا لطيفًا منعشًا، وراوحت الشمس بين الظهور والاختفاء، وانتشرت تجمّعات السحب في آفاق السماء ترسم في اللوحة العليّة صورًا تلقائيّة تعبث بها يد الهواء كيفما اتّفق. قال حسين وهو يملأ رئتيه بالهواء:

- جميل... جميل...

ورطنت عايدة بالفرنسيّة، فأدرك كمال بمعلوماته المحدودة في تلك اللغة أنّها تترجم قول أخيها، وكانت الرطانة عادة مألوفة لديها، فخفّفت من غلوائه في التعصّب للغته القوميّة من ناحية، وفرضت على ذوقه كأمارة من أمارات الحسن النسائيّ من ناحية أخرى. قال كمال بتأثّر، وهو يتأمّل ما حوله:

- جميل حقًّا، سبحان الله العظيم!

فقال حسين ضاحكًا:

- إنّك تجد دائمًا وراء الأمور إمّا الله وإمّا سعد زغلول...

- أظنّ أنّه لا خلاف بيننا فيما يتعلّق بالأوّل!

- ولكنّ دأبك على ذكره يضفي عليك مسحة دينيّة خاصّة كأنّك من رجال الدين، (ثمّ بلهجة تسليم) فيمَ

العجب وأنت من حيّ الدين؟!

أتكمن وراء هٰذه الجملة سخرية ما؟ وهل يمكن أن تشاركه عايدة في سخريته؟ ترى ما رأيهما في الحيّ القديم؟ وبأيّ عين تنظر العبّاسيّة إلى بين القصرين والنحّاسين؟ هل مسّك الخجل؟ مهلًا إنّ حسين لا يكاد يبدي أيّ اهتمام بالدين، المعبودة فيما يبدو أقلّ اهتمامًا منه، ألم تقل يومًا إنّها تحضر دروس الدين المسيحيّ في المير دي دييه وإنّها تشهد الصلاة وتترنّم بأناشيدها؟ ولٰكنّها مسلمة! مسلمة رغم أنّها لا تعرف عن الإسلام شيئًا يذكر! ما رأيك في هٰذا؟ أحبّها، أحبّها لحدّ العبادة، وأحبّ دينها رغم وخز الضمير، أعترف بهٰذا مستغفرًا ربّي!

أشار حسين بيده إلى ما يحيط بهم من آي الجمال والجلال، ثمّ قال:

ـ هٰذا ما يستهويني حقًّا، أمّا أنت فمجنون بالوطنيّة، قارن بين هٰذه الطبيعة الجليلة وبين المظاهرات وسعد وعدلي واللوريات المحمّلة بالجنود!

فقال كمال باسمًا:

ـ الطبيعة والسياسة كلتاهما شيء جليل!...

تساءل حسين فجأة كأنّما قد تذكّر بتداعي المعاني أمرًا هامًّا:

ـ كدت أنسى، لقد استقال زعيمك!

فابتسم كمال ابتسامة حزينة ولم يجب، فقال الآخر بقصد إغاظته:

ـ استقال بعد أن ضيّع السودان والدستور، هه؟!

قال كمال بهدوء لم يكن يُنتظر منه في غير هٰذه الظروف:

ـ كان قتل سير لي ستاك ضربة موجّهة إلى وزارة سعد...

ـ دعني أكرّر على سمعك ما قاله حسن سليم، قال: إنّ هٰذا الاعتداء مظهر للكراهية التي يضمرها البعض ـ ومنهم القتلة ـ للإنجليز، وسعد زغلول هو المسئول الأوّل عن تهييج هٰذه الكراهية!

كظم كمال الغيظ الذي أثاره «رأي» حسن سليم في نفسه، وقال بالهدوء الواجب في حضرة المعبودة:

ـ هٰذا هو رأي الإنجليز، ألم تقرأ برقيّات الأهرام؟ فليس عجيبًا أن يردّده الأحرار الدستوريّون، إنّ من مفاخر سعد أن يثير العداوة ضدّ الإنجليز...

تدخّلت عايدة متسائلة، وفي عينيها نظرة عتاب أو تحذير مازجتها ابتسامة جذّابة:

ـ رحلة أم سياسة؟

فأشار كمال إلى حسين، وهو يقول معتذرًا:

ـ إليك المسئول عن فتح هٰذا الموضوع...

فقال حسين ضاحكًا، وهو يتخلّل شعره الحريريّ الأسود بأصابعه الرشيقة:

ـ رأيت أن أقدّم تعزيتي في استقالة الزعيم، هٰذا كلّ ما هنالك!

ثمّ متسائلًا بلهجة جدّيّة:

ـ ألم تشترك في المظاهرات الخطيرة التي كانت تقوم في حيّكم على عهد الثورة؟

ـ كنت دون السنّ القانونيّة!

فقال حسين بلهجة لم تخلُ من سخرية لطيفة:

ـ على أيّ حال تُعدّ واقعة دكّان البسبوسة اشتراكًا في الثورة!

وضحكوا جميعًا، حتّى بدور اشتركت في الضحك محاكاة لهم، فصدر عنهم أوركسترا رباعيّ مكوّن من بوقين وكمان وصفّارة، وبعد هنيهة صمت، قالت عايدة كأنّما لتدافع عنه:

ـ كفاية أنّه فقد أخاه!...

فقال كمال مدفوعًا بشعور الفخار الذي دبّ في قلبه، واستزادة من عطفها:

ـ أجل، فقدنا خير أسرتنا...

فعادت تسائله باهتمام:

ـ كان في الحقوق... أليس كذٰلك؟ كم كان يكون عمره لو عاش حتّى الآن؟

ـ كان يكون في الخامسة والعشرين... (ثمّ بلهجة أسيفة)... كان نابغة بكلّ معنى الكلمة...

فقال حسين، وهو يفرقع بأصبعيه:

ـ كان!... هٰذه هي الوطنيّة، كيف تتعلّق بها بعد ذٰلك؟!

فقال كمال باسمًا:

ـ سوف نكون جميعًا في خبر كان، ولٰكن شتّان بين ميتة وميتة!

فرقع حسين بأصبعيه مرّة أخرى دون تعليق، يبدو أنّه لا يرى في قوله معنى، ماذا أقحم حديث السياسة عليهم؟ لم يعد به ما يسرّ، شغل الشعب بعداوته الحزبيّة عن الإنجليز، سحقًا لهٰذا كلّه، يخلق بمن يتنسّم الفردوس ألّا يكرب صدره بهموم الأرض، ولو إلى حين، أنت تمشي في معيّة عايدة في صحراء الهرم، تأمّل هٰذه الحقيقة الرائعة واهتف بها حتّى تسمع بناة الهرم، معبود وعابده يسيران معًا فوق الرمال، العابد من شدّة الوله يكاد يذروه الهواء والمعبود يتسلّى بعدّ الحصى، لو كان مرض الحبّ معديًا، ما ياليت بآلامه، الهواء يهفو بأهداب فستانها ويتخلّل هالة شعرها ويسري في أعماق صدرها... ألا ما أسعد الهواء! أرواح العاشقين فوق الهرم تبارك القافلة معجبة بالمعبود راثية للعابد مردّدة بلسان الزمان: ليس أقوى من الموت إلّا الهوى، تراها على بعد أشبار منك ولٰكنّها في الحقّ كالأفق تخاله منطبقًا على الأرض وهو في ذروة السماء يحلّق... كم منّيت النفس بأن تمسّ في هٰذه الرحلة راحتها، ولٰكن يبدو أنّك سترحل عن هٰذه الدنيا قبل أن تعرف مسّها، لِمَ لا تكون شجاعًا فتهوي إلى انطباعة قدمها فتلثمها؟... أو تأخذ منها حفنة فتجعلها حجابًا يقي من آلام الحبّ في ليالي الفكر؟ وأسفاه!! كلّ الدلائل تشير إلى أنّه لا اتّصال بالمعبود إلّا بالتراتيل أو الجنون، فرتّل أو جُنَّ...

شعر باليد الصغيرة تجذب يده، فنظر إليها، فرفعت نحوه ذراعيها داعية إيّاه إلى حملها، فانحنى فوقها ثمّ رفعها بين يديه غير أنّ عايدة قالت معترضة:

ـ كلّا، بدأ التعب يساورنا، فلنسترح قليلًا...

على صخرة عند رأس المنحدر المفضي إلى أبي الهول جلسوا على نفس الترتيب الذي ساروا عليه، مدّ حسين ساقيه غارزًا كعبيه في الرمال، جلس كمال واضعًا رِجْلًا على رِجْل ضامًّا بدور إلى جنبه، على حين قعدت عايدة إلى يسار أخيها فتناولت مشطها وراحت تسرّح شعرها وتربّت خصلاته بأناملها.

وحانت من حسين نظرة إلى طربوش كمال، فسأله منتقدًا:

ـ لماذا تلبس الطربوش في هٰذه الرحلة؟

فنزع كمال طربوشه ووضعه في حجره قائلًا:

ـ ليس من المألوف عندي أن أسير بدونه...

فضحك حسين قائلًا:

ـ إنّك مثال طيّب للرجل المحافظ!

تساءل كمال: ترى هل يعني بقوله مدحًا أم ذمًّا؟ وأراد أن يستدرجه للإيضاح، ولٰكنّ عايدة مالت إلى الأمام قليلًا ملتفتة نحوه لتلقي نظرة على رأسه فنسي ما كان بسبيله، وتحوّل انتباهه إلى منطقة الرأس في قلق، إنّ رأسه يبدو الآن حاسرًا فيكشف عن ضخامته ويعرض شعره الأجرد العاطل عن الزينة، وها هما العينان الجميلتان ترنوان إليه، فأيّ أثر يعكسه عليهما؟ تساءل الصوت الموسيقيّ:

ـ لماذا لا تربّي شعر رأسك؟

سؤال لم يخطر له على بال من قبل، هٰكذا رأس فؤاد جميل الحمزاوي وجميع الرفاق بالحيّ العتيق، ياسين لم يُرَ يطلق شعره وشاربه حتّى توظّف، هل يتصوّر أن يلقى أباه كلّ صباح على مائدة الفطور بشعر مصفّف؟!

ـ ولِمَ أربّيه؟

فتساءل حسين مفكّرًا:

ـ ألا يكون أجمل؟

ـ ليس هٰذا بذي بال...

حسين ضاحكًا:

ـ يخيّل إليّ أنّك خُلقت لتكون معلّمًا.

مدح أم ذمّ، على أيّ حال ليهنأ رأسك بالرعاية السامية.

ـ أنا خُلقت لأكون طالبًا...

ـ جواب جميل... (ثمّ رفع طبقة صوته متسائلًا)... لِمَ تحدّثني عن مدرسة المعلّمين حديثًا شافيًا، كيف وجدتها بعد مرور ما يقرب من الشهرين؟

ـ أرجو أن تكون مدخلًا لا بأس به للدنيا التي

أتطلّع إليها، وتراني أحاول الآن أن أعرف عن سبيل الأساتذة الإنجليز معاني للكلمات المحيّرة مثل «أدب» و«فلسفة» و«فكر»...

ـ هٰذه هي الثقافة الإنسانيّة التي نتطلّع إليها...

فقال كمال بحيرة:

ـ ولٰكنّها خضمّ مضطرب فيما يبدو، ينبغي أن نعرف الحدود، ينبغي أن نعرف ما نريد على نحو أوضح، إنّها مشكلة...

لاح الاهتمام في عيني حسين الجميلتين وهو يقول:

ـ الأمر بالنسبة إليّ لا يُعَدّ مشكلة، إنّي أقرأ قصصًا ومسرحيّات فرنسيّة مستعينًا بعايدة على فهم الصعب من نصوصها، وأستمع معها أيضًا إلى مختارات من الموسيقى الغربيّة تعزف هي بعضها بمهارة على البيانو، وقد طالعت أخيرًا كتابًا يلخّص الفلسفة الإغريقيّة في يسر وسهولة، لست أبغي إلّا السياحة للعقل والجسم، أمّا أنت فتريد أيضًا أن تكتب، وهٰذا يقتضيك أن تعرف الحدود والأهداف...

ـ الأدهى من ذٰلك أنّني لا أدري فيم أكتب على وجه التحديد!

تساءلت عايدة بلهجة باسمة:

ـ أتريد أن تكون مؤلّفًا؟

فقال وهو يتلقّى موجة عالية من السعادة التي عزّت على البشر:

ـ ربّما!...

ـ شاعرًا أم ناثرًا... (وهي تميل إلى الأمام لتتمكّن من رؤيته)... دعني أخمّن بفراستي...

استنفدتُ الشعر في مناجاة طيفك، الشعر لغتك المقدّسة فلا أمتهنه، غاضت دموعي ينابيعه في سواد الليالي، ما أسعدني في مرمى ناظريك وما أتعسني، إنّي أحيا تحت نظرتك كما تحيا اليابسة بمقلة الشمس...

ـ شاعر، أجل أنت شاعر...

ـ حقًّا؟ كيف عرفتِ هٰذا؟

اعتدلت في جلستها، فندّت عنها ضحكة خافتة كأنّها وسوسة الأماني، ثمّ قالت:

ـ الفراسة بداهة، فكيف تطالب بتفسير لها؟!

ـ إنّها تعبث!

قال حسين ذٰلك وهو يضحك، فبادرت تقول:

ـ كلّا، إذا كان الشاعر لا يعجبك فلا تكُنْه...

النحلة فطرتها الطبيعة ملكة، البستان مغناها، رحيق الزهر شرابها، الشهد نفثها، وجزاء الآدميّ الطائف بعرشها... لسعة،... لٰكنّها قالت «كلّا». عادت تسأله:

ـ هل قرأت من القصص الفرنسيّة شيئًا؟

ـ بعض ما تُرجم عن ميشيل زيفاكو، لا أستطيع أن أقرأ الفرنسيّة كما تعلمين...

فقالت بحماس:

ـ لن تكون مؤلّفًا حتّى تتقن الفرنسيّة، اقرأ بلزاك وجورج صاند، ومدام دي ستال ولوتي، واكتب بعد ذٰلك قصّة...

فقال كمال باستنكار:

ـ قصّة!؟ إنّها فنّ على الهامش، إنّما أتطلّع إلى عمل جدّيّ...

فقال حسين جادًّا:

ـ القصّة في أوربا عمل جدّيّ، ثمّة كتّاب يتفرّغون لها دون غيرها من فنون الكتابة فترفعهم إلى درجة الخالدين، لست أهرف بما لا أعرف، ولٰكن أستاذ اللغة الفرنسيّة أكّد لي ذٰلك...

هزّ كمال رأسه الكبير في شكّ، فاستطرد حسين قائلًا:

ـ حاذر أن تُغضب عايدة، إنّها قارئة معجبة بالقصّة الفرنسيّة، بل إنّها بطلة من بطلاتها!

فمال كمال إلى الأمام قليلًا، ومدّ إليها بصره ليقرأ أثر قول حسين فيها مغتنمًا الفرصة المتاحة ليملأ عينيه من منظرها البهيج، ثمّ تساءل:

ـ كيف كان ذٰلك؟

ـ إنّ القصّة تستغرقها استغراقًا غريبًا، فرأسها مفعم بحياة خياليّة، مرّة رأيتها تختال أمام المرآة، فسألتها عمّا بها؟ فأجابتني «هٰكذا كانت تسير أفروديت على ساحل البحر بالإسكندريّة!».

قالت عايدة وهي تقطّب تقطيبة باسمة:

ـ لا تصدّقه، إنّه أغرق منّي في الخيال، ولٰكنّه لا يرتاح حتّى يرميني بما ليس فيّ...

أفروديت؟... ما أفروديت يا معبودتي؟! يحزنني وحقّ كمالك أن تتخيّلي نفسك في صورة غير ذاتك!

قال بإخلاص:

ـ لا عليك من هٰذا، إنّ أبطال المنفلوطي وريدر هجارد يستأثرون بخيالي...!

فضحك حسين ضحكة رائعة، وهو يهتف:

ـ ما أحرى أن يجمعنا كتاب واحد! لماذا نبقى على الأرض ما دمنا نهفو هٰكذا إلى الخيال؟ عليك أنت أن تحقّق هٰذا الحلم، لست كاتبًا ولا أريد أن أكون كاتبًا، ولٰكن في وسعك أنت أن تجمعنا إذا شئت في كتاب واحد.

عايدة في كتاب تكون أنت مؤلّفه! صلاة أم تصوّف أم جنون؟!

ـ وأنا؟!

علا صوت بدور فجأة متسائلًا في احتجاج فضجّ ثلاثتهم بالضحك، وقال حسين في لهجة تنبيه:

ـ لا تنس أن تحجز مكانًا لبدور!

فقال كمال وهو يضمّ الصغيرة بساعده في حنان:

ـ ستكونين في الصفحة الأولى...

تساءلت عايدة وهي ترمي بناظريها إلى الأفق:

ـ ماذا تكتب عنّا؟

لم يدرِ ماذا يقول، فدارى ارتباكه بضحكة وانية، ولٰكنّ حسين أجاب عنه قائلًا:

ـ كما يكتب المؤلّفون، قصّة غراميّة عنيفة تنتهي بالموت أو الانتحار!

يقذفون كرة قلبك بالأقدام وهم يلعبون.

ـ أرجو أن تكون هٰذه النهاية من نصيب البطل وحده؟

قالت عايدة ذٰلك ضاحكة.

البطل أعجز من أن يتصوّر معبوده فانيًا، وتساءل:

ـ هل حُتّم أن تنتهي بالموت أو الانتحار؟

فأجاب حسين ضاحكًا:

ـ هي النهاية الطبيعيّة لقصّة غرام عنيف!

فرارًا من الألم أو ضنًّا بالسعادة تراءى الموت أمنية.

قال كالساخر:

ـ شيء مؤسف حقًّا...

ـ ألم تكن تعرف هٰذا؟ يبدو أنّك لم تجرّب الغرام بعد...!

من لحظات الحياة الحيّة لحظة يقوم البكاء فيها مقام البنج في العمليّة الجراحيّة، وعاد حسين يقول:

ـ المهمّ عندي ألّا تنسى أن تحجز لي مكانًا أيضًا في كتابك ولو كنت بعيدًا عن الوطن...

حدجه كمال بنظرة طويلة، ثمّ سأله:

ـ ألا تزال تراودك فكرة السفر؟

فانساب الجدّ في لهجة حسين شدّاد، وهو يقول:

ـ كلّ ساعة، أريد أن أحيا، أريد أن أسيح على وجهي طولًا وعرضًا وارتفاعًا وعمقًا، ثمّ ليأت الموت بعد ذٰلك...

وإن جاء قبل ذٰلك؟ هل يمكن أن يحدث هٰذا؟ ما للحزن يكاد أن يقتلك؟ أنسيت فهمي؟ الحياة لا تقاس بالطول والعرض دائمًا، كانت حياتك لمحة ولٰكنّها كانت كاملة، أو فما جدوى الفضيلة والخلود؟ لٰكنّك حزين لسبب آخر، كأنّما عزّ عليك أن يهون فراقك على الصديق المتشوّق إلى السفر، كيف تكون دنياك من بعده؟ كيف تكون إذا حال رحيله بينك وبين القصر الحبيب؟ ما أكذب ابتسامة اليوم، إنّها الآن قريبة، صوتها في أذنك وعبيرها في أنفك فهل تستطيع أن توقف عجلة الزمن؟ هل تعيش بقيّة العمر حائمًا من بعيد حول القصر كالمجانين...

ـ إن أردت رأيي فأجّل سفرك حتّى تتمّ دراستك...

فقالت عايدة بحماس:

ـ هٰذا ما قاله له بابا مرارًا...

ـ هو الرأي الصواب...

فتساءل حسين متهكّمًا:

ـ أمن الضروريّ أن أحفظ المدنيّ والرومانيّ كي أتذوّق جمال دنياي؟

عادت عايدة تخاطب كمال قائلة:

ـ شدّ ما يسخر أبي من أحلامه، إنّه يتمنّى أن يراه قضائيًّا أو عاملًا معه في دنيا المال...

ـ القضاء... المال! لن أكون قضائيًّا، حتّى إذا نلت الليسانس وفكّرت جدّيًّا في اختيار وظيفة فسيكون السلك السياسيّ وجهتي، أمّا المال فهل تطمعون في مزيد منه؟ إنّنا أغنى ممّا يطيق الإنسان...

ما أعجب أن تكون ثروة الإنسان أعظم ممّا يطيق، قديمًا تخيّلت أن تكون تاجرًا كأبيك وأن تملك خزانة كخزانته، لم تعد الثروة من أحلامك، ولكن ألا تتمنّى أن تكون قادرًا على تجريد نفسك للمغامرات الروحيّة؟ ما أتعس حياة تستغرقها مطالب الرزق.

ـ إنّ أسرتي جميعًا لا تفهم آمالي، يرونني طفلًا مدلّلًا، قال خالي مرّة متهكّمًا على مسمع منّي «لا ينتظر أن يكون الذكر الوحيد في الأسرة خيرًا من هٰذا»، لِمَ هٰذا كلّه؟، لأنّي لا أعبد المال ولأنّني أوثر الحياة عليه، أرأيت؟! إنّ أسرتنا تؤمن بأنّ أيّ نشاط لا يؤدّي إلى أيّ زيادة في الثروة ضرب من العبث الباطل، وتراهم يحلمون بالألقاب كأنّها الفردوس المفقود، أتدري لِمَ يحبّون الخديو؟ طالما قالت لي ماما: «لو بقي أفندينا على العرش لنال أبوك الباشويّة من زمن بعيد»، والمال العزيز يهون ويُنفق بلا حساب في استقبال أمير إذا شرّفنا بزيارته... (ثمّ وهو يضحك)... لا تنس أن تسجّل هٰذه الغرائب إذا فرغت يومًا لتأليف الكتاب الذي اقترحته عليك.

لم يكد يفرغ من حديثه حتّى بادرت عايدة تخاطب كمال قائلة:

ـ أرجو ألّا تتأثّر في تأليفك بتحامُل هٰذا الأخ العاقّ حتّى لا تظلم أسرتنا!

فقال كمال بلهجة ساجدة:

ـ معاذ الله أن ينال أسرتك ظلم على يديّ! وفضلًا عن ذٰلك فليس فيما قال ما يشين...

فضحكت عايدة في ظفر، على حين ارتسمت على شفتي حسين ابتسامة ارتياح رغم ارتفاع حاجبيه كالداهش. وكان الأثر الذي تركه حديث حسين في نفسه أنّه لم يكن صادقًا كلّ الصدق في حملته على أسرته، أجل لم يشكّ في قوله أنّه لا يعبد المال وأنّه يؤثر الحياة عليه، وأبى ـ إلى ذٰلك ـ أن يُرجع هٰذا الخلق إلى وفرة المال وحدها ولٰكن إلى اتّساع أفق صاحبه أوّلًا ما دام الثراء لا يحول دون عبادة المال عند الكثيرين ولٰكنّه خُيّل إليه أنّ ما ورد في حديثه عن الخديو والألقاب واستقبال الأمراء إنّما ورد على سبيل الفخر المدغم في الانتقاد، لا الفخر وحده ولا الانتقاد وحده، كأنّما كان يفاخر بها بقلبه وينتقدها بعقله، أو لعلّه كان يسخر منها حقًّا، ولٰكنّه لم يجد غضاضة في التشهير بها أمام شخص لا يشكّ في أنّها تبهره وتفتنه مهما يكن من مجاراته له في انتقادها. عاد حسين يتساءل في هدوء باسم:

ـ أيّنا سيكون بطل الكتاب، أنا أم عايدة أم بدور؟

هتفت بدور «أنا!»، فقال لها كمال وهو يشدّ عليها «اتّفقنا»... ثمّ أجاب حسين:

ـ سيبقى هٰذا سرًّا حتّى يولد الكتاب!

ـ وأيّ عنوان ستختار له؟

ـ حسين حول العالم!

فضجّ ثلاثتهم بالضحك بما ذكّرهم هٰذا العنوان المفتوح باسم تمثيليّة «البربريّ حول العالم» التي كانت تمثّل في الماجستيك، وسأله حسين بالمناسبة قائلًا:

ـ ألم تعرف الطريق إلى المسرح بعد؟

ـ كلّا، في السينما الكفاية الآن...

قال حسين مخاطبًا عايدة:

ـ إنّ مؤلّف كتابنا غير مسموح له بالسهر خارج البيت إلى ما بعد التاسعة مساء!

فقالت له عايدة متهكّمة:

ـ على أيّ حال فهو خير من الذين يُسمح لهم بالطواف حول العالم!

ثمّ التفتت صوب كمال، وسألته برقّة خليقة بجذبه إلى رأيها سلفًا:

ـ أمن العيب حقًّا أن يتمنّى أب أن ينشأ ابنه على مثاله في النشاط والجاه؟! أمن العيب أن يسعى في الحياة إلى المال والجاه والألقاب والقيم العالية؟

ابقي حيث أنت يسعى إليك المال والجاه والألقاب

والقيم العالية كي تسمو جميعًا بلثم موطئ قدميك، كيف أجيب وفي الجواب الذي تودّين انتحاري؟ يا ويح قلبك من مرامٍ لا يُرام!

ـ لا عيب في هٰذا أبدًا... (ثمّ بعد انقطاع قصير) على شرط أن يوافق مزاج الشخص!

فاستطردت قائلة:

ـ وأيّ مزاج لا يوافقه هٰذا!؟ والعجيب أنّ حسين لا يزهد في هٰذه الحياة الرفيعة طموحًا إلى ما هو أرفع منها، كلّا يا سيّدي، إنّه يحلم بأن يحيا بلا عمل، في فراغ وبطالة! أليس هٰذا بعجيب!؟...

تساءل حسين ضاحكًا في سخرية:

ـ ألا يعيش هٰكذا الأمراء الذين تعبدونهم؟

ـ لأنّه ليس فوق حياتهم حياة يتطلّع إليها، أين أنت من أولٰئك يا تنبل؟

التفت حسين ناحية كمال قائلًا بصوت لم يخلُ من أثر للغيظ:

ـ القاعدة المتّبعة في أسرتنا هي العمل على زيادة الثروة ومصادقة ذوي النفوذ فتأمل من وراء ذٰلك في رتبة البكويّة، وعليك بعد ذٰلك مضاعفة الجهد لإنماء الثروة ومصادقة النخبة الممتازة حتّى تنال الباشويّة، وأخيرًا أن تجعل غايتك العليا في الحياة التودّد إلى الأمراء والقناعة بذٰلك ما دامت الإمارة لا تُنال بالعمل أو اللباقة، أتدري كم كلّفتنا زيارة الأمير الأخيرة؟... عشرات الألوف من الجنيهات ضاعت في ابتياع أثاث جديد وتحف نادرة من باريس!

فعارضته عايدة قائلة:

ـ لم يُنفَق ذٰلك المال تودّدًا لأمير من حيث هو أمير فحسب، ولٰكن لكونه شقيق الخديو، فالدافع إلى المجاملة كان الوفاء والصداقة لا التودّد والزلفى، وهو بعد شرف لا يماري فيه عاقل.

ولٰكنّ حسين تمادى في عناده قائلًا:

ـ ولٰكنّ بابا لا يفتأ يوطّد علاقته بعدلي وثروت ورشدي وغيرهم ممّن لا يمكن أن يُتّهموا بالإخلاص للخديو!... أليس في ذٰلك تسليم بالحكمة القائلة بأنّ الغاية تبرّر الواسطة؟...

ـ حسين!...

هتفت به بصوت لم يسمعه من قبل، بصوت نمّ عن الكبرياء والاستياء والتأنيب، كأنّما أرادت أن تنبّهه إلى أنّ هٰذا الكلام لا يجوز أن يقال أو في الأقلّ أن يجهر به على مسمع من «غريب» فاحمرّ وجهه خجلًا وألـمًا وفترت السعادة التي حلّق في أجوائها ساعة بالاندماج في هٰذه الأسرة الحبيبة. وكانت هامتها مرفوعة وشفتاها مضمومتين وفي عينيها نظرة موحية بالتقطيب وإن لم يلمح له أثر في جبينها، كانت بالجملة غضبى ولٰكن كما يخلق بالملكة العريقة أن تغضب، ولم يكن رآها من قبل منفعلة، ولم يكن يتصوّر أنّها تنفعل، فرنا إلى وجهها في دهش وارتياع، وامتلأ إحساسًا بالحرج حتّى ودّ لو ينتحل عذرًا يتنحّى به عن متابعة الحديث، ولٰكن لم يمضِ على ذٰلك ثوان حتّى أفاق من غشيته وراح يتملّى جمال الغضب الملكيّ في الوجه الملائكيّ، ويتذوّق لفحة الكبرياء واستعلاء الإباء وتجهُّم السماء، ثمّ عادت كأنّما لتُسمعه هو:

ـ إنّ صداقة بابا لمن ذكرت تعود إلى تاريخ قديم سابق على خلع الخديو...

عند ذٰلك رغب كمال صادقًا في أن يبدّد هٰذه السحابة، فساءل حسين مداعبًا:

ـ إذا كان هٰذا رأيك فكيف تحتقر سعد لأنّه كان أزهريًّا؟

فضحك حسين ضحكته الصافية وهو يقول:

ـ إنّي أكره التودّد إلى الكبراء، ولٰكن لا يعني هٰذا أن أحترم العامّة... إنّي أحبّ الجمال وأزدري القبح، ومن المؤسف أنّ الجمال قلّ أن يوجد في العامّة!...

ولٰكنّ عايدة تدخّلت في الحديث قائلة بصوت معتدل:

ـ ماذا تعني بالتودّد إلى الكبراء؟ إنّه سلوك يُعاب على مَن ليس منهم، ولٰكن أظنّنا من الكبراء أيضًا، وليس تودّدنا إليهم دون تودّدهم إلينا...

فتطوّع كمال للإجابة عن حسين قائلًا بإيمان:

ـ هٰذا حقّ لا مراء فيه...

وما لبث أن نهض حسين وهو يقول:

ـ حسبنا جلوسًا، هلمّوا نواصل السير. . .

نهضوا فاستأنفوا السير متّجهين نحو أبي الهول في جوّ ظليل انتشرت تجمّعات السحب في آفاقه حتّى تعانقت وحجبت الشمس بستار شفّاف فاكتسى منها لونًا أبيض ناصعًا يقطر صفاء وملاحة، والتقوا في طريقهم بجماعات من الطلبة والأوربيّين نساء ورجالًا، فقال حسين مخاطبًا عايدة، ولعلّه أراد أن يسترضيها بطريق غير مباشر:

ـ إنّ الأوربيّات يتفرّسن في فستانك باهتمام، مبسوطة؟

فافترّ ثغرها عن ابتسامة عجب وارتياح، وقالت بلهجة تنمّ عن ثقة مكينة بالنفس وهي ترفع رأسها في كبرياء لطيف:

ـ طبيعيّ. . .!

فضحك حسين وابتسم كمال، ثمّ قال الأوّل يخاطب الآخر:

ـ عايدة تُعَدّ مرجعًا للذوق الباريسيّ في حيّنا جميعه. . .

فقال كمال وهو لا يزال يبتسم:

ـ طبيعيّ. . .

فكافأته عايدة بضحكة رقيقة خافتة كسجع الحمام، مسحت عن قلبه الأثر الخفيف الذي تركه النزاع الأرستقراطيّ البديع!. . . العاقل من يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها. فاعرف أين أنت من هٰؤلاء الملائكة، المعبود الذي يشرف عليك من فوق السحاب يتعالى حتّى على أهله المقرّبين، فما وجه العجب في هٰذا؟! ما كان ينبغي أن يكون له أهل أو أسرة، فلعلّه اتّخذهم ليكونوا وسطاء بين ذاته وبين عابديه، أعجب به في هدوئه وحدته وتواضعه وتكبّره وإقباله وإدباره ورضاه وغضبه، كلّ أولٰئك صفاته فارو بالعشق قلبك الظامئ. انظر إليها، إنّ الرمال تعوق مشيتها فتوانت خفّتها واتّسعت خطواتها وتمايل أعلاها كالغصن الثمل بالنسيم الواني ولكنّها وهبت الأبصار صورة جديدة من محاسن المشي تضارع في جمالها مشيتها المعروفة فوق فسيفساء الحديقة، وإذا التفتّ إلى الوراء فرأيت آثار القدمين اللطيفتين مطبوعة فوق الرمال، فاعلم أنّها تقيم معالم للطريق المجهول يهتدي بها السالكون إلى سبحات الوجد وإشراقات السعادة، في زياراتك السالفة لهٰذه الصحراء كان نهارك ينقضي في اللعب والوثب سادرًا عن نفحات المعاني لأنّ برعمة قلبك لم تكن تفتّحت. . . أمّا اليوم فأوراقها نديّة برضاب الهوى تقطر بهجة وتنزّ ألـمًا فإن تكن سلبت طمأنينة الجهالة فقد وهبت القلق السامي. . . حياة القلب وأنشودة النور. . .

ـ جعْتُ. . .

ندّت الشكوى عن ثغر بدور، فقال حسين:

ـ آنَ لنا أن نعود، ما رأيكم؟! على أيّ حال أمامنا مسافة طويلة سيجوع في نهايتها مَن لم يجع. . .

ولـمّا بلغوا السيّارة أخرج حسين الحقيبة والسلّة المملوءتين بالطعام، فوضعهما على مقدّمة السيّارة وراح يزيح الغطاء عن سلّته، غير أنّ عايدة اقترحت أن يتناولوا الطعام على درجة من درجات الهرم، فمضوا إليه وارتقوا درجة من درجات الأساس فحطّوا الحقيبة والسلّة في وسطها، وجلسوا على حافتها تاركين أرجلهم تتدلّى. بسط كمال جريدة كانت في حقيبته وطرح عليها الطعام الذي جاء به، دجاجتين وبطاطس وجبنًا وموزًا وبرتقالًا، ثمّ تابع يدَي حسين وهو يستخرج من السلّة طعام «الملائكة»، فإذا به: سندوتشات أنيقة، وأكواب أربع، وترموث. . . ومع أنّ طعامه كان أدسم فإنّه بدا ـ في ناظريه على الأقلّ ـ عاطلًا عن حلية الأناقة فساوره قلق وحياء، وتساءل حسين وهو يرمق الدجاجتين بنظرة ترحاب عمّا إذا كان صاحبه قد أحضر أدوات مائدة، فأخرج كمال من الحقيبة سكاكين وشوكًا وشرع يقطع الدجاجتين شرائح، وهنا نزعت عايدة سدّادة الترموث وراحت تملأ الأكواب الأربع، فإذا بها تمتلئ بسائل أصفر كالذهب، فلم يملك كمال أن يسأل داهشًا:

ـ ما هٰذا؟

فضحكت عايدة ولم تجب، أمّا حسين فقال ببساطة وهو يغمز أخته بعينه:

ـ بيرة...!

ـ بيرة؟!

هتف كمال كالخائف، فقال حسين بتحدٍّ وهو يشير إلى السندوتشات:

ـ ولحم خنزير!...

ـ أنت تعبث بي!. لا أصدّق هٰذا...

ـ بل صدِّق وكُلْ، يا لك من جحود! جئناك بأنفس ما يؤكل وألذّ ما يُشرب!

أنفصحت عينا كمال عن دهش وانزعاج، وانعقد لسانه فلم يدر ماذا يقول، وكان أشدّ ما يزعجه أنّ هٰذا الطعام والشراب جُهّز في البيت، وبالتالي عن علم أهله ورضاهم!

ـ ألم تذق شيئًا من هٰذا من قبل؟

ـ سؤال في غير حاجة إلى جواب.

ـ إذن ستذوقه لأوّل مرّة، والفضل لنا!

ـ هٰذا محال...

ـ لمه؟

ـ لمه؟!. سؤال في غير حاجة إلى جواب أيضًا...

رفع حسين وعايدة وبدور أكوابهم وشربوا جرعات ثمّ أعادوها، ونظر الأوّلان إلى كمال مبتسمين كأنّما يقولان له «أرأيت أنّه لم يحدث لنا شيء!»، ثمّ قال حسين:

ـ الدين!. هه؟ كوب البيرة لا يُسكر، ولحم الخنزير كلّه لذّة وفوائد، لست أدري ما حكمة الدين في شئون الطعام!

تقلّص قلب كمال لوقع هٰذا الكلام، بيد أنّه لم يخرج عن رقّته وهو يقول معاتبًا:

ـ حسين. لا تجدّف...

ولأوّل مرّة مذ افتُتحت المأدبة تكلّمت عايدة فقالت:

ـ لا تسئ بنا الظنّ، نحن نشرب البيرة لفتح النفس ليس إلّا، ولعلّ مشاركة بدور لنا تقنعك بحسن نيّتنا، أمّا لحم الخنزير فلذيذ جدًّا، جرِّبه ولا تكن حنبليًّا، لا تزال أمامك فرصة كبيرة كي تطيع الدين فيما هو أهمّ من هٰذا كلّه...

ومع أنّ كلامها لم يختلف في جوهره عن كلام حسين، فإنّه نزل على قلبه المتألّم بردًا وسلامًا، وإلى هٰذا فقد صادف منه نفسًا حريصة كلّ الحرص على ألّا تكدّر لهم صفوًا أو تخدش لهم شعورًا، فابتسم في تسامح رقيق، ومضى يتناول طعامه وهو يقول:

ـ دعوني آكل الطعام الذي آلفه، وأكرموني بالمشاركة فيه.

ضحك حسين، ثمّ قال مخاطبًا كمال وهو يشير إلى أخته:

ـ اتّفقنا في البيت على أن نقاطع طعامك إذا قاطعت طعامنا، ولٰكن يخيّل إليّ أنّنا لم نحسن تقدير ظروفك، على هٰذا فإنّني سأتحلّل من ذٰلك الاتّفاق إكرامًا لك، ولعلّ عايدة أن تقتدي بي...

فنظر كمال نحوها برجاء، فقالت باسمة:

ـ إذا وعدتني بألّا تسيء الظنّ بنا...!

فقال كمال بابتهاج:

ـ لا عاش من أساء بكم الظنّ...

أكلوا بشهوة عظيمة، حسين وعايدة أوّلًا ثمّ تشجّع كمال بهما فتابعهما، وكان يقدّم الطعام بنفسه إلى بدور التي اكتفت بسندوتش وقطعة من صدر الدجاجة ثمّ أقبلت على الفاكهة، ولم يستطع كمال أن يقاوم الرغبة في استراق النظر إلى حسين وعايدة وهما يأكلان ليرى كيف يتناولان طعامهما، أمّا حسين فكان يلتهم الطعام دون مبالاة كأنّه منفرد، غير أنّه لم يفقد طابعه الممتاز الذي يمثّل في عيني كمال الأرستقراطيّة المحبوبة المنطلقة على سجيّتها، وأمّا عايدة فقد كشفت عن أسلوب جديد من الرشاقة والأناقة والتهذيب في طبيعتها الملائكيّة سواء في قطع اللحم أو القبض بأطراف الأنامل على السندوتش أو حركات الثغر عند المضغ، ومضى هٰذا كلّه يسيرًا هيّنًا لا أثر للتكلّف أو القلق فيه، الحقّ أنّه انتظر هٰذه الساعة بتشوّف وإنكار كأنّما كان في شكّ من أنّها تأكل الطعام كسائر البشر... ومع أنّ معرفته لنوع الطعام أزعجت ضميره الدينيّ أيّما إزعاج فإنّه وجد في «غرابته» وخروجه عن مألوف ما يتناوله الناس الذين عهدهم مشابهة تربطه بآكله،

فارتاح لها خياله الحائر المتسائل، وتناوبه شعوران متناقضان، قلق بادئ الأمر وهو يراها تقوم بهٰذه الوظيفة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، ثمّ داخله شيء من الارتياح لـمّا قرّبت هٰذه الوظيفة بينه وبينها ولو درجة واحدة! على أنّ نفسه لم تعفِه من علامات الاستفهام عند هٰذا الحدّ، فوجدها تدفعه إلى التساؤل عمّا إذا كانت تؤدّي سائر الوظائف الطبيعيّة الأخرى؟ لم يسعه أن يقول لا، ولم يهن عليه أن يقول نعم، فأضرب عن الإجابة وهو يعاني إحساسًا لم يعرفه من قبل تضمّن ـ فيما تضمّن ـ احتجاجًا صامتًا على نواميس الطبيعة!

ـ إنّي معجب بشعورك الدينيّ ومثاليّتك الأخلاقيّة. . .

نظر كمال إليه في حذر المرتاب، فقال حسين بتوكيد:

ـ عن صدق تكلّمت لا عن دعابة. . .

ابتسم كمال في حياء، ثمّ أشار إلى ما تبقّى من السندوتشات والبيرة قائلًا:

ـ بالرغم من هٰذا، فإنّ احتفالكم بشهر رمضان يفوق كلّ وصف، أنوار تضاء، قرآن يتلى في بهو الاستقبال، المؤذّنون يؤذّنون في السلاملك، هه؟

ـ إنّ أبي يحيي ليالي رمضان حبًّا وكرامة واستمساكًا بالتقاليد التي اتّبعها جدّي، وإلى هٰذا فهو وماما يواظبان على الصوم. . .

قالت عايدة باسمة:

ـ وأنا. . .

فقال حسين بجدّ أريد به السخرية:

ـ عايدة تصوم يومًا واحدًا من الشهر، وربّما أفلست قبيل العصر!

فقالت عايدة على سبيل الانتقام:

ـ وحسين يأكل في رمضان أربع وجبات يوميًّا، الوجبات الثلاث المعتادة ووجبة السحور!

فقال حسين ضاحكًا، وقد كاد الطعام يسقط من فيه لولا أن رفع رأسه بحركة سريعة:

ـ أليس غريبًا ألّا نعرف عن ديننا شيئًا ذا بال؟! لم يكن عند بابا وماما معلومات تستحقّ الذكر، وكانت مربّيتنا يونانيّة، وعايدة تعرف عن المسيحيّة وطقوسها أكثر ممّا تعرف عن الإسلام، نحن بالقياس إليك في حكم الوثنيّين. . . (ثمّ مخاطبًا عايدة). . . إنّه يقرأ القرآن والسيرة. . . !

فقالت بلهجة ربّما دلّت على شيء من الإعجاب:

ـ حقًّا؟! برافو، ولٰكن أرجو ألّا تسيء بي الظنّ أكثر ممّا ينبغي، فإنّي أحفظ أكثر من سورة. . .

فغمغم كمال كالحالم:

ـ بديع، بديع جدًّا، مثل ماذا؟

فكفّت عن الأكل حتّى تتذكّر، ثمّ قالت باسمة:

ـ أعني أنّي كنت أحفظ بعض السور، لا أدري ماذا تبقّى منها. . . (ثمّ رفعت صوتها فجأة شأن من تذكّر شيئًا أعياه طلابه) مثل السورة التي يقول فيها إنّ ربّنا واحد ألخ. . .

ابتسم كمال، وقدّم لها شريحة من صدر الدجاجة فتناولتها شاكرة، ولٰكنّها اعترفت بأنّها أكلت أكثر ممّا تأكل عادة، ثمّ قالت:

ـ لو كان الناس يتناولون الطعام عادة كما في الرحلات لاختفت الرشاقة من الوجود. . .

فقال كمال بعد تردّد:

ـ إنّ نساءنا لا تستهويهنّ النحافة. . .

فوافقه حسين على رأيه قائلًا:

ـ ماما نفسها من هٰذا الرأي، ولٰكنّ عايدة تعدّ نفسها باريسيّة. . .

عفا الله عن استهانة معبودتي، شدّ ما أزعجت نفسك المؤمنة، كما أزعجتها من قبل خطرات الشكّ التي صادفتها في مطالعتك، هل تستطيع أن تلقى استهانة المعبود بما لقيت به من خطرات الشكّ من نقد وغضب؟ هيهات، نفسك لا تنطوي لها إلّا على الحبّ الخالص، حتّى عيوبها فأنت تحبّها، عيوبها؟ لا عيب لها ولو كان ما بها خفّة في الدين واجتراء على المحرّمات، تلك عيوب لو وُجدت في غيرها، أخشى ما أخشاه ألّا تروق في عيني حسناء بعد اليوم إذا لم يكن بها خفّة في الدين واجتراء على المحرّمات، هل مسّك القلق؟

استغفر الله لنفسك ولها، وقل إنّ هٰذا كلّه عجيب، عجيب كأبي الهول، ما أشبه حبّك به أو ما أشبهه بحبّك، كلاهما لغز وخلود!!

أفرغت عايدة آخر ما في الترموث في الكوب الرابع، ثمّ قالت لكمال بإغراء:

- هلاّ غيّرت رأيك؟ ما هي إلّا شراب منعش...

فابتسم ابتسامة اعتذار وشكر، وعند ذاك خطف حسين الكوب ورفعه إلى فيه، وهو يقول:

- أنا بدل كمال... (ثمّ وهو يتأوّه)... يجب أن نمسك وإلّا متنا امتلاء...

فرغوا من الطعام، ولكن فضل منه نصف دجاجة وثلاثة سندوتشات، فخطر لكمال أن يوزّعها على الغلمان الذين يتجوّلون في المكان، غير أنّه رأى عايدة وهي تعيد السندوتشات مع الأكواب والترموث إلى السلّة، فلم يرَ بدًّا من أن يعيد بقيّة طعامه إلى الحقيبة وقد وردته ذكرى حديث إسماعيل لطيف عن الروح الاقتصاديّة لآل شدّاد! ووثب حسين إلى الأرض وهو يقول:

- لدينا مفاجأة سارّة لك، أحضرنا معنا فونوغرافًا وبعض الأسطوانات لتساعدنا على الهضم، ستسمع أسطوانات أوربيّة من مختارات عايدة وأخرى مصريّة مثل «حرّج فزّر»، و«بعد العشي»، و«حوّد من هنا»... ما رأيك في هٰذه المفاجأة؟...

- ١٨ -

انتصف ديسمبر، غير أنّ الجوّ لم يجاوز حدّ الاعتدال إلّا قليلًا على رغم أنّ الشهر هلّ بعاصفة من الرياح والأمطار والبرد القارس. وكان كمال يقترب من سراي آل شدّاد في خطوات متّئدة سعيدة طارحًا معطفه المطويّ على ساعده الأيسر وقد دلّ مظهره الأنيق - خاصّة مع ملاحظة ميل الجوّ إلى الاعتدال - على أنّه جاء بمعطفه استكمالًا لمظاهر الأناقة والوجاهة أكثر منه حيطة لتقلّب الجوّ، وكانت شمس الضحى ساطعة فرجح عنده أنّ مجلس الأصدقاء سينعقد في كشك الحديقة - لا في الثوى حيث يجتمعون في الأيّام الباردة - وأنّ الفرص بالتالي ستسنح لرؤية عايدة التي لا يتاح لقاؤها إلّا في الحديقة، على أنّ الشتاء إذا كان يحرمه من لقائها في الحديقة، فإنّه لم يحل دون رؤيتها في النافذة المشرفة على الممرّ الجانبيّ للحديقة أو في الشرفة المطلّة على مدخل القصر، في هٰذه أو تلك، عند مقدمه أو حال منصرفه، ربّما لمحها وهي معتمدة الحافة بمرفقيها أو مفترشة راحتها بذقنها، فيرفع نحوها عينيه حانيًا رأسه في ولاء العابد، فتردّ تحيّته بابتسامة رقيقة ذات وميض يضيء له أحلام اليقظة وأحلام المنام. على أمل رؤيتها اختلس من الشرفة نظرة وهو يدخل القصر، ثمّ من النافذة وهو يقطع الممرّ الجانبيّ ولكنّه لم يجدها لا في هٰذه ولا في تلك، فاتّجه - وهو يمنّي النفس باللقاء في الحديقة - نحو الكشك حيث رأى حسين جالسًا بمفرده على غير العادة. تصافحا وقلبه يشرق ببهجة المودّة التي تبعثها في نفسه مطالعة هٰذا الوجه الصبيح، أليف روحه وعقله، واستمع إليه وهو يرحّب به في لهجته المرحة الصافية قائلًا:

- أهلًا بالمعلّم! الطربوش والمعطف! لا تنس في المرّة القادمة الكوفيّة والعصا، أهلًا... أهلًا...

خلع كمال طربوشه ووضعه على المنضدة، وطرح المعطف على كرسيّ وهو يتساءل:

- أين إسماعيل وحسن؟

- إسماعيل سافر إلى البلد مع والده فلن تراه اليوم، أمّا حسن فقد تلفن لي صباحًا بأنّه سيتأخّر ساعة أو أكثر لكتابة بعض المحاضرات... أنت تعلم أنّه طالب مثاليّ مثل حضرتك، وهو مصمّم على نيل الليسانس هٰذا العام...

جلسا على كرسيّين متقابلين موليين القصر ظهريهما وقد وعد انفرادهما كمال بجلسة هادئة لا شقاق فيها، جلسة يرحب صدرها بالتأمّلات غير أنّها ستخلو في الوقت نفسه من النضال المتعب اللذيذ معًا الذي يدعو إليه حسن سليم، والملاحظات التهكّميّة اللاذعة التي يبعثرها إسماعيل لطيف دون حساب، استطرد حسين قائلًا:

- أنا على العكس منكما طالب رديء، أجل إنّي

أستمع إلى المحاضرات مفيدًا من قدرتي على تركيز الانتباه، غير أنّي لا أكاد أطيق مراجعة كتبي المدرسيّة، قالوا لي كثيرًا: إنّ دراسة القانون تتطلّب ذكاء نادرًا، الأحرى أن يقولوا: إنّها تتطلّب غباء وصبرًا. حسن سليم طالب مجدّ شأن الذين يحدوهم الطموح، طالما تساءلت عمّا يجعله يحمل نفسه فوق ما تطيق من العمل والسهر، وهو لو شاء ـ كأمثاله من أبناء المستشارين ـ لقنع من العمل بما يكفل له النجاح اعتمادًا على نفوذ أبيه الذي سيضمن له في النهاية نيل الوظيفة التي يتطلّع إليها، فلم أجد تفسيرًا لذٰلك إلّا كبرياءه الذي يحبّب إليه التفوّق ويدفعه إليه دفعًا لا هوادة فيه، أليس كذٰلك؟ ما رأيك فيه؟

قال كمال في صدق:

ـ حسن شابّ جدير بالإعجاب لخلقه وذكائه...

ـ سمعت أبي يقول مرّة عن أبيه سليم بك صبري: إنّه مستشار فذّ عادل، فيما عدا القضايا السياسيّة...

صادف هٰذا الرأي هوى في نفس كمال، لما سبق إلى علمه من تشيّع سليم بك صبري إلى الأحرار الدستوريّين، فقال ساخرًا:

ـ معنى هٰذا أنّه قانونيّ بارع، ولٰكنّه غير أهل للقضاء.

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:

ـ نسيت أنّني أخاطب وفديًّا...

فقال كمال وهو يرفع منكبيه:

ـ لكنّ والدك ليس وفديًّا! تصوّر أن يجلس سليم بك صبري للفصل في قضيّة عبد الرحمٰن فهمي والنقراشي!

هل صادف قوله عن سليم بك صبري ارتياحًا في نفس حسين؟ نعم، هٰذا يبدو جليًّا في العينين الجميلتين اللتين لم تألفا الكذب أو الرياء، ولعلّه راجع إلى المنافسة التي تقوم عادة ـ مهما اتّسمت بالتهذيب وآداب اللياقة ـ بين الأنداد، وقد كان شدّاد بك مليونيرًا ومن رجال المال ذوي المكانة والجاه فضلًا عن صلته التاريخيّة بالخديو عبّاس، غير أنّ سليم بك صبري مستشار في أكبر هيئة قضائيّة وفي بلد تفتنها المناصب إلى حدّ التقديس، فلم يكن بدّ من أن يتبادل المنصب الرفيع والمال الوفير نظرات الشزر أحيانًا.

ألقى حسين على الحديقة المترامية أمام ناظريه نظرات هادئة يشوبها شيء من الأسف، فقد تجرّدت جدائل النخيل وتعرّت شجيرات الورد، وشحبت الخضرة اليانعة واختفت ابتسامات الزهور من ثغور البراعم، وبدت الحديقة غارقة في الحزن حيال زحف الشتاء، ثمّ قال وهو يشير أمامه:

ـ انظر إلى فعل الشتاء، هٰذه آخر جلسة لنا في الحديقة، ولٰكنّك من هواة الشتاء...

إنّه يهوى الشتاء حقًّا، ولٰكنّ عايدة أحبّ إليه من الشتاء والصيف والخريف والربيع معًا، فلن يغفر للشتاء حرمانه من مقابلات الكشك السعيدة، غير أنّه قال موافقًا:

ـ الشتاء فصل جميل وقصير، وفي البرد والغيم والرذاذ حياة يستجيب لها القلب.

ـ يخيّل إليّ أنّ هواة الشتاء يكونون عادة من ذوي النشاط والاجتهاد، فهٰكذا أنت، وهٰكذا حسن سليم...

ارتاح كمال إلى هٰذا الثناء ولٰكنّه أراد أن يخُصّ ـ من دون حسن سليم ـ بأكثره، فقال:

ـ ولٰكنّي لا أعطي واجباتي المدرسيّة إلّا نصف نشاطي فحسب، الحقّ أنّ حياة العقل أوسع من المدرسة بكثير...

هزّ حسين رأسه مستحسنًا، وقال:

ـ لا أظنّ أنّ ثمّة مدرسة يمكن أن تستهلك الوقت الطويل الذي تكرّسه للعمل يوميًّا... على فكرة: أنا لا أوافقك على هٰذا الإسراف وإن أكن أغبطك أحيانًا، خبّرني ماذا تقرأ الآن...؟

ابتهج كمال بهٰذا الحديث اللذي كان ـ بعد عايدة ـ أحبّ شيء إلى نفسه وأجاب قائلًا:

ـ أستطيع أن أقول لك الآن: إنّ مطالعاتي أخذت تتبع نوعًا من النظام، لم تعد قراءة حرّة كيفما اتّفق ما بين قصص مترجمة ومختارات شعريّة ومقالات نقديّة، أصبحت أتلمّس سبيلي على قدر من الضوء لا بأس

به، فعمدت أخيرًا إلى تخصيص ساعتين كلّ مساء للقراءة في دار الكتب وهنالك أنظر في دائرة المعارف باحثًا عن معاني الكلمات الغامضة الساحرة، كالأدب والفلسفة والفكر والثقافة، مسجّلًا في الوقت نفسه أسماء الكتب التي تصادفني، إنّه عالم بديع تذوب فيه النفس شغفًا واستطلاعًا. . .!

كان حسين يصغي إليه بانتباه واهتمام طارحًا ظهره على مسند الكرسيّ الخيزران، واضعًا يديه في جيبَي جاكتته الكحليّة الإنجليزيّة، وعلى شفتيه العميقتين ابتسامة مشاركة وجدانيّة صافية، قال:

ـ جميل جدًّا، بالأمس كنت أحيانًا تسألني عمّا ينبغي أن يُقرأ، اليوم جاءت نوبتي لأسألك أنا، هل وضح لك الطريق؟

ـ رويدًا. . . رويدًا، يغلب على ظنّي أنّي سأتّجه نحو الفلسفة!

ارتفع حاجبا حسين كالمتسائل، ثمّ قال باسمًا:

ـ الفلسفة؟ إنّها كلمة مثيرة، حذار أن تذكرها على مسمع من إسماعيل! طالما اعتقدت أنّك ستتّجه نحو الأدب. . .

ـ لا لوم عليك، الأدب متعة سامية بيد أنّه لا يملأ عينيّ، إنّ مطلبي الأوّل الحقيقة، ما الله، ما الإنسان، ما الروح، ما المادّة؟! الفلسفة هي التي تجمع كلّ أولٰئك في وحدة منطقيّة مضيئة كما عرفت أخيرًا، هٰذا ما أروم معرفته من كلّ قلبي، وهٰذه هي الرحلة الحقيقيّة التي تُعَدّ رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلبًا ثانويًّا، تصوّر أنّه سيمكنني أن أجد أجوبة شافية لهٰذه المسائل جميعًا!. . .

نوّر الشوق والحماس وجه حسين وهو يقول:

ـ هٰذا بديع حقًّا، لن أتوانى عن مرافقتك في هٰذا العالم الساحر، بل لقد طالعت بالفعل فصولًا عن الفلسفة الإغريقيّة وإن لم أخرج منها بشيء يعتدّ به، لست أحبّ الاندفاع مثلك، ولٰكنّي أقطف زهرة من هنا وزهرة من هناك وأسلك بين هٰذا وذاك سبيلًا، والآن دعني أصارحك بأنّي أخاف أن تقطع الفلسفة ما كان بينك وبين الأدب من أسباب، فأنت لا تقنع بالاطّلاع ولٰكنّك تريد أن تفكّر وأن تكتب، ولن يتاح لك ـ فيما أعتقد ـ أن تكون فيلسوفًا وأديبًا في آنٍ. . . !

ـ لن ينقطع ما بيني وبين الأدب، إنّ حبّ الحقيقة لا يناقض تذوّق الجمال، ولٰكنّ العمل شيء والراحة شيء آخر، وقد عزمت على أن أجعل الفلسفة عملي والأدب راحتي. . .

فضحك حسين فجأة، ثمّ قال:

ـ هٰكذا تتملّص من تعهّدك لنا بأن تكتب عنّا قصّة جامعة!

فلم يملك كمال أن يضحك قائلًا:

ـ ولٰكنّي آمل أن أكتب يومًا عن «الإنسان» فيشملكم ضمنًا!

ـ لا يهمّني الإنسان بقدر ما يهمّني أشخاصنا، انتظر حتّى أشكوك إلى عايدة!

خفق قلبه لدى سماع الاسم خفقة تحيّة وحنان وشوق، فانقلب نشوان كأنّما قد ثمل روحه بلحن معربد بالطرب، هل يرى حسين حقًّا أنّه أتى من الأمر ما يستأهل عليه مؤاخذة عايدة؟ ما أجهل حسين! كيف غاب عنه أنّه ما من شعور يستشعره أو فكرة يتأمّلها أو شوق يستشرفه إلّا وآفاقها تترقرق ببهاء عايدة وروحها!

ـ انتظر أنت، وسوف تثبت لك الأيّام أنّني لن أتخلّى عن عهدي ما حييت. . .

ثمّ متسائلًا بعد قليل بلهجة جدّيّة:

ـ لِمَ لا تفكّر في أن تكون كاتبًا؟ كلّ الظروف الراهنة والآتية تهيّئ لك التفرّغ لهٰذا الفنّ!

فهزّ حسين كتفيه استهانة، وقال:

ـ أأكتب ليقرأ الناس؟ ولِمَ لا يكتب الناس لأقرأ أنا؟

ـ أيّهما أعظم شأنًا؟

ـ لا تسألني أيّهما أعظم شأنًا، ولٰكن سلني أيّهما أسعد حالًا، إنّي أعدّ العمل لعنة البشريّة، لا لأنّي كسول، كلّا، ولٰكن لأنّ العمل مضيعة للوقت وسجن للفرد وحائل منيع دون الحياة، الحياة السعيدة هي الفراغ السعيد. . .

حدجه كمال بنظرة دلّت على أنّه لم يأخذ قوله مأخذ الجدّ، ثمّ قال:

ـ لا أدري ماذا كانت تكون حياة الإنسان لولا العمل؟. إنّ ساعة من الفراغ المطلق تنقضي أثقل من عام حافل بالعمل...

ـ يا للتعاسة! إنّ صدق قولك نفسه هو ما يؤكّد هٰذه التعاسة، هل حسبتني أطيق الفراغ المطلق؟ كلّا وأسفاه، لا أزال أشغل وقتي بالنافع والضارّ، ولٰكنّي آمل يومًا أن أعاشر الفراغ المطلق معاشرة سعيدة...

همّ بالتعليق على قوله، ولٰكن جاء صوت من ورائهما يتساءل «فيم تتحدّثان يا ترى؟»، صوت أو بالحريّ نغمة حلوة ما إن تتردّد في مسمعيه حتّى تعزف أوتار قلبه مجاوبة إيّاها من الأعماق كأنّها عناصر مؤتلفة في لحن واحد وسرعان ما خلت نفسه من متواثب الفكر فغمرها فراغ مطلق ـ ترى أهو الفراغ المطلق الذي يحلم به حسين؟ ـ هو ذاته لا شيء، ولٰكنّه السعادة كلّها...

والتفت إلى الوراء، فرأى عايدة قادمة على بعد خطوات تتقدّمها بدور حتّى وقفتا أمامهما، كانت ترتدي فستانًا كمّونيًّا وسترة صوفيّة زرقاء ذات أزرار مذهّبة، وقد تجلّت بشرتها السمراء في عمق السماء الصافية وصفاء الماء المقطّر. وهرعت بدور إليه فتلقّفها بين ذراعيه وضمّها إلى صدره كأنّما ليواري في عناقها ما اعتراه من هيمان، وعند ذاك جاء خادم مسرعًا فوقف أمام حسين وهو يقول بأدب «التليفون». فقام حسين مستأذنًا، ومضى نحو السلاملك والخادم يتبعه...

وهٰكذا وجد نفسه معها على انفراد ـ وجود بدور لم يكن ليغيّر من هٰذا المعنى ـ لأوّل مرّة في حياته، تساءل في إشفاق: ترى أتبقى أم تذهب؟ ولٰكنّها تقدّمت خطوتين حتّى صارت تحت مظلّة الكشك جاعلة المنضدة بينها وبينه، فدعاها إلى الجلوس بإشارة من يده، ولٰكنّها هزّت رأسها بالرفض باسمة، فقام واقفًا ورفع بدور بين يديه فأجلسها على المنضدة، ولبث يربّت رأس الصغيرة في ارتباك وهو يبذل كلّ قوّته كي يملك عواطفه ويتغلّب على انفعاله... مضت فترة صمت لم يسمع خلالها إلّا حفيف الغصون وخشخشة أوراق جافّة متناثرة وزقزقة عصفور، فبدا المكان فيما لمحت عيناه من أرضه وسمائه وأشجاره وسوره البعيد الفاصل بين الحديقة والصحراء وقُصّة المعبودة المسبلة على جبينها والنور البديع المنبثق من حور مقلتيها، بدا كلّ أولٰئك كأنّه منظر بهيج من حلم سعيد، لم يدرِ ـ على وجه اليقين ـ إن كان حقيقة ماثلة أمام ناظريه أم خيالة ملوحة حيال ذاكرته، حتّى سجع الصوت الرخيم وهو يقول مخاطبًا بدور فيما يشبه التحذير: «لا تضايقيه يا بدور!» فكان جوابه أن ضمّ بدور إلى صدره قائلًا: «إن تكن هٰذه هي المضايقة فما أحبّها إلى نفسي!»، ورنا إليها وفي عينيه أشواق، وراح يتملّى منظرها آمنًا هٰذه المرّة من الرقباء منعمًا فيها التأمّل كأنّما يستكنه أسرارها ويطبع على صفحة مخيّلته ملامحها ورموزها، فتاه في سحر المنظر حتّى بدا ذاهلًا أو غائبًا، وما يدري إلّا وهي تتساءل:

ـ ما لك تنظر إليّ هٰكذا...؟!

فأفاق من غشيته، وتجلّى في عينيه الارتباك فابتسمت متسائلة:

ـ هل تريد أن تقول شيئًا؟

هل يريد أن يقول شيئًا؟ إنّه لا يدري ماذا يريد، حقًّا إنّه لا يدري ماذا يريد، وتساءل بدوره:

ـ هل قرأت في عينيّ هٰذا؟

أجابت وثغرها يفترّ عن ابتسامة غامضة:

ـ نعم...

ـ ماذا قرأت فيهما؟

فرفعت حاجبيها كالمتعجّبة، وهي تقول:

ـ هٰذا ما أردت معرفته...

أيبوح لها بسرّه المكنون قائلًا بكلّ بساطة «أحبّك» وليكن ما يكون! لٰكن ما جدوى البوح؟ وماذا يكون من أمره لو قطع الاعتراف ما بينه وبينها من صداقة ومودّة ـ كما هو الراجح ـ إلى الأبد؟! وانتبه ـ وهو يتأمّل ـ إلى النظرة التي تلوح في عينيها الجميلتين، نظرة مطمئنّة شديدة الثقة بنفسها جريئة لا يعتورها ارتباك أو خجل، نظرة كأنّما تهبط عليه من عَلٍ بالرغم

من أنّها في مستوى نظره، فلم يرتح لها وزادته تردّدًا، ماذا وراءها يا ترى؟ وراءها فيها رأى شعور بالاستهانة، وربّما العبث كأنّما هي بالغ ينظر إلى طفل، ولعلّها لم تخلُ كذٰلك من تعالٍ لا يمكن أن يبرّره فارق السنّ وحده إذ لم تكن تكبره إلّا بعامين على أكثر تقدير، أفلا تكون هٰذه النظرة الخليقة بأن يلقيها هٰذا القصر الشامخ بشارع السرايات على البيت القديم ببين القصرين؟ ولكن لِمَ لم يلمحها في عينيها من قبل ذٰلك؟ ربّما لأنّها لم تنفرد به من قبل أو لأنّه لم يتح له أن ينعم فيها النظر إلّا هٰذه الساعة، وآلمه ذٰلك وأحزنه حتّى فترت نشوته أو كادت. ورفعت بدور نحوه يديها داعية إيّاه لحملها، فتناولها في حضنه، وإذا بعايدة تقول:

ـ يا للعجب!، لماذا تحبّك بدور كلّ هٰذا الحبّ؟

فقال وهو ينظر في عينيها:

ـ لأنّي أكنّ لها مثله وأكثر...

فتساءلت كالمرتابة:

ـ أهٰذا قانون يُركّن إليه؟

ـ الحكمة السائرة تقول «من القلب للقلب رسول»...

فجعلت تنقر المنضدة بأنملتها وهي تتساءل:

ـ هب فتاة جميلة أحبّها كثيرون، فهل تحبّهم جميعًا؟ أرني كيف يصدق قانونك في هٰذه الحال...

فقال وقد أذهله سحر الحوار عن كلّ شيء حتّى أحزانه:

ـ يكون من أمرها أن تحبّ أصدقهم حبًّا لها!...

ـ وكيف تفرزه من الآخرين؟...

لو يدوم هٰذا الحوار إلى الأبد!

ـ أحيلك مرّة أخرى إلى الحكمة السائرة «من القلب للقلب رسول»!

فضحكت ضحكة مقتضبة مثل رنّة الوتر، وقالت في تحدٍّ:

ـ لو صحّ هٰذا ما خاب محبّ صادق في حبّه! فهل هٰذا صحيح؟!

صدمه قولها كما تصدم حقائق الحياة المستنيم إلى المنطق وحده، فلو صحّ منطقه لوجب أن يكون أسعد الناس بحبّه ومحبوبه، ولٰكن، أين هو من ذٰلك؟! الحقّ أنّ تاريخ حبّه الطويل لم يعدم لحظات أمل خلت كان يضيء ظلمات قلبه بسعادة وهميّة على أثر ابتسامة حلوة يجود بها المحبوب أو كلمة عابرة قابلة للتأويل أو حلم سعيد عقب ليلة فكر وسهاد ولواذًا بقول سائر له احترامه في نفسه مثل «من القلب للقلب رسول»، فكان يتعلّق بالأمل الخلّب في إصرار اليائس حتّى تعيده الحقيقة إلى وعيه، ها هو الساعة يتلقّى هٰذه الجملة الساخرة الحاسمة كالدواء المرّ ليتداوى بها مُستقبَلًا من كواذب الآمال، وليعرف على وجه اليقين موضعه أين يكون، ولـمّا لم يُحِرْ جوابًا على سؤالها الذي تحدّته به، هتفت معبودته ومعذّبته بلهجة المنتصر:

ـ غُلِبْت...!

واستحكم الصمت مرّة أخرى، فعاود مسمعيه حفيف الغصون وخشخشة الأوراق الجافّة وزقزقة العصفور، غير أنّه تلقّاها هٰذه المرّة بوجد فاتر وقلب خائب، ولاحظ أنّ عينيها تتفحّصانه بإمعان لا داعي له، وأنّ نظرتها تزداد جرأة وثقة وما يوحي بالعبث، وأنّها أبعد ما يكون عن منظر أنثى تصدّت لذكر، فشعر بغمز في قلبه وبرودة، وتساءل هل قُدّر له أن ينفرد بها لتقوّض أحلامه دفعة واحدة؟! ولاحظت قلقه، فضحكت ضحكة لاهية، وقالت في دعابة وهي تومئ إلى رأسه:

ـ لا يبدو أنّك شرعت في تربية شعرك؟

فقال باقتضاب:

ـ كلّا...

ـ ألا يروقك ذٰلك؟

وهو يمطّ بوزه باستخفاف:

ـ كلّا ...

ـ قلنا لك إنّه أجمل...

ـ هل ينبغي للرجل أن يكون جميلًا...؟

فقالت باستغراب:

ـ طبعًا الجمال محبوب، سواء في الرجال والنساء...؟

همّ بأن يردّد محفوظاته مثل «جمال الرجل في أخلاقه» ألخ، ولكنّ غريزة من غرائزه أوحت إليه بأنّ مثل هٰذا القول ـ مع صدوره عن شخص في صورته ـ لن يلقى عند معبودته إلّا الهزء والسخرية، فقال وهو يعاني وخزًا في قلبه داراه بضحكة مصطنعة:

ـ لست من رأيك. . .

ـ أو لعلّك تنفر من الجمال كما تنفر من البيرة ولحم الخنزير!

فضحك ضحكة يعالج بها يأسه وقهره، فعادت تقول:

ـ الشّعر الطبيعيّ غطاء طبيعيّ أعتقد أنّ رأسك في حاجة إليه، ألا تعلم أنّ رأسك كبير جدًّا؟

ذو الرأسين! أنسيت ذٰلك النداء القديم؟. . . يا للتعاسة!

ـ هو كذٰلك. . .

ـ لمه؟. . .

أجاب وهو يهزّ رأسه في إنكار:

ـ سليه بنفسك فإنّني لا أدري.

ضحكت ضحكة خافتة، أعقبها صمت، معبودك جميل فاتن ساحر، ولكنّه ذو جبروت كما ينبغي له، ذُقْ جبروته وتلقّن شتّى أنواع الألم. ولم ترحمه فيما بدا، لم تزل عيناها الجميلتان تصعّدان البصر في وجهه وتصوّبان حتّى ثبتتا على. . .، أجل على أنفه!. . . هنالك وجد قشعريرة في أعماقه حتّى قفّ شعره وغضّ البصر وهو خائف يترقّب، وسمعها تضحك، فرفع عينيه وهو يتساءل:

ـ ماذا يُضحكك؟

ـ ذكرت أمورًا مثيرة طالعتها في مسرحيّة فرنسيّة معروفة، ألم تقرأ «سيرانو دي برجراك؟».

أنسب الأوقات للاستخفاف بالألم وقت يزيد فيه الألم عن حدّه، قال بهدوء واستهانة:

ـ لا داعي للمداراة، أنا أعرف أنّ أنفي أكبر من رأسي، ولكن أرجو ألّا تسألي مرّة أخرى «لمه؟» سليه بنفسك إن شئت. . .!

وإذا ببدور تمدّ يدها فجأة فتقبض على أنفه، فأغرقت عايدة في الضحك وهي تميل برأسها إلى الوراء، ولم يملك هو أيضًا إلّا أن يضحك، ثمّ سأل بدور مداراة لارتباكه:

ـ وأنت يا بدور، هل هالَكِ أنفي؟!. . .

وترامى إليهم صوت حسين وهو يهبط سلّم الفراندا، فغيّرت عايدة من لهجتها فجأة، وقالت له بصوت جمع بين الرجاء والتحذير:

ـ إيّاك أن تزعل من مزاحي!. . .

عاد حسين إلى الكشك، فجلس على كرسيّه داعيًا كمال إلى الجلوس فاقتدى به ـ بعد تردّد ـ واضعًا بدور على حجره، غير أنّ عايدة لم تلبث بعد ذٰلك إلّا قليلًا فأخذت بدور وحيّتهما، ثمّ انصرفت وهي تلحظ كمال بنظرة ذات معنى خاصّ، وكأنّما تكرّر تحذيره من الزعل، لم يجد من نفسه أيّ رغبة في استئناف الحديث فاكتفى بالإصغاء أو بالتظاهر بالإصغاء مع المشاركة فيه بين حين وآخر بسؤال أو تعجّب أو استحسان أو استهجان لإثبات وجوده ليس إلّا، وكان من حسن حظّه أن عاد حسين إلى طرق موضوع قديم لا يتطلّب انتباهًا أكثر ممّا عنده، وهو رغبته في السفر إلى فرنسا ومعارضه أبيه التي يأمل في التغلّب عليها قريبًا. أمّا الذي كان يشغل قلبه وفكره معًا فهو ذٰلك المظهر الجديد الذي تبدّت به عايدة في الدقائق التي جمعت بينهما على انفراد أو على شبه انفراد، ذٰلك المظهر الموسوم بالاستخفاف والسخرية والقسوة، أجل القسوة! فقد عبثت به بدون رحمة وأعملت فيه دعابتها كما يُعمِل المصوِّر ريشته في الخلقة الآدميّة ليستخرج منها صورة كاريكاتوريّة فذّة في قبحها وصدقها معًا!. ذكر ذٰلك المظهر ذاهلًا، ومع أنّ الألم كان يسري في روحه كما يسري السمّ في الدم ناشرًا فيها ظلًّا ثقيلًا من القنوط والكآبة، فإنّه لم يجد في نفسه سخطًا أو غضبًا أو احتقارًا له، أليس هو صفة جديدة من صفاتها؟ بلى، لعلّه أن يكون غريبًا كولعها بالرطانة وشرب البيرة وأكل لحم الخنزير، ولكنّه ككلّ أولٰئك صفة منسوبة إلى ذاتها، خليقة بأن تتشرّف بهٰذا الانتساب وإن عُدّت في غيرها نقيصة أو استهتارًا أو

معصية، ولا ذنب لها هي أن نشأ عن صفة من صفاتها ألم في قلبه أو يأس في نفسه ما دام العيب عيبه هو لا عيبها هي، وهل كانت هي التي كبّرت رأسه أو غلّظت أنفه؟ أو هل تراها جارت بدعاباتها على الصدق والواقع؟ لم يحدث شيء من هٰذا فانتفى عنها الملام وحقّ عليه الألم، وعليه أن يتقبّله بتسليم صوفيّ كما يتقبّل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون إيمانًا بأنّه قضاء عادل مهما يكن من قسوته، وأنّه صادر عن معبود كامل لا مظنّة في صفة من صفاته أو إرادة من إراداته... هٰكذا خرج من التجربة القصيرة العنيفة التي صهرته منذ دقائق وهو أشدّ ما يكون ألـمًا وعذابًا ولٰكن دون أن ينال ذٰلك من قوّة حبّه وافتتانه بالحبيب!... الساعة يحظى بمعرفة ألم جديد، ألم الرضى بحكم قاسٍ قضى عليه بعدم الأهليّة، كما عرف من قبل ـ عن طريق الحبّ أيضًا ـ ألم الفراق وألم الإغضاء وألم الوداع وألم الشكّ وألم اليأس، وكما عرف أيضًا ألـمًا يُحتمل وألـمًا يُستلذّ وألـمًا لا يسكن مهما قدّم له من قرابين التأوّهات والدموع، كأنّما أحبّ ليتفقّه في معجم الألم، ولٰكنّه على التماع الشرر المتطاير من ارتطام آلامه يرى نفسه ويعرف أشياء، ليس الله والروح والمادّة ـ فحسب ـ ما يجب أن تعرفه، ما الحبّ؟... ما البغض؟... ما الجمال؟... ما القبح؟... ما المرأة؟... ما الرجل؟... كلّ أولٰئك يجب أن تعرف أيضًا، أقصى درجات الهلاك تماسّ أولى درجات النجاة، اذكر ضاحكًا أو اضحك ذاكرًا أنّك هممت بالإفضاء إليها بمكنون سرّك؟ اذكر باكيًا أنّ أحدب نوتردام ملأ حبيبته رعبًا وهو يحنو عليها مواسيًا، وأنّه ـ أحدب نوتردام ـ لم يستثر عطفها البريء إلّا وهو يلفظ آخر أنفاسه الأخيرة، «إيّاك أن تزعل من مزاحي»!. حتّى راحة اليأس تضنّ بها عليك، فليفصح المعبود عن ذات نفسه علّنا نخرج من جحيم الحيرة ونطمئنّ في قبر اليأس، هيهات أن يقتلع اليأس جذور الحبّ من قلبي، ولٰكنّه على أيّ حال مناجاة من كواذب الآمال!...

والتفت حسين نحوه ليسأله عن سرّ صمته، ولٰكنّه لمح ـ فيما بدا ـ شخصًا قادمًا، فأدار رأسه ثمّ هتف:

ـ ها هو حسن سليم قد أقبل، كم الساعة الآن؟

فالتفت كمال إلى الوراء، فرأى حسن مقبلًا نحو الكشك...

ـ ١٩ ـ

غادر حسن وكمال سراي آل شدّاد والساعة تدور في الواحدة، وهمّ كمال بافتراق عن صاحبه أمام باب القصر، ولٰكنّ الآخر قال له برجاء:

ـ هلّا تمشّيت معي قليلًا من الوقت...!

فلبّى كمال الدعوة عن طيب خاطر، وسارا في شارع السرايات جنبًا إلى جنب... كمال بقامته الطويلة، وحسن لا يكاد يبلغ رأسه منكب صاحبه، لم يكن يخلو من تساؤل!! خاصّة وأنّ الوقت لم يكن أنسب الأوقات للمشي الذي ليس وراءه هدف، وما يدري إلّا وحسن يلتفت إليه متسائلًا:

ـ فيم كنتما تتحدّثان؟

فأجاب كمال وهو يزداد تساؤلًا:

ـ في أمور شتّى كالعادة، سياسة... ثقافة ألخ...

فكانت مفاجأة حقًّا أن يقول له بصوته الهادئ المتّزن:

ـ أعني أنت وعايدة...!

فاستولت الدهشة على كمال، حتّى لبث ثواني لا يتكلّم، ثمّ تمالك نفسه فسأله:

ـ كيف عرفت هٰذا ولم تكن معنا؟

فقال حسن سليم دون أن يلوح في وجهه أيّ تغيير:

ـ جئت في أثناء حديثكما، فتراءى لي أن أذهب إلى حين حتّى لا أقطعه عليكما...

ترى أكان يسلك مسلكه لو وجد نفسه في موقفه؟ واشتدّت به الحيرة وخالطه شعور بأنّه مقبل على حديث مثير ذي شجون، قال:

ـ لا أدري ماذا حملك على ذٰلك التصرّف، ولو لمحتك ما تركتك تذهب...

ـ للّياقة أحكام! أعترف بأنّي شديد الحساسيّة في هٰذه الناحية. . .

آداب أرستقراطيّة!. . . أين أنت من إدراكها.

ـ لا تؤاخذني إذا صارحتك بأنّك تدقّق أكثر ممّا ينبغي. . .

ابتسم حسين ابتسامة خفيفة لم تمكث على شفتيه، ثمّ بدا كالمنتظِر، ولـمّا طال به الانتظار عاد يتساءل:

ـ نعم؟. . . فيما كنتما تتحدّثان؟

كيف إذن ارتضت آداب اللياقة مثل هٰذا الاستجواب؟! وفكّر لحظات في توجيه هٰذه الملاحظة إليه، غير أنّه دقّق في اختيار الصياغة الجديرة بالاحترام الذي يكنّه له ـ احترام يرجع إلى شخصيّته أكثر ممّا يرجع إلى سنّه ـ حتّى قال:

ـ المسألة أبسط من أن تحتاج إلى هٰذا كلّه، غير أنّي أتساءل عن مدى التزامي بالإجابة!

فبادره حسن قائلًا بلهجة المعتذِر:

ـ أرجو ألّا ترميني بلهجة المتطفّل أو بدسّ أنفي في خاصّ شئونك، فإنّ لديّ من الأسباب ما يبرّر هٰذا السؤال، وسوف أحدّثك عن أمور لم تعرض مناسبة تجعلني أحدّثك عنها من قبل، غير أنّي اعتقدت ـ اعتمادًا على ما بيننا من صداقة ـ أنّك لن تضيق بسؤالي، أرجو ألّا تفهم الأمر على غير هٰذا الوجه. . .!

خفّ التوتّر، ولعلّه سُرَّ لتلقّي هٰذا الكلام الرقيق عن حسن سليم بالذات، الشخص الذي طالما رآه مثالًا للأرستقراطيّة والنبل والكبرياء، فضلًا عن أنّه كان أرغب منه في استنفاد أوجه الحديث عن أمر يتعلّق بمعبودته. لو كان إسماعيل لطيف هو صاحب السؤال ما احتاج الأمر إلى شيء من هٰذا اللفّ والدوران حول ما يجب وما لا يجب وما يليق وما لا يليق، وربّما كان أفضى إليه بكلّ شيء وهما يتضاحكان، ولٰكنّ حسن سليم لا يخرج عن تحفّظه أبدًا ولا يخلط بين الصداقة ورفع الكلفة، فلا بأس من أن يؤدّي ثمن تحفّظه! قال:

ـ أشكرك على حسن ظنّك، وثق بأنّه لو كان ثمّة ما يستحقّ أن أخبرك به ما كتمته عنك، ليس إلّا أنّنا تكلّمنا بعض الوقت في شئون عاديّة وهٰذا كلّ ما هنالك، غير أنّك أيقظت حبّ الاستطلاع في نفسي فهل لي أن أسألك ـ ولو من باب العلم بالشيء ـ عن الأسباب التي تراها مبرّرة لسؤالك؟. لست ألحّ بطبيعة الحال، بل إنّي على أتمّ الاستعداد للنزول عن سؤالي إذا لم يصادف منك قبولًا. . .!

قال حسن سليم بهدوئه واتّزانه المألوفين:

ـ سأحدّثك عمّا تسأل عنه، ولٰكن أرجو أن تنتظر قليلًا، يبدو أنّك لا تودّ إخباري عمّا دار بينكما من حديث، وهٰذا حقّك لا ريب فيه، بل لا أجد فيه إخلالًا بواجب الصداقة، ولٰكنّي أودّ أن ألفت نظرك إلى أنّ كثيرين يُخدعون بحديث عايدة ويفسّرونه تفسيرًا لا يمتّ للواقع بسبب، وربّما أحدثوا لأنفسهم بسبب ذٰلك متاعب لا داعي لها. . .!

أفصِحْ عمّا تريد قوله، في الجوّ نذر تجهُّم لا يلبث أن ينقلب إعصارًا فيعصف بقلبك المطعون، كأنّ به موضعًا سليمًا لم يُطعن!. أنت أنت المخدوع يا صاح، ألا تدري أنّه الحياء وحده الذي يمنعني من أن أفضي إليك بما كان؟! فلتصعقني الصواعق إن أرحت لك بالًا!.

ـ لم أفهم ممّا قلت حرفًا. . .!

علا صوت حسن قليلًا، وهو يقول:

ـ لسانها يجود في يسر بألطف الكلام، فيحسبه السامع ذا مغزى أو أنّ وراءه عاطفة ما، ولٰكنّه محض كلام لطيف تخاطِب به كلّ من يحادثها سرًّا أو جهرًا!. وكم خدع كثيرين. . .!

برح الخفاء، صاحبك مصاب بالداء الذي هصرك! من يكون حتّى يدّعي العلم بالبواطن؟! شدّ ما يثير حنقي! قال باسمًا وهو يتظاهر بعدم الاكتراث:

ـ يبدو أنّك واثق ممّا تقول!؟

ـ إنّي أعرف عايدة حقّ المعرفة، نحن جيران منذ بعيد. . .

الاسم الذي يهاب النطق به في السرّ فضلًا عن الجهر ينطق به هٰذا الشابّ المفتون بلا مبالاة، كأنّه

اسم فرد من غمار الملايين!. هٰذه الجرأة فيه تخفضه في قلبه درجات وترفعه في خياله درجات، وجملة «نحن جيران منذ بعيد» حزّت في قلبه كالخنجر فأطاحت به كما تطيح النوى بالغريب. سأله بلهجة مؤدّبة وإن لم يخلُ مدلولها من سخرية:

ـ ألا يجوز أن تكون خُدعت أيضًا كالآخرين؟.

فتراجع رأس حسن في كبرياء، وهو يقول في يقين:

ـ لستُ كالآخرين. . . !

شدّ ما أحنقه عطرسته، شدّ ما أحنقه جماله وثقته بنفسه، هٰذا الابن المدلّل للمستشار الخطير الذي ترتقي الشبهات إلى أحكامه السياسيّة! وندّت عن حسن «هه» كأنّه ذيل ضحكة وإن لم تضحك أساريره، أراد أن يمهّد بها للانتقال من طبقة صوتيّة متغطرسة إلى طبقة أخرى لطيفة، ثمّ قال:

ـ إنّها فتاة ممتازة لا تشوبها شائبة، ولو أنّ مظهرها وحديثها وأنسها تجرّ عليها الظنون أحيانًا!

فبادره كمال قائلًا بحماس:

ـ إنّ مظهرها ومخبرها على السواء لفوق كلّ ظنّ!

فحنى حسن رأسه بامتنان كأنّما يقول له «أحسنت»، ثمّ قال:

ـ هٰذا ما ينبغي أن تراه عين بصيرة سليمة، غير أنّ ثمّة أمورًا تحيّر بعض الأفهام، سأضرب لك أمثلة على سبيل التوضيح: إنّ البعض يسيء فهم اختلاطها في الحديقة بأصدقاء أخيها حسين، نابذة ما جرت به التقاليد الشرقيّة، والبعض الآخر يقف متسائلًا حيال محادثتها لهٰذا وملاطفتها لذاك، وآخرون يتوهّمون وراء الدعابة اللطيفة ـ تصدر عنها عفوًا ـ سرًّا خطيرًا، هل أدركت ما أعني؟!

فقال كمال بنفس الحماس السابق:

ـ إنّي أدرك ما تعني طبعًا، ولكنّي أخشى أن تكون مغاليًا في ظنونك، عنّي أنا شخصيًّا لم يساورني شكّ قطّ في أيّ تصرّف من تصرّفاتها، لأنّ أحاديثها ودعابتها ظاهرة البراءة، ولأنّها من ناحية أخرى لم تتلقّ تربية شرقيّة خالصة حتّى تطالَب بالمحافظة على التقاليد أو تؤاخَذ على الخروج عليها، وأظنّ أنّ هٰذا هو رأي الآخرين أيضًا. . .

هزّ حسن رأسه كأنّما يتمنّى لو يستطيع أن يؤمن برأيه في «الآخرين»، غير أنّ كمال لم يعنَ بالتعليق على ملاحظته الصامتة، كان سعيدًا بالدفاع عن معبودته، سعيدًا بالفرصة التي تهيّأت له لإعلان رأيه في طهارتها وبراءتها، أجل لم يكن صادقًا في حماسه، لا لأنّه كان يبطن غير ما يعلن ـ فطالما آمن بأنّ معبودته فوق منال الشبهات ـ ولٰكن حزنًا على الأحلام السعيدة التي قامت على افتراض وجود «سرّ» وراء دعابات المعبودة وتلميحاتها الرقيقة، إنّ حسن يبدّد تلك الأحلام كما بدّدها حديث اليوم تحت الكشك، ومع أنّ قلبه المكلوم كان يجاهد سرًّا للاستمساك ولو بخيط واهٍ من خيوط الأمل، فإنّه جارى حسن سليم مجاراة المؤمن برأيه تغطية لموقفه ومداراة لهزيمته وإبطالًا لادّعاء الآخر بأنّه «العارف» وحده لحقيقة المعبودة! عاد حسن يقول:

ـ لا غرابة في أن تدرك هٰذا فإنّك شابّ لبيب، الواقع كما قلت إنّ عايدة بريئة ولٰكن. . . معذرة إذا صارحتك بخصلة فيها ربّما بدت غريبة في عينيك، وربّما كانت مسئولة لحدّ كبير عن سوء فهم الكثيرين لها، أعني شغفها بأن تكون «فتاة أحلام» كلّ من يتّصل بها من الشباب!. . . لا تنس أنّه شغف بريء، فإنّني أشهد بأنّني لم أصادف فتاة أحفظ لكرامتها منها، ولكنّها مولعة بقراءة الروايات الفرنسيّة، كثيرة التحدّث عن بطلاتها، مفعمة الرأس بالخيال!.

ابتسم كمال ابتسامة مطمئنّة أراد بها عن أنّه لم يسمع جديدًا فيما قال صاحبه، ثمّ قال مدفوعًا برغبة في إغاظته:

ـ عرفت هٰذا كلّه من قبل، دار حديثنا يومًا ـ أنا وحسين وهي ـ عن الموضوع ذاته!

تمكّن أخيرًا أن يخرجه عن وقاره الأرستقراطيّ، فنطقت أساريره بالدهش وتساءل كالمنزعج:

ـ متى كان ذٰلك؟ لا أذكر أنّني حضرت هٰذا الحديث! هل قيل أمام عايدة أنّها تودّ أن تكون «فتاة أحلام» كلّ شابّ؟. . .

رمق كمال ما طرأ عليه من تغيّر بعين الظفر

والارتياح، غير أنّه أشفق من التمادي، فقال بحذر:

ـ لم يرد ذكر هٰذا بلفظه ولٰكن بالمعنى الذي يؤدّي إليه خلال حديث دار حول ولعها بالروايات الفرنسيّة وإغراقها في الخيال!

استردّ حسن هدوءه واتّزانه، ولـزم الصمت مليًّا كأنّه يحاول أن يستجمع فكـره الذي نجح كمال في تشتيته إلى حين، وبدا كالمتردّد لحظات حتّى شعر كمال بأنّه يودّ أن يعرف كلّ شيء عن الحديث الذي دار بينه وبين عايدة وحسين، متى وقع؟! ماذا جعلهم يطرقون هٰذه الشئون الحسّاسة؟! وما تفصيل ما قيل فيه؟! لولا أنّ كبرياءه كان يمنعه من السؤال، وأخيرًا قال:

ـ ها أنت نفسك تشهد لصدق رأيي، ولٰكن من سوء الحظّ أنّ كثيرين لم يفهموا سلوك عايدة كما فهمته أنت، فلم يفطنوا إلى حقيقة هامّة وهي أنّها تحبّ حبّ الشخص لها لا الشخص نفسه!

لـو اطّلع الأحمق على الواقع مـا تجشّم كلّ هٰـذا التعب الضائع، ألا يعلم بأنّني لا أطمع حتّى في أن تحبّ حبّي؟ انـظر إلى رأسي وأنفي وانعم بالًا! قـال بصوت لم يخلُ من تهكّم:

ـ تحبّ حبّ الشخص لها لا الشخص نفسه! يا لها من فلسفة!

ـ هي حقيقة أنا بها عليم!

ـ ولٰكنّك لا تستطيع أن تضمن صدقهـا في جميع الأحوال!؟

ـ بلى أستطيع وأنا مغمض العينين.

غالَبَ كمال حزنه وهو يتساءل متظاهرًا بالدهش:

ـ أتستطيع أن تؤكّـد عن يقين أنّها لا تحبّ هٰـذا الشخص أو ذاك؟

فقال حسن بثقة واطمئنان:

ـ أستطيع أن أؤكّد أنّها لم تحبّ أحدًا ممّن يتوهّمون أحيانًا أنّها تحبّهم!

اثنان يحقّ لهما أن يتكلّما بهٰذه الثقة: المؤمن والأحمق، وهو ليس بالأحمق، ترى لِمَ يتحرّك الألم ولا جديد فيما سمعت؟! الحقّ أنّي تألّمت اليوم تـألُّم عام من أعـوام الحبّ.

ـ ولٰكنّك لا تستطيع أن تؤكّد أنّها لا تحبّ إطلاقًا؟!

ـ لم يقل هٰذا. . .

فرمقه بالعين التي يتطلّع بها الإنسان إلى العرّاف، ثمّ سأله:

ـ أتدري إذن أنّها تحبّ؟

فحنى رأسه بالإيجاب، وقال:

ـ إنّما دعوتك إلى المشي لأحدّثك عن هٰذا. . . !

غاص قلبه في أعماق صدره كأنّما يحاول الفرار من الألم ولٰكنّه غرق في عباب الألم، كان قبل ذٰلك يتألّم لأنّها لا يمكن أن تحبّه، ها هو معذِّبـه يؤكّد لـه أنّها تحبّ. . . إنّ المعبـودة تحبّ! . . . إنّ قلبها الملائكيّ يخضع لنواميس الشوق والحنين والرغبة واللهفة الموجّهة جميعًا إلى شخص معيّن! أجل كان عقله ـ لا شعوره ـ يسلّم أحيانًا بإمكان ذٰلـك، ولٰكن كما يسلّم بـالموت كفكرة مجرّدة لا كحقيقة باردة ناشبة في جسد عزيز أو في جسده هو بالذات، لذٰلك فاجاه الخبر كأنّه يتحقق لأوّل مرّة في الوجود والفكر معًا، تأمّل هٰذه الحقائق جميعًا واعترف بأنّ ثمّة آلامًا في هٰذه الدنيا لم تخطر لك على بال رغم خبرتك العميقة بالألم، استطرد حسن قائلًا:

ـ قلت لك من بادئ الأمر إنّ لديّ من الأسباب ما يـبرّر هٰذا الحـديث معـك، وإلّا مـا سمحت لنفسي بالتدخّل في خاصّ شئونك. . .

ينبغي أن تلتهمه النار المقدّسة حتّى آخر ذرّة من رماد.

ـ إنّي مقتنع بما تقول، وها أنا مصغٍ إليك. . .

ابتسم حسن ابتسامة خفيفـة أوحت بتردّده حيـال الكلمة الأخيرة الفـاصلة، فصبر كـمال، ثمّ تعجّله ـ رغم أنّ قلبه استشفّ الحقيقة المفجعة ـ قائلًا:

ـ قلت إنّك تدري أنّها تحبّ. . . ؟!

فنبذ حسن التردّد قائلًا:

ـ نعم، يوجد بيننا ما يجعل لي الحقّ في ادّعاء ما قلت. . . !

عايدة تحبّ أيّتهـا السماوات! أوتـار قلبك تنقبض باعثة لحنًا جنائزيًّا، هل يكنّ قلبها لهٰذا الشابّ السعيد

مثل ما يكنّه لها قلبك، إن صحّ أنّ هٰذا من الممكنات فأحرى بالعالم أن يتصدّع، ليس صاحبك بكاذب لأنّ النبيل الجميل لا يكذب، فصارى أملك أن يكون حبّها من جنس خلاف حبّك، وإذا لم يكن من الفاجعة بدّ فمن العزاء أن يكون حسن هو المحبوب، من العزاء أيضًا أنّ الحزن والغيرة لا يطمسان الحقيقة أمام عينيك، هٰذا الغنى الساحر العجيب! قال كالذي يضغط على زناد المسدّس وهو يعلم أنّه فارغ:

ـ يبدو أنّك مطمئنّ إلى أنّها تحبّ ـ هٰذه المرّة ـ الشخص نفسه لا حبّ الشخص لها!

فندّت عنه «هه» مرّة أخرى ليعرب بها عن ثقته. ولمحه بنظرة سريعة ليرى مدى إيمانه بما يقول، ثمّ قال:

ـ لم يكن حديثنا قطّ ـ أنا وهي ـ من النوع الذي يحتمل معنيين!

أيّ نوع من الحديث هو؟ حياتي كلّها أهبها ثمنًا لكلمة منه، أعرف الحقيقة كلّها وأتجرّع العذاب حتّى الثمالة، ترى هل سمع الصوت المطرب وهو يقول له «أحبّك»؟ بالفرنسيّة قالها أم بالعربيّة؟ بمثل هٰذا العذاب تشتعل النيران، قال بهدوء:

ـ أهنّئك، كلاكما فيما أرى جدير بصاحبه!

ـ شكرًا. . .

ـ غير أنّي أتساءل عمّا دعاك إلى الإفضاء إليّ بهٰذا السرّ الثمين؟

فرفع حاجبيه حسن، وهو يقول:

ـ لـمّا وجدتكما تتحدّثان على انفراد أشفقت أن تُخدع ببعض القول كما خُدع كثيرون، فصمّمت على مصارحتك بالحقيقة، لأنّي كرهت فكرة انخداعك أنت بالذات. . . !

غمغم كمال قائلًا «شكرًا» تأثّرًا بالعطف السامي، عطف الشابّ الموهوب الذي تحبّه عايدة، الذي كره له الانخداع فقتله بالحقيقة، ترى ألم تكن أوهام الغيرة بين البواعث التي أغرته بمصارحته بسرّه؟ ولٰكن أليس له عينان يرى بهما رأسه وأنفه؟! استطرد حسن قائلًا:

ـ إنّها ووالدتها كثيرًا ما تزوران بيتنا، وهناك تسنح لنا فرص للحديث. . .

ـ على انفراد؟

أفلتت العبارة منه بلا وعي، فارتبك نادمًا وتورّد وجهه، ولٰكنّ الآخر قال ببساطة:

ـ أحيانًا . . .

كم يودّ أن يراها في هٰذا الدور ـ دور المحبّة ـ الذي لم يخطر له في خيال، كيف تتجلّى في العين الساجية التي تلقي إليه بنظرتها من عَلُ لمعة الوجد والحنان؟ منظر يضيء العقل بقبس من الحقيقة المقدّسة ويقتل القلب قتلًا، بهٰذا تُستباح لعنة الكفر الأبديّة، روحك يتململ كطائر سجين يودّ أن ينطلق، العالم ملتقى خرابات يستعذب عنه الرحيل، لٰكنّك حتّى إذا صحّ عندك أنّ الشفاه تلاقت في قبلة ورديّة فلن تُعدم في دوّامة الجنون لذّة الحرّيّة المطلقة، وسأله مدفوعًا برغبة انتحاريّة لم يستطع مقاومتها فضلًا عن فهمها:

ـ كيف إذن توافق على اختلاطها بأصدقاء حسين؟

تريّث حسن قليلًا قبل أن يجيب قائلًا:

ـ لعلّي لا أرتاح إلى ذٰلك كلّ الارتياح، ولٰكنّي لا أجد فيه مأخذًا وهي تمارسه على مرأى من أخيها ومن الجميع وبحكم تربيتها الأوربيّة، ولا أخفي عليك أنّي فكّرت أحيانًا في مكاشفتها بامتعاضي ولٰكنّي كرهت أن ترميني بالغيرة، وكم تودّ لو تثير غيرتي! أنت تعرف طبعًا هٰذه الحيل النسائيّة وأعترف لك بأنّي لا أستسيغها. . .

لا عجب أنّ إثبات دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس قد أطاح بأوهام ودوّخ رءوسًا.

ـ كأنّها تتعمّد مضايقتك!

فقال حسن بلهجته الناطقة بالثقة:

ـ على أنّه في وسعي دائمًا أن أحملها على الإذعان لمشيئتي إذا أردت!

أثارته هٰذه الجملة واللهجة التي قيلت بها إلى حدّ الجنون، وتمنّى لو يجد سببًا يعتلّ به على ضربه ليمرّغه ـ وإنّه لقادر ـ في التراب، ولحظه من عَلُ فلاح له الفارق بين طوليهما أكثر من الواقع بكثير، لِمَ لم تحبّ أيضًا الذي دونها سنًّا؟ وآمن قلبه بأنّه خسر الدنيا.

ودعاه حسن إلى تناول الغداء على مائدته، فاعتذر شاكرًا، ثمّ تصافحا وافترقا.

عاد فاتر النفس مثقل القلب بالقنوط، وكان يودّ أن يخلو إلى نفسه ليحتضن أحداث يومه متأمّلًا حتّى يستصفي معانيها كلّها، بدت الحياة متلفّعة بشوب حداد، ولكن ألم يكن يعلم من أوّل الأمر أنّ هذا الحبّ ضائع؟ فأيّ جديد جلجلت به الحوادث؟ على أيّ حال ليكن عزاؤه أنّ الآخرين يتكلّمون عن الحبّ، أمّا هو فيحبّ ملء قلبه. إنّ الحبّ الذي ينوّر روحه لا يستطيعه أحد سواه، فهذا هو امتيازه وتفوّقه، ولن يتخلّى عن حلمه القديم بأن يظفر بمعبودته في السماء، في السماء حيث لا فوارق مصطنعة ولا رأس كبير ولا أنف غليظ، في السماء ستكون عايدة لي وحدي بحكم قوانين السماء...

- ٢٠ -

كأنّه لم يعد له وجود، تجاهلته بحال لا يمكن أن يتأتّى إلّا عن تعمّد، فطن إلى ذلك أوّل ما فطن إليه صباح الجمعة التالي - بعد مضيّ أسبوع على حديث حسن سليم بشارع السرايات - في اجتماع الأصدقاء بكشك الحديقة بسراي آل شدّاد. كانوا يتحدّثون فجاءت عايدة كعادتها مصطحبة بدور، لبثت عندهم قليلًا تخاطب هذا وتداعب ذاك دون أن تعيره التفاتًا، فظنّ أوّل وهلة أنّ دوره سيجيء. ولكن طال به الترقّب، ولاحظ إلى هذا أنّ عينيها لا تريدان أن تلتقيا بعينيه أو لعلّهما تجتنباه فخرج عن موقفه السلبيّ واعترض حديثها بملاحظة عابرة ليحملها على مخاطبته، ولكنّها واصلت الحديث متجاهلة إيّاه، ومع أنّ أحدًا لم يتنبّه فيما بدا إلى مناوراته الفاشلة - لانهماكهم في الحديث المحبوب - فإنّ ذلك لم يخفّف من وقع اللطمة التي تلقّاها من غير أن يدرك لها سببًا، غير أنّه مال إلى تكذيب ما قام بنفسه وداری شكوكه، وجعل يتحيّن الفرص لتجربة حظّه من جديد وهو من الإشفاق في غاية، وإذا ببدور تحاول الإفلات من يد عايدة ملوّحة له بيدها المطلقة، فتقدّم منها ليأخذها بين ذراعيه، ولكنّ عايدة جذبتها نحوها وهي تقول: «آنَ لنا أن نذهب»، ثمّ حيّتهم ومضت إلى حال سبيلها!

آه، ما معنى هذا؟ إنّ عايدة غضبانة عليه وما أرادت بمجيئها إلّا أن تعالنه بغضبها، ولكن فيم آخذته؟ أيّ ذنب جنى؟ أيّ هفوة كبيرة أو صغيرة أتى؟ يا لها من حيرة هزئت بمنطقه وشتّتت يقينه، بيد أنّه قبض على زمام نفسه بيد قويّة أن تفضحه شجونه، وكان على ضبط النفس قادرًا، فمثّل دوره المألوف تمثيلًا حسنًا وواری أثر الضربة القاصمة عن أعين الصحاب، وقال لنفسه بعد تقوّض المجلس: إنّه يحسن به أن يواجه الحقيقة مهما تكن قاسية، وأن يسلّم بأنّ عايدة حرمته - اليوم على الأقلّ - من نعمة صداقتها... إنّ في قلبه العاشق مسجّلًا كهربائيًّا دقيقًا لا يترك للحبيب همسة أو خطرة أو لمحة إلّا سجّلها. حتّى النوايا يطّلع عليها وحتّى الآتي البعيد يبتدهه، ليكن السبب ما يكون أو ليكن الأمر بلا سبب كمرض استعصى على الطبّ سرّه، فإنّه في الحالين يرى كأنّه ورقة شجر انتزعتها ريح عاتية من فنن غصن وألقت بها في غثّ النفايات.

ووجد فكره يحوم حول حسن سليم، ألم يختم حديثه معه بقوله «على أنّه في وسعي دائمًا أن أحملها على الإذعان لمشيئتي إذا أردت»؟ ولكنّها جاءت اليوم كعادتها، إنّ بلواه من تجاهلها إيّاه لا من غيابها، ثمّ إنّه وحسن افترقا على صفاء، وليس ثمّة ما يدعو حسن إلى مطالبتها بتجاهله، وليست هي بالتي تمتثل أمر إنسان مهما يكن شأنه، وليس هو بالمذنب، فما سرّ التجنّي يا ربّ السماوات؟! إنّ لقاء الكشك - بينه وبينها - على قسوته وعبثه الجارح برأسه وأنفه وكرامته لم يخلُ من مودّة ودعابة ثمّ خُتم بما يشبه الاعتذار، ربّما يكون قد قضى على أمله في الحبّ ولكنّه لم يكن في حبّه أمل، أمّا لقاء اليوم فابتلاه بالتجاهل، بالنبذ، بالصمت، بالموت، ولأن يجفو الحبيب أو يقسو خير على أيّ حال من أن يمرّ بعابده وكأنّه شيء لم يكن، يا للتعاسة! ألم جديد يضاف إلى معجم الآلام الذي

يحمله على صدره، ضريبة جديدة للحبّ، وما أفدح ضرائبه، يؤدّي بها ثمن النور الذي يضيئه ويحرقه.

واحتقن بالغضب صدره، عزّ عليه جدًا ألّا يحظى على حبّه العظيم إلّا بهٰذا الإعراض البارد المتعجرف، وحزّ في نفسه ألّا يتمخّض غضبه إلّا عن الحبّ والولاء، وألّا يردّ اللطمة إلّا بالابتهال والدعاء، ولو كان المتجنّي عليها شخصًا آخر ولو كان حسين شدّاد نفسه لقطعه دون تردّد، أمّا وهو المعبود فقد رُدّت شظايا الغضب إلى نحره، وانصبّت العداوة على هدف واحد هو نفسه، فنزعت به الرغبة في الانتقام إلى إنزال العقاب بالجاني ـ الذي هو نفسه ـ قضى عليها بالحرمان من الدنيا، وامتلأ بشعور عنيد محزون أملى عليه الإعراض عنها إلى الأبد! رضي فيما رضي بصداقتها، بل اعتبرها فوق أحلام مطمعه بالرغم من أنّ قوّة حبّه تضيق عنها السماوات والأرض، ورضي أكثر من هٰذا باليأس من حبّها قانعًا من عربدة الأماني بابتسامة حلوة أو كلمة رقيقة ولو تكون ابتسامة الوداع وكلمته، غير أنّ التجاهل أحزنه وأذهله وخبله ثمّ من الدنيا جميعًا نبذه، ولعلّه أتاح له أن يشعر بشعور الميت لو كان ميت يشعر، لم ترحمه الفكر ساعة من ساعات يقظته طول الأسبوع الذي قضاه بعيدًا عن قصر آل شدّاد، وتهالك شعوره في اجترار الخيبة التي قرعته لحظة بعد أخرى، وهو في البيت صباحًا يفطر على مائدة أبيه، وهو في الطريق يسير بحواسّ زائغة، وهو في مدرسة المعلّمين يسمع بعقل غائب، وهو يقرأ مساء بانتباه مشتّت، وهو يتذلّل للنوم كي يقبله في ملكوته، ثمّ وهو يفتح عينيه في الصباح الباكر فإذا بالفكر تتخاطفه كأنّما كانت على عتبة الوعي ترصده أو كأنّما هي التي طرقته بجزع النهم كي تواصل التهامه كرّة أخرى، ألا ما أفظع النفس إذا خانت صاحبها!...

ويوم الجمعة ذهب إلى قصر الحبّ والعذاب، فبلغه قبل الميعاد المعتاد بقليل. لماذا ترقّب هٰذا اليوم بصبر نافد؟ ماذا يرجو عنده؟ هل يطمع أن يجد ولو نبضًا بطيئًا ضعيفًا ليوهم نفسه بأنّ جثّة الأمل لم تفارقها الحياة بعد؟ هل يحلم بمعجزة تردّ معبوده إلى الرضى على غير انتظار وبلا سبب كما غضب على غير انتظار وبلا سبب؟ أو أنّه يستزيد من الجحيم نارًا ظمأً إلى برودة الرماد؟! سار في ممرّ الذكريات إلى الحديقة، وإذا به يرى عايدة جالسة على كرسيّ واضعة بدور على حافة المائدة أمامها، وليس في الكشك سواها أحد! توقّف عن المسير وفكّر في العودة إلى الخلوج قبل أن تلتفت ناحيته، ولٰكنّه نبذ هٰذه الفكرة بتحدّ وازدراء، وتقدّم صوب الكشك تدفعه رغبة شديدة في مواجهة العذاب وكشف النقاب عن اللغز الذي فتك بأمنه وسلامه، هٰذا الكائن اللطيف الجميل، هٰذا الروح الشفّاف المتنكّر في فستان امرأة، هل يدري ماذا فعل به جفاه؟ هل ينام ضميره قرير العين لو شكا إليه ما عاناه، ما أشبه استبداده باستبداد الشمس بالأرض الذي قضي عليها بأن تدور حولها في دائرة مرسومة ـ لا تقترب منها فتندمج ولا تبتعد عنها فتنتهي ـ إلى الأبد! لو تجود بابتسامة فيتداوى بها من آلامه جميعًا!؟ وكان يقترب منها متعمّدًا أن يُحدث في مشيته صوتًا لتنبيهها، فأدارت رأسها نحوه كالمتسائلة، ثمّ لم تفصح أساريرها عن شيء، فوقف على بعد ذراعين من مجلسها، وحنى رأسه في خشوع، وقال باسمًا:

ـ صباح الخير...

فحنت رأسها حنوة صغيرة، ولٰكنّها لم تنبس، ثمّ نظرت فيما أمامها.

لم يعد ثمّة شكّ في أنّ الأمل جثّة هامدة، وخيّل إليه أنّها ستصيح به «اذهب عنّي برأسك وأنفك حتّى لا يحجبا عنّي ضوء الشمس!»، غير أنّ بدور لوّحت له بيدها، فمالت عيناه إلى وجهها الجميل المشرق ومضى نحوها ليداري في عطفها البريء هزيمته فتعلّقت بذراعيه، فهوى رأسه إليها وقبّل خدّها قبلة حنان وامتنان، وإذا بالصوت الذي فتح له فيما مضى أبواب الموسيقى الإلٰهيّة يقول بجفاء:

ـ من فضلك لا تقبّلها، القبلة تحيّة غير صحّيّة...!

ندّت عنه ضحكة حائرة لم يدرِ كيف ولا لِمَ ندّت، ثمّ امتقع لونه، وبعد دقيقة واجمة ذاهلة قال منكرًا:

ـ إنّها ليست القبلة الأولى فيها أذكر!

فرفعت كتفيها كأنّما تقول «هٰذا لا يغيّر من الحقيقة شيئًا». آه، أيمضي إلى أسبوع جديد من العذاب دون أن ينطق بكلمة دفاعًا عن نفسه؟

ـ اسمحي لي أن أتساءل عن سرّ هٰذا التغيّر الغريب، فقد جعلت أتساءل عنه طوال الأسبوع الماضي دون أن أظفر بجواب!؟

لم يبدُ عليها أنّها سمعته، وبالتالي لم تعنَ بالردّ عليه، فعاد يقول وقد وشى صوته بحيرته وألمه:

ـ إنّ ما يحزنني حقًّا هو أنّي بريء لم أجنِ ما أستحقّ عليه العقاب!

ولم تزل مصرّة على الصمت، فخاف أن يجيء حسين قبل أن يستدرجها إلى الكلام، فبادر يقول بلهجة جمعت بين التشكّي والترجّي:

ـ ألا يستحقّ صديق قديم مثلي أن يكاشف على الأقلّ بذنبه؟

فرفعت نحوه جانب رأسها، ولحظته بنظرة مكفهرّة اكفهرار السحاب المنذر بالمطر، ثمّ قالت بلهجة غاضبة:

ـ لا تدّعِ البراءة الكاذبة...!

يا ربّ السماوات هل تُرتكب الذنوب بلا وعي من الجاني؟! قال في نبرات متدافعة، وهو يربّت بحركة آليّة يدَي بدور التي حاولت أن تجذبه إليها وهي لا تدرك ممّا يدور شيئًا:

ـ صدقت ظنوني واأسفاه! هٰذا ما حدّثني به قلبي فكذّبته، إنّي مذنب في نظرك، أليس كذٰلك؟ ولٰكن بأيّ ذنب تتّهمينني؟! خبّريني وحياتك، لا تنتظري أن أكون البادئ بالاعتراف لسبب بسيط، وهو أنّني لم أجنِ شيئًا يستحقّ الاعتراف، مهما أنقّب في زوايا نفسي وحياتي وتاريخي فلن أعثر على نيّة أو كلمة أو فعل وُجّه ضدّك بسوء، إنّي أعجب كيف لا تأخذين هٰذا مأخذ البديهيّات من الأمور؟!

فقالت بازدراء:

ـ لست ممّن يؤثّر فيهنّ التمثيل، سَلْ نفسك عمّا قلت عنّي!

فقال بانزعاج:

ـ ماذا قلت عنك؟ ولمن قلته؟ أقسم لك...

فقاطعته بضيق قائلة:

ـ لا يهمّني القسم في كثير أو قليل، وفّره لنفسك، إنّ الذي يغتاب الناس لا يؤتمن على قَسَم، المهمّ أن تذكر ماذا قلت عنّي...!

رمى بمعطفه على مقعد كأنّما ليأخذ كامل أهبته للنضال، وابتعد خطوة عن بدور ليتخلّص من محاولتها البريئة في الاستئثار بانتباهه، ثمّ قال بحرارة ناطقة بالصدق:

ـ لم أقل عنك كلمة أخجل من إعادتها الآن على مسمعك، لم أتفوّه عنك بكلمة سوء في حياتي وما كان ذٰلك في وسعي لو تعلمين، وإذا كان «بعضهم» قد أبلغك عنّي ما أغضبك، فهو واشٍ حقير لا يستحقّ ثقتك، وإنّي على استعداد لمواجهته أمامك لتري بنفسك مبلغ صدقه أو بالحريّ مدى كذبه. ماذا بك من عيب حتّى أتحدّث به؟! لشدّ ما أساتِ بي الظنّ!

فقالت بتهكّم:

ـ شكرًا على هٰذا الثناء الذي لا أستحقّه، لا أظنّني أخلو من نقص، على الأقلّ فإنّي لم أتلقَّ تربية شرقيّة خالصة!

نشبت هٰذه الجملة الأخيرة في انتباهه، فذكر كيف وردت على لسانه وهو يحاور حسن سليم دافعًا الشبهات عن معبودته، فهل يكون حسن أعادها بطريقة أثارت الشكّ في حُسْن مقصده؟! حسن سليم النبيل؟ هل يتأتّى هٰذا حقًّا؟ شدّ ما يدور رأسه! قال وعيناه تنطقان بالدهش والأسف:

ـ ماذا تقصدين؟! أعترف لك بأنّي قائل هٰذه الجملة، ولٰكن سلي حسن سليم يخبرك، أو ينبغي له أن يخبرك، بأنّني قلتها وأنا أنوّه بمزاياك!...

فحدجته بنظرة باردة، وتساءلت:

ـ مزاياي؟! وهل رغبتي في أن أكون «فتاة أحلام» كلّ شابّ من بين هٰذه المزايا؟!

فهتف كمال بانزعاج وغيظ:

ـ هو قائل هٰذا عنك لا أنا، هلّا انتظرت حتّى

يحضر لأتحدّاه أمامك؟!...

فواصلت تساؤلها الذي تتابع في مرارة وسخرية قائلة:

- وهل ملاطفتي إيّاك من بين هٰذه المزايا أيضًا؟

قال يائسًا وقد عجز، حيال انصباب التهم، عن الدفاع:

- ملاطفتك إيّاي؟! أين؟ ومتى؟

- في هٰذا الكشك!؟ هل نسيت؟! أتنكر أنّك أوهمته ذٰلك؟!

آلمته سخريتها وهي تتساءل «هل نسيت؟!» وأدرك لتوّه أنّ حسن سليم - يا للحماقة - قد ظنّ بلقاء الكشك الظنون، فكاشف حبيبته بشكوكه أو نسبها إليه ليتحقّق منها... حِيَل خبيثة راح هو ضحيّتها! قال بحزن وحنق:

- أنكر، أنكر بكلّ قوّة وصدق، إنّي نادم على حُسْن ظنّي بحَسَن!

فقالت بكبرياء، كأنّما اعتبرت جملته الأخيرة موجّهة إليها هي:

- إنّه عند حُسْن الظنّ دائمًا...

زفر غبارًا، وخيّل إليه أنّ أبا الهول قد رفع قبضته الجرانيتيّة الهائلة التي لم تتحرّك منذ آلاف السنين، ثمّ هوى بها عليه، فهرسه وواراه تحتها إلى الأبد، قال بصوت متهدّج:

- إذا كان حسن هو الذي أبلغك عنّي هٰذه الأكاذيب فهو كاذب وضيع، ويكون هو الذي اغتابني لا أنا الذي اغتبتك...!

لاحت في عينيها الجميلتين نظرة قاسية، وتساءلت بحدّة:

- أتنكر أنّك انتقدت أمامه اختلاطي بأصدقاء حسين؟!

أهٰكذا يحرّف النبل الأرستقراطيّ الكلام؟! قال بتأثّر شديد:

- كلّا، لم يحصل ذٰلك، علم الله أنّي لم أقله منتقدًا، ولٰكنّه ادّعى ادّعاءات كبيرة، قال.... قال إنّك تحبّينه! وقال إنّه إن شاء منعك من الاختلاط بنا! ولم أكن أقصد...

قاطعته قائلة بازدراء وهي تقف منتصبة القامة في كبرياء، حتّى تموّجت هالة شعرها الأسود بحركة رأسها المرفوع:

- أنت تهذي! لا يهمّني ما يقال عنّي، إنّي فوق هٰذا كلّه، ولا خطأ لي فيها أعتقد إلّا أنّني أهب صداقتي دون تمييز...!

وأنزلت بدور إلى الأرض وهي تتكلّم، فتناولت يدها ثمّ ولّته ظهرها، وغادرت الكشك، فهتف بها متوسّلًا:

- انتظري لحظة من فضلك كي...

ولٰكنّها كانت قد ابتعدت، وكان صوته قد علا أكثر ممّا ينبغي حتّى خيّل إليه أنّه أسمع الحديقة كلّها، وأنّ الأشجار والكشك والكراسيّ ترمقه بنظرة جامدة ساخرة، فأطبق فاه واعتمد براحته حافة المائدة، فمال فرعه الطويل كأنّما انحنى تحت ضغط القهر، لم يمكث وحده طويلًا، فما لبث أن جاء حسين شدّاد طلق المحيّا كعادته، فحيّاه تحيّته الصافية الحلوة وجلسا على كرسيّين متجاورين، وتبعه بعد قليل إسماعيل لطيف، وأخيرًا جاء حسن سليم يسير في خطواته المتمهّلة وحركاته المترفّعة. وتساءل كمال في حيرة: ترى ألم يلمحهما حسن من بعيد كما لمحهما في المرّة السابقة؟ ومتى - وكيف - يدري بما دار بينهما من حديث قاطع أسيف! وانفجر في صدره الغيظ والغيرة كما تنفجر الزائدة، بيد أنّه آلى على نفسه ألّا يُشمت به غريمًا، وألّا يضع شخصه موضع السخرية أو العطف الزائف، وألّا يمكّن أحدًا من أن يطالع في صفحة وجهه أثرًا ممّا تضطرب به جوانحه، فألقى بنفسه في تيّار الحديث، ضحك لملاحظات إسماعيل لطيف، وعلّق طويلًا على تكوّن حزب الاتّحاد وخروج الخارجين على سعد زغلول والوفد ودور نشأت باشا في هٰذا كلّه، بالاختصار مثّل دوره خير تمثيل حتّى انفضّ المجلس بسلام، وغادر كمال وإسماعيل وحسن سراي آل شدّاد عند الظهر، وكأنّ كمال لم يعد يحتمل مزيدًا من الصبر، فخاطب حسن قائلًا:

ـ أريد أن أحدّثك قليلًا. . .

فقال حسن بهدوء:

ـ تفضّل. . .

فنظر كمال إلى إسماعيل كالمعتذِر، وقال:

ـ على انفراد!

همَّ إسماعيل بالانسحاب، فأوقفه حسن بإشارة من يده، وقال:

ـ لست أخفي عن إسماعيل شيئًا. . .

فـأحنقته هٰـذه الحركـة فـاستشفّ وراءهـا مـريبًـا يتوجّس، غير أنّه قال دون مبالاة:

ـ إذن فليسمعنا، فلست أخفي عنه شيئًا أيضًا. . .

وانتظر قليلًا حتّى باعد المشي بينهم وبين سراي آل شدّاد، ثمّ قال:

ـ قبل حضوركم اليوم اتّفق لي أن قابلت عايدة في الكشك على انفراد، فدار بيننا حديث غريب أدركت منه أنّك نقلت إليها بعض حديثنا في شارع السرايات ـ أتذكره؟ ـ مشوَّهًا محرَّفًا حتّى دخل في روعها أنّني حملت عليها حملة ظالمة باغية . .

ردّد حسن بـين شفتين ممتعضـتين لفـظَي «مشـوَّه ومحرَّف» ثمّ قال ببرود وهو يلقي عليه نظرة كأنّما يريد بها أن يذكّره بأنّه إنّما يخاطب «حسن سليم» لا شخصًا آخر:

ـ يحسن بك أن تكلِّف نفسك بعض الجهد في تخيُّر الألفاظ. . .

فقال كمال بانفعال:

ـ هٰذا ما فعلته! فالحقّ أنّ كلامها لم يدَعْ لي شكًّا في أنّك أردت الوقيعة بيني وبينها!

حال لون حسن غضبًا، ولكنّه لم يستسلم له، فقال بصوت أمعن في البرود:

ـ يؤسفني أنّني أحسن الظنّ طويلًا بفهمك وتقديرك للأمور (ثمّ بلهجة ساخرة) هلّا أخبرتني عمّا عسى أن أجنيه من وراء هٰذه الوقيعة المـزعومـة؟! الحقّ أنّك تندفع بلا رويّة أو عقل. . .

فاشتدّ الغضب بكمال، وهتف قائلًا:

ـ بل سوَّلتْ لك نفسك سلوكًا شائنًا. . . !

وهنا تدخّل إسماعيل قائلًا:

ـ إنّي أقترح عليكما تأجيل الحديث إلى وقت آخر تكونان فيه أملك لأعصابكما!

فقال كمال بإصرار:

ـ إنّ الأمر من الجلاء بحيث لا يحتاج إلى مناقشة، وهو عارف وأنا عارف!

فعاد إسماعيل يقول:

ـ قُصَّ علينـا مـا دار في الكشـك بينـك وبينهـما لعلّنا. . .

ولٰكنّ حسن قال بكبرياء:

ـ أنا لا أقبل محاكمة. . . !

فهتف كمال منفّسًا عن غيظه، وإن كان يعلم أنّه من الكاذبين:

ـ على أيّ حال أخبرتها بالحقيقة لتعلم أيّنا أصدق قولًا!

فصاح حسن بوجه ممتقع:

ـ فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار!

اندفع كمال نحوه مكـوّرًا قبضته فحـال إسماعيـل بينهما، وكان أقوى الثلاثة رغم ضآلة حجمه، ثمّ قال بحزم:

ـ لا أسمح بهٰذا، كلاكما صديق، محترَم ابن محترَم، دعانا من هٰذا العبث الخليق بالأطفال. . .

عاد ثائرًا هائجًا جريحًا يقطع الطريق بخطوات حادّة اعتدائيّة وباطنه يستعر بالألم، طعن في قلبه وكرامته، معبودته وأبيه، فما بقي له في الدنيا؟! وحسن، الذي لم يحترم زميلًا كـما احترمـه ولا أُعجب بخلق أحد كـما أُعجب بخلقه، كيف انقلب في ساعة من الزمان وقّاعًا سبّابًا؟! الحقّ أنّه رغم حنقه عليه لم يستطع أن يؤمن بالتهمة التي اتّهمه بها إيمانًا خالصًا من كـلّ شكّ أو تـردّد، فلم يزل يعـاوده التفكير في الأمـر، فيسـائـل نفسه: ألا يجوز أن يكون من وراء ذٰلك الموقف الأليم ما وراءه من أسرار؟! أيكون حسن شوّه كلامه، أم تكون عايدة قد أساءت الفهم أو بالغت في التكهّن أو استسلمت للغضب؟ غير أنّ الموازنة بين ابن التـاجر

وابن المستشار رمت به في جحيم من الغضب والألم جعلا من محاولة إنصاف حسن ضربًا من العبث. وقد ذهب بعد ذٰلك إلى سراي آل شدّاد في موعد اللقاء المعهود، فوجد حسن معتذرًا عن التخلّف بطارئ، وأخبره إسماعيل لطيف عقب انفضاض المجلس: بأنّه ـ حسن ـ آسف جدًّا على ما بدر منه حين الغضب عن «ابن التاجر وابن المستشار»، وأنّه مؤمن بأنّه ـ كمال ـ ظلمه ظلمًا فادحًا باستنتاجاته الواهمة وأنّه يرجو ألّا تقطع هٰذه الحادثة العارضة أسباب الصداقة بينهما، وأنّه ـ حسن ـ كلّفه بإبلاغه ذٰلك عن لسانه، ثمّ تلقّى منه خطابًا بهٰذا المعنى مشدّدًا الرجاء في ألّا يعودا إلى الماضي إذا تلاقيا وأن يسدلا عليه ستار النسيان، وختمه بقوله «اذكر جملة ما أساءت به إليّ وجملة ما أساءت به إليك لعلّك تقتنع معي بأنّ كلانا مخطئ وأنّه لا يصحّ لأحدنا تبعًا لذٰلك أن يرفض اعتذار صاحبه!». وطابت نفس كمال بالرسالة حينًا، بيد أنّه لاحظ أنّ ثمّة تناقضًا بين كبرياء حسن المعروف وبين هٰذا الاعتذار الرقيق غير المتوقّع، أجل غير المتوقّع!! فما كان يتصوّر أنّه يعتذر لأيّ سبب من الأسباب؟ فماذا غيّره؟ لا يمكن أن يكون لصداقته هو هٰذا التأثير الضخم في كبرياء صاحبه، فلعلّه ـ حسن ـ أراد أن يستردّ سمعته المهذّبة أكثر ممّا أراد استرداد صداقته، ولعلّه حرص أيضًا على ألّا يستفحل الشقاق فتترامى أنباؤه إلى حسين شدّاد أن يستاء الشابّ لموقف شقيقته من النزاع أو يغضب بدوره إذا بلغه ما قيل عن ابن التاجر ـ وهو ابن تاجر ـ وابن المستشار! أيّ سبب من أولٰئك له وجاهته وهو أدنى إلى المنطق في حال حسن من اعتذار لا يراد به إلّا وجه الصداقة وحدها؟! كلّ شيء يهون، فليصالحه حسن أو فليخاصمه، المهمّ حقًّا أن يعرف هل قرّرت عايدة الاختفاء؟ لم تعد تطوف بمجلسهم، أو تبدو في النافذة، أو تلوح في الشرفة. لقد أفشى لها قول حسن بأنّه إذا شاء منعها من الاختلاط بأحد ليضمن ـ اعتمادًا على كبريائها ـ إصرارها على زيارة الكشك فلا يُحرم من رؤيتها. لٰكنّها اختفت رغم ذٰلك، كأنّما رحلت عن البيت كلّه، بل عن الحيّ كلّه، بل عن الدنيا كلّها فما عاد يجد لها طعمًا، أيمكن أن يطول هٰذا الفراق إلى ما لا نهاية؟... ودّ لو كان قصدها أن تعاقبه حينًا ثمّ تعفو، أو في الأقلّ أن يذكر حسين شدّاد سببًا لغيابها يكذّب مخاوفه، ودّ هٰذا أو ذاك كثيرًا، وانتظر وطال انتظاره بلا فائدة.

كان إذا مضى لزيارة السراي أقبل عليها بعينين قلقتين تضطربان في محجريهما بين اليأس والرجاء، فيسترق إلى شرفة المدخل نظرة، وإلى نافذة الممرّ الجانبيّ نظرة، ثمّ يلحظ شرفة الحديقة وهو في طريق الكشك أو السلاملك، ويجلس بين الأصدقاء ليحلم طويلًا بالمفاجأة السعيدة التي لا تريد أن تقع، وينفضّ المجلس فيغادره ليختلس نظرات متعبة حزينة من النافذة والشرفات، خاصّة نافذة الممرّ الجانبيّ التي كثيرًا ما تظهر في أحلام يقظته إطارًا للصورة المعبودة، ثمّ يذهب متجرّعًا اليأس زافرًا الكرب، ويبلغ به اليأس أن كاد يسأل حسين شدّاد عن سرّ اختفاء عايدة، غير أنّ تقاليد الحيّ العتيق الذي تشبّع بها عقله فلم ينطق، وجعل يتساءل في قلق عن مدى إلمام حسين بالظروف التي أدّت إلى تواري المعبودة، أمّا حسن سليم فلم يشر إلى «الماضي» بكلمة ولم يبدُ في صفحة وجهه أنّه يفكّر على أيّ وجه فيه، ولٰكن لا شكّ أنّه كان يرى في كلّ جلسة تجمعهم شاهدًا على هزيمته ـ كمال ـ المجسّمة، وكم كان يتألّم كمال لهٰذا الخاطر، تعذّب كثيرًا، شعر بالعذاب ينفذ إلى نخاعه، وبهذيان العذاب يخالط عقله، وكان شرّ ما يعذّبه لوعة الفراق ومرارة الهزيمة وضيقة اليأس، وأفظع من هٰذا كلّه الإحساس بالهوان، بأنّه المنبوذ من روضة الرضى، المحروم من أنغام المعبود وأضوائه، فجعل يردّد وروحه تذرف دموع الأسى والقهر «أين أنت من أولٰئك السعداء أيّها المخلوق المشوّه!»، ما معنى الحياة إن أصرّت على الاختفاء؟ أين تجد عيناه النور؟ ويتلقّى قلبه الحرارة؟ وتنعم روحه بالغبطة؟ فلتبدُ المعبودة بأيّ ثمن ترضاه، فلتبدُ لتحبّ مَن تشاء حسن كان أو غيره، فلتبدُ، ولتهزأ برأسه وأنفه ما شاء لها المزاح

واللعب، إنّ اشتياقه إلى اجتلاء طلعتها وسماع صوتها فاق طاقة النفس على الاشتياق، فأين منه نظرة رانية لتمسح عن صدره سخام الكآبة والوحشة، ولتسرّ قلبًا أمسى مفتقد السرور منه كالنور من فقيد البصر، فلتبدُ وإن تتجاهله، فإنّه إن خسر سعادة القبول عندها فلن تضيع سعادة رؤيتها ورؤية الدنيا بعد ذٰلك في مجتلى ضوئها البهيج، أمّا بغير ذٰلك فلن تكون الحياة إلّا لحظات متّصلة من الألم المخلخل بالجنون، وهل كان خروجها من حياته إلّا كخروج العمود الفقريّ من الجسم الإنسانيّ يردّه من بعد توازن وتكامل إلى شبه جثّة ناطقة؟

وأخرجه الألم والقلق عن الصبر، فلم يعد يحتمل الانتظار حتّى يجيء يوم الجمعة فكان يذهب مع الأصدقاء إلى العبّاسيّة فيحوم حول السراي من بعيد لعلّه يلمحها في نافذة أو شرفة أو في خطراتها وهي تظنّ أنّها بمنأى عن عينيه، على أنّ الانتظار في بين القصرين كان من فضائله اليأس بخلاف حومان المحموم حول مقام المعبودة، كحومان مجموعة من الديناميت حول عمود من النيران. لم يرها، ولٰكنّه رأى مرّات أحد الخدم وهو ذاهب إلى الطريق أو عائد منه، فكان يُتبعه عينًا متفحّصة متعجّبة كأنّما تُسائل المقادير عمّا جعلها تخصّ هٰذا الإنسان بحظوة القرب من المعبودة والاختلاط بها والاطّلاع على شتّى أحوالها، مستلقية أو مترنّمة أو لاهية، كلّ ذٰلك من حظّ هٰذا الإنسان الذي يعيش في المحراب ولا تشغل قلبه العبادة!

وفي جولة من جولاته رأى عبد الحميد بك شدّاد وحرمه المصون وهما يغادران القصر ليركبا المنرفا التي كانت في انتظارهما أمام الباب، رأى الشخصين السعيدين اللذين تقف عايدة أمامهما - من دون العالمين - بإجلال واحترام، اللذين يخاطبانها بلسان الأمر أحيانًا فلا تملك إلّا أن تطيع! وهٰذه الأمّ المقدّسة التي حملتها في بطنها تسعة أشهر، فما من ريب في أنّ عايدة كانت جنينًا فوليدة كتلك المخلوقات التي كان يرنو إليها طويلًا في فراشي عائشة وخديجة. وليس من إنسان هو أعرف بطفولة معبودته من هٰذه الأمّ السعيدة المقدّسة! سوف تبقى الآلام ما بقي في متاهة الحياة أو في الأقلّ لن تمحى آثارها. أين تذهب ليالي يناير الطوال وهو دافن في الوسادة عينيه الدامعتين؟ وبسط راحتيه إلى ربّ السماوات وهو يدعو من الأعماق «اللّهمّ قل لهٰذا الحبّ كُنْ رمادًا كما قلت لنار إبراهيم كوني بردًا وسلامًا»؟! وتمنّيه لو كان للحبّ مركز معروف في الكائن البشريّ لعلّه يبتره كما يُبتر العضو الثائر بالجراحة؟ وهتافه باسمها المحبوب ليتلقّى صداه في سكون الحجرة الصامتة بقلب خاشع كأنّما كان غيره المنادى؟ ومحاكاته لصوتها حينما دعت باسمه ليستعيد حلم السعادة المفقودة؟ وتقليبه البصر في كرّاسة الذكريات للتثبّت من أنّ ما كان حقيقة لا وهمًا من الخيال؟!

ولأوّل مرّة منذ أعوام تطلّع إلى ما قبل الحبّ من الماضي بلهفة كما يتطلّع السجين إلى ذكريات الحرّيّة الضائعة، أجل لم يتصوّر شخصًا هو أشبه بحاله من السجين، غير أنّ قضبان السجن بدت أطوع للتحطيم وأرقّ أمام الزمام من أغلال الحبّ الأثيريّة التي تستأثر المشاعر في القلب والأفكار في العقل والأعصاب في الجسد ثمّ لا تؤذن بانحلال، ووجد نفسه يومًا يتساءل: ترى هل ذاق فهمي مثل هٰذا العذاب الذي يعانيه؟ وهفّت عليه ذكريات أخيه الراحل مثل لحن كامن حزين. تنهّد في أعماق النفس. فذكر كيف قصّ يومًا على مسمعه مغامرة مريم مع جوليون، فأغمد خنجرًا مسمومًا في قلبه بلا حيطة أو حذر. وجعل يستحضر في ذاكرته وجه فهمي، فتخيّل إليه هدوءه الذي انخدع به وقتذاك ، ثمّ تصوّر تقلّصات الألم في قسماته الجميلة حين خلا إلى نفسه، ومناجاته الشاكية التي لا شكّ غرق فيها كما هو يغرق الآن في تأوّهاته وأنينه. فشعر بغمز في قلبه وراح يقول: لقد عانى فهمي ما هو أشدّ من الرصاص قبل أن يستقرّ الرصاص في صدره! ومن عجب أنّه وجد في الحياة السياسيّة صورة مكبّرة لحياته. فكان يطالع أنباءها في الصحف وكأنّما يطالع مواقف ممّا مرّ به في بين

القصرين أو العبّاسيّة. هٰذا سعد زغلول ـ مثله هو ـ شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة ولخيانة الأصدقاء وغدرهم، وكلاهما ـ هو وسعد ـ يكابدان أحزانًا من اتّصالهما بأناس علوا بأرستقراطيّتهم وسفلوا بفعالهم. تقمّص شخص الزعيم في كدره كما تقمّص حال الوطن في قهره، وكان يلاقي الموقف السياسيّ وموقفه الشخصيّ بعاطفة واحدة وانفعال واحد، فكأنّما كان يعني نفسه وهو يقول عن سعد زغلول «أتليق هٰذه المعاملة الظالمة بهٰذا الرجل المخلص؟»، وكأنّما كان يعني حسن سليم وهو يقول عن زيور «خان الأمانة واستحلّ القبيح في سبيل الاستيلاء على الحكومة»، وكأنّما كان يعني عايدة وهو يقول عن مصر «هل تخلّت عن رَجُلها الأمين وهو يذود عن حقوقها؟!».

ـ ٢١ ـ

كان بيت آل شوكت بالسكّريّة من البيوت التي لا تحظى بنعمة الهدوء والسكينة، لا لأنّ أدواره الثلاثة أصبحت مأهولة بالسكّان من آل شوكت فحسب، ولٰكن بسبب خديجة قبل أيّ شيء آخر. كانت الأمّ العجوز تقيم في الدور التحتانيّ، وخليل وعائشة وأبناؤهما: نعيمة، وعثمان، ومحمّد في الدور الفوقانيّ، ولٰكنّ ضوضاء أولٰئك جميعًا لم تكن شيئًا بالقياس إلى ضوضاء خديجة وحدها. سواء ما يصدر عنها مباشرة أو ما يصدر عن الآخرين بسببها، وقد حدثت تغيّرات في نظام البيت كانت خليقة بحصر أسباب الضوضاء في أضيق الحدود، كاستقلال خديجة ببيتها ومطبخها، وكاستئثارها بالسطح لتربية دواجنها، وغرس بستان متواضع في جانب منه على مثال بستان البيت القديم بعد أن أُجلِت عنه حماتها ودواجنها، كان كلّ ذٰلك خليقًا بتخفيف الضوضاء إلى حدّ كبير، ولٰكنّ الضوضاء لم تخفّ، أو لعلّها خفّت بقدر لم يلحظه أحد، على أنّ روح خديجة اعتورها هٰذا اليوم فتور، ولم يكن سِرّه ـ فيما بدا ـ خافيًا، فإنّ عائشة وخليل انتقلا إلى شقّتها ليشاركا في تفريج الأزمة ـ أجل الأزمة ـ التي أزّمتها، جلسوا: الأخوان، والأختان في الصالة على كنبتين متقابلتين، وكانت الوجوه جادّة، وكانت خديجة متجهّمة، وكانوا يتبادلون نظرات ذات معنى، ولٰكنّ أحدًا منهم لم يشأ أن يطرق الأمر الذي جمعهم حتّى قالت خديجة بنبرة شاكية حانقة معًا:

ـ هٰذه المنازعات تقع في كلّ بيت، هٰكذا كانت الدنيا منذ خلقها ربّنا وليس معنى هٰذا أن ننشر متاعبنا على الناس، خصوصًا أولٰئك الذين لا ينبغي أن يشغلوا بالكلام الفارغ، ولٰكنّها أبت إلّا ان تجعل من شئون بيتنا فضائح عامّة، حسبي الله ونعم الوكيل...

تحرّك إبراهيم في معطفه كأنّه يستوي في مجلسه، ثمّ ضحك ضحكة مختزلة لم يَدْرِ أحد على وجه الدقّة ماذا أراد بها، فحدجته خديجة بنظرة ارتياب وهي تتساءل:

ـ ماذا تعني بهئ هئ؟... ألا يهتمّ قلبك بشيء في الدنيا؟

وأعرضت عنه كاليائسة، ثمّ استطردت تقول مخاطبة خليل وعائشة:

ـ هل يرضيكما ذهابها إلى أبي في الدكّان لتشكوني إليه؟ هل يجوز إقحام الرجال ـ خاصّة مَن كان على شاكلة أبي ـ في منازعات النسوان؟ ما كان ينبغي أن يعلم بشيء من هٰذا، ولا شكّ أنّه تضايق من زيارتها وشكواها، ولولا أدبه لصارحها بذٰلك... ولٰكنّها ما زالت تلحّ عليه حتّى وعدها بالمجيء، ما أبشع تصرّفها، لم يُخلق أبي لهٰذه الصغائر، فهل يرضيك هٰذا التصرّف يا سي خليل؟

فقطّب خليل في استياء، وقال:

ـ أمّي أخطأت، صارحتها أنا نفسي بذٰلك حتّى صبّت عليّ غضبها، غير أنّها ستّ كبيرة، وأنت تعلمين أنّ الإنسان في مثل سنّها يحتاج إلى المداراة والحلم كالأطفال، حبّذا...

فقاطعه إبراهيم في ضجر قائلًا:

ـ حبّذا... حبّذا...! كم كرّرت حبّذا هٰذه حتّى مللتها، أمّك كما قلت ستّ كبيرة، ولٰكنّ قرعتها وقعت على من لا ترحم...!

التفتت خديجة إليه بحدّة وقد عبس وجهها واتّسع منخراها، وقالت:

ـ الله... الله...، لم يبق إلّا أن تعيد هٰذا الكلام الجائر أمام بابا...!

فقال إبراهيم وهو يلوّح بيده آسفًا:

ـ بابا ليس معنا الآن، وهو إن جاء فلن يجيء ليستمع إليّ أنا، ولٰكنّي أقرّر الحقيقة التي يسلّم بها الجميع ولا تستطيعين أنت إنكارها، أنت لا تطيقين أمّي ولا تحتملين ظلّها، أعوذ بالله، لِمَ كلّ هٰذا يا شيخة؟ بشيء قليل من الحلم والكياسة كان يسعك أن تأسريها، ولٰكنّ القمر أقرب منالًا من حلمك، هل تستطيعين أن تنكري كلمة واحدة ممّا قلت؟!

فردّدت عينيها بين خليل وعائشة لتُشهدهما على هٰذا «الظلم» الصارخ، فبدوا حائرين بين الحقّ والسلامة، حتّى تمتمت عائشة وهي من الإشفاق في نهاية:

ـ سي إبراهيم يقصد أن تغضي قليلًا عمّا يبدر منها...

وهزّ خليل رأسه بالموافقة في ارتياح من ظفر أخيرًا بسلّم النجاة، ثمّ قال:

ـ هو ذٰلك، أمّي سريعة الغضب ولٰكنّها بمنزلة والدتك، وبشيء من الحلم تعفين أعصابك من مشقّة المشاحنة...

فنفخت خديجة وهي تقول:

ـ الأصوب أن يقال إنّها هي التي لا تحتمل لي ظلًّا، لقد أتلفت أعصابي، وما من مرّة نتلاقى إلّا وتُسمعني ـ تصريحًا أو تلميحًا ـ كلمة تهيج الدم وتسمّ البدن، ثمّ أطالَب أنا بالحلم! كأنّي مخلوقة من ثلج، أليس يكفيني عبد المنعم وأحمد اللذان استنفدا صبري وحلمي؟! يا هوه أين أجد منصفًا؟!

فقال إبراهيم في تهكّم وهو يبتسم:

ـ لعلّك تجدين هٰذا المنصف في شخص أبيك؟!

فهتفت قائلة:

ـ أنت شامت بي، أنا أفهم كلّ شيء، ومع ذٰلك فربّنا موجود!

فقال إبراهيم بصوت ممطوط يدلّ على التسليم والتحدّي في آنٍ:

ـ ربّنا موجود!

وقال خليل بعطف:

ـ هدّئي روعك حتّى تلقي والدك بنفس مطمئنّة!

من أين لها بالنفس المطمئنّة؟ لقد انتقمت العجوز منها شرّ انتقام، وعمّا قليل تُدعى إلى لقاء أبيها في موقف يفرّ منه قلبها ودمها. وهنا ترامى إليهم صياح عبد المنعم وأحمد من وراء باب حجرتها وأعقبه صوت أحمد وهو يبكي. فقامت على عجل رغم سمانتها واتّجهت نحو الحجرة، فدفعت الباب ودخلت وهي تصيح بدورها:

ـ ما معنى هٰذا؟! ألم أنهكما عن الشجار ألف مرّة؟ خصيمي المعتدي منكما...

قال إبراهيم بعد أن توارت وراء الباب:

ـ مسكينة كأنّ بينها وبين الراحة عداء مستحكمًا، منذ الصباح الباكر تبدأ بخوض معركة طويلة تستغرق النهار كلّه فلا تسكن حتّى تأوي إلى الفراش، يجب أن يذعن كلّ شيء إلى إرادتها وتفكيرها، الخادم، الأكل، الشرب، الأثاث، الدجاج، عبد المنعم، أحمد، أنا، الكلّ يجب أن يذعن لتنظيمها، إنّي أشفق عليها، وأؤكّد لكم أنّ بيتنا يمكن أن ينعم بأحسن حال من النظام والدقّة دون حاجة إلى هٰذه الوسوسة...

فقال خليل باسمًا:

ـ ربّنا يعينها...

ـ ويعينني معها!

قال إبراهيم ذٰلك وهو يهزّ رأسه باسمًا أيضًا، ثمّ أخرج من جيب معطفه الأسود علبة سجائره، ونهض متّجهًا إلى أخيه فقدّمها له فتناول خليل سيجارة، ودعا عائشة لتتناول واحدة ولٰكنّها رفضت ضاحكة، وأومأت إلى الباب الذي توارت وراءه خديجة، وهي تقول:

ـ خلّ الساعة تمرّ بسلام...

فعاد إبراهيم إلى مجلسه وهو يشعل سيجارة، ويقول مشيرًا إلى الباب نفسه:

ـ محكمة، في الداخل الآن محكمة، ولٰكنّها ستعامل هٰذين المتّهمين بالرحمة ولو على رغمها...

عادت خديجة وهي تقول متأفّفة:

ـ كيف يمكن أن أذوق طعم الراحة في هٰذا البيت! كيف ومتى؟!

وجلست وهي تتنهّد، ثمّ قالت مخاطبة عائشة:

ـ نظرت من المشربيّة فوجدت الطين المتخلّف من مطر الأمس لا يزال يغطّي أرض الحارة، فخبّريني وربّك كيف يشقّ أبي سبيله؟!... ولِمَ هٰذا العناد كلّه؟!

فسألتها عائشة:

ـ والسماء؟ كيف حالها الآن؟

ـ قطران! ستجعل الحارات بحورًا قبل الليل، ولكن هل أجدى ذٰلك في حمل حماتك على تأجيل ما بيّتت من شرّ ولو إلى يوم آخر؟ كلّا، ذهبت إلى الدكّان رغم ما يسبّبه المشي لها من متاعب، وما زالت بالرجل حتّى تعهّد لها بالحضور، ولو سمعها سامع في الدكّان وهي تشكوني في هٰذه الظروف العسيرة لحسبني ريّا أو سكينة!

وضحكوا جميعًا مغتنمين الفرصة التي أتاحتها لهم للتنفيس عن صدورهم، وتساءل إبراهيم:

ـ أتحسبين نفسك أقلّ شأنًا من ريّا وسكينة؟!

وسُمع نقر على الباب، ولمّا فتحت الخادم لاح وجه الجارية سويدان فنظرت إلى خديجة بخوف، وقالت:

ـ سيّدي الكبير حضر...

ثمّ سرعان ما توارت، وقامت خديجة شاحبة اللون وهي تقول بصوت خافت:

ـ لا تتركونا وحدنا...

فقال خليل ضاحكًا:

ـ معك إلى النهاية يا خديجة هانم!...

فقالت بلهجة وشت بالرجاء والتوسّل:

ـ كونوا في جانبي...

وغادرت الشقّة بعد أن ألقت عائشة نظرة متفحّصة على صورتها في المرآة لتتوكّد من خلوّ وجهها من أيّ أثر للأصباغ.

كان السيّد أحمد عبد الجواد يجلس على كنبة في صدر الحجرة القديمة تحت صورة كبيرة للمرحوم شوكت، على حين جلست الأمّ على مقعد قريب في معطف كثيف لم تجدِ كثافته في إخفاء ضآلة جسمها الذي احدودب أعلاه، وقد نحل وجهها وعمقت تجاعيده وتكاثرت وجفّ جلده فلم يبق شيء منه على ما كان عليه إلّا أسنانها الذهبيّة، ولم تكن هٰذه الحجرة بالغريبة على السيّد أحمد، ولم يهوّن قِدَمها من فخامتها، وإذا كانت الستائر قد بهتت وقطيفة بعض المقاعد والكنبات قد انجردت أو تهتّكت عند المقابض والمساند، فإنّ بساطها العجميّ قد صان رونقه أو استجدّ نفاسته، إلى أنّ جوّها تنسّم برائحة بخور لطيفة ممّا تولع به العجوز، وكانت المرأة تميل على مظلّتها وتقول:

ـ قلت لنفسي إذا لم يحضر السيّد أحمد كما وعدني، فلا هو ابني ولا أنا أمّه...

فابتسم السيّد قائلًا:

ـ لا سمح الله، إنّي طوع أمرك، فأنا ابنك وخديجة ابنتك!

فمطّت بوزها، وقالت:

ـ كلّكم أبنائي! أمينة هانم ابنتي الطيّبة، أنت سيّد الناس، أمّا خديجة (ورنت إليه وعيناها تتّسعان) فلم ترث سجيّة واحدة من سجايا والديها الطيّبين... (ثمّ وهي تهزّ رأسها) يا لطيف الطف...!

فقال السيّد بلهجة المعتذِر:

ـ إنّي أعجب كيف أغضبتك لهٰذا الحدّ؟ كان الأمر كلّه مفاجأة شديدة عليّ، لا أقبل هٰذا مطلقًا، ولٰكن هلّا حدّثتني عمّا فعلت؟

فقالت المرأة مقطّبة:

ـ هٰذا شيء قديم، كنّا نخفي عنك كلّ شيء إكرامًا لتوسّلات والدتها التي أعيتها الحيل في إصلاحها، ولٰكنّي لن أقول كلمة واحدة إلّا في وجهها، في وجهها يا سي السيّد كما عزمت أمامك في الدكّان...

عند ذاك جاءت الجماعة، دخل إبراهيم في المقدّمة، وتبعه خليل، فعائشة، ثمّ خديجة، وصافحوا السيّد واحدًا فواحدًا حتّى جاء دور خديجة، فانحنت في أدب مثاليّ حتّى لثمت يده، فلم تتمالك العجوز من أن تقول في عجب:

ـ ربّاه ما هٰذه البوليتيكا، أأنت خديجة حقًّا؟! لا تخدعنّك الظواهر يا سيّد أحمد...

فقال خليل معاتبًا أمّه:

ـ هلّا تركت والدنا حتّى يستريح! ليس ثمّة ما يدعو إلى محاكمة على الإطلاق!

فعلا صوت المرأة وهي تجيبه قائلة:

ـ ما الذي جاء بك؟! ما الذي جاء بكم؟ دعوها واذهبوا عنّا بسلام...

فقال إبراهيم برقّة:

ـ وحّدي الله...

فصاحت به:

ـ أنا موحّدة أحسن منك يا بغل! لو كنت رجلًا حقًّا ما أحوجتني إلى استدعاء هٰذا الرجل الطيّب، ما الذي جاء بك؟ وكان يجب أن تكون غاطًّا في نومك كالعادة؟!

ابتلّ صدر خديجة ارتياحًا إلى هٰذه البداية، فتمنّت لو تشتدّ حتّى تغطّي على قضيّتها، ولٰكنّ السيّد سألها بصوت مرتفع سدّ الطريق في وجه المعركة المأمولة:

ـ ما هٰذا الذي سمعته عنك يا خديجة؟! أحقّ أنّك لست الابنة المؤدّبة المطيعة لوالدتك، أستغفر الله، بل لوالدتنا جميعًا؟!

خاب أمل خديجة، فغضّت بصرها، وتحرّكت شفتاها في همس دون أن تبين وهي تهزّ رأسها نفيًا، ولٰكنّ الأمّ لوّحت بيدها للجميع كي ينصتوا، ثمّ أنشأت تقول:

ـ هٰذا تاريخ قديم لن أستطيع أن أسرده عليك في هٰذه الجلسة، منذ أوّل يوم لها في هٰذا البيت وهي تخاصمني بلا سبب، وتخاطبني بأطول لسان عرفته في حياتي، لا أحبّ أن أعيد عليك ما سمعته طوال خمس سنوات، أو يزيد، كثير كثير، وقبيح قبيح!! عابت إشرافي على البيت وتنقّصت طهيي ـ هل تتصوّر هٰذا يا سي السيّد؟ـ وما زالت حتّى انفصلت بشقّتها عنّي فانشطر البيت الواحد بيتين، حتّى الجارية سويدان حرّمت عليها دخول شقّتها لأنّها جاريتي، وجاءت بخادم خصوصيّة لها، السطح، السطح على سعته يا سي السيّد، ضيّقته عليّ حتّى اضطررت إلى نقل دواجني إلى الفناء!! ماذا أقول أيضًا يا بنيّ؟ هٰذا قليل من كثير، ولٰكن ما علينا، قلت لنفسي ما فات فات، واحتملته وصبرت عليه، وقد ظننت بعد الانفصال أنّ أسباب الشقاق ستنتهي، ولٰكن هل صدق ظنّي؟. كلّا وحياتك.

انقطعت عن الحديث لسعال غلبها، وراحت تسعل حتّى انتفخت أوداجها، وخديجة تلحظها وهي تدعو الله في سرّها أن يأخذها قبل أن تتمّ حديثها، ولٰكنّ السعال سكت فازدردت ريقها وتشهّدت، ثمّ رفعت إلى السيّد عينين دامعتين، وسألته بصوت لم يخلُ من بحّ:

ـ أتستنكف أنت يا سيّد أحمد أن تقول لي يا أمّي؟

فقال الرجل الذي تظاهر بالعبوس رغم ابتسام إبراهيم وخليل:

ـ معاذ الله يا أمّي...

ـ عوفيت يا سيّد أحمد، لٰكنّ ابنتك تستنكف من هٰذا، تدعوني «تيزة»، أقول لها مرارًا ادعيني «نينة»، فتقول لي «وماذا أدعو التي في بين القصرين؟»، أقول لها أنا نينة، وأمّك نينة، فتقول لي «ليس لي إلّا نينة واحدة ربّنا يخلّيها لي». انظر يا سي السيّد، أنا التي تلقّيتها بيديّ من عالم الغيب!

ألقى السيّد أحمد على خديجة نظرة غاضبة، وسألها محتدًّا:

ـ صحيح هٰذا يا خديجة؟ يجب أن تتكلّمي...

كانت خديجة كأنّها فقدت القدرة على النطق، كانت من الغيظ في نهاية، وكانت من الخوف في نهاية، وإلى هٰذا كلّه كانت يائسة من نتيجة المناقشة فحدتها غرائز الدفاع عن النفس على التذرّع بكافّة ضروب الضراعة والمسكنة، قالت بصوت خافت:

ـ أنا مظلومة، كلّ واحد هنا يعلم بأنّي مظلومة، مظلومة والله يا بابا...

كان السيّد أحمد في دهش ممّا يسمع، ومع أنّه فطن من أوّل الأمر إلى حال «الكبر» التي تسيطر على المرأة، ومع أنّه لم يغب عن ملاحظته ما يكتنف الجوّ من فكاهة بدت آثارها في وجهي إبراهيم وخليل، فإنّه صمّم على التظاهر بالجدّ والصرامة إرضاء للعجوز وإرهابًا لخديجة، وكان يعجب لما يتكشّف له من عناد

خديجة وحدّة طباعها، الأمر الذي لم يخطر له في خيال من قبل، أكانت على هٰذا الخلق مذ كانت في بيته؟ أتعلم أمينة من أمرها ما لا يعلم؟ هل يكتشف على آخر الزمن صورة جديدة لابنته مناقِضة للصورة التي كوّنها كما سبق أن اكتشف لياسين؟!

ـ أريد أن أعرف الحقيقة؟! أريد أن أعرف حقيقتك، إنّ التي تتحدّث عنها والدتنا امرأة أخرى غير التي عهدتها، فأيّتهما تكون الصادقة؟!

ضمّت المرأة أناملها وهزّت يدها داعية إيّاه إلى الصبر حتّى تتمّ حديثها، ثمّ استطردت قائلة:

ـ قلت لها: إنّي تلقّيتك بيديّ من عالم الغيب، فقالت لي بلهجة شرّيرة لم أسمع بمثلها من قبل: «إذن أكون نجوت من الموت بأعجوبة!».

ضحك إبراهيم وخليل، وخفضت عائشة رأسها لتخفي ابتسامتها، فقالت العجوز مخاطبة ابنيها «اضحكا، اضحكا، اضحكا من أمّكما!»، ولكنّ السيّد تجهّم وإن يكن باطنه ضحك، ترى أخُلقت بناته على مثاله أيضًا؟ أليس هٰذا ممّا يستحقّ أن يروى على إبراهيم الفار وعليّ عبد الرحيم ومحمّد عفّت؟! قال لخديجة بغلظة:

ـ كلّا... كلّا، لأعرفنّ كيف أحاسبك على هٰذا حسابًا عسيرًا...

فواصلت العجوز حديثها بارتياح قائلة:

ـ أمّا سبب شجار الأمس، فهو أنّ إبراهيم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة فقدّمت لهم الشركسيّة فيما قُدّم من أطعمة، وفي المساء سهر عندي إبراهيم وخليل وعائشة وخديجة، وجاء ذكر الوليمة فنوّه إبراهيم بثناء المدعوّين على الشركسيّة، فانبسطت ستّ خديجة، ولٰكنّها لم تقنع بذٰلك، بل راحت تؤكّد أنّ الشركسيّة هي الصنف المأثور عن بيتها الأوّل، فقلت بحسن نيّة: إنّ زينب زوجة ياسين الأولى هي التي أدخلت الشركسيّة في بيتكم، وإنّ خديجة لا بدّ وأن تكون تعلّمتها منها، أقسم لك أنّي ما تكلّمت إلّا عن حسن نيّة وأنّي ما قصدت أحدًا بسوء، ولٰكن أجارك الله يا حبيب، انتفضت غاضبة وصاحت في وجهي «هل تعرفين عن بيتنا أكثر ممّا نعرف؟» فقلت لها: إنّي أعرف بيتكم من قبل أن تعرفيه أنت بعمر مديد، فصرخت قائلة: «أنت لا تحبّين لنا الخير ولا تطيقين أن يُنسب لنا شيء حميد ولو كان طهي الشركسيّة، الشركسيّة تؤكّل في بيتنا قبل أن تولد زينب وعيب أن تكذب واحدة في مثل سنّك» أي والله هٰذا يا سي السيّد ما قذفتني به أمام الجميع، فأيّتنا الكاذبة بربّك وصلاتك؟!

قال السيّد غاضبًا ساخطًا:

ـ رمتك بالكذب في وجهك! يا ربّ السماوات والأرض، ما هٰذه ابنتي...

غير أنّ خليل قال لأمّه باستياء:

ـ ألهٰذا جئت بوالدنا؟! أيصحّ أن نكدّر خاطره ونضيّع وقته بسبب نزاع صبيانيّ حول الشركسيّة؟! هٰذا كثير يا أمّاه...

فحملقت المرأة في وجهه مقطّبة وصاحت به:

ـ اخرس، اغرب عن وجهي، لست كاذبة، ولا يصحّ أن يرميني مخلوق بالكذب، إنّي أعرف ما أقول ولا حياء في الحقّ، لم تكن الشركسيّة بالطعام المعروف في بيت السيّد قبل أن تدخله زينب، وليس في ذٰلك ما يعيب أحدًا أو ينتقصه، ولٰكنّها الحقيقة. هاكم السيّد فليكذّبني إن كنت كاذبة، إنّ طواجن بيته مضرب الأمثال ويليها الأرزّ المحشوّ، أمّا الشركسيّة فلم تقدّم على مائدته قبل مجيء زينب، تكلّم يا سي السيّد أنت وحدك الحكم...

قاوم السيّد أحمد إغراء الضحك طيلة حديث المرأة، ثمّ قال بلهجة عنيفة:

ـ ليت ذنبها اقتصر على الكذب والادّعاء الباطل من دون أن تضيف إليه سوء الأدب، هل شجّعك على هٰذا السلوك السيّئ ابتعادك عن قبضة يدي؟! إنّ يدي تمتدّ إلى حيث يجب أن تمتدّ بلا تردّد، من المؤسف حقًّا أن يجد أب ابنته مستحقّة للتأديب والعقاب بعد أن اكتمل نضجها واستوت بين النساء زوجة وأمًّا...

واستطرد ملوّحًا بيده:

ـ إنّي غاضب عليك، ووالله إنّه ليؤلمني أن أرى

وجهك أمامي...

أجهشت خديجة بالبكاء فجأة، جاء ذٰلك عن تأثير وتدبير معًا، ولم يكن ثمّة وسيلة أخرى للدفاع، ثمّ قالت بصوت متهدّج تخنقه العبرات.

ـ أنا مظلومة، والله أنا مظلومة، إنّها لا ترى وجهي حتّى ترميني بكلمات قاسية، ولا تفتأ تقول لي «لولاي لقضيت العمر عانسًا» وأنا لم أنلها بسوء أبدًا، وكلّهم شهود على ذٰلك...

لم تعدم الحركة التمثيليّة ـ الصادقة الكاذبة ـ أثرًا تركته في النفوس: قطّب خليل شوكت حانقًا، ونكس إبراهيم شوكت رأسه، والسيّد نفسه ولو أنّ مظهره لم يعتوره تغيير إلّا أنّ قلبه انقبض عند سماعه ما قيل عن العنوس كعهده من قديم، أمّا العجوز فجعلت تنظر إلى خديجة نظرات نافذة من تحت حاجبيها الأشيبين، وكأنّما تقول لها «مثّلي دورك يا ماكرة لن يجوز عليّ»، ولـمّا استشعرت في الجوّ عطفًا على الممثّلة قالت بتحدٍّ:

ـ هاكم عائشة أختها؟ إنّي أستحلفك بعينيك، أستحلفك بالقرآن الشريف إلّا ما شهدت بما سمعت ورأيت، ألم ترمني أختك بالكذب في وجهي؟ ألم أصف نزاع الشركسيّة دون مبالغة أو تجاوز، تكلّمي يا بنيّة تكلّمي، إنّ أختك ترميني الآن بالظلم بعد أن رمتني بالكذب، تكلّمي ليعلم السيّد من الظالم ومن المعتدي...

روّعت عائشة بجرّها المباغت إلى حومة القضيّة التي ظنّت أنّها ستقف منها موقف المشاهد إلى النهاية، وشعرت بالخطر يحدق بها من كلّ جانب، فردّدت عينيها الجميلتين بين زوجها وأخيه كالمستغيثة، فهمّ إبراهيم بالتدخّل، ولكنّ السيّد أحمد سبقه إلى الكلام، فخاطب عائشة قائلًا:

ـ إنّ والدتنا تستشهد بك يا عائشة، فيجب أن تتكلّمي...

فاضطربت عائشة حتّى شحب لونها، ولكنّ شفتيها لم تتحرّكا إلّا عند ازدراد ريقها، وغمضت عينيها فرارًا من عينَي أبيها وأصرّت على الصمت. قال خليل محتجًّا:

ـ لم أسمع من قبل أنّ أختًا دُعيت للشهادة على أختها...!

فصاحت به أمّه:

ـ ولم أسمع من قبل أنّ أبناء يتكتّلون ضدّ أمّهم كما تفعلون. (ثمّ ملتفتة إلى السيّد) ولكن حسبي صمتها، إنّ صمت عائشة شهادة لي يا سي السيّد...

ظنّت عائشة أنّ عذابها قد انتهى عند هٰذا الحدّ، ولكنّها ما تدري إلّا وخديجة تقول لها برجاء وهي تجفّف عينيها:

ـ تكلّمي يا عائشة، هل سمعتني أشتمها؟

لعنتها في سرّها من صميم قلبها، وراح رأسها الذهبيّ يهتزّ اهتزازة عصبيّة، فهتفت العجوز:

ـ جاءنا الفرج، هي التي تطالب بالشهادة، لم يبق لك عذر يا شوشو. يا ربّي إذا كنت ظالمة حقًّا كما تقول خديجة فلِمَ لم أظلم عائشة؟ لِمَ تسير الأمور بيني وبينها على خير حال، لِمَ يا ربّي لِمَ؟

نهض إبراهيم شوكت من مجلسه، ثمّ جلس إلى جانب السيّد، وقال له:

ـ يا والدي، يؤسفني أنّنا أتعبناك وأضعنا وقتك الثمين هباء، فلندعِ الشكوى والشهادة جانبًا، لندعِ الماضي كلّه جانبًا ولننظر فيما هو أهمّ وأجدى، ينبغي أن يكون محضرك خيرًا وبركة، فلنعقد الصلح بين أمّي وزوجي، ولتتعهّدا لك بأن تحافظا عليه على الدوام...

ارتاح السيّد أحمد إلى هٰذا الاقتراح، غير أنّه قال بلباقة وهو يهزّ رأسه معترضًا:

ـ كلّا، لن أقبل أن أعقد صلحًا، فإنّ الصلح لا يكون إلّا بين ندّين، والطرفان هنا هما والدتنا من ناحية وابنتنا من ناحية أخرى، وليست الابنة كالأمّ، فيجب أوّلًا أن تعتذر خديجة إلى أمّها عمّا سلف، لتعفو أمّها عنها إذا شاءت، ثمّ نتكلّم بعد ذٰلك في الصلح...

ابتسمت العجوز حتّى تضامّت تجاعيدها، غير أنّها نظرت نحو خديجة بحذر، ثمّ أعادت بصرها إلى السيّد ولم تنبس، فاستطرد السيّد قائلًا:

ـ يبدو أنّ اقتراحي لم يصادف قبولًا. . .

فقالت العجوز بامتنان:

ـ إنّك لا تنطق إلّا عن الصواب: سلّم فوك، وبارك الله في عمرك. . .

وأشار السيّد إلى خديجة فقامت دون تردّد واقتربت منه في انكسار لم تشعر بمثله من قبل حتّى مثلت بين يديه، فقال لها بحزم:

ـ قبّلي يد والدتك، وقولي لها: اصفحي عنّي يا نينة. . .

آه، ما كانت تتخيّل ـ ولا في الكابوس ـ أنّها يمكن أن تقف هٰذا الموقف أبدًا، ولٰكن أباها ـ أباها المعبود ـ هو الذي قضى به، أجل قضى به مَن لا تستطيع لقضائه ردًّا. فلتكن مشيئة الله. تحوّلت خديجة إلى العجوز، ومالت نحوها، ثمّ تناولت اليد التي رفعتها إليها ـ إي والله رفعتها إليها دون ممانعة ولو في الظاهر ـ ولثمتها، وهي تشعر باشمئزاز وتقزّز وقهر أليم، ثمّ غمغمت قائلة:

ـ اصفحي عنّي يا نينة!. . .

فنظرت العجوز إليها مليًّا وقد شاع البشر في وجهها، ثمّ قالت:

ـ صفحت عنك يا خديجة، صفحت عنك إكرامًا لأبيك، وقبولًا لتوبتك. . .

وندّت عنها ضحكة صبيانيّة، ثمّ استطردت تقول بتحذير:

ـ لا جدال بعد اليوم في الشركسيّة، الا يكفيكم أنّكم فقتم الدنيا في الطواجن والأرزّ المحشوّ. . .؟

قال السيّد بسرور:

ـ الحمد لله على الصلح (ثمّ وهو يرفع رأسه إلى خديجة). . . نينة دائمًا ليست تيزة، هٰذه نينة كالأخرى سواء بسواء. . .

ثمّ بصوت خفيض أسيف:

ـ من أين جئت بهٰذا الخلق يا خديجة؟ ما كان ينبغي لأحد نشأ في بيتي أن يعرفه، أنسيت أمّك وما تتحلّى به من أدب ودماثة؟ أنسيت أنّ أيّ شرّ تأتينه إنّما يسوّد وجهي أنا؟ لقد عجبت والله وأنا أستمع إلى حديث أمّك، ولسوف أعجب طويلًا. . .

ـ ٢٢ ـ

رقيت الجماعة في السلّم عائدة إلى مساكنها عقب رحيل السيّد أحمد عبد الجواد، كانت خديجة تتقدّم القافلة بوجه مربدّ تعلوه صفرة الغضب والحنق، وكان الآخرون يشعرون بأنّ الصفاء لم يزل أبعد ما يكون عن القلوب فأشفقوا ممّا سيتمخّض عنه صمت خديجة، لذٰلك صحب خليل وعائشة خديجة وإبراهيم إلى شقّتهما، رغم أنّ زياط نعيمة وعثمان ومحمّد كان حريًّا بأن يعيدهما إلى شقّتهما فورًا، ولـمّا عادوا إلى مجلسهم بالصالة قال خليل ـ وهو بسبيل جسّ النبض ـ مخاطبًا أخاه:

ـ كانت كلمتك الختاميّة حاسمة فأنت بخير النتائج. . .

فتكلّمت خديجة لأوّل مرّة قائلة بانفعال:

ـ أنت بالصلح أليس كذٰلك؟ هي السبب فيما نزل بي من مذلّة لم أتعرّض لمثلها من قبل. . .

فتساءل إبراهيم كالمستنكر:

ـ لا مذلّة في أن تقبّلي يد أمّي أو تستصفحيها. . .

فقالت دون مبالاة:

ـ إنّها أمّك أنت، ولٰكنّها عدوّتي أنا، ما كنت لأدعوها نينة لولا أمر بابا، أجل فما هي إلّا نينة بأمر بابا، وبأمر بابا وحده!

مال إبراهيم إلى مسند الكنبة وهو يتنهّد يائسًا، وكانت عائشة قلقة ولا تدري أيّ أثر تركه امتناعها عن الشهادة في نفس أختها، وزاد من قلقها تجنُّب خديجة النظر إليها، صمّمت على محادثتها لتحملها على معالنتها بحقيقة مشاعرها، فقالت برقّة:

ـ ليس في الأمر مذلّة وقد تصافيتما، ويجب ألّا تذكري إلّا حسن الختام. . .

فتصلّب جذع خديجة ورمقتها بنظرة غاضبة، ثمّ قالت بحدّة:

ـ لا تكلّميني يا عائشة، أنت آخر شخص في الدنيا يحقّ له أن يكلّمني. . .

فتظاهرت عائشة بالدهش، وتساءلت وهي تقلّب عينيها بين إبراهيم وخليل:

ـ أنا؟! لماذا لا سمح الله؟!

فقالت بصوت كالرصاص برودة وحدّة:

ـ لأنّك خنتني وشهدت بصمتك عليّ! لأنّك آثرت إرضاء الأخرى على مظاهرة أختك، هٰذه هي الخيانة بعينها. . . !

ـ أمرك عجيب يا خديجة! . . كلّ واحد يعلم بأنّ الصمت كان في صالحك!

فقالت بنفس اللهجة أو أشدّ:

ـ لو راعيت صالحي حقًّا لشهدت لي بالحقّ أو بالباطل لا يهمّ، ولٰكنّك آثرت التي تُطعمك على أختك، لا تكلّميني، ولا كلمة واحدة، لنا أمّ يكون عندها الكلام.

وفي ضحى اليوم التالي ذهبت خديجة لزيارة أمّها رغم توحّل الطرقات وامتلاء منخفضاتها بالمياه الراكدة، ومضت إلى حجرة الفرن، فنهضت أمّها لاستقبالها في سرور وحرارة، وأقبلت نحوها أمّ حنفي مهلّلة، ولٰكنّها ردّت السلام بكلمات مقتضبة حتّى تفحّصتها أمّها بنظرة متسائلة، فقالت دون تمهيد:

ـ جئتك لتري رأيك في عائشة. . . فلم يعد بي طاقة لأتحمّل أكثر ممّا تحمّلت. . .

لاح في وجه أمينة اهتمام مقرون بالأسى، فقالت وهي تشير إليها برأسها كي تسبقها إلى الخارج:

ـ ماذا حدث كفى الله الشرّ؟ حدّثني أبوك بما كان في السكّريّة، فما دخل عائشة في ذٰلك؟ (ثمّ وهما ترقيان في السلّم). . . ربّاه يا خديجة، طالما رجوتك أن توسّعي من صدرك، حماتك عجوز ينبغي مراعاة سنّها، إنّ ذهابها إلى الدكّان وحده في جوّ كجوّ أمس برهان على ضعف عقلها، ولٰكن ما الحيلة؟ كم غضب أبوك! لم يكن يصدّق أنّه يمكن أن تندّ عنك كلمة سوء، ولٰكن ماذا أغضبك من عائشة؟ لقد صمتت أليس كذٰلك؟ لم يكن في وسعها أن تخرج عن الصمت. . .

وجلستا في الصالة ـ مجلس القهوة ـ على كنبة جنبًا إلى جنب، وخديجة تقول محذّرة:

ـ نينة أرجو ألّا تنضمّي إليهم، ما لي يا ربّي لا أجد نصيرًا في هٰذه الدنيا!

فابتسمت الأمّ ابتسامة عتاب، وقالت:

ـ لا تقولي هٰذا، لا تتصوّري هٰذا يا بنيّة، ولٰكن خبّريني ماذا وجدت من عائشة؟

وهي تدفع بيدها الهواء كأنّما تلطم عدوًّا:

ـ كلّ شرّ، شهدت عليّ، فأوقعت بي شرّ هزيمة. . .

ـ ماذا قالت؟

ـ لم تقل شيئًا. . .

ـ الحمد لله. . .

ـ إنّ المصيبة جاءت من أنّها لم تقل شيئًا. . .

تساءلت أمينة، وهي تبتسم في عطف:

ـ وماذا كان في وسعها أن تقول؟

وكأنّما كبر عليها تساؤل أمّها، فقالت بعبوس وحدّة:

ـ كان في وسعها بأن تشهد بأنّني لم أعتدِ على المرأة، لِمَ لا، لو فعلتُ ما جاوزتُ واجبات الأخوّة، كان في وسعها على الأقلّ أن تقول إنّها لم تسمع شيئًا، الحقّ أنّها آثرت المرأة عليّ، خذلتني وتركتني أقع تحت رحمة الماكرة الشامتة، لن أنسى هٰذا لعائشة ما حييت! . . .

قالت أمينة، بإشفاق وألم:

ـ خديجة لا ترعبيني، كان يجب أن يكون كلّ شيء قد نُسي في الصباح. . .

ـ نُسي؟! لم أنم من الليل ساعة، سهدت وبرأسي مثل النار، كلّ مصيبة كانت تهون لو لم تجيء من عائشة، من أختي؟! لقد ارتضت أن تنضمّ إلى حزب الشيطان، حسنًا، ليكن ما تشاء! كان لي حماة فأصبح لي اثنتان، عائشة! . . . ربّاه طالما سترتها، لو كنت خائنة مثلها لقصصت على أبي ما تزخر به حياتها من قلّة الأدب، إنّها تحبّ أن يعرف عنها أنّها ملك كريم وأنّني شيطان رجيم. كلّا، أنا خير منها ألف مرّة، إنّ لي كرامة لا يعلو إليها التراب، ولولا أبي (وهنا اشتدّت نبراتها حدّة) لما استطاعت قوّة في الأرض أن تحملني على أن أقبّل يد عدوّتي أو أن أدعوها نينة!

ربّتت أمينة كتفها برقّة، وهي تقول:

ـ أنت غضبى، دائمًا غضبى، هدّئي من روعك،

ستبقين معي حتّى نتغدّى معًا ثمّ نتحادث في هدوء...

ـ إنّي في كامل عقلي وأعرف معنى ما أقول، أريد أن أسأل أبي، أيّتهما خير من الأخرى: التي تلزم بيتها، أم التي تزور بيت الجيران فتغنّي وترقص ابنتها؟!

تنهّدت أمينة، وقالت بحزن:

ـ إنّ رأي أبيك في هٰذا لا يحتاج إلى سؤال، ولٰكنّ عائشة سيّدة متزوّجة والرأي الأعلى في سلوكها لزوجها، وما دام يسمح لها بزيارة الجيران ويعلم بأنّها تغنّي بين صديقاتها اللاتي يحببنها ويحببن صوتها فما شأننا نحن؟! لك الله يا خديجة!... أتسمّين هٰذا قلّة أدب؟! هل يُغضبك حقًّا أن ترقص نعيمة؟! إنّها في السادسة وما رقصها إلّا لعبًا، لست إلّا غاضبة يا خديجة، سامحك الله...

فقالت خديجة بإصرار:

ـ إنّي أعني كلّ كلمة قلتها، وإذا كان يعجبك أن تغنّي ابنتك عند الجيران وترقص ابنتها، فهل يعجبك أيضًا أن تدخّن، كالرجال؟! نعم، ها أنت تدهشين! أكرّر على مسمعك أنّ عائشة تدخّن، وأنّ التدخين صار لها كيفًا لا تملك الامتناع عنه، وأنّ زوجها يعطيها العلبة ويقول لها بكلّ بساطة «علبتك يا شوشو»، رأيتها بنفسي وهي تأخذ النفَس وهي تُخرجه من فمها وأنفها، أنفها أتسمعين؟ لم تعد تخفي عنّي ذٰلك كما كانت تفعل أوّل الأمر، بل دعتني إليه مرّة بحجّة أنّه مهدّئ للأعصاب الحامية. هٰذه هي عائشة، فما قولك؟ وما قول أبي يا ترى؟

ساد الصمت، وبدت أمينة في حيرة شائكة، غير أنّها صمّمت على خطّة التهدئة التي التزمتها، قالت:

ـ التدخين عادة قبيحة بالقياس إلى الرجال أنفسهم، أبوك لم يدخّن قطّ، فماذا أقول عليه بالنسبة إلى النساء؟! ولٰكن ما القول أيضًا إذا كان زوجها هو الذي أغراها به وعلّمها إيّاه؟ ما الحيلة يا خديجة؟ إنّها لزوجها لا لنا، ولم يبقَ إلّا النصح إن كان يجدي...

فجعلت خديجة تنظر إليها في صمت وشى بتردّدها قبل أن تقول:

ـ إنّ زوجها يدلّلها تدليلًا معيبًا حتّى أفسدها وأشركها في كافّة معاصيه، ليس التدخين بشرّ عاداته، ولكنّه يشرب الخمر في بيته دون حياء، إنّ بيته لا يخلو من الزجاجة كأنّها ضرورة من ضرورات الحياة وسوف يوقعها في الخمر كما أوقعها في التدخين، لِمَ لا؟ العجوز تعلم بأنّ شقّة ابنها حانة ولٰكنّها لا تكترث لذٰلك، سوف يسقيها الخمر، بل إنّي أقطع بأنّه فعل فإنّي شممت مرّة في فمها رائحة غريبة، وسألتها عنها وضيّقت عليها رغم إنكارها، أؤكّد لك أنّها شربت الخمر وأنّها بسبيل اعتيادها كالتدخين...

صاحت الأمّ في يأس:

ـ إلّا هٰذا يا ربّ، ارحمي نفسك وارحمينا، اتّقي الله يا خديجة...

ـ إنّي تقيّة وربّنا عالم، لا أدخّن ولا تفوح من فيّ روائح مريبة! ولا أسمح للخمر بأن تدخل شقّتي! ألم تعلمي بأنّ البغل الآخر حاول أن يقتني هٰذه الزجاجة المحرّمة؟! ولٰكنّي وقفت له بالمرصاد، قلت له بصريح العبارة: إنّي لا أبقى مع زجاجة خمر في شقّة واحدة، فتراجع أمام تصميمي، وجعل يحتفظ بزجاجته عند أخيه في شقّة الهانم التي خانتني بالأمس، وكلّما صرختُ لاعنة الخمر وشاربيها، قال لي ـ قطع الله لسانه ـ «من أين جئت بهٰذه الحنبليّة؟ هٰذا أبوك منبع الأنس كلّه وقلّ أن يخلو له مجلس من الكأس والعود!» أسمعت ماذا يقال عن أبي في بيت آل شوكت؟!

لاحت في عينَي أمينة نظرة حزن وجزع، وجعلت تقبض راحتيها وتبسطها في اضطراب وقلق، ثمّ قالت بصوت نمّت نبراته عن التشكّي والتألّم:

ـ رحماك يا ربّي، لم نخلق لشيء من هٰذا، عندك العفو والرحمة، يا ويل النساء من الرجال، لن أسكت ولا يصحّ أن أسكت، سأحاسب عائشة حسابًا عسيرًا، ولٰكنّي لا أصدّق ما تقولين عنها، إنّ سوء ظنّك بها جعلك تتخيّلين ما لا أصل له، ابنتي طاهرة وستظلّ طاهرة ولو انقلب زوجها شيطانًا رجيمًا، سأحدّثها حديثًا صريحًا، وسأحادث سي خليل نفسه إن

لزم الأمر، فليشرب كما يشاء حتّى يتوب الله عليه. . . أمّا ابنتي فحدّ الله بينها وبين الشيطان. . .

هفّت على نفس خديجة نسمة راحة لأوّل مرّة، فتابعت جزع أمّها بعين راضية واطمأنّت إلى أنّ عائشة ستشعر قريبًا بمدى الخسران الذي مُنيت به جزاء خيانتها، ولم تأبه كثيرًا لما أضفت على الوقائع من مبالغة في التصوير أو حدّة في الوصف ممّا جعلها تسمّي شقّة أختها حانة، وهي تعلم بأنّ إبراهيم وخليل لا يقربان الخمر إلّا في أحوال نادرة وفي اعتدال لم يبلغ حدّ السكر أبدًا، ولٰكنّها كانت حانقة ثائرة، أمّا ما قيل عن أبيها من أنّه منبع الأنس. . . إلخ، فقول أعادته على أمّها بلهجة استنكار لا تدع مجالًا للشكّ في كفرها به، ولٰكنّ الحقيقة أنّها اضطرّت من زمن إلى التسليم بما يقال أمام إجماع إبراهيم وخليل وأمّهما العجوز، خصوصًا وأنّهم كاشفوها بما يعلمون عنه في غير ما تحامل عليه أو انتقاد له، بل وهم ينوّهون بأريحيّته ويعقدون له زعامة الظرف في عصره، قابلت ذٰلك الإجماع بادئ الأمر بعناد غليظ، ثمّ داخلها الشكّ رويدًا وإن لم تعلنه، ووجدت عسرًا شديدًا في مزج هٰذه الصفات الجديدة بالشخصيّة الوقور الجبّارة التي آمنت بها طوال حياتها، غير أنّ هٰذا الشكّ لم يهوّن من شأنها وجلالها، بل لعلّها أثّرت في نظرها بما انضاف إليها من ظرف وأريحيّة. لم تقنع بما أحرزت من نصر، فعادت تقول بلهجة التحريض:

ـ عائشة لم تخنّي فحسب، ولٰكنّها خانتك أيضًا. . .

وصمتت ريثما يتغلغل قولها في الأعماق، ثمّ استطردت قائلة:

ـ إنّها تزور ياسين ومريم في قصر الشوق. . .

هتفت أمينة وهي تحملق فيها بفزع:

ـ ماذا قلت؟

فقالت وهي تشعر بأنّها تسوّرت ذروة الظفر:

ـ هٰذه هي الحقيقة المحزنة! زارنا ياسين ومريم أكثر من مرّة، زارا عائشة وزاراني، أقول الحقّ إنّي اضطُررت لاستقبالهما وما كاد يسعني إلّا أن أفعل إكرامًا لياسين غير أنّه كان استقبالًا متحفّظًا، ودعاني ياسين إلى زيارة قصر الشوق، ولست في حاجة إلى أن أقول لك إنّني لم أذهب، وتكرّرت الزيارة دون أن يغيّر ذٰلك من تصميمي حتّى قالت لي مريم «لِمَ لا تزورينا ونحن أختان من قديم الزمان؟» ولٰكنّي اعتذرت بشتّى المعاذير، وبذلتْ كلّ حيلها لاجتذابي، وجعلت تشكو لي معاملة ياسين لها واعوجاج سلوكه وانصرافه عنها، علّها ترقّق قلبي ولٰكنّي لم أفتح لها صدري. . . عائشة على خلاف ذٰلك، تستقبلها بالترحاب والقبل، الأدهى من ذٰلك أنّها تبادلها الزيارة، وقد صحبت معها مرّة سي خليل، وفي مرّة أخرى صحبت نعيمة وعثمان ومحمّد، لشدّ ما تبدو سعيدة بتجديد صداقتها لمريم، وقد نبّهتها إلى مجاوزتها الحدّ في ذٰلك فقالت لي «لا مأخذ على مريم إلّا أنّنا رفضنا يومًا أن نجعل منها خطيبة للمرحوم الغالي، فأيّ وجه للعدل في هٰذا؟!»، قلت لها «أنسيت الجنديّ الإنجليزيّ؟» فقالت لي «لا ينبغي أن نذكر إلّا أنّها زوجة أخينا الأكبر». هل سمعت يا نينة عن شيء كهٰذا من قبل؟

استسلمت أمينة للحزن، فنكست رأسها ولاذت بالصمت، فجعلت خديجة تنظر إليها مليًّا، ثمّ عادت تقول:

ـ هٰذه هي عائشة بلا زيادة ولا نقصان، عائشة التي شهدت عليَّ أمس فأذلّتني أمام العجوز المخرّفة. . .

تنهّدت أمينة من الأعماق، ورمقت خديجة بعينين فاترتين، ثمّ قالت بصوت خافت:

ـ عائشة طفلة تأبى أن يكون لها عقل أو وزن، ولن تزال كذٰلك مهما امتدّ بها العمر، فهل يسعني أن أقول غير ذٰلك؟! لا أودّ ولا أستطيع، هل هانت عليها ذكرى فهمي؟ لا أستطيع أن أصدّق ذٰلك، ألم يكن في وسعها أن تقتصد في عواطفها حيال تلك المرأة ولو إكرامًا لي؟! لكن لن أسكت عن هٰذا، سأقول لها إنّها أساءت إليّ وإنّني غاضبة حزينة لأرى ما يكون منها بعد ذٰلك. . .

فأمسكت خديجة بخصلة من سوالفها، وقالت:

ـ أحلق هٰذا لو صلح لها حال! إنها تعيش في دنيا

غير الدنيا التي نعيش فيها، لست أتحامل عليها وربّنا يعلم، إنّني لم أخاصمها ولا مرّة مذ تزوّجت، حتّى أنّني طالما حملت عليها لما يقع منها من إهمال لأطفالها أو تملّق مزرٍ لحماتها وغير ذٰلك ممّا حدّثتك عنه في حينه، ولٰكنّ حملتي لم تجاوز حدّ النصح الحازم أو النقد الصريح، هٰذه أوّل مرّة يضيق بها صدري فأعالنها الخصام:

فقالت الأمّ برجاء وإن ظلّ وجهها ممتعضًا:

- دعي الأمر لي يا خديجة، أمّا أنت فلا أحبّ أن يفصل بينك وبينها خصام أبدًا، لا يصحّ أن يفترق قلباكما وأنتما تعيشان معًا في بيت واحد، لا تنسي أنّها أختك وأنّك أختها، بل أختها الكبرى، إنّ قلبك أبيض والحمد لله، وهو مترع بالحبّ لأهلك جميعًا، إنّي كلّما اشتدّ أمر لم أجد عزاء إلّا في قلبك، وعائشة مهما يكن من هفواتها هي أختك، لا تنسي هٰذا...!

فهتفت في تأثّر:

- إنّي أغفر لها كلّ شيء إلّا شهادتها عليّ...!

- لم تشهد عليك، خافت أن تغضبك كما خافت أن تغضب حماتها فلاذت بالصمت، إنّها تكره أن تغضب أحدًا - كما تعلمين - وإن كانت رعونتها كثيرًا ما تغضب الكثيرين، لم تقصد الإساءة إليك أبدًا، فلا تحمّلي تصرّفها أكثر ممّا يحتمل، سأزوركم غدًا لأصفّي حسابي معها، ولٰكنّي سأصلح بينكما وإيّاك أن تمتنعي عن الصلح...

ولأوّل مرّة تتجلّى في عينيْ خديجة نظرة قلقة مشفقة حتّى أنّها غضّت عينيها لتخفيها عن أمّها، وصمتت قليلًا، ثمّ قالت بصوت خافت:

- ستجيئين غدًا...؟

- نعم، لم يعد الحال يحتمل الصبر.

خديجة كأنّما تحدّث نفسها:

- سوف تتّهمني بأنّني أفشيت أسرارها...

- ولو!...

ولـمّا آنست منها مزيدًا من القلق والإشفاق، عادت تقول:

- على أيّ حال أنا أعرف ما يقال وما لا يقال...

فقالت خديجة بارتياح:

- هٰذا أفضل، فهيهات أن تعترف بحسن نيّتي ورغبتي في إصلاح أمرها...!

- ٢٣ -

- آه...!

ندّت عنه بغتة مفعمة بالحرارة والانفعال عندما رأى عايدة خارجة من باب القصر. كان يقف كعادته كلّ أصيل على طوار العبّاسيّة يراقب البيت من بعيد وغاية أمانيه أن يلمحها في شرفة أو نافذة. وكان يرتدي بدلة رصاصيّة أنيقة كأنّما أراد أن يجاري الجوّ الذي بعثت فيه الأيّام الأخيرة من مارس أريحيّة ولطفًا وبشاشة، فضلًا عن أنّه كان يزداد تأنّقًا كلّما ازداد ألـمًا وقنوطًا. وكانت عيناه لم ترياها مذ خاصمته في الكشك، ولٰكنّ الحياة لم تكن تتيسّر له إلّا أن يحجّ كلّ أصيل إلى العبّاسيّة فيطوف بالقصر من بعيد في مثابرة لا تعرف اليأس، معلّلًا نفسه بالأحلام، قانعًا إلى حين باجتلاء المقام واجترار الذكريات. وكان الألم في الأيّام الأولى للفراق كالمجنون في هذيانه ووسوسته، ولو طال به الأمد على ذٰلك لقضى عليه، ولٰكنّه نجا من تلك المرحلة الخطيرة بفضل اليأس الذي وطّن النفس عليه من قديم، فانسرب الألم إلى مستقرّ له في الأعماق يؤدّي فيه وظيفته من غير أن يعطّل سائر الوظائف الحيويّة كأنّه عضو أصيل في الجسم أو قوّة جوهريّة في الروح، أو أنّه كان مرضًا حادًّا هائجًا ثمّ أزمن فزايلته الأعراض العنيفة واستقرّ، غير أنّه لم يتعزّ - وكيف يتعزّى عن الحبّ، وهو أجلّ ما كاشفته به الحياة؟ - ولٰكنّه كان يؤمن إيمانًا عميقًا بخلود الحبّ، فكان عليه أن يصبر كما ينبغي لإنسان مقدور عليه بأن يصاحب داء إلى آخر العمر.

ولـمّا رآها وهي تغادر القصر فجأة ندّت عنه هٰذه الآهة، وتابعت عيناه عن بعد مشيتها الرشيقة التي طال تشوّقه إليها حتّى رقصت روحه رقصة قطر هيمانها حنينًا وطربًا، ومالت المعبودة إلى اليمين وسارت في شارع السرايات، فشبّت في روحه ثورة اجتاحت

الهزيمة التي راضَ عليها النفس قرابة ثلاثة أشهر ففزع به قلبه إلى أن يطرح همومه عند قدميها وليكن ما يكون. واتّجه دون تردّد إلى شارع السرايات. كان في الماضي يحذر الكلام أن يفقدها، الآن ليس ثمّة ما يخاف عليه، إلى أنّ العذاب الذي عاناه طيلة الأشهر الثلاثة الماضية لم يدع له سبيلًا إلى التردّد أو التراجع. ولم تلبث أن انتبهت إلى اقتراب خطاه، فالتفتت إلى الوراء فرأته على بعد خطوات منها، ولٰكنّها أعادت رأسها إلى وضعه الأوّل دون مبالاة. لم يكن يتوقّع استقبالًا ألطف، ولٰكنّه قال معاتبًا:

ـ أهٰكذا يكون اللقاء بين الأصدقاء القدماء؟!

فكان الجواب أن حثّت الخطى دون أن تعيره أدنى التفات، فأوسع خطوه مستمدًّا من ألمه عنادًا، ثمّ قال وهو يوشك أن يحاذيها:

ـ لا تتجاهليني فهٰذا شيء يفوق الاحتمال ولا داعي له لو راعيت الإنصاف...

وكان أخوف ما يخاف أن تصرّ على تجاهله حتّى تبلغ هدفها المقصود، ولٰكنّ الصوت الرخيم خاطبه قائلًا:

ـ من فضلك ابتعد عنّي، ودعني أسير في سلام.

فقال بإصرار وتوسّل معًا:

ـ ستسيرين بسلام، ولٰكن بعد أن نصفّي الحساب...

فقالت بصوت تردّد عميقًا واضحًا في صمت الطريق الأرستقراطيّ الذي بدا خاليًا أو شبه خالٍ:

ـ لا أدري شيئًا عن هٰذا الحساب، ولا أريد أن أدري، أرجو أن تسلك سلوك الجنتلمان...!

فقال بحرارة ووجد:

ـ أعدك بأن أسلك سلوكًا يُعتبر بالقياس إلى الجنتلمان نفسه مثاليًّا، وليس في وسعي أن أفعل غير هٰذا، إذ إنّك أنت التي توحين إليّ بسلوكي.

قالت ولم تكن تنظر إلى ناحيته:

ـ أعني أن تتركني في سلام، هٰذا ما عنيته...

ـ لا أستطيع، لا أستطيع قبل أن تعلّن براءتي من التهم الظالمة التي عاقبتني عليها دون استماع إلى دفاعي...

ـ أعاقبتك أنا؟!

تغاضى عن الحديث لحظة خاطفة كي يتملّى سحر الحال، فقد رضيت أن تحاوره، وأن تتمهّل في خطوها السعيد، وسواء أكان هٰذا لأنّها تودّ أن تستمع إليه أم لأنّها تتعمّد إطالة المسافة حتّى تتخلّص منه قبل بلوغ هدفها فلن يغيّر هٰذا من الحقيقة الباهرة، وهي أنّهما يسيران جنبًا إلى جنب في شارع السرايات، تحفّ بهما أشجار الطريق الباسقة، وترنو إليهما من فوق أسوار القصور عيون النرجس الساجية وثغور الياسمين الباسمة، في هدوء عميق يتعطّش قلبه المستعر إلى نفحة منه، وقال:

ـ عاقبتني أشدّ عقاب باختفائك عنّي ثلاثة أشهر كاملة وأنا أتعذّب عذاب المتّهم البريء...

ـ يحسن ألّا نعود إلى ذٰلك...

في انفعال وضراعة:

ـ بل يجب أن نعود إليه، إنّي مُصِرّ على ذٰلك وأتوسّل إليك باسم العذاب الذي عانيتُه حتّى لم يعد بي قوّة لتحمّل المزيد منه...

تساءلت في هدوء:

ـ ما ذنبي أنا في ذٰلك؟

ـ أريد أن أعرف: ألا تزالين تعدّينني معتديًا؟ الأمر المؤكّد أنّني لا أستطيع أن أسيء إليك بحال، ولو تذكّرت مودّتي طوال الأعوام الماضية لاقتنعت برأيي دون عناء، دعيني أفصّل لك الأمر بكلّ صراحة، لقد دعاني حسن سليم إلى مقابلته عقب الحديث الذي دار بيننا في الكشك.

قاطعته فيما يشبه الرجاء:

ـ دعنا من هٰذا، إنّه ماضٍ انتهى...

وقعت الجملة الأخيرة من أذنه موقع النياحة من أذن الميت لو كان ميت يسمع، ثمّ قال بتأثّر بدا في نبراته كالنغمة إذا هبطت من الجواب إلى القرار:

ـ انتهى...، أعلم أنّه انتهى، لٰكنّي أطمع في حسن الختام، لا أريد أن تذهبي وأنت تظنّين بي الغدر، أو الغيبة، إنّني بريء ويعزّ عليّ أن تسيئي الظنّ بشخص يكنّ لك كلّ إعزاز واحترام، فلا يجري

لك ذكر على لسانه إلّا مقرونًا بكلّ ثناء...

ألقت عليه نظرة وهي تميل برأسها إلى الناحية الأخرى كأنّما تداعبه قائلة «من أين لك بهٰذه البلاغة كلّها؟»، ثمّ قالت بشيء من الرقّة:

ـ يبدو أنّه وقع سوء تفاهم غير مقصود، ولٰكن ما فات فات...

بحماس وأمل:

ـ بل لا يزال في النفس شيء من الشكّ فيما أرى.

فقالت بتسليم:

ـ كلّا، لا أنكر أنّي أسأت الظنّ حينًا، ولٰكن تبيّن لي الحقّ بعد ذٰلك...

فطفا قلبه فوق موجة من السعادة ترنّح فوقها كالثمل، ثمّ تساءل:

ـ متى عرفت ذٰلك؟

ـ منذ زمن غير قصير...

ورنا إليها بامتنان، وعبرته حال من الوجد يحلو معها نوع من البكاء، ثمّ قال:

ـ عرفت أنّني بريء؟...

ـ نعم...

هل يستردّ حسن سليم احترامه عن جدارة؟

ـ وكيف عرفت الحقيقة؟

فقالت بعجلة توحي الرغبة في إنهاء التحقيق:

ـ عرفتها... وهٰذا هو المهمّ...

تجنّب الإلحاح أن يضايقها، ولٰكنّ خاطرًا خطر فأظلّت على قلبه سحابة من الكدر حتّى قال متشكّيًا:

ـ ومع ذٰلك أصررت على الاختفاء! لم تكلّفي نفسك إعلان العفو ولو بإشارة أو كلمة مع أنّك افتننت في إعلان الغضب! ولٰكنّ عذرك واضح، وهو عندي مقبول...

ـ أيّ عذر هٰذا؟

بصوت حزين:

ـ إنّك لا تعرفين الألم، وإنّي أسأل الله مخلصًا ألّا تعرفيه أبدًا...

قالت كالمعتذرة:

ـ ظننت أنّه لا يهمّك أن تكون متّهمًا...!

ـ سامحك الله، لقد اهتممتُ أكثر ممّا تتخيّلين، وساءني جدًّا أن أجد الشقّة بيننا واسعة، فلم يقف الأمر عند حدّ أنّك تجهلين ما أكنّه لك من... من مودّة، ولٰكنّه جاوز ذٰلك إلى إلصاق التهم الظالمة بي، فانظري أين كنتُ وأين كنتِ؟ على أنّي أصارحك بأنّ الاتّهام الجائر لم يكن أسوأ ما عانيت من ضروب الألم...

باسمة:

ـ لم يكن ضربًا واحدًا من ضروب الألم إذن؟!

فشجّعته الابتسامة ـ كما تشجّع الطفل ـ على الاسترسال في عاطفته، فقال بوجد وانفعال:

ـ بلى، وكانت التهمة أخفّ الآلام، أمّا أشدّها فكان اختفاؤك، كان لكلّ ساعة من ساعات الأشهر الثلاثة الماضية نصيبها من آلامي، عشت أشبه ما يكون بالمجانين، لهٰذا أدعو الله صادقًا ألّا يمتحنك بالألم، دعاء مجرِّب، فإنّ لي بالألم تجربة وأيّ تجربة، وأقنعتني هٰذه التجربة القاسية بأنّه إذا كان مقدورًا عليّ أن تختفي من حياتي، فمن الحكمة أن أبحث لي عن حياة أخرى، كان كلّ شيء كلعنة طويلة مقيتة، لا تهزئي بي، أنا أتوجّس من ناحيتك شيئًا كهٰذا دائمًا، ولٰكنّ الألم أجلّ من أن يُهزأ به، لا أتصوّر أن يهزأ ملاك كريم مثلك من عذاب الآخرين ودعي جانبًا أنّك سببه، لٰكن ما الحيلة؟ قُضي عليّ من قديم أن أحبّك بكلّ قوّة نفسي...

ساد صمت مقطّع بأنفاسه المتردّدة، وكانت تنظر إلى الأمام فلم يطالع عينيها ولٰكنّه وجد في صمتها راحة لأنّه على أيّ حال أخفّ من كلمة سادرة وعدّه توفيقًا. تصوّر أن يجيئك صوتها ناعمًا عذبًا معربًا عن الشعور نفسه! يا له من مجنون! لماذا سكب ماء قلبه المكنون؟ لم يكن إلّا كقافز رامَ الارتفاع قَدَمًا فوجد نفسه يحلّق فوق هامة الجوّ! ولٰكن أيّ قوّة نستطيع أن تشكمه بعد ذٰلك؟

ـ لا تذكّريني بما لا أحبّ سماعه فإنّي في غنى عن ذٰلك، لن أنسى رأسي لأنّي أحمله ليل نهار، ولا أنفي فإنّي أراه مرّات كلّ يوم، ولٰكن عندي شيء لا نظير له

عند الآخرين، حبّي لا نظير له، إنّي فخور به، ويجب أن تكوني به فخورًا أيضًا ولو زهدت فيه، هٰكذا كان مذ رأيتك أوّل مرّة في الحديقة، ألم تشعري به؟. لم أفكّر في الاعتراف من قبل لأنّي خفت أن يقطع ما بيننا من مودّة وأن يطردني من الفردوس، لم يكن من اليسير عليّ أن أغامر بسعادتي، أمّا وقد طُردت من الفردوس فعلامَ أخاف؟!

سال سرّه على لسانه كأنّه دم تعذّر منعه، ولم يكن يرى من الوجود إلّا شخصها البديع، كأنّ الطريق والأشجار والقصور والقلّة العابرة قد غابت وراء سحابة شاملة لم تنحسر إلّا عن فرجة لاحت منها المعبودة الصامتة بقامتها الهيفاء وهالتها السوداء وعارضها الموسوم بالملاحة المنطوي على الأسرار، يبدو في الظلّ حينًا أسمر صافيًا، وحينًا ـ إذا مرّا بطريق جانبيّ ـ وضّاءً منيرًا تحت شعاع الشمس المائلة للغروب، ولم يكن يبالي أن يسترسل في الحديث حتّى الصباح!

ـ أقلت لكِ إنّني لم أفكّر في الاعتراف من قبل؟ في هٰذا تجاوز، الواقع أنّني هممت بالاعتراف يوم التقينا في الكشك ونودي حسين للتليفون، كدت أعترف لولا أن عاجلْتني بمهاجمة رأسي وأنفي، فكنت (وهو يضحك ضحكة مقتضبة) كالخطيب الذي همّ بفتح فيه فانهال عليه الحصى من جمهور المستمعين؟

هادئة صامتة كما ينبغي لها، ملاك من عالم آخر لا يطيب له التحدّث بلغة البشر أو الاهتمام بشئونهم، أما كان من الأكرم له أن يصون سرّه؟!... الأكرم؟! الكبرياء حيال المعبود كفر، مواجهة القاتل بالقتيل فنّ من الحكمة، أتذكر الحلم السعيد الذي استيقظتَ منه ذات صباح فبكيت عليه؟... الحلم سرعان ما يبتلعه النسيان، أمّا الدموع أو بالحريّ ذكراها فتبقى رمزًا خالدًا، وإذا بها تقول:

ـ لم أقل ما قلت إلّا على سبيل الدعابة، ورجوتك حينذاك ألّا تغضب. .

هٰذا الشعور الرطيب جدير بالتذوّق، كالفرحة السعيدة على أثر وجع ضرس وضرباته، وتداعت الأنغام الكامنة في نفسه حتّى برز منها لحن مليح، عند ذاك تراءت قسمات المعبودة رموزًا موسيقيّة للحن سماويّ مرموقة على صفحة الوجه الملائكيّ.

ـ ستجدينني قانعًا بما دون الرجاء، لأنّني كما قلت لك: أحبّك...

والتفتت صوبه في رشاقة طبيعيّة، فألقت عليه نظرة باسمة ثمّ استردّتها على عجل قبل أن يتمكّن من قراءتها، أيّة نظرة كانت يا ترى؟... نظرة رضى؟ تأثّر؟. عطف؟. استجابة؟. سخرية مهذّبة؟ وهل أصابت الوجه جملة أم اختصّت بالرأس والأنف؟ وجاءه صوتها قائلًا:

ـ لا يسعني إلّا أن أشكرك، وأعتذر لك عن إيلامك الذي لم أتعمّده، أنت رقيق وكريم...

ونزعت به النفس إلى الارتماء في أحضان الأحلام السعيدة، ولٰكنّها استطردت قائلة بصوت خافت:

ـ الآن دعني أتساءل عمّا وراء ذٰلك؟

ترى أيسمع صوت معبودته أم صدى صوته هو؟ هٰذه الجملة بنصّها محلّقة في مكان ما من سماء بين القصرين محفوفة بتنهّداته، هل آن له أن يجد لها جوابًا؟... تساءل في حيرة:

ـ هل وراء الحبّ شيء؟!

ها هي تبتسم، ترى ما معنى ابتسامتها؟ لٰكنّك غير الابتسام تروم، عادت تقول.

ـ إنّ الاعتراف بداية وليس نهاية، إنّي أتساءل عمّا تريد...؟

فأجاب بحيرة أيضًا:

ـ أريد... أريد أن تأذني لي بأن أحبّك...

فما ملكت أن ضحكت، ثمّ تساءلت:

ـ أهٰذا ما تريد حقًّا؟! ولٰكن ماذا أنت فاعل إذا لم آذن لك؟

فقال وهو يتنهّد:

ـ في هٰذه الحال أحبّك أيضًا.

فتساءلت فيما يشبه الدعابة، الأمر الذي أرعبه:

ـ فيم إذن كان الاستئذان؟

حقًّا ما أسخف هفوات اللسان، إنّ أخوف ما

يخاف أن ينحطّ على الأرض فجأة كما سما عنها فجأة، وسمعها تقول:

ـ أنت تحيّرني، ويبدو لي أنّك تحيّر نفسك أيضًا...

قال بجزع:

ـ إنّي... حائر؟ ربّما، ولٰكنّي أحبّك، ماذا وراء ذٰلك؟ يخيّل إليّ أحيانًا أنّي أطمع إلى أمور تعجز الأرض عن حملها، ولٰكنّي إذا تأمّلت قليلًا عجزت عن تحديد هدف لي، خبّريني أنت عن معنى هٰذا كلّه، أريد أن تتحدّثي وأن أستمع، هل عندك ما ينتشلني من حيرتي؟...

قالت باسمة:

ـ ليس عندي ممّا تسأل شيء، كان ينبغي أن تكون أنت المتحدّث وأنا المستمعة، ألست فيلسوفًا؟!

قال واجمًا ووجهه يتورّد:

ـ أنت تسخرين منّي...!

فقالت بعجلة:

ـ كلّا، غير أنّي لم أكن أتوقّع هٰذا الحديث عندما غادرت البيت، فاجأتني بما لم أتوقّع، وعلى أيّ حال فإنّي شاكرة ممتنّة، ولا يَسَع إنسان أن ينسى عواطفك الرقيقة المهذّبة، أمّا أن يسخر منها فهذا ما لا يخطر على بال...

نغمة آسرة ومناغمة عذبة، ولٰكنّه لا يدري أيجدّ المعبود أم يلهو، وهل تتفتّح أبواب الأمل أم توصد في خفّة النسيم، وقد سألته عمّا يريد فما أجاب لأنّه لا يدري ماذا يريد، ولٰكن ماذا عليه لو قال إنّه يطمح إلى الوصال، وصال الروح بالروح، وأن يطرق باب السرّ المغلق بعناق أو قبلة، ألا يكون هٰذا هو الجواب؟! وعند مفترق الطرق الذي ينتهي عند شارع السرايات، توقّفت عايدة عن السير، ثمّ قالت برقّة ولٰكن بلهجة قاطعة:

ـ هنا...!

فتوقّف عن السير أيضًا وهو يحملق في وجهها بدهش، «هنا» تعني أنّه يجب أن نفترق هنا، لم يكن لجملة «أحبّك» هٰذا الامتداد في المعنى الذي يغني عن السؤال، قال دون تدبّر أو تفكير:

ـ كلّا...!

ثمّ هاتفًا، كمن ظفر بكشف مضيء بغتة:

ـ ماذا وراء الحبّ؟ أليس هٰذا سؤالك؟ هاك الجواب: ألّا نفترق...!

قالت بهدوء باسم:

ـ ولٰكن يجب أن نفترق الآن...!

تساءل بحرارة:

ـ لا كدر ولا سوء ظنّ؟

ـ كلّا...

ـ أتعودين إلى زيارة الكشك؟

ـ إذا سمحت الظروف.

بقلق:

ـ كانت الظروف تسمح في الماضي!

ـ الماضي غير الحاضر...

آلمه الجواب إيلامًا عميقًا، فقال:

ـ يبدو أنّك لن تعودي...

فقالت كأنّما تنبّه إلى وجوب الافتراق:

ـ سأزور الكشك كلّما سمحت الظروف، سعيدة...

وغادرت موقفها متّجهة نحو شارع المدرسة فوقف يرنو إليها كالمسحور، وعند منعطف الطريق التفتت نحوه فألقت عليه نظرة باسمة ثمّ غابت عن ناظريه.

ماذا قال وماذا سمع؟ سيخلو إلى هٰذا عمّا قليل، بعد أن يفيق، متى يفيق؟! إنّه يسير الآن وحده، وحده؟ وخفقات القلب وهيمان الروح وأصداء النغم؟ ومع ذٰلك شعر بالوحدة بقوّة هزّت صميم فؤاده، وفغمه شذا ياسمين ساحرًا آسرًا ولٰكن ما هويّته؟ ما أشبهه بالحبّ في سحره وأسره وغموضه، لعلّ سرّ هٰذا يفضي إلى ذاك، ولٰكنّه لن يحلّ هٰذا اللغز حتّى يأتي على تراتيل الحيرة...

ـ ٢٤ ـ

قال حسين شدّاد:

ـ هٰذه جلسة الوداع واأسفاه!

امتعض كمال لدى ذكر كلمة الوداع، ورمق حسين

بنظرة سريعة ليرى إن كان وجهه ينطق بالأسف حقًّا كما نطق به لسانه! على أنّه استشعر جوّ الوداع منذ أكثر من أسبوع، إذ إنّ مجيء يونيه يؤذن عادة برحيل الأصدقاء إلى رأس البرّ والإسكندريّة، فما هي إلّا أيّام حتّى تغيب عن أفقه الحديقة والكشك والأصدقاء، أمّا المعبودة فقد ارتضت الاختفاء من قبل أن يقضي به الرحيل، وأصرّت عليه رغم الصلح الذي تُوّج به حديث شارع السرايات، لٰكن هل يمضي يوم الوداع دون زيارة؟ هل هانت المودّة إلى حدّ الضنّ بنظرة عابرة قبل سفر ثلاثة أشهر؟. تساءل كمال باسمًا:

ـ لِمَ قلت «واأسفاه!»؟

فقال حسين شدّاد باهتمام:

ـ وددت لو سافرتم معي إلى رأس البرّ، يا سلام!... أيّ تصييف كان يكون؟!...

كان يكون عجبًا بلا ريب، حسبه أنّ المعبودة لا تستطيع مواصلة الاختفاء هناك! وخاطبه إسماعيل لطيف:

ـ كان الله في عونك! كيف تحتمل حرّ الصيف هنا، إنّ الصيف لم يكد يبدأ بعد، ومع ذٰلك انظر إلى حرّ اليوم!.

كان الجوّ شديد الحرارة رغم تقلّص ذيل الشمس عن الحديقة والصحراء الممتدّة وراءها، غير أنّ كمال قال بهدوء:

ـ لا شيء في الحياة لا يمكن احتماله...

وفي اللحظة التالية كان يسخر من إجابته ويتساءل كيف أجاب بها، وإلى أيّ حدّ يمكن اعتبار أنّ أقوالنا تعبير صادق عمّا في نفوسنا؟ ونظر فيما حوله فرأى أناسًا سعداء ما في ذٰلك ريب، بدوا في قمصانهم ذوات الأكمام القصيرة وبنطلوناتهم الرماديّة كأنّما يتحدّون الحرّ، كان هو وحده الذي يرتدي بدلة كاملة ـ وإن تكن بدلة خفيفة بيضاء ـ وطربوشًا وقد وضعه على المنضدة، وإذا بإسماعيل لطيف ينوّه بنتيجة الامتحان قائلًا:

ـ نتيجة نجاح مائة في المائة، حسن سليم نال الليسانس، كمال أحمد عبد الجواد منقول، حسين شدّاد منقول، إسماعيل لطيف منقول...

قال كمال ضاحكًا:

ـ لو اكتفيت بذكر النتيجة الأخيرة لعرفنا الأخريات بداهة!

فقال إسماعيل وهو يرفع منكبيه استهانة:

ـ كلانا بلغ هدفًا واحدًا، أنت بعد كدّ وتعب تواصلا طول العام، وأنا بعد تعب شهر واحد!

ـ هٰذا دليل على أنّك عالِم بالفطرة!

فتساءل إسماعيل ساخرًا:

ـ ألم تقل مرّة في أحد أحاديثك التافهة إنّ برنارد شو كان أخيب تلميذ في عصره؟

فقال كمال ضاحكًا:

ـ الآن آمنت بأنّ عندنا نظيرًا لشو، على الأقلّ في خيبته...!

عند ذاك قال حسين شدّاد:

ـ عندي خبر ينبغي إذاعته قبل أن يسرقنا الحديث...

ولـمّا وجد أنّ قوله لم يجدِ كثيرًا في لفت الأنظار إليه نهض فجأة، ثمّ قال بلهجة لم تخلُ من تمثيل:

ـ دعوني أزفّ إليكم خبرًا طريفًا وسعيدًا (ثمّ مستدركًا وهو ينظر نحو حسن سليم) أليس كذٰلك؟ (ثمّ وهو يعود برأسه نحو كمال وإسماعيل) تمّت أمس خطبة الأستاذ حسن سليم على أختي عايدة...

وجد كمال نفسه أمام هٰذا الخبر بغتة كما يجد إنسان نفسه تحت الترام وكان أنعم ما يكون عينًا بالسلامة والأمن، خفق قلبه خفقة عنيفة كسقطة طيّارة منطلقة في فراغ هوائيّ، بل هي صرخة فزع باطنيّة تصدّعت الضلوع دون تسرّبها إلى الخارج، وقد عجب ـ خصوصًا فيما بعد ـ كيف استطاع أن يضبط مشاعره ويلاقي حسين شدّاد بابتسامة التهنئة، فلعلّه شُغل عن القارعة ـ ولو إلى حين ـ بالصراع الذي نشب بين نفسه وبين الذهول الذي طوّقها، وكان إسماعيل لطيف أوّل من تكلّم فردّد عينيه بين حسين شدّاد وحسن سليم الذي بدا هادئًا رزينًا كعادته وإن شابه هٰذه المرّة شيء من الحياء أو الارتباك، ثمّ هتف:

ـ حقًّا؟! يا له من خبر سارّ، سارّ ومفاجئ، سارّ ومفاجئ وغادر! غير أنّي سأؤجّل الحديث عن الغدر إلى حين، حسبي الآن أن أقدّم خالص التهاني...

ونهض فصافح حسين وحسن، فقام كمال من فوره للتهنئة كذلك، وكان مأخوذًا رغم ابتسامته الظاهرة بسرعة الحوادث وغرابة الأقوال حتّى خيّل إليه أنّه في حلم غريب وأنّ المطر ينهمر فوق رأسه وأنّه يتلفّت باحثًا عن مأوى، وقال وهو يصافح الشابّين:

ـ خبر سارّ حقًّا، تهانيّ القلبيّة...

عاد المجلس إلى سابق هيئته، واختلس كمال من حسن سليم نظرة على رغمه فرآه هادئًا رزينًا، وكان يشفق من أن يجده مختالًا أو شامتًا ـ كما تصوّر هٰذا ـ فداخله شيء من الارتياح العابر، وراح يستجدي نفسه أقصى ما لديها من قوّة ليستر جرحه الدامي عن العيون اليواقظ وليتفادى من موضع الهزء والزراية، تجلّدي يا نفسي وأنا أعدك بأن نعود إلى هٰذا كلّه فيما بعد، بأن نتألّم معًا حتّى نهلك، وبأن نفكّر في كلّ شيء حتّى نجنّ، ما أمتع هٰذا الموعد في هدأة الليل حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع، حيث يباح الألم والهذيان والدموع دون زراية زارٍ أو لومة لائم. وثمّة البئر القديمة أزحْ عن فوهتها الغطاء واصرخْ فيها مخاطبًا الشياطين ومناجيًا الدموع المتجمّعة في جوف الأرض من أعين المحزونين، لا تستسلم، حذار، فالدنيا تبدو لناظريك حمراء كعين الجحيم. عاد إسماعيل لطيف يقول متّخذًا لهجة الاتّهام:

ـ مهلًا، لنا عندكما حساب، كيف حدث هٰذا ودون سابق إنذار؟ أو فلندع هٰذا إلى حين، ولنسأل كيف تمّت الخطبة دون حضورنا؟

قال حسين شدّاد مدافعًا عن موقفه:

ـ لم يكن هناك حفل كبير أو صغير، اقتصر الجمع على خاصّة الأهل، موعدنا يوم الكتاب وعليك خير، ستكونان من الداعينَ لا المدعوّينَ...

يوم الكتاب! كأنّه عنوان لحن جنائزيّ، حيث يشيّع قلب إلى مقرّه الأخير محفوفًا بالورود مودّعًا بالزغاريد، وباسم الحبّ تعنو ربيبة باريس لشيخ معمّم يتلو فاتحة الكتاب، وباسم الكبرياء هجر إبليس الجنّة. قال كمال باسمًا:

ـ العذر مقبول والوعد مأمول.

فصاح إسماعيل لطيف محتجًّا:

ـ هٰذه بلاغة أزهريّة إذا لاحت لها في الأفق مائدة تناست دواعي العتاب، وتغنّت بالتسامح والثناء، كلّ ذٰلك في سبيل لقمة دسمة! حقًّا إنّك أديب أو فيلسوف أو ما شاكل ذٰلك من ضروب الشحاذة، أمّا أنا فلست كذٰلك...

ثمّ مواصلًا حملة الاتّهام على حسين شدّاد وحسن سليم:

ـ يا لكما من داهيتين، صمت طويل يعقبه فجأة إعلان خطبة، هه؟ حقًّا يا أستاذ أنّك الخليفة المنتظر لثروت باشا...

قال حسن سليم وهو يبتسم معتذرًا:

ـ إنّ حسين نفسه لم يعلم بالأمر إلّا قبيله أيّام معدودات...

فتساءل إسماعيل:

ـ خطبة من جانب واحد كتصريح ٢٨ فبراير؟

رفضته الأمّة المغلوبة على أمرها بإباء ولكنّه فُرض عليها وما كان كان، وضحك كمال ضحكة عالية، فقال إسماعيل وهو يغمز حسن سليم بعينه:

ـ استعينوا على قضاء... لا أذكر ماذا بالكتمان! قالها عمر بن الخطّاب، أو عمر بن أبي ربيعة، أو عمر أفندي، والله أعلم...

وقال كمال فجأة:

ـ جرت العادة بأن تنضج هٰذه الأمور في صمت، على أنّي أقرّ بأنّ الأستاذ حسن أشار في حديث له معي مرّة إلى شيء كهٰذا!

فرمقه إسماعيل بارتياب، على حين ألقى عليه حسن نظرة واسعة، وقال مستدركًا:

ـ كان كلامًا أشبه بالعناوين...!

تساءل كمال في دهش كيف ندّ عنه ذٰلك القول؟ إنّه كذب أو شبه كذب على أحسن تقدير، كيف يطمع ـ بهٰذا الأسلوب الشاذّ ـ أن يقنع حسن بأنّه كان على

علم بنواياه وأنّه لم يفاجأ بها أو يكترث لها؟ يا للحماقة!
أمّا إسماعيل فقد قال لحسن وهو يحدجه بنظرة عتاب:
- ولٰكنّي لم أحظَ بعنوان واحد من هٰذه العناوين!
قال حسن بجدّ:
- أؤكّد لك أنّه إذا كان كمال قد وجد في حديثي معه ما اعتبره إشارة إلى الخطبة، فإنّما يكون قد استعان على ذٰلك بخياله لا بكلماتي.
ضحك حسين شدّاد ضحكة عالية، وقال مخاطبًا حسن سليم:
- إسماعيل زميلك القديم، وهو يريد أن يقول لك إنّه إذا كنت سبقته إلى الليسانس بثلاث سنوات فلا يعني هٰذا أن تضنّ عليه بأسرارك أو أن تؤثر بها غيره!
فقال إسماعيل باسمًا، وكأنّما كان يداري مضايقته:
- إنّي لا أرتاب في زمالته القديمة، ولٰكنّي أحاسبه حتّى لا يعود إلى الوقوع في الإهمال يوم القران!
فقال كمال باسمًا:
- نحن أصدقاء الطرفين، فإذا أهملَنا العريس فلن تهملنا العروس...
إنّه تكلّم ليثبت أنّه حيّ، لكنّه حيّ يتألّم، شدّ ما يتألّم، ترى هل جرى في خاطره يومًا أن يكون لحبّه نهاية غير هٰذه النهاية؟ كلّا، غير أنّ الإيمان بأنّ الموت حتم مقدّر لا يمنع من الجزع حين حضوره، وهو ألم مفترس لا يعرف المنطق أو الرحمة، لو يستطيع أن يشخّصه ليعلم في أيّ موضع يكمن أو عن أيّ ميكروب يصدر؟! وبين نوبات الألم يرشح بالملل والفتور...
- ومتى يُعقد القران؟
إنّ إسماعيل يسأل عمّا يدور بخاطره كأنّه موكّل بأفكاره، ولٰكنّه لا ينبغي له أن يصمت. قال:
- نعم، هٰذا مهمّ جدًّا حتّى لا نؤخذ على غرّة، متى يُعقد القران؟
فتساءل حسين شدّاد ضاحكًا:
- لِمَ تتعجّلان الأمر؟! فليهنأ العريس بما بقي من عهد عزوبيّته...
وقال حسن بهدوئه المعتاد:
- ينبغي أن أعرف أوّلًا إن كنت سأبقى في مصر أم لا...؟
فقال حسين شدّاد معقّبًا:
- إمّا أن يعيّن في النيابة، أو في السلك السياسيّ...
هٰكذا يبدو حسين شدّاد مسرورًا بالخطبة، فأستطيع أن أزعم أنّني كرهته ولو دقيقة عابرة، كأنّه خانني فيمن خانوني، أخانني أحد؟ اختلطت الأمور عليّ، غير أنّ هٰذا المساء يعدني بخلوة حافلة...
- أيّها تفضّل يا أستاذ حسن؟
فليختر ما يحلو له، النيابة... السلك السياسيّ... السودان... سوريا إن أمكن...
- النيابة بهدلة، إنّي أفضّل السلك السياسيّ...
- يحسن أن تُفهم والدك ذٰلك جيّدًا حتّى يركّز عنايته في إلحاقك بالسلك السياسيّ...
أفلتت هٰذه الجملة أيضًا؟ ولا شكّ أنّها أصابت الهدف، ينبغي أن يتمالك أعصابه وإلّا وجد نفسه مشتبكًا مع حسن في نزاع علنيّ، ثمّ ينبغي أن يراعي خاطر حسين شدّاد، فهما الآن أسرة واحدة، ما أقسى هٰذه الشكّة من الألم. هزّ إسماعيل رأسه كالآسف، وقال:
- هٰذه آخر أيّامك معنا يا حسن، بعد عشرة العمر كلّه، يا لها من نهاية محزنة!.
يا للحماقة! يحسب أنّ الحزن يمسّ قلبًا واحة المعبود مرتعه.
- الواقع أنّها نهاية محزنة يا إسماعيل...
كذب في كذب، مثل تهنئتك له، يستوي في هٰذا ابن التاجر وابن المستشار. قال:
- أيعني هٰذا أنّك ستقضي عمرك كلّه خارج القطر؟
- هٰذا هو المتوقّع، لن نرى مصر إلّا في القليل النادر...
قال إسماعيل متعجّبًا:
- حياة غريبة! هلّا فكّرت فيما ينتظر أولادك من متاعب!؟
واقلباه! أيليق هٰذا العبث بالمعاني! يحسب الشرّير

أنّ المعبودة تحبل وتتوحّم وتنداح بطنها وتتكوّر ثمّ يجيئها المخاض فتلد! أتذكر خديجة وعائشة في الأشهر الأخيرة؟ هو الكفر، لِمَ لم تشترك في جمعيّة الكفّ السوداء؟ الاغتيال خير من الكفر وأنجع، وتجد نفسك يومًا في قفص الاتّهام وعلى المنصّة سليم بك صبري والد صديقك الدبلوماسيّ وحمو معبودتك، كما مثل بين يديه قتلة السردار في هٰذا الأسبوع، الخائن!...

حسين شدّاد ضاحكًا:

ـ أتقطع الدول علاقتها السياسيّة حتّى يربّى أولاد الدبلوماسيّين في بلادهم؟!

بل تقطع الرءوس! عبد الحميد عنايت... الخرّاط... محمود راشد... عليّ إبراهيم... راغب حسن... شفيق منصور... محمود إسماعيل... كمال أحمد عبد الجواد الإعدام شنقًا، القاضي الوطنيّ سليم بك صبري، القاضي الإنجليزيّ مستر كرشو، الاغتيال هو الجواب، أتريد أن تَقتُل أم تُقتَل!...

وخاطب إسماعيل حسين قائلًا:

ـ رحيل أختك سيحمل والدك على الإصرار على رفض فكرة سفرك أنت!...

فقال حسين شدّاد باطمئنان:

ـ قضيّتي تقترب من الحلّ الموفّق بخطى ثابتة...

عايدة وحسين في أوربّا! إنسان يفقد في ساعة حبيبه وصديقه، تفتقد روحك معبودها فلا تجده ويفتقد عقلك أليفه فلا يجده، وفي الحيّ العتيق تعيش وحيدًا مهجورًا كأنّك صدى حنين هائم منذ أجيال، تأمّل الآلام التي ترصدك، آن لك أن تحصد ثمار ما زرعت من أحلام في قلبك الغرّ، توسّل إلى الله أن يجعل الدموع دواءً للأحزان، وعلّق إن استطعت جسمك بحبال المشانق أو ضعه على رأس قوّة مدمّرة تنقضّ بها على العدوّ، غدًا تَلقى روحك خلاء كما لقيت بالأمس ضريح الحسين، يا خيبة الآمال، والمخلصون قتلى أمّا أبناء الخونة فسفراء. قال إسماعيل لطيف وكأنّما يخاطب نفسه:

ـ لن يبقى في مصر إلّا أنا وكمال، وكمال غير مأمون الجانب، لأنّ صديقه الأوّل ـ قبل أو بعد أو مع حسين ـ هو الكتاب...

فقال حسين في ثقة وإيمان:

ـ لن يقطع الرحيل ما بيننا من أسباب...

فخفق قلب كمال رغم فتوره، وقال:

ـ على أنّ قلبي يحدّثني بأنّك لن تحتمل الغربة إلى الأبد...

ـ هٰذا هو الراجح، ولٰكنّك ستفيد من رحلتي بما سأرسله لك من كتب، سنواصل أحاديثنا بالرسائل والكتب...

هٰكذا يتكلّم حسين كما لو كان السفر قد بات أمرًا مفروغًا منه، هٰذا الصديق الذي يسعد بلقياه سعادة فاتنة فحتّى الصمت يستمتع به في محضره، ولكلّ عزاء فذهاب المعبودة سيعلّمه كيف يستهين بالخطب وإن جلّ، هٰكذا هانت وفاة جدّته المحبوبة على النفس التي اكتوت بنار الحزن على فهمي، غير أنّه ينبغي أن يذكر دائمًا أنّه في جلسة الوداع كي يملأ عينيه من الورود والأزهار الثملة بالنضرة لا تبالي في أيّ حزن يهيم، وثمّة مشكلة ينبغي أن يجد لها حلًّا: كيف يسمو بشر إلى معاشرة المعبود أو كيف يهبط المعبود حتّى يعاشره بشر؟! فإذا لم يجد لذاك حلًّا فسوف يسير في طريقه بقدمين ترسفان في الأغلال وفي حلقه شجًا، والحبّ حمل ذو مقبضين متباعدين خُلق لتحمله يدان... فكيف يحمله وحده؟ وكان الحديث يطّرد ويتفرّع وهو يتابعه بعينيه وهزّات رأسه وكلمات يثبت بها أنّ الخطب لم يقضِ عليه بعد، وكان الأمل معقودًا بأنّ قاطرة الحياة تسير وأنّ محطّة الموت في الطريق على أيّ حال، وها هي ساعة الغروب... ساعة الظلام والهدوء... تحبّها كما تحبّ الفجر، وعايدة والألم لفظان لمعنى واحد فينبغي أن تحبّ الألم وأن تطرب للهزيمة منذ اليوم؛ ولا تزال عجلة الحديث في دوران غير منقطع والأصدقاء يتضاحكون ويتناظرون كأنّ واحدًا منهم لم يعرف الحبّ قلبه... حسين ضحكة الصحّة والصفاء، وإسماعيل ضحكة العربدة والعدوان، وحسن ضحكة التحفّظ والاستعلاء، ويأبى حسين إلّا أن يتحدّث عن رأس البرّ، أعدك بأن أحجّ إليها يومًا وأن أسأل عن الرمال

التي وطئتها أقدام المعبودة لألثمها ساجدًا، الآخران يتغنّيان بسان استفانو ويتحدّثان عن أمواج كالجبال، حقًّا؟ تصوّر جثّة تقذف بها الأمواج إلى الشاطئ وقد امتصّ البحر الرهيب جمالها ونبلها؟ ولتعترف بعد هٰذا كلّه بأنّ الملل يطوّق الكائنات وأنّ السعادة ربّما كانت وراء أبواب الموت، وتَواصَل السمر حتّى آنَ للجمع أن يتفرّق، فتصافحوا بحرارة... شدّ كمال على يد حسين، وشدّ حسين على يد كمال، ثمّ مضى وهو يقول:

ـ إلى اللقاء... في أكتوبر!

كان في مثل هٰذا الموقف من العام الماضي وما قبله يتساءل في لهفة متى يعود الأصدقاء؟ الآن ليست أشواقه رهينة بعودة أحد، ستظلّ مستعرة جاء أكتوبر أو لم يجئ، عاد الأصدقاء أو لم يعودوا. لن يلوم شهور الصيف بعد الآن لأنّها تُباعد بينه وبين عايدة، فالهوّة التي تفصل بينهما أعمق من الزمن، وقد كان يعالج الزمن بجرعات الصبر والأمل، ولٰكنّه يخاصم اليوم عدوًّا مجهولًا وقوّة خارقة غامضة لا يدري من تعاويذها ورقاها حرفًا واحدًا... فليس أمامه إلّا الصمت والتعاسة حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا. تراءى له حبّه معلّقًا فوق رأسه كالقَدَر، يشدّه إليه بأسلاك من الألم المبرّح، أشبه ما يكون في جبريّته وقوّته بالظاهرة الكونيّة، فتأمّله بعين ملؤها الإكبار والحزن.

افترق الأصدقاء الثلاثة أمام سراي آل شدّاد: فسار حسن سليم إلى شارع السرايات، واتّجه كمال وإسماعيل نحو الحسينيّة في طريقهما المعهود الذي يفترقان في نهايته، فيمضي إسماعيل إلى غمرة، ويمضي كمال إلى الحيّ العتيق، وما إن انفردا حتّى ضحك إسماعيل ضحكة عالية طويلة، فسأله كمال عمّا أضحكه، فقال في خبث:

ـ ألم تفطن بعد إلى أنّك كنت في الأسباب الجوهريّة التي دعت إلى الإسراع في إعلان الخطبة؟

ـ أنا؟!

نـدّت عن كمال وعيناه تتّسعان في ذهول، فقال إسماعيل في استهانة:

ـ نعم أنت، لم يكن حسن يرتاح إلى صداقتكما، هٰذا يبدو لي محقّقًا رغم أنّه لم ينبس لي عنه بكلمة، إنّه ذو كبرياء شديد ـ كما تعلم ـ ولٰكنّي أعرف كيف أصل إلى ما أريد، أؤكّد لك أنّه لم يكن يرتاح إلى صداقتكما، أتذكر ما نشب بينكما ذُلك اليوم؟ الظاهر أنّه طالبها بأن تحدّ من حرّيّتها في الاختلاط بالأصدقاء، والظاهر أنّها ذكّرته بأنّه لا حقّ له في مطالبته فأقدم على هٰذه الخطوة الكبيرة ليكون من أصحاب الحقوق!

قال كمال وخفقان قلبه يكاد يعلو على صوته:

ـ لٰكنّني لم أكن الصديق الوحيد! كانت عايدة صديقتنا جميعًا!

فقال إسماعيل متهكّمًا:

ـ ولٰكنّها اختارتك أنت لتثير قلقه! ربّما لأنّها آنست في صداقتك حرارة لم تجدها عند غيرك، على أيّ حال، إنّها لا تلقى الأمور ارتجالًا، وقد صمّمت منذ قديم على الظفر بحسن فجنت أخيرًا ثمرة صبرها!

«الظفر بحسن»؟ «ثمرة صبرها»! ما أشبه هاتين العبارتين بقول مأفون «شروق الشمس من الغرب»، قال وقلبه يتأوّه:

ـ ما أسوأ ظنّك بالناس! إنّها ليست على شيء ممّا تتصوّر!

فقال إسماعيل دون أن يفطن إلى شعور صاحبه:

ـ لعلّ الأمر وقع اتّفاقًا أو لعلّ حسن كان واهمًا، على أيّ حال جاءت العواقب في صالحها...

هتف كمال غاضبًا:

ـ صالحها! ماذا تظنّ؟! سبحان الله، إنّك تتحدّث عنها كما لو كانت خطبتها لحسن تعتبر ظفرًا لها لا له!!

فحدجه إسماعيل بنظرة غريبة، ثمّ قال:

ـ إنّك فيما يبدو غير مقتنع بأنّ أمثال حسن قليلون؟ أسرة ومركز ومستقبل، أمّا مثيلات عايدة فلسن قليلات، هنّ أكثر ممّا تتصوّر، ترى هل تقدّرها أكثر ممّا تستحقّ؟ إنّ أسرة حسن ارتضت زواجه منها لثروة أبيها الهائلة فيما أعتقد، إنّها فتاة... (ثمّ بعد تردّد)... ليست بارعة الجمال على أيّ حال!...

إمّا أن يكون مجنونًا وإمّا أن تكون مجنونًا أنت! حزّه ألم كهٰذا من قبل يوم اطّلع على كلمة جارحة تهجّم بها كاتبها على نظام الزواج في الإسلام، ألا لعنة الله على الكافرين جميعًا، تساءل بهدوء يغطّي به على لوعته:

ـ لِمَ إذن كَثُر المعجبون من حولها؟

أبرز إسماعيل فكّه الأسفل فارتفع ذقنه في حركة استهانة، ثمّ قال:

ـ لعلّك تعنيني فيمن تقصد! لا أنكر أنّها خفيفة الروح، وطراز وحدها في الأناقة، إلى أنّ أسلوبها الغربيّ في اللباقة الاجتماعيّة يريق عليها فتنة وإغراء، لٰكنّها بعد ذٰلك سمراء نحيلة لا شيء فيها يُشتهى! تعال معي إلى غمرة تَرَ ألوانًا من الجمال تزري بجمالها جملة وتفصيلًا، هنالك ترى الملاحة الحقّة في البشرة الوضيئة والنهد الكاعب والردف المليء، هٰذا هو الجمال إن أردته... لا شيء فيها يُشتهى!...

كأنّها شيء يُشتهى كقمر ومريم! نهد كاعب وردف مليء... كمن يصف الروح بصفات الجسد! يا لشدّة الألم، كُتب عليه اليوم أن يتجرّع كأس الألم حتّى ثمالتها، إذا توالت الضربات القاتلة فمن الخير أن ترحّب بالموت...

وعند الحسينيّة افترقا، فسار كلّ إلى سبيله...

ـ ٢٥ ـ

تنقضي السنون ولا يفتر حبّه لهٰذا الطريق، قال لنفسه، وهو يلقي على ما حوله نظرة ضيّقة: «لو شابهَ حبّي للمرأة التي يختارها قلبي حبّي لهٰذا الطريق لأراحني من متاعب جمّة»، أعجِبْ به من طريق كالتيه، لا يكاد يمتدّ بضعة أمتار طولًا حتّى ينعطف يمنة أو يسرة، وفي أيّ موضع منه يطالعك منحنى يطوي وراءه مجهولًا، وضيق ما بين جانبيه يريق عليه تواضعًا وألفة فهو كالحيوان الأليف، والجالس في دكّان على يمينه يستطيع أن يصافح الجالس في دكّان على يساره، سقوف بمظلّات الخيش تمتدّ بين أعالي الحوانيت فتحجب أشعّة الشمس المحرقة وتنفث في الجوّ الرطب سمرة حالمة، وعلى الأرائك والرفوف جوالق مرصوصة مترعة بالحنّاء الخضراء والشطّة الحمراء والفلفل الأسود وقوارير الورد والعطر والقراطيس الملوّنة والموازين الصغيرة، وتتدلّى من عَلُ الشموع في أحجام وألوان شتّى كأنّها التهاويل، في جوّ مفعم بشذا العطارة والعطر كأنّها أنفاس حلم قديم تائه لا يذكر متى رآه، أمّا الملاءات اللفّ والبراقع السود والعرائس الذهبيّة والأعين الكحيلة والأرداف الثقيلة فمنها جميعًا أستعيذ بواهب النعم، سير الحالم في تهاويل حلم جميل رياضة محبوبة بَيْدَ أنّي أشكو ضنَى القلب والعين، إن تعدّ النسوان هنا لا تحصيهنّ، مبارك المكان الذي يضمّهنّ ولا منجى لك إلّا أن تهتف من أعماق الفؤاد: يا خراب بيتك يا ياسين، هنالك يجيبك صوت أن افتح دكّان في التربيعة واستقرّ، أبوك تاجر. سيّد نفسه... ينفق في مسرّاته أضعاف أضعاف مرتّبك، افتحها وتوكّل ولو بعت لذٰلك ربع الغوريّة ودكّان الحمزاوي، تجيء مع الصبح كالسلطان لا ميعاد يربطك ولا رئيس يرعبك، تجلس وراء الميزان فيجيئك النسوان من كلّ فجّ: صباح الخير يا سي ياسين، واقعد بالعافية يا سي ياسين، عليّ وعليّ إن تركت مصونة دون تحيّة أو متهتّكة دون ميعاد! ما ألذّ الخيال وأقساه على من سيبقى إلى آخر العمر ضابطًا بمدرسة النحّاسين، والعشق داء أعراضه جوع دائم وقلب قُلّب فوارحمتاه لمن خلق بشهوة خليفة وسلطان ضابط مدرسة، تهدّم الرجاء فلا جدوى من الكذب، ويوم حملتها إلى قصر الشوق كان الأمل يعدك بحياة هادئة مطمئنّة، قاتل الله الملل كيف يمازج النفس كما تمازج مرارة المرض اللعاب! عدوت وراءها عامًا ثمّ مللتها في أسابيع فما التعاسة إن لم تكن هٰذا؟ بيتك أوّل بيت يضجّ بالشكوى في شهر العسل، سَلْ قلبك أين مريم؟... أين الملاحة التي لوّعتك؟... يجيبك بضحكة كالتأوّه ويقول أكلنا وشبعنا وصرنا نتقزّز من رائحة الطعام، وهي ماكرة يستعذب اللعب بها ولا تفوتها شاردة، مَرّة بنت مَرّة، اذكروا حسنات موتاكم هل كانت أمّك خيرًا من أمّها؟! المهمّ أنّها ليست

كزينب يسهل خداعها وما أثقل غضبها إذا غضبت، لا هي بالتي تغضي ولا أنت بالذي يقنع، هيهات أن تُشبع جوعك المستعر امرأة أو يعرف الاستقرار قلبك، ومع ذلك توهّمت أنّك ستظفر بحياة زوجيّة سعيدة! ما أعظم أباك وما أحقرك! لم تستطع أن تكون مثله ودواؤك أن تكون مثله؟! ربّاه ما هٰذا الذي أرى؟! أهٰذه امرأة حقًّا؟! كم قنطارًا يا ترى تزن؟! اللّٰهمّ إنّي لم أرَ من قبل طولًا كهٰذا الطول ولا عرضًا كهٰذا العرض، كيف تملك هٰذه الضيعة؟! إنّي أنذر إذا وقعت بين يديّ امرأة في قدرها أن أنيمها في وسط الحجرة عارية، وأن أدور حولها سبعًا وأنا أفقر...

ـ أنت...!

جاء الصوت من وراء فاهتزّ له قلبه، وسرعان ما تحوّلت عيناه عن المرأة الضخمة إليه، فرأى شابّة في معطف أبيض، فما تمالك أن هتف:

ـ زنّوبة!...

وتصافحا في حرارة وهي تضحك، غير أنّه حثّها على السير حتّى لا يلفتا إليهما الأنظار، فسارا جنبًا إلى جنب يشقّان الزحام. هٰكذا التقيا بعد طول الفراق، ولم تكن ترد على خاطره إلّا في القليل النادر بعد أن شغلته عنها الشواغل، ولٰكنّه وجدها جميلة كيوم هجرها أو لعلّها ازدادت جمالًا، ثمّ ما هٰذا الزيّ الحديث الذي استبدلته بالملاءة اللفّ؟! وانبعثت فيه موجة من النشاط والسرور، وإذا بها تتساءل:

ـ كيف حالك؟

ـ عال، وأنتِ؟

ـ كما ترى...

ـ عال جدًّا والحمد لله، أنت غيّرت زيّك، لم أكن أعرفك عند أوّل نظرة، لا أزال أذكر مشيتك في الملاءة اللفّ...

ـ وأنت لم تتغيّر، لم تكبر، ازددت سمانة، هٰذا كلّ ما في الأمر...

ـ أنت الآن شيء آخر! بنت أفرنجيّة!... (وهو يبتسم في حذر)... إلّا أنّ ردفها من الغوريّة!

ـ لسانك!

ـ أرعبتني! كأنّك تبتِ أو تزوّجتِ...!

ـ لا شيء على الله بكثير...

ـ أمّا التوبة فهٰذا المعطف الأبيض يكذّبها، وأمّا الزواج فلا يبعد أن تسوقك قلّة العقل يومًا إليه!

ـ حاسب، إنّي متزوّجة تقريبًا...!

ضحك ـ وكانا يميلان إلى الموسكي ـ قائلًا:

ـ مثلي تمامًا...

ـ لٰكنّك متزوّج بالفعل، أليس كذٰلك؟

ـ كيف عرفت هٰذا؟... (ثمّ مستدركًا) أوه... كيف نسيت أنّ أسرارنا عندكم أوّل بأوّل!

وضحك مرّة أخرى ضحكة ذات معنى، فابتسمت ابتسامة غامضة، وقالت:

ـ تقصد بيت السلطانة؟

ـ أو بيت أبي، أليس الودّ متّصلًا؟

ـ تقريبًا!

ـ كلّ شيء عندك الآن بالتقريب! أنا كذٰلك متزوّج تقريبًا، أعني أنّي متزوّج وأبحث عن رفيقة...

هشّت بيدها ذبابة على وجهها، فوسوست أساورها الذهبيّة المحيطة بساعدها وهي تقول:

ـ أنا مرافقة وأبحث عن زوج!

ـ مرافقة؟! من السعيد ابن الـ...

قاطعته وهي تشير إليه محذّرة:

ـ إيّاك والسبّ، إنّه رجل ذو مقام...

فقال وهو يلحظها ساخرًا:

ـ ذو مقام؟! هئ هئ، زنّوبة!... أودّ لو انطحك...

ـ أتذكر متى تقابلنا آخر مرّة؟

ـ أوه، ابني رضوان عمره الآن ستّة أعوام، فنكون قد تقابلنا آخر مرّة منذ سبعة أعوام... تقريبًا!

ـ عمر طويل...

ـ ولكن لا ينبغي لحيّ أن ييأس في هٰذه الدنيا من اللقاء...

ـ ولا الفراق...

ـ الظاهر أنّكِ خلعتِ الوفاء مع الملاءة اللفّ!

فحدجته بنظرة مقطّبة وهي تقول:

ـ أتتحدّث عن الوفاء يا ثورا!

فسرّه رفع الكلفة إلى هٰذا الحدّ وشجّع مطامعه، فقال:

ـ الله وحده يعلم كم سُررت بلقائك، كثيرًا ما كنت تخطرين ببالي، ولٰكنّها الدنيا!

ـ دنيا النسوان، هه؟

فقال متظاهرًا بالتأثّر:

ـ دنيا الموت، ودنيا المتاعب...

ـ لا يبدو أنّك تحمل للمتاعب همًّا، إنّ البغال لتحسدك على صحّتك...

ـ لولا أنّ العين الجميلة لا تحسد..

ـ أتخاف على نفسك! كأنّك عبد الحليم المصريّ طولًا وعرضًا...

فضحك مختالًا، وصمت قليلًا، ثمّ قال بلهجة جديدة جادّة:

ـ أين كنت ذاهبة؟

ـ لِمَ تذهب الواحدة إلى التربيعة؟ أم ظننت الناس مثلك لا همّ لهم إلّا التحكّك بالنسوان؟

ـ مظلوم والله...

ـ مظلوم! لـمّا لمحتك وجدتك تغوص بعينيك في امرأة كالبوّابة...

ـ بل كنت شاردًا أفكّر لا أعي فيمَ أنظر...

ـ أنت! إنّي أنصح من يروم لقاءك أن ينقّب في التربيعة عن أضخم امرأة، وأنا كفيلة بأنّه سيجدك وراءها لابدًا كما تلبد القراضة في الكلب...

ـ أنت يا وليّة لسانك كلّ يوم يطول عن يوم...

ـ اسم الله على لسانك أنت...

ـ ما علينا، خلّينا في الأهمّ، أين أنت ذاهبة الآن؟

ـ سأتسوّق قليلًا، ثمّ أعود إلى بيتي!

فصمت لحظة كالمتردّد، ثمّ قال:

ـ ما رأيك في أن نقضي معًا بعض الوقت؟

فلحظته بعينيها السوداوين اللعوبتين، وقالت:

ـ ورائي رجل غيور!...

فقال وكأنّه لم يسمع اعتراضها:

ـ في مكان لطيف لنشرب كأسين!...

فعادت تقول بصوت أعلى من سابقه:

ـ قلت لك ورائي رجل غيورا...

فاستطرد قائلًا دون اكتراث:

ـ توفابيان، ما رأيك؟ إنّه مكان لطيف وابن حلال، سأنادي هٰذا التاكسي...

فندّ عنها صوت احتجاج، ثمّ تساءلت في استياء وشى وجهها بغيره قائلة: «بالقوّة؟!» ثمّ نظرت في ساعتها بمعصمها ـ وقد كادت هٰذه الحركة الجديدة تُضحكه ـ وقالت بلهجة الشارط:

ـ على ألّا أتأخّر، الساعة الآن السادسة، وينبغي أن أكون في البيت قبل الثامنة...

تساءل والتاكسي يطوي بهما الطريق: ترى هل لمحتها عين ما بين التربيعة والموسكي؟ غير أنّه هزّ كتفيه استهانة وهو يزحلق طربوشه المائل فوق حاجبه الأيمن إلى الوراء بمقبض منشّته العاجيّة، ماذا يهمّه؟! مريم وحيدة وليس وراءها وحش مثل محمّد عفت الذي قوّض أوّل بيت زوجيّة بناه، وأمّا أبوه فرجل لبق وهو يعلم أنّه لم يعد الطفل الغرير الذي نكّل به في فناء البيت القديم. وفي حديقة توفابيان جلسا حول مائدة متقابلين، كان المشرب غاصًّا بالنساء والرجال، والبيانو الميكانيكيّ يعزف مقطوعاته الرتيبة، على حين هفّت رائحة الشواء مع نسيم الأصيل من ركن قصيّ. وأدرك من ارتباكها أنّها تجلس في مكانٍ عامّ لأوّل مرّة فداخله سرور حرّيف، ثمّ أيقن في اللحظة التالية أنّ ما به حنينًا حقًّا لا محض رغبة عابرة، وبدت له أيّامها الغابرة أسعد الأيّام كلّها. وطلب قارورة كونياك ثمّ طلب شواء، وجرى ماء الحياة في خدّيه، ثمّ خلع طربوشه فبدا شعره الأسود مفروقًا من الوسط على جانبي الرأس كشعر أبيه، فما إن لمحته زنّوبة حتّى ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة لم يفطن بطبيعة الحال إلى ما وراءها. كانت أوّل مرّة يجالس فيها امرأة في حانة غير حانات وجه البركة، وكانت أوّل مغامرة له بعد زواجه الثاني مع استثناء إلمامة واحدة بدرب عبد الخالق. وربّما كانت أوّل مرّة كذٰلك يشرب فيها كونياك «راقيًا» خارج البيت، إذ أنّه لا يتناول الجيّد

منه إلّا فيها يقتني من زجاجات في البيت للاستعمال «الشرعيّ» على حدّ تعبيره. ملأ الكأسين في زهو وارتياح، ثمّ رفع كأسه وهو يقول لها:

- صحّة زنّوبة مارتل!

فقالت بكبرياء خفيف الظلّ:

- إنّي أشرب الديوارس مع البك...

فقال متأفّفًا:

- دعينا من سيرته، ربّنا يقدّرنا على جعله في خبر كان...

- بعدك!...

- سنرى، كلّما شربنا كأسًا تفتّحت لنا أبواب وانحلّت عقد...

ولإحساسهما بقِصَر الوقت المتاح تعجّلا الشراب فامتلأ الكأسان وفرغا تباعًا، وهٰكذا أخذ الكونياك يزغرد بلسانه الناريّ في معدتيهما فيرتفع زئبق النشوة في ترمومتر العروق، أمّا الأوراق الخضراء المتطلّعة من الأصص وراء سور الحديقة الخشبيّة فافترّت ثغورها عن بسمات متألّقة، وأخيرًا وجد البيانو آذانًا متسامحة، والوجوه الحالمة المعربدة تلاقت أعينها مرارًا في أنس ومودّة، وجوّ الأصيل سبح في موجات موسيقيّة صامتة، وبدا كلّ شيء طيّبًا وجميلًا:

- أتعرف ماذا طفر إلى لساني أوّل ما رأيتك اليوم وأنت تحملق في المرأة كالمسعور؟

- أفندم؟... ولٰكن أفرغي كأسك أوّلًا حتّى أملأه...

وهي تتناول ريشة شواء:

- كدت أصيح بك: يا بن الكلب...

وهو يضحك ضحكة ريّانة:

- ولِمَ لم تفعلي يا بنت القارحة؟

- أصلي لا أشتم إلّا الأحبّاء! وكنت وقتها غريبًا أو كالغريب!

- والآن ماذا ترينني؟

- ابن ستّين...

- يا سلام، الشتيمة تُسكر أكثر من الخمر أحيانًا، هٰذه الليلة المباركة ستتحدّث عنها الجرائد غدًا...

- لِمَ كفى الله الشرّ؟ ناوي تعمل حادثة؟!

- الطف يا ربّ بي وبها...

وعند ذاك قالت في شيء من الاهتمام:

- لم تحدّثني عن زوجك الجديدة...؟

فربّت ياسين شاربه وهو يقول:

- حزينة المسكينة! ماتت أمّها هٰذا العام...

- العمر الطويل لك، كانت غنيّة؟

- تركت بيتًا، البيت المجاور لبيتنا، أعني المجاور لبيت والدي، ولٰكنّها تركت في نفس الوقت شريكًا لزوجي فيه وهو زوجها!

- لا بدّ أنّ زوجك جميلة، فأنت لا تقع إلّا على النقاوة...

فقال بحذر:

- لها جمالها، غير أنّه لا يقاس بجمالك أنت...

- آه منك آه...!

- هل عرفتني كاذبًا أبدًا؟!

- أنت؟! أنا أشكّ أحيانًا في أنّ اسمك هو ياسين حقًّا...

- إذن فلنشرب هٰذه الكأس أيضًا...

- تُسكرني كي أصدّقك.؟!

- إذا قلت لك إنّني أرغب فيك وأحنّ إليك فهل تشكّين في صدقي؟ انظري في عينيّ، وجسّي نبضي...

- أنت خليق بأن تقول هٰذا الكلام لأيّة امرأة تصادفك...

- هٰذا كما يقال إنّ الجائع يودّ ألوان الطعام جميعًا، ولٰكنّ الملوخيّة مثلًا قد تستأثر بمنزلة خاصّة...

- الرجل الذي يحبّ امرأة حقًّا لا يتردّد عن الزواج منها...

فنفخ، ثمّ قال:

- أنت مخطئة، بودّي لو أقف فوق هٰذه المائدة وأصرخ بأعلى صوتي: من يحبّ منكم امرأة فلا يتزوّجها، أجل، أجل، لا شيء يقتل الحبّ كالزواج. صدّقيني، إنّي مجرِّب، وقد تزوّجت مرّة وأخرى وأعرف مدى صدق ما أقول...

ـ لعلّك لم تهتدِ بعد إلى المرأة التي تناسبك...

ـ تناسبني؟ كيف تكون هٰذه المرأة؟ وبأيّ حاسّة يُهتدى إليها؟ وأين تكون هٰذه المرأة التي لا تُمَلّ؟!

فضحكت في فتور، وقالت:

ـ كأنّك تتمنّى أن تكون ثورًا في حديقة أبقار، هٰذا هو أنت!

ففرقع بأصبعه طربًا، وقال:

ـ الله... الله، منذا الذي كان في زمان مضى يدعوني بالثور؟... إنّه أبي ربّنا يمسّيه بالخير، كم أودّ لو أكون مثله، حظي بامرأة هي آية الطاعة والقناعة، وانطلق على هواه لا يجد في حياته المتاعب، موفّقًا في زواجه، موفّقًا في عشقه... هٰذا ما أريد...

ـ ما عمره؟

ـ أظنّه في الخامسة والخمسين، بيد أنّه أقوى من الشباب...

ـ لا عظيم أمام السنين، ربّنا يمتّعه بصحّته...

ـ إلّا أبي، إنّه معشوق المعشوقات من النساء، ألا ترينه الآن في بيتكم؟

فقالت ضاحكة وهي ترمي بعظمة إلى قطّة تموء تحت قدميها:

ـ هجرت ذٰلك البيت منذ أشهر، الآن لي بيتي الخاصّ وأنا سيّدته!

ـ حقًّا! حسبتك تمزحين، وهل هجرت التخت أيضًا؟

ـ هجرته، إنّك تحدّث سيّدة بكلّ معنى الكلمة...

فقهقه في انبساط، ثمّ قال:

ـ إذن اشربي ودعيني أشرب، وربّنا يلطف بنا...

في النفس فتنة وفي الجوّ فتنة، ولكن أيّها الصوت وأيّها الصدى؟ وأعجب من هٰذا أنّ الحياة تدبّ في الجمادات، الأصص تترنّح هامسة والأركان تتناجى، السماء ترنو إلى الأرض بأعين النجوم الناعسة وتتكلّم، وبينه وبين صاحبته رسائل متبادلة تفصح عن المكنون في جوّ مشحون بالأضواء المنظورة وغير المنظورة يبهر الفؤاد ويزغلل العين، وفي الدنيا شيء يدغدغ البشر فلا يتركها حتّى تغرق بالضحك، الوجوه والكلمات والحركات وغيرها تغري جميعًا بالضحك، والوقت يمرّ كالشهاب، وحاملو ميكروب العربدة يوزّعونه بين الموائد بوجوه أثقلتها الرزانة، أمّا أنغام البيانو فتترامى من بعيد فيكاد يغطّي عليها صليل عجلات الترام، وغلمان الطوار ولاقطو الأعقاب ينشرون حولهم لغطًا كطنين الذباب، وجحافل الليل تعسكر فوق الربوع وتستقرّ، كأنّك تنتظر حتّى يجيئك الساقي فيسألك: أليس للنشوان مقرّ؟ وأنت عن ذاك وما هو أجلّ لاهٍ سادر، لو تسجد مريم بين يديك هامسة: حسبي غرفة أمارس فيها طاعتك وأملأ الحجرات بمن تهوى من النساء، أو يربّت ناظر المدرسة كتفك كلّ صباح قائلًا: كيف حال والدك يا بنيّ؟ لو تشقّ الحكومة طريقًا جديدًا أمام دكّان الحمزاوي وربع الغوريّة، أو تقول لك زنّوبة: سأهجر غدًا بيت صاحبي وأكون طوع بنانك، لو حدث هٰذا لاجتمع الناس عقب صلاة الجمعة يتبادلون قُبَل الصفاء، أمّا حكمة الليلة فهي أن تجلس على الكنبة وأن ترقص زنّوبة عارية بين يديك، هنالك يتاح لك أن ترعى شامة الحسن النابتة فوق سرّتها:

ـ كيف حال الشامة المحبوبة؟

تساءل وهو يشير إلى بطنه باسمًا، فقالت ضاحكة:

ـ تبوس يدك...

فألقى نظرة زائغة على المكان، وقال:

ـ أترين هٰؤلاء الناس، ما منهم إلّا فاسق وابن فاسق، هٰكذا كلّ الناس السكّيرين...

ـ تشرّفنا، أمّا أنا فمخّي يتطاير...

ـ أرجو أن يطير الجزء الذي يقيم فيه رفيقك...

ـ آه لو علم بما هو حاصل لنا! سوف يطعنك يومًا بفردة شاربه

ـ أهو شاميّ من ذوي الشوارب الجبّارة و...

ـ شاميّ!؟... (ثمّ ترغّت بصوت مسموع) برهوم يا برهوم.

ـ هس، لا تلفتي إلينا الأنظار...

ـ أيّ أنظار يا أعمى! لم يبقَ إلّا نفر قليل...

وهو يمسح على بطنه نافخًا:

ـ الخمر مجنونة...

ـ المجنونة أمّك...

ـ صوتك يعلو أكثر ممّا ينبغي، قومي بنا...

ـ إلى أين؟

ـ عمرك أطول من عمري، لندعِ الأمر إلى قدمَيْنا...

ـ وهل يفلح من يترك قياده إلى قدميه؟

ـ إنّها آمن على كلّ حال من مخّ مبعثر...

ـ فكّر قليلًا في...

فقاطعها وهو ينهض مترنّحًا:

ـ علينا أن ندبّر أمورنا بلا تفكير، لأنّ التفكير لن يذعن لنا قبل صباح الغد، قومي بنا...

ـ ٢٦ ـ

أسبلت المساكن جفونها، وأقفرت الطرقات إلّا من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهوم، أمّا الصمت فقد خلا له الجوّ فتاهَ ونشر جناحيه، وما جدوى الفنادق إذا كان أصحابها لا يلقونك إلّا بالنظرة الشزراء، كأنّك مرض يترنّح فهم يجتنبوه، أجل إنّك تلاقي الإعراض بالازدراء ولكنّك ستظلّ بلا مأوى، وقد ضمّ الرقاد العاشقين فإلامَ تهيم على وجهك، وها هو حوذيّ يرفع رأسه المثقل بالنعاس ويرنو إليك بنظرة ترحاب، فوارحمتاه للذي يسحب المرأة في أذيال الليل وهو يتساءل إلى أين...؟

ـ إلى أين؟

أجاب الحوذيّ باسمًا:

ـ تحت الأمر...

فقال له ياسين:

ـ لم أقصدك بسؤالي...

فقال الرجل:

ـ تحت الأمر على أيّ حال...

عند ذاك قالت زنّوبة:

ـ لا تسألني أنا سَلْ نفسك، لِمَ لم تفكّر في ذلك قبل أن تسكر؟!

عاد الحوذيّ يقول متشجّعًا بوقوفهما أمام العربة:

ـ النيل! أحسن مكان، هل أذهب بكما إلى شاطئ النيل؟

فتساءل ياسين محتدًّا:

ـ أحوذيّ أنت أم نوتيّ؟! ماذا نفعل عند النيل في هذا الوقت من الليل؟!

قال الحوذيّ بإغراء:

ـ هنالك النور ضئيل والمكان خالٍ...

ـ جوّ مناسب لقطّاع الطرق!

زنّوبة بخوف:

ـ يا خبر أسود، أذناي وعنقي وساعداي محمّلة بالذهب!

فقال الحوذيّ وهو يهزّ منكبيه:

ـ الدنيا بخير، أنا كلّ ليلة أذهب إلى هناك بأناس طيّبين مثلكما، ونعود على أحسن حال...

زنّوبة بحدّة:

ـ لا تذكر النيل على لسانك، إنّ بدني يقشعرّ لذكره!

ـ بُعْد الشرّ عن بدنك...

صاح ياسين وكان قد اتّخذ مجلسه في العربة إلى جانب زنّوبة:

ـ كلّمني أنا، مالك أنت وبدنها!

ـ يا بك أنا خدّامك...

ـ الليلة كلّ شيء متعقّد...

ـ ربّنا يحلّ عسيرها، إن أردت فندقًا ذهبنا إلى فندق...

ـ تشاجرنا في ثلاثة فنادق، ثلاثة أم أربعة يا زنّوبة؟ شُفْ غيرها.

ـ نرجع إلى النيل...

زنّوبة بغضب:

ـ الذهب يا عمر...!

ياسين وهو يطرح ساقيه على المقعد الخلفيّ:

ـ فضلًا عن أنّه ليس هناك مكان...

فقال الحوذيّ:

ـ أمّا عن المكان فلديك العربة...

هتفت زنّوبة:

ـ هل أنذرتما مضايقتي؟

فقال ياسين وهو يفتل شاربه:

ـ لك حقّ، لك حقّ، ثمّ إنّ العربة مكان غير صالح، ولن أرضى بعبث الأطفال على آخر الزمن، اسمع...

مدّ الرجل أذنه، فصاح ياسين بنفخة آمرة:

ـ إلى قصر الشوق!

طق طق طق طق، تخوض الظلمات ولا أنيس إلّا النجوم، في الأفق قلق يلوح، ثمّ لا يلبث أن يغرق في بحر النسيان كالذكرى المستعصية، ذلك أنّ الإرادة ذائبة في كأس من الخمر، وإذا رفيقة الهناء تساءلت بلسان ملعثم عن: أين يقصد في قصر الشوق؟ أجاب إلى بيتي الذي ورثته عن أمّي، قضت مقادير بأن تعيش فيه للغرام وأن توقفه بعد مماتها على الغرام، استقبل بقلب شيّق أمّ مريم ومريم، والليلة يحتضن سيّدة الليالي الخوالي، وزوجك أيّها السكران؟ في النوم مغرقة، أليس لكلّ شيء حساب... وأنت مع رجل لا يعرف الخوف قلبه، اقطفي من لآلئ النجوم ما ترصّعين به جبينك، وغنّي في أذني وحدي: هاتيلي حبّي يا نينة الليلة...

ـ وأين أقضي بقيّة الليل...؟

ـ سأوصلك إلى حيث تريدين...

ـ لن تستطيع أن توصل قشّة.

ـ باريس في الوجه البحريّ...

ـ لولا أنّي أخافه!

ـ من هو؟!

بصوت منكسر وهي تلقي برأسها إلى الوراء:

ـ من يدريني؟ نسيت...

غشي الجمالية ظلام دامس، حتّى القهوة أغلقت أبوابها. وقفت العربة عند مدخل قصر الشوق فغادرها ياسين وهو يتجشّأ، وتبعته زنّوبة معتمدة على ذراعه، ثمّ مضيا معًا في حذر لم يغنِ عن الترنّح، يتعقّبهما سعال الحوذيّ وأطيط حذاء الخفير الذي مرّ بالعربة وهي تدور مستطلعًا، وقالت له: إنّ الطريق وعر، فقال لها: لكنّ الدار أمان، وقال لها أيضًا: لا تشغلي البال. وعبثًا حاولت أن تذكّره بأنّ زوجه في الشقّة التي إليها يسعيان، فضلًا عن أنّها كانت تحاول تذكيره وهي تبتسم في الظلام ابتسامة بلهاء، وكادت قدمها تعثر مرّتين وهي ترقى السلّم، حتّى وقفا أمام الشقّة وهما يلهثان، بعثت رهبة الموقف في شعورهما المبعثر يقظة عابرة حاولت أن تلمّ شتاته بقبضة وانية، فأدار المفتاح في القفل بحذر ثمّ دفع الباب برفق بالغ، وبحث في الظلام عن أذن زنّوبة حتّى عثر عليها، فمال نحوها وهمس أن تخلع الحذاء، وفعل مثلها، ثمّ تقدّمها خطوة فوضع راحتها على كتفه ثمّ مضى إلى حجرة الاستقبال لقاء المدخل، ثمّ دفع بابها وانسلّ إلى الداخل وهي في أثره. تنهّدا معًا بارتياح، وردّ الباب ثمّ قادها إلى الكنبة وجلسا معًا، قالت متضايقة:

ـ الظلام شديد، أنا لا أحبّ الظلام!

فقال وهو يضع الحذاءين تحت الكنبة:

ـ ستألفينه بعد قليل...

ـ بدأ مخّي يدورا...

ـ الآن فقط؟!

وقام فجأة دون أن يلقي إلى ما أجابت به بالًا وهو يهمس في ارتياع:

ـ لم أغلق الباب الخارجيّ...

ومدّ يده ليخلع طربوشه فهتف:

ـ نسيت الطربوش أيضًا! في العربة يا ترى أم في توفابيان؟

ـ الطربوش في داهية، أغلق الباب يا عمر...

تسلّل مرّة أخرى إلى الصالة، ثمّ إلى الباب الخارجيّ فأغلقه بحذر شديد، وفي طريق عودته خطرت له فكرة مغرية، فاتّجه نحو الكنصول وهو يمدّ يده أمامه رائدة لتقيه الاصطدام بكرسيّ السفرة، ثمّ عاد إلى حجرة الاستقبال قابضًا على زجاجة كونياك مملوءة حتّى نصفها، ووضع الزجاجة في حجرها وهو يقول:

ـ جئتك بدواء لكلّ شيء...

فتحسّست يداها الزجاجة، وقالت:

ـ خمر؟!... حسبك! أتريد أن نطفح؟!

ـ جرعة نستردّ بها أنفاسنا بعد هٰذا الجهد!

شرب حتّى ظنّ أنّه قادر على كلّ شيء، وأنّ الجنون حالٌ تُستطاب، وهاج البحر فعلًا مع موجه وسفل ثمّ دار في دوّامة ما لها من قرار، وسُلّت في أركان الحجرة ألسنة تنطق في الظلماء لغوًا وهذرًا، وتندّ عنها ضحكات معربدة، في ضجّة كضوضاء السوق حتّى الغناء جرى في أثيرها، وهوت الزجاجة على الأرض فأحدثت صوتًا كالنذير، ولٰكن كان أمامه شوط عليه أن يقطعه ولو في بحر من العرق، طال الوقت أم قصر فليس الزمان في حسبانه، لذٰلك تحرّك الظلام وشاب إهابه والجفون المغلقة عنه غافلة، وكما يستيقظ الحالم السعيد وهو يمدّ اليد ليقطف لذّة جديدة استيقظ هو على صوت وحركة، فتح عينيه فرأى نورًا وظلًّا يتراقص على الجدران، وثنى رقبته فلمح عند الباب مريم قابضة على مصباح قد جلا من وجهها ملامح عابسة وعينين تشعّان شرر الغضب. تبودل بين المنطرحين على الكنبة والواقفة عند الباب نظرات طويلة غريبة، زائغة بالذهول من ناحية مستعرة بالغضب من الناحية الأخرى، ثمّ لم يعد الصمت ممّا يُستطاع. أعربت زنّوبة عن قلقها بأن فتحت فاها لتتكلّم ولٰكنّها لم تقل شيئًا، ثمّ غلبها بغتة ضحك طارئ فأغرقت فيه حتّى اضطرّت إلى إخفاء وجهها بكفّيها، وإذا بياسين يصيح بها بلسان ثقيل:

ـ كفّي عن الضحك!... هٰذا بيت محترم!

وبدا أنّ مريم أرادت أن تتكلّم فلم يسعفها لسانها أو أعجزها الغضب، فقال لها ياسين ولم يكن يدري ماذا يقول:

ـ وجدت هٰذه «الستّ» في حالة سكر شديد، فجئت بها إلى هنا حتّى تفيق...

ولم تسكت زنّوبة، فقالت معترضة:

ـ هو السكران كما ترين، وقد جاء بي بالقوّة!...

ندّت عن مريم حركة خطيرة كأنّما همّت بأن تقذفها بالمصباح، فتصلّبت قامة ياسين ونظر إليها متحفّزًا، ولٰكنّها سرعان ما تراجعت متأثّرة بخطورة الإقدام، فوضعت المصباح على منضدة وهي تصرّ على أسنانها بحنق، ثمّ تكلّمت لأوّل مرّة وكان صوتها جافًّا متهدّجًا مخشوشنًا بالحقد والغضب، قالت:

ـ في بيتي!... في بيتي؟!، في بيتي يا مجرم يا بن الشياطين!

ودوّى صوتها كالرعد يصبّ عليه اللعنات وينعته بكلّ خبيث، صرخت وصوّتت حتّى شقّ صوتها الجدران، ونادت السكّان والجيران وهي تحلف لتفضحنّه وتُشهد عليه النائمين. وكان ياسين ينذرها بشتّى الوسائل ليسكتها، لوّح لها بيده وحملق فيها بعينيه، وصاح بها مزجرًا، فلمّا خابت وسائله نهض منفعلًا واتّجه نحوها بخطوات واسعة ليبلغها في أقصر وقت دون اندفاع خشية أن يختلّ توازنه، ثمّ انقضّ عليها مسدّدًا راحته إلى فيها ليسدّه، ولٰكنّها صرخت في وجهه كالهرّة اليائسة وركلته بقدمها في بطنه، فتراجع مترنّحًا مكفهرّ الوجه من الحنق والألم ثمّ سقط على وجهه كالبنيان المتهدّم، انطلقت من زنّوبة صرخة مدوّية فجرت مريم نحوها وارتمت عليها، وجذبت شعرها بيمناها وأنشبت أظافرها الأخرى في عنقها وجعلت تبصق في وجهها وهي تسبّ وتلعن، وما لبث ياسين أن نهض ثانيًا هازًّا رأسه بعنف كأنّما ليطرد عنه الخمار، فتحوّل إلى الكنبة وسدّد نحو ظهر زوجه الراقدة فوق غريمتها قبضة شديدة فصرخت مريم وتراجعت زائغة عنه، فتبعها وقد أعماه الغضب موجّهًا إليها ضربات متتابعة حتّى فصلت بينهما السفرة، وعند ذاك تناولت الشبشب من قدمها وقذفته به فأصاب صدره فجرى نحوها، وراحا يدوران في الصالة وهو يصيح بها «اغربي عن وجهي، أنت طالقة... طالقة... طالقة...». وإذا بيد تنقر الباب وصوت الجارة المقيمة في الدور الثاني ينادي «ستّ مريم... ستّ مريم»، فتوقّف ياسين عن الجري وهو يلهث، أمّا مريم ففتحت الباب وبادرت تقول بصوت ملأ السلّم كلّه:

ـ تعالي انظري داخل الحجرة وخبّريني هل رأيت مثل هٰذا من قبل؟! عاهرة في بيتي تسكر وتعربد، ادخلي وانظري.

فقالت الجارة باستحياء:

ـ هدّئي نفسك يا ستّ مريم، تعالي معي حتّى الصباح...

هتف ياسين دون مبالاة:

ـ اذهبي معها، لا حقّ لك في البقاء في بيتي...

فصرخت مريم في وجهه:

ـ يا فاسق، يا مجرم، تجيئني بعاهرة في بيت الزوجيّة...

فضرب الجدار بقبضته وصاح بها:

ـ أنت العاهرة، أنت وأمّك...

ـ تسبّ أمّي وهي بين يدي الله!

ـ أنت عاهرة، أنا أعلم ذٰلك عن يقين، ألا تذكرين الجنود الإنجليز؟! الحقّ عليّ لأنّي لم أستجب إلى تحذير الناس الطيّبين!

ـ أنا ستّك وتاج رأسك، أنا أشرف من أهلك ومن أمّك، سَلْ نفسك عن الرجل الذي يتزوّج امرأة وهو يعلم أنّها عاهرة كما قلت! هل يكون إلّا قوّادًا خسيسًا؟! .. (وهي تشير إلى حجرة الاستقبال)... تزوّج من هٰذه، إنّها من النوع الذي يوافق مزاجك القذر...

ـ كلمة أخرى، ويسيل دمك حيث تقفين...

ولٰكنّ حنجرتها عادت تصرخ وتقذف اللهب حتّى تدخّلت الجارة لتحول بينهما إذا دعا داعٍ، وجعلت تربّت منكبها متوسّلة إليها أن تمضي معها حتّى يطلع الصبح، واشتدّ الضيق بياسين فصاح بها:

ـ خذي ثيابك واخرجي، ابعدي عن وجهي، لا أنت زوجي ولا أنا أعرفك، أنا داخل الحجرة الآن وإيّاك أن أجدك إذا عدت...

واندفع إلى حجرة الاستقبال ودفع الباب وراءه دفعة عنيفة ارتجّت لها الجدران، ثمّ ارتمى على الكنبة وهو يجفّف عرق جبينه، همست زنّوبة قائلة:

ـ إنّي خائفة...

فقال بخشونة:

ـ اسكتي، ممّ تخافين؟! (ثمّ بصوت مرتفع) أنا حرّ... أنا حرّ...

فقالت وكأنّها تخاطب نفسها:

ـ ماذا أصابني في عقلي حتّى طاوعتك وجئت معك إلى هنا؟

ـ اسكتي!... ما كان كان ولست آسفًا على شيء... أفّ...

وترامت إليهما الأصوات خلال الباب المغلق، فدلّت على أنّ أكثر من جارة قد أحاطت بالزوجة الغاضبة، ثمّ سمع صوت مريم وهي تقول بلهجة باكية:

ـ هل سمعتم عن هٰذا من قبل؟ عاهرة من عرض الطريق في بيت الزوجيّة؟ استيقظتُ على ضوضائهما وهما يضحكان ويغنّيان! إي والله كانا يغنّيان بلا حياء بعد أن أذهلهما السكر، خبّروني أهٰذا بيت أم ماخور؟!

وإذا بصوت امرأة تقول محتجّة:

ـ أتجمعين ثيابك وتغادرين بيتك؟! هٰذا بيتك يا ستّ مريم ولا يصحّ أن تغادريه، فلتغادره الأخرى...

فهتفت مريم:

ـ لم يعد بيتي، لقد طلّقني المحترم!

فقالت أخرى:

ـ لم يكن في وعيه، تعالي الآن معنا ولنؤجّل الحديث إلى الصباح، ومهما يكن من أمر فياسين أفندي رجل طيّب وابن ناس طيّبين، لعنة الله على الشيطان، تعالي يا ابنتي ولا تحزني...

فصاحت مريم:

ـ لا كلام ولا حساب، لا طلع الصباح عليه المجرم ابن المجرمة...

ثمّ تتابع وقع الأقدام مبتعدًا حتّى لم يعد يسمع من المتحدّثات إلّا أصوات مبهمة، ثمّ دوّت صفقة الباب وهو يُغلق. نفخ ياسين طويلًا ثمّ استلقى على ظهره...

ـ ٢٧ ـ

عندما فتح عينيه كان نور الضحى قد ملأ الحجرة، وجد في رأسه ثقلًا لا عهد له به رغم أنّها لم تكن أوّل

مرّة يستيقظ بعد ليلة مخمورة، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه على زنّوبة وهي تغطّ في نومها إلى جانبه، هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية في لقطة واحدة: زنّوبة في فراش مريم، ومريم؟! عند الجيران، والفضيحة؟! في كلّ مكان، يا لها من وثبة جبّارة في هاوية التدهور، ما جدوى الغضب أو الندم الآن؟ ما كان كان وكلّ شيء قد يتغيّر إلّا أمس، أيوقظها؟ ولْكن لمه؟ فلتمتلئ نومًا حتّى تشبع، ولتبق حيث هي فما ينبغي أن تغادر البيت قبل أن يُقبل الظلام، ولم يكن بدّ من استعادة شيء من حيويّته ليلاقي به يومه العسير، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثمّ مضى إلى الخارج ثقيلًا منفوش الشعر منتفخ الجفون محمرّ العينين. تثاءب في الصالة بصوت كالخوار ثمّ نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المفتوح ثمّ أغمض عينيه متأوّهًا من ثقل رأسه وقصد إلى الحمّام. أمامه يوم عسير حقًّا، مريم عند الجيران والأخرى محتلّة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن يخفي آثار جريمته، فيا للجنون! كان يجب أن يسرّبها قبل أن يأوي إلى فراشه فكيف توانى عمّا يجب؟! أيّ غاشية غشيته؟! بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم؟! إنّه لا يذكر شيئًا، لا يذكر حتّى كيف ومتى استجاب للنوم، والجملة أنّها فضيحة كبرى بلا ثمن، وليلة بريئة ولْكنّها مثقلة بالعار مثل رأسه المثقل بالهمّ والصداع... ولْكن لا عجب فهٰذه الشقّة مسكونة من قديم بشياطين الفضائح، تركة أمّ غفر الله لها، مضت الأمّ وبقي الابن ليكون مضغة الأفواه ونادرة السكّان والجيران وغدًا تهرع الأنباء إلى بين القصرين... فإلى الأمام! قرار هاوية سحيقة من العربدة والسفالة فليت هٰذا الماء البارد الذي تغتسل به يطهّر النفس من ذكريات السوء، ومن يدري فلعلّك إذا أطللت من النافذة وجدت أمام بابك لمّة ترصد خروج المرأة التي طَردت الزوجة واحتلّت مكانها، كلّا لن تسمح لها بالخروج مهما يكن من أمر، أمّا مريم فقد طلّقتها! طلّقتها وما أردت ذٰلك وأمّها لم يجفّ ماؤها في قبرها بعد، فماذا يقول عنك الناس أيّها المفتري؟! وشعر بحاجة ماسّة إلى فنجان قهوة يُنعش به حواسّه، فغادر الحمّام إلى المطبخ، وفي أثناء عبوره الدهليز الذي يفصل بينهما لمح الكنصول في الصالة فذكر زجاجة الكونياك المهراقة في غرفة الاستقبال، وتساءل لحظة عمّا أصاب السجّادة، ثمّ ذكر في اللحظة التالية وفي أسف ساخر أنّ أثاث الشقّة كلّه لم يعد ملكه وأنّه سيلحق عمّا قليل بصاحبته، وبعد دقائق معدودات كان يحمل كوبًا مملوءًا حتّى نصفه بالقهوة ويسير نحو حجرة النوم، وهنالك وجد زنّوبة جالسة في الفراش تتمطّى وتتثاءب، فالتفتت نحوه وقالت:

- صباحنا خير، وإن شاء الله نغيّر ريقنا في القسم!

فرشف رشفة وهو ينظر إليها من فوق الكوب، ثمّ قال:

- قولي يا فتّاح يا عليم...

فلوّحت بيديها حتّى وسوست الأساور الذهبيّة حول ساعديها، وقالت:

- أنت السبب في كلّ ما حصل...

فجلس على حافة السرير فيما يلي ساقيها الممدودتين، وقال بضيق:

- محكمة! هه!. قلت لك قولي يا فتّاح يا عليم!

فربّتت سلسلة ظهره بكعب قدميها، وهي تقول متأوّهة:

- خربت بيتي، الله وحده يعلم ما ينتظرني هناك...

فوضع ساقًا على ركبته حتّى انحسر الجلباب عن الأخرى فبدت مكتنزة مغطّاة بغابة من الشعر الفاحم، وقال:

- رفيقك؟ خيبة الله عليه! ما يكون هٰذا إلى طلاق زوجي؟! أنت التي خربت بيتي، وبيتي أنا الذي خرب...

قالت وكأنّها تحدّث نفسها:

- ليلة سوداء لم أعرف لي فيها رأسًا من قدمين، لا تزال الضوضاء تدوّي في رأسي، لْكنّ الحقّ عليّ، ما كان ينبغي لي أن أطاوعك من بادئ الأمر...

خيّل إليه أنّها راضية رغم تشكّيها، أو أنّها تدّعي التشكّي ادّعاء، ألم يعرف في الأزبكيّة نساء يتباهين بكلّ عراك دمويّ ينشب من أجلهنّ!؟ على أنّه لم يغضب، كانت الأمور قد بلغت حدّ اليأس فأعفته من مشقّة النهوض لمعالجتها، فلم يملك إلّا أن يضحك وهو يقول:

ـ شرّ البليّة ما يُضحك! اضحكي، خربت بيتي واحتللته، قومي فأصلحي من شأنك واستعدّي لإقامة طويلة حتّى يُقبل الليل، لن تغادري البيت حتّى يأتي الليل...

ـ يا خبر أسود! سجينة! أين زوجك؟

ـ لم يعد لي زوجة...

ـ أين هي؟

ـ في المحكمة الشرعيّة إن صدق ظنّي...

ـ أخاف أن تعتدي عليّ عند خروجي...

ـ تخافين؟! ربّنا يرحمنا! إنّ ليلة أمس على فظاعتها لم توهن من مكرك وخبثك يا بنت أخت زبيدة!

ضحكت ضحكة طويلة فبدا أنّها تقرّ بالتهمة الموجّهة إليها، وفي مباهاة أيضًا، ثمّ مدّت يدها إلى كوب القهوة فتناولته واحتست قليلًا منها، ثمّ ردّتها إليه وهي تتساءل:

ـ والآن؟

ـ كما ترين، لا علم لي أكثر منك، ولكن يحزّ في نفسي أن أنكشف أمام الناس كما انكشفت في الليلة الماضية...

هزّت منكبيها في استهانة قائلة:

ـ لا تهتمّ بذلك، ما من رجل إلّا ويخفي تحت ذقنه مخازي تضيق عنها الأرض.

ـ رغم هذا فالفضيحة فضيحة، تصوّري الشجار والعويل والطلاق عند الفجر! تصوّري الجيران وقد فزعوا إلى شقّتي مستطلعين فرأت أعينهم كلّ شيء.

قطّبت قائلة:

ـ كانت هي البادئة!

لم يملك أن ضحك ضحكة ساخرة، فعادت تقول بإصرار:

ـ كانت تستطيع أن تعالج الأمور بحكمة لو كانت عاقلة، الغرباء في الطريق يتسامحون مع السكارى المعربدين، هي التي جَنَتْ على نفسها بالطلاق، وماذا كنت تقول لها؟... يا عاهرة يا بنت العاهرة، هه؟ وكلام آخر عن الجنود الإنجليز...؟

تذكّر هذا الآن فقط وهو يحدجها بنظرة محنقة متسائلًا كيف رسخت هذه الألفاظ في ذاكرتها، وغمغم في ضيق:

ـ كنت غاضبًا لا أدري ماذا أقول!

ـ إحم!

ـ إحم في يافوخك!...

ـ الجنود الإنجليز؟... هل جئت بها من بار فنشي؟!

ـ أستغفر الله، إنّها بنت ناس وجيران العمر، ولكنّه الغضب عليه ألف لعنة...

ـ لولا الغضب ما انكشفت الأسرار!

ـ وحياة خالتك حسبنا ما نحن به...

ـ خبّرني عن الجنود الإنجليز وخذ شعر رأسي...

بصوت عال محتدّ:

ـ قلت إنّه الغضب وكفى...

شهقت ساخرة، ثمّ قالت:

ـ أتدافع عنها؟... اذهب فاستردّها...

ـ ملعون أبو البارد الذي لا يستحي...

ـ ملعون أبوه...

غادرت الفراش إلى المرآة فتناولت مشط مريم، وراحت تمشط شعرها بعجل وهي تتساءل:

ـ ما عسى أن أفعل لو قطع الرجل علاقته بي؟

ـ قولي له مع السلامة، أمّا بيتي فمفتوح لك على الدوام...

فالتفتت إليه قائلة بلهجة أسيفة:

ـ أنت لا تفقه معنى ما تقول! كنّا بسبيل التفكير الجدّيّ في الزواج.

ـ الزواج! وهل ما زلت تفكّرين فيه بعد ما رأيت من أحواله في الليلة الماضية؟!

قالت في دهاء:

ـ أنت لا تفهمني! لقد ضقت ذرعًا بالحياة الحرام، ليس وراءها إلّا البوار، إنّ مثلي إذا تزوّجت قـدَّرت الحياة الزوجيّة خير قدرها!

من المغفّل يا ترى؟! التخت لم يكن يعدّها بأكثر من عـوّادة، وحياة الهـوى ليس وراءها بعـد الثلاثـين ـ ومستبلغها قريبًا ـ إلّا التلف، فـالـزواج هـو الأمـل الموعود، هـل تقصدك بهٰذا الحديث؟... مـا ألـذّ الشيطانة! لا أنكر أنّي أريدها، أريدهـا بكلّ قـوّة، وفضيحتي تشهد على ذٰلك...

ـ أتحبّينه؟

كالغاضبة:

ـ لو كنت أحبّه ما وجدتني الآن سجينة هنا!...

اهتزّ صدره حنانًا رغم ارتيابه في صدقها، أجل إذا لم يكن يعرف الإخلاص قلبها أبدت له ميلًا لا شكّ فيه.

ـ لا غنى لي عنك يا زنّـوبة، في سبيلك ارتكبت جنونًا غير مبال بالعواقب، أنت لي وأنا لك من قديم الزمان...

وساد الصمت، بدت كأنّها تنتظر مزيدًا على لهف، ولٰكنّه لم ينبس فقالت:

ـ هل أقطع أسبابي بذٰلك الرجل؟ لست من اللاتي يستطعن أن يجمعن بين رَجُلين...

ـ من هو؟

ـ تاجر من ناحية القلعة يدعى محمّد القللي...

ـ متزوّج؟

ـ وله أولاد، ولٰكنّه كثير المال...

ـ وعدك بالزواج؟

ـ يغريني به، ولٰكنّني متردّدة، لأنّ ظروفـه وكونـه زوجًا وأبًا ممّا ينذر بالمتاعب...

احتمل مكرها من أجل جمال عينيها.

ـ لِمَ لا نعـود كما كنّـا؟... لست فقيرًا عـلى أيّ حال...

ـ لا يعنيني مالك، ولٰكن ضقت بحياة الحرام!

ـ والعمل؟

ـ هٰذا ما أسأل عنه...

ـ أفصحي...

ـ قلت ما فيه الكفاية...

يا له من هجوم غير متوقّع، أجل إنّه يبدو أوّل ما يبدو مضحكًا، غير أنّه يريدها فلا يسعه أن يردّ على الهجوم بمثله، قال بعد صمت:

ـ لا أخفي عنك أنّي بتُّ أتطيّر من الزواج...

ـ كما أتطيّر من الحرام...!

ـ لم تكوني كذٰلك أمس!

ـ كان في قبضة يدي زوج، أمّا اليوم...!

ـ قليل من المرونـة حتّى نتلاقى، شيء واحـد لا ينبغي أن يغيب لك عن بال، وهو أنّي مهما تطل بي عشرتك فلن أتخلّى عنك...

فهتفت محتدّة:

ـ سوابقك تشهد على صدقك...

فقال بلهجة جدّيّة يداري بها ضعف مركزه:

ـ الإنسان لا يتعلّم بلا ثمن...

ـ لم تعد تغرّر بي الأقوال، آه منكم يا رجال!

ومنكنّ يا نساء أليس ثمّة آه؟! يا بنت أخت زبيدة رحمتك، جاءت بعد منتصف الليل سكـرى وفي الصباح ضاقت بـالحرام، لعلّهـا قالت لنفسهـا: إذا كانت زوجه الثانية عاهرة فلم لا أكون زوجه الثالثة؟! هـانَ يـاسـين، أنسيت مـا ينتـظرك في الخـارج من المتـاعب؟ دع المتاعب تنتـظرك ولٰكن لا تفقد زنّـوبة بكلمة نابية، كما فقدت مريم، مريم؟ الآن كفّرت عن ذنبي يا أخي، قال بهدوء:

ـ يجب ألّا ينقطع ما اتّصل بيننا...

ـ بيدك انقطاعه واتّصاله...

ـ يجب أن نلتقي كثيرًا ونفكّر كثيرًا...

ـ من جانبي لا حاجة بي إلى تفكير جديد!

ـ فـإمّا أن أقنعـك بـرأيي، وإمّـا أن تقنعيني برأيك...

ـ لن أقتنع برأيك...

وغادرت الحجرة وهي تداري عنه ابتسـامة فـأتبع ظهرها المتأوّد نظرة استغـراب، أجل كـلّ شيء يبدو غريبًا، ولٰكن أين مريم؟ وحيدة عـلى أيّ حال ولن

تذوق نفسه الراحة والسلام، وسيُسأل غدًا في بين القصرين وبعد غد في المحكمة الشرعيّة، ولٰكن كانت حياتها في الأيّام الأخيرة نضالًا متواصلًا، حتّى قالت له بصريح العبارة: كرهتك وكرهت عيشتك، لم أخلق كي أوفّق في الزواج، أهٰكذا كانت حياة جدّي؟ إنّي أشبه الأسرة فيما يقال، ورغم هٰذا كلّه تريد المجنونة أن نتزوّج منّي...

- ٢٨ -

كانت الشمس تؤذن بالمغيب عندما عبر السيّد أحمد عبد الجواد القنطرة الخشبيّة المؤدّية إلى العوّامة، ودقّ الجرس ففتح الباب بعد قليل عن زنّوبة في فستان من الحرير الأبيض نمّت شفّافيّته عن محاسن جسدها، فلمّا رأته هتفت:

- أهلًا... أهلًا، قل ماذا فعلت أمس؟ تصوّرت حضورك ودقّ الجرس دون نتيجة ووقوفك حينًا ثمّ ذهابك... (وهي تضحك) ووساوسك، قل ماذا فعلت؟

بالرغم من أناقة مظهره والعرف الطيّب الذي يتطاير منه بدا وجهه متجهّمًا وعيناه جامدتين تعكس حدقتاهما استياء، سأل قائلًا:

- أين كنت أمس؟

فتقدّمته إلى حجرة الجلوس وتبعها حتّى وسط الحجرة بين نافذتين مفتوحتين على النيل ولم يجلس، أمّا هي فجلست على مقعد بين النافذتين وهي تتظاهر بالهدوء والثقة والابتسام، ثمّ قالت:

- خرجت - كما تعلم - أمس لأستبضع، فقابلت في بعض الطريق ياسمينة العالمة فدعتني إلى بيتها، وهنالك أبت عليّ أن أنصرف، وما زالت بي حتّى أجبرتني على المبيت عندها، لم أكن رأيتها منذ انتقلت إلى هٰذه العوّامة، لو سمعتها وهي تطعن في وفائي وتسألني عن سرّ الرجل الذي أنساني عشيرتي وجيراني!

صادقة أم كاذبة؟ هل عانى آلام أمس واليوم بلا سبب حقًّا؟ إنّه لا يربح مليّمًا ولا يخسر مليّمًا بلا سبب، فكيف عانى تلك الآلام المروّعة بلا سبب؟! دنيا ماكرة... غير أنّه على استعداد لأن يلثم ترابها إذا صحّ عنده صدق هٰذه الشيطانة، فليصحّ له صدقها ولو يفقد ما بقي من عمره، هل آنَ له أن يثوب إلى رشده؟ مهلًا...

- متى عدت إلى العوّامة؟

فرفعت ساقها حتّى مستوى المقعد، وراحت تتأمّل شبشبها البمبيّ ذا الوردة البيضاء وأصابعها المخضّبة بالحنّاء، ثمّ قالت:

- هلّا جلست أوّلًا وخلعت طربوشك لأرى مفرق شعر رأسك؟ عدت يا سيّدي مع الضحى...

- كذّابة!

انطلقت من فيه كالرصاص مفعمة غضبًا ويأسًا، ثمّ استطرد قائلًا في عنف قبل أن تفتح فاها:

- كذّابة، لم تعودي مع الضحى ولا مع العصر، لقد جئت إلى هنا أثناء النهار مرّتين فلم أجدك...

وجمت قليلًا ثمّ قالت بلهجة جمعت بين التسليم والضجر:

- الحقّ أنّي عدت قبيل المغرب، منذ ساعة تقريبًا، لم يكن ثمّة ما يدعوني إلى اختلاق الكذب لولا أنّي لمحت في عينيك استياء لا أساس له فأردت أن أزيله، الحقّ أنّ ياسمينة ألحّت عليّ في الصباح كي أتسوّق معها، ولمّا علمت بانفصالي عن خالتي عرضت عليّ أن أنضمّ إلى تختها على أن تنيبني عنها في بعض الأفراح، وطبعًا لم أوافق، لسابق علمي بأنّك لن ترضى عن سهري مع التخت، المقصود أنّي بقيت معها لعلمي بأنّك لن تجيء إلى هنا قبل التاسعة مساء، هٰذه هي الحكاية فاجلس وصلِّ على النبيّ...

حكاية مختلقة أم صادقة؟ لو يطّلع أصحابك على موقفك هٰذا؟ لشدّ ما تهزأ بك المقادير، على أنّي أعفو على أضعاف هٰذا في سبيل قطرة من الراحة، تشحذ الراحة وما اعتدت الشحاذة من قبل، هٰكذا هانت عليك نفسك أمام العوّادة، كانت موكلة يومًا بخدمتك تقدّم لك في مجلس الأنس الفاكهة وتنصرف في صمت وأدب، إمّا الراحة أو فلتستعر نيران الجحيم.

- ياسمينة العالمة ليست في جبال الواق، سوف أسألها عن حقيقة الحكاية...

قالت وهي تلوّح بيدها في استهانة واستياء:
ـ سَلْها كيفما بدا لك...
وغلبته أعصابه الثائرة المنهكة فجأة، فقال بعناد:
ـ سوف أسألها هٰذا المساء، إنّي ذاهب إليها، الآن... حقّقت لك كلّ رغباتك فينبغي أن تحترمي حقوقي كاملة...
وانتقلت إليها عدوى هياجه، فقالت بحدّة:
ـ مهلًا، لا ترميني في وجهي بالتهم، فقد اتّسع لك حلمي حتّى الآن، ولٰكن لكلّ شيء حدّ، أنا إنسانة من لحم ودم، فتّح عينك وصلّ على أبي فاطمة!...
تساءل في ذهول:
ـ أبهٰذه اللهجة تخاطبينني؟!
ـ نعم ما دمت تخاطبني بمثلها!
اشتدّت قبضة يده على مقبض عصاه وهو يهتف:
ـ أنا أستاهل، فأنا الذي خلقت منك سيّدة وهيّأت لك حياة تحسدك عليها زبيدة نفسها!...
واستفزّها قوله فبدت كاللبؤة الهائجة، وصاحت:
ـ خلقني الله سيّدة لا أنت، لقد ارتضيت هٰذه الحياة بعد توسّلاتك الحارّة، فهل نسيت هٰذا؟! لست أسيرة أو عبدة لك، تحقيق ومحضر، ماذا تظنّ بي؟ هل اشتريتني بمالك؟ إذا كانت حياتي لا تعجبك فليذهب كلّ منّا إلى حال سبيله...
يا ربّ السماوات أهٰكذا تستحيل الأظافر المدلّلة إلى مخالب؟ إن كنت في شكّ من الليلة البارحة فاستخبر هٰذه اللهجة الوقحة، جنس نمرود ابتليت به فتجرّع الألم حتّى الثمالة، انهل من الإهانة حتّى تكتفي، والآن ما جوابك! بأعلى صوتك اصرخ في وجهها: اخرجي إلى الطريق الذي التقطتك منه. اصرخ، أجل اصرخ، ماذا يمنعك؟! لعنة الله على ما يمنعك، خيانة القلب شرّ من ألف خيانة، هٰذا هو ذلّ القلوب الذي كنت تسمع عنه وتهزأ منه، شدّ ما أكره نفسي إذ تحبّها...
ـ تطردينني؟!
بنفس النبرات المحتدّة الغاضبة:
ـ إذا كان معنى هٰذه الحياة أن تحبسني هنا كالرقيق وأن ترميني بالتهم كلّما حلا لك، فمن الخير لي ولك أن تنتهي...
وأدارت عنه وجهها فتأمّل عارضها وصفحة عنقها في هدوء غير طبيعيّ بالذهول أشبه. أقصى ما أسأل الله من سعادة أن أنبذها دون مبالاة، هي ذٰلك وحنقك ولٰكن تطيق أن تعود إلى هٰذا المكان فلا تجد لها من أثر؟!
ـ لم أكن شديد الثقة في نبلك، ولٰكنّي لم أتصوّر أن يذهب بك الجحود هٰذا المذهب!
ـ تريدني حجرًا لا شعور له ولا كرامة!
أنت أحقر من هٰذا لو تعلمين!...
ـ بل أريدك شخصًا يعرف للجميل حقّه وللعشرة حقّها...
مغيّرة لهجتها من الغضب إلى السخط والتشكّي:
ـ فعلت لك أكثر ممّا تتصوّر، ارتضيت أن أهجر أهلي وعملي لأبقى حيث تريد، حتّى الشكوى كتمتها كي لا أكدّر صفوك فلم أشأ أن أصارحك بأنّ «بعض الناس» يودّ لي حياة خير من هٰذه فلم ألقِ إليهم بالًا!
أثمّة متاعب أخرى لم تقع لي في حسبان؟ تساءل كالجريح:
ـ ماذا تعنين؟
فعكفت على أسورة ذهبيّة تديرها حول ساعدها الأيسر، وهي تقول:
ـ رجل محترم يريد أن يتزوّجني ويلحّ في ذٰلك بلا ملل...
الحرارة والرطوبة يخنقانك خنقًا أمّا «العكننة» فقد فغرت فاها لتبتلعك، ما أسعد هٰذا الملّاح الذي يطوي شراعه أمام النافذة!...
ـ مَن هو؟
ـ رجل لا تعرفه، فسمّه كيف شئت!
تراجع خطوة، ثمّ جلس على كنبة تتوسّط مقعدين كبيرين، وشبك راحتيه فوق مقبض عصاه وهو يسألها:
ـ متى رآك؟ وكيف علمت برغبته؟
ـ كان يراني كثيرًا حينما كنت أقيم مع خالتي، وفي الأيّام الأخيرة كان يحاول مكالمتي كلّما صادفني في

طريقه، ولكنّي تجاهلته فحرّض إحدى صديقاتي على إبلاغي رغبته، هٰذه هي الحكاية!

ما أكثر حكاياتك، عندما افتقدتك أمس قاتلني ألم واحد، لم أفطن وقتذاك إلى كلّ هٰذه الآلام والمتاعب، اتركها إن استطعت، اهجرها فهجرها هو سبيل السلام. أليس الناس مخطئين في تصوّرهم أنّ الموت شرّ ما يبتلون؟!

ـ أحبّ أن أعرف صراحة، هل تودّين قبول هٰذا العرض؟

تركت ساعدها بحركة عصبيّة وشخصت إليه بوجهها فيما يشبه الكبرياء، ثمّ قالت بتوكيد:

ـ قلت لك إنّي تجاهلته، يجب أن تفهم معنى ما أقول...

يجب ألّا تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتّى لا تتكرّر ليلة أمس، غربل نفسك من الهواجس.

ـ صارحيني هل زارك أحد في العوّامة؟

ـ أحد؟! أيّ أحد تعني؟ لم يدخل هٰذه العوّامة أحد سواك...

ـ زنّوبة، إنّي أستطيع أن أعرف كلّ شيء، لا تخفي عنّي شيئًا، صارحيني بكلّ كبيرة وصغيرة ولك عندي بعد ذٰلك العفو مهما يكن من أمرك...

قالت محتجّة غاضبة:

ـ إذا أصررت على الشكّ في صدقي فخير لنا أن نفترق...

أتذكر الذبابة التي رأيتها تحتضر في صباح اليوم في خيط العنكبوت؟!

ـ حسبنا، دعيني أسألك الآن، هل قابلك هٰذا الرجل أمس؟!

ـ أخبرتك أين كنت أمس...

نافخًا على رغمه:

ـ لماذا تعذّبينني، وما حرصت على شيء حرصي على سعادتك؟

ضربت كفًّا بكفّ، كأنّما قد كبر عليها شكّه، ثمّ قالت:

ـ لِمَ لا تريد أن تفهمني؟... إنّي أرفض كلّ غالٍ في سبيلك!

ما أجمل هٰذه النغمة، المأساة أنّها يمكن أن تصدر عن قلب فارغ، كالمغنّي الذي يذوب في نغمة حزينة شاكية وقلبه ثمل بالسعادة والفوز.

ـ إنّي أشهد الله على قولك، صارحيني الآن: من يكون هٰذا الرجل؟

ـ ماذا يهمّك منه؟ قلت لك إنّك لا تعرفه، تاجر من غير حيّنا ولٰكنّه كان يجلس من حين لآخر في قهوة سي عليّ...

ـ اسمه؟

ـ عبد التوّاب ياسين، هل عرفته؟...

اكتريت هٰذه العوّامة لقضاء وقت سعيد، هل تذكر أوقاتك السعيدة؟! أيّتها الدنيا هل تذكرين أحمد عبد الجواد الذي لم يكن يبالي شيئًا؟، زبيدة... جليلة... بهيجة... سليهنّ عنه، إنّه بلا ريب غير هٰذا الرجل الحائر الذي اشتعل الشيب في فوديه...

ـ إنّ شيطان النكد هو أنشط الشياطين...

ـ بل هو شيطان الشكّ لأنّه يخلق من لا شيء...

جعل ينقر الأرض بطرف عصاه، ثمّ قال بصوت عميق:

ـ لا أريد أن أعيش أعمى، كلّا ولا شيء بقادر على أن يجعلني أتهاون في رجولتي وكرامتي، بالاختصار لا أستطيع أن أهضم مبيتك في الخارج ليلة أمس...

ـ رجعنا مرّة أخرى!

ـ وثالثة ورابعة، لست طفلة، أنت امرأة ناضجة عاقلة، واليوم تحدّثينني عن ذٰلك الرجل! هل غرّك حقًّا وعده بالزواج منه؟

أجابت بكبرياء قائلة:

ـ إنّي أعلم أنّه لا يخدعني، وآي ذٰلك أنّه وعدني بألّا يقربني حتّى يعقد زواجه منّي...

ـ أترغبين في هٰذا الزواج؟

قطّبت في استياء، ثمّ قالت بلهجة المتعجّب:

ـ ألم تسمع ما قلت؟! إنّي أعجب لما تبدي اليوم من كسل، لٰكن على أيّ حال لست الساعة كالعهد بك، أفِقْ من الكدر الذي جلبته على نفسك بلا سبب

واسمع مني للمرّة الأخيرة: لقد تجاهلت الرجل ورغبته إكرامًا لك...

رغب أن يعرف سنّه ولكنّه لم يدر كيف يصوغ السؤال، الشباب والكهولة أمور لم تجر له في حساب من قبل، قال بعد تردّد:

ـ لعلّه من الأغرار الذين يلقون القول بلا تردّد!

ـ ليس طفلًا، إنّه في الثلاثين من عمره!

أي أنّه يتأخّر عنه بربع قرن، والتأخّر مكروه إلّا في العمر، أمّا الغيرة فتقتلنا بلا حياء.

وعادت هي تقول:

ـ تجاهلته رغم أنّه وعدني بالحياة التي أتمنّاها!

يا بنت القديمة! فات زبيدة أن تتعلّم منك الكثير!...

ـ حقًا؟...

ـ دعني أصارحك بأنّي لم أعد أطيق هٰذه الحياة...

اذكر مرّة أخرى الذبابة والعنكبوت...

ـ حقًّا!

ـ أجل، أريد حياة مطمئنّة في ظلّ الحلال، أم تراني مخطئة؟

جئت للتحقيق معها فأين تقف الآن؟ هي التي طردتك فمن أين لك هٰذا الحلم كلّه؟ اخجل من نفسك ما بقي لك من أيّام، أتفهم ما تعني إيماءاتها؟ ما أجمل الأمواج المتلاطمة في ساعة المغيب! ولـمّا طال به الصمت استطردت قائلة بهدوء:

ـ لن يغضبك هٰذا، أنت رجل تقيّ رغم كلّ شيء، فلا يمكن أن تحول بين امرأة وبين الحلال الذي تودّه، لا أودّ أن أكون بردعة لكلّ راكب، لست كخالتي، لي قلب مؤمن وأخاف الله، وقد صدق عزمي على هجر الحرام...

استمع إلى قولها الأخير بدهشة وانزعاج، وجعل يتفحّصها بحنق داراه بابتسامة باهتة، ثمّ قال:

ـ لم تحدّثيني عن هٰذا من قبل، كنّا حتّى أوّل أمس على خير حال!

ـ لم أكن أدري كيف أكاشفك بما في نفسي...

إنّها تبتعد عنك بسرعة مخيفة خبيثة، يا خيبة الأمل، إنّي مستعدّ أن أنسى ليلة أمس المشئومة... أنسى شكّي وألمي... على أن تقلع عن هٰذا المكر الخبيث...

ـ كنّا نعيش في سعادة ووئام، فهل هانت عليك العشرة؟!

ـ لم تهن ولٰكنّي أريد أن أجعل منها شيئًا أفضل، أليس الحلال خيرًا من الحرام؟!

تقلّصت شفته السفلى محدثة ابتسامة لا معنى لها، ثمّ قال بصوت خافت:

ـ الأمر بالنسبة لي مختلف جدًّا...

ـ كيف؟!

ـ أنا زوج، وابني زوج، وبناتي أزواج، الأمر دقيق جدًّا كما ترين... (ثمّ بلهفة) ألم نكن نعيش في سعادة كاملة؟!

قالت بضجر:

ـ لم أقل لك طلّق زوجتك وتبرّأ من ذرّيّتك! كثيرون هم الذين يجمعون بين أكثر من زوجة!

فقال بإشفاق:

ـ ليس الزواج في مثل... حالي ممّا يهون أمره، أو يعرض في حياة الإنسان بلا قيل وقال!.

ضحكت ساخرة، ثمّ قالت:

ـ كلّ الناس يعلمون أنّك عشيق وأنت لا تبالي بهم، فكيف تشفق من قيلهم وقالهم على زواج مشروع إن أردت الزواج...؟!

قال باسمًا في ارتباك وضيق:

ـ قليل من الناس من يطّلع على أسراري، إلى أنّ أهل بيتي هم أبعد الناس عن الشكّ في أمري...

رفعت حاجبيها المزجّجين في إنكار، ثمّ قالت:

ـ هٰذا ظنّك، أمّا الحقيقة فلا يعلمها إلّا الله، أيّ سرّ يصان ووراءه ألسنة الناس؟!

ثمّ استدركت غاضبة قبل أن يتكلّم:

ـ أم لعلّك لا تراني أهلًا للتشرّف بالانتساب إليك؟!

أستغفر الله، زوج زنّوبة العوّادة على سنّ ورمح!

ـ ما قصدت هٰذا يا زنّوبة...

فقالت باستياء:

- لن تخفي عنّي مشاعرك طويلًا، سأعرفها غدًا إن لم أعرفها اليوم، فإن كان زواجي يعرّك فمع السلامة...

تجيء لتطردها فتطردك، لم تعد تسألها أين كانت ولكنّها تخيّرك بين الزواج أو الذهاب، ماذا أنت صانع؟ ماذا يبقيك بلا حراك؟ إنّه القلب الخائن، إنّ نزع عظامك من لحمك أهون من هجر هٰذه العوّادة، أليس من المحزن ألّا تبتلي بهٰذا الحبّ الأعمى إلّا على كبر!؟

تساءل في عتاب:

- أهٰذا هو قدري عندك؟

- لا قدر عندي لمن يأنف منّي كأنّي بصقة معدية!

قال بهدوء حزين:

- أنت أعزّ عليّ من نفسي...

- كلام سمعنا منه الكثير...

- ولٰكنّه صدق وحقّ...

- آن لي أن أعرف هٰذا من غير اللسان!

غضّ بصره في كرب ويأس، لم يكن يدري كيف يقبل ولم يكن بوسعه أن يرفض، وكان حرصه عليها من وراء ذٰلك يغلّه ويشتّت فكره، قال بصوت خفيض:

- أعطني مهلة كي أدبّر أمري...

فقالت بهدوء وهي تخفي ابتسامة ماكرة:

- لو كنت تحبّني حقًّا ما تردّدت...

فقال بعجلة:

- ليس هٰذا، أعني أموري الأخرى...

وحرّك يده كأنّما يفسّر بها قوله وإن كان لا يدري على وجه التحديد ما تعني فابتسمت قائلة:

- إذا كان الأمر كذٰلك فأنا رهن انتظارك...

فشعر براحة وقتيّة، كالراحة التي يجدها الملاكم الموشك على السقوط إذا أدركه الجرس المؤذن بانتهاء الجولة غير الأخيرة، وانبعثت في نفسه رغبة إلى الترويح عن همّه والتنفيس عن قلقه، فقال لها وهو يمدّ نحوها يده:

- تعالي إلى جانبي...

فتراجعت في مقعدها إلى الوراء بإصرار وهي تقول:

- عندما يأذن الله...

- ٢٩ -

غادر العوّامة يشقّ سبيله في ظلام وسار وشاطئ النيل في طريق مقفر متّجهًا إلى جسر الزمالك. كان الهواء يهفو لطيفًا فنفخ رأسه الملتهب، وبعث في أغصان الأشجار الهائلة المتشابكة حركة وانية ندّ عنها هسيس كالهمس، وكانت تبدو في الظلام كالكثبان أو السحب الجون، كلّما رفع رأسه وجدها مطبقة عليه كالهمّ الجاثم على صدره، وهٰذه الأضواء المنبعثة من نوافذ العوّامات هل تنبعث من بيوت خلت من الهمّ؟ ولٰكن ليس كهمّك همّ، ليس من يموت كمن ينتحر، وأنت بلا جدال قد وافقت على الانتحار. واصل السير، لم يكن أحبّ إليه وقتذاك من المشي ليريح أعصابه ويستعيد أفكاره قبل أن يمضي إلى الإخوان، وهنالك يخلو إليهم ويكاشفهم بكلّ شيء، لن يقدم على هٰذه الخطوة حتّى يشاورهم وإن خمّن سلفًا ما سيقولون، ولٰكنّه سيعترف أمامهم مهما كلّفه الأمر، وإنّه ليجد إلى مكاشفتهم رغبة دافعة كأنّها استغاثة غريق يتخطّفه الموج العاتي، لم يغب عنه أنّه يُعَدّ في حكم الموافق على الزواج من زنّوبة، ولم ينكر شعوره الذليل بالرغبة فيها والحرص عليها ولٰكنّه لم يتصوّر كيف يمكن أن يتحقّق هٰذا في صورة زواج رسميّ ولا كيف يزفّ البشرى إلى الأهل والأبناء والناس جميعًا. ومع أنّه كان يريد أن يطيل المشي ما وسعه ذٰلك إلّا أنّه اندفع يسير بسرعة وفي خطوات واسعة وعصاه تضرب الأرض الترية كأنّما يتعجّل الذهاب إلى هدف ولا هدف له. تأبّت عليه وصدّته، هل تغيب عن تجربته وحنكته هٰذه الأساليب؟... ولٰكنّ الضعيف يقع في الشرك وهو يدري. ومع أنّه استجدّ بالمشي والهواء النقيّ بعض الراحة إلّا أنّه لم يزل مشتّت الفكر مشعّث الوجدان، ولم تزل الأفكار تطرق رأسه بغير انتظام

حتّى لم يعد يحتمل حاله فخيّل إليه أنّه سيجنّ إن لم يحسم الأمر بحلّ ولو يكن الضلال نفسه.

في هٰذا الظلام يستطيع أن يخاطب نفسه بلا تردّد أو حياء، تحجبه الأغصان المتلاحمة عن السماء، وتواري خواطره الحقول المترامية إلى يمينه، ويبتلع مشاعره ماء النيل الجاري إلى يساره، ولٰكن حذار من النور، حذار أن تكتنفه هالة منه فينطلق كعربة السيرك داعيًا وراءه الغلمان وهواة العجائب، أمّا سمته وجلاله وكرامته فسلام الله عليها، كان ولم يزل ذا شخصيّتين، يعيش بواحدة بين الإخوان والأحباب، ويطالع بالأخرى الأهل وسائر الناس، وهٰذه الأخيرة التي تمسك عليه جلاله ووقاره وتقرّر له منزلة لا يطمع إليها أحد، وهي هي التي تتآمر نزواته عليها وتهدّدها بالفناء الأبديّ. وتراءى له الجسر بمصابيحه الوهّاجة فتساءل إلى أين؟... بيد أنّه رغب في مزيد من الوحدة والظلام فمرّ أمام الجسر إلى طريق الجيزة. ياسين! ذكره يرعبك، جبينك يحترق خجلًا، لِمَ؟ سيكون أوّل من يفهمك ويتسامح معك أم تراه يشمت بك ويتندّر؟ طالما زجرته وأدّبته ولٰكنّ قدمه لم تنزلق بعد إلى مثل هاويتك؟ كمال؟ يجب أن تلقاه منذ الساعة بقناع غليظ أن يطّلع على الذنب في أساريرك، خديجة وعائشة؟ سينكّس منهما الجبين في بيت آل شوكت، زنوبة امرأة أبيك، زفاف يصفّق له أهل المجون. في صدرك غوايات فاختر مسرحًا غير دنياك لها، هل ثمّة مملكة ظلام بعيدًا عن متناول البشر كي تمارس رذائلك في سلام؟! غدًا فلتنتظر إلى نسيج العنكبوت لترى ماذا تبقّى من الذبابة؟ استمع إلى نقيق الضفادع وزفرات الصراصير، ما أسعد هٰذه الحشرات، كن حشرة لتسعد بلا حساب، أمّا فوق سطح الأرض فلن يسعك إلّا أن تكون «السيّد» أحمد، مُرَّ الليلة بأهل بيتك جميعًا... زوجك... كمال... ياسين... خديجة... عائشة... ثمّ كاشفهم بنيّتك إن استطعت، وإن استطعت فاعقد زواجك بعد ذٰلك.

هنيّة! أتذكر كيف نبذتها على حبّها؟ لم تحبّ امرأة كما أحببتها، ولٰكن يبدو ـ واأسفاه ـ أنّنا نخسر العقول في كهولتنا! لتشرب هٰذه الليلة حتّى يرفعوك على الأعناق، ما أحنّه إلى الشراب، كأنّك لم تشرب منذ عام الفيل، إنّ الآلام التي تجرّعتها في عامك هٰذا خليقة بأن تمحو حسنات السعادة التي تمتّعت بها العمر كلّه.

ضرب بعصاه الأرض، ثمّ توقّف عن السير، ضاق بالظلام والسكون والطريق الحاشد والأشجار وفزع قلبه إلى الإخوان، ليس هو بالذي يستطيع أن يخلو إلى نفسه طويلًا، فما هو إلّا عضو في جماعة وجزء من كلّ، وهنالك تحلّ المشكلات كما اعتادت أن تحلّ. واستدار ليرجع إلى الجسر، وعند ذاك انتفض جسمه غضبًا وتقزّزًا، فقال بصوت غريب تمزّقه الشكوى والألم والحنق: «ليلة كاملة تبيتها في الخارج... في مكان مجهول... ثمّ توافق على الزواج منها!» وطئه إحساس ثقيل بازدراء النفس عصر جذعه وعصر قلبه. ياسمينة!؟... يا للسخرية! بل أمضت ليلتها في حضن الرجل الذي لم يزايلها حتّى وافاها عصر اليوم التالي، لبثت عنده وهي عالمة بمواعيد حضوره فماذا يعني هٰذا؟! ليس إلّا الغرام أنساها الوقت. يا جحيم الآخرة! أو أنّك هنت للحدّ الذي لا تبالي عنده بغضبك، كيف حاورتها مسترضيًا بعد ذٰلك أيّها المسحور؟ وكيف تمضي حاملًا وعد الزواج بها يا عار الدنيا والآخرة، كأنّك لم تشعر بالقرن الذي ارتضيته من شدّة ضغط الهمّ على رأسك، قرن تكلّل به هامة أسرة لتخزي به جيلًا بعد جيل، ما عسى أن يقول الناس عن هٰذا القرن فوق الجبين الأغرّ؟! إنّ الغضب والمقت والدم والدموع لا تكفي للتكفير عن استسلامك وضعفك، لشدّ ما تضحك منك الآن وهي مستلقية على ظهرها في العوّامة، ولعلّها لم تغتسل بعد من عرق رَجُلها الذي سيضحك منك بدوره، لا ينبغي أن يطلع الغد وفم يضحك منك، اعترف بخَوَرك واعرضه على مائدة الإخوان لتسمع قهقهاتهم... اعذروه كبر وخرّف... اعذروه فقد جرّب كلّ شيء إلّا متعة القرون! زبيدة: أبيت أن تكون سيّدًا في بيتي وارتضيت أن تكون قوّادًا في بيت

عوّادتي، جليلة: لست أخي ولا حتّى أختي! إنّي أشهد هٰذا الطريق الرهيب وهٰذا الظلام الكثيف وهٰذه الأشجار الهرمة على هرولتي في الظلام باكيًا كالطفل الغرير، لا بتّ ليلتي حتّى أردّ الإهانة إلى الطاغية! وتمنّعت عليك! لِمَ؟ لأنّها ضاقت بالحرام! الحرام الذي لم تغتسل منه، قل إنّها لم تعد تطيقك وكفى، ما أفظع الألم، ولٰكنّه حقّ عليّ وعبادة، كمن ينطح الجدار حتّى يهشّم رأسه تكفيرًا عن ذنب، الشيخ متولّي عبد الصمد يظنّ أنّه يعرف أمورًا كثيرة، ألا ما أجهله! مَرَّ بجسر الزمالك مرّة أخرى إلى طريق أمبابة، وجعل يحثّ خطاه بعزم وعناد مصمّمًا على غسل ما لطّخه من خزي، وكلّما ألحّ عليه الألم جدَّ في السير ضاربًا بعصاه الأرض كأنّما يسير على ثلاث.

وبدت له العوّامة يلوح من نافذتها الضوء فاشتدّ هياجه بيد أنّه كان قد استعاد ثقته بنفسه وشعوره برجولته وكرامته واطمأنّ خاطره بعد أن استقرّ على رأي، وانحدر على السلّم فمرّ فوق الجسر الخشبيّ ثمّ طرق الباب بعصاه، وكرّر ذٰلك بعنف، حتّى جاءه الصوت متسائلًا في انزعاج:

ـ من الطارق؟!

فأجاب بقوّة:

ـ أنا...

انفتح الباب عن وجهها المتعجّب، فأفسحت له وهي تغمغم «خيرًا»، فمرق إلى حجرة الجلوس حتّى توسّطها ثمّ استدار ووقف ينظر إليها وهي تقترب منه متسائلة حتّى وقفت حياله وراحت تتفحّص وجهه المتجهّم بقلق، قالت:

ـ خير إن شاء الله!! ما عاد بك؟!

فقال بهدوء مريب:

ـ خير والحمد لله كما ستعلمين...

جعلت تتساءل بعينيها دون أن تتكلّم، فاستطرد قائلًا:

ـ جئت لأخبرك بألّا تتعلّقي بما قلتُ، فإنّ الأمر كلّه لم يكن إلّا دعابة سخيفة.

هبط جذعها هبوط الخيبة ونطق وجهها بالإنكار والحنق، ثمّ هتفت:

ـ دعابة سخيفة! كيف لا تفرّق بين دعابة سخيفة وبين كلمة شرف ارتبطت بها؟

قال ووجهه يزداد اكفهرارًا:

ـ يحسن بك وأنت تخاطبينني أن تلتزمي حدّ الأدب الواجب، فإنّ نساء من طبقتك يرتزقن في بيتي خادمات...

صاحت وهي تحملق في وجهه:

ـ هل رجعت لتسمعني هٰذا الكلام؟ لِمَ لم تقله من قبل؟ لِمَ وعدتني واستعطفتني وتودّدت إليّ؟ أتحسب أنّ هٰذا الكلام يخيفني؟ لم يعد بي متّسع للدعابات السخيفة.

لوّح لها بيده غاضبًا فأسكتها، ثمّ هتف:

ـ جئت كي أقول لك إنّ الزواج من واحدة مثلك خزي لا يليق بكرامتي، وإنّه لا يصلح أكثر من أن يكون دعابة يتندّر بها هواة الدعابات المخجلة، وإنّه ما دامت أمثال هٰذه الأفكار تدور برأسك فأنت لم تعودي أهلًا لمعاشرتي، إذ لا يصحّ أن أعاشر المجانين...

كانت تصغي إليه وشرر الغضب يتطاير من حدقتيها، بيد أنّها لم تستسلم لتيّار الغضب كما تمنّى، ولعلّ منظر غضبه بثّ في حناياها خوفًا وتقديرًا للعواقب، فقالت بلهجة أخفّ من السابقة:

ـ لن أتزوّجك بالقوّة، لقد كاشفتك بما يجول بخاطري تاركة لك الخيار، الآن تريد أن تتحلّل من وعدك، لك ما تشاء، ولا داعي لسبّي وإهانتي، ليذهب كلّ منّا إلى حال سبيله في سلام...

أهٰذا قصارى جهدها في الحرص عليك؟! ألم تكن تكون أسعد حالًا لو ـ في سبيل امتلاكك ـ أنشبت فيك الأظافر؟ استمدّ من ألمك غضبًا:

ـ سيذهب كلّ منّا إلى حال سبيله، غير أنّي أردت أن أصارحك برأيي فيك قبل أن اذهب، لا أنكر أنّي سعيت إليك بنفسي، ربّما لأنّ النفس تولع أحيانًا بالقاذورات، فهجرت من كنت تسعدين بخدمتهنّ كي أرفعك إلى هٰذه الحياة، لذٰلك لا أدهش لأنّي لم أحظ عندك بما حظيت به عندهنّ من الحبّ والتقدير، ذٰلك

أنّ القذر لا يقدّر إلّا مَن كان على شاكلته، وقد آنَ لي أن أربأ بنفسي عنك، وأن أعود إلى حظيرتي الأولى...

بدا في وجهها القهر، قهر من يحجزه الخوف عن التنفيس عن صدره المستعر، وتمتمت بصوت مرتعش النبرات:

ـ مع السلامة، اذهب ودعني في سلام...

قال بحنق وهو يكظم آلامه:

ـ لقد نزلت فهنت...

هنا أفلت الزمام، فصاحت به:

ـ حسبك، كفاية، ارحم الحشرة القذرة واحذرها، اذكر كيف كنت تقبّل يدها والخشوع في عينيك، نزلت فهنت؟... هه؟... الحقّ أنّك كبرت، قبلتك على كبر وها أنا أتلقّى الجزاء...

لوّح بعصاه وهو يصيح بغضب:

ـ اخرسي يا بنت الكلب، اخرسي يا دون، لمّي ثيابك وغادري العوّامة...

فصاحت بدورها وهي ترفع رأسها في تشنّج:

ـ املأ أذنيك بما أقول، كلمة أخرى أملأ عليك العوّامة والنيل والطريق صواتًا حتّى تحضر الحكمداريّة كلّها، سامع؟... لست لقمة سائغة، أنا زنّوبة والأجر على الله، اذهب أنت، هٰذه العوّامة عوّامتي وعقد إيجارها باسمي، فاذهب بالسلامة قبل أن تذهب في زفّة...

لبث قليلًا كالمتردّد ينظر إليها باحتقار وازدراء، ولٰكنّه عدل عن مغامرة قاسية تفاديًا من الفضيحة، ثمّ بصق على الأرض ومضى إلى الخارج في خطوات واسعة ثابتة...

ـ ٣٠ ـ

ذهب من توّه إلى الإخوان، فوجد محمّد عفّت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار وآخرين. شرب حتّى سكر كعادته وتعدّى عادته، وضحك كثيرًا وأضحك كثيرًا، ثمّ مضى في الهزيع الأخير من الليل إلى بيته فنام نومًا عميقًا. واستقبل مع الصباح يومًا هادئًا، خلا في أوّله من الفكر، وكان كلّما نزع به الخيال إلى منظر من مناظر حياته القريبة أو الماضية صدّه بعزم، اللّهمّ إلّا منظرًا واحدًا رحّب باستعادته عن طيب خاطر، ذٰلك هو المنظر الأخير الذي سجّل انتصاره على المرأة وعلى نفسه معًا، وراح يؤكّد الأمر لنفسه فيقول: «انتهى كلّ شيء والحمد لله ولأكوننّ شديد الحذر فيما يُقبل من أيّام حياتي».

بدا اليوم هادئًا في مطلعه، فاستطاع أن يفكّر في فوزه المبين وأن يهنّئ نفسه عليه، ولٰكن انقلب اليوم بعد ذٰلك خاملًا بل خامدًا، فلم يجد من تفسير لذٰلك إلّا أنّه ردّ الفعل للجهد العصبيّ المضني الذي بذله في اليومين الماضيين، بل في الأشهر الماضية على تفاوت في الدرجة، إذ الحقّ أنّ معاشرته لزنّوبة بدت لعينيه في تلك اللحظة مأساة خاسرة من أوّلها لآخرها. لم يكن من الهيّن عليه أن يسلّم بأوّل هزيمة تلحقه في حياته الغراميّة الطويلة، كان لذٰلك رجع شديد الأثر في قلبه وخياله، وكان يثور كلّما همس له عقله بأنّ الشباب قد ولّى، معتزًّا بقوّته وجماله وحيويّته، ثمّ يصرّ على ذٰلك التعليل الذي جاهر به المرأة أمس وهو أنّها لم تحبّه لأنّ القذر لا يقدّر إلّا القذر! لشدّ ما تشوّق طوال يومه إلى مجلس الإخوان، فلمّا دنا موعده نفد صبره فمضى متعجّلًا إلى بيت محمّد عفّت بالجماليّة، فاجتمع به قبل أن يتوافد الإخوان، وسرعان ما قال له:

ـ انتهيت منها...

فتساءل محمّد عفّت:

ـ زنّوبة؟!

فأومأ بالإيجاب، فتساءل الآخر باسمًا:

ـ بهٰذه السرعة؟

ضحك كالساخر، ثمّ قال:

ـ هل تصدّقني إذا قلت إنّها طالبتني بالزواج حتّى ضقت بها؟!

فضحك كالساخر، ثمّ قال:

ـ زبيدة نفسها لم تفكّر في ذٰلك! يا للعجب! لكنّها معذورة، فقد وجدتك تدلّلها أكثر ممّا تحلم به فطمعت في المزيد...

فغمغم السيّد أحمد قائلًا باستهانة:

ـ مجنونة...

فضحك محمّد عفّت مرّة أخرى، وقال:

ـ لعلّها تهالكت في حبّك؟!

يا لها من طعنة! اضحك بقدر ما تجد من ألم...

ـ قلت إنّها مجنونة وكفى...

ـ وماذا فعلتَ؟

ـ صارحتها بأنّني ذاهب إلى غير رجعة، وذهبت...

ـ كيف تلقَّت ذٰلك؟

ـ سبَّت مرّة، وهدَّدت أخرى، وقالت في داهية ثالثة، ثمّ تركتها كالمجنونة، كانت غلطة من بادئ الأمر.

قال محمّد عفّت وهو يهزّ رأسه مقتنعًا:

ـ نعم، ما منّا إلّا مَن ضاجعها، ولكنّ أحدًا لم يفكّر حتّى في مجرّد معاشرتها...

تصول وتجول في ميادين الأُسود ثمّ تُهزم أمام فارة، أخفِ عارك حتّى عن أقرب المقرّبين واحمد الله على أنّ كلّ شيء قد انتهى...

لكنّ شيئًا في الواقع لم ينته، لم تبرح مخيّلته، وصحّ لديه فيما تلا ذٰلك من أيّام أنّ تفكيره فيها لم يكن مجرّدًا ولكنّه اقترن بألم عميق تزايد وتفشّى، وصحّ لديه أيضًا أنّ ذٰلك الألم لم يكن غضبًا لكرامته فحسب ولكن كان ألم الحسرة والحنين، وأنّه فيما بدا عاطفة طاغية لا تقتنع بأقلّ من تدمير مَن يعانيها. بيد أنّه كان شديد الاعتزاز بما سجّل ساعة انتصاره، فمنّى نفسه بقهر مشاعره المستبدّة الخائنة في مهلة تطول أو تقصر كيفما اتّفق. ومهما يكن من أمر فقد غادره السلام فأمضى وقته متفكّرًا مجترًّا أحزانه معذّبًا بخيالاته وذكرياته. وكان يبلغ به الضعف أحيانًا أن يفكّر في مصارحة محمّد عفّت بما ينوء به من آلام، بل تمادى به الخاطر مرّة إلى حدّ الاستعانة بزبيدة نفسها، ولكنّها كانت فترات ضعف كنوبات الحمّى ثمّ يفيق إلى نفسه وهو يهزّ رأسه متعجّبًا متحيّرًا.

وقد صبغت أزمته سلوكه العامّ بلون من القسوة قاومه ما استطاع بحلمه وكياسته، فلم يفلت منه الزمام إلّا قليلًا، وهٰذا القليل لم يلحظه إلّا الأصدقاء والمعارف الذين ألفوا منه الدماثة والتسامح والرقّة، أمّا أهل بيته فلم يفطنوا إلى شيء، لأنّ سلوكه حيالهم بقي هو هو لم يكد يتغيّر، إذ أنّ الذي تغيّر حقًّا هو العاطفة المستترة وراءه فاستحالت من شدّة مصطنعة إلى شدّة حقيقيّة لم يدرك مداها سواه. على أنّه هو نفسه لم ينجُ من قسوته هٰذه، بل لعلّه كان هدفها الأوّل، فيما حمل به على نفسه من تقريع وما عيرها به من مهانة، وأخيرًا بما أخذ يفرّ به رويدًا رويدًا من ذلّه وتعاسته وهجران شبابه، ثمّ يعزّي نفسه فيقول: لن أتحرّك، لن أسيم نفسي مزيدًا من الذلّ، فلتدُرْ بي الأفكار كلّ مدار، ولتنقلب بي العواطف كلّ منقلب، ولأبقينّ حيث أنا لا يعلم بألمي إلّا الله الغفور الرحيم. لٰكنّه ما يدري إلّا وهو يسائل نفسه: ترى ألا تزال في العوّامة أم تركتها؟ وإذا كانت بها، فهل ما يزال لديها بقيّة من ماله تغنيها عن الناس، أم يكون الرجل قد لحق بها هنالك؟ تساءل كثيرًا وفي كلّ مرّة يلقى عذابًا ينفذ من روحه إلى لحمه وعظمه فيهصره هصرًا، لم يكن يجد شيئًا من القرار إلّا عند استحضاره المنظر الأخير في العوّامة الذي أوهمها فيه ـ وتوهّم ـ أنّه نبذها وعلا عليها، ولٰكنّه كان يستدعي مناظر أخرى سجّلت ذلّه وضعفه، ومناظر غيرها سجّلت ألوانًا من السعادة لا تنسى!. وخلق الخيال له مناظر جديدة التقيا فيها، فتشاجرا، وتحاسبا، وتعاتبا، ثمّ أدركهما سلام الصلح والوصال... حلم كثيرًا ما يتراءى له في عالم الباطن الزاجر بما لا يحصى من ألوان الشقاء والسعادة، لِمَ لا يتأكّد بنفسه ممّا طرأ على العوّامة وسكّانها؟ في الظلام يستطيع أن يسير هنالك دون أن يراه أحد...

وذهب متسترًّا بالظلام كاللصّ، فمرّ أمام العوّامة ورأى النور يوصوص من خصاص النافذة، ولٰكنّه لم يدرِ إن كانت هي التي تستضيء به أم ساكن جديد، بيد أنّ قلبه شعر بأنّ النور نورها هي دون غيرها، وخيّل إليه وهو يتطلّع إلى العوّامة أنّه يستشفّ روح صاحبتها، وأنّه ليس بينه وبين رؤيتها رؤية العين إلّا

أن يطرق الباب فيفتح عن وجهها كما كان يفتح في الأيّام الذاهبة، السعيد منها والتعيس على السواء، ولٰكن ما عسى أن يفعل لو طالعه وجه الرجل؟! حقًّا أنّها قريبة ولٰكن ما أبعدها، وقد حُرِّم عليه هٰذا المعبر إلى الأبد. آه... هل مرّت به هٰذه الحالة في حلم من الأحلام! قالت له اذهب، قالتها من قلبها ثمّ مضت في سبيلها كأنّه لم يعرض لها يومًا وكأنّها لا تشعر له بوجود! إذا كان الإنسان بهٰذه القسوة فكيف يتطلّع إلى طلب الرحمة أو المغفرة!

وذهب مرّات ومرّات حتّى صار التردّد أمام العوّامة بعد جثوم الليل عادة يمرّ بها قبل ذهابه إلى مجلس الإخوان، ولم يبدُ عليه أنّه يريد أن يفعل شيئًا ذا بال، وكأنّه كان يرضي بها حبّ استطلاع عقيم جنونيّ. وكان يهمّ بالعودة مرّة إذ انفتح الباب وخرج شبح لم يتبيّنه في الظلام فدقّ قلبه في خوف ورجاء، ثمّ عبر الطريق مسرعًا ووقف في جوار شجرة وعيناه تحملقان في الظلام. قطع الشبح المعبر الخشبيّ إلى الطريق ثمّ سار في اتّجاه جسر الزمالك، فوضح له أنّه امرأة... وحدّثه قلبه بأنّها هي. وتبعها عن بعد وهو لا يدري على أيّ وجه تنتهي الليلة. هي أو غيرها فماذا يقصد؟! غير أنّه واصل سيره مركّزًا انتباهه في شبحها، ولمّا بلغت الجسر ودخلت في مرمى مصابيحه توكّد إحساس قلبه وأيقن أنّها زنّوبة، غير أنّها كانت ملتفّة في الملاءة اللفّ التي تخلّت عن ارتدائها طوال معاشرتها له. عجب لذٰلك وتساءل عن معناه فظنّ ـ ما أكثر ظنونه ـ وراءه أمرًا. رآها تتّجه إلى محطّة ترام الجيزة وتنتظر، فسار محاذيًا للحقول حتّى جاوز الموضع قبالتها، ثمّ عبر إلى ناحيتها ووقف بعيدًا عن مرمى بصرها. وجاء الترام فاستقلّته، وعند ذاك هرول إليه فركب جاعلًا مجلسه في نهاية المقعد المطلّة على السلّم ليراقب النازلين، وعند كلّ محطّة راح يتطلّع إلى الطريق وقد زايله الإشفاق من اكتشاف أمره لأنّه حتّى إذا وقع فقد فاتها أن تعلم أنّه كان يرصدها أمام العوّامة متجسّسًا. نزلت في العتبة الخضراء فنزل وراءها ورآها تتّجه إلى الموسكي مشيًا على الأقدام

فتبعها على بعد مرحّبًا بظلمة الطريق، ترى هل عاودت الاتّصال بخالتها؟ أم تراها ماضية إلى السيّد الجديد؟ ولٰكن ماذا دعاها إلى الذهاب إليه وعندها عوّامة تنادي العاشقين؟! وبلغت حيّ الحسين فضاعف انتباهه أن تضيع منه في زحمة الملاءات اللفّ. لم تستبن له غاية وراء هٰذه المطاردة الخفيّة، ولٰكن كان مدفوعًا برغبة في الاستطلاع أليمة وعقيمة وإن تكن في نفس الوقت عنيفة لا تجدي معها المقاومة... سارت أمام الجامع فاتّجهت إلى حارة الوطاويط حيث يقلّ المارّة ويلبد الشحّاذون المتعبون، ثمّ إلى الجماليّة حتّى مالت إلى قصر الشوق فتبعها مشفقًا من أن يلقاه ياسين في الطريق أو يراه من نافذة، فارتأى إن صادفه أن يزعم له أنّه ذاهب لزيارة صديقه غنيم حميدو صاحب معصرة الزيوت وجار ياسين بقصر الشوق، وما يدري إلّا وهي تنعطف إلى أوّل حارة، تلك الحارة التي لم يكن بها من بيت إلّا بيت ياسين، فدقّ قلبه بقوّة وثقلت قدماه! كان يعرف سكّان الدورين الأوّل والثاني، وهما أسرتان لا يمكن أن تربطهما بزنّوبة رابطة! وزاغ بصره قلقًا واضطرابًا، غير أنّه وجد نفسه يميل إلى العطفة غير مقدّر للعواقب، فاتّجه نحو الباب حتّى ترامى إلى سمعه وقع الأقدام الصاعدة، ثمّ دخل بئر السلّم رافعًا رأسه منصتًا إلى وقع الأقدام فشعر بمرورها بالباب الأوّل ثمّ الثاني، ثمّ وهي تطرق باب ياسين!...

تسمّر في مكانه وهو يلهث، فدار رأسه وشعر بخور وتهدّم، ثمّ تنهّد من الأعماق وانتزع نفسه من موضعه راجعًا من حيث أتى وقد غاب الطريق عن عينيه في زحمة الأفكار وارتطام الخواطر...

ياسين كان الرجل! فترى هل علمت زنّوبة بعلاقته الأبويّة بياسين؟! وراح يدفع الطمأنينة في نفسه كما يدفع سدادًا غليظًا في فوهة ضيّقة قائلًا: إنّه لم يجرِ على لسانه ذكر لأحد أبنائه أمامها، فضلًا عن أنّه من غير المعقول أن يكون واقفًا على سرّه، وأنّه ليذكر كيف جاءه منذ أيّام لينهي إليه طلاق مريم، فطالعه بوجه المذنب المرتبك ولٰكن في براءة وإخلاص لا تشوبهما

شائبة، وإنّه ليفترض كلّ شيء إلّا أن يقدم ياسين على خيانته وهو عالم بما يفعل، بل من أين لياسين أن يعلم بأنّ أباه ذو صلة أو كان ذا صلة بأيّ امرأة في الوجود، فله أن يطمئنّ من هٰذه الناحية، وحتّى إذا كانت زنّوبة قد عرفت علاقته بياسين، أو إذا عرفتها يومًا من الأيّام، فلن تطلع ياسين على سرّ خليق فأن يقطع ما بينهما، وواصل السير مؤجّلًا الذهاب إلى الإخوان ريثما يستردّ أنفاسه ويملك جنانه فمضى في اتّجاه العتبة على تعبه وإعيائه.

أردت أن تعرف وها أنت قد عرفت، ألم يكن الأفضل أن تنفض يديك من الأمر كلّه قانعًا بالصبر؟! احمد الله على أنّ الظروف لم تجمعك بياسين وجهًا لوجه في بؤرة الفضيحة، كان ياسين هو الرجل، متى عرفته؟ وأين؟ وكم من مرّة خانته معه وهو لا يدري؟! أسئلة لن تبحث لها عن جواب، افترض إذا شئت أسوأ الفروض فلن يغيّر هٰذا من الأمر شيئًا، وهل عرفها قبل أن يطلّق مريم أم بعد الطلاق أم كانت الشيطانة الباعث على الطلاق؟ أسئلة أخرى لن تعرف الجواب عنها ولن تبحث عنه، فافترض أسوأ الفروض أيضًا إراحة لرأسك المصدوع، ياسين كان الرجل! قال إنّه طلّقها لقلّة أدبها! كلام كان يمكن أن يعلّل به طلاق زينب لو لم يطّلع هو على السبب الحقيقيّ حال وقوعه، سوف تعرف الحقيقة يومًا، ولٰكن ماذا يهمّك من أمرها؟ ألا زلت مشغوفًا بالجري وراء الحقيقة؟! أنت مبعثر الرأس معذّب القلب، أيمكن أن تغار من ياسين؟ كلّا ليست هٰذه بالغيرة، على العكس ممّا تظنّ أنت خليق بالتعزّي، إذا لم يكن بدّ من أن يكون لك قاتل فليكن ابنك هو قاتلك، ياسين جزء منك، جزء منك انهزم وجزء منك انتصر، أنت المغلوب وأنت الغالب، ياسين قلب مغزى المعركة، كنت تشرب كأسًا مزاجها الألم والهزيمة فصار مزاجها الألم والهزيمة والفوز والعزاء، لن تتحسّر على زنّوبة بعد اليوم، غاليت في الاعتداد بنفسك، عاهد نفسك على ألّا تُسقط الزمن من حسابك بعد الآن، ليتك تستطيع أن توجّه هٰذه النصيحة إلى ياسين حتّى لا يؤخذ على غرّة إذا جاء دوره، أنت سعيد، لا داعي للندم، ينبغي أن تواجه الحياة بخطّة جديدة وقلب جديد وعقل جديد، دع الراية في يد ياسين، وسوف تفيق من دوارك ويمضي كلّ شيء وكأنّه لم يكن، لن يُتاح لك أن تجعل من حوادث الأيّام الأخيرة حديثًا يدار على مائدة الإخوان كسابق عهدك، علّمتك هٰذه الأيّام المخيفة أن تطوي الصدر على أمور كثيرة، آه... ما أعظم تشوّقي إلى الشراب!...

أثبت السيّد أحمد في الأيّام التالية أنّه أقوى ممّا اعترضه من أحداث، فسار في طريقه قدمًا، وقد ترامت إليه أنباء طلاق ياسين على حقيقتها من السيّد عليّ عبد الرحيم نقلًا عن غنيم حميدو وآخرين، وإن لم يتعرّف الراوون على حقيقة المرأة التي نجم عن مغامرتها طلاق الزوجة... وابتسم السيّد، وضحك طويلًا من كلّ شيء، وكان ماضيًا إلى بيت محمّد عفّت - ذات مساء - حين شعر بثقل قبيح في أعلى الظهر والرأس حتّى لهث. لم يكن الأمر جديدًا كلّ الجدّة، فقد جعل الصداع ينتابه كثيرًا في الأيّام السابقة ولٰكنّه لم يشتدّ عليه كهٰذه المرّة، ولـمّا شكا حاله إلى محمّد عفّت أمر له بقدح من شراب الليمون المثلوج، وأمضى سهرته حتّى نهايتها، ولٰكنّه استيقظ في اليوم التالي أسوأ حالًا من الأمس، وبلغ به الضجر أن فكّر في استشارة الطبيب، والواقع أنّه لم يكن يفكّر في استشارة الطبيب إلّا حين الضرورة القصوى.

- ٣١ -

تتطوّر الأشياء بالمناسبات كما تتطوّر الألفاظ بما يستجدّ من معانٍ جديدة، لم يكن قصر آل شدّاد في حاجة جديدة كي يزداد في عينَي كمال جلالًا، ولٰكنّه بدا في ذٰلك المساء من ديسمبر في زيّ جديد من أزياء الحياة. أريقت عليه الأنوار حتّى غمرته. أجل: كان كلّ ركن من أركانه وكلّ موضع من جدرانه يتقلّد عقدًا من اللآلئ المضيئة... مصابيح كهربائيّة مختلفة الألوان تومض فوق رقعة جسده من أعلى السطح إلى أسفل الجدار، كذٰلك السور الكبير، والباب الضخم،

كذٰلك أشجار الحديقة بدت كأنّما استحالت أزهارها وثمارها أنوارًا حمرًا وخضرًا وبيضًا، ومن النوافذ جميعًا انبعثت الأضواء، فكلّ شيء يهتف مؤذنًا بالفرح، وعندما رأى كمال وهو مقبل ذٰلك المنظر آمن بأنّه يحجّ إلى مملكة النور لأوّل مرّة في حياته. وازدحم الطوار المواجه لمدخل البيت بالغلمان، وفُرش المدخل برمل فاقع لونه كالذهب، وفُتح الباب على مصراعيه، كذٰلك باب السلاملك فلاحت من داخله نجفة كبيرة في سقف البهو المعدّ لاستقبال المدعوّين، على حين امتلأت الشرفة العليا الكبيرة بمجموعة وضيئة من الغيد في ثياب السهرة البهيجة. ووقف شدّاد بك وجماعة من رجال الأسرة في مدخل السلاملك يستقبلون الوافدين، أمّا شرفة السلاملك فقد ازدانت برجال أوركسترا عجيب ترامت أنغامه إلى حدود الصحراء.

ألقى كمال على المنظر كلّه نظرة شاملة سريعة، ثمّ تساءل: ترى أعائدة في الشرفة العليا بين المطلّات؟ وهل وقعت عيناها عليه وهو يُقبل مع المقبلين بقامته الفارعة وزينته الكاملة والمعطف على ساعده يتقدّمه رأسه الكبير وأنفه الشهير؟ لم يخلُ من إحساس بالارتباك وهو يجتاز الباب، ولٰكنّه لم يتّجه إلى السلاملك كالآخرين، وإنّما مال إلى «ممرّه» القديم المفضي إلى الحديقة كما نبّه حسين شدّاد من قبل كي يتاح لجماعتهم البقاء معًا أطول مدّة ممكنة في الكشك المحبوب. كأنّما كان يخوض بحرًا من نور، وقد وجد السلاملك الخلفيّ ـ كالأماميّ ـ مفتوح الباب، مضاء بالأنوار، يعجّ بالمدعوّين، كذٰلك الشرفة العليا معمورة بأسراب الحسان، أمّا في الكشك فلم يجد سوى إسماعيل لطيف في بدلة سوداء أنيقة أضفت على منظره العدوانيّ هيئة لطيفة لم يره في مثلها من قبل، ألقى إسماعيل عليه نظرة سريعة، ثمّ قال:

ـ بديع، لٰكن لِمَ أتيت بالمعطف؟ حسين لم يمكث معي إلّا ربع ساعة ولٰكنّه سيعود إلينا حين يفرغ من الاستقبالات، أمّا حسن فقد لبث معي دقائق ولا أظنّه سيتمكّن من مجالستنا كما نودّ، هٰذا يومه وله عنّا أمور تغنيه، كان حسين يفكّر في دعوة بعض الزملاء إلى هنا ولٰكنّي منعته فاكتفى بأن يدعوهم إلى مائدتنا، سيكون لنا مائدة خاصّة، هٰذا أهمّ خبر أزفّه إليك الليلة...

هنالك ما هو أهمّ، سوف أعجب من نفسي طويلًا لقبولي هٰذه الدعوة، لِمَ قبلتها؟! لتبدو كأنّك لا تبالي، أم لأنّك غدوت مغرمًا بالمغامرات المخيفة؟!

ـ هٰذا حسن، ولٰكن لِمَ لا نذهب ولو قليلًا إلى البهو الكبير لنشاهد المدعوّين؟..

قال إسماعيل لطيف بازدراء:

ـ لن تحظى بما تريد حتّى لو ذهبنا، فإنّ الباشوات والبكوات خصّوا بالبهو الأماميّ وحدهم، فإذا ذهبت فستجد نفسك بين الشباب من الأهل والأصدقاء في البهو الخلفيّ وليس هٰذا ما تريد، وددت لو أمكن أن نندسّ في الحجرات العليا التي تموج بأفخر مُثُل الجمال...

مثال واحد يعنيني، مِثال المُثُل، الذي لم تقع عليه عيناي منذ يوم الاعتراف، هتك سرّي وذهب.

ـ لا أكتمك أنّي مشوّق إلى رؤية الكبراء، قال حسين لي إنّ والده قد دعا كثيرين ممّن أقرأ عنهم في الصحف...

ضحك إسماعيل ضحكة عالية، وقال:

ـ أتحلم بأن ترى كبيرًا وله أربع أعين أو ستّ أرجل؟! إنّهم أناس مثلي ومثلك فضلًا عن أنّهم طاعنون في السنّ وذوو منظر لا يسرّ كثيرًا، إنّي أفهم سرّ تطلّعك إليهم، ما هو إلّا ذيل لاهتمامك المفرط بالسياسة...

يجدر بي ألّا أهتمّ بشيء ما في هٰذه الدنيا، لم تعد لي ولم أعد لها، غير أنّ اهتمامي بالكبراء مستمَدّ في الحقيقة من هيامي بالعظمة، أنت تودّ أن تكون عظيمًا لا تنكر، ولك مؤهّلاتك الواعدة من خلقة سقراط وآلام بتهوفن، أنت مدين بهٰذا التطلّع للتي حرمتك النور بذهابها، غدًا لن تجد لها أثرًا في مصر كلّها، يا جنون الألم إنّ لك لسكرة!... قال بتشوّف:

ـ قال لي حسين إنّ الحفلة ستجمع بين رجال من جميع الأحزاب...

ـ صحيح، بالأمس دعا سعد الأحرار والوطنيّين إلى حفلة الشاي المعروفة بالنادي السعديّ، واليوم شدّاد بك يدعوهم إلى زفاف كريمته، رأيت من أصدقائك الوفديّين، فتح الله بركات، وحمد الباسل، وجاء من الآخرين: ثروت، وإسماعيل صدقي، وعبد العزيز فهمي. شدّاد بك يعمل بهمّة عالية، وحسنًا فعل، لقد ولّى عهد أفندينا، كان الشعب يهتف منشدًا: «الله حيّ... عبّاس جي»، ولكنّ الحقيقة أنّه ذهب إلى غير رجعة فكان من الحكمة أن يعمل شدّاد بك للمستقبل حسابه، ويجب أن يسافر كلّ أعوام قلائل إلى سويسرا ليقدّم إلى الخديو فروض طاعة كاذبة من باب الحيطة، ثمّ يعود ليواصل سيره الموفّق...

قلبك يمقت هٰذه الحكمة، إنّ محنة سعد بالأمس القريب أثبتت أنّ الوطن مليء بهؤلاء الحكماء، ترى أشدّاد بك واحد منهم؟ والد المعبودة؟! مهلًا، إنّ المعبودة نفسها نزلت من علياء السماء لتقترن بواحد من البشر، ليتفتّت قلبك حتّى يعجزك لمّ أجزائه المتناثرة.

ـ تصوّر أنّ حفلة كهٰذه تمضي بلا مطرب ولا مطربة!

قال إسماعيل بلهجة ساخرة:

ـ آل شدّاد نصف باريسيّين، ينظرون إلى تقاليد الأفراح بازدراء غير قليل، ولا يسمحون لعالمة بأن تحيي حفلة في بيتهم ولا يعترفون بمطرب من مطربينا، ألا تذكر حديث حسين عن هٰذا الأوركسترا الذي أراه الليلة لأوّل مرّة في حياتي؟ إنّه يعزف مساء الأحد من كلّ أسبوع في جروبي، وسينتقل إلى البهو بعد العشاء ليطرب الكبراء، دع هٰذا واعلم أنّ زينة الليلة هي العشاء والشمبانيا!

جليلة وصابر وزفاف عائشة وخديجة؟ شتّان بين الجوّين، كم كنت سعيدًا في تلك الأيّام! الليلة يشيّع الأوركسترا حلمك إلى القبر، أتذكر الذي رأيت من ثقب الباب؟... أسفي على الآلهة التي تتمرّغ في التراب!...

ـ هٰذا شيء يهون، الذي آسف عليه حقًّا وسآسف عليه طويلًا هو أنّني لم أتمكّن من مشاهدة الكبراء عن كثب، كنت أتطلّع إلى سماع حديثهم لأفهم أمرين هامّين: أوّلهما الموقف السياسيّ على حقيقته وهل بات من المأمول حقًّا بعد الائتلاف أن يعود الدستور والحياة النيابيّة؟ والثاني كلام هٰؤلاء الناس العاديّ الذي يتبادلونه في مناسبة سعيدة كهٰذه، أليس بديعًا أن تصغي إلى ثروة باشا مثلًا وهو يثرثر ويمزح؟!

قال إسماعيل لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة وإن نمّت حركات الاستهانة نفسها عن مباهاة:

ـ أتيح لي أكثر من مرّة أن أجلس مع أصدقاء أبي من أمثال سليم بك والد حسن وشدّاد بك، أؤكّد لك أنّك لن تجد لديهم ما يستحقّ هٰذا الاهتمام...

من أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التاجر؟! كيف كان جلّ حظّ أحدهما أن يعبد المعبود على حين يتزوّج الآخر منه!؟ أليس هٰذا الزواج آية على أنّ هٰؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر؟... لكنّك لا تدري كيف يتكلّم أبوك بين أصحابه وأقرانه!...

ـ على أيّ حال سليم بك ليس من العظماء الذين أعني...!

ابتسم إسماعيل لهٰذه الملاحظة الأخيرة دون أن يعلّق عليها. هٰذه الضحكات تجيء من الداخل مفعمة بالغبطة، وأخرى تهبط من الشرفة العليا معبقة بشذا الأنوثة الساحر، وبين هٰذه وتلك تجاوب كالذي بين أنغام الآلات المترامية من بعيد تستقبلها الأذن وحدة حينًا وطاقة من ألحان شتّى حينًا آخر، ثمّ تكوّن كلّها ـ الضحكات والأنغام ـ إطارًا ورديًّا يبدو فيه القلب الحزين المترع بالوحشة كبطاقة سوداء في طاقة ورد...

وما لبث حسين شدّاد أن جاء متهلّلًا بقامته الفارعة ووجهه المتألّق يختال في الردنجوت، فتح ذراعيه عندما اقترب ففعل كمال مثله وتعانقا بحرارة، ثمّ لحق به حسن سليم في بزّته الرسميّة، جميلًا في كبريائه الطبيعيّ الملفوف في مظهره المؤدّب المهذّب وإن بدا إلى جانب حسين قصيرًا صغيرًا، فتصافحا أيضًا بحرارة، وهنّأه كمال من أعماق لسانه. وقال إسماعيل لطيف بصراحته المعهودة التي لا تكاد في أغلب الأحيان تتميّز

عن المكر السيّئ:

ـ كمال آسف لأنّه لم تُتَحْ له مجالسة ثروت باشا وصحبه!

فقال حسن سليم بمرح غريب أطاح بتحفّظه المعهود:

ـ فلينتظر حتّى يسجّل مؤلّفاته المنتظرة، وعندها يجد نفسه واحدًا منهم!...

أمّا حسين شدّاد فقال محتجًّا:

ـ أهاوي تزمّت انت؟! إنّما أريد أن تمرّ الليلة كلّها ونحن مستمتعون بحرّيّتنا الكاملة...

وقبل أن يجلس حسين استأذن حسن سليم منصرفًا، إذ كان في الواقع كالفراشة لا يستقرّ بموضع. ومدّ حسين ساقه أمامه، وراح يقول:

ـ غدًا يسافرون إلى بروكسل، سبقاني إلى أوربا، ولٰكنّ بقائي هنا لن يطول، وغدًا تكون ملهاتي التنقّل ما بين باريس وبروكسل...

وتنتقل أنت ما بين النحّاسين والغوريّة، بلا حبيب ولا صديق، هٰذا جزاء من يتطلّع إلى السماء، ستردّد بصرك بين أركان المدينة حائرًا ولن تبرأ عيناك من لوعة الشوق، املأ رئتيك من هٰذا الهواء الذي تعبقه أنفاسها، غدًا سوف ترثي لنفسك.

ـ يخيّل إليّ أنّي سالحق بك يوما...

تساءل حسين وإسماعيل معًا:

ـ كيف؟

لتكن كذبتك ضخمة كالملك...

ـ ثمّة اتّفاق بيني وبين أبي على أن أسافر في بعثة على حسابي الخاصّ بعد إتمام دراستي...

هتف حسين بسرور:

ـ لو تحقّق هٰذا الحلم!

أمّا إسماعيل فقال ضاحكًا:

ـ أخاف أن أجد نفسي وحيدًا بعد بضع سنين!

تلاقت آلات الأوركسترا جميعًا في حركة متدفّقة سريعة، أعلنت ـ فيما أعلنت ـ عمّا في كلّ آلة من مرونة وقوّة، كأنّما تشترك كلّها في سباق عنيف بات الهدف منه في مرمى العين ومتناول الطموح، فسما بها اللحن إلى ذروته العليا، تلك الذروة التي توحي بتداني الختام. انجذب وعيه إلى الأنغام المستعرة رغم استغراقه بالشجن، فانخرط في غَدْوها حتّى تدافع دمه ولهث منه الأنفاس، وسرعان ما داخلته رقّة وأسكرته أريحيّة جعلت من حزنه نشوة دامعة، فتنهّد مع النهاية من الأعماق، وتملّى أصداء اللحن المترنّمة في روحه بانفعال وتأثّر، فخيّل إليه أنّه يتساءل: ألا يمكن أن تنتهي عواطفه المتأجّجة في ذروتها إلى ختام كذٰلك؟ ألا يمكن أن يكون للحبّ ـ كهٰذا اللحن وككلّ شيء ـ نهاية؟! وذكر أحوالًا مرّت به في أوقات نادرة، فتراءت من الفتور حتّى بدا وكأنّه لم يبقَ من عايدة إلّا اسمها، أتذكر هٰذه الفترات؟ وكان يهزّ رأسه حيرة ثمّ يتساءل: هل انتهى حقًّا كلّ شيء؟ وإذا بخيال يطوف أو فكرة تخطر أو منظر يرى فيستيقظ من غفوته ويَلقى نفسه غريقًا في بحر الهوى مكبّلًا بأصفاد الأسْر. جرّب إذا حلّت بك فترة من هٰذه الفترات أن تقبض عليها بكلّ قواك وألّا تدعها تفلت حتّى يستقرّ بك الشقاء، أجل حاول أن تفني خلود الحبّ. قال حسين شدّاد باسمًا:

ـ بدأت الحفلة بتلاوة سورة على سبيل البركة!

القرآن؟! ما ألطف هٰذا! الباريسيّة الحسناء نفسها لا تستطيع أن تعقد قرانها إلّا بمأذون وقرآن! وهٰكذا سيقترن زواجها في ذهنك بالقرآن والشمبانيا.

ـ حدّثنا عن نظام الحفلة؟

قال حسين وهو يشير براحته إلى البيت:

ـ عمّا قليل يُعقد القران، وبعد ساعة يُدعى الجميع إلى الموائد، ثمّ ينتهي كلّ شيء، وتبيت عايدة هٰذه الليلة في بيتنا لآخر مرّة ثمّ تسافر مع الصباح إلى الإسكندريّة لتستقلّ بعد غد الباخرة إلى أوربا...

ستضيع منك مناظر ما أخلقها بالتسجيل لتكون زادًا لألمك الشره، كرؤية اسمها الجميل وهو يُكتب في الوثيقة الشرعيّة، ومنظر وجهها المتطلّع إلى إعلان النبأ السعيد، ولون الابتسامة التي يفترّ عنها ثغرها عند زفاف البشرى، ثمّ منظر العروسين وهما يتلاقيان، حتّى ألمك يعوزه الزاد...

ـ وهل يعقد القران مأذون؟!

ـ طبعًا!

هٰكذا أجاب حسين، أمّا إسماعيل فضحك ضحكة عالية، وقال:

ـ بل قسّيس!

أيّ سخافة في سؤالك!... سَلْ أيضًا هل يبيتان الليلة معًا! أليس من المحزن أن يسدّ مجرى حياتك رجل لا شأن له كهٰذا المأذون؟ ولٰكنّ دودة حقيرة هي التي تأكل جدث أكبر الكبراء، فكيف ستكون جنازتك حين يحمّ القضاء؟ شيء هائل يملأ الطريق أم لـمّة تمضي؟... وإذا بالصمت يشمل البيت حتّى استحال نورًا بلا تغاريد فشعر بخوف وانقباض. الآن، في مكان ما، لعلّها هٰذه الحجرة أو تلك، ثمّ لعلعت زغرودة طويلة مجلجلة أحيت ذكرى قديمة، زغرودة كتلك الزغاريد التي عرفها من قبل فلا تمتّ إلى باريس بسبب، ثمّ تبعتها زغاريد مجتمعة كالصواريخ، لشدّ ما يبدو هٰذا القصر الليلة كأيّ بيت من بيوت القاهرة. وتابعت دقّات قلبه الزغاريد حتّى لهث، ثمّ سمع إسماعيل يهنّئ فهنّأ بدوره، وتمنّى عند ذاك لو كان منفردًا، ثمّ تعزّى بأنّه سينفرد بنفسه أيّامًا وليالي فوعد ألمه بزادٍ لا يفنى. وانبعثت الأوركسترا تعزف مقطوعة يعرفها حقّ المعرفة هي «العفو يا سيد الملاح» فنادى قدرته الهائلة على التحمّل والتصبّر وإن كانت كلّ قطرة من دمه تطرق جدران عروقه مؤذنة بأنّ كلّ شيء قد انتهى، إنّ التاريخ نفسه قد انتهى، إنّ الحقيقة جميعًا قد انتهت، إنّ الأحلام التي فوق الحياة قد انتهت، وأنّه يواجه الصخر المدبّب الأطراف ولا شيء غيره. قال حسين متأمّلًا:

ـ كلمة ثمّ زغرودة ويدخل الواحد منّا في دنيا جديدة، سوف نعرف ذٰلك كلّنا يومًا ما...

فقال إسماعيل لطيف:

ـ سوف أباعد ما استطعت بيني وبين ذٰلك اليوم...

كلّنا؟! إمّا السماء وإمّا لا شيء!

ـ لن أذعن لذٰلك اليوم أبدًا...

بدا عليهما أنّهما لم يكترثا لقوله أو أنّهما لم يحملاه على محمل الجدّ، بيد أنّ إسماعيل عاد يقول:

ـ لن أتزوّج حتّى أقتنع بأنّ الزواج ضرورة لا محيص عنها...

وجاء نوبيّ حاملًا أكواب الشربات، ثمّ تبعه آخر بصينيّة محمّلة بعلب الحلوى الفاخرة. علبة من البلّور على قوائم أربع مذهّبة، مموّه زجاجها الكحليّ بزخارف فضّيّة، وقد انعقد عليها شريط أخضر من الحرير سجّل على لافتة هلاليّة في عقدته الحرفان الأوّلان لاسمَي العروسين «ع. ح». شعر وهو يتناول العلبة بارتياح لعلّه كان أوّل شعور بالارتياح يحظى به في ذٰلك اليوم. فقد وعدته العلبة الفاخرة بأنّ معبودته ستترك وراءها أثرًا خالدًا كحبّها، وأنّ هٰذا الأثر سيبقى ما بقي هو على الأرض رمزًا لماضٍ غريب وحلم سعيد وفتنة سامية وخيبة رائعة. ثمّ لفّه شعور بأنّه ضحيّة اعتداء منكر تآمر به عليه القدر وقانون الوراثة ونظام الطبقات وعايدة وحسن سليم وقوّة خفيّة غامضة لم يشأ أن يسمّيها... وتراءى له شخصه التعيس وهو يقف وحده أمام هٰذه القوى مجتمعة وجرحه ينزف فلا يظفر بأسى، ولم يجد ما يردّ به على هٰذا الاعتداء إلّا ثورة مكبوتة حُرمت من الإفصاح، بل أجبرته الظروف على التظاهر بالسرور كأنّما يهنّئ القوى الباغية على تنكيلها به ونبذه خارج حدود البشريّة السعيدة، فأضمر لها جميعًا حنقًا خالدًا ترك للمستقبل أمر تكييفه وتوجيهه، أجل شعر بأنّه لن يأخذ الحياة بعد تلك الزغرودة الفاصلة مأخذًا سهلًا أو يرضى فيها بالقريب أو يتسامح معها تسامُح الكرم والصفاء، وأنّ طريقه سيكون شاقًّا عسيرًا ملتويًا غاصًّا بالمضض والغضاضة والألم، ولٰكنّه لم يفكّر في التراجع. قَبِلَ الحرب وأبى الصلح، وأنذر وتوعّد، غير أنّه ترك للقدر اختيار الغريم الذي سينازله والوسيلة التي سيحارب بها. قال حسين شدّاد وهو يزدرد ريقه المشرب بالشربات:

ـ لا تعلن الثورة على الزواج، أعتقد ـ إذا أتيح لك أن تسافر كما تقول ـ أنّك ستجد زوجة تعجبك...

كأنّك لم تجد التي تعجبك هنا، ابحث عن وطن

جديد لا يتأذّى جنسه اللطيف بمنظر الرءوس الشاذّة، والأنوف الكبيرة، إمّا السماء وإمّا الموت. قال وهو يهزّ رأسه كالمقتنع:

ـ هٰذا رأيي...

فقال إسماعيل لطيف ساخرًا:

ـ أتعرف ماذا يعني الزواج من أوربيّة؟ إنّه كلمة واحدة «الظفر» بامرأة من أحطّ طبقات الشعب، امرأة ترضى بأن تكون تحت رَجُل تشعر في أعماقها بأنّه عبد من العبيد.

حظيت بهٰذه العبوديّة في وطنك الكريم لا في أوربا التي لن تراها.

قال حسين مستنكرًا:

ـ مغالاة!...

ـ انظر إلى المدرّسين الإنجليز كيف يعاملوننا!

قال حسين شدّاد بحماس هو بالرجاء أشبه:

ـ الأوروبيّون في بلادهم غيرهم في بلادنا!

هل من سبيل إلى قوّة قاهرة تبيد الظلم والظالمين؟! يا ربّ العالمين أين عدالتك السماويّة؟!

دعا الداعي إلى الموائد فمضى الأصدقاء الثلاثة إلى السلاملك، ثمّ إلى حجرة جانبيّة تتفرّع عن البهو الخلفيّ، فوجدوا مقصفًا صغيرًا يتّسع لعشرة على الأقلّ، ولحق بهم شبّان بعضهم من أقرباء آل شدّاد والبعض من أصدقاء المدرسة، ومع أنّ العدد دون الحدّ المقرّر للمقصف وهو ما شكر عليه حسين من الأعماق، إلّا أنّهم سرعان ما اندفعوا إلى الطعام بقوّة وعنف حتّى ساد الجوّ نشاط السباق، وكان ينبغي لهم أن يتحرّكوا دوامًا ليطوفوا بشتّى ألوان الطعام التي امتدّت صحافها على طول المائدة تفصل بين كلّ مجموعة منها وأخرى طاقة صغيرة من الورود. ولوّح حسين بإشارة من يده إلى السفرجيّ، فجاء بقوارير الويسكي وزجاجات الصودا، فهتف إسماعيل لطيف:

ـ أقسم أنّي تفاءلت خيرًا بهٰذه الإشارة من قبل أن أعرف مغزاها.

ومال حسين على أذن كمال قائلًا برجاء:

ـ كأسًا واحدة من أجل خاطري...

وقالت له نفسه «اشرب» لا رغبة في الشراب فإنّه لم يعرفه ولٰكن رغبة في الثورة، بيد أنّ إيمانه كان أقوى من حزنه وتمرّده، قال مبتسمًا:

ـ أمّا هٰذه فلا، شكرًا...

قال إسماعيل لطيف وهو يرفع كأسًا مترعة:

ـ لا حقّ لك في هٰذا، حتّى الورع يبيح لنفسه السكر في حفلات الزفاف...

مضى يتناول طعامه الشهيّ في هدوء، وكان يراقب بين حين وآخر الآكلين والشاربين أو يشترك معهم في الحديث والضحك. إنّ سعادة المرء تتناسب تناسبًا طرديًّا مع عدد مرّات شهوده لمقاصف الأفراح، ولٰكن هل مقصف الباشوات مثل مقصفنا؟! نلتهم طعامهم ونحقّق معهم! شمبانيا!... هٰذه فرصة لتذوّق الشمبانيا... شمبانيا آل شدّاد ماذا قلتم؟ ما للأستاذ كمال لا يقرب الخمر؟ لعلّه ملأ بطنه فلم تعد تتّسع لمزيد، الحقّ أنّي آكل بشهوة لا تجارى، كأنّما أعصاب معدتي لا تتأثّر بالحزن أو أنّها تتأثّر به تأثّرًا عكسيًّا... هٰكذا تغذّيت في مأتم فهمي، امنعوا إسماعيل عن الأكل والشرب وإلّا نفق. موت المنفلوطي وسيّد درويش وضياع السودان أحداث كلّلت زماننا بالسواد، لٰكنّ الائتلاف وهٰذا المقصف من أنباء زماننا السارّة، أكلنا ثلاثة من الديكة الروميّة وثمّة رابع لم يمسس بعد... هو هٰذا! ربّاه إنّه يشير إلى أنفي فيضجّون جميعًا بالضحك! إنّهم سكارى فلا تغضب! اضحك معهم متظاهرًا بالاستهانة والمرح، أمّا قلبي فينتفض غضبًا، إن استطعت أن تغزو العالم فاغزه، أمّا آثار هٰذه الليلة البهيجة فهيهات أن تنجو منها أبد الدهر، وهاك اسم فؤاد الحمزاوي تتناقله الألسن، عن تفوّقه ونبوغه يتحدّثون فهل لذعتك الغيرة؟ سيكون حديثك عنه مدعاة لإكبارك ولو على نحو ما:

ـ كان طالبًا مجدًّا منذ طفولته!

ـ أتعرفه؟

أجاب حسين شدّاد عنه:

ـ والده موظّف في متجر والد كمال...

في قلبي ارتياح لعن الله القلوب...

قال كمال:

ـ كان والده ولا يزال الرجل المجدّ الأمين.

ـ وما تجارة والدك؟

كم أحيط «التاجر» في خيالي بهالة الإكبار، حتّى قيل لك ابن تاجر وابن مستشار:

ـ تاجر جملة للبقالة...

الكذب أداة نجاة حقيرة، انظر إليهم كي تستشفّ ما يدور وراء أقنعة وجوههم ولٰكن أيّ رجل في هٰذا البيت يضارع أباك جمالًا وقوّة؟!

وعقب الانصراف عن الموائد عادت الأكثريّة إلى مجالسها في البهو، وانطلق كثيرون إلى الحديقة يتمشّون، فمرّ وقت هادئ خامل، ثمّ أخذ المدعوّون في الانصراف، أمّا الأهل فصعدوا إلى الدور الثاني ليقدّموا التهاني إلى العروسين، وما لبث الأوركسترا أن انتقل إليهم ليعزف مختاراته الرائعة في المجلس السعيد. ارتدى كمال معطفه وحمل علبة الحلوى الفاخرة ثمّ تأبّط ذراع إسماعيل وغادر سراي آل شدّاد، قال إسماعيل وهو يلقي على صاحبه نظرة مخمورة:

ـ الساعة الحادية عشرة، ما رأيك في أن نتمشّى في شارع السرايات حتّى أفيق قليلًا؟ فوافق كمال عن طيب خاطر، لأنّه وجد في المشي وقتل الوقت فرصة مواتية بيّتها، سارا معًا في نفس الطريق الذي سار فيه من قبل إلى جانب عايدة، يعترف لها بحبّه ويبثّها آلامه. لن يغيب عن رأسه منظر هٰذا الطريق ذي القصور الجليلة الصامتة، والأشجار الباسقة على جانبيه تطالع المساء بهدوء النفس المطمئنّة وروعة الخيال السامي، ولن يفتأ قلبك كلّما وطئته قدماك أو استدعاه خيالك يرعش باعثًا بخفقات الحنين والوجد والألم كالشجرة المقلقلة بالرياح ترمي أوراقها وثمارها، ومهما يكن من فشل رحلتك القديمة على أديمه فلن يزال يدّخر لك ذكرى حلم غابر وأمل ضائع وسعادة موهومة وحياة دافقة مترعة بالمشاعر هي على أسوأ التقديرات خير من راحة العدم ووحشة الهجر وخمود العاطفة، وهل أنت واجد في مستقبلك زادًا للقلب إلّا أماكن تتطلّع إليها بعين الخيال وأسماء تمدّ لها آذان الشوق؟! تساءل كمال:

ـ ترى ماذا يحدث الآن في الدور الأعلى؟

فأجاب إسماعيل بصوت مرتفع أزعج الصمت الجاثم:

ـ أوركسترا يعزف مقطوعات غربيّة، العروسان فوق المنصّة يبسمان وحولهما آل شدّاد وآل سليم، رأيت مثل هٰذا الجمع مرّات عديدة...

عايدة في ثياب العرس! يا له من منظر! هل رأيت شيئًا كهٰذا ولو فيما يرى النائم؟!

ـ وإلامَ يمتدّ الحفل؟

ـ ساعة على الأكثر كي يتمكّن العروسان من النوم ما داما سيسافران في الصباح إلى الإسكندريّة.

كلمات كالخناجر، اغرز منها ما تشاء في قلبك...

غير أنّ إسماعيل عاد يقول متسائلًا:

ـ ولٰكن متى عرفت ليالي الزفاف النوم؟!

وضحك ضحكة عالية معربدة، ثمّ تجشّأ ونفخ أبخرة الخمر وهو يقطّب متأفّفًا ثمّ بسط صفحة وجهه، وقال:

ـ ربّنا لا يحكم عليك بنوم العشّاق، لا نوم لهم يا عيني، لا يغرّنك تحفُّظ حسن سليم، سيصول ويجول كالفحول حتّى مطلع الصبح، هٰذا قضاء لا نجاة منه...

تذوّق هٰذا النوع الجديد من الألم المقطّر، روح الألم أو ألم الألم، ليكن عزاؤك أنّك انفردت بألم لم يشعر به إنسان قبلك، وأنّه سيهون عليك الجحيم إذا قدّر عليك يومًا أن تحملك الزبانية وترقص بك فوق ألسنة لهيبه، ألم!! لا لفقد الحبيب فإنّك ما طمحت يومًا في امتلاكه، ولٰكن لنزوله من علياء سمائه، لتمرّغه في الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب... لأنّه رضي لخدّه أن يقبّل، ودمه أن يسفح! ولجسده أن يبتذل. ما أشدّ حسرتي وألمي!...

ـ أحقّ ما يقال عن ليلة الدخلة؟

هتف إسماعيل:

ـ أتجهل بالله هٰذه الأمور؟

كيف يقدّسون الدنس؟...

ـ لا أجهلها طبعًا، كنت حتّى زمن قريب لا أدري عنها شيئًا، وثمّة أمور أودّ أن تعاد على مسمعي...

قال إسماعيل ضاحكًا:

ـ إنّك تبدو لي أحيانًا أحمق أو أبله...

ـ دعني أسألك، أيهون عليك أن يُفعل هٰذا بشخص تقدّسه؟

تجشّأ مرّة ثانية حتّى تطايرت رائحة الخمر اللعينة إلى أنف كمال، وقال:

ـ لا يوجد شخص يستحقّ أن يقدَّس ..

ـ ابنتك مثلًا، لو كان لك ابنة...؟

ـ لا ابنتي ولا أمّي، كيف جئنا نحن؟ هٰذا هو قانون الطبيعة...

نحن! الحقيقة نور لألاء، فغُضَّ الطرف، وراء ستار القداسة الذي سجدت أمامه طيلة حياتك يعبثان كالأطفال، ما لكلّ شيء يبدو خاويًا! الأمّ... الأب... عايدة، كذٰلك ضريح الحسين... مهنة التجارة... أرستقراطيّة شدّاد بك، يا لشدّة الألم.

ـ ما أقذر قانون الطبيعة!...

تجشّأ إسماعيل للمرّة الثالثة، وقال وقد نمّ صوته عن الضحك وإن لم يُسمع له ضحك:

ـ الحقيقة أنّ قلبك موجع، إنّه يغنّي مع المطربة الجديدة أمّ كلثوم «أفديه إن حفظ الهوى أو ضيّعا»...

كمال في انزعاج:

ـ ماذا تعني؟

فقال إسماعيل بلهجة تعمّد أن تشي بسكره أكثر من الواقع:

ـ أعني أنّك تحبّ عايدة!

ربّاه! كيف افتضح سرّه؟...

ـ أنت سكران!...

ـ هي الحقيقة والجميع يعرفونها!

هتف وهو يحملق صوبه في الظلام:

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول إنّها الحقيقة، والجميع يعرفونها.

ـ الجميع؟! مَن هم؟! من افترى هٰذا عليَّ؟

ـ عايدة!

ـ عايدة؟

ـ عايدة هي التي أذاعت سرّك...

ـ عايدة؟ لا أصدّق هٰذا، أنت سكران.

ـ نعم أنا سكران ولكن هٰذه هي الحقيقة أيضًا، من فضائل السكران أنّه لا يكذب... (ثمّ بعد ضحكة رقيقة)... هل أغضبك هٰذا؟ عايدة كما تعلم شابّة لطيفة، حالما لفتت الأنظار سرًا إلى عينيك المغرمتين وأنت لا تدري، لا بدافع السخرية ولٰكن لأنّها تتيه دلالًا بالمغرمين، وقد كاشفت حسن أوّل الأمر فوجّه حسن نظري إليك مرّات، ثمّ أفضى بالسرّ إلى حسين، بل علمت أنّ سنيّة هانم سمعت عن العاشق الولهان كما كانوا يدعونك! وغير مستبعَد أن يكون الخدم قد استرقوا السمع إلى ما دار عنك بين سادتهم، فالكلّ يعرف قصّة العاشق الولهان...

شعر بخور، وخيّل إليه أنّ الأقدام المتحرّكة تطأ كرامته بقسوة، فانطبقت شفتاه على حزن مرير، أهٰكذا يبعثر السرّ المصون. وعاد الآخر يقول:

ـ لا تتأثّر، كان الأمر كلّه دعابة بريئة صدرت عن قلوب تكنّ لك الودّ، حتّى عايدة لم تذع سرّك إلّا بدافع المباهاة!

ـ توهّمت فانخدعت!...

فقال إسماعيل ضاحكًا:

ـ إنكار حبّك عبث كإنكار الشمس في رابعة النهار!...

صمت كمال صمتًا مليًّا بالشجن والاستسلام، وفجأة تساءل:

ـ ماذا قال حسين؟

ارتفع صوت إسماعيل وهو يقول:

ـ حسين؟! إنّه صديقك الأمين، طالما أعلن عن عدم ارتياحه لأسلوب أخته البريء، وكان يجيبها منوّهًا بمزاياك!

تنهّد في ارتياح. إذا كان في الحبّ قد خاب أمله، فقد بقيت له الصداقة، آه، كيف يسعه أن يدخل

سراي آل شدّاد بعد الليلة؟!

وقال إسماعيل بلهجة جدّيّة كأنّما يشجّع صاحبه على مواجهة الموقف:

ـ كانت عايدة في حكم المخطوبة لحسن من قبل إعلان الخطوبة بأعوام، ثمّ إنّها أكبر منك سنًّا، وهٰذه العواطف تُنسى عقب النوم، فلا تهتمّ ولا تحزن.

هٰذه العواطف تنسى! تساءل باهتمام غير خاف:

ـ أكانت تسخر منّي وهي تنوّه بهٰذا الغرام المزعوم؟

ـ كلّا، قلت لك إنّها تسعد بالحديث عن عشّاقها!

كانت معبودتك إلٰهًا قاسيًا ساخرًا ينشرح صدره للهزء بعابديه، أتذكر يوم مثّلتْ برأسك وأنفك؟ ما أشبهها بقانون الطبيعة في قوّته وقسوته، كيف هرعت بعد ذٰلك متهلّلة إلى ليلة الدخلة كأيّ فتاة؟! أمّا أمّك فشيمتها الحياء كأنّما تشعر بذنبها!

وكانا قد توغّلا في الطريق فاستدارا راجعين في صمت كأنّما قد تعبا من الحديث وشجونه، وما لبث إسماعيل أن اندفع يغنّي بصوت رديء «يا ما شاء الله ع التحفجيّة»، ولٰكنّ الآخر لم يخرج عن صمته فضلًا عن أنّه لم يبد عليه أنّه انتبه إلى غنائه، ما أخجله! أحدوثة كان، وكأنّه بأهل البيت والأصدقاء والخدم وهم يتغامزون من وراء ظهره وهو عنهم غافل، معاملة فظّة لا يستحقّها، فهل يكون هٰذا جزاء الحبّ والعبادة؟! ما أقسى المعبودة وما أفظع الألم! لعلّ نيرون عندما غنّى وروما تحترق كان ينتقم لحال كحاله هٰذه. كن قائدًا غازيًا يختال على متن جواد، أو زعيمًا يُحمل على الأعناق، أو تمثالًا من صلب فوق سارية، أو ساحرًا يتصوّر في أيّ صورة شاء، أو ملاكًا يطير فوق السحاب، أو راهبًا منزويًا في صحراء، أو مجرمًا خطيرًا يزلزل الآمنين، أو مهرّجًا يأسر الضاحكين، أو منتحرًا يهزّ الرائين. لو علم فؤاد الحمزاوي بقصّته لقال له وهو يواري سخريته تحت طلاء أدبه المعهود: الحقّ عليك، فأنت الذي هجرتنا من أجل هٰؤلاء الناس، احتقرت قمر ونرجس فذُقْ هَجْر الآلهة. السماء أو لا شيء هٰذا هو جوابي. فلتتزوّج كما تحبّ، وتذهب إلى بروكسل أو باريس، وليتقدّم بها العمر حتّى يذوي عودها الريّان، فلن تظفر بحبّ كحبّي. لا تنس هٰذا الطريق ففوق أديمه سكرت بخلّب الآمال ثمّ تجرّعت غصص اليأس، لم أعد من سكّان هٰذا الكوكب، غريب أنا وينبغي أن أحيا حياة الغرباء.

عندما مرّا بسراي آل شدّاد في طريق العودة وجدا العمّال عاكفين على نزع الزينات وأسلاك المصابيح الكهربائيّة من فوق الجدران والأشجار، فتجرّد البيت الكبير من حلية الزفاف واشتمل بالظلام، إلّا حجرات ظلّ النور ينبعث من شرفاتها ونوافذها. انتهى الحفل وتفرّق الجمع وأذن الحال بأنّ لكلّ شيء نهاية، وها هو يعود حاملًا علبة الحلوى كأنّه طفل يلهى عن البكاء ببضع قطع من الشيكولاتة، وواصلا السير على مهل حتّى بلغا مطلع الحسينيّة، فتصافحا، وافترقا...

لم يكد كمال يتقدّم في شارع الحسينيّة أمتارًا حتّى توقّف، ثمّ انقلب عائدًا إلى العبّاسيّة التي بدت مقفرة مغرقة في النوم، وحثّ خطاه صوب سراي آل شدّاد، وعندما شارف البيت مال يمنة إلى الصحراء التي تكتنفه وأوغل فيها حتّى بلغ موضعًا فيها وراء السور الخلفيّ للحديقة يطلّ على السراي على بعد، وكان الظلام كثيفًا شاملًا يطمئنّ الرقباء ستائره، ولأوّل مرّة في ليلته شعر بالبرودة في ذٰلك الخلاء العاري، فحبك المعطف حول جسده النحيل الطويل... تراءى له شبح البيت وراء سوره العالي كالقلعة الضخمة، فجالت عيناه باحثة عن هدف غالٍ حتّى استقرّتا على نافذة مغلقة يوصوص النور من خلال خصاصها في أقصى الجناح الأيمن من الدور الثاني، تلك غرفة العرس، الغرفة الوحيدة اليقظى في هٰذا الجانب من القصر، كانت بالأمس حجرة نوم عايدة وبدور، وازّيّنت الليلة لشهود أعجب ما جرت به المقادير. تطلّع إليها طويلًا، أوّل الأمر بلهفة كأنّه طائر مقصوص الجناح يتطلّع إلى عشّه فوق الشجرة، ثمّ بحزن عميق كأنّما يرى بعينيه مصرعه فيما وراء الغيب، ماذا يدور وراء هٰذه النافذة؟... لو يتاح له أن يتسلّق هٰذه الشجرة في الحديقة ليرى! إنّ البقيّة الباقية من عمره ثمن زهيد يؤدّيه عن طيب خاطر لقاء نظرة خلال هٰذه النافذة،

وهل قليل أن ترى المعبود في خلوة زفافه؟ كيف يقيهان وكيف تلتقي العينان؟ وبأيّ حديث يتناجيان؟ وفي أيّ مكان من الدنيا ينزوي الآن كبرياء عايدة؟ إنّه يتحرّق شغفًا إلى الرؤية وإلى تسجيل كلّ كلمة تندّ أو حركة تصدر أو أمارة تنطق بها أسارير الوجه، بل إلى خطرات النفس وتصوّرات الخيال ونفثات العاطفة وفورات الغرائز... كلّ شيء ولو كان بشعًا مرعبًا أو محزنًا مؤلمًا، ولتذهب الحياة بعد ذٰلك دون أسف، ولبث بمكانه والوقت يمضي لا هو يبرح ولا النور ينطفئ ولا خياله يملّ التساؤل. ماذا كان يفعل لو كان في مكان حسن سليم؟ ودوّخته الحيرة دون الجواب، إنّ العبادة لن تغني عن هٰذه الليلة شيئًا، وخلا العبادة من مطالب النفس لم يتوجّه إلى عايدة، أمّا حسن سليم فمن طائفة لا تتقيّد بالعبادة. هٰكذا يتعذّب في الصحراء وهنالك تُتبادل قُبل ممّا عهده الناس وتنهّدات تتصبّب عرقًا وغيبوبة تنزّ دمًا وغلالة تنحسر عن جسد فانٍ، كهٰذا العالم الفاني وآماله الخاوية وأحلامه الطائشة... فابْكِ ما بدا لك على هوان الآلهة، وليمتلئ قلبك بالمأساة، ولٰكن أين يمضي الشعور الباهر الرائع الذي نوّر قلبه أربعة أعوام؟ لم يكن وهمًا ولا صدى لوهم، إنّه حياة الحياة، ولئن تسيطر الظروف على الجسد فأيّ قوّة تستطيع أن تتطاول إلى الروح، وهٰكذا لتبقينّ المعبودة معبودته، والحبّ عذابه وملاذه، والحيرة ملهاته، حتّى يقف أمام الخالق يومًا يسائله عمّا حيّره من معضلات الأمور، آه لو يطّلع على ما وراء النافذة، لو يكشف سرّ أسرار وجوده؟... وكان البرد يقرصه أحيانًا فيذكّره بموقفه وبالوقت الذي يمرّ سادرًا، ولٰكن فيم يتعجّل العودة؟... أيطمع حقًّا أن يطرق النوم جفونه هٰذه الليلة؟!

- ٣٢ -

وقف الحنطور أمام دكّان أحمد عبد الجواد، وقد لطّخ عجلاته الوحل المتراكم في شارع النحّاسين والمياه المتجمّعة في فجواته، فغادره السيّد محمّد عفّت في جبّة صوفيّة، ودخل الدكّان وهو يقول باسمًا:

- جئناك بحنطور، وكان الأسلم أن نجيئك بقارب...

وكانت الأمطار قد انهملت يومًا ونصف يوم حتّى سالت الأرض وغرقت الحواري والأزقّة، ومع أنّ السماء أمسكت - بعد ذٰلك - إلّا انّ تجهّمها لم ينكشف، وظلّ وجهها متواريًا وراء سحاب جون أظلّ الأرض بمظلّة قاتمة بعثت في الجوّ عكارة كأنّها نذير ليل بهيم. واستقبل أحمد عبد الجواد صاحبه بترحاب ودعاه إلى الجلوس، وما كاد محمّد عفّت يطمئنّ إلى مجلسه عند ركن المكتب حتّى قال كأنّما ليجلو سرّ مجيئه:

- لا تعجب لمجيئي في هٰذا الجوّ رغم أنّنا سنلتقي في مجلسنا المعتاد بعد ساعات، ولٰكنّي اشتقت إلى الانفراد بك!

وضحك محمّد عفّت، كأنّما ليعتذر عن غرابة قوله، فضحك السيّد أيضًا، ولٰكنّها كانت ضحكة إلى التساؤل أقرب. وذهب جميل الحمزاوي - وكان ملتفعًا بكوفيّة ضمّت قمّة رأسه وما تحت ذقنه - إلى الباب، فنادى صبيّ قهوة قلاوون ليُحضر قهوة، ثمّ عاد إلى كرسيّه وقد أعفاه المطر والبرد من العمل، أمّا السيّد أحمد فقد حدّثه قلبه بأنّ وراء الزيارة أمرًا، فقد وقعت في وقت لا تدفع إليه إلّا ضرورة، إلى أنّ الأزمات النفسيّة التي عاناها الرجل منذ قريب وما انتابه من مرض أخيرًا، كلّ أولٰئك جعله عرضة للقلق على غير عادته، غير أنّه دارى قلقه بضحكة لطيفة، ثمّ قال:

- كنت قبيل حضورك أتذكّر سهرة الأمس وأستعيد منظر الفار وهو يرقص! الله يقطعه.

فقال محمّد عفّت باسمًا:

- كلّنا تلاميذك! وبهٰذه المناسبة دعني أنقل إليك ما يشيعه عليّ عبد الرحيم عنك، إنّه يقول إنّ الصداع الذي انتابك في الأسابيع الماضية ما هو إلّا عارض لخلوّ حياتك من النساء في الأيّام الأخيرة!...

- لخلوّ حياتي من النساء! وهل للصداع من سبب غير النساء؟!

وجاء صبيّ القهوة بأقداح القهوة والماء على صينيّة صفراء، فوضعها على ركن المكتب الذي يجلس حوله

الصديقان، ومضى، وشرب محمّد عفّت شربة ماء، ثمّ قال:

ـ شرب الماء البارد في الشتاء لذيذ، ما رأيك في هٰذا؟ لكن فيم سؤالي وأنت من عشّاق الشتاء الذين يستحمّون كلّ صباح بالماء البارد حتّى في هٰذه الأيّام من فبراير. . . الآن خبّرني، هل أعجبتك أنباء المؤتمر الوطنيّ الذي احتشد في بيت محمّد محمود؟ عشنا وشفنا مرّة أخرى سعد وعدلي وثروت في جبهة واحدة!

فتمتم السيّد قائلًا:

ـ ربّنا من حكمته أنّه يقبل التوبة. . .

ـ إنّي لا أثق في هٰؤلاء الكلاب. . .

ـ ولا أنا، ولٰكن ما العمل؟ الملك فؤاد طيّنها، ومن المحزن أنّ المعركة لم تعد بيننا وبين الإنجليز.

ثمّ مضيا يحتسيان القهوة في صمت إن دلّ على شيء فعلى أنّ الحديث العابر لم يعد له محلّ، وأنّ على محمّد عفّت أن يدلي بما عنده. واعتدل الرجل في جلسته، وخاطب السيّد بلهجة جدّيّة متسائلًا:

ـ أعندك أخبار عن ياسين؟

انعكس السؤال في عيني السيّد الواسعتين اهتمامًا مشوبًا بقلق، وفي الوقت ذاته خفق قلبه خفقة مروّعة، قال:

ـ خيرًا إنّه يزورني من حين لآخر، وكانت زيارته الأخيرة يوم الاثنين الماضي فهل من جديد؟ أمر يتعلّق بمريم؟ لقد رحلت إلى جهة مجهولة، وعلمت أخيرًا أنّ بيّومي الشربتلي اشترى نصيبها في بيت أمّها.

قال محمّد عفّت وهو يتكلّف ابتسامة:

ـ الأمر لا يتعلّق بمريم، من يدري لعلّها غابت عن ذاكرته، المسألة دون لفّ أو دوران زواج جديد.

فخفق قلبه مرّة أخرى فيما يشبه الفزع وهو يقول:

ـ زواج جديد؟! ولٰكنّه لم يشر إلى ذٰلك بتاتًا في أحاديثه معي!

هزّ محمّد عفّت رأسه آسفًا، وقال:

ـ لقد تزوّج بالفعل من شهر أو أكثر، حدّثني بذٰلك غنيم حميدو منذ ساعة فقط، وكان يظنّ أنّك تعلم كلّ شيء!

جعلت يسراه تعبث بشاربه بسرعة عصبيّة، ثمّ قال وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ لهٰذا الحدّ! كيف أصدّق هٰذا! كيف أخفى عنّي الأمر؟!

ـ الحال تقتضي الكتمان! أصغ إليّ، لقد آثرت أن أكاشفك بالحقيقة قبل أن تفاجأ بها مفاجأة غير كريمة، ولٰكن لا يصحّ أن نعيرها أكثر ممّا تستحقّ، وينبغي قبل كلّ شيء ألّا تستسلم للغضب، لم يعد الغضب ممّا تحتمله، اذكر تعبك الأخير وارحم نفسك.

قال السيّد يائسًا:

ـ في الأمر فضيحة!؟ هٰذا ما حدّثني به قلبي، هاتِ ما عندك يا سيّد محمّد. . .

هزّ محمّد عفّت رأسه آسفًا، ثمّ قال بصوت منخفض:

ـ كن دائمًا أحمد عبد الجواد الذي عهدناه، لقد تزوّج من زنّوبة العوّادة!

ـ زنّوبة!. . .

وتبادلا نظرة ذات دلالة، وسرعان ما بدا الارتباك في وجه أحمد والإشفاق في وجه صاحبه، ثمّ لم تعد مسألة الزواج ذاتها بالأولى في الأهمّيّة، فتساءل السيّد أحمد بلهجة لاهثة:

ـ ترى هل تعلم زنّوبة بأنّه ابني؟!

ـ لا يداخلني في هٰذا شكّ، غير أنّي أكاد أوقن بأنّها لم تطلعه على سرّك لتتمكّن من إيقاعه في الشرك، وقد نجحت نجاحًا تستحقّ عليه كلّ تهنئة!

ولٰكنّ أحمد عبد الجواد عاد يتساءل بنفس اللهجة اللاهثة:

ـ أم تراه أخفى عنّي الأمر لعلمه بما كان؟

ـ كلّا، لا أصدّق هٰذا، لو سبق هٰذا إلى علمه ما أقدم على الزواج منها، إنّه شابّ طائش ما في ذٰلك من ريب، ولٰكنّه ليس نذلًا، وإذا كان قد أخفى عنك الأمر، فما ذٰلك إلّا لأنّه لم يجد الشجاعة ليصارحك بأنّه تزوّج من عوّادة! يا ويل الآباء من الأبناء الطائشين، الحقّ أنّي تألّمت كثيرًا، ولٰكنّي أكرّر الرجاء بألّا تستسلم للغضب، ذنبه على جنبه، وأنت بريء من فعلته ولا لوم عليك.

تنهّد أحمد عبد الجواد بصوت مسموع، ثمّ سأل صاحبه:

ـ خبّرني كيف علّق غنيم حميدو على الخبر؟

فلوّح محمّد عفّت بيده مستهينًا، وقال:

ـ سألني: كيف يرضى السيّد أحمد عن هٰذا؟ فقلت له: إنّ الرجل لا يعلم شيئًا. فتأسّف وقال لي: انظر إلى المدى البعيد بين الأب وابنه! كان الله في عونه.

قال أحمد بلهجة راثية:

ـ أهٰذه عاقبة تربيتي لهم؟ إنّي في حيرة شديدة يا سيّد محمّد، المصيبة أنّنا نفتقد السيطرة الفعليّة عليهم في الوقت الذي تستوجب مصلحتهم الحقيقيّة سيطرتنا، إنّهم بحكم العمر يتحمّلون مسئوليّة أنفسهم، ولٰكنّهم يسيئون استعمالها دون أن نستطيع تقويم ما يعوجّ منهم، نحن رجال ولٰكنّنا لم نلد رجالًا، من أين جاء العيب يا ترى؟ هٰذا الثور! امرأة في متناول كلّ يد فماذا دعاه إلى الزواج منها؟! فلنبكِ على أنفسنا، لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وضع محمّد عفّت يده على منكب صاحبه بحنوّ، وقال:

ـ لقد أدّينا ما علينا من واجب، الأمر بعد ذٰلك لصاحب الأمر، وهيهات أن يراك أحد مستحقًّا للوم.

عند ذاك جاء صوت الحمزاوي الأسيف وهو يقول:

ـ لا يستطيع منصف أن يلومك على أمر كهٰذا يا سي السيّد، على أنّه يخيّل إليّ أنّ الأمل في الإصلاح لم ينعدم، انصحه يا سي السيّد...

ـ إنّه يبدو بين يديك طفلًا مطيعًا، وهو سيطلّقها حتمًا غدًا أو بعد غد فخير البرّ عاجله...

فتساءل السيّد متشكّيًا:

ـ وإن كانت قد حبلت؟

فجاء صوت الحمزاوي وهو يقول جزعًا:

ـ لا قدّر الله ولا سمح...

وبدا أنّ عند محمّد عفّت مزيدًا من القول، فنظر إلى صاحبه بإشفاق، ثمّ قال:

ـ ومن المؤسف حقًّا أنّه باع دكّانه بالحمزاوي ليؤثّث بيته من جديد!

حملق أحمد في وجهه، ثمّ قطّب منفعلًا، وهتف حانقًا:

ـ كأنّي غير موجود في هٰذه الدنيا!... حتّى في هٰذا لا يشاورني!...

ثمّ وهو يضرب كفًّا بكفّ:

ـ ضحكوا عليه بلا ريب، وجدوا في طريقهم لقية، بغلًا بلا سائس في ثياب أفندي...

فقال محمّد عفّت متأثّرًا:

ـ تصرّفات أطفال!... نسي أباه ونسي ابنه! ولٰكن ما الفائدة من الغضب؟!

صاح أحمد عبد الجواد:

ـ يخيّل إليّ أنّه ينبغي أن آخذه بالحزم مهما تكن العواقب...

مدّ محمّد عفّت ذراعيه كأنّما يدفع رزيّة، وقال بتوسّل:

ـ إنْ كبر ابنك آخِهِ، لا تخطئ وأنت سيّد العارفين، ليس عليك إلّا النصيحة وليقضِ الله بما هو قاضٍ...

وخفض محمّد عفّت عينيه متفكّرًا، وبدا لحظات كالمتردّد، ثمّ قال:

ـ ثمّة أمر يهمّني كما يهمّك ألا وهو رضوان!

وتبادل الرجلان نظرة طويلة، ثمّ استطرد محمّد عفّت قائلًا:

ـ سيبلغ الغلام السابعة من عمره بعد أشهر، وأخاف أن يطالب به فينشأ بين أحضان زنّوبة، هٰذا شرّ يجب دفعه، ولا إخالك توافق عليه، فاقنعه بأن يترك الغلام عندنا حتّى يقضي الله أمرًا...

لم يكن من طبع أحمد عبد الجواد أن يرحّب بأن يبقى ابن ابنه عند آل أمّه بعد انقضاء فترة الحضانة الشرعيّة، ولٰكنّه من ناحية أخرى لم يشأ أن يقترح ضمّه إلى بيته هو حتّى لا يضيف إلى أعباء أمينة عبئًا جديدًا لم تعد بحكم سنّها أهلًا لحمله، فقال في استسلام أسيف:

ـ لا يصحّ أن يتربّى رضوان في بيت زنّوبة هٰذا ما أقرّك عليه...

فقال محمّد عفّت وهو يتنهّد بارتياح:

ـ إنّ جدّته تحبّه من كلّ قلبها، وحتّى لو دعت ظروف قهريّة في المستقبل إلى أن ينتقل إلى بيت أمّه فسوف يجد هناك جوًّا صالحًا، إذ أنّ زوج أمّه رجل في الأربعين أو جاوزها، وقد حرمه الله من نعمة الذرّيّة...

فقال أحمد عبد الجواد برجاء:

ـ لكنّي أفضّل أن يبقى عندك...

ـ طبعًا.. طبعًا، إنّي تكلّمت عن احتمالات بعيدة أسأل الله ألّا نضطرّ إليها، الآن لم يبق لي إلّا أن أرجوك أن تترفّق في مخاطبته ومحاسبته حتّى يتيسّر إقناعه بترك رضوان لي...

وهنا جاء صوت الحمزاوي المسالم وهو يقول:

ـ السيّد أحمد سيّد الحكماء، وهل يغيب عنه أنّ ياسين رجل؟ وأنّه مثل كافّة الرجال حرّ التصرّف في شئونه وأملاكه؟ هٰذا ما لا يمكن أن يغيب عن السيّد، وما عليه إلّا النصيحة، والباقي على الله...

استسلم أحمد عبد الجواد بقيّة النهار إلى التفكير والحزن. قال لنفسه: إنّ ياسين في كلمة ابن مخيّب للآمال، وليس أفجع من ابن مخيّب للآمال، إنّ مآله بيّن ويا للأسف! ولن يحتاج إلى قوّة بصيرة كي يتصوّره، أجل سوف ينحدر من سيّئ إلى أسوأ وعند الله اللطف. وقد رجاه جميل الحمزاوي أن يؤجّل مخاطبة ياسين إلى الغد، فانصاع لرجائه يائسًا أكثر منه قادرًا لوجاهة النصح.

وعند عصر اليوم التالي استدعاه إلى مقابلته، فلبّى ياسين مبادرًا كما ينبغي للابن المطيع. والحقّ أنّ ياسين لم يقطع ما بينه وبين أهله من أسباب. كان البيت القديم المكان الوحيد الذي لم يجد الشجاعة للعودة إليه على شدّة حنينه إليه، وما من مرّة كان يلتقي فيها بأبيه أو خديجة أو عائشة إلّا ويحمّلهم السلام إلى امرأة أبيه. أجل لم ينس قلبه غضبها عليه ولم تمح من صفحته آثار ما سمّاه تعنّتها معه، بيد أنّه أبى أن ينسى كذٰلك العهد القديم، عهد لم يكن يعرف أمًّا إلّاها. ولم ينقطع عن زيارة أختيه، كما كان يقابل كمال أحيانًا في قهوة أحمد عبده أو يدعوه إلى بيته حيث عرف الشابّ مريم أوّلًا ثمّ زنّوبة أخيرًا. أمّا أبوه فكان يزوره في دكّانه مرّة على الأقلّ كلّ أسبوع، وهنا أتيح لياسين أن يعرف شخصيّة أبيه الثانية التي يأسر الناس بها، فنشأت بين الرجلين صداقة وطيدة ومودّة وثيقة، غذّتها صلة الرحم من ناحية وفرحة اكتشاف الأب على حقيقته من ناحية أخرى. غير أنّ ياسين وهو يتفرّس في وجه أبيه ذٰلك اليوم لمح فيه ما ذكّره بالوجه القديم الذي طالما بعث في أطرافه الرعب، ولم يتساءل عمّا طرأ عليه، لأنّه كان واثقًا من أنّه سيقف على سرّه عاجلًا أو آجلًا، فلم يشكّ في أنّه مُلاقٍ العاصفة التي توقّع هبوبها منذ أقدم على فعلته. بادره الرجل قائلًا:

ـ يحزنني أن أجد نفسي بهٰذا الهوان، وماذا وراء أن أعرف أنباء ابني من الآخرين؟

فطامن ياسين رأسه ولم ينبس، فثار الرجل على طلاء المسكنة الكاذب الذي يطالعه به، وصاح:

ـ اخلع هٰذا القناع، دعك من النفاق وأسمعني صوتك، طبعًا أنت تعلم ما أعنيه!

فقال ياسين بصوت لم يكد يسمع:

ـ لم أجد الشجاعة لإخبارك...

ـ هٰذا شأن من يتستّر على ذنب أو فضيحة!

حذّرته غريزته من أن يلجأ إلى أيّ نوع من أنواع المعارضة، فقال باستسلام:

ـ نعم...

فسأله السيّد ذاهلًا:

ـ إذا كان هٰذا هو رأيك حقًّا، فلِمَ فعلتها؟!

لاذ ياسين بالصمت مرّة أخرى، فخيّل إلى الأب أنّه يقول له بصمته «عرفت أنّها فضيحة ولكنّي أذعنت للحبّ!»، وذكّره هٰذا بموقفه المخزي أمام المرأة ذاتها، يا للعار! غسلت خزيك بغضبة كبرى، ولكنّك عدت تسعى إليها! أمّا هٰذا الثور فما أضيعه!

ـ فضيحة ارتضيتها أنت دون تقدير للعواقب لنتعذّب بها نحن جميعًا!

هتف بسذاجة قائلًا:

ـ أنتم جميعًا؟! معاذ الله...

عاود السيّد الغضب، فصاح به:

ـ لا تتصنّع الجهل، لا تدَّعِ البراءة، أنت تعلم أنّك في سبيل شهواتك لا تبالي ما يصيب سمعة أبيك وإخوتك، أقحمت على الأسرة عوّادة لتكون هي ومن بعدها ذرّيّتها منّا، لا إخالك كنت تجهل هٰذا قبل أن أذكره، ولٰكنّك تستهين بكلّ شيء في سبيل شهوتك، هانت كرامة الأسرة على يديك، وأنت نفسك تنهار حجرًا بعد حجر، وسوف تجد نفسك في النهاية خرابًا...

غضّ البصر لائذًا بالصمت حتّى نطقت حاله بالذنب والتسليم، لن تكلّفك هٰذه الفضيحة إلّا قدرًا من التمثيل كما أرى، حسبك هٰذا، أمّا أنا فسأرزق غدًا بحفيد أمّه زنّوبة وخالته زبيدة، مصاهرة طريفة بين السيّد أحمد التاجر المعروف وزبيدة العالمة الذائعة الصيت، لعلّنا نكفّر عن ذنوب لا ندريها!

ـ إنّ بدني يقشعرّ كلّما فكّرت في مستقبلك، قلت لك إنّك تنهار وسوف تنهار أكثر وأكثر، خبّرني ماذا فعلت بدكّان الحمزاوي؟

رفع إليه عينين كئيبتين، وتردّد مرّات، ثمّ قال:

ـ كنت في حاجة ماسّة إلى المال...

ثمّ وهو يخفض عينيه:

ـ لو كانت الظروف غير الظروف لاقترضت ما أحتاجه من حضرتك ولٰكنّ الأمر كان محرجًا...

السيّد حانقًا:

ـ يا لك من مراء! ألا تخجل من نفسك؟ أراهن على أنّك لم تجد في كلّ ما فعلته أيّ غرابة أو إنكار، أنا عارفك وفاهمك فلا تحاول أن تخدعني، ليس عندي إلّا كلمة واحدة وإن كنت أعلم مقدّمًا ألّا طائل تحتها: أنت تخرب نفسك بنفسك ونهايتك سوداء...

عاد ياسين إلى صمته متظاهرًا بالأسى. الثورا هي جذّابة شيطانة ولٰكن ماذا اضطرّك بالزواج منها؟ كنت أظنّ أنّها طالبتني بالزواج طمعًا في تقدّم عمري، لٰكنّها أوقعت هٰذا الثور على شبابه. ووجد عند ذاك شيئًا من الارتياح والعزاء. كانت خطّتها المدبّرة أن تتزوّج بأيّ ثمن إلّا أنّها آثرت غيري عليّ، فوقع هٰذا الأحمق:

ـ طلّقها؟ طلّقها قبل أن تصير أمًّا وتفضحنا إلى أبد الآبدين!...

تردّد ياسين مليًّا، ثمّ تمتم:

ـ حرام عليّ أن أطلّقها بلا ذنب!

يا بن الكلب!... أتحفتني بنكتة بارعة لسهرة الليلة!...

ـ سوف تطلّقها عاجلًا أو آجلًا، ولٰكن قبل أن تنجب لك طفلًا يكون مشكلتك ومشكلتنا...

تنهّد بصوت مسموع مستغنيًا بذٰلك عن الكلام، على حين راح الأب يتفحّصه فيما يشبه الحيرة، فهمي مات، كمال أبله أو مجنون، وهٰذا ياسين لا أمل فيه. المحزن أنّه أعزّ الجميع لديّ. دع الأمر لله، ربّاه! ماذا يكون الحال لو زلّت قدمي إلى الزواج...

ـ بكم بعت الدكّان؟

ـ مائتي جنيه...

ـ تستحقّ ثلاثمائة، موقعها ممتاز جدًّا يا جاهل، لمن بعتها؟

ـ عليّ طولون، بائع الخردوات.

ـ مبارك مبارك، هل ضاع المبلغ في الجهاز الجديد؟

ـ لديّ منه مائة...

بلهجة ساخرة:

ـ أحسنت، فالعريس لا يستغني عن النقود...

ثمّ بلهجة جادّة حزينة:

ـ يا ياسين اسمع كلامي، أنا أبوك، احترس وغيّر سيرتك، أنت نفسك أب، ألا تفكّر في ابنك ومستقبله؟!

فقال مدافعًا متحمّسًا:

ـ إنّ نفقته الشهريّة تصله على آخر ملّيم!

ـ أهي مسألة تجاريّة؟ إنّي أتكلّم عن مستقبله، بل عن مستقبل الآخرين الذين ينتظرون في عالم الغيب!

فقال ياسين باطمئنان:

ـ ربّنا يخلق ويرزق...

هتف الرجل باستياء:

ـ ربّنا يخلق ويرزق وحضرتك تبذّر! قل لي...

واعتدل في جلسته، ثمّ تساءل وهو يركّز فيه عينيه القويّتين:

ـ رضوان على عتبة السابعة، فماذا أنت صانع به؟ أتأخذه لينشأ في أحضان حرمكم؟

لاح في الوجه الممتلئ الارتباك، ثمّ تساءل بدوره:

ـ ماذا أفعل إذن؟ لم أعمل في الأمر فكري...

هزّ الرجل رأسه في أسى ساخر، وقال:

ـ دفع الله عنك شرّ الفكر! وهل لديك وقت لتبذّره فيه؟! دعني أفكّر عنك، دعني أقول إنّ رضوان يجب أن يبقى في حضانة جدّه...

فكّر قليلًا، ثمّ خفض رأسه بالإيجاب قائلًا بانصياع:

ـ الرأي رأيك يا أبي، هٰذا في صالحه ولا شكّ...

قال الأب متهكّمًا:

ـ يبدو لي أنّه في صالحك أيضًا كيلا تشغل نفسك بأمور تافهة!

ابتسم دون تعليق، كأنّما يقول له «إنّي واثق من أنّك تمزح ولا بأس من ذٰلك».

ـ ظننت أنّه سيشقّ عليّ إقناعك بالتخلّي عنه!

ـ إنّ ثقتي في رأيك هي التي جعلتني أبادر إلى الموافقة!

فتساءل السيّد بدهشة ساخرة:

ـ أتثق حقًّا في رأيي؟ لِمَ لم تعمل به في الأمور الأخرى؟!

ثمّ وهو يتنهّد آسفًا:

ـ القصد! ربّنا يهديك، وذنبك على جنبك، سأحدّث محمّد عفّت الليلة في شأن الاحتفاظ برضوان، على أن تقوم بكلّ نفقاته فعسى أن يوافق...

عند ذاك نهض ياسين وسلّم على أبيه واتّجه نحو باب الدكّان، وما إن خطا خطوتين حتّى أدركه صوت أبيه وهو يسأله:

ـ ألا تحبّ ابنك ككلّ الآباء؟

فتوقّف ياسين متلفّتًا نحوه، وهو يقول بإنكار:

ـ وهل يحتاج هٰذا إلى قرار يا أبي! إنّه أعزّ شيء في الحياة...

فرفع السيّد حاجبيه، وقال وهو يهزّ رأسه هزّة غامضة:

ـ مع السلامة...

ـ ٣٣ ـ

قبل الخروج إلى صلاة الجمعة بساعة، دعا أحمد عبد الجواد كمال إلى حجرته، لم يكن يدعو أحدًا من أهل بيته إلى مقابلته إلّا لأمر هامّ، والحقّ أنّه كان مبلبل الفكر، متحفّزًا لاستجواب ابنه عمّا يشغله. وكان بعض أصحابه قد وجّهوا نظره مساء أمس إلى مقال ظهر في البلاغ الأسبوعيّ بقلم الأديب الناشئ «كمال أحمد عبد الجواد»، ومع أنّ أحدًا منهم لم يقرأ من المقال إلّا العنوان وهو «أصل الإنسان» والإمضاء وهو الأديب الناشئ «كمال أحمد عبد الجواد» فإنّهم اتّخذوا منه مادّة للتعليق والتهنئة وممازحة السيّد، حتّى فكّر الرجل جادًّا في أن يكلّف الشيخ متولّي عبد الصمد بعمل حجاب للشابّ. قال له محمّد عفّت «سجّل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتّاب في مجلّة واحدة، طب نفسًا وادعُ الله أن يكتب له مستقبلًا باهرًا كما كتب لهم»، وقال له عليّ عبد الرحيم «سمعت من شخص محترم أنّ المرحوم المنفلوطي ابتاع عزبة بقلمه فأبشر خيرًا»، وحدّثه آخرون عن القلم وكيف شقّ السبيل لكثيرين إلى حظوة الحكّام والزعماء، ضاربين الأمثال بشوقي وحافظ والمنفلوطي، وعندما جاء دور إبراهيم الفار داعبه قائلًا «سبحان الذي خلق من ظهر الجاهل عالـمًا»، أمّا السيّد فقد ألقى نظرة على العنوان ونظرة على «الأديب الناشئ»، ثمّ وضع المجلّة فوق جبّته التي كان قد نزعها بسبب حرارة يونيه وحميّا الويسكي مؤجّلًا قراءتها حتّى ينفرد بنفسه في البيت أو في الدكّان، ثمّ واصل سهرته بصدر منشرح وضمير تيّاه فخور، بل جعل يراجع نفسه لأوّل مرّة في سخطه المكظوم على إيثار الشابّ لمدرسة المعلّمين قائلًا إنّ «الولد» فيما يبدو سيكون «شيئًا» رغم اختياره غير الموفّق، وبنى أحلامًا على ما قيل عن «القلم» وحظوة الكبراء وعزبة المنفلوطي، أجل، من يدري؟ لعلّه لا يكون معلّمًا فحسب ولكن يشقّ

السبيل حقًّا إلى حياة لم تخطر له هو على بال. وعند ضحى اليوم، وعند فراغه من الصلاة والإفطار، تربّع على الكنبة وفتح المجلّة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمتلئ بمعانيها، لكن ماذا وجد فيها؟ إنّه يقرأ المقالات السياسيّة فيفهمها دون عناء، أمّا هٰذه المقالة فإنّها دارت برأسه وأفزعت قلبه، وأعاد تلاوتها بعناية فطالع كلامًا عن عالِم يدعى «داروِن» ومجهوده في جزر نائية، ومقارنات ثقيلة بين شتّى الحيوانات حتّى وقف مبهوتًا عند تقرير غريب يزعم أنّ الإنسان سلالة حيوانيّة! بل أنّه متطوّر عن نوع من القردة! وكرّر تلاوة الفقرة الخطيرة منزعجًا، ثمّ لبث ذاهلًا أمام هٰذه الحقيقة الأسيفة وهي أنّ ابنًا من صلبه يقرّر ـ دون اعتراض أو مناقشة ـ أنّ الإنسان سلالة حيوانيّة! انزعج الرجل انزعاجًا شديدًا وتساءل في حيرة: هل حقًّا يعلّمون الأولاد هٰذه المعلومات الخطيرة في مدارس الحكومة؟ ثمّ أرسل في طلب كمال.

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون عمّا يختلج في رأس أبيه، وكان قد استدعاه قبل ذٰلك بأيّام ليهنّئه على النقل إلى السنة الثالثة فظنّ بالدعوة الجديدة خيرًا. وبدا شاحب الوجه ضامر الجسم كعهده في الفترة الأخيرة في حال علّلتها الأسرة بالجهد الشديد الذي بذله قبيل الامتحان، ولكن غاب عنها سرّها الحقيقيّ وهو ما عاناه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسيرًا لعاطفة مستبدّة جهنّميّة كادت تودي به، وأشار السيّد إليه بالجلوس، فجلس على طرف الكنبة متّجهًا نحو أبيه بأدب، وعند ذاك لمح أمّه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخيطها، أمّا الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعيّ إلى الفراغ الذي يفصل بينهما على الكنبة وقال بهدوء مصطنع:

ـ لك مقال في هٰذه المجلّة، أليس كذٰلك؟

خطف غلاف المجلّة عيني كمال فرنا إليه بعين ذاهلة دلّت على أنّه لم يكن يتوقّع هٰذه المفاجأة قطّ... من أين لأبيه هٰذا الاطّلاع المستجدّ على المجلّات الأدبيّة؟! لقد سبق أن نشر في الصباح «تأمّلات» بين النثر والشعر المنثور ضمّنها نظرات فلسفيّة بريئة وأنّات عاطفيّة، وهو آمن كلّ الأمن من ناحية اطّلاع أبيه عليها، فلم يدرِ بها أحد من أسرته إلّا ياسين الذي كان هو نفسه يقرأها عليه فينصت الأخير، ثمّ يقول له معلّقًا «هٰذا ثمرة توجيهي الأوّل لك، أنا الذي علّمتك الشعر والقصص، جميل يا أستاذ، ولٰكن هٰذه فلسفة عميقة جدًّا فمن أين جئت بها؟» أو يقول مداعبًا «مَن الحسناء التي ألهمتك هٰذه الشكوى الرقيقة؟ ستعلم يا أستاذ يومًا أنّهنّ لا يجدي معهنّ إلّا ضرب المراكيب»، ولٰكن ها هو يطّلع على أخطر ما كتب، تلك المقالة التي شبّ التفكير فيها معركة جهنّميّة في صدره وعقله كاد يحترق في أتونها، فكيف حدث هٰذا؟ وهل يجد له من تفسير إلّا عند أصدقاء أبيه الوفديّين الذين يحرصون على اقتناء كافّة الجرائد والمجلّات الوفديّة؟ وهل يطمع في أن يخرج سالمًا من هٰذا المأزق؟ رفع عينيه عن المجلّة، ثمّ قال بلهجة لم يمكّنها من الإفصاح عن اضطرابه:

ـ بلى، خطر لي أن أكتب موضوعًا تثبيتًا لمعلوماتي وتشجيعًا لنفسي على مواصلة الدرس...

قال السيّد أحمد بهدوئه المصطنع:

ـ لا عيب في ذٰلك، الكتابة في الصحف كانت ولم تزل الوسيلة إلى الجاه والحظوة عند الكبراء، ولكنّ المهمّ الموضوع الذي يكتب فيه الكاتب، ماذا أردت بهٰذه المقالة؟ اقرأها واشرحها لي، فقد غمض عليّ مرماك...

يا للتعاسة! ليس هٰذا المقال للجهر، وخاصّة على مسمع من أبيه!

ـ إنّه مقال طويل يا بابا، ألم تقرأه حضرتك؟ إنّي أشرح فيه نظريّة علميّة...

حدجه الرجل بنظرة برّاقة متحفّزة، أهٰذا ما يدعونه بالعلم الآن؟ ألا لعنة الله على العلم والعلماء...

ـ ماذا تقول في هٰذه النظريّة؟ لقد لفتت نظري عبارات غريبة تقول إنّ الإنسان سلالة حيوانيّة، أو شيئًا من هٰذا القبيل، أحقّ هٰذا؟

بالأمس ناضل نفسه وعقيدته وربّه نضالًا عنيفًا أعيا روحه وجسده، واليوم عليه أن يناضل أباه، غير أنّه

كان في الجولة الأولى معذّبًا محمومًا. . . أمّا في هٰذه الجولة فهو خائف مرتعب، إنّ الله قد يؤجّل عقابه، أمّا أبوه فشيمته التعجيل بالعقاب. . .

ـ هٰذا ما تقرّره هٰذه النظريّة!

علا صوت السيّد وهو يتساءل في انزعاج:

ـ وآدم أبو البشر الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه، ماذا تقول عنه هٰذه النظريّة العلميّة؟!

طالما طرح هٰذا السؤال على نفسه، لم يكن دون أبيه انزعاجًا، ولم يغمض له عين ليلتها حتّى الصباح، وتقلّب في الفراش متسائلًا عن آدم والخالق والقرآن، وقال لنفسه مرّة وعشرًا: القرآن إمّا أن يكون حقًّا كلّه أو لا يكون قرآنًا، إنّك تحمل عليّ لأنّك لم تدرِ بعذابي، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركني الموت تلك الليلة. قال بصوت خافت:

ـ دارون صاحب هٰذه النظريّة لم يتكلّم عن «سيّدنا» آدم. . .

هتف الرجل غاضبًا:

ـ لقد كفر دارون ووقع في حبائل الشيطان، إذا كان أصل الإنسان قردًا أو أيّ حيوان آخر، فلم يكن آدم أبًا للبشر. . . هٰذا هو الكفر عينه، هٰذا هو الاجتراء الوقح على مقام الله وجلاله!! إنّي أعرف أقباطًا ويهودًا في الصاغة وكلّهم يؤمنون بآدم، كلّ الأديان تؤمن بآدم فمن أيّ ملّة دارون هٰذا؟ إنّه كافر وكلامه كفر، ونقْل كلامه استهتار، خبّرني أهو من أساتذتك في المدرسة؟

ما أدعى هٰذا إلى الضحك لو كان في القلب فراغ للضحك، لكنّه قلب أفعمته الآلام، ألم الحبّ الخائب، وألم الشكّ وألم العقيدة المحتضرة، إنّ الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك، ولٰكن كيف يَسَع عاقل أن يتنكّر للعلم، قال بصوت متواضع:

ـ دارون عالم إنجليزيّ مات منذ زمن بعيد. . .

وهنا ندّ عن الأمّ صوت يقول بتهدّج:

ـ لعنة الله على الإنجليز أجمعين. . .

فالتفتا نحوها التفاتة قصيرة، فوجداها قد تركت الثياب والإبرة وتابعت الحديث، ولٰكن سرعان ما انصرفا عنها وعاد الأب يقول:

ـ خبّرني، هل تدرسون هٰذه النظريّة في المدرسة؟

التقف حبل النجاة الذي تدلّى إليه فجأة، فقال لائذًا بالكذب:

ـ نعم. . .

ـ أمر غريب! وهل تدرّس هٰذه النظريّة فيما بعد لتلاميذك؟!

ـ كلّا، سأكون مدرّس آداب لا علاقة لها بالنظريّات العلميّة. . .

ضرب السيّد كفًّا بكفّ، ودّ في تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ما له على الأسرة من سلطان، وهتف محنقًا:

ـ إذن لماذا يدرّسونها لكم؟! هل الغاية إدخال الكفر في قلوبكم؟

فقال كمال بلهجة المحتجّ:

ـ معاذ الله أن يؤثّر في عقيدتنا مؤثّر. . .

فتفحّصه بارتياب وهو يقول:

ـ ولٰكنّك نشرت الكفر بمقالك!

ـ أستغفر الله، إنّي أشرح النظريّة ليلمّ بها القارئ لا ليؤمن بها، هيهات أن يؤثّر في قلب المؤمن رأي كافر. . .

ـ ألم تجد موضوعًا غير هٰذه النظريّة المجرمة لتكتب فيه؟

لماذا كتب مقالته؟ لقد تردّد طويلًا قبل أن يرسلها إلى المجلّة، ولٰكنّه كان كأنّما يودّ أن ينعي إلى الناس عقيدته. لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشكّ التي أرسلها المعرّي والخيّام، حتّى هوت عليها قبضة العلم الحديديّة فكانت القاضية، على أنّني لست كافرًا، لا زلت أومن بالله، أمّا الدين. . .؟ أين الدين؟ ذهب! كما ذهب رأس الحسين، وكما ذهبت عايدة، وكما ذهبت ثقتي بنفسي! ثمّ قال بصوت حزين:

ـ لعلّي أخطأت، عذري أنّني كنت أدرس هٰذه النظريّة. . .

ـ ليس هٰذا بعذر، وعليك أن تصلح خطأك. . .

يا له من رجل طيّب! إنّه يطمع في أن يحمله على مهاجمة العلم في سبيل الدفاع عن أسطورة. حقًّا لقد تعذّب كثيرًا ولٰكنّه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التي طهّره منها، كفى عذابًا وخداعًا، لن تعبث بي الأوهام بعد اليوم، النور النور، أبونا آدم! لا أب لي، ليكن أبي قردًا إن شاءت الحقيقة، إنّه خير من آدميّين لا عدد لهم، لو كنت من سلالة نبيّ حقًّا ما سخرت منّي سخريتها القاتلة!...

ـ وكيف أصلح الخطأ؟

فقال السيّد ببساطة وحدّة معًا:

ـ عندك حقيقة لا شكّ فيها، وهي أنّ الله خلق آدم من تراب، وأنّ آدم هو أبو البشر، هٰذا مذكور في القرآن، فما عليك إلّا أن تبيّن أوجه الخطإ وهو عليك هيّن، وإلّا فما فائدة ثقافتك؟

وهنا جاء صوت الأمّ قائلًا:

ـ ما أيسر أن تبيّن خطأ مَن يعارض قول الرحمٰن، قل لهٰذا الإنجليزيّ الكافر: إنّ الله يقول في كتابه العزيز: إنّ آدم هو أبو البشر، كان جدّك من حملة كتاب الله فعليك أن تنتهج سبيله، لقد سرّني أنّك تبغي أن تكون مثله من العلماء...

لاح الضيق في وجه السيّد، فانتهرها قائلًا:

ـ ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم؟ دعينا من جدّه وانتبهي إلى ما بين يديك...

فقالت في حياء:

ـ أريد يا سيّدي أن يكون كجدّه من العلماء الذين يضيئون الدنيا بنور الله...

فصاح الرجل ساخطًا:

ـ ها هو قد بدأ ينشر الظلام...

فقالت المرأة بإشفاق:

ـ معاذ الله يا سيّدي، لعلّك لم تفهم...

حدجها السيّد بنظرة قاسية. لقد خفّف من شدّته في معاملتهم فماذا كانت النتيجة؟ ها هو كمال يذيع أنّ أصل الإنسان قرد، وها هي أمّه تناقشه وتقول له لم تفهم؟ صاح بها:

ـ دعيني أتكلّم، لا تقاطعيني، ولا تتدخّلي فيما لا تفهمين، انتبهي إلى عملك، الله يقطعك...

ثمّ ملتفتًا إلى كمال بوجه متجهّم:

ـ خبّرني، هل أنت فاعل ما قلت لك؟

عليك رقيب في البيت لم يبتلِ الأحرار بمثله في الدول، لٰكنّك كما تخافه تحبّه، فلن يطاوعك قلبك على الإساءة إليه. تجرّع الألم فقد اخترت حياة النضال...

ـ كيف يمكن أن أردّ على هٰذه النظريّة؟ لو انحصرت مناقشتي في الاستشهاد بالقرآن لما جاءت بجديد، فالكلّ يعلم بما عندي ويؤمن به، أمّا مناقشتها علميًّا فشأن المختصّين من العلماء...

ـ ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به؟

اعتراض وجيه في ذاته، غير أنّه من المؤسف أنّه لا يجد الشجاعة للاعتراف لأبيه بأنّه آمن بالنظريّة بصفتها حقيقة علميّة، وأنّها بهٰذه الصفة يمكن الاعتماد عليها في إنشاء فلسفة عامّة للوجود خارج نطاق العلم، أمّا السيّد فقد ظنّ صمته إقرارًا بالخطإ فتضاعف أسفه وحنقه. إنّ الضلال في هٰذا الميدان شديد الخطورة سيّئ العاقبة، وهو ميدان لا سلطان له عليه، وربّما وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشابّ الضالّ كما وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انقلابه من وصايته، فهل يجري عليه ما جرى على الآباء الآخرون في هٰذه الأيّام الغريبة؟! إنّ أنباء كالأساطير تترامى إليه عن شباب «اليوم»، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين، وآخرون يعبثون بكرامات المدرّسين، وغير هٰؤلاء وأولٰئك قد تمرّدوا على آبائهم. أجل لم تهن هيبته، ولٰكنّ عمّ أسفر ذٰلك التاريخ الطويل من الحزم والصرامة؟ ها هو ياسين يتدهور ويضمحلّ، وها هو كمال يناقش ويجادل ويحاول التملّص من قبضته:

ـ أصغ إليّ بكلّ وعيك، لا أريد أن أقسو عليك فإنّك مؤدّب ومطيع، أمّا عن موضوعنا فلا أملك لك إلّا النصيحة، وينبغي أن تذكر أنّه ما من أحد قد خالف نصيحتي وسلم...

ثمّ بعد صمت قصير:

ـ إليك ياسين شاهدًا عمّا أقول، وقد نصحت قديمًا «المرحوم» بألّا يلقي بنفسه إلى التهلكة، ولو امتدّ به

العمر لكان رجلًا نابهًا.

وهنا قالت الأمّ بصوت كالأنين:

ـ قتلوه الإنجليز، إنّهم إمّا يَقتلون وإمّا يَكفرون!

وواصل السيّد حديثه قائلًا:

ـ إذا وجدت في دروسك ما يخالف الدين، واضطررت إلى حفظه كي تنجح في الامتحان، فلا تؤمن به، ومن باب أولى لا تنشره في الصحف وإلّا حملت وزره، ليكن موقفك من علم الإنجليز كموقفنا من احتلالهم، وهو عدم الإقرار بشرعيّته ولو فُرض علينا بالقوّة الجبريّة...

تدخّل الصوت الرقيق الحيي مرّة أخرى قائلًا:

ـ ولتكرّس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هٰذا العلم ونشر نور الله...

فصاح بها السيّد:

ـ قلت ما فيه الكفاية دون الحاجة الى آرائك!

فعادت إلى ما بين يديها، وجعل السيّد يحدّق فيها متوعّدًا حتّى اطمأنّ إلى صمتها، فالتفت إلى كمال متسائلًا:

ـ مفهوم؟

فقال كمال بلهجة موحية بالثقة:

ـ بكلّ تأكيد.

إذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعليه بالسياسة الأسبوعيّة حيث لا تمتدّ يد أبيه الوفديّ، أمّا عن أمّه فقد وعدها في سرّه بأن يكرّس حياته لنشر نور الله، أليس هو نور الحقيقة؟ بلى، وسيكون في تحرّره من الدين أقرب إلى الله ممّا كان في إيمانه به، فما الدين الحقيقيّ إلّا العلم، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله، ولو بُعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم، هٰكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجرّدة، مخلّفًا وراءه تلك العاصفة ـ التي صارع فيها الجهل حتّى صرعه ـ حدًّا فاصلًا بين ماض خرافيّ وغد نورانيّ، بذٰلك تتفتّح له السبل المؤدّية إلى الله، سبل العلم والخير والجمال، وبذٰلك يودّع الماضي بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة...

بعناية واهتمام جعل يتفحّص ما تقع عليه عيناه وهو مقبل على سراي آل شدّاد، فلمّا عبر مدخلها تضاعفت عنايته واهتمامه بتفحّص ما حوله، فقد آمن أخيرًا بأنّ هٰذه الزيارة ستكون آخر عهده بالبيت وآله وذكرياته، كيف لا وقد انتزع حسين في النهاية موافقة أبيه على سفره إلى فرنسا؟ تأمّل بملء عينيه ووجدانه الممرّ الجانبيّ المفضي إلى الحديقة، والنافذة المطلّة عليه وكان طيفها الرقيق الأنيق يطالعه منها بنظرة حلوة لا تعني شيئًا كنظرات النجوم أو تحيّة رقيقة لا يُقصد بها شخصه كتغريد البلبل المشغول بفرحته عن السامعين، ثمّ المنظر الكلّيّ للحديقة المبسوط بين مؤخّر القصر والسور العريض المشرف على الصحراء، وما بين هٰذا وذاك من أعراش الياسمين وجماعات النخيل وشجيرات الورد، وأخيرًا الكشك العتيد الذي تملّى تحت سقفه بنشوات الحبّ والصداقة. وذكر المثل الإنجليزيّ الذي يقول «لا تضع كلّ بيضك في سلّة واحدة» وابتسم ابتسامة حزينة، فإنّه وإن حفظه منذ عهد بعيد إلّا أنّه لم ينتفع به فوضع عن سهو أو حماقة أو قضاء وقدر كلّ قلبه في هٰذا البيت، بعضه للحبّ وبعضه للصداقة، وقد ضاع الحبّ وها هو الصديق يحزم أمتعته استعدادًا للرحيل، ومن الغد سيلقى نفسه بلا حبيب ولا صديق، كيف يمكن أن يتعزّى عن هٰذا المنظر؟ قد انطبع في صدره وعلق قلبه وبات ذا ألفة وحنين، القصر والحديقة والصحراء، جملة وتفصيلًا، كانطباع أسماء عايدة وحسين شدّاد في حافظته، فكيف ينقطع عنه أو يقنع برؤيته من بعيد كسائر المارّة؟ هو الذي لشدّة ولعه بالبيت دعا نفسه يومًا مداعبًا بالوثنيّ!...

وكان حسين شدّاد وإسماعيل لطيف جالسين على كرسيّين متقابلين أمام المنضدة التي وُضع عليها الدورق التقليديّ والأكواب الثلاثة، وكانا كعادتهما في الصيف يرتديان قميصًا مفتوح الطوق وبنطلونًا من الفانلّة البيضاء، فطالعاه بوجهيهما المتناقضين: حسين بوجهه الجميل الوضيء، وإسماعيل بوجهه الحادّ القسمات

ونظراته التهجّميّة، فأقبل عليهما ببدلته البيضاء ممسكًا بطربوشه الذي تدلدل زرّه، وتصافحوا، ثمّ جلس جاعلًا ظهره إلى البيت، البيت الذي ولّاه ـ من قبل ـ ظهره! وسرعان ما قال إسماعيل مخاطبًا كمال، وهو يضحك ضحكة ذات معنى:

ـ يتعيّن علينا من الآن أن نبحث عن مكان جديد نتقابل فيه...

ابتسم كمال ابتسامة باهتة. ما أسعد إسماعيل بسخريته التي لم تعرف الألم، وهو وفؤاد الحمزاوي اللذان بقيا له، صديقان يؤنسان القلب ولا يمازجانه، يهرع إليهما هربًا من الوحشة، ولا حيلة إلّا أن يرضى بما قسم له.

ـ سنلتقي في المقاهي أو الطرقات ما دام حسين قد قرّر هجرنا...

هزّ حسين رأسه في أسف، أسف الفائز بأمنية عزيزة وهو يجامل بإعلان حزنه على فراق يهون، ثمّ قال:

ـ سأغادر مصر وفي قلبي حسرة على فراقكما، الصداقة عاطفة مقدّسة، إنّي أقدّرها من أعماق قلبي، والصديق هو القرين الذي يعكس نفسك فيكون صدى لعواطفك وأفكارك، لا يهمّ أن نختلف في كثير ما دام الجوهر متشابهًا، لن أنسى هٰذه الصداقة أبدًا، وستصل الرسائل ما بيننا حتّى نعود إلى اللقاء مرّة أخرى...

كلام جميل هو العزاء للقلب المكلوم المهجور. ألم يكن ما أصابه على يد أخته كافيًا؟ هٰكذا تتركني وحيدًا بلا صديق حقيقيّ، وغدًا يُقتل المهجور ظمأ إلى الألفة الروحيّة الساخرة. تساءل في كآبة:

ـ متى نعود إلى اللقاء مرّة أخرى؟ لم أنس بعد تطلّعك الحارّ إلى السياحة الدائمة، فمن يضمن لي ألّا يكون ذهابك إلى الأبد؟

فآمن إسماعيل على قوله قائلًا:

ـ قلبي يحدّثني بأنّ العصفور لن يعود إلى القفص...

ضحك حسين ضحكة قصيرة، غير أنّها وشت بسروره، ثمّ قال:

ـ لم أظفر بموافقة أبي على سفري حتّى وعدته بمواصلة دراستي القانونيّة، ولٰكنّي لا أدري إلى أيّ مدى سيمكنني المحافظة على وعدي؟ لا استلطاف بيني وبين القانون، أكثر من هٰذا يخيّل إليّ أنّي لن أصبر على الدراسة النظاميّة، لا أريد إلّا ما أحبّه، وقلبي موزّع بين معارف شتّى لا تجمعها كلّيّة واحدة كما قلت مرارًا وتكرارًا، أريد أن أتلقّى محاضرات في فلسفة الفنّ، وأخرى في الشعر والقصص، وأن أرتاد المتاحف ومعازف الموسيقى، وأن أعشق والهو، فأيّ كلّيّة تحوي هٰذه الألوان جميعًا؟! وثمّة حقيقة أخرى تعرفانها وهي أنّي أفضّل أن أسمع على أن أقرأ، أريد أن يشرح غيري لأستمع أنا، ثمّ أنطلق بحواسّ مجلوّة وعقل مضيء إلى سفوح الجبال وشواطئ البحور والمشارب والمقاهي والمراقص، وسوف تصلكما تباعًا تقاريري عن هٰذه التجارب الفذّة!

كأنّه يصف الجنّة التي نبذ هو الإيمان بها! بيد أنّها جنّة سلبيّة تأخذ ولا تعطي، وهو يطمح إلى مثال آخر، أمّا حسين فهيهات أن يحنّ إلى مغناه القديم، إذا ضمّته تلك الحياة الورديّة إلى صدرها الرغيد. وكأنّ إسماعيل كان يردّد خواطره حين قال مخاطبًا حسين:

ـ لن تعود إلينا، الوداع يا حسين! حلمنا واحد على وجه التقريب، دع جانبًا فلسفة الفنّ والمتاحف والموسيقى والشعر وسفوح الجبال... ألخ، فنكون شخصًا واحدًا! أذكّرك للمرّة الأخيرة بأنّك لن تعود إلينا...

وحدجه كمال بنظرة متسائلة، كأنّما تطالبه برأيه فيما قال إسماعيل، فقال:

ـ بل سأعود كثيرًا، ستكون مصر ضمن سياحتي الطويلة لأرى الأهل والأصدقاء (ثمّ موجّهًا الخطاب إلى كمال) سوف أنتظر سفرك إلى الخارج بجزع أكاد أشعر به من الآن!

من يدري لعلّ كذبته تصدق فيجوب تلك الآفاق، مهما يكن من أمر فقلبه يحدّثه بأنّ حسين سيعود يومًا

وأنّ هٰذه الصداقة العميقة لن تضيع هباء. إنّ قلبه الصدوق يؤمن بهٰذا كما يؤمن بأنّ الحبّ لا تُقتلع جذوره من القلب وأسفاه! قال برجاء:

- سافر وافعل ما تحبّ ثمّ عد إلى مصر لتجعلها مقامك، على أن تخرج منها سائحًا كلّما طابت لك السياحة.

فأمّن إسماعيل على رأيه:

- لو أنّك ابن حلال حقًّا لقبلت هٰذا الحلّ الوجيه الذي يوفّق بين رغبتك ورغبتنا...

قال حسين وهو يطامن رأسه كأنّما قد اقتنع:

- سينتهي بي المطاف إلى هٰذا الحلّ فيما أعتقد...

كان يصغي إليه وهو يملأ من منظره ناظريه، خاصّة العينين السوداوين اللتين تشبهان عيني عايدة، ولفتاته الجامعة بين السموّ واللطف، وروحه الشفّاف الذي يكاد يتمثّل أمامه خلقًا يُرى ويُحَسّ، إذا غاب هٰذا العزيز فماذا يبقى من نعمة الصداقة وذكرى الحبّ؟ الصداقة التي تلقّتها على يديه ألفة روحيّة وسعادة مطمئنّة، والحبّ الذي ألهمه على يد أخته فرحة سماء وعذاب جحيم؟! وعاد حسين يقول وهو يشير إليهما واحدًا بعد الآخر:

- عندما أعود إلى مصر ستكون أنت محاسبًا في وزارة الماليّة، وأنت مدرّسًا، ولا يبعد أن أجدكما والدين! ما أعجب هٰذا!

تساءل إسماعيل ضاحكًا:

- هل تستطيع أن تتخيّلنا موظّفين؟ تصوّر كمال مدرّسًا! (ثمّ موجّهًا الخطاب إلى كمال) يجب أن تسمن كثيرًا قبل أن تواجه التلاميذ، سوف تلقى جيلًا من العفاريت نحن نُعَدّ بالقياس إليهم من الملائكة، وسوف تجد نفسك وأنت الوفديّ العنيد مضطرًّا بحكم الوظيفة إلى معاقبة المضربين بأمر الوفد!

أخرجته ملاحظة إسماعيل عن مجرى التفكير الذي كان مسترسلًا فيه، فوجد نفسه يتساءل: كيف يستطيع مواجهة التلاميذ برأسه وأنفه المشهورين؟! وجد امتعاضًا ومرارة، وخيّل إليه - قياسًا على شواذّ المدرّسين الذين عرفهم في حياته - أنّه سيلتزم القسوة في معاملة التلاميذ ليحمي شخصيّته المهدّدة! غير أنّه تساءل: ترى هل يسعه أن يكون قاسيًا على غيره كما يقسو على نفسه؟ قال ارتجالًا:

- لا أظنّ أنّني سأمتهن مهنة التدريس إلى النهاية...

لاحت في عيني حسين نظرة حالمة وهو يقول:

- من التعليم إلى الصحافة على ما أظنّ، أليس كذٰلك؟

وجد نفسه يفكّر في المستقبل، فعاودته فكرة الكتاب الجامع الذي حلم كثيرًا بتأليفه، ولٰكن ماذا بقي من موضوعه الأوّل؟ لم يعد الأنبياء أنبياء، ولا الجنّة والجحيم، وليس علم الإنسان إلّا فصلًا من علم الحيوان، فعليه أن يبحث عن موضوع جديد، قال مرتجلًا أيضًا:

- لو أتمكّن يومًا من إنشاء مجلّة للدعاية للفكر الجديد!

فقال إسماعيل لطيف بلهجة الوعظ والإرشاد:

- بل السياسة هي السلعة الرائجة، خصّص للفكر إذا شئت عامودًا في الصفحة الأخيرة، وفي البلد متّسع لكاتب وفديّ هجّاء جديد...

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:

- لا يبدو أنّ صاحبنا سياسيّ إيجابيّ، حَسْب أسرته ما قدّمت من فدية، أمّا الفكر فالمجال أمامه واسع فيه... (ثمّ مخاطبًا كمال)... لديك ما تقوله، لقد كانت ثورتك الإلحاديّة طفرة مفاجئة لم أتوقّعها من قبل...

ما أسعده بهٰذه الصفة الجديدة التي وجد فيها تحيّة لثورته وتملّقًا لغروره، قال وقد تورّد وجهه:

- ما أجمل أن يكرّس الإنسان حياته للحقّ والخير والجمال!...

صفّر إسماعيل ثلاثًا، لكلّ قيمة صفيرًا، ثمّ قال متهكّمًا:

- اسمعوا وعوا!

أمّا حسين فقال جادًّا:

- إنّي مثلك! ولٰكنّي قانع بالمعرفة والمتعة!

فقال كمال بحماس وإخلاص:

ـ الأمر أجلّ من هٰذا، إنّه كفاح في سبيل الحقّ يستهدف خير الإنسانيّة جميعًا، وبغيره لا يكون للحياة معنى في نظري...

ضرب إسماعيل كفًّا بكفّ ـ وقد ذكّرته هٰذه الحركة بأبيه ـ وقال:

ـ إذن فالواجب ألّا يكون للحياة معنى! كم تعبت وشقيت حتّى تحرّرت من الدين! لم أتعب أنا تعبك، ولٰكنّ الدين لم يكن شغلي أبدًا فهل تعدّني يا ترى فيلسوفًا بالفطرة؟! حسبي أن أعيش الحياة التي لا تحتاج إلى تعريف، غير أنّ هٰذا الذي أتبعه بالفطرة لا تبلغه أنت إلّا بالكفاح المرير، أستغفر الله، بل أنت لم تبلغه بعد فلا زلت ـ حتّى بعد إلحادك ـ تؤمن بالحقيقة والخير والجمال وتريد أن تكرّس لها حياتك، أليس هٰذا ممّا يدعو إليه الدين؟! فكيف تكفر بالأصل وتؤمن بالفرع؟

لا تبالِ رفيق المزاح، لٰكن لِمَ يبدو ما يؤمن به من القِيَم مثارًا للسخرية؟! هبك خُيّرت بين عايدة وبين الحياة السامية فأيّهما تختار؟!... لٰكنّ عايدة تتخايل لعينيّ دائمًا وراء المُثُل!...

قال حسين يجيب عن كمال، إذ طال به الصمت:

ـ المؤمن يستمدّ حبّه لهٰذه القيم من الدين، أمّا الحرّ فيحبّها لذاتها.

ربّاه متى أراك مرّة أخرى؟ أمّا إسماعيل فضحك ضحكة وشت بانحراف تفكيره إلى ناحية جديدة، وسأل كمال:

ـ خبّرني ألا زلت تصلّي؟ وهل تنوي أن تصوم رمضان القادم؟

كان دعائي لها أمتع ما في الصلاة، وليالي هٰذا القصر أسعد ما في رمضان...

ـ لم أعد من المصلّين، ولسن أكون من الصائمين...

ـ وهل تعلن إفطارك...

ضاحكًا:

ـ كلّا...

ـ آثرت النفاق!

فقال متعضًا:

ـ ليس من ضرورة تدعوني إلى إيلام الذين أحبّهم...

فتساءل إسماعيل ساخرًا:

ـ أتظنّ أنّك بهٰذا القلب تستطيع أن تواجه المجتمع يومًا بما يكره؟!

كليلة ودمنة؟! بهجة الخاطرة غطّت على الامتعاض، ربّاه هل عثرت على أساس الكتاب الذي لم يتبلور في ذهني بعد؟!

ـ مخاطبة القرّاء شيء، ومخاطبة والدين على الفطرة شيء آخر!

فخاطب إسماعيل حسين وهو يشير إلى كمال قائلًا:

ـ إليك فيلسوفًا من أسرة عريقة في الجهل!

لن يعوزك أن تجد أصدقاء للهو واللغو، ولٰكنّك لن تحظى لروحك بصديق يحاورها، فارْضَ بالصمت أو حاور نفسك كالمجانين. وساد الصمت قليلًا. وكانت الحديقة صامتة أيضًا فلا نسمة تهفو، أمّا الورد والقرنفل والبنفسج فبدت وحدها سعيدة بالحرّ، وحسرت الشمس ثوبها المضيء عن الحديقة فلم يبق منه إلّا حاشية في أعلى السور الشرقيّ. أنهى إسماعيل الصمت بأن التفت إلى حسين شدّاد، وسأله:

ـ ترى هل يتاح لك أن تزور حسن سليم وعايدة هانم؟

يا لله!... خفقة قلب أم القيامة قامت في صدري؟!

ـ عندما يستقرّ بي المقام في باريس، سأفكّر حتمًا في القيام برحلة إلى بروكسل...

ثمّ وهو يبتسم:

ـ تلقّينا خطابًا من عايدة الأسبوع الماضي، يبدو أنّها تعاني متاعب الوحم!...

هٰكذا الألم والحياة توأمان، لست الآن إلّا ألمًا خالصًا في ثياب رجل، عايدة منداحة البطن سائلة الإفرازات؟! مأساة أم مهزلة الحياة؟! نعمة الحياة الفناء، ليتني أستطيع أن أعرف كنه هٰذا الألم. قال

إسماعيل لطيف:

- سيكون أبناؤها أجانب!

- من المتّفق عليه أن يرسلوا إلى مصر إذا جاوزوا طور الطفولة.

هل تراهم يومًا بين تلاميذك؟ تسائل نفسك أين رأيت هٰذه الأعين فيجيب القلب الخافق أنّها مقيمة هنا منذ قديم، وإذا سخر الصغير من رأسك وأنفك فبأيّ قلب تعاقبه! أيّها النسيان... هل أنت خرافة أيضًا؟!

عاد حسين يقول:

- شدّ ما أسهبت في الحديث عن حياتها الجديدة، لم تخف سرورها بها حتّى بدا حنينها إلى الأهل مجرّد مجاملة...

لمثل هٰذه الحياة في الأوطان المثاليّة خلقت، أمّا مشاركتها في الطبائع الأدميّة فعبث من الأقدار التي عبثت بشتّى مقدّساتك، ترى ألم يخطر ببالها أن تشير في خطابها المسهب بكلمة إلى الأصدقاء القدامى؟! ولٰكن من أدراك بأنّها لا زالت تذكرهم؟! وعاودهم الصمت مرّة أخرى، بدا المغيب يقطر سمرة هادئة، ولاحت في الأفق حدأة مولّية، وترامى إليهم نباح كلب، وأقبل إسماعيل على الدورق يشرب، وراح حسين يصفر بفيه، أمّا كمال فكان يسترق إليه النظر بوجه هادئ وقلب يتحسّر.

- الحرّ هٰذه السنة ملعون...

قال إسماعيل ذٰلك، ثمّ جفّف شفتيه بمنديله الحريريّ المزركش ثمّ تجشّأ، وأعاد المنديل إلى جيب بنطلونه.

فِراق الأحباب ألعن...

- متى تسافر إلى المصيف؟

- في آخر يونيه.

أجاب إسماعيل بارتياح، فعاد حسين يقول:

- سنسافر غدًا إلى رأس البرّ حيث أمكث أسبوعًا معهم، ثمّ أسافر بصحبة أبي إلى الاسكندريّة فأستقلّ الباخرة في ٣٠ يونيه.

وينتهي تاريخ فترة من الزمن، وربّما انتهى قلب. حدّق حسين إلى كمال مليًّا، ثمّ ضحك قائلًا:

- نترككم وأنتم على خير حال من الوحدة والائتلاف، فعسى أن تسبقنا أنباء الاستقلال إلى باريس...

فهتف إسماعيل مخاطبًا حسين وهو يشير إلى كمال:

- صاحبك غير راضٍ عن الائتلاف! عزّ عليه أن يضع سعد يده في يد الخونة، وعزّ عليه أكثر أن يتحاشى الاصطدام بالإنجليز فينزل عن الوزارة إلى خصمه القديم عدلي، هٰكذا تجده أشدّ تطرّفًا من زعيمه المقدّس نفسه!

مهادنة الأعداء والخونة خيبة أخرى تتجرّعها، أيّ شيء في هٰذه الدنيا لم يخب فيه أملك؟ غير أنّه ضحك عاليًا، ثمّ قال:

- بل يشاء هٰذا الائتلاف أن يفرض على دائرتنا نائبًا من الأحرار!

وضجّ ثلاثتهم بالضحك. وعند ذاك دبّت في مرمى البصر منهم ضفدعة ما لبثت أن توارت في العشب، وهفّت نسمة مؤذنة بتداني المساء، وتخفّف العالم المحدق بهم من زياطه وضوضائه، فأذن المجلس بالختام، وملأه ذٰلك بالجزع فجعلت عيناه تتقلّبان في المكان لتمتلئا من منظره. هنا بدت أوّل مرّة باعثة شعاع الحبّ، وهنا صدح الصوت الملائكيّ بـ«يا كمال» وهنا دار حوار العذاب حول الرأس والأنف، وهنا عالَنَ المعبود بخصام التجنّي، وفي تضاعيف هٰذا الجوّ ترقد ذكريات عواطف ومشاعر وانفعالات لو مسّتها يد العبث يومًا لأحيت الصحراء ونضرت وجهها، املأ من هٰذا كلّه عينيك وأرّخه فإنّ حوادث كثيرة تبدو وكأنّها لم تقع لو لم يقيّدها يوم وشهر وعام، إنّما نستعدي الشمس والقمر على خطّ الزمان المستقيم لندوره لتعود إلينا الذكريات الضائعة، ولكن لا شيء يعود أبدًا، فذُبْ في الدموع أو تسلَّ بالابتسام.

وقف إسماعيل لطيف وهو يقول:

- آنَ لنا أن نذهب...

ترك إسماعيل يسبقه إلى عناق صاحبه، ثمّ جاء دوره فتعانقا طويلًا، طبع على خدّه قبلة وتلقّى مثلها، فغمت خياشيمه رائحة آل شدّاد ممثّلة في صاحبه،

زكيّة لطيفة كأنّها عبير غير آدميّ، أو نفثات حلم دوّم في سماء مليئة بالمسرّات والآلام، فأفعم بها حناياه حتّى ثمل، ولبث صامتًا مليًّا حتّى يملك عواطفه، غير أنّه عندما تكلّم تهدّج صوته وهو يقول:

- إلى اللقاء ولو بعد حين...

- ٣٥ -

- لا يوجد أحد إلّا الخدم!

- ذلك لأنّ ضوء النهار لم يكد يختفي بعد، والزبائن يفدون عادة مع الليل، هل ضايقك خلوّ المكان؟

- أبدًا. خلوّ المكان عامل مشجّع على البقاء، خاصّة وأنّها أوّل مرّة.

- للحانات هنا ميزات لا تقدّر بثمن، فهي تقوم في طريق لا يقتحمه إلّا ساعٍ وراء لذّة محرّمة، فلن يكدّر صفوك هنا لائم ولا زاجر. وإذا عثر بك شخص تحترمه كأبيك أو وليّ أمرك، كان هو الأحقّ باللوم والأخلق بأن يتجاهلك أو يفرّ من سبيلك إن استطاع...

- اسم الشارع وحده فضيحة!

- لكنّه أدعى إلى الطمأنينة من غيره، لو أنّنا ذهبنا إلى إحدى حانات شارع الألفي أو عماد الدين أو حتّى محمّد عليّ، لما أمنّا أن يرانا أب أو أخ أو عمّ أو ذو مال! ولكنّهم لا يجيئون إلى وجه البركة فيما أرجو.

- منطقك سليم، غير أنّي لا زلت مضطربًا.

- صبرك، الخطوة الأولى دائمًا عسيرة، ولكنّ الخمر مفتاح الفرج، لذلك أعدك بأنّك ستجد الدنيا عند ذهابنا ألطف وأعذب ممّا عهدتها قبل ذلك...

- حدّثني عن أنواع الخمور، أيّها الأوفق أن أبدأ به؟

- الكونياك عنيف وإذا مُزج بالبيرة فقُلْ على شاربه السلام، الويسكي مقبول الطعم جيّد الأثر، أمّا الزبيب....

- لعلّ الزبيب ألذّها! ألم تسمع صالح وهو يغنّي «وسقاني شراب الزبيب!»...

- طالما قلت لك إنّه لا عيب فيك إلّا الإغراق في الخيال، الزبيب أقبحها رغم أنف صالح، فيه طعم الأنيسون الذي تجزع منه معدتي، فلا تقاطعني...

- معذرة...!

- وهناك البيرة، ولكنّها شراب الحرّ ونحن والحمد لله في سبتمبر. وهناك النبيذ، غير أنّ عاقبته لطسة بنت كلب...

- إذن... إذن... فهو الويسكي...

- برافو! توسّمت فيك النجابة من قديم، ولعلّك توافقني بعد قليل على أنّ استعدادك للهزل يفوق استعدادك للحقيقة والخير والجمال والوطنيّة والإنسانيّة إلى آخر هذه القائمة من الخزعبلات التي تُتعب بها قلبك دون جدوى...

ونادى النادل، فطلب كأسين من الويسكي.

- من الحكمة أن أقنع بكأس واحدة...

- قد تكون هذه هي الحكمة، غير أنّنا لم نجئ هنا لطلب الحكمة، وسوف تعلم بنفسك أنّ الجنون ألذّ من الحكمة، وأنّ الحياة أخطر من الكتب والفكر، اذكر هذا اليوم ولا تنس صاحب الفضل عليك...

- لا أحبّ أن أفقد الوعي، أخاف أن...

- كن حكيم نفسك...

- المهمّ عندي أن أجد الشجاعة للسير في الدرب إيّاه بلا تردّد، وأن أدخل عند الحاجة...

- اشرب حتّى تشعر بأنّك لا تبالي أن تدخل...

- حسن، أرجو ألّا أندم على فعلتي فيما بعد...

- تندم؟! طالما دعوتك من قبل فكنت تعتذر بالتقوى والدين، ثمّ جاهرت بأنّك لم تعد تؤمن بالدين، فكرّرت عليك الدعوة، فما أعجب إلّا لرفضك باسم الخلق! لكن يجب أن أعترف بأنّك اتّبعت المنطق أخيرًا...

أجل أخيرًا. بعد فترة من القلق والحيرة بين أبي العلاء والخيّام، أو بين التقشّف واللذّة. وقد نزع به طبعه إلى مذهب الأوّل، فإنّه وإن بشّر بحياة قاسية إلّا أنّها وافقت ما نشأ عليه من تقاليد، ولكنّه لم يدر إلّا ونفسه تهفو إلى الفناء، وكأنّ صوتًا خفيًّا راح يهمس في أذنه: لا دين ولا عايدة ولا أمل، فليكن الموت. عند

ذاك ناداه الخيّام بلسان هٰذا الصديق فلبّى محتفظًا بمبادئه السامية رغم هٰذا، وإن يكن قد وسّع من معنى الخير حتّى وسع مسرّات الحياة جميعًا، قائلًا لنفسه: إنّ الإيمان بالحقيقة والجمال والإنسانيّة أسمى أنواع الخير، وإنّه لذلك كان ابن سينا يختم يوم الفكر بالشراب والحسان، ومهما يكن من أمر فإنّه لم يجد سوى هٰذه الحياة الواعدة منقذًا من الموت...

ـ إنّي معك في هٰذا، ولٰكنّي لم أتخلَّ عن مبادئي...

ـ أعلم أنّك لن تتخلّى عن أوهامك، طول العشرة جعلها حقيقة أكثر من الحقيقة نفسها، لا بأس أن تقرأ بل وأن تكتب ما وجدت قرّاء، اجعل من الكتابة وسيلة للشهرة والثروة، ولٰكن لا تأخذها مأخذ الجدّ، كنت متديّنًا عنيفًا، وأنت الآن ملحد عنيف، دائمًا عنيف، قلق كأنّك مسئول عن البشريّة، الحياة أبسط من هٰذا كلّه، مركز في الحكومة يرضي النفس ويهيّئ مستوى لا بأس به من المعيشة، استمتاع بلذّات الحياة بقلب متفتّح خالٍ من الهموم، استمساك بقدر من القوّة والاعتداء عند اللزوم يضمن لك الكرامة والفوز، فإذا وافقت هٰذه الحياة الدين فبها ونعمت، وإلّا فذنبه على جنبه...

الحياة أعمق وأعرض من أن تنحصر في شيء واحد ولو يكون السعادة نفسها، اللذّة ملاذي ولٰكنّ ارتقاء الجبال الصعبة سيظلّ مطلبي، عايدة ذهبت فيجب أن أخلق عايدة أخرى بكلّ ما ترمز إليه من معانٍ، أو فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها.

ـ ألم تشغل فكرك أبدًا بما فوق هٰذه الحياة من معانٍ؟

ـ هق! شغلت عن ذٰلك بالحياة نفسها أو بالحري بحياتي أنا، ليس في بيتنا كافر وليس فيه متديّن، وهٰكذا أنا!

صديق ضروريّ مثل وقت الفراغ، شاذّ المنظر مثل منظرك، موصول الذكريات بعايدة فهو في القلب، رائد هٰذه الدروب الغنّاء، جبّار إذا تحدّيته، يُفتقد في المسرّات دون الجدّ والملمّات، ليس فيه للروح موضوع، غاب وراء البحار صديق الروح والعقل...

فؤاد الحمزاوي ذكيّ ولٰكن لا فلسفة له؛ نفعيّ حتّى في تذوّق الجمال... يبغي وراء الأدب بلاغة ينتفع بها في تحبير المرافعات، مَن لي بوجه حسين وروحه؟! وجاء النادل فوضع على المنضدة كأسين طويلين مضلّعي الكعب، وفضّ سدادة قارورة الصودا وصبّ في الكأسين فتحوّل الذهب إلى بلاتين مموّه باللآلئ، ورصّ أطبق السلطة والجبن والزيتون والمرتدلّا، ثمّ ذهب. ردّد كمال بصره بين كأسه وبين إسماعيل، فقال الأخير باسمًا:

ـ افعل كما أفعل، ابدأ بجرعة كبيرة، صحّتك...

غير أنّه اكتفى بحسوة وراح يتذوّقها، ثمّ لبث يترقّب... ولٰكنّ عقله لم يطر كما كان يتوقّع فتجرّع جرعة كبيرة، ثمّ تناول قطعة من الجبن ليغيّر الطعم الغريب الذي انتشر في فيه.

ـ لا تعجّلني!

ـ العجلة من الشيطان، المهمّ أن تترك مكانك وأنت على حال تمكّنك من اقتحام ما تريد...

ما الذي يريد؟ امرأة ممّن استثرن تقزّزه ونفوره وهو مفيق فهل يحلّي الشراب مرارة الابتذال. كان يناضل الغريزة بالدين وعايدة، أمّا الآن فقد خلا للغريزة الجوّ. غير أنّ حافزًا آخر للمغامرة هو أن يكتشف المرأة ذٰلك المخلوق الغامض الذي تنطوي عايدة نفسها تحت جنسه ولو كره. لعلّ في ذٰلك عزاء عن السهاد والدموع المطويّ سرّها في جوف الليل المكتوم، وتكفيرًا عن العذاب الدامي الذي لا أمل في التداوي منه إلّا باليأس والذهول. الآن يستطيع أن يقول إنّه خرج من زنزانة الاستسلام ليخطو الخطوة الأولى في طريق الخلاص وإن يكن طريقًا مخمورًا محفوفًا بالشهوات والمكاره. وتجرّع جرعة أخرى وانتظر، ثمّ ابتسم... أمّا باطنه فكان يحتفل بمولد إحساس جديد ينفث حرارة وصبوة، فتابعه مستسلمًا كما يتابع نغمة حلوة. وكان إسماعيل يراقبه بإمعان، فقال باسمًا:

ـ أين حسين ليشهد بنفسه هٰذا المنظر؟

أين حسين أين؟!

ـ سوف أكتب له عنه بنفسي، هل رددت على

رسالته الأخيرة؟

ـ نعم، رددت برسالة موجزة كرسالته. . .

له وحده أسهب وأفاض حتّى سجّل كلّ خاطرة، يا للسعادة التي خُصّ بها وحده، ولٰكن لا ينبغي أن يبوح بسرّ رسالته أن يثير غيرة مدرّبه. . .

ـ كانت رسالته إليّ موجزة أيضًا فيما عدا الحديث الذي تعرفه ولا تحبّه!

ـ الفكر! (ثمّ وهو يضحك). . . ما حاجته إلى هٰذا هو الذي سيرث ثروة تملأ المحيط، ما سرّ ولعه بهٰذه الخزعبلات؟ التكلّف أم الغرور أم الاثنان معًا؟!

جاء دور حسين ليُمَدّ تحت المطرقة، ترى ماذا تقول عنّي في غيابي؟!

ـ لا تناقُض بين الفكر والغنى كما تظنّ، لقد ازدهر الفكر في اليونان القديمة بفضل بعض السادة الذين لم يشغلهم طلب الرزق عن التفرّغ للعلم. . .

ـ صحّتك يا أرسطو. . .

أفرغ بقيّة كأسه وترقّب. ثمّ تساءل هل مرّت به حال كهٰذه من قبل؟ نافث الحرارة الوجدانيّة ينطلق في الدورة الدمويّة، يجرف في طريقه الفجوة التي تتجمّع بها نفايات الأكدار، فمقم النفس يتفكّك لحام أحزانه فتطير منه عصافير المسرّات مترنّمة، وهٰذا صدى نغمة مطربة، وهٰذه ذكرى أمل واعد، وذاك طيف بهجة عابرة، الخمر لعاب كلّه السعادة.

ـ ما رأيك في كأسين أخريين؟

ـ عمرك أطول من عمري. . .

ضحك إسماعيل ضحكة عالية وهو يومئ إلى النادل بإصبعه، ثمّ قال بارتياح:

ـ أنت سريع الاعتراف بالجميل. . .

ـ هٰذا من فضل ربّي. . .

وجاء النادل بالكأسين والمزّة. وأخذ الزبائن يفدون مطربشين ومقبّعين ومعمّمين، فيستقبلهم النادل بمسح وجوه المناضد بالمناشف إذ كان الليل قد أقبل وأضيئت المصابيح فتألّقت المرايا الملتصقة بالجدران مصوّرًا على أسطحها قوارير الديوارس والجون ووكر، وترامت من الخارج ضحكات ملعلعة كالأذان غير أنّها تدعو للفجور، وصوّبت نحو منضدة الصديقين المراهقين نظرات إنكار متسامح باسم، ثمّ ورد من الطريق بائع جمبري صعيديّ فبائعة فول ذات ثنيتين ذهبيّتين، وماسح أحذية، وصبيّ كبابجيّ هو في الوقت ذاته قوّاد كما دلّ ترحيب الجلوس به، وقارئ كفّ هنديّ، ثمّ لا تسمع هنا وهناك إلّا «صحّتك» وها ها، وفي مرآة تلي رأس كمال مباشرة نظر فرأى وجهه مورّدًا وبصره لامعًا باسمًا، وفيما وراء صورته عكست المرآة منظر رجل عجوز وهو يرفع كأسه إلى فيه ثمّ يتمضمض بحركة أرنبيّة ويزدرد الشراب، ثمّ يقول لجليسه بصوت مسموع «المضمضة بالويسكي سنّة عن جدّ لي مات وهو يسكر» فحوّل كمال وجهه عن المرآة، وقال لإسماعيل:

ـ نحن أسرة محافظة جدًّا، أنا أوّل ذائق للخمر فيها. . .

فهزّ إسماعيل منكبيه هازئًا، ثمّ قال:

ـ كيف تحكم على ما ليس لك به علم؟ هل شاهدت شباب والدك؟ أمّا أبي فيتناول كأسًا مع الغداء وأخرى مع العشاء، وقد أمسك عن الشراب في الخارج، أو هٰذا ما يدّعيه أمام والدتي. . .

لعاب إلٰه السعادة يتسرّب إلى مملكة الروح، وهٰذا الانقلاب الغريب الذي حدث في لحظات لا تقدر البشريّة على إدراكه في أجيال وأجيال، وهو في جملته يجود بمعنى باهر جديد لكلمة «السحر»، وأعجب شيء أنّه لم يكن جديدًا كلّ الجدّة فلعلّه طاف بالروح مرّة ولٰكن متى وكيف وأين؟ إنّه موسيقى باطنيّة تعزفها الروح وما الموسيقى المعهودة بالقياس إليها إلّا كقشور التفّاح بالقياس إلى لبابه، ترى ما سرّ السائل الذهبيّ الذي صنع هٰذه المعجزة في لحظات معدودات؟ لعلّه طهّر مجرى الحياة من الزبد والرواسب فانطلقت وثبة الحياة المكبوتة كما انطلقت أوّل مرّة حرّيّة مطلقة ونشوة خالصة، فهٰذا هو الشعور الطبيعيّ بوثبة الحياة إذا تحرّرت من ربقة الجسد وأغلال المجتمع وذكريات التاريخ ومخاوف المستقبل، موسيقى رائقة نقيّة تقطر طربًا وتصدر عن طرب، مثلها طاف بروحي من قبل

ولْكن متى وكيف وأين؟ آه... يا للذكرى... إنّها الحبّ! يوم نادت «يا كمال» أسكرتك وأنت لا تدري ما السكر فقرّ بأنّك سكّير قديم، وأنّك عربدت دهرًا في طريق الهوى المخمور المعبّد بالأزهار والرياحين، كان ذٰلك قبل أن يتحوّل قطر الندى الشفّاف إلى وحل، فالخمر روح الحبّ إذا انجابت عنه بطانة الآلام، فحبَّ تَسكر أو اسكر تحبّ...

ـ الحياة جميلة مهما قلت وأعدت...

ـ ها ها، أنت الذي تقول وتعيد...

طبع المقاتل على خدّ غريمه قبلة صافية فحلّ السلام على الأرض، وغرّد البلبل فوق غصن ريّان، فطرب العاشقون في أربعة أركان المعمورة، وطار طائر الأشواق من القاهرة إلى بروكسل مارًّا بباريس فاستُقبل بالحنان والأناشيد، وغمس الحكيم شباة قلمه في مداد قلبه فسجّل وحيًا منزلًا، ثمّ آوى المجرّب إلى شيخوخته فألمّت به ذكرى دامعة بعثت في صدره ربيعًا مكتّبًا، أمّا أسلاك الشعر الأسود المسدل على الجبين فكعبة يتّجه إليها الثملون في حانات الوجد.

ـ كتاب وكأس وحسناء وارمني في البحر!

ـ ها ها، سيفسد الكتاب الكأس والحسناء والبحر.

ـ لسنا متّفقين في فهم معنى اللذّة، تراها أنت لهوًا وعبثًا وهي عندي الجدّ كلّ الجدّ، هٰذه النشوة الآسرة هي سرّ الحياة وغايتها العليا، وما الخمر إلّا بشيرها والمثال المحسوس المتاح لها، وكما كانت الحدأة مقدّمة لاختراع الطائرات، والسمكة تمهيدًا لاختراع الغوّاصة، فالخمر ينبغي أن تكون رائد السعادة البشريّة، والمسألة تتلخّص في هٰذه الكلمة: كيف نجعل من الحياة نشوة دائمة كنشوة الخمر دون الالتجاء إلى الخمر؟ لن نجد الجواب في النضال والتعمير والقتال والسعي، فكلّ أولٰئك وسائل وليست بغايات، السعادة لن تتحقّق حتّى نفرغ من استغلال الوسائل كلّها لنتمكّن من أن نحيا حياة عقليّة روحيّة خالصة لا يكدّرها مكدّر، هٰذه هي السعادة التي أعطتنا الخمر مثالها، كلّ عمل وسيلة إليها أمّا هي فليست وسيلة لشيء...

ـ الله يخرب بيتك...

ـ لمه؟!...

ـ كان أملي أن أجدك في نشوتك محدّثًا طريفًا لطيفًا، ولكنّك كالمريض يزيد مرضه الخمر استفحالًا، فيم تتحدّث يا ترى إذا شربت الكأس الثالثة؟

ـ لن أشرب أكثر ممّا شربت، إنّي الآن سعيد وفي وسعي أن أدعو أيّة امرأة تعجبني...

ـ هلّا انتظرت قليلًا؟

ـ ولا دقيقة واحدة...

سار متأبّطًا ذراع صاحبه غير هيّاب ولا متردّد، ينتظمه تيّار من البشر يتلاطم مع تيّار آخر قادم من الوجهة المضادّة، في طريق ملتوٍ ضيّق بروّاده. كانت الرءوس تدور إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى، وعلى الجانبين بدت مضيفات الطريق قائمات وقاعدات يقلّبن في وجوههنّ المقنّعات بالزواق الفاقع أعين الترحيب والإغراء، ولا تمضِ آونة حتّى يمرق أحدهم من التيّار إلى إحداهنّ فتتبعه إلى الداخل وقد مسحت عن عينيها نظرة الإغراء لتحلّ محلّها نظرة الجدّ والعمل. وكانت المصابيح المركّبة فوق أبواب البيوت والمقاهي تضيء الطريق بأنوار ساطعة انعقدت في أعاليها سحب الدخان المتطاير من بخور المجامر وتبغ الجوز والنارجيلات، أمّا الأصوات فقد تلاقت واختلطت في دوّامة صاخبة دارت بها الضحكات والهتافات وصرير الأبواب والنوافذ وعزف البيانو ومزّيكة اليد وتصفيق الأيدي الراقصة وزعيق الشرطيّ والشخير والنخير وسعال الحشّاشين وصراخ السكارى واستغاثات مجهولة وقرع عصيّ وغناء فرديّ وجماعيّ، وفوق الجميع لاحت السماء قريبة من أسطح البيوت البالية ترنو إلى الأرض بأعين لا تطرف. كلّ حسناء هنا في متناول اليد، تجود بحسنها وأسرارها نظير عشرة قروش لا غير، فمن كان يصدّق هٰذا قبل أن يراه؟ وخاطب إسماعيل قائلًا:

ـ هارون الرشيد يخطر في بهو الحريم...

فتساءل إسماعيل ضاحكًا:

ـ ألم تعجبك جارية يا أمير المؤمنين؟

فأشار كمال إلى بيت، وقال:

ـ كانت تقف عند هٰذا الباب الخالي، ترى أين ذهبت؟

ـ مع زبون في الداخل يا أمير المؤمنين، فلينتظر مولانا حتّى يقضي أحد رعاياه وطره...

ـ وأنت ألم تجد ضالّتك؟...

ـ إنّي قديم عهد بالطريق وأهله، ولٰكنّي لن أمضي إلى وجهتي حتّى أسلّمك إلى صاحبتك، ماذا أعجبك فيها؟! يوجد أجمل منها كثيرات...

سمراء لم يطمس الزواق سمرتها، وفي حنجرتها وتر يذكّر من بعيد بتلك الموسيقى الخالدة، وقد تجد العين نوعًا من الشبه بين بشرة المختنق وأديم السماء الصافية:

ـ أتعرفها؟!

ـ تدعى هنا وردة، واسمها الحقيقيّ عيّوشة.

عيّوشة ـ وردة! لو يستطيع الإنسان أن يغيّر ماهيّته كما يغيّر اسمه! في عايدة نفسها شيء يشبه مركّب عيّوشة ـ وردة، وفي الدين، وفي عبد الحميد بك شدّاد، وفي الآمال العريضة، أوّاه!. لٰكنّ الخمر ترفعك إلى عرش الآلهة فترى هٰذه المتناقضات غارقة في أمواج الفكاهة المقهقهة، مستحقّة للعطف، وشعر بكوع إسماعيل ينهزه في جنبه وهو يقول (دورك)، فنظر صوب الباب فرأى رجلًا يغادر البيت متعجّلًا، وإذا بالمرأة تعود إلى موقفها كما رآها أوّل مرّة، فاتّجه نحوها بقدمين ثابتتين فتلقّته بابتسامة، ثمّ مضى إلى الداخل وهي في أثره تغنّي «ارخي الستارة اللي في ريحنا»... ووجد سلّمًا ضيّقًا فرقي فيه وقلبه يخفق حتّى انتهى إلى دهليز يفضي إلى صالة، وصوتها يلاحقه قائلًا من حين لآخر «يمينك»، «شمالك»، «هٰذا الباب الموارب». حجرة صغيرة مورقة الجدران، مكوّنة من فراش وتسريحة ومشجب وكرسيّ خشب وطست وإبريق. ووقف في وسط الحجرة كالمرتبك وعيناه تراقبانها. ومضت هي تغلق الباب والنافذة التي كان يترامى منها صوت دفّ وصفّارة وتصفيق، ولاح وجهها في أثناء ذٰلك جادًّا بل أقرب إلى العبوس والصرامة حتّى تساءل ساخرًا عمّا تبيّته له، ثمّ واجهته وراحت تقيسه بعينيها طولًا وعرضًا، ولمّا مرّتا برأسه وأنفه داخَلَه قلق، غير أنّه أراد أن يتغلّب على قلقه فاقترب منها فاتحًا ذراعيه، ولٰكنّها استنظرته بحركة جافّة من يدها وهي تقول «انتظر» فتسمّر في مكانه. بيد أنّه كان مصمّمًا على تذليل العراقيل، فقال باسمًا فيما يشبه السذاجة:

ـ أنا اسمي كمال...

فحدجته بنظرة داهشة وهي تقول:

ـ تشرّفنا!...

ـ ناديني! قولي لي «يا كمال»!

فقالت وما تزداد إلّا دهشة:

ـ لماذا أناديك وأنت أمامي كالرزيّة؟!

أعوذ بالله! ترى أتمازحه؟ وازداد تصميمًا على إنقاذ الموقف، فقال:

ـ قلت لي انتظر، ماذا أنتظر؟

ـ في هٰذا لك حقّ...

قالت ذاك، ثمّ نزعت ثوبها بحركة بهلوانيّة ووثبت إلى الفراش ففرقع تحت ثقلها، واستلقت على ظهرها وراحت تربّت بطنها بأناملها المهضّبة بالحنّاء. اتّسعت عيناه إنكارًا، لم يكن يتوقّع هٰذه المفاجأة البهلوانيّة، وشعر بأنّ كلًّا منهما في وادٍ، وما أبعد المدى بين وادي اللذّة ووادي العمل... انهدم في لحظة ما أقامه الخيال في أيّام، وجرت مرارة الامتعاض في ريقه، غير أنّ الرغبة في الاكتشاف لم تفتر فغالب انزعاجه ثمّ حرّك ناظريه صوب الجسد العاري حتّى استقرّ على هدف وبدا حينًا كأنّه لا يصدّق عينيه، وأحدّ بصره في انزعاج وتقزّز حتّى شعر في النهاية بما يشبه الرعب. أهٰذه هي الحقيقة أم أنّه أساء اختيار المثال؟ ولٰكن مهما يكن من سوء اختياره فهل يغيّر هٰذا من الجوهر؟! ونزعم أنّنا نحبّ الحقيقة! شدّ ما ظلموا رأسك وأنفك! وحدّثته نفسه بالهرب، وأوشك أن يصغي إليها، ولٰكنّه تساءل فجأة لماذا لم يهرب الرجل الذي سبقه؟ وماذا يقول لإسماعيل إذا عاد إليه؟ كلّا لن يهرب، لن يتراجع أمام المحنة...

ـ ما لك واقفًا كالتمثال؟

هٰذه النبرة التي هزّت الفؤاد، لم تكذب الأذنان ولٰكنّ الجهل كذّاب، سوف تضحك كثيرًا من نفسك ولٰكن وأنت ظافر لا هارب، هب الحياة مأساة فعليك أن تلعب دورك.

ـ أتقف هٰكذا حتّى الفجر؟!

قال بهدوء غريب:

ـ نطفئ النور...

فهبّت جالسة في الفراش وهي تقول بجفاء وحذر:

ـ بشرط أن أراك في النور!

تساءل في إنكار:

ـ لم؟

ـ حتّى أطمئنّ إلى صحّتك!

وتجرّد للاختبار الصحّيّ في منظر بدا له آية في الهزل، ثمّ ساد ظلام دامس.

وعندما عاد إلى الطريق كان يحمل بين جنبيه قلبًا فاترًا مليئًا بالحزن، وخيّل إليه أنّه وسائر البشر يعانون تدهورًا مؤلـمًا وأنّ الخلاص منه بعيد. ورأى إسماعيل مقبلًا نحوه راضيًا ساخرًا متعبًا وهو يتساءل:

ـ كيف حال الفلسفة؟

فتأبّط ذراعه وسار به يسأله بدوره جادًّا:

ـ هل النساء جميعًا متشابهات؟

فألقى عليه الشابّ نظرة متسائلة، فأفصح له كمال عن شكوكه ومخاوفه في عبارة موجزة، فقال إسماعيل باسمًا:

ـ على العموم الأصل واحد وإن اختلفت الأعراض! إنّك مضحك لدرجة تستحقّ الرثاء، هل أستنتج من حالك أنّك لن تعود إلى هنا مرّة أخرى؟

ـ بل ساعود أكثر ممّا تظنّ، دعنا نشرب كأسًا أخرى...

ثمّ وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ الجمال... الجمال!... ما هو الجمال؟

تاقت نفسه في هٰذه اللحظة إلى التطهّر والانعزال والتأمّل، وحنّ إلى ذكرى الحياة التي عاشها معذّبًا في ظلّ المعبودة، ثمّ بدا وكأنّه آمن بقسوة الحقيقة إلى الأبد. أيجعل من الإعراض عن هٰذه الحقيقة مذهبه؟ سار متفكّرًا في طريق الحانة يكاد لا يلقي بالًا إلى ثرثرة إسماعيل. إذا كانت الحقيقة قاسية فالكذب دميم، ليست الحقيقة قاسية ولٰكنّ الانفلات من الجهل مؤلم كالولادة، اجرِ وراء الحقيقة حتّى تنقطع منك الأنفاس. ارضَ بالألم حتّى تخلق نفسك من جديد، هٰذه المعاني تحتاج إلى عمر لاستيعابها. عمر من التعب تتخلّله سويعات من الخمر...

ـ ٣٦ ـ

أمّا هٰذا المساء فقد جاء كمال الدرب وحده، جاء ثملًا يترنّم بصوت هامس، غير هيّاب وهو يشقّ بين تيّار البشر الصاخب سبيلًا، ووجد باب وردة خاليًا ولٰكنّه لم يتردّد كما فعل أوّل عهده بالدرب، وإنّما قصد البيت ودخل دون استئذان فارتقى السلّم حتّى انتهى إلى الدهليز، وهناك مدّ بصره إلى الباب المغلق الذي بدا ضوء في ثقب مفتاحه، ثمّ مال إلى حجرة الانتظار فألفاها لحسن الحظّ خالية وجلس على مقعد خشبيّ مادًّا ساقيه في ارتياح. وبعد مرور دقائق سمع صرير الباب وهو يفتح فتوثّب للقيام، وغادر الرجل الآخر الحجرة كما نمّت عليه أقدامه متّجهًا نحو السلّم، فتريّث لحظات ثمّ نهض وذهب إلى الدهليز، فرأى وردة خلال باب حجرتها المفتوح وهي تعيد ترتيب الفراش، فلمّا لمحته ابتسمت وهتفت به أن يعود إلى مجلسه دقيقة واحدة، فعاد من حيث أتى وهو يبتسم في ثقة، ثقة الزبون الذي جاز فترة الحضانة. ولم تكد تمرّ دقيقة على جلوسه حتّى ترامى إليه وقع أقدام صاعدة فاستقبلها بضيق، لأنّه يكره البقاء مع غيره من المنتظرين غير أنّ القادم اتّجه نحو حجرة وردة، وما لبث كمال أن سمع المرأة وهي تخاطب القادم قائلة برقّة:

ـ عندي زبون فاذهب إلى الحجرة وانتظر...

ثمّ رفعت صوتها منادية إيّاه وهي تقول «تفضّل»، فقام كمال وغادر الحجرة دون تردّد فالتقى بالقادم في الدهليز، وجد نفسه وجهًا لوجه مع ياسين! التقت

عيناهما في نظرة ذاهلة، وسرعان ما غضّ كمال جفنيه وهو يذوب خجلًا وارتباكًا واضطرابًا، وأوشك أن يندفع هاربًا لولا أن عاجله ياسين بضحكة عالية رنّت في سقف الدهليز رنينًا عجيبًا، فرفع الشابّ إليه عينيه فرآه فاتحًا ذراعيه وهو يهتف في سرور:

ـ يا ألف ليلة بيضا!... يا ألف نهار سلطانيّ!

وقهقه عاليًا فتعلّق به نظر كمال في ذهول، ولـمّا طالع فيه المرح الصافي جعل يفيق إلى نفسه حتّى ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة متسائلة، ثمّ رجعت إليه الطمأنينة وإن لم يفارقه الحياء. وراح ياسين يقول بصوت خطابيّ:

ـ هٰذه ليلة سعيدة، الخميس ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦، ليلة سعيدة حقًّا، ويجب أن نحتفل بها كلّ عام، ففيها تكاشَفَ أخوان، وفيها ثبت أنّ صغير الأسرة يتقدّم حاملًا لواء تقاليدها المجيدة في عالم اللذّات!...

وعند ذاك جاءت وردة وهي تسأل ياسين:

ـ صديقك؟

فقال ياسين ضاحكًا:

ـ بل أخي ابن أبي وأ.... كلّا ابن أبي فقط، أرأيت أنّك معشوقة الأسرة يا بنت اللذين؟!

فتمتمت قائلة «عفارم»، ثمّ خاطبت كمال قائلة:

ـ واجب الأدب يقضي بأن تتنزل لأخيك الأكبر عن دورك يا نونو...

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

ـ واجب الأدب! منذا الذي علّمك آداب الوصل؟! تصوّري أخًا ينتظر أخاه على الباب!... ها... ها...

فرمقته بنظرة تحذير وهي تقول:

ـ اضحك بصوتك المخيف حتّى تسمع البوليس يا سكّير، ولٰكنّك تعذر ما دام أخوك النونو لا يجيئني إلّا مترنّحًا!

حدج ياسين كمال بنظرة دهش وإكبار، ثمّ قال:

ـ أعرفت هٰذا أيضًا! ربّاه حقًّا إنّنا أولاد حلال، أولاد حلال بالمعنى، قرّب فاك لأشمّه! ولٰكن لا فائدة من ذٰلك فالسكران لا يشمّ رائحة السكران، خبّرني الآن: ما رأيك في هٰذه الحكمة التي تعلّمتها من الحياة لا من الكتب؟... (ثمّ وهو يشير إلى وردة)... إنّ زيارة واحدة لبنت الملسوعة هٰذه تعادل مطالعة عشرة كتب محرّمة، إذن فأنت تسكر يا كمال؟! يا ألف نهار أبيض! نحن أصدقاء من قديم الزمان، أنا أوّل من عد...

ـ الله الله!... هل أنتظر حتّى مطلع الفجر!

دفع ياسين كمال وهو يقول:

ـ ادخل معها وسوف أنتظر أنا...

ولكنّ كمال تقهقر وهو يهزّ رأسه بالرفض القاطع، ثمّ تكلّم لأوّل مرّة قائلًا:

ـ كلّا... ليس... ليس الليلة.

ودسّ يده في جيبه فأخرج نصف ريال ثمّ أعطاه المرأة. فهتف ياسين بإعجاب:

ـ تحيا الشهامة! لٰكنّني لن أتركك وحدك...

وربّت كتف وردة مودّعًا، ثمّ تأبّط ذراع كمال وذهبا معًا حتّى غادرا البيت، قال ياسين:

ـ يجب أن نحتفل بهٰذه الليلة، فلنمض بعض الوقت في بار، إنّي عادة أشرب في شارع محمّد عليّ مع نفر من الموظّفين وغيرهم، ولٰكنّ المكان غير مناسب لك فضلًا عن بعده، فلنختر مكانًا قريبًا حتّى نتمكّن من العودة مبكّرين، بتُّ حريصًا مثلك على العودة المبكّرة منذ زواجي الأخير، أين سكرت يا بطل؟...

غمغم كمال في حياء:

ـ فنش...

ـ عال! هلمّ بنا إليه، تمتّع بوقتك دون تهاون، فغدًا حين تصبح معلّمًا سيتعذّر عليك زيارة هٰذا الحيّ ببيوته وحاناته (ثمّ وهو يضحك): تصوّر أن يلقاك هنا أحد تلاميذك! على أنّ ميدان اللهو واسع وسوف تتدرّج فيه من حسن إلى أحسن...

ومضيا إلى فنش صامتين. كان من حسن الحظّ أنّ العلاقة بين ياسين وكمال لم تفتر بعد هجرة ياسين للبيت القديم، ولم يكن بينهما كلفة، إذ كان من طبع ياسين ألّا يعنى بحقوقه التي تكفلها له مكانته في

الأسرة، إلى أنّ مخالطة كمال له واطّلاعه على سيرته عن كثب واستماعه إلى ما يقال عنه جعلته يؤمن بولع أخيه بالنساء وميله مع الأهواء، ولكنّه رغم هٰذا كلّه قد بوغت بلقائه في بيت وردة مباغتة عنيفة، إذ لم يذهب به الخيال إلى حدّ تصوُّر ياسين سكّيرًا أو متسكّعًا في هٰذا الدرب! وبمرور الوقت أخذ يتخفّف رويدًا رويدًا من وقع المفاجأة، كما مضى الشعور بالانزعاج يزايله، ثمّ حلّ محلّه إحساس بالطمأنينة بل بالارتياح. ولـمّا بلغا فنش وجداه مكتظًّا بالجلوس، فاقترح ياسين أن يجلسا في الخارج، واختار مائدة عند طرف الطوار على ناصية الطريق ليبتعدا ما أمكن عن الناس، ثمّ جلسا متقابلين وهما يبتسمان:

ـ أشربت كثيرًا؟

أجاب كمال بعد تردّد:

ـ كأسين. . .

ـ لا شكّ أنّ لقاءنا غير المتوقّع طيّر أثرهما، فلنُعِد الكرّة، أمّا أنا فلا أشرب إلّا قليلًا، سبعة أو ثمانية. . .

ـ يا خبر! أيُعَدُّ هٰذا قليلًا؟!

ـ لا تدهش كالسذّج فإنّك لم تعد ساذجًا. . .

ـ على فكرة، قبل شهرين لم أكن أدري شيئًا عن طعمها. . .

فقال ياسين كالمستنكر:

ـ شهرين!! يبدو أنّي احترمتك أكثر ممّا تستحقّ!

وضحكا معًا. ثمّ طلب ياسين كأسين، وعاد يتساءل:

ـ ومتى عرفت وردة؟

ـ عرفت وردة والويسكي في ليلة واحدة. . .

ـ وما خبرتك بالنساء عدا ذٰلك؟

ـ لا شيء. . .

فحنى ياسين رأسه وهو ينظر إليه من تحت حاجبيه مقطّبًا في ابتسام، كأنّما يقول له «اطلع من دول»، ثمّ قال:

ـ إيّاك وادّعاء البلاهة، لم يفتني أن أطّلع في زمن مضى على مناورات كانت تدور بينك وبين بنت أبو سريع صاحب المقلى، تارة بالعين وتارة بالإشارة، هه؟ هٰذه الأمور لا تخفى على الخبير يا عكروت، ولٰكن لا شكّ أنّك قنعت بالعبث السطحيّ حتّى لا تجد نفسك مضطرًّا إلى مصاهرة عمّ أبو سريع، كما صاهرت حماتي السابقة بيّومي الشربتلي، هه؟ وها هو قد أصبح من ذوي الأملاك وجاركم الملاصق! ترى أين اختفت مريم؟ لا أحد يعلم عنها شيئًا، كان أبوها رجلًا طيّبًا، ألا تذكر السيّد محمّد رضوان؟ فانظر ما آلَ إليه بيته؟! لٰكنّها الأخلاق لا تستهين بها امرأة إلّا هانت!

فما تمالك كمال أن ضحك متسائلًا:

ـ والرجل ألا يلحقه من استهانته شيء؟

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

ـ الرجل غير المرأة يا طويل اللسان، خبّرني كيف حال والدتك؟ الستّ الطيّبة، ألا زالت حانقة عليّ حتّى بعد طلاق مريم؟

ـ لا أظنّها تذكر شيئًا من الأمر كلّه، قلب أبيض كما تعلم. . .

فأمّن على قوله، ثمّ هزّ رأسه كالأسف. وجاء النادل بالشراب والمزّة، وسرعان ما رفع ياسين كأسه وهو يقول: «صحّة آل أحمد»، فرفع كمال كأسه ثمّ شرب نصفها على أمل أن يستردّ ما ذهب من مرحه، وقال ياسين بفم مملوء بالخبز الأسود والجبن:

ـ كان يخيّل إليّ أنّك ستكون أقرب إلى خلق والدتك، كما كان المرحوم، فتنبّأت لك بالاستقامة، ولٰكنّك، ولٰكنّنا. . .

وحدجه كمال بنظرة متسائلة، فعاد يقول باسمًا:

ـ لٰكنّنا خُلقنا على مثال أبينا. . .

ـ أبينا! إنّه الجدّ الذي لا تطاق معه الحياة!

فقهقه ياسين عاليًا، وتريّث قليلًا، ثمّ قال:

ـ إنّك لا تعرف أباك، وقد كنت أجهله مثلك، ثمّ تكشّف لي عن رجل آخر قلّ أن يجود الزمان بمثله.

وتوقّف عن الكلام، فقال كمال بحبّ استطلاع واهتمام:

ـ ماذا عرفت ممّا لم أعرف. . .؟

ـ عرفت أنّه قطب اللطافة والطرب، لا تحملق فيّ

كالمعتوه، ولا تظنّني سكران، والدك عمدة الفكاهة والطرب والعشق!

ـ أبي؟...

ـ أوّل ما عرفته في بيت زبيدة العالمة...

ـ زبيدة ماذا؟... ها... ها...

ولٰكنّ وجه ياسين بدا أبعد ما يكون عن الهزل، فكفّ كمال عن الضحك قبل أن تزايل أساريره هيئة الضحك، ثمّ أخذ فمه يضيق رويدًا رويدًا حتّى انطبقت شفتاه فحملق في وجه أخيه صامتًا وهٰذا يحدّثه عمّا رأى أو سمع عن أبيهما في تبسّط وإسهاب. هل يفتري ياسين على أبيه كذبًا؟ كيف يمكن أن يقع هٰذا وأيّ بواعث تبرّره؟! كلّا إنّه لا ينطق إلّا بما علم، وهٰذا إذن هو أبوه، ربّاه! والجدّ والجلال والوقار ما أمرها؟! إذا سمعت غدًا أنّ الأرض مسطّحة أو أنّ أصل الإنسان هو آدم فلا تدهش ولا تنزعج، وأخيرًا تساءل:

ـ أتدري والدتي بذٰلك؟

ياسين وهو يضحك:

ـ لا شكّ أنّها تدري بسكره على الأقلّ...

ترى كيف كان أثر ذٰلك في نفسها هي التي تفزع من لا شيء؟! أتكون أمّي ـ مثلي ـ ظاهرًا من السعادة وباطنًا من الشقاء؟! قال وكأنّه ينتحل أسبابًا للدفاع لا يؤمن بها:

ـ الناس هواة مبالغة فلا تصدّق جميع ما يزعمون، ثمّ إنّ صحّته تدلّ على أنّه رجل معتدل في حياته.

فقال ياسين بإعجاب، وهو يشير إلى النادل أن يعيد الكرّة:

ـ إنّه أعجوبة! جسمه معجزة، وروحه معجزة، كلّ شيء فيه معجزة، حتّى طول لسانه (ضحك منهما معًا)... تصوّر أنّه بعد هٰذا كلّه يحكم آله كما تعلم ويحافظ على جلاله واحترامه كما ترى! .. ما أضيعني!...

تأمّل هٰذه العجائب: أنت وياسين تتشاربان! أبوك شيخ ماجن! هل ثمّة حقيقيّ وغير حقيقيّ؟! ما علاقة الواقع بما في رءوسنا؟ ما قيمة التاريخ؟ ما العلاقة بين عايدة المعبودة وعايدة الحبلى؟ أنا نفسي ما أنا؟! لماذا تألّمت ذٰلك الألم الوحشيّ الذي لم أبرأ منه بعد؟ اضحك حتّى تنفق.

ـ ما عسى أن يقع لو رآنا بمجلسنا هٰذا؟

فرقع ياسين بأصبعه، ثمّ قال:

ـ أعوذ بالله!

ـ وهل زبيدة جميلة حقًّا؟

فصفر ياسين وهو يرعش حاجبيه.

ـ أليس من الظلم أن يتمتّع أبونا بالدسم، على حين لا نجد نحن إلّا الفتات؟

ـ انتظر حظّك، ما زلت في أوّل الطريق.

ـ ألم يتغيّر سلوكك معه بعد وقوفك على سرّه؟

ـ إلّا هٰذا!

لاحت نظرة حالمة في عيني كمال وهو يقول:

ـ ليته أعطانا من لطفه نصيبًا!

ـ ليته...

ـ ما كان أمرنا ليفسد أكثر ممّا فسد!

ـ حبّ النساء والخمر ليس من الفساد في شيء...

ـ وكيف تفسّر سلوكه على ضوء إيمانه العميق؟

ـ وهل أنا كافر؟! وهل أنت كافر؟! وهل كان الخلفاء كفرة؟ الله غفور رحيم!...

ما عسى أن يكون جواب أبي؟ شدّ ما أتوق إلى مناقشته، كلّ شيء محتمل إلّا أن يكون منافقًا، كلّا ليس هو بالمنافق، وما أزداد له إلّا حبًّا! وغمرته الجرعة الأخيرة رغبة في الدعابة، فقال:

ـ من المؤسف أنّه لم يتعلّم فنّ التمثيل!

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

ـ لو علم بما يتهيّأ للممثّل من حياة حافلة بالنساء والخمر لكرّس حياته للفنّ!...

أهٰذا الكلام الهازئ عن السيّد أحمد عبد الجواد حقًّا! ولٰكن هل يكون هو أجلّ من آدم؟ ومع ذٰلك فالمصادفة وحدها هي التي عرّفتك بحقيقة الرجل، والمصادفة هي التي لعبت في حياتك أخطر الأدوار، لو لم أصادف ياسين في الدرب لما انقشعت عن عينيّ غشاوة الجهل، لو لم يجذبني ياسين على جهله إلى

القراءة لكنت اليوم في مدرسة الطبّ كما تمنّى أبي، ولو التحقت بالسعيديّة ما عرفت عايدة، ولو لم أعرف عايدة لكنت إنسانًا غير الإنسان ولكان الكون غير الكون، ثمّ يحلو للبعض أن يعيب على دارون اعتماده على المصادفة في تفسير آليّة مذهبه. قال ياسين مستعيرًا لهجة الحكيم:

ـ سوف تعلّمك الأيّام ما لم تعلم...

ثمّ وهو يسخر من نفسه:

ـ ها هي تعلّمني أن أقضي لذّاتي مبكّرًا حتّى لا أثير شكوك زوجتي...

وهزّ رأسه وهو ينظر إلى عيني كمال المتسائلتين الباسمتين، ثمّ استطرد:

ـ إنّها أقوى زوجاتي الثلاث، ويخيّل إليّ أنّني لن أتخلّص منها!

فسأله كمال باهتمام وهو يشير ناحية الدرب:

ـ ما الذي جاء بك إلى هٰذا وأنت متزوّج للمرّة الثالثة؟

فردّد ياسين الجملة المشهورة من الأغنية التي سمعها كمال أوّل ما سمعها في دخلة عائشة:

ـ علشان كده... علشان كده... علشان كده...

ثمّ قال مبتسمًا في شيء من الارتباك:

ـ قالت لي زنّوبة مرّة «أنت لم تتزوّج قطّ، كنت تعتبر الزواج نوعًا من العشق، وقد آن لك أن تنظر إليه بعين الجدّ»، أليس غريبًا أن يصدر هٰذا القول عن عوّادة؟! ولٰكنّها فيما يبدو أحرص على الحياة الزوجيّة من سابقتيها، وهي مصمّمة على أن تبقى زوجة لي حتّى تغمض عينيّ، لٰكنّني لا أستطيع أن أقاوم النسوان، سرعان ما أحبّهنّ وسرعان ما أملّهنّ، لذٰلك عمدت إلى هٰذه الدروب لأقضي اللبانة مبكّرًا دون التورّط في عشق طويل، ولولا الملل ما سعيت إلى امرأة في درب طياب!

فسأله كمال باهتمام متزايد:

ـ أليست هي امرأة ككلّ النساء؟

ـ كلّا، إنّها امرأة بلا قلب، الهوى عندها سلعة!

فعاد كمال يسأل وعيناه تلمعان بالأمل:

ـ ماذا ترى من اختلاف بين امرأة وأخرى؟

هزّ ياسين رأسه في زهو إدلالًا بالمكانة التي وضعته فيها أسئلة كمال، ثمّ أجاب بلهجة خبير:

ـ درجة المرأة تتقرّر في كادر النساء تبعًا لمزاياها الأخلاقيّة والعاطفيّة بصرف النظر عن أسرتها ومركزها، فزنّوبة أفضل عندي من زينب لأنّها أعمق عاطفة وأشدّ إخلاصًا وحرصًا على الحياة الزوجيّة، ولٰكنّك في النهاية تجدهنّ شيئًا واحدًا، عاشر الملكة بلقيس نفسها فلا محيص من أن تجدها آخر الأمر منظرًا معادًا ونغمة مكرّرة...

خبا اللمعان في عيني كمال، ترى هل أمست عايدة منظرًا معادًا ونغمة مكرّرة؟! ما أبعد هٰذا التصوّر عن التصديق! ولٰكن ما أنت إلّا صريع الواقع، وحتّى الشماتة بها تكبر عليك وتعزّ، وإنّه لمّا يبعث على الجنون أن يعلم المعبود الذي تذهب النفس حسرة عليه أنّه كان في وسع الأيّام أن تجعل منه منظرًا معادًا ونغمة مكرّرة، بل أيّ الحالين أحبّ إليك إن استطعت جوابًا؟ غير أنّي أتحسّر أحيانًا على الملل من شدّة الشوق كما يتحسّر ياسين على الشوق من شدّة الملل، وارفع رأسك أخيرًا إلى ربّ السماوات وسله عن حلّ سعيد:

ـ ألم تحبّ أبدًا؟

ـ إذن ما هٰذا الذي أنا غارق فيه؟!

ـ أعني حبًّا حقيقيًّا لا هٰذه الشهوة العابرة...؟

أفرغ كأسه الثالثة، ومسح على فمه بظاهر كفّه، ثمّ فتل شاربه وقال:

ـ لا تؤاخذني، الحبّ يتركّز عندي في بعض مواضع كالفم واليد ألخ ألخ.

ياسين جميل، ما كانت لتسخر من رأسه أو أنفه، ولٰكنّه بما قال يبدو حقيقًا بالرثاء، كأنّ الإنسان لا يكون إنسانًا إلّا أن يحبّ، ولٰكن ما جدوى ذٰلك وما جنيت من الحبّ إلّا الألم؟! واستطرد ياسين قائلًا، وهو يحثّه بالإشارة على الفراغ من كأسه:

ـ لا تصدّق ما يقال عن الحبّ في الروايات، الحبّ

عاطفة أيّام أو أسابيع مع حسن الظنّ!

كفرت بالخلود ولٰكن هل نسيان الحبّ ممكن؟ لم أعد كما كنت، إنّي أتسلّل من جحيم العذاب فتشغلني الحياة حينًا حتّى أرجع إليه، وكان الموت قبلتي واليوم ثمّة حياة ولو بلا أمل، العجب أنّك تثور على فكرة النسيان كلّما خطرت، كأنّما تعاني تبكيت الضمير، أو لعلّك تخاف أن ينكشف أجلّ ما قدّست عن وهم، أو أنّك تأبى على يد العدم أن تعبث بالحياة الرائعة التي بدونها تغدو ومن لم يولد سواء، لكن ألا تذكر لِمَ بسطت الراحتين داعيًا الله أن ينتشلك من العذاب وأن يلهمك النسيان؟!

ـ ولٰكنّ الحبّ الحقيقيّ موجود، نقرأ حوادثه في الصحف لا في الروايات. . .

ابتسم ياسين ابتسامة ساخرة، ثمّ قال:

ـ بالرغم من أنّي مبتلى بحبّ النسوان فإنّي لا أعترف بهٰذا الحبّ، إنّ المآسي التي تقرأ أخبارها تتحدّث في الواقع عن شبّان غير مجرّبين، أسمعت عن مجنون ليلى؟ لعلّ له نظائر في هٰذه الحكايات، ولٰكنّ المجنون لم يتزوّج من ليلى؟ دلّني على شخص واحد جنّ بحبّ زوجته! وأسفاه! إنّ الأزواج عقلاء جدًّا، عقلاء ولو كرهوا، أمّا الزوجة فيبدأ بالزواج جنونها، لأنّها لا تقتنع بأقلّ من أن تزدرد زوجها، ويخيّل إليّ أنّ المجانين يصيرون عشّاقًا لأنّهم مجانين لا أنّ العشّاق يصيرون مجانين لأنّهم عشّاق، تراهم يتحدّثون عن المرأة كأنّما يتحدّثون عن ملاك، والمرأة ليست إلّا امرأة، طعام لذيذ سرعان ما تشبع منه، دعهم يشاركونها الفراش ليطّلعوا على منظرها عند الاستيقاظ وليشمّوا رائحة عرقها وسائر الروائح التي قد تصدر عنها وليحدّثوني بعد ذٰلك عن الملاك. فتنة المرأة ما هي إلّا طلاء أو أداة إغراء حتّى تقع في الشرك وعند ذاك يبدو لك المخلوق الآدميّ على حقيقته: لذٰلك فالأبناء ومؤخّر الصداق والنفقة الشرعيّة هي سرّ قوّة الزواج لا الجمال أو الفتنة. . .

ما كان أجدره أن يغيّر رأيه لو رأى عايدة، غير أنّه ينبغي أن تفكّر من جديد في أمر الحبّ. كنت تراه وحيًا ملائكيًّا ولٰكن لم يعد للملائكة وجود فابحث في ذات الإنسان واسلكه ضمن الحقائق الفلسفيّة والعلميّة التي تتشوّق إلى اقتحامها، بذٰلك تقف على سرّ مأساتك وتكشف النقاب عن سرّ عايدة المكنون، لن تجدها ملاكًا ولٰكنّ باب السحر سيفتح لك مصراعيه، أمّا الوحم والحبل والمنظر المعاد وسائر الروائح فما أتعسني!

قال كمال بأسى لم يفطن إليه أخوه:

ـ الإنسان مخلوق قذر، ألم يكن من الممكن أن يُخلق خيرًا وأنظف ممّا كان؟!

رفع ياسين رأسه دون أن ينظر إلى شيء بالذات، وقال بسرور عجيب:

ـ الله. . . الله، النفس شعشعت واستحالت أغنية، وانقلبت الأعضاء آلات طرب، والدنيا حلوة، والكائنات حبيبة للقلب، والجوّ عذب، والحقيقة خيال، والخيال حقيقة، أمّا المنغّصات فأسطورة، الله. . . الله، ما أجمل الخمر يا كمال، الله يطوّل عمرها ويديمها علينا ويعطينا الصحّة والعافية لنشربها حتّى آخر العمر، ويخرب بيت الذي يمسّها بسوء أو يتقوّل عليها بغير الحقّ، تأمّل هٰذه النشوة الحلوة، تأمّل، أغمض عينيك، هل وجدت لذّة كهٰذه؟. . . الله. . . الله. . . الله، (ثمّ وهو يخفض رأسه ناظرًا إلى كمال). . . ماذا قلت يا ولدي؟ الإنسان مخلوق قذر؟ أساءك ما قلت عن المرأة؟ لم أتكلّم لأثير اشمئزازك منها، الواقع أنّي أحبّها، أحبّها بكلّ ما فيها، ولٰكنّي أردت أن أبرهن لك على أنّ المرأة الملاك لا وجود لها بل لا أدري إن كنت أحبّها إن وُجدتْ! فإنّي مثلًا ـ كأبيك ـ أحبّ الأرداف الثقيلة، ولو كان الملاك ذا أرداف ثقيلة لتعذّر عليه الطيران، افهمني جيّدًا ولا تسئ فهمًا وحياة أبينا السيّد أحمد. . .

وما لبث كمال أن شاركه نشوته، فقال:

ـ لشدّ ما تبدو الدنيا محبوبة إذا سَرت الخمر في الروح!. . .

ـ يسلم فمك، حتّى النغمة المألوفة يترنّم بها شحّاذ الطريق تقع من الأذن موقع السحر. . .

ـ حتّى أحزاننا تبدو كأنّها أحزان شخص آخر...

ـ بخلاف نساء الشخص الآخر، فإنّها تبدو وكأنّها نساؤنا...

ـ هما شيء واحد يا بن أبي...

ـ الله... الله، لا أريد أن أفيق...

ـ من رذالة الحياة أنّها لا تمكّننا من الاستمرار في السكر كما نهوى...

ـ ليكن في معلومك أنّني لا أرى في السكر لهوًا، ولٰكن غاية سامية كالمعرفة والمثل الأعلى...

ـ إذن فأنا فيلسوف كبيرا

ـ عندما تؤمن بما قلت وليس قبل ذٰلك...

ـ الله يطوّل عمرك يا أبي، فقد أنجبت فلاسفة مثلك!

ـ لِمَ يبدو الإنسان تعيسًا مع أنّه لا يطلب أحسن من كأس وما أكثر القوارير، وامرأة وما أكثر النساء؟!

ـ لِمَ؟... لِمَ؟...

ـ سأجيبك عندما أشرب كأسًا أخرى...

ـ كلّا...

قال ياسين ذٰلك بصوت وشى بصحوة طارئة، ثمّ استطرد محذّرًا:

ـ لا تفرط، إنّي شريكك الليلة فأنا مسئول عنك، كم الساعة الآن؟...

وأخرج ساعته فنظر فيها، ثمّ هتف:

ـ منتصف الواحدة، وقع المحذور يا بطل، كلانا قد تأخّر، وراءك أبونا وورائي زنّوبة، قم بنا...

ولم تمض دقائق حتّى غادرا البار، فاستقلّا عربة انطلقت بهما صوب العتبة، دارت العربة حول سور الأزبكيّة في طريق يسوده الظلام، وبين آونة وأخرى يُرى عابر مهرولًا أو مترنّحًا، وكلّما مرّت العربة بشارع مقاطع ترامى إليهما صوت غناء تحمله نسمة رطيبة، أمّا فوق المباني وأشجار الحديقة الباسقة فقد تألّقت النجوم اليواقظ.

قال ياسين ضاحكًا:

ـ أستطيع الليلة أن أحلف غير متحرّج بأنّني لم آتِ منكرًا...

فقال كمال في شيء من القلق:

ـ أرجو أن أصل البيت قبل أبي...

ـ الخوف شرّ أنواع التعاسة، لتحيا الثورة!

ـ أجل لتحيا الثورة!

ـ لتسقط الزوجة المستبدّة!

ـ ليسقط الأب المستبدّ!

ـ ٣٧ ـ

طرق كمال الباب في خفّة حتّى فُتح عن شبح أمّ حنفي، ولـمّا عرفته قالت بصوت هامس:

ـ سيّدي الكبير على السلّم...

فانتظر وراء الباب حتّى يطمئنّ إلى وصول أبيه إلى الدور الأعلى، غير أنّ صوته جاء من داخل السلّم وهو يسأل بشدّة:

ـ مَن الطارق؟

فخفق قلبه ولم ير بدًّا من التقدّم وهو يجيبه:

ـ أنا يا بابا...

تراءى له شبح أبيه على بسطة الدور الأوّل على حين لاح ضوء المصباح الذي تمسك به الأمّ في أعلى السلّم، ونظر السيّد إليه من فوق الدرابزين، وهو يتساءل في دهش:

ـ كمال؟!... ما الذي أخّرك خارج البيت حتّى هٰذه الساعة؟

أخّرني الذي أخّرك...

قال بإشفاق:

ـ ذهبت إلى المسرح لأشهد التمثيليّة المقرّرة علينا هٰذا العام...

فصاح ساخطًا:

ـ هل أصبحت المذاكرة في المسارح؟! ألا يكفي أن تقرأ وتحفظ؟ كلام فارغ سمج، ولِمَ لم تستأذنّي؟

توقّف كمال على بعد درجات من موقف أبيه، وقال معتذرًا:

ـ لم أتوقّع أن تمتدّ السهرة إلى هٰذه الساعة المتأخّرة.

فقال الرجل بغضب:

ـ شُفْ لك طريقة أخرى للمذاكرة ودعك من الأعذار السخيفة...

ومضى يرقى في السلّم وهو يدمدم، فترامت إليه كلمات من دمدمته مثل «مذاكرة المسارح على آخر الزمن»، «الساعة واحدة بعد منتصف الليل»، «حتّى الأطفال»، «ملعون أبوك وأبو التمثيليّة المقرّرة». ارتقى السلّم حتّى الدور الأخير ومضى إلى الصالة، فتناول مصباحًا مضاء من فوق منضدة ودخل حجرته مكفهرّ الوجه، وضع المصباح على المكتب ووقف مستندًا بكلتا يديه يتساءل عن تاريخ آخر شتيمة قذفه بها أبوه فلم يتذكّره على وجه التحديد، ولٰكنّه كان واثقًا من أنّ سنوات دراسته العالية مرّت في سلام وكرامة، ولذٰلك وقعت اللعنة من نفسه ـ رغم أنّه لم يواجه بها ـ موقعًا أليمًا. وتحوّل عن مكتبه فخلع طربوشه وشرع في نزع ملابسه، وعلى حين فجأة شعر بدوار في رأسه وجزع في معدته، فغادر الحجرة مسرعًا إلى الحمّام حيث قذف جوفه بما فيه في عنف ومرارة، وعاد إلى الحجرة مرّة أخرى منهوك القوى متقزّز النفس يجد في صدره ألمًا أشدّ وأعمق، وخلع ملابسه وأطفأ المصباح ثمّ استلقى على الفراش وهو ينفخ في ضيق وضجر، ولٰكن لم تمض دقائق حتّى سمع الباب وهو يُفتح برفق، ثمّ جاءه صوت أمّه متسائلًا في إشفاق:

ـ نمت...؟

فقال بلهجة طبيعيّة راضية ليصرفها عنه ويخلو إلى ما هو فيه:

ـ نعم...

فتدانى شبحها من الفراش حتّى وقفت فوق رأسه، ثمّ قالت كالمعتذرة:

ـ لا تتكدّر، أنت أعلم الناس بأبيك...

ـ مفهوم... مفهوم!

فقالت وكأنّما أرادت أن تفصح عمّا ساورها هي:

ـ إنّه مطّلع على جدّك واستقامتك، ومن هنا جاء إنكاره لتأخّرك غير المألوف حتّى هذه الساعة...

فركبه الغيظ حتّى لم يتمالك من أن يقول:

ـ إذا كان السهر يستوجب كلّ هٰذا الإنكار، فلماذا يواظب هو عليه؟!

حال الظلام دون رؤية ما ارتسم على وجهها من دهش وإنكار، لٰكنّه سمعها تضحك من أنفها لتوهمه بأنّها لم تحمل قوله على محمل الجدّ، وقالت:

ـ كلّ الرجال يسهرون، وسوف تصير رجلًا عمّا قريب، أمّا الآن! وأنت طالب...

فقاطعها قائلًا بلهجة من يودّ الفراغ من الحديث:

ـ مفهوم... مفهوم، لم أقصد بقولي شيئًا، لماذا تعّبت نفسك بالمجيء إليّ؟ عودي مصحوبة بالسلامة...

قالت برقّة:

ـ خفت أن تكون متكدّرًا، سأتركك الآن ولٰكن عدني بأن تنام صافي النفس، اقرأ الصمديّة حتّى يأتيك النوم...

وشعر بابتعادها، ثمّ سمع الباب وهو يغلق وصوتها يقول «مساء الخير»، نفخ مرّة أخرى، وراح يمسح صدره وبطنه وهو يحملق في الظلام... أمّا مذاق الحياة كلّها فكان مرًّا، أين ذهبت نشوة الخمر الساحرة؟ وما هٰذا الكرب الخانق الذي حلّ محلّها؟ ما أشبهه بخيبة الحبّ التي ورثت أحلامه السماويّة، ومع ذٰلك فلولا الأب ما انقلب حاله. هٰذه القوّة الجبّارة التي يخافها كلّ الخوف، يخافها ويحبّها معًا، ما كنهها؟ ليس إلّا رجلًا لولا مرحه الذي خصّ به الغرباء لم يكن شيئًا، فكيف يخافه؟ وحتّى متى يذعن لقوّة هٰذا الخوف؟ إنّه وهم كسائر الأوهام التي امتُحن بها، ولٰكن ما جدوى المنطق في مقاومة العواطف الثابتة؟ وقد قرعت يداه يومًا أبواب عابدين في المظاهرة الكبرى التي تحدّت الملك هاتفة «سعد أو الثورة»، فتراجع الملك واستقال سعد من الوزارة.... أمّا حيال أبيه فإنّه يصير لا شيء. كلّ شيء تغيّر مدلوله ومعناه، الله.... آدم... الحسين... الحبّ... عايدة نفسها... الخلود. قلت الخلود؟ نعم، فيما يجري على الحبّ وفيما جرى على فهمي، ذٰلك الأخ الشهيد الذي استضافه الفناء إلى الأبد، أتذكر التجربة التي قمت بها وأنت في الثانية عشرة من عمرك لتعرف

مصيره المجهول؟... يا للذكرى المحزنة!... اقتنصت عصفورة من عشّها ثمّ خنقتها، وكفّنتها وحفرت لها قبرًا صغيرًا في فناء البيت على كثب من البئر القديم ثمّ دفنتها فيه، وبعد أيّام أو أسابيع نبشت القبر وأخرجت الجثّة، فماذا رأيت وماذا شممت؟ وذهبت إلى أمّك باكيًا تسألها عن مصير الميت، كلّ ميت، ومصير فهمي خاصّة فلم يصدّك عنها إلّا إفحامها في البكاء، فماذا بقي من فهمي بعد سبع سنوات؟ وماذا سيبقى من الحبّ؟ وعمّ تمخّض الأب الجليل؟

ألفت عيناه ظلام الحجرة فتراءى المكتب والمشجب والكرسيّ والصوان أشباحًا قائمة، وندّت عن الصمت نفسه أصوات مبهمة، وامتلأ رأسه بالأرق المحموم، أمّا مذاق الحياة فازداد مرارة، وتساءل هل غطّ ياسين في نومه؟ وعلى أيّ حال كان لقاء زنّوبة له؟ وهل آوى حسين إلى فراشه الباريسيّ؟ وعلى أيّ جانب تنام عايدة الآن؟ وهل تكوّر بطنها واندلح؟ وماذا يفعلون في نصف الكرة الآخر الذي تتربّع الشمس في كبد سمائه؟... والكواكب المنيرة، أليس ثمّة حياة تعمرها خالية من التعاسة؟ وهل يمكن أن يُسمع أنينه الخافت في ذلك الأوركسترا الكونيّ اللانهائيّ؟!

أبي! دعني أكاشفك بما في نفسي، لست ساخطًا على ما تكشّف لي من شخصك، فإنّ ما كنت أجهله منك أحبّ إليّ ممّا كنت أعرف، إنّي معجب بلطفك وظرفك ومجونك وعربدتك ومغامراتك، ذلك الجانب الدميث منك الذي يعشقه جميع عارفيه، وهو إن دلّ على شيء فعلى حيويّتك وهيامك بالحياة والناس، ولكنّي أسائلك لِمَ ارتضيت أن تطالعنا بهذا القناع الفظّ المخيف؟ لا تعتلّ بأصول التربية فأنت أجهل الناس بها، وآي ذلك ما ترى وما لا ترى من سلوك ياسين وسلوكي، فما فعلت إلّا أن آذيتنا كثيرًا وعذّبتنا كثيرًا بجهل لا يشفع لك فيه حسن نيّتك، لا تجزع فإنّي ما زلت أحبّك وأعجب بك، وسأبقى على الدوام مخلصًا لحبّك والإعجاب بك، غير أنّ نفسي تضمر لك لومًا شديدًا يعادل ما جرّعتني من ألم، لم نعرفك صديقًا كما عرفك الغرباء، ولكن عرفناك حاكمًا مستبدًّا شرسًا طاغية، كأنّما كنت أوّل مقصود بالمثل القائل «عدوّ عاقل خير من صديق جاهل»، لذا سأكره الجهل أكثر من أيّ شيء في الحياة، فهو المفسد لكلّ شيء حتّى الأبوّة المقدّسة. خير منك أب له نصف جهلك ونصف حبّك لأبنائك، وإنّي أعاهد نفسي - إذا صرت يومًا أبًا - أن أكون لأبنائي الصديق قبل أن أكون المربّي، غير أنّي ما زلت أحبّك وأعجب بك حتّى بعد أن زايلتك صفات الألوهيّة التي توهّمتها فيها مضى عيناي المسحورتان. أجل لم تعد قوّتك إلّا أسطورة، فلست مستشارًا كسليم بك ولا غنيًّا كشدّاد بك ولا زعيمًا كسعد زغلول ولا داهية كثروت ولا نبيلًا كعدلي. ولكنّك صديق محبوب وحسبك هذا، وما هو بالقليل، فليتك لم تضنّ علينا بصداقتك، ولكن لست وحدك الذي تغيّرت فكرته، الله نفسه لم يعد الله الذي عبدته قديمًا، إنّي أغربل صفات ذاته لأنقّيها من الجبروت والاستبداد والقهر والدكتاتوريّة وسائر الغرائز البشريّة، ولست أدري أين ينبغي أن أشكم الفكر ولا إن كان من الفضيلة أن أشكمه، بل إنّ نفسي تحدّثني بأنّي لن أقف عند حدّ وبأنّ النضال على عذابه خير من الاستكانة والنوم. قد لا يهمّك هذا بقدر ما يهمّك أن تعلم أنّي قرّرت أن أضع حدًّا لاستبدادك، استبدادك الذي يغشاني كما يغشاني هذا الظلام المحيط، والذي يؤلمني كما يؤلمني هذا الأرق اللعين، أمّا الخمر فلن أذوقها جزاء خيانتها لي، وأسفاه! إذا كانت الخمر أيضًا وهمًا خادعًا فما بقي للإنسان؟ أقول لك إنّي قرّرت أن أضع حدًّا لاستبدادك، لا بالتحدّي والعصيان فأنت أكرم على نفسي من أن أفعل بك هذا، ولكن بالهجرة! أجل لأهاجرنّ من بيتك حال أقف على قدميّ، وفي أحياء القاهرة متّسع لكلّ مضطهد، أتدري ماذا كانت عواقب حبّي لك رغم استبدادك بي؟ أنّي عبدت مستبدًّا آخر طالما ظلمني بظاهره وباطنه معًا، استبدّ بي دون أن يحبّني، ورغم ذلك كلّه عبدته من أعماقي ولا زلت أعبده، فأنت أوّل مسئول عن حبّي وعذابي. ترى ما نصيب هذه الفكرة من الحقيقة؟! لست مرتاحًا

إليها ولا متحمّسًا لها، ومهما يكن من واقعيّة الحبّ فلا شكّ أنّه يرجع إلى أسباب أعمق أصالة في النفس، فلنتركها الآن معلّقة حتّى نعود إليها بالدرس فيا بعد، وعلى أيّ حال فأنت يا أبي الذي هوّنت عليّ الإحساس بالظلم بمداومتك على الاستبداد بي، وأنت يا أمّي لا تحملقي في وجهي بإنكار أو تتساءلي ما ذنبي وما جنيت على أحد، إنّه الجهل. هو جنايتك. الجهل... الجهل... الجهل... أبي هو الفظاظة الجاهلة، وأنت الرقّة الجاهلة، وسوف أظلّ ما حييت ضحيّة هٰذين الضدّين، وجهلك أيضًا هو الذي ملأ روحي بالأساطير، فأنت همزة الوصل بيني وبين عالم الكهوف. وكم أشقى اليوم في سبيل التحرّر من آثارك كما سأشقى غدًا في سبيل التحرّر من أبي، وما كان أحراكما أن توفّرا عليّ هٰذا الجهد المضني، لذٰلك أقترح - وظلام هٰذه الحجرة شهيد - أن تلغى الأسرة - هٰذه الحفرة التي يتجمّع فيها الماء الآسن - وأن تزول الأبوّة والأمومة، بل هبني وطنًا بلا تاريخ وحياة بلا ماض، ولننظر الآن في المرآة فماذا نرى؟ هٰذا الأنف الضخم وهٰذا الرأس الكبير. أعطيتني أنفك يا أبي دون مشورة أو رحمة فأنت تستبدّ بي حتّى قبل أن أولد، ومع أنّه يبدو في وجهك مهيبًا جليلًا فإنّه - بذاته وشكله - يلوح مضحكًا في صفحة وجهي الضيّقة كأنّه جنديّ إنجليزيّ في حلقة ذكر، وأعجب منه رأسي لأنّه لا إلى فصيلة رأسك ينتمي ولا إلى فصيلة رأس أمّي فعن أيّ جدّ بعيد انحدر إليّ؟ فليظلّ ذنْبه معلّقًا فوق رأسيكما حتّى يتّضح لي الحقّ. قبيل النوم يجب أن نقول «الوداع» فقد لا يطلع الصبح علينا. إنّي أحبّ الحياة رغم ما فعلته بي على طريقة حبّي إيّاك يا أبي. وفي الحياة أشياء جديرة بالحبّ وصفحة وجهها مليئة بعلامات الاستفهام مثيرة للشغف، غير أنّ النافع فيها لا نفع فيه وما لا نفع فيه عظيم الشأن، والراجح أنّي لن أعود إلى تقبيل الكأس فقل وداعًا أيّتها الخمر، ولٰكن مهلًا. أذكر ليلة غادرت بيت عيّوشة عاقدًا العزم على ألّا أقرب النساء ما حييت وكيف انقلبت بعد ذٰلك زبونها الأثير، ويخيّل إليّ أنّ الإنسانيّة تئنّ مثلي من الخمار والغثيان فادعُ لها بالشفاء العاجل...

- ٣٨ -

فتر حماس ياسين حال انفراده بنفسه في العربة بعد ذهاب كمال، وبدا كالمتفكّر رغم سكره، إذ جاوزت الساعة الواحدة ودخل الوقت منذ كثير في الهزيع المريب من الليل، وسوف يجد زنّوبة إمّا يقظى تنتظر وتغلي وإمّا ستستيقظ حين دخوله، وعلى أيّ حال فلن تمرّ الليلة بسلام، بسلام كامل على الأقلّ.

غادر العربة عند منعطف قصر الشوق ومضى يخوض الظلام الدامس وهو يهزّ كتفيه العريضين في استهانة ويقول لنفسه بصوت هامس «ليس ياسين الذي يعمل حسابًا لامرأة»، وكرّر هٰذا القول وهو يرقى في الدرج مسترشدًا في الظلام بالدرابزين، غير أنّ تكراره إيّاه لم ينمّ عن طمأنينة قاطعة. وفتح الباب ودخل، ثمّ مضى إلى حجرة النوم على ضوء مصباح الصالة، وألقى على الفراش نظرة فرآها نائمة، فردّ الباب ليحول دون تسرّب الضوء الخافت الآتي من الصالة، وراح يخلع ملابسه في هدوء وحذر وهو يزداد اطمئنانًا إلى استغراقها في النوم، ويرسم في ذهنه خطّة للتسلّل إلى موضعه في الفراش دون أن يحدث صوتًا.

- أشعل المصباح لأكحّل عينيّ برؤيتك!

التفت رأسه نحو الفراش ثمّ ابتسم في تسليم، وأخيرًا تساءل كالداهش:

- أأنت يقظى؟! ظننتك نائمة فلم أشأ أن أزعجك!

- قلبك طيّب، كم الساعة الآن؟

- الثانية عشرة على الأكثر، فإنّي غادرت المجلس حوالى الحادية عشرة، وجئت ماشيًا واحدة واحدة...

- لازم كان مجلسك في بنها!

- لماذا؟... هل تأخّرت؟

- انتظر حتّى يجيبك ديك الفجر بنفسه.

- لعلّه لم ينم بعد!

وجلس على الكنبة ليخلع حذاءه وجوربه ولم يكن عليه إلّا القميص والسروال، وعند ذاك ندّت عن

السرير طقطقة ورأى شبحها يستوي جالسًا، ثمّ سمعها تقول في حدّة:

ـ أشعل المصباح.

ـ لا داعي لذٰلك، فقد فرغت من خلع ملابسي.

ـ أريد أن نصفّي حسابنا في النور...

ـ تصفية الحساب في الظلام ألطف!

وصدرت عنها نفخة غيظ ثمّ غادرت الفراش، ولٰكنّه مدّ ذراعيه من مجلسه القريب فأصاب منكبها فجذبها إلى الكنبة وأجلسها إلى جانبه وهو يقول:

ـ لا تشعلي الفتنة...

تخلّصت من يده، وقالت:

ـ أين ما تعاهدنا عليه؟ لقد قبلت أن تسكر في الحانات كما تحبّ على شرط أن تعود إلى بيتك في وقت مبكّر، قبلت هٰذا على رغمي لأنّك لو سكرت في بيتك لوفّرت على نفسك مالًا كثيرًا يضيع هباء، ومع ذٰلك فها أنت تعود قبيل الفجر غير مبالٍ بما تعاهدنا عليه!

من يستطيع أن يخادع ربيبة التخت والعود؟ وإذا ثبتت لها خيانتك يومًا فهل تقف عند حدّ الشجار أم...؟ فكّرْ مرّتين، ولا تنس كذٰلك أنّ فقدها لا يهون، إنّها أحبّ زوجاتي إليّ، خبيرة بما يسعدني، متمسّكة بحياتنا، لولا الملل...!

ـ كنت في مجلس كلّ ليلة لم أغادره إلّا إلى بيتي، وعندي شاهد تعرفينه، أتدرين من هو؟ (وضحك بصوت عالٍ)

ولٰكنّها قالت ببرود:

ـ تكلّم في الموضوع!

فقال وهو لا يزال يضحك:

ـ كان جليسي الليلة أخي كمال!

فلم تدهش كما توقّع، وقالت في نفاد صبر:

ـ من يشهد للعروس؟!

ـ لا تكابري!... براءتي كالشمس!... (ثمّ متأفّفًا)... يحزنني والله أن ترتابي في سلوكي، شبعت من الدوران حتّى المرض، ولا رغبة لي الآن إلّا الحياة الهادئة، أمّا الحانة فتسلية بريئة لا غبار عليها، ولا بدّ للإنسان من مخالطة الناس...

فقالت بصوت دلّت نبراته على الانفعال:

ـ آه منك. أنت تعلم أنّي لست طفلة، وأنّ الضحك عليّ مطلب عسير، وأنّه من الخير لكلينا ألّا تدخل بيننا الريبة!...

موعظة أم وعيد؟! أين منّي حياة أبي المثاليّة، الرجل الذي يفعل ما يشاء فإذا رجع إلى بيته وجد الاستقرار والحبّ والطاعة، لم يتحقّق لي هٰذا الحلم على يد زينب ولا مريم وأخلق به ألّا يتحقّق على يد زنّوبة، لا ينبغي لهٰذه العوّادة الجميلة أن تيأس طالما هي على ذمّتي! قال بحزم:

ـ لو كان بي رغبة إلى مزيد من الحرام ما تزوّجتك!...

فهتفت بحدّة:

ـ ولٰكنّك تزوّجت من قبل مرّتين، فلم يمنعك الزواج من الحرام!

نفخ ناشرًا أنفاسًا مخمورة، ثمّ قال:

ـ حالتك غير الحالتين السابقتين يا غبيّة، الزوجة الأولى اختارها أبي وفرضها عليّ، والزوجة الثانية لم تجعل لي من سبيل إليها إلّا بالزواج فتزوّجتها، أمّا أنت فلم يفرضك أحد عليّ، ولم يغلق بابك دوني قبل الزواج، ولم يكن الزواج منك ليعدني بشيء جديد لم أعرفه، فلِمَ تزوّجتك يا غبيّة إن لم يكن الزواج نفسه ـ أي الحياة المستقيمة المستقرّة ـ مطلبي؟! والله لو كان بك ذرّة من عقل ما سمحت لنفسك بالشكّ فيّ أبدًا...

ـ حتّى إن جئتني عند الفجر؟!

ـ حتّى إن جئتك عند الصبح!

فهتفت بحدّة:

ـ نه، قل كلامًا آخر أو فعلى الأمن السلام!

فقال بحدّة وهو يقطّب في نرفزة:

ـ ألف سلام!

ـ أرحل، أرض الله واسعة والرزق على الله...

فقال في استهانة متعمّدًا:

ـ أنت وشأنك...

فقالت بصوت واشٍ بالوعيد:

ـ أرحل غير أنّي كالشوكة لا تنتزع بيسر.

فتمادى في الاستهانة بها قائلًا:

ـ خزعبلات! تذهبين بأيسر ممّا يُخلع الحذاء..

ولٰكنّها غيّرت النغمة من التحدّي والتهديد إلى التشكّي، فهتفت:

ـ أأرمي بنفسي من النافذة فأريح وأستريح...!

فهزّ كتفيه استهانة، ثمّ نهض وهو يقول بلهجة أخفّ:

ـ ثمّة طريق أفضل هو أن تقومي إلى الفراش، هلمّي لننام واخزي الشيطان...

اتّجه نحو الفراش فاستلقى عليه وهو يتأوّه كأنّما طال به التشوّق للرقاد، أمّا هي فعادت تقول وكأنّها تحدّث نفسها:

ـ مكتوب على من يعاشرك التعب...

التعب مكتوب عليّ أنا أيضًا، جنسك هو المسئول، لا واحدة تغني عن الأخريات وقهر الملل فوق طاقتهنّ، ولٰكن لن أعود إلى العزوبة مختارًا، لا أستطيع أن أبيع كلّ عام دكّانًا في سبيل زواج جديد، فلتبقَ زنّوبة على شرط ألّا تركبني، الرجل المجنون يحتاج إلى امرأة عاقلة، زنّوبة وعاقلة؟!

ـ أتبقي على الكنبة حتّى الصبح؟

ـ لن يغمض لي جفن، دعني لما بي وتمتّع أنت بالنوم...

لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، مدّ ذراعيه حتّى قبض على منكبيها، ثمّ جذبها إليه وهو يغمغم:

ـ فراشك!

فقاومت مقاومة غير عسيرة، ثمّ استسلمت ليده فمضت إلى الفراش وهي تقول متأوّهة:

ـ متى تُتاح لي راحة البال كسائر النساء؟

ـ اطمئنّي، ينبغي أن تضعي فيّ كلّ ثقتك، إنّي أهل للثقة، مثلي لا يكون سعيدًا إلّا إذا سهر، ولن تسعدي أنت إذا أتعبتني بوجع الدماغ، حسبك أن تؤمني ببراءة سهري، صدّقيني ولن تندمي، لست جبانًا ولا كذّابًا، ألم أجئ بك ليلة إلى هٰذا البيت وفيه زوجتي؟ فهل يفعل هٰذا جبان أو كذّاب؟ شبعت من الدوران ولم يبق لي في حياتي إلّا أنت!

تنهّدت بصوت مسموع، وكأنّما أرادت أن تقول له «أودّ أن تكون صادقًا فيما تقول»، فمدّ يده لاعبًا وهو يقول:

ـ يا سلام، هٰذه التنهيدة حرقت قلبي، الله يقطعني...

قالت برجاء وهي تستجيب ليده رويدًا رويدًا:

ـ لو ربّنا يهديك!

من يصدّق أنّ هٰذه الأمنية صادرة عن عوّادة!

ـ لا تقابليني بالشجار أبدًا، إنّ الشجار يثبط النشاط!

علاج ناجع ولٰكنّه لا ينفع في جميع الأحوال، لو نلت عيّوشة الليلة ما تيسّر...

ـ أرأيت أنّ ارتيابك لم يكن في محلّه؟!

ـ ٣٩ ـ

كان السيّد أحمد عبد الجواد منهمكًا في عمله وإذا بياسين يدخل الدكّان مقبلًا على مكتبه، فما إن تصفّح وجهه حتّى أدرك أنّه جاء مستنجدًا: كانت في عينيه نظرة حائرة شاردة، ومع أنّه تبسّم له في أدب ومالَ على يده ليقبّلها إلّا أنّه شعر بأنّه يقوم بهٰذه الحركات التقليديّة بلا وعي، وأنّ وجدانه كلّه غائب في مكان لا يعلمه إلّا الله. أشار إليه بالجلوس فقرّب الكرسيّ من مجلس أبيه ثمّ جلس، وجعل ينظر إليه حينًا ثمّ يخفض بصره أو يبتسم ابتسامة باهتة، تساءل السيّد عمّا دعا إلى هٰذه الزيارة، وكأنّما أشفق من أن يترك ابنه الصامت إلى صمته، فقال كالمتسائل:

ـ خير؟... ماذا بك؟ لست كعادتك...

فنظر ياسين إليه طويلًا كأنّما يستثير عطفه، ثمّ قال وهو يخفض عينيه:

ـ سينقلونني إلى أقاصي الصعيد!

ـ الوزارة؟

ـ نعم...

ـ لمه؟

هزّ رأسه كالمعترض، وقال:

ـ سألت الناظر فحدّثني عن أمور لا علاقة لها بالعمل، ظلم...

سأله الرجل بارتياب:

ـ أيّ أمور؟ أوضح.

ـ وشايات وضيعة... (ثمّ بعد تردّد) عن زوجتي...

تضاعف اهتمام السيّد، فسأله فيما يشبه الإشفاق:

ـ ماذا قالوا؟

لاح الضيق في وجه ياسين حينًا، ثمّ قال:

ـ قال السفهاء إنّني متزوّج من... عوّادة!

ألقى السيّد نظرة جزعة على الدكّان، فرأى جميل الحمزاوي يعمل بين رجل قائم وامرأة جالسة لا يفصلهمْ عنه إلّا أذرع، فكظم غيظه وقال بصوت منخفض وإن لم يخلُ انخفاضه من تهدّج الغضب:

ـ لعلّهم سفهاء حقًّا، ولكن هٰذا ما حذّرتك من عواقبه، إنّك ترتكب كلّ كبيرة دون مبالاة ولكنّ العواقب لن تغفل عنك إلى الأبد، ماذا أقول؟ إنّك ضابط مدرسة ويجب أن تكون سمعتك بمنأى عن الشبهات، طالما قلت لك هٰذا مرارًا وتكرارًا، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله، كأنّي يجب أن أخلص من هموم الدنيا جميعًا لأتفرّغ لهمومك أنت وحدها!

فقال ياسين في ارتباك وحيرة:

ـ ولكنّها زوجتي الشرعيّة، ولا لوم على الإنسان في حدود الشرع، فما شأن الوزارة في ذٰلك؟

قال السيّد بغيظ مكتوم:

ـ يجب أن تحرص الوزارة على سمعة موظّفيها... هلّا تركت الكلام عن السمعة لغيرك!

ـ ولكن هٰذا تجنٍّ وظلم بالنسبة لرجل متزوّج!

وهو يلوّح بيده ساخطًا:

ـ أتريدني أن أرسم لوزارة المعارف سياستها؟

فقال بانكسار ورجاء:

ـ كلّا، ولكنّي أرجو أن توقف النقل بنفوذك...

وجعلت يسراه تعبث بشاربه وهو يحدج ياسين بنظرة لم تره لأنّها بدت مشغولة بالتفكير، وراح ياسين يستعطفه ويعتذر له عن إزعاجه ويؤكّد له أنّ كلّ اعتماده بعد الله عليه، ولم يغادر الدكّان حتّى وعده الرجل بالسعي في وقف نقله.

وعند مساء اليوم نفسه ذهب السيّد أحمد إلى قهوة الجنديّ بميدان الأوبرا لمقابلة ناظر المدرسة، فما إن رآه الرجل حتّى دعاه إلى الجلوس وهو يقول له:

ـ كنت منتظرًا مجيئك، فياسين جاوز كلّ حدّ، إنّي آسف لما يسبّبه لك من متاعب...

فقال السيّد وهو يجلس قبالته في الشرفة المطلّة على الميدان:

ـ على أيّ حال فياسين ابنك أيضًا...

ـ طبعًا، ولكن لا شأن لي بالمسألة كلّها، إنّها محصورة بينه وبين الوزارة...

فقال السيّد كالمحتجّ وإن بدا وجهه مبتسمًا:

ـ أليس عجيبًا أن يعاقبوا موظّفًا لأنّه تزوّج من عوّادة! أليس هٰذا شأنًا يعنيه وحده؟ ثمّ إنّ الزواج علاقة شرعيّة لا يصحّ أن يتعرّض لها أحد بسوء!...

قطّب الناظر متفكّرًا متسائلًا، كأنّه لم يفهم ما قال صاحبه، ثمّ قال:

ـ لم يجئ ذكر الزواج إلّا عرضًا وأخيرًا! أما علمت بالخبر كلّه؟ يخيّل إليّ أنّك لم تعلم بكلّ شيء!

انقبض صدر الرجل، فتساءل في إشفاق وقلق:

ـ أيوجد مطعن آخر؟

فمال الناظر نحوه قليلًا، وقال بأسف:

ـ المسألة يا سيّد أحمد أنّ ياسين تعارك في درب طياب مع ساقطة، فحُرّر له محضر بلغت صورته إلى الوزارة...

بهت الرجل فاتّسعت حدقتاه واصفرّ وجهه، حتّى لم يتمالك الناظر من أن يهزّ رأسه آسفًا وهو يقول:

ـ هٰذه هي الحقيقة، وقد بذلت قصارى جهدي لأخفّف العقوبة، حتّى وُفّقت إلى إلغاء فكرة إحالته إلى مجلس تأديب فاكتُفي بنقله إلى الصعيد...

تنهّد السيّد مغمغمًا:

ـ الكلب...!

فقال الناظر وهو يرمقه بعطف:

ـ إنّي آسف جدًّا يا سيّد أحمد، غير أنّ هٰذا السلوك لا يليق بموظّف، لا أنكر أنّه شابّ طيّب ومثابر على عمله، بل أصارحك بأنّي أحبّه، لا لأنّه ابنك فحسب ولكن لشخصه أيضًا، ولكن ما أعجب ما يقال عنه! ينبغي أن يصلح من شأنه ويقوّم سلوكه وإلّا خسر مستقبله!

صمت السيّد طويلًا والغضب مرتسم على وجهه، ثمّ قال وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ معركة مع ساقطة! فليذهب إذن في داهية!...

ولكنّه لم يتركه للداهية وإنّما بادر إلى مقابلة معارفه من النوّاب وعِلْيَة القوم مستشفعًا بهم في وقف النقل، وكان محمّد عفّت على رأس الساعين معه، فتوالت الشفاعات على كبار رجال المعارف حتّى أثمرت فأُلغي النقل، ولكنّ الوزارة أصرّت على ندبه للعمل بديوانها، ثمّ أعلن رئيس المحفوظات ـ صهر محمّد عفّت أو زوج زوجة ياسين الأولى ـ عن استعداده لقبوله في إدارته ـ بإيعاز من محمّد عفّت ـ فتمّت الموافقة على ذٰلك، ونُقل ياسين في أوّل شتاء سنة ١٩٢٦ إلى إدارة المحفوظات. ولم تمرّ المسألة في سلام تامّ فقد سُجّل عليه عدم صلاحيّته للعمل في المدارس، كما صُرف النظر عن بحث ترقيته إلى الدرجة السابعة رغم أقدميّته في الثامنة التي جاوزت عشرة أعوام، ومع أنّ محمّد عفّت قصد من إلحاقه بإدارة صهره ألّا تساء معاملته فإنّ ياسين لم يرتح إلى وضعه الجديد تحت رياسة زوج زينب، وقد عبّر عن مشاعره حين قال يومًا لكمال:

ـ لعلّها سُرّت بما وقع لي، ووجدت فيه تأييدًا لموقف أبيها حين رفض إرجاعها إليّ، إنّي خبير بعقول النساء ولا شكّ في أنّها شمتت بي وإنّه لمن سوء الحظّ ألّا أجد مكانًا كريمًا إلّا تحت رياسة هٰذا التيس! ما هو إلّا كهل لا خير فيه للنساء، وما أعجزه عن أن يسدّ الفراغ الذي تركه ياسين، فلتشمت الحمقاء فإنّي شامت...

ولم تقف زنّوبة على سرّ النقل، وقصارى ما علمت أنّ زوجها نُدب للعمل بمركز أفضل في الوزارة، كذٰلك تحاشى السيّد أن يطرق في حديثه مع ياسين موضوع الفضيحة الحقيقيّ، واكتفى بأن قال له حين وُفّق إلى إلغاء النقل:

ـ ما كلّ مرّة تسلم الجرّة! لقد أتعبتني وأخجلتني، ولن أتدخّل في أمورك بعد اليوم، فافعل ما بدا لك، وربّنا بيني وبينك!...

ولكنّه لم يستطع أن يسقط أمره من حسابه، فدعاه يومًا إلى الدكّان، وقال له:

ـ آنَ لك أن تفكّر في حياتك تفكيرًا جديدًا يعود بك إلى طريق الكرامة وينتشلك من الحياة المنبوذة التي تحياها، لا يزال في الوقت متّسع كي تبدأ عهدًا جديدًا، وإنّي أستطيع أن أهيّئ لك الحياة التي تليق بك فأصغ إليّ وأطعني...

ثمّ عرض عليه مقترحاته قائلًا:

ـ طلّق زوجك وعُدْ إلى بيتك، وإنّي، أتعهّد بأن أزوّجك زواجًا لائقًا فتبدأ حياة كريمة!

فتورّد وجه ياسين، وقال بصوت خافت:

ـ إنّي أقدّر رغبتك الصادقة في إصلاح شأني، وسوف أعمل من ناحيتي على تحقيق هٰذه الرغبة دون إيذاء أحد...

فهتف الرجل ساخطًا:

ـ وعد جديد كوعود الإنجليز! الظاهر أنّ نفسك تراودك على زيارة السجن، أجل سيجيئني صراخك المرّة القادمة من وراء القضبان، لا زلت أكرّر عليك أن تطلّق هٰذه المرأة وتعود إلى بيتك...

فقال ياسين وهو يتنهّد، متعمّدًا أن يسمع أباه تنهّده:

ـ إنّها حبلى يا أبي، ولا أريد أن أضيف ذنبًا جديدًا إلى ذنوبي!...

اللّهمّ احفظنا! في بطن زنّوبة حفيد لك يتكوّن! أكان في وسعك أن تتصوّر ما يدّخر لك هٰذا الشابّ من متاعب ساعة تلقّيته وليدًا في يوم غُدٍ من أسعد أيّام حياتك؟!

ـ حبلى؟!

ـ نعم...

ـ وتخاف أن تضيف ذنبًا جديدًا إلى ذنوبك؟!
ثمّ منفجرًا قبل أن يفتح الآخر فاه:
ـ لِمَ لم يؤنّبك ضميرك وأنت تعتدي على الطيّبات من بنات الطيّبين! أنت لعنة وحقّ كتاب الله!...
وعند انصرافه من المدكّان أتبعه عينين مليئتين بالرثاء والازدراء. لم يكن بوسعه إلّا أن يعجب بمظهره الذي ورثه عنه، أمّا مخبره الذي ورثه عن أمّه...! وذكر بغتة كيف أوشك هو يومًا أن يتردّى في الهاوية على يد زنّوبة نفسها! ولٰكنّه ذكر في الوقت نفسه كيف شكم نفسه في اللحظة المناسبة. شكم نفسه؟! وشعر بامتعاض وقلق، فلعن ياسين، ثمّ لعن... ياسين!

ـ ٤٠ ـ

جاء يوم ٢٠ ديسمبر فشعر بأنّه يوم لا كبقيّة الأيّام، على الأقلّ بالقياس إليه هو، ففي ساعة منه وجد نفسه في هٰذه الدنيا، وسجّل ذٰلك في شهادة حتّى لا يمكث أكثر أو أقلّ ممّا تمّ الاتّفاق عليه!... وكان يرتدي معطفه ويقطع حجرته ذهابًا وجيئة، ثمّ يلقي نظرة على مكتبه فيرى كشكول الذكريات مفتوحًا على صفحة بيضاء رُقّم أعلاها بتاريخ الميلاد، فيفكّر فيما يريد أن يكتبه لمناسبة الذكرى، ويواصل حركته مستمدًّا منها شيئًا من الدفء يستعين به على مقاومة البرودة القارسة. وكانت السماء كما تبدو من زجاج النافذة ـ متوارية وراء سحاب متجهّم والمطر ينزل قليلًا ويسكت قليلًا محرّكًا في نفسه بواعث التأمّل والحلم. لا بدّ من الاحتفال بالميلاد ولو اقتصر الحفل على صاحب الميلاد وحده، ذٰلك أنّ البيت القديم لم يعرف تقاليد الاحتفال بأعياد الميلاد. وأمّه نفسها لم تدر أنّ اليوم من الأيّام التي لا ينبغي أن تنساها، فلم يبق من تواريخ الميلاد نفسها إلّا ذكريات غامضة عن الفصول التي وقعت فيها والآلام التي صاحبتها فهي لا تعرف عن ميلاده إلّا أنّه «كان في الشتاء وكانت الولادة عسيرة فجعلت أتوجّع وأصرخ يومين متتابعين» قديمًا كان يذكر أنباء ميلاده فيملأ الرثاء لأمّه قلبه، ثمّ تضاعف شعوره بالرثاء عندما شاهد ميلاد نعيمة فخفق قلبه ألـمًا لعائشة، أمّا اليوم فإنّه يفكّر في ميلاده بعقل جديد، عقل قد علّ من منهل الفلسفة المادّيّة حتّى ألمّ في شهرين بما تمخّض عنه تفكير الإنسانيّة في قرن من الزمان. تساءل عن عسر ولادته وهل يرجع بعضه أو كلّه إلى الإهمال أو الجهل، وكان يتساءل وكأنّما يستجوب متّهمًا قائمًا بين يديه. فكّر في عسر الولادة وما عسى أن ينجم عنه من آثار تلحق بالمخّ أو الجهاز العصبيّ فتلعب دورًا خطيرًا في حياة الوليد ومصيره وما قد يساق إليه من خير أو شرّ. ألا يمكن أن يكون تهالكه في الحبّ نتيجة لصدمات أصابت يافوخه أو جدار رأسه الكبير في غيابات الرحم منذ تسعة عشر عامًا؟ أو أن تكون تلك المثاليّة التي أضلّته طويلًا في مجاهل الخيال وأسالت منه الدمع مدرارًا فوق مذبح العذاب ما هي إلّا عاقبة محزنة لعبث داية جاهلة؟! وفكّر فيما قبل الولادة، بل فيما قبل الحبل، في المجهول الذي تنبثق منه الحياة، في تلك المعادلة الكيميائيّة الآليّة التي تستوي كائنًا حيًّا فيثور أوّل ما يثور على أصله مزدريًا، ويتطلّع إلى النجوم مدّعيًا له نسبًا في مداراتها. بيد أنّه قد عرف له بداية قريبة دعاها بالنطفة، فهو على ذٰلك لم يكن قبل تسعة عشر عامًا وتسعة أشهر إلّا نطفة، نطفة قذفت بها رغبة بريئة في اللذّة أو حاجة ملحّة إلى العزاء أو صولة هياج بعثتها سكرة غاب فيها الرشاد أو حتّى مجرّد إحساس بالواجب نحو الزوجة القابعة في البيت، فابن أيّ حال من تلك الأحوال كان! لعلّه جاء إلى هٰذه الدنيا نتيجة الواجب، فإنّ الشعور بالواجب لا يزايله، وحتّى اللذّات لم يُقبِل على ممارستها إلّا بعد أن تمثّلت له فلسفة تُتبع ورأيًا يُعتنق، إلى أنّه لم يخلُ من الصراع والألم ولم يأخذ الحياة أخذًا سهلًا، ومن النطفة مرق حيوان فالتقى ببويضة في البوق وثقبها، ثمّ انزلقا إلى الرحم معًا، فتحوّلا إلى علقة، فكسيت العلقة لحمًا وعظمًا، ثمّ خرجت إلى النور والألم بين يديها يسير، ثمّ بكت قبل أن تستبين معالمها، ومضت الغرائز المودعة بها تنمو وتتبلور مستجدّة على مرّ الأيّام عقائد وآراء حتّى أتخمت، وعشقت عشقًا زعمت لنفسها به نوعًا

من الألوهيّة، ثمّ زُلزلت فتهاوت عقائدها وانقلبت أفكارها وخاب قلبها فرُدّت إلى مكانة أذلّ من التي جاءت منها أوّل مرّة! إذن فقد مضى من العمر تسعة عشر عامًا يا له من عهد طويل! ويا للشباب الذي ينطوي بسرعة البرق، هل من عزاء إلّا أن تتملّى الحياة ساعة فساعة بل دقيقة فدقيقة قبل أن ينعق غراب الغروب؟ مضى عهد البراءة، ولحق به العهد الذي كانت تؤرّخ فيه الحياة بالحبّ ـ ق. ح، ب. ح ـ اليوم الأشواق كثيرة إلّا أنّ المحبوب مجهول الكنه، فلم يجد على محبّه إلّا ببعض أسمائه الحسنى، فهو الحقيقة ومسرّة الحياة ونور العلم، والسفر فيها يبدو طويل، وكأنّ المحبّ قد استقلّ قطار أوجست كونت فمرّ بمحطّة اللاهوتيّة التي كان شعارها «نعم يا أمّاه»، وها هو يطوي الأرض في إقليم الميتافيزيقية التي شعارها «كلّا يا أمّاه» وعن بعد تتراءى خلال المنظار المكبّر «الواقعيّة» وعلى قمّتها سجّل شعارها «فتّح عينيك وكن شجاعًا».

وتوقّف عن السير أمام المكتب فثبتت عيناه على كشكول الذكريات، وتساءل: أيجلس ليسوّد صفحة الميلاد كيفما يوحي القلم، أم يؤجّل ذٰلك حتّى تتبلور الأفكار في رأسه؟ وعند ذاك طرق أذنيه وقع المطر على الجدران كالدندنة، فاتّجه بصره إلى زجاج النافذة المطلّة على بين القصرين فرأى لآلئ عالقة برقعته المموّهة برطوبة الجوّ، وما لبثت لؤلؤة أن انسابت إلى حافة الإطار السفلى راسمة على الرقعة المموّهة خطًّا ناصعًا منعطفًا كالشهاب فمضى إلى النافذة ورفع عينيه يتابع الأمطار المنهلّة من السحب المترعة وقد وصلت السماء بالأرض بأسلاك لؤلؤيّة، على حين لاحت المآذن والقباب غير عابئة بالمطر وقد بدا الأفق وراءها إطارًا من فضّة، واكتنف المنظر كلّه لون أبيض مشرب بسمرة ساجية يقطر جلالًا وأحلامًا... وترامت من الطريق صيحات أطفال، فألقى نظرة إلى تحت ليرى الأرض تسيل بالمياه والأركان تعجّ بالوحل وقد تعثّرت العربات وتطاير الرشاش من عجلاتها وخلت معارض الدكاكين من السلع ولاذ المارّة بالحوانيت والمقاهي وما تحت الشرفات.

هٰذا منظر السماء يخاطب الوجدان بلسان الوجد فما أجدره أن يستلهمه طويلًا ليتأمّل موقفه من الحياة في مطلع عامه الجديد. لم يعد يجد رفيقًا يحاوره بمكنون روحه مذ غادر حسين شدّاد أرض الوطن، فلم تبق له إلّا نفسه ليحاورها إذا استشعر حاجة إلى الحوار، فاتّخذ من روحه صديقًا بعد أن فارقه صديق الروح، وسأل روحه: هل تؤمن بوجود الله؟ فسألته بدورها لماذا لا تحاول أن تثب من نجم إلى نجم ومن كوكب إلى كوكب كما تثب من درجة إلى درجة فوق السلّم؟ وعن الصفوة المختارة من أبناء السماء فقد رفعوا الأرض إلى مركز الكون وجعلوا الملائكة تسجد للطين حتّى جاء أخوهم كوبر نيكوس فأنزل الأرض بحيث أنزلها الكون جارية صغيرة للشمس، ثمّ تلاه أخوه داروين فهتك سرّ الأمير الزائف وأعلن على الملإ أنّ أباه الحقيقيّ هو حبيس قفصه الذي يدعو الأصدقاء للتفرّج عليه في الأعياد والمواسم، وفي الأصل كان السديم فتناثرت منه النجوم كالرشاش المتطاير من عجلة الدرّاجة، وتجاذبت النجوم في لهوها الأزليّ فانجبت الكواكب، وانطلقت الأرض كرة سائلة والقمر في أثرها يعابثها وهي تقطّب له بجانب من وجهها وتبسم له بجانب آخر حتّى فتر حماسها فاستقرّت سماتها جبالًا ونجودًا وقيعانًا وصخورًا ثمّ حياة تدبّ، وجاء ابن الأرض يزحف على أربع ويسائل من يصادفه عن المثل الأعلى. لا أخفي عنك أنّي ضقت بالأساطير ذرعًا، غير أنّي في خضمّ الموج العاتي عثرت على صخرة مثلّثة الأضلاع سأدعوها من الآن فصاعدًا صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى. ولا تقل إنّ الفلسفة كالدين أسطوريّة المزاج، فالحقّ أنّها تقوم على دعائم ثابتة من العلوم وتتّجه بها إلى غايتها، أمّا الفنّ فمتعة سامية وامتداد للحياة غير أنّ مطمعي أبعد من الفنّ منالًا، لأنّه لا يرتوي إلّا بالحقيقة، والفنّ بالقياس إلى الحقيقة يبدو فنًّا أنثويًا، وفي سبيل هٰذه الغاية تراني مستعدًّا للتضحية بكلّ شيء إلّا ما يمسك عليّ الحياة، أمّا عن مؤهّلاتي للدور الخطير فرأس كبير وأنف ضخم وحبّ خائب وأمل في

المرض. واحذر أن تسخر من أحلام الشباب فما السخرية منها إلّا عارض من أعراض مرض الشيخوخة يدعوه المرضى بالحكمة، وليس من تناقض في أن تعجب بسعد زغلول كما تعجب بكوبر نيكوس واستولد وماخ، فالجهاد في سبيل ربط مصر المتأخّرة بركب الإنسانيّة عمل نبيل وإنسانيّ كذٰلك. والوطنيّة فضيلة ما لم تتلوّث بالكراهية العدوانيّة، غير أنّ كره إنجلترا نوع من الدفاع عن النفس، وليست الوطنيّة على ذاك إلّا إنسانيّة محلّيّة، وتسألني هل أومن بالحبّ؟ فأجيب: بأنّ الحبّ لم يبرح فؤادي بعد، فلا يسعني إلّا أن أقرّ بحقيقة الإنسانيّة، ومع أنّ جذوره كانت مشتبكة بجذور الدين والأساطير فإنّ تقوُّض المعابد المقدّسة لم يزعزع أركانه أو يقلّل من خطورة شأنه اقتحام محرابه بالدراسة والتحليل، وفرز عناصره البيولوجيّة والسيكولوجيّة والاجتماعيّة، فكلّ أولٰئك لم يوهن من خفقة القلب إذا هفت ذكرى أو تخايلت صورة، ألا زلت تؤمن بخلود الحبّ؟ ليس الخلود أسطورة. فلعلّ الحبّ يُنسى ككلّ شيء في هٰذه الدنيا، وقد انقضى على زواج.... عايدة ـ لِمَ تتردّد قبل التفوّه باسمها؟ ـ عام فقطعت شوطًا في طريق النسيان، مررت بطرر الجنون فطور الذهول فطور الألم الحادّ ثمّ طور الألم المتقطّع، الآن قد يمضي يوم بأكمله فلا تخطر لي على بال إلّا حين الاستيقاظ وحين النوم ومرّة أو مرّتين في أثناء النهار، ويتفاوت تأثّري بالتذكّر ما بين حنين ينبعث معتدلًا أو حزن يمرّ مرور السحاب أو حسرة تلسع ولا تحرق إلّا أن تثور النفس بغتة كالبركان فتدور بي الأرض، وعلى أيّ حال غدوت أومن بأنّني سأواصل الحياة بلا عايدة. علام تُعوِّل في طلب النسيان؟... على دراسة الحبّ وتعليله كما سلف، والتهوين من الآلام الفرديّة بالتأمّلات الكونيّة التي يبدو عالم الإنسان في مداراتها هباءة تافهة، والترويح عن النفس بالشراب والجنس، والتماس العزاء عند فلاسفة العزاء كإسبينوزا الذي يرى الزمن شيئًا غير حقيقيّ وبالتالي فالانفعالات المرتبطة بحادث في الماضي أو المستقبل مضادّة للعقل، ونحن خليقون بالتغلّب عليها إذا كوّنّا عنها فكرة واضحة متميّزة. أسرّك أن وجدت الحبّ يُنسى؟... سرّني لأنّه يعدني بالنجاة من الأسر، وأحزنني بما كان تجربة خبرت بها الموت قبل حضوره، ومهما يكن من أمر فسأمقت ما حييت الأَسْر وأعشق الحرّيّة المطلقة.

سعيد من لا يفكّر في الانتحار أو يتمنّى الموت، سعيد من تتوهّج في قلبه شعلة الحماس، وخالد من يعمل أو يتهيّأ صادقًا للعمل، حيّ من يتأثّر الخيّام بكتاب وكأس ومعشوق، والقلب اللهج بالأمال ينسى أو يتناسى الزواج كالكأس المترعة بالويسكي لا تتّسع للصودا، وحسبك أنّ غرامك بالشراب يسير سيرًا حسنًا وأنّ إقبالك على المرأة لا تعترضه عقبات من تقزّز أو نفور، أمّا حنينك من حين لآخر إلى الطهر والتقشّف فلعلّه بقيّة من تديّنك القديم.

ولم ينقطع المطر عن الانهلال لحظة، وقعقع الرعد، ولمع البرق، وأقفر الطريق، وسكت الصياح، وخطر له أن يلقي نظرة على فناء الدار فغادر الحجرة إلى الصالة ثمّ إلى النافذة، ونظر من خلال خصاصها فرأى المياه تجرف سطح الأرض الليّن فتخدّده ثمّ تتدفّق صوب البئر القديمة، وفاض عنها جانب فتجمّع في نقرة بين حجرة الفرن والمخزن، هٰذه النقرة التي ينجم فيها غبّ الجفاف ـ ممّا يتساقط عفوًا من حنطة أو شعير أو حلبة من يدي أمّ حنفي ـ نبت يكسوها حلّة سندسيّة فيترعرع أيّامًا حتّى تدوسه الأقدام، وقد كانت على عهد دولة الطفولة حقل تجاربه ومراح أحلامه، ومن ينبوع ذكرياتها يمتلئ قلبه الآن شوقًا وحنينًا، ومسرّة يغشاها حزن وانٍ كسحابة شفّافة تغشى وجه القمر. وتحوّل عن النافذة ليعود إلى حجرته فانتبه إلى وجود من كان بالصالة، إلى الذكرى الباقية من مجلس القهوة القديم، إلى أمّه متربّعة على الكنبة باسطة ذراعيها فوق المجمرة ولا جليس لها إلّا أمّ حنفي وقد تربّعت على فروة قبالتها. فذكر المجلس القديم في أيّامه الزاهرة وما أودعه من جميل الذكريات، وكانت المجمرة هي الأثر الوحيد فيه الذي لم يكد يطرأ عليه تغيّر ينكره الرائي.

- ٤١ -

كان أحمد عبد الجواد يسير الهوينى على شاطئ النيل في طريقه إلى عوّامة محمّد عفّت، وكان الليل ساجيًا والسماء صافية متألّقة النجوم، والهواء مائلًا للبرودة، فلمّا انتهى إلى هدفه وهمّ بالميل إليه لم ينس - بحكم العادة وحدها - أن يرمي ببصره بعيدًا إلى حيث تقوم العوّامة التي دعاها يومًا «عوّامة زنّوبة». كان قد انتهى على الذكريات الأليمة عام فلم يعد يبقى في قلبه إلّا الامتعاض والخجل، وكان من آثارها المتخلّفة أن هجر مجالس النساء كما فعل عقب مصرع فهمي، فثابر على ذلك عامًا حتّى ضجر، فرجع عن عزمه وعاد ساعيًا على قدميه إلى المجلس المحرّم، وما هي إلّا دقيقة حتّى أقبل على المجلس فطالع المجموعة المحبوبة المؤلّفة من أصدقائه الثلاثة والمرأتين، أمّا الأصدقاء فكان آخر لقاء بينه وبينهم ليلة أمس، وأمّا المرأتان فلم تقع عليهما عيناه منذ نحو عام ونصف أو - على وجه التحديد - منذ تلك الليلة التي أقحم فيها زنّوبة في حياته. ولم يكن شيء قد بدأ بعد، فالقوارير لم تفضّ والنظام لم يمسّ، وكانت جليلة محتلّة كنبة الصدارة، تعبث بأساورها الذهبيّة وكأنّما تنصت إلى وسوستها، على حين قامت زبيدة تحت المصباح المتدلّي من السقف، تنظر في مرآة صغيرة بيدها، متفحّصة زينتها، جاعلة ظهرها إلى المائدة الحافلة بقوارير الويسكي وصحافة المزّة. وتفرّق الأصدقاء حاسري الرءوس وقد خلعوا جبابهم فصافحهم أحمد عبد الجواد ثمّ صافح المرأتين بحرارة، فرحّبت به جليلة قائلة «أهلًا بأخي الحبيب» أمّا زبيدة فقالت له باسمة في عتاب «أهلًا بالذي لولا الأدب ما استحقّ منّا السلام». ونزع الرجل جبّته وطربوشه، ثمّ ألقى نظرة على الأماكن الخالية - وكانت زبيدة قد جلست إلى جانب جليلة - وتردّد قليلًا قبل أن يمضي إلى كنبة المرأتين ويتّخذ مجلسه عليها، ولم يغب تردّده عن عين عليّ عبد الرحيم، فقال:

- هٰكذا تبدو كأنّك تلميذ مبتدئ!

فقالت جليلة كأنّما تشجّعه:

- لا شأن لك به فلا حجاب بيننا وبينه. . .

وسرعان ما ضحكت زبيدة قائلة بتهكّم:

- أنا أحقّ الناس بأن أقول ذٰلك، أليس هو بنسيبي؟!

ففطن السيّد إلى ما تُعرّض به، وتساءل في قلق عن مدى ما اتّصل بعلمها في هٰذا الشأن كلّه، ولٰكنّه قال برقّة:

- لي الشرف يا سلطانة!

فتساءلت زبيدة وهي ترمقه بنظرة ارتياب:

- أأنت مسرور حقًّا بما كان؟

فقال بلباقة:

- ما دمت خالتها!. . .

فقالت وهي تلوّح بيدها في استياء:

- أمّا أنا فلن يرضى عنها قلبي أبدًا!. . .

وقبل أن يسألها السيّد عن السبب، هتف عليّ عبد الرحيم وهو يفرك يديه:

- أجّلوا الحديث حتّى نعمّر رءوسنا. . .

ونهض إلى المائدة ففضّ زجاجة وملأ الكئوس ثمّ قدّمها إليهم واحدًا واحدًا بعناية نمّت عن ارتياحه المعهود إلى القيام بمهمّة الساقي، ثمّ انتظر حتّى تهيّأ كلّ للشرب، وقال «صحّة الأحباب والإخوان والطرب دامت جميعًا لنا»، فرفعوا الكئوس إلى شفاههم باسمين، ونظر أحمد عبد الجواد من فوق حافة كأسه إلى وجوه أصحابه. . . هٰؤلاء الأصحاب الذين شاطروه حمل المودّة والوفاء قرابة الأربعين عامًا، فكان كأنّه يرى فلذات من صميم نفسه، ما ملك أن جاش صدره بعواطف الأخوّة الصادقة. ومالت عيناه إلى زبيدة، فعاد إلى حديثها متسائلًا:

- ولماذا لا يرضى عنها قلبك؟

فاتّجهت إليه بنظرة أشعرته بترحيبها بالحديث معه، وأجابته:

- لأنّها خائنة لا ترعى العهود، خانتني منذ أكثر من عام فغادرت بيتي دون استئذان وذهبت إلى حيث لم أعلم. . .

ترى ألم تعلم حقًّا أين ذهبت في ذلك الوقت؟ ولم يشأ أن يعلّق على قولها بحرف، فعادت تسأله:

- ألم يبلغك ذلك؟

فقال بهدوء:

- بلغني في حينه!

- أنا التي كفلتها من الصغر ورعيتها بقلب الأمّ، فانظر كيف كان الجزاء! سفخص على الدم النجس!

فقال عليّ عبد الرحيم مازحًا، وهو يتظاهر بالاحتجاج:

- لا تسبّي دمها فإنّ دمها هو دمك!...

ولكنّ زبيدة قالت جادّة:

- دمي بريء منها!

وهنا سألها السيّد أحمد:

- من كان أباها يا ترى؟

- أباها؟!

ندّت هذه الكلمة عن إبراهيم الفار بصوت أنذر بسيل من السخريات، ولكنّ محمّد عفّت بادره قائلًا:

- تذكّر أنّ الحديث عن حرم ياسين!

فزايلت وجه الفار هيئة المزاح ولاذ بالصمت في شيء من الارتباك، على حين عادت زبيدة تقول:

- أمّا أنا فلا أهزل فيما أقول عنها، وطالما رمقتني بعين الحسد وطمعت في منافستي وهي في رعايتي، فكنت أداريها وأغضّ عن مساوئها (ثمّ وهي تضحك) كانت تحلم بأن تكون عالمة!

وردّدت عينيها في الحاضرين، ثمّ قالت بلهجة ساخرة:

- لكنّها أفلست فتزوّجت!...

تساءل عليّ عبد الرحيم في إنكار:

- هل الزواج في عرفك إفلاس؟!

فضيّقت له عينًا، ورفعت حاجب الأخرى، وهي تقول:

- نعم يا عمرا... العالمة لا تهجر التخت حتّى تفلس...

وهنا غنّت جليلة هذا المقطع «أنت المدام يا روحي أنت آنستنا»، فابتسم السيّد ابتسامة عريضة وحيّاها بآهة لطيفة وشت بانبساطه، غير أنّ عليّ عبد الرحيم نهض مرّة أخرى وهو يقول:

- لحظة سكوت حتّى نستوعب هذه الكاس...

وملأ الكئوس ووزّعها بينهم، ثمّ عاد بكأسه إلى مجلسه. وقبض أحمد عبد الجواد على كأسه ولحظ زبيدة، فالتفتت نحوه باسمة ورفعت يدها بكأسها كأنّما تقول له «صحّتك»، ففعل مثلها وتشاربا، وجعلت في أثناء ذلك ترنو إليه بنظرة باسمة. مضى عام دون أن تثب به رغبة إلى طلاب امرأة، كأنّ التجربة القاسية التي امتُحن بها قد أخمدت حماسه، أو لعلّه الكبرياء أو لعلّه المرض، غير أنّ نشوة الخمر ونظرة التودّد حرّكتا فؤاده فاستشعر عذوبة الإقبال بعد مرارة الصدّ، واعتدّها تحيّة طيّبة من الجنس الذي هام به حياته، لعلّها تضمّد جرح كرامته التي قست عليها الخيانة وتقدُّم العمر، وكأنّ ابتسامة زبيدة الناطقة كانت تقول له: «لم يولّ عهدك بعدا» فلم يحوّل عن نظرتها عينيه ولم يلغ ابتسامته.

وجاء محمّد عفّت بعود ووضعه بين المرأتين، فتناولته جليلة وراحت تلعب بأوتاره، ولمّا آنست من السامعين انتباهًا غنّت «وعدي عليك ياللي بحبّك»، وتظاهر أحمد عبد الجواد بالانسجام كعادته كلّما سمع جليلة أو زبيدة، وذهب مع النغمة برأسه وجاء، كأنّما يريد أن يخلق الطرب بتمثيل حركاته. والحقّ أنّه لم يعد يبقى له من عالم الغناء إلّا ذكريات، فقد ذهب الحامولي وعثمان والمنيلاوي وعبد الحيّ، كما ذهب شبابه وكما ولّت أيّام النصر، ولكن ينبغي أن يوطّن النفس على الرضى بالموجود وأن يبتعث عاطفة الطرب ولو بتمثيل حركاته، وقد دعاه حبّه للغناء وغرامه بالطرب إلى ارتياد مسرح منيرة المهديّة غير أنّه لم يهوَ الغناء التمثيليّ، فضلًا عن أنّه ضاق بجلسة المسرح الذي شبّهه بالمدرسة، كما استمع في بيت محمّد عفّت إلى أسطوانات المطربة الجديدة أمّ كلثوم ولكنّه أعارها أذنًا حذرة مضمرة سوء الظنّ، فلم يتذوّقها رغم ما قيل من أنّ سعد زغلول أثنى على جمال صوتها. بيد أنّ مظهره لم يَشِ بحقيقة موقفه من الغناء، فما زال يتطلّع

إلى جليلة راضيًا سعيدًا ويردّد مع الجميع لازمة «وعدي عليك» بصوته الرخيم، حتّى هتف الفار بحسرة:

ـ أين أين الدفّ؟! أين الدفّ لنسمع ابن عبد الجواد؟

سَلْ أين أحمد عبد الجواد الذي كان ينقر على الدفّ؟! آه، لم يغيّرنا الزمان؟ وختمت جليلة غناءها في هالة من الاستحسان، ولكنّها قالت في لهجة اعتذار وهي تبتسم شاكرة:

ـ إنّي متعبة...

ولكنّ زبيدة كيّلت لها الثناء كما يدور بينهما كثيرًا على سبيل المجاملة أو حرصًا على السلام العامّ، ولم يكن يخفى على أحد أنّ نجم جليلة كعالمة آخذ في الأفول السريع الذي كان آخر آياته هجر الدفّافة فينو لتختها والتحاقها بتخت آخر، وهو أفول طبيعيّ إذ كان الذبول قد أدرك كافّة المزايا التي قام عليها مجدها القديم من الفتنة وجمال الصوت، ولذلك لم تعد زبيدة تجد نحوها غيرة تذكر فوسعها أن تجاملها دون مضض، خاصّة وأنّها كانت بلغت ذروة حياتها، تلك الذروة التي لا خطوة بعدها إلّا نحو الانحدار. وكان الأصدقاء كثيرًا ما يتساءلون عمّا إذا كانت جليلة قد أعدّت العدّة لهذه المرحلة الخطيرة من الحياة، وكان رأي أحمد عبد الجواد أنّها لم تفعل، واتّهم بعض مَن عشقتهم بتبديد الكثرة من ثروتها، ولكنّه جاهر في الوقت ذاته بأنّها امرأة تعرف كيف تحصل على المال بأيّ سبيل، وأيّده على ذلك عليّ عبد الرحيم قائلًا: إنّها تتاجر بجمال نساء تختها وإنّ بيتها يتحوّل رويدًا رويدًا إلى شيء آخر. أمّا زبيدة فقد انعقد إجماعهم على أنّها ـ رغم مهاتراتها في ابتزاز الأموال ـ جوّادة مفتونة بالمظاهر التي تحرق المال حرقًا، إلى ولعها بالشراب والمخدّرات وخاصّة الكوكايين. قال محمّد عفّت مخاطبًا زبيدة:

ـ اسمحي لي بأن أبدي إعجابي بنظراتك الحلوة التي تخصّين بها بعضنا؟

فضحكت جليلة، وقالت بصوت خافت:

ـ الصبّ تفضحه عيونه...

وتساءل إبراهيم الفار منكرًا:

ـ أم تحسبين نفسك في زاوية العميان؟

فقال أحمد عبد الجواد متظاهرًا بالأسف:

ـ بهذه الصراحة لن تكونوا قوّادين كما تحبّون!

أمّا زبيدة فقد أجابت محمّد عفّت:

ـ أنا لا أنظر إليه لغرض لا سمح الله ولكنّي أحسده على شبابه؟ انظروا إلى رأسه الأسود بين رءوسكم البيض وأجيبوني هل تعطونه يومًا واحدًا فوق الأربعين؟

ـ أنا أعطيه قرنًا...

فقال أحمد عبد الجواد:

ـ من بعض ما عندكم!

وعند ذاك ترنّمت جليلة بمطلع الأغنية «عين الحسود فيها عود يا حليلة»، فقالت زبيدة:

ـ لا خوف عليه من الحسد، فإنّ عيني لا تؤذيه؟!

فقال محمّد عفّت وهو يهزّ رأسه هزّة ذات معنى:

ـ أصل الأذى كلّه من عيونك!

وهنا قال أحمد عبد الجواد موجّهًا الخطاب إلى زبيدة:

ـ أتتحدّثين عن شبابي؟ أما سمعت بما قال الطبيب؟

فقالت كالمستنكرة:

ـ أخبرني محمّد عفّت، ولكن ما هذا الضغط الذي يتّهمك به؟

ـ لَفّ حول ذراعي قربة غريبة، وراح ينفخ بمنفاخ جلديّ، ثمّ قال لي «عندك ضغط»!...

ـ ومن أين جاء الضغط؟

فأجاب السيّد ضاحكًا:

ـ لا أظنّه جاء إلّا من ذات النفخ!

قال إبراهيم الفار وهو يضرب كفًّا بكفّ:

ـ لعلّه مرض معدٍ، فإنّه لم يكد يمضي شهر على إصابة المحروس به حتّى ذهبنا جميعًا تباعًا إلى الطبيب وكانت نتيجة الكشف في جميع الحالات واحدة: الضغط!...

فقال عليّ عبد الرحيم:

ـ أنا أقول لكم سرّه، إنّه عرض من أعراض الثورة، وآي ذلك أنّه لم يسمع به أحد قبل اشتعالها!

وسألت جليلة السيّد أحمد:

ـ وما أعراض الضغط؟

ـ صداع ابن كلب، وتعب في التنفّس عند المشي...

فتمتمت زبيدة وهي تبتسم ابتسامة دارت بها شيئًا من القلق:

ـ ومن يخلو ولو مرّة من هٰذه الأعراض؟ ما رأيكم أنا عندي ضغط أيضًا!...

فسألها أحمد عبد الجواد:

ـ من فوق أم من تحت؟

وضحكوا بلا استثناء زبيدة نفسها، حتّى قالت جليلة:

ـ ما دمت قد خبرت الضغط، فاكشف عليها لعلّك تعرف علّتها!

فقال أحمد عبد الجواد:

ـ عليها أن تحضر القربة وعليّ أن أحضر المنفاخ!

فضحكوا مرّة أخرى، ثمّ قال محمّد عفّت كالمحتجّ:

ـ ضغط... ضغط... ضغط... لا نسمع الآن إلّا الطبيب وهو يقول كأنّما يأمر عبيده: لا تشرب الخمر، لا تأكل اللحوم الحمراء، احذر البيض...

فتساءل أحمد عبد الجواد ساخرًا:

ـ وماذا يصنع إنسان مثلي لا يأكل إلّا اللحوم الحمراء والبيض ولا يشرب إلّا الخمر؟!

فقالت زبيدة من فورها:

ـ كُلْ واشرب بالهنا والشفا، الإنسان طبيب نفسه، وربّنا هو الطبيب...

ومع ذٰلك فقد اتّبع تعاليم الطبيب في الفترة التي اضطرّ فيها إلى الرقاد، فلمّا نهض تناسى نصح الطبيب جملة وتفصيلًا. عادت جليلة تقول:

ـ أنا لا أومن بالأطبّاء، ولٰكنّي أقيم لهم العذر فيما يقولون ويفعلون، فإنّهم يتعيّشون من الأمراض كما نتعيّش نحن العوالم من الأفراح، ولا غناء لهم عن القربة والمنفاخ والأوامر والنواهي كما لا غناء لنا عن الدفّ والعود والأغاني...

فقال السيّد بارتياح وحماس:

ـ صدقت، فالمرض والصحّة والحياة والموت بأمر الله وحده، ومن توكّل على الله فلا يحزن...

إبراهيم الفار ضاحكًا:

ـ اشهدوا يا ناس على هٰذا الرجل، إنّه يشرب بفيه ويفسق بعينه ويعظ بلسانه!

أحمد عبد الجواد مقهقهًا:

ـ لا عليَّ من ذٰلك ما دمت أعظ في ماخور!...

محمّد عفّت وهو يتفحّص أحمد عبد الجواد، ويهزّ رأسه متعجّبًا:

ـ وددت لو كان كمال بيننا لينتفع معنا بوعظك!...

فتساءل عليّ عبد الرحيم:

ـ على فكرة، ألا يزال على رأيه من أنّ أصل الإنسان هو القرد؟!

فضربت جليلة صدرها بيدها هاتفة:

ـ يا ندامتي!...

زبيدة في دهش:

ـ قرد؟!... (ثمّ كالمستدركة) لعلّه يقصد أصله هو!

قال لها السيّد محذّرًا:

ـ وأثبت أيضًا أنّ المرأة أصلها لبؤة!

فقالت وهي تهأهئ:

ـ ليتني أرى سليل القرد واللبؤة!

فقال إبراهيم الفار:

ـ سيكبر يومًا فيخرج عن محيط أسرته، ويقتنع بأنّ البشر من آدم وحوّاء...

فبادره أحمد عبد الجواد:

ـ أو أحضره معي يومًا إلى هنا ليقتنع بأنّ الإنسان أصله كلب!

وقام عليّ عبد الرحيم إلى المائدة ليملأ الكئوس، وهو يسأل زبيدة:

ـ أنت أعرف منّا بالسيّد فإلى أيّ حيوان ترجعينه؟

فتفكّرت قليلًا وهي تتابع يدّي عليّ عبد الرحيم وهما تصبّان الويسكي في الكئوس، ثمّ قالت باسمة:

ـ الحمار!

فتساءلت جليلة:

ـ ذمّ هٰذا أم مدح؟

فقال أحمد عبد الجواد:

ـ المعنى في بطن القائل!

وعاودوا الشراب على أصفى حال، وتناولت زبيدة العود وغنّت «ارخي الستارة اللي في ريحنا».

وفي نشوة غامرة راح جسد أحمد عبد الجواد يرقص مع النغمة، رافعًا الكأس التي لم يبق فيها إلّا الثمالة أمام عينيه، ناظرًا خلالها إلى المرأة كأنّما يروم أن يراها بمنظار خمريّ. وبرح الخفاء إن كان ثمّة خفاء ووضح أنّ كلّ شيء ـ بين أحمد وزبيدة ـ قد عاد إلى قديمه، وردّدوا الغناء وراء زبيدة، فعلا صوت أحمد في طرب وسرور حتّى ختمت الأغنية بالتهليل والتصفيق. وما لبث محمّد عفّت أن قال لجليلة:

ـ لمناسبة «الصبّ تفضحه عيونه» ما رأيك في أمّ كلثوم؟

فقالت جليلة:

ـ صوتها ـ والشهادة لله ـ جميل، غير أنّها كثيرًا ما تصرصع كالأطفال!

ـ البعض يقولون إنّها ستكون خليفة منيرة المهديّة، ومنهم من يقول بأنّ صوتها أعجب من صوت منيرة نفسها!...

فهتفت جليلة:

ـ كلام فارغ! أين هٰذه الصرصعة من بحّة منيرة؟

وقالت زبيدة بازدراء:

ـ في صوتها شيء يذكّر بالمقرئين، كأنّها مطربة بعمامة!

فقال أحمد عبد الجواد:

ـ لم أستطعمها، ولٰكن ما أكثر الذين يهيمون بها، والحقّ أنّ دولة الصوت زالت بموت سي عبده...

فقال محمّد عفّت مداعبًا:

ـ أنت رجل رجعيّ، تتعلّق دائمًا بالماضي... (ثمّ وهو يغمز بعينه)... ألست تصرّ على حكم بيتك بالحديد والنار حتّى في عهد الديموقراطيّة والبرلمان؟!

السيّد ساخرًا:

ـ الديموقراطيّة للشعب لا للأسرة...

عليّ عبد الرحيم جادًّا:

ـ أتظنّ أنّه يمكن التحكّم بالطريقة القديمة في شبّان اليوم؟! هٰؤلاء الشبّان الذين اعتادوا القيام بالمظاهرات والوقوف في وجه الجنود؟!

فقال إبراهيم الفار:

ـ لا أدري عمّا تتكلّم، ولٰكنّني متّفق في الرأي مع أحمد، كلانا أب لذكور، والله المستعان...

محمّد عفّت مداعبًا:

ـ كلاكما متحمّس للحكم الديموقراطيّ باللسان ولٰكنّكما مستبدّان في بيتكما...!

فقال أحمد عبد الجواد كالمحتجّ:

ـ أتريدني على الّا أبتّ في مسألة حتّى أجمع كمال وياسين وأمّ كمال، ثمّ نأخذ الأصوات؟!

فهاهات زبيدة قائلة:

ـ لا تنس زنّوبة من فضلك...

وقال إبراهيم الفار:

ـ إذا كانت الثورة هي سبب ما نعاني من أولادنا، فالله يسامح سعد باشا...

وتواصل الشرب والسمر والغناء والمزاح، وتعالت الضجّة واختلطت الأصوات، وتقدّم الليل غير عابئ بشيء، وكان ينظر إليها فيجدها تنظر إليه أو تنظر إليه فتجده ينظر إليها، وقال لنفسه: إنّه ليس في هٰذا الوجود إلّا لذّة واحدة، وأراد أن يفصح عن فكرته ولٰكنّه لم يفصح، إمّا لأنّ حماسه للإفصاح فتر أو لأنّه لم يستطع، ولٰكن كيف جاء هٰذا... الفتور؟! وتساءل مرّة أخرى: أتكون لذّة ساعة أم معاشرة طويلة؟ ونزعت نفسه إلى التماس التسلية والعزاء، ولٰكنّ ثمّة وشّ كأنّ أمواج النيل تهمس في أذنيه، ومع ذٰلك فمنتصف الحلقة السادسة في متناول اليد، سَلِ

الحكماء كيف ينطوي العمر ونحن ندري دون أن ندري...

ـ ماذا أسكتك كفى الله الشرّ؟

ـ أنا؟!... شويّة راحة...

أجل ما ألذّ الراحة! ضجعة طويلة تقوم بعدها صحيحًا، ما ألذّ الصحّة، ولٰكنّهم يطاردونك ولا يدعون لك لحظة واحدة تنعم فيها بالسلام، وهٰذه النظرة أليست فاتنة ولكنّ همسات الأمواج تعلو فكيف تسمع الغناء؟

ـ كلّا، لن نتركه حتّى يزفّ، ما رأيكم؟. الزفّة... الزفّة!...

ـ قُمْ يا جملي...

ـ أنا؟... شويّة راحة...

ـ الزفّة... الزفّة، كما حدث أوّل مرّة في بيت الغوريّة...

ـ ذٰلك عهد قديم...

ـ نجدّده، الزفّة... الزفّة...

لا يرحمون، وذٰلك زمن خلا تحجبه عن عينيك ظلمات، ألا ما أكثف الظلام! وما أشدّ الوشّ! وما أغلظ النسيان...!

ـ انظروا...!

ـ ما له؟!...

ـ قليلًا من الماء... افتحوا النافذة...!

ـ يا لطيف يا ربّ...

ـ خير... خير، بلّ هٰذا المنديل بالماء البارد...

٤٢

مضى أسبوع على «حادث» الأب، وكان الطبيب يزوره يوميًّا، وكانت الحال من الشدّة بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته، حتّى الأبناء كانوا يتسلّلون إلى الحجرة على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على الراقد متفحّصين ما يكسو وجهه من ذبول واستسلام، ثمّ ينسحبون وفي الوجوه اكفهرار وفي الصدور انقباض، يتبادلون النظرات ويتهرّبون منها في ذات الوقت. قال الطبيب إنّها أزمة ضغط، وحُجِم المريض فملأ طستًا من دمه، دم أسود كما قالت خديجة في وصفه وجوارحها ترتعش، وكانت أمينة تعود من الحجرة بين الحين والحين كشبح يهيم على وجهه، على حين بدا كمال ذاهلًا كأنّما يتساءل كيف تقع هٰذه الأمور الخطيرة في أقلّ من غمضة عين، وكيف استسلم الرجل الجبّار واستكان، ثمّ يسترق نظرة إلى شبح أمّه، أو عيني خديجة الدامعتين أو وجه عائشة الشاحب ويتساءل مرّة أخرى ماذا يعني هٰذا كلّه؟ ووجد نفسه تنساق وهو لا يدري إلى تصوّر النهاية التي يخافها قلبه، تصوُّر عالَم لا يوجد فيه الأب، فضاق صدره وجزع قلبه، وتساءل في إشفاق كيف يمكن أن تتحمّل هٰذه النهاية أمّه؟ إنّها تبدو الآن كالمنتهية ولمّا يقع شيء، ثمّ وردت ذهنه ذكرى فهمي، فتساءل: أيمكن أن ينسى هٰذا كما نسي ذاك؟ وتراءت له الدنيا ظلمات فوق ظلمات.

وعلم ياسين بالحادث في اليوم التالي لوقوعه، فجاء إلى البيت لأوّل مرّة مذ غادره عند زواجه من مريم، وقصد حجرة أبيه رأسًا فألقى عليه نظرة طويلة صامتة ثمّ انسحب إلى الصالة مذهولًا، فالتقى بأمينة فتصافحا بعد طول فراق، واشتدّ تأثّره وهو يصافحها فامتلأت عيناه بالدموع. ولبث السيّد راقدًا، ولم يكن أوّل الأمر يتكلّم أو يتحرّك، فلمّا حُجِم دبّ فيه شيء من الحياة فاستطاع أن ينطق بكلمة أو عبارة مقتضبة يفصح بها عمّا يريد، ولٰكنّه في الوقت ذاته شعر بالألم فصدر عنه الأنين والتأوّهات. ولـمّا خفّت حدّة الآلام المَرَضيّة أخذ يضيق برقاده الإجباريّ الذي حرمه نعمة الحركة والنظافة، وقضى عليه بأن يأكل ويشرب ويفعل ما تعافه نفسه في مكان واحد هو فراشه. وكان نومه متقطّعًا، وكان ضجره متّصلًا، غير أنّ أوّل ما سأل عنه كان خاصًّا بكيفيّة إحضاره إلى البيت مغشيًّا عليه، وأجابته أمينة بأنّه جيء به في حنطور مع صحبه محمّد عفّت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وأنّهم حملوه برفق إلى فراشه، ثمّ أحضروا له الطبيب رغم تأخّر الوقت. وسأل بعد ذٰلك باهتمام عن عوّاده فقالت له المرأة إنّهم لا ينقطعون ولٰكنّ الطبيب منع المقابلة إلى

حين. وكان يردّد بصوت خافت «الأمر لله من قبل ومن بعد» و «نسأل الله حسن الختام»، ولكنّ الحقّ أنّه لم يستشعر اليأس، ولم يحسّ بدنوّ النهاية، ولم تضعف ثقته بالحياة التي يحبّها رغم آلامه وخوفه، عاوده الأمل بمجرّد عودة الوعي إليه، فلم يحدّث أحدًا بحديث الراحلين كأن يوصي أو يودّع أو يعهد لمن يهمّه الأمر بأسرار عمله وثروته، وعلى العكس من ذلك استدعى جميل الحمزاوي وكلّفه ببعض أعمال المبادلة التي لم يكن يعلم عنها شيئًا، كما أرسل كمال إلى خيّاطه البلديّ بخان جعفر ليُحضر ملابس جديدة كان عهد بها إليه وليدفع ثمن خيطها، لم يكن يذكر الموت إلّا بتلك العبارات يردّدها كأنّما يداري بها قسوة الأقدار. وعند ختام الأسبوع الأوّل صرّح الطبيب بأنّ مريضه اجتاز المرحلة الدقيقة بسلام، وأنّه لم يعد يلزمه إلّا بعض الصبر كي يستردّ صحّته كاملة ويستأنف نشاطه. وأعاد الطبيب على مسمعه ما سبق أن حذّره منه عند ارتفاع ضغطه أوّل مرّة فوعده بالطاعة وعاهد نفسه صادقًا على الإقلاع عن الاستهتار بعد ما تبيّن له من عواقبه الوخيمة التي أقنعته بأنّ الأمر جدّ لا هزل، وجعل يتعزّى قائلًا: إنّ الحياة السليمة مع شيء من الحرمان خير على أيّ حال من المرض.

وهكذا مرّت الأزمة بسلام، فاستردّت الأسرة أنفاسها ولهجت قلوبها بالشكر، وعند نهاية الأسبوع الثاني سُمح للسيّد بمقابلة عوّاده فكان يوم سعيد، وكانت أسرته أوّل من احتفل بهذا اليوم فزاره أبناؤه وأصهاره وتحدّثوا إليه لأوّل مرّة منذ الرقاد، وقلّب الرجل عينيه في وجوههم - ياسين وخديجة وعائشة وإبراهيم شوكت وخليل شوكت - وراح بلباقته - التي لم تخنه في موقفه هذا - يسأل عن الأطفال رضوان وعبد المنعم وأحمد ونعيمة وعثمان ومحمّد، فقالوا له: إنّهم لم يجيئوا بهم حرصًا على راحته، ودعوا له بطول العمر وتمام الصحّة والعافية، ثمّ حدّثوه عن حزنهم لما ألمّ به وسرورهم بسلامته، تكلّمت خديجة بصوت متهدّج، وتركت عائشة على يده وهي تقبّلها دمعة تغني عن كلّ بيان، أمّا ياسين فقال بزلاقة لسان: إنّه مرض معه حين مرض وبرئ معه حين منّ الله عليه بالشفاء. فتطلّق وجه الرجل الشاحب بالبشر وحدّثهم طويلًا عن قضاء الله ورحمته ولطفه وأنّ على المؤمن أن يواجه مصيره بصبر وإيمان متوكّلًا على الله وحده، وغادروا الحجرة إلى حجرة كمال - مخلّين الصالة لمرور العوّاد المنتظر توافدهم - وهناك أقبل ياسين على أمينة، فشدّ على يدها وهو يقول:

- لم أحدّثك بما في نفسي طيلة الأسبوعين الماضيين، لأنّ مرض بابا لم يترك لي عقلًا أفكّر به، أمّا الآن وقد أمر الله بالسلامة فأودّ أن أعتذر عن رجوعي إلى البيت دون استئذانك، الحقّ أنّك استقبلتني بالعطف الذي عهدته منك في الأيّام السعيدة الخالية، ولكن عليّ الآن أن أقدّم فروض الاعتذار. . .

فتورّد وجه أمينة وهي تقول بتأثّر:

- ما فات فات يا ياسين، هذا بيتك تحلّ فيه أهلًا وسهلًا حين تشاء. . .

فقال ياسين ممتنًّا:

- لا أحبّ أن أعود إلى الماضي، ولكن أحلف برأس أبي وحياة رضوان ابني أنّ قلبي لم يحمل قطّ سوءًا لأحد من أهل هذا البيت، وأنّي أحببتهم جميعًا كما أحبّ نفسي، ربّما يكون الشيطان قد دفعني إلى خطإ، وكلّ إنسان عرضة لهذا، ولكنّ قلبي لم تشبه شائبة أبدًا. . .

فوضعت أمينة يدها على منكبه العريض، وقالت بإخلاص:

- كنت دائمًا واحدًا من أبنائي، ولا أنكر أنّي غضبت مرّة، ولكن زال الغضب والحمد لله، فلم يبق إلّا الحبّ القديم، هذا بيتك يا ياسين، أهلًا بك أهلًا. . .

وجلس ياسين ممتنًّا، فلمّا غادرت أمينة الحجرة، قال للحاضرين بلهجة خطابيّة:

- ما أطيب هذه المرأة، إنّ الله لا يغفر لمن يسيء إليها، لعن الله الشيطان الذي أورطني يومًا فيما جرح مشاعرها. . .

فقالت له خديجة وهي تحدجه بنظرة ذات معنى:

- لا يكاد يمضي عام حتّى يورّطك الشيطان في

مصيبة، كأنّك لعبة في يديه...

فنظر إليها بعين كأنّما يتوسّل إليها أن تعفيه من لسانها، وإذا بعائشة تقول مدافعة عنه:

ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى...

فتساءلت خديجة في تهكّم:

ـ لِمَ لم تأتِ معك بالمدام «لتُحْيي» لنا هٰذا اليوم المبارك؟

فقال ياسين في كبرياء مصطنع:

ـ لم تعد زوجتي تحيي أفراحًا بعد، إنّها الآن سيّدة بكلّ ما في هٰذه الكلمة من معنى...

فقالت خديجة بلهجة جدّيّة، لا أثر للتهكّم فيها:

ـ يا خسارتك يا ياسين، ربّنا يتوب عليك ويهديك...

قال إبراهيم شوكت، كأنّما يعتذر عن صراحة زوجته:

ـ لا تؤاخذني يا سي ياسين، ولكن ما حيلتي إنّها أختك!

فقال ياسين باسمًا:

ـ كان الله في عونك يا سي إبراهيم!.

وهنا قالت عائشة وهي تتنهّد:

ـ الآن وقد أخذ الله بيد بابا، فإنّي أصارحكم بأنّني لن أنسى ما حييت منظره أوّل يوم رأيته، ربّنا لا يحكم على أحد بالمرض...

خديجة بصدق وحماس:

ـ هٰذه الحياة لا تساوي بدونه قلامة ظفر...

فقال ياسين بتأثّر:

ـ إنّه ملاذنا عند كلّ شدّة، رجل ولا كلّ الرجال!...

وأنا؟ أتذكر موقفك بركن الحجرة وقد أطبق عليك اليأس؟ وكيف تقطّع قلبي وأنا أرى تهافت أمّي، نعرف الموت معنى من المعاني أمّا إذا هلّ ظِلّه من بعيد فتدور بنا الأرض، ومع ذٰلك فستتوالى طعنات الألم بعدد مَن نفقد مِن الأحبّاء، وستموت أنت أيضًا مخلّفًا وراءك الآمال، والحياة رغيبة ولو ابتليت بالحبّ. وتعالى من الطريق رنين جرس حنطور، فوثبت عائشة إلى النافذة ثمّ نظرت من خصاصها، التفتت قائلة في مباهاة:

ـ زوّار من الأكابر!

وتتابع وصول العوّاد من الأصدقاء الكثيرين الذين امتلأت بهم حياة الأب، موظّفين ومحامين وأعيان وتجّار، وكانت منهم قلّة لم تجئ البيت من قبل، وآخرون لم يأتوا إلّا مدعوّين لبعض الولائم التي يولمها السيّد في المناسبات، وغير هٰؤلاء وأولٰئك رجال تُرى وجوههم كثيرًا في الصاغة والسكّة الجديدة، والجميع أصدقاء ولٰكنّهم ليسوا من طبقة محمّد عفّت وصاحبيه. وقد مكثوا قليلًا مراعاة لظروف الزيارة، ولٰكنّ الأبناء وجدوا في مظاهرهم الفاخرة وعرباتهم ذوات الجياد المطهّمة ما أشبع خيلاءهم وزهوهم، وقالت عائشة وهي لا تزال بموقف المراقبة:

ـ ها هم الأحباب قد وصلوا...

وترامت أصوات محمّد عفّت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار وهم يتضاحكون ويرفعون أصواتهم بالشكر والحمد، فقال ياسين:

ـ لم يعد في الدنيا أصدقاء مثل هٰؤلاء...

فآمن على قوله إبراهيم شوكت وخليل، على حين قال كمال بحزن لم يفطن إليه أحد:

ـ قلّ أن تتيح الحياة لأصدقاء أن يجتمع شملهم طويلًا كما أتاحت لهٰؤلاء!

وعاد ياسين يقول كالمتعجّب:

ـ لم يمرّ يوم دون أن يزوروا البيت، وما غادروه في أيّام الشدّة إلّا والدموع في أعينهم...

فقال إبراهيم شوكت:

ـ لا تعجب، فقد عاشروه أكثر منكم أنتم!

وهنا ذهبت خديجة إلى المطبخ لتقدّم مساعداتها. أمّا تيّار العوّاد فلم ينقطع، وقد جاء جميل الحمزاوي بعد أن أغلق الدكّان، وتبعه غنيم حميدو صاحب معصرة الجمالية، ثمّ محمّد العجمي بائع الكسكسي بالصالحيّة. وإذا بعائشة تهتف وهي تشير إلى الطريق من وراء النافذة:

ـ الشيخ متولّي عبد الصمد! ترى أيستطيع أن

يصعد إلى الدور الفوقانيّ؟!

وراح الشيخ يقطع الفناء متوكّئًا على عصاه، متنحنحًا ـ من حين لآخر ـ لينبّه من في طريقه إلى حضوره. وأجاب ياسين:

ـ إنّه يستطيع أن يصعد إلى قمّة مئذنة... (ثمّ مجيبًا خليل شوكت الذي تساءل عن عمر الرجل بعينيه وأصابعه)... بين الثمانين والتسعين! ولكن لا تسل عن صحّته!...

وتساءل كمال:

ـ ألم يتزوّج في حياته الطويلة؟

فقال ياسين:

ـ يقال إنّه كان زوجًا وأبًا، ولكنّ زوجه وأبناءه انتقلوا إلى رحمة الله.

وهتفت عائشة مرّة أخرى، ولم تكن برحت موقفها من النافذة:

ـ انظروا! . هٰذا خواجا! من يكون يا ترى؟...

كان يقطع الفناء ملقيًا على ما حوله نظرة متردّدة متسائلة، واضعًا على رأسه قبّعة مستديرة من الخوص لاح تحت حافتها أنف مجدور مقوّس وشارب منفوش، فقال إبراهيم:

ـ لعلّه صائغ من تجّار الصاغة!...

فتمتم ياسين في حيرة:

ـ ولكنّه يونانيّ السحنة، أين يا ترى رأيت هٰذا الوجه؟!

وجاء شابّ ضرير ذو نظّارة سوداء، يجرّه من يده رجل من أهل البلد ملثّمًا بكوفيّة رافلًا في معطف أسود طويل يبرز من تحت طرفه جلباب مقلّم، فعرفهما ياسين ـ من أوّل نظرة ـ وهو من الدهش في نهاية: أمّا الشابّ الضرير فكان عبده عازف القانون بتخت زبيدة، وأمّا الآخر فصاحب قهوة مشهورة بوجه البركة يدعى الهمايوني، فتوّة وبلطجي وبرجي ألخ...، وسمع خليل وهو يقول:

ـ الضرير قانونجيّ العالمة زبيدة!...

فتساءل ياسين متصنّعًا الدهش:

ـ وكيف عرف بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت وهو يقول:

ـ والدك من السمّيعة القدامى، ولا غرابة في أن يعرفه جميع أهل الفنّ!...

وابتسمت عائشة دون أن تدير رأسها المتّجه إلى الطريق لتداري ابتسامتها، ياسين وكمال رأيا ابتسامة إبراهيم وفطنا إلى ما وراءها. وأخيرًا جاءت سويدان جارية آل شوكت تتعثّر في خطوات الكبر، فتمتم خليل وهو يشير إليها «رسول أمّنا للسؤال عن السيّد». وكانت حرم المرحوم شوكت قد زارت السيّد مرّة، ولكنّها لم تستطع أن تعيد الكرّة لما اعتراها في الأيّام الأخيرة من آلام روماتيزميّة تحالفت مع الكبر عليها. وما لبثت خديجة أن عادت من المطبخ وهي تقول مبدية التشكّي مضمرة المباهاة:

ـ يلزمنا قهوجيّ ليقدّم القهوة بنفسه!...

كان السيّد جالسًا في فراشه، مسند الظهر إلى وسادة منكسرة، ساحبًا الغطاء حتّى عنقه، على حين جلس العوّاد على الكنبة والكراسيّ التي أحدقت بالفراش، وبدا سعيدًا رغم ضعفه، فلم يكن يسعده شيء كالتفاف الأصدقاء حوله وتسابقهم إلى مجاملته ورعاية عهده، وإذا كان قد بلاه المرض بالشرّ فإنّه لا ينكر حسنته فيما وجد من جزع إخوانه لما أصابه وتحسّرهم على غيابه ومدى إحساسهم بالوحشة في مجالسهم أثناء اعتكافه، وكأنّما أراد أن يستزيد من العطف، فجعل يقصّ عليهم ما لاقى من آلام وسأم، واستباح في سبيل ذٰلك أن يهوّل ويبالغ، فقال متنهّدًا:

ـ في الأيّام الأولى من المرض اقتنعت فيها بيني وبين نفسي بأنّي انتهيت، فجعلت أتشهّد وأقرأ الصمديّة، وفيما بين هٰذا وذاك أذكركم كثيرًا فتقسو عليّ فكرة فراقكم...

فعلا أكثر من صوت قائلًا:

ـ لا كانت الدنيا بدونك يا سيّد أحمد...

وقال عليّ عبد الرحيم بتأثّر:

ـ سيترك مرضك هٰذا في نفسي أثرًا لن يزول مع الأيّام...

وقال محمّد عفّت بصوت خافت:

ـ أتذكر تلك الليلة؟ ربّاه لقد شيّبتنا!...

فمال غنيم حميدو نحو الفراش قليلاً، وقال:

ـ نجّاك الذي نجّانا من الإنجليز ليلة بوّابة الفتوح!...

تلك الأيّام السعيدة، أيّام الصحّة والعشق، وفهمي كان النجابة والأمل الموعود.

ـ الحمد لله يا سيّد حميدو!...

وقال الشيخ متولّي عبد الصمد:

ـ إنّي أسألك كم أعطيت الطبيب بدون وجه حقّ؟! ولا داعي للجواب، ولكنّي أدعوك إلى إطعام أولياء الحسين...

فقاطعه محمّد عفّت متسائلًا:

ـ وأنت يا شيخ متولّي، ألست من أولياء الحسين؟! وضّح هٰذه النقطة...

فاستطرد الشيخ ـ دون مبالاة ـ وهو يضرب الأرض بعصاه عقب كلّ عبارة:

ـ أطعم أولياء الحسين وأنا على رأسهم، أراد محمّد عفّت أم لم يرد، وعليه هو أيضًا أن يطعمهم إكرامًا لك، وأنا على رأسهم، وعليك أن تؤدّي فريضة الحجّ هٰذا العام، ويا حبّذا لو أخذتني معك ليضاعف الله لك الجزاء...

ما أطيبك وأقربك إلى قلبي يا شيخ متولّي، أنت من معالم الزمن.

ـ أعدك يا شيخ متولّي بأن آخذك معي إلى الحجاز، إذا أذن الرحمٰن.

عند ذاك قال الخواجا، وكان قد خلع قبّعته عن شعر خفيف ناصع البياض:

ـ شويّة زعل، الزعل سبب كلّ شيء، اترك الزعل ترجع مثل البمب.

مانولي الذي باعك الخمر طيلة خمسة وثلاثين عامًا، بائع السعادة وسمسار القرافة.

ـ هٰذه عاقبة بضاعتك يا مانولي!

فنظر الخواجا في بقيّة وجوه الزبائن، وقال:

ـ لم يقل أحد إنّ الخمر تأتي بالمرض، كلام فارغ، الانبساط والضحك والفرفشة تسبّب المرض؟!

هتف الشيخ متولّي عبد الصمد، وهو يلتفت نحو الخواجا مسدّدًا نحوه بصرًا لا يكاد يرى:

ـ الآن عرفتك يا وجه المصائب، عندما سمعت صوتك في المرّة الأولى تساءلت أين سمعت هٰذا الشيطان؟!

وسأل محمّد العجمي بائع الكسكسي الخواجا مانولي، وهو يغمز بعينيه ناحية الشيخ متولّي:

ـ ألم يكن الشيخ متولّي من زبائنك يا مانولي؟

فقال الخواجا باسمًا:

ـ فمه ملآن بالطعام، فأين يضع الخمر يا حبيبي؟

وصاح عبد الصمد وهو يشدّ على مقبض عصاه:

ـ تأدّب يا مانولي!

فصاح به العجمي:

ـ أتنكر يا شيخ متولّي أنّك كنت أكبر حشّاش قبل أن يقطع الكبر أنفاسك؟

فلوّح الشيخ بيده محتجًّا، وهو يقول:

ـ ليس الحشيش حرامًا، أجرّبت صلاة الفجر وأنت مسطول؟ الله أكبر... الله أكبر!

ووجد أحمد عبد الجواد الهمايوني صامتًا، فالتفت إليه باسمًا وهو يقول على سبيل المجاملة:

ـ كيف حالك يا معلّم؟ والله زمان!...

فقال الهمايوني بصوت كالنعير:

ـ والله زمان زمان والله! أنت السبب يا سيّد أحمد وأنت الهاجر، ولٰكن لـمّا قال لي السيّد عليّ عبد الرحيم إنّ عدوّك راقد ذكرت أيّام الصبوات كأنّها لم تنقطع، وقلت لنفسي: لا كان الوفاء إن لم أزر بنفسي الرجل الحبيب، رجل المروءة والفرفشة والأنس، ولولا الملامة لجئت معي بفطّومة وتملّي ودولت ونهاوند، كلّهنّ مشتاقات إلى رؤيتك، يا سلام يا سي أحمد، أنت أنت سواء شرّفتنا كلّ ليلة أم هجرتنا سنين!...

ثمّ وهو يجيل عينيه الحديديّتين:

ـ هجرتمونا كلّكم، البركة في السيّد عليّ. ربّنا يخلّي لنا سنيّة القلّي التي تجذبه إلينا، من فات قديمه تاه، عندنا أصل الأنس، ماذا غيّبكم عنّا؟ لو كانت التوبة لعذرناكم، ولٰكنّ التوبة لم يئن أوانها، ربّنا يبعدها

بطول العمر والأفراح!

أحمد عبد الجواد وهو يشير إلى نفسه:

ـ ها أنت ترى أنّنا قد انتهينا!...

فقال المعلّم بحماس:

ـ لا تقل هٰذا يا سيّد الرجال، وعكة وتمضي إلى غير رجعة، لن أتركك حتّى تنذر أن تعود إلى وجه البركة ـ ولو مرّة ـ إذا أخذ الله بيدك وقمت بالسلامة!...

فقال محمّد عفّت:

ـ الزمن تغيّر يا معلّم همايوني، أين وجه البركة الذي عرفناه قديمًا؟ ابحث عنه في التاريخ، أمّا ما بقي منه فمراح الشبّان من أهل اليوم، كيف نسير بينهم وفيهم أبناؤنا؟

وقال إبراهيم الفار:

ـ ولا تنس أنّنا لا نستطيع أن نغالط ربّنا في العمر والصحّة، انتهينا كما قال سي أحمد، ما منّا إلّا مَن اضطرّ إلى زيارة الطبيب ليقول له عندك وعندك، لا تشرب... لا تأكل... لا تتنفّس، وغير ذٰلك من الوصايا المقرفة، ألم تسمع عن مرض الضغط يا معلّم همايوني؟

فقال المعلّم وهو يحدجه بنظرة:

ـ داوِ أيّ مرض بسكرة وضحكة ولعبة، وإن وجدت له أثرًا بعد ذٰلك الزقه في كبدي!

فصاح مانولي:

ـ قلت له هٰذا وحياتك أنت!

وقال محمّد العجمي، كأنّما يُتمّ ما بدأ صاحبه:

ـ ولا تنس المنزول الأصيل يا معلّم...

فهزّ الشيخ متولّي عبد الصمد رأسه متعجّبًا، وتساءل في حيرة:

ـ دلّوني يا أهل الخير أين أنا، أفي بيت ابن عبد الجواد أم في غرزة أم في حانة؟ دلّوني يا هوه!...

تساءل الهمايوني وهو يرمق الشيخ متولّي شزرًا:

ـ مَن صاحبكم؟

ـ وليّ كلّه خير...

فقال له متهكّمًا:

ـ اقرأ لي الطالع إن كنت وليًّا!

فهتف متولّي عبد الصمد:

ـ إمّا السجن وإمّا المشنقة!...

فلم يتمالك الهمايوني من أن يضحك عاليًا، ثمّ قال:

ـ حقًّا إنّه وليّ، فهٰذه هي النهاية المتوقّعة (ثمّ مخاطبًا الشيخ) لكن اضبط لسانك، وإلّا حقّقت بك نبوءتك!...

عليّ عبد الرحيم، وهو يقرّب رأسه من وجه السيّد:

ـ قم يا حبيبي، الدنيا لا تساوي قشرة بصلة من غيرك، ماذا جرى لنا يا أحمد؟ أترى أنّه يحسن بنا ألّا نستهين بالمرض بعد ذٰلك؟ كان آباؤنا يتزوّجون وهم فوق السبعين، فماذا جرى؟!

متولّي عبد الصمد بعنف تطاير معه الرذاذ من فيه:

ـ كان آباؤكم مؤمنين طاهرين، لم يسكروا ولم يفسقوا، في هٰذا الجواب الذي تريد...

وأجاب أحمد عبد الجواد صديقه قائلًا:

ـ قال لي الطبيب إنّ التمادي في الاستهانة مع الضغط عاقبته الشلل والعياذ بالله. هٰذا ما وقع لصاحبنا الوديني أكرمه الله بحسن الختام، إنّي أسأل الله إذا حمّ القضاء أن يكرمني بالموت، أمّا الرقاد أعوامًا بلا حراك...! اللّٰهمّ رحمتك!

وهنا استأذن العجمي وحميدو ومانولي في الانصراف، وذهبوا وهم يدعون للسيّد بالصحّة والعمر المديد. ومال محمّد عفّت على السيّد، ثمّ همس بصوت هامس:

ـ جليلة تقرئك السلام، وكم ودّت لو تراك بنفسها!...

فالتقطت أذن عبده القانونجي مقالته، ففرقع بأصابعه، وقال:

ـ وأنا مبعوث السلطانة إليك، وقد كادت أن تتزيّى بزيّ الرجال لتحضر إليك بنفسها لولا أن أشفقت عليك من العواقب غير المتوقّعة، فأرسلتني وقالت لي قل له:

وتنحنح مرّة ثمّ مرّة، وغنّى بصوت خافت:

أمانة يا رايح يمّه   تبوس لي الحلو من فمه
وقل له عبدك المغرم ذليل

فابتسم الهمايوني كاشفًا عن طاقم ذهبيّ، وقال:

ـ نِعْم الدواء، جرّب هٰذا ولا تلقِ بالًا إلى وليّ الله المتنبّئ بالمشانق.

زبيدة؟! لا شوق بي إلى شيء. دنيا المرض شيء كريه، ولو وقع المحذور لمتُّ سكران، ألا يعني هٰذا أنّه لا بدّ من صفحة جديدة؟!

وقال له إبراهيم الفار بصوت خافت:

ـ تعاهدنا على ألّا نذوق الخمر وأنت راقد. . .

ـ إنّي أعفيتكم من تعهّدكم، وسامحوني عمّا فات!

عليّ عبد الرحيم مبتسمًا في إغراء:

ـ لو كان في الإمكان أن نحتفل هنا الليلة بشفائك!

متولّي عبد الصمد موجّهًا خطابه للجميع:

ـ أدعوكم إلى التوبة والحجّ. . .

الهمايوني محنقًا:

ـ كأنّك عسكريّ في غرزة.

وبإشارة متّفق عليها من الفار، تقاربت رءوس محمّد عفّت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار فوق رأس السيّد، وراحوا يغنّون بصوت خافت:

أمّا إنت مش قدّ الخمرة   بس تسكر ليه.

على نغمة:

أمّا إنت مش قدّ الهوى   بس تعشق ليه.

على حين جعل الشيخ متولّي عبد الصمد يتلو آيات من سورة التوبة، أمّا أحمد عبد الجود فقد أغرق في الضحك حتّى دمعت عيناه، ومرّ الوقت بلا حساب حتّى بدا في وجه الشيخ متولّي عبد الصمد الجزع، فقال:

ـ ليكن في معلومكم أنّي آخر من سيغادر هٰذه الحجرة، لأنّي أريد أن أخلو إلى ابن عبد الجواد. . .

ـ ٤٣ ـ

غادر أحمد عبد الجواد البيت بعد أسبوعين آخرين، فكان أوّل ما فعله أن صحب ياسين وكمال إلى زيارة الحسين والصلاة في مسجده شكرًا لله. وكان نبأ وفاة عليّ فهمي كامل قد نشر في الصحف، فتأمّله السيّد أحمد طويلًا وخاطب ابنيه ـ وهم يغادرون البيت ـ قائلًا: ـ سقط ميتًا وهو يخطب في جمع حافل، وها أنا أسعى على قدميّ بعد رقاد كدت أرى فيه الموت رؤية العين، فمنذا يستطيع أن يعلم الغيب؟! حقًّا إنّ الأعمار بيد الله، وإنّه لكلّ أجَل كتاب. . .

كان عليه أن يصبر أيّامًا وأسابيع حتّى يستردّ وزنه، غير أنّه بدا رغم ذٰلك مستوفيًا آي وقاره وجماله. وقد سار في المقدّمة وتبعه ياسين وكمال. وهو منظر لم يُرَ بهيئته الكاملة منذ وفاة فهمي. وفي الطريق ما بين بين القصرين والجامع لمس الشابّان المكانة التي يحظى بها أبوهما في الحيّ كلّه، فما من تاجر من أصحاب الدكاكين القائمة على جانبي الطريق إلّا وقد صافحه وتلقّاه بين ذراعيه وهو يهنّئه بالسلامة. واستجابت نفسا ياسين وكمال لهٰذه المودّة الحارّة المتبادلة، فملكهما السرور والزهو وارتسمت على ثغريهما ابتسامة لم تفارقهما طوال الطريق، غير أنّ ياسين تساءل في براءة: لِمَ لم يحظ بمثل مكانة أبيه وكلاهما في الجلال والجمال والعيوب سواء؟! أمّا كمال فبالرغم من تأثّره الوقتيّ استدعى أفكاره الغابرة عن هٰذه المكانة المرموقة ليسبرها بعين جديدة. كانت في الماضي تتمثّل لعينيه الصغيرتين آية للجلال والعظمة أمّا الآن فإنّه يراها لا شيء أو لا شيء بالقياس إلى مثله العليا، ما هي إلّا المكانة التي يحظى بها رجل طيّب القلب لطيف المعشر جمّ المروءة، والعظمة شيء قد يناقض ذٰلك كلّ المناقضة، فهي دويّ يزلزل قلوب الخاملين ويطيّر النوم عن أعين الراقدين، وهي عسيّة بأن تستثير الكراهية لا الحبّ، والسخط لا الرضى، والعداوة لا المودّة، إنّها الكشف والهدم والبناء، ولٰكن أليس من السعادة أن ينعم الإنسان بمثل هٰذا الحبّ والإجلال؟ بلى وآي ذٰلك أنّ عظمة العظماء تقاس أحيانًا بمقدار تضحيتهم بالحبّ والطمأنينة في سبيل أهداف أسمى، على أيّ حال هو رجل سعيد فليهنأ بسعادته. انظر إليه ما أجمله! كذٰلك ياسين ما ألطفه! وما أعجب منظري

بينهما كأنّي صورة تنكّريّة في كرنفال، ازعم ما شاء لك الزعم أنّ الجمال حلية النساء لا الرجال فلن يمحو هٰذا من ذاكرتك موقف الكشك الرهيب. وقد برئ أبي من الضغط فمتى أبرأ من الحبّ؟ والحبّ مرض غير أنّه كالسرطان لم تُكتشف جرثومته بعد. إنّ حسين شدّاد يقول في رسالته الأخيرة: «إنّ باريس عاصمة الجمال والحبّ» فهل هي أيضًا عاصمة العذاب. وقد بدأ العزيز يبخل برسائله كأنّما يقطرها من دمه الغالي، أريد عالـمًا لا تُخدَع فيه القلوب ولا تَخدع.

عند منعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير، فسمع أباه وهو يقول من الأعماق بصوت جمع بين رقّة التحيّة وحرارة الاستغاثة «يا حسين» ثمّ حثّ خطاه فتبعه ياسين وهو ينظر إلى الجامع وعلى شفتيه ابتسامة غامضة. أيدور بخلد أبيه أنّه لم يتبعه إلى هٰذه الزيارة المباركة إلّا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة في عقيدته؟! أمّا هٰذا الجامع فلم يعد في نظره إلّا رمزًا من رموز الخيبة التي ابتلي بها قلبه. كان في الماضي يقف تحت مئذنته وقلبه خفّاق ودمعه متحفّز وصدره مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل، واليوم يقترب منه وهو لا يراه إلّا مجموعة ضخمة من الأحجار والحديد والخشب والطلاء تحتلّ مساحة واسعة من الأرض بغير وجه حقّ! بيد أنّه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتّى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الأبوّة واحترامًا للناس أو اتّقاء لشرّهم، وهو سلوك ينافي الكرامة والصدق، أريد عالـمًا يعيش فيه الإنسان حرًّا بلا خوف ولا إكراه!

وخلعوا أحذيتهم ودخلوا تباعًا، فاتّجه الأب إلى المحراب ودعا ابنيه إلى الصلاة تحيّة للمسجد، ثمّ رفع يديه إلى رأسه مقيمًا الصلاة فاتتحًا به. استغرق الأب في الصلاة كعادته فأرخى جفونه وامتثل، ونسي ياسين كلّ شيء إلّا أنّه بين يدي الله الغفور الرحيم. وجعل هو يحرّك شفتيه دون أن يقول شيئًا، وانحنى واستوى ثمّ ركع وسجد وكأنّه يؤدّي بعض الحركات الرياضيّة الفاترة، وقال لنفسه: إنّ أقدم الآثار المتخلّفة على وجه الأرض أو في باطنها معابد وحتّى اليوم لا يخلو منها مكان فمتى يشبّ الإنسان عن طوقه ويعتمد على نفسه؟ وهٰذا الصوت الجهير الذي يترامى من أقصى الجامع يذكّر الناس بالآخرة فمتى كان للزمن آخر؟ وما أجمل أن ترى إنسانًا يغالب الأوهام ليغلبها ولٰكن متى ينتهي القتال ويعلن المقاتل أنّه سعيد؟ وإنّ الدنيا لتبدو لعينيّ غريبة فهل تراها خُلقت أمس؟ وهٰذان الرجلان هما أبي وأخي فلمّ لا يكون جميع الناس آبائي وإخوتي؟ وهٰذا القلب الذي أحمله بين جنبيّ كيف ارتضى أن يسومني العذاب ألوانًا؟ وما أكثر أن أرتطم كلّ ساعة بشخص لا أودّه فلماذا نزح الذي أهواه من دونهم إلى أقصى الأرض؟

ولـمّا فرغوا من صلاتهم، قال الأب:

ـ لنمكث قليلًا قبل أن نقوم للطواف.

وظلّوا متربّعين صامتين، حتّى عاد الأب يقول بصوت رقيق:

ـ لم نجتمع هنا منذ ذٰلك اليوم!

فقال ياسين بتأثّر:

ـ الفاتحة على روح فهمي...

وتليت الفاتحة، ثمّ سأل الأب ياسين فيما يشبه الارتياب:

ـ ترى هل شغلتك أمور الدنيا عن زيارة الحسين؟

فقال ياسين الذي لم يزر الجامع طوال هٰذه الأعوام إلّا مرّات معدودات:

ـ لا يمكن أن يمرّ أسبوع دون أن أزور سيّدي!

فالتفت الأب نحو كمال، ورمقه بنظرة كأنّما تسائله «وأنت؟»، فقال كمال وهو يجد استحياء:

ـ وأنا كذٰلك!

فقال الأب بخشوع:

ـ إنّه حبيبنا وشفيعنا إلى جدّه يوم لا ترجى فيه أمّ ولا أب...

قام من المرض هٰذه المرّة ـ بعد أن ألقى عليه درسًا لا يُنسى ـ وهو يؤمن ببطشه ويخاف عواقبه فصدقت نيّته على التوبة، وقد كانَ يؤمن دائمًا بأنّ التوبة آتية مهما طال بها الانتظار، فاقتنع بأنّ تأجيلها بعد ذٰلك ضرب من السفه والكفر بنعمة الله الرحيم. وكان كلّما

طافت به ذكريات اللهو تعزّى بما ينتظره في حياته من مسرّات بريئة، كالصداقة والطرب والفكاهة، لذلك دعا الله أن يحفظه من وساوس الشيطان وأن يثبت قدميه فيها اعتزم من توبة وراح يتلو ما تيسّر من السور القصار التي يحفظها.

ونهض فنهضا وراءه، ثمّ مضوا إلى الضريح، وهناك استقبلهم عرف طيّب يذكو في المكان وغمغمة تلاوات تهمس في الأركان، فطافوا بالضريح بين جموع الطائفين، وارتفعت عينا كمال إلى العمامة الكبيرة الخضراء، ثمّ استقرّتا مليًّا فوق الباب الخشبيّ الذي طالما لثمته شفتاه. فقارن بين عهد وعهد، وحال وحال، وذكر كيف انجلى سرّ هٰذا القبر عن أوّل مأساة في حياته، ثمّ كيف تتابعت المآسي بعد ذٰلك غير مبقية على حبّ أو عقيدة أو صداقة، وكيف أنّه رغم ذٰلك كلّه لا يزال واقفًا على قدميه، يرنو إلى الحقيقة رنوّ العابد، غير آبه لطعنات الألم، حتّى المرارة انداحت على شفتيه فارتسمت ابتسامة، أمّا السعادة العمياء التي تضيء وجوه الطائفين من حوله فقد نبذها غير آسف، وكيف يشتري السعادة بالنور وقد عاهد نفسه على أن يعيش مفتّح العينين، مؤثرًا القلق الحيّ على الطمأنينة الخاملة، ويقظة السهاد على راحة النوم.

ولـمّا فرغوا من طوافهم دعاهما الأب إلى الجلوس مليًّا في مثوى الضريح، فاتّجهوا إلى ركن وجلسوا متقاربين، ولمح السيّد بعض معارفه، فأقبلوا عليه مصافحين مهنّئين، وجالسه نفر منهم، وكان أكثرهم يعرفون ياسين ـ إمّا عن طريق دكّان والده وإمّا عن طريق مدرسة النحّاسين ـ أمّا كمال فلم يكد يعرفه أحد منهم، وقد لفتت نحافته أنظار بعضهم فداعب السيّد قائلًا:

ـ ما لابنك هٰذا كالبرص؟

فبادره السيّد قائلًا، وكأنّه يردّ تحيّة بأحسن منها:

ـ أنت الأبرص!

وابتسم ياسين، وابتسم كمال، وكان أوّل مرّة يطّلع فيها على شخصيّة أبيه «السرّيّة» التي سمع عنها الكثير. هٰكذا بدا الأب رجلًا لا تفوته النكتة حتّى وهو في مقام الحمد والتوبة أمام ضريح الحسين. وقد بعث ذٰلك ياسين على التفكير في مستقبل أبيه، فتساءل: ترى هل يعود إلى مسرّاته المعروفة بعد ما كان من أمر المرض معه. . .؟ وقال لنفسه: «إنّ معرفة ذٰلك عندي من الدرجة الأولى من الأهمّيّة».

ـ ٤٤ ـ

كانت أمّ حنفي متربّعة على الحصيرة بالصالة، بينما جلست نعيمة ابنة عائشة وعبد المنعم وأحمد ابنا خديجة على الكنبة قبالتها. وكانت النافذتان المطلّتان على فناء البيت مفتوحتين ليلطّفا من جوّ أغسطس المفعم بالحرارة والرطوبة، غير أنّه لم تكد تهفو نسمة واحدة فظلّ المصباح الكبير المتدلّي من السقف يرسل نوره على الصالة وهو ثابت، أمّا الحجرات فبدت مظلمة صامتة. وكانت أمّ حنفي خافضة الرأس، شابكة ذراعيها فوق صدرها، ترفع عينيها إلى الصغار الجالسين على الكنبة لحظة ثمّ تغمضهما، ولم تكن تتكلّم ولكنّ شفتيها لم تتوقّفا عن الحركة، وتساءل عبد المنعم:

ـ إلى متى يبقى خالي كمال فوق السطح؟

فتمتمت أمّ حنفي:

ـ الجوّ حارّ هنا، لِمَ لم تبقوا معه؟

ـ الدنيا ظلام، ونعيمة تخاف الحشرات.

وهنا قال أحمد في ضجر:

ـ إلى متى نبقى هنا؟ هٰذا هو الأسبوع الثاني، إنّي أعدّ الأيّام يومًا يومًا، وأريد أن أعود إلى بابا وماما. . .

أمّ حنفي برجاء:

ـ إن شاء الله تعودون جميعًا وأنتم على أسعد حال، ادعوا الله فإنّه يستجيب للصغار الأطهار. . .

فقال عبد المنعم:

ـ إنّنا ندعوه قبل النوم وعقب الاستيقاظ كما توصيننا. . .

فقالت المرأة:

ـ ادعوه في كلّ وقت، ادعوه الآن، هو وحده القادر على كشف غمّتنا. . .

وبسط عبد المنعم راحتيه، ثمّ نظر إلى أحمد داعيًا إيّاه إلى مشاركته، ففعل الآخر مثله دون أن يزايل الضجر وجهه، ثمّ قالا معًا كما تعوّدا أن يقولا في الأيّام الأخيرة:

ـ يا ربّ اشفِ عمّنا خليل، وعثمان ومحمّد ابنَي عمّنا، حتّى نعود إلى بيتنا مجبوري الخاطر...

وبدا التأثّر في وجه نعيمة فأرخت أساريرها في حزن واغرورقت عيناها الزرقاوان بالدموع، وهتفت:

ـ بابا وعثمان ومحمّد كيف حالهم؟ وماما أريد أن أراها، أريد أن أراهم جميعًا...

فتحوّل عبد المنعم إليها قائلًا بصوت المواسي:

ـ لا تبكي يا نعيمة. قلت لك كثيرًا لا تبكي، عمّي بخير، عثمان بخير، محمّد بخير، وسنعود قريبًا إلى بيتنا، جدّتي تؤكّد هذا، وخالي كمال أكّده أيضًا منذ قليل...

فقالت نعيمة وهي تجهش في البكاء:

ـ كلّ يوم أسمع هذا، ولكنّهم لا يسمحون لنا بالعودة إليهم، أريد أن أرى بابا وعثمان ومحمّد، أريد ماما...

قال أحمد بتذمّر:

ـ أنا أريد بابا وماما أيضًا...

عبد المنعم:

ـ سنعود عندما يشفون.

هتفت نعيمة بجزع:

ـ لنعد الآن، أريد أن أرجع، لِمَ يبعدوننا عنهم؟

فأجابها عبد المنعم:

ـ إنّهم يخافون أن نشمّ المرض!

قالت نعيمة بعناد:

ـ ماما هناك، وخالتي خديجة هناك، وعمّي إبراهيم هناك، وجدّتي هناك، فلماذا لا يشمّون المرض؟

ـ لأنّهم كبار!...

ـ إذا كان الكبار لا يشمّون المرض، فلماذا مرض بابا؟...

تنهّدت أمّ حنفي، وقالت برقّة:

ـ هل ضايقك شيء؟... هذا بيتك أيضًا، وها هو سي عبد المنعم وسي أحمد ليلعبا معك، وخالك كمال يحبّك قدّ عينيه، وستعودين قريبًا إلى ماما وبابا وعثمان ومحمّد... لا تبكي يا ستّي الصغيرة وادعي لبابا وأخويك بالشفاء...

أحمد متأفّفًا:

ـ أسبوعان عددتهما على أصابعي، ثمّ إنّ شقّتنا في الدور الثالث والمرض في الدور الثاني، لِمَ لا نعود إلى شقّتنا ونأخذ معنا نعيمة؟

أمّ حنفي كالمحذّرة وهي تضع أصبعها على شفتيها:

ـ سيغضب خالك كمال إذا سمع بما قلت، إنّه يشتري لكم الشكولاطة واللبّ، فكيف تقول إنّك لا ترغب في البقاء معه؟ لم تعودوا صغارًا، أنت يا سي عبد المنعم ستدخل المدرسة الابتدائيّة بعد شهر، وكذلك أنت يا نعّومة!

فقال أحمد متراجعًا بعض الشيء:

ـ دعونا على الأقلّ نخرج لنلعب في الطريق!

فأمّن عبد المنعم على الاقتراح قائلًا:

ـ كلام معقول يا أمّ حنفي، لِمَ لا نخرج إلى الطريق لنلعب؟

فقالت أمّ حنفي بحزم:

ـ عندكم الفناء وهو يسع الدنيا والآخرة، وعندكم السطح أيضًا، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ كان سي كمال وهو صغير لا يلعب إلّا في البيت، وعندما أفرغ من شغلي أقصّ عليكم الحكايات... الا تحبّون ذلك؟

أحمد محتجًّا:

ـ أمس قلت لنا إنّ حكاياتك انتهت!

نعيمة وهي تجفّف عينيها:

ـ خالتي خديجة عندها حكايات أكثر، وأين ماما لنغنّي معًا؟

أمّ حنفي باستعطاف:

ـ طالما رجوتك أن تغنّي لنا وأنت ترفضين!

ـ لا أغنّي هنا! لا أغنّي وعثمان ومحمّد مرضى...

المرأة وهي تنهض:

ـ سأجهّز لكم العشاء ثمّ ننام، جبن وبطّيخ وشمّام، هه؟!

كان كمال جالسًا على كرسيّ في جانب السطح المكشوف فيما يلي سقيفة الياسمين واللبلاب، لا يكاد يُرى في الظلام لولا جلبابه الأبيض الفضفاض، وكان مادًّا ساقيه في استرخاء، مصعّدًا رأسه إلى الأفق المرصّع بالنجوم، مستغرقًا في التفكير، يكتنفه صمت لا يكدّره شيء إلّا أن يرتفع صوت من الطريق أو تنبعث قوقأة عن حجرة الدجاج، وكان في وجهه أثر ممّا طرأ على الأسرة في الأسبوعين الأخيرين، فقد اختلّ نظام البيت المعهود واختفت منه أمّه إلّا في أوقات نادرة، وتشبّع جوّه بتذمّر المساجين الصغار الثلاثة الذين يهيمون في رحباته متسائلين عن «بابا» و«ماما» حتّى أعيته الحيل في ملاطفتهم وملاعبتهم.

أمّا في السكّريّة فإنّ عائشة لم تعد تغنّي وتضحك كما قيل كثيرًا عنها، ولٰكنّها تقضي الليل ساهرة بين أسرة المرضى الأعزّاء، زوجها وطفليها، وكم تمنّى صغيرًا لو تعود عائشة إلى بيتها القديم، وكم يشفق اليوم من أن تضطرّ إلى العودة مهيضة الجناح كسيرة القلب، وأمّا أمّه فتهمس في أذنه «لا تزر السكّريّة، وإذا زرتها فلا تمكث طويلًا» وإنّه ليزورها من حين لآخر، ثمّ يغادرها تفوح من راحتيه رائحة المطهّرات الغريبة ويستحود القلق على فؤاده، وأعجب شيء أنّ جراثيم التيفود ـ كسائر الجراثيم ـ آية في الضآلة، لا تراها العين، ولٰكنّها تستطيع أن توقف تيّار الحياة، وأن تتحكّم في مصير العباد، وأن تشتّت إذا أرادت الأسرة. محمّد المسكين كان أوّل المرضى، ثمّ تبعه عثمان، وأخيرًا ـ وعلى غير توقّع ـ وقع الأب، والليلة جاءت الجارية سويدان لتخبره بأنّ أمّه ستبيت في السكّريّة، ثمّ قالت ـ عن أمّه وعن نفسها ـ إنّه ليس ثمّة ما يدعو إلى القلق! إذن لِمَ تبيت الأمّ في السكّريّة؟ ولِمَ ينقبض صدره؟ على أنّه ـ رغم هٰذا كلّه ـ من الممكن أن يصفو الجوّ في غمضة عين، فيشفى خليل شوكت وطفلاه العزيزان، ويتألّق وجه عائشة ويضيء، وهل نسي كيف ابتلي بيته بمثل هٰذه المحنة منذ ثمانية أشهر؟ وها هو أبوه يسعى في كامل صحّته وعافيته، وقد استردّت عضلاته قوّتها، وعيناه بريقهما الجذّاب، ثمّ رجع إلى أصحابه وأحبابه كما يرجع الطير إلى الشجرة الغنّاء، فمنذا يعترض على أنّه يمكن أن يتغيّر كلّ شيء في غمضة عين؟!

ـ أنت هنا وحدك؟

عرف كمال الصوت، فقام متلفّتًا صوب باب السطح، ومدّ يده للقادم وهو يقول:

ـ كيف حالك يا أخي؟ تفضّل...

وقدّم له مقعدًا، فتنفّس ياسين تنفّسًا عميقًا ليعيد إلى رئتيه توازنها الذي اضطرب بصعود السلّم، فامتلأ صدره بشذا الياسمين، ثمّ جلس وهو يقول:

ـ الأولاد ناموا، وأمّ حنفي نامت كذٰلك...

فسأله كمال وهو يتّخذ مجلسه مرّة أخرى:

ـ مساكين، لا يستريحون ولا يريحون، كم الساعة الآن؟

ـ في الحادية عشرة، الجوّ هنا ألطف من الطريق بكثير...

ـ وأين كنت؟!

ـ متردّدًا ما بين قصر الشوق والسكّريّة، وعلى فكرة والدتك لن تعود الليلة...

ـ سويدان أبلغتني ذٰلك، ماذا جدّ؟ كنت من القلق في نهاية...

ياسين وهو يتنهّد:

ـ كلّنا في القلق سواء، وربّنا عنده اللطف، والدك هناك أيضًا...

ـ في هٰذه الساعة؟!

ـ تركته في البيت... (ثمّ مستطردًا بعد قليل)... كنت في السكّريّة حتّى الثامنة مساء، وإذا برسول يحضر من قصر الشوق ليخبرني بأنّ زوجي قد جاءها الطلق، فذهبت من فوري إلى أمّ عليّ الداية ومضيت بها إلى البيت حيث وجدت زوجي في رعاية بعض الجارات، ومكثت هناك ساعة غير أنّي لم أطق سماع الأنين والصراخ طويلًا، فعدت إلى السكّريّة مرّة أخرى فوجدت والدك جالسًا مع إبراهيم شوكت...

ـ ماذا يعني هٰذا، خبّرني بما عندك...

ياسين بصوت منخفض:

ـ الحال خطيرة جدًّا...

ـ خطيرة؟!

ـ نعم، جئت إلى هنا لأريح أعصابي قليلًا، ألم تجد زنّوبة ليلة تلد فيها إلّا هٰذه الليلة؟ لشدّ ما تعبت بين قصر الشوق والسكّريّة، وبين الداية والدكتور، والحال خطيرة، وقد نظرت حرم المرحوم شوكت في وجه ابنها وهتفت «أمان يا ربّ... كان يجب أن تأخذني قبله!» فانزعجت أمّك انزعاجًا شديدًا، ولٰكنّها لم تحفل بها، وقالت بصوت مبحوح: «هٰذه صورة آل شوكت إذا حضرهم الموت، رأيت أباه وعمّه وجدّه من قبل!»، لم يبقَ من خليل إلّا خيال، وكذا الطفلان، لا حول ولا قوّة إلّا بالله...

ازدرد كمال ريقه، ثمّ قال.

ـ عسى أن تخيب الظنون!

ـ عسى! كمال... لست صغيرًا، ينبغي أن تعلم بما أعلم أنا على الأقلّ، الطبيب يقول إنّ الأمر جدّ خطير!...

ـ عن الكلّ؟!

ـ الكلّ!... خليل وعثمان ومحمّد، ربّاه! ما أتعس حظّك يا عائشة!...

تمثّلت لعينيه في الظلام أسرة عائشة الضاحكة كما كانت تبدو له في الماضي. السعداء الضاحكون الذين مارسوا الحياة كأنّها لهو خالص، متى تضحك عائشة من قلبها مرّة أخرى؟ كما اختُطف فهمي، الإنجليز أو التيفود سيّان، أو غير ذٰلك من الأسباب، الإيمان بالله هو الذي جعل من الموت قضاء وحكمة يبعثان على الحيرة، وهو ليس في الحقيقة إلّا نوعًا من العبث.

ـ أفظع ما سمعت في حياتي!...

ـ هو ذٰلك، ولٰكن ما الحيلة؟ وماذا جنت عائشة حتّى تستحقّ هٰذا كلّه؟! اللّهمّ عفوك ورحمتك...

هل ثمّة حكمة رفيعة يمكن أن تبرّر القتل بالجملة؟ إنّ الموت يتبع قوانين «النكتة» بدقّة، ولٰكن كيف لنا أن نضحك ونحن هدف النكتة؟ ولعلّك تستطيع أن تلاقيه بالابتسام إذا تصدّيت له دوامًا بالتأمّل الصادق والفهم الصحيح والتجرّد الأصيل، ذٰلك هو الانتصار على الحياة والموت معًا، ولٰكن أين من عائشة ذٰلك كلّه؟!

ـ رأسي يدور يا أخي!

فقال ياسين بلهجة الحكيم، ولأوّل مرّة فيما سمع كمال:

ـ هٰذه هي الدنيا، ويجب أن تعرفها على حقيقتها...

ثمّ قام فجأة وهو يقول:

ـ يجب أن أذهب الآن...

فقال كمال كالمستغيث:

ـ ابقَ معي بعض الوقت...

ولٰكنّه قال كالمعتذر.

ـ الساعة الحادية عشرة، ويجب أن أذهب إلى قصر الشوق لأطمئنّ على زنّوبة، ثمّ أعود إلى السكّريّة لأكون إلى جانبهم، لن أنام من الليل فيما يبدو ساعة واحدة، والله أعلم بما ينتظرنا غدًا...

فقام كمال وهو يقول في جزع:

ـ إنّك تتكلّم كما لو كان كلّ شيء قد انتهى، سأذهب من فوري إلى السكّريّة...

ـ بل يجب أن تبقى مع الأطفال حتّى مطلع النهار، وحاول أن تنام وإلّا ندمت على مصارحتي إيّاك بالحقيقة!

وغادر ياسين السطح فتبعه كمال ليوصله إلى باب البيت، وعندما مرّا بالدور الأعلى حيث ينام الأطفال، قال كمال بأسف:

ـ يا لهم من مساكين هٰؤلاء الأطفال، وشدّ ما بكت نعيمة في الأيّام الأخيرة كأنّ قلبها حدس ما هنالك...

فقال ياسين باستهانة:

ـ الأطفال سرعان ما ينسون، ادعُ بالرحمة للكبار...

ولمّا خرجا إلى الفناء، ترامى إليهما من الطريق

صوت يصيح بقوّة «ملحق المقطّم» فتمتم كمال متسائلًا:

ـ ملحق المقطّم؟!

فقال ياسين بلهجة أسيفة:

ـ أوه إنّي أعرف عمّا ينادي فقد سمعت الناس يتناقلونه وأنا قادم إليك... سعد زغلول مات!...

هتف كمال من الأعماق:

ـ سعد!؟

فتوقّف ياسين عن السير، والتفت نحوه قائلًا:

ـ هوِّن عليك وحَسْبنا ما نحن فيه!...

فحملق كمال في الظلام دون أن ينطق أو يأتي حراكًا، كأنّما قد ذهل عن خليل وعثمان ومحمّد وعائشة، عن كلّ شيء إلّا أنّ سعد زغلول قد مات، وواصل ياسين السير وهو يقول:

ـ مات مستوفيًا حظّه من العمر والعظمة فماذا تريد له أكثر من ذٰلك! ليرحمه الله...

فتبعه صامتًا ولمّا يفق من ذهوله، لو في غير هٰذا الظرف الحزين ما درى كيف يتحمّل النبأ، ولٰكنّ المصائب إذا تلاقت تحدّى بعضها بعضًا، هٰكذا ماتت جدّته في أعقاب مصرع فهمي فلم تجد لها باكيًا ـ إذن مات سعد. النفي والثورة والحرّيّة والدستور مات صاحبها، كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه وتربيته!

ووقف ياسين مرّة أخرى ليفتح الباب، ثمّ مدّ يده له فتصافحا، وعند ذاك تذكّر كمال أمرًا طال نسيانه له، فقال لأخيه وهو يجد من نسيانه حياء:

ـ أدعو الله أن تجد زوجك قد ولدت بالسلامة...

فقال ياسين وهو يهمّ بالذهاب:

ـ إن شاء الله، وأرجو أن تنام نومًا هادئًا...


السكرية

١

تقاربت الرءوس حول المجمرة وانبسطت فوق وهجها الأيدي، يدا أمينة النحيلتان المعروقتان، ويدا عائشة المتحجّرتان، ويدا أمّ حنفي اللتان بدتا كغطاء السلحفاة، وأمّا هاتان اليدان الناصعتا البياض الجميلتان فكانتا يدي نعيمة. وكان برد يناير يكاد يتجمّد ثلجًا في أركان الصالة، تلك الصالة التي بقيت على حالها القديم بحُصرها الملوّنة وكنباتها الموزّعة على الأركان، إلّا أنّ الفانوس القديم بمصباحه الغازيّ قد اختفى وتدلّى مكانه من السقف مصباح كهربائيّ، كذٰلك تغيّر المكان فقد رجع مجلس القهوة إلى الدور الأوّل. بل انتقل الدور الأعلى جميعه إلى هٰذا الدور تيسيرًا للأب الذي لم يعد قلبه يسعفه على ارتقاء السلّم العالي. ثمّة تغيّر أدرك أهل البيت أنفسهم، فقد جفّ عود أمينة واشتعل رأسها شيبًا، ومع أنّها لم تكد تبلغ الستّين إلّا أنّها بدت أكبر من ذٰلك بعشر، ولكنّ تغيّر أمينة كان لا شيء بالقياس إلى ما جرى لعائشة من تدهور وانحلال، كان ممّا يدعو إلى السخرية أو الرثاء أنّ شعرها لم يزل مذهّبًا وعينيها زرقاوان، ولٰكنّ هٰذه النظرة الخامدة لا توحي بحياة، وهٰذه البشرة الشاحبة بأيّ مرض تنضح؟ وهٰذا الوجه الذي نتأت عظامه وغارت فيه العينان والوجنتان أهو وجه امرأة في الرابعة والثلاثين؟ وأمّا أمّ حنفي فبدا أنّ الأعوام تتراكم عليها ولا تنال من جوهرها، لم تكد تمسّ لحمها وشحمها فتكاثفت كالغبار أو كالقشور فوق جلدها وحول رقبتها وثغرها، غير أنّ عينيها الساهمتين لاحتا مُشاركتين لأهل البيت في حزنهم الصامت. نعيمة وحدها بدت في هٰذه المجموعة كالوردة المغروسة في حوش مقبرة، استوت شابّة جميلة في السادسة عشرة من عمرها، مجلّلة الشعر بهالة ذهبيّة، مزيّنة الوجه بعينين زرقاوين، كعائشة في شبابها أو أفتن ملاحة، ولٰكنّها كانت نحيفة رقيقة كالخيال، تعكس عيناها نظرة وديعة حالمة تقطر طهارة وسذاجة وغرابة عن هٰذا العالم، وكانت ملتصقة بمنكب أمّها كأنّها لا تودّ أن تفارقها لحظة. وقالت أمّ حنفي وهي تفرك يديها فوق المجمرة:

- سينزل البنّاءون عن العمارة في هٰذا الأسبوع بعد عام ونصف من العمل...

فقالت نعيمة في نغمة ساخرة:

- عمارة عمّ بيومي الشرباتلي...

ارتفعت عينا عائشة عن المجمرة إلى وجه أمّ حنفي لحظة ولٰكنّها لم تعلّق بكلمة، قد علموا في حينه بهدم البيت الذي كان يومًا بيت السيّد محمّد رضوان ثمّ إعادة بنائه عمارة مكوّنة من أربعة أدوار باسم عمّ بيومي الشرباتلي، تلك الذكريات القديمة، مريم وياسين ولٰكن ترى أين مريم، وأمّ مريم وبيومي الشرباتلي الذي استولى على البيت بالوراثة والشراء، أيّام كانت الحياة حياة والقلب ناعم البال! وعادت أمّ حنفي تقول:

- أجمل ما فيها يا ستّي دكّان عمّ بيومي الجديدة، ثريّات ودندرمة وحلوى، كلّها مرايا وكهرباء، والراديو ليل نهار، يا عيني على حسنين الحلّاق ودرويش بائع الفول والفولي اللبّان وأبو سريع صاحب المقلي وهم ينظرون من دكاكينهم البالية إلى دكّان زميلهم القديم وعمارته...

فقالت أمينة وهي تشبك الشال حول منكبيها:

- سبحان ربّك الوهّاب...

فعادت نعيمة تقول وهي تحيط عنق أمّها بذراعيها:

ـ سَدَّ جدار العمارة سطحنا من هٰذه الناحية، وإذا عمرت بالسكّان فكيف نستطيع أن نمضي الوقت فوق السطح؟

لم يكن في وسع أمينة أن تتجاهل سؤالًا توجّهه حفيدتها الجميلة مراعاة لخاطر عائشة قبل كلّ شيء فقالت:

ـ لا يهمّك السكّان، امرحي كيف شئت. . .

واسترقت النظر إلى عائشة لترى وقع إجابتها اللطيفة، إذ إنّها باتت من شدّة الخوف عليها وكأنّما تخافها، ولٰكنّ عائشة كانت مشغولة في تلك اللحظة بالتطلّع إلى مرآة فوق نضد بين حجرة السيّد وحجرتها، لم تزايلها عادة التطلّع إلى المرآة وإن لم يعد لها معنى، وبمرور الزمن لم يعد يروعها منظر وجهها الضحل، وكلّما سألها صوت باطنيّ «أين عائشة زمان؟» أجابت دون اكتراث «وأين محمّد وعثمان وخليل؟»، وكانت أمينة تلاحظ ذٰلك فينقبض قلبها، وسرعان ما يسري الانقباض إلى أمّ حنفي التي اندمجت في الأسرة حتّى ورثت عنها همومها. ونهضت نعيمة إلى الراديو القائم ما بين حجرة الاستقبال وحجرة السفرة وأدارت مفتاحه وهي تقول:

ـ ميعاد إذاعة الأسطوانات يا ماما. . .

وأشعلت عائشة سيجارة وأخذت نفسًا عميقًا، وجعلت أمينة ترنو إلى الدخان وهو ينبسط سحابة خفيفة فوق المجمرة، وانبعث من الراديو صوت يغنّي «يا عشرة الماضي الجميل يا ريت تعودي». وعادت نعيمة إلى مجلسها وهي تحبك الروب حول جسمها. كانت ـ كأمّها في الزمان الخالي ـ تهوى الغناء. وُهِبت كيف تسمعه وكيف تحفظه وكيف تعيده بصوت حسن. لم ينل من هٰذا الهوى شعورها الدينيّ الذي غلب على كافّة مشاعرها، فهي تواظب على الصلاة، وتصوم رمضان مذ بلغت العاشرة، وتحلم كثيرًا بعالم الغيب، وترحّب بغبطة لا حدّ لها بزيارة الحسين إذا دعتها جدّتها إليها، ولٰكنّها في الوقت نفسه لم تقلع عن حبّ الغناء، فهي تغنّي كلّما خلت إلى نفسها في حجرتها أو في الحمّام. وكانت عائشة ترضى عن كلّ ما يصدر عن وحيدتها، الأمل المضيء في أفقها المظلم، تعجب بتديّنها كما تعجب بصوتها، وحتّى عن التصاق الفتاة بها ـ ذٰلك الالتصاق الذي بدا خارقًا للحدّ ـ فهي تشجّعه وتحبّه ولا تطيق أن تسمع عنه أيّة ملاحظة، بل هي تضيق بالنقد عامّة وإن هانَ وحسن القصد فيه. من ذٰلك أنّه لم يكن لها من عمل في البيت غير القعود وحسو القهوة والتدخين، فإذا دعتها أمّها إلى المشاركة في عمل ـ لا لحاجتها إلى مساعدتها ولٰكن لتخلق لها ما تتسلّى به عن أفكارها ـ امتعضت وقالت جملتها المشهورة «أف. . . دعيني وشأني». ولم تكن تسمح لنعيمة بأن تمدّ للعمل يدًا، كأنّما كانت تخاف عليها أقلّ حركة، ولو أمكن أن تصلّي نيابة عنها لفعلت وكفتها جهد الصلاة. وكم من مرّة حدّثتها أمّها في هٰذا الشأن قائلة إنّ نعيمة أصبحت «عروسًا» وينبغي لها أن تلمّ بواجبات «ستّ البيت» فكانت تقول لها بصوت ينمّ عن الضجر «ألا ترينها كالخيال؟. إنّ ابنتي لن تتحمّل أيّ جهد فدعيها وشأنها، لم يعد لي من أمل في الدنيا سواها». ولم تكن أمينة لتعيد القول. كان قلبها يتقطّع حزنًا عليها، وتنظر إليها فتجدها مثالًا مجسّمًا لخيبة الأمل، وترى وجهها التعيس الذي فقد كلّ معنى للحياة فتذهب نفسها حسرات، لذٰلك أشفقت من مضايقتها، ولذٰلك اعتادت أن تتحمّل ما قد ينمّ عنها من جفاء في الردّ أو قسوة في الملاحظة بصدر رحيب وعطف سمح. لم يزل الصوت يغنّي «يا عشرة الماضي الجميل». وجعلت عائشة تدخّن سيجارتها وتصغي إليه. هٰذا الغناء الذي كانت تحبّه، ولا زالت تحبّه، فالحزن واليأس لم يقتلا الإحساس به، بل لعلّهما قوّياه في نفسها بما يردّده عادة من معاني الشجن والحسرات، ولو أنّ شيئًا في الوجود ليس بمستطيع أن يعيد عشرة الماضي الجميل، بل إنّها لتتساءل أحيانًا أكان هٰذا الماضي حقيقة لا حلمًا ولا خيالًا؟ إذن أين البيت العامر؟ وأين الزوج الكريم؟ وأين عثمان وأين محمّد؟! وهل لا يفصلها عن ذٰلك الماضي إلّا ثمانية أعوام؟. ولم تكن أمينة ترتاح إلى هٰذه الأغاني إلّا في النادر. إنّ فضيلة الراديو الأولى في

نظرها أنّه أتاح لها سماع القرآن الكريم والأخبار، أمّا الأغاني فكانت تجزع عند تلقّي معانيها الحزينة وتشفق على ابنتها من سماعها حتّى قالت مرّة لأمّ حنفي «أليس هٰذا هو النواح؟». كانت لا تني عن التفكير في عائشة حتّى كادت تنسى ما أخذ ينتابها هي من أعراض الضغط ومتاعبه، ولم تكن تجد فرجة إلّا في زيارة الحسين وغيره من الأولياء، وشكرًا للسيّد الذي لم يعد يحجر عليها فتركها تنطلق إلى بيوت الله كما تحبّ. لم تعد ـ هي أيضًا ـ أمينة العهد الماضي. غيّرها كثيرًا الحزن والتوعّك. وقد فقدت مع الزمان مثابرتها العجيبة على العمل وطاقتها الخارقة في التنسيق والتنظيف والتدبير، ففيما عدا شئون السيّد وكمال لم تكن تعنى بشيء. عهدت بحجرة الفرن والمخزن لأمّ حنفي، قانعة بالإشراف وحده، وحتّى الإشراف كانت تتهاون فيه. وكانت ثقتها في أمّ حنفي لا حدّ لها، فليست هي بالغريبة عن الدار وأهلها، ثمّ إنّها شريكة العمر ورفيقة السرّاء والضرّاء، وقد اندمجت في الأسرة حتّى صارت قطعة منها، وتمثّلت بكلّ قلبها مسرّاتها وأحزانها. وساد الصمت حينًا كأنّما استأثر الغناء بوعيهم، حتّى قالت نعيمة:

ـ لمحت في الطريق اليوم صديقتي سلمى، كانت معي في الابتدائيّة، وستتقدّم العام المقبل في امتحان البكالوريا...

فقالت عائشة بامتعاض:

ـ لو سمع جدّك لك بالاستمرار في الدراسة لتفوّقت عليها، ولٰكنّه لم يسمح!

وفطنت أمينة لما أوحت به جملة «ولٰكنّه لم يسمح» من الاحتجاج فقالت:

ـ جدّها له آراؤه التي لا ينزل عنها، ترى أكنت ترحّبين باستمرارها في التعليم رغم ما في ذٰلك من تعب وهي العزيزة الرقيقة التي لا تتحمّل التعب؟!...

فهزّت عائشة رأسها دون أن تنبس، أمّا نعيمة فقالت بحسرة:

ـ وددت لو أتممت تعليمي، كلّ البنات يتعلّمن اليوم كالصبيان... فقالت أمّ حنفي باحتقار:

ـ يتعلّمن لأنّهنّ لا يجدن العريس، أمّا الجميلة مثلك...

فهزّت أمينة رأسها موافقة ثمّ قالت:

ـ وأنت متعلّمة يا ستّ البنات. حائزة على الابتدائيّة، ماذا تريدين أكثر من ذٰلك؟، ولست في حاجة إلى الوظيفة، فلندعُ الله أن يقوّيك وأن يكسو جمالك الفتّان بالعافية واللحم والدهن.

فقالت عائشة بحدّة:

ـ أريد لها العافية لا السمانة، السمانة من العيوب خاصّة في البنات، أمّها كانت زين أيّامها ولم تكن سمينة.

فابتسمت أمينة وقالت برقّة:

ـ حقًّا أمّك يا نعيمة كانت زين أيّامها...

فقالت عائشة وهي تتنهّد:

ـ ثمّ صارت عبرة الأيّام!

فغمغمت أمّ حنفي:

ـ ربّنا يفرّحك بنعيمة...

فقالت أمينة وهي تربّت على ظهر نعيمة بحنان:

ـ آمين يا ربّ العالمين...

وعُدْنَ إلى الصمت، وإلى سماع الصوت الجديد الذي كان يغنّي «أحبّ أشوفك كلّ يوم»، وإذا بباب البيت يُفتح ثمّ يُغلق فقالت أمّ حنفي «سيّدي الكبير» وقامت مسرعة إلى الخارج لتضيء مصباح السلّم. وما لبثن أن سمعن دقّات عصاه المعهودة، ثمّ تراءى عند مدخل الصالة فوقفن جميعًا في أدب. ووقف قليلًا ينظر إليهنّ خلال أنفاسه المبهورة ثمّ قال: «مساء الخير» فردّدن في صوت واحد: «يسعد مساك»، وسبقت أمينة إلى حجرته فأضاءتها، ومضى الرجل على أثرها في هالة من وقار الشيخوخة البيضاء. وجلس كي يستردّ أنفاسه. ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساء. ظلّت أناقته كما كانت في الماضي، فالجبّة الجوخ والقفطان الشاهيّ والكوفيّة الحرير كالعهد القديم، أمّا هٰذا الرأس المرصّع بالبياض، والشارب الفضّيّ، والجسم النحيل الذي خلا من سكّانه، فكانت جميعًا ـ

كعودته المبكّرة ـ من طوارئ الزمن الجديد. ومن طوارئ هٰذا الزمن أيضًا سلطانيّة اللبن الزبادي والبرتقالة اللتان أعدّتا لعشائه، فلا خمر ولا مزّة ولا لحوم ولا بَيض، وإن بقي بريق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أنّ رغبته في الحياة لم تفتر ولم تهن. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمعتاد، ثمّ ارتدى جلبابه الصوفيّ وتلفّع بالعباءة ولبس طاقيّته ثمّ تربّع على الكنبة. وقدّمت له صينيّة العشاء فتناوله دون حماس، ثمّ قدّمت له أمينة قدحًا مملوءًا حتّى نصفه بالماء فأخذ زجاجة الدواء وسكب في القدح ستّ نقط، ثمّ تجرّعه بوجه مقطّب متقزّز، ثمّ تمتم «الحمد لله ربّ العالمين». طالما قال له الطبيب إنّ الدواء مؤقّت أمّا «الرجيم» فدائم، وطالما حذّره من الاستهتار أو الإهمال، فالضغط قد استفحل، والقلب قد تأثّر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليمات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرّة خرج عن حدّه حتّى تداركه الجزاء، وأخيرًا أذعن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلّا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولٰكنّ قلبه لم يتخلَّ عن الأمل في أن يستردّ يومًا ـ بقدرة قادر ـ صحّته وأن ينعم بحياة طيّبة هادئة، وإن تكن حياة الماضي قد ولّت إلى الأبد. وامتدّت أذنه إلى الغناء المترامي من الراديو في ارتياح، وكانت أمينة تحدّثه من مجلسها فوق الشلتة عن برد اليوم والمطر الذي انهمر في الضحى فلم يلقِ إليها بالًا وقال في سرور:

ـ قيل لي أنّه ستُذاع الليلة بعض الأغاني القديمة...

فابتسمت المرأة في ترحيب إذ كانت تحبّ هٰذا اللون من الغناء، ربّما متابعة لحبّ السيّد له أكثر من أيّ شيء آخر، ولبث السرور متألّقًا في عينَي الرجل لحظات حتّى أدركه فتور. لم يعد بمستطيع أن ينعم بشعور سارّ دون تحفّظ، أو دون أن ينقلب عليه فجأة فيستيقظ من حلمه مرتطمًا بالواقع، الواقع يحدق به من جميع النواحي، أمّا الماضي فحُلم، فيمَ السرور وقد ولّت إلى الأبد أيّام الأنس والطرب والعافية؟. وانطوى اللذيذ من المآكل والمشرب والهناء؟، وأين مسيره في الأرض كالجمل وضحكته المجلجلة من الأعماق؟ وطلوع الفجر عليه وهو ثمل بشتّى المسرّات؟، اليوم يُقضى عليه بأن يعود من سهرته في التاسعة كي ينام في العاشرة والأكل والشرب والمشي بحساب دقيق مسجّل في دفتر الطبيب، وهٰكذا البيت الذي غشّاه الزمن بالكآبة هو قلبه ومقامه، وعائشة التعيسة شوكة في جنبه لا يستطيع أن يصلح ما فسد من حياتها وهيهات أن يطمئنّ على حالها، أليس قد ينكشف عنها الغد وحيدة بائسة بلا أب ولا أمّ؟ وما يعانيه من قلق على صحّته هو المهدّدة بالمضاعفات وأخوف ما يخاف أن تخونه قواه فيلزم الفراش كالميت وليس بميت مثل الكثيرين من أصدقائه وأحبّائه، وهٰذه الأفكار التي تحوم حوله كالذباب فيستعيذ بالله من شرّها، أجل ينبغي أن يسمع الأغاني القديمة ولو لينام على الأنغام...

ـ اتركي الراديو مفتوحًا حتّى لو نمت...

فهزّت رأسها بالإيجاب باسمة، فعاد يقول متنهّدًا:

ـ ما أشقّ السلّم عليّ!.

ـ استرح يا سيّدي عند كلّ بسطة...

ـ لٰكنّ جوّ السلّم شديد الرطوبة، ما ألعن هٰذا الشتاء... «ثمّ متسائلًا»... أراهن على أنّك زرت الحسين كالعادة رغم هٰذا البرد...

فقالت في حياء وارتباك:

ـ في سبيل زيارته يهون كلّ صعب يا سيّدي...

ـ الحقّ عليّ وحدي!...

فقالت في استرضاء:

ـ إنّي أطوف بالضريح الطاهر وأدعو لك بالصحّة والعافية.

ما أمسّ حاجته إلى صادق الدعاء، فكلّ طيّب يدبر عنه، حتّى الدشّ البارد الذي اعتاد أن ينعش به جسده كلّ صباح حُرم عليه لخطورته ـ فيما قيل ـ على شرايينه، وإذا صار كلّ طيّب ضارًّا فليرحمنا الله. ومضى وقت قصير ثمّ ترامت إلى الحجرة صفقة باب البيت وهو يغلق فرفعت أمينة عينيها متمتمة «كمال». ولم تكد تمرّ دقائق حتّى دخل كمال الحجرة في معطفه

الأسود الذي نمّ على نحافته وطوله، يتطلّع إلى أبيه خلال نظّارته الذهبيّة، وقد أضفى عليه شاربه المربّع الغزير الأسود وقارًا ورجولة. انحنى على يد والده مسلّمًا فدعاه إلى الجلوس وهو يسأله كالعادة باسمًا:

ـ أين كنت يا أستاذ؟

وكان كمال يحبّ هٰذه اللهجة الودّيّة اللطيفة التي لم يحظ بها إلّا بعد عمر طويل، فأجاب وهو يجلس على الكنبة:

ـ كنت في القهوة مع الأصحاب.

ترى أيّ نوع من الأصحاب؟ بيد أنّه يبدو جادًّا رزينًا وقورًا أكثر من سنّه، ثمّ إنّ أكثر لياليه تقضى في مكتبته، شتّان ما بينه وبين ياسين، وإن كان لكلّ آفته، وعاد يسأله باسمًا:

ـ أشهدت اليوم المؤتمر الوفديّ؟

ـ نعم، وسمعنا خطبة مصطفى النحّاس، كان يومًا مشهودًا.

ـ قيل لنا إنّه كان حدثًا عظيمًا ولكنّي لم أستطع حضوره فنزلت عن بطاقة الدعوة لأحد الأصدقاء، لم تعد الصحّة تحتمل التعب...

فداخل كمال العطف وتمتم:

ـ ربّنا يقوّيك...

ـ ألم تقع حوادث؟

ـ كلّا مرّ اليوم بسلام، واكتفى البوليس بخلاف عادته بالمراقبة...

فهزّ الرجل رأسه في ارتياح، ثمّ قال في لهجة ذات معنى:

ـ نعود لموضوعنا القديم، ألا زلت عند رأيك الخاطئ عن الدروس الخصوصيّة؟!

لم يزل يشعر بالارتباك والحرج كلّما وجد نفسه مضطرًّا إلى إعلان مخالفته لرأي والده، فقال برقّة:

ـ لقد انتهينا من هٰذا الموضوع!

ـ في كلّ يوم يطلب إليّ أصدقاء أن تعطي دروسًا خصوصيّة لأبنائهم، لا ترفض الرزق الحلال، إنّ الدروس الخصوصيّة مصدر رزق واسع للمدرّسين، والذين يطلبونك من أعيان الحيّ...

فلم ينبس كمال بكلمة وإن نطق وجهه بالرفض المؤدّب، فعاد الرجل يقول متأسّفًا:

ـ تأبى هٰذا كي تضيّع وقتك في قراءة لا نهاية لها وكتابة بلا أجر، أيصحّ هٰذا من عاقل مثلك؟

وهنا خاطبت أمينة كمال قائلة:

ـ ينبغي أن تحبّ المال كما تحبّ العلم (ثمّ موجّهة الخطاب إلى السيّد وهي تبتسم في خيلاء) إنّه كجدّه لا يعدل بحبّ العلم شيئًا...

فقال السيّد متأفّفًا:

ـ رجعنا إلى جدّه!... يعني كان الإمام محمّد عبده؟!

ومع أنّها لم تعرف شيئًا عن الإمام إلّا أنّها قالت بحماس:

ـ لِمَ لا يا سيّدي؟!. كان كلّ الجيران يقصدونه في شئون دينهم ودنياهم!

فغلبت روح الفكاهة على السيّد فقال ضاحكًا:

ـ مثله الآن كلّ عشرة بقرش!

واحتجّ وجه المرأة دون لسانها. وابتسم كمال بعطف وارتباك، واستأذن في الانصراف ثمّ غادر الحجرة. وفي الصالة اعترضت نعيمة طريقه لتريه فستانها الجديد، وذهبت لتجيء به، فجلس إلى جانب عائشة ينتظر، كان ـ كبقيّة أهل البيت ـ يجامل عائشة في شخص نعيمة، ولكنّه إلى هٰذا كان معجبًا بالفتاة الحسناء إعجابه بأمّها قديمًا. وجاءت نعيمة بالفستان فبسطه على يديه وراح يتفحّصه وهو يبدي الإعجاب، وكان يتأمّل صاحبة الفستان بعطف وحبّ. مأخوذًا بجمالها البديع الهادئ الذي اكتسى من صفائها ورقّتها نورانيّة ذات بهاء. ومضى عن المكان بقلب لا يخلو من شجن، إنّ مصاحبة أسرة حتّى شيخوختها لمـمّا يُحزِن. ليس ممّا يهون أن يرى أباه في وهنه بعد سطوة وجبروت أو يرى ذبول أمّه وتواريها وراء الكبر، أو يرى انحلال عائشة وتدهورها، هٰذا الجوّ المشحون بنذر التعاسة والنهاية. ورقي في السلّم إلى الدور الأعلى ـ شقّته كما يسمّيه ـ حيث يعيش منفردًا بين حجرة نومه ومكتبته المطلّتين على بين القصرين. وخلع ملابسه ومضى

مرتديًا جلبابه متلفعًا بالروب إلى المكتبة، وكانت مكوّنة من مكتب كبير فيما يلي المشربيّة وصفّين من خزانات الكتب على جانبيها. وكان يريد أن يقرأ فصلًا على الأقلّ في كتاب «منبعا الدين والأخلاق» لبرجسون، وأن يراجع مراجعة أخيرة مقاله الشهريّ لمجلّة «الفكر» الذي اتّفق أن كان عن البراجمتزم. هٰذه السويعات الموهوبة للفلسفة، التي تمتدّ حتّى منتصف الليل هي أسعد أوقات يومه، وهي التي يشعر فيها - على حدّ تعبيره - بأنّه إنسان، أمّا بقيّة اليوم الذي ينقضي في عمله كمدرّس بمدرسة السلحدار الابتدائيّة أو في إشباع شتّى مطالب الحياة الضروريّة، فمداره الحيوان الكامن فيه، المستهدِف أبدًا تأمين ذاته وتحقيق شهواته، ولم يكن يحبّ عمله الرسميّ ولا يحترمه، ولكنّه لم يعلن سخطه، خاصّة في بيته، أن يشمت به الشامتون، ومع ذٰلك فقد كان مدرّسًا ممتازًا حائزًا للتقدير، وكان الناظر يعهد إليه ببعض النشاط المدرسيّ، حتّى رمى نفسه متفكّهًا بالعبوديّة، أليس هو العبد الذي يتقن العمل الذي لا يحبّه؟!. والحقّ أنّ ولعه بالتفوّق الذي اعتاده منذ الصغر هو الذي دفعه إلى الاجتهاد والامتياز دفعًا لا هوادة فيه. وقد صمّم من بادئ الأمر على أن يكون شخصيّة محترمة بين التلاميذ والمدرّسين فكان له ما أراد، بل كان شخصيّة محترمة ومحبوبة معًا، رغم رأسه وأنفه العظيمين... ولا شكّ أنّه كان لهما - رأسه وأنفه - أو كان لإحساسه الأليم بهما الفضل الأوّل في هٰذا التصميم القويّ الذي خلق منه هٰذه الشخصيّة المهابة. كان يعلم بأنّ رأسه وأنفه سيثيران من حوله الفتن فاستلّ عزمه ليردّ عنهما وعنه كيد العابثين. أجل لم ينجُ أحيانًا من غمز وتعريض في أثناء الدرس أو في ملعب المدرسة، فكان يلقى الهجوم بحزم شديد، ثمّ يلطّفه بعطفه المطبوع، إلى ما أثر عنه من مقدرة في الشرح والتفهيم، وما يأخذ فيه بين آونة وأخرى من موضوعات طريفة حماسيّة تمسّ القوميّة أو ذكريات الثورة، كلّ أولئك جعله يستميل إليه «الرأي العامّ» بين التلاميذ، وكان ذٰلك إلى حزمه المتوثّب عند الضرورة - كفيلًا بالقضاء - على الفتن في مهدها!. ولَشَدَّ ما آلمه أوّل الأمر الغمز الجارح، ولَشَدَّ ما استثار المنسيّ من أحزانه، بيد أنّه سُرَّ آخر الأمر بالمنزلة الرفيعة التي بات يحتلّها في نفوس الصغار الذين كانوا يتطلّعون إليه بإعجاب وحبّ وإجلال. وواجهته مشكلة أخرى تتعلّق بمقالاته الشهريّة في مجلّة «الفكر»، وكان يخاف هٰذه المرّة الناظر والمدرّسين أن يسألوه عمّا يعرض فيها من فلسفات قديمة وحديثة تنقد أحيانًا العقائد والأخلاق بما لا يتّفق ومسئوليّة «المدرّس» ولٰكن من حسن الحظّ أنّ أحدًا من المسئولين لم يكن بين قرّاء «الفكر»، ثمّ تبيّن له بعد ذٰلك أنّ المجلّة لا تطبع أكثر من ألف نسخة يصدّر نصفها إلى البلاد العربيّة، فشجّعه ذٰلك على الكتابة إليها وهو آمن على نفسه ووظيفته. وفي هٰذه السويعات القلائل ينقلب «مدرّس اللغة الإنجليزيّة بالسلحدار الابتدائيّة» سائحًا حرًّا يجوب أجواء لا تُحَدّ من الفكر، فيقرأ ويدوّن الملاحظات التي يجمعها بعد ذٰلك في مقالاته الشهريّة، تحثّه على جهاده الرغبة في المعرفة وحبّ الحقيقة وروح المغامرة النظريّة والحنين إلى العزاء والتخفيف من جوّ الكآبة الذي يغشاه والشعور بالوحدة الذي يستكنّ في أعماقه. قد يلوذ من الوحشة بوحدة الوجود عند سبينوزا، أو يتعزّى عن هوان شأنه بالمشاركة في الانتصار على الرغبة مع شوبنهور، أو يهوّن من إحساسه بتعاسة عائشة بجرعة من فلسفة ليبنتز في تفسير الشرّ، أو يروي قلبه المتعطّش إلى الحبّ من شاعريّة برجسون، بيد أنّ جهاده المتواصل لم يجد في تقليم مخالب الحيرة التي تبلغ حدّ العذاب، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الآدميّ دلالًا وتمنّعًا ولعبًا بالعقول وإثارة للشكّ والغيرة مع إغراء عنيف بالتملّك والوصال، وهي كالمعشوق الآدميّ عرضة لأن تكون ذات وجوه وأهواء وتقلّبات، ولا تخلو في كثير من الأحايين من مكر وخداع وقسوة وكبرياء، وكان إذا ركبته الحيرة وأعياه الجهد يقول متعزّيًا «قد أكون معذّبًا حقًّا ولٰكنّني حيّ، إنسان حيّ، ولن تكون حياة الإنسان الخليقة بهٰذا الاسم بلا ثمن!».

٢

مراجعة الدفاتر وضبط الحسابات وتسوية ميزانيّة

اليوم السابق، كلّ ذٰلك كان أحمد عبد الجواد يؤدّيه على خير الوجوه وبالدقّة المعهودة فيه من قديم غير أنّه يؤدّيه اليوم بمشقّة لم يكن يجدها من قبل أن يركبه العمر والمرض. وكان منظره وهو منكبّ على دفاتره تحت لافتة البسملة، وشاربه الفضّيّ يكاد يختفي تحت أنفه الكبير الذي زاده ضمور الوجه ضخامة، كان ذٰلك المنظر ممّا يستحقّ العطف، غير أنّ منظر وكيله ومساعده جميل الحمزاوي الذي كان يهدف إلى السبعين كان ممّا يستحقّ الرثاء، ولم يكن يفرغ من زبون حتّى يتهالك على مقعده وهو يلهث فكان أحمد يقول لنفسه في شيء من الامتعاض «لو كنّا موظّفين لأغنانا المعاش في مثل سنّنا من الكدّ والعمل!». ورفع السيّد رأسه عن الدفتر وهو يقول:

ـ لا زالت الحالة متأثّرة بعض الشيء بالأزمة الاقتصاديّة...

فارتسم الامتعاض على شفتي الحمزاوي الباهتتين وقال:

ـ بدون شكّ، غير أنّ هٰذا العام خير من العام السابق، والعام السابق خير من الذي قبله، الحمد لله على أيّ حال...

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، تلك الفترة التي كان التجّار من أصحابها يسمّونها أيّام الرعب. حين استبدّ إسماعيل صدقي بالحياة السياسيّة وسيطر القحط على الحياة الاقتصاديّة، ويقبّلون الأكفّ وهم يتساءلون عمّا يخبّئ لهم الغد، وقد كان من المحظوظين بغير شكّ لأنّ ضيقته لم تبلغ به الإفلاس الذي تهدّده عامًا بعد عام.

ـ أجل الحمد لله على أيّ حال...

ووجد جميل الحمزاوي يرنو إليه بنظرة غريبة، فيها تردُّد وحرج، ماذا عنده يا ترى؟. وقام الرجل فقرّب مقعده من المكتب ثمّ جلس وهو يبتسم في ارتباك. وكان البرد قاسيًا رغم سطوع الشمس، وكان للهواء حملات قويّة ارتجّت لها الأبواب والنوافذ وتعالى الصفير. قال السيّد وهو يعتدل في جلسته:

ـ هاتِ ما عندك، إنّي موقن بأنّك ستقول شيئًا هامًّا.

فخفض الحمزاوي عينيه وقال:

ـ موقفي لا أحسد عليه، ولا أدري كيف أتكلّم...

فقال السيّد مشجّعًا:

ـ ولٰكنّي عاشرتك أكثر ممّا عاشرت أهلي فتستطيع أن تفضي إليّ بكلّ ما في نفسك...

ـ العشرة هي التي تصعب عليّ يا سي السيّد...

العشرة؟!. لم يخطر له هٰذا على بال...

ـ أتريد؟... حقًّا!

قال الحمزاوي بحزن:

ـ آن لي أن أعتزل، الله لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها...

وانقبض قلب السيّد، فاعتزال الحمزاوي للعمل ليس إلّا نذيرًا له بالاعتزال، كيف ينهض بأعباء العمل في دكّانه وهو على ما هو عليه من مرض وكبر؟. ونظر إلى وكيله في حيرة فعاد الرجل يقول متأثّرًا:

ـ إنّي آسف جدًّا، ولٰكنّي لم أعد أطيق العمل، ولّى ذٰلك الزمان، غير أنّي دبّرت الأمر فلن أتركك وحدك، سيملأ مكاني من هو أقدر منّي...

إنّ ثقته في أمانة الحمزاوي قد رفعت عن كاهله نصف متاعبه، فكيف يعود ابن الثالثة والستّين إلى ملازمة الدكّان من طلعة الشمس إلى مغيبها؟. قال:

ـ ولٰكنّ اعتزال العمل والقبوع في البيت يسرعان بالإنسان إلى التدهور، ألا ترى هٰذا في أصحاب المعاش من الموظّفين؟

فقال الحمزاوي باسمًا:

ـ التدهور موجود قبل الاعتزال.

وضحك السيّد فجأة كأنّما ليداري الحرج الذي شعر به مقدّمًا قبل أن يقول له:

ـ يا عجوز يا مكّار، أنت تهجرني تلبية لإلحاح ابنك فؤاد.

فهتف الحمزاوي متأثّرًا:

ـ معاذ الله، إنّ حالتي الصحّيّة لا تخفى على أحد، وهي السبب الأوّل والأخير...

من يدري؟. فؤاد وكيل نيابة ومثله لا يرتاح لبقاء أبيه عاملًا بسيطًا في دكّان ولو كان صاحب الدكّان هو

الذي مهّد له السبيل ليتبوّأ مركزه في النيابة، ولٰكنّه شعر بأنّ تصريحه قد آلم وكيله الطيّب فتراجع متسائلًا في لطف:

ـ متى يُنقل فؤاد إلى القاهرة؟

ـ في صيف هٰذا العام أو في صيف العام القادم على الأكثر...

ومضت فترة سكون مشحونة بالحرج حتّى قال الحمزاوي مجاريًا السيّد في لطفه:

ـ وإذا أقام معي في القاهرة وجب التفكير في تزويجه، أليس كذٰلك يا سي السيّد؟ إنّه ابني الوحيد على سبع بنات، ولا بدّ من تزويجه، وكلّما فكّرت في ذٰلك جرت في خاطري الآنسة المهذّبة حفيدتك...

واسترق إلى وجه السيّد نظرة استطلاع ثمّ تمتم:

ـ لسنا قدّ المقام طبعًا...

فلم يَسَعِ السيّد إلّا أن يقول:

ـ أستغفر الله يا عمّ جميل، نحن أخوان من قديم الزمن...

ترى أحرّضه فؤاد على جسّ النبض؟. وكيل نيابة شيء عظيم والعبرة في الأصل بالطيبة، ولٰكن أهٰذا وقت التحدّث في الزواج؟

ـ حدّثني أوّلًا أأنت مصمّم على اعتزال العمل؟

وجاءه صوت من باب الدكّان يقول:

ـ يا ألف صباح الخير...

ـ أهلًا وسهلًا... (ثمّ وهو يشير إلى المقعد الذي أخلاه الحمزاوي) تفضّلي...

جلست زبيدة بجسم قد ترهّل، ووجه قد تقنّع بالأصباغ، أمّا الحليّ فلم يعد لها أثر في عنقها أو أذنيها أو ساعديها، ولا للجَمال القديم مكان، وجعل السيّد يرحّب بها كعادته مع كلّ زائر لا أكثر، أمّا قلبه فلم يرتح للزيارة، فما من مرّة تجيئه إلّا وترهقه بالمطالب. سألها عن الصحّة فأجابت وهي لا تعني شيئًا «الحمد لله» وقال لها بعد هنيهة صمت... أهلًا... أهلًا، فابتسمت شاكرة ولٰكن بدا أنّها استشعرت الفتور الكامن في مجاملاته. وضحكت متجاهلة الجوّ الذي يكتنفها. وكانت الأيّام قد علّمتها البرود، ثمّ قالت:

ـ لا أحبّ أن أضيّع وقتك وأنت مشغول، ولٰكنّك أنبل مَن عرفت في حياتي، فإمّا أن تمدّني بسلفة أخرى، وإمّا أن تجد لبيتي شاريًا، ويا حبّذا لو تكون أنت الشاري!

فقال أحمد عبد الجواد متنهّدًا:

ـ أنا؟!. يا ليت، الزمن غير الزمن يا سلطانة، طالما صارحتك بالحقيقة ولٰكن يبدو أنّك لا تصدّقين يا سلطانة...

فضحكت ضحكة دارت بها خيبة أملها وقالت:

ـ السلطانة مفلسة، فما العمل؟

ـ في المرّة السابقة أعطيتك ما قدرت عليه، ولٰكنّ الحال لا يسمح بتكرار ذٰلك...

فتساءلت في قلق:

ـ ألا يمكن أن تجد لبيتي شاريًا؟

ـ سأبحث لك عن شارٍ. أعدك بذٰلك.

فقالت ممتنّة:

ـ هٰذا ما يُنتظر منك يا سيّد الكرماء (ثمّ بلهجة حزينة) ليست الدنيا وحدها التي تغيّرت ولٰكنّ الناس تغيّروا أكثر، سامح الله الناس، في أيّام العزّ كانوا يستبقون إلى تقبيل حذائي، والآن إذا لمحوني على جانب الطريق مالوا إلى الجانب الآخر.

لا بدّ أن يتنكّر للإنسان شيء، بل أشياء، الصحّة أو الشباب أو الناس، أمّا أيّام العزّ، أيّام الأنغام والحبّ فأين هي؟!

ـ ومن ناحية أخرى فأنت يا سلطانة لم تعملي للأيّام حسابها...

فتنهّدت آسفة وهي تقول:

ـ نعم، لست كأختك جليلة التي تتاجر بالأعراض وتقتني المال والبيوت، وفضلًا عن ذٰلك فقد ابتلاني الله بأولاد الحرام حتّى بلغ الفجر بحسن غير أنّه كان يبيعني شمّة الكوكايين ـ عندما ندر في الأسواق ـ بجنيه!

ـ لعنه الله.

ـ حسن عنبر؟... ألف لعنة!

ـ بل الكوكايين.

ـ والله الكوكايين أرحم من الإنسان.

ـ لا. . . لا، من المحزن حقًّا أنّك وقعت في شرّه.
فقالت بتسليم وقنوط:
ـ هَدّ حيلي وضيّع مالي، ما علينا، متى تجد لي شاريًا؟
ـ إن شاء الله عند أوّل فرصة.
فقالت في عتاب وهي تنهض:
ـ اسمع، إذا زرتك في المرّة القادمة فابتسم من قلبك، كلّ إساءة تهون إلّا التي تجيئني من ناحيتك، أنا عارفة أنّي أضايقك بمطالبي ولكنّي في ضيق لا يعلم به إلّا الله، وأنت أنبل الناس في نظري.
فقال لها معتذرًا:
ـ لا تتوهّمي ما ليس فيّ، الأمر أنّي كنت مشغولًا بمسألة هامّة عند قدومك، وهموم التجّار لا تنتهي كما تعلمين!
ـ رفع الله عنك الهموم.
فحنى رأسه شاكرًا وهو يوصلها، ثمّ ودّعها قائلًا:
ـ أهلًا بك من القلب في كلّ حين. . .
ولمح في عينيها نظرة خابية تفيض غمًّا فرقّ لها، وعاد إلى مجلسه منقبض الصدر فالتفت إلى جميل الحمزاوي وقال:
ـ دنيا. . .
ـ كفاك شرّها وأطعمك خيرها.
غير أنّ نبرات الحمزاوي قست وهو يستدرك قائلًا:
ـ ولكنّها عاقبة عادلة لامرأة مستهترة!
فهزّ أحمد عبد الجواد رأسه هزّة مقتضبة سريعة كأنّما يعلن بها احتجاجًا صامتًا على قسوة هٰذه الموعظة، ثمّ سأله بصوت رجع به إلى النغمة التي قطعها مجيء زبيدة:
ـ ألا تزال مصمّمًا على رأيك في هجرنا؟
فقال الرجل في حرج:
ـ ليس هجرًا ولكنّه تقاعد وأنا آسف من كلّ قلبي.
ـ كلام كالذي داريت به زبيدة منذ دقيقة!
ـ أستغفر الله، إنّي أتكلّم من قلبي، ألا ترى يا سيّدي أنّ الكبر يكاد يعجزني؟
ثمّ دخل الدكّان زبون فمضى الحمزاوي إليه، وإذا بصوت عتيق يتعالى من الباب قائلًا في لهجة الغزل:
ـ من هٰذا الذي يجلس وراء المكتب كالقمر؟!
بدا الشيخ متولّي عبد الصمد في جلباب خشن رثّ لا لون له، ومركوب متفزّز، معصوب الرأس بتلفيعة من وبر، مستند القامة على عكّاز، وكان يرمش بعينيه الحمراوين مسدّدًا بصره نحو الجدار الملاصق لمكتب السيّد وهو يظنّ أنّه يسدّده نحوه. . . فابتسم السيّد رغم همّه قائلًا:
ـ تعال يا شيخ متولّي، كيف حالك؟
فكشف الرجل عن فم لم يبقَ فيه ناب واحد وهو يهتف:
ـ يا ضغط زُلْ، يا صحّة عودي إلى سيّد الناس. . .
وقام السيّد فاتّجه نحوه فاعتدل بصر الشيخ إليه ولكنّه تراجع في الوقت نفسه كالهارب، ثمّ جعل يدور حول نفسه، مشيرًا إلى الجهات الأربع وهو يصيح «من هنا تفرج. . . ومن هنا تفرج». ثمّ تحوّل إلى الطريق قائلًا:
ـ ليس اليوم، غدًا، أو بعد غد، قل الله أعلم. . .
ومشى في خطوات واسعة لا يناسب نشاطها مظهره البالي. . .

٣

يوم الجمعة رجعت الفروع إلى الأصل وعمر البيت القديم بالأبناء والأحفاد، ذٰلك تقليد سعيد لم ينقطعوا عنه. ولم تعد أمينة «بطلة» يوم الجمعة كما كانت قديمًا، فأمّ حنفي تبوّأت المركز الأوّل في المطبخ، ولم تكن أمينة تني عن تذكير القوم بأنّ أمّ حنفي تلميذتها فإنّ غرامها بالثناء كان يتشجّع على الإفصاح عن ذاته كلّما شعرت بقلّة استحقاقها له، إلى أنّ خديجة ـ رغم أنّها في حكم الضيفة ـ لم تقصّر في إهداء معونتها. وقبيل ذهاب السيّد إلى الدكّان التفّ به الضيوف، إبراهيم شوكت وابناه عبد المنعم وأحمد، وياسين وابناه رضوان وكريمة، يكتنفهم ذٰلك الخشوع الذي يجعل من ضحكهم ابتسامًا ومن حديثهم همسًا. وكان السيّد يجد في حضورهم سرورًا يزداد تعلّقًا به كلّما تقدّم به

العمر، فعتب على ياسين انقطاعه عن زيارته في الدكّان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة، ألا يريد هٰذا البغل أن يفهم أنّه يتوق إلى رؤيته كلّ حين؟. وابنه رضوان جميل المحيّا ذو العينين المكحولتين والبشرة الورديّة الذي يعكس جماله ألوانًا متنوّعة تذكّره مرّة بياسين ومرّة بهنيّة أمّ ياسين وثالثة بصديقه الحبيب محمّد عفّت فهٰذا أحبّ الأحفاد إلى قلبه، وكريمة أخته مصغّر شابّة في الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجًا عجيبًا كما تشهد عيناها السوداوان ـ عينا زنّوبة أمّها ـ اللتان يبسم لهما خاطره ابتسامة نديّة بالحياء والذكريات. أمّا عبد المنعم وأحمد فحسبه أن يرى في وجهيهما قدرًا لا يُستهان به من أنفه العظيم كما يرى عيني خديجة الصغيرتين، غير أنّهما أجرأ من الآخرين في مخاطبته، وكلّهم ـ هٰؤلاء الأحفاد ـ يشقّون طريق دراستهم بنجاح يدعو إلى الفخار، لٰكنّهم يبدون مشغولين بأنفسهم عن جدّهم، فمن ناحية يعزّونه بأنّ حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكّرونه بأنّ شخصه يتراجع رويدًا عن مركز الاهتمام الذي كان يستأثره، ولم يكن ذٰلك ليحزنه، فإنّ الإيغال بالعمر يجيء بالحكمة كما يجيء بالوهن والمرض. ولٰكن هيهات أن يمنع ذٰلك الذكريات من أن تتدفّق، عندما كان مثل هٰؤلاء في مطلع العمر، وعندما كان العام ١٨٩٠، وكان يتعلّم قليلًا ويلهو كثيرًا ما بين مغاني الجماليّة ومرتاد الأزبكيّة، وفي ركابه يجري محمّد عفّت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وكان أبوه يملأ الدكّان نفسها يزجر وحيده قليلًا، ويرقّ له كثيرًا، وكان العمر صفحة مطويّة مكتظّة بالآمال، ثمّ كانت هنيّة... ولٰكن مهلًا! لا ينبغي أن تستخفّه الذكريات.

وقام ليصلّي العصر فكان ذٰلك إيذانًا بالانصراف، ثمّ ارتدى ملابسه ومضى إلى الدكّان، وتجمّعوا هم في مجلس القهوة حول مجمرة الجدّة، في جوّ التلاقي والسمر. احتلّت الكنبة الرئيسيّة أمينة وعائشة ونعيمة، أمّا الكنبة اليمنى فجلس عليها ياسين وزنّوبة وكريمة، وعلى الكنبة اليسرى قعد إبراهيم شوكت وخديجة وكمال، على حين اتّخذ رضوان وعبد المنعم وأحمد مجالسهم على كراسيّ توسّطت الصالة تحت المصباح الكهربائيّ. وكان إبراهيم شوكت كعادته التي لم يغيّرها الزمن ينوّه بألوان الطعام التي أعجبته، غير أنّ تنويهه اقتصر في الفترة الأخيرة على فضل الأستاذة على تلميذتها النجيبة، وكانت زنّوبة تعيد ثناءه كالصدى فإنّها لم تكن تهمل فرصة يمكن أن تتودّد بها إلى أحد من أهل زوجها. والحقّ أنّها مذ فُتحت لها أبواب آل زوجها وأُتيحت لها مخالطتهم وهي تعمل بلباقة على توثيق علاقتها بهم، لأنّها عدّت ذٰلك اعترافًا بمكانتها بعد أن انقضت أعوام وهي تعيش في عزلة كالمنبوذة.

وكان موت وليد لياسين السبب الحقيقيّ في زيارة أهله لبيته للتعزية، فصافحت يدها أيديهم لأوّل مرّة منذ زواجها، وتشجّعت بذٰلك فزارت السكّريّة، ثمّ زارت بين القصرين عند اشتداد المرض على السيّد، بل أقدمت على زيارته في حجرته فتقابلا كشخصين جديدين لا تاريخ مشتركًا بينهما. هٰكذا اندمجت زنّوبة في آل أحمد حتّى غدت تخاطب أمينة فتقول لها يا تيزة وتنادي خديجة فتقول لها يا أختي، وبدت دائمًا مثالًا للاحتشام، وعلى خلاف نساء الأسرة أنفسهنّ تجنّبت التبرّج خارج بيتها، حتّى بدت أكبر من سنّها، إذ بادر الذبول إلى جمالها قبل الأوان، فلم تصدّق خديجة أبدًا أنها في السادسة والثلاثين، ولٰكنّها استطاعت أن تفوز من الجميع بشهادة طيّبة لها حتّى قالت عنها أمينة يومًا «لا شكّ أنّ أصلها طيّب، ربّما أصلها البعيد، فليكن، ولٰكنّها بنت حلال، هي الوحيدة التي عمّرت مع ياسين!». وبدت خديجة في شحمها ولحمها أضخم من ياسين نفسه، ولم تكن تنكر أنّها سعيدة بذٰلك، كما كانت سعيدة بعبد المنعم وأحمد وحياتها الزوجيّة الموفّقة عامّة، بيد أنّها لم تكفّ يومًا عن التشكّي اتّقاء العين.

وقد تغيّرت معاملتها لعائشة تغيّرًا كلّيًّا فلم تندّ عنها طوال ثمانية أعوام كلمة واحدة تنمّ عن سخرية أو خشونة ولو على سبيل المهازحة، بل حرصت الحرص كلّه على الترفّق بها والتودّد إليها وملاطفتها، خشوعًا حيال تعاستها وخوفًا من الأقدار التي قضت عليها بما قضت، وإشفاقًا من أن تضع المرأة المحزونة حظّيهما موضع المقارنة، وقد وقفت موقفًا كريمًا يوم حتّمت على

إبراهيم شوكت أن ينزل عن حقّه المشروع في ميراث أخيه المتوفّى لنعيمة فآلَ الميراث كلّه لعائشة وكريمتها دون شريك. وأملت خديجة أن يذكر صنيعها في حينه ولكنّ عائشة استغرقها ذهول غيّب عنها كرم أختها فلم يقعد ذٰلك بخديجة عن غمرها بالعطف والرحمة والتسامح كأنّما انقلبت أمًّا أخرى لها، ولم تكن تطمع في أكثر من رضائها ومودّتها كي تطمئنّ على أسباب التوفيق التي هيّأها لها الله. وأخرج إبراهيم شوكت علبة سجائره وقدّمها لعائشة فتناولت سيجارة شاكرة، وتناول أخرى وراحا يدخّنان. كثيرًا ما يكون إفراط عائشة في التدخين وتعاطي القهوة ملتقى ملاحظات وإن تكن تقابل منها عادة بهزّ الكتفين. أمّا أمّها فتقنع بأن تقول في لهجة الدعاء «ربّنا يصبّرها» وأمّا ياسين فكان أجرأ الأهل في نصحها كأنّما قد أهّله لذلك فَقْد وليده، غير أنّ عائشة لم تكن تعدّه مصابًا مثلها وتضنّ عليه بمكانة مرموقة في دولة المبتلين إذ إنّ ابنه مات وهو دون العام لا كعثمان أو محمّد، والواقع أنّ حديث المصائب كان يبدو كثيرًا هوايتها المفضّلة، كأنّما كانت تعتزّ بدرجتها الممتازة في دنيا الشقاء، واستمع كمال إلى ما يدور من حديث عن المستقبل بين رضوان وعبد المنعم وأحمد فأرهف السمع باسمًا، وكان رضوان ياسين يقول:

ـ كلّنا من القسم الأدبي، فليس أمامنا كلّيّة جديرة بالاختيار إلّا الحقوق.

فأجابه عبد المنعم إبراهيم شوكت بصوته القويّ المفعم بنبرات التوكيد، وكان يهزّ رأسه الضخم الذي جعله أقرب الشبّان شبهًا إلى كمال:

ـ مفهوم... مفهوم، ولكنّه لا يريد أن يفهم!

وأومأ عند عبارته الأخيرة إلى أخيه أحمد الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، فانتهز إبراهيم شوكت الفرصة وقال مشيرًا إلى أحمد أيضًا:

ـ ليدخل الآداب إذا شاء ولكن عليه أن يقنعني بقيمتها، أنا أفهم الحقوق ولكنّني لا أفهم الآداب!

وغضّ كمال بصره فيما يشبه الأسى، إذ عاودته أصداء نقاش قديم عن الحقوق والمعلّمين. إنّه لا زال يتنفّس في جوّ الآمال القديمة، بيد أنّ الحياة تجبهه بصدمات قاسية كلّ يوم، فوكيل النيابة مثلًا لا يحتاج إلى تعريف أمّا كاتب مقالات مجلّة «الفكر» فربّما احتاج إلى تعريف أكثر من مقالاته الغامضة نفسها!. ولم يدعه أحمد إبراهيم شوكت لحيرته فنظر إليه بعينيه الصغيرتين البارزتين وهو يقول:

ـ إنّي أترك الجواب لخالي كمال...

وابتسم إبراهيم شوكت ابتسامة يداري بها حرجه، أمّا كمال فقال دون حماس:

ـ ادرُسْ ما تشعر بأنّه يوافق موهبتك.

وبدا الظفر في وجه أحمد فردّد رأسه الرشيق بين أخيه وأبيه غير أنّ كمال عاد يقول:

ـ ولكن ينبغي أن تعلم أنّ الحقوق تفتح لك مجالًا من الحياة العمليّة الممتازة لا تستطيعه الآداب. سيكون مستقبلك إذا اخترت الآداب في التعليم وهو مهنة شاقّة ولا جاه لها...

ـ بل سأتّجه إلى العمل في الصحافة.

ـ الصحافة!... «صاح إبراهيم شوكت»... إنّه لا يدري ماذا يقول.

فقال أحمد مخاطبًا كمال:

ـ إنّ قيادة الفكر وقيادة عربة كارو شيء واحد في أسرتنا!

فقال رضوان ياسين باسمًا:

ـ إنّ أكبر قادة الفكر في وطننا من الحقوق...

فقال أحمد في كبرياء:

ـ إنّ الفكر الذي أعنيه شيء آخر!

فقال عبد المنعم شوكت عابسًا:

ـ وهو شيء مخيف هدّام، إنّي أعلم وأأسفاه بما تعني...

وعاد إبراهيم شوكت يقول لأحمد وهو ينظر إلى الآخرين كأنّما يشهدهم على ما يقول:

ـ فكّرْ قبل أن تقدم، إنّك لا زلت في السنة الرابعة، لن يعدو ميراثك المائة جنيه في العام، وإنّ بعض أصحابي يشكون مرّ الشكوى من أنّ أبناءهم الجامعيّين لا يجدون عملًا، أو يعملون كَتَبَةً بمرتّبات تافهة، وأنت حرّ بعد ذٰلك فيما تختار...

وتدخّل ياسين في المناقشة بأن اقترح قائلًا:

ـ لنسمع رأي خديجة، إنّها المدرّسة الأولى لأحمد، وهي أقدرنا على الاختيار بين الحقوق والآداب...

وامتلأت الثغور بالابتسام، حتّى أمينة ابتسمت وهي عاكفة على كنجة القهوة، بل حتّى عائشة ابتسمت، فتشجّعت خديجة بابتسامة عائشة فقالت:

ـ سأقصّ عليكم قصّة طريفة، أمس بعد العصر بقليل ـ والدنيا تظلم بسرعة في الشتاء كما تعرفون ـ كنت راجعة من الدرب الأحمر إلى السكّريّة، فشعرت كأنّ رجلًا يتبعني، وإذا به يمرّ بي تحت قبّة المتولّي وهو يقول «على فين يا جميل»، فالتفتّ نحوه قائلة: «على البيت يا سي ياسين!».

وضجّت الصالة بالضحك. ونظرت إليه زنّوبة نظرة ذات معنى تجلّى فيها الانتقاد واليأس، أمّا ياسين فجعل يشير للضاحكين بيده حتّى عاد السكون، ثمّ تساءل:

ـ أمن المعقول أن يصيبني العمى إلى هذا الحدّ؟

فحذّره إبراهيم شوكت قائلًا:

ـ حاسب!.

أمّا كريمة فأمسكت بيد أبيها وضحكت كأنّها رغم كونها بنت ثمانية قد فهمت المقصود من قصّة عمّتها، وقالت زنّوبة تعليقًا على الحال:

ـ شرّ الأمور ما يضحك.

وحدج ياسين خديجة بنظرة مغيظة وهو يقول «حفرت لي حفرة يا بنت الإيه» فقالت خديجة:

ـ إذا كان أحد في الموجودين في حاجة إلى الآداب فهو أنت لا أحمد ابني المجنون!.

وصدّقت زنّوبة على قولها، أمّا رضوان فدافع عن أبيه ودعاه بالبريء المظلوم، وظلّ أحمد ينظر إلى كمال متعلّقًا به كالأمل، أمّا عبد المنعم فكان يسترق النظر إلى نعيمة التي تبدّت لصق أمّها كالوردة البيضاء، وكانت كلّما شعرت بعينيه الصغيرتين تورّد وجهها الشاحب الرقيق، حتّى عاد إبراهيم شوكت يقول مغيّرًا مجرى الحديث مخاطبًا أحمد:

ـ انظر إلى الحقوق وكيف جعلت من ابن الحمزاوي وكيل نيابة قدّ الدنيا...

شعر كمال كأنّ هذا القول انتقاد مرّ موجّه إلى شخصه، أمّا عائشة فقالت لأوّل مرّة:

ـ إنّه يريد أن يخطب نعيمة.

وفي فترة الصمت التي استُقبل بها الخبر قالت أمينة:

ـ أبوه فاتح جدّها أمس...

وتساءل ياسين جادًّا:

ـ وهل وافق أبي؟

ـ هذا سابق لأوانه.

فتساءل إبراهيم شوكت بحذر وهو ينظر إلى عائشة:

ـ وما رأي عائشة هانم؟

فقالت عائشة دون أن تنظر إلى أحد:

ـ لا أدري...

فقالت خديجة وهي تتفحّصها بعمق:

ـ ولٰكنّكِ أنتِ الكلّ في الكلّ...

وأراد كمال أن يشهد بشهادة طيّبة لصديقه فقال:

ـ فؤاد شابّ ممتاز حقًّا...

فقال إبراهيم شوكت بحذر كالمتسائل:

ـ أظنّ أهله من السوقة؟!.

فقال عبد المنعم شوكت بصوته القويّ:

ـ نعم، خاله مكّاريّ، وخاله الآخر فرّان، وعمّه كاتب محامٍ (ثمّ بلهجة استدراكية ضعيفة) ولٰكن هٰذا لا ينقص من قدر الإنسان فالإنسان بنفسه لا بأهله!.

وأدرك كمال أنّ ابن أخته يريد أن يقرّر حقيقتين يؤمن بهما على تنافرهما، أوّلًا وضاعة أصل فؤاد، وثانيًا أنّ وضاعة الأصل لا تنقص من قدر الشخص. بل أدرك أكثر من هٰذا أنّه يحمل في الأولى على فؤاد وأنّه يكفّر في الثانية عن حملته الظالمة مرضاة لعقيدته الدينيّة القويّة. ومن عجب أنّ تقرير هاتين الحقيقتين أراحه وكفاه شرّ الإفصاح عنها بنفسه، فإنّه كابن أخته لم يكن يؤمن بفوارق الطبقات، وكان مثله أيضًا يميل للحملة على فؤاد والحطّ من شأنه الذي يدرك خطورته وتفاهته هو بالقياس إليه. والظاهر أنّ أمينة لم ترتح لهٰذه الحملة فقالت:

ـ أبوه رجل طيّب، خدَمَنا العمر كلّه بأمانة وإخلاص.

فجمعت خديجة شجاعتها وقالت:

ـ ولٰكن ربّما عاشرت نعيمة ـ لو تمّ هٰذا الزواج ـ أناسًا ليسوا أهلًا للمعاشرة، الأصل كلّ شيء.

وجاءها تأييد من حيث لم ينتظر أحد، فقالت زنّوبة:

ـ صدقت، الأصل كلّ شيء!

واضطرب ياسين، واسترق إلى خديجة نظرة سريعة وهو يتساءل عن رجع قول زوجته في نفسها، وتعليقها الباطنيّ عليه وما يستدعيه ذٰلك إلى خواطرها عن عالم العوالم والتخت. حتّى لعن زنّوبة في سرّه على «قنزحتها» الفارغة واضطرّ أن يتكلّم ليغطّي على كلام زوجته، فقال:

ـ تذكّروا أنّكم تتحدّثون عن وكيل نيابة...

فقالت خديجة متشجّعة بسكوت عائشة:

ـ أبي الذي جعل منه وكيل نيابة، أموالنا نحن التي صنعته!

فقال أحمد شوكت في سخرية نطقت بها عيناه البارزتان اللتان تذكّران بالمرحوم خليل شوكت:

ـ نحن مدينون لأبيه أكثر ممّا هو مدين لنا!

فأشارت إليه خديجة بسبّابتها وهي تقول بلهجة ملؤها الانتقاد:

ـ أنت دائمًا ترمينا بكلام غير مفهوم.

فقال ياسين بلهجة مَن يأمل في إنهاء الموضوع:

ـ أريحوا أنفسكم فالكلمة الأخيرة لبابا...

وزّعت أمينة فناجيل القهوة، واتّجهت أعين الشباب إلى حيث جلست نعيمة لصق أمّها. قال رضوان لنفسه: بنت لطيفة وجميلة، ليته كان في الإمكان أن أصادقها وأزاملها، لو مشينا في الطريق معًا لاحتار الرجال أيّنا الأجمل!، وقال أحمد لنفسه أيضًا: جميلة جدًّا، ولٰكنّها كأنّما هي ملزوقة في خالتي بالغرا، ولا حظّ لها من الثقافة. أمّا عبد المنعم فقال: جميلة وستّ بيت وشديدة التقوى، لا يعيبها إلّا ضعفها، وحتّى ضعفها جميل، خسارة في عين فؤاد، ثمّ جاوز الحديث الباطنيّ فسألها:

ـ وأنت يا نعيمة خبّرينا عن رأيك؟

فتورّد الوجه الشاحب، وقطّبت ثمّ ابتسمت، وتوتّر حالها وهي تمزج الابتسام بالتقطيب لتخلص منهما معًا، ثمّ قالت في حياء واستياء:

ـ لا رأي لي، دعني وشأني!...

فقال أحمد ساخرًا:

ـ الحياء الكاذب...

ولٰكنّ عائشة قاطعته متسائلة:

ـ الكاذب؟!

فاستدرك قائلًا:

ـ الحياء موضة قديمة، ينبغي أن تتكلّمي وإلّا ضاعت منك الحياة...

فقالت عائشة بمرارة:

ـ إنّنا لا نعرف هٰذا الكلام.

فقال أحمد متشكّيًا دون أن يعبأ بنظرة أمّه المنذرة:

ـ أراهن على أنّ أسرتنا متأخّرة عن العصر الحديث بأربعة قرون!

فسأله عبد المنعم ساخرًا:

ـ لِمَ حدّدتها بأربعة؟

فقال دون اكتراث:

ـ على سبيل الرأفة!.

وإذا بخديجة توجّه الخطاب إلى كمال متسائلة:

ـ وأنت!... متى تتزوّج أنت؟!

بوغت كمال بالسؤال فتهرّب قائلًا:

ـ حديث قديم!

ـ وجديد في الوقت نفسه، ولن نتركه حتّى يجمع الله شملك على بنت الحلال...

تابعت أمينة الحديث الأخير باهتمام مضاعف، فزواج كمال أعزّ أمانيها، وكم رجته أن يحقّق أمنيتها حتّى تقرّ عينها بحفيد من صلب ابنها الوحيد، قالت:

ـ عرض عليه أبوه عرائس من أحسن الأسر، ولٰكنّه يتعلّل دائمًا بعذر أو بآخر...

ـ أعذار واهية، كم عمرك الآن يا سي كمال؟...

تساءل إبراهيم شوكت ضاحكًا...

ـ ثمانية وعشرون عامًا!... فات الوقت...

أنصتت أمينة إلى رقم العمر بدهش كأنّما لا تريد أن تصدّق، أمّا خديجة فاحتدّت وهي تقول:

ـ أنت مغرم بتكبير عمرك!.

أجل فهو الأخ الأصغر، فالكشف عن عمره كشف

غير مباشر عن عمرها. مع أنّ زوجها بلغ الستّين إلّا أنّها كانت تكره أن تذكر بأنّها في الثامنة والثلاثين، أمّا كمال فلم يكن يدري ماذا يقول، ولم يكن الموضوع في نظره ممّا يُحسم بكلمة، ولٰكنّه كان يشعر دائمًا أنّه مطالَب بإيضاح موقفه فقال بلهجة المعتذر:

ـ إنّي مشغول نهاري بالمدرسة وليلي بكتبي!.

فقال أحمد بحماس:

ـ حياة عظيمة يا خالي، ولٰكنّ الإنسان ينبغي مع ذٰلك أن يتزوّج.

وقال ياسين الذي كان أعرف الجميع بكمال:

ـ أنت تتجنّب الشواغل حتّى لا تشغلك عن طلب «الحقيقيّ» ولٰكنّ الحقيقة في هٰذه الشواغل، لن تعرف الحياة في المكتبة، ولٰكنّ الحقيقة في البيت والشارع...

فقال كمال ممعنًا في الهرب:

ـ تعوّدت أن أنفق مرتّبي لآخر ملّيم، ليس عندي مدّخر، كيف أتزوّج؟!

فقالت خديجة تحاصره:

ـ انْوِ الزواج مرّة وستعرف كيف تستعدّ له.

وقال ياسين ضاحكًا:

ـ إنّك تنفق مرتّبك لآخر ملّيم حتّى لا تتزوّج...

كأنّهما شيء واحد. ولكن لِمَ لَمْ يتزوّج رغم استجابة الظروف ورغبة الوالدين؟. أجل مضت فترة في ظلّ الحبّ فكان الزواج ضربًا من العبث، وتبعتها فترة حلّ محلّ الحبّ فيها بديل هو الفكر فاستغرق الحياة بنهم، وكانت فرحة الأفراح أن يعثر على كتاب جميل أو يظفر بنشر مقالة. وقال لنفسه إنّ المفكّر لا يتزوّج وما ينبغي له. كان ينظر إلى فوق ويظنّ أنّ الزواج سيحمله على النظر إلى تحت. وكان ـ وما زال ـ يلذّ له موقف المشاهد المتأمّل بقدر ما ينفر من الاندماج في ميكانيكيّة الحياة. وإنّه ليضنّ بحرّيّته كما يضنّ البخيل بماله، ثمّ إنّه لم يبقَ عنده من المرأة إلّا شهوة تُقضى، وإلى هٰذا كلّه فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضي أسبوع دون مسرّات فكريّة ولذّات جسديّة، ثمّ إنّه حائر يداخله الشكّ في كلّ شيء، والزواج نوع من الإيمان، قال:

ـ أريحوا أنفسكم، سأتزوّج عندما أرغب في الزواج.

فابتسمت زنّوبة ابتسامة أرجعتها إلى الوراء عشرة أعوام وتساءلت:

ـ ولِمَ لا ترغب في الزواج؟

فقال كمال فيما يشبه الضجر:

ـ الزواج حبّة وأنتم تجعلون منه قبّة...

ولٰكنّه كان يؤمن في أعماقه بأنّ الزواج قبّة لا حبّة، وكان يساوره شعور غريب بأنّه يوم يذعن للزواج فسيُقضى عليه قضاء مبرمًا. وأنقذه من موقفه صوت أحمد وهو يقول له:

ـ آن لنا أن نصعد إلى المكتبة.

فنهض مرحّبًا بدعوته، ومضى خارجًا وعبد المنعم وأحمد ورضوان في أثره، وصعدوا إلى حجرة المكتب لاستعارة بعض الكتب كعادتهم كلّما جاءوا إلى البيت القديم زائرين. وكان مكتب كمال يتوسّط الحجرة تحت المصباح الكهربائيّ بين صفّين من خزائن الكتب، فجلس إلى مكتبه على حين رأى الشبّان يطالعون عناوين الكتب المصفوفة على الأرفف، ثمّ اختار عبد المنعم كتاب «محاضرات في تاريخ الإسلام»، وجاء أحمد بكتاب «مبادئ الفلسفة»، ثمّ وقفوا حول مكتبه وهو يردّد بصره بينهم صامتًا، حتّى قال أحمد متضايقًا:

ـ لن أقرأ كما أحبّ حتّى أتقن لغة أجنبيّة واحدة على الأقلّ.

وتمتم عبد المنعم وهو يقرأ صفحات كتابه:

ـ لا أحد يعرف الإسلام على حقيقته.

فقال أحمد ساخطًا:

ـ أخي يتلقّى حقيقة الإسلام على يد رجل شبه عاميّ في خان الخليلي...

فصاح به عبد المنعم:

ـ صه يا زنديق!

ونظر كمال إلى رضوان متسائلًا:

ـ وأنت ألا تريد كتابًا؟

فأجاب عنه عبد المنعم:

ـ وقته مشغول بقراءة الجرائد الوفديّة!

فقال رضوان وهو يومئ إلى كمال:

ـ في هٰذا يتّفق معي عمّي!

عمّه لا يؤمن بشيء ورغم ذٰلك فهو وفديّ! كما أنّه

يشكّ في الحقيقة عامّة، ورغم ذٰلك فهو يتعامل مع الناس والواقع. تساءل وهو يردّد عينيه بين عبد المنعم وأحمد:

ـ وأنتما وفديّان كذٰلك فما وجه الغرابة؟. وكلّ وطنيّ فهو وفديّ، أليس كذٰلك؟

فقال عبد المنعم بصوته اليقينيّ:

ـ الوفد أفضل الأحزاب بلا ريب، ولٰكنّه في ذاته لم يعد مقنعًا كلّ الإقناع...

فقال أحمد ضاحكًا:

ـ إنّي أوافق أخي على رأيه هٰذا، أو بالأحرى لا أوافقه على رأي إلّا هٰذا، وربّما اختلفنا في درجة الإقناع الخاصّة بالوفد، أكثر من ذٰلك فإنّ الوطنيّة نفسها يجب أن تكون موضع استفهام، أجل إنّ الاستقلال فوق كلّ نزاع، أمّا معنى الوطنيّة بعد ذٰلك فينبغي أن يتطوّر حتّى يفنى في معنى أشمل وأسمى، وليس ببعيد أن ننظر في المستقبل إلى شهداء الوطنيّة كما ننظر الآن إلى ضحايا المعارك الحمقاء التي تنشب بين القبائل والأسر!

معارك حمقاء يا أحمق! فهمي لم يستشهد في معركة حمقاء، ولٰكن أين وجه اليقين؟. ورغم خواطره قال بحدّة:

ـ أيّ قتيل في سبيل شيء فوق نفسه فهو شهيد، وقد تتغيّر قِيَم الأشياء أمّا موقف الإنسان منها فهو قيمة لا تتغيّر...

وغادروا حجرة المكتب ورضوان يقول مخاطبًا عبد المنعم ردًّا على ملاحظة له:

ـ السياسة أخطر وظيفة في المجتمع...

ولمّا عادوا إلى مجلس القهوة كان إبراهيم شوكت يقول لياسين:

ـ وهٰكذا فنحن نربّي ونوجّه وننصح ولٰكن كلّ ولد يندمج في مكتبة، وهي عالم مستقلّ عنّا، يزحمنا فيه أناس غرباء، لا ندري عنهم شيئًا فما عسى أن نصنع؟!.

٤

كان الترام مكتظًّا حتّى لم يعد به موضع لواقف، وقد انحشر كمال بين الواقفين وكأنّه يطلّ عليهم بقامته الطويلة النحيلة. كانوا مثله ـ فيما بدا له ـ يقصدون مكان الاحتفال بالعيد الوطنيّ ـ عيد ١٣ نوفمبر ـ فردّد عينيه في الوجوه مستطلعًا ومرحّبًا.

والحقّ أنّه يشارك في هٰذه الأعياد كأشدّ المؤمنين بها وإن آمن في الوقت نفسه بألّا إيمان له. وكان الناس يتحادثون معلّقين على الموقف دون سابق تعارف مكتفين بوحدة الهدف وبرابطة «الوفديّة» التي ألّفت بين قلوبهم، قال أحدهم:

ـ عيد الجهاد هٰذا العام عيد جهاد بكلّ معنى الكلمة، أو هٰذا ما يجب أن يكون...

فقال آخر:

ـ يجب أن يُرَدّ فيه على هور وتصريحه المشئوم.

وثار ثالث لذكر هور فصاح:

ـ ابن الكلب قال: نصحنا بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣، ولا دستور ١٩٣٠، ما شأنه هو ودستورنا؟.

فأجابه رابع:

ـ لا تنس أنّه قال قبل ذٰلك: «على أنّنا عندما استشارونا نصحنا» إلخ...

ـ أجل، من الذين استشاروه؟

ـ سَلْ عن ذٰلك حكومة القوّادين!.

ـ توفيق نسيم.. كفى!. أنسيتموه؟. ولٰكن لماذا هادنه الوفد؟!

ـ لكلّ شيء نهاية، انتظروا خطبة اليوم.

أصغى كمال إليهم، بل اشترك في حديثهم، وأعجب من هٰذا أنّه لم يكن من دونهم حماسًا، وكان هٰذا ثامن عيد جهاد يشهده، وكان كالآخرين قد امتلأ بمرارة التجارب السياسيّة التي خلّفتها الأعوام السابقة. أجل «لقد عاصرت عهد محمّد محمود الذي عطّل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرّيّة الشعب في نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات!. كما عشت سنين الإرهاب التي فرضها إسماعيل صدقي على البلاد، كان الشعب يثق في قوم ويريدهم حكّامًا له ولٰكنّه يجد فوق رأسه دائمًا أولٰئك الجلّادين البغضاء، تحميهم هراوات الكونستبلات الإنجليز ورصاصهم، وسرعان ما يقولون له بلغة أو

بأخرى أنت شعب قاصر ونحن الأوصياء، والشعب يخوض المعارك دون توقّف فيخرج من كلّ وهو يلهث، حتّى اتّخذ في النهاية موقفًا سلبيًا، شعاره الصبر والسخرية، فخلا الميدان إلّا من الوفديّين من ناحية والطغاة من ناحية أخرى، وقنع الشعب بمجلس المتفرّج وراح يشجّع رجاله في همس دون أن يمدّ لهم يدًا». إنّ قلبه لا يستطيع أن يتجاهل حياة الشعب، إنّه يخفق معه دائمًا، رغم عقله التائه في ضباب الشكّ. غادر الترام عند شارع سعد زغلول، وسار في طابور غير منتظم نحو سرادق الاحتفال المقام في جوار بيت الأمّة، تقابلهم بين كلّ عشرة أمتار مجموعة من الجنود تحت رياسة كونستبل إنجليزي تنطق وجوههم بالصرامة والبلادة. والتقى قبيل السرادق بعبد المنعم وأحمد ورضوان وشابّ لا يعرفه وقد وقفوا معًا يتحادثون، فأقبلوا نحوه مسلّمين ولبثوا معه بعض الوقت. منذ شهر تقريبًا ورضوان وعبد المنعم بين طلبة الحقوق أمّا أحمد فقد انتقل إلى السنة النهائيّة بالثانويّ، وإنّه ليراهم في الطريق «رجالًا» بخلاف ما يراهم في البيت فليسوا إلّا أبناء أخته وأخيه. وما أجمل رضوان!، كذلك جميل، صاحبه الذي قدّمه إليه باسم حلمي عزّت وقد صدق من قال إنّ الطيور على أشكالها تقع. وكان أحمد يسرّه، وينتظر منه دائمًا قولًا غريبًا ممتعًا أو سلوكًا لا يقلّ عنه غرابة، إنّه أقرب الجميع إلى روحه، أمّا عبد المنعم فما أشبهه به لولا ميله إلى القصر والامتلاء، لذلك فحسب يحبّه، أمّا يقينه وتعصّبه فما أرذلهما!.

وأقبل على السرادق الضخم، وألقى نظرة شاملة على الجموع الحاشدة، مسرورًا بكثرتها الهائلة، وتطلّع مليًّا إلى المنصّة التي سيعلو عندها عمّا قليل صوت الشعب، ثمّ اتّخذ مجلسه. إنّ وجوده في مثل هٰذا الجمع الحاشد يطلق من أعماق ذاته الغارقة في الوحدة شخصًا جديدًا ينتفض حياة وحماسًا. هنا ينحبس العقل في قمقم إلى حين وتنطلق قوى النفس المكبوتة طامحة إلى حياة مفعمة بالعواطف والأحاسيس دافعة إلى الكفاح والأمل، وعند ذاك تتجدّد حياته وتنبعث غرائزه وتتبدّد وحشته ويتّصل ما بينه وبين الناس فيشارك في حياتهم ويعتنق آمالهم وآلامهم. إنّه بطبعه لا يطيق أن يتّخذ من هٰذه الحياة حياة ثابتة له ولٰكن لا بدّ منها بين حين وآخر حتّى لا ينقطع ما بينه وبين الحياة اليوميّة، حياة الناس، فلتؤجّل مشكلات المادّة والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة، وليمتلئ اهتمامًا بما يحبّ هٰؤلاء الناس وما يكرهون، بالدستور... بالأزمة الاقتصاديّة... بالموقف السياسيّ... بالقضيّة الوطنيّة. لذلك لم يكن عجيبًا أن يهتف «الوفد عقيدة الأمّة» غداة ليل قضاه في تأمّل عبث الوجود وقبض الريح، والعقل يحرم صاحبه نعمة الراحة، فهو يعشق الحقيقة ويهوى النزاهة ويتطلّع إلى التسامح ويرتطم بالشكّ ويشقى في نزاعه الدائم مع الغرائز والانفعالات، فلا بدّ من ساعة يأوي فيها المُتعَب إلى حضن الجماعة ليجدّد دماءه ويستمدّ حرارة وشبابًا. في المكتبة أصدقاء قليلون ممتازون مثل داروِن وبرجسون ورمل. في هٰذا السرادق آلاف من الأصدقاء، يبدون بلا عقول، ولٰكن يتمثّل في مجتمعهم شرف الغرائز الواعية، وليسوا في النهاية دون الأوّل خَلْقًا للحوادث وصنعًا للتاريخ. في هٰذه الحياة السياسيّة يحبّ ويكره ويرضى ويغضب ويبدو كلّ شيء ولا قيمة له. وكلّما واجه هٰذا التناقض في حياته زعزعه القلق. ولٰكن ليس ثمّة موضع في حياته يخلو من تناقض وبالتالي من قلق. لذلك شدّ ما يحنّ قلبه إلى تحقيق وحدة منسجمة تتّسم بالكمال والسعادة، ولٰكن أين هٰذه الوحدة؟!. ويشعر بأنّ الحياة العقليّة لا مفرّ منها ما دام به عقل يفكّر فلا يقعده ذٰلك عن التطلّع إلى الحياة الأخرى تدفعه كافّة القوى المعطّلة المكبوتة، فهي صخرة النجاة. فلعلّه لذلك بدا هٰذا الجمع رائعًا، وكلّما ازداد كثرة ازداد روعة. وها هو القلب ينتظر ظهور الزعماء بنفس الحرارة واللهفة كالآخرين. وقد جلس عبد المنعم وأحمد على مقعدين متجاورين، أمّا رضوان وصاحبه حلمي عزّت فيسيران في الممرّ الذي يشقّ السرادق ذهابًا وجيئة أو يقفان عند المدخل يتبادلان الحديث مع بعض المشرفين على الاحتفال فيا لهما من شابّين ذوي نفوذ!. وكانت همسات القوم تتجمّع فتحدث لغطًا عامًّا أمّا الأركان التي احتلّها الشباب

فعلا ضجيجها وتخلّلته الهتافات، ثمّ ترامى هتاف قويّ ذو دلالة من الخارج فتطلّعت الرءوس إلى مدخل السرادق الخلفيّ، ثمّ هبّوا واقفين، وتعالى هتاف يصمّ الآذان، ثمّ لاح مصطفى النحّاس فوق المنصّة وهو يحيّي الألوف بابتسامة وضيئة ويَدّين قويّتين. وتطلّع إليه بعينين اختفت منهما نظرة الشكّ إلى حين، وكان يتساءل كيف أومن بهذا الرجل بعد أن فقدت الإيمان بكلّ شيء؟. ألأنّه رمز الاستقلال والديموقراطيّة!؟. مهما يكن من أمر فإنّ التجاوب الحارّ المتبادل بين الرجل والشعب ظاهرة جديرة بالنظر، وهي بلا شكّ قوّة خطيرة تلعب دورها التاريخيّ في بناء القوميّة المصريّة. وتشبّع الجوّ بالحماس والحرارة، وتعب المشرفون على الحفل حتّى نشروا السكون في الأركان، كي يسمع الناس المقرئ وهو يتلو ما تيسّر من القرآن مردّدًا فيما يتلو «يا أيّها النبيّ حرِّض المؤمنين على القتال»، وكان الناس ينتظرون هذا النداء فتعالى الهتاف والتصفيق حتّى احتجّ بعض المتزمّتين وطالبوا بالصمت احترامًا لكتاب الله. وأثار قولهم في نفسه ذكريات قديمة يوم كان يُعَدّ واحدًا من هؤلاء المتزمّتين فارتسمت على شفتيه ابتسامة ما واستشعر من توّه عالَمه الخاصّ الحافل بالمتناقضات الذي يبدو من تعارُض متناقضاته وكأنّه فراغ. ووقف الزعيم وراح يلقي خطابه. ألقاه بصوت رنّان وبيان نافذ فاستغرق إلقاؤه ساعتين، ثمّ ختمه جاهرًا في عنف سافر بالدعوة إلى الثورة، وبلغ الحماس من القوم مداه فوقفوا على المقاعد، وجعلوا يهتفون بحماس جنونيّ. ولم يكن دونهم حماسًا وهتافًا، نسي أنّه مدرِّس مُطالَب بالوقار وخيّل إليه أنّه رجع إلى الأيّام المجيدة التي سمع عنها وحال عمره دون الاشتراك فيها. أكانت الخطب تُلقى بهذه القوّة؟. أكان الناس يتلقّونها بمثل هذا الحماس؟. أكان الموت لذلك يهون؟. من مثل هذا الموقف بدأ فهمي دون ريب، ثمّ اندفع إلى الموت، إلى الخلود أم إلى الفناء؟!. أمن الممكن أن يستشهد رجل في مثل حاله من الشكّ؟. لعلّ الوطنيّة - كالحبّ - من القوى التي نذعن لها وإن لم نؤمن بها!...

إنّ فورة الحماس عالية، الهتافات حارّة متوعّدة، المقاعد ترتجّ بمن فوقها، فما الخطوة التالية؟ ما يدري إلّا والجموع تتّجه نحو الخارج. وغادر موضعه وهو يلقي نظرة عامّة باحثًا عن شباب أسرته ولكنّه لم يعثر لهم على أثر. وغادر السرادق من الباب الجانبيّ، ثمّ سار مستهدفًا شارع قصر العيني في خطوات سريعة حتّى يسبق الجموع. ومرّ في طريقه ببيت الأمّة وكان كلّما مرّ به يعلق به بصره وردّد عينيه بين الشرفة التاريخيّة والفناء الذي شهد أجلّ الذكريات الوطنيّة، أجل لهذا البيت مثل السحر في نفسه، فها هنا كان يقف سعد، وها هنا كان يقف فهمي وأقرانه، وفي هذا الطريق الذي يسير فيه الآن كان ينطلق الرصاص ليستقرّ في صدور الشهداء، إنّ قومه في حاجة دائمة إلى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التي تترصّد سبيل نهضتهم، في حاجة إلى ثورات دوريّة تكون بمثابة التطعيم ضدّ الأمراض الخبيثة، والحقّ أنّ الاستبداد هو مرضهم المتوطّن. هكذا نجح اشتراكه في العيد الوطنيّ في تجديد نفسه فلم يكن يهمّه في تلك اللحظة إلّا أن تجيب مصر على تصريح هور إجابة حاسمة كاللكمة القاضية. وانتصبت قامته النحيلة الطويلة، وارتفع رأسه الكبير، واشتدّ وقع خطاه وهو يتقدّم أمام الجامعة الأمريكيّة متخيّلًا أمورًا جليلة وفعالًا خطيرة. حتّى المدرّس ينبغي أن يثور أحيانًا مع تلاميذه. وابتسم فيما يشبه الكآبة... مدرّس كبير الرأس مقضيّ عليه بأن يعلّم مبادئ الإنجليزيّة - المبادئ فحسب - رغم أنّه يطّلع بها على أسرار وأسرار، يحتلّ جسمه من مزدحم الأرض موضعًا ضئيلًا أمّا خياله فيضطرب في الدوّامة التي تحيط بمغالق الطبيعة. يسأل في الصباح عن معنى كلمة وهجاء أخرى ويتساءل بالليل عن معنى وجوده ذلك اللغز القائم بين لغزين، وفي الصباح أيضًا يضطرم فؤاده بالثورة على الإنجليز وفي الليل تدعوه الأخوّة العامّة المعذّبة - أخوّته لبني الإنسان - للتعاون أمام لغز القضاء. وهزّ رأسه في شيء من العنف كأنّما ليطرد عنه هذه الخيالات، وقد ترامت إلى مسامعه أصوات الهتاف وهو يقترب من ميدان الإسماعيليّة فأدرك أنّ المتظاهرين قد وصلوا إلى شارع قصر العيني، ودعاه الشعور بالنضال الذي يعمر صدره

إلى التوقّف لعلّه يشترك على نحو ما في مظاهرة ١٣ نوفمبر. شَدَّ ما طال بالوطن موقف الصابر الذي يتلقّى الضربات. اليوم توفيق نسيم وأمس إسماعيل صدقي وأوّل أمس محمّد محمود، تلك السلسلة المشئومة من الطغاة التي تمتدّ إلى ما قبل التاريخ، كلّ ابن كلب غرّته قوّته يزعم لنا أنّه الوصيّ المختار وأنّ الشعب قاصر.

مهلًا!... إنّ المظاهرة تغلي وتفور، ولٰكن ما هٰذا؟!، التفت كمال إلى الوراء في اضطراب. سمع صوتًا اهتزّ له قلبه، وأنصت في انتباه فصكّ الصوت مسامعه مرّة أخرى. إنّه الرصاص. ورأى المتظاهرين عن بعد يضطربون في دوّامة خطيرة لا يتّضح له أمرها، ولٰكنّ جماعات كانوا يهرعون نحو الميدان، وآخرين إلى الشوارع الجانبيّة، وكثير من الكونستبلات الإنجليز فوق الجياد ينهبون الأرض. وعلا الهتاف واختلط بأصوات الغضب والصراخ واشتدّ انطلاق الرصاص. وخفق قلبه وتساءلت دقّاته عن عبد المنعم وأحمد ورضوان، وامتلأ اضطرابًا وغضبًا، وتلفّت يمنة ويسرة فرأى قهوة غير بعيد على الناصية فاتّجه إليها ـ وقد أغلق بابها نصف إغلاق ـ وما إن مرق منها حتّى تذكّر دكّان البسبوسة بالحسين حيث سمع طلقات الرصاص لأوّل مرّة، وشاع الاضطراب في كلّ مكان. وانطلق الرصاص في غزارة مخيفة ثم متقطّعًا. وتراكمت أصوات كسر زجاج وصهيل خيل، وعلت أصوات مزمجرة دلّت على أنّ تجمّعات ثائرة تنتقل من مكان إلى مكان بسرعة خاطفة. ودخل المشروب شيخ وقال قبل أن يسأله أحد عمّا وراءه: «إنّ رصاص الكونستبلات ينهال على الطلبة والله أعلم بعدد الضحايا، ثمّ جلس وهو يلهث وعاد يقول بصوت متهدّج: «غدروا بالأبرياء غدرًا، لو كان تفريق المظاهرة غايتهم لأطلقوا الرصاص في الهواء من مواقعهم البعيدة، ولٰكنّهم سايروا المظاهرة في هدوء مصطنع، وجعلوا يوزّعون أنفسهم على مخارج الطريق، وفجأة أشهروا المسدّسات وأطلقوا الرصاص، على المقاتل أطلقوا بلا رحمة، وسقط الصغار يتخبّطون في دمهم، الإنجليز وحوش ولٰكنّ الجنود المصريّين ليسوا دونهم وحشيّة، إنّها مذبحة مدبّرة يا إلٰهي!» وجاء صوت من آخر المقهى يقول: «كان قلبي يحدّثني بأنّ اليوم لن يمضي على خير»، فأجاب آخر: «أيّام تنذر بالشرّ، فمنذ أعلن هور تصريحه والناس تتوقّع أحداثًا خطيرة، هٰذه معركة وستتلوها معارك، وأؤكّد لكم هٰذا!».

ـ الضحايا الطلبة دائمًا، أعزّ أبناء الأمّة، وا أسفاه!...

ـ ولٰكنّ الضرب سكت أليس كذلك؟!، أنصتوا...

ـ المظاهرة الأصليّة عند بيت الأمّة، وسيستمرّ الضرب هنالك ساعات طويلة!...

ولٰكنّ الصمت ساد الميدان، ومضى الوقت ثقيلًا مشحونًا بالتوتّر، وأخذت الظلمة تدنو حتّى أضيئت أنوار المقهى ثمّ لم يعد يُسمع صوت كأنّما حلّ بالميدان والشوارع المحيطة به الموت، وفتح باب المقهى على مصراعيه فتراءى الميدان خاليًا من المارّة والمركبات. ثمّ جاء طابور من فرسان البوليس ذوي الخوذات الفولاذيّة فطاف بالميدان يتقدّمه الرؤساء الإنجليز. وكان باطن كمال لا يكفّ عن التساؤل عن مصير الأبناء. ولّما دبّت الحركة في الميدان غادر المقهى متعجّلًا، ولم يعد إلى بيته حتّى مرّ بالسكّريّة وقصر الشوق واطمأنّ على عبد المنعم وأحمد ورضوان.

وخلا إلى نفسه في مكتبته بقلب مليء بالحزن والأسى والغضب، لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة وظلّ عقله غائبًا في منطقة بيت الأمّة، في هور والخطبة الثائرة والهتاف الوطنيّ وأزيز الرصاص وصرخات الضحايا، ووجد نفسه يحاول أن يتذكّر اسم صاحب دكّان البسبوسة التي اختبأ بها قديمًا ولٰكنّ الذاكرة لم تسعفه!.

٥

كان منظر بيت محمّد عفّت بالجماليّة من المناظر المألوفة المحبوبة لدى أحمد عبد الجواد. هٰذه البوّابة الخشبيّة التي تبدو من الخارج كأنّها مدخل وكالة قديمة، وذٰلك السور العالي الذي يخفي ما وراءه خلا رءوس

الأشجار العالية، أمّا هٰذه الحديقة المظلّلة بأشجار التوت والجمّيز والمهندسة بأشجار الحنّاء والليمون والفلّ والياسمين فشأنها عجيب، وعجيب أيضًا بركة المياه التي تتوسّطها، ثمّ الفراندا الخشبيّة التي تمتدّ بعرض الحديقة. وكان محمّد عفّت واقفًا على سلّم الفراندا ينتظر القادم وهو يحبك عباءته المنزليّة، أمّا عليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار فقد جلسا على كرسيّين متجاورين. وسلّم أحمد على الإخوان ثمّ تبع محمّد عفّت إلى الكنبة التي تتوسّط الفراندا وجلسا معًا. وكانت بدانتهم قد زايلتهم جميعًا فيما عدا محمّد عفّت الذي بدا مترهّلًا كما بدا وجهه شديد الاحمرار، وقد صلع عليّ عبد الرحيم واشتعلت رءوس الآخرين شيبًا، وانتشرت في صفحات الوجوه التجاعيد، وبدا عليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار أشدّ إذعانًا للكبر، غير أنّ حمرة وجه محمّد عفّت كانت بالاحتقان أشبه، وبقي أحمد رغم ضموره وشيبه جميلًا صافيًا. وكان أحمد يحبّ هٰذا المجلس حبًّا جمًّا، كما يحبّ منظر الحديقة التي تترامى حتّى السور العالي المشرف على الجماليّة، وقد مال برأسه إلى الوراء قليلًا كأنّما ليمكّن أنفه العظيم من الارتواء بعبير الفلّ والياسمين والحنّاء، وربّما أغمض عينيه أحيانًا ليخلص لسماع زقزقة العصافير اللاهية فوق أغصان التوت والجمّيز. غير أنّ أنبل ما خالط قلبه في تلك اللحظة كان شعور الأخوّة والصداقة الذي يكنّه لهٰؤلاء الرجال. كان يرنو بعينيه الزرقاوين الواسعتين إلى وجوههم الحبيبة التي نكرها الكبر فيفيض قلبه بالأسى والحنان عليهم وعلى نفسه، وكان أشدّهم تعلّقًا بالماضي وذكرياته، يفتنه كلّ ما يذكّر بجمال الشباب وصبوة العواطف ومغامرات الفتوّة. وقام إبراهيم الفار إلى خوان قريب وضع عليه صندوق النرد فجاء به وهو يتساءل:

ـ مَن يلاعبني؟

فقال أحمد مستنكرًا وكان قليلًا ما يشترك في ألعابهم:

ـ أجّل اللعب إلى حين، لا يجوز أن نشغل به عن أنفسنا من أوّل الجلسة.

فأعاد الفار الصندوق إلى مكانه، ثمّ جاء نوبيّ بصينيّة عليها ثلاثة أقداح شاي وكأس ويسكي بالصودا فتناول محمّد عفّت الكأس باسمًا وتناول الثلاثة الآخرون أقداح الشاي. وكان هٰذا التوزيع الذي يتكرّر كلّ مساء كثيرًا ما يُضحكهم؛ فقال محمّد عفّت وهو يلوّح بالكأس في يده ويشير إلى أقداح الشاي في أيديهم:

ـ عفا الله عن الأيّام التي أدّبتكم!

فقال أحمد عبد الجواد متنهّدًا:

ـ إنّها أدّبتنا جميعًا، وأنت أوّلنا، غير أنّك قليل الأدب...

وكان صدَرَ إليهم أمر طبّيّ واحد في أوقات متقاربة من عام واحد بالامتناع عن تناول الخمر، غير أنّ طبيب محمّد عفّت سمح له بكأس واحدة في اليوم، وظنّ أحمد عبد الجواد يومذاك أنّ طبيب صديقه يتسامح فيما يتشدّد فيه طبيبه هو، فما كان منه إلّا أن عرض نفسه عليه ولٰكنّ الطبيب حذّره في جدّ وحزم قائلًا: «إنّ حالتك غير حالة صديقك»، وقد افتضح أمر سعيه إلى طبيب محمّد عفّت فكان موضع نقاش وتندّر طويلين. وعاد أحمد يقول ضاحكًا:

ـ لا شكّ أنّك نفحت طبيبك برشوة كبيرة حتّى سمح لك بهٰذه الكأس!

فقال الفار متأوّهًا وهو يرنو إلى الكأس بيد محمّد عفّت:

ـ كدت والله أنسى نشوتها!.

فقال له عليّ عبد الرحيم ممازحًا:

ـ فسدت توبتك بهٰذا القول يا عربيد.

فاستغفر الفار ربّه ثمّ تمتم في استسلام:

ـ الحمد لله...

ـ بتنا نُحسد على كأس واحدة!... أين... أين النشوات؟!

فقال أحمد عبد الجواد ضاحكًا:

ـ إذا ندمتم فاندموا على الشرّ لا على الخير يا أولاد الكلب!.

ـ إنّك كسائر الوعّاظ، ألسنتهم في دنيا وقلوبهم في دنيا أخرى...

وإذا بعليّ عبد الرحيم يقول رافعًا صوته إلى درجة جديدة منذرة بتغيير مجرى الحديث:

ـ يا رجال! ما رأيكم في مصطفى النحّاس؟!. الرجل الذي لم تؤثّر فيه دموع الملك الشيخ المريض فأبى أن ينسى ثانية واحدة مطلبه الأسمى «دستور سنة ١٩٢٣»...

ففرقع محمّد عفّت بأصابعه وقال في سرور:

ـ برافو... برافو!... إنّه أصلب من سعد زغلول نفسه، مَن كان يرى الملك الجبّار مريضًا باكيًا ثمّ يصمد أمامه بهٰذه الشجاعة النادرة ويردّد في ثبات صوت الأمّة التي أولته زعامتها قائلًا: «دستور سنة ١٩٢٣ أوّلًا»، وهٰكذا عاد الدستور، فمن كان يتصوّر ذلك؟

فقال إبراهيم الفار وهو يهزّ رأسه في عجب:

ـ تصوّروا هٰذا المنظر، الملك فؤاد وقد حطّمه المرض والشيخوخة، يضع يده على كتف مصطفى النحّاس في مودّة بالغة! ثمّ يدعوه إلى تأليف وزارة ائتلافيّة، فلا يتأثّر النحّاس لذٰلك كلّه، ولا ينسى واجبه كزعيم أمين، يغفل لحظة واحدة عن الدستور الذي توشك الدموع الملكيّة أن تغطّي عليه، لا يتأثّر لشيء من هٰذا ويقول بشجاعة وصلابة: دستور سنة ١٩٢٣ أوّلًا يا مولاي.

عليّ عبد الرحيم محاكيًا نفس اللهجة:

ـ أو الخازوق أوّلًا يا مولاي!.

أحمد عبد الجواد ضاحكًا:

ـ قسمًا بِمَنْ جرت مقاديره بأن نرى الويسكي بيننا ونتجنّبه إنّه لموقف عظيم!.

وشرب محمّد عفّت بقيّة كأسه ثمّ قال:

ـ نحن في عام ١٩٣٥، ثماني سنوات مرّت على موت سعد، وخمسة عشر عامًا على الثورة، ولا يزال الإنجليز في كلّ مكان، في الثكنات والبوليس والجيش وشتّى الوزارات، الامتيازات الأجنبيّة التي تجعل من كلّ ابن لبؤة سيّدًا مهابًا ما زالت قائمة، ينبغي أن تنتهي هٰذه الحال المؤسفة...

ـ ولا تنس الجلّادين أمثال إسماعيل صدقي ومحمّد محمود والإبراشي!.

ـ إذا ذهب الإنجليز فلن يبقى لأحد من هٰؤلاء شأن، ستصبح الانقلابات في خبر كان...

ـ نعم، وإذا فكّر الملك أن يلعب بذيله فلن يجد مَن يسانده!.

وعاد محمّد عفّت يقول:

ـ سيجد الملك نفسه بين اثنتين فإمّا احترام الدستور وإمّا السلام عليكم!

وتساءل إبراهيم الفار فيما يشبه الشكّ:

ـ وهل يتخلّى عنه الإنجليز إذا طلب حمايتهم؟

ـ وإذا سلّم الإنجليز بالجلاء فلماذا يحمون الملك؟

فتساءل الفار مرّة أخرى:

ـ وهل يسلّم الإنجليز بالجلاء حقًّا؟!

قال محمّد عفّت في ثقة مَن يعتزّ بثقافته السياسيّة:

ـ لقد دهمونا بتصريح هور فكانت المظاهرات، وكان الشهداء رحمة الله عليهم، ثمّ كانت الدعوة إلى الائتلاف، ثمّ عاد دستور سنة ١٩٢٣، أؤكّد لكم أنّ الإنجليز راغبون الآن في المفاوضة، حقًّا إنّ الإنسان لا يدري كيف تنكشف هٰذه الغمّة، كيف يمكن أن يذهب الإنجليز أو ينتهي نفوذ الخواجات، ولٰكنّ ثقتنا في مصطفى النحّاس لا نهاية لها...

ـ ثلاثة وخمسون عامًا من الاحتلال تنتهي بشويّة كلام حول مائدة؟!.

ـ كلام قد سُبق بدم زكيّ مسفوح...

ـ ولو!...

فقال محمّد عفّت وهو يغمز بعينه:

ـ سيجدون أنفسهم في مركز حرج وسط حالة دوليّة خطيرة!.

ـ يستطيعون أن يجدوا دائمًا من يؤمّن ظهرهم، وإسماعيل صدقي حيّ لم يمت!...

فعاد محمّد عفّت يقول بلهجة العارف:

ـ حادثت كثيرين من المطّلعين فوجدتهم متفائلين، يقولون إنّ العالم مهدّد بحرب طاحنة، وإنّ مصر في فوهة المدفع، وإنّ من صالح الطرفين الاتّفاق المشرّف...

ثمّ واصل حديثه بعد أن مسح على كرشه في ثقة واطمئنان:

ـ إليكم خبرًا هامًّا، وُعدت بأن أرشَّح في دائرة الجمالية في الانتخابات القادمة، وعدني النقراشي نفسه.

وتهلّلت وجوه الأصدقاء سرورًا، ثمّ لّما جاء دور التعليق قال عليّ عبد الرحيم متصنّعًا الجدّ:

ـ لا يعيب الوفد إلّا أنّه يرشّح حيوانات أحيانًا باسم نوّاب!.

فقال أحمد عبد الجواد كأنّما يدافع عن عيب الوفد:

ـ وماذا يفعل الوفد؟ إنّه يريد أن يمثّل الأمّة كلّها، أبناء حلال وأبناء سفلة، فمن يمثّل أولاد السفلة إلّا الحيوانات؟!.

فلكزه محمّد عفّت في جنبه وهو يقول:

ـ عجوز وقارح، أنت وجليلة شخص واحد، كلاكما عجوز وقارح!...

ـ إنّي أرضى لو رشّحوا جليلة، فهي عند اللزوم قد تفرش الملاية للملك نفسه!

وهنا قال عليّ عبد الرحيم باسمًا:

ـ قابلتها أوّل أمس أمام عطفتها، ما زالت كالمحمل ولٰكنّ الكبر أكل عليها وبال!.

فقال الفار:

ـ صارت معلّمة قدّ الدنيا، بيتها شغّال ليل نهار، ويموت الزمّار وصباعه بيلعب.

فضحك عليّ عبد الرحيم طويلًا ثمّ قال:

ـ كنت مارًّا أمام باب بيتها فرأيت رجلًا يتسلّل إليه وهو يظنّ أنّه بمأمن من الرقباء، فمن تظنّونه كان؟... (ثمّ أجاب وهو يغمز بعينه صوب أحمد عبد الجواد)... المحروس كمال أفندي أحمد خوجة مدرسة السلحدار!...

ضحك محمّد عفّت والفار ضحكة عالية، أمّا أحمد عبد الجواد فقد اتّسعت عيناه دهشًا وانزعاجًا، ثمّ تساءل في ذهول:

ـ كمال ابني؟!...

ـ أي نعم، كان ملتفًّا في معطفه، وعلى عينه نظّارته الذهبيّة، وشاربه الغليظ يختال وقارًا، كان يسير في رزانة ومهابة كأنّما ليس هو ابن «ضحكجي أغا»، وبنفس الوقار انعطف إلى البيت كأنّما ينعطف إلى الجامع الحرام، فقلت في نفسي خفّف الوطء يا بن المركوب!

وعلا الضحك، أمّا أحمد عبد الجواد فلم يكن أفاق من ذهوله ولٰكنّه رأى أن يتخفّف منه بالمشاركة في الضحك. وتساءل محمّد عفّت بلهجة ذات مغزى وهو يحدّق في وجه أحمد:

ـ ما وجه العجب في ذٰلك أليس هو ابن حضرتك؟!

فقال أحمد عبد الجواد وهو يهزّ رأسه عجبًا:

ـ عرفته دائمًا مؤدّبًا مهذّبًا هادئ الطبع، لا يُرى إلّا في مكتبته وهو يقرأ أو يكتب حتّى أشفقت عليه من الإغراق في الانزواء والإفراط في عمل لا جدوى منه...

فقال إبراهيم الفار مداعبًا:

ـ مَن يدري فلعلّ في بيت جليلة فرعًا من دار الكتب!

وقال عليّ عبد الرحيم:

ـ أو لعلّه يعتزل في مكتبته لمطالعة كتاب رجوع الشيخ، ماذا تنتظر من رجل بدأ حياته بتقرير أنّ الإنسان أصله قرد؟!

وضحكوا فضحك معهم أحمد عبد الجواد الذي كان يعلم بخبرته أنّ الاستسلام للجدّ في أمثال هٰذه الأحوال يجعل منه هدفًا سهلًا للمزاح والقفش، ثمّ قال:

ـ لهٰذا لا يفكّر الملعون في الزواج حتّى ظننت به الظنون!...

ـ ما عمر المحروس الآن؟

ـ في التاسعة والعشرين!...

ـ يا سلام!. يجب أن تزوّجه، لماذا يرغب عن الزواج؟.

تجشّأ محمّد عفّت ثمّ مسح على كرشه وهو يقول:

ـ هٰذه موضة فحسب ولٰكنّ بنات اليوم يزحمن الشوارع فضعفت الثقة بهنّ، ألم تسمعوا الشيخ حسنين وهو يغنّي «يا ما نشوف حاجات تجنّن، البيه والهانم عند مزيّن؟!».

ـ ولا تنس الأزمة الاقتصاديّة وضيق المستقبل أمام

الشباب. إنّ خرّيجي الجامعة يتوظّفون بعشرة جنيهات إن وجدوا وظيفة بطلوع الروح!.

وتساءل أحمد عبد الجواد في قلق بيّن:

ـ أخاف أن يعرف أنّ جليلة كانت يومًا صاحبتي أو تعرف هي أنّه ابني!.

فتساءل عليّ عبد الرحيم ضاحكًا:

ـ أحسبتها تستجوب الزبائن؟!

فقال محمّد عفّت وهو يغمز بعينه:

ـ لو عرفته الفاجرة لقصّت عليه قصّة أبيه من الألف إلى الياء!.

فهتف أحمد عبد الجواد وهو ينفخ:

ـ لا قدّر الله ولا كان...

فتساءل إبراهيم الفار:

ـ أتحسب أنّ الذي يستطيع أن يعرف أنّ جدّه الأوّل قرد يعجز عن معرفة أنّ أباه فاسق فاجر؟!

فضحك محمّد عفّت عاليًا حتّى سعل، وصمت لحظات ثمّ قال:

ـ الحقّ أنّ مظهر كمال خدّاع، رزين هادئ متزمّت، خوجة بكلّ معنى الكلمة...

فقال عليّ عبد الرحيم بلهجة الترضية:

ـ يا سيّدي ربّنا يخلّيه ويطوّل عمره، ومَن شابَه أباه فما ظلم... فعاد محمّد عفّت يتساءل:

ـ المهمّ أهو «حلنج» كأبيه؟... أعني هل يجيد معاملة النساء والاستحواذ عليهنّ؟

فقال عليّ عبد الرحيم:

ـ أمّا هٰذا فلا أظنّ!. يخيّل إليّ أنّه يظلّ متقدّمًا برزانته ووقاره حتّى يغلق الباب عليه وعلى صاحبة النصيب، ثمّ يأخذ في نزع ثيابه بنفس الرزانة والوقار، ثمّ يرتمي عليها، وهو في الغاية من الجدّ والرزانة كأنّما يلقي درسًا خطيرًا!

ـ يخلق من ظهر الحلنج دهل!

وساءل أحمد عبد الجواد نفسه فيما يشبه السخط: لماذا يبدو لي الأمر غريبًا؟!. وصمّم على أن يتناسى الخبر. ولمّا رأى الفار يذهب إلى صندوق النرد ويعود به، قال دون تردّد أنّه آن لهم أن يلعبوا. بيد أنّ أفكاره ظلّت تدور حول الخبر الجديد. وقال لنفسه متعزّيًا إنّه ربّاه فأحسن تربيته حتّى حصل على الشهادة العليا وصار مدرّسًا محترمًا فله أن يفعل ما يشاء. ولعلّه من حسن التوفيق أن يعرف كيف يلهو رغم عوده الرفيع ورأسه وأنفه العظيمين!. ولو أنصف الحظّ لتزوّج كمال منذ سنوات، ولما تزوّج ياسين أبدًا، ولٰكن مَن يدّعي القدرة على حلّ هٰذه الرموز؟. وإذا بالفار يسأله:

ـ متى رأيت زبيدة آخر مرّة؟

فأجاب أحمد بعد تذكّر:

ـ في يناير الماضي، أي منذ عام تقريبًا، يوم جاءتني في الدكّان لأبيع لها البيت...

فقال إبراهيم الفار:

ـ اشترته جليلة، ثمّ وقعت المجنونة في حبّ عربجي كارو فتركها على الحديدة، وهي الآن تقيم بحجرة على سطح بيت سوسن العالمة في حال من الاضمحلال يرثى لها!

فهزّ أحمد عبد الجواد رأسه في أسف، وتمتم:

ـ السلطانة في حجرة فوق السطح!. سبحان مَن له الدوام. فقال عليّ عبد الرحيم:

ـ نهاية محزنة، بيد أنّها كانت متوقّعة...

فندّت عن محمّد عفّت ضحكة رثاء وقال:

ـ فليرحم الله مَن يأمن إلى هٰذه الدنيا!

ثمّ دعا الفار إلى اللعب فتحدّاه محمّد عفّت، وسرعان ما التفّوا جميعًا حول النرد، وأحمد عبد الجواد يقول:

ـ ترى مَن يكون حظّه كجليلة، ومَن يكون كزبيدة!

٦

في إحدى حجرات قهوة أحمد عبده، جلس كمال وإسماعيل لطيف. وهي نفس الحجرة التي كان كمال يجالس فيها فؤاد الحمزاوي في مطلع شبابه. وبالرغم من برودة ديسمبر كان جوّ القهوة دافئًا، إذ إنّه بإغلاق مدخلها يسدّ المنفذ الوحيد لها إلى سطح الأرض، فكان من الطبيعيّ أن تدفأ وإن انتشرت الرطوبة في جنباتها بدرجة محسوسة. ولم يكن إسماعيل لطيف

ليرضى بالجلوس في قهوة أحمد عبده، لولا رغبته في مجاراة كمال. إنّه الصديق القديم الذي لم تنقطع بكمال أسبابه، رغم أنّ مطالب الرزق دفعت به إلى طنطا خبيرًا محاسبًا مذ تخرّج في مدرسة التجارة. فكان إذا عاد إلى القاهرة في إجازة اتّصل به تليفونيًّا بمدرسة السلحدار، ونال منه موعدًا للقاء في هٰذا الركن الأثريّ. وجعل كمال ينظر إلى صديقه القديم، كما بدا له بمنظره المدمج وملامحه المدبّبة الحادّة. ويعجب لما آل إليه حاله من رزانة وأدب واستقامة، جعلته مثالًا طيّبًا للزوج والأب، الذي كان يومًا مثالًا فذًّا للقحة والاستهتار والفظاظة. وصبّ كمال الشاي الأخضر في قدح صاحبه ثمّ في قدحه وهو يقول باسمًا:

ـ يبدو أنّ قهوة أحمد عبده لا تعجبك!

فارتفع رأس إسماعيل في تطاوله المعهود، وقال:

ـ إنّها غريبة حقًّا، ولٰكن لماذا لا نختار مكانًا فوق سطح الأرض؟!

ـ على أيّ حال هي أنسب مكان للناس المستقيمين أمثالك.

فضحك إسماعيل وهو يهزّ رأسه في تسليم، كأنّما يقرّ بأنّه أصبح جديرًا حقًّا بفضيلة الاستقامة، هو الذي كان وكان، وعند ذٰلك سأله كمال مجاملًا:

ـ كيف الحال في طنطا؟

ـ عال، أمّا النهار فعمل متواصل في المصلحة، وأمّا الليل فأقضيه مع زوجي وأولادي.

ـ وكيف حال الأنجال؟

ـ نحمده، إنّ راحتهم دائمًا على حساب تعبنا، ولٰكن نحمده في جميع الأحوال...

فسأله كمال مدفوعًا بحبّ الاستطلاع الذي يثيره في نفسه حديث الأسرة بصفة عامّة:

ـ وهل وَجَدتهم حقًّا السعادة الحقيقيّة، كما يقول العارفون؟

ـ نعم، إنّهم لكذٰلك.

ـ رغم متاعبهم؟

ـ رغم كلّ شيء!

وجعل كمال ينظر إلى صاحبه بفضول أشدّ. هٰذا شخص جديد لا يكاد يمتّ بصلة إلى إسماعيل لطيف الذي زامله فيما بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٧، تلك الفترة الفذّة في حياته التي عاشها بكلّ جوارحه، فلم تمض دقيقة من زمانها دون سرور عميق أو ألم شديد، فكانت عهد الصداقة الحقّة متمثّلة في حسين شدّاد، وعهد الحبّ الصادق متبلورًا في عايدة، وعهد الحماسة العارمة مستمدّة من شعلة الثورة المصريّة الرائعة، ثمّ عهد التجارب العنيفة التي قذف بها الشكّ والمجون والأهواء، وقد كان إسماعيل لطيف هٰذا رمز العهد الأخير، ودليله الخطير، فأين هو اليوم من ذاك؟!.

وعاد إسماعيل لطيف يقول في شيء من التذمّر:

ـ بيد أنّ هناك أمورًا تشغل بالنا باستمرار، كالكادر الجديد ووقف الترقيات والعلاوات، وأنت تعلم أنّني تعوّدت على الحياة الرغيدة في كنف أبي، ولٰكنّ أبي لم يترك ميراثًا، ووالدتي بدورها تستهلك كلّ معاشها، لذٰلك رضيت في سبيل الرزق أن أعمل في طنطا، وهل كان مثلي يرضى بذٰلك؟!.

فضحك كمال قائلًا:

ـ مثلك ما كان يرضى بشيء!

فابتسم إسماعيل فيما يشبه الزهو اعتزازًا بماضيه الحافل الذي هجره بمحض اختياره. وسأله كمال:

ـ ألا تنازعك نفسك إلى معاودة شيء من الماضي؟

ـ كلّا شبعت من كلّ شيء، وأستطيع أن أقول بأنّي لم أضجر من حياتي الجديدة بعد، كلّ المطلوب منّي أن أبدي شيئًا من المهارة بين حين وآخر، حتّى أفوز ببعض النقود من والدتي، كذٰلك على زوجي أن تلعب نفس الدور مع أبيها، إذ إنّي لا زلت مغرمًا بالحياة الرغيدة...

فلم يملك كمال أن يقول ضاحكًا:

ـ علّمتنا وتركتنا وحدنا على الطريق...

فضحك إسماعيل ضحكة عالية أعادت إلى وجهه الرزين كثيرًا من ملامح الماضي الماكرة، وقال:

ـ أآسف أنت على ذٰلك؟. كلّا، أنت تحبّ هٰذه الحياة بإخلاص عجيب، غير أنّك رجل معتدل، إنّي فعلت في سنوات لعبي القلائل ما لن تفعل مثله مدى عمرك «ثمّ بلهجة جدّيّة»... تزوّج وغيّر حياتك!

فقال كمال بلهجة عابثة:

- هٰذا أمر جدير بالتفكير!

ما بين ١٩٢٤ و١٩٣٥ خُلق إسماعيل لطيف جديد جدير بأن يزوره غواة الأعاجيب. على أيّ حال إنّه الصديق القديم الباقي، أمّا حسين شدّاد فقد اختطفته فرنسا من وطنه، وكذٰلك حسن سليم أمسى الخارج مقامه ومعاشه، لم يعد لهما من سبب في القلب وأسفاه، لم يكن إسماعيل لطيف يومًا صديق الروح. ولٰكنّه ذكرى حيّة من الماضي العجيب، لذٰلك فهو خليق بأن يعتزّ به، وأعتزّ به أيضًا لوفائه، لا مسرّة روحيّة في مصاحبته، ولٰكنّه آية حيّة على أنّ الماضي لم يكن خيالًا، ذٰلك الماضي الذي أحرص على إثبات حقيقته حرصي على الحياة نفسها، ترى ماذا تصنع عايدة في هٰذه اللحظة من الزمان؟. وأين هي في عالم المكان؟. وكيف استطاع القلب أن يبرأ من مرض حبّها؟... كلّ أولٰئك أعاجيب...

- إنّي معجب، يا سيّد إسماعيل، أنت شخص جدير بكلّ توفيق.

وألقى إسماعيل نظرة على ما حوله، استعرض بها السقف والفوانيس والحجرات والوجوه الحائلة والعاكفين على السمر واللعب، ثمّ تساءل:

- ماذا يعجبك في هٰذه القهوة؟

فلم يجبه كمال على سؤاله، ولٰكنّه قال بلهجة آسفة:

- أما علمت؟!. سوف تهدم في القريب ليقام على أنقاضها عمارة جديدة، سيختفي هٰذا الأثر إلى الأبد!

- مع ألف سلامة، فلتختف هٰذه المقبرة ليقوم فوقها عمران جديد.

أنطق بالحقّ؟. ربّما، ولٰكنّ للقلب لواعجه، يا قهوتي العزيزة أنت قطعة من نفسي، فيك حلمت كثيرًا وفكّرت كثيرًا، وفيك سكن ياسين أعوامًا، واجتمع فهمي بالثوّار ليفكّروا ويعملوا من أجل عالم أفضل، ثمّ إنّي أحبّك لأنّك مصنوعة من مادّة الحلم، ولٰكن ما جدوى هٰذا كلّه؟. وما قيمة الحنين إلى الماضي؟. ربّما ظلّ الماضي أفيونة أصحاب القلوب، وأشقى ما تصاب به أن تكون ذا قلب حنون وعقل شاكّ: فلنقل أيّ كلام ما دمنا لا نؤمن بشيء.

- في هٰذا صدقت، إنّي أقترح أن يهدموا الهرم إذا وجدوا لأحجاره فائدة ما للمستقبل!

- الهرم!. ما دخل الهرم في قهوة أحمد عبده؟!

- أعني الآثار، أعني أن نهدم كلّ شيء في سبيل اليوم والغد.

فضحك إسماعيل لطيف، وتطاول بعنقه - كما كان يفعل قديمًا كلّما تحدّى - ثمّ قال:

- أحيانًا تكتب كلامًا يناقض هٰذا القول، إنّي كما تعلم أقرأ بين حين وآخر مجلّة الفكر إكرامًا لك، وسبق أن صارحتك برأيي، أي نعم، مقالاتك عسيرة، المجلّة كلّها جافّة والعياذ بالله، لم أستطع المثابرة على اقتنائها لأنّ زوجتي لا تجد فيها شيئًا يُقرأ، ولا تؤاخذني فهٰذا قولها!. أقول إنّي وجدت أحيانًا فيما تكتب نقيض ما تقول الآن، ولٰكنّي لا ازعم أنّي أفهم كثيرًا - وبيني وبينك ولا قليلًا - ممّا تكتب، وبهٰذه المناسبة أليس من الأفضل أن تكتب كما يكتب الكتّاب المحبوبون؟، لو فعلت لوجدت جمهورًا كثيرًا، ولربحت مالًا وفيرًا.

في زمن مضى كان يحتقر هٰذا الرأي في عناد وثورة، الآن لا زال يحتقره ولٰكن دون ثورة، لٰكنّه يشكّ في هٰذا الاحتقار، لا لشبهة في أنّه في غير موضعه، ولٰكن لأنّه يرتاب أحيانًا في قيمة ما يكتب، وربّما ارتاب في ارتيابه نفسه، وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه بأنّه قد ضاق بكلّ شيء ذرعًا، وأن الدنيا تبدو أحيانًا كلفظة قديمة اندثر معناها.

- إنّك لم ترض يومًا عن عقلي!

إسماعيل وهو يقهقه:

- أتذكر؟. يا لها من أيّام!.

أيّام مضت، لم تعد نيرانها تحرق، لٰكنّها مصونة في موضعها كالجثّة العزيزة، أو كعلبة الملبّس المستكنّة في مكانها منذ ليلة عائدة...

- ألم يبلغك شيء عن حسين شدّاد أو حسن سليم؟!

رفع إسماعيل حاجبيه الكثيفين، وقال:

- ذكّرتني! حدثت أمور في العام الماضي الذي قضيته بعيدًا عن القاهرة...

ثمّ استطرد في اهتمام متزايد:

ـ علمت حال عودتي من طنطا أنّ أسرة شدّاد انتهت.

تفجّرت في قلب كمال ثورة اهتمام طاغية، وعانى كثيرًا وهو يغالب آثارها الظاهرة، ثم تساءل:

ـ ماذا تعني؟

ـ أخبرتني والدتي أنّ شدّاد بك أفلس، التهمت البورصة آخر مليم في حوزته، انتهى شدّاد، ثمّ إنّه لم يتحمّل الصدمة فانتحر!.

ـ يا له من خبر!. متى حدث ذلك؟

ـ منذ أشهر، وضاع القصر الكبير فيما ضاع من متاع، ذلك القصر الذي عشنا في حديقته زمنًا لا يُنسى...

أيّ زمن وأيّ قصر، وأيّ حديقة، أيّ ذكريات، أيّ ألم نسي، أيّ نسيان مؤلم، الأسرة الرفيعة، الرجل العظيم، الحلم الكبير، أليس هذا الجَيَشان أضخم ممّا ينبغي أن يستدعيه الحال؟!. وهذه الحقيقة التي تمخّض عنها القلب أشدّ ممّا تستحقّ ذكريات عفى عليها النسيان؟.

قال كمال بصوت حزين:

ـ انتحر البيك، وضاع القصر، ولكن ما مصير أهله؟

قال إسماعيل في امتعاض:

ـ لم تعد لأمّ صديقنا إلّا خمسة عشر جنيهًا شهريًّا من ريع وقف، وقد انتقلت إلى شقّة متواضعة بالعبّاسيّة، وقد زارتها والدتي فعادت تصف حالها وهي تبكي، تلك السيّدة التي تقلّبت في نعيم لا يتصوّره الخيال، ألا تذكر؟

يذكر ولا شكّ، أم يظنّه نسي؟. يذكر الحديقة والكشك والنعيم الذي كان يترنّم به الهواء، ويذكر السرور والحزن، بل إنّه الساعة حزين حقًّا، إنّ الدموع تطرق أبواب عينيه الخلفيّة، ولن يحقّ له أن يحزن بعد الساعة على قهوة أحمد عبده التي يتهدّدها الزوال، فكلّ شيء ينبغي أن ينقلب رأسًا على عقب.

ـ إنّه لشيء محزن، وممّا يضاعف الحزن أنّنا لم نقم بواجب العزاء، ترى ألم يعد حسين من فرنسا؟

ـ لا شكّ أنّه عاد عقب الحادث، كذلك حسن سليم وعايدة، ولكن لا أحد منهم في مصر الآن.

ـ وكيف عاد حسين تاركًا أسرته على حالها؟ ومن أين له أن ينفق بعد إفلاس والده؟

ـ سمعت أنّه تزوّج هناك، ولا يبعد أن يكون قد وجد عملًا في أثناء إقامته الطويلة في فرنسا، لا أدري شيئًا عن هذا، فأنا لم أره منذ ودّعناه معًا، كم مضى على ذلك؟. عشرة أعوام على وجه التقريب. أليس كذلك؟. إنّه تاريخ قديم، كم أثار شجوني!

كم وكم، أمّا هو فالدموع لا تزال تطرق أبواب عينيه الخلفيّة، إنّها لم تُفتح منذ ذلك العهد وعلاها الصدأ، وقلبه يقطر حزنًا، فيذكّر بذلك القلب الذي اتّخذ من الحزن شعارًا، إنّ هذا الخبر قد رجّه رجًّا عنيفًا حتّى كاد ينفض عنه الحاضر كلّه، ويكشف عن الإنسان القديم الذي كان حبًّا خالصًا وحزنًا خالصًا، أهذه هي نهاية الحلم القديم؟ الإفلاس والانتحار!. كأنّما قضي بأن تؤدّبه هذه الأسرة بأدب الآلهة الساقطين!. الإفلاس والانتحار، وإذا كانت عايدة لا تزال في بحبوحة من العيش بفضل مكانة زوجها، فماذا طرأ على كبريائها الملائكيّ؟. وهل هبطت الأحداث بشقيقتها الصغيرة إلى...

ـ كان لحسين أخت صغيرة. ما اسمها؟. إنّي أذكره حينًا وأنساه أحيانًا كثيرة!

ـ بدور، إنّها تعيش مع والدتها وتقاسمها متاعب الحياة الجديدة...

تصوّر آل عايدة في حياة متواضعة!. كحياة هؤلاء الناس حولنا، فهل تمضي بدور يومًا بجورب مرفوّ؟. وهل تتّخذ من الترام مركبًا؟. آه... لا تغالط نفسك فأنت اليوم حزين ومهما يكن لعقلك من رأي في الطبقات وفوارقها، فإنّك تشعر من جرّاء هذا الانقلاب بانهيار مخيف، ويعزّ عليك أن تسمع بأنّ مُثُلك العليا تتمرّغ في التراب، فلتهنأ على أيّ حال بأنّه لم يبقَ من الحبّ شيء، أجل... ماذا بقي من الحبّ القديم؟. إذا قال لا شيء فإنّ قلبه يخفق في حنان عجيب عند تردّد أيّ أغنية من أغاني ذلك العهد، رغم ابتذال ألفاظها ومعانيها وأنغامها، فما

معنى ذٰلك؟. لكن مهلًا، إنّها ذكرى الحبّ لا الحبّ نفسه، ونحن نحبّ الحبّ في جميع الأحوال خاصّة الأحوال التي لا حبّ فيها، أمّا في هٰذه اللحظة فإنّني أشعر كأنّي غريق في بحر الهوى، ذٰلك أنّ المرض الكامن ينفث سمومه حين الضعف الطارئ، وما الحيلة ما دام الشكّ زلزل الحقائق جميعًا يقف عند الحبّ في حذر، لا لأنّه شيء فوق الشكّ، ولٰكن احترامًا للحزن، وحرصًا على حقيقة الماضي.

وعاد إسماعيل إلى المأساة سائقًا كثيرًا من التفاصيل، حتّى ضاق بها فيما بدا، فقال بلهجة من يودّ الفراغ من السيرة كلّها:

- الدوام لله إنّه شيء مؤسف حقًّا، ولٰكن حسبنا نكد. . .

ولم يحاول كمال أن يدعوه إلى مزيد. كان فيما قال الكفاية، إلى أن وجد رغبة إلى الصمت والتأمّل. وكان يبكي بكاءً صامتًا بدموع غير منظورة يذرفها قلبه. وأدهشه ذٰلك بصفته مريضًا قديمًا قد برئ من مرضه، وقال لنفسه متعجّبًا: تسعة أعوام أو عشرة!. ما أطولها وما أقصرها، ترى ما صورة عايدة الآن؟. كم يودّ أن يديم إليها النظر ليطّلع على سرّ ذٰلك الماضي الساحر. بل ليقف على سرّ نفسه. إنّه الآن لا يراها إلّا لمحًا خاطفًا في نغمة قديمة معادة، أو صورة في إعلان صابون. أو مِن سباته كالفزع وهو يهمس: هٰذه هي!. ولٰكن ما هي على الحقيقة قسمة من قسمات نجمة سينمائيّة، أو ذكرى متسلّلة، فيستيقظ والواقع؟! ونبا به مجلسه، فتاقت نفسه إلى رحلة مغامرة في دنيا الغيب، فقال لإسماعيل:

- أتقبل دعوتي إلى كأسين في مكان لطيف مأمون؟

فقهقه إسماعيل قائلًا:

- إنّ زوجتي تنتظرني لنذهب معًا إلى زيارة خالتها. . .

ولم يكترث لرفض دعوته. طالما كانت نفسه نديمه. وغادرا المكان وهما يتبادلان الحديث. أيّ حديث. وفيما بين ذٰلك قال كمال لنفسه: قد نضيق بالحبّ إذا وُجد، ولٰكن شَدّ ما نفتقده إذا ذهب.

٧

مليح هٰذا المجلس. . . غير أنّ اليد قصيرة، من هٰذا الموضع الدافئ ترى الغادي والرائح. . . من شارع فاروق وإليه. . . ومن الموسكي وإليه. . . ومن العتبة وإليها، ولولا برودة يناير القاسية لما توارى المشتاق وراء زجاج القهوة، تاركًا رغم أنفه الركن البديع التابع للقهوة على الطوار المقابل، ولٰكن سيأتي الربيع يومًا. . . أجل سيأتي غير أنّ اليد قصيرة، ستّة عشر عامًا أو يزيد وأنت حبيس الدرجة السابعة، دكّان الحمزاوي بيعَ بأبخس الأثمان. . . وربع الغوريّة على ضخامته لا يدرّ إلّا جنيهات. . . أمّا بيت قصر الشوق فمَسْكني ومأواي، وإذا كان لرضوان جدّ غنيّ فكريمة لا عائل لها غيري، ربّ أسرة وعشيق، ولٰكن للأسف اليد قصيرة.

وفجأة وقعت عيناه الحائرتان على شابّ طويل نحيل ذي شارب مربّع ونظّارة ذهبيّة، يخطر في معطفه الأسود قادمًا من الموسكي متّجهًا نحو العتبة، فابتسم ونهض بنصفه الأعلى كأنّما يهمّ بالقيام، ولٰكنّه لم يفارق مجلسه. ولولا أنّ الشابّ كان مسرعًا لمضى إليه ودعاه إلى مجالسته. كمال خير سميرٍ حين الضجر، لم يخطر الزواج له على بال رغم اقترابه من الثلاثين، لِمَ تعجّلْتُ الزواج قبل الأوان؟. ولِمَ وقعتُ فيه مرّة أخرى قبل أن أفيق من لطمته الأولى؟. ولٰكن مَن ذا الذي لا يشكو: أعزب كان أم متزوّجًا؟. وكانت الأزبكيّة ملاذًا ومتعة، ثمّ حلّ بها البوار فهي اليوم بؤرة الحثالة والسفلة، لم يبقَ لك من عالم المسرّات إلّا لذّة المشاهدة في هٰذا المفرق من الطريق ثمّ، الصيد الرخيص، وخير الصيد الرخيص خادمة مصريّة من العاملات في الأسر الإفرنجيّة. . . فهي في الغالب مهذّبة المظهر نظيفة، أمّا سيّد مزاياها دون منازع فضعف الخلق، وتوجد أكثر ما توجد بسوق الخضار بميدان الأزهار.

كان قد فرغ من حسو قهوته، وجلس وراء زجاج النافذة المغلقة يرسل طرفه إلى ملتقى الطرق، يتابع كلّ ذات حسن، فتنطبع على عدسة عينه صور النساء

من ذوات المعاطف والملاءات اللفّ، يَـراهُنّ كـلًّا وأجزاء في مثابرة لا تعرف الكلال. كان يجلس أحيانًا فيطول به الجلوس حتّى العاشرة، وفي أحيان أخـرى ربّما لم يطل بـه الجلوس إلّا ريثما يشرب قهوته، ثمّ ينهض مسـرعًا في أثـر صيد قـد آنس منه استجـابـة ورخصًا، كأنّه تاجر روبابيكيا. ولٰكنّه يقنع في الغالب بالمشاهدة، وربّما تبع الحسناء دون مقصد جدّيّ، أمّا الإقدام الحقّ، كأن يصطاد خادمًا خليعة أو أرملة فوق الأربعين، فكان يقع على فترات وفي حرص شديد. إذ إنّه لم يعد الرجل الـذي كان، لا لأنّ المـوارد ناءت بالأعباء فحسب، ولٰكن لسنّ الأربعين التي نزلت به ضيفًـا دون دعـوة أو استئـذان. يـا لهـا من حقيقـة مـرعبة!. «وشعـرة بيضاء في عـارضي طالما أوصيت الحلّاق بمعالجتها، وقال الحلّاق إنّ أمر الشعرة هيّن، ولٰكنّ الشيب لا يلبث أن ينفجر. تبًّا لهـا، للحلّاق وللشيب، ووصف الرجل صبغة مفيدة ولٰكنّي لن ألجأ إليهـا. بيد أنّ أبي بلغ الخمسـين دون أن تحترق لـه شعرة، أين أنا من أبي!؟ لا في الشيب وحده، كان شابًّا في الأربعين، وكان شابًّا في الخمسين، أمّا أنا!. ربّاه لم أفرّط أكثر ممّا أفرط أبي». أرِحْ رأسك وأتعب قلبك، ترى أكانت حياة هارون الرشيد حقًّا كما يرويها الرواة؟. أين زنّوبة من هٰذا كلّه؟!. جانب من الزواج خدعة بنت كلب، ولٰكنّ قوّته في أنّك تحتضن الخدعة ما حييت، وسوف تدول دول وتنقلب أزمان، ولم يزل الـدهر يتمخّض عن امـرأة سارحـة ورجـل جـادّ في أثرها، الشباب لعنة، والكهولة لعنـات، فأين راحـة القلب أين؟. وأتعس ما في الدنيـا أن تتساءل يـومًا ذاهلًا أين أنا؟!

وغادر القهوة في منتصف العـاشرة، فقطع العتبـة متمهّـلًا إلى شارع محمّـد علـيّ، ثمّ مـال إلى حـانـة «النجمة»، وحيّا «خـالـو» المائل وراء البـار في وقفته التقليديّة، فردّ الرجل تحيّته بابتسامة عريضـة كشفت عن أنياب صفر مثرمة، ثمّ أشار بذقنـه إلى الحجرة الداخليّة كأنّما ليخبره بأنّ أصحابه في الانتظار. وكان يمتدّ أمام البار دهليز ينتهي إلى ثلاث حجرات متداخلة يضجّ جوّها بالعـربدة، فمضى إلى الأخيرة منها، ولم يكن بها إلّا نافذة واحدة ذات قضبان حديديّة تـطلّ على عطفة الماوردي، قد صفّت بها ثلاث موائد متفرّقة في الأركـان، خلت اثنتان وأحـدق بالثـالثة أصحـابه الـذين استقبلوه مهلّلين، شـأنهم كـلّ مسـاء. كـان ياسين ـ رغم شكواه ـ أصغرهم سنًّا، أمّا أكبرهم فكان أعـزب من أصحـاب المعـاشـات، يليــه في مجلسـه بـاشكاتب بـالأوقـاف، فـرئيس المستخـدمـين بـإدارة الجامعة، ثمّ محامٍ من ذوي الأملاك غير مشتغل. كان الإدمان يلوح في سحناتهم نظرة ذابلة وبشرة محتقنة أو بالغة الشحوب، وكانوا يتوافدون إلى الحانة فيما بـين الثامنة والتاسعة فلا يفارقونها إلّا في الهزيع الأخير من الليل، يتجرّعـون أردأ أنواع الخمـر وأشدّهـا مفعولًا وأرخصها ثمنًا، غير أنّ ياسـين لم يكن يلازمهم من البداية إلى النهاية، أو لم يكن يفعل ذٰلك إلّا في القليل النادر، وفيما عدا ذٰلك فكان يُمضي معهم ساعتين أو ثلاثًا كيفما اتّفق، وكالعادة استقبله الأعزب العجـوز قائلًا:

ـ أهلًا بالحاجّ ياسين. . .

وكان يصرّ على وصفه بالحاجّ إكرامًا لاسمه المبارك، أمّا المحامي وكان أشدّهم إدمانًا فقال:

ـ تأخّرت يـا بطل، حتّى قلنـا لقد عـثر في امرأة ستحرمنا من أنسه الليلة كلّها. . .

فعلّق الأعزب العجوز على كلام المحامي متفلسفًا:

ـ لا يفرّق بين الرجل والرجل إلّا امرأة!.

فقال له ياسين مداعبًا، وكان قد جلس فيما بينه وبين باشكاتب الأوقاف:

ـ لا خوف عليك من هٰذه الناحية. . .

فقال العجوز وهو يرفع الكأس إلى فيه:

ـ إلّا لحـظات شيطانيّـة، فقـد تستثـيرني بنت في الرابعة عشرة.

فقال الباشكاتب:

ـ الاسم لطوبة والفعل لأمشير.

ـ لا أفهم ما تقصد بهٰذا الكلام البارد.

ـ ولا أنا فاهم!.

وجـاء خالـو بالكـأس والترمس، فتنـاول يـاسـين الكأس وهو يقول:

ـ يناير هذا العام شايف كيفه.

فقال رئيس المستخدمين:

ـ لله في خلقه شئون، جاء يناير بالبرودة ولكنّه ذهب بتوفيق نسيم إلى غير رجعة!.

فصاح المحامي:

ـ أنقذونا من السياسة، ما زلنا نسكر ونغزّ بالسياسة حتّى اخمدت أنفاسنا، شوفوا حكاية ثانية...

فقال رئيس المستخدمين:

ـ حياتنا في الواقع سياسيّة ولا شيء غير هذا...

ـ أنت رئيس مستخدمين درجة سادسة، مالك أنت والسياسة؟.

فقال الرئيس محتدًّا:

ـ درجة سادسة قديم من فضلك، من أيّام سعد!

فقال الأعزب العجوز:

ـ أنا درجتي السادسة من أيّام مصطفى كامل، لذلك أُحلت بها على المعاش إكرامًا لذكراه... اسمعوا، أليس من الأفضل أن نسكر ونغنّي؟.

فقال ياسين وهو يهمّ بإفراغ كأسه:

ـ لنسكر أوّلًا يا والدي...

لم يتمتّع ياسين في حياته بنعمة الصداقة العميقة، ولكنّه كان له في كلّ مجلس ـ قهوة أو حانة ـ أصحاب، وكان يألف بسرعة ويُؤلَف بأسرع من ذلك. ومنذ اتّخذ هذه الحانة ـ تبعًا لتطوّر حالته المادّيّة ـ مجلسًا ليليًّا مختارًا عرف هذه الجماعة، وتوثّقت أسباب السمر بينهم، غير أنّه لم يقابل أحدًا منهم في الخارج، ولم يسعَ إلى ذلك، جمع بينهم الإدمان والاسترخاص، وكان رئيس المستخدمين أرقاهم مركزًا، ولكنّه كان كثير العيال، أمّا المحامي فقد جاء هذه الحانة جريًا وراء سمعة خمرها القويّة، بعد أن لم تعد تؤثّر فيه الخمور النظيفة إلّا في النادر، ثمّ ألفها واعتادها. وجعل ياسين يشرب ويثرثر، قاذفًا بنفسه في دوّامة العربدة التي تجتاح المكان وترتطم بأركانه. وكان العجوز الأعزب أحبّ أفراد الجماعة إليه. ولم يكن يشبع من مداعبته خاصّة فيما يتعلق بالرموز الجنسيّة، فكان الرجل يحذّره من الإفراط. ويذكّره بمسئوليّاته العائليّة، فيقول له ياسين في استهانة ومباهاة، نحن قوم خلقنا لهذا، هكذا أبي، وهكذا كان جدّي من قبل، وأعاد هذا القول في هذه السهرة، فتساءل المحامي مازحًا:

ـ وأمّك؟... أكانت كذلك أيضًا؟

وضحكوا كثيرًا وضحك ياسين، غير أنّ قلبه غاص في صدره متوجّعًا وأفرط في الشراب. وخيّل إليه رغم نشوته أنّه يتدهور، فلا المكان مكانه، ولا الخمر خمره، ولا اليوم يومه «وفي كلّ مكان يتغامزون عليّ، فأين أنا من أبي؟. ليس أتعس من أن يزيد عمرك وتنقص نقودك، بيد أنّ رحمة الشراب واسعة، تفيض عليك أنسًا، أنسًا رقيقًا وعزاء جميلًا يهون عنده كلّ خطب، فقل ما أعظم مسرّتي، لن يعود العقار الذي ضاع، ولا الشباب الذي انقضى، ولكنّ الخمر تصلح أن تكون خير رفيق على مدى العمر، رضعتها شابًّا يافعًا، وها هي تؤنس رجولتي، وسوف يهتزّ لها طربًا رأسي المجلّل بالمشيب، بذلك يفرح منّي القلب رغم العناء، وغدًا عندما يستوي رضوان رجلًا وتتهادى كريمة عروسًا، أشرب أنخاب السعادة في العتبة الخضراء، فما أعظم مسرّتي».

وإذا بالجماعة تغنّي «أسير العشق ياما يشوف هوان» ثمّ غنّت «يا جارة الوادي» في جوّ صاخب وأصوات معربدة، فردّد الغناء أقوام من سائر الحجرات والدهليز، ثمّ ساد صمت مرهق فعاد رئيس المستخدمين يتحدّث عن استقالة توفيق نسيم، ويتساءل عن المعاهدة التي تهدف إلى حماية مصر من خطر إيطاليا، ذلك الجار الثقيل القائم في ليبيا، فما كان من الجماعة إلّا أن ردّدت في صوت واحد «إرخي الستارة اللي في ريحنا... أحسن جيرانا تجرحنا». ورغم إفراط العجوز في الشراب والعربدة، فقد احتجّ على هذه الإجابة الماجنة، ورماهم بالهذر فيما يليق به الجدّ. فأجابوه في صوت واحد مردّدين «صحيح خصامك وإلّا هزار» فلم يسع الشيخ إلّا أن يضحك، وأن يعود إلى مشاركتهم بلا تحفّظ.

وغادر ياسين الحانة عند منتصف الليل، فبلغ بيته في قصر الشوق حوالى الواحدة صباحًا. وكعادته كلّ ليلة جعل يمرّ بحجرات شقّته كأنّما يقوم بجولة تفتيشيّة، فوجد رضوان في حجرته يذاكر، وقد رفع

الشابّ رأسه عن كتاب القانون ليتبادل مع والده ابتسامة. وكان الحبّ بينهما عميقًا، كذلك الاحترام رغم أنّ رضوان كان يعلم أنّ والده لا يعود هذه الساعة إلّا ثملًا. أمّا ياسين فكان يعجب بجمال ابنه أيّما إعجاب، كما يعجب بذكائه واجتهاده، ويرى فيه وكيل نيابة المستقبل الذي سيرفع من شأنه، ويعزّ من كبريائه، ويعزّيه عن أمور كثيرة، سأله:

ـ كيف تجد دروسك؟

وأشار إلى نفسه كأنّما يقول له «نحن هنا». فابتسم رضوان، وابتسمت فيه عينا هنيّة المكحولتان، فعاد أبوه يسأل:

ـ أيزعجك إذا أدرت الفونوغراف؟

ـ أمّا عنّي فلا. ولكنّ الجيران نائمون في هذه الساعة المتأخّرة.

فابتعد عن الحجرة وهو يقول هازئًا:

ـ نوم العافية!

ومرّ بحجرة نوم «الأولاد» فوجد كريمة تغطّ في نومها على فراش صغير، على حين بقي فراش رضوان في الجانب الآخر من الحجرة خاليًا ينتظر فراغه من مذاكرته. وخطر له لحظة أن يوقظها ليداعبها، ولكنّه ذكر ما يصحب إيقاظها في تلك الساعة من تذمّر فعدل عن خاطرته. واتّجه صوب حجرته. أجمل الليالي في هذا البيت حقًّا هي ليلة الجمعة، تلك العطلة المقدّسة، فإذا عاد إلى بيته ليلة الجمعة ـ بصرف النظر عن الساعة التي يعود فيها ـ فإنّه لا يتردّد في أن يدعو رضوان إلى مجلسه بالصالة، ثمّ يوقظ كريمة وزنّوبة، ويدير الفونوغراف، ويمضي في محادثتهم وممازحتهم حتّى الهزيع الأخير من الليل. كان مغرمًا بأسرته ـ خاصّة رضوان ـ أجل لم يكن يشغل نفسه ـ أو لم يكن لديه من الوقت ـ ليتابعهم برعايته وتوجيهه، تاركًا أمرهم لعناية زنّوبة وحكمتهم الفطريّة! ومهما يكن الأمر فإنّه لم يطق لحظة واحدة أن يمثّل حيالهم الدور القاسي الذي مثّله أبوه حياله، وكره من صميم قلبه أن يخلق في قلب رضوان شعور الرهبة والخوف الذي كان يجده نحو أبيه! والحقّ أنّه لم يكن يستطيع ذلك حتّى لو أراده. وعندما كان يجمعهم حوله بعد منتصف الليل كان يفصح عن ولعه بهم دون تحفّظ، وهو في نشوة من الخمر والحبّ، كان يمازحهم ويسامرهم، وربّما قصّ عليهم نوادر السكارى الذين صادفهم في الحانة، غير عابئ بأثر ذلك في الأنفس البريئة، مستهينًا باحتجاجات زنّوبة التي تومئ بها إليه من وراء وراء، فيبدو وكأنّما نسي نفسه وجرى على سجيّته دون حذر أو مبالاة.

وفي حجرته وجد زنّوبة ـ كالعادة ـ نائمة وليست بنائمة. هكذا كانت أبدًا، فقبل أن يلج الحجرة يترامى إليه شخيرها، حتّى إذا توسّطها تحرّكت وفتحت عينيها وقالت بلهجتها الساخرة «حمدًا لله على السلامة». ثمّ تنهض لمعاونته على خلع ثيابه وترتيبها. وقد بدت في صورتها الطبيعيّة أكبر من سنّها، وكثيرًا ما ظنّها تماثله سنًّا. ولكنّها باتت أليفته واشتبكت جذورها بجذوره، تلك الغانية القديمة التي نجحت في معاشرته فيما لم تنجح فيه سيّدة من قبل، فأرست حياته الزوجيّة على أساس متين، نعم لقد انتابت حياتها في أوّل الأمر معارك وعلا بها زئير ولكنّها بدت دائمًا حريصة على حياتها الزوجيّة كلّ الحرص. ومع الأيّام صارت أمًّا، ومنيت بالثكل، فلم يبق لها غير كريمة، غير أنّ ذلك دعاها إلى مضاعفة الاستمساك بحياتها الزوجيّة، خاصّة بعد أن تهدّدها الذبول وناوأها الكبر المبكّر، ثمّ علّمتها الأيّام أن تتحلّى بالصبر والمهادنة، وأن تتمرّس بدور «السيّدة» بكلّ معنى الكلمة، وغالت في ذلك إلى حدّ أنّها لم تكن تتبرّج خارج بيتها حتّى فازت أخيرًا باحترام بين القصرين والسكّريّة إلى حدّ ما!، وكان من حسن سياستها أن تحمل نفسها على معاملة رضوان معاملة كريمة بالغة الرقّة والمودّة، على الرغم من أنّها لم تكن تجد نحوه حبًّا، خاصّة بعد أن ثكلت في الذكر الوحيد الذي أنجبته لياسين، وكانت رغم تغيّرها شديدة العناية بحسن هندامها وأناقتها ونظافتها، وقد لاحظها ياسين باسمًا وهي تعيد ترتيب شعرها أمام المرآة، ومع أنّه كان يضيق بها أحيانًا إلى حدّ الضجر، إلّا أنّه كان يشعر بحقّ بأنّها أصبحت شيئًا ثمينًا في حياته لا يمكنه الاستغناء عنه بحال. وجاءت بشال فتلفّعت به وهي تقفقف من البرد، وقالت متشكّية:

ـ ما أشدّ البرد! . هلّا رحمت نفسك من السهر في الشتاء؟! .

فقال ساخرًا:

ـ الخمر تغيّر الفصول كما تعلمين، لِمَ تتعبين نفسك بالاستيقاظ؟

فنفخت قائلة:

ـ فعلك متعب وكلامك متعب! .

بدا في جلبابه كالمنطاد، ومسح بيده على كرشه وهو يرنو إلى المرأة في ارتياح، وكانت عيناه السوداوان تشتعلان، ثمّ ضحك فجأة قائلًا:

ـ لو رأيتني وأنا أتبادل التحيّة مع العساكر! أمسى عساكر آخر الليل أصدقائي الأعزّاء! .

فغمغمت وهي تتنهّد:

ـ يا فرحتي! .

٨

كان منظر رضوان ياسين وهو يسير في الغوريّة بخطواته المتّئدة ممّا يلفت الأنظار حقًّا. كان في السابعة عشرة من عمره، مكحول العينين، متوسّط القامة مع ميل خفيف إلى الامتلاء، أنيق الملبس إلى حدّ التبرّج، ينتسب ببشرته الورديّة إلى آل عفّت، فهو يشعّ بهاءً ونورًا، وتنمّ حركاته عن دلال مَن لا يخفى عليه جماله، وعندما مرّ بالسكّريّة اتّجه رأسه إليها فيما يشبه الابتسام، وذكر لتوّه عمّته خديجة وابنيها عبد المنعم وأحمد، فوجد لِذِكْرهما شعورًا لا يخلو من فتور، والحقّ أنّه لم يجد من نفسه مشجّعًا ـ ولو مرّة ـ على أن يتّخذ أحدًا من أقربائه صديقًا بالمعنى الصحيح لهٰذه الكلمة. وسرعان ما اجتاز بوّابة المتولّي، ثمّ مال إلى الدرب الأحمر، حتّى بلغ به المسير باب بيت قديم فطرقه وانتظر، وفتح الباب عن وجه حلمي عزّت، صديق صباه، وزميله اليوم بكلّيّة الحقوق، ومنافسه ـ فيما بدا ـ في الجمال. وتهلّل وجه حلمي لرؤياه، ثمّ تعانقا وتبادلا قبلة كعادتهما عند اللقاء. ومضيا معًا يصعدان السلّم، وفي أثناء ذٰلك جعل حلمي ينوّه بربطة رقبة صديقه وتجاوُب لونها مع قميصه وجوربه، وكان يضرب بهما المثل في الأناقة وحسن الذوق، فضلًا عن أنّ اهتمامهما بالملابس والموضة لم يكن دون اهتمامهما بالسياسة أو دراسة القانون. وانتهيا إلى حجرة كبيرة عالية السقف، دلّ وجود الفراش والمكتب بها على أنّها معدّة للنوم والمذاكرة معًا. والحقّ أنّهما طالما سهرا بها يذاكران، ثمّ ناما جنبًا إلى جنب على الفراش الكبير ذي الأعمدة السوداء والناموسيّة. ولم يكن بيات رضوان خارج البيت بالشيء الجديد، فقد اعتاد منذ صباه أن يدعى إلى أكثر من بيت لقضاء عدّة أيّام، كبيت جدّه محمّد عفّت بالجماليّة، أو بيت أمّه بالمنيرة التي لم تنجب غيره رغم زواجها من محمّد حسن، ولذٰلك ولميل أبيه الطبيعيّ إلى اللامبالاة، وترحيب زنّوبة الخفيّ بكلّ ما يبعده عن بيتها ولو إلى حين، لم يجد معارضة في البيات عند صديقه في مواسم المذاكرة، ثمّ صار الأمر بعد ذٰلك مألوفًا فلم يكن أحد ليعيره أيّ اهتمام، وفي مثل هٰذا الجوّ من اللامبالاة نشأ حلمي عزّت. توفّي أبوه ـ وكان مأمور قسم ـ منذ عشرة أعوام. وفي ذٰلك الوقت كانت أخواته الستّ قد تزوّجن، فعاش وحده مع أمّه العجوز، ووجدت المرأة صعوبة في بادئ الأمر في السيطرة عليه، ثمّ ما لبث أن صار هو المسيطر على البيت كلّه. وكانت المرأة تعيش على معاش زوجها الصغير، وإيجار الدور الأوّل من بيتها القديم، فلم تعرف الأسرة الحياة الرهيفة منذ وفاة الأب، ولٰكنّ حلمي لم يعجز عن مواصلة حياته المدرسيّة حتّى التحق بكلّيّة الحقوق، محافظًا في أثناء ذٰلك كلّه على ما تتطلّبه حياته من مظاهر الاحترام. وكان سرور حلمي بلقاء صديقه لا يعادله سرور، ولم تكن تطيب له أوقات العمل أو الراحة إلّا به، لذٰلك بعث وجوده في نفسه نشاطًا وحماسة، فأجلسه على الكنبة الملاصقة لباب المشربيّة وجلس إلى جانبه، وراح يفكّر في اختيار موضوع ـ وما أكثر المواضيع لمحادثته ـ غير أنّ نظرة واجمة لاحت في عيني رضوان اعترضت تيّار حماسه، فرنا إليه متسائلًا، ثمّ خمّن ما هنالك فتمتم:

ـ زرت والدتك؟ أراهن أنّك قادم من هناك. . .

أدرك رضوان أنّ صدق تخمين صاحبه يرجع إلى وجهه هو، فلاح الضجر في عينيه، وهزّ رأسه

بالإيجاب دون أن يتكلّم، فسأله حلمي:

ـ وكيف حالها؟

ـ عال...

ثمّ وهو يتنهّد:

ـ ولكنّ هٰذا المدعوّ محمّد حسن!!، أنت لم تعرف معنى أن يكون لأمّك زوج غير أبيك!

فقال حلمي مواسيًا:

ـ كثيرًا ما يقع هٰذا، لا عيب فيه، ثمّ إنّه شيء قديم!

فهتف رضوان حانقًا:

ـ لا لا لا، إنّه دائمًا في البيت، لا يبرحه إلّا إلى عمله في الوزارة، نفسي مرّة أزورها فأجدها وحدها، ويطيب له أن يمثّل دور الوالد والمرشد، سحقًا له، وعند كلّ مناسبة يذكّرني بأنّه رئيس أبي في إدارة المحفوظات، ولا يتردّد عن انتقاد مسلكه في عمله، ولكنّي من ناحيتي لا أسكت له...

وصمت دقيقة حتّى يهدأ انفعاله، ثمّ واصل حديثه:

ـ أمّي حمقاء إذ رضيت أن تتزوّج من هٰذا الرجل، ألم يكن من الأفضل أن تعود إلى أبي؟

وكان حلمي يعرف الكثير عن سيرة ياسين المشهورة، فقال باسمًا:

ـ في العشق يا ما كنت أنوح!

فلوّح رضوان بيده معاندًا وهو يقول:

ـ ولو! إنّ ذوق النساء سرّ مخيف والأدهى من ذٰلك أنّها فيما يبدو راضية!

ـ لا تسعَ وراء ما ينغّص صفوك.

فقال رضوان في نبرات حزينة:

ـ يا للعجب، إنّ جانبًا عريضًا من حياتي ينضح بالتعاسة، إنّي أمقت زوج أمّي ولا أحبّ امرأة أبي، جوّ مشحون بالبغضاء، إنّ أبي ـ كأمّي ـ لم يحسن الاختيار، ولكن ماذا في وسعي أن أفعل؟!، وامرأة أبي تحسن معاملتي ولٰكن لا أتصوّر أنّها تحبّني، هٰذه الحياة ما أرذلها!

وجاءت خادم عجوز بالشاي، فتحلّب ريق رضوان الذي عانى في الطريق من رياح فبراير القاسية. وساد الصمت وهما يذيبان السكّر. وتغيّر تعبير وجه رضوان فآذن ذٰلك بإنهاء السيرة المحزنة، ورحّب حلمي بذٰلك فقال في ارتياح:

ـ تعوّدت المذاكرة معك، فلا أدري كيف أذاكر وحدي...

فابتسم رضوان متجاوبًا مع هٰذا الشعور الرقيق، ولٰكنّه سأله فجأة:

ـ هل اطّلعت على المرسوم الصادر بتأليف وفد المفاوضة؟

ـ نعم. ولٰكنّ كثيرين يلغطون متشائمين بالجوّ الذي يحيط بالمفاوضة، ويبدو أنّ إيطاليا ـ التي تهدّد حدودنا ـ هي محور المفاوضة الحقيقيّ، والإنجليز من جانبهم يهدّدون في حال فشل الاتّفاق!

ـ إنّ دماء الشهداء لم تبرد بعد، وعندنا دماء جديدة!

فهزّ حلمي رأسه قائلًا:

ـ هٰذا كلام يقال، لقد سكت القتال وبدأ الكلام، ما رأيك؟

ـ على أيّ حال فإنّ للوفد أغلبيّة ساحقة في هيئة المفاوضة، تصوّر أنّي سألت محمّد حسن زوج أمّي عن رأيه في الموقف، فقال لي ساخرًا: «أتتوهّم حقًّا أنّ الإنجليز يمكن أن يخرجوا من مصر؟!»، هٰذا هو الرجل الذي ارتضته أمّي زوجًا!

فضحك حلمي عزّت عاليًا وسأله:

ـ وهل يختلف رأي أبيك عن ذٰلك؟

ـ إنّ أبي يكره الإنجليز، وحسبه ذٰلك.

ـ أيكرههم من صميم قلبه؟

ـ إنّ أبي لا يكره ولا يحبّ شيئًا من صميم قلبه!

ـ إنّي أسألك عن رأيك أنت، فهل أنت مطمئنّ؟

ـ لِمَ لا، حتّى متى تبقى القضيّة معلّقة؟ أربعة وخمسون عامًا من الاحتلال، أف، لست أنا التعيس وحدي!

فتناول حلمي عزّت آخر رشفة من قدحه وقال باسمًا:

ـ يبدو لي أنّك كنت تحادثني بهٰذه الحماسة عندما وقعت عيناه عليك!

ـ من؟

فابتسم حلمي عزّت ابتسامة غريبة، وقال:

ـ كلّما تحمّست تورّد وجهك وبرز جمالك في أحسن أحواله، وفي لحظة من تلك اللحظات السعيدة رآك ولا شكّ وأنت تحادثني، كان ذٰلك يوم ذهب وفد الطلبة إلى بيت الأمّة داعين إلى الاتّحاد، ألا تذكر ذٰلك اليوم؟

فتساءل رضوان باهتمام لم يحاول إخفاءه:

ـ نعم، ولٰكن من هو؟

ـ عبد الرحيم باشا عيسى!

فتفكّر رضوان قليلًا ثمّ تمتم:

ـ رأيته مرّة عن بُعْد...

ـ أمّا هو فقد رآك اليوم لأوّل مرّة.

وارتسمت على وجه رضوان علامة استفهام، فعاد حلمي يقول:

ـ وعندما قابلني عقب انصرافك سألني عنك، وطلب إليّ أن أقدّمك إليه في أوّل فرصة!

وتبسّم رضوان ثمّ قال:

ـ هاتِ كلّ ما عندك.

فقال حلمي وهو يربّت منكب صاحبه:

ـ دعاني وسألني بخفّته ـ على فكرة هو خفيف جدًّا ـ: «مَن المليح الذي كان يحدّثك؟» فأجبته أنّه زميل في الحقوق وصديق قديم واسمه كذا الخ. فسألني باهتمام: «ومتى تقدّمه إليّ؟» فسألته بدوري متجاهلًا غرضه: «ولمه يا باشا؟» فانفجر قائلًا كالغاضب ـ هٰكذا تبلغ به خفّة الروح أحيانًا ـ: «لأعطيه درسًا في الديانة يا بن الكلب». فضحكت بدوري حتّى كتم فمي بيده...

وساد الصمت لحظة دوّت فيها الريح في الخارج، وترامى صوت ارتطام ضلفة شباك بجدار، ثمّ علا صوت رضوان وهو يتساءل:

ـ سمعت عنه كثيرًا، أهو كما يقال؟

ـ وأكثر...

ـ لٰكنّه عجوز!

فقال حلمي عزّت وأساريره تنطق بالضحك دون صوت:

ـ هٰذا في المرتبة الأخيرة من الأهمّيّة، إنّه رجل كبير المقام، ظريف، ذو نفوذ ولعلّ شيخوخته أجلّ فائدة من الشباب...

فعاود رضوان الابتسام، ثمّ تساءل:

ـ أين منزله؟

ـ فيلّا هادئة في حلوان.

ـ آه تكتظّ بالقاصدين من كافّة الطبقات!

ـ سنكون ضمن مريديه، لِمَ لا؟!، إنّه من شيوخ الساسة ونحن من شبابهم!

فتساءل رضوان في شيء من الحذر:

ـ وزوجه وأولاده؟

ـ يا لك من جاهل، إنّه أعزب، لم يتزوّج قطّ ولا يحبّ هٰذه السيرة، كان وحيد أبويه، وهو يعيش وحده مع خدمه كأنّه مقطوع من شجرة، وإذا عرفته فلن تسلو عنه أبدًا...

وتبادلا نظرة باسمة طويلة تفيض بالمؤامرات، حتّى قال حلمي عزّت في شيء من الجزع:

ـ سلني متى نذهب لزيارته من فضلك؟

فقال رضوان وهو ينظر إلى ثمالة الشاي في قدحه:

ـ متى نذهب لزيارته؟

٩

لاح بيت عبد الرحيم باشا عيسى على ناصية شارع النجاة بحلوان آية في البساطة والأناقة. فيلاً سمراء مكوّنة من دور واحد يعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة أمتار تكتنفه حديقة أزهار، ويستهلّ بسلاملك. وكان البيت والطريق والمنطقة المحيطة به غارقة في صمت مريح. وكان يجلس على أريكة عند الباب البوّاب وسائق السيّارة، بوّاب نوبيّ بارع القسمات ممشوق القوام، وسائق في ريق الشباب مورّد الخدّين. وهمس حلمي عزّت في أذن رضوان وهو يمدّ بصره نحو السلاملك:

ـ صدق الباشا فيما وعد، فلا زائر اليوم غيرنا!

وكان حلمي عزّت معروفًا لدى البوّاب والسائق، فوقفا لاستقباله في أدب، ولّما داعبهما ممازحًا انطلقا

يضحكان دون كلفة. وكان الجوّ قارص البرودة رغم جفافه، فدخلا بهو استقبال آية في الفخامة، تتصدّره صورة كبيرة لسعد زغلول في بذلة التشريفة، ومال حلمي عزّت إلى مرآة ممتدّة طولًا حتّى السقف تتوسّط الجدار الأيمن، فألقى على صورته نظرة متفحّصة طويلة، فلم يتردّد رضوان أن يلحق به. وأن يمتحن منظره بنظرة مثلها، حتّى قال حلمي باسمًا:

ـ قمران يرتديان بذلة وطربوشًا، واللي يعشق جمال النبيّ يصلّي عليه!.

وجلسا متجاورين على كنبة مذهّبة ذات غطاء أزرق وثير. ومرّت دقائق ثمّ سُمعت حركة آتية من وراء الستار المسدل على باب كبير تحت صورة سعد، فاتّجه ناحيتها رأس رضوان وقلبه يخفق باهتمام. وما لبث أن تراءى الرجل في بذلة سوداء أنيقة، تنتشر بين يديه رائحة زكيّة، وقد بدا داكن السمرة، حليق الوجه، نحيل الجسم، مائلًا إلى الطول نوعًا، ذا قسمات دقيقة براها الكبر، وعينين صغيرتين ذابلتين، أمّا طربوشه فقد مال إلى الأمام حتّى كاد يمسّ حاجبيه، وكان يتقدّم هادئًا وقورًا في خطوات متقاربة وبطيئة معًا، فانعكس منه إلى قلب الشابّ إجلالًا وطمأنينة. ولازم الصمت حتّى وقف أمام الشابّين اللذين وقفا لاستقباله، ثمّ تفحّصهما بنظرة ثاقبة ثبتت على رضوان طويلًا حتّى اختلج جفناه، ثمّ ابتسم فجأة، فشاع في الوجه القديم إيناس وجاذبيّة قرّبت المسافة التي تفصل بينه وبينهما حتّى لم تعد شيئًا. ومدّ حلمي يده فتناولها الآخر واستبقاها في يده، ثمّ مدّ بوزه وانتظر، فأدرك حلمي غرضه، وسرعان ما عرض له خدّه فقبّله، ثمّ نظر صوب رضوان قائلًا بصوت رقيق:

ـ لا تؤاخذني يا بنيّ، فهٰذه هي طريقة السلام عندي...

ومدّ رضوان يده في حياء، فتناولها الرجل وهو يتساءل ضاحكًا:

ـ وخدّك؟

فتورّد وجه رضوان، وهتف حلمي مشيرًا إلى نفسه:

ـ المخابرة يا سعادة الباشا مع وليّ الأمر؟

فضحك عبد الرحيم باشا واكتفى بمصافحة رضوان، ثمّ دعاهما إلى الجلوس وهو يجلس على مقعد كبير على كثب منهما، وقال باسمًا:

ـ وليّ أمرك هٰذا ملعون يا رضوان، أليس هٰذا هو اسمك؟. أهلًا وسهلًا، لقد رأيتك في صحبة هٰذا الولد الشقيّ، فراقني أدبك وتمنّيت لقاءك، وها أنت لم تضنّ عليّ به...

ـ إنّي سعيد بالتشرّف بمعرفتك يا سعادة الباشا.

فقال الرجل وهو يدير خاتمًا ذهبيًّا كبيرًا في بنصر يسراه:

ـ أستغفر الله يا بنيّ، لا تستعمل عبارات التعظيم وألقاب التفخيم، إنّني لا أحبّ شيئًا من هٰذا كلّه، الذي يهمّني حقًّا هو الروح اللطيف والنفس الصافية والإخلاص، أمّا سعادة الباشا وسعادة البك فكلّنا أبناء آدم وحوّاء، الواقع لقد راقني أدبك فوددت لو أدعوك إلى بيتي، فأهلًا وسهلًا، أنت زميل حلمي في كلّيّة الحقوق، أليس كذلك؟

ـ نعم يا فندم، إنّنا زملاء من عهد خليل آغا الابتدائيّة...

فرفع الرجل حاجبيه الأشيبين في إعجاب قائلًا:

ـ زمالة صبا!... (ثمّ وهو يهزّ رأسه).. جميل، جميل، لعلّك مثله من حيّ الحسين؟

ـ نعم يا سيّدي، ولدت في بيت جدّي السيّد محمّد عفّت بالجماليّة، وأقيم الآن بمنزل والدي بقصر الشوق...

ـ أحياء مصر الأصيلة، البقاع الطيّبة، ما رأيك لقد عشت فيها دهرًا مع المرحوم أبي في بيرجوان، كنت وحيد أبويّ، وكنت عفريتًا، وطالما جمعت الصبيان في شبه زفّة ومضينا من حارة إلى حارة نعاكس طوب الأرض، ويا ويل الدنف لو رماه القدر إلى طريقنا، وكان أبي يثور غضبه فيجري ورائي بالعصا... قلت يا بنيّ إنّ جدّك هو محمّد عفّت؟

فقال رضوان بفخار:

ـ نعم يا سيّدي...

فتفكّر الباشا قليلًا ثمّ قال:

ـ أذكر أنّي رأيته مرّة في بيت نائب الجماليّة، رجل وجيه ووطنيّ صادق، كاد يرشّح نائبًا في الانتخابات القادمة لولا تنحّيه في آخر لحظة لصديقه النائب القديم، إنّ الاتّحاد الأخير أوجب الصداقة في الانتخابات حتّى يظفر إخواننا الأحرار الدستوريّون ببعض المقاعد، إذن أنت زميل حلمي في الحقوق!. جميل، القانون سيّد الدراسات، وهو يتطلّب لدراسته ذكاء لمّاحًا، أمّا عن المستقبل فما عليك إلّا الاجتهاد!

وجد في نبراته الأخيرة ما يوحي بالوعد والتشجيع، فدبّ في قلبه الطموح والحماسة فقال:

ـ نحن لم نفشل ولا مرّة واحدة في حياتنا الدراسيّة!.

ـ برافو، هٰذا هو الأساس، بعد ذٰلك تجيء النيابة ثمّ القضاء وسيوجد دائمًا من يفتح الأبواب المغلقة أمام المجتهدين، حياة القضاء شيء عظيم، عمادها الذكاء اليقظ والضمير الحيّ، لقد كنت بفضل الله من أبنائها الصادقين، وقد تركت القضاء للاشتغال بالسياسة، فالوطنيّة تحتّم علينا أحيانًا أن نهجر أعمالنا المحبوبة ولٰكن إلى اليوم تجد من يضرب بنا المثل في العدالة والنزاهة، فضع نصب عينيك في الاجتهاد والنزاهة وأنت حرّ بعد ذٰلك في حياتك الخاصّة، قم بواجبك وافعل ما تشاء، أمّا إذا قصّرت في الواجب فلن يرى الناس فيك إلّا النقائص، ألا ترى أنّه لا يحلو لكثير من الفضوليّين إلّا أن يقولوا فلان الوزير به الداء الفلانيّ. وفلان الشاعر به الداء العلّانيّ. حسن، ولٰكن ليس كلّ المصابين وزراء وشعراء، فكن وزيرًا وشاعرًا أوّلًا وافعل بعد ذٰلك ما تشاء، لا يغيبنّ عن ذكائك هٰذا الدرس يا أستاذ رضوان...

وهنا قال حلمي عزّت بخبث:

ـ كفى المرء نبلًا أن تعدّ معايبه، أليس كذٰلك يا سعادة الباشا؟

فثنى الرجل رأسه إلى منكبه الأيمن، وقال:

ـ طبعًا، سبحان من له الكمال وحده، الإنسان ضعيف جدًّا يا رضوان، ولٰكن عليه أن يكون قويًّا في الجوانب الأخرى. مفهوم؟. لو تشاء أحدّثك عن كبار الرجال في الدولة ولن تجد واحدًا خاليًا من داء، وسوف نتحادث طويلًا ونتدارس العبر كيما تكون لنا حياة موفورة الكمال والسعادة...

فنظر حلمي إلى رضوان قائلًا:

ـ ألم أقل لك إنّ صداقة الباشا كنز لا يفنى؟

فقال عبد الرحيم عيسى موجّهًا الخطاب إلى رضوان الذي لم تكد تتحوّل عنه عيناه:

ـ إنّي أحبّ العلم وأحبّ الحياة وأحبّ الناس، وديدني أن آخذ بيد الصغير حتّى يكبر، وأيّ شيء في الدنيا خير من الحبّ؟. يجب إذا واجهتنا مشكلة قانونيّة أن نحلّها معًا، وإذا فكّرنا في المستقبل أن نفكّر معًا، وإذا نازعتنا أنفسنا إلى الراحة أن نرتاح معًا، ما وجدت رجلًا حكيمًا مثل حسن بك عماد، اليوم هو من رجال السلك السياسيّ المعدودين، ودعك أنّه من أعدائي السياسيّين. ولٰكنّه كان إذا تفرّغ لبحث قتله، وإذا طرب رقص عاريًا، الدنيا حلوة على شرط أن تكون حكيمًا واسع... الإدراك! ألست واسع الإدراك يا رضوان؟

فأجاب عنه حلمي عزّت من فوره:

ـ إذا لم يكن فنحن على استعداد لتوسيعه!...

فأشرق وجه الباشا بابتسامة طفليّة نمّت عن رغبته التي لا حدّ لها في المسرّة، وقال:

ـ هٰذا الولد عفريت يا رضوان، ولٰكن ما حيلتي؟ إنّه زميل صباك يا بخته، ولست أنا القائل إنّ الطيور على أشكالها تقع. لازم أنت أيضًا عفريت، خبّرني يا رضوان من أنت؟. هه. إنّك تركتني أتكلّم بلا وعي وأنت صامت كدهاة السياسة، هه؟ قل يا رضوان ماذا تحبّ وماذا تكره؟.

عند ذاك دخل الخادم حاملًا صينيّة القهوة، وكان فتى أمرد شبيهًا بالبوّاب والسائق، فشربوا أكواب الماء الممزوجة بالزهر، وجعل الباشا يقول:

ـ الماء بالزهر شراب أهل الحسين، أليس كذٰلك؟.

فغمغم رضوان باسمًا:

ـ نعم يا سيّدي.

فقال الباشا وهو يهزّ رأسه طربًا:

ـ يا أهل الحسين مدَدا.

وضحكوا جميعًا، حتّى الخادم ابتسم وهو يغادر

البهو، واستطرد الباشا متسائلًا:

ـ مـاذا تحبّ؟. وماذا تكـره؟. تكلّم بصراحة يـا رضـوان، دعني أيسّر لــك الجـواب، أأنت مهتـمّ بالسياسة؟

فقال حلمي عزّت:

ـ كلانا في لجنة الطلبة.

ـ هٰـذا أوّل سبب للمقاربـة بيننا، وهـل لـك في الأدب؟

فأجاب حلمي عزّت:

ـ إنّه مغرم بشوقي وحافظ والمنفلوطي...

فنهره الباشا قائلًا:

ـ اسكت أنت، أريد يا أخي أن أسمع صوته...

فضحكوا، وقال رضوان باسمًا:

ـ إنّي أموت في شوقي وحافظ والمنفلوطي...

فقال الباشا بإعجاب:

ـ «أموت في» يا لـه من تعبير، لا تسمعـه إلّا في الجماليّة، أهي نسبة إلى الجمال يا رضوان؟. إذن أنت من هواة «فضّة ذهب» و«في الليل لّما خلّي» و«من يكن» و«فنن يشيله وفنن يحطه»، الله... الله، هٰذا سبب آخر للمقاربة بيننا يا جماليّة، وهل تحبّ الغناء؟.

ـ إنّه من غواة...

ـ اسكت أنت.

فضحكوا مرّة أخرى، وقال رضوان:

ـ أمّ كلثوم.

ـ جميل، لعلّي من عشّاق القديم، ولٰكنّ الغناء كلّه جميل، فأنا أحبّه، ثقيله وخفيفه، كما يقـول المعرّي، وأموت فيه كما تقول حضرتـك. جميل جـدًّا، الليلة عجب.

ودقّ جرس التليفون، فنهض الباشا إليه، ووضع السمّاعة على أذنه وهو يقول: آلوا.

ـ أهلًا أهلًا معالي الباشا.

ـ .. ..

ـ أنا قلت رأيي للزعيم صراحة، وهو رأي ماهر والنقراشي أيضًا.

ـ .. ..

ـ آسف يا باشا، لا أستطيع. أنا لا أنسى أنّ الملك فؤاد هو الذي عارض في ترقيتي يومًا، والملك فؤاد آخر من يتكلّم في الأخلاق، وعلى أيّ حال سأقابلك غدًا في النادي، سلام عليكم يا باشا...

وعاد الرجل متجهّم الوجه، ولٰكنّه ما كاد يرى وجه رضوان حتّى عاوده الانشراح فواصل حديثه قائلًا:

ـ نعم يا سيّد رضوان، تعارفنا وما أجمل التعارف، أنصحك بالاجتهاد، أنصحك بألّا تتخلّى عن الواجب والمثل الأعلى، بعد ذٰلك أحدّثك عن الطرب والهناء.

وهنا نظر رضوان في ساعته، فلاح الجزع في وجه الباشا وقال:

ـ إلّا هٰذا!! الساعة عدوّ مجالس الأنس.

فتمتم رضوان في شيء من الارتباك:

ـ ولكنّا تأخّرنا يا سعادة الباشا.

ـ تأخّرنا!. أتعني أنّه تأخّر بي العمر!!. أخطأت يا بنيّ، ما زلت أحبّ السهر والجمال والغناء بعد الساعة الواحدة، السهرة لم تبدأ بعـد، لم نقل إلّا بسم الله الرحمٰن الرحيم، لا تعترض. السيّارة تحت أمركما حتّى الصباح، وبلغني أنّك تبيت خارج البيت للمذاكرة، فلنذاكر، لِـمَ لا؟. ما أحلى أن أعود إلى المدخل في القانون العامّ أو شيء من الشريعة، بهٰذه المناسبة مَن يدرّس لكم الشريعة؟. الشيخ إبراهيم نـديم، مسّاه الله بالخير، إنّه كابتن عظيم، لا تدهش، سنؤرّخ يومًا لكلّ رجال العصر، يجب أن تفهم كـلّ شيء، ليلتنا ليلة محبّة وصداقة، خبّرني يا حلمي ما أنسب شراب لمثل هٰذه الليلة؟

فقال حلمي باطمئنان:

ـ ويسكي وصودا وشواء.

فقال الباشا ضاحكًا:

ـ وهل الشواء شراب يا شقيّ؟

١٠

عقب الغـداء من يوم الخميس يلتئم شمـل أسرة خديجة على نحو لا يكاد يتغيّر. وهٰكذا جمعت الصالة بين الأب إبراهيم شـوكت وعبد المنعم وأحمـد، ولـمّا كان من النادر أن تبقى خديجة بدون عمل فقد جلست

بينهم وهي تطرّز غطاء مائدة، وقد بدا الكبر أخيرًا على إبراهيم شوكت بعد مقاومة طويلة جبّارة، فشاب شعره وترهّل بعض الشيء، وإن حافظ فيما عدا ذٰلك على صحّة يُحسد عليها، وكان يدخّن سيجارة، ويأخذ مكانه بين ابنيه في هدوء وطمأنينة. تعكس عيناه البارزتان نظرة الخمول واللامبالاة التقليديّة، على حين لم ينقطع الشابّان عن الحديث، فيما بينهما حينًا، أو مع الأب أو الأمّ التي شاركت في الحديث دون أن ترفع رأسها عن عملها، وقد بدت ككتلة عظيمة من الشحم واللحم. لم يعد في الجوّ ما ينغّص على خديجة صفوها، إذ لم يبقَ مَن ينازعها السيادة في بيتها مذ توفّيت حماتها. كانت تقوم بواجباتها بهمّة لا تخذلها أبدًا، وترعى سمانتها بعناية فائقة وهي جوهر جمالها كلّه، وتحاول فرض رعايتها على الجميع، الأب والابنين، فيطاوع الرجل، وأمّا عبد المنعم وأحمد فيشقّ كلّ سبيله كما يرى مستعيذَيْن بحبّها من سطوتها. وقد نجحت منذ سنوات في حمل زوجها على احترام تقاليد الدين، فمارس الرجل الصلاة والصوم واعتادهما، وكان عبد المنعم وأحمد قد شبّا على ذٰلك من قبل، غير أنّ أحمد توقّف عن أداء الفريضة منذ عامين، وجعل يتهرّب من استحواب أمّه كلّما استجوبته أو يتعلّل بعذر أو بآخر. وكان إبراهيم شوكت يحبّ ابنيه حبًّا جمًّا، ويعجب بهما أشدّ الإعجاب، وينوّه في كلّ فرصة بنجاحهما المتواصل الذي بلغ بعبد المنعم كلّيّة الحقوق وبأحمد نهاية المرحلة الثانويّة، وفي ذٰلك كانت خديجة تقول في مباهاة:

ـ كلّ هٰذا ثمرة اهتمامي أنا، لو تُرك الأمر لك ما فلح أحدهما ولا كان له شأن...

وقد ثبت أخيرًا أنّها نسيت مبادئ القراءة والكتابة لعدم الاستعمال ممّا جعلها هدفًا لسخرية إبراهيم، حتّى اقترح ابناها أن يذكّراها بما نسيت ردًّا لجميلها الذي تباهي به، فغضبت قليلًا وضحكت كثيرًا، ثمّ لخّصت الحال في كلمة قائلة:

ـ لا حاجة بامرأة إلى الكتابة والقراءة ما دامت لا تكتب رسائل غرام!

بدت في أسرتها سعيدة راضية، ولعلّ شهيّة عبد المنعم وأحمد لم تكن تعجبها كثيرًا، كما أنّ نحافتهما كانت تغيظها فقالت باستياء:

ـ قلت ألف مرّة إنّه يجب أن تغيّرا ريقكما على البابونج ليفتح شهيّتكما، يجب أن تأكلا جيّدًا، ألا تريان أباكما كيف يأكل؟

وابتسم الشابّان وهما ينظران نحو أبيهما، فقال الرجل:

ـ ولماذا لا تضربين المثل بنفسك، وأنت تأكلين كالطاحونة؟

فقالت باسمة:

ـ إنّي أترك لهما الحكم والخيار.

فقال إبراهيم محتجًّا:

ـ عينك يا شيخة أصابتني! لذٰلك نصحني الدكتور بأن أخلع أسناني...

فلاحت في عينيها نظرة رقيقة، وقالت:

ـ لا تجزع، ستذهب بشرّها، ولن تشكو ألمًا بعد ذٰلك إن شاء الله...

وهنا خاطبها أحمد قائلًا:

ـ جارنا ساكن الدور الثاني يرجو أن يؤجّل دفع الأجرة حتّى الشهر القادم، قابلني على السلّم فرجاني في ذٰلك!

فسألته وهي تنظر إليه مقطّبة:

ـ وماذا قلت له؟

ـ وعدته بأن أحدّث أبي...

ـ وهل حدّثت أباك؟

ـ ها أنا أحدّثك أنت!

ـ إنّنا لا نشاركه في شقّته فلا يجوز له أن يشاركنا في رزقنا، ولو تساهلنا معه لتبعه ساكن الدور الأوّل، أنت لا تعرف الناس فلا تتدخّل فيما لا يعنيك...

فنظر أحمد إلى أبيه متسائلًا:

ـ ما رأيك يا بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت قائلًا:

ـ في عرضك لا تصدع دماغي، عندك أمّك...

فعاد أحمد إلى أمّه قائلًا.

ـ إذا تساهلنا مع رجل مزنوق فلن نجوع...

فقالت خديجة بامتعاض:

ـ لقد حدّثتني زوجه وأجّلت لها الدفع فليرتح بالك، ولكنّي أفهمتها أنّ أجرة المسكن واجبة كمصروفات الأكل والشرب، أفي ذٰلك خطأ؟، إنّي ألام أحيانًا لأنّي لم أتّخذ من جاراتي صديقات، ولٰكن من يعرف الناس يحمد الله على الوحدة...

فعاد أحمد يتساءل وهو يغمز بعينه:

ـ وهل نحن خير الناس؟

فعبست خديجة قائلة:

ـ نعم، إلّا إذا كان لك في نفسك رأي آخر!

فقال عبد المنعم:

ـ رأيه في نفسه أنّه خير الناس جميعًا، لا رأي إلّا رأيه، والحكمة موقوفة على رأسه!

فقالت خديجة متهكّمة:

ـ ومن رأيه أيضًا أن يستأجر الناس البيوت دون دفع أجرتها!

فقال عبد المنعم ضاحكًا:

ـ إنّه غير مقتنع بأنّه من حقّ بعض الناس أن يملكوا بيوتًا على الإطلاق...

فقالت خديجة وهي تهزّ رأسها:

ـ يا عيني على الرأي الفقريّ...

وحدج أحمد أخاه بنظرة غاضبة، فهزّ عبد المنعم منكبيه باستهانة وهو يقول:

ـ راجع نفسك قبل أن تغضب...

فقال أحمد محتجًا:

ـ يحسن بنا ألّا نتناقش معًا!

ـ بل انتظر حتّى تكبر...

ـ إنّك أكبر منّي بعام لا أكثر...

ـ أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة...

ـ هٰذا المثل لا أومن به!

ـ اسمع، لا يهمّني إلّا شيء واحد، هو أن تعود إلى الصلاة معي...

فهزّت خديجة رأسها بأسف وهي تقول:

ـ صدق أخوك، الناس تكبر تعقل أمّا أنت فأعوذ بالله منك، حتّى أبوك صلّى وصام، فكيف فعلت بنفسك ما فعلت؟، إنّي أتساءل ليل نهار!

فقال عبد المنعم بصوت قويّ شديد الثقة بنفسه:

ـ بالصراحة إنّ رأسه يحتاج إلى تطهير من الداخل...

ـ إنّه...

ـ اسمعي، هٰذا الشابّ لا دين له، هٰذا ما بتّ أعتقده...

فلوّح أحمد بيده كالغاضب، وهتف متسائلًا:

ـ من أين لك الحقّ في الحكم على القلوب؟

ـ الأفعال تنمّ عن السرائر (ثمّ وهو يداري ابتسامة) يا عدوّ الله!

فقال إبراهيم شوكت دون أن يخرج من هدوئه وطمأنينته:

ـ لا تتّهم أخاك ظلمًا.

وقالت خديجة مخاطبة عبد المنعم وهي تلحظ أحمد:

ـ لا تسلب أخاك أعزّ ما يملك الإنسان، كيف لا يكون مؤمنًا؟!، إنّ آل أمّه لا تنقصهم إلّا العمائم ليكونوا من رجال الدين، وكان جدّه من صميم رجال الدين، لقد نشأنا فوجدنا مَن حولنا يصلّون ويتعبّدون كأنّنا في جامع!

فقال أحمد متهكّمًا:

ـ مثل خالي ياسين...!

وندّت عن إبراهيم شوكت ضحكة، فقالت خديجة متظاهرة بالغضب:

ـ تكلّم عن خالك بأدب، ماله؟ قلبه عامر بالإيمان وربّنا يهديه، انظر إلى جدّك وجدّتك.

ـ وخالي كمال؟

ـ خالك كمال من محاسيب الحسين، أنت لا تدري شيئًا.

ـ بعض الناس لا يدرون شيئًا...

فسأله عبد المنعم محتدًّا:

ـ لو كان الناس جميعًا مهملين في دينهم، فهل يشفع لك ذٰلك؟

فقال أحمد في هدوء:

ـ على أيّ حال اطمئنّ، فلن تؤخذ يومًا بذنبي!

وهنا قال إبراهيم شوكت:

ـ كفاكما خصامًا، نفسي أراكما كرضوان ابن خالكما...

فحدجته خديجة بنظرة استياء، كأنّما عزّ عليها أن يعدّ رضوان خيرًا من ابنيها، فقال إبراهيم موضحًا رأيه:

ـ هٰذا الشابّ على صلة بكبار الساسة، شابّ ذكيّ، وقد ضمن بذٰلك مستقبلًا باهرًا. . .

فقالت خديجة غاضبة:

ـ لست من رأيك، رضوان شابّ سيّئ الحظّ، ككلّ شابّ يحرمه سوء الحظّ من رعاية أمّه، وزنّوبة «هانم» لا تهتمّ في الواقع بأمره، أنا لا أنخدع بحسن معاملتها له فهٰذه سياسة كسياسة الإنجليز، لذٰلك لا يقرّ للمسكين قرار، وأكثر أيّامه يبيتها خارج بيته، أمّا صلته بالكبراء فلا معنى لها، إنّه طالب مع عبد المنعم في سنة واحدة، فما معنى هٰذا التداخل الخطير؟ أنت لا تعرف كيف تضرب الأمثال. . .

فرمقها إبراهيم بنظرة كأنّما يقول لها: «لا يمكن أن تقرّيني على رأي»، ثمّ قال مواصلًا إيضاح رأيه:

ـ ليس الشبّان اليوم كما كانوا في الزمن الماضي، السياسة غيّرت كلّ شيء، فكلّ كبير له مريدوه منهم، والطموح الذي يريد أن يشقّ سبيله في الحياة لا بدّ له من كبير يرجع إليه، إنّ مكانة والدك الكبيرة تقوم على اتّصالاته الوثيقة بالكبراء!

فقالت خديجة بكبرياء:

ـ أبي يسعى الناس إلى التعرّف به ولا يسعى هو إلى أحد، أمّا عن السياسة فأبنائي لا شأن لهم بها، لو أتيح لهما أن يريا خالهما الشهيد لأدركا من نفسيهما معنى كلامي، بين يحيا فلان ويسقط فلان يهلك أبناء الناس، ولو عاش المرحوم فهمي لكان من أكبر القضاة اليوم. . .

فقال عبد المنعم:

ـ لكلّ طريقته، نحن لا نقلّد أحدًا، ولو أردنا أن نكون كرضوان لكنّا. . .

فقالت خديجة:

ـ أحسنت!

وقال له أبوه باسمًا:

ـ أنت كأمّك، وكلاكما لا تساويان شيئًا. . .

ودقّ الباب، فجاءت الخادم تؤذن بقدوم الجارة الساكنة في الدور الأوّل، فقالت خديجة وهي تهمّ بالقيام:

ـ ماذا تريد يا ترى؟. . . إن كان في الأمر تأجيل دفع أجرة فلن يفصل بيننا إلّا قسم الجماليّة!.

١١

كان الموسكي شديد الزحام، اكتظّ بأهله وما أكثرهم فضلًا عمّا استجدّ عليه ذٰلك اليوم من تيّارات بشريّة تدفّقت من ناحية العتبة. وكانت شمس إبريل الصافية تقذف لهبًا، فشقّ عبد المنعم وأحمد سبيلهما في جهد غير يسير وهما يتصبّبان عرقًا. وقال أحمد وهو يتأبّط ذراع أخيه:

ـ حدّثني عن شعورك. . .

فتفكّر عبد المنعم قليلًا، ثمّ راح يقول:

ـ لا أدري، الموت رهيب، فما بالك بموت ملك، وكان طريق الجنازة مكتظًّا بالناس بصورة لم أشهدها من قبل، أنا لم أشهد جنازة سعد زغلول حتّى أستطيع المقارنة بين الجنازتين، ولكن يبدو لي أنّ أكثر الناس كان متأثّرًا على نحو ما، وبعض النساء يبكين، نحن المصريّين قوم عاطفيّون. . .

ـ لٰكنّي أسألك عن شعورك أنت؟

فعاد عبد المنعم يفكّر وهو يتفادى من الارتطام بالناس، ثمّ قال:

ـ لم أكن أحبّه، وهٰذا اعتنقناه جميعًا فأنا لم أحزن، ولٰكنّي لم أسرّ كذٰلك، تابعت النعش بعين مَن لا قلب له، لا له ولا عليه، غير أنّ فكرة الجبّار في النعش أثّرت فيّ، لا يمكن أن يمرّ منظر كهٰذا دون أن يؤثّر فيّ، لله الملك جميعًا، هو الحيّ الباقي فليت الناس يعلمون، غير أنّه لو مات الملك قبل أن تتغيّر الحالة السياسيّة التي كانت قائمة لزغرد كثيرون وكثيرون جدًّا، وأنت ما شعورك؟.

ـ أنا لا أحبّ الطغاة أيًّا كانت الحالة السياسيّة!.

ـ هٰذا حسن، ولٰكن منظر الموت؟!

ـ ولا أحبّ الرومانتيكيّة المريضة!

فتساءل عبد المنعم في ضجر:

ـ أسُررت إذن؟

ـ تمنّيت أن يمتدّ بي العمر حتّى أرى العالم وقد خلص من كافّة الطغاة على اختلاف أسمائهم وأوصافهم. . .

وسكتا قليلًا وكان التعب قد نال منهما كلّ منال، ثمّ عاد أحمد يتساءل:

ـ وماذا عمّا بعد ذٰلك؟.

فقال عبد المنعم بلهجة اليقين التي اشتهر بها:

ـ فاروق غلام، ليس له دهاء أبيه ولا نابه الأزرق، فإذا سارت الأمور سيرًا حسنًا، فنجحت المفاوضات، وعاد الوفد إلى الحكم، فسوف تستقرّ الأمور وينقضي عهد المؤامرات. . . المستقبل حسن فيما يبدو. . .

ـ والإنجليز؟

ـ إذا نجحت المفاوضات انقلب الإنجليز أصدقاء، وبالتالي ينقطع التحالف القائم بين السراي والإنجليز ضدّ الشعب، فلا يجد الملك بدًّا من احترام الدستور.

ـ الوفد خير من غيره. . .

ـ بلا شكّ، إنّه لم يحكم طويلًا حتّى يعرف مدى قدرته، وقريبًا تكشف التجربة عن إمكانيّاته الحقيقيّة، إنّي أوافقك على أنّه خير من غيره، ولٰكنّ طموحنا لن يقف عنده!.

ـ طبعًا، إنّي أومن بأنّ حكم الوفد نقطة ابتداء حسنة لتطوّر أعظم، وهٰذا كلّ ما هنالك، ولٰكن هل نتّفق مع الإنجليز حقًّا؟

ـ إمّا الاتّفاق وإمّا العودة إلى حكم صدقي، في أمّتنا احتياطيّ من الخونة لا ينفد، كلّ مهمّته دائمًا تأديب الوفد إذا قال للإنجليز «لا»، وإنّهم لفي الانتظار، هٰذه هي المأساة. . .

وعندما بلغا السكّة الجديدة وجدا نفسيهما فجأة أمام جدّهما أحمد عبد الجواد الذي كان متّجهًا صوب الصاغة، فتقدّما إليه وسلّما عليه بإجلال، فسألهما باسمًا:

ـ من أين وإلى أين؟.

فقال عبد المنعم:

ـ كنّا نتفرّج على جنازة الملك فؤاد. . .

فقال الرجل دون أن تفارق الابتسامة شفتيه:

ـ سعيكما مشكورا!

ثمّ صافحهما ومضى كلّ إلى حال سبيله، وأتبعه أحمد نظره قليلًا، ثمّ قال:

ـ جدّنا ظريف وأنيق، لقد ملأ أنفي شذًا طيّبًا. . .

ـ نينة تروي عن جبروته الأعاجيب. . .

ـ لا أظنّه جبّارًا، هٰذا شيء لا يصدّق.

فضحك عبد المنعم قائلًا:

ـ إنّ الملك فؤاد نفسه بدا في أواخر عهده لطيفًا طيّبًا. . .

وضحكا معًا. ومضيا إلى قهوة أحمد عبده. وفي الحجرة المواجهة للنافورة رأى أحمد شيخًا مرسل اللحية حادّ البصر يتوسّط جمعًا من الشبّان يتطلّعون إليه في اهتمام، فتوقّف وهو يقول لأخيه:

ـ الشيخ عليّ المنوفي صديقك، أخرجت الأوض أثقالها، ينبغي أن أتركك هنا. . .

فقال عبد المنعم:

ـ تعال اجلس معنا، أحبّ أن تجالسه وتسمع له، ناقشه كيفما شئت، كثير ممّن حوله من طلبة الجامعة. . .

فقال أحمد وهو يخلّص ذراعه من ذراع أخيه:

ـ لا يا عمّ، كدت مرّة أشتبك معه في عراك، أنا لا أحبّ المتعصّبين، مع السلامة. . .

فحدجه عبد المنعم بنظرة انتقاد، ثمّ قال بحدّة:

ـ مع السلامة، ربّنا يهديك. . .

وأقبل عبد المنعم على مجلس الشيخ عليّ المنوفي ناظر مدرسة الحسين الأوّليّة، فنهض الرجل لاستقباله ـ وقد نهض معه جميع الجلوس حوله ـ وتعانقا، ثمّ جلس الشيخ وجلسوا وهو يتساءل متفحّصًا عبد المنعم بعينيه الحادّتين:

ـ لم نرك أمس؟. . .

ـ المذاكرة. . .

ـ الاجتهاد عذر مقبول، وما لأخيك قد تركك وذهب؟.

فابتسم عبد المنعم ولم يجب، فقال الشيخ عليّ المنوفي:

ـ ربّنا الهادي، لا تعجبوا له، لقد صادف مرشدنا

كثيرين من أمثاله هم اليوم من أشدّ المخلصين لدعوته، ذلك أنّ الله إذا أراد لقوم هداية فلن يكون للشيطان عليهم من سلطان، ونحن جنود الله، ننشر نوره، ونحارب عدوّه، وهبْنا أرواحنا له من دون الناس، فما أسعدكم جنود الله...

وقال أحد الجالسين:

ـ ولٰكنّ مملكة الشيطان كبيرة!

فقال الشيخ عليّ المنوفي معاتبًا:

ـ انظروا إلى مَن يخاف دنيا الشيطان والله معه!. ماذا نقول له؟. نحن مع الله والله معنا فلماذا نخاف؟. مَن مِن جنود الأرض يتمتّع بقوّتكم؟ وأيّ سلاح أحدّ من سلاحكم؟. الإنجليز والفرنسيّون والألمان والطليان جلّ اعتمادهم على الحضارة المادّيّة، أمّا أنتم فاعتمادكم على الإيمان الصادق، إنّ الإيمان يفلّ الحديد، الإيمان أقوى قوّة في العالم، املأوا قلوبكم الطاهرة بالإيمان تخلص الدنيا لكم...

فقال آخر:

ـ نحن مؤمنون، ولٰكنّنا أمّة ضعيفة.

فكوّر الشيخ قبضته وشدّ عليها وهو يهتف:

ـ إذا كنت تستشعر ضعفًا فإيمانك يعتوره نقص وأنت لا تدري، الإيمان خالق القوّة وباعثها، إنّ القنابل تصنعها أيدٍ كأيدينا وهي ثمرة القوّة قبل أن تكون من مسبّباتها، كيف انتصر النبيّ على أهل الجزيرة؟. وكيف قهر العرب العالم كلّه؟.

فقال عبد المنعم بحماسة:

ـ الإيمان... الإيمان...

غير أن صوتًا رابعًا تساءل:

ـ ولٰكن كيف كان للإنجليز هٰذه القوّة وهم قوم غير مؤمنين؟

فابتسم الشيخ متخلّلًا لحيته بأصابعه وهو يقول:

ـ لكلّ قويّ إيمانه، إنّهم يؤمنون بالوطن وبالمصلحة، أمّا الإيمان بالله فهو فوق كلّ شيء، وأحرى بالمؤمنين بالله أن يكونوا أقوى من المؤمنين بالحياة الدنيا، فتَحْتَ أيدينا نحن المسلمين ذخيرة مدفونة يجب أن نستخرجها. يجب أن يُبعث الإسلام كما بُعث أوّل مرّة، نحن مسلمون اسمًا فيجب أن نكون مسلمين فعلًا، لقد منّ الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحقّت الذلّة علينا، فلنعد إلى الكتاب، هٰذا هو شعارنا، العودة إلى القرآن، بذٰلك نادى المرشد في الإسماعيليّة، ومن ساعتها ودعوته تسري في الأرواح، غازية القرى والدساكر حتّى تملأ القلوب جميعًا...

ـ ولٰكن أليس من الحكمة أن نتجنّب السياسة؟

ـ الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة، إنّ الله أرحم من أن يترك أخطر الأمور الإنسانيّة دون تشريع وتوجيه، وهٰذا في الواقع هو درسنا الليلة...

كان الشيخ شديد الحماسة، وكانت طريقته أن يقرّر حقيقة ما، ثمّ تدور حولها المناقشات ما بين أسئلة من مريديه وأجوبة عليها منه، يقوم أكثرها على الاستشهاد بالقرآن والحديث. وكان يتحدّث وكأنّه يخطب، أو كأنّه يخطب الجالسين في القهوة جميعًا. فسمعه أحمد وهو جالس في أقصى المكان، يحتسي الشاي الأخضر، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. وكان يقيس الشقّة بينه وبين هٰذه المجموعة المتحمّسة في عجب، ويجد نحوها ازدراء وغضبًا، وثار به التحدّي مرّة فهمّ بأن يطلب من الشيخ أن يخفض من صوته حتّى لا يعكّر على روّاد القهوة صفاء راحتهم، ولٰكنّه عدل عمّا هم به في اللحظة التي تذكّر وجود أخيه بينهم. وأخيرًا لم يجد بدًّا من مغادرة القهوة، فقام ساخطًا وغادرها...

١٢

عاد عبد المنعم إلى السكّريّة حوالى الثامنة مساء. وكان الجوّ سكّت حنقه فمال إلى اللطافة وشاعت فيه رقّة الربيع. كان الدرس ما يزال يكبر في رأسه ويتردّد في قلبه، ولٰكن أعياه الجهد والفكر. وعَبَر حوش البيت في ظلام دامس ثمّ اتّجه إلى السلّم، وفي تلك اللحظة فتح باب الدور الأوّل، وعلى الضوء المنبعث من داخل الشقّة رأى شبحًا يتسلّل إلى الخارج ثمّ أغلق الباب وراءه وسبقه إلى السلّم. وخفق قلبه وجرى دمه حارًّا كحشرة هيّجها القيظ. رآها في الظلام تنتظر عند أوّل بسطة وتتطلّع نحوه فتطلّع نحوها، ولم يتحوّل عنها رأسه. وعجب كيف يستغفل الصغار الكبار، فهٰذه الصغيرة غادرت بيتها بحجّة زيارة الجيران، وسوف

تزور الجيران، ولكن بعد خوض مغامرة خطيرة فوق بسطة السلّم المستكنّة في الظلام. ولتوّه وجد رأسه فارغًا، تبخّر ما كان يصطرع فيه من أفكار وتطاير، وتركّز هو في رغبة واحدة هي أن يشبع النهم الذي بات يؤرّق أعصابه وأعضاءه. أمّا ذلك الإيمان الصادق فيبدو أنّه ولّى غاضبًا، أو غاص في الأعماق يدمدم حانقًا ولكنّ صوته ضاع في أزيز النار المستعرة. أليست هي فتاته؟. بلى، تشهد بذلك حنايا الحوش وبئر السلّم وركن السطح المطلّ على السكّريّة. وكانت بلا ريب ترقب عودته لتلتقي به في اللحظة المناسبة. كلّ هٰذا العناء من أجله هوا. ومضى متعجّلًا حذرًا حتّى وقف إزاءها على البسطة، لا يكاد يفصل بينهما شيء، وقد سطع أنفه شذا شعرها، ودغدغ عنقه تردّد أنفاسها. وربّت منكبها برقّة هامسًا:

- نصعد إلى البسطة الثانية فنكون في موضع آمن من هٰذا.

تقدّمته دون أن تنبس فتبعها محاذرًا. وبلغا البسطة الثانية فيما بين الدورين. فوقفت مستندة إلى الجدار ووقف بين يديها، ثمّ أحاطها بذراعيه فقاومته بحكم العادة مقدار ثانية ثمّ سكنت في حضنه...

- حبيبتي...

- انتظرتك في النافذة، نينة مشغولة باستعدادات شمّ النسيم.

- كلّ سنة وأنت طيّبة، دعيني أشمّ النسيم بين شفتيك...

والتقت شفتاهما في قبلة طويلة جائعة. ثمّ تساءلت:

- أين كنت؟

ذكر في سرعة خاطفة درس السياسة في الإسلام، ولكنّه أجاب:

- مع بعض الأصدقاء في القهوة...

قالت بلهجة تشي بالاحتجاج:

- القهوة ولم يبقَ على الامتحان إلّا شهر؟

- ولكنّي أعرف واجبي، سأقبّلك قبلة ثانية جزاء سوء ظنّك بي...

- صوتك عال، أنسيت أين نحن؟

- نحن في بيتنا، في غرفتنا، هٰذه البسطة هي غرفتنا!

- العصر وأنا ذاهبة إلى خالتي نظرت إلى فوق لعلّي أراك في النافذة، فإذا بوالدتك تطلّ على الحارة فالتقت عيني بعينها فارتعدت من الخوف.

- ماذا خفت؟

- خيّل إليّ أنّها عرفت عمّن أبحث وأنّها كشفت سرّي...

- تعنين سرّنا، إنّه شيء واحد يربطنا، ألسنا الآن شيئًا واحدًا؟

وضمّها إلى صدره بعنف في رغبة جامحة، وفي الوقت نفسه كأنّما كان يجدّ هاربًا من أصوات المعارضة الخافتة في أعماقه باستسلام يائس، فلفحته نيران متأجّجة، واحتوته قوّة قادرة على إذابة اثنين في دوّامة واحدة...

وندّ عن الصمت تنهيدة ثمّ تردّد أنفاس، وشعر أخيرًا بأنّه هو وأنّها هي وأنّ الظلام يضمّ شبحين. ثمّ جاءه همسها الرقيق يقول في استحياء:

- نتقابل غدًا؟.

فردّ في امتعاض حاول ما استطاع التستّر عليه:

- نعم...، نعم، ستعلمين في حينه...

- أخبرني الآن...

فقال والامتعاض يزداد ثقلًا على قلبه:

- لا أدري كيف يكون وقتي غدًا!

- لِمَ؟...

- اذهبي بالسلامة، سمعت صوتًا!

- كلّا، لا صوت هناك...

- لا ينبغي أن يجدنا أحد هٰكذا...

وربّت كتفها كأنّما يربّت خرقة ملوّثة، وتخلّص من ذراعيها في رقّة مفتعلة ثمّ رقي في السلّم على عجل. كان والداه جالسين في الصالة يستمعان إلى الراديو، وكانت حجرة المكتب مغلقة الباب مضاءة الشرّاعة ممّا دلّ على أنّ أحمد يذاكر، فحيّاهما تحيّة المساء وقصد حجرة النوم ليخلع ملابسه. واستحمّ، وتوضّأ، وعاد إلى حجرته فصلّى، ثمّ تربّع على سجّادة الصلاة وراح في تأمّل عميق. كانت عيناه ترنوان بنظرة حزينة،

وكان صدره يضطرم شجنًا، وهفّت نفسه إلى البكاء، ودعا ربّه أن يطرد الشيطان عن سبيله وأن يشدّ أزره في مقاومة الغواية. ذلك الشيطان الذي يعترضه في صورة فتاة ويندفع في دمه رغبة جامحة. ودائمًا أبدًا يقول عقله لا فيقول قلبه نعم، ثمّ يتلقّفه ذلك الصراع المخيف الذي ينتهي بالهزيمة والندم. كلّ يوم تجربة وكلّ تجربة جحيم فمتى ينقضي هذا العذاب؟!، إنّ نضاله الروحيّ كلّه مهدّد بالخراب وكأنّما يبني قصورًا في الهواء ولن يقرّ قرار لغارق في الطين، فليت الندم يستطيع أن يُرجع ساعة مضت.

١٣

أخيرًا اهتدى أحمد إبراهيم شوكت إلى مبنى مجلّة «الإنسان الجديد» بغمرة. كان المبنى يقع في مكان وسط بين محطّتي الترام، وكان مكوّنًا من دورين وبدروم، فأدرك لأوّل وهلة أنّ الدور الأعلى مسكن كما استدلّ من الغسيل المعلّق في شرفته، أمّا الدور الأوّل فقد ثبّتت لافتة باسم المجلّة على بابه، وأمّا البدروم فقد خُصّص للمطبعة التي رأى آلاتها خلل قضبان النوافذ. وصعد درجات أربعًا إلى الدور الأوّل، ثمّ سأل أوّل من التقى به ـ وكان عاملًا يحمل بروفات ـ عن الأستاذ عدلي كريم صاحب المجلّة، فأشار الرجل إلى باب مغلق في نهاية صالة خالية من الأثاث حيث تراءت لافتة رئيس التحرير، فمضى وهو يتلفّت فيما حواليه علّه يجد حاجبًا ولكنّه ألفى نفسه منفردًا بالباب فتردّد لحظة ثمّ طرق برقّة حتّى جاءه صوت من الداخل يقول «ادخل» ففتح الباب ودخل، فالتقت عيناه في نهاية الصالة بعينين واسعتين تحدّقان به متسائلتين من تحت حاجبين كثيفين أشيبين، فردّ الباب وراءه وقال بصوت المعتذر:

ـ لا مُؤاخذة، دقيقة واحدة. . .

فقال الرجل بصوت رقيق:

ـ تفضّل. . .

وتقدّم أحمد من مكتب كُدّست فوقه الكتب والأوراق، ثمّ سلّم على الأستاذ الذي قام لاستقباله، ثمّ جلس بعد أن جلس الرجل وأذن له في الجلوس. شعر بالارتياح والزهوّ وهو يرنو إلى الأستاذ الكبير الذي تلقّى عنه النور والعرفان في الأعوام الثلاثة الماضية، سواء عن مؤلّفاته أم مجلّته، فراح يملأ عينيه من الوجه الشاحب الذي وخط الشيب شعره وعلاه الكبر فلم يبق له من أمارات الفتوّة إلّا عينان عميقتان تشعّان بريقًا نفّاذًا. هذا أستاذه، أو أبوه الروحيّ كما يدعوه، وإنّه الآن في حجرة الوحي التي لا جدران لها ولكنّ رفوف الكتب تمتدّ عاليًا حتّى السقف.

وقال الأستاذ بلهجة المتسائل:

ـ أهلًا وسهلًا؟

فقال أحمد بلباقة:

ـ جئت لأسدّد الاشتراك.

ولّما اطمأنّ إلى الأثر الطيّب الذي أحدثه قوله استدرك قائلًا:

ـ وأسأل عن مصير مقالة أرسلتها إلى المجلّة من أسبوعين.

فابتسم الأستاذ عدلي كريم وهو يتساءل:

ـ اسم حضرتك؟

ـ أحمد إبراهيم شوكت.

فارتسمت على جبين الأستاذ تقطيبة التذكّر ثمّ قال:

ـ إنّي أذكرك، أنت أوّل مشترك في مجلّتي، نعم، وجئتني بثلاثة مشتركين، هه؟ إنّي أذكر اسم شوكت، وأظنّني أرسلت لك خطاب شكر باسم المجلّة؟

فقال أحمد بارتياح ممتنًا لهذا التذكّر الجميل:

ـ جاءني كتاب حضرتك، اعتبرتني فيه «صديق المجلّة الأوّل»!.

ـ هذا حقّ، إنّ مجلّة الإنسان الجديد مجلّة مبدإ ولا بدّ لها من أصدقاء مؤمنين لتشقّ طريقها في زحمة مجلّات الصور والاحتكار، فأنت صديق المجلّة، اهلًا وسهلًا، ولكنّك لم تشرّفنا بالزيارة من قبل؟

ـ كلّا، إنّي لم آخذ البكالوريا إلّا في هذا الشهر.

فضحك الأستاذ عدلي كريم قائلًا:

ـ أنت فاهم أنّ المجلّة لا يزورها إلّا الحاصل على البكالوريا؟!

فابتسم أحمد في ارتباك وقال:

ـ كلّا طبعًا، أعني أنّي كنت صغيرًا.

فقال الأستاذ جادًّا:

ـ لا يليق بقارئ الإنسان الجديد أن يحسب العمر بالسنين، في بلادنا شيوخ جاوزوا الستّين ولٰكنّهم ما زالوا شبّانًا بعقولهم، وفيها شبّان في ربيع العمر ولٰكنّهم معمّرون ـ منذ ألف سنة أو أكثر ـ بعقولهم، وهٰذا هو داء الشرق... (ثمّ بلهجة أرقّ) وهل أرسلت إلينا مقالات من قبل؟

ـ ثلاث مقالات كان مصيرها الإهمال، ثمّ مقالة أخيرة كنت أطمع في نشرها!.

ـ عن ماذا؟، لا تؤاخذني فإنّي أتلقّى عشرات المقالات يوميًّا؟

ـ عن رأي لوبون في التعليم وتعليقي عليه!

ـ على أيّ حال ستبحث عنها في السكرتارية ـ الحجرة المجاورة لحجرتي ـ وتعلم بمصيرها...

وهمّ أحمد بالقيام ولٰكنّ الأستاذ عدلي أشار إليه بالاستمرار في الجلوس وهو يقول:

ـ المجلّة اليوم في شبه إجازة، أرجو أن تمكث معي قليلًا لنتحدّث.

فتمتم أحمد بارتياح عميق:

ـ بكلّ سرور يا فندم.

ـ قلت إنّك أخذت البكالوريا هٰذا العام، كم سنّك؟

ـ ستّة عشر عامًا.

ـ سنّ مبكّرة، حسن، هل المجلّة منتشرة في المدارس الثانويّة؟.

ـ كلّا للأسف...

ـ أعلم هٰذا، أكثريّة قرّائنا في الجامعة، القراءة في مصر ملهاة رخيصة، ولن نتطوّر حتّى نؤمن بأنّ القراءة ضرورة حيويّة.

ثمّ بعد قليل من الصمت:

ـ وما حال التلاميذ؟

فنظر إليه أحمد متسائلًا كأنّما يستزيده تفسيرًا لقوله، فقال الرجل:

ـ إنّي أسأل عن الناحية السياسيّة باعتبارها أوضح من غيرها...

ـ الأغلبيّة الساحقة من التلاميذ وفديّون...

ـ ولٰكن ثمّة كلام عن حركات جديدة؟

ـ مصر الفتاة؟... لا وزن لها، فرقة تُعدّ على الأصابع، الأحزاب الأخرى لا أنصار لها إلّا أقارب زعمائها، وهناك قلّة لا تهتمّ بشئون الأحزاب كافّة، وآخرون ـ وأنا منهم ـ نفضّل الوفد على غيره ولٰكنّنا نطمع فيما هو أكمل...

فقال الرجل بارتياح:

ـ هٰذا ما أسأل عنه، الوفد حزب الشعب، وهو خطوة تطوّريّة خطيرة وطبيعيّة في آن واحد، كان الحزب الوطنيّ حزبًا تركيًّا دينيًّا رجعيًّا، أمّا الوفد فهو مبلور القوميّة المصريّة ومطهّرها من الشوائب والخبائث، إلى أنّه مدرسة الوطنيّة والديمقراطيّة، ولٰكنّ المسألة أنّ الوطن لا يقنع وما ينبغي له أن يقنع بهٰذه المدرسة، نريد مرحلة جديدة من التطوّر، نريد مدرسة اجتماعيّة، لأنّ الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة، ولٰكنّه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستوريّة والاقتصاديّة والإنسانيّة.

فهتف أحمد بحماس:

ـ ما أجمل هٰذا الكلام!

ـ ولٰكن ينبغي أن يكون الوفد نقطة البدء، أمّا مصر الفتاة فحركة فاشستيّة رجعيّة مجرمة، ليست دون الرجعيّة الدينيّة خطرًا وهي ليست إلّا صدى للعسكريّة الألمانيّة والإيطاليّة التي تعبد القوّة وتقوم على الاستبداد وتزري بالقيم الإنسانيّة والكرامة البشريّة، إنّ الرجعيّة داء مستوطن في الشرق كالكوليرا والتيفود فينبغي استئصاله...

فعاد أحمد يقول متحمّسًا:

ـ إنّ جماعة «الإنسان الجديد» تؤمن بهٰذا كلّ الإيمان...

فهزّ الرجل رأسه الكبير في أسف وهو يقول:

ـ ولذٰلك فالمجلّة هدف للرجعيّين من كافّة النحل، إنّهم يرمونني بإفساد الشباب!

ـ كما اتّهموا سقراط من قبل...

فابتسم الأستاذ عدلي كريم في ارتياح وقال:

ـ وما وجهتك؟ أعني أيّ كلّيّة تقصد؟

ـ الآداب. . .

فاعتدل الأستاذ في جلسته، وقال:

ـ الأدب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى، ولكنّه قد يكون وسيلة للرجعيّة، فاعرف سبيلك، فمن الأزهر ودار العلوم خرجت آداب مَرَضِيّة عملت أجيالًا على تجميد العقل وقتل الروح، ومهما يكن من أمر ـ ولا تدهش أن يصارحك بهٰذا الرأي رجل معدود في الأدباء ـ فالعلم أساس الحياة الحديثة، ينبغي أن ندرس العلوم وأن نشبع بالعقليّة العمليّة، الجاهل بالعلم ليس من سكّان القرن العشرين ولو كان عبقريًّا، وعلى الأدباء أن ينالوا حظّهم منه. لم يعد العلم وقفًا على العلماء، أجل لهٰؤلاء التضلّع والتعمّق والبحث والكشف، ولكن على كلّ مثقّف أن يضيء نفسه بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلّى بأسلوبه، ينبغي أن يحلّ العلم محلّ الكهانة والدين في العالم القديم. . .

فقال أحمد مؤمّنًا على قول أستاذه:

ـ ولذٰلك كانت رسالة «الإنسان الجديد» هي تطوير المجتمع على أساس علميّ. . .

فقال عدلي كريم باهتمام:

ـ أجل على كلّ منّا أن يقوم بواجبه، ولو وُجد وحيدًا في الميدان. . .

فهزّ أحمد رأسه موافقًا فعاد الآخر يقول:

ـ ادرس الآداب كما تشاء، واعنَ بعقلك أكثر ما تعنى بالمحفوظات، ولا تنسَ العِلْم الحديث، ولا يجب أن تخلو مكتبتك ـ إلى جانب شكسبير وشوبنهور ـ من كونت وداروِن وفرويد وماركس وإنجلز، لتكون لك حماسة أهل الدين ولكن ينبغي أن تذكر أنّ لكلّ عصر أنبياءه، وأنّ أنبياء هٰذا العصر هم العلماء.

وابتسم الأستاذ ابتسامة أوحت بأنّها تحيّة الختام فنهض أحمد مادًّا يده، وسلّم ثمّ غادر الحجرة ممتلئًا حياة وسعادة. وفي الصالة الخارجيّة ذكر الاشتراك والمقالة فمال إلى الحجرة المجاورة، وطرق الباب مستأذنًا ثمّ دخل. رأى حجرة بها ثلاثة مكاتب، اثنان خاليان، والثالث جلست عليه فتاة. لم يكن يتوقّع هٰذا فوقف ينظر إليها في حيرة وتساؤل. كانت في العشرين، عميقة السمرة، سوداء العينين والشعر، وكان في أنفها الدقيق وذقنها المدبّب وفمها الرقيق ما يوحي بالقوّة، دون أن يفسد ملاحتها. ساءلت وهي تتفحّصه:

ـ أفندم؟

فقال يعزّز مركزه:

ـ الاشتراك. . .

ودفع المبلغ وأخذ الإيصال، وفي أثناء ذٰلك كان قد تغلّب على ارتباكه فقال:

ـ كنت قد أرسلت مقالة إلى المجلّة، وأخبرني الأستاذ عدلي كريم بأنّها في السكرتارية.

وهنا دعته للجلوس على كرسيّ أمام المكتب فجلس ثمّ سألت:

ـ عنوان المقالة من فضلك؟

قال دون أن يشعر بارتياح لموقفه هٰذا أمام فتاة:

ـ التعليم عند لوبون.

ففتحت دوسيها، وفَرَتْ أوراقًا حتّى استخرجت المقال، ولمح أحمد خطّه فخفق قلبه، وحاول أن يقرأ التوقيع الأحمر عليه من مجلسه غير أنّها وفّرت عليه عناء المحاولة إذ قالت:

ـ موقّع عليه بما يأتي «يلخّص ويُنشر في باب رسائل القراء».

فشعر أحمد بخيبة أمل، ولبث لحظات ينظر إليها دون أن ينبس، ثمّ تساءل:

ـ في أيّ عدد؟

ـ في العدد القادم.

فسأل بعد تردّد:

ـ ومَن الذي يلخّصه؟

ـ أنا.

وداخله شعور بالامتعاض، ولكنّه سأل:

ـ ويوقّع عليه باسمي؟

فقالت ضاحكة:

ـ طبعًا، يُنشر عادة ما يفيد بأنّه جاءتنا رسالة من الأديب (ثمّ وهي تنظر إلى الإمضاء) أحمد إبراهيم شوكت ثمّ نورد تلخيصًا وافيًا لفكرتك!

فتردّد قليلًا ثم قال:

ـ كنت أفضّل لو نُشرت بأكملها...

فقالت باسمة:

ـ المرّة القادمة إن شاء الله...

فجعل ينظر إليها صامتًا ثمّ سألها:

ـ حضرتك موظّفة هنا؟

ـ كما تراني!

نازعته نفسه أن يسألها عن مؤهّلاتها ولٰكنّ شجاعته خذلته في اللحظة الأخيرة فسألها:

ـ اسم حضرتك من فضلك لأطلبك في التليفون إذا لزم الأمر!

ـ سوسن حمّاد.

ـ متشكّر جدًّا.

ونهض محيّيًا إيّاها بيده، وقبل أن يغادر الحجرة التفت نحوها قائلًا:

ـ أرجو أن تلخّصيها بعناية.

فقالت دون أن تنظر إليه:

ـ إنّي أعرف واجبي!

فغادر الغرفة نادمًا على قوله...

١٤

كان كمال في حجرة مكتبه عندما جاءت أمّ حنفي لتقول له:

ـ سي فؤاد الحمزاوي عند سيّدي الكبير...

ونهض كمال بجلبابه الفضفاض وغادر الحجرة مسرعًا إلى تحت. إذن عاد فؤاد إلى القاهرة بعد غيبة عام، عاد وكيل نيابة قنا العتيد!. وكانت تجيش بصدره مشاعر صداقة ومودّة بيد أنّ شوائب عدم الارتياح شابتها، فصداقته لفؤاد كانت ولا تزال تنطوي على نوع من الصراع، صراع من الحبّ والنفور، بين المودّة والغيرة، ومهما يحاول أن يتسامى بعقله فالغرائز تشدّه على رغمه إلى الإسفاف الدنيويّ. فلم يكن يشكّ وهو يهبط السلّم في أنّ هٰذه الزيارة ستثير عنده ذكريات سعيدة ولٰكنّها في الوقت نفسه ستنكأ جروحًا كادت أن تندمل. وعندما مرّ في الصالة بمجلس القهوة المكوّن من الأمّ وعائشة ونعيمة سمع أمّه وهي تهمس قائلة:

ـ سوف يطلب يد نعيمة...

ولمّا شعرت بوجوده التفتت إليه قائلة:

ـ صديقك بالداخل، ما ألطفه، أراد أن يقبّل يدي فمنعته!

ورأى والده متربّعًا على الكنبة وفؤاد جالسًا على مقعد قبالته، فتصافح الصديقان القديمان وكمال يقول:

ـ حمدًا لله على السلامة، أهلًا وسهلًا،... أنت في إجازة؟

فأجاب عنه السيّد أحمد باسمًا:

ـ بل نُقل إلى نيابة القاهرة، نُقل أخيرًا بعد غربة طويلة في الصعيد...

فجلس كمال على الكنبة وهو يقول:

ـ مبارك، من الآن فصاعدًا نرجو أن نراك من آن لآخر.

فقال فؤاد:

ـ طبعًا، وسنقيم من أوّل الشهر القادم بالعبّاسيّة، استأجرنا شقّة بجوار قسم الوايلي...

لم تتغيّر هيئة فؤاد كثيرًا، ولٰكنّ صحّته تقدّمت بدرجة محسوسة فامتلأ عوده وتورّد وجهه، أمّا عيناه فلا زالتا تشعّان ذٰلك الوميض الذكيّ. وسأل السيّد أحمد الشابّ قائلًا:

ـ وكيف حال والدك؟... لم أره منذ أسبوع.

ـ ليست صحّته على ما يرام، إنّه لا يزال آسفًا على ترك المحلّ، لكنّ المأمول أن يكون خليفته قائمًا بالواجب.

ـ الأمر يقتضيني اليوم يقظة متواصلة، كان والدك يقوم بكلّ شيء شفاه الله وعافاه...

واعتدل فؤاد في جلسته ووضع رجلًا على رجل فلفتت هٰذه الحركة انتباه كمال فيما يشبه الانزعاج، أمّا السيّد فلم يبدُ عليه حتّى أنّه لاحظها. أهٰكذا تتطوّر الأمور؟ أجل إنّه وكيل نيابة قدّ الدنيا، ولٰكن أنسي مَن يكون الشخص المتربّع أمامه؟، ربّاه ليس هٰذا فحسب، لقد أخرج علبة سجائر وقدّمها للسيّد فاعتذر شاكرًا! حقًّا إنّ النيابة تُنسي، ولٰكن من المؤسف أن يمتدّ نسيانها إلى وليّ النعمة الذي يبدو أنّ فضله تبدّد

في الهواء كدخان هٰذه السيجارة الفاخرة. ولم يكن في حركات فؤاد تكلُّف من أيّ نوع كان، كان سيّدًا قد تعوّد السيادة، وقال السيّد مخاطبًا كمال:

ـ وهنّئه أيضًا فقد رُقّيَ من مساعد إلى وكيل نيابة.

فقال كمال باسمًا:

ـ مبارك. مبارك، أرجو أن أهنّئك قريبًا بكرسيّ القضاء.

فقال فؤاد:

ـ الخطوة التالية إن شاء الله.

ربّما استباح لنفسه ـ عندما يصير قاضيًا ـ أن يبول أمام الرجل المتربّع أمامه! أمّا مدرِّس ابتدائيّ فيظلّ مدرِّسًا ابتدائيًّا، وحسبه شاربه الغليظ وأطنان الثقافة التي عوّجت رأسه.

ونظر السيّد أحمد إلى فؤاد باهتمام وهو يسأل:

ـ وكيف حال السياسة؟

فقال فؤاد بارتياح:

ـ وَقَعَتِ المعجزة! وُقّعت المعاهدة في لندن، أصغيت إلى الراديو وهو يعلن استقلال مصر وانقضاء عهد التحفّظات الأربعة فلم أصدّق أذنيّ، مَن كان يصدّق هٰذا؟

ـ إذن أنت من الراضين على المعاهدة؟

فقال وهو يهزّ رأسه هزّة أصحاب الشأن:

ـ في الجملة نعم، للمعاهدة أعداء مخلصون وآخرون غير مخلصين، فإذا تأمّلنا الظروف التي تحيط بنا، وذكرنا أنّ شعبنا صبر على عهد صدقي رغم مرارته دون أن يثور عليه، فينبغي أن نعدّ المعاهدة خطوة موفّقة، أزالت التحفّظات ومهّدت الطريق لإلغاء الامتيازات الأجنبيّة، وحدّدت مدّة الاحتلال بعد قَصْره على منطقة معيّنة، إنّها خطوة عظيمة بلا شكّ.

كان حماس السيّد أحمد للمعاهدة أقوى وإحاطته بظروفها أقلّ، وكان يودّ أن يتجاوب الآخر معه تجاوبًا أشدّ، فلمّا خاب ظنّه قال بعناد:

ـ على أيّ حال ينبغي أن نذكر أنّ الوفد قد أعاد إلى الأمّة دستورها وحقّق لها الاستقلال ولو بعد حين...

وفكّر كمال: كان فؤاد دائمًا «باردًا» في الناحية السياسيّة، ولعلّه لم يتغيّر، ولٰكنّه يبدو مائلًا إلى الوفد، أمّا أنا فطالما كنت مندفعًا مع العاطفة، ثمّ انقلبت لا أومن بشيء، والسياسة نفسها لم تسلم من شكّي النهم، ولٰكنّ قلبي لا يزال ينبض بالوطنيّة رغم عقلي.

وعاد فؤاد يقول ضاحكًا:

ـ إنّ النيابة في عهود الانقلاب تنكمش إلى الوراء على حين يحتلّ البوليس المقدّمة، إذ إنّ عهود الانقلاب عهود بوليسيّة، فإذا عاد الوفد إلى الحكم رُدّت للنيابة مكانتها ولزم البوليس حدوده، ففي عهد الحكم الطبيعيّ يكون القانون هو الكلمة العليا.

فعلّق السيّد على ذٰلك قائلًا:

ـ وهل يمكن أن ننسى عهد صدقي؟!، لقد كان الجنود يجمعون الأهالي بالعصيّ أيّام الانتخابات، وكثير من الأعيان من أصدقائنا خربت بيوتهم وأشهروا إفلاسهم ثمنًا لثباتهم على مبدإ الوفد، ثمّ إذا بنا نرى «الشيطان» ضمن هيئة المفاوضات في لباس الوطنيّين الأحرار!

فقال فؤاد:

ـ كانت الظروف توجب الاتّحاد، ولم يكن هٰذا الاتّحاد ليكمل دون أن ينضمّ إليه الشيطان وأعوانه، والعبرة بالخواتيم.

ولبث فؤاد في حضرة السيّد فترة غير يسيرة، احتسى في أثنائها القهوة، وجعل كمال يتفحّصه بعناية فانتبه إلى بذلته الحريريّة البيضاء الأنيقة، والوردة الحمراء التي تزيّن عروتها، وإلى الشخصيّة القويّة التي أضفتها عليه الوظيفة، فشعر في أعماقه بأنّه سيسرّ ـ رغم كلّ شيء ـ إذا طلب هٰذا الشابّ يد بنت أخته، غير أنّ فؤاد لم يطرق هٰذا الموضوع، وبدا عليه أنّه يرغب في الذهاب وما لبث أن قال للسيّد:

ـ آن وقت ذهابك إلى الدكّان، سأمكث بقيّة الوقت مع كمال، وسوف أزور حضرتك قبل سفري إلى الاسكندريّة، حيث إنّني قرّرت أن أقضي بقيّة أغسطس وبعض سبتمبر في المصيف.

ونهض قائمًا فصافح السيّد مودّعًا ثمّ غادر الحجرة يتقدّمه كمال، وصعدا معًا إلى الدور الأعلى حيث استقرّا في حجرة المكتب، وجعل فؤاد يتصفّح الكتب

المصفوفة على الأرفف باسمًا ثمّ تساءل:

- ألا أستطيع أن أستعير منك كتابًا؟

فقال كمال وهو يداري عدم ارتياحه:

- بكلّ سرور، ماذا تقرأ عادة في أوقات فراغك؟

- عندي دواوين شوقي وحافظ ومطران، وبعض كتب الجاحظ والمعرّي، وأحبّ بصفة خاصّة «أدب الدنيا والدين»، إلى مؤلّفات كتّابنا المعاصرين، هٰذا إلى بعض مؤلّفات ديكنز وكونان دويل، ولٰكنّ انكبابي على القانون يلتهم أكثر وقتي...

ثمّ نهض فجال جولة استعراضيّة بين الكتب قارئًا عناوينها ثمّ عاد وهو ينفخ قائلًا:

- مكتبة فلسفيّة قحّة، لا ناقة لي فيها ولا جمل، إنّي أقرأ مجلّة الفكر التي تكتب فيها، وأتابع مقالاتك التي تظهر تباعًا منذ سنوات، لا أزعم أنّي قرأتها جميعًا، أو أنّي أذكر منها شيئًا، إنّ المقالة الفلسفيّة أثقل ما يُقرأ، ووكيل النيابة رجل مرهق بالعمل، لماذا لا تكتب في الموضوعات الجذّابة؟

طالما سمع بأذنه نعيّ مجهوده، ولكنّه لم يحزن لذٰلك كثيرًا كأنّما اعتاده، إنّ الشكّ يلتهم فيما يلتهم الحزن نفسه، والشهرة ما هي؟ والجاذبيّة ما هي؟. ولكن ممّا يسرّه حقًّا ألّا يجد فيه فؤاد تزجية لأوقات فراغه. وسأله:

- ماذا تعني بالموضوعات الجذّابة؟

- الأدب مثلًا.

- قرأت لطائف منه مذ كنّا معًا ولكنّني لست أديبًا...

فضحك فؤاد قائلًا:

- إذن ابق في الفلسفة وحدك، ألست فيلسوفًا؟

ألست فيلسوفًا؟!. عبارة مطبوعة في أعماقه، ارتجف من هول وقعها قلبه، هٰكذا هي مذ ألقيت عليه في شارع السرايات من ثغر عايدة!. ولكي يداري جيشة صدره ضحك ضحكة عالية، ثمّ ذكر الأيّام التي كان فؤاد يتودّده ويتبعه كظلّه، ها هو الآن يطالعه رجلاً خطيرًا جديرًا بالتودّد والولاء!. ماذا جنيت من حياتي؟. وكان فؤاد يتفحّص شارب صاحبه ثمّ ضحك فجأة قائلًا:

- ولوا...

فتساءل كمال بعينيه عن معنى هٰذا! فعاد الآخر يقول:

- كلانا يجري نحو الثلاثين دون أن يتزوّج، جيلنا مكتظّ بالعزّاب، جيل الأزمة، ألا زلت عند رأيك؟

- لا أتزحزح...

- لا أدري لِمَ أعتقد بأنّك لن تتزوّج أبدًا.

- أنت بعيد النظر طول عمرك.

فقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة كأنّما ليعتذر بها سلفًا عمّا سيقول:

- أنت رجل أنانيّ، تأبى إلّا أن تستأثر بكلّ حياتك لنفسك، يا أخي لقد تزوّج النبيّ ولم يمنعه ذٰلك من ممارسة حياته الروحيّة العظيمة...

ثمّ مستدركًا وهو يضحك:

- لا تؤاخذني على ضرب المثل بالنبيّ، كدت أنسى أنّك... ولكن مهلًا، إنّك لم تعد الملحد القديم، أنت الآن تشكّ حتّى في الإلحاد، وهٰذه خطوة كسب للإيمان...

فقال كمال بهدوء:

- دعنا من التفلسف فإنك لا تحبّه وخبّرني لِمَ لَمْ تتزوّج أنت ما دام هٰذا هو رأيك في العزوبيّة؟

وشعر لتوّه بأنّه ما كان ينبغي له أن يطرح هٰذا السؤال خشية أن يفسّره الآخر بأنّه استدراج إلى الكلام في خطبة نعيمة! ولٰكنّ فؤاد لم يبدُ عليه أنّه فكّر في هٰذا، بل ضحك ضحكة عالية وإن لم تخرج به عن حدّ الوقار، وقال:

- أنت تعلم أنّي لم أفسد إلّا متأخرًا، لم أفسد مثلك في زمن مبكّر، فأنا لم أشبع بعد!

- أتتزوّج إذا شبعت؟

فضرب فؤاد الهواء بظاهر يده كأنّما يطرد الكذب وقال بلهجة المعترف:

- ما دمت قد صبرت حتّى اليوم فلأصبر فترة أخرى، أصبر حتّى أرقّى قاضيًا مثلًا فيسعني أن أصاهر وزيرًا إذا شئت...

يا بن جميل الحمزاوي!. عروس من صلب وزير وحماتها من المبيّضة! أتحدّى ليبنتز أن يبرّر هٰذا ولو كما

يبرّر وجود الشرّ في الخليقة!.

ـ أنت تنظر إلى الزواج نظرة...

فقاطعه قبل أن يكمل كلامه ضاحكًا:

ـ خير من الذي لا يعيره نظرة على الإطلاق!...

ـ ولكنّ السعادة...

ـ لا تتفلسف!. السعادة فنّ ذاتيّ، قد تجدها عند كريمة وزير بينا لا تجد إلّا التعاسة في وسطك، الزواج معاهدة كالتي وقّعها النحّاس بالأمس، مساومة وتقدير ودهاء وبُعد نظر وفوائد وخسائر، وفي بلدنا لا تأتي الرفعة إلّا عن هٰذا السبيل، في الأسبوع الماضي عُيّن مستشارًا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره، وقد أخدم القضاء عمري مجتهدًا ناصبًا دون أن أظفر بهٰذا المركز السامي!

ومعلّم ابتدائيّ ما قوله؟. في الدرجة السادسة ينقضي عمره، ولو طفح بالفلسفة رأسه...

ـ إنّ مركزك يغنيك عن أمثال هٰذه المغامرات...

ـ لولا هٰذه المغامرات ما استطاع رئيس أن يؤلّف وزارته!.

فضحك كمال ضحكة لا طعم لها وقال:

ـ أنت في حاجة إلى شيء من الفلسفة، تحتاج إلى جرعة من سبينوزا...

ـ اشبعْ منه أنت، لكن دعنا من هٰذا، وخبّرني عن أماكن اللهو والشراب، في قنا كنت أختلس اللذّة في حذر، إنّ مركزنا يحتّم علينا الانزواء ومجانبة البشر، والصراع الأبديّ بيننا وبين البوليس يوجب الحذر أكثر، وكيل النيابة مركز خطير متعب...

عودة إلى الحديث الذي هدّد مرارتي بالانفجار، حياتي في ضوئك تأديب وتهذيب وأشدّ امتحانًا لفلسفتي الحائرة في هٰذه الحياة...

ـ تصوّر أنّ الظروف تجمعني بكثير من الأعيان، ثمّ يدعونني إلى سراياتهم، فأجد أنّ الواجب يقضي بأن أرفض دعوتهم كيلا يؤثّر مؤثّر في قيامي بواجبي، ولكنّ عقليّتهم لا تفهم هٰذا، فأعيان الإقليم جميعًا يرمونني بالكبر وأنا منه براء.

«بل أنت غرور وكبر وغيرة على الواجب معًا». وقال موافقًا:

ـ نعم...

ـ ولنفس الأسباب خسرتُ رجال البوليس، أنا لا أرضى عن طرقهم الملتوية، لذلك أقف لهم بالمرصاد، ورائي القانون، ووراءهم همجيّة القرون الوسطى، إنّ الجميع يكرهونني ولكنّ الحقّ معي...

الحقّ معك، هٰذا ما أعرفه فيك من قديم، الذكاء والنزاهة، ولٰكنّك لا تُحَبّ ولا يمكن أن تُحَبّ، أنت لا تتمسّك بالحقّ لوجه الحقّ وحده ولكن لوجه الحقّ والغرور والكبرياء والشعور بالنقص، هٰكذا الإنسان، إنّي أصطدم بأمثالك حتّى في الوظائف الحقيرة، الإنسان العذب القويّ أسطورة، ولٰكن ما قيمة الحبّ؟. وما المثاليّة؟. وما أيّ شيء؟!.

وهٰكذا طال بهما الحديث، وعندما همّ فؤاد بالذهاب مال على أذن كمال متسائلًا:

ـ أنا جديد في القاهرة، طبعًا أنت تعرف بيتًا بل بيوتًا، مستورة طبعًا؟.

فقال كمال باسمًا:

ـ إنّ المدرّس كوكيل النيابة يتحرّى الستر دائمًا...

ـ عال. سنلتقي قريبًا، إنّني مشغول الآن بترتيب الشقّة الجديدة ولا بدّ أن نسهر كم مرّة معًا!.

ـ اتّفقنا...

وغادرا الحجرة معًا فلم يتركه حتّى أوصله إلى باب السكّة، وعندما مرّ بالدور الأوّل في أثناء عودته التقى بأمّه واقفة تنتظره عند المدخل، فسألته بلهفة:

ـ ألم يكلّمك؟.

فأدرك ما تسأل عنه، وشعر لذٰلك بألم لم يشعر بمثله، ولكنّه تجاهل الأمر وتساءل بدوره:

ـ عن ماذا؟

ـ نعيمة!...

فأجاب ممتعضًا:

ـ كلّا...

ـ عجيبة!...

وتبادلا نظرة طويلة، ثمّ عادت أمينة تقول:

ـ ولكنّ الحمزاوي كلّم أباك!.

فقال كمال وهو يداري ما استطاع من ثورة حنقه:

ـ لعلّه لم يكن فيما قال نائبًا عن ابنه...

فقالت أمينة غاضبة:

ـ هٰذا عبث لا يليق... ألا يدري من يكون هو ومن تكون هي؟ كان ينبغي أن يُفهمه جدّك حقيقة مركزه.

ـ إنّ فؤاد بريء، لعلّ والده أسرع دون تدبُّر بحسن نيّة...

ـ ولٰكن حدَّث ابنه دون شكّ فهل رفض الآخر؟ ذٰلك الذي جعلناه موظّفًا محترمًا بنقودنا!...

ـ لا داعي للكلام في هٰذا الموضوع...

ـ إنّ هٰذا يا بنيّ أمر لا يتصوّره العقل، ألا يدري أنّ مصاهرته لا تشرّفنا!...

ـ إذن لا تأسفي عليها...

ـ لست آسفة ولٰكنّي غاضبة للإهانة...

ـ لا إهانة هنالك، ليس إلّا سوء تفاهم...

وعاد إلى حجرته حزينًا خجلًا، وجعل يحدّث نفسه: نعيمة وردة جميلة، بيد أنّي رجل لم يبق لي من الفضائل إلّا حبّ الحقيقة فينبغي أن أسأل نفسي أهي حقًّا كفء لوكيل نيابة؟. يستطيع رغم وضاعة أصله أن يشرك في حياته مَن هي أجلّ ثقافة وأعزّ محتدًا وأكثر مالًا وجمالًا أيضًا، لقد تسرّع أبوه الطيّب وليس هٰذا خطأه، ولٰكنّه كان وقحًا في حديثه معي، وهو وقح بلا شكّ، إنّه رجل ذكيّ نزيه كفء وقح مغرور، وما هٰذا بذنبه ولٰكنّ الذنب ذنب هٰذه الفوارق التي تخلق فينا شتّى الأمراض.

١٥

كانت مجلّة «الفكر» تشغل الدور الأرضيّ بالعمارة رقم ٢١ بشارع عبد العزيز، وكان حجرة صاحبها الأستاذ عبد العزيز الأسيوطي تطلّ بنافذة ذات قضبان على عطفة بركات المظلمة فكانت تضاء ليل نهار، والحقّ أنّه كلّما أقبل كمال على إدارة المجلّة ذكّره موضعها الأرضيّ ورثاثة أثاثها بمكانة «الفكر» في بلده، وبمكانته هو في مجتمعه. واستقبله الأستاذ عبد العزيز بابتسامة ترحيب وودّ، ولا عجب فقد اتّصلت بينهما أسباب المعرفة منذ عام ١٩٣٠ أي منذ بدأ كمال يبعث إليه بمقالاته الفلسفيّة، ثمّ مضت ستّة أعوام وهما على تعاون صادق غير مأجور، والواقع أنّ جميع كتّاب المجلّة كانوا من المتعاونين في سبيل الفلسفة والثقافة لوجه الله وحده!...

وكان عبد العزيز يرحّب بكافّة الكتّاب المتطوّعين حتّى المختصّين ـ مثله ـ في الفلسفة الإسلاميّة، ومع أنّه كان أزهريّ النشأة إلّا أنّه سافر إلى فرنسا حيث قضى هنالك أربعة أعوام محصّلًا ومستمعًا دون أن يحصل على درجة علميّة، وكان في غنى عن السعي للرزق بعقار يملكه يدرّ عليه شهريًّا خمسين جنيهًا ولٰكنّه أنشأ مجلّة «الفكر» في عام ١٩٢٣، وثابر على إصدارها بالرغم من أنّها لم تكن تزيد دخله شيئًا يضاهي بعض ما يبذله فيها من جهد. وما كاد يستقرّ المجلس بكمال حتّى دخل الحجرة رجل في مثل سنّه، يرتدي بذلة من التيل الرماديّ، طويل القامة، وإن كان دون كمال طولًا، نحيفًا، ولٰكنّه أكثر امتلاء منه، مستطيل الوجه، متوسّط الجبين، ممتلئ الشفتين، ذو أنف دقيق وذقن مدبّب أضفى على سمنته طابعًا خاصًّا. تقدّم خفيفًا باسم الثغر فمدّ يده إلى الأستاذ عبد العزيز فصافحه هٰذا ثمّ قدّمه إلى كمال قائلًا:

ـ الأستاذ رياض قلدس مترجم بوزارة المعارف، انضمّ حديثًا إلى جماعة كتّاب «الفكر»، وقد أمدّ مجلّتنا العلميّة بدم جديد بتلخيصه الشهريّ للمسرحيّات العالميّة وكتابة القصّة القصيرة.

ثمّ قدّم كمال قائلًا:

ـ الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد، لعلّك من قرّاء مقالاته!.

فتصافح الرجلان ورياض يقول بإعجاب:

ـ إنّي أقرأ مقالاته منذ سنوات، مقالات قيّمة بكلّ معنى الكلمة...

فشكر كمال متلقّيًا ثناءه بحذر، ثمّ جلسا على كرسيّين متقابلين أمام مكتب الأستاذ عبد العزيز الذي مضى يقول:

ـ لا تنتظر يا أستاذ رياض أن يردّ عليك بالمثل قائلًا إنّه قرأ قصصك القيّمة، إنّه لا يقرأ قصصًا البتّة...

فضحك رياض ضحكة جذّابة كشفت عن أسنان

نضيدة لامعة فلجاء الثنيتين ثمّ قال:

ـ ألا تحبّ الأدب إذن؟. ما من فيلسوف إلّا وله فلسفة خاصّة عن الجمال، وهي لا تتأتّى له إلّا بعد اطّلاع واسع على شتّى الفنون ومنها الأدب طبعًا. . .

فقال كمال في شيء من الارتباك:

ـ لست أكره الأدب، طالما ارتحت في جنّات شعره ونثره، ولكنّ أوقات الراحة قليلة!.

ـ معنى ذلك أنّك قرأت ما استطعت من القصص إذ إنّ الأدب الحديث يكاد يقتصر على القصّة والتمثيليّة. . .

فعاد كمال يقول:

ـ قرأت عددًا وفيرًا منها على مدى العمر، بيد أنّني. . .

وهنا قاطعه عبد العزيز الأسيوطي قائلًا وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى:

ـ عليك يا أستاذ رياض من الآن فصاعدًا أن تقنعه بأفكارك الجديدة، وحسبك أن تعلم الآن أنّه فيلسوف، وأنّ ولعه مركّز في الفكر.

ثمّ التفت إلى كمال متسائلًا:

ـ جئت بمقال الشهر؟

فأخرج كمال ظرفًا متوسّطًا ووضعه في سكون أمام الأستاذ الذي تناوله بدوره فاستخرج منه أوراق المقالة ثمّ تصفّح العنوان وهو يقول:

ـ عن برجسون؟. . . حسن!

فقال كمال:

ـ فكرة تقديم عامّة تبيّن الدور الذي لعبته فلسفته في تاريخ الفكر الحديث، وربّما ألحقتها بمقالات أخر تفصيليّة. . .

وكان رياض قلدس يتابع الحديث باهتمام فتساءل وهو يحدج كمال بنظرة لطيفة:

ـ تتبّعت مقالاتك منذ سنوات، منذ بدأت تكتب عن فلاسفة الإغريق، وهي مقالات متنوّعة وأحيانًا تكون متناقضة بالقياس إلى ما تعرض من فلسفات، فادركت أنّك مؤرّخ، بيد أنّني حاولت عبثًا أن أهتدي إلى موقفك أنت ممّا تكتب، وأيّ فلسفة تنتمي إليها. . .؟

فقال عبد العزيز الأسيوطي:

ـ نحن حديثو عهد بالدراسات الفلسفيّة فيجب أن نبدأ بالعرض العامّ، ولعلّ الأستاذ كمال يتمخّض فيما بعد عن فلسفة جديدة، ولعلّك تكون يا أستاذ رياض من دعاة الكماليزم!.

فضحكوا جميعًا، وخلع كمال نظّارته وراح يجلو ناظريها، وكان سرعان ما يندمج في الحديث خاصّة إذا آنس إلى محدّثه، وبدا الجوّ صافيًا عذبًا، وقال كمال:

ـ إنّي سائح في متحف لا أملك فيه شيئًا، مؤرّخ فحسب، لا أدري أين أقف. . .

فقال رياض قلدس في اهتمام يتزايد:

ـ أي في مفترق الطريق، وقفت في ميدانك عهدًا قبل أن اعرف وجهتي، ولكنّي أرجّح أنه موقف ذو قصّة، لأنّه عادة يكون نهاية مرحلة وبدء مرحلة جديدة، ألم تعرف ألوانًا من الإيمان قبل موقفك هٰذا؟

نغمة هٰذا الحديث تعيد إليه ذكرى أغنية قديمة عالقة جذورها بالقلب، هٰذا الشابّ وهٰذا الحديث، خلت سنين ناضبة من الصداقة الروحيّة حتّى اعتاد أن يحدّث نفسه كلّما افتقد من يحدّثه، ومنذ عهد بعيد لم يستطع أن يبعث هٰذا النشاط الروحيّ في صدره، لا إسماعيل لطيف ولا فؤاد الحمزاوي ولا عشرات المدرّسين، هل آن للمكان الذي خلا بذهاب حسين شدّاد أن يُشغل؟!. وأعاد وضع النظّارة على عينيه وابتسم قائلًا:

ـ لذٰلك قصّة طبعًا، وكالعادة كان لي إيماني الدينيّ، ثمّ إيماني بالحقيقة. . .

ـ أذكر أنّك عرضت الفلسفة المادّيّة بحماس يدعو للريبة. . .

ـ كان حماسًا صادقًا ثمّ لم ألبث أن حرّكت رأسي مرتابًا. . .

ـ لعلّها الفلسفة العقليّة؟.

ـ ثمّ لم ألبث أن حرّكت رأسي مرتابًا، الفلسفات قصور جميلة ولٰكنّها لا تصلح للسكنى. . .

فقال عبد العزيز باسمًا:

ـ وشهد شاهد من أهلها!

فهزّ كمال كتفيه استهانة، أمّا رياض فواصل تحقيقه قائلًا:

ـ هنالك العلم فلعلّه نجا من شكّك؟

ـ إنّه دنيا مغلقة حيالنا لا نعرف إلّا بعض نتائجها القريبة، ثمّ اطّلعت على آراء نخبة من العلماء يرتابون في مطابقة الحقيقة العلميّة للحقيقة الواقعيّة، وآخرين ينوّهون بقانون الاحتمال، وغيرهم ممّن تراجعوا عن ادّعاء الحقيقة المطلقة، فلم ألبث أن حرّكت رأسي مرتابًا!

فابتسم رياض قلدس دون أن ينبس فعاد الآخر يقول:

ـ حتّى مغامرات الروحيّة الحديثة وتحضير الأرواح غرقتُ فيها حتّى أذنيّ، ودار رأسي، وما زال يدور في فضاء مخيف، ما الحقيقة؟! ما القيم؟ ما أيّ شيء؟، إنّي أحيانًا أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشرّ!...

فضحك عبد العزيز ضحكة عالية، وقال:

ـ لقد انتقم الدين منك، هجرته جريًا وراء الحقائق العليا فعدت صفر اليدين!

وقال رياض قلدس، وكان يبدو في قوله مجاملًا لا أكثر:

ـ موقف الشكّ هٰذا لذيذ! مشاهدة وتأمّل وحرّيّة مطلقة، وأخْذ مِن كلّ شيء أخذ السائح!

فقال عبد العزيز مخاطبًا كمال:

ـ أنت أعزب في فكرك، كما أنت أعزب في حياتك!

وانتبه كمال إلى هٰذه الملاحظة العابرة باهتمام، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح؟ أم إنّ الاثنين نتيجة لشيء ثالث؟. وقال رياض قلدس:

ـ العزوبة حال مؤقّتة، وربّما كان الشكّ كذٰلك!

فقال عبد العزيز:

ـ ولٰكنّه فيما يبدو لن يميل إلى الزواج أبدًا...

فقال رياض متعجّبًا:

ـ ما الذي يحول بين الشكّ والحبّ؟ وما الذي يمنع محبًّا من الزواج؟، أمّا الإصرار على العزوبة فليس من الشكّ في شيء، الشكّ لا يعرف الإصرار!

فتساءل كمال، وهو غير جادّ في باطنه:

ـ ألا يحتاج الحبّ إلى شيء من الإيمان؟

فقال رياض قلدس ضاحكًا:

ـ كلّا، إنّ الحبّ كالزلزال الذي يرجّ الجامع والكنيسة والماخور على السواء..

زلزال؟. ما أصدقه من تشبيه، زلزال يهدم كلّ شيء يغرقه في صمت الموت.

ـ وأنت يا أستاذ قلدس، لقد أطريت الشكّ، فهل أنت من أهله؟

فقال عبد العزيز ضاحكًا:

ـ إنّه ذٰلك نفسه!

وضجّوا بالضحك، ثمّ قال رياض وكأنّما كان يقدّم نفسه:

ـ لبثت فيه فترة ثمّ مرقت منه، لم أعد أشكّ في الدين لأنّي كفرت به، ولٰكنّي أومن بالعلم والفنّ، إلى الأبد إن شاء الله!

عبد العزيز متسائلًا في تهكّم:

ـ إن شاء الله الذي لا تؤمن به؟

فقال رياض قلدس باسمًا:

ـ الدين ملك الناس، أمّا الله فلا عِلْم لنا به، منذا الذي يستطيع أن يقول لا أومن بالله، أو يقول أومن بالله؟. الأنبياء هم المؤمنون الحقيقيّون، وذٰلك أنّهم رأوه أو سمعوه أو خاطبوا رسل وحيه!

فقال كمال:

ـ ولٰكنّك تؤمن بالعلم والفنّ؟

ـ نعم...

ـ الإيمان بالعلم له وجاهته، ولٰكن الفنّ...؟! أنا أفضّل أن أومن بالأرواح على أن أومن بالقصّة مثلًا!

فحدجه رياض بنظرة عاتبة، وقال بهدوء:

ـ العلم لغة العقول، والفنّ لغة الشخصيّة الإنسانيّة جميعًا!

ـ ما أشبه هٰذا الكلام بالشعر!

فتقبّل رياض تهكّم كمال بابتسامة متسامحة، وقال:

ـ العلم يجمع البشر في نور أفكاره، والفنّ يجمعهم في عاطفة سامية إنسانيّة، وكلاهما يطوّر البشريّة ويدفعها إلى مستقبل أفضل...

يا للغرور! يكتب قصّة من صفحتين كلّ شهر،

ويظنّ أنّه يطوّر البشريّة، وأنا لست دونه سماجة، فلأنّني ألخّص فصلًا من كتاب تاريخ الفلسفة لفدنج، أطالب في أعماقي بالمساواة على الأقلّ بفؤاد جميل الحمزاوي وكيل نيابة الدرب الأحمر، ولكن كيف تطاق الحياة دون ذلك؟ مجانين نحن أم عقلاء أو مجرّد أحياء؟ أفّ من كلّ شيء!

- وما قولك في العلماء الذين لا يشاركونك في حماستك للعلم؟.

- لا ينبغي أن نفسّر تواضع العلم بالعجز أو اليأس، العلم سحر البشريّة ونورها ومرشدها ومعجزاتها، وهو دين المستقبل...

- والقصّة؟

بدا رياض لأوّل مرّة وهو يداري استياءه، فاستدرك الآخر كالمعتذر:

- أعني الفنّ عمومًا؟

فقال رياض قلدس متسائلًا في حماسة:

- أتستطيع أن تعيش في وحدة مطلقة؟ لا بدّ من النجوى، من العزاء، من المسرّة، من الهداية، من النور، من الرحلة في أنحاء المعمورة والنفس هٰذا هو الفنّ...

وهنا قال الأستاذ عبد العزيز:

- خطر لي خاطر... أن نجتمع نحن وبعض الزملاء مرّة كل شهر للحديث في شتّى الفكر، على أن ينشر حديثنا بعنوان «محاورة شهر كذا»...

فقال رياض قلدس وهو يرمق كمال بنظرة وديّة:

- إنّ حديثنا لن ينقطع، أو هٰذا ما أودّه، أنعدّ أنفسنا أصدقاء؟

فقال كمال بحماسة صادقة:

- بكلّ تأكيد، يجب أن نتقابل في كلّ فرصة...

شمل كمال إحساس بالسعادة لهٰذه «الصداقة الجديدة»، كان يشعر بأنّ جانبًا ساميًا من قلبه استيقظ بعد سبات عميق، فاقتنع أكثر من قبل بخطورة الدور الذي تلعبه الصداقة في حياته، وبأنّها عنصر حيويّ لا غنى له عنه، أو يظلّ كالظامئ المحترق في صحراء...

١٦

افترق الصديقان الجديدان عند العتبة، فعاد كمال من الموسكي والساعة تدور في الثامنة مساء، يتنفّس جوًّا خانقًا شديد الحرارة، وتمهّل عند عطفة الجوهريّ ثمّ مال إليها، ومرق من ثالث باب على يسار الداخل، ورقي في الدرج حتّى الدور الثاني، ثمّ دقّ الجرس، ففتحت الشرّاعة عن وجه امرأة قد جاوزت الستّين، حيّته بابتسامة كشفت عن أسنان ذهبيّة، وفتحت الباب فدخل صامتًا، أمّا المرأة فقالت ترحّب به:

- أهلًا بابن الحبيب، أهلًا بابن أخي...

وتبعها إلى صالة تتوسّط حجرات، فيها كنبتان متقابلتان بينهما سجّادة قصيرة مزركشة وخوان ونارجيلة، وشذا بخور في الأركان، كانت المرأة بدينة، هشّة من كبر، عاصبة الرأس بمنديل منمنم بترتر، مكحولة العينين تلوح فيهما نظرة ثقيلة تشي بوطأة الكيف، وفي تضاعيف وجهها آثار جمال دابر واستهتار مقيم، تربّعت على الكنبة أمام النارجيلة، وأومأت إليه ليجلس إلى جانبها، فجلس وهو يسأل باسمًا:

- كيف حال الستّ جليلة؟

فهتفت محتجّة:

- قل عمّتي...!

- كيف حالك يا عمّتي؟

- الحال معدن يا بن عبد الجواد،... (ثمّ بصوت مرتفع أجشّ)... بنت يا نظلة...

وبعد دقائق جاءت الخادم بكأسين مترعتين ووضعتهما على الخوان، فقالت جليلة:

- اشرب، طالما قلتها لأبيك في الأيّام الحلوة الماضية...

فتناول كمال الكاس، وهو يقول ضاحكًا:

- من المؤسف حقًّا أنّي جئت بعد فوات الأوان!.

وهي تلكمه لكمة وسوست لها الأساور الذهبيّة التي تغطّي ساعديها:

- يا عيب الشوم، أكنت تريد أن تعيث فسادًا حيث سجد أبوك؟!

ثمّ مستدركة:

ـ ولكن أين أنت من أبيك؟ كان متزوّجًا للمرّة الثانية حين عرفته، تزوّج مبكّرًا على عادة أهل زمان، ولكن ذٰلك لم يمنعه من أن يرافقني زمنًا كان أحلى الحياة، ثمّ رافق زبيدة ربّنا يأخذ بيدها، ثمّ عشرات غيرنا سامحه الله، أمّا أنت فلا تزال أعزب، ولا تزور بيتي مع ذٰلك إلّا كلّ ليلة جمعة، يا عيب الشوم، أين الرجولة أين؟!

أبوه الذي عرفه عن لسانها غير أبيه الذي عرفه بنفسه، بل غير أبيه الذي حدّثه عنه ياسين، رجل الغريزة، والحياة العارمة، لم تشغل هموم الفكر قلبه فأين هو منه؟ حتّى ليلة الجمعة التي يزور فيها هٰذا البيت لا يصفو له «الحبّ» فيها إلّا بالخمر، فلولا السكر لبدا له الجوّ متجهّمًا باعثًا على الانهزام، وأوّل ليلة رمت به المقادير إلى هٰذا البيت ليلة لا تُنسى، رأى المرأة لأوّل مرّة فدعته إلى مجالستها ريثما تفرغ له فتاة، ولمّا جرّه الحديث إلى ذكر اسمه بالكامل هتفت المرأة: «أنت ابن السيّد أحمد عبد الجواد التاجر بالنحّاسين؟»، نعم أتعرفين أبي؟. يا ألف أهلًا وسهلًا... أتعرفين أبي!... أعرفه أكثر ممّا تعرفه أنت... مازج عرقه عرقي... وزففت له أختك... كنت في أيّامي كأمّ كلثوم في أيّامك الكالحة... سل عنّي طوب الأرض، تشرّفنا يا ستّي، اختر من بناتي من تعجبك وليس بين الخيّرين حساب، هٰكذا فسق أوّل مرّة في هٰذا البيت على حساب والده. وجعلت تنظر إلى وجهه طويلًا حتّى انقبض قلبه، ولولا الأدب لأعلنت دهشتها، إذ أين هٰذا الرأس الغريب وذٰلك الأنف العجيب من الوجه البدريّ المورّد؟ ثمّ طال الحديث كلّ مطال، فعرف عنها تاريخ أبيه السرّيّ، ميزاته وجلائل أعماله ومغامراته وخفيّ صفاته، «وأنا من شدّة الحيرة متردّد أبدًا بين وهج الغريزة ونسمة التصوّف!».

فقال كمال يحيّيها:

ـ لا تبالغي يا عمّتي، أنا مدرّس والمدرّس يحبّ الستر، ولا تنسي أنّي في العطلة أزورك كلّ أسبوع مرّات لا مرّة، ألم أكن عندك أوّل أمس؟ إنّي أزورك كلّما...

«كلّما لجّت بي الحيرة، إنّ الحيرة تدفعني إليك قبل الشهوة».

ـ كلّما ماذا يا سيّد نينة؟

ـ كلّما فرغت من العمل...

ـ قل غير هٰذا الكلام. أفّ من زمانكم أفّ، كانت فلوسنا من الذهب وفلوسكم من الحديد والنحاس، وطربنا كان من لحم ودم وطربكم راديو، وكان رجالنا من صلب آدم ورجالكم من صلب حوّاء، عندك كلام يا خوجة البنات؟

وأخذت من النارجيلة نفسًا ثمّ غنّت:

يا خوجة البنات علّمهم ضرب الآلات ونغمهم

فضحك كمال، ومال نحوها فقبّل خدّها قبلة جمعت بين المودّة والمداعبة، فهتفت:

ـ شاربك كالشوك، كان الله في عون عطيّة!

ـ إنّها تحبّ الأشواك...

ـ بهٰذه المناسبة كان عندي بالأمس ضابط النقطة على سنّ ورمح، ولا فخر، كافّة زبائني من سادة القوم، أم تظنّ أنّك تتصدّق عليّ بزيارتك؟!

ـ يا ستّ جليلة، إنّك لجليلة...

ـ أحبّك إذا سكرت، فإنّ السكر يُذهب عنك وقار الخوجة ويردّك إلى شيء من أبيك، لكن خبّرني ألا تحبّ عطيّة؟... إنّها تحبّك!

هٰذه القلوب التي حجّرتها فظاظة الحياة كيف تحبّ؟ ولكن ماذا كان نصيبه من القلوب التي تجود بالحبّ وتستطيبه؟ فإمّا أن تحبّه بنت صاحب المقلي فيعرض عن حبّها، وإمّا أن يحبّ عايدة فتعرض عن حبّه، فقاموس حياته لم يعرف للحبّ من معنى سوى الألم، ذٰلك الألم العجيب الذي يحرق النفس حتّى تبصر على ضوء نيرانه المتّقدة عجائب من أسرار الحياة، ثمّ لا تخلّف وراءها إلّا حطامًا، قال يعلّق على قولها متهكّمًا:

ـ أحبّتك العافية...

ـ لم تعمل في المقدّر إلّا منذ طلاقها!

ـ الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه!...

ـ الحمد لله في جميع الأحوال.

وابتسم ابتسامة ذات معنى، فأدركت معناها وقالت كالمحتجّة:

ـ أتستكثر عليَّ أن أنوِّه بحمد الله؟. آه منك يا بن عبد الجواد، اسمع لا ابن لي ولا بنت، وقد شبعت من الدنيا، وعند الله العفو.

من عجب أنّ حديث المرأة تتردّد فيه كثيرًا هٰذه النغمة الموحية بالزهد!. وجعل يختلس إليها النظر وهو يتجرّع بقيّة كأسه. وكانت الخمر تأخذ في نفث سحرها معه من أوّل كأس. ووجد نفسه يتذكّر عهدًا مضى أيّام كان للكأس فرحة سماويّة، ما أكثر الأفراح التي ولّت، في البدء كانت الشهوة ثورة وانتصارًا، ثمّ انقلبت مع الزمن فلسفة حمراء، ثمّ أخمد نشواتها الزمن والعادة، ولم تخل في أحايين كثيرة من عذاب التردّد بين السماء والأرض، ذٰلك قبل أن يسري الشكّ بين الأرض والسماء.

ودقّ الجرس. ودخلت عطيّة، بيضاء لدنة ممتلئة، لحذائها أطيط ولضحكتها رنين، فقبّلت يد المعلّمة، ثمّ ألقت نظرة باسمة على الكأسين الفارغتين وهي تقول مداعبة كمال:

ـ خنتني!

ومالت على أذن المعلّمة فهمست قليلًا، ثمّ رمقت كمال بنظرة ضاحكة، وسارت إلى الحجرة إلى يمين مجلس المعلّمة، فلكزته جليلة قائلة:

ـ قم يا نور العين. . .

تناول طربوشه ومضى إلى الحجرة، ولم تلبث نظلة أن لحقت به حاملة صينيّة عليها زجاجة وكأسان ومزّة خفيفة، فقالت لها عطيّة:

ـ هاتي لنا رطلين من العجّاتي، أنا جوعانة!

خلع الجاكتة ومدّ ساقيه في ارتياح، ثمّ جلس يراقبها وهي تخلع حذاءها وفستانها، ثمّ وهي تسوّي قميصها أمام المرآة وتسرّح شعرها. الجسم الذي يحبّه، الأبيض اللدن الممتلئ، ترى كيف كان جسم عايدة؟ كثيرًا ما تبدو لذاكرته وكأنّما لم يكن لها جسم، وحتّى ما يذكره من نحافتها وسمرتها ورشاقتها فإنّما تستقرّ في روحه كالمعاني المجرّدة، أمّا ما يلتصق عادة بالذاكرة من محاسن الأجساد كالصدور والسيقان والأرداف فلا يذكر ألبتّة أنّ حواسّه اتّجهت إلى شيء منها، واليوم لو عرضت له حسناء كلّ ميزاتها الرشاقة والسمرة والنحافة ما ارتضى أن يبتاعها بريال، فكيف كان هٰذا الحبّ؟ وكيف ظلّت ذكراه مصونة بالإجلال والتقديس رغم ازدرائه لكلّ شيء؟!.

ـ الدنيا حرّ، أفّ. . .

ـ إذا لطستنا الخمر استوى لدينا الحرّ والبرد. . .

ـ لا تأكلني بعينيك، وارفع نظّارتك!.

مطلّقة ذات بنين، تغطّي كآبتها المعتمة بالعربدة، وتمتصّ الليالي النهمة أنوثتها وإنسانيّتها دون مبالاة، يختلط في أنفاسها الوجد الكاذب بالمقت، وهي للاستعباد شرّ صورة، لذٰلك كانت الخمر نجاة من العذاب كما هي نجاة من الفكر!

وارتمت إلى جانبه ومدّت يدها البضّة إلى الزجاجة وأخذت تملأ الكأسين، هٰذه الزجاجة تباع في هٰذا البيت بضعف ثمنها، كلّ شيء هنا غالٍ إلّا المرأة، إلّا الإنسان، ولولا الخمر ما أمكن ذٰلك المجلس، كي يغيب عن عين البشريّة المحملقة في اشمئزاز، غير أنّ حياتنا لا تخلو من مومسات من نوع آخر، منهم وزراء وكتّاب!

وبحلول الكأس الثانية في جوفه لاحت بشائر النسيان والمسرّة. «هٰذه المرأة أشتهيها منذ زمن وحتّى متى لا أدري، الشهوة سلطان مستبدّ أمّا الحبّ فشيء آخر، وكم يبدو في لباس عجيب إذا برئ من الشهوة، وإذا أتيح لي يومًا أن أجدهما في كائن بشريّ عرفت الاستقرار المنشود، ولذٰلك فلن تزال الحياة تبدو لي عناصر يعوزها الانسجام، أنا أنشد «الزواج» في الحياتين العامّة والخاصّة، لا أدري أيّهما أصل الأخرى، ولٰكنّي متأكّد أنّي تعس رغم سلوكي في الحياة الذي ضمن لي حظّي من مسرّات الفكر ولذّات الجسد، كالقطار الذي ينطلق في قوّة ولٰكنّه لا يدري من أين ولا إلى أين. والشهوة حسناء طاغية سرعان ما يصرعها القرف، ويهتف القلب ناشدًا في يأس أليم السعادة السرمديّة، عبثًا، لذٰلك فالشكوى لا تنقطع، والحياة خدعة كبرى، وينبغي أن نتجاوب مع حكمتها الخفيّة كي نتقبّل هٰذه الخدع راضين، فنكون كالممثّل الذي يُعيي دوره الكاذب على المسرح، ولٰكنّه رغم ذٰلك يعبد فنّه».

وتجرّع كأسه الثالثة دفعة واحدة حتّى أغرقت عطيّة في الضحك، وهي تحبّ السكر من صميم قلبها ولكنّه يفعل بها الأفاعيل، فإذا لم يوقفها عند حدّها علا صوتها فتشنّجت ثمّ بكت وتقايأت. ولعبت الخمر برأسه فاهتزّ طربًا، ومدّ إليها بصره فانبسطت أساريره. هي الآن امرأة فحسب لا مشكلة، وكأنّه لم تعد ثمّة مشكلة في الوجود، الوجود نفسه ـ أثقل مشكلة في الحياة ـ لم يعد مشكلة، ولكن اشرب واغرق في القُبَل...

ـ ما ألطفكَ إذا ضحكت بلا سبب!

ـ إذا ضحكت بلا سبب فاعلمي أنّ الأسباب أجلّ من أن تُذكر...

١٧

عاد عبد المنعم إلى السكّريّة ملتفًّا في معطفه، يحبك من آن لآخر طاقته ليتّقي بها برد الشتاء القارص، وكان الظلام شاملًا رغم أنّ الساعة لم تجاوز السادسة مساء، وما كاد يبلغ مدخل السلّم حتّى فتح باب الدور الأوّل وتسلّل الشبح اللطيف الذي كان ينتظر. وخفق قلبه وجعل يحملق في الظلام بعينين متّقدتين، وتابع شبحها وهو يرقى في السلّم في خفّة وحذر أن يحدث صوتًا، فوجد نفسه موزّعًا بين رغبة تغريه بالاستسلام وإرادة تحثّه على السيطرة على أعصابه التي تلوح بالخيانة والانهيار. وذكر ـ الآن فقط! ـ أنّها واعدته الليلة من قبل، وقد كان بوسعه أن يقدّم موعد عودته أو يؤخّره فيتجنّب هٰذا اللقاء، ولٰكنّه نسي ذٰلك كلّه، لشدّ ما ينسى! ولم يكن ثمّة وقت للتدبّر والتذكّر، فليترك هٰذا إلى حينه، عندما يخلو إلى نفسه في حجرته، إلى تلك اللحظة التي ستشهده. منتصرًا ظافرًا أو منهزمًا مغلوبًا على أمره، وارتقى السلّم في أعقابها دون أن يعزم على أمر، ملقيًا بنفسه في خضمّ الامتحان، ولم يكن شيء لينسيه آلام صراعه الأبديّ. وفوق البسطة خُيّل إليه أنّ شبحها يضخم حتّى ملأ عليه المكان والزمان. وقال وهو يخفي قلقه ويضمر الصمود مهما كلّفه الأمر:

ـ مساء الخير...

فجاء الصوت الرقيق يقول:

ـ مساء الخير، أشكرك لأنّك سمعت نصيحتي ولبست معطفك...

فغلبه التأثّر لرقّتها، ذابت في حلقه كلمة أوشك أن يجيبها بها، ثمّ قال مداريًا ارتباكه:

ـ خشيت أن تمطر السماء...

فرفعت رأسها إلى أعلى كأنّما تنظر إلى السماء، وقالت:

ـ ستمطر عاجلًا أو آجلًا، ليس في السماء نجم، وقد ميّزتك بصعوبة عندما دخلت الحارة.

فاستجمع قواه المتلاطمة، وقال فيما يشبه التحذير:

ـ الجوّ بارد، وجوّ السلّم خاصّة شديد الرطوبة!

فقالت الصغيرة بصراحة تعلّمتها على يديه:

ـ لا أشعر بالبرد في قربك!...

فلفحت وجهه حرارة منبعثة من الداخل، ونمّ حاله على أنّه سيعاود الخطأ على رغمه، وجعل يستعدي إرادته ليتغلّب على الرجفة السارية في بدنه، فسألته:

ـ ما لك لا تتكلّم؟

وأحسّ بيدها على منكبه تضغطه برقّة، فما تمالك أن طوّقها بذراعه، وقبّلها قبلة طويلة، ثمّ أمطرها قبلات حتّى سمع صوتها الرقيق يقول لاهثًا:

ـ لا أطيق البعد عنك...

فواصل عناقه متداويًا في حضنها، وهي تهمس في أذنه:

ـ أتمنّى لو أبقى هٰكذا إلى الأبد...

فشدّ عليها الوثاق قائلًا بصوت متهدّج:

ـ يا للأسف!

فتباعد رأسها في الظلام قليلًا، وهي تتساءل:

ـ علام تأسف يا حبيبي؟

فقال بعد تردّد:

ـ على الخطأ الذي نتردّى فيه...

ـ أيّ خطأ بالله؟

تخلّص منها برقّة، وراح يخلع معطفه، فطواه، ثمّ همّ بأن يضعه على الدرابزين، ولٰكنّه عدل عن فكرته في اللحظة الأخيرة ـ لحظة هائلة ـ فثناه على ذراعه ثمّ

تراجع إلى الوراء خطوة. كانت أنفاسه تضطرب ولٰكنّ عزمة اعترضت تيّار استسلامه فقلبت كلّ شيء. وعادت يدها تتلمّس السبيل إلى عنقه فأمسك بها، وانتظر حتّى هدأت أنفاسه، ثمّ قال بهدوء:

ـ هٰذا خطأ كبير...

ـ أيّ خطأ؟!. لست أفهم شيئًا...

صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، أنت تعبث بها إشباعًا لرغبة لا ترحم، ولن يكون لهٰذا العبث من غاية، ليس إلّا عبثًا تجلب به غضب الله ومقته.

ـ يجب أن تفهمي، أنستطيع أن نعلن ما نفعل؟

ـ نعلنه؟

ـ انظري كيف تستنكرين!. ولٰكن لماذا لا نعلنه إن لم يكن عيبًا مزريًا؟.

وشعر بيدها تتصيّده، فارتقى إلى أولى درجات السلّم التالية، وكان مطمئنًّا إلى أنّه جاز منطقة الخطر بسلام:

ـ اعترفي بأنّنا مخطئان، فلا ينبغي أن نصرّ على الخطأ...

ـ عجيب أن أسمع منك هٰذا الكلام...

ـ لا عجب، إنّ ضميري لم يعد يحتمل الخطيئة، إنّها تعذّبني وتفسد عليّ صلاتي.

«صامتة!. آذيتها فليسامحني الله، يا للألم، ولٰكنّي لن أتراجع، احمدِ الله على أنّ الخطأ لم يدفعك إلى ما هو شرّ منه....».

ـ يجب أن يكون ما حصل درسًا لنا فلا نعود إلى مثله، أنت صغيرة، وقد أخطأت، فلا تجري مرّة أخرى وراء الخطأ.

وقالت في نبرات باكية:

ـ لم أخطئ... أتنوي هجري؟. ماذا تقصد؟

وكان قد تمالك قوّته فقال:

ـ عودي إلى بيتك، لا تفعلي شيئًا تسرين وجوب التستّر عليه، لا تقابلي أحدًا في الظلام...

فقال الصوت متهدّجًا:

ـ أتهجرني؟. أنسيت كلامك عن حبّنا؟

ـ كلام مَن لا عقل له، أنت مخطئة، ليكن هٰذا درسًا لك، احذري الظلام قد تكون فيه نهايتك، أنت صغيرة، فمن أين لك هٰذه الجرأة؟!.

تردّد في الظلام انتحابها، ولٰكنّه لم يرقّ قلبه، كان منتشيًا بلذّة نصر قاسية:

ـ عِي كلّ كلمة، ولا تغضبي، واذكري أنّني لو كنت نذلًا ما ارتضيت أن أتركك قبل أن أقضي عليك، أستودعك الله...

ورقي في السلّم وثبًا، انتهى من العذاب، ولن يكون طعمة لأنياب الندم، ولٰكن ليذكر قول أستاذه الشيخ عليّ المنوفي: إنّ مغالبة الشيطان لن تكون بتجاهل سنن الطبيعة. أجل ليذكر هٰذا. وخلع ملابسه على عجل وارتدى الجلباب، ثمّ قال لأخيه أحمد وهو يغادر الحجرة:

ـ أريد أن أخلو قليلًا إلى والدي في حجرة المكتب، فانتظر قليلًا من فضلك...

وفي طريقه إلى الحجرة رجا والده أن يتبعه، فرفعت خديجة رأسها إليه متسائلة:

ـ خير؟...

ـ سأحدّث أبي أوّلًا، ثمّ يأتي دورك...

وتبعه إبراهيم شوكت صامتًا، كان الرجل قد ركّب طاقم أسنانه الجديد، وعاودته طمأنينته الخاملة بعد أن واجه الحياة بلا أسنان ستّة أشهر كاملة. وجلسا جنبًا إلى جنب والأب يقول:

ـ خير إن شاء الله!

فقال عبد المنعم دون تردّد أو تمهيد:

ـ أريد يا أبي أن أتزوّج!

فحملق الرجل في وجهه، ثمّ قطّب باسمًا كأنّه لم يفهم شيئًا، وهزّ رأسه في حيرة ثمّ قال:

ـ الزواج؟ كلّ شيء رهن بوقته، لماذا تحدّثني عن ذٰلك الآن؟

ـ أريد أن أتزوّج الآن...

ـ الآن؟!، ما زلت في الثامنة عشرة من عمرك، ألا تنتظر حتّى تأخذ شهادتك؟

ـ لا أستطيع...

وهنا فُتح الباب ودخلت خديجة، وهي تتساءل:

ـ ماذا يدور وراء ذٰلك الباب؟ هل توجد أسرار

تحلّ لأبيك وتحرّم عليّ؟

فقطّب عبد المنعم متنرفزًا، على حين راح إبراهيم يقول وهو لا يكاد يفقه معنى ما يقول:

ـ عبد المنعم يريد أن يتزوّج...

فتفحّصته خديجة كأنّما تخاف عليه الجنون، وهتفت:

ـ يتزوّج؟ ماذا أسمع؟ هل قررت أن تترك الجامعة؟

فقال عبد المنعم بصوت قويّ غاضب:

ـ قلت إنّي أريد أن أتزوّج لا أن أهرب من المدرسة، سأواصل الدراسة متزوّجًا، هٰذا كلّ ما هنالك...

فقالت خديجة وهي تردّد عينيها بينه وبين أبيه:

ـ عبد المنعم أأنت جادّ حقًّا؟

فصاح:

ـ كلّ الجدّ...

فضربت المرأة كفًّا على كفّ وقالت:

ـ أصابتك عين، ماذا حصل لعقلك يا ابني؟

فنهض عبد المنعم غاضبًا وهو يقول:

ـ ما الذي جاء بك؟ كنت أريد أن أختلي بأبي أوّلًا ولٰكنّك لا صبر لك، أصغيا إليّ، أريد أن أتزوّج، أمامي عامان حتّى أنتهي من دراستي، وأنت يا أبي تستطيع أن تعولني هٰذين العامين، لولا تأكّدي من هٰذا، ما عرضت طلبي...

فجعلت خديجة تقول:

ـ يا لطف الله! أكلوا عقله!

ـ من هم الذين أكلوا عقلي؟

ـ الله بهم أعلم... منهم لله، أنت أدرى بهم، وسنعرفهم عمّا قليل...

فخاطب الشابّ أباه قائلًا:

ـ لا تصغ إليها، إنّي لا أدري حتّى الساعة من التي ستكون من نصيبي، اختاروها بأنفسكم، أريد زوجة لائقة، أيّ زوجة!

فسألته داهشة:

ـ أتعني أنّه لا توجد واحدة بالذات هي السبب في هٰذه البلوى؟

ـ أبدًا، صدّقيني، اختاري لي بنفسك...

ـ وما الداعي إلى السرعة إذن؟ دعني أختار لك، أعطني مهلة، إنّها مسألة عام أو عامين!

فعلا صوته وهو يقول:

ـ أنا لا أهزل، دعيني فهو يفهمني خيرًا منك!

فسأله أبوه بهدوء:

ـ ما وجه السرعة؟

فقال عبد المنعم وهو يغضّ بصره:

ـ لا أستطيع البقاء دون زواج.

فتساءلت خديجة:

ـ وآلاف الشبّان أمثالك كيف يستطيعون؟

فقال الشابّ مخاطبًا أباه:

ـ لا أقبل أن أفعل ما يفعله الآخرون!

فتفكّر إبراهيم قليلًا، ثمّ قال حسمًا للموقف:

ـ يكفي هٰذا الآن، وسنعود إلى الموضوع في فرصة أخرى...

وهمّت خديجة بالكلام ولٰكنّ زوجها منعها، وأخذها من يدها فغادرا الحجرة إلى مجلسهما في الصالة. وتحادث الزوجان مقلّبين الأمر على جميع وجوهه، وبعد أخذ وردّ طويلين مال إبراهيم إلى تأييد طلب ابنه، وتولّى بنفسه إقناع زوجه، حتّى سلّمت بالمبدأ، وعند ذاك قال إبراهيم:

ـ عندنا نعيمة بنت أخي، فلن نتعب في البحث عن عروس...

فقالت خديجة باستسلام:

ـ أنا التي أقنعتك بالنزول عن نصيبك من ميراث المرحوم إكرامًا لعائشة، فلا اعتراض لي على اختيار نعيمة زوجة لابني، إنّ سعادة عائشة تهمّني جدًّا كما تعلم، ولٰكنّي أخاف تفكيرها، وأحسب ألف حساب للشذوذ الذي طرأ عليها، ألم نُلمح أمامها مرّات عن رغبتنا في تزويج نعيمة من عبد المنعم؟ ومع ذٰلك خيّل إليّ أنّها كانت ترحّب بابن جميل الحمزاوي عندما قيل إنّ والده طلب له يدها...

ـ هٰذا تاريخ قديم، مضى عليه عام أو أكثر، والحمد لله أنّه لم يتمّ، فما كان يشرّفني أن يأخذ بنت أخي شابّ مثله مهما تكن وظيفته، الأصل عندي كلّ

شيء، نعيمة عندنا على العين والرأس. . .

فقالت خديجة وهي تتنهّد:

ـ على العين والرأس، ترى ماذا يقول أبي عن هٰذا اللعب إذا علم به؟!

فقال إبراهيم:

ـ سيرحّب به دون شكّ، كلّ شيء يبدو كالحلم، ولكن لن أندم، فإنّي موقن بأنّ تجاهل رغبة عبد المنعم خطأ لا يُغتفر، ما دام في الإمكان تحقيقها!. . .

١٨

لم يطرأ على البيت القديم في بين القصرين أيّ تغيير يذكر، إلّا أنّ الجيران بما فيهم حسنين الحلّاق ودرويش الفوّال والفوليّ اللبّان وأبو سريع صاحب المقلي وبيومي الشرباتلي، كلّ أولٰئك قد علموا بطريقة أو بأخرى أنّ اليوم تُـزوَّج حفيدة السيّد أحمد من ابن عمّها ـ وخالتها ـ عبد المنعم. حافظ السيّد أحمد على تقاليده القديمة فمضى اليوم كغيره من الأيّام، فاقتصر على دعوة الأهل، وغاية الأمر أن أُعدّت العدّة لوليمة عشاء. وكان الوقت في مطلع الصيف، وقد اجتمعوا جميعًا في حجرة الاستقبال، السيّد أحمد عبد الجواد وأمينة وخديجة وإبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد وياسين وزنّوبة ورضوان وكريمة، ما عدا نعيمة التي كانت تأخذ زينتها في الدور الأعلى بمعاونة عائشة. ولعلّ السيّد قد شعر بأنّ وجوده بينهم يلقي على الاجتماع العائليّ ظلًّا من الوقار الذي لا تستسيغه المناسبة السعيدة، فانتقل عقب الاستقبال بقليل إلى حجرته، حيث لبث ينتظر حضور المأذون. وكان السيّد قد صفّى تجارته وباع الدكّان مؤثرًا الراحة لشيخوخته، لا لأنّه بلغ الخامسة والستّين فحسب، ولكن لأنّ استعفاء جميل الحمزاوي اضطرّه إلى بذل نشاط مضاعف لم يعد يحتمله، فقرّر إنهاء حياته العمليّة، قانعًا بما تخلّف له من تصفية دكّانه وما ادّخر من مال من قبل قدّر أن يكفيه بقيّة العمر. وكان حدثًا هامًّا في حياة الأسرة، جعل كمال يتساءل عن حقيقة الدور الذي كان يلعبه جميل الحمزاوي في حياته عامّة وحياة أبيه خاصّة، ولبث السيّد في حجرته منفردًا، يتأمّل أحداث اليوم في صمت، كأنّما لا يصدّق حقًّا أنّ العريس هو عبد المنعم حفيده. ويوم فاتحه إبراهيم شوكت في الأمر عجب، واستنكر، كيف تسمح لابنك بأن يحدّثك بهٰذه الصراحة وأن يملي إرادته عليك، إنّكم آباء خُلقتم لإفساد الأجيال، ولو في غير الظرف الذي يدرك دقّته لقال لا، ولٰكن كانت هناك عائشة، فحيال تعاستها تخلّى عن عناده التقليديّ كلّه، ولم يطق ـ خاصّة بعد ما ثار حول صمت فؤاد الحمزاوي من تعليقات ـ أن يخيّب لها رجاء، وإذا كان زواج نعيمة يخفّف من لوعة قلبها فأهلًا به وسهلًا. هٰكذا دفعه الحرج إلى أن يقول نعم، وأن يسمح للصبيان أن يملوا إرادتهم على الكبار وأن يتزوّجوا قبل أن يتجاوزوا مرحلة التلمذة.

ودعا عبد المنعم إلى مقابلته، وطلب إليه أن يتعهّد بإتمام دراسته، فتكلّم عبد المنعم كلامًا جميلًا مريحًا مستشهدًا في أثناء ذٰلك بالقرآن والحديث، فترك في نفس جدّه آثارًا متباينة من الإعجاب والسخرية، هٰكذا يتزوّج التلميذ اليوم على حين أنّ كمال لم يفكّر في الزواج بعد، وعلى حين رفض هو يومًا أن تعلَن خطبة المرحوم فهمي ـ مجرّد إعلان خطبة ـ الذي مات قبل أن يجني ثمرة شبابه الغضّ، وهٰكذا يبدو أنّ العالم قد انقلب على رأسه، وأنّ دنيا عجيبة أخرى تشبّ، وأنّنا غرباء بين أهلينا، اليوم يتزوّج التلاميذ ولا ندري ماذا يصنعون غدًا.

وفي حجرة الاستقبال كانت خديجة تقول من ضمن حديث طويل:

ـ لذٰلك أخلينا الدور الثاني من سكّانه، وسيستقبل الليلة العروسين وهو على أحسن حال.

فقال لها ياسين بلهجة غادرة:

ـ عندك كافّة المواهب التي تجعل منك «حماة» لا نظير لها، ولٰكنّك لن تستطيعي استغلال مواهبك الفذّة مع هٰذه العروس!

فأدركت ما يرمي إليه، ولٰكنّها تجاهلته قائلة:

ـ العروس ابنتي وابنة أختي. . .

وقالت زنّوبة تلطّف من تعريض ياسين:

ـ خديجة هانم سيّدة كاملة!

فشكرتها خديجة، وكانت تقابل تودّدها بالشكر والاحترام إكرامًا لياسين. على الرغم من احتقارها الباطنيّ لها، وكانت كريمة تتألّق في سنّها العاشرة ممّا جعل ياسين ينوّه بأنوثتها المنتظرة!. أمّا عبد المنعم فراح يحادث جدّته أمينة المعجبة بتديّنه، وكانت تقطع حديثه بالدعاء له. وسأل كمال أحمد ممازحًا:

ـ وأنت تتزوّج في العام المقبل؟

فقال أحمد ضاحكًا:

ـ إلّا إذا اتّبعت سنّتك يا خالي!

وكانت زنّوبة تتابع حديثها، فقالت موجّهة الخطاب إلى كمال:

ـ لو سمح لي سي كمال فإنّي أعِد بأن أزوّجه في أيّام!

فقال لها ياسين وهو يشير إلى نفسه:

ـ إنّي مستعدّ لأن أسمح لك عن نفسي!.

فقالت وهي تهزّ رأسها تهكّمًا:

ـ لقد تزوّجت بما فيه الكفاية، وأخذت نصيبك ونصيب أخيك...

وانتبهت أمينة إلى موضوع الحديث، فقالت لزنّوبة:

ـ إذا زوّجت كمال، فسأحاول أن أزغرد لأوّل مرّة في حياتي!.

وتخيّل كمال أمّه وهي تزغرد فضحك، ثمّ تخيّل نفسه في مجلس عبد المنعم ينتظر المأذون فوجم. الزواج يهيّج دوّامة في أعماقه كما يهيّج الشتاء الربو عند المريض، وهو يرفضه عند كلّ مناسبة، لكنّه لا يستطيع أن يتجاهله، وهو خالي القلب ولكنّه يضيق بخلوّه كما كان يضيق قديمًا بامتلائه، واليوم إذا أراد الزواج فليس أمامه إلّا الطريق التقليديّ الذي يبدأ بالخاطبة، وينتهي بالأسرة والأطفال والاندماج في ميكانيزم الحياة، فلا يكاد يجد المولع بالتأمّل موضعًا للتأمّل، وسوف يرى الزواج دائمًا أبدًا في مركز عجيب بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى، أمّا في نهاية العمر فلن تجد إلّا الوحدة والكآبة...

السعيدة حقًّا في ذلك اليوم كانت عائشة، لأوّل مرّة منذ تسع سنوات تحلّت بثوب جميل وعقصت شعرها. وكانت ترقب ابنتها التي تبدّت كقبضة من نور بعينين حالمتين، فإذا غلبها الدمع أخفت عنها وجهها الشاحب الذابل، وقد لمحتها أمّها مرّة وهي تبكي، فنظرت إليها معاتبة وهي تقول:

ـ لا يصحّ أن تترك نعيمة البيت وفي قلبها حزن!

فانتحبت عائشة قائلة:

ـ ألا ترينها وحيدة في هذا اليوم لا أب ولا أخ؟

فقالت أمينة:

ـ البركة في أمّها، ربّنا يخلّيها لها، وهي ذاهبة إلى خالتها وعمّها، ولها بعد ذلك الله خالق الملك كلّه...

فجفّفت عائشة عينيها وهي تقول:

ـ ذكريات الأموات الأعزّاء تغمرني من طلعة الصبح، ووجوههم تلوح لي، ثمّ إنّني بعد ذهابها سأبقى وحيدة...

فقالت أمينة في عتاب:

ـ لست وحيدة...

وكانت نعيمة تربّت خدّ أمّها وتقول:

ـ كيف أستطيع أن أغيب عنك يا ماما؟

فتجيبها عائشة بحنان وهي تبتسم:

ـ سيعلّمك بيت زوجك كيف تستطيعين!

فقالت نعيمة بقلق:

ـ ستزورينني كلّ يوم، كنت تتحاشين الاقتراب من السكّريّة، ولكن يجب أن تتخلّي عن هذه العادة منذ اليوم.

ـ طبعًا، هل تشكّين في ذلك؟

وإذا بكمال يقبل عليهما قائلًا:

ـ استعدّا جاء المأذون!...

وعلقت عيناه بنعيمة في إعجاب. يا للجمال، والرقّة، والشفافيّة، كيف يكون للحيوانيّة دور في هذا الكائن اللطيف!؟

ولمّا عرف أنّ الكتاب قد كُتب، تبودلت التهاني، وإذا بزغرودة تقتحم على البيت وقاره وتلعلع في جوّه الصامت، فاتّجهت الرءوس في دهش إلى حيث وقفت أمّ حنفي في نهاية الصالة. ولمّا جاء وقت الوليمة وتوارد المدعوّون إلى المائدة، انقبض صدر عائشة وتركّز

تفكيرها في الفراق الوشيك، فلم تنفتح نفسها للطعام، ثمّ جاءت أمّ حنفي فأبلغت أنّ الشيخ متولّي عبد الصمد جالس على الأرض في الحوش، وأنّه طلب عشاءه خاصّة من اللحوم، فضحك السيّد وأمر بأن تُهيّأ له صينيّة وتُحمل إليه. وما لبث أن ترامى إليهم صوته صاعدًا من الحوش وهو يدعو بطول العمر لحبيبه «ابن عبد الجواد» ويتساءل في الوقت نفسه عن أسماء أبنائه وأحفاده ليدعو لهم، فقال السيّد باسمًا:

ـ يا للخسارة!... نسي الشيخ متولّي أسماءكم، سامح الله الشيخوخة...

فقال إبراهيم شوكت:

ـ إنّه في المائة من عمره، أليس كذلك؟

فأجاب أحمد عبد الجواد بالإيجاب، وعند ذلك تعالى صوت الشيخ مرّة أخرى وهو يصيح:

ـ باسم الحسين الشهيد أكثروا من اللحم!

فضحك السيّد قائلًا:

ـ سرّ ولايته قاصر اليوم على اللحوم!

وحين ساعة الوداع سبق كمال إلى الحوش ليتجنّب ذلك المنظر، ومع أنّه لم يزد على انتقال يسير إلى السكّريّة إلّا أنّه كان ذا وقع شديد كالصداع في قلبي الأمّ وابنتها. والواقع أنّ كمال كان ينظر إلى هذا الزواج بعين ملؤها الشكّ، بالنظر إلى جدارة نعيمة للحياة الزوجيّة. وفي الحوش رأى الشيخ متولّي عبد الصمد جالسًا على الأرض تحت المصباح الكهربائيّ المثبت في جدار البيت ليضيء المكان، مادًّا ساقيه، مرتديًا جلبابًا أبيض باهتًا وطاقيّة بيضاء، خالعًا نعليه مستندًا إلى الجدار كالنائم ليريح جوفه ممّا امتلأ به من طعام، ورأى بين ساقيه ماء يسيل، فأدرك من النظرة الأولى أنّ الشيخ يبول وهو لا يشعر، وكانت أنفاسه تتردّد فتسمع كالفحيح. حدجه كمال بنظرة جمعت بين التقزّز والرثاء، ثمّ خطر له خاطر فابتسم على رغمه، وقال لنفسه:

ـ لعلّه كان طفلًا مدلّلًا عام ١٨٣٠ م.

١٩

في اليوم التالي مباشرة ذهبت عائشة لزيارة السكّريّة، طوال الأعوام التسعة المنقضية لم تغادر البيت القديم إلّا لزيارة القرافة، فيما عدا زيارات معدودات لقصر الشوق حين وفاة ابني ياسين الصغيرين. وقفت قليلًا عند مدخل السكّريّة تلقي على المكان نظرة شاملة، حتّى غطّى الدمع ناظريها. على الأرض أمام مدخل البيت التي أشبعتها أقدام عثمان ومحمّد جريًا ولعبًا، والحوش الذي ازدان يومًا بحفل عرسها البهيج، والمنظرة التي كان يجلس فيها خليل يدخّن غليونه ويلعب الطاولة والدومينو، ذلك شذا الماضي العطر المشبع بالحنان والحبّ المفقودين، وهي سعيدة، سعادة سارت مسير الأمثال، حتّى قيل عنها الضاحكة المترنّمة التي لا شغل لها إلّا مضاحكة المرآة ومصاحبة الزينة، والزوج يناجي والأطفال يثبون، تلك الأيّام الماضية. وجفّفت عينيها حتّى لا تلقى العروس باكية. جفّفت عينين ما تزالان زرقاوين وإن تساقطت أهدابها وذبلت جفونها. ووجدت الشقّة قد جُدّدت مرافقها وطُليت جدرانها فبدت ثغرًا باسمًا في جهاز العروس الذي أُنفق عليه بسخاء. واستقبلتها نعيمة في فستان أبيض هفهاف، وقد أرسلت شعرها الذهبيّ حتّى مسّت أهدابه باطن الساقين، رائقة عذبة وضيئة ينبعث من أردانها عرف ساحر، فتعانقتا عناقًا طويلًا حارًّا، حتّى قال عبد المنعم، وكان ينتظر دوره في السلام في روب جنزاريّ شمل به جلبابه الحريريّ:

ـ كفاية، أقلّ سلام يكفي هذا الفراق الوهميّ!

ثمّ عانق خالته، ومضى بها إلى مقعد وثير فأجلسها وهو يقول:

ـ كنّا في سيرتك يا خالتي، فقد قرّ رأينا على أن ندعوك للإقامة معنا...؟!

فابتسمت عائشة قائلة:

ـ أمّا هذا فلا، سأزوركم كلّ يوم فتكون فرصة للفسحة، ما أحوجني إلى الحركة!

فقال عبد المنعم بصراحته المعهودة:

ـ نعّومة قالت لي إنّك لا تحتملين المكوث هنا خشية أن تطاردك الذكريات، إنّ الذكريات الحزينة لا تطارد المؤمن، وذلك أمر الله وقد مضى منذ عهد بعيد، ونحن أولادك فقد عوّضك الله!.

هٰذا الشابّ طيّب صريح ولكنّه لا يبالي أين يقع كلامه من القلوب الجريحة.

ـ طبعًا يا عبد المنعم، ولكنّي مرتاحة في بيتي، هٰذا أفضل...

وإذا بخديجة وإبراهيم وأحمد يدخلون، فيصافحونها، ثمّ تقول خديجة لعائشة:

ـ لو عرفت أنّ هٰذا الذي يعيدك إلى زيارتنا لزوّجتهما قبل البلوغ!

فضحكت عائشة، وقالت تذكّر خديجة بالماضي البعيد:

ـ المطبخ واحد؟!. أم تطالب العروس بالاستقلال من حماتها؟

فضحكت خديجة وإبراهيم معًا، وقالت خديجة بلهجة لم تخلُ من معنى:

ـ العروس كأمّها لا تعنى بالسفاسف!.

وقال إبراهيم ليفسّر لابنيه ما غمض من تلميح عائشة:

ـ بدأت المعارك بين أمّكما وأمّي بسبب مشكلة المطبخ الذي كانت أمّي تستقلّ به، ومُطالَبة أمّكما بالاستقلال المطبخيّ...

فقال العريس متعجّبًا:

ـ كنت تتعاركين يا نينة بسبب المطبخ!...

فقال أحمد ضاحكًا:

ـ وهل من سبب للمعارك التي تدور بين الأمم إلّا هٰذا المطبخ؟!

فقال إبراهيم في تهكّم:

ـ أمّكما قويّة كإنجلترا، أمّا أمّي فرحمة الله عليها...

وجاء كمال، كان يرتدي بذلة بيضاء أنيقة؛ أمّا وجهه فيتكوّن من الطاقم المألوف المركّب من جبينه البارز وأنفه العظيم ونظّارته الذهبيّة وشاربه المربّع الغليظ، وكان يحمل بيده لفّة كبيرة بشّرت بهديّة ممتازة، فقالت خديجة باسمة وهي تتفحّص الهديّة:

ـ حذار يا أخي، إذا لم تتدارك نفسك بالزواج فستظلّ تجيء بالهدايا دون أن يُردّ لك الجميل، الأسرة كلّها اليوم موشكة على الزواج، هٰذا أحمد، وهناك رضوان وكريمة، تدارك نفسك بالتي هي أحسن!.

وسأله أحمد:

ـ بدأت العطلة المدرسيّة يا خالي؟

فأجاب كمال وهو ينزع طربوشه ويرنو إلى العروس الجميلة:

ـ لم تبق إلّا فترة يسيرة للمراقبة والتصحيح في الابتدائيّة!

وغابت نعيمة لتعود مرّة أخرى بصينيّة فضّيّة حافلة بشتّى أنواع الحلوى، مختلفة الألوان والطعوم، فمضت فترة لم يسمع خلالها إلّا التمطّق والمصمصة، ثمّ راح إبراهيم يحكي ذكريات فرحه، الحفل، والمغنّي، والعالمة. وتابعته عائشة بوجه باسم وقلب محزون، وتابعه كمال بشغف إذ كان يعيد عليه صورًا ما زال يذكر بعضها ويودّ لو يعرف ما فاته منها. قال إبراهيم ضاحكًا:

ـ السيّد أحمد كان كما هو اليوم أو أشدّ، ولكنّ أمّي رحمها الله قالت بحزم: ليفعل السيّد ما يشاء في بيته، أمّا عندنا فنحن نفرح كما نشاء، وقد كان. وجاء السيّد يوم الفرح ومعه أصحابه مسّاهم الله بالخير جميعًا، أذكر منهم السيّد محمّد عفّت جدّ رضوان، فجلسوا جميعًا في المنظرة بعيدًا عن الزياط!.

وقالت خديجة:

ـ أحيت الليلة جليلة أشهر عالمة في عصرها...

وابتسم قلب كمال، وذكر الدرونة العجوز التي ما تزال تنوّه بعهد أبيه!...

وقال إبراهيم مسترقًا النظر إلى عائشة:

ـ وكان لنا عالمة خصوصيّة لبيتنا، ولكنّ صوتها كان أجمل من العالمة المحترفة، كان يذكّرنا بصوت منيرة المهديّة في عزّها!.

فتورّد وجه عائشة، وقالت بهدوء:

ـ سكت صوتها منذ عهد بعيد، حتّى نسيت الغناء...

فقال كمال:

ـ نعيمة تغنّي كذلك، ألم تسمعها؟

فقال إبراهيم:

ـ سمعت عنها ولكنّي لم أسمعها بعد، الحقّ أنا

عرفناها شيخة لا عالمة!. وبالأمس قلت لها: زوجك شيخ المؤمنين، ولٰكن ينبغي أن تؤجّلي الصلاة والعبادة إلى حين!

وضحكوا جميعًا، وقال أحمد مخاطبًا أخاه:

ـ لا ينقص عروسك إلّا أن تضمّها إلى شعبة الشيخ عليّ المنوفي معك.

فقال العريس:

ـ إنّ شيخنا أوّل من نصحني بالزواج...

فقال أحمد مخاطبًا أخاه:

ـ لعلّ الإخوان يعتبرون الزواج مادّة من دستورهم السياسيّ!.

والتفت إبراهيم إلى كمال قائلًا:

ـ أمّا أنت فكنت ـ أقصد أيّام دخلتي ـ صغيرًا، وكان شعرك غزيرًا لا كما هو اليوم، وكنت تتّهمنا بسرقة أختيك فلم تغفر لنا ذٰلك أبدًا...

«كنت ميدانًا خاليًا لم تبدأ به المعارك بعد، يتحدّثون عن سعادة الزواج، لو يعرفون ما يحدُث به الأزواج الشاكون!؟ نعيمة أعزّ عليّ من أن يملُّها مخلوق، أيّ شيء لا ينكشف عن خدعة في هٰذه الحياة؟!».

فقالت خديجة معلّقة على قول زوجها:

ـ كنّا نظنّ ذٰلك حبًّا لنا، ولٰكن اتّضح مع الأيّام أنّه ليس إلّا عداوة للزواج نشأت معه منذ الصغر!.

وضحك كمال كما ضحكوا جميعًا. إنّه يحبّ خديجة، ويزيد من حبّه علمه بحبّها الشديد له، أمّا تعصّب العريس فشدّ ما يزعجه، ولٰكنّه من ناحية أخرى يحبّ أحمد ويعجب به، وهو نافر من الزواج ولٰكن يطيب له أن تذكّره خديجة به في كلّ مناسبة، وكان قلبه شديد التأثّر بجوّ الزواج المحيط به، فانتشى قلبه وحواسّه، ووجد حنينًا وإن يكن بلا هدف، ثمّ تساءل كأنّما يتساءل لأوّل مرّة: ماذا يمنعني من الزواج؟... حياة الفكر كما كان يزعم قديمًا؟!. إنّني أشكّ اليوم في الفكر والمفكّر معًا، أهو الخوف، أم الانتقام، أم الرغبة في الألم، أم ردّ الفعل الصادر من الحبّ القديم؟. في حياتي مسوّغ لأيّ من هٰذه الأسباب!.

وسأل إبراهيم شوكت كمال:

ـ أتدري لماذا آسف على عزوبتك؟

ـ نعم؟...

ـ إنّي أعتقد أنّك زوج مثاليّ إذا تزوّجت، فأنت رجل بيت بطبعك، منظّم، مستقيم، موظّف محترم، ولا شكّ أنّه توجد فتاة في مكان ما من الأرض تستحقّك، وأنت مُضيّع عليها حَظّها!.

حتّى البغال أحيانًا تنطق بالحِكَم، فتاة في مكان ما من الأرض، ولٰكن أين؟ أمّا عن اتّهامه بالاستقامة فما هو إلّا كافر فاسق سكّير منافق!، فتاة في مكان ما من الأرض، فلعلّه غير بيت جليلة بعطفة الجوهري، وهٰذه الآلام التي تتطاحن في قلبه ما علّتها؟. والحيرة التي لا مهرب منها إلّا بالخمر والشهوات!، ويقولون تزوّج حتّى تنجب فتخلد، وشدّ ما طمح إلى الخلود في شتّى أشكاله وألوانه، فهل يركن يائسًا في النهاية إلى هٰذه الوسيلة الفطريّة المبتذلة؟ وثمّة أمل أن يجيء الموت بلا ألم يشوّه راحته الأبديّة، كم بدا الموت مخيفًا لا معنى له؛ ولٰكنّه ـ بعد أن فقدت الحياة كلّ معانيها ـ يبدو اللذّة الحقيقيّة في الحياة، ما أعجب العاكفين على العِلْم في معاملهم، ما أعجب الزعماء الذين يلقون بأنفسهم بالمهالك في سبيل الدستور، أمّا الذين يدورون حول أنفسهم في حيرة وعذاب فالرحمة لهم!.

وردّد بصره بين أحمد وعبد المنعم، في إعجاب مقرون بالغبطة، إنّ الجيل الجديد يشقّ سبيله العسير إلى هدف بيّن دون شكّ أو حيرة، ترى ما سرّ دائي الوبيل؟!.

قال أحمد:

ـ سأدعو العروسين ووالديّ وخالتي إلى لوج في الريحاني الخميس القادم.

فتساءلت خديجة:

ـ الريحاني؟

فقال لها إبراهيم مفسّرًا:

ـ كشكش بك!.

فضحكت خديجة وقالت:

ـ كاد ياسين يُطرد من بيتنا وهو عريس بسبب أخذه أمّ رضوان ليلة إلى كشكش!

فقال أحمد باستهانة:

ـ كان زمان وجبر، جدّي الآن لا يمانع في ذهاب

جدّتي إلى كشكش بك!

فقالت خديجة:

- خذ العروسين وأباك، أمّا أنا فكفاية عليّ الراديو...

وقالت عائشة:

- وكفاية عليّ أنا بيتكم...

وراحت خديجة تقصّ قصّة ياسين وكشكش بك حتّى حانت من كمال نظرة إلى ساعته فتذكّر موعد رياض قلدس، فنهض مستأذنًا في الانصراف.

٢٠

- أتستطيع أن تستمتع بجمال الطبيعة حقًّا بالرغم من أنّ الامتحان لم يبق عليه إلّا أيّام؟

كان السائل طالبًا، والمسئول طالبًا كذلك، في جماعة من الطلّاب افترشت العشب على هيئة نصف دائرة فوق هضبة خضراء في أعلاها كشك خشبيّ احتلّه طلّاب آخرون، وعلى مرمى البصر تراءت جماعات النخيل وحيضان الأزهار تتخلّلها مماشي الفسيفساء، قال الطالب المسئول:

- كما يستمتع عبد المنعم شوكت بالحياة الزوجيّة، رغم اقتراب الامتحان.

كان عبد المنعم شوكت جالسًا في محيط نصف الدائرة، وكذلك أحمد شوكت، فقال عبد المنعم:

- الزواج بخلاف ما تظنّون، يهيّئ للطالب أحسن فرصة للنجاح.

فقال حلمي عزّت، وكان يجلس لصق رضوان ياسين في الطرف الآخر من نصف الدائرة:

- هٰذا إذا كان الزوج من الإخوان المسلمين!

وضحك رضوان عن ثغره اللؤلؤيّ، رغم ما أثاره الحديث في نفسه من غمّ، أجل إنّ سيرة الزواج تثير قلقه، فلا يدري إن كان يقدم يومًا على هٰذه المغامرة أم لا، مغامرة مخيفة بقدر ما هي ضروريّة، ولٰكن ما أبعدها عن روحه وجسده!. وتساءل طالب:

- وما الإخوان المسلمون؟

فأجابه حلمي عزّت:

- جمعيّة دينيّة تهدف إلى إحياء الإسلام علمًا وعملًا، ألم تسمع بشعبها التي بدأت تتكوّن في الأحياء؟

- غير الشبّان المسلمين؟

- نعم...

- وما الفرق؟

فأجاب وهو يشير إلى عبد المنعم شوكت:

- سَلِ الأخ...

فقال عبد المنعم بصوته القويّ:

- لسنا جمعيّة للتعليم والتهذيب فحسب، ولٰكنّنا نحاول فهم الإسلام كما خلقه الله، دينًا ودنيا وشريعة ونظام حكم...

- أهٰذا كلام يقال في القرن العشرين؟...

فقال الصوت القويّ:

- وفي القرن العشرين بعد المائة...

- احترنا يا هوه بين الديموقراطيّة والفاشستيّة والشيوعيّة، هٰذا خازوق جديد!

فقال أحمد ضاحكًا:

- لٰكنّه خازوق ربّانيّ!

فعلت ضجّة ضحك، إلّا أنّ عبد المنعم حدجه بنظرة غاضبة، وكأنّ رضوان ياسين ساءه التعبير، فقال:

- خازوق تعبير غير موفّق...

وعاد الطالب يسأل عبد المنعم:

- وهل ترجمون الناس إذا خالفوكم؟

- إنّ الشبّان يتهدّدهم زيغ في العقيدة، وانحلال في الخلق، وليس الرجم بأشدّ ما يستحقّونه، ولٰكنّنا لا نرجم، وإنّما بالموعظة الحسنة والمثال الطيّب نهدي ونرشد، وآية ذٰلك أنّ بيتنا يضمّ، أخًا ممّن يستحقّون الرجم، وها هو يمرح أمامكم، ويتطاول على خالقه سبحانه!

فضحك أحمد، وقال حلمي عزّت مخاطبًا إيّاه:

- إذا آنست من أخيك خطرًا، فإنّني أدعوك للإقامة معي في الدرب الأحمر...

- أأنت مثله؟

- كلّا، ولٰكنّنا معشر الوفديّين قوم متسامحون، المستشار الأوّل لزعيمنا قبطيّ، هٰكذا نحن...

وعاد الطالب الأوّل يقول:

- كيف تدعون إلى هٰذا الهراء في نفس الشهر الذي ألغيت فيه الامتيازات الأجنبيّة؟

فقال عبد المنعم متسائلًا:

- أنبطل ديننا إكرامًا للأجانب؟

وإذا برضوان ياسين يقول وكأنّما كان في وادٍ آخر:

- ألغيت الامتيازات، فدع الذين انتقدوا المعاهدة يتكلّمون. . .

فقال حلمي عزّت:

- هٰؤلاء النقّاد غير مخلصين، إنّها الكراهية والحسد، إنّ الاستقلال الحقيقيّ الكامل لا يؤخذ إلّا بالحرب؛ فكيف يطمعون في أن ننال بالكلام أكثر ممّا نلنا؟

فجاء صوت يقول في ضجر:

- دعونا نتساءل عن المستقبل. . .

- المستقبل لا يُبحث في شهر مايو والامتحان على الأبواب، أريحونا. . . لن أعود إلى الكلّيّة بعد اليوم حتّى يتّسع لي الوقت للمذاكرة. . .

- مهلًا، إنّ الوظائف لا تنتظرنا، ما مستقبل الحقوق أو الآداب؟ التسكّع أو الوظائف الكتابيّة، تساءلوا عن المستقبل إذا شئتم. . .

- أمّا وقد ألغيت الامتيازات فستفتح الأبواب!

- الأبواب؟!. السكّان أكثر من الأبواب!

- اسمعوا. . . النحّاس أدخل الطلبة الجامعة وكانت أبوابها مغلقة، وأتاح لهم النجاح بعد أن أعجزهم المجموع المتعسّف فهل يعجز عن توظيفنا؟

ولاح في أقصى الحديقة سرب، فانعقدت الألسنة واتّجهت نحوه الرءوس، كان مكوّنًا من أربع فتيات قادمات من الجامعة متّجهات صوب مديريّة الجيزة، لم تكد تميّزهنّ الأبصار بعد، ولٰكنّهنّ تقدّمن متمهّلات يسقن الأمل في رؤيتهنّ عن قرب، إذ كان الممرّ الذي يَسِرْنَ فيه ينعطف أمام مجلس الصحاب في مسيره نحو الشمال. وصرنَ في مجال البصر، وردّدت الألسن أسماءهنّ وأسماء كلّيّاتهنّ، واحدة من الحقوق وثلاث من الآداب، وقال أحمد لنفسه وهو ينظر إلى إحداهنّ: «علويّة صبري»، وجذب الاسم شوارد نفسه، فتاة ذات جمال تركيّ ممصّر، معتدلة الطول نحيلة، بيضاء ذات شعر أسود فاحم، وعينين سوداوين واسعتين عاليتي الجفون، مقرونة الحاجبين، ذات سمت أرستقراطيّ ولفتات رفيعة، وإلى ذٰلك كلّه فهي زميلة في القسم الإعداديّ، وقد علم - والباحث يظفر بمعلومات شتّى - أنّها سجّلت اسمها مثله في قسم الاجتماع، ولم تكن تهيّأت فرصة ليبادلها كلمة واحدة، ولٰكنّها أثارت اهتمامه من أوّل نظرة، طالما رمق ملامح نعيمة بإعجاب ولٰكنّها لم تهزّ أعماقه، هٰذه الفتاة لها شأن، فيبشّر قريبًا بصداقة العقل، والقلب. . .؟!

قال حلمي عزّت عقب تواري السرب عن الأنظار:

- عمّا قريب تصبح كلّيّة الآداب وكأنّها كلّيّة بنات!.

فقال رضوان ياسين وهو يردّد بصره بين طلّاب الآداب في نصف الدائرة:

- لا تثقوا بصداقة طلّاب الحقوق الذين يكثرون من زياراتكم في كلّيّتكم بين الحصص، فالغرض مفضوح!.

ثمّ ضحك ضحكة عالية، ولٰكنّه لم يكن سعيدًا في تلك اللحظة، فإنّ حديث الفتيات يثير في نفسه اضطرابًا وحزنًا.

- لِمَ تقبل الفتيات على كلّيّة الآداب؟

- لأنّ وظيفة التدريس هي أوسع الوظائف صدرًا لهنّ. . .

فقال حلمي عزّت:

- هٰذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فدراسة الآداب دراسة نسائيّة، الروج والمانيكور والكحل والشّعر والقصص، كلّها باب واحد!.

فضحكوا جميعًا حتّى أحمد، وبقيّة طلّاب الآداب ضحكوا رغم توثّبهم للاحتجاج، ثمّ قال أحمد:

- يصدق هٰذا الحكم الجائر على الطبّ، فطالما كان التمريض نسائيًّا، أمّا الحقّ الذي لم يستقرّ بعد في نفوسكم فهو الإيمان بالمساواة بين الرجل والمرأة.

فقال عبد المنعم باسمًا:

- لا أدري إن كان مدحًا أم ذمًّا أن نقول للنساء إنّهنّ مثلنا؟

ـ إذا تعلّق الأمر بالحقوق والواجبات فهو مدح لا ذمّ. . .

فقال عبد المنعم:

ـ لقد سوّى الإسلام بين الرجل والمرأة فيما عدا الميراث.

فقال أحمد متهكّمًا:

ـ حتّى في الرقّ ساوى بينهما!

فاحتدّ عبد المنعم قائلًا:

ـ أنتم لا تعرفون دينكم، هٰذه هي المأساة!. . .

والتفت حلمي عزّت إلى رضوان ياسين، وسأله باسمًا:

ـ ماذا تعرف عن الإسلام؟

فسأله الآخر بنفس لهجته:

ـ وماذا تعرف أنت عنه؟

فسأل عبد المنعم أخاه أحمد:

ـ وأنت ماذا تعرف عنه حتّى لا تهرف بما لا تعرف؟

فقال أحمد بهدوء:

ـ أعرف أنّه دين، وحسبي ذٰلك، لا أومن بالأديان!. . .

فتساءل عبد المنعم مستنكرًا:

ـ ألديك برهان على بطلان الأديان؟

ـ ألديك أنت برهان على حقيقتها؟

فقال عبد المنعم وقد ارتفع صوته حتّى جعل الشابّ الذي يجلس بينه وبين أخيه يردّد رأسه بينهما كالمنزعج:

ـ عندي، وعند كلّ مؤمن، ولٰكن دعني أسألك أوّلًا كيف تعيش؟

ـ بإيماني الخاصّ، إيماني بالعلم والإنسانيّة وبالغد، وبما ألتزمه من واجبات ترمي في النهاية إلى تمهيد الأرض لبناء جديد.

ـ هدمت كلّ ما الإنسانُ إنسانٌ به. . .

ـ بل قل بقاء عقيدة أكثر من ألف سنة آية لا على قوّتها، ولٰكن على خطّة بعض بني الإنسان، ذٰلك ضدّ معنى الحياة المتجدّدة، ما يصلح لي وأنا طفل يجب أن أغيّره وأنا رجل، طالما كان الإنسان عبدًا للطبيعة والإنسان، وهو يقاوم عبوديّة الطبيعة بالعلم والاختراع، كما يقاوم عبوديّة الإنسان بالمذاهب التقدّميّة، ما عدا ذٰلك فهو نوع من الفرامل الضاغطة على عجلة الإنسانيّة الحرّة!

فقال عبد المنعم، وكان في تلك اللحظة يكره فكرة أخوّة أحمد له:

ـ الإلحاد سهل، حلّ سهل هروبيّ، هروبيّ من الواجبات التي يلتزمها المؤمن حيال ربّه ونفسه والناس، وليس من برهان على الإلحاد يمكن أن يُعَدّ أقوى من البرهان على الإيمان، فنحن لا نختار هٰذا أو ذاك بعقولنا بقدر ما نختاره بأخلاقنا. . .

وتدخّل رضوان قائلًا:

ـ لا تستسلما لعنف المناقشة، كان من الأفضل لكما كأخوين أن تكونا من حزب واحد. . .

وإذا حلمي عزّت يندفع قائلًا، وكان أحيانًا تعتريه نوبات ثائرة غامضة:

ـ إيمان. . . إنسانيّة. . . الغد!. كلام فارغ، النظام القائم على العِلْم وحده ينبغي أن يكون كلّ شيء، يجب أن نؤمن بشيء واحد هو استئصال الضعف البشريّ بكافّة أنواعه، ومهما بدا عِلْمنا قاسيًا، وذٰلك للوصول بالبشريّة إلى مثال قويّ نظيف!

ـ أهٰذه مبادئ الوفد الجديدة بعد المعاهدة!

فضحك حلمي عزّت ضحكة عادت به إلى حالته الطبيعيّة، وقال عنه رضوان:

ـ إنّه حقًّا وفديّ، ولٰكن تطوف به أحيانًا مذاهب طارئة غريبة فيدعو إلى القتل بالجملة، وربّما دلّ ذٰلك على أنّه لم ينم أمس نومًا مريحًا!

وكان لشدّة الخصام ردّ فعل فساد الصمت، فسُرّ بذٰلك رضوان، وسرّح بصره فيما حوله فراح يتابع بعض الحدأ المدوّمة في السماء، أو يرنو إلى أسراب النخيل، الكلّ يعلن رأيه حتّى ما يتهجّم به على الخالق، ولٰكنّه لا يسعه إلّا أن يكتم ما يضطرم في أعماق نفسه، وسيظلّ سرًّا مرعبًا يتهدّده، فهو كالمطارد، أو كالغريب، من الذي قسم البشر إلى طبيعيّ وشاذّ؟، وكيف تكون الخصم والحكم في آن؟، ولِمَ نهزأ كثيرًا بالتعساء؟. قال رضوان مخاطبًا عبد المنعم:

- لا تزعل، إنّ للدين ربًّا يحميه، أمّا أنت فبعد تسعة أشهر على الأكثر ستكون أبًا!.

- حقًّا...؟!

فقال أحمد مداعبًا أخاه ليمسح عنه آثار الحدّة:

- أهون عليّ أن أتعرّض لغضب الله من أن أتعرّض لغضبك!

ثمّ مضى أحمد يحدّث نفسه: غضب أم لم يغضب فسيجد عند عودته إلى السكّريّة صدرًا حانيًا، أمن المستحيل أن أعود يومًا فأجد علويّة صبري في الدور الأوّل بالسكّريّة؟

وندّت عنه ضحكة، ولكنّ أحدًا لم يخمّن السبب الحقيقيّ لضحكته...

٢١

بدا بيت عبد الرحيم باشا عيسى في حركة غير مألوفة، ففي الحديقة وقف أناس كثيرون، وفي الفراندا جلس آخرون، وكثر الداخل والخارج، فلكز حلمي عزّت ذراع رضوان ياسين وهما يقتربان من البيت، وقال له بارتياح:

- لسنا بلا أنصار كما تزعم جرائدهم...

وعندما أخذا يشقّان سبيلهما إلى الداخل، هتف بعض الشبّان «يحيا التضامن» فتورّد وجه رضوان تأثّرًا. كان متحمّسًا ثائرًا مثلهم، بيد أنّه ساءل نفسه في قلق: ترى ألا يشكّ أحد في الجانب غير السياسيّ من زياراته؟ وقد أفضى مرّة بمخاوفه إلى حلمي عزّت، فقال له: «إنّ الريبة لا تلحق إلّا بالخوّاف! سرْ مرفوع الرأس ثابت الأقدام، يجدر بالذين يعدّون أنفسهم للحياة العامّة ألّا يكترثوا لآراء الناس أكثر مما يجب». وكان بهو الاستقبال مكتظًّا بالجالسين، منهم طلبة وعمّال وبعض أعضاء الهيئة الوفديّة، وفي صدر المكان جلس عبد الرحيم باشا عيسى، متجهّمًا على غير عادته، جادًّا صارمًا، تكتنفه هالة الرجل السياسيّ الخطير، وتقدّما إليه فنهض لاستقبالهما في رزانة، وصافحهما ثمّ أشار لهما بالجلوس. وقال أحد الجالسين، وكان قد توقّف عن الحديث أثناء استقبال الشابّين:

- شدّ ما فوجئ الرأي العامّ وهو يطّلع على أسماء الوزراء الجدد، فلا يجد بينهم النقراشي!.

فقال عبد الرحيم باشا عيسى:

- توقّعنا عند الاستقالة أمرًا، خاصّة وأنّ الاختلاف كان قد ذاع حتّى تحدّثت به المقاهي، ولكنّ النقراشي ليس كغيره من أعضاء الوفد. لقد فصل الوفد من قبله كثيرين فلم تقم لهم قائمة، أمّا النقراشي فله شأن آخر، ولا تنسوا أنّ النقراشي معناه أحمد ماهر أيضًا، هما الوفد، الوفد المجاهد المناضل المحارب، سلوا المشانق والسجون والقنابل، وليس الخلاف هذه المرّة بالذي يشين الخارج، هي نزاهة الحكم، قضيّة القنابل، وإذا وقع المحذور وانشقّ الوفد، فالوفد هو الذي سيخرج لا النقراشي ولا ماهر!...

- لقد كشف مكرم عبيد عن وجهه أخيرًا...

ووقع هذا القول من أذني رضوان موقعًا غريبًا، فلم يكن ممّا يسهل تصديقه أن يهاجَم قطب الوفد بهذا الأسلوب في بيئة وفديّة صميمة، وإذا بآخر يقول:

- مكرم عبيد هو رأس هذا الشرّ كلّه يا سعادة الباشا...

فقال عبد الرحيم باشا:

- ليس الآخرون أصفارًا...

- لكنّه هو الذي لا يطيق منافسيه، إنّه يريد أن يستحوذ على النحّاس وحده دون شريك، وإذا خلا له الجوّ من ماهر والنقراشي فلن يقف في سبيله شيء...

- لو أمكنه إزالة النحّاس نفسه لأزاله...

فقال شيخ من الجلوس:

- أرجوكم، لا تسرفوا في القول، قد تعود المياه إلى مجاريها.

- بعد أن تألّفت الوزارة دون النقراشي؟

- كلّ شيء ممكن...

- كان من الممكن هذا على عهد سعد، أمّا النحّاس فرجل عنيد، وهو إذا ركب رأسه...

وهنا دخل البهو رجل مهرولًا، فاستقبله الباشا وسط المكان وتعانقا بحرارة والباشا يتساءل:

ـ متى عدت؟ كيف الحال في الإسكندريّة؟

ـ عال... عال، استُقبل النقراشي في محطّة سيدي جابر استقبالًا شعبيًّا منقطع النظير، هتفت له الجماهير المثقّفة من الأعماق، الجميع غاضبون، الكلّ ثائر لنزاهة الحكم، هتفوا: يحيا النقراشي النزيه.. يحيا النقراشي ابن سعد... وهتف كثيرون يحيا النقراشي زعيم الأمّة...

وكان الرجل يتكلّم بصوت مرتفع، فردّد هتافه كثيرون حتّى اضطرّ عبد الرحيم باشا أن يلوّح لهم داعيًا إلى التزام الهدوء. وعاد الرجل يقول:

ـ الرأي العامّ ساخط على الوزارة، غاضب لإخراج النقراشي منها، لقد خسر النحّاس خسارة لا تعوَّض، وارتضى أن يؤيّد الشيطان ضدّ الملاك الطاهر...

وهنا قال عبد الرحيم باشا:

ـ نحن الآن في أغسطس، وفي أكتوبر تفتح الجامعة، فليكن افتتاح الجامعة موقعة فاصلة، يجب أن نستعدّ منذ الآن للمظاهرات فإمّا أن يثوب النحّاس إلى رشده، وإمّا فليذهب إلى الهاوية...

فقال حلمي عزّت:

ـ أستطيع أن أؤكّد أنّ مظاهرات الجامعيّين ستتدفّق على بيت النقراشي...

فقال عبد الرحيم باشا:

ـ كلّ شيء يحتاج إلى التنظيم، اجتمعوا بأنصارنا من الطلبة وأعدّوا العدّة، وفضلًا عن هٰذا فإنّ الأخبار التي عندي تؤكّد أنّ كثرة لا تصدَّق من النوّاب والشيوخ سينضمّون إلينا...

ـ النقراشي هو خالق لجان الوفد، لا تنسوا ذٰلك، إنّ تلغرافات الولاء تتسابق إلى مكتبه صباح مساء...

وتساءل رضوان ماذا يحدث في الدنيا؟ ترى أينقسم الوفد مرّة أخرى؟ وهل يتحمّل مسئوليّة ذٰلك حقًّا مكرم عبيد؟، وهل تتّفق مصلحة الوطن وانقسام الحزب الذي نهض برسالته ثمانية عشر عامًا؟. وطال الأخذ والردّ، وبحث المجتمعون اقتراحات شتّى خاصّة بالدعاية وتدبير المظاهرات، ثمّ أخذوا في الانصراف حتّى لم يبق في البهو إلّا الباشا ورضوان وحلمي عزّت، وعند ذاك دعاهما للجلوس في الفراندا، فمضيا وراءه، وجلس ثلاثتهم حول منضدة، وسرعان ما حُملت إليهم أقداح الليمون، وما لبث أن تراءى عند الباب رجل في الأربعين، عرفه رضوان في بعض زياراته السابقة، يدعى عليّ مهران، يعمل وكيلًا للباشا، وكان منظره يوحي بما طُبع عليه من ميل للمزاح والمجون، وكان يصحب معه شابًّا في العشرين من عمره، جميل المُحَيّا، يبدو من منظر شعره الهائج وسوالفه الطويلة وربطة عنقه العريضة أنّه من أهل الفنّ. وقد أقبل عليّ مهران باسم الثغر فقبّل يد الباشا، وصافح الشابّين، ثمّ قدّم الشابّ قائلًا:

ـ الأستاذ عطيّة جودت، مُغَنٍّ ناشئ لكنّه موهوب، وقد سبق أن حدّثتك عنه يا معالي الباشا!

فلبس الباشا نظّارته التي كان وضعها على المنضدة، وتفحّص الشابّ بعناية، ثمّ قال باسمًا:

ـ أهلًا وسهلًا يا سي عطيّة، سمعت عنك كثيرًا، فلعلّنا نسمعك هٰذه المرّة...

فدعا للباشا باسمًا، ثمّ جلس، على حين مال عليّ مهران على الباشا وهو يقول:

ـ كيف حال عمّي؟

هٰكذا كان يخاطب الباشا إذا زالت دواعي الكلفة، وأجابه الرجل باسمًا:

ـ أحسن منك ألف مرّة!.

فقال عليّ مهران جادًّا على خلاف عادته:

ـ يتهامسون في بار الأنجلو عن وزارة قوميّة قريبة برياسة النقراشي!...

فابتسم الباشا ابتسامة سياسيّة وتمتم:

ـ لسنا من المستوزرين!...

وتساءل رضوان باهتمام وقلق:

ـ على أيّ أساس؟ طبعًا لا أستطيع أن أتصوّر أن يقوم النقراشي بانقلاب سياسيّ كمحمّد محمود أو إسماعيل صدقي؟!

فقال عليّ مهران:

ـ انقلاب! كلّا، المسألة تنحصر الآن في إقناع أكثريّة الشيوخ والنوّاب بالانضمام إلينا، ولا تنس أنّ الملك معنا، فعليّ ماهر يعمل بحكمة وأناة!

وعاد رضوان يتساءل في كآبة:

ـ أتكون في النهاية من رجال السراي؟

فقال عبد الرحيم باشا:

ـ العبارة واحدة، ولكنّ المعنى تغيّر، فاروق غير فؤاد، والظروف غير الظروف، الملك شابّ وطنيّ متحمّس، وهو مجنيّ عليه أمام هجمات النحّاس الجائرة!.

ففرك عليّ مهران يديه في حبور وهو يقول:

ـ ترى متى نهنّئ الباشا بالوزارة؟ وهل تختارني وكيلًا لوزارتك كما اخترتني وكيلًا لأعمالك؟

فقال الباشا ضاحكًا:

ـ بل أعيّنك مديرًا عامًّا للسجون، إنّ مكانك الطبيعيّ هو السجن.

ـ السجن؟. لكنّهم يقولون إنّ السجن للجدعان؟!

ـ ولغيرهم، فليطمئنّ بالك!

ثمّ ركبه الضجر فجأة فهتف:

ـ حَسْبنا سياسة، غيّروا الجوّ من فضلكم!...

والتفت نحو الأستاذ عطيّة متسائلًا:

ـ ماذا تُسمعنا؟

فأجاب عنه عليّ مهران:

ـ الباشا سمّيع وابن حظّ، وإذا رُقْتَ في نظره تفتّحت لك أبواب الإذاعة...

فقال عطيّة جودت برقّة:

ـ لحّنت أخيرًا أغنية «شبكوني وشبكوه» وهي من تأليف الأستاذ مهران!

فرمق الباشا وكيله، وسأله:

ـ منذ متى تؤلّف أغاني؟.

ـ ألم أجاور في الأزهر سبع سنوات، غرقت فيها في مفاعيل وفعلاتن؟

ـ وما للأزهر وأغانيك الخليعة؟، شبكوني وشبكوه! من هو يا حضرة المجاور؟

ـ المعنى يا معالي الباشا في ذقن الباشا!

ـ يا ابن الهرمة!...

ونادى عليّ مهران السفرجي، فسأله الباشا:

ـ لماذا تناديه؟

ـ ليهيّئ لنا مجلس الطرب!...

فقال الرجل وهو ينهض:

ـ انتظر حتّى أصلّي العشاء!...

فتساءل مهران باسمًا في خبث:

ـ ألم ينقض سلامنا وضوءك؟!.

٢٢

غادر أحمد عبد الجواد بيته، ناقلًا خطاه على مهل، متوكّئًا على عصاه، لم يعد اليوم كالأمس، فمنذ أن صفّى دكّانه لم يكن ليغادر بيته إلّا مرّة واحدة في اليوم، كي يعفي نفسه ما استطاع من الجهد الذي يتحمّله قلبه عند ارتقاء السلّم. ومع أنّ الوقت لم يعد سبتمبر إلّا أنّه رأى أن يرتدي الملابس الصوفيّة، إذ إنّ الجسم النحيل لم يعد يطيق الجوّ اللطيف الذي كان يمرح فيه الجسم البدين القويّ الذي كان. والعصا التي صاحبته منذ الصغر رمزًا للرجولة وآية على الأناقة باتت متوكّأه في مشيته المتمهّلة، التي لا يطيقها قلبه إلّا بجهد ومشقّة، ولكن بقي له رونقه وأناقته، فما زال يحرص على انتقاء الأزياء الفاخرة، ويتطيّب بالعطر الفوّاح متمتّعًا بجمال الشيخوخة ووقارها، وعندما اقترب من الدكّان مالت نحوه عيناه بحركة لا إراديّة. رُفعت اللافتة التي حملت اسمه واسم أبيه أعوامًا وأعوامًا، وتغيّر مظهر الدكّان ومخبره، فانقلب دكّان طرابيش للبيع والكيّ، وتقدّمه الوابور والقوالب النحاسيّة، وتخايلت لعينيه لافتة وهميّة، لم ترها عين سواه، عالنته بأنّ زمانه قد ولّى، زمان الجدّ والكفاح والمسرّات، وها هو في ركن المعاش ينزوي، يستدبر دنيا الآمال ويستقبل دنيا الشيخوخة والمرض والانتظار، وتقبّض القلب الذي طالما ـ وما زال ـ يهيم بحبّ الدنيا وأفراحها، حتّى إنّ الإيمان نفسه لم يكن في نظره إلّا مسرّة من مسرّاتها ودافعًا إلى أحضانها، فلم يعرف ـ حتّى اليوم ـ العبادة الزاهدة التي تدير الظهر للدنيا وتتطلّع إلى الآخرة وحدها. لم يعد الدكّان دكّانه ولكن كيف تمحى ذكراه من ذهنه وهو الذي كان مركز النشاط، ومحطّ الأنظار، وملتقى الأصحاب والأحباب، ومبعث العزّة والجاه؟. «ولك أن تعزّي نفسك فتقول: زوّجنا البنات، وربّينا الصبيان، ورأينا

الأحفاد، ولنا مال موفور يسترنا حتّى الموت، وذقنا حلو الدنيا سنين ـ سنين حقًّا؟ ـ وآن لنا أن نشكر، والشكر لله واجب، دائمًا أبدًا، ولٰكن آه من الحنين، وسامح الله الزمن، الزمن الذي مجرّد حياته ـ حياته التي لا تتوقّف لحظة ـ خيانة وأيّ خيانة للإنسان. لو أنّ الأحجار تنطق لسألت هٰذه الأماكن أن تحدّثني عن الماضي، لتخبرني أحقًّا كان هٰذا الجسم يهدّ الجبال؟، وهٰذا القلب المريض لا يكفّ عن الخفقان؟، وهٰذا الثغر لا يمسك عن الضحك؟، وهٰذا الشعور لا يعرف الألم؟، وهٰذه الصورة معلّقة في كلّ قلب؟ ومرّة أخرى سامح الله الزمن!».

وعندما انتهى به المسير الوئيد إلى جامع الحسين، خلع حذاءه ودخل وهو يتلو الفاتحة، ومضى إلى المنبر حيث وجد في انتظاره محمّد عفّت وإبراهيم الفار فصلّوا المغرب جميعًا، ثمّ غادروا المسجد متّجهين نحو الطمبكشيّة لزيارة عليّ عبد الرحيم، كان ثلاثتهم قد اعتزلوا العمل ليتفرّغوا لمقاومة الأمراض، غير أنّهم كانوا أحسن حالًا من عليّ عبد الرحيم الذي لم يعد بوسعه أن يفارق الفراش، وقال السيّد أحمد متنهّدًا:

ـ يخيّل إليّ أنّي عمّا قريب لن أستطيع الذهاب إلى الجامع إلّا راكبًا...

ـ الحال من بعضه...

فعاد الرجل يقول في قلق:

ـ شدّ ما أخاف أن أضطرّ إلى ملازمة الفراش كالسيّد عليّ، إنّي أدعو الله أن يكرمني بالموت قبل أن يدركني العجز...

ـ ربّنا يكفيك ويكفينا كلّ سوء...

فبدا كالخائف وهو يقول:

ـ غنيم حميدو لبث مشلولًا في الفراش زهاء العام، وصادق الماوردي عانى العذاب شهورًا، فاللّٰهمّ أكرمنا بالنهاية السريعة إذا حمّ القضاء.

فضحك محمّد عفّت قائلًا:

ـ إذا غلبتك الأفكار السوداء انقلبتَ امرأة، وحّد الله يا أخي!...

ولّما بلغوا بيت عليّ عبد الرحيم أدخلوا إلى حجرته، فبادرهم يقول في جزع:

ـ تأخّرتم عن ميعادكم، سامحكم الله...

بانَ ضجر الرقاد في عينيه، فلم يعد يعرف الابتسام إلّا ساعة اجتماعه بهم، وجعل يقول:

ـ لا عمل لي طول اليوم إلّا الاستماع إلى الراديو، ماذا كنت أصنع لو تأخّر استعماله في مصر حتّى اليوم! كلّ ما يذيعه يطيب لي حتّى المحاضرات التي لا أكاد أفهمها، ومع ذٰلك فلم نكبر إلى الحدّ الذي يستوجب هٰذا العذاب، أجدادنا كانوا يتزوّجون في مثل أعمارنا!...

فغلبت روح الفكاهة أحمد عبد الجواد، فقال:

ـ فكرة! ما رأيكم في أن نتزوّج من جديد، لعلّ ذٰلك يجدّد شبابنا وينفض عنّا الأمراض؟!.

فابتسم عليّ عبد الرحيم ـ كان يتجنّب الضحك أن تدركه نوبة السعال فتؤذي قلبه ـ وقال:

ـ معكم! اختاروا لي عروسًا، ولٰكن صارحوها بأنّ العريس لا يستطيع الحركة، وعليها الباقي...

وهنا خاطبه الفار وكأنّما تذكّر أمرًا فجأة:

ـ أحمد عبد الجواد سيسبقك إلى رؤية وليد حفيدته، ربّنا يمدّ في عمره!.

ـ مبارك مقدّمًا يا بن عبد الجواد!...

ولٰكنّ السيّد أحمد تجهّم قائلًا:

ـ نعيمة حبلى حقًّا ولٰكنّي غير مطمئنّ، ما زلت أذكر ما قيل عن قلبها يوم مولدها، طالما حاولت أن أنسى ذٰلك عبثًا...

ـ يا لك من رجل جاحد! منذ متى تؤمن بنبوءات الأطبّاء؟...

فضحك السيّد أحمد قائلًا:

ـ منذ باتت اللقمة التي أتناولها على غير مشورتهم تؤرّقني حتّى مطلع الفجر...

فتساءل عليّ عبد الرحيم:

ـ ورحمة ربّنا؟!...

ـ الحمد لله ربّ العالمين.

ثمّ مستدركًا:

ـ لست بالغافل عن رحمة الله، ولٰكنّ الخوف يبعث على الخوف، والحقّ فإنّ نعيمة لا تهمّني بقدر ما تهمّني عائشة يا عليّ، عائشة هي مركز القلق في حياتي،

التعيسة المسكينة، سأتركها إذا تركتها وحيدة في هٰذه الدنيا. . .

فقال إبراهيم الفار:

ـ ربّنا موجود، وهو الراعي الأكبر. . .

وساد الصمت مليًّا، حتّى قطعه صوت عليّ عبد الرحيم قائلًا:

ـ وسيأتي دوري بعدك في رؤية وليد حفيدتي. . .

فضحك السيّد أحمد قائلًا:

ـ سامح الله البنات، فإنّهنّ يكبّرن أهلهنّ قبل الأوان.

فهتف محمّد عفّت:

ـ يا عجوزا اعترفْ بالكبر وكفاكَ مكابرة. . .

ـ لا ترفع صوتك خشية أن يسمعك قلبي فيسوق العوج، أصبح قلبي كالطفل المدلّل. . .

فقال إبراهيم الفار وهو يهزّ رأسه أسفًا:

ـ يا له من عام ذٰلك العام الماضي، كان علينا شديدًا، فما ترك واحدًا منّا سليمًا كأنّنا كنّا على ميعاد!.

ـ على رأي عبد الوهاب: لنعيش سوا لنموت سوا. . .

فضحكوا معًا، وإذا بعليّ عبد الرحيم يغيّر لهجته ويتساءل جادًّا:

ـ أهٰذا يصحّ؟ أعني ما فعله النقراشي؟

فتجهّم وجه أحمد عبد الجواد وقال:

ـ كم أملنا أن تعود المياه إلى مجاريها، أستغفر الله العظيم. . .

ـ أخوّة الجهاد والعمر ضاعت هباء!.

ـ في هٰذا الزمن كلّ جميل يضيع هباء. . .

وعاد أحمد عبد الجواد يقول:

ـ لم أحزن لشيء كما حزنت لخروج النقراشي، ما كان ينبغي أن يذهب به الخصام إلى هٰذا الحدّ. . .

ـ ترى ما هي النهاية التي تنتظره؟

ـ النهاية المحتومة، أين الباسل والشمسي؟. لقد قضى الرجل المجاهد على نفسه وأخذ في رجليه أحمد ماهر.

وهنا قال محمّد عفّت متنرفزًا:

ـ دعونا من هٰذه السيرة!. أنا أكاد أطلّق السياسة!.

وخطر للفار خاطر، فتساءل باسمًا:

ـ لو اضطررنا ـ لا سمح الله ـ إلى ملازمة الفراش كالسيّد عليّ، فكيف نتقابل ونتحادث؟

فتمتم محمّد عفّت:

ـ فال الله ولا فالك. . .

فضحك أحمد عبد الجواد وقال:

ـ لو وقع المحذور نتخاطب بالراديو، كما يخاطب بابا «سخام» الأطفال!. . .

وضحكوا جميعًا، وأخرج محمّد عفّت ساعته ونظر فيها، ولٰكنّ عليّ عبد الرحيم جزع وقال:

ـ ستبقون معي حتّى يحضر الطبيب لتسمعوا ماذا يقول، ملعون أبوه، وأبو أيّامه. . .

٢٣

كانت الغوريّة تغلق أبوابها، فقلّت السابلة واشتدّت البرودة، وكان الزمن في أواسط ديسمبر، ولٰكنّ الشتاء جاء متعجّلًا هٰذا العام. ولم يكن كمال قد وجد صعوبة في جذب رياض قلدس إلى حيّ الحسين، أجل كان الشابّ غريبًا عن الحيّ، ولٰكنّه وجد من نفسه شوقًا للتقلّب في أنحائه، والجلوس في مقاهيه. وكان قد مضى على تعارفهما في مجلّة الفكر أكثر من عام ونصف عام، لم يمرّ أسبوع خلاله دون أن يتقابلا مرّة أو مرّتين، بخلاف العطلة التي تجمع بينهما كلّ مساء على وجه التقريب في مجلّة الفكر، أو بيت بين القصرين، أو بيت رياض بمنشيّة البكري، أو مقاهي عماد الدين، أو قهوة الحسين الكبرى التي لجأ إليها كمال بعد أن أتت المعاول على قهوة أحمد عبده التاريخيّة فمحتها من الوجود إلى الأبد. كانا سعيدين بصداقتهما، وقد قال كمال لنفسه مرّة «جعلت أفتقد حسين شدّاد أعوامًا، وظلّ مكانه شاغرًا، حتّى ملأه رياض قلدس» ففي محضره تستيقظ روحه وتستشعر ذٰلك الانبثاق الذي يبلغ نشوته في عناق الفكر المتبادَل، هٰذا على الرغم من أنّهما لم يكونا شيئًا واحدًا، وإن كانا متكاملين فيما بدا. وظلّت صداقتهما شعورًا متبادلًا في صمت، لم ينوّها به، فلم يقل أحدهما للآخر

«أنت الصديق» ولا قال له «لا أتصوّر الحياة بدونك» ولٰكن كان ذٰلك كذٰلك، وعلى برودة الجوّ لم تفتر رغبتهما في السير، فقرّرا أن يسيرا على الأقدام حتّى قهوة عماد الدين. ولم يكن رياض قلدس سعيدًا ذٰلك المساء، كان يقول بانفعال شديد:

ـ انتهت الأزمة الدستوريّة بهزيمة الشعب، فليست إقالة النحّاس إلّا هزيمة للشعب في نضاله التاريخيّ مع السراي...

فقال كمال في أسف:

ـ ثبت الآن أنّ فاروق كأبيه...

ـ فاروق ليس المسئول وحده، ولٰكن دبّرها أعداء الشعب التقليديّون، فهٰذه يد عليّ ماهر ومحمّد محمود، ومن المبكي أن ينضمّ إلى أعداء الشعب اثنان من أبنائه، ماهر والنقراشي، ولو تطهّر الوطن من الخونة لما وجد الملك مَن يمكّنه من هضم حقوق الشعب...

ثمّ استطرد بعد صمت قليل:

ـ ليس الإنجليز اليوم في الميدان، ولٰكنّ الشعب والملك وجهًا لوجه، الاستقلال ليس كلّ شيء، هنالك حقّ الشعب المقدّس في أن يتمتّع بسيادته وحقوقه، ليحيا حياة الإنسان لا حياة العبيد...

لم يكن كمال غارقًا في السياسة كرياض، أجل لم يستطع الشكّ أن يدمّرها فيما دمّر فلبثت حيّة في عواطفه، كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه، وإن كان عقله لا يدري أين المفرّ. عقله يقول حينًا «حقوق الإنسان» وحينًا آخر يقول «بل البقاء للأصلح وما الجماهير إلّا قطيع» وربّما قال «والشيوعيّة أليست تجربة جديرة بالاختبار؟». أمّا قلبه فلم يتخلّص من عواطفه الشعبيّة التي صاحبته منذ صباه ممتزجة بذكرى فهمي، أمّا رياض فكانت السياسة جوهرًا أصيلًا في نشاطه الذهنيّ. وعاد رياض يقول:

ـ أيمكن أن ننسى الإهانة التي تلقّاها مكرم في ميدان عابدين؟. وهٰذه الإقالة المجرمة، سبّ وقذف وبصقة في وجه الأمّة؟. والحقد الأعمى يجعل البعض يهلّلون، واحسرتاه...

فقال كمال مداعبًا:

ـ أنت غاضب لمكرم!.

فقال رياض دون تردّد:

ـ إنّ الأقباط جميعًا وفديّون، ذٰلك أنّ الوفد حزب القوميّة الخالصة، ليس حزبًا دينيًّا تركيًّا كالحزب الوطنيّ، ولٰكنّه حزب القوميّة التي تجعل مصر وطنًا حرًّا للمصريّين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، أعداء الشعب يعلمون ذٰلك، ولذٰلك كان الأقباط هدفًا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقي، وسيعانون ذٰلك منذ اليوم...

ورحّب كمال بهٰذه الصراحة التي تشهد لصداقتهما بالكمال، غير أنّه راق له أن يتساءل في دعابة:

ـ ها أنت تتحدّث عن الأقباط!. أنت الذي لا يؤمن إلّا بالعلم والفنّ!...

فلاذ رياض بالصمت. وكانا قد بلغا شارع الأزهر حيث يتدافع الهواء البارد في شيء من العنف. ثمّ مرّا في طريقهما بدكّان بسبوسة فدعاه كمال إلى تناول شيء منها، وما لبث أن أخذ كلّ منهما طبقًا صغيرًا وانتحيا ناحية يأكلان، وعند ذٰلك قال رياض:

ـ إنّي حُرّ وقبطيّ في آن، بل إنّي لا دينيّ وقبطيّ معًا، أشعر في أحايين كثيرة بأنّ المسيحيّة وطني لا ديني، وربّما إذا عرضتُ هٰذا الشعور على عقلي اضطربت. ولٰكن مهلًا، أليس من الجبن أن أنسى قومي؟. شيء واحد خليق بأن ينسيني هٰذا التنازع، ألا وهو الفناء في القوميّة المصريّة الخالصة كما أرادها سعد زغلول، إنّ النحّاس مسلم دينًا، ولٰكنّه قوميّ بكلّ معنى الكلمة أيضًا، فلا نشعر حياله إلّا بأنّنا مصريّون لا مسلم ولا قبطيّ، بوسعي أن أعيش سعيدًا دون أن أكدّر صفوي بهٰذه الأفكار، ولٰكنّ الحياة الحقّة مسئوليّة في الوقت نفسه.

كان كمال يتمطّق ويفكّر وصدره يجيش بالعواطف، كانت سحنة رياض المصريّة الصميمة التي تذكّره بالصور الفرعونيّة تثير تأمّلات شتّى في نفسه. «إنّ موقف رياض له وجاهته التي لا تجحد، وأنا نفسي ـ بين عقلي وقلبي ـ شخص يعاني انقسام الشخصيّة، فكذٰلك هو، كيف يتأتّى لأقلّيّة أن تعيش وسط أغلبيّة تضطهدها؟ وجدارة الرسالات السامية تقاس عادة بما تحقّقه من سعادة للبشر تتمثّل أوّل ما تتمثّل في الأخذ

بيد المضطهدين». قال:

- لا تؤاخذني، فقد عشت حتّى الآن دون أن أصطدم بمشكلة العنصريّة، فمنذ البدء لقّنتني أمّي أن أحبّ الجميع، ثمّ شببت في جوّ الثورة المطهّر من شوائب التعصّب، فلم أعرف هٰذه المشكلة.

فقال رياض وهما يستأنفان المسير:

- المرجوّ ألّا تكون ثمّة مشكلة على الإطلاق، يؤسفني أن أصارحك بأنّنا نشأنا في بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة، لست متعصّبًا، ولٰكنّ مَن يستهين بحقّ إنسان في أقصى الأرض - لا في بيته - فقد استهان بحقوق الإنسانيّة جميعًا...

- جميل هٰذا القول، لا عجب أنّ رسالات الإنسانيّة الحقّة كثيرًا ما تنبعث من أوساط الأقلّيّة، أو من رجال مشغولي الضمائر بالأقلّيّات البشريّة، ولٰكن ثمّة متعصّبون دائمًا...

- دائمًا وفي كلّ مكان، الإنسان حديث والحيوان قديم، وهم عندكم يعتبروننا كفّارًا ملاعين، وهم عندنا يعتبرونكم كفّارًا مغتصبين، ويقولون عن أنفسهم إنّهم سلالة من ملوك مصر الذين استطاعوا أن يحافظوا على دينهم بدفع الجزية...

فضحك كمال ضحكة عالية، وقال:

- هٰذا قولنا وذاك قولكم، ترى الأصل في هٰذا الخلاف الدين أم الطبيعة البشريّة المتطلّعة أبدًا إلى الخصام؟!، لا المسلمون على وفاق، ولا المسيحيّون على وفاق، وستجد نزاعًا مستمرًّا بين الشيعيّ والسنّيّ، وبين الحجازيّ والعراقيّ، كالذي بين الوفديّ والدستوريّ، وطالب الآداب وطالب العلوم، والنادي الأهليّ والترسانة، ولٰكن رغم ذٰلك كلّه فشدّ ما نحزن إذا ما طالعنا في الصحف خبر زلزال باليابان! اسمع، لماذا لا تعالج ذٰلك في قصصك؟

- مشكلة الأقباط والمسلمين...

فصمت رياض قلدس مليًّا، ثمّ قال:

- أخاف سوء الفهم...

ثمّ مستطردًا بعد فترة صمت أخرى:

- ثمّ لا تنس أنّنا رغم كلّ شيء في عصرنا الذهبيّ، كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح في الماضي أن يصنع المسلمون من جلودنا أحذيتهم...

- وكيف نستأصل هٰذه المشكلة من جذورها؟

- من حسن الحظّ أنّها ذابت في مشكلة الشعب كلّه، مشكلة الأقباط اليوم هي مشكلة الشعب، إذا اضطهد اضطهدنا وإذا تحرّر تحرّرنا...

«السعادة والسلام... ذٰلك الحلم المنشود، قلبك يحيا بالحبّ وحده، فمتى يعرف عقلي سبيله؟ متى أقول بلهجة ابن أختي عبد المنعم «نعم. نعم»، إنّ صداقتي لرياض علّمتني كيف أقرأ قصصه، ولٰكن كيف أومن بالفنّ، في الوقت الذي وجدت الفلسفة نفسها قصورًا غير صالحة للسكنى؟».

وسأله رياض فجأة، وهو يسترق إليه النظر:

- فيم تفكّر الآن؟... أصدقني!

وفطن إلى ما وراء سؤاله، فأجابه بصراحة:

- كنت أفكّر في قصصك.

- ألم تتألّم لصراحتي؟

- أنا، سامحك الله...

فضحك كالمعتذر، ثمّ سأل:

- أقرأت قصّتي الأخيرة؟

- نعم، وهي لطيفة، ولٰكن يخيّل إليّ أنّ الفنّ نشاط غير جدّيّ، مع ملاحظة أيّهما أخطر في حياة الإنسانيّة: الجدّ أم اللهو؟!، أنت مثقّف ثقافة علميّة عالية، ولعلّك أدرى «غير العلماء» بالعلم، ولٰكنّ نشاطك كلّه يضيع في كتابة القصص وإنّي لأتساءل أحيانًا: ماذا أفدت من العلم؟

فقال رياض قلدس في حماسة:

- أخذت من العلم للفنّ عبادة الحقيقة، والإخلاص لها، ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرّة، والنزاهة في الحكم، والتسامح الشامل مع المخلوقات...

كلمات ضخمة، ولٰكن ما علاقتها بملهاة القصص؟ ونظر رياض قلدس إليه، فقرأ الشكّ في وجهه، فضحك عاليًا ثمّ قال:

- أنت تسيء الظنّ بالفنّ، ولٰكنّ عزائي أنّ شيئًا في الدنيا لا يمكن أن يسلم من شكّك، نحن نرى بعقولنا ولٰكنّنا نعيش بقلوبنا، أنت مثلًا - رغم موقفك

الشكليّ ـ تحبّ وتتعامل وتشارك مشاركة ما في حياة بلدك السياسيّة، ووراء كلّ ناحية من هٰذه النواحي مبدأ شعوريّ أو لا شعوريّ لا يقلّ عن الإيمان قوّة، الفنّ هو المعبّر عن عالم الإنسان، وإلى هٰذا فمن الأدباء مَن أسهم بفنّه في معركة الآراء العالميّة، فانقلب الفنّ على يديه عدّة من عُدد الكفاح في ميدان الجهاد العالميّ، لا يمكن أن يكون الفنّ نشاطًا غير جدّيّ...

دفاع عن الفنّ أم عن قيمة الفنّان؟. لو أنّ لبائع اللبّ قدرة على الجدل لدلّل أنّه يلعب دورًا خطيرًا في حياة البشر، ولا يبعد أن يكون لكلّ شيء قيمة ذاتيّة، ولا يبعد كذٰلك ألّا يكون لشيء قيمة ألبتّة، كم مليونًا من البشر يلفظون أنفاسهم في هٰذه اللحظة؟! في الوقت نفسه يرتفع صوت طفل بالبكاء على فَقْد لعبة، أو صوت عاشق يبثّ الليل والكون متاعب قلبه، أأضحك أم أبكي؟. قال:

ـ لمناسبة ما قلت عن معركة الآراء العالميّة، دعني أخبرك بأنّها تنعكس على صورة مصغّرة في أسرتنا، لي ابن أخت من الإخوان، والآخر من الشيوعيّين!

ـ ينبغي أن يكون لها صورة في كلّ بيت، عاجلًا أو آجلًا، لم نعد نعيش في قمقم، وأنت ألم تفكّر في هٰذه الأمور؟

ـ قرأت عن الشيوعيّة ضمن دراستي للفلسفة المادّيّة، كما قرأت كتبًا عن الفاشستيّة والنازيّة...

ـ تقرأ وتفهم، مؤرّخ بلا تاريخ، أرجو أن تعدّ يوم خروجك من هٰذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد.

فاستاء كمال لهٰذه الملاحظة، لأنّها نقد لاذع من ناحية، ولأنّها لا تخلو من حقّ من ناحية أخرى، ثمّ قال متهرّبًا من التعقيب عليها:

ـ كلٌّ من الشيوعيّ والإخوانيّ في أسرتنا على غير علم مكين بما يؤمن به!.

ـ الإيمان إرادة لا علم، إنّ أتفه مسيحيّ اليوم يعرف عن المسيحيّة أضعاف ما عرف الشهداء، كذٰلك عندكم في الإسلام...

ـ وهل تؤمن بمذهب من هٰذه المذاهب؟

ـ لا شكّ في احتقاري للفاشيّة والنازيّة وكافّة النظم الديكتاتوريّة، أمّا الشيوعيّة فخليقة بأن تخلق عالمًا خاليًا من مآسي الخلافات العنصريّة والدينيّة والمنازعات الطبقيّة، بيد أنّ الاهتمام الأوّل مركّز في فنّي...

فقال كمال وكان في صوته دعابة:

ـ ولٰكنّ الإسلام قد خلق هٰذا العالم الذي تتحدّث عنه منذ أكثر من ألف عام...

ـ لٰكنّه دين، الشيوعيّة علم أمّا الدين فأسطورة...

ثمّ مستدركًا وهو يبتسم:

ـ ونحن نتعامل مع المسلمين لا الإسلام...

وجدا شارع فؤاد كثير الزحام رغم شدّة البرودة، فتوقّف رياض فجأة وهو يتساءل:

ـ ما رأيك في عشاء من المكرونة والنبيذ الجيّد؟

ـ لا أشرب في الأماكن الماهولة، فلنذهب إلى قهوة عكاشة إذا شئت...

فضحك رياض قلدس قائلًا:

ـ كيف تطيق هٰذا الوقار كلّه؟ نظّارة وشارب وتقاليد! حرّرت عقلك من كلّ قيد، أمّا جسمك فكلّه قيود، أنت خلقت ـ بجسمك على الأقلّ ـ لتكون مدرّسًا...

وذكّره تنويه رياض بجسمه بحادثة أليمة، فقد اشترك في حفل ميلاد أحد زملائه، وشربوا جميعًا حتّى سكروا، وهناك حمّل أحدهم عليه معرّضًا برأسه وأنفه حتّى أضحك الجميع. وإذ ذكر أنفه أو رأسه فقد ذكر عايدة، وتلك الأيّام، عايدة خالقة أنفه ورأسه، ومن عجب أن يغيض الحبّ فيمسي لا شيء، ثمّ تبقى هٰذه الرواسب المؤلمة...

وجذبه رياض من ذراعه وهو يقول:

ـ هلمّ نشرب نبيذًا ونتحدّث عن فنّ القصّة، ثمّ نذهب بعد ذٰلك إلى بيت الستّ جليلة بعطفة الجوهريّ، وإذا كنت تقول لها يا عمّتي، فسأقول لها يا خالتي...

٢٤

كانت السكّريّة في شأن، أو بمعنى أصحّ هٰكذا

كانت شقّة عبد المنعم شوكت، ففي حجرة النوم اجتمعت حول فراش نعيمة أمينة وخديجة وعائشة وزنّوبة والحكيمة المولّدة، أمّا في حجرة الاستقبال فقد جلس مع عبد المنعم والده إبراهيم وأخوه أحمد وياسين وكمال، وكان ياسين يداعب عبد المنعم قائلًا:

ـ اعمل حسابك أن تكون الولادة القادمة في غير هٰذا الوقت الذي تستعدّ فيه للامتحان...

كانوا في أواخر إبريل، وكان عبد المنعم متعبًا بقدر ما كان مبتهجًا، بقدر ما كان قلقًا. وكان صوت الطلق يترامى من وراء الباب المغلق حادًّا يحمل كلّ معاني الألم، فقال عبد المنعم:

ـ إنّ الحمل أتعبها جدًّا، وبلغ بها درجة من الضعف لا يتصوّرها عقل، وكأنّ وجهها لم تعد به نقطة دم واحدة...

فتجشّأ ياسين في ارتياح، ثمّ قال:

ـ هٰذه أمور عاديّة، وكلّهنّ سواء...

وقال كمال باسمًا:

ـ ما زلت أذكر ولادة نعيمة، كانت ولادة عسيرة عانت منها عائشة ما عانت، وكنت متألّمًا، وكنت واقفًا في هٰذا المكان مع المرحوم خليل...

فتساءل عبد المنعم:

ـ هل أفهم من هٰذا أنّ عسر الولادة وراثيّ؟

فقال ياسين وهو يشير بأصبعه إلى فوق:

ـ عنده اليسر...

فقال عبد المنعم:

ـ جئنا بحكيمة معروفة في الحيّ كلّه، كانت أمّي تفضّل إحضار الداية التي ولّدتها، ولكنّي أصررت على الحكيمة، فهي أنظف وأمهر بلا ريب.

فقال ياسين:

ـ طبعًا، ولو أنّ الولادة بجملتها بأمر الله وعنايته.

فقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

ـ جاءها الطلق في الصباح الباكر، والساعة تدور الآن في الخامسة مساء، مسكينة، إنّها رقيقة كالخيال، ربّنا يأخذ بيدها.

ثمّ وهو يردّد عينيه الخاملتين في الجالسين عامّة، وابنيه عبد المنعم وأحمد خاصّة:

ـ آه لو تذكر الآلام التي تتحمّلها الأمّ!

فقال أحمد ضاحكًا:

ـ كيف تطالب الجنين بأن يتذكّر يا بابا؟

فقال الرجل موبّخًا:

ـ إذا أردت أن تعترف بالجميل فلا تعتمد على الذاكرة وحدها...

وانقطع الطلق، وخيّم على الحجرة المغلقة السكون فاتّجهت الرءوس إليها، ومرّت فترة فنفد صبر عبد المنعم فقام ماضيًا إلى الباب ونقره، ففُتح ربع فتحة عن وجه خديجة المكتنز، فطالعها بعينين متسائلتين، وهمّ بإدخال رأسه، ولٰكنّها صدّته براحتيها وهي تقول:

ـ لم يأذن الله بالفرج بعد...

ـ طال الوقت، ألا يكون طلقًا كاذبًا؟

ـ الحكيمة أدرى بذٰلك منّا، اطمئنّ وادعُ لنا بالفرج...

وأغلقت الباب، فعاد الشابّ إلى مجلسه بجوار أبيه الذي علّق على قلقه بقوله:

ـ اعذروه فإنّه محدث ولادة.

وأراد كمال أن يتسلّى، فأخرج من جيبه جريدة البلاغ حيث كانت مطويّة فيه وراح يتفحّصها، فقال أحمد:

ـ أعلنت في الراديو النتائج الأخيرة للمعركة الانتخابيّة... (ثمّ وهو يبتسم في سخرية)... ويا لها من نتائج مضحكة!...

فتساءل والده دون اكتراث:

ـ ما مجموع الناجحين من الوفديّين؟

ـ ثلاثة عشر على ما أذكر!

ثمّ قال أحمد موجّهًا خطابه إلى خاله ياسين:

ـ لعلّك مسرور يا خالي إكرامًا لسرور رضوان!؟.

فقال ياسين وهو يهزّ منكبيه باستهانة:

ـ لا هو وزير ولا هو نائب، فماذا يهمّني من الأمر كلّه؟

وقال إبراهيم شوكت ضاحكًا:

ـ كان الوفديّون يظنّون أنّ عهد الانتخابات المزوّرة قد انتهى، ولٰكنّ شهاب الدين أضرط من أخيه!...

فقال أحمد في امتعاض:

ـ الظاهر أنّ الاستثناء هو القاعدة في مصر!

ـ حتّى النحّاس ومكرم قد سقطا في الانتخابات، أليس هٰذا هزلًا؟

وهنا قال إبراهيم شوكت في شيء من الحدّة:

ـ لٰكن لا ينكر أحد أنّهما أساءا الأدب حيال الملك، إنّ للملوك مقامهم، وليس على ذٰلك النحو تساس الأمور...

فقال أحمد:

ـ إنّ بلادنا في حاجة إلى جرعات قويّة من قلّة الأدب حيال الملوك، حتّى تفيق من إغمائها الطويل...

فقال كمال:

ـ ولٰكنّ الكلاب يعيدونها إلى الحكم المطلق، تحت ستار برلمان مزيّف، وفي نهاية التجربة ستجد فاروق في قوّة فؤاد واستبداده أو أشدّ، كلّ هٰذا يُرتكب بأيدي بعض أبناء الوطن...

فضحك ياسين، وقال وكأنّه يفسّر ويوضّح:

ـ كمال ولو أنّه كان على صباه من محبّي الإنجليز كشاهين وعدلي وثروت وحيدر، إلّا أنّه انقلب وفديًّا بعد ذٰلك...

فقال كمال جادًّا، وهو ينظر إلى أحمد خاصّة:

ـ انتخابات مزوّرة، كلّ شخص في البلد يعلم بأنّها مزوّرة، ومع ذٰلك يُعترف بها رسميًّا وتُحكم بها البلاد، ويعني هٰذا أن يستقرّ في ضمير الشعب أنّ نوّابه لصوص سرقوا كراسيّهم، وأنّ وزراءه لصوص سرقوا بالتالي مناصبهم، وأنّ سلطاته وحكومته مزيّفة مزوّرة، وأنّ السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميًّا، أفلا يُعذر الرجل العاديّ إذا كفر بالمبادئ والخلق وآمن بالزيف والانتهازيّة؟

فقال أحمد متحمّسًا:

ـ دعهم يحكمون، في كلّ شرّ جانب خير، ومن الأفضل لشعبنا أن يسام الخسف من أن يُخدّر بحكم يحبّه ويثق به دون أن يحقّق له ـ هٰذا الحكم ـ آماله الحقيقيّة، طالما فكّرت في هٰذا حتّى انقلبت أرحّب بحكم الطغاة من أمثال محمّد محمود وإسماعيل صدقي...

ولاحظ كمال أنّ عبد المنعم لا يشترك في الحديث كعادته، فأراد أن يجرّه إليه فقال:

ـ لماذا لا تحدّثنا عن رأيك؟

فابتسم عبد المنعم ابتسامة لا معنى لها، وقال:

ـ دعني اليوم أستمع...

فضحك ياسين قائلًا:

ـ فرْفِشْ حتّى لا يجدك المولود واجمًا، فيفكّر في العودة من حيث أتى...

وندّت عن ياسين حركة أدرك كمال منها أنّه يهمّ بانتحال عذر للذهاب، أجل جاء وقت القهوة، ونظام «السهر» عنده لا يمكن أن يغيّره شيء، وفكّر كمال في الخروج معه حيث لا ضرورة لوجوده، وجعل يراقبه متوثّبًا، وإذا بصرخة تنطلق من حجرة نعيمة عنيفة قاسية تحمل في طيّاتها أنغام الأعماق البشريّة، وتتابعت الصرخات في عنف، وتطلّعت الأعين نحو باب الحجرة، وساد بينهم صمت، حتّى همس إبراهيم في رجاء:

ـ لعلّه الطلق الأخير إن شاء الله...

حقًّا؟ بيد أنّه تواصل حتّى وجموا، وامتقع لون عبد المنعم، ثمّ عاد الصمت مرّة أخرى ولٰكن إلى حين، ورجع الطلق ولٰكنّه كان خواء، تقذف به حنجرة بُحّت وصدر تصدّع فكأنّه النزع. ودلّت حال عبد المنعم على أنّه في حاجة إلى تشجيع، فقال له ياسين:

ـ كلّ ما تسمع أحوال مألوفة في الولادة العسيرة...

فقال عبد المنعم بصوت متهدّج:

ـ العسيرة! العسيرة! ولٰكن لماذا كانت عسيرة؟

وفُتح الباب فخرجت زنّوبة ثمّ أغلقته، فتطلّعوا إليها، فاقتربت حتّى وقفت أمام ياسين وقالت:

ـ كلّ شيء على ما يرام، غير أنّ الحكيمة زيادة في الحيطة ترجو أن تحضروا الدكتور سيّد محمّد...

فوقف عبد المنعم قائلًا:

ـ لا شكّ أنّ الحال استوجبت إحضاره، خبّريني عمّا بها؟

فقالت زنّوبة بصوت هادئ مؤكّد:

- كلّ شيء على ما يرام، وإذا أردت أن تزيدنا اطمئنانًا فأسرع في إحضار الطبيب...

ولم يُضِعْ عبد المنعم وقته فمضى إلى حجرته ليستكمل ملابسه، ومضى في أثره احمد، ثمّ خرجا معًا ليأتيا بالدكتور، وعند ذاك قال ياسين:

- ماذا هناك؟

فقالت زنّوبة، وقد نمّ وجهها لأوّل مرّة عن قلق:

- تعبانة المسكينة كان الله في عونها.

- والحكيمة ألم تقل شيئًا؟

فقالت زنّوبة بتسليم:

- قالت إنّها تريد الدكتور...

وعادت زنّوبة إلى الحجرة تاركة وراءها ظلًّا ثقيلًا من القلق...

تساءل ياسين:

- أهٰذا الطبيب بعيد؟

فأجابه إبراهيم شوكت:

- في العمارة التي فوق قهوتك بالعتبة.

ودوّت صرخة فانعقدت الألسن، هل عاد الطلق الأليم؟ ومتى يحضر الطبيب، ودوّت الصرخة مرّة أخرى، فازداد التوتّر، وإذا بياسين يهتف مرتاعًا:

- هٰذا صوت عائشة!

فأرهفوا السمع، وعرفوا صوت عائشة، فقام إبراهيم في الحجرة ونقر الباب، ففتحت زنّوبة بوجه باهت، سألها بلهفة:

- ما لكم؟ مال عائشة هانم؟ أليس من المستحسن أن تغادر الحجرة؟...

فقالت زنّوبة وهي تزدرد ريقها:

- كلّا... الحال شديدة يا سي إبراهيم.

- ماذا حدث؟!

- فجأة، إنّها.. انظر...

في أقلّ من ثانية كان الرجال الثلاثة على باب الحجرة ينظرون. كانت نعيمة مغطّاة حتّى الصدر، خالتها وجدّتها والحكيمة حولها في الفراش، أمّها واقفة وسط الحجرة تحملق في بنتها من بعيد بعينين زائغتين وكأنّها فقدت الوعي، وكانت نعيمة مغمضة العينين، صدرها يعلو وينخفض كأنّما قد أفلت زمامه من بقيّة الجسد الساكن، أمّا الوجه فأبيض باهت كالموت. هتفت الحكيمة: «الدكتور!». وجعلت أمينة تهتف: «يا ربّ!» وخديجة تنادي بصوت مذعور «نعيمة ردّي عليّ»، أمّا عائشة فلم تنطق كأنّ الأمر لا يعنيها في شيء. تساءل كمال «ماذا هنالك؟» وسأل أخاه في ذهول: «ماذا هنالك؟» ولٰكنّه لم يجبه، أيّ ولادة عسيرة؟!، ودار بصره بعائشة وإبراهيم وياسين فتقهقر قلبه في صدره، ليس هنالك إلّا معنى واحد...

ودخلوا الحجرة جميعًا، لم تعد حجرة ولادة وإلّا ما دخلوا، وكانت عائشة في حال بالغ الشدّة ولٰكنّ أحدًا لم يوجّه إليها كلمة، وفتحت نعيمة عينيها فبدتا مظلمتين، وأتت حركة كأنّما تريد أن تجلس فأجلستها جدّتها وحوتها في حضنها، شهقت الفتاة، وندّت عنها آهة عميقة، ثمّ بغتة هتفت كأنّما تستغيث:

- ماما... أنا ذاهبة... أنا ذاهبة...

ثمّ سقط رأسها على صدر جدّتها، وضجّت الحجرة بالصوات، ولطمت خديجة خدّيها، وتشهّدت أمينة في وجه الفتاة، أمّا عائشة فرمت بناظريها من النافذة المطلّة على السكّريّة، وثبّتت عينيها على ماذا؟ ثمّ تردّد صوتها كالحشرجة:

- ما هٰذا يا ربّي؟ ما هٰذا الذي تفعله؟، لماذا؟، لماذا؟، أريد أن أفهم...

واقترب منها إبراهيم شوكت ومدّ لها يده، فأبعدتها بحركة عصبيّة وهي تقول:

- لا يلمسني منكم أحد، دعوني، دعوني...

ثمّ ردّت بصرها بينهم قائلة:

- اخرجوا من فضلكم، لا تكلّموني، هل عندكم كلام يجدي؟ لن ينفعني الكلام، ماتت نعيمة كما ترون، كانت كلّ ما تبقّى لي فلم يبق لي شيء في الدنيا، اذهبوا من فضلكم...

كان الظلام حالكًا عندما مضى ياسين وكمال في طريقهما إلى بين القصرين، وكان ياسين يقول:

- ما أثقل أن أبلغ والدك الخبر!

فأجاب كمال وهو يجفّف عينيه:

- نعم...

ـ لا تبكِ، أعصابي لم تعد تتحمّل...

فقال كمال متنهّدًا:

ـ كانت عزيزة جدًّا عليّ، أنا حزين جدًّا يا أخي، وعائشة المسكينة!...

ـ هٰذه هي الكارثة! عائشة! سننسى جميعًا إلّا عائشة!...

«سننسى جميعًا!؟ لا أدري. إنّ وجهها لا يغيب عنّي مدى العمر، ولو أنّ لي مع النسيان تجربة فذّة، هو نعمة كبرى، ولٰكن متى يجود ببلسمه؟». وعاد ياسين يقول:

ـ كنت متشائمًا عند زواجها، ألا تدري؟ لقد تنبّأ لها الدكتور يوم مولدها بأنّ قلبها لن يسعفها على الحياة بعد العشرين! والدك يذكر هٰذا في الغالب...

ـ لا أدري شيئًا، أكانت عائشة تدري؟

ـ كلّا، إنّه تاريخ قديم، وقضاء الله لا بدّ منه...

ـ ما أتعسك يا عائشة!...

ـ أجل ما أتعسها المسكينة!...

٢٥

كان أحمد إبراهيم شوكت جالسًا في قاعة المطالعة بمكتبة الجامعة، مكبًّا على متابعة كتاب بين يديه. لم يكن بقي على الامتحان إلّا أسبوع، وكان الجهد قد نال منه كلّ منال، وشعر بأنّ شخصًا قد دخل القاعة وجلس خلفه فالتفت إلى الوراء مستطلعًا فرأى علويّة صبري! نعم هي، ولعلّها جلست تنتظر كتابًا استعارته، وعند تلك الالتفاتة التقت عيناه بالعينين السوداوين، ثمّ أعاد رأسه إلى وضعه الأوّل منتشي القلب والحواسّ. ما من شكّ في أنّها باتت تعرف شكله، كما تعرف أنّه مغرم بها، فمثل هٰذه الأمور لا تخفى، إلى أنّها كلّما التفتت هنا أو هناك ـ سواء في فصول المحاضرات أم حديقة الأورمان ـ وجدته مسترقًا إليها النظر. وقد حال حضورها بينه وبين متابعة ما يقرأ، ولٰكنّ فرحته فاقت حتّى ما كان يقدّر. وكان ـ منذ أن علم بأنّها ستتخصّص في الاجتماع مثله ـ يؤمل أن يتمّ التعارف بينهما في غضون العام الدراسيّ المقبل، الأمر الذي لم يُتَحْ له هٰذا العام في زحمة طلبة القسم الإعداديّ. على أنّه لم يسبق له أن وجدها هٰكذا قريبة منه دون كثرة من الرقباء، فحدّثته نفسه بأن يمضي إلى رفوف المراجع كأنّما ليطّلع على أحدها، ثمّ يحيّيها في طريقه!. وألقى نظرة على ما حوله فرأى عددًا من الطلّاب منتشرين هنا وهناك لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، فقام دون تردّد وسار في الممرّ بين المقاعد، وعندما مرّ بها التقت عيناهما فحنى رأسه تحيّة مؤدّبة، فبدا في ملامحها وقع المفاجأة، ولٰكنّها ردّت تحيّته برأسها ونظرت فيما أمامها. وتساءل ترى هل أخطأ؟. كلّا إنّها زميلة منذ عام طويل، ومن واجبه أن يحيّيها إذا التقيا هٰكذا وجهًا لوجه في مكان يكاد يكون خاليًا. وواصل مسيره إلى خزانة الكتب الحاوية لدائرة المعارف، ثمّ اختار مجلّدًا وراح يقلّب صفحاته دون أن يقرأ كلمة. كان سروره بردّ التحيّة عظيمًا فزايله التعب واهتزّ صدره نشاطًا. يا لها من حسناء ملأت عليه جوانب نفسه إعجابًا وانجذابًا حتّى صارت شغله الشاغل. إنّ كافّة أحوالها تدلّ على أنّها من «أسرة» كما يقولون، وأخشى ما يخشاه أن يكون لها من كبرياء الطبقة نصيب يخفيه أدبها الجمّ، وإنّه يستطيع أن يعترف لها ـ صادقًا ـ بأنّه من أسرة كذٰلك إذا دعا الأمر، أليس آل شوكت «أسرة»؟. بلى... وذات ملك، فسيكون له يومًا ريع ومرتّب معًا!. وافترّ ثغره عن ابتسامة ساخرة، ريع... مرتّب... أسرة! إذن فأين مبادؤه؟. وشعر بشيء من الخجل. إنّ القلب في أهوائه لا يعرف المبادئ، فالناس يحبّون ويتزوّجون خارج دائرة مبادئهم ودون مراعاة لها، وعليهم أن يخلقوا أنصافهم الجميلة خلقًا جديدًا، كمن يدخل بلدًا غريبًا فعليه أن يتكلّم بلغته حتّى يبلغ ما يريد. ثمّ إنّ الطبقة والملكيّة حقيقتان واقعيّتان لم يخلقهما هو ولا أبوه ولا جدّه، فليس هو بالمسئول عنهما، والعلم والجهاد هما الكفيلان بمحو هٰذه السخافات التي تفرّق بين البشر. من الممكن ربّما أن يغيّر نظام الطبقات، ولٰكن كيف يستطيع أن يغيّر الماضي وهو أنّه من أسرة موفورة الدخل؟. وهيهات أن تتعارض المبادئ الشعبيّة مع الحبّ الأرستقراطيّ، وكارل ماركس نفسه تزوّج

من جيني فون وستفال حفيدة الدوق برونشويك، وكانوا يسمّونها «الأميرة الساحرة» و«ملكة الرقص»، وها هي أميرة ساحرة أخرى ولو رقصت لكانت ملكة الرقص. وأعاد المجلّد إلى موضعه ثمّ رجع، وجعل يملأ ناظريه ممّا بدا من قامتها، جانب من أعلى الظهر، وصفحة العنق الرقيق، والقذال المزدان بالشعر المعقوص، ما أجمل المنظر، ومرّ بها خفيفًا إلى مقعده وجلس. ولم تمضِ دقائق حتّى سمع وقع أقدامها الخفيفة، فنظر إلى الوراء آسفًا وهو يظنّها منصرفة ولكنّه رآها قادمة، فلمّا حاذته وقفت بشيء من الارتباك، وهو لا يصدّق عينيه، وقالت:

ـ لا مؤاخذة، هل أجد عندك محاضرات التاريخ؟ .

نهض كالجنديّ، وبادر يقول:

ـ بكلّ تأكيد. . .

فقالت كالمعتذرة:

ـ لم أستطع متابعة الأستاذ الإنجليزيّ كما يجب، ففاتني تقييد كثير من النقط الهامّة، وأنا لا أرجع إلى المراجع إلّا في الموادّ التي سأتخصّص فيها فيما بعد، ولا يتّسع الوقت للمراجعة في سائر الموادّ. . .

ـ مفهوم. . . مفهوم. . .

ـ وقد علمت أنّ مذكّراتك مستوفاة، وأنّك أعرتها لكثيرين لينقلوا منها ما فاتهم؟. . .

ـ نعم، ستكون تحت أمرك غدًا. . .

ـ متشكّرة جدًّا (ثمّ وهي تبتسم) لا تظنّ بي الكسل، ولكنّ إنجليزيّتي متوسّطة!. . .

ـ لا بأس، أنا بدوري دون المتوسّط في الفرنسيّة، ولعلّه تتاح لنا الفرص للتعاون، ولكن معذرة تفضّلي بالجلوس، قد يهمّك الاطّلاع على هٰذا الكتاب، مدخل الاجتماع لماكنز. . .

ولكنّها قالت:

ـ متشكّرة، لقد رجعت إليه مرّات، قلت إنّك دون المتوسّط في الفرنسيّة، فلعلّك في حاجة إلى مذكّرات السيكولوجي؟

فأجاب دون تردّد:

ـ أكون شاكرًا لو تفضّلت. . .

ـ غدًا نتبادل المذكّرات؟.

ـ بكلّ سرور، ولكن معذرة، ستجدين أكثر الدراسات بقسم الاجتماع بالإنجليزيّة. . .

فتساءلت وهي تداري مَوْلد ابتسامة:

ـ أتعرف أنّني اخترت قسم الاجتماع؟

ابتسم كأنّما ليداري حياءه، ولم يكن ثمّة حياء ولكنّه شعر بأنّه «وقع» ولكنّه قال ببساطة:

ـ نعم!.

ـ لمناسبة أيّة مصادفة!

فقال بجرأة:

ـ بل سألت فعلمت. . .

وضغطت شفتيها القرمزيّتين، ثمّ قالت وكأنّها لم تسمع جوابه:

ـ غدًا نتبادل المذكّرات. . .

ـ صباحًا. . .

ـ إلى اللقاء وشكرًا. . .

فبادرها:

ـ إنّي سعيد بالتعرّف إليك، إلى اللقاء.

لبث واقفًا حتّى واراها الباب ثمّ جلس. ولحظ أنّ البعض كان ينظر مستطلعًا نحوه، ولكنّه كان ثملًا بالسعادة. ترى أكان حديثها استجابة لما بدا من إعجابه بها، أم لحاجتها الملحّة إلى مذكّراته؟. لم تسنح قبل الساعة فرصة للتعارف. كان يجدها دائمًا بصحبة الأتراب. هٰذه أوّل فرصة، وقد فاز بما تمنّى طويلًا فيما يشبه المعجزة. إنّ كلمة من ثغر نحبّه خليقة بأن تجعل من كلّ شيء كلا شيء. . .

٢٦

بدا ياسين قلقًا رغم إرادته. وكان قد تظاهر طويلًا بأنّه لا يهمّه شيء، لا الدرجة ولا الماهيّة ولا الحكومة نفسها، لا أمام زملائه الموظّفين فحسب ولكن حيال نفسه أيضًا. إنّ الدرجة السادسة ـ إذا رُقّي إليها ـ ستزيد مرتّبه جنيهين لا غير!. ويا ما ضيّع ياسين!. ويقولون إنّها ستجعل منه رئيس قلم بعد مراجع، ولكن متى كان يكترث ياسين للرياسات؟. بيد أنّه كان قلقًا، خاصّة بعد أن استدعى مدير الإدارة محمّد

أفندي حسن ـ زوج زينب أمّ رضوان ـ لمقابلة وكيل الوزارة، وذاع بين موظّفي المحفوظات أنّ الوكيل استدعاه ليسمع رأيه في موظّفيه للمرّة الأخيرة قبل توقّع الكشف الخاصّ بالترقيات. محمّد حسن!؟. خليفته اللدود الذي لولا السيّد محمّد عفّت لبطش به من زمن بعيد!. أيمكن أن يشهد له هذا الرجل شهادة طيّبة؟. وانتهز فرصة خلوّ حجرة المدير فهرع إلى التليفون، وطلب كلّيّة الحقوق، وكان يتّصل بها ذلك اليوم للمرّة الثالثة، مستدعيًا رضوان ياسين...

ـ آلو، رضوان؟، أنا والدك.

ـ أهلًا وسهلًا، كلّ شيء عال.

كان صوته ينمّ عن ثقة، الابن واسطة للأب...

ـ الحركة رهن التوقيع الآن؟

ـ اطمئنّ، الوزير نفسه هو الذي أوصى بك، كلّمه نوّاب وشيوخ ووعدهم بكلّ خير.

ـ ألا تحتاج المسألة لتوصية أخيرة؟

ـ أبدًا، الباشا هنّأني هذا الصباح كما أخبرتك، اطمئنّ جدًّا.

ـ أشكرك يا ابني، سلام عليكم.

ـ وعليكم السلام يا بابا، مبارك مقدّمًا...

ووضع السمّاعة وغادر الحجرة، فالتقى بإبراهيم أفندي فتح الله ـ زميله ومنافسه في الدرجة ـ قادمًا يحمل بعض الملفّات، فتبادلا التحيّة في تحفّظ، وعند ذلك قال ياسين:

ـ ليكن بيننا مباراة رياضيّة يا إبراهيم أفندي، ولتُقبل النتيجة أيًّا كانت بشهامة...

فقال الرجل في امتعاض:

ـ على شرط أن تكون مباراة شريفة!

ـ ماذا تعني؟

ـ أن يكون الاختيار لوجه الله لا لوساطة!...

ـ غريب رأيك! وهل يوجد رزق بدون وساطة في هذه الدنيا؟. اسعَ كما تشاء وأسعى كما أشاء، وسيأخذ الدرجة صاحب القسمة والنصيب!...

ـ أنا أقْدَم منك...

ـ كلانا موظّف قديم، سنة لا تقدّم ولا تؤخّر!...

ـ في سنة تولَد نفوس وتُزهَق نفوس!.

ـ تولد تزهق، كلّ واحد وقسمته...

ـ والكفاءة؟...

فقال ياسين منفعلًا:

ـ الكفاءة؟. هل نقيم جسورًا أو ننشئ محطّات كهربائيّة؟، كفاءة! ماذا يتطلّب عملنا الكتابيّ من كفاءة؟. كلانا بالابتدائيّة، وفضلًا عن ذلك فأنا رجل مثقّف...

فضحك إبراهيم أفندي ضحكة ساخرة، وقال:

ـ مثقّف؟ أهلًا يا سي مثقّف!... أتظنّ نفسك مثقّفًا بالشّعر الذي تحفظه؟. أو بالإنشاء الذي تكتب به خطابات الإدارة كأنّك تؤدّي امتحان الابتدائيّة من جديد؟... أنا تارك أمري لله...

وافترق الرجلان على أسوأ حال، وعاد ياسين إلى مكتبه، كانت الحجرة كبيرة، صُفَّت بها المكاتب متقابلة على الجانبين، وغطّت الجدران بالرفوف المكتظّة بالملفّات. وكان البعض مكبًّا على الأوراق والآخرون يتحادثون ويدخّنون؛ على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفّات، قال جار ياسين له:

ـ سآخذ ابنتي البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولا تعب قلب في البحث عن وظيفة بعد التخرّج.

فقال ياسين:

ـ خير ما تفعل...

فسأله الرجل مجادلًا:

ـ وماذا أعددت لكريمة؟. كم بلغت من العمر على فكرة؟

فابتسمت أسارير ياسين رغم انفعاله، وقال:

ـ في الحادية عشرة، وسوف تأخذ الابتدائيّة في الصيف القادم إن شاء الله (وهو يعدّ على أصابعه): نحن في نوفمبر فيبقى سبعة أشهر بالتمام والكمال...

ـ ما دامت تنجح في ابتدائيّ فستنجح في ثانويّ، البنات أضمن اليوم من الصبيان...

ثانويّ؟. هذا ما تريده زنّوبة. كلّا إنّه لا يطيق أن يرى ابنته تسير في الطريق ونهداها يهتزّان. ثمّ المصروفات؟...

ـ نحن لا نُلحق بناتنا بالثانويّ، ولماذا؟... إنّها لن تتوظّف!...

فسأل ثالث:

ـ أهٰذا يقال في عام ١٩٣٨؟

ـ يقال في أسرتنا ولو في عام ١٢٠٣٨!.

فضحك رابع وهو يقول:

ـ قل إنّك لا تستطيع أن تنفق عليها وعلى نفسك معًا!. قهوة العتبة وخمّارة محمّد عليّ، وحبّ البنات البكارى هدّ منّي الحيل. هٰذه هي الحكاية...

فضحك ياسين ثمّ قال:

ـ ربّنا ساترها... ولٰكن كما قلت لك نحن لا نعلّم البنت أكثر من الابتدائيّة...

وتعالت سعلة من الركن القصيّ فيما يلي مدخل الحجرة، فالتفت ياسين إلى صاحبها، ثمّ وقف وكأنّه تذكّر أمرًا هامًّا، فمضى إلى مكتبه حتّى شعر الرجل به فرفع نحوه رأسه، فمال ياسين فوقه قائلًا:

ـ وعدتني بالوصفة...

فمدّ الرجل أذنه متسائلًا:

ـ نعم؟...

فتضايق ياسين من أذن الرجل الثقيلة، واستحيى أن يرفع من صوته وإذا بصوت يجيء من وسط الحجرة عاليًا وهو يقول:

ـ أراهن على أنّه يسألك عن الوصفة، وصفتك التي ستذهب بنا جميعًا إلى القبر...

وتراجع ياسين متبرّمًا إلى مكتبه، فقال له الرجل دون مبالاة بإحراجه، وبصوت سمعته الحجرة كلّها:

ـ أنا أقول لك عنها: هات قشر مانجو، اغله غليًا شديدًا، وداوم على ذٰلك حتّى يصير سائلًا لزجًا كالعسل، وخذ منه ملعقة على غيار الريق...

وضحكوا جميعًا، غير أنّ إبراهيم فتح الله قال متهكّمًا:

ـ فايق ورايق، انتظر حتّى تأخذ الدرجة السادسة وهي تشدّ حيلك؟...

فتساءل ياسين ضاحكًا:

ـ وهل تنفع الدرجة في هٰذه المسألة؟...

فقال جار ياسين ضاحكًا أيضًا:

ـ لو صحّت هٰذه النظريّة، لاستحقّ عمّ حسنين فرّاش مكتبنا أن يكون وزير المعارف!...

وضرب إبراهيم فتح الله كفًّا بكفّ، وقال مسائلًا زملاءه جميعًا:

ـ يا إخوان، هٰذا الرجل (مشيرًا إلى ياسين) طيّب وظريف وابن حلال، ولٰكن هل يشتغل بمليم؟... أنا راضٍ بذمّتكم!...

فقال ياسين هازئًا:

ـ دقيقة عمل منّي تساوي شغل يوم منك!...

ـ الحكاية أنّ المدير يترفّق بك، وأنّك تتوكّل على ابنك في هٰذا العهد الأغبر!...

فقال ياسين ملحًّا في إغاظته:

ـ وفي كلّ عهد وحياتك، ابني في هٰذا العهد، فإذا جاء الوفد عندك ابن أختي وأبي، قل من عندك أنت؟.

فقال الرجل وهو يرفع رأسه إلى السقف:

ـ عندي ربّنا!...

ـ وهو سبحانه عندي أيضًا، أليس بربّ الجميع؟

ـ ولٰكنّه لن يرضى عن زباين محمّد عليّ!...

ـ وهل يرضى عن مدمني الأفيون والمنزول؟

ـ ليس أبشع في الوجود من السكّيرا...

ـ الخمر شراب الوزراء والسفراء، ألا تراهم في الصحف وهم يشربون الأنخاب؟ ولٰكن هل رأيت سياسيًّا يقدّم قطعة أفيون في حفل سياسيّ في صحّة عقد معاهدة مثلًا؟!

فقال جار ياسين وهو يغالب الضحك:

ـ هس يا جماعة، وإلّا قضيتم مدّة خدمتكم في السجن!.

فبادر ياسين مشيرًا إلى غريمه:

ـ كان يقرّفني في السجن وحياتك، ويقول لي أنا أقدم منك!...

وإذا بمحمّد حسن يعود من مقابلة وكيل الوزارة، فساد الصمت وتطلّعت نحوه الرءوس.

واتّجه الرجل نحو حجرته لا يلوي على شيء، فتبادلوا النظرات متسائلين. لا يبعد أن يكون أحد المتخاصمين الآن رئيس قلم، ولٰكن مَن صاحب الحظّ

السعيد؟!. وفُتح باب المدير، وظهر رأسه الأصلع وهو ينادي بصوت جافّ «ياسين أفندي». فنهض ياسين بجسمه الضخم، ومضى نحو الحجرة وقلبه يخفق، وتفحّصه المدير بنظرة غريبة ثمّ قال:

ـ رُقّيت إلى الدرجة السادسة!...

فقال ياسين وقد انشرح صدره:

ـ شكرًا يا أفندم!...

فقال الرجل بلهجة لا تخلو من جفاف:

ـ من الإنصاف أن أصارحك بأنّه يوجد مَن هو أحقّ بها منك... ولكنّها الوساطة!

فغضب ياسين، وكان كثيرًا ما يغضب حيال هٰذا الرجل، وقال:

ـ الوساطة! ما لها؟ هل تتمّ حركة كبيرة أو صغيرة دون وساطة؟ هل ترقّى مخلوق في هٰذه الإدارة، في هٰذه الوزارة، بما فيهم حضرتك، دون وساطة؟

فكظم الرجل غيظه، ثمّ قال:

ـ لا يأتيني من ناحيتك إلّا وجع الدماغ، تترقّى بدون وجه حقّ، ثمّ تثور لأقلّ ملاحظة عادلة، ما علينا، مبارك، مبارك يا سيّدي، فقط أرجو أن تشدّ حيلك، أنت الآن رئيس قلم!...

فتشجّع ياسين بتراجع المدير، وقال دون أن يخفّف من حدّته:

ـ أنا موظّف منذ أكثر من عشرين عامًا، وعمري اثنان وأربعون عامًا، فهل تستكثر عليّ الدرجة السادسة؟ إنّ الغلمان يعيّنون فيها بمجرّد تخرّجهم من الجامعة!...

ـ المهمّ أن تشدّ حيلك، أرجو أن أعتمد عليك كبقيّة زملائك، فقد كنت وأنت ضابط مدرسة النحّاسين مثال الموظّف المجدّ، ولولا تلك الحادثة القديمة...

ـ شيء قديم فلا داعي لذكره الآن، وكلّ واحد له أخطاؤه...

ـ أنت الآن في سنّ الرجولة الناضجة، فإذا لم يستقم سلوكك تعذّر عليك أن تقوم بواجبك، كلّ ليلة سهر، فبأيّ مخّ تعمل في الصباح؟. أريد أن تنهض بالإدارة، هٰذا كلّ ما هنالك...

فاستاء ياسين بالتعريض بسيرته، وقال:

ـ لا أقبل أن يمسّ إنسان سلوكي الخاصّ بكلمة، أنا حرّ خارج الوزارة!...

ـ وداخلها؟

ـ سأعمل ما يعمله رؤساء الأقلام، أنا اشتغلت في ماضيّ ما يكفيني طوال العمر...

عاد ياسين إلى مكتبه متكلّفًا الابتسام رغم جيشان صدره بالغضب، وذاع النبأ فتلقّى التهاني...

وكان إبراهيم فتح الله يميل على أذن جاره هامسًا في حقد:

ـ ابنه!... هٰذه هي الحكاية! عبد الرحيم باشا عيسى... فهمت؟!... اسفخص!...

٢٧

كان السيّد أحمد عبد الجواد جالسًا على كرسيّ كبير في المشربيّة ينظر إلى الطريق حينًا، وحينًا في جريدة الأهرام المبسوطة على حجره، وكانت ثقوب المشربيّة تعكس على جلبابه الفضفاض وطاقيّته نقطًا من الضياء، وقد ترك باب حجرته مفتوحًا ليتمكّن من سماع الراديو القائم في الصالة، غير أنّه بدا ناحلًا ضامرًا، كما لاحت في عينيه نظرة ثقيلة تنمّ عن استسلام حزين. وكان كأنّما يكتشف الطريق ـ من مجلسه بالمشربيّة ـ لأوّل مرّة في حياته، فلم يسبق له أن رآه من هٰذه الزاوية في أيّام حياته الماضية، إذ إنّه لم يمكث في البيت إلّا ساعات النوم على وجه التقريب، أمّا اليوم فلم تعد له من تسلية ـ بعد الراديو ـ إلّا هٰذه الجلسة في المشربيّة، ينظر من ثقوبها شمالًا وجنوبًا، وإنّه لطريق حيّ، مسلٍّ لطيف، وله إلى هٰذا طابعه الذي يميّزه عن طريق النحّاسين الذي ألف رؤيته من دكّانه ـ السابق ـ زهاء نصف قرن من الزمان، وهٰذه دكاكين حسنين الحلّاق ودرويش الفوّال والفولي اللبّان وبيومي الشرباتلي وأبو سريع صاحب المقلي، تقوم في الطريق كالقسمات في الوجه حتّى عُرف بها وعُرفت به، أيّ عِشرة وأيّ جوار، ترى ما أعمال هٰؤلاء الناس؟ حسنين الحلّاق مدمج الخلْق، من نوع قلّ أن يبدو

عليه أثر الزمن، لم يكد يتغيّر منه شيء إلّا شعره، ولٰكنّه جاوز الخمسين بلا ريب، من لطف الله بهٰؤلاء الناس أنّه يحفظ عليهم صحّتهم! ودرويش؟. أصلع، هٰكذا كان دائمًا، ولٰكنّه في الستّين، ما أقوى جسمه! كذٰلك كنت أنا في الستّين، ولٰكنّني أمسيت في السابعة والستّين فيا لـه من عمر!. وأعدت تفصيل ثيابي لتناسب ما تبقّى من جسدي، وإذا نظرت إلى هٰذه الصورة المعلّقة في حجرتي أنكرت نفسي. الفولي أصغر من درويش، ذٰلك الأعمش المسكين، ولولا غلامه ما عرف كيف يهتدي إلى سبيله، أبو سريع رجل عجوز، عجوز؟! ولٰكنّه ما زال يعمل، لم يفارق واحد منهم دكّانه، ألّا إنّ فراق الدكّان لشديد! ثمّ لا يبقى لك إلّا هٰذا المجلس، والقبوع في البيت ليل نهار، لو أستطيع أن أخرج ساعة واحدة كلّ يوم! ولٰكن عليَّ أن أنتظر يوم الجمعة، ثمّ لا بدّ من العصا، ولا بدّ من كمال ليصحبني، الحمد لله ربّ العالمين، بيومي أصغرهم وأسعدهم حظًّا، من أمّ مريم بدأ، أمّا أنا فعندها انتهيت، وهو اليوم مالك أحدث عمارة في الحيّ، هٰكذا كان مصير بيت السيّد رضوان، أنشأ هٰذا المشرب المضاء بالكهرباء، حظّ رجل يبدأ بخداع امرأة، سبحان العاطي وجلّت حكمته! كلّ شيء يتجدّد، الطريق ممهّد بالأسفلت، وأضيء بالمصابيح، أتذكر ليالي عودتك آخر الليل في الظلام الدامس؟ لٰكن أين منّي هاتيك الليالي؟ وفي كلّ دكّان كهرباء وراديو، كلّ شيء جديد، إلّا أنا، عجوز في السابعة والستّين، لا يستطيع مغادرة داره إلّا يومًا واحدًا في الأسبوع وهو يلهث. القلب! كلّه من القلب، القلب الذي طالما عشق وطالما ضحك وطالما انبسط وغنّى، يقضي اليوم بالقعود ولا رادّ لقضائه. قال الطبيب «خذ الدواء والزم البيت واتبع نظامي الغذائيّ»، حسن، ولٰكن هل يعيد ذٰلك إليّ قوّتي؟... أعني بعض قوّتي؟ فأجاب الطبيب «حسبنا أن نمنع المضاعفات، ولٰكنّ الجهد أو الحركة شيء خطير... (ثمّ ضاحكًا)... لماذا تريد أن تستردّ قوّتك»؟ أجل لماذا؟ إنّه لشيء محزن مضحك معًا، ومع ذٰلك قال «أريد أن أذهب وأجيء» فقال الطبيب «لكلّ حال مسرّاتها، جلسة هادئة، اقرأ المصحف، واسمع الراديو وانعم بأسرتك، ويوم الجمعة زر الحسين راكبًا، حسبك هٰذا!»، الأمر لصاحب الأمر، متولّي عبد الصمد لا يزال يتخبّط في الطرقات!، ويقول وانعَمْ بأسرتك! لم تعد أمينة تمكث في البيت، انقلبت الآية، أنا في المشربيّة وأمينة تجول في القاهرة من مسجد إلى مسجد، كمال يجالسني خفيفًا كالضيف، عائشة؟. آه يا عائشة، أمن الأحياء أنت أم من الأموات؟ ثمّ يريدون من قلبي أن يبرأ ويستريح!...

- سيّدي...

والتفت إلى الوراء صوب الصوت، فرأى أمّ حنفي حاملة صينيّة صغيرة عليها قارورة الدواء وفنجان قهوة فارغ وكوب ماء مملوء لنصفه.

- الدواء يا سيّدي...

رائحة المطبخ تتطاير من ثوبها الأسود، هٰذه المرأة التي صارت مع الزمن واحدة من أسرتنا. وتناول الكوب وملأ الفنجان حتّى نصفه، وفضّ سداد القارورة ونقّط منها أربع نقط في الفنجان، وقلّص وجهه قبل أن يتقلّص من طعم الدواء، ثمّ تجرّعه.

- بالشفا يا سيّدي...

- متشكّر، أين عائشة؟

- في حجرتها، الله يصبّر قلبها!.

- ناديها يا أمّ حنفي...

في حجرتها، أو على السطح، ثمّ ماذا؟. وكان الراديو ما زال يذيع أغانيه ساخرًا من حزن البيت الصامت ولم يكن السيّد اضطرّ إلى ملازمة البيت إلّا منذ شهرين، وكان قد مضى على وفاة نعيمة عام وأربعة أشهر، فاستأذن الرجل في سماع الراديو لحاجته الملحّة إلى التسلية، فقالت له عائشة: «طبعًا يا بابا، ربّنا يكفيك شرّ قعدة البيت». وسمع حفيف ثوب فالتفت فرآها قادمة في ثوب أسود، متّشحة بخمار أسود رغم حرارة الجوّ، تشوب بشرتها البيضاء زرقة غريبة، عنوان التعاسة يا ابنتي، قال برقّة:

- هاتي الكرسيّ واجلسي معي قليلًا.

ولٰكنّها لم تتزحزح عن موقفها قائلة:

- مرتاحة هٰكذا يا بابا.

علّمته الأيّام الأخيرة ألّا يحاول أن يعدل بها عن رأي.

- ماذا كنت تفعلين؟

فقالت دون أن ينمّ وجهها عن أيّ معنى:

- لا شيء أفعله يا بابا.

- لماذا لا تخرجين مع نينتك لتزوري الأضرحة المباركة، أليس هٰذا أفضل من بقائك هنا وحدك؟

- ولماذا أزور الأضرحة؟

وكأنّما فوجئ بقولها، بيد أنّه قال بهدوء:

- تتوسّلين إلى الله أن يصبّر قلبك.

- الله هنا معنا في البيت!.

- طبعًا، أقصد أن تتركي هٰذه العزلة يا عائشة، زوري أختك، زوري الجيران، روّحي عن نفسك...

- لا أستطيع أن أرى السكّريّة، ولا معارف لي، لم يعد لي معارف، لا أطيق زيارة أحد...

قال الرجل وهو يولي عنها رأسه:

- أحبّ أن تتصبّري، وأن تهتمّي بصحّتك...

- صحّتي!...

قالتها فيما يشبه العجب، فقال بتوكيد:

- نعم، ما فائدة الحزن يا عائشة؟...

فقالت وكانت رغم حالها تحافظ على الأدب الذي تعوّدت أن تلتزمه حياله:

- وما فائدة الحياة يا بابا؟

- لا تقولي هٰذا، إنّ أجرك عند الله عظيم!...

فحنت رأسها لتخفي عينيها الدامعتين، وقالت:

- أودّ أن أذهب عنده لأنال هٰذا الأجر، ليس هنا يا بابا!...

ثمّ انسحبت برقّة، وقبل أن تغادر الحجرة توقّفت قليلًا كأنّما تذكّرت أمرًا، فسألته:

- كيف صحّتك اليوم؟

فابتسم قائلًا:

- الحمد لله، المهمّ صحّتك أنت يا عائشة...

وغادرت الحجرة، من أين تأتيه الراحة في هٰذا البيت؟. وراح يردّد بصره في الطريق حتّى ثبت على أمينة وهي راجعة من جولتها اليوميّة، كانت ترتدي معطفًا، وعلى وجهها بيشة، وتنقل خطاها في بطء. شدّ ما ركبها الكبر! كان يُحسن الظنّ بصحّتها متذكّرًا أمّها المعمّرة، ولٰكن ها هي تبدو أكبر من سنّها - اثنين وستّين عامًا - بعشرة أعوام على الأقلّ، ومرّ وقت غير قصير قبل أن تدخل عليه وهي تتساءل:

- كيف حال سيّدي؟

فقال بصوت مرتفع نفخ فيه نبرات الحدّة المطلوبة:

- كيف حالك أنت! ما شاء الله! مِن طَلْعة الصبح يا وليّة؟!

فابتسمت قائلة:

- زرت سيّدتك، وزرت سيّدك، ودعوت لك وللجميع...

عاودته بعودتها طمأنينة وسلام، وشعر بأنّه يستطيع الآن أن يطلب ما يشاء دون حرج:

- أيصحّ أن تتركيني وحدي كلّ هٰذا الوقت؟!

- أنت أذنت لي يا سيّدي، لم أغب طويلًا، ولٰكنّها الضرورة يا سيّدي، ما أحوجنا إلى الدعاء، توسّلت إلى سيّدي أن يردّ إليك صحّتك حتّى تروح وتغدو كما تشاء، كما دعوت لعائشة وللجميع...

وجاءت بكرسيّ وجلست، ثمّ سألته:

- هل تناولت الدواء يا سيّدي؟ أنا نبّهت على أمّ حنفي...

- ليتك نبّهتها على شيء أحسن!

- بالشفا يا سيّدي، سمعت في المسجد درسًا جميلًا من الشيخ عبد الرحمٰن، تحدّث يا سيّدي عن الكفّارة عن الذنب وكيف تمسح السيّئات، كلام جميل جدًّا يا سيّدي، ليتني أستطيع أن أحفظ كأيّام زمان!...

- وجهك شاحب من المشي، كلّها كم يوم ونصبحين من زبائن الدكتور!...

- ربّنا الحافظ، أنا لا أخرج إلّا لزيارة آل البيت، فكيف يقع لي سوء؟!.

ثمّ متداركة:

- آه يا سيّدي، كدت أنسى، يتحدّثون في كلّ مكان عن الحرب، يقولون إنّ هتلر هجم...!

تساءل الرجل باهتمام:

- متأكّدة؟..

ـ سمعتها بدل المرّة مائة مرّة، هتلر هجم... هتلر هجم...

فقال الرجل ليُفهمها أنّها لم تسبقه بالأخبار:

ـ كان هٰذا متوقّعًا من لحظة لأخرى...

ـ بعيد عنّا إن شاء الله يا سيّدي؟...

ـ قالوا هتلر فقط؟. وموسوليني؟. ألم تسمعي هٰذا الاسم؟...

ـ اسم هتلر فقط...

ـ ربّنا يلطف بنا، إذا سمعتم نداء عن ملحق البلاغ أو المقطّم فاشتروه...

فقالت المرأة:

ـ كأيّام غليوم وزبلن، أتذكر يا سيّدي؟. سبحان من له الدوام!...

٢٨

كانت زيارة جامعة وذات معنى كما قالت خديجة فيما بعد، فعندما فُتح باب الشقّة ملأ فراغه ياسين في بذلة بيضاء من تيل المحلّة، تتقدّمه الوردة الحمراء والمنشّة العاجيّة، يكاد جسمه الضخم يدفع الهواء بين يديه، وتبعه ابنه رضوان في بذلته الحريريّة آية في الأناقة والجمال، ثمّ زنّوبة في ثوب سنجابيّ تعلوها الحشمة التي صارت جزءًا لا يتجزّأ منها، وأخيرًا كريمة في فستان أزرق بديع كشف عن أعلى النحر والذراعين، وقد تبلورت أنوثتها المبكّرة ـ لم تكن تزيد عن الثالثة عشرة ـ فبدت جاذبيّتها صارخة. وضمّتهم حجرة الاستقبال مع خديجة وإبراهيم وعبد المنعم وأحمد، وسرعان ما قال ياسين:

ـ أسمعتم عن شيء كهٰذا من قبل؟ ابني سكرتير الوزير الذي أنا في وزارته مجرّد رئيس قلم في المحفوظات، تَنْهَدُّ له الأرض إذا سار، وأنا لا يكاد يشعر بي إنسان!.

كان مدلول كلامه الاحتجاج، ولٰكن لم يخفَ على أحد ما انطوت عليه نفسه من تيه وفخار بابنه. وفي الحقّ قد حصل رضوان على الليسانس في مايو من هٰذا العام، وما لبث أن تعيّن في يونيه سكرتيرًا للوزير، في الدرجة السادسة، على حين يتعيّن خرّيجو الجامعات في الدرجة الثامنة الكتابيّة، وقد حصل عبد المنعم على الليسانس في نفس التاريخ، ولٰكنّه لم يكن يدري ما المصير، قالت خديجة باسمة، وكانت تشعر بشيء من الغيرة:

ـ رضوان صديق الحكّام، ولٰكنّ العين لا تعلو على الحاجب...

فقال ياسين في سرور لم يفلح في مداراته:

ـ ألم تروا صورته مع الوزير في أهرام أمس؟... بتنا لا ندري كيف نكلّمه!...

فأشار إبراهيم شوكت إلى عبد المنعم وأحمد قائلًا:

ـ هٰذان الولدان خائبان، ضيّعا عمرهما في مناقشات حادّة لا معنى لها، وكان خير مَن عرفا من رجالات البلد الشيخ عليّ المنوفي ناظر مدرسة الحسين الأوّليّة، وسخام البرك عدلي كريم صاحب مجلّة الضوء أو الهباب لا أدري!

وكان أحمد ساخطًا وإن بدا طبيعيًا. أثاره زهو خاله ياسين كما أثاره تعليق والده، أمّا عبد المنعم فقد غطّى ما كان ينتظره من وراء هٰذه الزيارة الجامعة على الغضب الذي كان خليقًا أن يشتعل في صدره في ظروف أخرى. وكان يسترق النظر في وجه رضوان متسائلًا عمّا وراءه، غير أنّ قلبه استبشر خيرًا بالزيارة، فلعلّها لم تكن تقع لولا أنّها تحمل البشرى. وعاد ياسين يقول معلّقًا على كلام إبراهيم:

ـ لو سألتني عن رأيي لقلت لك نِعْم الولدان!. ألم يقولوا في الأمثال: السلطان مَن ابتعد عن باب السلطان؟

كلّا لم يفلح ياسين في مداراة سروره، كما لم يفلح في إقناع أحد بإيمانه بما قال، غير أنّ خديجة قالت مشيرة إلى رضوان:

ـ ربّنا يطعمه خيرهم ويكفيه شرّهم...

وأخيرًا التفت رضوان إلى عبد المنعم قائلًا:

ـ أرجو أن أهنّئك عمّا قريب...

فتطلّع إليه عبد المنعم متسائلًا وقد تورّد وجهه، فعاد رضوان يقول:

ـ وعدني الوزير بأن يعيّنك في إدارة التحقيقات...

كانت أسرة خديجة تترقّب على لهف هٰذا التقرير، فركّزت أبصارهم في رضوان، طالبة المزيد من التأكيد، فمضى الشابّ يقول:

ـ أوّل الشهر القادم على أكثر تقدير. . .

وقال ياسين معقّبًا على قول ابنه:

ـ إنّها وظيفة قضائيّة، لقد عيّن عندنا في إدارة المحفوظات شابّان من حملة الليسانس في الدرجة الثامنة بثمانية جنيهات!.

وكانت خديجة هي التي طلبت من ياسين أن يكلّم ابنه بشأن عبد المنعم، فقالت في امتنان:

ـ الشكر لله ولك يا أخي (ثمّ وهي تلتفت إلى رضوان) وطبعًا جميل رضوان فوق رءوسنا. . .

وآمن إبراهيم على قولها قائلًا:

ـ طبعًا، إنّه أخوه، ونِعْم الأخ.

وقالت زنّوبة باسمة، لكي تخرج من هامش الجلسة:

ـ رضوان أخو عبد المنعم وعبد المنعم أخو رضوان، ما في ذٰلك كلام.

وتساءل عبد المنعم الذي كان يشعر بحياء لم يشعر به من قبل حيال رضوان:

ـ أعطاك كلمة جدّيّة؟

فقال ياسين باهتمام:

ـ كلمة وزير! . . . إنّي متتبّع المسألة!.

وقال رضوان:

ـ وأنا من ناحيتي سأذلّل لك الصعاب في إدارة المستخدمين، ولي فيهم أصدقاء كثيرون، ولو أنّ موظّفي المستخدمين لا صديق لهم!

فقال إبراهيم شوكت وهو يتنهّد:

ـ الحمد لله. لقد أراحنا الله من الوظيفة والموظّفين! . . .

فقال ياسين:

ـ عشت ملكًا يا أبا خليل. . .

ولكنّ خديجة قالت متهكّمة:

ـ ربّنا لا يحكم على أحد بقعدة البيت! . . .

وتدخّلت زنّوبة مجاملة كعادتها، فقالت:

ـ قعدة البيت لعنة، إلّا مَن كان صاحب مِلك فهو سلطان! . . .

فقال أحمد وفي عينيه بسمة خبيثة:

ـ خالي ياسين صاحب مِلك، ولٰكنّه صاحب وظيفة أيضًا! . . .

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

ـ صاحب وظيفة وبس من فضلك، أمّا المِلك! كان يا ما كان، كيف يحتفظ بملكه مَن كان له أسرة كأسرتي؟!.

فهتفت زنّوبة في ارتياع:

ـ أسرتك؟!.

والتفت رضوان ـ قاطعًا الحديث الذي لا يحبّه ـ إلى أحمد قائلًا:

ـ إن شاء الله تجدنا في خدمتك في العام المقبل عندما تأخذ الليسانس! . . .

فقال أحمد:

ـ أشكرك جدًّا، لكنّني لن أتوظّف! . . .

ـ كيف؟ . . .

ـ الوظيفة خليقة بقتل أمثالي، مستقبلي في الميدان الحرّ! . . .

وهمّت خديجة بالاحتجاج، ولٰكنّها آثرت تأجيل العراك إلى حينه، أمّا رضوان فقال باسمًا:

ـ إذا غيّرت رأيك فستجدني في خدمتك!

فرفع أحمد يده إلى رأسه شاكرًا. وجاءت الخادم بأكواب الليمون المثلّجة، وفي فترة الصمت التي جعلوا فيها يحتسون، حانت التفاتة من خديجة نحو كريمة فكأنّما كانت تراها لأوّل مرّة منذ إفاقتها من مسألة عبد المنعم، فقالت برقّة:

ـ كيف حالك يا كريمة؟

فأجابتها الفتاة بصوت فيه رخامة:

ـ بخير يا عمّتي، متشكّرة. . .

وكادت خديجة تأخذ في إطراء جمالها، ولكنّ شيئًا ـ كالحذر ـ أوقفها. الواقع أنّها لم تكن أوّل مرّة تجيء بها زنّوبة معها منذ حجزت في البيت بعد أخذها الابتدائيّة. وقالت خديجة لنفسها إنّ هٰذه الأمور تُشَمّ

في الهواء شيًّا!. وإنّ كريمة إذ كانت ابنة زنّوبة فهي في الوقت نفسه ابنة ياسين، ومن هنا تجيء دقّة المسألة!. ولم يكن عبد المنعم يوفي كريمة حقّها من النظر لانشغاله بموضوعه، ولكن كان يعرفها حقّ المعرفة، على أنّه لم يكن قد برأ كلّ البرء من أثر وفاة زوجه، أمّا أحمد فلم يكن في فؤاده متّسع! وقال ياسين:

ـ كريمة ما زالت آسفة على عدم التحاقها بالمدرسة الثانويّة.

فقالت زنّوبة مقطّبة:

ـ وأنا آسفة أكثر...

فقال إبراهيم شوكت:

ـ إنّي أشفق على البنات من جهد الدراسة، ثمّ إنّ البنت في النهاية لبيتها، فلن يمضِ عام أو آخر حتّى تزفّ كريمة إلى صاحب القسمة السعيد...

يا مقطوع اللسان، هٰكذا قالت خديجة لنفسها، يفتح المواضيع الخطيرة وهو في غفلة عن نتائجها، يا له من موقف!. كريمة ابنة ياسين وأخت رضوان صاحب الفضل، لعلّه لا يكون لهٰذا القلق من سبب إلّا الوهم!، ولكن لماذا تكثر زنّوبة من زيارتنا جارّةً في يدها كريمة؟. ياسين لا يسمح له وقته بالتفكير والتدبير، أمّا ربيبة التخت!...

وقالت زنّوبة:

ـ هٰذا الكلام كان يقال في الزمن الماضي، أمّا اليوم فالبنات كلّهنّ يذهبن إلى المدارس...

فقالت خديجة:

ـ في حارتنا بنتان في المدارس العالية، ولٰكنّ شكلهما والعياذ بالله!...

فسأل ياسين أحمد:

ـ أليس في بنات كلّيّتك جمال؟

وخفق قلب أحمد، وتمثّلت لعينيه الصورة المعشّشة في قلبه، ثمّ أجاب:

ـ حُبّ العِلْم ليس قاصرًا على الدميمات...

فقالت كريمة باسمة، وهي تنظر صوب أبيها:

ـ المسألة تتوقّف على الآباء.

فضحك ياسين قائلًا:

ـ عفارم يا ابنتي! هٰكذا تتحدّث البنت الطيّبة عن أبيها، وهٰكذا كانت تخاطب عمّتك جدّك!.

فقالت خديجة متهكّمة:

ـ المسألة تتوقّف على الآباء حقًّا!...

فبادرتها زنّوبة قائلة:

ـ البنت معذورة، آه لو سمعت حديثه بين أولاده!.

فقالت خديجة:

ـ أنا عارفة وفاهمة!...

فقال ياسين:

ـ أنا رجل له آراؤه في التربية، أنا الأب الصديق، لا أحبّ أن يرتعد أبنائي خوفًا في محضري، أنا حتّى اليوم ينتابني الارتباك أمام أبي!...

فقال إبراهيم شوكت:

ـ الله يقوّيه ويصبّره على قعدة البيت! السيّد أحمد جيل وحده، وليس مثله أحد في الرجال...

فقالت خديجة منتقدة:

ـ قل له!.

فقال ياسين كالمعتذر:

ـ أبي جيل وحده، وا أسفاه أصبح هو وأصحابه قعيدي بيوتهم، ولم تكن الدنيا لتسعهم على رحابتها!...

وكان رضوان يقول لأحمد في حديث جانبيّ مستقلّ:

ـ بدخول إيطاليا الحرب أصبح الموقف بالنسبة لمصر شديد الخطورة...

ـ ربّما تحوّلت هٰذه الغارات الإسميّة إلى غارات فعليّة...

ـ ولٰكن هل لدى الإنجليز قوّة كافية لصدّ الزحف الإيطاليّ المتوقّع؟ لا شكّ أنّ هتلر سيترك مهمّة الاستيلاء على قناة السويس لموسوليني...

فتساءل عبد المنعم:

ـ هل تقف أمريكا متفرّجة؟

فقال أحمد:

ـ مفتاح الموقف الحقيقيّ في يد روسيا.

ـ لٰكنّها حليفة هتلر؟...

ـ الشيوعيّة عدوّة النازيّة، ثمّ إنّ الشرّ الذي يتهدّد

العالم بانتصار الألمان أضعاف ما يتهدّده بانتصار الديموقراطيّات...

فقالت خديجة:

ـ أظلموا لنا الدنيا يظلّم عيشتهم، وما هٰذه الأشياء التي لم نعرفها من قبل؟... صفّارات إنذارا... مدافع مضادّة... كشّافات، مصائب تشيّب الإنسان قبل الأوان!

فقال إبراهيم في سخرية هادئة:

ـ على أيّ حال الشيب في بيتنا ليس قبل الأوان...

ـ هٰذا عندك أنت وحدك!

كان إبراهيم في الخامسة والستّين، ولٰكنّه يبدو بالقياس إلى السيّد أحمد ـ الذي لم يكن يكبره إلّا بثلاث سنوات ـ كأنّما يصغره بعشرات السنين.

وعند انتهاء الزيارة، قال رضوان لعبد المنعم:

ـ زرني في الوزارة.

ولّما أغلق الباب وراء الذاهبين، قال أحمد لعبد المنعم:

ـ خذ بالك أن تدخل عليه دون استئذان، ادرس كيف تزور سكرتير وزيرا!

فلم يجبه ولم ينظر ناحيته...

٢٩

لم يجد أحمد مشقّة تُذكر في الاهتداء إلى فيلّا مستر فورستر ـ أستاذ علم الاجتماع ـ بالمعادي. وقد أدرك حال دخوله أنّه جاء متأخّرًا بعض الوقت، وأنّ كثيرًا من الطلبة الذين دُعوا مثله إلى الحفل الذي أقامه الأستاذ لمناسبة سفره إلى إنجلترا قد سبقوه إليه، واستقبله الأستاذ وحرمه، وقد قدّمه إليها باعتباره طالبًا من خير طلبة القسم، ثمّ مضى الشابّ إلى حيث جلس الطلبة في الفراندا، كان المجلس يتكوّن من طلبة قسم الاجتماع كافّة، وكان أحمد ضمن القلّة المنقولة للسنة النهائيّة، يشاركهم ذٰلك الشعور بالامتياز والتفوّق. ولم تكن واحدة من الطالبات قد حضرت، ولٰكنّه كان مطمئنًّا إلى مجيئهنّ، أو إلى مجيء «صديقته» التي كانت من سكّان المعادي. وألقى نظرة على الحديقة فرأى مائدة طويلة ممتدّة في أرض فضاء معشوشبة، تكتنفها من الجانبين أشجار الصفصاف والنخيل، وقد صُفّت فوقها أباريق الشاي وأوعية اللبن وأطباق الحلوى. ثمّ سمع طالبًا يتساءل:

ـ نلتزم بالآداب الإنجليزيّة أم ننقضّ على المائدة كالنسوو؟

فأجابه آخر فيما يشبه الأسف:

ـ آه لو لم توجد لادي فورسترا.

كان الوقت أصيلًا، ولٰكنّ الجوّ كان لطيفًا رغم شخصيّة يونيه الثقيلة، ثمّ ما لبث أن لاح السرب المنتظر عند مدخل الفيلّا. جئن معًا كأنّهنّ على ميعاد، وكنّ أربعًا هنّ جملة الطالبات بالقسم وبدت علويّة صبري وهي تخطر في فستان ناصع البياض مهفهف، جعل من كائنها اللطيف لونًا واحدًا بديعًا فيما عدا الشعر الأسود الفاحم، وعند ذاك شعر أحمد بقدم هازئة تحتكّ بقدمه كأنّما تنبّهه إن كان في حاجة إلى مَن ينبّهه، وكان سرّه قد ذاع من زمن... وتابعهنّ حتّى استقرّ بهنّ المجلس في ركن أُخلي لهنّ بالفراندا، ثمّ جاء مستر فورستر وزوجه، وقالت الزوجة موجّهة الخطاب إلى الطلبة، وهي تشير إلى الفتيات:

ـ هل تحتاجون إلى تعارف؟

فارتفع الضحك، وقال الأستاذ وكان ذا شخصيّة فائقة رغم مشارفته الخمسين:

ـ الأجدر أن تعرّفيهم بي أنا!

وضجّوا بالضحك مرّة أخرى، حتّى عاد مستر فورستر يقول:

ـ في مثل هٰذا الوقت من كلّ عام كنّا نغادر مصر إلى إنجلترا لقضاء العطلة، هٰذه المرّة لا ندري إن كنّا سنرى مصر مرّة أخرى أم لا!...

فقاطعته زوجه قائلة:

ـ ولا حتّى إن كنّا سنرى إنجلترا!...

وأدركوا أنّها تلمح إلى خطر الغوّاصات، فقال لها أكثر من صوت:

ـ حظّ سعيد يا سيّدتي...

وعاد الرجل يقول:

ـ سأحمل معي ذكريات جميلة من حياتنا المشتركة في كلّيّة الآداب، وعن مقاطعة المعادي الهادئة الجميلة، وعنكم أنتم الذين سأعتزّ حتّى بهذركم!

فقال أحمد مجاملًا:

ـ أمّا ذكراك فستبقى في نفوسنا دوامًا، وتنمو بنموّ عقولنا. . .

ـ شكرًا. . . (ثمّ مخاطبًا زوجه وهو يبتسم). . . أحمد شابّ جامعيّ كما ينبغي، وإن تكن له آراء ممّا تسبّب المتاعب عادة في بلده!

فقال زميل موضحًا:

ـ يعني أنّه شيوعيّ!.

فرفعت السيّدة حاجبيها باسمة، أمّا مستر فورستر فقال بلهجة ذات معنى:

ـ لم أقل أنا ذلك، ولكنّ زميله الذي قال!

ثمّ نهض الأستاذ وهو يقول:

ـ آن وقت الشاي، يجب ألّا يسرقنا الوقت، وسوف نجد بعد ذلك متّسعًا للسمر واللهو. . .

وكان عمّال جروبي قد أعدّوا المائدة ووقفوا متأهّبين للخدمة. . . وتوسّطت لادي فورستر جانب المائدة الذي جلس إليه الفتيات، على حين توسّط الأستاذ الجانب الآخر، وهو يقول معلّقًا على نظام الجلوس:

ـ كنا نودّ أن تكون الجلسة أكثر اختلاطًا، ولكنّنا راعينا الآداب الشرقيّة، أليس كذلك؟

فأجابه طالب بلا تردّد:

ـ للأسف هذا ما لاحظناه يا سيّدي!

وصبّ الخادم الشاي واللبن وبدأت المأدبة. لاحظ أحمد اختلاسًا أنّ علويّة صبري كانت أبرع زميلاتها ممارسة لآداب المائدة وأقلّهنّ ارتباكًا، بدت آلفة للحياة الاجتماعيّة، كأنّها في بيتها، وشعر بأنّ ملاحظة تناولها للحلوى ألذّ من الحلوى نفسها، هذه صديقته العزيزة التي تبادله الصداقة والمودّة دون أن تشجّعه على عبور حدودهما، وقال لنفسه: إن لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ!. وعلا صوت لادي فورستر وهي تقول:

ـ أرى ألّا تؤثّر قيود الحرب في تناولكم للحلوى!.

فعلّق طالب على قولها قائلًا:

ـ من المصادفات السعيدة أنّ الرقابة لم تفرض على الشاي بعد!

ومال مستر فورستر على أذن أحمد ـ وكان يجلس إلى يساره ـ وسأله:

ـ كيف تمضي العطلة؟ أعني ماذا تقرأ؟

ـ كثيرًا في الاقتصاد وقليلًا في السياسة، وأكتب بعض المقالات في المجلّات.

ـ أنصحك بأن تقدّم في الماجستير بعد الليسانس.

فقال أحمد بعد الانتهاء ممّا في فيه:

ـ ربّما فيما بعد، سأبدأ بالعمل في الصحافة، هذه خطّتي من قديم.

ـ حسن!

الصديقة العزيزة تحادث لادي فورستر بطلاقة، ما أسرع ما أتقنت الإنجليزية، والورود والأزهار تنضح بالحمرة والألوان كما ينضح القلب بالحبّ، في عالم الحرّيّة يزدهر الحبّ كالأزهار، الحبّ لا يكون عاطفة صحيحة طبيعيّة إلّا في بلد شيوعيّ. وقال مستر فورستر:

ـ من المؤسف أنّني لم أستكمل دراستي للّغة العربيّة، كنت أودّ أن أقرأ مجنون ليلى دون مساعدة أحد منكم!.

ـ المؤسف أنّك ستنقطع عن دراستها!. . .

ـ إلّا إذا سمحت الظروف فيما بعد. . .

وربّما وجدت نفسك مضطرًّا إلى تعلّم الألمانيّة، ألا يكون مضحكًا لو شهدت لندن مظاهرات تطالب بالجلاء وتهتف له؟ في أخلاق الإنجليز الشخصيّة فتنة، أمّا فتنة الصديقة العزيزة فمن نوع لا مثيل له، عمّا قليل تغيب الشمس فيجمعنا الليل في مكان واحد لأوّل مرّة، وإذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ!. وسأل أستاذه:

ـ وماذا أنت فاعل عقب وصولك إلى لندن؟

ـ دُعيت للعمل في الإذاعة.

ـ إذن لن ينقطع عنّا صوتك.

«مجاملة تُغتفر في هذا المجلس الذي تزيّنه صديقتي، إنّنا لا نسمع هنا إلّا الإذاعة الألمانيّة، شعبنا يحبّ الألمان ولو على سبيل الكراهية للإنجليز، والاستعمار أعلى مراحل الرأسماليّة، اجتماعنا بأستاذنا يخلق موقفًا

جديرًا بالتأمّل، نبرّره بالروح العلميّة ولٰكن ثمّة ارتطام بين حبّنا لأستاذنا وبغضنا لجنسه، والمأمول أن تقضي الحرب على النازيّة والاستعمار معًا، هنالك أخلص للحبّ وحده».

ثمّ عادوا إلى مجالسهم بالفراندا التي أضيئت مصابيحها، ولم تلبث لادي فورستر أن قالت:

ـ إليكم البيانو فليتفضّل أحدكم بإسماعنا لحنًا.

فرجاها طالب قائلًا:

ـ تفضّلي أنت بإسماعنا...

فنهضت في رشاقة الشباب الذي جاوزته بأعوام، ثمّ جلست إلى البيانو وفتحت النوطة وراحت تعزف لحنًا، لم يكن أحد منهم ذا إلمام بالموسيقى الغربيّة أو تذوّق لها، ولٰكنّهم أنصتوا في اهتمام بدافع الأدب والمجاملة. وحاول أن يستمدّ من حبّه قوّة سحريّة يفتح لها مغاليق اللحن، ولٰكنّه نسي اللحن في استراق النظر إلى وجه فتاته، والتقت عيناهما مرّة، فتبادلا ابتسامة لم تغب عن كثيرين، وفي نشوة الفرحة قال لنفسه: «أجل، إذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ»، وعلى أثر فراغ لادي فورستر من عزفها، عزف طالب لحنًا شرقيًّا، ثمّ خلصوا للسمر وقتًا غير قصير، وحوالى الساعة الثامنة مساء ودّعوا أستاذهم وأخذوا في الانصراف. ولبد أحمد عند منعرج طريق في ليل بالغ في جماله وحنانه، تحت مظلّة من الأشجار الباسقة، حتّى رآها قادمة وحيدة في طريقها إلى مسكنها، فبرز لها من المنعطف قاطعًا عليها الطريق، فتوقّفت في دهش وقالت:

ـ ألم تذهب معهم؟

فنفخ فيما يشبه التنهّد ليخفّف صدره من جيشانه، وقال بهدوء:

ـ تخلّفت عن القافلة لأقابلك!

ـ ترى ماذا يظنّون بتخلّفك؟

فقال باستهانة:

ـ هٰذا شأنهم!

وسارت في بطء وسار إلى جانبها، ثمّ تمخّض صبر الأيّام الطويلة عنه وهو يقول:

ـ أريد أن أسألك قبل عودتي: هل تسمحين لي بالتقدّم لخطبتك؟

فارتفع رأسها الجميل كردّ فعل لوقع المفاجأة، ولٰكن لم يندّ عنها صوت كأنّها لم تجد ما تقوله، وكان الطريق خاليًا وأضواء المصابيح متوارية خلف الطلاء الأزرق، فعاد يسائلها:

ـ أتسمحين لي؟

فقالت بصوت خافت لم يخلُ من عتاب:

ـ هٰذه طريقتك في الكلام ويا لها من طريقة، الواقع أنّك أذهلتني!

فضحك ضحكة خفيفة، وقال:

ـ أعتذر عن ذٰلك، وإن كنت أظنّ أنّ تاريخ صداقتنا الطويل لا يجعل من قولي مفاجأة تذهل.

ـ تعني صداقتنا وتعاوننا الثقافيّ؟

فلم يرتح لقولها، ولٰكنّه قال:

ـ أعني عاطفتي غير الخفيّة التي اتّخذت شكل الصداقة والتعاون الثقافيّ كما قلت!...

فتساءلت في صوت باسم غير خال من اضطراب:

ـ عاطفتك الخفيّة؟!

فقال بعناد وإخلاص:

ـ أعني حبّي! الحبّ لا يخفى، إنّنا عادة لا نتكلّم لنعلنه، وإنّما لنسعد بسماع إعلاننا له...

فقالت مماطلة حتّى تستردّ هدوءها:

ـ الأمر كلّه مفاجأة لي...

ـ يؤسفني أن أسمع هٰذا.

ـ لماذا تأسف؟ الواقع أنّني لا أدري ماذا أقول...

ضاحكًا:

ـ قولي «أسمح لك» ودعي الباقي لي...

ـ ولٰكن، ولٰكن... أنا لا أعرف شيئًا، معذرة، كنّا أصدقاء حقًّا ولٰكنّك لم تحدّثني عن...، أعني لم تسمح الظروف بأن تحدّثني عن شخصك!...

ـ ألم تعرفيني؟

ـ عرفتك طبعًا، ولٰكن ثمّة أمور أخرى ينبغي أن تُعرف...

أتعني هٰذه الأمور التقليديّة؟ يا لها من أسئلة خليقة بقلب لم يأسره الحبّ!. وشعر بامتعاض، بيد أنّه ازداد عنادًا فقال:

ـ سيجيء كلّ شيء في حينه. . .

فتساءلت، وكانت قد ملكت زمام نفسها:

ـ أليس الآن حينه؟

فابتسم ابتسامة فاترة، وقال:

ـ لك حقّ، تعنين المستقبل؟

ـ طبعًا!

وأحنقته «طبعًا». أمل أن يسمع أغنية فسمع محاضرة معادة!. ولٰكن يجب ألّا تخونه ثقته في نفسه مهما يكن الأمر. العزيزة الباردة لا تدري كم يسعده إسعادها!.

ـ سأجد بعد تخرّجي عملًا. . .

ثمّ بعد لحظات من الصمت:

ـ وسيكون لي يومًا دخل لا بأس به!

فتمتمت في حياء:

ـ كلام عامّ. . .

فقال وهو يداري ألمه بالهدوء:

ـ سيكون المرتّب في الحدود المعروفة، أمّا الدخل فحوالى عشرة جنيهات. . .

وساد الصمت. لعلّها تزن الأمور وتفكّر. هٰذا هو التفسير المادّيّ للحبّ!. كان يحلم بالجنون العذب ولٰكن أين منه هٰذا؟. هٰذا البلد عجيب يندفع في السياسة وراء العاطفة، ويتبع في الحبّ دقّة المحاسبين. وأخيرًا جاء الصوت الرقيق قائلًا:

ـ لندع الدخل جانبًا، فلا يجمل أن ترتّب حياتك على أساس تقدير اختفاء الأعزّاء من حياتك. . .

ـ أردت أن أقول لك إنّ والدي من ذوي الأملاك. . .

فقالت بجهد برّر فترة التردّد التي سبقته:

ـ فلنكن واقعيّين. . .

ـ قلت إنّي سأجد عملًا، وستجدين من ناحيتك عملًا أيضًا. . .

فضحكت ضحكة غريبة:

ـ كلّا لن أشتغل، لم أذهب إلى الجامعة لأتوظّف كسائر الزميلات. . .

ـ ليس العمل عيبًا. . .

ـ طبعًا، ولٰكنّ والدي. . . الواقع أنّنا جميعًا متّفقون على هٰذا، لن أشتغل.

وكان قد بردت عواطفه واستغرقه البحث، فقال:

ـ ليكن، أشتغل أنا. . .

فقالت بصوت كأنّما تعمّدت أن يكون رقيقًا فوق العادة:

ـ أستاذ أحمد، فلنؤجّل الحديث، أعطني مهلة للتفكير. . .

فضحك ضحكة فاترة، وقال:

ـ قلّبنا الأمر على كافّة وجوهه، ولٰكنّك في حاجة إلى مهلة لتدبّري الرفض!

فقالت بصوت حييّ:

ـ ينبغي أن أحادث والدي.

ـ هٰذا بدهيّ، ولٰكن كان من الممكن أن ننتهي إلى رأي قبل ذٰلك!

ـ مهلة ولو قصيرة!. . .

ـ نحن في يونيه، وستسافرين إلى المصيف، ولن نلتقي إلّا في أكتوبر القادم في الكلّيّة!؟

قالت بإصرار:

ـ لا بدّ من مهلة للتفكير والتشاور!

ـ إنّك لا تريدين أن تتكلّمي. . .

وإذا بها تتوقّف عن المسير فجأة، وتقول في دأب وعزم معًا:

ـ أستاذ أحمد، إنّك تأبى إلّا أن تحملني على الكلام، أرجو أن تتقبّل كلامي بصدر سمح، لقد فكّرت في موضوع الزواج من قبل كثيرًا، لا بالقياس إليك ولٰكن بصفة عامّة، وانتهيت منه ـ ووافقني على ذٰلك والدي ـ بأنّ حياتي لن تستقيم، وإنّني لن أحافظ على مستواي، إلّا إذا تهيّأ لي ما لا يقلّ عن خمسين جنيهًا شهريًّا. . .

وتجرّع خيبة مريرة لم يتوقّع ـ على أسوأ الفروض ـ أن تبلغ مرارتها هٰذه الدرجة، وتساءل:

ـ وهل يملك موظّف ـ أعني في سنّ الزواج ـ هٰذا المرتّب الضخم؟

ولٰكنّها لم تنبس، فعاد يقول:

ـ إنّك تريدين زوجًا ثريًّا!

ـ آسفة جدًّا، ولٰكنّك أجبرتني على مصارحتك برأيي.

فقال بصوت غليظ:

ـ هٰذا أفضل على أيّ حال...

فعادت تغمغم:

ـ آسفة!...

وثار غضبه، ولٰكنّه بذل جهدًا صادقًا كيلا يخرج عن حدود الأدب، ثمّ وجد رغبة لا تقاوم في أن يصارحها برأيه فتساءل:

ـ أتسمحين لي أن أصارحك برأيي؟

فبادرته قائلة:

ـ كلّا، إنّي أعرف الكثير عن آرائك، وأرجو أن نبقى صديقين كما كنّا!...

ورثى رغم غضبه لحالها، هٰذه هي الحقيقة العارية قبل أن يلطّفها الحبّ. التي تهرب مع خادمها امرأة طبيعيّة وإن عدّت ـ بعين التقاليد ـ شاذّة. في المجتمع المختلّ يبدو الصحيح مريضًا والمريض صحيحًا، إنّه غاضب ولٰكنّ تعاسته أكبر من غضبه، إنّها على أيّ حال تحدس رأيه وفي هٰذا عزاء، ومدّت يدها للمصافحة فتلقّاها بيده، ثمّ أبقاها فيها حتّى وسعه أن يقول:

ـ قلت إنّك لم تدخلي الجامعة لتتوظّفي، قول جميل في ذاته، ولٰكن إلى أيّ مدى انتفعت بالجامعة؟

وارتفع ذقنها كالمتسائلة، لٰكنّه قال بلهجة لم تخل من سخرية:

ـ معذرة عن سخافتي، لعلّ المسألة أنّك لم تحبّي بعد، مع السلامة...

ودار على عقبيه، ثمّ ولّى مسرعًا.

٣٠

قال إسماعيل لطيف:

ـ لعلّي أخطأت بحمل زوجي إلى القاهرة كي تلد فيها، كلّ ليلة تنطلق صفّارة الإنذار، أمّا طنطا فلم نكن نعرف شيئًا عن أهوال هٰذه الحرب.

فقال كمال:

ـ إنّها غارات رمزيّة لو أرادوا بنا شرًّا ما منعتهم قوّة!

فضحك رياض قلدس، وقال مخاطبًا إسماعيل لطيف، وكانت هٰذه ثاني مقابلة بينهما في مدى تعارف عامّ:

ـ أنت تخاطب رجلًا لا يشعر بمسئوليّة الزوج!.

فسأله إسماعيل متهكّمًا:

ـ وهل تشعر بها أنت؟

ـ حقًّا أنا أعزب مثله، غير أنّي لست عدوًّا للزواج...

كانوا يسيرون في شارع فؤاد الأوّل، في مطلع الليل، في ظلام لم تخفّفه الأضواء الضئيلة التي تتسرّب من أبواب المحالّ العامّة، وكان الشارع رغم ذٰلك مكتظًّا بالنساء والرجال والجنود البريطانيّين على اختلاف أنواعهم. وكان الخريف يبعث أنفاسًا رطيبة، ولٰكنّ أكثر الناس مضوا في الملابس الصيفيّة. ونظر رياض قلدس إلى جماعة من الجنود الهنود وقال:

ـ من المحزن أن يبتعد الإنسان عن وطنه هٰذه المسافة المديدة، ليُقتل في سبيل غيره!

فقال إسماعيل لطيف:

ـ ترى كيف يتأتّى لهٰؤلاء التعساء أن يضحكوا؟!.

فقال كمال ممتعضًا:

ـ كما نضحك نحن في هٰذه الدنيا الغريبة، الخمر والمخدّرات واليأس.

فضحك رياض قلدس قائلًا:

ـ إنّك تعاني أزمة فريدة، كلّ ما عندك مزعزع الأركان، عبث وقبض الريح، نضال أليم مع أسرار الحياة والنفس، وملل وسقم، إنّي أرثي لك.

فقال إسماعيل لطيف ببساطة:

ـ تزوّج، إنّي مررت بهٰذا الملل قبل زواجي...

فقال رياض قلدس:

ـ قل له!...

فقال كمال، وكأنّما يخاطب نفسه:

ـ الزواج هو التسليم الأخير في هٰذه المعركة الفاشلة...

وأخطأ إسماعيل في المقارنة، إنّه حيوان مهذّب، ولٰكن مهلًا لعلّه الغرور، فيم الغرور وأنت ترقد فوق تلّ من الخيبة والفشل، إسماعيل لا يدري شيئًا عن

دنيا الفكر، ولٰكنّ السعادة المستمدّة من العمل والزوجة والأولاد، أليست سعادة جديرة بأن تسخر من احتقارك لها؟» قال رياض:

ـ إذا قرّرتُ يومًا أن أؤلّف رواية، فستكون أحد أبطالها!.

فاتّجه كمال نحوه في اهتمام صبيانيّ، وسأله:

ـ ماذا ستصنع منّي؟

ـ لا أدري، ولٰكن ينبغي أن توطّن نفسك على ألّا تزعل، فإنّ كثيرين ممّن قرأوا أنفسهم في أقاصيصي قد زعلوا...

ـ لماذا؟...

ـ لعلّه لأنّ لكلّ إنسان فكرة عن شخصه من خلقه هو، فإذا جرّده الروائيّ منها أبى وغضب!...

فتساءل كمال في قلق:

ـ ألديك فكرة عنّي غير ما تعلن؟.

فبادره في توكيد قائلًا:

ـ كلّا، ولٰكنّ الروائيّ قد يبدأ من شخص ثمّ ينساه كلّيّة وهو بصدد خلق نموذج بشريّ جديد، لا صلة بينه وبين الأصل إلّا الإيحاء، وإنّك توحي إليّ بشخصيّة الرجل الشرقيّ الحائر بين الشرق والغرب، الذي دار حول نفسه كثيرًا حتّى أصابه الدوار.

«يتكلّم عن الشرق والغرب، ولٰكن من أين له أن يعرف عايدة؟. قد تكون التعاسة متعدّدة الجوانب».

وقال إسماعيل لطيف في بساطة مرّة أخرى:

ـ طول عمرك تخلق لنفسك المتاعب، الكتب في نظري أساس بلواك، لماذا لا تجرّب الحياة الطبيعيّة؟

وبلغوا في مسيرهم منعطف عماد الدين فمالوا إليه، وقد اعترضهم جماعة كبيرة من الإنجليز فتفادوا منها، وقال إسماعيل لطيف:

ـ إلى جهنّم، من أين لهم بهٰذا الأمل؟!. ترى هل يصدّقون أنفسهم؟.

فقال كمال:

ـ يخيّل إليّ أنّ نتيجة الحرب قد تقرّرت غايتها الربيع القادم...

فقال رياض قلدس ممتعضًا:

ـ النازيّة حركة رجعيّة غير إنسانيّة، وسوف يتضاعف شقاء العالم تحت أقدامها الحديديّة...

فقال إسماعيل:

ـ ليكن ما يكون، المهمّ أن نرى الإنجليز في نفس الموضع الذي فرضوه على العالم الضعيف!...

وقال كمال:

ـ ليس الألمان بخير من الإنجليز...

فقال رياض قلدس:

ـ ولٰكنّنا انتهينا مع الإنجليز إلى برّ، والاستعمار البريطانيّ يوغل في الشيخوخة، ولعلّه قد تلطّف ببعض المبادئ الإنسانيّة، ولٰكنّنا سنتعامل غدًا مع استعمار فتيّ مغرور شرّه غنى حرب، فما العمل؟

فضحك كمال ضحكة تحمل نغمة جديدة، وقال:

ـ نشرب كأسين ونحلم بعالم واحد تسيطر عليه حكومة واحدة عادلة!...

ـ سنحتاج حتمًا إلى أكثر من كأسين...

ووجدوا أنفسهم أمام حانة جديدة لم يروها من قبل، لعلّها من الحانات «الشيطانيّ» التي تخلقها ظروف الحرب بين يوم وليلة، وحانت من كمال نظرة إلى داخلها فرأى امرأة بيضاء ذات جسم شرقيّ تقوم على إدارة الحانة، ثمّ جمدت قدماه فلم يتحرّك من موقفه، أو بالأحرى لم يستطع أن يتحرّك حتّى اضطرّ صاحباه أن يتوقّفا عن المسير وينظرا إلى حيث ينظر... مريم!. لم تكن إلّا مريم دون غيرها، مريم الزوجة الثانية لياسين، مريم جارة العمر، في هٰذه الحانة بعد اختفاء طويل، مريم التي ظنّ بها أنّها لحقت بأمّها!...

ـ أتريد أن نجلس ها هنا؟. هلمّ فليس بالداخل إلّا أربعة جنود...

وتردّد مليًّا، ولٰكنّ شجاعته لم تواته فقال ولمّا يفق من ذهوله:

ـ كلّا...

وألقى نظرة على المرأة التي ذكّرته بأمّها في أيّامها الأخيرة، ثمّ انطلقوا في طريقهم، متى رآها آخر مرّة؟. منذ ثلاثة أو أربعة عشر عامًا على الأقلّ، إنّها معلم من معالم الماضي الذي لا يُنسى، ماضيه... تاريخه... ماهيّته... كلّ أولٰئك شيء واحد، وقد

استقبلته في قصر الشوق في آخر زيارة لهذا البيت قبل طلاقها، وما زال يذكر كيف شكت إليه اعوجاج أخيه وارتداده إلى حياة العربدة والمجون، شكوى لم يكن يقدّر عواقبها وقد انتهت بها إلى ذلك الدور الذي تلعبه في هذه الحانة «الشيطاني»، ومن قبل ذلك كانت كريمة السيّد محمّد رضوان، وكانت صديقته وملهمة أحلامه في الصبا الأوّل، في ذلك الزمان الذي شهد البيت القديم عامرًا بالأفراح والسلام، كانت مريم وردة وكانت عائشة وردة ولكنّ الزمن عدوّ لدود للورود، وربّما كان من المحتمل أن يعثر عليها في بيت من هذه البيوت كما عثر بالستّ جليلة، ولو وقع هذا لكان وجد نفسه في مأزق وأيّ مأزق، هكذا بدأت مريم بالإنجليز وانتهت بالإنجليز...

- أتعرف هذه المرأة؟.

- نعم...

- كيف؟.

- امرأة من هاتيك النسوة، ولعلّها نسيتني!...

- أوه، الحانات ملأى بهنّ، مومسات قديمات، وخادمات متمرّدات، ومن كلّ لون...

- نعم...

- ولِمَ لَمْ تدخل فلعلّها كانت ترحّب بنا إكرامًا لك...؟

- لم نعد في طور الشباب ولدينا أماكن أفضل...

تقدّم به العمر وهو لا يدري، منتصف الحلقة الرابعة، وكأنّما قد استهلك نصيبه من السعادة، وإذا قارن بين تعاسته الراهنة وتعاسته الماضية لم يدر أيّها أشدّ، ولكن ماذا يهمّ العمر وقد ضاق بالحياة؟ حقًّا إنّ الموت لذّة الحياة، ولكن ما هذا الصوت؟.

- غارة!...

- أين نذهب؟...

- إلى مخبأ قهوة ركس...

لم يجدوا في المخبأ مكانًا خاليًا للجلوس فوقفوا، وكان ثمّة أفنديّة وخواجات وسيّدات وأطفال، وكان الكلام يدور بشتّى اللغات واللهجات. وأصوات رجال المقاومة المدنيّة في الخارج تهتف «أطفئ النور»، وبدا وجه رياض شاحبًا، وكان يمقت دويّ المدافع، فقال له كمال مداعبًا:

- قد لا تتمكّن من العبث بشخصي في روايتك...

فضحك ضحكة عصبيّة وقال وهو يومئ إلى الناس:

- البشريّة ممثّلة بنسبة عادلة في هذا المخبأ...

فقال كمال متهكّمًا:

- لو اجتمعوا على خير كما يجتمعون على الخوف!...

وهتف إسماعيل متنرفزًا:

- زمان زوجي نازلة على السلّم تتلمّس طريقها في الظلام، إنّي أفكّر جدّيًّا في العودة إلى طنطا غدًا...

- إن عشنا!.

- مساكين حقًّا أهل لندن!.

- لكنّهم أصل البلاء كله...

وكان وجه رياض قلدس يزداد شحوبًا، ولكنّه دارى اضطرابه بالكلام فسأل كمال:

- سمعتك تتساءل مرّة أين محطّة الموت لأغادر مركبة الحياة المملّة، فهل يهون عليك أن تنسفنا قنبلة الآن؟

فابتسم كمال، وكان يرهف السمع في قلق متزايد متوقّعًا بين لحظة وأخرى أن ينطلق مدفع فيصكّ الآذان، وأجاب:

- كلّا... (ثمّ كالمتسائل)... لعلّه الخوف من الألم؟.

- أم ثمّة أمل غامض في الحياة ما زال يضطرب في أعماقك؟.

لماذا لم ينتحر؟. ولِمَ يبدو ظاهر حياته كأنّما يمتلئ حماسًا وإيمانًا؟. طالما نازعته النفس إلى النقيضين: وكر الشهوات والتصوّف، ولكنّه لم يكن ليطيق حياة خالصة للدعة والشهوات، ومن ناحية أخرى كان ثمّة شيء في أعماقه ينفر من فكرة السلبيّة والهروب، ولعلّه - هذا الشيء - الذي حال بينه وبين الانتحار، وفي ذات الوقت فإنّ استمساكه بحبل الحياة المضطرب في يديه مناقض لصميم شكّه القاتل، والخلاصة في كلمتين: حيرة وعذاب!.

وفجأة انطلقت المدافع كالمطر، لا تتيح للصدر

متنفّسًا، وزاغت الأبصار، وضلّت الألسن، ولٰكنّ الضرب لم يستمرّ أكثر من دقيقتين بالحساب الزمنيّ، وتوقّع الناس عودة بغيضة إلى الدويّ المرعب، واستبدّ الفزع بالنفوس، غير أنّ الصمت ساد وعمق، وتساءل إسماعيل لطيف:

- إنّي أتخيّل حال زوجي الآن، ترى متى تنتهي الغارة؟

فتساءل رياض قلدس:

- متى تنتهي الحرب؟

وما لبث أن انطلقت صفّارة الأمان فندّ عن المخبأ تنهّد عميق، وقال كمال:

- ليست إلّا مداعبة إيطاليّة!...

وغادروا المخبأ في الظلام كالخفافيش، ولفظت الأبواب أشباحًا وراء أشباح، ثمّ تساقط الضوء الباهت متتابعًا من النوافذ، وملأت الضجّة الأركان... يبدو أنّ الحياة - في هٰذه اللحظة السريعة المعتمة - ذكّرت كلّ غافل بمدى قيمتها الذي لا يُقاس به شيء في الوجود...

٣١

اتّخذ البيت القديم مع الزمن صورة جديدة تنذر بالانحلال والتدهور. انفرط نظامه وتقوّض مجلسه، وكان النظام والمجلس روحه الأصيل. ففي نصف النهار الأوّل يغيب كمال في المدرسة، وتمضي أمينة إلى جولتها الروحيّة ما بين الحسين والسيّدة، وتنزل أمّ حنفي إلى حجرة الفرن، ويتمدّد السيّد على الكنبة في حجرته أو يجلس على كرسيّ في المشربيّة، وتهيم عائشة على وجهها ما بين السطح وحجرتها، ويظلّ الراديو في الصالة يهتف وحده، وعند الأصيل تجتمع أمينة وأمّ حنفي في الصالة، وتلبث عائشة في حجرتها، أو تمكث معهما بعض الوقت ثمّ تذهب، أمّا السيّد فلا يغادر حجرته، وكمال إن عاد من الخارج مبكرًا فلكي يقبع في الدور الأعلى في مكتبه. وكان اعتكاف السيّد أوّل الأمر محزنًا، ثمّ صار عادة عنده وعند الآخرين، وكان حزن عائشة مفجعًا ثمّ صار عادة عندها وعند الآخرين، وما زالت أمينة أوّل من يستيقظ، فتوقظ بدورها أمّ حنفي، ثمّ تتوضّأ وتصلّي، وتنهض أمّ حنفي - وكانت نسبيًّا خير الجميع صحّة - فتقصد حجرة الفرن، وتفتح عائشة عينين ثقيلتين فتقوم لتحسو أقداح القهوة تباعًا وتحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى حتّى إذا دُعيت للفطور تناولت لقيمات. وقد اضمحلّت أيّما اضمحلال، وانقلبت هيكلًا عظميًّا كسي جلدًا باهتًا، وأخذ شعرها في السقوط حتّى اضطرّت إلى اللجوء إلى الطبيب قبل أن يدركها الصلع، وتكالبت عليها العلل حتّى أشار عليها الطبيب بالتخلّص من أسنانها، فلم يبق من شخصها القديم إلّا الاسم. ولم تكن أقلعت عن عادة النظر في المرآة، لا لتأخذ زينة، ولٰكن بحكم العادة من ناحية، وللإمعان في الحزن من ناحية أخرى، وربّما بدت أحيانًا وكأنّها أذعنت للمقادير في استسلام لطيف، فتطيل من جلستها مع أمّها، وتشارك في الحديث الدائر، وربّما افترّت شفتاها الذابلتان عن ابتسامة، أو تزور والدها لتسأل عن صحّته، أو تتمشّى في حديقة السطح وترمي بالحبّ إلى الدجاج، هناك تقول أمّها برجاء:

- كم أسعدت قلبي يا عائشة، ليتني أراك دائمًا على هٰذه الحال!

على حين تجفّف أمّ حنفي عينيها قائلة:

- فلنذهب إلى حجرة الفرن لنصنع شيئًا جميلًا!

ولٰكن عند منتصف الليل استيقظت أمّها على صوت بكاء آت من حجرتها، فهرعت إليها محاذرة أن توقظ الرجل النائم، فوجدتها جالسة في الظلام تنتحب، ولمّا شعرت بدنوّ أمّها تعلّقت بها هاتفة:

- لو تركتْ لي ما كان في بطنها! ظلًّا منها! يداي فارغتان، والدنيا لا شيء فيها...

فاحتضنتها أمّها وهي تقول:

- إنّي أعلم الناس بحزنك، حزن يجلّ عن العزاء، ليتني كنت فداهم، ولٰكنّ لله جلّ وعلا حكمته، وما جدوى الحزن يا مسكينة!؟...

- كلّما نمت حلمت بهم، أو حلمت بالحياة الأولى...

ـ وحِّدي الله، ذقت ما تعانين طويلاً، أنسيت فهمي؟ ولكنّ المؤمن المُصاب مطالَب بالصبر، أين إيمانك؟.

فهتفت في امتعاض:

ـ إيماني! . . .

ـ نعم، اذكري إيمانك، وتوسّلي إلى ربّك تنزل عليك الرحمة من حيث لا تدرين. . .

ـ الرحمة! . . . أين الرحمة أين؟!.

ـ رحمته وسعت كلّ شيء، طاوعيني وتعالي معي إلى الحسين، ضعي يدك على الضريح واتلي الفاتحة تتحوّل نارك إلى برد وسلام كنار سيّدنا إبراهيم. . .

ولم يكن موقفها حيال صحّتها دون ذلك اضطرابًا، فحينًا تتردّد على الأطبّاء في مثابرة وانتظام حتّى يظنّ بها العودة إلى الاستمساك بأهداب الحياة، وحينًا تهمل نفسها وتزدري كافّة النصائح لدرجة الانتحار. أمّا زيارة القرافة فهي التقليد الوحيد الذي لم تشذّ عنه مرّة واحدة، وكانت تنفق فيها بسخاء وتهبها عن طيب خاطر كلّ ما ملكت يمينها من ميراث زوجها وابنتها حتّى استحال حول المقبرة حديقة غنّاء موشّاة بالأزهار والرياحين. ويوم جاءها إبراهيم شوكت لإتمام إجراءات الميراث ضحكت ضحكة مجنونة وقالت لأمّها:

ـ هنّئيني على ميراثي من نعيمة. . .

وكان كمال يمرّ بها كلّما آنس منها استقرارًا، فيجالسها مليًّا ملاطفًا متودّدًا. كان يتأمّلها طويلًا صامتًا، ويتخيّل محزونًا الصورة الذاهبة التي أبدع الله صنعها، ثمّ يتفحّص ما آلت إليه. لم تكن هزيلة فحسب، ولا مريضة فحسب، ولكن محزنة بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ولم يغب عنه ما بينهما من أوجه الشبه في الحظّ، فهي قد فقدت ذرّيّتها وهو قد فقد آماله، وانتهت إلى لا شيء كما انتهى إلى لا شيء، بل كان أبناؤها لحمًا ودمًا أمّا آماله فكانت كذبًا وأوهامًا!. وقال لهم يومًا:

ـ أليس من الأفضل أن تذهبوا إلى المخبأ إذا أطلقت صفّارة الإنذار؟

فقالت عائشة:

ـ لن أغادر حجرتي. . .

وقالت الأمّ:

ـ إنّها غارات آمنة ومدافع كالصواريخ. . .

أمّا أبوه فجاء صوته من الداخل وهو يقول:

ـ لو أنّ بي قدرة على الذهاب إلى المخبأ لذهبت إلى الجامع أو إلى بيت محمّد عفّت. . .

ويومًا جاءت عائشة من السطح مهرولة وهي تلهث وقالت لأمّها:

ـ حدث شيء عجيب! . . .

فنظرت إليها أمّها في استطلاع مشوب بالرجاء، فعادت تقول وهي ما تزال تلهث:

ـ كنت في السطح أراقب غروب الشمس، وكنت على حال من اليأس لم أشعر بمثلها من قبل، وفجأة فتحت في السماء نافذة من نور بهيج فصحْتُ بأعلى صوتي «يا ربّ».

اتّسعت عينا الأمّ في تساؤل، أهي الرحمة المنشودة أم هاوية جديدة من الأحزان؟ وتمتمت:

ـ لعلّها رحمة ربّنا يا ابنتي! . . .

فقالت ووجهها يتهلّل بشرًا:

ـ نعم، صحت يا ربّ، وكان النور يملأ الدنيا. . .

وراحوا جميعًا يفكّرون في الأمر ويراقبون الحال في قلق بالغ. أمّا عائشة فكانت تقف الساعات بموقفها من السطح مترقّبة النور أن يومض مرّة أخرى، حتّى قال كمال لنفسه «ترى أهي النهاية التي يهون إلى جانبها الموت؟» ولكن من حسن الحظّ ـ حظّ الجميع ـ أنّها تناست الأمر مع الأيّام ولم تعد تذكره، ثمّ لم تزل توغل في دنيا خاصّة خلقتها لنفسها، وعاشت فيها وحدها، وحدها سواء أكانت منفردة في حجرتها أو جالسة بينهم، إلّا ساعات متباعدة تثوب فيها إليهم كالعائدة من سفر، ثمّ لا تلبث أن تواصل الرحيل. والتصقت بها عادة جديدة هي محادثة نفسها، خاصّة حين انفرادها، وشدّ ما أثارت بذلك القلق، غير أنّها كانت تخاطب أمواتًا وهي مدركة لحال موتهم، ولم تتخيّل أمواتًا أو أشباحًا، وفي ذلك كان عزاء المحيطين بها. . .

٣٢

ما أقسى البرد هٰذا الشتاء! يذكّر بشتاء قديم ظلّ الناس يؤرّخون به جيلًا، شتاء أيّ عام يا ترى؟ ربّاه أين الذاكرة التي تعي ذٰلك أين؟ غير أنّ القلب العجوز يحنّ إليه في مجهوله، فهو جزء من الماضي الذي تهيّج ذكراه الدموع في مكامنها، الماضي الذي كان يستيقظ فيه مبكّرًا فيستحمّ تحت الدشّ غير مبالٍ برد الشتاء ثمّ يملأ بطنه وينطلق إلى دنيا الناس، دنيا الحركة والحرّيّة التي لا يعرف اليوم عنها شيئًا اللّٰهمّ إلّا ما يجود به الرواة، وكأنّهم يحدّثون عن عالم في أقصى الأرض. كانت له الحرّيّة والقدرة على أن يجلس على الكنبة في الحجرة أو على الكرسيّ في المشربيّة وكان مع ذٰلك يضيق بسجن البيت، وكان يذهب حين الحاجة إلى الحمّام أو يغيّر ملابسه بنفسه ومع ذٰلك لعن قعدة البيت، وكان له يوم في الأسبوع يستطيع أن يغادر البيت متوكّئًا على عصاه أو راكبًا عربة فيزور الحسين أو بيت أحد الأصدقاء ومع ذٰلك فطالما دعا الله أن ينقذه من محبس البيت. أمّا اليوم فلم يسعه أن يغادر الفراش، ولم تعد حدود عالمه تجاوز أطراف هٰذه الخشبيّة، حتّى الحمّام يجيء إليه ولا يذهب هو إليه، قذارة لم تكن في الحسبان، حتّى استقرّ الامتعاض على شفتيه، وأسكنت المرارة في لعابه، على هٰذه الخشبيّة يرقد نهارًا وينام ليلًا ويتناول طعامه ويقضي حاجته. وهو مَن كان يُضرب بأناقته المثل ويسير الشذا الطيّب بين يديه، وفي هٰذا البيت الذي استكان عمره لإرادته المطلقة غدا ينظر فلا يلقى إلّا نظرات الرثاء أو يرجو فيعاتب كالأطفال، وذهب الأحباب في فترات متقاربة من الزمن كأنّهم كانوا على ميعاد، ذهبوا وتركوه وحيدًا، عليك رحمة الله يا محمّد يا عفّت، كان آخر العهد به سهرة من ليالي رمضان في السلاملك المطلّ على الحديقة، ثمّ ودّعه ومضى وضحكته العالية توصله إلى الباب، وما كاد يأوي إلى حجرته حتّى طرق الباب طارق وهرع إليه رضوان وهو يقول «جدّي مات يا جدّي»، يا سبحان الله... متى؟... وكيف؟... ألم يضاحكنا منذ دقائق؟ ولكنّه سقط على وجهه وهو في طريقه إلى مخدعه، هٰكذا انطوى حبيب العمر. وعليّ عبد الرحيم الذي احتضر ثلاثة أيّام كاملة، سعال حادّ متقطّع حتّى فزعنا إلى الله أن يحسن خاتمته ويريحه من الألم، واختفى من دنياي أليف الروح عليّ عبد الرحيم، وقد ودّع هٰذين الحبيبين أمّا إبراهيم الفار فلم يودّعه، كان اشتداد المرض قد أقعده في فراشه ومنعه عن عيادته فنعاه إليه خادمه، وحتّى الجنازة لم يشيّعها فشيّعها عنه ياسين وكمال. فإلى رحمة الله يا ألطف الناس طرًّا، ومن قبل هٰؤلاء مات حميدو والحمزاوي وعشرات من المعارف والأصحاب، تركوه وحيدًا كأنّه لم يعرف من الناس أحدًا، لا زائر له ولا عائد، وجنازته لن يشيّعها صديق، حتّى الصلاة حيل بينه وبينها، وهل يتمتّع بالطهر إلّا ساعات عقب استحمام لا يجود به أولياء الأمر إلّا مرّة كلّ أشهر؟ فحُرم من الصلاة وهو أشدّ ما يكون حاجة إلى مناجاة الرحمٰن في هٰذه الوحدة الموحشة. هٰكذا تمضي الأيّام، الراديو يتكلّم وهو يسمع، وأمينة تذهب وتجيء، وشدّ ما ركبها الوهن، غير أنّها لم تعتد الشكوى، إنّها ممرّضته وأخوف ما يخاف أن تحتاج غدًا إلى مَن يمرّضها، وهي كلّ ما بقي له، أمّا ياسين وكمال فيمكثان عنده ساعة ثمّ يذهبان، ودّ لو لم يفارقاه، ولٰكنّها أمنية لا يستطيع أن يعلنها ولن يستطيعا أن يحقّقاها، أمينة وحدها التي لا تملّه، وإذا ذهبت لزيارة الحسين فلكي تدعو له، والعالم بعد ذٰلك فراغ. وإنّ يوم زيارة خديجة له ليوم يستحقّ الانتظار، تجيء وفي صحبتها إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، فتمتلئ الحجرة بالأحياء وتتبدّد وحشتها، وقليلًا ما يتكلّم هو أمّا هم فيتكلّمون كثيرًا، ومرّة خاطبهم إبراهيم قائلًا: «أريحوا السيّد من ثرثرتكم»، فقال له معاتبًا: «دعهم يتكلّموا... أريد أن أسمعهم!». ودعا لابنته بالصحّة وطول العمر ودعا لزوجها وابنيها، وكان يعلم بأنها تودّ لو تسهر على راحته بنفسها، وكان يطالع في عينيها حنانًا ما وراءه حنان، ويومًا سأل ياسين في شوق واستطلاع باسمًا:

- أين تمضي سهراتك؟

فقال في حياء:

- اليوم الإنجليز في كلّ مكان كأيّام زمان...

أيّام زمان! أيّام القوّة والبأس، والضحك الذي تهتزّ لـه الجدران، وسهـرات الغوريّة والجماليّة، والناس الذين لم يبق منهم إلّا أسماء، زبيـدة وجليلة وهنيّة، ترى ألا تذكر أمّك يا ياسين؟ وها هي زنّوبة وكريمة تجلسان إلى جانب والـدها، ودوامًـا ستطلب الـرحمة والغفران. . .

ـ مَن بقي مِن معارفنا القـدامى في وزارتـك يـا ياسين؟

ـ أحيلوا جميعًا إلى المعاش، ولم أعـد أدري عنهم شيئًا!

ولا هم يدرون عنّا شيئًا، أصدقاء القلب ماتوا فما لنا نسأل عن المعارف، ولكن ما أجمل كريمة! فاقت أمّها في زمانها، ومع ذلك لم تَعْدُ الرابعة عشرة، ونعيمة ألم تكن آية في الجمال؟!.

ـ ياسين إن استطعت أن تُقنع عـائشة بـزيارتـك فـافعل، انتشلوهـا من وحدتها فـإنّي أخـاف عليهـا منها. . .

فقالت زنّوبة:

ـ طالما دعوتها لزيارة قصر الشوق ولكنّها. . . كان الله في عونها!. . .

ولاحت في عيني الرجل نظرة قاتمة، ثمّ إذا به يسأل ياسين:

ـ ألا تصـادف في طـريقـك الشيخ متولّي عبـد الصمد؟

فقال ياسين باسمًا:

ـ أحيانًا، إنّه لا يكاد يعرف أحدًا، ولكنّه ما زال يسير على قدمين قويّتين!. . .

يا للرجل! ألم تنازعه نفسه مرّة إلى زيـارتي؟. أم نسيني كما نـسي أبنائي من قبل؟!.

ولّما ذهب الأصدقاء اتّخذ الرجل من كمال صديقًا، ولعلّه فاجأه بصداقته، لم يعد الأب الذي عهده، وغدا صديقًا يناجيه ويتشوّق إلى مناجاته، وكان يقول عنه آسفًا: «أعزب في الرابعة والثلاثين من عمره، يعيش أكثر حياته في حجرة مكتبه، كان الله في عونه»، ولم يكن يعدّ نفسه مسئولًا عمّا صار إليه أمره، فقد أبى من أوّل الأمر أن يصنع نفسه بنفسه، وانتهى به الحال إلى أن يكون مدرّسًا أعزب «قعيدًا مقطوعًا» في حجرته. وكان يتجنّب أن يثقل عليه بسيرة الزواج أو الدروس الخصوصيّة، كما كان يدعو الله أن يكفيه مدّخره من النقود حتّى الرمق الأخير كيلا يكون يومًا عالة عليه، ويومًا سأله:

ـ هل تعجبك هٰذه الأيّام؟

فابتسم كمال ابتسامة حـائرة، وتـردّد في الجواب، فاستطرد الرجل قائلًا:

ـ الأيّام الحقيقيّة كانت أيّامنا! كانت يسرًا ورغدًا، وصحّة وعافية، شهدنـا سعد زغلول، وسمعنـا سي عبده، ماذا في أيّامكم؟!

فـأجاب كـمال مـأخـوذًا بتـداعي معـاني الحـديث فحسب:

ـ لكلّ زمان محاسنه ومعايبه. . .

فهزّ الرجل رأسه المسنّـد إلى مخدّة مكسـورة وراء ظهره وقال:

ـ كلام يقال ليس إلّا. . .

ثمّ بعد فترة صمت ودون تمهيد:

ـ عجزي عن الصلاة يحزّ في نفسي حزًّا، فالعباد عزاء الوحدة، ومع ذٰلك تمرّ بي أوقات غريبة أنسى فيها كافّة وجوه الحرمـان التي أعانيهـا من مأكـل ومشرب وحرّيّة وعافية، تصفو نفسي صفاء عجيبًا حتّى يخيّل إليّ أنّي متّصل بالسماوات، وأنّ ثمّة سعادة مجهولة تزري بالحياة وما فيها. . .

فتمتم كمال:

ـ ربّما يمدّ في عمرك ويردّ إليك العافية. . .

فهزّ رأسه مرّة أخرى في استـسلام، وقال:

ـ هٰذه ساعة طيّبة، لا ألم في الصدر، ولا ضيق في التنفّس، وورم ساقي آخذ في الـزوال، وموعـدنا في الراديو مع ما يطلبه المستمعون!. . .

وإذا بصوت أمينة يقول:

ـ سيدي بخير؟.

ـ الحمد لله.

ـ هل آتي بالعشاء؟

ـ العشـاء؟! أمـا زلـت تسمّينـه العشـاء؟! هـاتي سلطانيّة اللبن!. . .

٣٣

بلغ كمال بيت أخته بالسكّريّة حوالى العصر فوجد الأسرة مجتمعة في الصالة بكامل هيئتها، فصافحهم وهو يقول مخاطبًا أحمد:

ـ مبارك الليسانس...

فأجابته خديجة بلهجة خالية من معاني الابتهاج:

ـ مبارك عليك، ولكن تعال اسمع آخر خبر، البك لا يريد أن يتوظّف...

وقال إبراهيم شوكت:

ـ ابن خاله رضوان مستعدّ لتوظيفه إذا وافق ولكنّه يصرّ على الرفض، كلّمه يا أستاذ كمال لعلّه يقتنع برأيك أنت...

خلع كمال طربوشه، ونزع ـ من شدّة الحرّ ـ الجاكتة البيضاء فألبسها مسند كرسي، ومع أنّه كان يتوقّع معركة إلّا أنّه قال باسمًا:

ـ حسبت أنّ اليوم سيكون خالصًا للتهنئة، ولكنّ هٰذا البيت لا يسلو النزاع أبدًا!

فقالت خديجة بلهجة أسيفة:

ـ قسمتي، الناس كلّهم حال ونحن وحدنا حال.

وخاطب أحمد خاله قائلًا:

ـ الأمر بسيط، ليس أمامي الآن إلّا وظيفة كتابيّة، فقد أخبرني رضوان أنّه يمكن تعييني الآن في وظيفة كتابيّة خالية بإدارة المحفوظات عند خالي ياسين، واقترح عليّ أن أنتظر ثلاثة أشهر حتّى بدء العام الدراسيّ الجديد لعلّي أعيَّن مدرّس لغة فرنسيّة في إحدى المدارس، ولكنّي لا أريد الوظيفة أيًّا كان نوعها!.

فهتفت خديجة:

ـ قل له ماذا تريد؟

فأجاب الشابّ ببساطة وحزم:

ـ سأعمل في الصحافة.

فنفخ إبراهيم شوكت قائلًا:

ـ جورنالجي! كنّا نسمع هٰذا الكلام فنظنّه ضحكًا وعبثًا، يأبى أن يكون مدرّسًا مثلك ويسعى إلى أن يكون جورنالجيًّا...

فقال كمال في لهجة ساخرة:

ـ كفاه الله شرّ مهنة التدريس!

فقالت خديجة في انزعاج:

ـ وهل يسرّك أن يشتغل جورنالجيًّا؟

وهنا قال عبد المنعم ملطّفًا الجوّ:

ـ لم تعد الوظيفة بالمطلب السعيد!

فقالت أمّه بحدّة:

ـ لكنّك موظّف يا سي عبد المنعم...

ـ في كادر ممتاز، ولكنّي لا أرضى له وظيفة كتابيّة، وها هو خالي كمال يستعيذ في مهنته...

ـ في أيّ نوع من الصحافة تريد أن تعمل؟

ـ الأستاذ عدلي كريم موافق على قبولي في مجلّته تحت التمرين لأقوم بالترجمة أوّلًا ثمّ بالتحرير فيما بعد...

ـ ولكنّ «الإنسان الجديد» مجلّة ثقافيّة محدودة الموارد والمجال؟...

ـ هي خطوة أولى للتمرين حتّى يتيسّر لي عمل أهمّ، وعلى أيّ حال ففي وسعي أن أنتظر دون أن أجوع...

فنظر كمال إلى خديجة قائلًا:

ـ دعي الأمور تجري كما يشاء، إنّه راشد مثقف وأدرى بما يفعل.

ولكنّ خديجة لم تسلّم بالهزيمة بسهولة، وعادت تحاول إقناع ابنها بقبول الوظيفة حتّى علا صوتها واحتدّ فتدخّل كمال ليخلّص بينهما، ثمّ تكدّر جوّ المجلس وساد صمت ثقيل حتّى قال كمال ضاحكًا:

ـ جئت طامعًا في شرب الشربات فكانت هٰذه العكننة نصيبي.

وفي أثناء ذٰلك ارتدى أحمد ملابسه ليغادر البيت، فاستأذن كمال وخرجا معًا، وسارا في شارع الأزهر، وقد صارح أحمد خاله بأنّه ماضٍ إلى مجلّة «الإنسان الجديد» ليتسلّم عمله كما وعده الأستاذ عدلي كريم، فقال له كمال:

ـ افعل ما تشاء ولٰكن تجنّب إيذاء والديك...

فقال أحمد ضاحكًا:

ـ إنّي أحبّهما وأجلّهما ولكن...

ـ ولكن. . . ؟

ـ من الخطأ أن يكون للإنسان والدان!.

كمال ضاحكًا:

ـ كيف هان عليك أن تقول ذلك؟

ـ لا أعني حرفيّته، ولٰكن ما يرمز إليه الوالدان من تقاليد الماضي، فالأبوّة على وجه العموم فَرْمَلَة، وما حاجتنا في مصر إلى الفرامل ونحن نسير بأرجل مكبّلة بالأغلال؟!

ثمّ مواصلًا الحديث بعد تفكير:

ـ إنّ مثلي لن يعرف الكفاح بمعناه المرّ ما دام لي بيت ولأبي دَخْل، ولا أنكر أنّي مطمئنّ بذٰلك ولٰكن في الوقت نفسه خجل منه!.

ـ متى ينتظر منك أن تؤجر على عملك؟

ـ لم يحدّد الأستاذ وقتًا. . .

وعند العتبة الخضراء افترقا، فمضى أحمد إلى مجلّة «الإنسان الجديد»، وقد استقبله الأستاذ عدلي كريم مشجّعًا، وذهب معه إلى حجرة السكرتارية حيث خاطب مَن فيها قائلًا:

ـ زميلكم الجديد الأستاذ أحمد إبراهيم شوكت. . .

ثمّ قدّم إليه زملاءه قائلًا:

ـ آنسة سوسن حمّاد، الأستاذ إبراهيم رزق، الأستاذ يوسف الجميّل. . . وصافحوه مرحّبين، ثمّ قال إبراهيم رزق مجاملًا:

ـ اسمه معروف في مجلّتنا. . .

وقال الأستاذ عدلي كريم باسمًا:

ـ إنّه الابن البكر للإنسان الجديد. . . (ثمّ وهو يشير إلى مكتب يوسف الجميّل). . . ستعمل على هٰذا المكتب فإن عمل صاحبه في الخارج إلّا فيما ندر. . .

وغادر عدلي كريم الحجرة فدعا يوسف الجميّل أحمد إلى الجلوس على كرسيّ قريب من مكتبه، وانتظر حتّى جلس ثمّ قال:

ـ ستوجّهك الآنسة سوسن إلى العمل الذي سيناط بك، ولا بأس الآن أن تشرب فنجان قهوة. . . وضغط على زرّ الجرس على حين راح أحمد يتصفّح الوجوه والمكان، كان إبراهيم رزق كهلًا مهدّمًا يبدو أكبر من سنّه بعشرة أعوام، أمّا يوسف الجميّل فكان في العقد الأخير من الشباب، وكان مظهره ينمّ عن الحذق والذكاء. ورمى ببصره إلى سوسن حمّاد وهو يسائل نفسه ترى هل تذكره؟. ولم يكن رآها منذ أوّل مقابلة عام ١٩٣٦. والتقت عيناهما فسألها باسمًا مدفوعًا برغبة في الخروج عن صمته:

ـ قابلت حضرتك هنا منذ خمس سنوات. . .

فلاح التذكّر في عينيها اللامعتين فاستدرك قائلًا:

ـ كنت أسأل عن مصير مقالة تأخّر نشرها!

فقالت باسمة:

ـ أكاد أذكرك، وعلى كلّ فقد نشرنا منذ ذٰلك التاريخ مقالات كثيرة!. . .

فقال يوسف الجميّل معلّقًا:

ـ مقالات تنمّ عن روح تقدّميّة طيّبة. . .

وقال إبراهيم رزق:

ـ إنّ الوعي اليوم غيره بالأمس، كلّما نظرت في الطريق قرأت على الجدران عبارة «الخبز والحرّيّة» هٰذا شعار الشعب الجديد.

فقالت سوسن حمّاد باهتمام:

ـ ما أجمله من شعار، خاصّة في هٰذا الوقت الذي أطبق فيه الظلام على العالم!. . .

وأدرك أحمد ما يعنيه قولها فاستجابت نفسه سريعًا ـ وفي حماس وسرور ـ للجوّ المحيط به وقال:

ـ الظلام يطبق على العالم حقًّا، ولٰكن ما دام هتلر لم يهجم على بريطانيا فثمّة أمل في النجاة.

فقالت سوسن حمّاد:

ـ إنّي أنظر إلى الموقف من زاوية أخرى، ألا ترى أنّ هتلر لو هاجم بريطانيا فمن المحتمل أن يهلكا معًا أو في الأقلّ أن ينتقل مركز القوّة إلى روسيا؟. . .

ـ وإذا حدث العكس؟ أعني أن يجتاح هتلر الجزيرة ويبلغ ذروة القوّة؟!. . .

فقال يوسف الجميّل:

ـ كان نابليون كهتلر غازي أوروبا ولٰكنّ روسيا كانت مقبرته.

ووجد أحمد نشاطًا وحماسًا لم يشعر بمثلهما من قبل. هٰذا الهواء النقيّ، وهٰؤلاء الزملاء الأحرار، وهٰذه الزميلة المستنيرة الحسناء. ولِداعٍ أو لآخر ذكر علويّة

صبري، وعام العذاب الذي صارع فيه الحبّ الخائب حتّى صرعه، حين كان يصبح ويمسي وهو يلعن الحبّ من صميم قلبه حين تطاير في الهواء تاركًا في أعماق النفس آثارًا من الامتعاض والتمرّد لا تزول. إنّها الآن في بيتها في المعادي تنتظر زوجًا ذا خمسين جنيهًا شهريًّا على الأقلّ، أمّا هٰذه الفتاة التي تدعو بالنصر لروسيا فماذا تنتظر يا ترى؟...

وإذا بسوسن تلوّح برزمة أوراق في وجهه وهي تقول برقّة:

- تسمح!...

فنهض، ثمّ مضى إلى مكتبها باسمًا ليبدأ عمله الجديد...

٣٤

لم يكن يوسف الجميّل يمرّ بالمجلّة إلّا يومًا في الأسبوع أو يومين إذ كان جلّ نشاطه موجّهًا للإعلانات والاشتراكات، كذٰلك إبراهيم رزق لم يمكث في السكرتارية أكثر من ساعة ثمّ يدور على بقيّة المجالات التي يعمل بها، فكان أكثر الوقت يمضي وهما منفردان. أحمد وسوسن. ومرّة جاء رئيس عمّال المطبعة ليأخذ بعض الأصول فما راعه إلّا أن يسمعها وهي تدعوه «أبي»!. وعلم بعد ذٰلك أنّ ثمّة صلة قربى تربط الأستاذ عدلي كريم نفسه برئيس عمّال المطبعة. كان ذٰلك مفاجئًا ومثيرًا، وراعه أكثر من سوسن مثابرتها على العمل، كانت محور التحرير ومركز نشاطه، بيد أنّها كانت تعمل أكثر ممّا يستوجبه تحرير المجلّة، فما تزال تقرأ أو تكتب. وبدت جادّة حادّة شديدة الذكاء، وشعر من أوّل الأمر بقوّة شخصيّتها، حتّى كان يخيّل إليه بعض الأحيان - رغم عينيها السوداوين الجذّابتين وجسمها الأنثويّ اللطيف - أنّه حيال رجل قويّ الإرادة حسن التنظيم، ثمّ تأثّر بنشاطها فثابر على عمله بهمّة لا تعرف الكلل أو الملل، وقد أخذ على عاتقه ترجمة المختارات من مجلّات العالم الثقافيّة، إلى ترجمة بعض المقالات ذات الشأن، وقد قال لها يومًا:

- إنّ الرقابة تقف لنا بالمرصاد...

فقالت بصوت يدلّ على الحنق والازدراء:

- أنت لم تر شيئًا بعد، مجلّتنا «مشبوهة» في الدوائر العليا!. ولها الشرف!.

فقال أحمد باسمًا:

- تذكرين طبعًا افتتاحيّات الأستاذ عدلي كريم قبل الحرب؟.

- لقد عُطّلت مجلّتنا مرّة في عهد عليّ ماهر بسبب مقال عن ذكرى الثورة العرّابيّة اتّهم فيه الأستاذ الخديو توفيق بالخيانة.

ويومًا سألته ضمن حديث عابر:

- لماذا اخترت الصحافة؟...

فتفكّر قليلًا، إلى أيّ درجة يجوز له أن يكشف عن ذات نفسه لهٰذه الفتاة التي تبدو طرازًا وحدها بين مَن عرف من بنات جنسها:

- لم أدخل الجامعة لأتوظّف، ولٰكن عندي أفكار أريد التعبير عنها ونشرها وما من سبيل إلى ذٰلك خير من الصحافة...

فقالت باهتمام سُرّ له من أعماقه:

- أمّا أنا فلم أدرس في الجامعة، أو بالحريّ لم تتح لي فرصة (سرّته صراحتها كذٰلك وإن أكّدت في نفسه مخالفتها لبنات جنسها)... إنّي متخرّجة في مدرسة الأستاذ عدلي كريم، وهي ليست دون الجامعة منزلة، درست عليه منذ حصولي على البكالوريا، وأصارحك بأنّك أحسنت تعريف الصحافة، أو الصحافة التي نعمل فيها، بيد أنّك تنفّس عن أفكارك - حتّى الآن - عن طريق غيرك، أعني بالترجمة، ألم تفكّر في اختيار الشكل الذي يناسبك من أشكال الكتابة؟

فصمت مفكّرًا كأنّما أغلق عليه المعنى المقصود ثمّ تساءل:

- ماذا تعنين؟

- المقالة، الشعر، القصّة، المسرحيّة؟

- لا أدري، المقالة أوّل ما يتبادر إلى الخاطر...

فقالت بلهجة ذات معنى:

- نعم، ولٰكنّها لظروفنا السياسيّة، لم تعد مطلبًا يسيرًا، لذٰلك يضطرّ الأحرار إلى إذاعة آرائهم

بالمنشورات السرّيّة، المقالة صريحة ومباشرة ولذٰلك فهي خطيرة، خاصّة وأنّ الأعين محملقة فينا، أمّا القصّة فذات حِيَل لا حصر لها، إنّها فنّ ماكر، وقد غدت شكلًا أدبيًّا شائعًا سوف ينتزع الإمامة في عالم الأدب في وقت قصير، ألا ترى أنّه ما من كبير من شيوخ الأدب إلّا وهو يثبت وجوده في مجال نشاطها ولو بمؤلّف واحد؟

ـ نعم، قرأت أكثر هٰذه المؤلّفات، ألم تقرئي للأستاذ رياض قلدس الكاتب بمجلّة الفكر؟

ـ هٰذا واحد من كثيرين، وليس خيرهم!

ـ ربّما، لقد لفتني إليه خالي الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد الكاتب بنفس المجلّة...

فقالت باسمة:

ـ هو خالك؟ قرأت له مرّات، ولٰكن...

ـ ؟...

ـ معذرة إنّه من الكتّاب الذين يهيمون في تيه الميتافيزيقا!.

فتساءل فيما يشبه القلق:

ـ ألم يعجبك؟.

ـ الإعجاب شيء آخر، إنّه يكتب كثيرًا عن الحقائق القديمة: الروح... المطلق... نظريّة المعرفة، هٰذا جميل، ولٰكنّه ـ فيما عدا المتعة الذهنيّة والترف الفكريّ ـ لا يفضي إلى غاية، ينبغي أن تكون الكتابة وسيلة محدّدة الهدف، وأن يكون هدفها الأخير تطوير هٰذا العالم والصعود بالإنسان في سلّم الرقيّ والتحرّر، الإنسانيّة في معركة متواصلة والكاتب الخليق بهٰذا الاسم حقًّا يجب أن يكون على رأس المجاهدين، أمّا وثبة الحياة فلندَعْها لبرجسون وحده...

ـ ولٰكنّ كارل ماركس نفسه بدأ فيلسوفًا ناشئًا يهيم في تيه الميتافيزيقا.

ـ وانتهى بعلم الاجتماع العلميّ، فمن هنا نبدأ لا من حيث بدأ.

لم يرتح أحمد إلى نقد خاله على هٰذا النحو، فقال بغية الدفاع عنه قبل كلّ شيء:

ـ الحقيقة جديرة دائمًا بأن تعرف، مهما تكن، ومهما يكن الرأي في آثارها...

فقالت سوسن في حماس:

ـ هٰذا مناقض لما تكتب، فأراهن على أنّك متأثّر بالوفاء لخالك!. عندما يكون الإنسان متألّمًا يركّز اهتمامه في إزالة أسباب الألم، مجتمعنا متألّم جدًّا فيجب أن نزيل الألم قبل كلّ شيء، ولنا بعد ذٰلك أن نلهو ونتفلسف! ولٰكن تصوّر إنسانًا يتفلسف لاهيًا وبه جرح ينزف لا يعيره أدنى التفات، ماذا تقول عن مثل هٰذا الإنسان؟!

أهٰذا خاله حقًّا؟ لٰكن فليقرّ بأنّ كلامها يلقى تجاوبًا كاملًا في نفسه، وبأنّ عينيها جميلتان، وبأنّها رغم غرابتها «وجدّيّتها» جذّابة... جذّابة...

ـ الواقع أنّ خالي لا يعير هٰذه الأمور التفاتًا جدّيًّا، لقد حدّثته كثيرًا عنها فوجدته إنسانًا يدرس النازيّة كما يدرس الديموقراطيّة أو الشيوعيّة، ولٰكنّه لا هو بارد ولا هو حارّ، ولم أستطع أن أتبيّن موقفه...

قالت باسمة:

ـ لا موقف له، إنّ موقف الكاتب لا يمكن أن يخفى، إنّه مَثَل من المثقّفين البورجوازيّين يقرأ ويستمتع ويتساءل، وقد تجده في حيرة أمام «المطلق»، وربّما بلغت به الحيرة حدّ الألم، ولٰكنّه يمرّ سادرًا بالمتألّمين الحقيقيّين في طريقه...

فقال ضاحكًا:

ـ ليس خالي كذٰلك...

ـ أنت أدرى، كذٰلك قصص رياض قلدس ليست بالقصص المنشودة، إنّها واقعيّة وصفيّة تحليليّة، ولا تتقدّم عن ذٰلك خطوة، لا توجيه بها ولا تبشير!

ففكّر أحمد قليلًا ثمّ قال:

ـ ولٰكنّه كثيرًا ما يصف حال الكادحين من العمّال والفلّاحين، ومعنى هٰذا أنّه يهب مسرح البطولة في أقاصيصه للطبقة الكادحة!

ـ ولٰكنّه يقتصر على الوصف والتحليل، إنّه لعمل سلبيّ بالنسبة للمعركة الحقيقيّة!...

يا لها من فتاة تروم العراك! شديدة الجدّ فيما يبدو، ولٰكن أين المرأة؟!

ـ وكيف تريدينه أن يكتب؟

ـ أقرأت شيئًا عن الأدب السوفيتيّ الحديث، بل

أقرأت مكسيم جوركي؟

فصمت باسمًا، لا داعي للخجل، كان طالب اجتماع لا طالب أدب، ثمّ إنّها تكبره بسنوات، ترى ما عمرها؟ ربّما كانت في الرابعة والعشرين أو أكثر!.

وعادت تقول:

ـ هٰذا ما ينبغي أن تقرأ من ألوان الأدب، سأعيرك بعضه إذا شئت...

ـ بكلّ سرور...

فابتسمت قائلة:

ـ ولكنّ الإنسان «الحرّ» لا يكفي أن يكون قارئًا أو كاتبًا! إنّ المبادئ تتعلّق بالإرادة قبل كلّ شيء، الإرادة أوّلًا وقبل كلّ شيء.

مع ذٰلك رآها أنيقة، أجل ليس في وجهها زواق، ولكنّ عنايتها بمظهرها وأناقتها ليست دون غيرها من بنات جنسها، هٰذا الصدر الحيّ مؤثّر كغيره من الصدور الفاتنة، ولكن مهلًا هل يختلف هو عن غيره من الرجال بما يعتنق من مبدأ؟ طبقتنا غريبة تأبى أن تنظر إلى المرأة إلّا من زاوية خاصّة!...

ـ إنّي مسرور بمعرفتك، وأرى أنّه أمامنا أكثر من مجال للعمل معًا كيدٍ واحدة...

فقالت باسمة، وكانت عند الابتسام تبدو أنثى قبل كلّ شيء:

ـ هٰذا إطراء!

ـ إنّي مسرور بمعرفتك حقًّا...

أجل إنّه كذٰلك، ولكن ينبغي ألّا يسيء فهم ما ينفعل به صدره فلعلّه الاستجابة الطبيعيّة لمراهق مثله، واصطنع الحذر حتّى لا ترمي بنفسك إلى مثل موقفك بالمعادي، فإنّ الحزن لم يُمحَ بعد من صفحة قلبي...

٣٥

ـ مساء الخير يا عمّتي.

وتبع جليلة إلى مجلسها المختار في الصالة، وما استقرّ بهما المجلس فوق الكنبة حتّى نادت المرأة خادمتها فجاءت حاملة الشراب وجعلت ترقيها وهي تعدّ الخوان حتّى فرغت من مهمّتها وذهبت، وعند ذاك التفتت جليلة إلى كمال قائلة:

ـ يا ابن أخي، أقسم لك أنّني لم أعد أشرب إلّا معك، كلّ ليلة جمعة، كما كان يحلو لي أن أشارب أباك في الزمن القديم، ولكن في ذٰلك الزمن أشارب الكثيرين أيضًا...

وقال كمال في نفسه: «ما أحوجني إلى الشراب، لا أدري ماذا كانت تكون الحياة بدونه!» ثمّ قال يحاورها:

ـ ولكنّ الويسكي اختفى يا عمّتي، وكذٰلك كافّة المشروبات النظيفة، ويقال إنّ الغارة الألمانيّة الأخيرة على اسكتلندا أصابت مخزن خمور عالميّ حتّى سالت الوديان بالويسكي الأصيل...

ـ يا روحي على غارة من هٰذا النوع! ولٰكن خبّرني قبل أن تسكر كيف حال السيّد أحمد؟

ـ لا تقدُّم ولا تأخُّر، يعزّ عليّ يا ستّ جليلة مرقده، ربّنا يلطف به...

ـ يا ما نفسي أزوره، ألا تجد الشجاعة فتبلّغه عنّي السلام؟

ـ يا خبرا. لم يبق إلّا هٰذا حتّى تقوم الساعة!

فضحكت العجوز ثمّ قالت:

ـ أتحسب أنّ رجلًا مثل السيّد أحمد يمكن أن يتصوّر البراءة في إنسان خاصّة إذا كان من صلبه؟

ـ ولو يا زين الستّات!... صحّتك...

ـ صحّتك..، ربّما تأخّرت عطيّة إذ إنّ ابنها مريض...

فقال كمال في شيء من الاهتمام:

ـ في آخر مرّة لم يكن بها شيء!...

ـ نعم ولٰكنّ ابنها مرض يوم السبت الماضي، روحها المسكينة في ابنها، وإذا مسّه سوء طارت أبراج عقلها...

ـ يا لها من امرأة طيّبة عاثرة الحظّ، طالما أقنعتني أحوالها بأنّها لا تمارس هٰذه الحياة إلّا مضطرّة...

فقالت جليلة باسمة أو ساخرة:

ـ إذا كان مثلك يضيق بمهنته الشريفة فكيف ترضى هي بمهنتها؟

ومرّت الخادم بمجمرة تنفث بخورًا لطيفًا، وكان جوّ

الخريف يهفو رطيبًا من نافذة في نهاية الصالة، وكانت الخمر شديدة المرارة ولٰكنّها قويّة الأثر، غير أنّ كلام جليلة عن المهنة ذكّره بأمور كاد ينساها فقال:

- كدت أنقل من مصر يا عمّتي، ولو وقع المحظور لكنت الآن أعدّ الحقائب للسفر إلى أسيوط!...

فضربت جليلة صدرها بكفّها وقالت:

- أسيوط يا بلح! أسيوط في عين عدوّك، وماذا حصل؟

- سليمة والحمد لله!.

- معارف والدك يملأون الدواوين كالنمل...

فهزّ رأسه كالموافق دون تعليق. إنّها ما زالت ترى أباه في هالة المجد القديم، لا تدري أنّه - حين أخبره عمّا تقرّر عن نقله - قال محزونًا آسفًا «لم يعد يعرفنا أحد، أين أصدقاؤنا أين؟»، وقبل ذٰلك مضى إلى صديقه القديم فؤاد جميل الحمزاوي لعلّه يعرف أحدًا من كبار رجال المعارف ولٰكنّ القاضي الخطير قال له «إنّي آسف جدًّا يا كمال فأنا بصفتي قاضيًا لا أستطيع أن أرجو أحدًا». وأخيرًا لجأ إلى رضوان ابن أخيه وهو يتعثّر بخجله، وفي نفس اليوم عدل عن نقله! «يا له من شابّ خطير! كلاهما موظّف في وزارة واحدة وفي درجة واحدة رغم أنّه في الخامسة والثلاثين والشابّ في الثانية والعشرين، ولٰكن كيف ينتظر من خوجة ابتدائيّ أفضل من هٰذا؟» ولم يعد من الممكن أن يتعزّى بالفلسفة أو يدّعيها، فليس الفيلسوف مَن ردّد قول الفلاسفة، كالببغاء؛ واليوم كلّ متخرّج في كلّيّة الآداب يستطيع أن يكتب كما يكتب هو أو أحسن، وقد كان هناك ثمّة أمل في أن يجمع ناشر مقالاته في كتاب، ولٰكن لم يعد لمثل هٰذه المقالات التعليميّة من قيمة تذكر، وما أكثر الكتب هٰذه الأيّام، وهو في هٰذا الخضمّ لا شيء، وقد ملّ حتّى طفح بالملل. فمتى يدرك قطاره محطّة الموت؟. ونظر إلى الكأس في يد عمّته، ثمّ إلى وجهها الناطق بعمرها المديد فلم يسعه إلّا الإعجاب بها، ثمّ تساءل:

- ماذا تجدين في الشراب يا عمّتي؟

فافترّ فوها عن أسنان ذهبيّة وهي تقول:

- وهل تحسبني أشرب الآن؟ مضى ذٰلك الزمان، لا طعم لها اليوم ولا أثر، كالقهوة لا أكثر ولا أقلّ، في الزمان الأوّل سكرت مرّة في فرح بيرجوان حتّى اضطرّ التخت أن يحملني إلى عربتي آخر الليل، ربّنا يكفيك شرّها!...

«ولٰكنّها خير من لا خير له»...

- وذروة النشوة هل عرفتها؟. كنت أبلغها بكأسين، اليوم يلزمني ثمانية كئوس كي أبلغها، ولا أدري كم غدًا، ولٰكنّها ضروريّة يا عمّتي، فعندها يرقص القلب المكلوم طربًا...

- قلبك طروب يا بن أخي دون الحاجة إلى الخمر...

قلبه طروب! وهٰذا الحزن الصديق؟ والرماد المتخلّف من محترق الآمال؟ لم يبق للملول إلّا الامتلاء بالخمر، في هٰذه الصالة أو في تلك الحجرة إذا جاءت التي تداوي ابنها، هو وهي في موضع واحد من الحياة، حياة مَن لا حياة لهم.

- أخشى ألّا تجيء عطيّة!...

- ستجيء حتمًا، أليس المرض في حاجة إلى النقود؟

يا له من جواب! بيد أنّها لم تمكّنه من التفكير إذ مالت نحوه في اهتمام، ونظرت إليه مليًّا، ثمّ قالت بصوت منخفض:

- لم يبق إلّا أيّام!...

فقال دون أن يدرك حقيقة مرادها:

- ربّنا يطوّل عمرك ولا يحرمني منك!

فقالت باسمة:

- سأهجر هٰذه الحياة!

فانتصب نصفه الأعلى في دهشة وهتف:

- ماذا قلت؟!

فضحكت ثمّ قالت بلهجة لم تخل من سخرية:

- لا تخف، ستذهب بك عطيّة إلى بيت آمن كهٰذا البيت...

- ؟!...

- ولٰكن ماذا حدث؟

- كبرت يا ابن أخي، وأغناني الله فوق حاجتي، وبالأمس ضُبط بيت قريب وسيقت صاحبته إلى

القسم، حسبي، إنّي أفكّر في التوبة، ينبغي أن أقابل ربّي على غير ما أنا عليه!

أتى على بقيّة كأسه، وملأه كأنّما لم يصدّق ما سمعه:

- لم يبق إلّا أن تستقلّي السفينة إلى مكّة!!

- ربّنا يقدّرني على فعل الخير. . .

وتساءل ولّما يفق من دهشته:

- أجاء هٰذا كلّه فجأة؟!

- كلّا، إني لا أبوح بسرّ إلّا عند العمل، طالما فكّرت في هٰذا من زمن. . .

- جدّ؟!

- كلّ الجدّ، ربّنا معنا!

- لا أدري ماذا أقول، ولٰكن ربّنا يقدّرك على فعل الخير.

- آمين. . .

ثمّ ضاحكة:

- ولٰكن اطمئنّ فلن أغلق هٰذا البيت حتّى أطمئنّ على مستقبلك!. . .

فضحك ضحكة عالية وقال:

- هيهات أن أجد بيتًا أرتاح فيه كهٰذا البيت!.

- لك عليّ أن أوصي بك البدرونة الجديدة ولو كنت في مكّة!

كلّ شيء يبدو مضحكًا ولٰكنّ الخمر ستظلّ قبلة المحزون، وتتغيّر الأوضاع فيعلو فؤاد جميل الحمزاوي ويسفل كمال أحمد عبد الجواد، ولٰكنّ الخمر ستظلّ بشاشة المكروب، ويومًا يحمل كمال رضوان على كتفه ليدلّله ثمّ يجيء يوم فيحمل رضوان كمال ليقيله من عثرته ولٰكنّ الخمر ستظلّ نجدة الملهوف، وحتّى الستّ جليلة تفكّر في التوبة في الوقت الذي يبحث هو عن ماخور جديد ولٰكنّ الخمر ستظلّ المأوى الأخير، ويملّ السقيم كلّ شيء حتّى يملّ الملل ولٰكنّ الخمر ستظلّ مفتاح الفرج.

- يسعدني أن أسمع عنك دائمًا ما يسرّ.

- الله يهديك ويسعدك. . .

- إذا كان وجودي يضايقك؟. . .

وسدّت فاه بأصبعها، وقالت:

- سامحك الله، هٰذا بيتك ما دام بيتي، وكلّ بيت أحلّ فيه فهو بيتك يا ابن أخي. . .

أثمّة لعنة قديمة مجهولة قُضي عليه بأن يكفّر عنها؟!. كيف المخرج من هٰذه الحيرة التي تغشى حياته؟. حتّى جليلة تفكّر جادّة في تغيير حياتها فلِمَ لا يتّخذ منها أسوة؟ لا بدّ للغريق من صخرة يلوذ بها أو فليغرق، وإذا لم يكن للحياة معنى فلِمَ لا نخلق لها معنى؟!. . .

- ربّما كان من الخطأ أن نبحث في هٰذه الدنيا عن معنى بينا أنّ مهمّتنا الأولى أن نخلق هٰذا المعنى. . .

وحدجته جليلة بنظرة غريبة فانتبه بعد فوات الوقت إلى ما بدر منه دون شعور. وضحكت جليلة متسائلة:

- سكرت بهٰذه السرعة؟

فدارى ارتباكه بضحكة عالية، وقال:

- خمر الحرب كالسمّ، لا تؤاخذيني، ترى متى تأتي عطيّة؟!

٣٦

غادر كمال بيت جليلة عند منتصف الساعة الثانية صباحًا، كان كلّ شيء غارقًا في الظلام، وكان الظلام غارقًا في الصمت، وسار على مهل نحو السكّة الجديدة ثمّ مال إلى الحسين. حتّى متى يعيش في هٰذا الحيّ المقدّس الذي لم يمتّ إليه بصلة؟. وابتسم ابتسامة فاترة، لم يكن بقي من الخمر إلّا خمارها، أمّا الجسد فقد خمدت لواعجه، فنقّل خطاه في إعياء وكسل. عادة في مثل هٰذه اللحظة الخامدة يصرخ شيء في أعماقه - لا هو التوبة ولا الندم - ناشدًا التطهّر، ملتمسًا الخلاص من قبضة الشهوات إلى الأبد، كأنّ موجة شهواته تنحصر عن صخور تقشّف كاملة. ورفع رأسه إلى السماء، كأنّما ليستأنس بالنجوم فانطلقت في السكون صفّارة الإنذار!. ودقّ قلبه دقّة عنيفة ثمّ حملقت عيناه النائمتان، ثمّ بدافع غريزيّ مال إلى أقرب جدار وسار بحذائه، ونظر إلى السماء مرّة أخرى فرأى أضواء الكشّافات الكهربائيّة تمسح صفحاتها في سرعة شديدة، تلتقي أحيانًا ثمّ تتفرّق في جنون.

وحثّ خطاه دون أن يفارق الجدران وقد شعر شعورًا موحشًا بوحدته كأنّ وجه الأرض قد خلا إلّا منه! وإذا بصفير مبحوح يتهاوى لم يطرق أذنه من قبل، يعقبه انفجار شديد ارتجّت له الأرض تحت قدميه، قريب أم بعيد؟ ولم يتّسع له الوقت لمراجعة معلوماته عن الغارات، إذ تتابعت الانفجارات بسرعة تكتم الأنفاس، وانطلقت المدافع المضادّة جماعات جماعات، والتمع الجوّ بأضواء كالبرق لم يعرف مصدرها ولا كنهها فخيّل إليه أنّ الأرض تتطاير. وانطلق يعدو بسرعة لا يلوي على شيء صوب درب قرمز ملتمسًا في قبوها التاريخيّ مخبأ. وكانت المدافع تنطلق في غضب جنونيّ، والقنابل تدكّ مراميها دكًّا، والأرض تميد. وفي ثوانٍ من الفزع بلغ القبو، وكان يكتظّ بخلق كثيرين تكاثفت بهم ظلمته، فاندسّ بينهم وهو يلهث. وكان جوُّه يسوده الرعب ويمتلئ بهمهمات الفزع في ظلام دامس، أمّا مدخل القبو ومخرجه فيضيئان من آن لآخر بانعكاسات الإشعاعات المنطلقة في الفضاء، وقد توقّف سقوط القنابل أو هٰذا ما خيّل إليهم، أمّا المدافع فلم يخفّ جنونها ولم يكن رَجْعها في النفوس دون رجع القنابل، واختلطت أصوات صراخ وبكاء وزجر وانتهار صادرة عن نسوة وأطفال ورجال.

ـ هٰذه غارة جديدة وليست كالسابقات. . .

ـ وهٰذا الحيّ القديم هل يتحمّل الغارات الجديدة؟!.

ـ اعفونا من هٰذه الثرثرة وقولوا يا ربّ!.

ـ كلّنا يقول يا ربّ!. . .

ـ اسكتوا. . . اسكتوا يرحمكم الله!.

وكان كمال يلاحظ الضوء الذي ينير مخرج القبو حين رأى جماعة جديدة قادمة فخيّل إليه أنّه لمح هيئة أبيه بينها، وخفق قلبه، أيكون حقًّا أباه؟ وكيف استطاع أن يقطع الطريق إلى القبو؟ بل كيف استطاع أن يغادر فراشه؟ وشقّ طريقًا إلى نهاية القبو مخترقًا الكتل البشريّة المضطربة، فتبيّن على التماع الضوء أسرته جميعًا، أباه وأمّه وعائشة وأمّ حنفي! واتّجه نحوهم حتّى وقف بينهم وهو يهمس:

ـ أنا كمال!. كلّكم بخير؟

لم يجب أبوه، وكان ملقيًا بظهره في إعياء إلى جدار القبو بين الأمّ وعائشة، أمّا الأمّ فقالت:

ـ كمال؟. الحمد لله، شيء فظيع يا بنيّ، ليست ككلّ مرّة، خيّل إلينا أنّ البيت سينقضّ فوق رءوسنا، وربّنا شدّ حيل أبيك فنهض وجاء بيننا، لا أدري كيف جاء ولا كيف جئنا. . .

وغمغمت أمّ حنفي:

ـ عنده الرحمة، ما هٰذا الهول؟!. ربّنا يلطف بنا. . .

وفجأة هتفت عائشة:

ـ متى تسكت هٰذه المدافع؟!.

وخيّل إلى كمال أنّ صوتها ينذر بانهيار عصبيّ فاقترب منها وأمسك بكفّها بين يديه وكأنّه قد استردّ بعض وعيه المفقود عندما وجد نفسه حيال مَن هم في حاجة إلى تشجيعه. وكانت المدافع ما تزال تنطلق في غضبها الجنونيّ، غير أنّ وطأتها أخذت تخفّ بدرجة غير محسوسة، ومال كمال نحو أبيه وسأله:

ـ كيف حالك يا أبي؟

فجاءه صوته وهو يهمس في خور:

ـ أين كنت يا كمال؟. أين كنت حين وقعت الغارة؟. . .

فقال يطمئنه:

ـ كنت على مقربة من القبو، كيف حالك؟

فأجاب بصوت متقطّع:

ـ الله أعلم. . . كيف غادرت فراشي وهرولت في الطريق؟. الله أعلم. . . لم أشعر بشيء. . . متى تعود الحال إلى الهدوء؟

ـ أأخلع لك جاكتتي لتجلس عليها؟

ـ كلّا، أنا قادر على الوقوف، ولكن متى تعود الحال إلى الهدوء؟. . .

ـ الغارة انتهت فيما يبدو، أمّا قيامك المفاجئ فلا تخفه. إنّ المفاجآت كثيرًا ما تصنع المعجزات مع المرضى!. . .

وما كاد ينتهي من قوله حتّى زلزلت الأرض بثلاثة انفجارات متتابعة فثار جنون المدافع المضادّة مرّة أخرى وضجّ القبو بالصراخ:

ـ إنّها فوق رءوسنا!.

ـ وَحِّد الله. . .

ـ أسكتوا هٰذا الشؤم!.

وترك كمال يد عائشة ليأخذ يدي أبيه بين يديه، وكان يفعل ذٰلك لأوّل مرّة في حياته، وكانت يدا الرجل ترتجفان، وكانت يدا كمال ترتجفان كذٰلك، أمّا أمّ حنفي فقد انبطحت على الأرض وهي تولول. وعاد الصوت العصبيّ يصيح في هياج:

ـ إيّاكم والصراخ، سأقتل الصارخ!. . .

وعلا الصراخ، وتلاحقت طلقات المدافع، واشتدّ توتّر الأعصاب، في توقّع زلازل جديدة، ولٰكنّ المدافع استمرّت تنطلق وحدها، وظلّ توقّع انفجارات جديدة يخنق الأرواح.

ـ انتهت القنابل!.

ـ إنّها تغيب ثمّ تنفجر. . .

ـ إنّها بعيدة، لو كانت قريبة ما سلمت البيوت من حولنا!.

ـ بل سقطت في النحّاسين!.

ـ هٰكذا يخيّل إليك ولعلّها في الأورنس!

ـ أنصتوا يا هوه، ألم تخفّ المدافع؟

بلى خفّت طلقاتها، ثمّ لم تعد تُسمع إلّا من بعيد، ثمّ متقطّعة ثمّ متباعدة، ثمّ بين الطلقة والأخرى دقيقة كاملة، ثمّ أناخ الصمت، وامتدّ، وطال وعمق، ثمّ انعقدت الألسن، حتّى مضت تتعالى همسات الأمل الباكي، وأخذ كثيرون يتذكّرون أشياء وأشياء، ويحيون من جديد، ويتنهّدون في ارتياح حذر مشوب بالإشفاق، وعبثًا حاول كمال أن يرى وجه أبيه بعد أن عادت التماعات الضوء الخاطف وخيّم الظلام. . .

ـ أبي، ستعود الحال إلى الهدوء. . .

فلم يجب الرجل ولٰكنّه حرّك يديه بين يدي ابنه كأنّما ليقنعه بأنّه ما زال حيًّا. . .

ـ هل أنت بخير؟. . .

فحرّك يديه مرّة أخرى، وشعر كمال بحزن أوشك أن يهيّج دموعه.

وانطلقت صفّارة الأمان. . .

وأعقبها صياح تهليل من جميع الأركان كصياح الأطفال عقب مدافع الأعياد، وضجّ المكان وما حوله بحركة ما لها من آخر. صفقات أبواب ونوافذ، هدير كلام عصبيّ، ثمّ تتابع انصراف المنحشرين في القبو، وقال كمال وهو يتنهّد:

ـ فلنعد. . .

وضع الأب ذراعًا على كتف كمال والأخرى على كتف الأمّ وسار بينهما خطوة خطوة. وبدءوا يتساءلون عن الرجل، كيف هو، وماذا أصابه أثر مغامرته الخطيرة. غير أنّ الأب توقّف عن المشي وهو يقول بصوت ضعيف:

ـ أشعر بأنّني يجب أن أجلس. . .

فقال له كمال:

ـ دعني أحملك.

فقال في إعياء:

ـ لن تستطيع. . .

ولٰكنّ كمال أحاطه بذراع من وراء ظهره ووضع الأخرى تحت ساقيه، ورفعه. لم يكن حملًا خفيفًا ولٰكنّ ما بقي من أبيه كان على أيّ حال هيّنًا. وسار في بطء شديد، والآخرون يتبعونه مشفقين. وانتحبت عائشة فجأة فقال الأب بصوت متعب:

ـ لا داعي للفضيحة!

فكتمت فاها بيدها، ولمّا بلغوا البيت عاونت أمّ حنفي في حمل السيّد، فصعدا به السلّم على مهل وحذر، وكان مستسلمًا ولٰكنّ همهمته الاستغفاريّة المتواصلة نمّت عن حزنه وضيقه، حتّى طرحاه بعناية على فراشه، ولمّا أضيء نور الحجرة بدا وجه الأب شديد الشحوب كأنّ الجهد قد استصفى دمه، وكان صدره يعلو وينخفض بعنف، فأغمض عينيه إعياء، ثمّ راح يتأوّه، ولٰكنّه غالب ألمه حتّى استطاع أخيرًا أن يلوذ بالصمت. وكان الجميع يقفون صفًّا بإزاء فراشه ويتطلّعون إليه في وجل وإشفاق، وأخيرًا تساءلت أمينة بصوت متهدّج:

ـ سيّدي بخير؟

ففتح عينيه، وجعل ينظر في الوجوه مليًّا، وبدا لحظات كأنّه لا يعرفها، ثمّ تنهّد وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ الحمد لله. . .

ـ نَمْ يا سيّدي. . . نَمْ كي تستريح. . .

وترامى إليهم رنين الجرس الخارجيّ فمضت أمّ حنفي لتفتح الباب، وتبادلوا نظرات متسائلة فقال كمال:

ـ لعلّ أحدًا من السكّريّة أو قصر الشوق قد جاء ليطمئنّ علينا.

وصدق حدسه فما لبث أن دخل الحجرة عبد المنعم وأحمد ثمّ تبعهما ياسين ورضوان فأقبلوا على فراش الأب وهم يحيّون الموجودين، فوجّه إليهم الرجل نظرات فاترة، وكأنّ الكلام لم يسعفه فاكتفى برفع يده النحيلة تحيّة، وقصّ عليهم كمال في اقتضاب ما عاناه والده في ليلته المزعجة، ثمّ قالت أمينة همسًا:

ـ ليلة فظيعة ربّنا لا يعيدها. . .

وقالت أمّ حنفي:

ـ الحركة أتعبته قليلًا ولكنّه سيستردّ بالراحة عافيته. . .

ومال ياسين فوق أبيه وهو يقول:

ـ ينبغي أن تنام، كيف حالك الآن؟

فرنا الرجل إليه ببصر خاب وغمغم:

ـ الحمد لله. . . أشعر بتعب في جنبي الأيسر. . .

فسأله ياسين:

ـ أأحضر لك الطبيب؟

فأشار بيده في ضجر ثمّ همس:

ـ كلّا خير لي أن أنام. . .

فأشار ياسين إلى الموجودين بالخروج، وتراجع إلى الوراء قليلًا فرفع الرجل يده النحيلة مرّة أخرى. وغادروا الحجرة واحدًا في إثر واحد فلم يبق فيها مع الرجل إلّا أمينة، ولّما جمعتهم الصالة سأل عبد المنعم خاله كمال:

ـ ماذا فعلتم؟ أمّا نحن فقد هرعنا إلى المنظرة في الحوش.

وقال ياسين:

ـ ونحن نزلنا إلى شقّة الدور الأرضيّ عند جيراننا. . .

فقال كمال في قلق:

ـ ولكنّ التعب قد أنهك قوى بابا. . .

فقال ياسين:

ـ ولكنّه سيستردّ صحّته بالنوم. . .

ـ وما عسى أن نفعل به إذا وقعت غارة أخرى؟!. . .

ولم يُحِرْ أحد جوابًا فساد صمت ثقيل حتّى قال أحمد:

ـ بيوتنا قديمة ولن تتحمّل الغارات. . .

وعند ذاك أراد كمال أن يبدّد سحب الكآبة المخيّمة التي أرهقت أعصابه فقال منتزعًا من شفتيه ابتسامة:

ـ إذا هدمت بيوتنا فحسبها شرفًا أنّ هدمها سيكون بأحدث أساليب العلم الحديث. . .

٣٧

أوصل كمال زوّار آخر الليل حتّى الباب الخارجيّ، ولم يكد يعود إلى باب السلّم حتّى ترامت إليه من فوق ضجّة مريبة، وكانت أعصابه ما تزال متوتّرة فداخلته كآبة ورقي السلّم وثبًا. وجد الصالة خالية، وحجرة الأب مغلقة، وخليطًا من الأصوات يعلو خلف بابها المغلق، فهرع إلى الحجرة ودفع الباب ثمّ دخل، وكان يتوقّع شرًّا أبى أن يفكّر في كنهه. كان صوت الأمّ المبحوح يهتف «سيّدي»، وكانت عائشة تنادي بصوت غليظ «بابا» على حين تسمّرت أمّ حنفي عند رأس الفراش فدهمه شعور بالفزع واليأس والاستسلام الحزين؛ رأى نصف أبيه الأسفل مطروحًا على الفراش، ونصفه الأعلى ملقًى على صدر الأمّ التي تربّعت وراء ظهره، وصدره يعلو وينخفض في حركة آليّة تندّ عنها حشرجة غريبة ليست من أصوات هذا العالم، وعينيه مفتوحتين عن نظرة مظلمة جديدة لا ترى ولا تعي ولا تملك أن تخبر عمّا يعتلج وراءها، فتسمّرت قدماه وراء شباك السرير، وانعقد لسانه، وتحجّرت عيناه، لم يجد شيئًا يقوله أو شيئًا يفعله، وعانى شعورًا قاهرًا بالعجز المطلق، واليأس المطلق والتفاهة المطلقة وكأنّه فقد الوعي لولا إدراكه أنّ أباه يودّع الحياة. وردّدت عائشة بصرًا زائغًا بين وجه أبيها

ووجه كمال ثمّ هتفت:

- أبي، هٰذا كمال يريد أن يحدّثك!.

وخرجت أمّ حنفي عن غمغمتُها المتّصلة قائلة في نبرات ممزّقة:

- أحضروا الطبيب!...

فانْت الأمّ في حزن غاضب:

- أيّ طبيب يا حمقاء؟!.

ثمّ ندّت عن الأب حركة كأنّما يحاول الجلوس، وازداد صدره تشنّجًا واضطرابًا، ومدّ سبّابة يمناه ثمّ سبّابة يسراه، فلمّا رأت الأمّ ذٰلك تقلّص وجهها من الألم ثمّ مالت على أذنه وتشهّدت بصوت مسموع وكرّرت ذٰلك حتّى سكنت يداه. وأدرك كمال أنّ أباه لم يعد يستطيع النطق وأنّه دعا الأمّ لتتشهّد نيابة عنه، وأنّ كنه هٰذه الساعة الأخيرة سيبقى سرًّا إلى الأبد، وأنّ وصفه بالألم أو الفزع أو الغيبوبة رجم بالغيب، ولٰكنّه على كلّ حال لا ينبغي أن تطول، إنّها أجلّ وأخطر من أن تبتذل، أمّا أعصابه فقد انهارت حيالها، وخجل من نفسه إذ نزعت لحظات إلى تحليل الموقف ودراسته، كأنّ احتضار أبيه يجوز أن يكون زادًا لتأمّله ومادّة لمعرفته، وضاعف ذٰلك من حزنه ومن ألمه، وقد اشتدّت حركة الصدر وعلت حشرجته، ثمّ ما هٰذا؟ أيهمّ بالقيام؟. أم يحاول الكلام؟ أم يخاطب شيئًا مجهولًا؟. أيتألّم؟. أم يفزع؟... آه...

وشهق الأب شهقة عميقة ثمّ ارتمى رأسه على صدره.

صرخت عائشة من الأعماق: «يا أبي... يا نعيمة... يا عثمان، يا محمّد» فهرعت إليها أمّ حنفي ودفعتها أمامها برقّة إلى الخارج، ورفعت الأمّ وجهها الشاحب إلى كمال وأشارت إلى الخارج، ولٰكنّه لم يتحرّك، فهمست في يأس:

- دعني أقم بواجبي الأخير نحو أبيك...

فتحوّل عن موقفه ومضى خارجًا، وكانت عائشة مرتمية على الكنبة وهي تعول، فمضى إلى الكنبة المقابلة لها وجلس، أمّا أمّ حنفي فذهبت إلى الحجرة لتساعد سيّدتها وأغلقت الباب وراءها. ولم يعد بكاء عائشة ممّا يُحتمل فقام واقفًا وراح يقطع الصالة ذهابًا وإيابًا دون أن يوجّه إليها خطابًا، وكان من حين لآخر يرنو إلى باب الحجرة المغلق ثمّ يضغط على شفتيه بشدّة، وتساءل لِمَ يبدو لنا الموت بهٰذه الغرابة؟. وكان كلّما جمع أفكاره ليتأمّل تشتّت وغلبه الانفعال. كان الأب - حتّى بعد انزوائه - يملأ هٰذه الحياة، فلن يكون غريبًا إذا وجد غدًا البيت غير البيت الذي عهده، والحياة غير الحياة التي ألفها، بل عليه منذ اللحظة أن يعدّ نفسه لدور جديد. واشتدّ ضيقه بنحيب عائشة وهمّ مرّة بأن يُسكتها ولٰكنّه لم يفعل، وعجب من أين لها بهٰذا الشعور وقد كانت تبدو جامدة غريبة عن كلّ شيء. وعاد يفكّر في اختفاء أبيه من هٰذه الحياة فكبر عليه تصوُّر هٰذا، ثمّ ذكر حاله الأخير فأكل الحزن شغاف قلبه. وذكر صورته القديمة الماثلة في خاطره، وهو في تمام أُبّهته وقوّته، فشعر برثاء عميق للكائنات جميعًا، ولٰكن متى يسكت نحيب عائشة؟!... ألا تستطيع أن تبكي - مثله - بغير دموع؟!

وفتح باب الحجرة وخرجت منه أمّ حنفي، وترامى إليه من خلال الباب قبل أن يغلق نحيب الأمّ، فأدرك أنّها فرغت من أداء واجبها وخلصت للبكاء، وتقدّمت أمّ حنفي من عائشة وقالت لها بصوت غليظ:

- كفاية بكاء يا سيّدتي...

ثمّ تحوّلت إليه قائلة:

- الفجر لاح يا سيّدي، نم ولو قليلًا فأمامك غد عصيب...

ثمّ أنحمت في البكاء، ثمّ غادرت المكان وهي تقول في صوت باكٍ:

- سأذهب إلى السكّريّة وقصر الشوق لإبلاغ الخبر الأسود!...

* * *

وجاء ياسين مهرولًا تتبعه زنّوبة ورضوان، ثمّ ترامى إليهم من الطريق الصامت صوات خديجة. وبوصول خديجة استعرت النار في البيت جميعًا فاختلط الصوات بالصراخ والبكاء. وتعذّر على الرجال البقاء في الدور الأوّل فصعدوا إلى المكتبة في الدور الأعلى وجلسوا واجمين، وغشيهم الصمت والوجوم حتّى قال إبراهيم شوكت:

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله، قضت عليه الغارة، رحمه الله رحمة واسعة كان رجلًا ولا كلّ الرجال...

ولم يتمالك ياسين نفسه فبكى، وعند ذاك انفجر كمال باكيًا، فعاد إبراهيم شوكت يقول:

ـ وحّدوا الله، لقد ترككم رجالًا...

وكان رضوان وعبد المنعم وأحمد يتطلّعون إلى الرجلين الباكيين في حزن ووجوم وشيء من الدهش. وسرعان ما جفّف الرجلان دمعهما ولاذا بالصمت، فقال إبراهيم شوكت:

ـ الصباح قريب، فلنفكّر فيما يجب عمله...

فقال ياسين في اقتضاب حزين:

ـ لا جديد في الأمر فقد جرّبناه مرّات...

فقال إبراهيم شوكت:

ـ يجب أن تكون الجنازة جديرة بمقامه...

فقال ياسين بتوكيد:

ـ هذا أقلّ ما يجب!

وهنا قال رضوان:

ـ الشارع أمام البيت ضيّق لا يتّسع للسرادق المناسب فلنقم سرادق العزاء في ميدان بيت القاضي...

فقال إبراهيم شوكت:

ـ ولكنّ العادة جرت بأن يقام سرادق العزاء أمام بيت المتوفّى!...

فقال رضوان:

ـ ليس هذا بالمكان الأوّل من الأهمّيّة خاصّة وأنّه سيؤمّ السرادق وزراء وشيوخ ونوّاب!.

وأدرك المستمعون أنّه يشير إلى معارفه هو فقال ياسين دون مبالاة:

ـ نقيمه هناك...

وكان أحمد يفكّر في الدور المنوط به فقال:

ـ لن نتمكّن من نشر النعيّ في جرائد الصباح...

فقال كمال:

ـ جرائد المساء تصدر حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر فلنجعل ميعاد الجنازة في الساعة الخامسة...

ـ ليكن، القرافة قريبة على أيّ حال...

وتأمّل كمال مجرى الحديث في شيء من العجب. كان الأب في الساعة الخامسة اليوم في فراشه يتابع الراديو أمّا في نفس الساعة غدًا...!. إلى جانب فهمي وابنَي ياسين الصغيرين، ترى ماذا تبقّى من فهمي؟ لم يخفّف العمر من رغبته القديمة في التطلّع إلى جوف القبر، ترى هل كان الأب حقًّا يرغب في قول شيء كما تهيّأ له؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ والتفت ياسين إليه متسائلًا:

ـ هل شهدت احتضاره؟

ـ نعم، عقب انصرافك مباشرة.

ـ تألّم؟

ـ لا أدري، من يدري يا أخي؟ ولكنّه لم يستغرق أكثر من خمس دقائق...

تنهّد ياسين ثمّ تساءل:

ـ ألم يقل شيئًا؟

ـ كلّا، والغالب أنّه فقد النطق...

ـ ألم يتشهّد؟

فقال كمال وهو يغضّ بصره ليداري تأثّره:

ـ قامت أمّي بذلك نيابة عنه...

ـ ليرحمه الله...

ـ آمين...

وساد الصمت مليًّا حتّى خرقه رضوان قائلًا:

ـ يجب أن يكون السرادق كبيرًا ليتّسع للمعزّين...

فقال ياسين:

ـ طبعًا، أصدقاؤنا كثيرون... (ثمّ وهو ينظر نحو عبد المنعم)... وهناك شعبة الإخوان المسلمين!...

ثمّ متنهّدًا:

ـ لو كان أصحابه أحياء لحملوا النعش على أكتافهم!...

* * *

ثمّ كانت الجنازة كما رسموا، وكان أصدقاء عبد المنعم أكثر عددًا، أمّا أصدقاء رضوان فكانوا أعلى مقامًا، ولفت نفر منهم الأنظار بشخصيّاتهم المعروفة لقرّاء الجرائد والمجلّات، وكان رضوان بهم مزهوًّا حتّى كاد يغطّي زهوه على حزنه. وشيّع أهل الحيّ «جار العمر» حتّى الذين لم يصلهم به سبب من أسباب

التعارف الشخصيّ، فلم تكد الجنازة تخلو إلّا من أصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه إلى الدار الآخرة. وعند باب النصر ظهر الشيخ متولّي عبد الصمد في الطريق، وكان يترنّح من الكبر فرفع رأسه نحو النعش وهو يضيّق عينيه ثمّ سأل:

- من هٰذا؟

فأجابه رجل من أهل الحيّ:

- المرحوم السيّد أحمد عبد الجواد!

فجعل وجه الرجل يهتزّ يمنة ويسرة في ارتعاش، وملامحه تتساءل في حيرة، ثمّ إذا به يسأل:

- من أين؟...

فأجابه الرجل وهو يهزّ رأسه في شيء من الحزن:

- من هٰذا الحيّ، كيف لا تعرفه! ألا تذكر السيّد أحمد عبد الجواد؟!...

ولٰكن لم يبد عليه أنّه تذكّر شيئًا، وألقى نظرة أخيرة على النعش ثمّ سار في سبيله...

٣٨

خلا البيت من سيّدي فليس هو البيت الذي عاشرته أكثر من خمسين عامًا، والجميع يبكون حولي، وخديجة لا تفارقني فهي قلبي العامر بالحزن والذكريات وهي قلب كلّ قلب بل هي ابنتي وأختي وأمّي أحيانًا، وأكثر بكائي خلسة حين أخلو إلى نفسي إذ ينبغي أن أشجّعهم على النسيان فما يهون عليّ أن يحزنوا أو ـ لا قدّر الله ـ أن ينال منهم الحزن أيّ منال. أمّا إذا خلوت إلى نفسي فلا أجد عزاء إلّا في البكاء فأبكي حتّى تجفّ دموعي، وأقول لأمّ حنفي إذا تسلّلت إلى وحدتي الباكية دعيني وشأني يرحمك الله. فتقول لي كيف أتركك وأنت على هٰذه الحال؟ أنا عارفة بحالك... ولٰكنّك ستّ مؤمنة بل أنت ستّ المؤمنات فعندك نتعلّم العزاء والتسليم لقضاء الله... قول جميل يا أمّ حنفي ولٰكن أنّى للقلب المحزون أن يفقه معناه، ولم يعد لي شأن في هٰذه الدنيا ولم يعد لي عمل وكلّ ساعة من ساعات يومي مرتبطة بذكرى من ذكريات سيّدي... لم أعرف الحياة إلّا وهو محورها الذي تدور حوله فكيف أطيقها ولم يعد له فيها ظلّ؟ وأنا أوّل من اقترح تغيير معالم الحجرة العزيزة... ما حيلتي ما داموا لا يدخلونها حتّى تتعلّق أبصارهم بمكانه الخالي ويجهشون بالبكاء... وسيّدي يستحقّ الدموع التي تسيل من أجله، ولٰكنّي لا أطيق بكاءهم وأخاف على قلوبهم الغضّة فأعزّيهم بما تعزّيني به أمّ حنفي وأطالبهم بالتسليم لله وقضائه، ولذٰلك أخليت الحجرة من أثاثها القديم وانتقلت إلى حجرة عائشة، ولكيلا تُهجر الحجرة وتستوحش نقلت إليها أثاث الصالة فانتقل إليها مجلس القهوة حيث نجتمع حول المجمرة نتحدّث كثيرًا وتقطع أحاديثنا الدموع، ولا يشغلنا شيء كما يشغلنا الإعداد للقرافة وأشرف بنفسي على تجهيز الرحمة فلعلّه الواجب الأوحد الذي لم أتخلّ عنه لأمّ حنفي كما تخلّيت لها عن كلّ شيء، تلك المرأة العزيزة الوفيّة التي دخلت بجدارة في صميم أسرتنا، فنحن نعدّ الرحمة معًا ونبكي معًا ونتذكّر الأيّام الجميلة معًا فهي دائمًا معي بروحها وذاكرتها، وأمس جرّ الحديث إلى ذكر ليالي رمضان فبادرت تحدّث عن سيرة سيّدي في رمضان منذ ساعة استيقاظه في الضحى حتّى حين عودته إلينا عند السحور، فذكرت بدوري كيف كنت أهرع إلى المشربيّة لأرى الحنطور الذي يعيده وأستمع إلى ضحكات راكبيه أولٰئك الذين ذهبوا تباعًا إلى رحمة الله كما ذهبت الأيّام الحلوة وكما ذهب الشباب والصحّة والعافية فاللّٰهمّ متّع الأبناء بطول العمر وقرّ أعينهم بأفراح الحياة، وهٰذا الصباح رأيت قطّتنا تشمّم الأرض تحت الفراش حيث كانت ترضع فلذات كبدها التي أهديناها إلى الجيران فقطّع قلبي منظرها الحائر الحزين وهتفت من أعماق قلبي الله يصبّرك يا عائشة... عائشة المسكينة التي هاج موت أبيها حزنها فهي تبكي أباها وابنتها وابنيها وزوجها فما أحرّ الدموع وأنا التي تجرّعت مرارة الثكل قديمًا حتّى سال قلبي دمًا واليوم أفجع بوفاة سيّدي وتخلو حياتي منه وكان ملء حياتي جميعًا ولا يبقى لي من الواجبات إلّا أن أعدّ له الرحمة أو أتلقّاها من السكّريّة وقصر الشوق فهٰذا كلّ ما بقي لي، كلّا يا بنيّ، اختر لنفسك هٰذه الأيّام مجلسًا غير مجلسنا الحزين حتّى لا تسري إليك عدواه... لماذا

أنت واجم؟. الحزن لم يُخلق للرجال فالرجل لا يستطيع أن يحمل الأعباء والأحزان معًا... اصعد إلى حجرتك وتسلَّ بالقراءة والكتابة كما تفعل أو انطلق إلى أصحابك فاسهر، ومن بدء الخليقة فالأعزّاء يفارقون ذويهم، فلو كان الاستسلام إلى الحزن هو المتّبع لما بقي على ظهر الأرض حيّ... لست حزينة كما تتوهّم وما ينبغي لمؤمن أن يحـزن، وسوف نعيش إذا أراد الله وسوف ننسى ولا سبيل إلى العزيز الذي سبق إلّا حين يشاء الله، هٰكذا أقول له ولا آلو أن أتكلّف ما ليس بي من التصبّر والتجلّد إلّا إذا هلّت خديجة قلب بيتنا الحيّ وذرفت الدموع بلا حساب هنالك لا أملك أن أجهش في البكاء، وقالت لي عائشة إنّها رأت أباها في المنام قابضًا على ساعد نعيمة بيدٍ وعلى ساعد محمّد بيدٍ حاملًا عثمان على كتفه وقال لها إنّه بخير وإنّهم بخير فسألته عن سرّ النافذة التي نوّرت لها في السماء ثمّ تـوارت إلى الأبد فتجلّت في عينيه نظرة عتاب ولم ينبس. ثمّ سألتني عن معنى الحلم. يا حيرة أمّك يا عائشة... غـير أنّي قلت لها إنّ العـزيز مـات وهو مشغول القلب بها ولـذٰلك زارهـا في الحلم وجاءهـا بأولادها من الجنّة لتقرّ برؤيتهم عينًا فلا تنغّصي عليهم صفوهم باستسلامك للحزن، ليت عائشة الزمـان الأوّل تعود ولو ساعة، ليت الذين حولي يبرءون من حزنهم حتّى لا يشغلني شاغـل عن واجب الحـزن العميق، وجمعت ياسين وكمال وقلت لهما: هٰـذه المخلّفات العزيزة ماذا نفعل بها؟ فقال ياسين: آخذ الخاتم فإنّه على قدّ أصبعي، ولك الساعة يا كمال أمّا السبحـة فلك أنـت يـا نينـة... والجبـب والقفاطين؟... وذكرت من توّي الشيخ متولّي عبد الصمد الذكرى الباقية من عهد العزيز فقال ياسين: لقد انتهى الرجل فهو في غيبوبة ولا يُعرف له مقرّ، وقال كمال مقطّبًا: لم يعرف أبي!... نسي اسمه وتولّى عن الجنازة دون اكتراث. فانزعجت وأنا أقول: يا للعجب متى حدث هٰذا؟ كان سيّدي يسأل عنه حتّى أيّامه الأخيرة وكان دائمًا يحبّه ولم يره إلّا مرّة أو مرّتين مذ زار بيتنا ليلة دخلة نعيمة، ولٰكن ربّاه أين نعيمة وأين ذٰلك التاريخ كلّه؟ ثمّ اقترح ياسين أن تهدى الملابس إلى سعاة ديوانه وفرّاشي مدرسة كمال فليس أحقّ بها من الفقراء أمثالهم الذين سيدعون له بالرحمة في مقرّه الأخير، أمّا المسبحة العزيزة فلن تفارق يدي حتّى أفارق الحياة، والقبر كم يبدو حلو المزار على ما يثير من شجن ولم أكن انقطعت عنه منذ انتقل إليه الشهيد الغالي، ومنذ ذٰلك الوقت وأنا أعتبره حجرة من بيتنا لٰكنّها في أطراف حيّنا، ويجمعنا القبر جميعًا كما كان يجمعنا مجلس القهوة في الزمن الخالي، وتنوح خديجة حتّى ينال منها الإعياء ثمّ نؤمر بالسكوت تأدّبًا لاستماع القرآن، ثمّ يشغلهم الحديث حينًا فأُسَرُّ بما يصرف أعزّائي عن الحزن، ويشتبك رضوان وعبد المنعم وأحمد في نقاش طويل وتنضمّ إليهم كريمة أحيانًا فذاك ما يغري كمال بمشاركتهم الحديث ويلطّف من كآبة المقام، ويسأل عبد المنعم عن خاله الشهيد فيقصّ ياسين القصص فتنبعث الحياة في الأيّام القديمة ويعود غائب الذكريات ويخفق قلبي فلا أدري كيف أداري دموعي، وكثيرًا ما أرى كمال واجمًا فأسأله عمّا به فيقول لي إنّ صورته لا تفارقني خاصّة منظر الاحتضار فلو كانت نهايته أخفّ!. فقلت له برقّة عليك أن تنسى هٰذا كلّه. فتساءل كيف يكون النسيان؟ فقلت له بالإيمان فابتسم ابتسامة حزينة وقال: كم كنت أخافه في مطلع حياتي ولٰكنّه تكشّف لي في عهده الأخير عن إنسان جديد بل صديق حبيب. ألا ما كان أظرفه وأرقّه وألطفه، لم يكن في الرجال مثله. وياسين يبكي كلّما أهاجته الذكرى... كمال حزنه في صمته الواجم أمّا ياسين الضخم فيبكي كالأطفال ويقول لي إنّه الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي، أجل كان أباه وكان أمّه ولم ينعم بالعطف والحنان والرعاية إلّا في كنفه حتّى شِدّته كانت رحمة ولن أنسى يوم عفا عنّي وردّني إلى بيته فصدّق فراسة أمّي رحمها الله التي ما انفكّت تقول لي إنّ السيّد ليس بالرجل الذي يقطع أمّ أولاده، وكان يجمعنا حبّه فاليوم تجمعنا ذكراه، أمّا بيتنا فلا يخلو من الزوّار غير أنّ قلبي لا يسكن حتّى أجد خديجة وياسين وآلهما حولي... حتّى زنّوبة فما أصدق حزنها، وقالت لي كريمة الصغيرة الجميلة: يا جدّتي تعالي عندنا فهٰذه أيّام مولد الحسين وتحت بيتنا تقام

الأذكار وأنت تحيّين ذٰلك، فقبّلتها شاكرة وقلت لها: يا بنيّتي جدّتك لم تعتد البيات خارج بيتها... إنّها لا تدري شيئًا عن آداب بيت جدّها في تلك الأيّام التي خلت. ما أجمل ذكراها والمشربيّة آخر حدود دنياي حيث أنتظر عودة سيّدي آخر الليل وهو من قوّته يكاد يهدّ الأرض عند مغادرته للحنطور ثمّ يملأ الحجرة بطوله وعرضه والعافية تكاد تثب من وجهه أمّا اليوم فلا يعود ولن يعود وقبل ذٰلك ذبل وانزوى ولزم الفراش ورقّ جسمه وخفّ وزنه حتّى حُمل بيد واحدة. يا حزني الذي لن يذهب! وقالت عائشة في غضب إنّ هٰؤلاء الأحفاد لم يحزنوا على جدّهم، إنّهم لا يحزنون، فقلت لها بل حزنوا ولٰكنّهم صغار ومن رحمة الله بهم ألّا يغرقوا في الحزن، فقالت: انظري إلى عبد المنعم لا ينتهي نقاشه، وهو لم يحزن على ابنتي وسرعان ما نسيها كأنّها شيء لم يكن. فقلت لها: بل حزن عليها طويلًا وبكى كثيرًا وحزن الرجال غير حزن النساء وقلب الأمّ غير القلوب جميعًا، ومنذا الذي لا ينسى يا عائشة، ونحن ألا نتسلّى بالحديث أو يدركنا الابتسام أحيانًا وسوف يأتي يوم لا يكون فيه دموع، ثمّ أين فهمي أين؟. وقالت لي أمّ حنفي: لماذا امتنعت عن زيارة الحسين؟ فقلت: نفسي فاترة عن كلّ شيء أحبيته وسأزور سيّدي عندما يبرأ الجرح. فقالت لي: وهل يبرأ الجرح إلّا بزيارة سيّدك؟ هٰكذا ترعاني أمّ حنفي وهي ربّة بيتنا ولولاها ما كان لنا بيت، إنّك يا ربّي ربّ الجميع أنت القاضي ولا رادّ لقضائك ولك أصلّي، وددت لو أبقيت على سيّدي قوّته حتّى النهاية فما آلمني شيء كما آلمني رقاده، هو الذي كانت الدنيا تضيق عن مراحه... حتّى الصلاة عجز عنها وما عاناه قلبه الضعيف وعودته محمولًا على الأيدي كالطفل لذٰلك تسيل دموعي ويتكاثف حزني...

٣٩

ـ سأتوكّل على الله وأخطب كريمة بنت خالي...

رفع إبراهيم شوكت عينيه إلى ابنه في شيء من الدهش، أمّا أحمد فأحنى رأسه وهو يبتسم ابتسامة دلّت على أنّه لم يفاجأ بالخبر، على حين تركت خديجة الشال الذي تطرّزه وحدجته بنظرة غريبة غير مصدّقة ثمّ نظرت إلى زوجها وهي تتساءل:

ـ ماذا قال؟

فعاد عبد المنعم يقول:

ـ سأتوكّل على الله وأخطب كريمة بنت أخيك...

فبسطت خديجة يديها في حيرة وقالت:

ـ هل أفلست الدنيا من الذوق؟ أهٰذا الوقت مناسب لحديث الخطبة حتّى مع صرف النظر عن المخطوبة؟!

فقال عبد المنعم باسمًا:

ـ كلّ الأوقات مناسبة للخطبة...

فهزّت رأسها في حيرة وهي تتساءل:

ـ وجدّك؟!... (ثمّ وهي تردّد عينيها بين أحمد وإبراهيم)... هل سمعتم عن شيء كهٰذا من قبل؟

فقال عبد المنعم في شيء من الحدّة:

ـ خطبة لا زواج ولا فرح، وقد انقضى على وفاة جدّي أربعة أشهر كاملة...

وقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

ـ كريمة ما زالت صغيرة، مظهرها أكبر من سنّها فيما أعتقد...

فقال عبد المنعم:

ـ هي في الخامسة عشرة ولن يُكتب الكتاب قبل عام...

فقالت خديجة في تهكّم ومرارة:

ـ هل أطلعتك زنّوبة هانم على شهادة الميلاد؟

فضحك إبراهيم شوكت، وضحك أحمد، أمّا عبد المنعم فقال جادًّا:

ـ لن يتمّ شيء قبل عام، وبعد عام سيكون قد مضى على وفاة جدّي حوالى العام والنصف وتكون كريمة قد بلغت سنّ الزواج...

ـ ولماذا توجع دماغنا الآن؟

ـ لأنّه لا بأس من إعلان الخطبة في الوقت الحاضر.

فتساءلت خديجة في سخرية:

ـ وهل تحمّض الخطبة إذا أجّلت عامًا؟

ـ أرجوك... أرجوك أن تكفّي عن المزاح...

فصاحت خديجة:

ـ لو وقع هٰذا لكان فضيحة.

فقال عبد المنعم في هدوء ما استطاع:

ـ دعي جدّتي لي، ستفهمني خيرًا منك، إنّها جدّتي وجدّة كريمة على السواء.

فقالت بخشونة:

ـ ليست جدّة لكريمة...

فسكت عبد المنعم وقد تجهّم وجهه فبادره أبوه قائلًا:

ـ المسألة مسألة ذوق فيحسن أن ننتظر قليلًا...

فهتفت خديجة حانقة:

ـ يعني أنّه لا اعتراض لك إلّا على الوقت؟

فتساءل عبد المنعم متغابيًا:

ـ هل ثمّة اعتراض آخر؟

فلم تجب خديجة وعادت تتشاغل بتطريز الشال فاستطرد عبد المنعم قائلًا:

ـ كريمة ابنة ياسين أخيك أليس كذٰلك؟

فتركت خديجة الشال وقالت بمرارة:

ـ هي ابنة أخي حقًّا ولٰكن كان ينبغي أن تذكر أمّها أيضًا!

وتبادلوا النظرات في إشفاق، ثمّ اندفع عبد المنعم قائلًا في حدّة:

ـ أمّها زوجة أخيك كذٰلك!

فارتفع صوتها وهي تقول:

ـ أعلم هٰذا، وهو ممّا يؤسف له!

ـ ذٰلك الماضي المنسيّ! مَن يذكره الآن؟! لم تعد إلّا سيّدة محترمة مثلك!

فقالت بصوت غليظ:

ـ ليست مثلي ولن تكون مثلي أبدًا!

ـ ماذا يعيبها؟! عرفناها منذ صغرنا سيّدة محترمة بكلّ معنى الكلمة، والإنسان إذا تاب واستقام محيت صفحة سوابقه فلا يذكّره بها بعد ذٰلك إلّا...

وأمسك، فقالت وهي تهزّ رأسها في أسف:

ـ نعم؟ صِفْني! سبّ أمّك إكرامًا لهٰذه المرأة التي عرفت كيف تأكل مخّك، طالما تساءلت عمّا وراء الدعوات المتتابعة إلى ولائم قصر الشوق، وإذا بك تقع كالجردل!

فردّد عبد المنعم عينيه غاضبًا بين أبيه وأخيه ثمّ تساءل:

ـ أهٰذا الكلام يليق بنا؟ أسمعاني رأيكما!...

فقال إبراهيم شوكت متثائبًا:

ـ لا داعي لكثرة الكلام، عبد المنعم سيتزوّج إن اليوم أو غدًا، وأنت تودّين هٰذا، وكريمة ابنتنا، وهي بنت جميلة ولطيفة، لا داعي للشوشرة...

وقال أحمد:

ـ أنت يا نينة أوّل من يودّ إرضاء خالي ياسين!

فقالت خديجة محتدّة:

ـ كلّكم ضدّي كالعادة، ولا حجّة لكم إلّا خالي ياسين، ياسين أخي، وكان خطؤه الأوّل أنّه لم يعرف كيف يتزوّج، وعنه ورث ابن أخته هٰذا المزاج الغريب!...

فتساءل عبد المنعم في عجب:

ـ أليست امرأة خالي صديقتك؟! من يراكما وأنتما تتناجيان يظنّكما شقيقتين!...

ـ ما حيلتي في امرأة سياسيّة مثل اللنبي؟ لكن لو تُرك لي الأمر أو لو لم أرع خاطر ياسين ما سمحت لها بدخول بيتي، وماذا كانت النتيجة؟... أكلت مخّك بالولائم المغرضة، وعليه العوض؟

عند ذاك قال أحمد مخاطبًا أخاه:

ـ اخطبها وقتما تشاء، نينة لسانها كثير الكلام ولٰكنّ قلبها طيّب...

فضحكت ضحكة عصبيّة وقالت:

ـ عفارم يا ولد! تختلفان في كلّ شيء... في الدين والملّة والسياسة، أمّا عليّ فتتّحدان!...

فقال أحمد في مرح:

ـ خالي ياسين أغلى الناس عندك، وسوف ترحّبين بكريمته كأحسن ما يكون الترحيب، الحكاية أنّك تودّين عروسًا غريبة حتّى تتمكّني ـ كحماة ـ من اضطهادها، حسن، عليّ أنا أن أحقّق لك هٰذا الأمل، سوف أجيئك بالعروس الغريبة لتشفي غليلك!.

ـ لا عجب إن جئتني غدًا براقصة! علامَ تضحكون؟!. هٰذا شيخ الإسلام سيصاهر عالمة فماذا أتوقّع منك أنت المتّهم في دينه والعياذ بالله؟!

ـ نحن في حاجة إلى راقصة بالفعل!

وإذا بخديجة تقول وكأنّما تذكّرت أمرًا خطيرًا:

ـ وعائشة يا ربّي ترى ماذا تقول عنّا؟!

فقال عبد المنعم محتجًا:

ـ ماذا تقول؟ لقد توفّيت زوجتي منذ أربع سنوات كاملة فهل تودّ أن أبقى أرمل مدى العمر؟

فقال إبراهيم شوكت في ضجر:

ـ لا تخلقوا من الحبّة قبّة، المسألة أبسط من هٰذا كلّه، كريمة ابنة ياسين، ياسين أخو خديجة وعائشة، حسبنا هٰذا. أف. كلّ شيء عندكم نقار حتّى الأفراح؟!.

واختلس أحمد من أمّه نظرة باسمة، وجعل يراقبها حتّى قامت كالغاضبة وغادرت الصالة، وراح يقول لنفسه: هٰذه الطبقة البورجوازيّة كلّها عقد، تحتاج إلى محلّل نفسانيّ بارع ليشفيها من كافّة عللها، محلّل له قوّة التاريخ نفسه!. لو هادنني الحظّ لسبقت أخي إلى الزواج ولٰكنّ البورجوازيّة الأخرى اشترطت مرتّبًا لا يقلّ عن خمسين جنيهًا، هٰكذا تُجرح قلوب لأمور لا شأن لها بالقلوب، ترى ماذا يكون رأي سوسن حمّاد لو علمت بمغامرتي الفاشلة؟!.

٤٠

كان الجوّ شديد البرودة، ولم يكن خان الخليلي الرطب ممّا يؤثر شتاء، ولٰكنّ رياض قلدس نفسه الذي أشار ذٰلك المساء بالذهاب إلى قهوة خان الخليلي التي شيّدت مكان قهوة أحمد عبده فوق سطح الأرض، أو كما قال: «علّمني كمال عليّ آخر الزمن أن أكون من غواة الغرائب». كانت قهوة صغيرة، بابها يفتح على حيّ الحسين، ثمّ تمتدّ طولًا في شبه ممرّ تصفّ على جانبيه الموائد وينتهي بشرفة خشبيّة تطلّ على خان الخليلي الجديد. جلس الأصدقاء في جناح الشرفة الأيمن يحتسون الشاي ويدخّنون نارجيلة بالمناوبة.

وكان إسماعيل لطيف يقول:

ـ أنا في إجازة للاستعداد ومن ثمّ أسافر. . .

فتساءل كمال في أسف:

ـ ستغيب عنّا ثلاثة أعوام؟

ـ نعم، لا بدّ من المغامرة، مرتّب ضخم لا أتخيّل أن أناله يومًا هنا، ثمّ إنّ العراق بلد عربيّ لا يختلف عن مصر كثيرًا. . .

سيخلّف وحشة، لم يكن صديق الروح ولكنّه صديق العمر، وتساءل رياض قلدس ضاحكًا:

ـ ألا يحتاج العراق إلى مترجمين؟

فسأله كمال:

ـ أتسافر إذا سنحت لك فرصة كفرصة إسماعيل؟

ـ لو حدثت في الماضي ما تردّدت أمّا اليوم فلا. . .

ـ وما الفرق بين الماضي والحاضر؟

فقال رياض قلدس ضاحكًا:

ـ بالنسبة لك لا شيء، أمّا بالنسبة لي فهو كلّ شيء، الظاهر أنّني سأنضمّ قريبًا إلى جماعة المتزوّجين!

دهش كمال للخبر الذي وقع عليه دون تمهيد وقد ساوره قلق لم يدرك كنهه:

ـ حقًّا؟! لم تُشِرْ إلى ذٰلك من قبل!

ـ بلى، جاء بغتة، في آخر مقابلة، في آخر مقابلة بيننا لم يكن في البال شيء!

ضحك إسماعيل لطيف في ظفر، أمّا كمال فتساءل وهو يحاول أن يبتسم:

ـ كيف؟

ـ كيف؟! كما يحدث كلّ يوم، مدرّسة جاءت لزيارة أخيها في إدارة الترجمة فأعجبتني، فجسست النبض فوجدت من يقول: «تفضّل». . .

تساءل إسماعيل ضاحكًا وهو يتناول خرطوم النارجيلة من كمال:

ـ ترى متى يجسّ هٰذا (مشيرًا إلى كمال) النبض؟

هٰكذا إسماعيل لا يفوّت فرصة أبدًا لإثارة هٰذا الموضوع المعاد، ولٰكن ثمّة أمر أخطر من هٰذا، فجميع الأصدقاء المتزوّجين يقولون إنّ الزواج «زنزانة»، فمن المحتمل جدًّا ألّا يرى رياض ـ إذا تزوّج ـ إلّا في القليل النادر، وربّما تغيّر وتبدّل فيصبح صديقًا

بالمراسلة، وهو وديع رقيق فما أسهل هضمه، ولٰكن كيف تمضي الحياة بدونه؟ وإذا جعل الزواج منه شخصًا جديدًا كإسماعيل فسلام على كافّة مسرّات الحياة! وسأله:

ـ ومتى تتزوّج؟

ـ في الشتاء القادم على أبعد الفروض.

كأنّما قُضي عليه أن يفتقد دوامًا صديقًا لروحه المعذّبة:

ـ عند ذاك ستكون رياض قلدس آخر!

ـ لمَ؟!... أنت واهم جدًّا...

فقال وهو يداري قلقه بابتسامة:

ـ واهم؟! رياض اليوم شخص لا يُشبع روحه شيء ويقنع جيبه بلا شيء، أمّا الزوج فلن يشبع جيبه أبدًا ولن يجد فرصة لمتاع الروح...

ـ يا له من تعريف جارح للزوج! ولٰكنّي لا أوافقك عليه...

ـ كإسماعيل الذي اضطرّ إلى الهجرة إلى العراق، لست أسخر من هٰذا، فهو طبيعيّ فوق أنّه بطولة، ولكنّه في الوقت نفسه بشع، تصوّر أن تغرق حتّى قمّة رأسك في هموم الحياة اليوميّة، ألّا تفكّر إلّا في مشكلات الرزق، أن يحسب وقتك بالقروش أو الملاليم، أن تمسي شاعريّة الحياة ضياع وقت!

فقال رياض في استهانة:

ـ أوهام مبعثها الخوف!.

وقال إسماعيل لطيف:

ـ آه لو تعرف الزواج والأبوّة! لقد فاتك حتّى اليوم أن تعرف حقيقة الحياة...

لا يبعد أن يكون الصواب رأيه، ولو صحّ هٰذا فحياته مأساة سخيفة، ولٰكن ما السعادة وماذا يروم على وجه التحقيق؟ غير أنّ الذي يكربه الآن أنّه بات مهدّدًا بالوحدة المرعبة مرّة أخرى، كما عانى عقب اختفاء حسين شدّاد من حياته، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطيّة وروح رياض؟! هٰذا ما يروم حقًّا، جسم عطيّة وروح رياض في شخص واحد يتزوّجه فلا يتهدّده الشعور بالوحدة حتّى الموت، هٰذه هي المشكلة، وإذا برياض يقول في ضجر:

ـ دعونا من حديث الزواج، لقد انتهيت منه وعقبى لك، على أنّ ثمّة أحداثًا سياسيّة هامّة هي التي ينبغي أن تستأثر اليوم باهتمامنا.

وكان كمال يشاركه مشاعره هٰذه غير أنّه لم يستطع أن يفيق من المفاجأة فتلقّى دعوة الآخر بفتور ظاهر ولم ينبس، أمّا إسماعيل لطيف فقال ضاحكًا:

ـ عرف النحّاس كيف ينتقم لإقالة ديسمبر سنة ١٩٣٧ فاقتحم عابدين على رأس الدبّابات البريطانيّة!

وتريّث رياض قليلًا ليعطي كمال فرصة للردّ غير أنّ هٰذا لم ينشط للكلام، فقال رياض في لهجة متجهّمة:

ـ انتقام؟! إنّ خيالك يصوّر لك المسألة على وجه هو أبعد ما يكون عن الحقيقة...

ـ فما الحقيقة؟

وألقى رياض نظرة على كمال كأنّما يحثّه على الكلام فلمّا لم يستجب استطرد قائلًا:

ـ ليس النحّاس بالرجل الذي يتآمر مع الإنجليز في سبيل العودة إلى الحكم، إنّ أحمد ماهر مجنون، هو الذي خان الشعب وانضمّ إلى الملك، ثمّ أراد أن يغطّي مركزه المضعضع بتصريحه الأحمق الذي أعلنه أمام الصحفيّين!.

ثم نظر إلى كمال مستطلعًا رأيه، وكان حديث السياسة قد جذب أخيرًا بعض اهتمامه غير أنّه شعر برغبة في معارضة رياض ولو بعض الشيء فقال:

ـ لا شكّ أنّ النحّاس قد أنقذ الموقف، ولست أشكّ في وطنيّته مطلقًا، إنّ الإنسان لا ينقلب في هٰذه السنّ إلى خائن ليتولّى وظيفة تولّاها خمس مرّات أو ستًّا من قبل، ولٰكن هل كان تصرّفه هو التصرّف المثاليّ؟...

ـ أنت شكّاك لا نهاية لشكّك، ما الموقف المثاليّ؟

ـ أن يصرّ على رفض الوزارة حتّى لا يخضع للإنذار البريطانيّ وليكن ما يكون.

ـ ولو عزل الملك وتولّى أمر البلاد حاكم عسكريّ بريطانيّ؟

ـ ولو!...

تنهّد رياض في غيظ وقال:

ـ نحن نلهو بالحديث أمام النارجيلة، أمّا السياسيّ

فأمامه مسئوليّة خطيرة، في هٰذه الظروف الحربيّة الدقيقة كيف يقبل النحّاس أن يعزل الملك ويحكم البلاد حاكم عسكريّ إنجليزيّ؟ وإذا انتصر الحلفاء ـ ويجب أن نفترض هٰذا أيضًا ـ فنكون في صفوف الأعداء المنهزمين، السياسة ليست مثاليّة شعريّة ولٰكنّها واقعيّة حكيمة...

ـ لا زلت أومن بالنحّاس، ولٰكن لعلّه أخطأ، لا أقول تآمر أو خان...

ـ المسئوليّة تقع على العابثين الذين مالأوا الفاشست من وراء ظهور الإنجليز كأنّ الفاشست سيحترمون استقلالنا، أليس بيننا وبين الإنجليز معاهدة؟ وأليس الشرف يقضي علينا باحترام كلمتنا؟ ثمّ ألسنا ديموقراطيّين يهمّنا أن تنتصر الديموقراطيّة على النازيّة التي تضعنا في جدول الأمم والأجناس في أحطّ طبقة وتثير شحناء الجنسيّة والعنصريّة والطائفيّة؟!...

ـ معك في هٰذا كلّه، ولٰكنّ الخضوع للإنذار البريطانيّ جعل من استقلالنا وهمًا!...

ـ احتجّ الرجل على الإنذار ونزل الإنجليز عند رأيه...

فضحك إسماعيل عاليًا ثمّ قال:

ـ يا عيني على الاحتجاج الأنجلو أجبشيان!...

غير أنّه سرعان ما قال جادًّا:

ـ إنّي أقرّه على ما فعل، ولو كنت مكانه لفعلته، رجل أبعد رغم أغلبيّته وأهين فعرف كيف ينتقم لنفسه، والواقع أنّه ليس هنالك استقلال ولا كلام فارغ، ففي سبيل أيّ شيء يعزل الملك ويحكمنا حاكم عسكريّ إنجليزيّ؟!

وازداد وجه رياض تجهّمًا، أمّا كمال فابتسم قائلًا في هدوء بدا غريبًا:

ـ أخطأ الآخرون وتحمّل النحّاس نتيجة الخطأ، لا شكّ أنّه أنقذ الموقف، أنقذ العرش والبلاد، ثمّ إنّ العبرة بالخاتمة، فإذا ذكر له الإنجليز صنيعه بعد الحرب فلن يذكر أحد ٤ فبراير!...

إسماعيل هازئًا وهو يصفّق طالبًا جمرات للنارجيلة:

ـ إذا ذكر الإنجليز صنيعه! وأنا أقول لك من الآن بأنّهم سيقيلونه قبل ذلك!.

فقال رياض بإيمان:

ـ الرجل تقدّم لحمل أكبر مسئوليّة في أحرج الظروف...

فقال كمال باسمًا:

ـ كما ستتقدّم لحمل أكبر مسئوليّة في حياتك!...

فضحك رياض، ثمّ نهض قائلًا «عن إذنكم» ومضى في اتّجاه دورة المياه، وعند ذاك مال إسماعيل نحو كمال وقال وهو يبتسم:

ـ في الأسبوع الماضي زار والدتي «جماعة» لا شكّ أنّك تذكرهم!

فنظر كمال إليه مستطلعًا وهو يتساءل:

ـ من؟...

فقال الآخر وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى:

ـ عايدة!

وقع الاسم من أذنيه موقعًا غريبًا، فغطّت غرابة موقعه على كافّة الانفعالات التي كان حريًّا بأن يثيرها، وبدا حينًا كأنّما هو صادر من أعماقه هو لا من لسان صاحبه، وكلّ شيء كان متوقّعًا إلّا هٰذا، ومضت لحظات وكأنّ الاسم ليس له معنى، مَن عايدة؟ أيّ عايدة؟ يا للتاريخ! كم عامًا مضى دون أن يطرق هٰذا الاسم مسامعه منذ ١٩٢٦، أو ١٩٢٧؟ ستّة عشر عامًا أو عمر شابّ يافع بالكمال لعلّه أحبّ ومنيَ بالإخفاق! لقد طعن في السنّ حقًّا، عايدة؟! ترى ماذا أصابه بهٰذه الذكرى؟ لا شيء! ليس إلّا اهتمامًا عاطفيًّا مشوبًا بشيء من الانفعال كمن تمسّ يده موضع عمليّة جراحيّة ملتئم من قديم فيذكر ما اكتنفها من ظرف خطير مضى وانقضى، وتمتم متسائلًا:

ـ عايدة؟!

ـ نعم، عايدة شدّاد ألا تذكرها؟ أخت حسين شدّاد!...

وشعر بمضايقة تحت عيني إسماعيل فقال متهرّبًا:

ـ حسين! ترى ما أخبار حسين؟

ـ من يدري؟

وشعر بسخف تهرّبه، ولٰكن ما حيلته وقد أحسّ بوجهه يسخن رغم برودة فبراير الشديدة؟ وبدا له الحبّ على مثال غريب بعض الشيء... كالطعام!

تشعر به بقوّة وهو على المائدة، ثمّ وهو في المعدة، ثمّ وهو في الأمعاء على نحو ما، ثمّ وهو في الدم على نحو آخر، حتّى يستحيل خلايا ثمّ تتجدّد الخلايا بمرور الزمن فلا يبقى منه أثر، لكن ربّما بقي منه صدى في الأعماق هو ما نسمّيه بالنسيان، وقد يعرض للإنسان «صوت» قديم فيدفع بهٰذا النسيان إلى قريب من منطقة الوعي فيسمع الصدى على وجه ما، وإلّا فما هٰذا الاضطراب؟ أم لعلّه الحنين إلى عايدة لا باعتبارها المحبوبة التي كانت ـ فقد انتهى هٰذا إلى غير رجعة ـ ولٰكن باعتبارها رمزًا للحبّ الذي كان كثيرًا ما يستوحش غيبته الطويلة، مجرّد رمز كالخربة المهجورة التي تثير ذكريات تاريخيّة جليلة.

وعاد إسماعيل يقول:

ـ وتحادثنا طويلًا ـ أنا وعايدة وأمّي وزوجي ـ فروت لنا كيف هربت هي وزوجها بل وجميع ممثّلي الدول السياسيّين أمام الجيوش الألمانيّة حتّى لاذا بأسبانيا، وأنّهما نُقلا أخيرًا إلى إيران؛ ثمّ رجعنا إلى أيّام زمان وضحكنا كثيرًا...

مهما يكن من أمر الحبّ الذي مات فقلبه يبعث حنينًا مسكرًا، وأوتار الأعماق التي تهتّكت أخذت تصعد أنغامًا بالغة في الخفوت والحزن، وتساءل:

ـ ما شكلها الآن؟

ـ لعلّها في الأربعين، كلّا أنا أكبر منها بعامين، عايدة في السابعة والثلاثين، وامتلأت قليلًا عمّا كانت، لكنّها ما زالت محتفظة برشاقتها، ووجهها هو هو تقريبًا فيما عدا نظرة عينيها التي أصبحت توحي بالجدّ والرزانة، وقالت إنّها أنجبت ابنًا في الرابعة عشرة وبنتًا في العاشرة...

هٰذه هي عايدة إذن، لم تكن حلمًا ولم يكن تاريخها وهمًا، فقد تمرّ لحظات فيبدو ذٰلك الماضي كأنّه لم يكن، وهي زوجة وأمّ وتذكر الماضي وتضحك كثيرًا، ولٰكن ما حقيقة صورتها؟ وماذا بقي من هٰذه الحقيقة في الذاكرة؟ فلشدّ ما تتغيّر المناظر في أثناء حفظها بالذاكرة، وهو يودّ أن يلقي نظرة ثابتة على هٰذا الكائن البشريّ لعلّه يقف على السرّ الذي مكّنه قديمًا من أن يفعل به الأفاعيل.

وعاد رياض إلى مجلسه فخاف كمال أن يقطع إسماعيل حديثه ولكنّه واصله قائلًا:

ـ وسألوا عنك!

ردّد رياض نظره بينهما فأدرك أنّ حديثًا خاصًّا يدور بينهما فعدل عنهما إلى النارجيلة، أمّا كمال فقد شعر بأنّ جملة «سألوا عنك» توشك أن تودي بقوّة مناعته كأشدّ الميكروبات فتكًا، وتساءل وهو يبذل أقصى ما يملك من قوّة ليبدو طبيعيًّا:

ـ لماذا؟

ـ سألوا عن فلان وعلان من أصحاب زمان ثمّ سألوا عنك فقلت مدرّس بمدرسة السلحدار وفيلسوف كبير ينشر مقالات لا أفهمها في مجلّة الفكر التي لا أفتحها فضحكوا ثمّ سألوا «هل تزوّج؟» فقلت كلّا...

فوجد نفسه يسأل:

ـ ماذا قالوا؟

ـ لا أذكر ماذا حوّلنا عن هٰذا الحديث؟

إنّ المرض الكامن يهدّد بالانفجار، والذي مرض قديمًا بالسلّ يجب أن يحذر البرد، أمّا جملة سألوا عنك فما أشبهها بأنغام الصبا في بساطة معناها وشديد نفاذها في النفس، وقد يطرأ ظرف فَتَعْبر النفس حال عاطفيّة مندثرة بكامل قوّتها الماضية ثمّ تنقطع... كالمطر في غير أوانه، على ذٰلك شعر في هٰذه اللحظة العابرة بأنّه انقلب ذٰلك العاشق القديم، وأنّه يعاني الحبّ حيًّا بكافّة أنفاسه السارّة والحزينة، ولٰكنّ الخطر لم يكن يتهدّده بصفة جدّيّة فهو كالحالم المكروب الذي يداخله شعور ملطّف بأنّ ما يراه حلم لا حقيقة، لكنّه تمنّى في تلك اللحظة لو تقع معجزة من السماء فيلقاها ولو لبضع دقائق فتعترف له بأنّها بادلته عاطفته يومًا أو بعض يوم وأنّ فارق السنّ أو غيره هو الذي فرّق بينهما! لو وقعت هٰذه المعجزة لعزّته عن كافّة آلامه قديمها وحديثها ولعدّ نفسه سعيدًا في الخلق وأنّ الحياة لم تمضِ عبثًا، بيد أنّها صحوة كاذبة كصحوة الموت، والأحرى به أن يقنع بالنسيان، وهو نصر ولو انطوى على هزيمة، وليكن عزاؤه أنّه ليس الوحيد في البرّ الذي مُنِيَ بخيبة الحياة، وتساءل:

ـ متى يسافرون إلى إيران؟

ـ سافروا أمس أو هٰذا ما أخبرتني به في زيارتها...

ـ وكيف تلقّت كارثة أسرتها؟

ـ تجنّبتُ هٰذا الحديث بطبيعة الحال ولم تشر هي إليه!

وإذا برياض قلدس يهتف مشيرًا أمامه «انظروا» فنظروا إلى الجناح الأيسر من الشرفة فرأوا امرأة غريبة الشكل، كانت في الحلقة السابعة، نحيلة الجسد، حافية القدمين، ترتدي جلبابًا ممّا يرتدي الرجال، وتضع على رأسها طاقيّة لا يبدو تحت حافتها أيّ أثر للشعر فهي صلعاء أو قرعاء، أمّا وجهها فبدا غارقًا في أصباغ الزواق على هيئة مزرية مضحكة معًا، ولم يكن فيها ناب واحد على حين راحت عيناها ترسلان في جميع الجهات نظرات تودّد واستعطاف باسم. تساءل رياض باهتمام:

ـ شحّاذة؟

فقال إسماعيل:

ـ مجذوبة على الأرجح!

وقفت تنظر إلى المقاعد الخالية في الجناح الأيسر ثمّ اختارت مقعدًا وجلست، عند ذاك انتبهت إلى أعين المحدقين فيها فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

ـ مساء الخير يا رجال!

فرحّب رياض بتحيّتها وقال بحرارة:

ـ مساء الخير يا حاجّة!

فندّت عنها ضحكة ذكّرت إسماعيل ـ على حدّ قوله ـ بالأزبكيّة في عزّها!... وقالت:

ـ حاجّة! نعم أنا كذٰلك إن كنت تقصد المسجد «الحرام»!

وضحكوا ثلاثتهم فتشجّعت وقالت بإغراء:

ـ اطلبوا لي الشاي والنارجيلة ولكم الأجر عند الله...

فصفّق رياض بحماس ليطلب لها ما أرادت ومال على أذن كمال هامسًا «هٰكذا تبدأ بعض القصص» أمّا العجوز فقد ضحكت في سرور وقالت:

ـ هٰذا كرم أيّام زمان!... أغنياء حرب يا أولادي؟...

فقال كمال ضاحكًا:

ـ نحن فقراء حرب، أي موظّفين يا حاجّة...

وسألها رياض:

ـ ما الاسم الكريم؟

فارتفع رأسها في كبرياء مضحك وقالت:

ـ السلطانة زبيدة على سنّ ورمح!

ـ السلطانة؟!

ـ نعم... (ثمّ وهي تضحك)... ولٰكنّ رعيّتي ماتوا!.

ـ الله يرحمهم!

ـ الله يرحم الأحياء أمّا الأموات فحسبهم أنّهم بين يدي الله...، خبّروني من أنتم؟

وجاء النادل بالنارجيلة والشاي وهو يبتسم، ثمّ اقترب من مجلس الأصحاب وسألهم:

ـ تعرفونها؟

ـ من هي؟

ـ زبيدة العالمة، أشهر عالمة في زمانها، ثمّ انتهى بها العمر والكوكايين إلى ما ترون!

خيّل إلى كمال أنّه لا يسمع هٰذا الاسم للمرّة الأولى أمّا رياض قلدس فقد ارتفع اهتمامه إلى الذروة فجعل يحثّ أصحابه على أن يعرّفوها بأنفسهم كما طلبت حتّى تنفتح نفسها للكلام فقال إسماعيل مقدّمًا نفسه:

ـ إسماعيل لطيف.

فقالت ضاحكة وهي ترشف الشاي قبل أن يبرد:

ـ عاشت الأسماء ولو أنّه اسم لا معنى له...

فضحكوا، وفي ذات الوقت سبّها إسماعيل بصوت لم تسمعه، أمّا رياض قلدس فقال:

ـ رياض قلدس.

ـ كافر؟! عشقني واحد منكم كان تاجرًا في الموسكي اسمه يوسف غطّاس، كان قدّ الدنيا، وكنت أصلبه على السرير حتّى يطلع الصبح!...

وشاركتهم ضحكهم وقد لاحت الغبطة في وجهها ثمّ اتّجه بصرها إلى كمال فقال:

ـ كمال أحمد عبد الجواد.

وكانت تقرّب قدح الشاي من فيها فتوقّفت يدها في يقظة طارئة ثمّ حملقت في وجهه متسائلة:

ـ قلت ماذا؟

فأجاب عنه رياض قلدس:

ـ كمال أحمد عبد الجواد.

فأخذت نفسًا من النارجيلة وقالت وكأنّما تخاطب نفسها:

ـ أحمد عبد الجواد! ولكن ما أكثر الأسماء! كالقروش أيّام زمان... (ثمّ مخاطبة كمال)... والدك تاجر النحّاسين؟

فدهش كمال وقال:

ـ نعم.

فقامت من مجلسها واقتربت منهم حتّى وقفت أمامه ثمّ ضحكت ضحكة عالية أقوى من هيكلها بأجيال وهتفت:

ـ أنت ابن عبد الجواد! يا ابن الرفيق الغالي! ولكنّك لا تشبهه! هٰذا أنفه حقًّا، ولكنّه كان كالبدر في ليلته، ما عليك إلّا أن تذكّره بالسلطانة زبيدة وهو يحدّثك عنّي بما فيه الكفاية!

أغرق رياض وإسماعيل في الضحك، على حين ابتسم كمال وهو يغالب ما ركبه من ارتباك، وهنا فقط تذكّر حديث ياسين في الزمن الخالي، بل أحاديثه عن أبيه وزبيدة العالمة! وعادت تسأله:

ـ كيف حال السيّد؟ انقطعتُ من زمن طويل عن حيّكم اللذي نبذني، أنا الآن من أهل الإمام، ولٰكنّي أحنّ إلى الحسين فأزوره كلّ حين ومين، وكنت مريضة وطال بي المرض حتّى ضاق بي الجيران فلولا الملام لرموني في القبر حيّة، كيف حال السيّد؟

فقال كمال في شيء من الوجوم:

ـ توفّي منذ أربعة أشهر...

فقطّبت قليلًا وقالت:

ـ إلى رحمة الله، يا خسارة، كان رجلًا ولا كلّ الرجال...

ثمّ عادت إلى مجلسها، وبغتة ضحكت ضحكة عالية، وما لبث أن ظهر صاحب القهوة عند مدخل الشرفة وهو يقول لها منذرًا:

ـ كفاية ضحك، سكتتنا له دخل بحماره، كثّر خير البكوات على إكرامهم لك، ولكن إن عدت إلى الزياط فالباب من هنا...

فلاذت بالصمت حتّى ذهب الرجل، ثمّ نظرت إليهم باسمة، ثمّ سألت كمال:

ـ وأنت كأبيك أم لا...؟

وأتت بيدها حركة شاذّة فضحك الأصدقاء وقال إسماعيل:

ـ إنّه لم يتزوّج بعد!...

فقالت في لهجة ارتياب عابث:

ـ الظاهر أنّك ابن أونطة!...

فضحكوا، ثمّ نهض رياض، ومضى إليها فجلس إلى جانبها وهو يقول:

ـ حصل لنا الشرف يا سلطانة، ولكنّي أودّ أن أسمع لك وأنت تحدّثينا عن أيّام السلطنة!...

٤١

لم يبق إلّا ثلث ساعة ثمّ تلقى المحاضرة، أمّا قاعة إيوارت فقد قاربت الامتلاء، إنّ مستر روجر ـ كما قال رياض قلدس ـ أستاذ خطير، وهو كأخطر ما يكون حين يتكلّم عن شكسبير. أجل قيل إنّ المحاضرة لن تخلو في النهاية من نوع من الدعاية السياسيّة ولٰكن ماذا يهمّ في ذٰلك ما دام المحاضر هو مستر روجر والموضوع هو وليم شكسبير. غير أنّ رياض كان مغتمًّا واجمًا، ولولا أنّه هو الذي دعا كمال إلى سماع المحاضرة لتخلّف عن شهودها، وكان حزينًا كما ينبغي لرجل مثله تستأثر السياسة باهتمامه كلّ هٰذا الاستئثار. وكان يهمس في أذن كمال بانفعال غير خافٍ:

ـ يُفصل مكرم من الوفد! كيف تقع هٰذه الخوارق؟!

ولم يكن كمال قد أفاق من الخبر كذٰلك فهزّ رأسه في وجوم دون أن ينبس:

ـ إنّها كارثة قوميّة يا كمال، ما كان ينبغي أن تتهاوى الأمور حتّى هٰذا الحضيض...

ـ نعم، ولكن من المسئول؟

ـ النحّاس! قد يكون مكرم عصبيًّا، ولكنّ الفساد الذي تسرّب إلى الحكومة أمر واقع ولا يصحّ السكوت عليه.

فقال كمال باسمًا:

ـ دعنا من الفساد الحكوميّ، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هي لضياع النفوذ...

فتساءل رياض في شيء من التسليم:

ـ أيباع مكرم المجاهد بعاطفة زائلة؟...

فلم يتمالك كمال أن ضحك قائلًا:

ـ لقد بعت نفسك أنت بهٰذه العاطفة الزائلة!...

ولٰكنّ رياض قال دون أن يبتسم:

ـ أجبني!...

ـ مكرم عصبيّ، شاعر ومغنٍّ! عنده أن يكون كلّ شيء أو لا يكون شيئًا على الإطلاق، وجد نفوذه المأثور يتقلّص فثار، ثمّ وقف لهم وقفته في مجلس الوزراء منددًا علانية بالاستثناءات فاستحال التفاهم أو التعاون، حدث يؤسف له!.

ـ والنتيجة؟

ـ هناك السراي تبارك ولا شكّ هٰذا الانشقاق الجديد في الوفد، وستحتضن مكرم في الوقت المناسب كما احتضنت غيره من قبل، سنرى من الآن فصاعدًا مكرم وهو يلعب دوره الجديد مع الأقلّيّات السياسيّة ورجال السراي، إمّا هٰذا وإمّا العزلة، لعلّهم يكرهونه كما يكرهون النحّاس أو أكثر، ومنهم أناس لم يكرهوا الوفد إلّا كراهة في مكرم ولٰكنّهم سيحتضنونه ليهدموا به الوفد، أمّا عن المصير بعد ذٰلك فلا يمكن التنبّؤ به...

فعبس رياض وقال:

ـ صورة بشعة، أخطأ الاثنان، النحّاس ومكرم، إنّ قلبي متشائم من هٰذه الحركة...

ثمّ بصوت أشدّ انخفاضًا:

ـ سيجد الأقباط أنفسهم بلا مأوى، أو يأوون إلى حصن عدوّهم اللدود «الملك» وهو مأوى لن يدوم لهم طويلًا، وإذا اضطهدنا الوفد كما تضطهدنا الأقلّيّات فكيف يكون الحال؟

فتساءل كمال متغابيًا:

ـ لماذا تدفع بالأمر خارج حدود الطبيعة؟ مكرم ليس الأقباط والأقباط ليسوا مكرم، إنّه شخص ذهب أمّا مبدأ الوفد القوميّ فلن يذهب...

فهزّ رياض رأسه في أسف ساخر وقال:

ـ هٰذا ما قد يُكتب في الجرائد، أمّا الحقيقة فهي ما أعني، لقد شعر الأقباط بأنّهم طُردوا من الوفد، وهم يتلمّسون الأمان وأخشى ألّا يظفروا به أبدًا، لقد جاءتني السياسة أخيرًا بعقدة جديدة كعقدة الدين، فكما كنت أنبذ الدين بعقلي وأميل إليه بقلبي بصفته رابطة قوميّة فكذٰلك سأنبذ الوفد بقلبي وأميل إليه بعقلي، إذا قلت إنّي وفديّ فقد كذّبت قلبي وإذا قلت إنّي عدوّ للوفد خنت عقلي، إنّها كارثة لم تخطر لي على بالٍ، والظاهر أنّه مقضيّ علينا نحن الأقباط بأن نعيش في شخصيّات منقسمة أبدًا، لو كانت مجموعتنا فردًا واحدًا لجنّ!...

شعر كمال بامتعاض وألم، وبدت له لحظتذاك جماعات البشر وكأنّها تمثّل مهزلة ساخرة ذات نهاية مفجعة، ثمّ قال في صوت لا ينمّ عن إيمان:

ـ عسى أن تكون مشكلة وهميّة، إذا نظرتم إلى مكرم كرجل سياسيّ لا الأمّة القبطيّة جميعًا!...

ـ هل ينظر إليه المسلمون أنفسهم على هٰذا النحو؟!

ـ هٰكذا أنظر إليه أنا!

فابتسمت شفتا رياض رغم كآبته وقال:

ـ إنّي أتساءل عن المسلمين فما دخلك أنت؟

ـ أليس موقفنا واحدًا أعني أنا وأنت؟

ـ بلى مع فارق بسيط، وهو أنّك لست من الأقلّيّة... (ثمّ وهو يبتسم) لو عشت في عصر الفتح الإسلاميّ وتكشّف لي الغيب لدعوت الأقباط جميعًا إلى الدخول في دين الله!...

ثمّ في شيء من الاحتجاج:

ـ إنّك لا تصغي إليّ...!

أجل! كانت عيناه مصوّبتين نحو مدخل القاعة، ونظر رياض إلى حيث ينظر فرأى فتاة في مقتبل العمر، ترتدي فستانًا رماديًّا بسيطًا، في هيئة الطالبات، وقد جلست في المقاعد الأماميّة المخصّصة للسيّدات.

ـ تعرفها؟...

ـ لا أدري!...

وانقطعت فرصة الكلام إذ ظهر الأستاذ المحاضر على المنصّة ودوّت القاعة بالتصفيق الحادّ، ثمّ ساد

الصمت الذي تبدو فيه السعلة كالذنب الفاضح، ثمّ قدّمه مدير الجامعة الأمريكيّة بكلمة مناسبة، ثمّ بدأ الرجل في إلقاء محاضرته. وظلّ كمال أكثر الوقت متّجه العينين نحو رأس الفتاة في تساؤل واهتمام. وكان قد رآها مصادفة عند دخولها، فدهمه منظرها، وانتزعته بقوّة من تيّار أفكاره، ثم قذفت به في الماضي عشرين عامًا ثمّ استردّته إلى الحاضر وهو يلهث. خيّل إليه أوّل الأمر أنّه يرى عايدة، غير أنّها لم تكن عايدة دون ريب... هٰذه الفتاة التي لا يمكن أن تجاوز العشرين، ولم يتح له وقت كافٍ كي يتفحّص قسماتها ولٰكنّ جملة منظرها كان فيه الكفاية، هيئة الوجه والقامة والروح ومجتلى العينين، أجل لم ير هاتين العينين في غير وجه عايدة من قبل. أتكون شقيقتها؟ خطر له هٰذا الرأي أوّل ما خطر، بدور، ولم يغب عنه الاسم هٰذه المرّة، وسرعان ما ذكر صداقتها له في الماضي البعيد، ولٰكن هيهات - أن تكون حقًّا هي - أن تتذكّره، المهمّ أنّ صورتها أيقظت قلبه، ردّته ولو إلى حين إلى شيء من تلك الحياة الغامرة التي اكتظّ بها زمنًا، فهو في اضطراب، يسمع إلى الأستاذ المحاضر دقائق ثمّ ينظر إلى رأس الفتاة أكثر الوقت، ثمّ يغرق في موجة الذكريات، مستشعرًا في أناة جملة المشاعر التي تتلاحم وتصطرع في وجدانه. فلأتبعها لأعرف حقيقتها، لا غاية لي ولٰكنّ الملول مشّاء، إنّي أتوق لأيّ شيء قد يمسح عن روحي الصدأ المتكاثف فوقها. وتربّص مبيّتًا هٰذه النيّة، ترى أطالت المحاضرة أم قصرت؟. لا يدري. ولٰكنّه عند انتهائها أفضى بغرضه إلى رياض ثمّ ودّعه وسار في أثر الفتاة. تابع بعناية مشيتها، مشية رشيقة، قامة هيفاء، لا يستطيع أن يقارن بين المشيتين لأنّ الأخرى لم يعد متوكّدًا منها، أمّا القامة فأغلب الظنّ أنّها هي هي، وكان شعر الأخرى «الاجرسون» أمّا هٰذا الشعر فغزير معقوص، ولٰكنّ اللون الأسود واحد في الحالين ما في ذٰلك شكّ، ولم يستطع أيضًا أن يتفحّص وجهها على محطّة الترام لازدحامها بجمهور المستمعين، ولٰكنّها استقلّت الترام رقم ١٥ الذاهب إلى العتبة وانحشرت في الحريم فاستقلّه وراءها وهو يتساءل ترى أهي في طريقها إلى العبّاسيّة أم إنّ ما يفترضه ليس إلّا أضغاث أحلام؟. عايدة لم تستقلّ ترامًا في حياتها قطّ، كان رهن أمرها سيّارتان، أمّا هٰذه المسكينة...! وداخله حزن كحزنه يوم استمع إلى قصّة إفلاس شدّاد بك وانتحاره. وأفرغ الترام أكثر حمولته في العتبة فاختار موقفًا غير بعيد منها فوق طوار المحطّة، وجعلت تنظر صوب الناحية التي تترقّب مجيء الترام منها فرأى جيدها الطويل النحيل، ذٰلك العهد القديم، ثمّ لاحظ أنّ بشرتها قمحيّة اللون مع ميل إلى البياض، ليست خمريّة كالصورة الذاهبة، فشعر لذٰلك بأوّل أسف منذ تبعها، كأنّما تبعها ليرى الأخرى. ثمّ جاء ترام العبّاسيّة فتأهّبت للركوب. ولمّا وجدت الحريم مزدحمة استقلّت عربة الدرجة الثانية، ولم يتردّد فكان في أعقابها، وجلست فجلس إلى جانبها، ثمّ امتلأت المقاعد على الصفّين، ثمّ امتلأ ما بينهما بالواقفين. ووجد لتوفيقه في الجلوس إلى جانبها ارتياحًا لا مزيد عليه، غير أنّ جلوسها بين جمهور الدرجة الثانية أحزنه مرّة أخرى، ربّما لما يحدثه ذٰلك من تباين عند مطابقة الصورتين، القديمة الخالدة والماثلة إلى جانبه. وكان منكبه يلامس منكبها ملامسة خفيفة كلّما ندّ عن الترام حركة مفاجئة خاصّة عند القيام والوقوف، وجعل يلاحظها كلّما أمكن ويتفحّصها ما استطاع. هاتان العينان السوداوان الساجيتان، والحاجبان المقرونان، والأنف السويّ اللطيف، والوجه البدريّ، كأنّه ينظر إلى عايدة. حقًّا؟ كلّا، ثمّة تباين في لون البشرة، ولمسة اختلاف هنا أو هناك، لا يذكر إن كانت إلى الزيادة هي أم إلى النقصان، ومع أنّ تباينهما كان يسيرًا إلّا أنّ إحساسه به كان خطيرًا فهو كدرجة الحرارة الواحدة التي قد تكون فاصلًا بين الصحّة والمرض، ولٰكنّه كان في الوقت نفسه حيال أقرب مثال إلى عايدة التي خيّل إليه أنّه بات يذكرها أوضح من أيّ وقت مضى على ضوء هٰذا الوجه الجميل. والجسم لعلّه هو هو، ما أكثر ما تساءل عنه، فلعلّه الآن يراه، وهو رشيق نحيل، صدره آية في الحياء، كذٰلك هو في جملته، لا يمتّ بسبب إلى جسم عطيّة البضّ المدملج الذي يتعشّقه! فهل فسد ذوقه على مرّ الأيّام؟ أو إنّ حبّه القديم كان ثائرًا على غريزته

الكامنة؟ بيد أنّه كان حبًّا سعيدًا حالما ثمل القلب بنشوات الذكريات، وكانت ملامساته المتقطّعة لها تزيده نشوة وإغراقًا في التأمّلات، إنّه لم يمسّ عايدة، كان يراها أبدًا مستحيلة المنال، أمّا هٰذه الصغيرة فهي تسير في الأسواق وتجلس في تواضع بين جمهور الدرجة الثانية، فما أشدّ حزنه! وذٰلك التباين الطفيف الذي أحنقه وخيّب أمله، وقضى على حبّه القديم بأن يبقى لغزًا إلى الأبد. وجاء الكمساري مناديًا «التذاكر والأبونيهات» ففتحت حقيبتها وأخرجت تذكرة الاشتراك وانتظرت حتّى يصل الرجل إليها. فاسترق إلى التذكرة النظر حتّى عثر على اسمها «بدور عبد الحميد شدّاد... طالبة بكلّيّة الآداب»، لم يعد ثمّة شكّ، إنّ قلبي يخفق أكثر ممّا ينبغي، لو أستطيع أن أنشل هٰذا الاشتراك! كي أحتفظ بأقرب صورة لعايدة، آه لو كان في الإمكان هٰذا، مدرّس في السادسة والثلاثين ينشل طالبة بكلّيّة الآداب! يا له من عنوان مثير تتمنّاه الجرائد، فيلسوف فاشل في حدود الأربعين! ترى ما سنّ بدور؟ لم تكن تجاوز الخامسة عام ١٩٢٦ فهي في الواحدة والعشرين من عمرها السعيد، السعيد؟!. لا قصر ولا سيّارة ولا خدم ولا حشم، ولم تكن دون الرابعة عشرة حين حلّت الكارثة بأسرتها، وهو عمر حريّ بأن يدرك معنى الكارثة ويذوق الألم، تألّمت المسكينة وذعرت، ابتليت بهٰذا الشعور القاسي الذي أصبحت به جدّ خبير، جمعنا الألم على تفاوت في الزمن كما جمعتنا الصداقة القديمة المنسيّة، وجاءها الكمساري فسمعها وهي تقول له «تفضّل» ثمّ ناولته التذكرة. وطرق الصوت مسمعه كنغمة قديمة محبوبة طواها النسيان دهرًا طويلًا ثمّ انبعثت في السمع بكلّ حلاوتها وجميع ذكرياتها فأحييت فترة سماويّة من الزمن، دوّمت أذنه في مملكة الطرب الإلٰهيّة مستهدفة أحلام الزمان الغابر، هٰذه النغمة الدافئة الرخيمة المفعمة بسحر الطرب. أسمعيني صوتك وما هو بصوتك، يا صديقتي القديمة السيّئة الحظّ، من حسن الحظّ أنّ صاحبة هٰذا الصوت الأصليّة ما زالت تنعم بمثل حياتها الأولى، لم ترتق إليها الأحزان التي أغرقت أسرتها، أمّا أنت فقد انحدرت إلينا نحن جمهور الدرجة الثانية، ألا تذكرين صديقك الذي كنت تتعلّقين بعنقه وتبادلينه القبل؟ كيف تعيشين اليوم يا صغيرتي؟ وهل تعملين مثلي في النهاية مدرّسة في إحدى المدارس الابتدائيّة؟ ومرّ الترام بمكان القصر القديم الذي قام في موضعه بناء ضخم جديد، وقد رآه قبل ذٰلك في المرّات القلائل التي زار فيها العبّاسيّة منذ انقطاعه التاريخيّ عنها خاصّة في العهد الأخير وهو يتردّد على بيت فؤاد جميل الحمزاوي. العبّاسيّة نفسها تغيّرت كبيتكم يا صغيرتي، اختفت قصورها وحدائقها التي عاصرت حبّي وحزني، وقامت مكانها العمارات الضخمة المكتظّة بالسكّان والحوانيت والمقاهي والسينمات، فليسرّ بذٰلك أحمد المفتون بمتابعة صراع الطبقات أمّا أنا فكيف أشمت بالقصر وآله على حين أنّ قلبي مطمور في أنقاضه؟ أو كيف أحتقر المخلوق البديع الذي لم يذق نكد العيش ولا زحمة الشعب إذ كان يخطر كالمعنى الجميل وقلبي له ساجد؟

وعندما توقّف الترام في المحطّة التالية لقسم الوايلي غادرته فتبعها ووقف على طوار المحطّة يراقبها، فرآها وهي تعبر الطريق إلى شارع «ابن زيدون» الذي يواجه المحطّة مباشرة. كان شارعًا ضيّقًا تقوم على جانبيه بيوت قديمة من بيوت الطبقة الوسطى وتغطّي وجهه الممهّد بالأسفلت الأتربة والحصى والأوراق المبعثرة وقد دخلت ثالث بيت إلى اليسار من باب ضيّق تلاصقه دكّان كوّاء. ووقف ينظر إلى الطريق والبيت في صمت واجم، ذٰلك المكان الذي تقيم فيه اليوم سنيّة هانم حرم شدّاد بك! وهٰذه الشقّة لا يزيد إيجارها على ثلاثة جنيهات، وليت سنيّة هانم تخرج إلى الشرفة ليلقي عليها نظرة ويقيس ما حاق بها من تغيّر لا شكّ أنّه خطير، ولعلّه لم ينس بعد منظرها النفيس حين كانت تغادر السلاملك متأبّطة ذراع زوجها إلى حيث تنتظر السيّارة، كانت تختال عجبًا في معطفها الوثير وتلقي على ما حولها نظرات مليئة بالسؤدد والطمأنينة، ولن يمنى الإنسان بعدوّ أشدّ فتكًا من الزمن. في هٰذه الشقّة نزلت عايدة في أثناء إقامتها بالقاهرة، ولعلّها جلست بعد العصارى في هٰذه الشرفة البالية، ولعلّها قاسمت

أمّها وأختها فراشهما الواحد ما في ذٰلك ريب، فليتني علمت بوجودها في الوقت المناسب، وليتني رأيتها بعد ذٰلك التاريخ الطويل، كان ينبغي أن أراها وأنا متحرّر من استبدادها، كي أعرفها على حقيقتها، وبالتالي كي أعرف نفسي أنا ولٰكن ضاعت هٰذه الفرصة النادرة...

٤٢

جلس كمال بين طلبة وطالبات قسم اللغة الإنجليزيّة بكلّيّة الآداب يصغي إلى الدرس الذي يلقيه الأستاذ الإنجليزيّ، لم تكن أوّل مرّة يحضر فيها هٰذا الدرس ولا آخر مرّة فيما بدا له، ولم يكن قد وجد صعوبة تذكر عند الاستئذان في الحضور- كمستمع - لمتابعة الدروس المسائيّة التي تلقى ثلاث مرّات في الأسبوع، وأكثر من هٰذا فإنّ الأستاذ قد رحّب به عندما علم بأنّه مدرّس لغة إنجليزيّة. أجل كان غريبًا بعض الشيء أن يعنى بمتابعة هٰذه الدروس في أواخر العام الدراسيّ ولكنّه علّل ذٰلك أمام الأستاذ بأنّه يقوم ببحث استدعى متابعة هٰذه المحاضرات رغم ما فاته منها، وكان قد علم بوجود بدور في هٰذا القسم عن طريق رياض قلدس الذي عرفه بدوره عن طريق صديقه سكرتير الكلّيّة. وبدا منظره، ببذلته الأنيقة ونظّارته الذهبيّة وطوله ونحوله وشاربه الغليظ وشعيراته البيض التي تلتمع في سوالفه إلى رأسه الضخم وأنفه الكبير، بدا كلّ أولٰئك ملفتًا للأنظار خاصّة وهو يجلس بين عدد محدود من الشباب الغضّ، فكم بدوا كالمتسائلين وكم حدجوه بنظرات لم يرتح لها، حتّى خيّل إليه أنّه يسمع ما يدور في نفوسهم من ملاحظات وتعليقات هو أدرى بها وأخبر! هو نفسه كان يعجب لهٰذه الخطوة الخارقة التي أقدم عليها دون مبالاة على ما جشّمته من جهد وحرج، ما بواعثها الحقيقيّة وما هدفها؟ لا يدري شيئًا على وجه التحقيق ولكنّه ما إن رأى بارقة نور في ظلمة حياته الداكنة حتّى انزلق يتسمّته وهو لا يلوي على شيء مدفوعًا بقوى هائلة من اليأس والأشواق والأمل، غير مبال بما قد يعثر به في طريق محفوف بالتزمّت والتقاليد من ناحية، وبالسباب المتوثّب للسخرية من ناحية أخرى. كان غارقًا في اليأس والملل فجرى ملهوفًا وراء هٰذا الشيء الذي لا يشكّ في أنّه تسلية وأيّ تسلية، وحياة وأيّ حياة، وبحسبه أنّه انقلب يهتمّ بالزمن وينشد الأمل ويأمل في المسرّة، بل وها هو قلبه يخفق وكان قبل ذٰلك ميتًا، وكان يشعر بضيق الوقت، فالعام الدراسيّ يشارف نهايته المحتومة، بيد أنّ نهايته لم تضع هباء، فبدور قد رأته كما رآه الجميع، ولعلّها شاركت فيما يدور من همس حوله، إلى أنّ عينيها قد تلاقتا أكثر من مرّة، ولعلّها طالعت في عينيه ما يضطرم في ذاته من الاهتمام والإعجاب، من يدري؟ وفضلًا عن هٰذا كلّه فعند العودة يستقلّان ترام الجيزة معًا ثمّ ترام العبّاسيّة، وكثيرًا ما يجلسان في مكان واحد، فباتت تعرفه جيّدًا، وهو نجاح لا بأس به لشخص بعيد عن حيّها كلّه، خاصّة إذا كان مدرّسًا حريصًا على مظاهر مهنته وما تقتضيه من استقامة ووقار. أمّا عن غايته من هٰذا كلّه فلم يشقّ على نفسه في تحقيقها، لقد دبّت فيه الحياة بعد موات فتهالك عليها، وهو توّاق بكلّ قوّة نفسه المعذّبة إلى أن يعود ذٰلك الإنسان الذي تعتلج في وجدانه المشاعر وتهيم في عقله الخواطر وتنجلي في حواسّه المناظر، وأن ينسى بهٰذا السحر ضجره وسقمه وحيرته أمام ألغاز لا تحلّ، كأنّها الخمر ولٰكنّها أعمق متاعًا وألطف عاقبة. وفي الأسبوع الماضي حدث شيء تأثّر له قلبه أيّما تأثّر، فقد عاقه إشرافه على النشاط الرياضيّ بمدرسة السلحدار عن الوصول إلى الكلّيّة في الوقت المناسب، فدخل حجرة الدرس متأخّرًا، والتقت عيناهما عند دخوله وهو يسير على أطراف أصابعه أن يحدث صوتًا، التقت عيناهما التقاء خاطفًا سحريًّا وسرعان ما أرخت جفونها فيما يشبه الحياء. لم تكن إذن مجرّد نظرة تلتقي فيها عيناه محايدتان، وبات مرجّحًا أنّها استشعرت شيئًا من الحياء، فهل كان يقع هٰذا لو كان نشاط عينيه قد ضاع عبثًا؟! الصغيرة باتت تستحي من نظراته فلعلّها أخذت تدرك أنّها ليست بالنظرات البريئة التي توجّهها المصادفة، وأثار ذٰلك في نفسه جملة من الذكريات واستدعى كثيرًا من الصور،

حتّى وجد نفسه يتذكّر عايدة ويتخيّلها، ولكنّه لم يدرِ لماذا، فإنّ عايدة لم تغضّ الطرف حياء حياله قطّ، فلعلّ شيئًا آخر الذي ذكّره بها، لفتة أو رنوة أو ذٰلك السرّ الساحر الذي ندعوه بالروح. وأوّل أمس حدث شيء آخر له خطورته كذٰلك، انظر كيف ردّت الحياة إليك! قبل ذٰلك لم يكن لشيء خطورة قطّ، أو لم تكن تضفي الخطورة إلّا على هٰذه الألغاز العقيمة كالإرادة عند شوبنهور أو المطلق عند هيجل أو وثبة الحياة عند برجسون، كانت الحياة كلّها صمّاء لا خطر لها، انظر اليوم كيف أنّ رنوة أو لفتة أو ابتسامة قد تزلزل لها الأرض جميعًا! حدث ذٰلك وهو ماضٍ إلى الكلّيّة قبل الخامسة مساء مخترقًا حديقة الأورمان، فما يدري إلّا وبدور وثلاث فتيات يطالعنه على أريكة ينتظرن عليها ميعاد الدرس، والتقت عيناهما التقاء عميقًا كما وقع في حجرة الدرس، وكان يودّ أن يحيّيهنّ عند الاقتراب ولٰكنّ الممشى الذي يسير فيه عرج به بعيدًا عنهنّ كأنّه أبى أن يشترك في هٰذه المؤامرة العاطفيّة المرتجلة، ولّما ابتعد قليلًا التفت وراءه فرآهنّ يهمسن في أذنها باسمات وهي مسندة رأسها إلى راحتها كأنّما تخفي وجهها! ما هٰذا المنظر البديع؟! لو كان رياض معه لأحسن تحليله وتفسيره، ولٰكنّه لا يحتاج إلى براعة رياض، لا شكّ أنّهنّ يهمسن لها عنه حتّى أخفت وجهها حياء! هل ثمّة معنى غير هٰذا؟. فلعلّ الصبّ فضحته عيونه، ولعلّه جاوز المدى وهو لا يدري حتّى صار أحدوثة، وماذا يكون من أمره لو انقلب الهمس تعريضًا يتمازح به الطلبة الشياطين؟!. وفكّر جادًّا في الانقطاع عن الكلّيّة، ولٰكنّه وجدها تجلس إلى جانبه في ترام العبّاسيّة ذٰلك المساء كما حدث أوّل يوم تبعها فيه! وترصّد التفاتها ناحيته ليحيّيها وليكن ما يكون، فلمّا طال انتظاره بعض الشيء التفت هو ثمّ تظاهر بأنّه فوجئ بجلوسها لصقه فهمس في أدب:

ـ مساء الخير. . .

فنظرت نحوه كالداهشة ـ لم تترك له عايدة ذكرى تصنُّع أنثويّ من أيّ نوع كان ـ ثم همست:

ـ مساء الخير. . .

زميلان يتبادلان التحيّة ولا غبار على ذٰلك، لم يكن مع أختها بهٰذه الجرأة، ولٰكنّها كانت الكبرى وكان الصغير الساذج.

ـ حضرتك من العبّاسيّة فيما أعتقد؟

ـ نعم. . .

لا تريد أن تدفع الحديث من ناحيتها!

ـ من المؤسف أنّني لم أتابع المحاضرات إلّا أخيرًا. . .

ـ نعم. . .

ـ أرجو أن أعوّض ما فاتني في المستقبل. . .

فابتسمت دون أن تنبس، «زيديني من سماع صوتك فإنّك النغمة الوحيدة من الماضي التي لم يغيّرها الزمن». . .

ـ ماذا تنوين بعد الليسانس؟ معهد التربية؟

فقالت باهتمام لأوّل مرّة:

ـ لا حاجة بي إلى ذٰلك لأنّ الوزارة محتاجة إلى مدرّسات ومدرّسين بسبب ظروف الحرب والتوسّع الجديد في التعليم. . .

طمع في نغمة واحدة فوُهب لحنًا كاملًا!

ـ إذن ستعملين مدرّسة!

ـ نعم، لِمَ لا؟

ـ إنّها مهنة شاقّة، سليني عنها.

ـ حضرتك مدرِّس فيما سمعت؟

ـ نعم، أوه، نسيت أن أقدّم نفسي، كمال أحمد عبد الجواد.

ـ تشرّفنا. . .

فقال باسمًا:

ـ ولٰكنّك لم تشرّفيني بعد؟

ـ بدور عبد الحميد شدّاد!

ـ تشرّفنا يا أفندم. . .

ثمّ مستدركًا كمن فوجئ بشيء فريد:

ـ عبد الحميد شدّاد! ومن العبّاسيّة؟ حضرتك أخت حسين شدّاد؟

فلمعت عيناها في اهتمام وقالت:

ـ نعم.

فضحك كمال كأنّما يضحك عجبًا من غرابة المصادفات وقال:

ـ يا سلام! كان أعزّ أصدقائي، وقضينا معًا أيّامًا سعيدة جدًّا، ربّاه! أنت أخته الصغيرة التي كانت تلعب في الحديقة؟

فحدجته بنظرة استطلاع. هيهات أن تتذكّره! «في ذٰلك العهد كنت مغرمة بي كما كنت مغرمًا بأختك».

ـ لا أذكر شيئًا طبعًا...

ـ طبعًا، هٰذا تاريخ يرجع إلى عام ١٩٢٣ وما بعده حتّى عام ١٩٢٦، تاريخ سفر حسين إلى أوربا، ماذا يفعل الآن؟

ـ في فرنسا في القسم الجنوبيّ الذي انتقلت إليه الحكومة الفرنسيّة عقب الاحتلال الألمانيّ...

ـ وكيف حاله؟ من زمن طويل انقطعت عنّي أخباره ورسائله...

ـ بخير...

نطقت بها في لهجة نمّت عن رغبة في الخوض في الموضوع أكثر من ذلك، وتساءل كمال والترام يمرّ بمكان القصر القديم: ترى ألم يخطئ بمكاشفتها بصداقته القديمة لأخيها؟ أليس في ذٰلك حدًّا من حرّيّته فيما هو بسبيله؟ ولمّا جاءت المحطّة التالية لقسم الوايلي حيّته وغادرت الترام، فلبث في مكانه كأنّما نسي نفسه. كان طوال الطريق يتفحّصها كلّما سنحت فرصة لعلّه يهتدي إلى السرّ الذي سحره قديمًا، ولٰكنّه لم يجده وإن شعر مرارًا بأنّه منه قريب. وكانت تبدو لطيفة وديعة، وكانت تبدو قريبة المنال، وهو الآن يشعر كأنّما يعاني خيبة أمل غامضة وحزنًا غير بيّن الأسباب، لو أراد الزواج من هٰذه الفتاة ما اعترضه عائق جدّيّ. أجل إنّها تبدو مستجيبة ملبّية، رغم فارق السنّ المحسوس أو بسبب فارق السنّ؟! ثمّ إنّ التجارب قد علّمته أنّ شكله لن يعوقه عن الزواج إذا أراده. وهو إذا تزوّجها انتقل بقدرة قادر إلى عضويّة أسرة عايدة، ولٰكن ما كنه هٰذا الخيال السخيف؟ وما عايدة الآن بالنسبة إليه؟ الحقّ أنّه لا يريد عايدة، ولٰكنّه لا يكفّ عن التطلّع إلى معرفة سرّها، لعلّه يقتنع في الأقلّ بأنّ أزهى عصور العمر لم يضع هباء. ووجد رغبة ـ طالما ألحّت عليه على فترات من العمر ـ في مراجعة كرّاسة الذكريات وعلبة الملبّس التي أهديت إليه ليلة الزفاف. ثمّ جاش صدره بالحنين حتّى تساءل ترى أيمكن أن يقع الإنسان في الحبّ وهو يحسن فهمه ويلمّ بعناصر تركيبه البيولوجيّة والاجتماعيّة والنفسيّة؟ ولٰكن هل يقي الكيميائيّ علمه بالسموم من أن يموت بها كضحاياها الآخرين؟ أو فلماذا يجيش صدره هٰذا الجيشان؟ رغم ما مُنيَ به من خيبة الأمل، رغم الفارق الكبير بين الماضي والحاضر، رغم أنّه لا يدري إن كان من أهل الماضي أم من أهل الحاضر، رغم هٰذا كلّه فصدره جيّاش وقلبه يخفق...

٤٣

هنا حديقة الشاي، سماؤها أفرع وغصون ريّانة، ومرتاد النظر البطّ السابح في البحيرة الزمرّديّة، والجبلاية فيما وراء ذٰلك، واليوم عطلة مجلّة الإنسان الجديد، وها هي سوسن حمّاد تبدو رائعة في فستان أزرق خفيف كشف عن ذراعيها السمراوين، وهي آخذة زينتها ولٰكن في لباقة وحذر، وكان قد مضى على زمالتهما عام فجلسا متقابلين يضيء وجهيهما ابتسام التفاهم، بينهما مائدة عليها دورق ماء وكأسا دندورمة لم يبق فيهما إلّا ذوب ثمالة الحليب المورّد بالفراولا، «إنّها أعزّ شيء لديّ في هٰذه الدنيا، أدين لها بمسرّاتي جميعًا وهي قبلة آمالي أيضًا، ونحن زميلان مخلصان، لم ينطق الحبّ بيننا ولكنّني لا أشكّ في أنّنا متحابّان، ومتعاونان كأحسن ما يكون التعاون، بدأنا رفيقين في ميدان الحرّيّة، وعملنا يدًا واحدة، وكلانا مرشّح للسجن، وكنت كلّما نوّهت بجمالها حملقت في وجهي محتجّة وزجرتني مقطّبة كأنّ الحبّ شيء لا يليق بنا فأبتسم وأعود إلى ما كنّا فيه من عمل، ويومًا قلت لها: «إنّي أحبّك... إنّي أحبّك... فافعلي ما بدا لك»، فقالت لي: «هٰذه الحياة هي الجدّ كلّ الجدّ وأنت تعبث»، فقلت لها: «إنّي مثلك أرى أنّ الرأسماليّة في طور الاحتضار وأنّها استنفدت كافّة أغراضها، وأنّ على الطبقة العاملة أن تطلق إرادتها لتدور آلة التطوّر إذ إنّ الثمرة لن تسقط وحدها، وإنّ

علينا أن نخلق الوعي ولكن بعد ذلك أو قبل ذلك أحبّك» فقطّبت تقطيبة متكلّفة بعض الشيء وقالت: «إنّك تصرّ على إسماعي ما لا أحبّ»، وشجّعني خلوّ حجرة السكرتارية فهويت إلى وجهها فجأة ولثمت خدّها فحدجتني بنظرة قاسية وأكبّت على ترجمة ما تبقّى من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة في الاتّحاد السوفيتيّ الذي كنّا نترجمه معًا.

ـ هٰذا الحرّ كلّه في يونيه فكيف إذا جاء يوليو وأغسطس يا عزيزتي؟

ـ يبدو أنّ الإسكندريّة لم تخلق لأمثالنا!.

فضحك قائلًا:

ـ ولٰكنّ الإسكندريّة لم تعد مصيفًا، كانت كذٰلك قبل الحرب أمّا اليوم فالإشاعات قد جعلتها خرابًا...

ـ الأستاذ عدلي كريم يؤكّد أنّ أغلبيّة سكّانها قد هجروها وأنّ طرقاتها ملأى بالقطط الهائمة على وجهها!

ـ هي كذٰلك، وعمّا قليل يدخلها روممل بجيوشه...

ثمّ بعد صمت قصير:

ـ وسوف يلتقي في السويس بالجيوش اليابانيّة الزاحفة على آسيا ويعود العهد الفاشستيّ كما كان في العصر الحجريّ!

فقالت سوسن في شيء من الانفعال:

ـ روسيا لن تنهزم، وإنّ آمال البشريّة مصونة خلف جبال الأورال...

ـ نعم لكنّ الألمان على أبواب الإسكندريّة!

تساءلت وهي تنفخ:

ـ لماذا يحبّ المصريّون الألمان؟

ـ كراهة في الإنجليز، وسوف يمقتونهم في الغد القريب، إنّ الملك يبدو اليوم كالسجين ولٰكنّه سينطلق من سجنه ليستقبل روممل ثمّ يشربان معًا نخب وأد الديموقراطيّة الناشئة في بلادنا، ومن المضحك أنّ الفلّاحين يظنّون أنّ روممل سيوزّع الأرض عليهم!

ـ أعداؤنا كثيرون، الألمان في الخارج، والإخوان والرجعيّة في الداخل وكلاهما شيء واحد...

ـ لو سمعك أخي عبد المنعم لثار على رأيك، يعتبر الإخوانيّة فكرة تقدّميّة تزري بالاشتراكيّة المادّيّة...

ـ قد يكون في الإسلام اشتراكيّة، ولٰكنّها اشتراكيّة خياليّة كالتي بشّر بها توماس مور ولويس بلان وسان سيمو، إنّه يبحث عن حلّ للظلم الاجتماعيّ في ضمير الإنسان بينا أنّ الحلّ موجود في تطوّر المجتمع نفسه، إنّه لا ينظر إلى طبقات المجتمع ولٰكن إلى أفراده، وليس فيه بطبيعة الحال أيّة فكرة عن الاشتراكيّة العلميّة، وفضلًا عن هٰذا كلّه فتعاليم الإسلام تستند إلى ميتافيزيقا أسطوريّة تلعب فيها الملائكة دورًا خطيرًا، لا ينبغي أن نبحث عن حلول لمشكلات حاضرنا في الماضي البعيد، قل هٰذا لأخيك...

فضحك أحمد في سرور غير خافٍ وقال:

ـ أخي شابّ مثقّف وقانونيّ ذكيّ، إنّي أعجب كيف يتحمّس أمثاله للإخوان!

فقالت بازدراء:

ـ الإخوان يصطنعون عمليّة تزييف هائلة، فهم حيال المثقّفين يقدّمون الإسلام في ثوب عصريّ، وهم حيال البسطاء يتحدّثون عن الجنّة والنار، فينتشرون باسم الاشتراكيّة والوطنيّة والديموقراطيّة.

حبيبتي لا تملّ الحديث عن مبادئها، قلت حبيبتي؟ نعم فمنذ القبلة التي اختلستها دأبت على أن أدعوها بحبيبتي وكانت تحتجّ بالكلام تارة وبالإشارة تارة أخرى ثمّ جعلت تتجاهله كأنّما قد يئست من إصلاحي، وعندما قلت لها إنّي توّاق إلى سماع كلمات الحبّ من ثغرها المشغول بالاشتراكيّة وبّختني قائلة باحتقار: «هٰذه النظرة البورجوازيّة العتيقة إلى المرأة... هه!؟» فقلت لها جزعًا: إنّ احترامي لك فوق كلّ كلام وإنّي لأعترف بأنّي تلميذك في أنبل ما صنعت في حياتي ولٰكنّني أحبّك كذٰلك وما في ذٰلك من بأس. فذهب غضبها فيما شعرت ولٰكنّها استبقت مظاهره فيما رأيت، واقتربت منها مضمرًا تقبيلها فلا أدري كيف حزرت غرضي فدفعتني في صدري ولٰكنّني رغم ذٰلك لثمت خدّها وما دام المحذور قد وقع ـ وقد كان بوسعها منعه جدّيًّا ـ فقد اعتبرتها راضية، وإنّها لكائن بديع جميل العقل والجسم معًا رغم إغراقها في السياسة، وعندما دعوتها للنزهة في الحديقة قالت: «على شرط أن نأخذ

معنا الكتاب لنواصل الترجمة» قلت لها: بل للفرجة والمناجاة وإلّا كفرت بالاشتراكيّة جميعًا! ولعلّه ممّا يزعجني كثيرًا حيال نفسي المتشبّعة بالسكّريّة أنّني ما زلت أنظر أحيانًا إلى المرأة بالعين التقليديّة البورجوازيّة فيخيّل إليّ في بعض ساعات التقهقر والخوّر أنّ الاشتراكيّة عند المرأة التقدّميّة ليست إلّا نوعًا من الفتنة كضرب البيانو والتبرّج ولكن من المسلّم به كذلك أنّ العام الذي زاملت فيه سوسن قد غيّرني كثيرًا وطهّرني لدرجة محمودة من البورجوازيّة المستوطنة في أعماقي!...

ـ من المؤسف أنّ زملاءنا يُعتقلون بلا حساب!...

ـ نعم يا حبيبتي، الاعتقال موضة تشيع أيّام الحروب وأيّام الإرهاب على السواء، غير أنّ القانون لا يرى بأسًا في اعتناق المبدإ إذا لم يقترن بالدعوة إلى العنف...

فضحك أحمد وقال:

ـ سيلقى القبض علينا إن آجلًا وإن عاجلًا إلّا...

فحدجته بنظرة متسائلة فعاد يقول:

ـ إلّا إذا أدّبنا الزواج!

فهزّت منكبيها في ازدراء وقالت:

ـ مَن أدراكَ بأنّني أوافق على الزواج من رجل مزيّف مثلك؟

ـ مزيّف؟!

ففكّرت قليلًا ثمّ قالت باهتمام جدّيّ:

ـ لست من طبقة العمّال مثلي! كلانا يحارب عدوًّا واحدًا ولكنّك لم تخبره كما خبرته، لقد ذقت الفقر طويلًا، ولمست آثاره الكريهة في أسرتي، وغالبته أخت لي حتّى غلبها فماتت، أمّا أنت فلست... لست من طبقة العمّال!

فقال بهدوء:

ـ ولا كان إنجلز من هٰذه الطبقة...

فضحكت ضحكة قصيرة بعثت أنوثتها وقالت:

ـ كيف أدعوك؟ البرنس أحمدوف؟! هه لا أنكر عليك مبدأك، ولكن بك بقايا بورجوازيّة عتيدة، يخيّل إليّ أنّك تُسَرُّ أحيانًا لكونك من آل شوكت!

فقال بلهجة لم تخل من حدّة:

ـ أنت مخطئة يا ظالمة! لا يعيبني ما ورثته، فكما أنّ الفقر لا يعيبك فالغنى لا يعيبني، أعني الدخل القليل الذي عاشت به أسرتنا عيشة التنابلة، لا يعيب أحدًا أن يجد نفسه بورجوازيًّا، ولا عيب إلّا في الجمود والتخلّف عن روح العصر...

فقالت وهي تبتسم:

ـ لا تغضب، كلانا ظاهرة طبيعيّة علميّة، لا نسأل عمّا وجدنا أنفسنا عليه ولكنّنا مسئولون عمّا نعتنق ونفعل، إنّي أعتذر إليك يا إنجلز، ولكن خبّرني هل أنت على استعداد لمواصلة إلقاء المحاضرات على العمّال مهما تكن العواقب؟

فقال بإدلال:

ـ لقد حاضرت حتّى أمس خمس مرّات، وحرّرت منشورين خطيرين، ووزّعت عشرات المنشورات، وللحكومة دَين في عنقي جاوز العامين سجنًا!...

ـ ولها في عنقي أضعاف ذٰلك!...

مدّ يده في خفة فوضعها على يدها السمراء البضّة في حنان وإعجاب. نعم إنّه يحبّها، ولكنّه لا يندفع في جهاده باسم الحبّ، ترى ألم تبْدُ أحيانًا وكأنّها تشكّ فيه؟ أهي مداعبة من المداعبات أو توجس خيفة من البورجوازيّة التي تحسبها كامنة فيه؟ إنّه مؤمن بالمبدإ كما إنّه مغرم بها، لا غنى له عن هٰذا ولا ذاك، «أليس من السعادة أن تحظى بشخص يفهمك حقّ الفهم وتفهمه حقّ الفهم؟ وألّا يحول بينك وبينه أيّ نوع من المكر؟ إنّي أعبدها إذ قالت «لقد ذقت الفقر طويلًا»، هٰذا القول الصريح الذي سما بها عن بنات جنسها جميعًا ومزجها بنفسي، لكنّنا محبّون غافلون والسجن يتربّص بنا، وبوسعنا أن نتزوّج وأن نتجنّب المتاعب ونقنع برغد العيش، ولكنّها تكون حياة بلا روح، لشدّ ما يبدو لي المبدأ أحيانًا كأنّه لعنة مصوّبة علينا من القضاء والقدر، إنّه دمي وروحي، كأنّني المسئول الأوّل عن الإنسانيّة جميعًا...

ـ أحبّك...

ـ ما المناسبة لهٰذا؟

ـ في كلّ مناسبة وبلا مناسبة...

ـ إنّك تتحدّث عن الجهاد ولكنّ قلبك يتغنّى بالهناء!...

ـ التفريق بين هذين سخف كالتفريق بيني وبينك!...

ـ ألا يعني الحبّ الهناء والاستقرار وكراهة السجن؟.

ـ ألم تسمعي عن النبيّ الذي كان يجاهد ليل نهار دون أن يمنعه من أن يتزوّج تسعًا؟!...

ففرقعت بأصابعها هاتفة:

ـ ها هو أخوك قد أعارك فاه، أيّ نبيّ يا هذا؟

فقال ضاحكًا:

ـ نبيّ المسلمين!

ـ دعني أحدّثك عن كارل ماركس الذي عكف على تأليف «رأس المال» تاركًا زوجه وأولاده للجوع والبهدلة!

ـ كان متزوّجًا على أيّ حال!...

كأنّ ماء البركة عصير زمرّد، وهذه النسمة اللطيفة تهفو في خلسة من يونيه، والبطّ يسبح مسدّدًا منقاره لالتقاط فتات الخبز، وأنت سعيد جدًّا، والحبيبة المتعبة ألذ من الطبيعة، يخيّل إليّ أنّ وجهها تورّد، فلعلّها تناست السياسة قليلًا وأخذت تفكّر فيّ...

ـ كان المأمول يا زميلتي العزيزة أن نحظى في هذه الحديقة بحديث عذب!.

ـ أعذب ممّا كنّا نتحدّث به؟

ـ أعني حبّنا!...

ـ حبّنا؟...

ـ نعم وأنت تعلمين!.

وساد الصمت مليًّا حتّى غضّت عينيها متسائلة:

ـ ماذا تريد؟

ـ قولي إنّنا نريد شيئًا واحدًا!

فقالت كأنّما لتطيعه فحسب:

ـ نعم، ولكن ما هو؟

ـ حسبنا لفّ ودوران!

كأنّها تفكّر، فما أمرّ الانتظار على قِصره، وإذا بها تقول:

ـ ما دام كلّ شيء واضحًا فلِمَ تعذّبني؟

فتنهّد في ارتياح عميق وقال:

ـ ما أبهج حبّي!

وساد الصمت مرّة أخرى كاللازمة بين النغمة والنغمة، ثمّ قالت:

ـ يهمّني شيء واحد.

ـ أفندم!.

ـ كرامتي!.

فقال كالمنزعج:

ـ هي وكرامتي شيء واحد!

فقالت بامتعاض:

ـ أنت أدرى بتقاليد أناسك! ستسمع كثيرًا عن الأصل والفصل...

ـ كلام فارغ، أتظنّينني طفلًا؟

وتردّدت قليلًا ثمّ قالت:

ـ لا يهدّدنا إلّا شيء واحد هو «العقليّة البورجوازيّة»!...

فقال بقوّة جعلته في تلك اللحظة أشبه ما يكون بأخيه عبد المنعم:

ـ لست منها في شيء!.

ـ هل تدرك مدى خطورة قولك؟... لقد عنيت أشياء تخصّ علاقة الرجل بالمرأة في صميمها الشخصيّ والاجتماعيّ!

ـ مفهوم جدًّا.

ـ سوف تطالَب بقاموس جديد عند الكشف عن الكلمات المأثورة مثل: حبّ، زواج، غيرة، الوفاء، الماضي...

ـ نعم!...

قد يعني هذا لا شيء، وقد يعني كلّ شيء، وكم من مرّة خطرت له أفكار، ولكنّ الموقف يتطلّب شجاعة فائقة، ما هو إلّا امتحان لعقليّته الموروثة والمكتسبة جميعًا، امتحان رهيب، خيّل إليه أنّه أدرك ما تعني، ولعلّ الأمر لا يعدو أنّها تمتحنه، ولكن حتّى لو كان الذي أدركه فلن يتراجع، لقد اعتراه ألم ودبّت في أعماقه الغيرة ولكنّه لن يتراجع...

ـ إنّي مسلّم بما تعنين، ولكن دعيني أصارحك بأنّني كنت آمل أن أحظى بفتاة عاطفيّة لا بفكر محاسب مدقّق!

فتساءلت وعيناها تتابعان البطّ السابح:
- لتقول لك أحبّك وأوافق على الزواج منك؟!
- نعم!...
ضاحكة:
- وهل تراني كنت أدخل في التفاصيل ما لم أكن موافقة على المبدإ؟!
فضغط على راحتها في رقّة، فعادت تقول:
- وأنت تعرف كلّ شيء، ولكنّك تودّ سماعه!
- ولا أملّ سماعه!...

٤٤

- إنّها سمعة أسرتنا جميعًا، وهو على أيّ حال ابنكم، وأنتم بعد ذٰلك أحرار فيما ترون!...
كانت خديجة تخطب وعيناها تتنقلان بسرعة وقلق من وجه إلى وجه، من زوجها إبراهيم الذي جلس إلى يمينها إلى ابنها أحمد في الناحية المقابلة من الصالة، مارّتين بياسين وكمال وعبد المنعم...
وقال أحمد مداعبًا وهو يقلّد لهجتها:
- انتبهوا جميعًا، إنّها سمعة أسرة، وأنا على أيّ حال ابنكم!
فقالت له بصوت متشكّ مليء بالمرارة:
- ما هٰذا البلاء يا ابني؟ أنت لا ترضى أن يحكمك أحد ولو كان أباك، وتأبى المشورة ولو كانت في صالحك، دائمًا أنت على صواب والناس جميعًا على خطأ، تركت الصلاة قلنا ربّنا يهديه، رفضت أن تدخل الحقوق كأخيك قلنا المستقبل بيد الله، قلت أشتغل جورنالجيّ قلنا اشتغل عربجيّ!...
فقال باسمًا:
- والآن أريد أن أتزوّج!.
- تزوّج، كلّنا يسرّ لهٰذا، ولكنّ الزواج له شروط...
- ومَن يضع شروطه؟
- العقل السليم.
- عقلي اختار لي...
- ألم تثبت لك الأيّام بعد أنّه لا يصحّ الاعتماد على عقلك وحده؟!
- أبدًا، والمشورة جائزة في كلّ شيء إلّا الزواج فهو كالطعام سواء بسواء!...
- الطعام!... إنّك لا تتزوّج من فتاة فحسب ولكن من أسرتها كلّها، ونحن - أهلك - نتزوّج بالتبعيّة معك...
فضحك أحمد ضحكة عالية وقال:
- كلّكم! هٰذا أكثر ممّا يُحتمل، خالي كمال لا يريد أن يتزوّج، وخالي ياسين يودّ لو يتزوّجها وحده...
وضحكوا جميعًا إلّا خديجة، ثمّ قال ياسين قبل أن تزايل وجهه هيئة الضحك:
- إذا كان في هٰذا فضّ المشكلة فأنا على أتمّ استعداد للتضحية.
فهتفت خديجة:
- اضحكوا، إنّه يتشجّع بضحككم، خير من ذٰلك أن تصارحوه بآرائكم، فما رأيكم فيمن يرغب في الزواج من «كريمة» عامل المطبعة التي يعمل بمجلّتها؟ إنّه يعزّ علينا أن تعمل بالمجلّة «جورنالجيّ» فكيف وأنت تريد أن تصاهر عمّالها! أليس لك رأي يا سي إبراهيم؟
فرفع إبراهيم شوكت حاجبيه كأنّما يريد أن يقول شيئًا، ولكنّه سكت، فعادت تقول:
- لو وقعت هٰذه المصيبة فسيمتلئ بيتك ليلة الزفاف بعمّال المطبعة والعنابر والحوذيّة، والله أعلم بما خفي!...
فقال أحمد بتأثّر:
- لا تتكلّمي هٰكذا عن أهلي!
- يا ربّ السماوات، أتنكر أنّ هٰؤلاء هم أهلها؟
- سأتزوّجها هي وحدها، إنّي لا أتزوّج بالجملة...
فقال إبراهيم شوكت في ضجر:
- لن تتزوّجها وحدها، الله يتعبك كما تتعبنا!
فقالت خديجة متشجّعة بمعارضة زوجها:
- ذهبت لزيارة بيتها كما تقضي العادة، قلت أرى عروس ابني، فوجدتهم يقيمون في بدروم في شارع كلّه يهود على الصفّين، وأمّها لا تفترق في هيئتها عن

الخادمات المحترفات، والعروس نفسها لا يقلّ عمرها عن ثلاثين عامًا، أي والله، ولو كان بها ذرّة من جمال لعذرته، لماذا يريد أن يتزوّجها؟ إنّه مسحور، سحرته بحيلة، إنّها تعمل معه في المجلّة المشئومة، لعلّها غافلته فوضعت له شيئًا في القهوة أو الماء، اذهبوا وشوفوا واحكموا، أنا غُلبت، لقد عدت من الزيارة لا أكاد أرى الطريق من حزني وأسفي...

ـ إنّك تغضبينني، لن أغفر لك كلامك هٰذا...

ـ العفو، العفو يا سيّد الملاح! الحقّ عليّ، أنا طول عمري عيّابة فرماني ربّنا في أولادي بكلّ العيوب، أستغفر الله العظيم.

ـ مهما تقوّلت عنهم فليس فيهم من يرمي الناس بالباطل... مثلك!

ـ بكرة يا ما تسمع، ويا ما تعرف، سامحك الله على إهانتي.

ـ أنت التي أهنتني بما فيه الكفاية!...

ـ إنّها تطمع في مالك، ولولا خيبتك ما طمعت في أحسن من بيّاع جرائد...

ـ إنّها محرّرة في المجلّة بمرتّب ضعف مرتّبي...

ـ جورناجيّة هي الأخرى!... ما شاء الله، وهل تتوظّف إلّا الفتاة البائرة أو القبيحة أو المسترجلة!...

ـ سامحك الله...

ـ فليسامحك أنت على ما تصبّ علينا من عذاب!

وهنا قال ياسين الذي كان يتابع الحديث ويده لا تمسك عن فتل شاربه:

ـ اسمعي يا أختي لا داعي للنقار، سنصارح أحمد بما ينبغي قوله ولٰكن لا جدوى من الشجار...

ونهض أحمد كالغاضب وهو يقول:

ـ عن إذنكم سارتدي ملابسي لأذهب إلى عملي...

ولّما ذهب انتقل ياسين إلى جانب أخته ومال عليها قائلًا:

ـ لن يفيدك الشجار شيئًا، نحن لا نحكم أبناءنا، إنّهم يرون أنفسهم خيرًا منّا وأذكى، إذا كان لا بدّ من الزواج فليتزوّج، فإن سعد كان بها وإلّا فهو المسئول عن نفسه، أنا لم يستقرّ بي بيت إلّا بزنّوبة كما تعلمين! فعسى أن يكون الخير فيما اختار، ثمّ إنّنا لا نعقل بالكلام ولٰكن بالتجارب.

ثمّ مستدركًا وهو يضحك:

ـ ولو أنّه لا الكلام ولا التجارب عقّلتني!

وعلّق كمال على قول ياسين قائلًا:

ـ الحقّ فيما قال أخي...

فحدجته بنظرة عتاب قائلة:

ـ أهٰذا كلّ ما عندك يا كمال؟ إنّه يحبّك فلو أنّك حدّثته على انفراد...

فقال كمال:

ـ إنّي خارج معه وساحدّثه، ولٰكن كفّي عن الشجار، إنّه رجل حرّ، ومن حقّه أن يتزوّج ممّن يشاء، أتستطيعين منعه أم تنوين مقاطعته؟

وقال ياسين باسمًا:

ـ الأمر بسيط يا أختي، يتزوّج اليوم ويطلّق غدًا، نحن مسلمون لا كاثوليك...

فضيّقت عينيها الصغيرتين وقالت بفم شبه مغلق:

ـ طبعًا، من محامٍ غيرك يدافع عنه؟ صدق مَن قال إنّ الولد لخاله!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

ـ الله يسامحك، لو ترك النساء تحت رحمة النساء لما تزوّجت امرأة قطّ!...

فأشارت إلى زوجها وقالت:

ـ أمّه الله يرحمها هي التي اختارتني بنفسها!

فقال إبراهيم وهو يتنهّد باسمًا:

ـ ودفعت الثمن، الله يرحمها ويعفو عنها!

ولٰكنّها لم تأبه لتعليقه وعادت تقول متحسّرة:

ـ لو كانت جميلة!... إنّه أعمى!.

فقال إبراهيم ضاحكًا:

ـ مثل أبيه!

فالتفتت نحوه غاضبة وقالت:

ـ أنت جاحد كجنس الرجال!

فقال الرجل بهدوء:

ـ بل نحن صابرون ولنا الجنّة...

فصاحت به:

ـ إذا كنت ستدخلها فبفضلي... أنا التي علّمتك دينك!...

* * *

غادر كمال وأحمد السكّريّة معًا، وكان يقف من مشروع هٰذا الزواج موقف الشكّ والتردّد، إنّه لا يمكن أن يتّهم نفسه بالمحافظة على التقاليد السخيفة، أو بالفتور حيال مبادئ المساواة والإنسانيّة، ومع ذٰلك فالواقع الاجتماعيّ الذي لا يد له في بشاعته حقيقة واقعة لا يجوز أن يتجاهلها إنسان، وقديمًا ولع عهدًا بقمر بنت أبي سريع صاحب المقلي، فكادت ـ رغم جاذبيّتها ـ تحدث له عقدة برائحة جسدها المحزنة. غير أنّه كان رغم هٰذا معجبًا بالشابّ، غابطًا له شجاعته وقوّة إرادته وغيرهما من المزايا التي حُرم هو منها وعلى رأسها الإيمان والعمل والزواج، كأنّما قد بعث في الأسرة كفّارة عن جموده وسلبيّته. ما الذي يجعل للزواج هٰذه الخطورة في نظره بينا هو في نظر الآخرين لا يزيد عن السلام عليكم... وعليكم السلام؟!

ـ إلى أين يا فتى؟

ـ المجلّة يا خالي، وأنت؟

ـ مجلّة الفكر لأقابل رياض قلدس، ألا تفكّر قليلًا قبل أن تخطو هٰذه الخطوة؟

ـ أيّ خطوة يا خالي! لقد تزوّجت بالفعل!...

ـ حقًّا؟!

ـ حقًّا، وسوف أقيم في الدور الأوّل من بيتنا نظرًا لأزمة المساكن...

ـ يا له من تحدٍّ سافر!...

ـ نعم، ولٰكنّها لن توجد في البيت إلّا حين تكون أمّي قد نامت...

وبعد أن أفاق من وقع الخبر سأله باسمًا:

ـ وهل تزوّجت على سنّة الله ورسوله؟

فضحك أحمد أيضًا وقال:

ـ طبعًا، الزواج والدفن على سنن ديننا القديم، أمّا الحياة فعلى دين ماركس!

ثمّ وهو يودّعه:

ـ خالي، ستعجبك جدًّا، سترى وتحكم بنفسك، إنّها شخصيّة ممتازة بكلّ معنى الكلمة.

٤٥

يا لها من حيرة! كأنّها مرض مزمن، فكلّ أمر يبدو ذا وجوه متعدّدة متساوية يتعذّر فيها الاختيار، تستوي في ذٰلك المسألة الميتافيزيقيّة والتجربة البسيطة من الحياة اليوميّة، فإزاء كلٍّ تعترض الحيرة والتردّد، أيتزوّج أم لا؟!، كان ينبغي أن يقطع برأي لٰكنّه يدور حول نفسه حتّى يصيبه الدوار ويختلّ منه ميزان الروح والعقل والحواسّ ثمّ تنجلي الدوّامة عن موقف لم يتغيّر وسؤال لم يظفر بالجواب بعد وهو: أيتزوّج أم لا؟. قد يضيق أحيانًا بحرّيّته فيثقل عليه الشعور بالوحدة أو يضجر من معاشرة الأشباح الفكريّة الخاوية فيحنّ إلى الأليف وتئنّ في محبسه غرائز الأسرة والحبّ تروم متنفّسًا، ثمّ يتخيّل نفسه زوجًا قد برأ من التركيز في ذاته وتبدّدت أوهامه لٰكنّه فني في الوقت نفسه في الأبناء واستغرقه الرزق ومطالبه فتراكمت عليه مشاغل الحياة اليوميّة فينزعج أيّما انزعاج ويقرّر الاستمساك بانطلاقه مهما تجشّم من وحشة وعذاب، بيد أنّه لا ينعم بالاستقرار طويلًا فلا يلبث أن يعود إلى التساؤل كرّة أخرى، وهٰكذا وهٰكذا، فأين المفرّ؟ وبدور فتاة ممتازة حقًّا، لا يعيبها اليوم أن تركب الترام ما دامت قد ولدت وشبّت في جنّة الملائكة التي شغفت قلبه قديمًا، فهي كالشهاب الساقط، وهي فتاة ممتازة حقًّا في حسنها وخلقها وثقافتها، ثمّ إنّها ليست عسيرة المنال فهي الزوجة الواعدة بكلّ معنى الكلمة إذا أراد أن يتقدّم، وما عليه إلّا أن يتقدّم، وإلى هٰذا كلّه فهو لا يسعه إلّا أن يسلّم باحتلالها مركز الاهتمام من وعيه، فهي آخر ما يودّع من أطياف الحياة قبل النوم وهي أوّل من يستقبل من أطيافها عند الاستيقاظ، ثمّ لا تكاد تغادر خياله طوال يومه، وما إن يحظى برؤيتها البصر حتّى يخفق الفؤاد مردّدًا أنغامًا شجيّة من أوتار علاها الصدأ، ثمّ إنّ دنياه لم تبق كما كانت، دنيا حيرة وعذاب ووحشة، داخلتها نسائم وجرى فيها ماء

الحياة، فإن لم يكن هٰذا هو الحبّ فما عسى أن يكون؟! وطوال الشهرين الماضيين جعل من شارع ابن زيدون مقصده كلّ أصيل، يقطعه على مهل، مسدّدًا عينيه إلى الشرفة حتّى تلتقي بعينيها ثمّ يتبادلان الابتسام كما يجدر بزميلين، وقد بدا ذٰلك كما تقع المصادفات، ثمّ تكرّر وقوعه كأنّما عن عمد، فما يجد ميعاده حتّى يجدها بمجلسها من الشرفة تقرأ في كتاب أو تسرّح الطرف، فأيقن أنّها تنتظره، إذ لو شاءت أن تمحو هٰذا المعنى من ذهنه ما كلّفها ذٰلك إلّا تجنّب الشرفة دقائق كلّ أصيل. ولٰكن ماذا تظنّ بمروره وابتسامته وتحيّته؟! لٰكن مهلًا، إنّ الغرائز لا تخطئ، كلاهما يودّ أن يلقى صاحبه، وقد استخفّه لذٰلك الطرب وأسكره السرور، وملأه إحساس بجدوى الحياة لم يشعر به من قبل، غير أنّ هٰذا الهناء كلّه لم يمض دون قلق يشوبه، كيف لا وهو لم يُجمع بعد على عزم، ولم يتّضح له سبيل، ولٰكنّ تيّارًا جرفه فاستسلم له وهو لا يدري كيف مجراه ولا أين مرساه! قليل من العقل يوجب عليه أن يتدبّر أمره ولٰكنّ فرحة الحياة صدّته في إشفاق. فثمل مسرورًا دون أن يخلو من قلق. وقال له رياض: أقْدِمْ فهٰذه فرصتك، ورياض منذ أن لبس خاتم الخطوبة وهو يتحدّث عن الزواج كأنّه غاية الإنسان الأولى والأخيرة في هٰذه الحياة، فيقول مزهوًّا إنّه سيقتحم هٰذه التجربة الفريدة غير هيّاب فيتاح له أن يفهم الحياة فهمًا جديدًا صادقًا ومن ثمّ يفتح أبواب قصصه للحياة الزوجيّة والأطفال... أليست هٰذه هي الحياة أيّها الفيلسوف السابح فوق الحياة؟ فأجابه متهرّبًا: أنت اليوم خصم فأنت آخر من يصلح حَكَمًا وسوف أفتقد فيك المشير الصادق؟ وبدا له الحبّ من ناحية أخرى «دكتاتورًا» وقد علّمته الحياة السياسيّة في مصر أن يمقت الدكتاتور من صميم قلبه. ففي بيت عمّته جليلة كان يهب عطيّة جسده ثمّ سرعان ما يستردّه وكأنّ ما كان لم يكن، أمّا هٰذه الفتاة المستكنّة في حيائها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جميعًا إلى الأبد، ولن يجد من شعار يأتمّ به بعد ذٰلك إلّا الكفاح المرير في سبيل الرزق ليؤمّن حياة الأسرة والأبناء، مصير غريب يجعل من الحياة الحافلة بالجلائل مجرّد وسيلة «لتحصيل» الرزق، وقد يكون الفقير الهنديّ سخيفًا أو مجنونًا ولٰكنّه أحكم ألف مرّة من الغارق حتّى أذنيه في سبيل الرزق، فانعمْ بالحبّ الذي كنت تفتقده وتتحسّر عليه... ها هو يُبعث حيًّا في فؤادك جارًّا وراءه المتاعب! وقال له رياض: «أمن المعقول أن تحبّها وأن يكون في وسعك أن تتزوّجها... ثمّ تمتنع عن زواجها؟»، فأجابه بأنّه يحبّها ولٰكنّه لا يحبّ الزواج! فقال محتجًّا: «إنّ الحبّ هو الذي يسلّمنا للزواج فما دمت لا تحبّ الزواج كما تقول فأنت لا تحبّ الفتاة!» فأجابه بإصرار: «بل أحبّها وأكره الزواج»، فقال: «لعلّك تخاف المسئوليّة»، فأجابه محتدًّا: «إنّني أحمل من أعباء المسئوليّة في بيتي وفي عملي ما لا تحمل بعضه»، فقال: «لعلّك أنانيّ أكثر ممّا أتصوّر»، فقال ساخرًا: «وهل يتزوّج الفرد إلّا مدفوعًا بأنانيّته الظاهرة أو الخفيّة؟» فقال باسمًا: «لعلّك مريض فاذهب إلى دكتور نفسانيّ لعلّه يحلّلك»، فقال له: «من الطريف أنّ مقالتي القادمة في مجلّة الفكر عن: كيف تحلّل نفسك»، فقال له: «أشهد لقد حيّرتني»، فقال له: «أنا الحائر إلى الأبد».

ومرّة وهو يقطع كعادته شارع ابن زيدون صادف في طريقه أمّ حبيبته متّجهة نحو البيت، عرفها من أوّل نظرة رغم أنّه لم يرها منذ سبعة عشر عامًا على الأقلّ. ولم تكن «الهانم» التي عرفها قديمًا. ذبلت ذبولًا محزنًا وركبها الهمّ قبل الكبر ولم يكن في وسع إنسان أن يتصوّر أنّ هٰذه المرأة الساعية في هزالها هي نفس الهانم التي كانت تخطر في حديقة القصر في نهاية من الجمال والكمال! ورغم هٰذا كلّه قد ذكّرته هيئة رأسها بعايدة فقطّع قلبه منظرها، وكان حسن الحظّ أنّه تبادل مع بدور الابتسام قبل رؤيتها وإلّا ما استطاع أن يبتسم، ثمّ ما يدري إلّا وهو يتذكّر عائشة! ثمّ يذكر كيف أثارت عاصفة من النكد هٰذا الصباح في البيت وهي تبحث عن طاقم أسنانها التي نسيت أين أودعته قبل نومها. وأوّل أمس رأى بدور واقفة في الشرفة على غير عادتها ثمّ تبيّن أنّها متهيّأة للخروج!. وتساءل أتخرج وحدها؟! وما لبثت أن غابت من الشرفة فمضى في سبيله متمهّلًا متفكّرًا. حقًّا لو جاءت وحدها فإنّما تجيء له، هٰذا الظفر المسكر لعلّه يغسل إهانة حلّت

منذ سنين!. ولكن هل كانت عايدة تفعل هٰذا ولو انشقّ القمر؟!. وعندما بلغ منتصف الطريق التفت إلى الوراء فرآها قادمة... وحدها! وخيّل إليه أنّ خفقان قلبه سيطرق مسامع الجيران. وسرعان ما شعر بخطورة الموقف الوشيك الحدوث حتّى نازعته بعض جوانب نفسه إلى الهروب!. كان تبادل الابتسام قبل ذٰلك لهوًا عاطفيًّا بريئًا أمّا اللقاء فسيكون له شأن وأيّ شأن. هو مسئوليّة وخطورة ومطالبة بالحسم في الاختيار. ولو هرب الآن لمنح نفسه مزيدًا من التروّي! ولكنّه لم يهرب، وتقدّم في خطاه المتمهّلة كالمخدّر حتّى أدركته عند منعطف الطريق إلى شارع الجلال، وفي التفاتة منه التقت عيناهما في ابتسامة، فقال:

ـ مساء الخير...

ـ مساء الخير...

وتساءل وشعوره بالخطورة يتزايد:

ـ إلى أين؟

ـ عند واحدة صاحبتي، هناك في هٰذا الاتّجاه...

وأشارت صوب شارع الملكة نازلي، فقال في استهتار:

ـ إنّه طريقي فهل تسمحين بأن نسير معًا...؟

فقالت وهي تداري ابتسامة:

ـ تفضّل...

وسارا جنبًا إلى جنب، إنّها لم تتحلَّ بهٰذا الفستان الجميل لتقابل واحدة صاحبتها ولٰكن لتقابله هو، وها هو قلبه يستقبلها بالوجد والحنان، ولٰكن كيف يكون مسلكه؟ لعلّها ضاقت بجموده فجاءت بنفسها لتهيّئ له فرصة مواتية فإمّا ينتهزها إكرامًا لها وإمّا يتجاهلها فيفتقدها إلى الأبد، هي كلمة قد تقال فيتورّط قائلها مدى العمر أو تُحبس فيندم حابسها مدى العمر، هٰكذا دُفع إلى مأزق وهو لا يدري، وها هو الطريق يطوى ولعلّها تترقّب، وهي تبدو مستجيبة ملبّية كأنّها ليست من آل شداد، أجل ليست من آل شدّاد في شيء، لقد انتهى آل شدّاد، وولّى زمانهم، وليست التي تسايرك إلّا فتاة سيّئة الحظّ، والتفتت نحوه كالباسمة فقال برقّة:

ـ فرصة سعيدة!...

ـ شكرًا!.

ثمّ ماذا؟! يبدو أنّها تنتظر خطوة جديدة من ناحيته، وها هي نهاية الطريق تقترب، يجب أن يقطع برأي فإمّا التورّط وإمّا الوداع، لعلّها لا تتصوّر أبدًا أن يفترقا ببساطة، ولو بكلمة واعدة، وها المفترق على بعد خطوات، إنّه يشعر شعورًا مؤلمًا بمدى الخيبة التي ستمنى بها، ويأبى لسانه أن ينطق، أم يتكلّم وليكن ما يكون؟!. وتوقّفت عن المسير وابتسمت ابتسامة مرتبكة كأنّما تقول آن لنا أن نفترق فبلغ به الاضطراب نهايته، ثمّ مدّت يدها، فتلقّاها بيده وصمت فترة رهيبة، ثمّ غمغم:

ـ مع السلامة!...

واستردّت يدها ثمّ مالت إلى عطفة جانبة. أوشك أن يناديها، إنّ ذهابها متعثّرة بالخيبة والخجل كابوس لا يُحتمل، وأنت أدرى بهٰذه المواقف التعيسة، غير أنّ لسانه انعقد. فيم كانت متابعته لها طوال الشهرين الماضيين؟ أمن الذوق أن ترفضها وقد جاءتك بنفسها؟. أمن الرحمة أن تعاملها نفس المعاملة التاريخيّة التي عاملتك بها أختها؟ وأنت تحبّها؟! وهل تلقى من ليلها ما لقيت من ليلتك التي خلّفتها وراءك كالمجمرة المتّقدة تضيء في غياهب الماضي بالألم المنصهر؟!.

وواصل سيره وهو يتساءل ترى أيريد حقًّا أن يبقى أعزب لكي يكون فيلسوفًا أم أنّه يدّعي الفلسفة ليبقى أعزب؟ وقال له رياض: هٰذا شيء لا يصدّق ولسوف تندم! وهو شيء لا يصدق حقًّا ولٰكن هل يندم أيضًا؟ وقال له: كيف هان عليك أن تقطعها وقد كنت تتحدّث عنها وكأنّها فتاة أحلامك؟ ليست فتاة أحلامه... إنّ فتاة أحلامه لم تكن لتسعى إليه أبدًا. وأخيرًا قال له. إنّك في نهاية السادسة والثلاثين من عمرك ولن تكون بعد ذٰلك صالحًا للزواج. فامتعض لقوله وداخلته كآبة...

٤٦

جاءت كريمة إلى السكّريّة في حلّة العروس في عربة

مع والديها وأخيها. وكان في استقبالهم إبراهيم شوكت وخديجة وأحمد وزوجه سوسن حمّاد وكمال. ولم يكن ثمّة ما يدلّ على زفاف إلّا طاقات الورد التي طوّقت الصالة، أمّا المنظرة فقد امتلأت بذوي اللحى من الشبّان يتوسّطهم الشيخ عليّ المنوفي. ومع ذٰلك كان قد مرّ عام ونصف على وفاة السيّد إلّا أنّ أمينة لم تشهد الزفاف ووعدت بالحضور للتهنئة فيما بعد، أمّا عائشة فإنّها عندما دعتها خديجة إلى شهود الدخلة الصامتة هزّت رأسها عجبًا وقالت بلهجة عصبيّة:

ـ أنا لا أشهد إلّا المآتم!

وقد تألّمت خديجة لقولها ولٰكنّها كانت قد اعتادت أن تتحلّى بالحلم المثاليّ حيال عائشة. وقد جُهّز الدور الثاني بالسكّريّة للمرّة الثانية بأثاث العرس. وجهّز ياسين ابنته كما ينبغي وباع في سبيل ذٰلك آخر أملاكه فلم يعد يبقى له إلّا بيت قصر الشوق. وبدت كريمة آية في الجمال، وقد شابهت أمّها في عهدها الزاهر خاصّة في عينيها الدافئتين، ولم تكن بلغت سنّ الزواج إلّا في الأسبوع الماضي من أكتوبر. ولاحت خديجة سعيدة كما ينبغي لأمّ العريس، وقد انتهزت فرصة انفرادها بكمال مرّة فمالت على أذنه قائلة:

ـ على أيّ حال فهي ابنة ياسين، ومهما يكن من أمر فهي خير ألف مرّة من عروس العنابر!

وقد مُدّ بوفيه صغير في حجرة السفرة للأسرة، ومُدّ آخر في الفناء لمدعويّ عبد المنعم من ذوي اللحى، ولم يكن يتميّز عنهم إذ أرسل بدوره لحيته حتّى قالت له خديجة يومذاك:

ـ الدين جميل ولٰكن ما ضرورة هٰذه اللحية التي تبدو فيها مثل محمّد العجمي بيّاع الكسكسي؟!

وجلس أفراد الأسرة في حجرة الاستقبال ما عدا عبد المنعم الذي جالس أصحابه، وأحمد الذي شاركه في الترحيب بهم بعض الوقت، ثمّ انتقل إلى حجرة الاستقبال حيث انضمّ إلى أهله وهو يقول باسمًا:

ـ تراجعت المنظرة في الزمان ألف عام!

فسأله كمال:

ـ فيم يتحادثون؟

ـ عن معركة العلمين، وقد ارتجّت جدران المنظرة بأصواتهم.

ـ وكيف شعورهم حيال انتصار الإنجليز؟

ـ الغضب طبعًا، إنّهم أعداء الإنجليز والألمان والروس جميعًا، وهٰكذا لم يرحموا العريس حتّى في ليلة زفافه...

وكان ياسين جالسًا إلى جانب زنّوبة، يبدو في زينته كأنّما يصغرها بعشرة أعوام، فقال:

ـ فليأكلوا بعضهم البعض بعيدًا عنّا، ومن رحمة ربّنا أنّه لم يجعل من مصر ميدان حرب...

فقالت خديجة باسمة:

ـ لعلّك تريد السلام حتّى تفرغ لمزاجك!

ورمقت زنّوبة بنظرة ماكرة حتّى ضحك الجميع، وكان قد ذاع في الأيّام القريبة الماضية أنّ ياسين غازل ساكنة جديدة في بيته، وأنّ زنّوبة ضبطته متلبّسًا أو كالمتلبّس فما زالت بالساكنة حتّى اضطرّتها إلى إخلاء الشقّة. فقال ياسين يداري ارتباكه:

ـ كيف أفرغ لمزاجي وبيتي محكوم بالأحكام العرفيّة!

فقالت زنّوبة في امتعاض:

ـ هلّا استحييت أمام ابنتك؟

فقال ياسين في توسّل:

ـ إنّي بريء والجارة المسكينة مظلومة!

ـ أنا الظالمة! أنا التي ضُبطت وأنا أطرق شقّتها بليل ثمّ اعتذرت بأنّني ضللت سبيلي في الظلام! هه؟ أربعون عامًا في البيت ثمّ لا تعرف أين تقع شقّتك؟!

فتعالى الضحك حتّى قالت خديجة في تهكّم:

ـ إنّه كثير الخطأ في الظلام!

ـ وفي النور على السواء...

وإذا بإبراهيم شوكت يخاطب رضوان قائلًا:

ـ وأنت يا رضوان كيف حالك مع محمّد أفندي حسن؟

فقال ياسين مصحّحًا:

ـ محمّد أفندي زفت!

وأجاب رضوان حانقًا:

ـ إنّه ينعم الآن بثروة جدّي التي آلت إلى أمّي!

وقال ياسين محتجًّا:

ـ ميراث لا يُستهان به، وكلّما قصدها رضوان في معونة للترفيه أو خلافه تصدّى له الصفيق وناقشه الحساب!

فقالت خديجة مخاطبة رضوان:

ـ إنّها لم تنجب غيرك، وخير لها أن تمتّعك بمالها في حياتها... ثمّ مستدركة:

ـ وقد آن لك أن تتزوّج، أليس كذٰلك؟

فضحك رضوان ضحكة فاترة ثمّ قال:

ـ عندما يتزوّج عمّي كمال!

ـ لقد يئست من عمّك كمال ولكن لا ينبغي أن تقلّده...

وأصغى كمال لما يدور حوله بامتعاض وإن لم يبدُ أثره في وجهه. لقد يئست منه ويئس هو من نفسه. وكان قد انقطع عن المرور بشارع ابن زيدون معلنًا بذٰلك عن شعوره بذنبه، غير أنّه كان يقف عند طرف المحطّة ليراها في شرفتها من حيث لا تراه، لم يستطع أن يقاوم رغبته في رؤيتها، ولا أن ينكر حبّه لها، أو يتجاهل نفوره وجفوله من فكرة التزوّج منها! حتّى قال له رياض إنّك مريض وتأبى أن تبرأ!

وسأل أحمد شوكت رضوان بلهجة ذات معنى:

ـ أكان محمّد حسن يناقشك الحساب لو كان السعديّون في الحكم؟

فضحك رضوان ضحكة حانقة وقال:

ـ إنّه ليس الوحيد الذي يناقشني الحساب اليوم، ولكن صبرًا، إن هي إلّا أيّام أو أسابيع.

فسألته سوسن حمّاد:

ـ أتظنّ أيّام الوفد معدودة كما يشيع خصومه؟

ـ أيّامه رهن بمشيئة الإنجليز، وعلى أيّ حال فلن تطول الحرب إلى الأبد...، ثمّ يجيء وقت الحساب!

فقالت سوسن في جدّ ظاهر:

ـ المسئول الأوّل عن المأساة هم الذين ظاهروا الفاشيست لطعن الإنجليز من الخلف...

وكانت خديجة ترمق سوسن بنظرة ساخرة منتقدة، متعجّبة من «استرجالها» في الحديث، فما تمالكت أن قالت:

ـ المفروض أنّنا في فرح، تكلّموا في أمور مناسبة!

ولاذت سوسن بالصمت دون اصطدام، على حين تبادل أحمد وكمال نظرة باسمة، أمّا إبراهيم شوكت فقال ضاحكًا:

ـ عذرهم أنّ أفراحنا لم تعد أفراحًا، الله يرحم السيّد أحمد ويسكنه فسيح جنّاته...

فقال ياسين متحسّرًا:

ـ تزوّجت ثلاث مرّات ولكنّني لم أزفّ مرّة واحدة!

فقالت زنّوبة في انتقاد مرّ:

ـ أتذكر نفسك وتنسى ابنتك؟

فقال ياسين ضاحكًا:

ـ نُزفّ في الرابعة إن شاء الله...

فقالت زنّوبة في تهكّم:

ـ أجّلها حتّى تزفّ رضوان!

فغضب رضوان دون أن ينبس. لعنة الله عليكم جميعًا وعلى الزواج أيضًا، ألا تدركون أنّني لن أتزوّج أبدًا! وأنّني أودّ أن أقتل من يفاتحني بهٰذه السيرة اللعينة. وعقب صمت قصير قال ياسين:

ـ ليتني أبقى في بوفيه السيّدات حتّى لا أقف بين أصحاب اللحى الذين يخيفونني!

أدركته زنّوبة قائلة:

ـ لو عرفوا سيرتك لرجموك!

فقال أحمد ساخرًا:

ـ ستخوض لحاهم في الصحاف، وتكون معركة، وخالي كمال هل يحبّ الإخوان؟

فقال كمال باسمًا:

ـ أحبّ منهم واحدًا على الأقلّ!

والتفتت سوسن إلى العروس وسألتها بمودّة:

ـ وما رأي كريمة في لحية زوجها؟

فدارت كريمة ضحكة خفيفة بحني رأسها المتوّج ولم تتكلّم، فأجابت عنها زنّوبة قائلة:

ـ قليلٌ من الشبّان مَن هم في تَدَيُّن عبد المنعم...

فقالت خديجة:

ـ يعجبني تديّنه، هٰذا خلق في دم أسرتنا، ولٰكن لا تعجبني لحيته. . .

فقال إبراهيم شوكت ضاحكًا:

ـ أعترف بأنّ ابنيّ ـ المؤمن والمارق على السواء ـ مجنونان!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

ـ الجنون خلق في دم أسرتنا أيضًا!

فحدجته خديجة بنظرة احتجاج فعالجها قائلًا قبل أن تنبس:

ـ أعني أنّني مجنون، وأظنّ كمال أيضًا مجنون، وإن شئت فأنا المجنون وحدي!

ـ هٰذا هو الحقّ دون زيادة.

ـ وهل من العقل أن يقضي إنسان على نفسه بالعزوبة ليتفرّغ للقراءة والكتابة؟

ـ سيتزوّج عاجلًا أو آجلًا ويكون سيّد العقلاء.

فسأل رضوان عمّه كمال قائلًا:

ـ لِمَ لا تتزوّج يا عمّي؟. أريد أن أقف على الأقلّ على وجه اعتراضك لأدافع به عن نفسي حين الضرورة!

فقال ياسين:

ـ أتنوي الإضراب عن الزواج؟ لن أسمح بهٰذا ما حييت، ولٰكن انتظر حتّى تعودوا للحكم ثمّ تزوّج زواجًا سياسيًّا رائعًا!

أمّا كمال فقال له:

ـ إذا لم يكن عندك مانع فتزوّج في الحال. . .

هٰذا الشابّ ما أجمله! هو مرشّح للجاه والمال! لو رأته عايدة في زمانها لعشقته، ولو ألقى نظرة عابرة على بدور لشغفها حبًّا، أمّا هو فيدور على نفسه والدنيا كلّها تتقدّم، ولا يزال يتساءل: أتزوّج أم لا أتزوّج؟! والحياة تبدو حيرة مظلمة، فلا هي فرصة سانحة ولا هي فرصة ضائعة، والحبّ عسير طبعه الخصام والعذاب، فليتها تتزوّج حتّى يخلص من حيرته وعذابه!

وإذا بعبد المنعم يدخل عليهم تتقدّمه لحيته وهو يقول:

ـ تفضّلوا إلى البوفيه، احتفالنا اليوم قاصر على المعدة. . .

٤٧

كان كمال يسير متسكّعًا في شارع فؤاد الأوّل، وكانت الساعة تدور في العاشرة من صباح الجمعة فلقي طريقًا غاصًّا بالمارّة والواقفين، نساء ورجالًا، وكان الجوّ لطيفًا كأكثر أيّام نوفمبر، يغري بالمشي، وقد ألف أن يتخفّف من عزلته القلبيّة بالاندساس بين الناس في يوم عطلته، فيمضي على وجهه بلا غاية، متسلّيًا بمشاهدة الناس والأشياء، وصادفه في طريقه أكثر من واحد من تلاميذه الصغار فحيّوه برفع أيديهم إلى رءوسهم فردّ تحيّتهم بأحسن منها باسمًا. ما أكثر تلاميذه! منهم مَن توظّف، ومنهم من لا يزال بالجامعة، وغالبيّتهم بين الابتدائيّ والثانويّ فليس بالعمر القصير أن تخدم العِلْم والتعليم أربعة عشر عامًا. وكان منظره التقليديّ لا يكاد يتغيّر، البذلة الأنيقة والحذاء اللامع والطربوش المستقيم والنظّارة الذهبيّة والشارب الغليظ، حتّى درجته السادسة لم تتغيّر أربعة عشر عامًا رغم ما يشاع عن تفكير الوفد في إنصاف الهيئات المظلومة، شيء واحد تغيّر هو رأسه الذي انتشر المشيب في سوالفه. وبدا سعيدًا بتحيّات تلاميذه الذين يحبّونه ويحترمونه، وتلك منزلة لم يظفر بمثلها أحد من المدرّسين، ظفر بها هو رغم رأسه وأنفه، وبالرغم ممّا اعترى تلاميذ هٰذه الأيّام من شيطنة وجموح!

وعندما بلغ تسكّعه تقاطع عماد الدين مع فؤاد الأوّل ما يدري إلّا وبدور تطالعه وجهًا لوجه، وخفقت جوانحه كأنّما انطلقت بها صفّارة الإنذار، وجمد بصره لحظات، ثمّ هَمَّ بالابتسام ليتفادى من الموقف الحرج، غير أنّها حوّلت عنه عينيها في تجاهل بيّن ودون أن تلين أساريرها ثمّ مرقت من جانبه، وعند ذٰلك فحسب رأى أنّها تتأبّط ذراع شابّ تسير في صحبته! وتوقّف عن المسير، ثمّ أتبعها ناظريه، أجل هي بدور، في معطف أسود أنيق، وهٰذا صاحبها في

مثل أناقتها، ولعلّه لم يبلغ الثلاثين بعد. وبذل جهدًا صادقًا ليتمالك نفسه التي هزّتها المفاجاة ثمّ تساءل في اهتمام من يكون هٰذا الشابّ؟ ليس أخًا لها، ولا هو بالعاشق إذ إنّ العشّاق لا يجاهرون بحبّهم في شارع فؤاد الأوّل خاصّة صباح الجمعة، فهل يكون...!؟ وتتابعت دقّات قلبه في إشفاق، ثمّ تبعها دون تردّد، وعيناه لا تفارقانها، ووعيه مركّز فيها حتّى شعر بأنّ حرارته ترتفع وأنّ ضغطه يصعد وأنّ دقّات قلبه تنعاه، ورآهما يتوقّفان أمام معرض محلّ لبيع الحقائب فدنا منها متباطئًا مصوّبًا عينيه نحو يد الفتاة اليمنى حتّى استقرّ بصره على الخاتم الذهبيّ! ولفحه إحساس حارّ كأنّه مزيج من الألم العميق، وكان قد مضى على موقف شارع ابن زيدون أربعة أشهر، فهل كان هٰذا الشابّ يرصده في نهاية الطريق ليحلّ محلّه؟ وما ينبغي أن يدهش فإنّ أربعة شهور زمن طويل قد تنقلب فيه الدنيا رأسًا على عقب، ووقف أمام محلّ اللعب على بعد يسير من موقفهما، يلحظهما وكأنّه يتفرّج على اللعب. إنّها اليوم تبدو أجمل ممّا كانت في أيّ يوم مضى، كالعروس بكلّ معنى الكلمة! ولٰكن ما هٰذا السواد الذي يشيع في كافّة ملابسها؟ إنّ سواد المعطف أمر مألوف بل فاخر ولٰكن ما بال فستانها أسود كذٰلك؟ موضة أم حداد؟ أتكون أمّها قد توفّيت؟ ليس من عادته تصفّح الوفيات في الصحف ولٰكن ماذا يهمّه من ذٰلك؟ الذي يهمّه حقًّا أنّ صفحة بدور قد انطوت في كتاب حياته، انتهت بدور، وعرف السؤال الحائر «أتزوّج أم لا أتزوّج» جوابه المحتوم! فليهنأ بالطمأنينة بعد الحيرة والعذاب! وكم تمنّى لو تتزوّج ليخلص من عذابه فها هي قد تزوّجت فليهنأ بالخلاص من العذاب! وخيّل إليه أنّ إنسانًا لو ذُبح لعانى مثل الإحساس الذي يعانيه في موقفه. إنّ أبواب الحياة تغلق في وجهه وقد نبذ خارج أسوارها. ثمّ رآهما يتحوّلان عن موقفهما، ويتّجهان نحوه، ومرّا به في سلام وأتبعهما عينيه وهمّ بالمسير في أثرهما ولٰكنّه عدل عن ذٰلك فيما يشبه الضجر، ولبث أمام معرض اللعب، ينظر ولا يرى شيئًا، ونظر صوبها مرّة أخرى كأنّما ليلقي عليها نظرة الوداع، وكانت تبتعد دون توقّف تختفي تارة وراء المارّة وتبدو تارة، ويرى منها جانب مرّة ثمّ يرى جانب آخر. وكان كلّ وتر من أوتار قلبه يغمغم: «وداعًا». ونفذ إلى أعماقه شعور العذاب مصحوبًا بأنغام حزينة ليست بالجديدة. فذكر بها حالًا مماثلة ماضية، دبّت في أعماقه جارّة وراءها شتّى ذكرياتها المدغمة، كأنّها لحن غامض مثير لأجل الألم وهو في الوقت نفسه لا يخلو من لذّة خفيفة مبهمة! شعور واحد يلتقي فيه الألم باللذّة كالفجر تلتقي عنده حاشية الليل بأهداب النهار. ثمّ اختفت عن ناظريه، وربّما اختفت إلى الأبد، كما اختفت أخت لها من قبل! ووجد نفسه يتساءل من عسى أن يكون خطيبها؟ لم يستطع أن يتفحّصه وكم يودّ أن يفعل، وودّ ـ أن يكون موظّفًا ـ أن يكون من طبقة أدنى من طبقة المعلّمين! ولٰكن ما هٰذه الأفكار الصبيانيّة؟ إنّه لأمر مخجل، أمّا عن الألم فجدير بالخبير به أن يطمئنّ إذ إنّه عرف بالتجربة أنّ مصيره ـ ككلّ شيء ـ إلى الموت. وانتبه أوّل مرّة إلى معرض اللعب الذي ينبسط تحت عينيه، كان آية في التنسيق والجمال، حاويًا لشتّى فنون اللعب التي يهيم بها الأطفال من قطارات وسيّارات وأراجيح وأدوات موسيقيّة وبيوت وحدائق، فانجذب إلى المنظر أمامه بقوّة غريبة تفجّرت عنها نفسه المعذّبة حتّى تشبّثت بها عيناه، لم يتح له في طفولته أن ينعم بهٰذه الجنّة فكبر طاويًا نفسه على غريزة لم تشبع وفات أوان إشباعها. وهٰؤلاء الذين يتحدّثون عن سعادة الطفولة من أدراهم بها؟ ومنذا يستطيع أن يجزم بأنّه كان طفلًا سعيدًا؟ لذٰلك فما أسخف هٰذه الرغبة الطارئة البائسة التي تحلم بأن تردّه طفلًا مثل هٰذا الطفل الخشبيّ الذي يلعب في هٰذه الحديقة الوهميّة الجميلة! إنّها رغبة سخيفة ومحزنة في آن. ولعلّ الأطفال في الأصل كائنات لا تُحتمل، ولعلّها المهنة وحدها التي علّمته كيف يمكن التفاهم معهم وتوجيههم. ولٰكن كيف كانت تكون الحياة لو رُدّ إلى الطفولة محتفظًا في ذات الوقت بعقله النامي وذاكرته؟ فيعود إلى اللعب في بستان السطح بقلب عامر بذكريات عايدة، أو يمضي إلى العبّاسيّة عام ١٩١٤ فيرى عايدة وهي تلعب في الحديقة ويعرف في الوقت

نفسه ما لقيه منها عام ١٩٢٤ وما بعده! أو يخاطب أباه وهو يلثغ فيقول له إنّ الحرب ستقع عام ١٩٣٩ إنّه سيقضي عليه عقب إحدى غاراتها! يا لها من أفكار سخيفة ولكنّها خير على أيّ حال من التركيز في هٰذه الخيبة الجديدة التي ارتطم بها الآن في شارع فؤاد، خير من التفكير في بدور وخطيبها وموقفه منها، ولعلّ ثمّة خطأً في الماضي يكفّر عنه وهو لا يدري، كيف ومتى وقع هٰذا الخطأ؟ لعلّه حادث عرضيّ أو كلمة قيلت أو موقف كابده، هٰذا أو ذاك هو المسئول عن هٰذا العذاب الذي يعاني. يجب أن يعرف نفسه حتّى يتيسّر له أن يخلّصها من آلامها، فالمعركة لم تنته بعد، والتسليم لم يقع، وما ينبغي له أن يقع، ولعلّه المسئول عن ذٰلك التردّد الجهنّميّ الذي انتهى به إلى قضم الأظافر على حين مضت بدور متأبّطة ذراع خطيبها! وينبغي التفكير مرّتين في هٰذا العذاب المبطّن بلذّة غامضة، أليس هو الذي ذاقه قديمًا في صحراء العبّاسيّة وهو يتطلّع إلى الضوء المنبعث من نافذة حجرة الزفاف؟ فهل كان تردُّده حيال بدور حيلة لدفع نفسه إلى موقف مماثل ليستعيد مشاعر قديمة فيثمل بعذابها ولذّتها معًا؟! يحسن به قبل أن يحرّك يده للكتابة عن الله والروح والمادّة أن يعرف نفسه، بل شخصه المفرد، كمال أفندي أحمد، بل كمال أحمد، بل كمال فقط، حتّى يتسنّى له أن يخلقه من جديد، وليبدأ الليلة بمعاودة كرّاسة الذكريات ليتفحّص الماضي جيّدًا، وستكون ليلة بلا نوم، ولكنّها ليست الأولى من نوعها، فعنده منها ذخيرة يصحّ جمعها في مؤلّف واحد تحت عنوان «ليالي بلا نوم»، ولن يقول إنّ حياته عبث، ففي النهاية سيخلّف عظامًا قد تصنع منها الأجيال القادمة أداة للّهو! أمّا بدور فقد ولّت من حياته إلى الأبد، يا لها من حقيقة مليئة بالشجن، كاللحن الجنائزيّ، ولم تترك ذكرى حنان واحدة، لا عناق ولا قُبَل، حتّى ولا لمسة أو كلمة طيّبة، ولكنّه لم يعد يخشى السهاد. فقديمًا كان يلقاه وحيدًا، أمّا اليوم فدون ذٰلك أفانين تغيب فيها العقول والقلوب، ثمّ يذهب إلى عطيّة في البيت الجديد بشارع محمّد عليّ، ثمّ يواصلان أحاديثهما التي لا تنقضي. وفي آخر مرّة قال لها بلسان أثقله السكر:

- كم يوافق أحدنا الآخر!

فقالت له بسخرية مستسلمة:

- ما ألطفك في سكرك!...

فاستطرد:

- ما أسعدنا من زوجين لو تزوّجنا!...

فقالت مقطّبة:

- لا تهزأ بي فقد كنت «سيّدة» بكلّ معنى الكلمة...

- نعم، نعم، إنّك ألذّ من الفاكهة في إبّانها!...

فقرصته هازئة وقالت:

- هٰذا قولك ولكنّني إذا سألتك ريالًا فوق ما تعطيني هربت!

- إنّ ما بيننا ليسمو فوق النقود!

فحدجته بنظرة احتجاج وقالت:

- ولكن لي طفلان يفضّلان النقود على ما بيننا!

فبلغ به السكر والحزن غايتهما وقال ساخرًا:

- أنا أفكّر في التوبة أسوة بالستّ جليلة، ويوم يختارني التصوّف فسأنزل لك عن ثروتي!

فقالت ضاحكة:

- إذا وصلت التوبة إليك فقل علينا السلام...

فضحك ضحكة عالية وقال:

- لا كانت التوبة المضرّة بمثيلاتك!

إلى هٰذا يفزع من السهاد! ثمّ شعر بأنّ وقفته أمام معرض اللعب قد طالت فتحوّل عنه وذهب...

٤٨

تساءل خالو صاحب حانة النجمة:

- حقيقيّ يا حبيبي أنّهم سيغلقون الخمّارات؟

فأجاب ياسين بثقة واطمئنان:

- لا سمح الله يا خالو! من عادة النوّاب أن يثرثروا عند نظر الميزانيّة، ومن عادة الحكومة أن تَعِد بالنظر في تحقيق رغبات النوّاب في أقرب فرصة، ومن عادة هٰذه الفرصة ألّا تقترب أبدًا...

واستبقت جماعة ياسين بحانة محمّد على المشاركة في التحقيق، فقال رئيس المستخدمين:

ـ طول عمرهم يَعِدون بإخراج الإنجليز، وبفتح جامعة جديدة، وبتوسيع شارع الخليج، فهل تمّ شيء من هٰذا يا خالو؟

وقال عميد ذوي المعاشات:

ـ لعلّ النائب مقدّم الاقتراح قد شرب خمرًا زعافًا من خمور الحرب فانتقم بتقديم اقتراحه...

وقال المحامي:

ـ ومهما يكن من أمر، فإنّ حانات الشوارع الإفرنجيّة لن تمسّ بسوء، فما عليك يا خالو إذا وقع المحذور، إلّا أن تسهم في تافرنا أو غيرها... والخمّار للخمّار كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا...

وقال باشكاتب الأوقاف:

ـ إذا كان الإنجليز قد دفعوا بدبّاباتهم إلى عابدين لمسألة تافهة هي إعادة النحّاس إلى الحكم، فهل تظنّهم يسكتون عن إغلاق الخمّارات؟!

وكان بالحجرة ـ إلى جماعة ياسين ـ نفر من أهل البلد من التجّار، ولٰكن على الرغم من ذٰلك اقترح الباشكاتب أن يمزجوا سكرهم بشيء من الغناء قائلًا:

ـ هلمّوا نغنّي «أسير العشق».

فبادر خالو بالعودة إلى موقفه وراء الطاولة، وراح الأصدقاء يغنّون: «أسير العشق يا ما يشوف هوان»، وبدت نغمة السكر أوضح الأنغام في أصواتهم حتّى لاحت في وجوه أهل البلد بسمات ساخرة، غير أنّ الغناء لم يستمرّ طويلًا، وكان ياسين أوّل المنسحبين، ثمّ تبعه الآخرون فلم يُتمّ الدور إلّا الباشكاتب، ثمّ ساد سكوت تقطعه من حين إلى حين مصمصة أو تمطّق أو يد تصفّق في طلب كأس أو مزّة، وإذا بياسين يقول:

ـ أما من وسيلة ناجعة للحبل!

فقال الموظّف العجوز كالمحتجّ:

ـ لا تفتأ تسأل هٰذا السؤال وتعيده!... صبرك بالله يا أخي!...

وقال باشكاتب الأوقاف:

ـ لا داعي للجزع يا ياسين أفندي، ومسير بنتك تحبل!

فقال ياسين وهو يبتسم ابتسامة بلهاء:

ـ إنّها عروس كالوردة، زينة السكّريّة، ولٰكنّها أوّل فتاة في أسرتنا يمرّ عليها عام على زواجها دون أن تحمل، لهٰذا جزعت أمّها!

ـ وأبوها فيما يبدو!

فقال ياسين وهو يبتسم ابتسامة بلهاء:

ـ إذا جزعت الزوجة جزع زوجها...

ـ لو يتذكّر الإنسان قرَف الأولاد لكره الحبل!...

ـ ولو! الناس يتزوّجون عادة لإنجاب الذرّيّة...

ـ لهم حقّ! لولا الأطفال ما طاق الحياة الزوجيّة أحد...

فشرب ياسين كأسه وهو يقول:

ـ أخشى أن يكون ابن أختي من أتباع هٰذا الرأي...

ـ بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم بهم فيستردّوا شيئًا من حرّيّتهم المفقودة!

فقال ياسين:

ـ هيهات! المرأة ترضع طفلًا وتهدهد آخر ولٰكنّها في نفس الوقت تحملق في زوجها «أين كنت؟. لماذا غبت إلى هٰذه الساعة؟» ومع ذٰلك فالحكماء لم يستطيعوا أن يغيّروا هٰذا النظام الكونيّ.

ـ ماذا منعهم؟

ـ أزواجهم! لم يسدعن لهم فرصة للتفكير في ذٰلك...

ـ اطمئنّ يا ياسين أفندي، فإنّ زوج ابنتك لا يمكن أن ينسى فضل ابنك في توظيفه.

ـ كلّ شيء يُنسى...

ثمّ ـ وهو يضحك ـ وقد دغدغت الخمر رأسه:

ـ ثمّ إنّ «المحروس» نفسه خارج الحكم الآن!

ـ آه! والوفد سيعمّر هٰذه المرّة فيما يبدو...

وإذا بالمحامي يقول بلهجة خطابيّة:

ـ لو سارت الأمور سيرًا طبيعيًّا في مصر لحكم الوفد إلى الأبد!...

فقال ياسين ضاحكًا:

ـ هٰذا القول له وجاهته لولا خروج ابني على الوفد!

ـ ولا تنسوا حادث القصّاصين! إذا مات الملك فقُلْ على أعداء الوفد السلام!

ـ الملك بسلام!

ـ الأمير محمّد عليّ يُعِدّ بذلة التشريفة! وهو منسجم مع الوفد طول عمره...

ـ الجالس على العرش ـ أيًّا كان اسمه ـ هو عدوّ للوفد بحكم مركزه كالويسكي والحلوى لا يتّفقان!

فقال ياسين وهو يضحك نشوة:

ـ لعلّ الحقّ معكم، فأكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة، وأنتم منكم من بلغ أرذل العمر ومنكم من يوشك أن يدركه!

ـ اسم الله عليك يا بن السبعة والأربعين!

ـ على أيّ حال فأنا أصغركم سنًّا...

ثمّ فرقع بأصابعه وهو يتمايل نشوة وخيلاء، واستطرد:

ـ ولكنّ العمر الحقيقيّ لا يقاس بالسنين، ولكن بالنشوة ينبغي أن يقاس، والخمر قد انحطّت نوعًا ومذاقًا في أيّام الحرب ولكنّ نشوتها هي هي، وعند الاستيقاظ صباحًا يدقّ رأسك الصداع فتفتح عينيك بكآشة ثمّ تتجشأ كحولًا، غير أنّي أقول لكم إنّه في سبيل النشوة يهون أيّ شيء، وربّ أخ يتساءل والصحّة؟ أجل لم تعد الصحّة كما كانت، وابن السبعة والأربعين غير مثيله في الزمن الأوّل ممّا يدلّ على أنّ كلّ شيء قد غلا ثمنه في الحرب إلّا العمر فلا ثمن له، في الزمن الأوّل كان الرجل يتزوّج في الستّين من عمره أمّا في زماننا الغادر فابن الأربعين يسأل أهل العلم عن الوصفات المقوّية، والعريس في شهر العسل قد يوحل في شبر ماء!

ـ الزمن الأوّل! أهل الدنيا جميعًا يسألون عنه!

فعاد ياسين يقول وقد أخذت أنغام السكر ترنّ في أوتار صوته:

ـ الزمن الأوّل، اللّهمّ ارحم أبي، شدّ ما ضربني ليمنعني من الاشتراك الدمويّ في الثورة! ولكنّ الذي لا تُرهبه قنابل الإنجليز لا يُرهبه الزجر! وفي قهوة أحمد عبده كنّا نجتمع لتدبير المظاهرات وقذف القنابل...

ـ هٰذه الأسطوانة من جديد! خبّرني يا ياسين أفندي أكان وزنك أيّام الجهاد كوزنك اليوم؟

ـ وأثقل، غير أنّي كنت حين الجدّ كالنحلة، وفي يوم المعركة الكبرى سرت على رأس المظاهرة أنا وأخي أوّل شهداء الحركة الوطنيّة، فسمعت أزيز الرصاص وهو يمرق لصق أذني ويستقرّ في أخي، يا للذكرى! لو امتدّ به العمر للحق بركب الوزراء المجاهدين!

ـ ولكنّ العمر امتدّ بك أنت!

ـ نعم، ولكن ما كان بوسعي أن أكون وزيرًا بالابتدائيّة، ثمّ إنّنا في جهادنا توقّعنا الموت لا المناصب، غير أنّه لا بدّ أن يموت أناس ويتبوّأ المناصب آخرون، وفي جنازة أخي مشى سعد زغلول فقدّمني إليه زعيم الطلبة، هٰذه ذكرى عظيمة أخرى!

ـ ولكن كيف وجدت ـ رغم جهادك ـ متّسعًا للعربدة والعشق؟!

ـ اسمعوا يا هوه! وهٰؤلاء الجنود الذين يضاجعون النساء في الطرق أليسوا هم الذين ردّوا رومل على أعقابه؟!. فالجهاد لا يكره الفرفشة، والخمر لو علمتم روح الفروسيّة، والمجاهد والسكران أخوان يا أولي الألباب!

ـ وسعد زغلول ألم يقل لك شيئًا في جنازة أخيك...؟

فأجاب عنه المحامي قائلًا:

ـ قال له ليتك كنت الشهيد أنت!...

وضحكوا، وكانوا في هٰذه الحال يضحكون أوّلًا ثمّ يتساءلون عن السبب، وضحك معهم ياسين في أريحيّة صافية ثمّ واصل حديثه قائلًا:

ـ لم يقل هٰذا، كان رحمه الله مؤدّبًا لا كحضرتك، وكان ابن حظّ أيضًا، ولذٰلك كان واسع الآفاق، فكان سياسيًّا ومجاهدًا وأديبًا وفيلسوفًا وقانونيًّا، وكانت كلمة منه تحيي وتميت!

ـ الله يرحمه.

ـ ويرحم الجميع، كلّ ميت يستحقّ الرحمة، بحسبه أنّه فقد الحياة، حتّى المومس وحتّى القوّاد، وحتّى الأمّ التي كانت تبعث بابنها إلى رفيقها ليعود إليها به...

ـ وهل يمكن أن توجد هٰذه الأمّ؟!

ـ كلّ ما تتصوّر وما لا تتصوّر يوجد في الحياة!

ـ ألم تجد إلّا ابنها؟

ـ ومن أرعى للأمّ من الابن؟! ثمّ إنّكم جميعًا أبناء المضاجعة!

ـ الشرعيّة!

ـ هٰذه شكليّات أمّا الحقيقة فواحدة، وقد عرفت مومسات بائسات كان فراشهنّ يخلو من ضجيع أسبوعًا أو أكثر، دلّوني على أمّ من أمّهاتكم قضت مثل هٰذه الفترة بعيدًا عن قرينها!

ـ لا أعرف شعبًا كالشعب المصريّ ولعًا بالخوض في أعراض الأمّهات!

ـ نحن شعب قليل الأدب!...

فقال ياسين ضاحكًا:

ـ إنّ الزمن أدّبنا أكثر ممّا ينبغي، والشيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه، ولذٰلك فنحن غير مؤدّبين! ولٰكن تغلب علينا الطيبة رغم ذٰلك، فالتوبة عادة ختامنا!...

ـ ها أنا من ذوي المعاشات ولٰكنّني لم أتب بعد!

ـ التوبة لا تخضع لكادر الموظّفين، ثمّ إنّك لا تفعل شيئًا ضارًّا، أنت تسكر ساعات كلّ ليلة وليس في ذٰلك من بأس، وسوف يمنعك عن السكر يومًا المرض أو الطبيب وكلاهما شيء واحد، ونحن بطبعنا ضعفاء، ولولا ذٰلك ما ألفنا الخمر ولا صبرنا على الحياة الزوجيّة، ونزداد بمرور الأيّام ضعفًا ولٰكنّ رغائبنا لا تقف عند حدّ، هيهات، فنتعذّب ثمّ نسكر مرّة أخرى، ويشيب شعرنا فيفضح منّا المستور وإذا بصفيق يعترض سبيلك في الطريق وهو يقول: «عيب أن تطارد امرأة وشعرك شايب!» يا سبحان الله ما لك أنت إذا كنت شابًّا أو شيخًا، أتبع امرأة أم أتبع حمارة! حتّى تخال حينًا أنّ الناس متآمرون مع زوجك عليك، وهنالك إلى ذٰلك كلّه الدلّال بثقله والعسكريّ بهراوته، حتّى الخادمة تتيه دلالًا في سوق الخضار، وهٰكذا تجد نفسك في عالم مشاكس لا صديق لك فيه إلّا الكأس، ثمّ يجيء دور المرتزقة من الأطبّاء فيقولون لك بكلّ بساطة: «لا تشرب!»

ـ ومع ذٰلك أتنكر أنّنا نحبّ الدنيا بكلّ قلوبنا؟

ـ بكلّ قلوبنا! والشرّ نفسه لا يخلو من خير، حتّى الإنجليز لا يخلون من خير، لقد عرفتهم يومًا عن كثب، وكان لي منهم أصدقاء على عهد الثورة!

فهتف المحامي:

ـ ولٰكنّك كنت تجاهدهم... أنسيت؟!

ـ نعم... نعم، لكلّ حال ما يناسبها، وفي مرّة ظنّوني جاسوسًا لولا أن سارع إليّ زعيم الطلبة في اللحظة المناسبة فدلّ القوم على حقيقتي فهتفوا لي، وكان ذٰلك في جامع الحسين!

ـ يعيش ياسين... يعيش ياسين! ولٰكن ماذا كنت تفعل في جامع الحسين؟

ـ أجب، هٰذه نقطة هامّة جدًّا!...

فضحك ياسين ثمّ قال:

ـ كنّا نصلّي الجمعة، وكان من عادة أبي أن يأخذنا معه لصلاة الجمعة، ألا تصدّقون؟ سلوا أهل الحسين!

ـ كنت تصلّي زلفى لأبيك؟

ـ والله، لا تسيئوا الظنّ بنا، نحن أسرة دينيّة، أجل كلّنا سكّيرون فاسقون، ولٰكن في النهاية تنتظرنا التوبة!

وهنا تأوّه المحامي قائلًا:

ـ ألا نعاود الغناء قليلًا؟

فبادره ياسين قائلًا:

ـ أمس غادرت الحانة وأنا أغنّي فاعترضني شرطيّ وهتف بي محذّرًا: «يا أفندي!» فسألته: «ألا يحقّ لي أن أغنّي؟»، فقال: «ممنوع الزعيق بعد الساعة ١٢» فقلت محتجًّا: «ولٰكنّني أغنّي!» فقال بحدّة: «كلّه زعق أما القانون»، فسألته: «والقنابل التي تنفجر بعد الساعة ١٢ ألا تُعَدّ زعقًا؟» فقال مهدّدًا: «الظاهر أنّك ترغب في البيات في القسم» فابتعدت عنه وأنا أقول: «بل الأفضل أن أبيت في البيت!»، كيف نكون أمّة متحضّرة والعساكر تحكمنا؟! وفي البيت تلقى زوجك بالمرصاد وهنالك في الوزارة رئيسك، حتّى في التربة يستقبلك ملاكان بالهراوات...

وعاد المحامي يقول:

ـ فلنمزّ بشيء من الغناء...

فتنحنح عميد ذوي المعاشات ثمّ راح يترنّم:

جوزي اتجوّز عليّه
ولسّه الحنّة في إيديّه
يوم ما جه وجبها عليّه
دي نار يا ناس وآدت فيّه

وسرعان ما ردّدوا المطلع في حماس همجيّ، وكان ياسين يغرق في الضحك حتّى دمعت عيناه. . .

٤٩

كثيرًا ما كانت تشعر خديجة بأنّها وحيدة. ومع أنّ إبراهيم شوكت ـ خاصّة منذ أن قارب السبعين ـ كان يعتكف في بيته طوال أيّام الشتاء، إلّا أنّه لم يستطع أن يبدّد وحشتها، ولم تهن في القيام بواجبات بيتها، غير أنّها ـ الواجبات ـ باتت أهون من أن تستغرق حيويّتها ونشاطها، فعلى تجاوزها السادسة والأربعين لم تزل قويّة نشيطة وازدادت جسامة. وأسوأ من هٰذا أنّ وظيفتها كأمّ قد انقطعت على حين أنّ دورها كحماة لم ولن يبدأ أبدًا فيها بدا. فإحدى الزوجتين ابنة أخيها، والأخرى موظّفة لا تكـاد تلتقي بها إلّا فيـما ندر من الأوقـات والمناسبات. فكانت تروّح عن صدرها المكبـوت فيها يدور بينها وبين زوجها المتلفّع بعباءته.

ـ مضى أكثر من عام على زواجهما ولم نوقد شموعًا!

فهـزّ الرجـل منكبيه استهـانة دون تعليق فعـادت تقول:

ـ لعلّ عبد المنعم وأحمد يعدّان الذرّيّة موضة قديمة كطاعة الوالدين!

فقال الرجل في ضجر:

ـ أريحي نفسك فهما سعيدان وحسبنا هٰذا.

فتساءلت في حدّة:

ـ إذا كانت العروس لا تحبل ولا تلد فما فائدتها؟

ـ لعلّ إبنيك يخالفانك في هٰذا الرأي!

ـ لقـد خـالفـاني في كـلّ شيء، مـا أضيـع تعبي وأملي . .

ـ أيحزنك ألّا تكوني جدّة؟

فقالت في حدّة تعالت درجتها:

ـ إنّ حزني عليهما لا على نفسي!

ـ لقد عرض عبد المنعم كريمة على الطبيب فبشّره خيرًا. . .

ـ أنفق المسكين كثيرًا وسينفق غدًا أكثر، إنّ عرائس اليوم غالية الثمن كالطماطم واللحوم!

فضحك الرجل دون تعليق فاستطردت تقول:

ـ أمّا الأخرى فأستعين عليها بسيدي المتولّي.

ـ اعترفي بأنّ لسانها كالشهد!

ـ مكر ودهاء، ماذا تتوقّع من ابنة العنابر؟

ـ اتّقي الله يا شيخة!

ـ ترى متى يذهب بها «الأستاذ» إلى الطبيب؟

ـ إنّهما زاهدان في هٰذا!

ـ طبعًا، إنّها موظّفة، فمن أين تجد الوقت للحبل والولادة؟

ـ إنّهما سعيدان ما في ذٰلك شكّ.

ـ المـوظّفـة لا يمكن أن تكـون زوجـة صـالحـة، وسيعرف ذٰلك بعد فوات الأوان. . .

ـ إنّه رجل ولن يضيره ذٰلك. . .

ـ ليس في هٰذا الحيّ كلّه شابّان كولديّ فيا خسارة!

* * *

وكان عبد المنعم قد تبلور طابعه واتّجاهه، فأثبت أنّه موظّف كفء و«أخ» نشيط، وقد انتهى الإشراف على شعبة الجماليّة إليه فعُيّن مستشارًا قانونيًّا لها، وأسهم في تحرير المجلّة، وكان يلقي المواعظ أحيانًا في المسـاجد الأهليّة. وجعل من شقّته ناديًا لإخوانه يسهرون عنده كلّ ليلة وعلى رأسهم الشيخ عليّ المنوفي. وكان الشابّ شديد التحمّس موفور الاستعداد كي يضع جميـع ما يملك من جهد ومال وعقل في خدمة الدعوة التي آمن بكلّ قلبه ـ على حدّ تعبير المرشد ـ بأنّها دعـوة سَلَفيّة وطريقة سُنّيّة وحقيقة صوفيّة وهيئـة سياسيّـة وجماعـة رياضيّة ورابطة علميّة ثقافيّة وشركة اقتصاديّـة وفكرة اجتماعيّة، وكان الشيخ عليّ المنوفي يقول:

ـ تعاليم الإسلام وأحكـامه شـاملة تنظيم شئـون الناس في الدنيا والآخرة، وإنّ الذين يظنّون أنّ هٰذه التعاليم إنّما تتناول الناحيـة الروحيّـة أو العبادة دون غيرها من النواحي مخطئون في هٰذا الظنّ، فالإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسيّـة ودين ودولة وروحـانيّة ومصحف وسيف. . .

فيقول شابّ من المجتمعين:

ـ هٰذا هو ديننـا، ولكنّنا جـامدون لا نفعـل شيئًا والكفر يحكمنا بقوانينه وتقاليده ورجاله. . .

فيقول الشيخ عليّ:

ـ لا بدّ من الدعاية والتبشير، وتكوين الأنصار المجاهدين، ثمّ تجيء مرحلة التنفيذ...

ـ وإلامَ ننتظر؟

ـ لننتظر حتّى تنتهي الحرب. إنّ الحقل مهيّأ لدعوتنا، وقد نزع الناس ثقتهم من الأحزاب، وعندما يهتف الداعي في الوقت المناسب يهبّ الإخوان وكلّ مدرّع بقرآنه وسلاحه...

عبد المنعم بصوته القويّ العميق:

ـ فلنوطّن النفس على جهاد طويل، إنّ دعوتنا ليست موجّهة إلى مصر وحدها. ولٰكن إلى كافّة المسلمين في الأرض، ولن يتحقّق لها النجاح حتّى تجمع مصر والأمم الإسلاميّة على هٰذه المبادئ القرآنيّة، فلن نغمد السلاح حتّى نرى القرآن دستورًا للمسلمين أجمعين...

الشيخ عليّ المنوفي:

ـ أبشّركم بأنّ دعوتنا تنتشر بفضل الله في كلّ بيئة، لها اليوم مركز في كلّ قرية، إنّها دعوة الله، والله لا يخذل قومًا ينصرونه...

وفي نفس الوقت، كان يستعر نشاط آخر في الدور التحتانيّ وإن اختلف الهدف، ولم يكن وفير العدد كهٰذا، فإنّ أحمد وسوسن كانا يجتمعان في كثير من الليالي بعدد محدود من الأصدقاء مختلفي النحل والملل، أكثرهم من البيئة الصحفيّة. وقد زارهم الأستاذ عدلي كريم ذات مساء، وكان على علم بما يدور بينهم من مناقشات نظريّة. فقال لهم:

ـ حسن أن تدرسوا الماركسيّة، ولكن تذكّروا أنّها وإن تكن ضرورة تاريخيّة إلّا أنّ حتميّتها ليست من حتميّة الظاهرات الفلكيّة. إنّها لن توجد إلّا بإرادة البشر وجهادهم، فواجبنا الأوّل ليس في أن نتفلسف كثيرًا ولٰكن في أن نملأ وعي الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخيّ الذي عليها أن تلعبه لإنقاذ نفسها والعالم جميعًا...

أحمد:

ـ إنّنا نترجم الكتب القيّمة عن هٰذه الفلسفة للخاصّة من المثقّفين، ونلقي المحاضرات الحماسيّة على العمّال المجاهدين، وكلا العملين واجب لا غنى عنه...

فقال الأستاذ:

ـ ولٰكنّ المجتمع الفاسد لن يتطوّر إلّا باليد العاملة، وحين يمتلئ وعيها بالإيمان الجديد، ويمسي الشعب كلّه كتلة واحدة من الإرادة، فهنالك لن تقف في سبيلنا القوانين الهمجيّة ولا المدافع...

ـ كلّنا مؤمنون بذٰلك، غير أنّ كسب العقول المثقّفة يعني السيطرة على الفئة المرشّحة للتوجيه والحكم...

وإذا بأحمد يقول:

ـ سيّدي الأستاذ، ثمّة ملاحظة أودّ إبداءها، عرفت بالتجربة أنّه ليس من العسير إقناع المثقّفين بأنّ الدين خرافة وأنّ الغيبيّات تخدير وتضليل، ولٰكن من الخطورة بمكان مخاطبة الشعب بهٰذه الآراء، وإنّ أكبر تهمة يستغلّها أعداؤنا هي رمي حركتنا بالإلحاد أو الكفر...؟

ـ إنّ مهمّتنا الأولى أن نحارب روح القناعة والخمول والاستسلام، أمّا الدين فلن يتأتّى القضاء عليه إلّا في ظلّ الحكم الحرّ، ولن يتحقّق هٰذا الحكم إلّا بالانقلاب، وعلى العموم فالفقر أقوى من الإيمان، ومن الحكمة دائمًا أن تخاطب الناس على قدر عقولهم...

ونظر الأستاذ إلى سوسن باسمًا وهو يقول:

ـ كنت تؤمنين بالعمل فهل بتّ تقنعين بالنقاش في ظلّ الزواج؟...

وكانت تدرك أنّه يداعبها وأنّه لا يعني ما يقول، ومع ذٰلك فقد قالت جادّة:

ـ إنّ زوجي يحاضر العمّال في الخرابات النائية، وأنا لا أني أوزّع المنشورات بنفسي...

ثمّ قال أحمد مغتمًّا:

ـ إنّ عيب حركتنا أنّها تجذب إليها كثيرين من النفعيّين غير المخلصين، مِن هٰؤلاء مَن يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبيّة!

فقال الأستاذ عدلي كريم وهو يهزّ رأسه الكبير في استهانة واضحة:

ـ أعلم هٰذا حقّ العلم، ولٰكنّي أعلم أيضًا أنّ

الأمويّين قد ورثوا الإسلام وهم لا يؤمنون به ومع ذٰلك فهم الذين نشروه في بقاع العالم القديم حتّى إسبانيا!! فمن حقّنا أن نستفيد من هٰؤلاء، علينا أن نحذّرهم في الوقت نفسه، ولا تنسوا أنّ الزمن معنا على شرط أن نبذل ما في وسعنا من جهد وتضحية...

ـ والإخوان يا أستاذ! لقد بتنا نشعر بأنّهم عقبة خطيرة في سبيلنا!

ـ لا أنكر هٰذا، ولٰكنّهم ليسوا بالخطورة التي تتخيّلها، ألا ترى أنّهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون اشتراكيّة الإسلام؟ فحتّى الرجعيّون لم يجدوا بدًّا من استعارة اصطلاحاتنا، وهم لو سبقونا إلى الانقلاب فسوف يحقّقون بعض مبادئنا ولو تحقيقًا جزئيًّا، ولٰكنّهم لن يوقفوا حركة الزمن المتقدّمة إلى هدفها المحتوم، ثمّ إنّ نشر العلم كفيل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش!

* * *

ومضت خديجة تراقب مظاهر هٰذا النشاط الغريب في دهشة مقرونة بالامتعاض والسخط، حتّى قالت يومًا لزوجها:

ـ لم أر بيتًا كبيتَي عبد المنعم وأحمد، لعلّهما قهوتان وأنا لا أدري، فلا يجيء المساء حتّى يمتلئ الطريق بالزوّار من أصحاب اللحى والخواجات، لم أسمع عن شيء كهٰذا من قبل...

فهزّ الرجل رأسه قائلًا:

ـ آن لك أن تسمعي...

فقالت بحدّة:

ـ إنّ مرتّبيهما لن يكفيا ثمن القهوة التي تقدّم للضيوف!

ـ هل اشتكيا إليك الفقر؟

ـ والناس؟ ماذا يقولون وهم يرون أفواجًا تدخل وأفواجًا تخرج؟

ـ كلّ واحد حرّ في بيته...

فنفخت قائلة:

ـ إنّ أصوات أحاديثهم التي لا تنتهي تعلو أحيانًا حتّى تخرج إلى الحارة...

ـ فلتخرج إلى الحارة أو فلتصعد إلى السماء!...

وتنهّدت خديجة من الأعماق وهي تضرب كفًّا بكفّ..

٥٠

كانت فيلّا عبد الرحيم باشا عيسى بحلوان تودّع الفوج الأخير من الزوّار الذين جاءوا يودّعونه قبيل سفره إلى الأراضي الحجازيّة لأداء فريضة الحجّ...

ـ إنّ الحجّ أمنية قديمة، لعن الله السياسة فهي التي شغلتني عنه عامًا بعد عام، ولٰكن في مثل عمري يجب أن يفكّر المرء في أداء اللقاء القريب بربّه.

فقال عليّ مهران وكيل الباشا:

ـ لعن الله السياسة!

فردّد الباشا عينيه الذابلتين بين رضوان وبين حلمي متفكّرًا ثمّ قال:

ـ قل فيها ما شئت، غير أنّ لها جميلًا في عنقي لا أنساه وهو أنّها سلتني عن وحشتي، إنّ الأعزب العجوز مثلي يلتمس الأنس ولو في الجحيم!

فلعّب عليّ مهران حاجبيه وقال:

ـ ونحن يا باشا ألم نقم بواجبنا في تسليتك؟

ـ دون شكّ، ولٰكن يوم الأعزب طويل كليل الشتاء، ولا بدّ للإنسان من رفيق، وإنّي لأعترف بأنّ المرأة ضرورة خطيرة، وكم أذكر أمّي هٰذه الأيّام! إنّ المرأة ضرورة حتّى لمن لا يتعشّقها!

وكان رضوان يفكّر في أمور بعيدة فإذا به يسأل الباشا:

ـ هَبِ النحّاس باشا يسقط أفلا تعدل عن السفر؟!

فلوّح الباشا بيده ساخطًا وقال:

ـ فليبق بنحسه حتّى أعود على الأقلّ من الحجّ!...

ثمّ وهو يهزّ رأسه:

ـ كلّنا مذنب، والحجّ يغسل الذنوب...

فضحك حلمي عزّت قائلًا:

ـ إنّك يا باشا مؤمن، وإنّ إيمانك لمّا يحيّر الكثيرين!

ـ لمه؟ إنّ الإيمان واسع الصدر، والمنافق وحده الذي يدّعي البراءة المطلقة، ومن الغباء أن تظنّ أنّ الإنسان لا يقترف الذنوب إلّا على جثّة الإيمان، ثمّ إنّ ذنوبنا أشبه بالعبث الصبيانيّ البريء!

فقال عليّ مهران متنهّدًا في ارتياح:

ـ يا له من قول جميل! والآن دعني أصارحك بأنّي تشاءمت كثيرًا حين حدّثتني عن اعتزامك الحجّ، وساءلت نفسي ترى أهي التوبة؟! وهل تنتهي بالنسبة لنا مسرّات الحياة؟!

فضحك الباشا حتّى اهتزّ جذعه وقال:

ـ أنت شيطان من صلب شيطان، أتحزنون حقًّا إذا علمتم أنّها التوبة؟

فقال حلمي متأوّهًا:

ـ كمن ذُبح وليدها في حجرها!...

فضحك عبد الرحيم باشا مرّة أخرى وقال:

ـ آه منكم يا أولاد الإيه، على مثلي إذا أراد التوبة حقًّا أن ينأى بنفسه عن العيون النجل والخدود الورديّة، وأن يعكف على مجاورة قبر النبيّ عليه الصلاة والسلام...

فهتف مهران في شماتة:

ـ الحجاز وما أدراك ما الحجاز، لقد حدّثني عنها العارفون، ستكون كالمستجير من الرمضاء بالنار!

فقال حلمي عزّت كالمحتجّ:

ـ لعلّها دعاية كاذبة كالدعايات الإنجليزيّة، وهل يوجد في الحجاز كلّه وجه كوجه رضوان؟!

فهتف عبد الرحيم عيسى:

ـ ولا في الجنّة!.. (ثمّ متراجعًا).. لكنّنا يا أولاد الحرام بصدد حديث التوبة!

فقال عليّ مهران:

ـ مهلًا يا باشا، لقد أخبرتني يومًا عن الصوفيّ الذي تاب سبعين مرّة، أليس معنى هٰذا أنّه أذنب سبعين مرّة؟

فقال رضوان:

ـ أو مائة مرّة!

فقال عليّ مهران:

ـ أنا راضٍ بسبعين!

فتساءل الباشا ووجهه يتهلّل بشرًا:

ـ وهل في العمر بقيّة؟

ـ ربّنا يطوّل عمرك يا باشا، طمئنّا وقل إنّها التوبة الأولى!

ـ والأخيرة!

ـ فشرا إذا تحدّيتني فسوف أستقبلك حين العودة من الحجّ بقمر ولا كلّ الأقمار ثمّ ننظر ماذا يكون من أمرك!

فقال الباشا باسمًا:

ـ ستكون النتيجة مثل وجهك يا بوز الإخص، أنت شيطان يا مهران، شيطان لا غنى للإنسان عنه...

ـ أحمد الله على ذلك...

رضوان وحلمي في وقت واحد تقريبًا:

ـ ونحمده عليه...

فقال الباشا في خيلاء وسرور:

ـ أنتم أنسي، ما الحياة بدون المودّة والصداقة؟ الحياة جميلة، الجمال جميل، الطرب جميل، العفو جميل، أنتم شباب وتنظرون إلى الدنيا من زاوية خاصّة، وسوف يعلّمكم العمر الكثير، إنّي أحبّكم وأحبّ الدنيا، وإنّ زيارتي لبيت الله للشكر والاعتذار وطلب الهداية...

فقال رضوان باسمًا:

ـ ما أجمل منظرك! إنّك تقطر صفاء...

فقال عليّ مهران بمكر:

ـ ولكنّ حركة صغيرة تجعله يقطر اشياء أخرى، حقًّا يا باشا إنّك معلّم الجيل!

ـ وأنت إبليس نفسه يا ابن الهرمة! اللّٰهمّ إنّي إذا قدمت يومًا للحساب فسأشير إليك وكفى!

ـ أنا! مظلوم والله، لست إلّا عبدًا مأمورًا!...

ـ بل أنت شيطان...

ـ ولٰكن لا غنى لإنسان عنه؟!

فضحك الباشا قائلًا:

ـ نعم يا عكروت...

ـ كنت وما أزال في حياتك العامرة نغمًا مطربًا ووجهًا مليحًا وهناء متجدّدًا، وأخيرًا لا تنس أيّام شبابي يا سعادة الغادر!...

فتأوّه الباشا قائلًا:

ـ أيّام زمان! آه من الزمان! يا أولاد لِمَ نكبر؟!! جلّت حكمتك يا ربّي وعَلَتْ!...

كانت قناتي لا تميل لغامز
فألانها الإصباح والإمساء

فقال مهران ملعّبًا حاجبيه:

ـ لغامز؟! بل قل لا تميل لمهران!

ـ يا ابن الكلب لا تفسد الجوّ بهذرك! لا يجوز أن نعبث عند ذكر الأيّام الجميلة، الدموع أحيانًا أجمل من الابتسام وأضخم إنسانيّة وأشدّ عرفانًا بالجميل، اسمعوا هٰذا أيضًا:

واستنكرتني وما كان الذي نكرت
من الحوادث إلّا الشيب والصلعا

ـ ما رأيكم في قول «من الحوادث»؟

وإذا بمهران ينادي على طريقة باعة الصحف:

ـ الحوادث والأهرام والمصريّ...

الباشا يائسًا:

ـ الحقّ ليس عليك ولٰكن عـ....

ـ عليك أنت!

ـ أنا! أنا بريء منك، عندما عرفتك كنت على حال يحسدك عليها إبليس، ولٰكنّي لن أسمح لك أن تنتزعني من جوّ الذكريات، نعم اسمعوا إلى هٰذا أيضًا:

عريت من الشباب وكان غضًّا
كما يعرى من الورق القضيب

فتساءل مهران كالمنزعج:

ـ القضيب يا باشا.

الباشا وهو يردّد ناظريه بين رضوان وحلمي المغرقين في الضحك:

ـ صاحبكم جثّة لا يؤثّر فيها الشعر! ولٰكنّه سيبلغ قريبًا فترة الحسرات، حين يصير كلّ جميل خبرًا لكان أو إحدى أخواتها، (ثمّ متلفتًا إلى مهران) وأصحاب زمان يا ابن الهرمة هل نسيتهم؟

ـ أوه، الله يمسّيهم بالخير... كانوا الجمال كلّه والدلال كلّه...

ـ ماذا تعرف عن شاكر سليمان؟

ـ كان وكيل الداخليّة وفرخة بكشك عند الإنجليز حتّى أحيل على المعاش قبل الأوان في وزارة النحّاس الثانية أو الثالثة لا أذكر، وأظنّه الآن معتكفًا في عزبته بكوم حمادة...

ـ يا عيني على أيّامه! وحامد النجدي؟

ـ هٰذا أسوأ أحبابنا حظًّا! خسر الجلد والسقط، وإنّه ليطوف الآن ليلًا بالمراحيض العموميّة...

ـ كان خفيفًا ظريفًا ولٰكنّه كان كذٰلك مقامرًا وعربيدًا. وعليّ رأفت؟

ـ لقد بلغ «باجتهاده» أن صار عضوًا في مجلس إدارة عدّة شركات، ولٰكنّ سمعته ضيّعت عليه الوزارة فيما يقال!...

ـ لا تصدّق ما يقال، وليَ الوزارة أناس جاوزت شهرتهم حدود المملكة، غير أنّ هٰذا الرأي الذي طالما نوّهت لكم عنه وهو أنّ التحلّي بالفضائل العامّة واجب علينا أكثر من بقيّة الناس! فإذا تحقّق لأحدكم هٰذا فلا تثريب عليه بعد ذٰلك، لقد حكم المماليك مصر أجيالًا، وما زالت ذراريهم تنعم بالجاه والمال، وما المملوك؟! هو ذٰلك نفسه! سأقصّ عليكم قصّة عظيمة المغزى...

وصمت الباشا قليلًا كأنّما ليجمع شتات فكره ثمّ قال:

ـ كنت في ذٰلك الوقت رئيس محكمة، وحدث أن عُرضت عليّ قضيّة مدنيّة عن ميراث مختلَف عليه، وقبل نظر القضيّة عرّفني بعضهم بشابّ جميل له وجه رضوان وقوام حلمي... (ثمّ مشيرًا إلى مهران) ورشاقة هٰذا الكلب في عزّ أيّامه! فتصادقنا عهدًا وأنا لا أدري عن سرّه شيئًا، حتّى إذا كان يوم نظر القضيّة ما أدري إلّا وهو يقف أمامي ممثّلًا لأحد طرفي النزاع! ماذا تظنّون فعلت؟

فتمتم رضوان:

ـ يا له من موقف!..

ـ تنحّيت عن نظر القضيّة دون تردّد!

وأبدى رضوان وحلمي عن إعجابهما أمّا مهران فقال كالمحتجّ:

ـ وضيّعت عليه كفاحه!؟

فقال الباشا دون اكتراث لهذر مهران:

ـ ليس هٰذا فحسب، ولٰكنّي قطعته احتقارًا لسوء

خلقه، أجل، لا قيمة للإنسان بلا خلق، ليس الإنجليز بأذكى الناس، الفرنسيّون والإيطاليّون أذكى منهم ولٰكنّهم سادة الخلق فهم سادة العالم! لذٰلك أنبذ الجهال التافه المنحطّ.

فتساءل عليّ مهران ضاحكًا:

ـ هل أفهم من إبقائك عليّ أنّي ذو خلق؟...

فأشار الباشا نحوه جادًّا وهو يقول:

ـ الأخلاق متنوّعة، فالقاضي مطالب بالنزاهة والعدل، والوزير بالواجب والشعور بالمسئوليّة العامّة، والصديق بالصفاء والوفاء، وأنت عربيد بلا شكّ ووغد في أحايين كثيرة، ولٰكنّك أمين وفيّ...

ـ أرجو أن يكون وجهي قد تورّد!

ـ الله لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها! والحقّ أنّي قانع بما فيك من خير، ثمّ إنّك زوج وأب وهٰذه فضيلة أخرى، وهي سعادة لا يقدّرها إلّا مَن عانى صمت البيوت، إلّا أنّ صمت المقام عذاب الشيخوخة!

فقال رضوان كالمنكر:

ـ حسبت الشيخوخة محبّة للهدوء.

ـ تخيّلات الشباب عن الشيخوخة ضلال، تخيّلات الشيخوخة عن الشباب حسرات، خبّرني يا رضوان عن رأيك في الزواج؟

وانقبضت أسارير رضوان وهو يقول:

ـ هو الرأي الذي حدّثتك عنه من قبل يا باشا.

ـ لا أمل في العدول عنه؟

ـ لا أظنّ.

ـ لِمَ؟

تردّد رضوان قليلًا ثمّ قال:

ـ شيء عجيب، لا أدري كنهه، ولٰكنّ المرأة تبدو لي مخلوقًا مثيرًا للاشمئزاز!...

فتجلّت في العينين الذابلتين نظرة حزينة وقال:

ـ يا للأسف، ألا ترى أنّ عليّ مهران زوج وأب؟ وأنّ صديقك حلمي من أنصار الزواج؟ إنّي أرثي لك رثاء مضاعفًا إذ إنّه رثاء لنفسي أيضًا، طالما حيّرني ما قرأت وما سمعت عن جمال المرأة، غير أنّي طويت نفسي على رأيي الخاصّ إكرامًا لذكرى أمّي، كنت أحبّها حبًّا جمًّا، وقد أسلمت الروح بين ذراعيّ ودموعي تتساقط فوق جبينها وخدّيها، وكم أودّ لو تتغلّب على متاعبك يا رضوان....

فقال رضوان وكان يبدو شاردًا ساهمًا:

ـ يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة... ليس الأمر مشكلة!

ـ يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة، ولٰكنّ الأمر مشكلة، وقد لا تبالي تساؤل الناس ولٰكن ماذا عن تساؤلك أنت؟ من الممكن أن تقول إنّ المرأة مثيرة للاشمئزاز، ولٰكن لماذا هي لا تثير اشمئزاز الآخرين؟ هنالك يركبك إحساس كالمرض، مرض لا تعرف له دواء، فتعتزل العالم به، وهو شرّ رفيق في الوحدة، وربّما أخجلك بعد ذٰلك أن تحتقر المرأة وإن تكن مضطرًّا إلى مواصلة احتقارها!

وهنا نفخ عليّ مهران فيما يشبه اليأس ثمّ قال:

ـ منّيت النفس بليلة مرحة جديرة بالوداع!

فضحك عبد الرحيم باشا ثمّ قال:

ـ ولٰكنّه وداع حاجّ! ماذا تعرف أنت عن توديع الحجّاج؟

ـ سأودّعك بالدعاء ثمّ أستقبلك بالورود والخدود، ويومئذٍ نرى ماذا أنت فاعل!

فضرب الباشا كفًّا بكفّ وهو يقول ضاحكًا:

ـ إنّي مفوّض أمري إلى الله ذي الجلال!...

٥١

عند تقاطع شارعَي شريف وقصر النيل، أمام مقهى رتز، وفجأة، وجد كمال نفسه أمام حسين شدّاد! وتوقّفا عن السير وكلاهما يحملق في وجه صاحبه حتّى هتف كمال:

ـ حسين!...

فهتف الآخر بدوره:

ـ كمال!

ثمّ تصافحا في حرارة وهما يضحكان ضحكة الغبطة والسرور.

ـ أيّة مفاجأة سعيدة بعد ذٰلك التاريخ الطويل!

ـ أيّة مفاجأة سعيدة! تغيّرت كثيرًا يا كمال، ولٰكن

مهلًا لعلّي أبالغ! عودك هو هو، جملة منظرك، ولٰكن ما هٰذا الشارب المحترم؟! وهٰذه النظّارة الكلاسيكيّة وهٰذه العصا! وهٰذا الطربوش الذي لم يعد أحد يلبسه غيرك!

ـ وأنت شدّ ما تغيّرت! سمنت أكثر ممّا كنت أتصوّر، أهٰذا يتّفق وتقاليد باريس؟ أين حسين زمان؟!

ـ وأين باريس زمان؟ أين هتلر وموسوليني؟ ما علينا، كنت ذاهبًا إلى ريتز لأشرب قدح شاي فهل عندك مانع من الجلوس معي قليلًا؟

ـ بكلّ سرور...

فمالا إلى ريتز ثمّ جلسا حول مائدة وراء النافذة الزجاجيّة المطلّة على الطريق، وطلب حسين شدّاد الشاي وطلب كمال قهوة ثمّ عادا يتفحّصان بعضهما البعض في ابتسام. لقد ضخم حسين فامتدّ طولًا وعرضًا. ولٰكن ماذا فعل بحياته يا ترى؟ هل ساح في الأرض والسماء كما كان يودّ قديمًا؟ لكنّ عينيه تعكسان رغم ابتسامها نظرة غليظة كأنّما بدّلت من طفولة الحياة جدًّا. وكان قد مضى عام على التقائه ببدور في شارع فؤاد الأوّل فبرئ في أثنائه من نكسة الحبّ وانزوى آل شدّاد جميعًا في ركن النسيان، غير أنّ ظهور حسين قد أيقظ النفس من سباتها، فبدا الماضي وكأنّه يتمطّى ناشرًا أفراحه وآلامه.

ـ متى عدت من الخارج؟

ـ منذ عام تقريبًا...

ولم يحاول مقابلته على الإطلاق؟! ولٰكن علامَ يلومه وهو نفسه قد نسيه وفرغ من صداقته منذ دهر؟!

ـ لو علمت أنّك عدت إلى مصر لسعيت إلى لقائك!

ولم يبد على حسين أنّه أحرج أو ارتبك ولٰكنّه قال ببساطة:

ـ عدت فوجدت الهموم في انتظاري، ألم تبلغك أشياء عنّا؟

فتجهّم وجه كمال وقال باقتضاب وأسف:

ـ بلى، عن طريق صديقنا إسماعيل لطيف.

ـ لقد سافر إلى العراق منذ عامين كما أخبرتني والدتي... وجدت الهموم في انتظاري كما قلت، ثمّ كان عليّ أن أعمل، وأن أعمل ليل نهار!

هٰذا حسين شدّاد طبعة ١٩٤٤! ذٰلك الذي يعد العمل جريمة إنسانيّة، أحقّ وجد ذٰلك الماضي؟ لعلّه لا دليل عليه إلّا خفقان هٰذا القلب.

ـ أتذكر آخر مرّة تلاقينا؟!

ـ أوه!...

وجاء النادل بالشاي والقهوة قبل أن يتمّ كلامه غير أنّه لم يبد متحمّسًا للذكريات!...

ـ دعني أذكّرك، كان ذٰلك عام ١٩٢٦.

ـ عفارم على ذاكرتك!... (ثمّ شاردًا)... سبعة عشر عامًا في أوروبا!...

ـ حدّثني عن حياتك هنالك!

فهزّ رأسه الذي لم يشب منه إلّا سوالفه وقال:

ـ دع ذٰلك إلى حينه، واقنع الآن بهٰذه العناوين: أعوام سياحيّة وفرحة كالحلم، حبّ فزواج من باريسيّة من أسرة محترمة، الحرب والهجرة إلى الجنوب، إفلاس أبي، العمل في متجر حماي، عودتي إلى مصر دون زوجي حتّى أهيّئ لها حياة مستقرّة، ماذا تريد أكثر من ذٰلك؟

ـ أنجبت أطفالًا!

ـ كلّا...

كأنّما لا يودّ أن يتكلّم، ولٰكن ماذا بقي من الصداقة القديمة حتّى يأسف على ذٰلك؟ ورغم هٰذا وجد رغبة قويّة في طرق أبواب الماضي فتساءل:

ـ وماذا عن فلسفتك القديمة؟

وتفكّر حسين مليًّا، ثمّ ضحك ضحكة ساخرة وقال:

ـ إنّي غارق في العمل منذ أعوام وأعوام، لست إلّا رجل أعمال!

أين روح حسين شدّاد الذي كان يأوي منها إلى ظلّ ظليل من الغبطة الروحيّة؟ ليست في هٰذا الرجل الضخم، لعلّها استقرّت في رياض قلدس، أمّا هٰذا الرجل فإنّه لا يعرفه، ولا يربطه به إلّا ماضٍ مجهول، ماضٍ ودّ في تلك اللحظة لو كان يحتفظ له بصورة حيّة لا صورة فوتوغرافيّة باردة.

ـ وماذا تعمل الآن؟

ـ ألحقني أحد أصدقاء أبي بوظيفة في الرقابة حيث أعمل ابتداء من منتصف الليل حتّى الفجر، وإلى هٰذا فإنّي أقوم بالترجمة في بعض الصحف الإفرنجيّة...

ـ ومتى تخلو من العمل؟

ـ فيما ندر، والذي يهوّن عليّ المشقّة أنّني لن أدعو زوجي إلى مصر حتّى أهيّئ لها حياة تناسبها، فهي من أسرة محترمة، وكنت حين تزوّجت منها معدودًا من الأغنياء!...

قال ذٰلك وضحك ضحكة كأنّما يسخر بها من نفسه فابتسم كمال ابتسامة كأنّما يشجّعه بها، وراح يقول لنفسه: من حسن حظّي أنّي سلوتك من زمن طويل، ولولا ذٰلك لبكيت عليك من أعماق قلبي!

ـ وأنت يا كمال ماذا تعمل؟

ثمّ مستدركًا:

ـ أذكر أنّك كنت مغرمًا بالثقافة؟

ما أجدره بالشكر على هٰذا التذكّر! فهو ميت بالنسبة إليه كما أنّ الآخر ميت بالنسبة إليه هو، وإنّا لنموت ونحيا كلّ يوم مرّات! وأجابه:

ـ إنّي مدرّس لغة إنجليزيّة...

ـ مدرّس! نعم... نعم. تذكّرت الآن أشياء، وكنت ترغب في أن تكون مؤلّفًا؟

يا للرغبات الخائبة!...

ـ إنّي أنشر مقالاتي في مجلّة الفكر، ولعلّي أجمع بعضها في كتاب عمّا قريب!

فابتسم حسين ابتسامة كئيبة وقال:

ـ أنت سعيد لأنّك حقّقت أحلام صباك، أمّا أنا...!

وضحك مرّة أخرى، أمّا كمال فقد وقعت جملة «أنت سعيد» من أذنيه موقعًا غريبًا، ولم يكن أغرب منها إلّا اللهجة التي قيلت بها الدالّة على الحسد، فوجد نفسه مرّة واحدة سعيدًا ومحسودًا! وممّن؟ من عميد آل شدّاد! غير أنّه قال على سبيل المجاملة:

ـ حياتك العمليّة أجلّ حياة!

فقال الآخر باسمًا:

ـ لا اختيار لي، ومرجوّي الوحيد أن أستعيد شيئًا من مستوى الماضي...

وساد الصمت مليًّا، وكان كمال يتفحّص حسين باهتمام، وكانت صورة من الماضي تنبعث خلال تفحّصه، حتّى وجد نفسه يسأله قائلًا:

ـ وكيف حال الأسرة؟

فقال دون اكتراث:

ـ بخير...

فتردّد كمال قليلًا ثمّ قال:

ـ كانت لك أخت صغيرة نسيت اسمها فكيف صارت اليوم؟

ـ بدور! تزوّجت في العام الماضي...

ـ ما شاء الله، أولادنا يتزوّجون!

ـ وأنت ألم تتزوّج؟

ترى ألم تعاوده الذكريات؟

ـ كلّا...

ـ أسرع وإلّا فاتك القطار...

فقال ضاحكًا:

ـ فاتني بأميال...

ـ ربّما تزوّجت من حيث لا تدري، صدّقني، لم يكن الزواج ضمن خطّتي ولٰكنّي متزوّج منذ أكثر من عشر سنوات...

فهزّ كمال كتفيه دون اكتراث وقال:

ـ خبّرني كيف تجد الحياة هنا بعد إقامتك الطويلة في فرنسا؟

ـ لم تكن الحياة في فرنسا عقب الغزو ممّا يسرّ، أمّا هنا فالحياة يسيرة بالقياس إلى هناك. (ثمّ بحنان) ولٰكن باريس، أين أين باريس؟!

ـ لِمَ لَمْ تبق في فرنسا؟

فقال باستنكار:

ـ أعيش كلًّا على حميّ؟!، كلّا، كان ثمّة عذر عندما حالت ظروف الحرب دون السفر، أمّا بعد ذٰلك فلم يكن من السفر بدّ!

ترى أهو شذا من الكبرياء القديم؟ ثمّ وجد نفسه مدفوعًا إلى مغامرة خطيرة عذبة معًا، فتساءل بمكر:

ـ وما أخبار صاحبنا حسن سليم؟

فحدجه بنظرة ارتياب لحظة ثمّ قال ببرود:

ـ لا أدري عنه شيئًا!

ـ كيف؟!

فقال وهو يمدّ بصره إلى الطريق خلل الزجاج:

ـ انتهى ما بيننا وبينه منذ حوالى العامين!

فقال كمال في دهشة لم يستطع إخفاءها:

ـ أتعني...؟!

ولم يتمّ كلامه. غلبته المفاجأة. هل عادت عايدة إلى العبّاسيّة مرّة أخرى؟ امرأة مطلّقة؟!. فليؤجّل التفكير في هٰذا كلّه إلى حين، وقال بهدوء:

ـ كان سفره إلى إيران آخر ما حدّثني به إسماعيل لطيف عنه!

فقال حسين بكآبة:

ـ لم تمكث أختي معه في هٰذه الرحلة إلّا شهرًا واحدًا، ثمّ عادت بمفردها... (ثمّ بصوت منخفض) يرحمها الله!

ـ هه؟!...

ندّت عن كمال في صوت ترامى إلى الموائد القريبة من حولهم. فنظر إليه حسين كالداهش وقال:

ـ لم تكن تدري! لقد ماتت منذ عام!

ـ عايدة؟!

فهزّ الآخر رأسه بالإيجاب، وفي نفس الوقت خجل كمال من نطقه الاسم مجرّدًا بصوت مسموع، ولٰكنّه لم يقف عند هٰذا إلّا أقلّ من لحظة. وبدت الألفاظ جميعًا وكأن لا معنى لها. وشعر بدوّامة الفناء تدور برأس. وكان ما به دهشة وارتياع، لا حزن ولا ألم، وتكلّم أخيرًا فقال:

ـ يا له من خبر محزن! البقيّة في حياتك!

فقال حسين:

ـ عادت من إيران وحيدة، ومكثت مع أمّي شهرًا، ثمّ تزوّجت من أنور بك زكي كبير مفتّشي اللغة الإنجليزيّة ولٰكنّها لم تعاشره إلّا شهرين، ثمّ مرضت، ثمّ توفّيت في المستشفى القبطيّ.

كيف لرأسه أن يتابع هٰذه الأحداث في سرعتها الجنونيّة! ولٰكنّه يقول أنور بك زكي، وهو المراقب الأعلى لهيئته التعليميّة، ولعلّه تشرّف بمقابلته مرّات وهو زوج لعايدة. ربّاه... إنّه ليذكر الآن أنّه شيّع جنازة حرم المراقب منذ عام أفكانت هي عايدة؟!. ولٰكن كيف لم يلتقِ بحسين؟!

ـ هل حضرت وفاتها؟

ـ كلّا، توفّيت قبل عودتي إلى مصر...

فقال وهو يهزّ رأسه تعجّبًا:

ـ لقد سرت في جنازتها وأنا لا أدري أنّها أختك!

ـ كيف؟

ـ علمت في المدرسة ذٰلك اليوم بأنّ حرم كبير المفتّشين قد توفّيت وأنّ الجنازة ستشيّع من ميدان الإسماعيليّة، فذهبت مع زملائي المدرّسين دون أن أطّلع على النعيّ في الصحف، وسرنا بين المشيّعين حتّى جامع جركس، كان ذٰلك منذ عام...

فابتسم حسين ابتسامة حزينة وهو يقول:

ـ سعيكم مشكور...

لو وقعت هٰذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجنّ أو انتحر، اليوم تمرّ به كخبر من الأخبار، ومن عجب أن يشيّع جنازتها وهو لا يدري، وكان وقتذاك ما يزال أسيرًا لمرارة التجربة التي تخلّفت عن زواج بدور فلعلّ صاحبة النعش طافت برأسه فيما طاف به من خواطر بدور وأسرتها، وما زال يذكر يوم الجنازة حين تقدّم من أنور بك زكي معزّيًا ثمّ جلس بين المشيّعين، قالوا قيامًا لقد حضر النعش فمدّ عينيه فرأى نعشًا جميلًا مكلّلًا بالحرير الأبيض حتّى تهامس بعض زملائه إنّها عروس... الزوجة الثانية للمفتّش... وقد ذهبت ضحيّة للالتهاب الرئويّ، وودّع النعش وهو لا يدري أنّه يودّع ماضيه، ومن كان زوجها؟ رجل فوق الخمسين ذو زوجة وأبناء فكيف رضي به ملاك الزمان الخالي؟ وكنت تظنّها فوق الزواج فإذا هي تعنو للطلاق ثمّ تقنع بنصيب الزوجة الثانية! وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يسكن جيشان هٰذا الصدر لا من الحزن أو الألم ولٰكن من الذهول والدهشة، ومن خلوّ العالم من مباهج الأحلام، ومن ضياع سرّ الماضي الساحر إلى الأبد، وإن كان ثمّة حزن فعلى أنّك لم تحزن كما كان يجدر بك!

ـ لكن ماذا غيّر حسن سليم؟

فهزّ حسين رأسه بازدراء وقال:

ـ عشق الوغد موظّفة بمفوّضيّة بلجيكا بإيران فغضبت المرحومة لكرامتها وطالبت بالانفصال. . .

«ممّا يعزّي المرء في مثل هٰذا الموقف أنّ بديهيّات إقليدس لم تعد بالبديهيّات المطلقة!».

ـ وأولادها؟

ـ عند جدّتهم لأبيهم.

وهي أين هي؟ وماذا جدّ عليها في هٰذا العام؟ وهل يمكن أن يعرفها فهمي أو السيّد أحمد عبد الجواد أو نعيمة؟

وإذا بحسين شدّاد ينهض وهو يقول:

ـ آن لي أن أذهب، دعني أراك، إنّي أتناول عشائي عادة في رتز.

فنهض بدوره، وتصافحا وهو يتمتم:

ـ إن شاء الله. . .

وافترقا عند ذاك وهو يشعر بأنّه لن يراه مرّة أخرى، وبأنّه ليس به حاجة إلى معاودة رؤيته، كما ليس بالآخر حاجة إلى ذلك، وغادر المشرب وهو يقول لنفسه: «إنّي حزين يا عايدة لأنّي لم أحزن عليك كما كان يجدر بي. . .».

٥٢

في سكون الهزيع الأخير من الليل طرق طارق باب بيت آل شوكت بالسكّريّة، ثمّ تتابع الطرق حتّى استيقظ النائمون، وما إن فتحت خادم الباب حتّى تدافعت إلى الداخل أقدام ثقيلة شديدة الوقع، انتشرت في الفناء والسلّم وأطبقت على الشقق الثلاث. وخرج إبراهيم شوكت إلى الصالة مثقل الرأس بالنوم متعبًا بالكبر فرأى ضابطًا كبيرًا يتوسّط مجموعة من الجنود والمخبرين، فدهش الرجل وتساءل منزعجًا:

ـ ماذا هنالك كفى الله الشرّ؟!

فسأله الضابط الكبير بخشونة:

ـ ألست والد أحمد إبراهيم شوكت وعبد المنعم إبراهيم المقيمين في هٰذا البيت؟

فأجاب الرجل وقد امتقع وجهه:

ـ بلى. . .

ـ عندنا أوامر بتفتيش البيت جميعه. . .

ـ لماذا يا حضرة المأمور؟

فلم يأبه له والتفت نحو معاونيه آمرًا:

ـ فتّشوا. . .

واندفع الرجال إلى الحجرات صادعين بالأمر على حين تساءل إبراهيم شوكت:

ـ لماذا تفتّشون شقّتي؟

ولكنّ المأمور تجاهل، وعند ذاك اضطرّت خديجة إلى مغادرة حجرة النوم ـ التي اقتحمها المخبرون ـ متلفّعة بشال أسود وهي تهتف غاضبة:

ـ أليس للنساء حرمة؟! هل نحن لصوص يا حضرة المأمور؟!

كانت تحدّق في وجهه غاضبة، وإذا بها تشعر بغتة بأنّها رأت هٰذا الوجه من قبل، أو بمعنى أصحّ أنّها رأت صورته الأولى قبل أن يعتورها تقدّم السنّ، متى وأين؟ ربّاه إنّه هو دون ريب، لم يكد يتغيّر كثيرًا، واسمه؟ وقالت دون تردّد:

ـ حضرتك كنت ضابطًا بقسم الجماليّة، منذ عشرين عامًا، بل منذ ثلاثين عامًا لا أذكر الزمن بالضبط. . .

فرفع المأمور إليها عينين متسائلتين، وردّد إبراهيم شوكت ناظريه بينهما متسائلًا كذٰلك، وإذا بها تقول:

ـ اسمك حسن إبراهيم، أليس كذٰلك!

ـ حضرتك تعرفينني؟

فقالت برجاء:

ـ أنا بنت السيّد أحمد عبد الجواد وأخت فهمي أحمد الذي قتله الإنجليز أيّام الثورة، ألا تذكره؟

فلاحت الدهشة في عيني المأمور وتمتم بصوت مهذّب لأوّل مرّة:

ـ رحمه الله رحمة واسعة. . .

فقالت برجاء أشدّ:

ـ أنا أخته فهل ترضى لبيتي هٰذه البهدلة؟

فأشاح المأمور عنها بوجهه وهو يقول كالمعتذر:

ـ إنّنا ننفّذ الأوامر يا هانم.

ـ ولكن لماذا يا حضرة المأمور، نحن أناس طيّبون!

فقال المأمور برقّة:

ـ نعم، ولكن ليس كذلك نجلاك...

فهتفت خديجة باضطراب:

ـ إنّهما ابنا أخت صديقك القديم!

فقال المأمور دون أن ينظر نحوهما.

ـ إنّنا ننفّذ أوامر الداخليّة.

ـ لم يفعلا شيئًا ضارًا، إنّهما ولدان طيّبان وأقسم لك على ذلك...

وعاد الجنود والمخبرون إلى الصالة دون أن يعثروا على شيء فأمرهم المأمور بمغادرة الشقّة، ثمّ التفت إلى الزوجين الماثلين أمامه وقال:

ـ أبلغنا عن اجتماعات مريبة تُعقد في شقّتيهما...

ـ هذا كذب يا حضرة المأمور!

ـ أرجو أن يكون الأمر كذلك، لكنّني مضطرّ الآن إلى القبض عليهما وسوف يبقيان حتّى يتمّ التحقيق معهما، ولعلّ العاقبة أن تكون سليمة!

هتفت خديجة بصوت متهدّج وشى بدموعها:

ـ أتسوقهما حقًّا إلى القسم؟، هذا... لا أتصوّر... اعفِ عنهما وحياة أولادك!

ـ ليس بوسعي ذلك، لديّ أوامر صريحة بالقبض عليهما، طاب مساؤكما!

وغادر الرجل الشقّة، وما لبثت أن غادرتها خديجة وفي أعقابها الرجل العجوز ونزلا السلّم لا يلويان على شيء، ورأتها كريمة وكانت واقفة أمام شقّتها في حال شديدة من الفزع فهتفت:

ـ أخذوه يا عمّتي، أخذوه إلى السجن...

فألقت خديجة على الشقّة نظرة متحجّرة، ونزلت مسرعة إلى الشقّة الأولى حيث وجدت سوسن على باب شقّتها كذلك تتطلّع إلى الفناء بوجه كالح، فنظرت حيث تنظر فرأت القوّة تحيط بعبد المنعم وأحمد، متّجهة بهما إلى الخارج، فلم تتمالك أن تصرخ من أعماق قلبها وهمّت بالانطلاق في أثرهما لولا أن أمسكت بها يد سوسن، فالتفتت نحوها هائجة، غير أنّ سوسن قالت لها بصوت هادئ حزين:

ـ هدّئي روعك، لم يعثروا على شيء مريب، ولن يثبت ضدّهما شيء، لا تجري وراءهم حفظًا لكرامة عبد المنعم وأحمد...

فصاحت بها:

ـ هذا الهدوء تحسدين عليه!

فقالت سوسن برقّة وصبر:

ـ سيعودان إلى بيتهما بخير، اطمئنّي...

فتساءلت بحدّة:

ـ مَن أدراك؟

ـ إنّي واثقة ممّا أقول...

فلم تكترث لقولها والتفتت نحو زوجها ثمّ ضربت كفًّا بكفّ وهي تقول:

ـ انعدم الوفاء، أقول لها إنّهما ابنا أخت فهمي فيقول لي عندي أوامر، لماذا يأخذ ربّنا الناس الطيّبين ويترك الأرذال؟!

واتّجهت سوسن نحو إبراهيم وقالت:

ـ سيفتّشون بيت الجماعة في بين القصرين! سمعت مخبرًا يقول للمأمور إنّه يعرف بيت جدّهما في بين القصرين فاقترح عليه الضابط المساعد تفتيشه تنفيذًا للأوامر على سبيل الحيطة أن يكونا قد أخفيا فيه منشورات!

فصاحت خديجة:

ـ إنّي ذاهبة إلى أمّي، لعلّ كمال يستطيع شيئًا، آه يا ربّي إنّي أحترق...

وجاءت بمعطفها وغادرت السكّريّة في خطوات متلاحقة مضطربة، كان الجوّ باردًا والظلام ما يزال كثيفًا، وكانت الديكة تصيح في تجاوب متواصل، انطلقت من الغوريّة مخترقة الصاغة إلى النحّاسين. ووجدت عند باب البيت مخبرًا، ووجدت في الفناء مخبرًا آخر، ثمّ صعدت السلّم وهي تلهث...

وكانت الأسرة قد استيقظت مضطربة على رنين الجرس، ثمّ جاءتهم أمّ حنفي وهي تقول في ذعر: «بوليس»، وهرع كمال إلى الحوش حيث التقى بالمأمور فتساءل منزعجًا:

ـ أفندم؟

فسأله المأمور:

ـ أتعرف عبد المنعم إبراهيم وأحمد إبراهيم؟
ـ أنا خالهما!
ـ صناعتك؟
ـ مدرّس بمدرسة السلحدار. . .
ـ عندنا أوامر بتفتيش البيت!
ـ ولٰكن لماذا؟ أيّ تهمة توجّهها إليّ؟
ـ إنّنا نفتّش عن منشورات تخصّ الشابّين لعلّهما أخفياها هنا!
ـ أؤكّد لحضرتك أنّه ليس في بيتنا منشورات، تفضّل فتّش كما تشاء. . .
ولاحظ كمال أنّه أمر القوّة باحتلال السلّم والسطح وأنّه مضى معه بمفرده، وما كان تفتيشًا يقلب البيت رأسًا على عقب ولٰكنّ المأمور اكتفى بتفقّد الحجرات وإلقاء نظرة سطحيّة على المكتب وخزانات الكتب فاستردّ أنفاسه، واستطاع أن يسأله وقد أنس إليه:
ـ فتّشتم بيتهما؟
ـ طبعًا. . .
ثمّ بعد لحظة قصيرة:
ـ إنّهما الآن في سجن القسم!
فسأله كمال في انزعاج:
ـ هل ثبت عليهما شيء؟
فأجاب الرجل برقّة غير معهودة في أمثاله:
ـ أرجو ألّا يصل الأمر إلى هٰذا الحدّ، غير أنّ التحقيق متروك للنيابة.
ـ أشكر لك جميل عواطفك!
فقال المأمور بهدوء وهو يبتسم:
ـ ولا تنس أنّني لم أبهدل البيت!
ـ نعم يا سيّدي، إنّي لا أدري كيف أشكرك!
وإذا به يلتفت نحوه متسائلًا:
ـ حضرتك أخو المرحوم فهمي؟
فاتّسعت عينا كمال دهشة وقال:
ـ نعم، أكنت تعرفه؟
ـ كنّا أصدقاء رحمه الله. . .
فقال كمال برجاء:
ـ مصادفة سعيدة. . . (وهو يمدّ له يده). . . كمال أحمد عبد الجواد. . .
فصافحه الرجل قائلًا:
ـ حسن إبراهيم مأمور قسم الجماليّة! بدأت فيه ملازمًا وعدت إليه في آخر المطاف مأمورًا. . .
ثمّ وهو يهزّ رأسه:
ـ كانت الأوامر صريحة، أرجو ألا يثبت عليهما ما يدينهما.
وهنا ترامى إليهما صوت خديجة وهي تحدّث أمّها وعائشة بما كان وتبكي فقال:
ـ هٰذه أمّهما، عرفتني بذاكرتها العجيبة ثمّ ذكّرتني بالمرحوم ولٰكن بعد أن كان التفتيش الدقيق قد وقع، طمئنها ما أمكنك.
ثمّ نزلا معًا جنبًا إلى جنب، وعند مرورهما بالدور الثاني مرقت عائشة من الباب في حدّة بادية وحدجت المأمور بنظرة قاسية وصاحت به:
ـ لماذا تقبضون على أولاد الناس بلا سبب؟ ألا تسمع بكاء أمّهما؟ فانحرف بصر المأمور إليها كردّ فعل للمفاجأة ثمّ غضّ بصره تأدّبًا وهو يقول:
ـ سيطلق سراحهما عمّا قريب إن شاء الله. . .
ثمّ سأل كمال بعد أن ابتعدا عن مدخل الدور الثاني:
ـ والدتك؟
ـ بل شقيقتي! لم تجاوز الرابعة والأربعين ولٰكنّها عانت من سوء الحظّ ما حطّمها. . .
والتفت المأمور إليه كالداهش، وخيّل إليه بأنّه همّ أن يطرح سؤالًا، ولٰكنّه تردّد لحظة ثمّ عدل عمّا كان همّ به، وتصافحا في الفناء، وقبل أن يمضي الرجل إلى سبيله سأله كمال:
ـ أمن المستطاع أن أزورهما في السجن؟
ـ نعم. . .
ـ شكرًا. . .
وعاد كمال إلى الصالة فانضمّ إلى أمّه وشقيقتيه وهو يقول:
ـ سأزورهما غدًا، لا داعي للخوف، وسوف يطلق سراحهما عقب التحقيق معهما. . .
وكانت خديجة لا تمسك عن البكاء فصاحت عائشة في نرفزة:

ـ لا تبك، كفانا بكاء، سيعودان إليك ألا تسمعين؟

فولولت خديجة قائلة:

ـ لا أدري... لا أدري. في السجن يا ولداه!

وكانت أمينة صامتة كأنّ الحزن أخرسها، فقال كمال في لهجة توحي بالطمأنينة:

ـ المأمور يعرفنا، كان صديق المرحوم فهمي، وقد تلطّف بنا في التفتيش لدرجة لا تصدّق، ولا شكّ أنّه سيرعاهما بعطفه!

فرفعت الأمّ رأسها كالمتسائلة فقالت خديجة في حنق:

ـ حسن إبراهيم، ألا تذكرينه يا أمّي؟ وقد أخبرته بأنّي أخت فهمي فما كان منه إلّا أن قال: إنّنا ننفّذ الأوامر يا هانم! أوامر في عينه...!

واتّجهت عينا الأمّ نحو عائشة ولكنّها لم يبد عليها أنّها ذكرت شيئًا...

ثمّ انتحت أمينة بكمال جانبًا وراحت تقول له في قلق بالغ:

ـ لم أفهم شيئًا يا بني، لماذا قبض عليهما؟

فتفكّر كمال فيما ينبغي قوله، ثمّ قال:

ـ الحكومة تظنّ خطأ أنّهما يعملان ضدّها!

فهزّت رأسها في حيرة وقالت:

ـ أختك تقول إنّهم قد قبضوا على عبد المنعم لأنّه من الإخوان المسلمين، لماذا يقبضون على المسلمين؟

ـ الحكومة تظنّهم يعملون ضدّها...

ـ وأحمد؟! قالت إنّه... نسيت الكلمة يا بنيّ!؟

ـ شيوعيّ؟. الشيوعيّون كالإخوان في ظنّ الحكومة!

ـ الشيوعيّون؟! أشياع سيّدنا عليّ؟

فداري كمال ابتسامة وقال:

ـ الشيوعيّون لا الشيعة، هم حزب ضدّ الحكومة والإنجليز!...

فتنهّدت المرأة في حيرة وقالت:

ـ متى يفرج عنهما؟ انظر إلى أختك المسكينة! الحكومة والإنجليز ألم يجدوا إلّا بيتنا المصاب؟!

٥٣

كان أذان الفجر يسري في الصمت الشامل حين استدعى مأمور قسم الجمالية عبد المنعم وأحمد إلى حجرته، ومثلا أمام مكتبه يسوقهما جنديّ مسلّح، فأمره المأمور بالانصراف، ومضى يتفحّصهما باهتمام، ثمّ نظر إلى عبد المنعم وسأله:

ـ اسمك وسنّك وصناعتك؟

فأجاب عبد المنعم بهدوء وثبات:

ـ عبد المنعم إبراهيم شوكت، خمسة وعشرون عامًا، محقّق بإدارة التحقيقات بوزارة المعارف.

ـ كيف تخرق قوانين الدولة وأنت من رجال القانون؟!

ـ لم أخرق قانونًا، ونحن نعمل جهارًا فنكتب في الصحف ونخطب في المساجد، إنّ الذين يدعون إلى الله لا يجدون ما يخفونه.

ـ ألم تحدث في بيتك اجتماعات مريبة؟

ـ كلّا، كانت اجتماعات عاديّة ممّا تجمع بين الأصدقاء لتبادل الرأي والمشورة والتفقّه في الدين...

ـ وهل يدخل ضمن هذه الأغراض التحريض على معاداة دول حليفة؟

ـ أتعني بريطانيا يا سيّدي؟ إنّها عدوّ غادر، الدولة التي تدوس كرامتنا بالدبّابات لا يمكن أن تكون دولة حليفة...

ـ إنّك رجل مثقّف، وكان ينبغي أن تدرك أنّ للحرب ظروفًا تبيح المحظورات!

ـ إنّي أدرك أنّ بريطانيا هي عدوّنا الأوّل في هذا الوجود!

والتفت المأمور إلى أحمد متسائلًا:

ـ وأنت؟

فأجاب أحمد وعلى شفتيه شبه ابتسامة:

ـ أحمد إبراهيم شوكت، أربعة وعشرون عامًا، محرّر بمجلّة الإنسان الجديد...

ـ هنالك تقارير خطيرة عن مقالاتك المتطرّفة، فضلًا عن أنّه من المسلّم به أنّ مجلّتك سيّئة السمعة...

ـ مقالاتي لا تعدو الدفاع عن مبادئ العدالة الاجتماعيّة. . .

ـ شيوعيّ حضرتك؟

ـ إنّي اشتراكيّ، وكثير من النوّاب يدعون إلى الاشتراكيّة، والقانون نفسه لا يؤاخذ الشيوعيّ على رأيه ما دام لا يلجأ إلى أساليب العنف. . .

ـ أكان ينبغي أن ننتظر حتّى تتمخّض الاجتماعات التي تعقد كلّ مساء في شقّتك عن العنف؟

وتساءل في نفسه ترى هل وقفوا على سرّ المنشورات والمحاضرات الليليّة؟! وأجاب:

ـ إنّي لا أجتمع في بيتي إلّا بالأصدقاء المقرّبين، ولم يزد عدد زوّاري يومًا عن أربعة أو خمسة، وكان تفكيرنا أبعد ما يكون عن العنف. . .

وردّد المأمور نظره بينهما ثمّ قال بعد تردّد:

ـ إنّكما مثقّفان و. . . مهذّبان، ومتزوّجان أليس كذلك؟ حسن، أليس من الأفضل لكما أن تهتمّا بشئونكما الخاصّة وأن تجنّبا نفسيكما الهلاك؟. . .

فقال عبدُ المنعم بصوته القويّ:

ـ إنّي أشكر لك نصيحتك التي لن أعمل بها. . .

فندّت عن المأمور ضحكة مقتضبة كأنّما على رغمه، ثمّ قال:

ـ علمت في أثناء التفتيش أنّكما حفيدا المرحوم أحمد عبد الجواد، وقد كان خالكما المرحوم فهمي صديقًا حميمًا لي، وأظنّكما تعلمان أنّه فقد حياته في ربيع العمر على حين أنّ زملاءه ظلّوا على قيد الحياة حتّى تبوّأوا أكبر المناصب. . .

فقال أحمد وقد أدرك السرّ في لطف المأمور الذي حيّره:

ـ دعني أسألك يا سيّدي عمّا كانت تكون عليه مصر لولا تضحية خالي وأمثاله؟!

فهزّ الرجل رأسه وقال:

ـ فكّرا في نصيحتي بعقل ورويّة ودعكما من هٰذه الفلسفة المهلكة!

ثمّ وهو يقف:

ـ ستبقيان ضيفين في سجننا حتّى تُدْعَوا إلى التحقيق، أرجو لكما حظًّا سعيدًا. . .

وغادرا الحجرة حيث تسلّمهما أونباشي وجنديّان مسلّحان، ومضوا جميعًا إلى الدور الأرضيّ، ثمّ عرّجوا إلى بهو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلًا حتّى استقبلهم السجّان بكشّافه الكهربائيّ كأنّما ليدلّهم على باب السجن، وفتح الرجل الباب وأدخلهما، ثمّ صوّب ضوءه إلى الداخل ليهتديا به إلى بُرشيهما، وأضاء الكشّاف المكان فبدا متوسّط المساحة عالي السقف، ذا نافذة صغيرة في أعلى جداره تعترضها القضبان الحديديّة. وكان عامرًا بالضيوف، فيهم شابّان على هيئة الطلبة، وثلاثة رجال حفاة مجفوي المنظر شائهي الخلقة. وما لبث أن أغلق الباب وساد الظلام، غير أنّ الضوء وحركة القادمين كانت قد أيقظت النائمين، وقال أحمد لأخيه همسًا:

ـ لن أجلس وإلّا قتلتني الرطوبة، فلننتظر الصبح واقفين!

ـ سنضطرّ إلى الجلوس عاجلًا أو آجلًا، أعلمت متى نبرح هٰذا السجن؟

وإذا بصوت ـ أدركا بالبداهة أنّه لأحد الشابّين ـ يقول:

ـ لا بدّ من الجلوس، ليس هو بالشيء السارّ ولٰكنّه أخفّ من الوقوف أيّامًا. . .

ـ هل مكثتما طويلًا؟

ـ منذ ثلاثة أيّام!

وساد الصمت حتّى عاد الصوت يسأل:

ـ لماذا قبض عليكما؟

فأجاب عبد المنعم باقتضاب قائلًا:

ـ أسباب سياسيّة فيما يبدو. . .

فقال الصوت ضاحكًا:

ـ صارت الأغلبيّة أخيرًا للسياسيّين في هٰذا السجن، كنّا قبل تشريفكما أقلّيّة. . .

فسأله أحمد:

ـ وما تهمتكما؟

ـ تكلّما أنتما أوّلًا، فأنتما أحدث مقامًا! وإن يكن لا داعي للسؤال بعد أن رأينا لحية أحدكما الإخوانيّة؟!

فسأله أحمد وهو يبتسم في الظلام:

ـ وأنتما؟

- كلانا طالب في الحقوق متّهم بتوزيع منشورات هدّامة كما يقولون...

فثار أحمد وسأله:

- أضبطتما متلبّسين!.

- نعم...

- وماذا كان في المنشورات؟

- بيان بتوزيع الثروة الزراعيّة في مصر...

- هٰذا ممّا تنشره الصحف في ظلّ الأحكام العرفيّة نفسها!

- يضاف إليه شويّة توجيهات حماسيّة!

فابتسم أحمد مرّة أخرى في الظلام وقد تخفّف من وحشته لأوّل مرّة، وعاد صاحب الصوت يقول:

- إنّنا لا نخاف القانون بقدر ما نخاف الاعتقال...

- إنّ الأمور تبشّر بتغيّر شامل...

- لكنّنا سنظلّ الهدف في جميع العهود...

وإذا بصوت غليظ يعلو في خشونة قائلًا:

- كفاكما كلامًا ودعونا ننام...

ولٰكنّ صوته أيقظ زميلًا من زميليه فتثاءب متسائلًا:

- طلع الصبح؟

فأجابه الأوّل هازئًا:

- كلّا، ولٰكنّ أصحابنا يحسبون أنفسهم في غرزة...

تنهّد عبد المنعم وهمس بصوت لم يسمعه إلّا أحمد:

- أيزجّ بي إلى هٰذا المكان لا لسبب إلّا أنّني أعبد الله؟!

فهمس أحمد في أذنه باسمًا:

- وما ذنبي أنا الذي لا أعبده؟!

لم يشأ أحد بعد ذٰلك أن يرفع صوته، وراح أحمد يسأل نفسه عمّا دعا إلى القبض على الآخرين، سرقة أم مشاجرة أم سكر وعربدة؟ طالما كتب عن الشعب وهو مدثّر بمعطف في حجرة مكتبه الجميلة، ها هو الشعب يلعن أو يغطّ في نومه، وهٰذه الوجوه الكالحة البائسة التي رآها على ضوء الكشّافات لحظات، وذٰلك الرجل الذي كان يحكّ رأسه وما تحت إبطيه فلعلّ قمله يزحف نحوهما دائبًا، هٰذا هو الشعب الذي تعيش من أجله فكيف تجزع عن فكرة ملامسته؟! هٰذا الرجل المناط به خلاص الإنسانيّة ينبغي أن يمسك عن شخيره وأن يعي موقفه التاريخيّ حتّى ينهض لإنقاذ العالم جميعًا!. وقال لنفسه: «إنّ موقفًا إنسانيًّا واحدًا هو الذي جمعنا على اختلاف مشاربنا في هٰذا المكان المظلم الرطب. الأخ والشيوعيّ والسكّير والسارق على السواء، كلّنا واحد على تفاوت في قوّة المناعة أو الحظّ». وحدّث نفسه مرّة أخرى فقال: لماذا لا تعنى بشئونك الخاصّة، هٰكذا يقول المأمور، ولي زوجة محبوبة ورزق موفور، والحقّ أنّ الإنسان قد يسعد بما هو زوج أو موظّف أو أب أو ابن ولٰكنّه مقضيّ عليه بالمتاعب أو بالموت نفسه بما هو إنسان. وسواء أقضي عليه بالسجن هٰذه المرّة أم أطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهّم هو ما يتراءى لعينيه في أفق حياته، وعاد يتساءل: ماذا يدفعني في هٰذا السبيل الخطير الباهر؟. ألا إنّه الإنسان الكامن في أعماقي، الإنسان الواعي للذاته المدرك لموقفه الإنسانيّ التاريخيّ العامّ، وإنّ ميزة الإنسان على سائر المخلوقات هي أنّه يستطيع أن يقضي على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه...

وشعر بالرطوبة تسري في ساقيه والإعياء يتخلّل مفاصله، وكان الشخير يتردّد في الأركان بإيقاع موصول، ثمّ لاحت خلال قضبان النافذة الصغيرة طلائع من النور وانية رقيقة...

٥٤

غادر الطبيب الحجرة وكمال يتبعه واجمًا، ثمّ لحق به في الصالة وحدجه بعينين متسائلتين، قال الطبيب بهدوء:

- يؤسفني أن أخبرك بأنّها حالة شلل كلّيّ...

فانقبض صدر كمال انقباضًا شديدًا وسأله:

- حالة خطرة؟

- طبعًا! وقد أصيبت في الوقت نفسه بالتهاب رئويّ، ولذٰلك فالحقن ضروريّة لإراحتها.

- أليس هناك أمل في الشفاء؟

فصمت الطبيب قليلًا ثمّ قال:

ـ الأعمار بيد الله، أمّا الطبيب فيقرّر في حدوده أنّ هٰذه الحال لا يمكن أن تستمرّ أكثر من ثلاثة أيّام...

وتلقّى كمال نذير الموت بتجلّد، وأوصل الطبيب إلى الباب الخارجيّ ثمّ عاد إلى الحجرة. وكانت الأمّ نائمة، أو كالنائمة، لا يبدو من الغطاء الكثيف إلّا وجهها الشاحب وفوها المطبق في شيء من الاعوجاج، وكانت عائشة واقفة حيال السرير فأقبلت نحوه متسائلة:

ـ ما لها يا أخي؟ ماذا قال الطبيب؟

وقالت أمّ حنفي من موقفها عند مقدّم الفراش:

ـ إنّها لا تتكلّم يا سيّدي، لم تتكلّم كلمة واحدة.

وقال لنفسه: ولن يُسمع لها صوت بعد الآن، ثمّ قال مجيبًا أخته:

ـ حالة ضغط مصحوبة بإصابة برد خفيفة، سوف تريحها الحقن!

فقالت عائشة، ولعلّها كانت تخاطب نفسها:

ـ إنّي خائفة، وإذا كانت سترقد هٰكذا طويلًا فكيف تُحتمل الحياة في هٰذا البيت؟

فتحوّل عنها إلى أمّ حنفي وسألها:

ـ هل أخبرت الجماعة؟

ـ نعم يا سيّدي، وستحضر ستّ خديجة وسي ياسين في الحال، ما لها يا سيّدي؟ كانت في الصباح في تمام الصحّة والعافية...

كانت!... وهو يشهد بذلك! وقد مرّ بالصالة كعادته كلّ صباح قبل انطلاقه إلى مدرسة السلحدار، فتناول فنجان القهوة الذي قدّمته له وهو يقول:

ـ لا تغادري البيت اليوم فالجوّ بارد جدًّا...

فابتسمت ابتسامتها الرقيقة وقالت:

ـ وكيف يطيب لي اليوم دون زيارة سيّدك؟

فقال محتجًّا:

ـ افعلي ما يحلو لك، إنّك عنيدة يا أمّاه!

فتمتمت:

ـ ربّك الحافظ...

ثمّ وهو يغادر المكان:

ـ ربّنا يسعد أيّامك...

وكان هٰذا آخر عهده بيقظتها، وقد جاءه نبأ مرضها ظهرًا في المدرسة فعاد مصطحبًا الطبيب الذي نعاها إليه سلفًا منذ دقائق. أجل لم يبق إلّا ثلاثة أيّام! ترى كم يومًا تبقّى له هو؟ واقترب من عائشة وسألها:

ـ متى وكيف وقع لها ما وقع؟

فأجابت عنها أمّ حنفي قائلة:

ـ كنّا جالستين في الصالة، ثمّ قامت متّجهة نحو حجرتها لترتدي معطفها وتخرج وهي تقول لي «عندما أفرغ من زيارة الحسين سأزور خديجة»، وذهبت إلى الحجرة، وبعد دخولها مباشرة ترامى إلى أذنيّ صوت وقوع شيء فهرعت إلى الداخل فوجدتها ملقاة على الأرض بين السرير والدولاب، فجريت نحوها وأنا أنادي ستّ عائشة...

وقالت عائشة:

ـ جئت مسرعة فوجدتها في هٰذا المكان، فحملناها إلى السرير، وجعلت أسألها عمّا بها ولٰكنّها لم تجبني، ولم تتكلّم، متى تتكلّم يا أخي؟

فأجاب في ضيق:

ـ عندما يشاء الله!...

وتراجع إلى الكنبة ثمّ جلس، ومضى ينظر في حزن إلى الوجه الشاحب الصامت، أجل لينظر إليه طويلًا فعمّا قريب لن يكون له إلى رؤيته سبيل. هٰذه الحجرة نفسها ستتغيّر معالمها وستتغيّر بالتالي معالم البيت في مجموعه، ولن ينادي به أحد «أمّي»، لم يكن يتصوّر أنّ موتها سيحمّل قلبه هٰذا الألم كلّه، ألم يألف الموت بعد؟... بلى، ولديه من العمر والتجربة ما يقيه الجزع، ولٰكنّ لذعة الفراق الأبديّ موجعة، ولعلّه ممّا يلام عليه قلبه أنّه رغم ما كابد من ألم يتألّم كالقلب الغضّ. وكم أحبّته، وكم أحبّت الجميع، وكم أحبّت كلّ شيء في الوجود، ولٰكنّ هٰذه السجايا الطيّبة لا تعيها النفس إلّا عند الفراق، ففي هٰذه اللحظة الخطيرة تزدحم ذاكرتك بصور أماكن وأزمنة وحوادث يهتزّ لها من أعماقه، وها هي يخالط نورها الظلام، وتمتزج فيها زرقة الفجر بحديقة السطح، ومجمرة مجلس القهوة بالأساطير، وهديل الحمام بأغنيات حلوة، وكان حبًّا رائعًا أيّها القلب الجاحد، ولعلّك تقول غدًا

بحقّ إنّ الموت استأثر بأحبّ الناس إليك، ولعلّ عينيك أن تدمعا حتّى يزجرك المشيب. والنظر إلى الحياة كمأساة لا يخلو من رومانتيكيّة طفليّة والأجدر بك أن تنظر إليها في شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة هي الموت. ثمّ سائِلْ نفسك إلام تضيع حياتك هباء؟ إنّ الأمّ تموت وقد صنعت بناء كاملًا فماذا صنعت أنت؟

* * *

واستيقظ على صوت أقدام، وإذا بخديجة تدخل الحجرة مرتاعة وتتّجه نحو الفراش وهي تنادي أمّها وتسألهم عمّا حلّ بها. وتضاعف ألمه حتّى خاف أن يخونه تجلّده فغادر الحجرة إلى الصالة، وما لبث أن جاء ياسين وزنّوبة ورضوان، فصافحوه، وأخبرهم عن مرضها دون التفاصيل، فذهبوا إلى الحجرة ولبث وحيدًا حتّى عاد إليه ياسين وهو يسأله:

ـ ماذا قال لك الطبيب؟

فقال في وجوم:

ـ شلل والتهاب رئويّ، سينتهي كلّ شيء في خلال ثلاثة أيّام. . .

فعضّ ياسين على شفته وقال بحزن:

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله. . .

ثمّ جلس وهو يتمتم:

ـ مسكينة، كان كلّ شيء مفاجئًا! ألم تَشْكُ تعبًا في الأيّام الأخيرة؟

ـ كلّا، إنّها لم تَعْتَدِ الشكوى كما تعلم، ولكنّها كانت تبدو أحيانًا كالمتعَبة. . .

ـ ليتك عرضتها على الطبيب من قبل!

ـ لم يكن أبغض إلى نفسها من سيرة الطبيب!

وانضمّ إليهما رضوان بعد حين فقال لكمال:

ـ أرى أن تُنقل إلى المستشفى يا عمّي!

فقال كمال وهو يهزّ رأسه في حزن:

ـ لا داعي إلى ذلك، وسيرسل الصيدليّ ممرّضة يعرفها لتحقنها. . .

ولاذوا بالصمت والوجوم يعلو وجوههم، وعند ذاك ذكر كمال أمرًا تقتضي المجاملة ألّا يهمله فسأل ياسين:

ـ كيف حال كريمة؟. . .

ـ ستلد في بحر هٰذا الأسبوع، أو هٰذا ما تؤكّده الحكيمة. . .

فتمتم كمال:

ـ ربّما يأخذ بيدها. . .

فقال ياسين:

ـ سيخرج الوليد إلى الدنيا وأبوه في المعتقل. . .

ودقّ الجرس، فكان القادم رياض قلدس، وقد استقبله كمال ومضى به إلى حجرة مكتبه، وفي الطريق إلى الحجرة قال رياض:

ـ سألت عنك في المدرسة فأخبرني السكرتير بالخبر، كيف حالها؟

ـ أصيبت بشلل وأخبرني الطبيب بأنّها ستنتهي في ظرف ثلاثة أيّام. . .

فوجم رياض وتساءل:

ـ أليس هنالك حيلة ما؟

فهزّ كمال رأسه يائسًا، وقال:

ـ لعلّه من حسن الحظّ أنّها في غيبوبة لا تدري عمّا ينتظرها شيئًا. . .

ثمّ في لهجة ساخرة وهما يجلسان:

ـ ولٰكن هل ندري نحن عمّا ينتظرنا شيئًا؟

وابتسم رياض دون أن ينبس، فعاد الآخر يقول:

ـ كثيرون يرون أنّ من الحكمة أن نتّخذ من الموت ذريعة للتفكير في الموت، والحقّ أنّه يجب أن نتّخذ من الموت ذريعة للتفكير في الحياة. . .

فقال رياض باسمًا:

ـ هٰذا أفضل فيما أرى، كذٰلك فلنسأل أنفسنا عند الموت ـ أيّ موت ـ ماذا صنعنا بحياتنا؟

ـ أمّا أنا فلم أصنع بحياتي شيئًا، هٰذا ما كنت أفكّر فيه. . .

ـ بيد أنّك ما زلت في منتصف الطريق!. . .

ربّما نعم، وربّما لا، غير أنّه من المستحسن دائمًا أن يتأمّل الإنسان ما يراود نفسه من أحلام، على ذٰلك فالتصوّف هروب، كما إنّ الإيمان السلبيّ بالعِلْم هروب، وإذن فلا بدّ من عمل، ولا بدّ للعمل من إيمان، والمسألة هي كيف نخلق لأنفسنا إيمانًا جديرًا بالحياة. قال:

ـ حسبتني قد أدّيت للحياة واجبها بالإخلاص لمهنتي كمعلّم وبكتابة المقالات الفلسفيّة. . .

قال رياض بعطف:

ـ وقد أدّيت واجبًا بلا شكّ!

ـ ولكنّني عشت معذّب الضمير كما ينبغي لكلّ خائن!

ـ خائن؟!

فتنهّد كمال وقال:

ـ دعني أخبرك بما قال لي أحمد ابن أختي عندما زرته في سجن القسم قبل نقله إلى المعتقل. . .

ـ على فكرة، أما من جديد عنهما؟

ـ لقد رحلا مع كثيرين إلى معتقل الطور. . .

فتساءل رياض باسمًا:

ـ الذي يعبد الله والذي لا يعبده؟

ـ يجب أن تعبد الحكومة أوّلًا كي تعيش مطمئنًا. . .

ـ على أيّ حال الاعتقال أخفّ في نظري من المحاكمة!

ـ هٰذا رأي، ولكن متى تنكشف هٰذه الغمّة؟ متى تُرفع الأحكام العرفيّة؟ متى يعود السلطان إلى القانون الطبيعيّ والدستور؟ متى يعامَل المصريّون كالآدميّين؟!

فجعل رياض يعبث بخاتم الزواج في يسراه، ثمّ قال بحزن:

ـ نعم متى؟ ما علينا، ماذا قال أحمد في سجن القسم؟

ـ نعم، قال لي إنّ الحياة عمل وزواج وواجب إنسانيّ عامّ، وليست هٰذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته أو زوجه أمّا الواجب الإنسانيّ العامّ فهو الثورة الأبديّة، وما ذٰلك إلّا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثّلة في تطوّرها نحو المثل الأعلى. . .

فتفكّر رياض قليلًا ثمّ قال:

ـ رأي جميل، ولكنّه يتّسع لكافّة المتناقضات. . .

ـ نعم، ولذٰلك وافقه عليه أخوه ونقيضه عبد المنعم، ولذٰلك فهمته على أنّه دعوة إلى الإيمان أيًّا كان مشربه وأيًّا كانت غايته، ولذٰلك فإنّي أعلّل تعاستي بعذاب الضمير الخليق بكلّ خائن، قد يبدو يسيرًا أن تعيش في قمقم أنانيّتك ولكن من العسير أن تسعد بذٰلك إذا كنت إنسانًا حقًّا. . .

فاشرق وجه رياض على رغم كآبة المناسبة وقال:

ـ هٰذا بشير بانقلاب خطير يوشك أن يقع!

فقال كمال في حذر:

ـ لا تسخر منّي، إنّ مشكلة الإيمان ما زالت قائمة بدون حلّ، وغاية ما أستطيع أن أعزّي به نفسي هو أنّ المعركة لم تنته، ولن تنتهي ولو لم يبق من عمري إلّا ثلاثة أيّام كأمّي. . .

ثمّ وهو يتنهّد:

ـ أتعلم ماذا قال أيضًا؟ قال: إنّي أومن بالحياة وبالناس، وأرى نفسي ملزمًا باتّباع مُثُلهم العليا ما دمت أعتقد أنّها الحقّ إذ النكوص عن ذٰلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزمًا بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنّها باطل إذ النكوص عن ذٰلك خيانة، وهٰذا هو معنى الثورة الأبديّة!

وجعل رياض ينصت وهو يهزّ رأسه موافقًا، ثمّ بدا على كمال الإعياء والضيق فقال رياض:

ـ أنا مضطرّ إلى الذهاب فما رأيك في أن تصحبني إلى محطّة الترام لعلّ المشي يريح أعصابك!

ونهضا معًا وغادرا الحجرة، وقابلا ياسين عند مدخل الدور الأوّل ـ وكان على معرفة سطحيّة برياض ـ فدعاه كمال إلى مصاحبته. غير أنّه استأذن منهما دقائق ريثما يلقي نظرة على أمّه، ومضى إلى حجرتها فوجدها كما تركها في غيبوبة. وكانت خديجة جالسة في الفراش عند قدميها وقد احمرّت عيناها من البكاء، وعلت وجهها الكآبة التي لم تفارقه منذ امتدّت يد الحكومة إلى ابنيها، أمّا زنّوبة وعائشة وأمّ حنفي فقد جلسن على الكنبة صامتات، وكانت عائشة تدخّن سيجارة في سرعة وقلق، على حين راحت عيناها تجولان في المكان في اضطراب عصبيّ، وسألهنّ:

ـ كيف حالها؟

فأجابت عائشة بصوت مرتفع ينمّ عن الضيق والاحتجاج:

ـ لا تريد أن تصحو!

وحانت منه التفاتة إلى خديجة فتبادلا نظرة طويلة دلّت على تفاهم حزين ويأس مشترك فلم يتمالك إلّا أن يغادر الحجرة ويلحق بصاحبيه...

وساروا في الطريق متمهّلين، فقطعوا الصاغة إلى الغوريّة في شبه صمت، وعندما بلغوا الصنادقيّة صادفوا الشيخ متولّي عبد الصمد ينحدر منها إلى الغوريّة متوكّئًا على عصاه، في خطوات مخلخلة، وقد كفّ بصره وارتعشت أطرافه، وكان يتلفّت فيما حوله متسائلًا في صوت مرتفع:

- من أين طريق الجنّة؟

فأجابه مارّ وهو يضحك:

- أوّل عطفة على يمينك...

وقال ياسين لرياض قلدس:

- أتصدّق أنّ هٰذا الرجل قد جاوز المئة بما يقرب من عشرة أعوام؟...

فقال رياض باسمًا:

- إنّه لم يعد رجلًا على أيّ حال...

وكان كمال ينظر نحو الشيخ متولّي بعطف، كان يذكر به أباه، وكان يعدّه معلمًا من معالم الحيّ كالسبيل القديم وجامع قلاوون وقبو قرمز، ووجد كثيرين وهم يعطفون عليه، غير أنّ العجوز لم يسلم من شقاوة بعض الغلمان الذين راحوا يصفّرون في وجهه أو يتبعونه محاكين حركاته.

وأوصلا رياض حتّى محطّة الترام، وانتظرا معه حتّى ركب، ثمّ عادا معًا إلى الغوريّة، وتوقّف كمال عن السير فجأة وقال لأخيه:

- آن لك أن تذهب إلى القهوة...

فقال ياسين بحدّة:

- كلّا، سأبقى معك...

وكان كمال من أعرف الناس بمزاج أخيه، فقال:

- لا داعي إلى ذٰلك البتّة...

فدفعه ياسين أمامه وهو يقول:

- إنّها أمّي كما إنّها أمّك!

وداخل كمال بغتة شعور بالخوف على ياسين! حقًّا إنّه يسير مكتظًّا بالحياة في ضخامة الجمل ولٰكن الامَ يحتمل حياته المفعمة بالأهواء؟ وطفح فؤاده بالكآبة، غير أنّ فكره طار فجأة إلى الطور، إلى المعتقل. إنّي أومن بالحياة وبالناس، هٰكذا قال، وأرى نفسي ملزمًا باتّباع مُثُلهم العليا ما دمت أعتقد أنّها الحقّ إذ النكوص عن ذٰلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزمًا بالثورة على مُثُلهم ما اعتقدت أنّها باطل إذ النكوص عن ذٰلك خيانة! وقد تسأل ما الحقّ وما الباطل، ولٰكن لعلّ الشكّ نوع من الهروب كالتصوّف والإيمان السلبيّ بالعِلْم. فهل تستطيع أن تكون مدرّسًا مثاليًّا وزوجًا مثاليًّا وثائرًا أبديًّا؟!

وعندما مرّا بدكّان الشرقاوي توقّف ياسين وهو يقول:

- كلّفتني كريمة بأن أستبضع لها بعض اللوازم للمولود المنتظر... عن إذنك...

ودخلا الدكّان الصغير، وراح ياسين ينتقي ما يريد من لوازم المولود المنتظر: قماطًا وطاقيّة ومنامة، وعند ذٰلك تذكّر كمال أنّ رباط عنقه الأسود الذي استعمله عامًا حدادًا على والده قد استُهلك، وأنّه يلزمه آخر جديد ليواجه به اليوم الحزين، فقال للرجل حين فرغ من ياسين:

- رباط عنق أسود من فضلك...

وتناول كلٌّ لفافته، وغادرا الدكّان.

وكان المغيب يقطر سمرة هادئة فمضيا جنبًا إلى جنب نحو البيت...


Bibliotheca Alexandrina
0218020





